

جيل دلوز
فليكس غواتاري
مكتبة

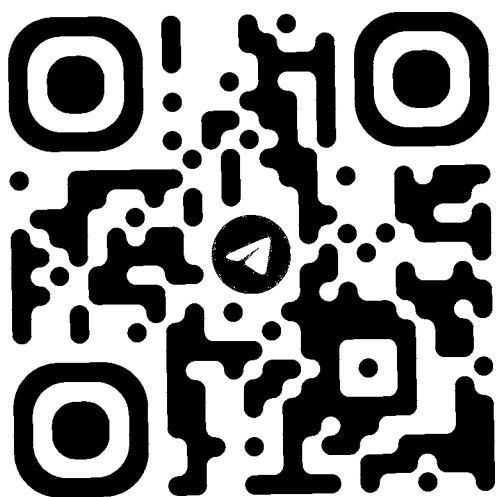
الرأسمالية والفُصام 2 ألف سَطِيحة

ترجمة وتقديم

عبد العزيز العيادي



منشورات الجمل



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الرأسمالية والفُصام 2

ألف سَطِيحة

مكتبة
t.me/soramnqraa

جيل دلوز وفليكس غواتاري: ألف سطّيحة، الطبعة الأولى
ترجمة وتقديم: عبد العزيز العيادي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، الشارقة - بغداد ٢٠٢٣
ص.ب: ٧٣١١١ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

Gilles Deleuze, Félix Guattary: *Capitalisme et schizophrénie 2: Mille plateaux*
© Les Éditions de Minuit, 1980

© Al-Kamel Verlag 2023
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

جيل دلوز
فليكس غواتاري

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرأسمالية والفُصام 2
ألف سطّيحة

ترجمة وتقديم
عبد العزيز العيادي

منشورات الجمل

صادفنا أن قدّمنا لكتابات دلوز في تصدير ترجمتنا لكتاب الفرق والمعاودة (طوى، ٢٠١٥) وكتابات دلوز وغواتاري في تصدير ترجمتنا للجزء الأوّل من الرأسماليّة والفُصام. أوديب- مضادًا (دار الجمل، ٢٠٢١). لذلك سنقتصر في هذا التّصدير على ثلاث ملاحظات موجزة: تتعلّق أولاهما بالمفهوم الذي اتخذهُ المفكّران عنواناً لنصّهما، وما يستتبعه هذا المفهوم من شبكة مفهوميّة مصاحبة. تتعلّق الملاحظة الثّانية بأسلوب الكتاب، نعني ببنائه وبالحرّكات الدّاخلية التي تحرّكه وبمنهجه إن كان له منهج. أمّا الملاحظة الثّالثة فتتعلّق بالإشارة إلى بعض مضامين الكتاب وليس كلّها وإلاّ استحال الأمر إلى تلخيص نحن في غنى عنه، إذ مقصودنا بيان التنوّع والثّراء وكثرة المسالك وتعدّد المصادر وكيفيّة استثمارها فلسفيّاً، وليس تعداد الأغراض والموضوعات أو عرض محتويات الكتاب بشكل تسلسليّ تأباه طبيعة الكتاب ذاتها.

ترجمنا عنوان الكتاب ألف سَطِيحة. فلم السّطِيحة وما دلالتها؟ كنّا إزاء الكثير من الاختيارات لترجمة كلمة (Plateau)، منها نجد، صفيحة، هضبة، سَهْب، مَفازة، صعيد، تلّ، منبسط... لكنّنا خيّرنا لفظ السّطِيحة لأنّه الأكثر تلاؤماً في تقديرنا مع تعبيرات الكتاب ومع شبكة المفاهيم التي يعبّر عنها وينخرط فيها في ذات الآن، مثل المسطّح والتّنّضيد والتّراصّف والأملس والمخدّد والعرضانيّ والأفقيّ

والجذموريّ والهبائيّ والمحايث والتّحارضيّ والتّرحل ومكنة الحرب واللا تارُضن والخارطة وخطوط الإفلات والهديّة وغيرها من المفاهيم الكثير. فما السّطيحة؟ في معاجم اللّغة العربيّة، السّطيحة من سَطَح ساطح ومسطوح وسطيح، وسَطَح الشّيء بسطه وسوّاه ومدّه وطرحه، وسَطَح البيت سوّى سَطَحه، والسّطح في الهندسة ما له طول وعَرْض وجمعه سطوح وأسطح وهو ظاهر الشّيء، وسَطَح كلّ شيء أعلاه، وهو ما يُبنى حوله، وهو ما يفصل - يصل بين شيئين، وبذا تكون السّطيحة في الأصل مَزَادَةٌ تكون من جِلدين يُضَمّ بعضهما إلى بعض وعاءٌ للماء أو للزّاد. ومن الجذر كذلك المسطّح وهو المنبسط، سواء كان مسطّحا مائيّا، جغرافيّا أو حتى ذا استعمال نسخيّ أو طبّيّ مثل الماسح المسطّح (Flatbed scanner). وعليه فإنّ السّطيحة حتى من النّاحية الجيولوجيّة هي تضريس منبسط أو هي مائدة مثل مائدة يوغرطة في قلعة سنان من ولاية الكاف بالبلاد التّونسيّة. بهذا المعنى، السّطيحة هي هذا المنبسط الذي يكتفي بطيّاته وتعرّجاته وأفقيّته المضادّة للعموديّ أو للمتعالّي أيّا كانت صيغته. السّطيحة جذموريّة، و«الجذمور جنياولوجيا مضادّة... الجذمور مكوّن من سَطِيحات. يستعمل غريغوري باتسون كلمة «سَطِيحة» للإشارة إلى شيء ما شديد الخصوصيّة: إنه منطقة شدّد متّصلة، مرتجّة فوق ذاتها وتتطوّر متحاشية كل توجيه على نقطة الدّروة أو باتّجاه غاية خارجيّة» (الصفحة ٣٢ من الأصل الفرنسيّ، وكلّ الإحالات اللاحقة في هذا التّصدير تحيل على نفس الأصل). إذا، السّطيحة مرّكب شدّد أو اشتدادات تعمل في الكثرة المحايّثة مهما كان تباين وتنافر عناصرها ومهما كانت الفروق والانزياحات ونوعيّة التّرباطات بينها. السّطيحات لا تحدّها لا الوجّهات ولا الغايات، لا تنطلق من النقاط بل من الخطوط الكائنة «بين» التّقاط إذ هي البينيّة التي لا تحيط بها السّببيّات الخطيّة أو الاتّجاهيّة. «السّطيحات مناطق شدّة متواصلة، مكوّنة بطريقة معيّنة لا تجعلها تقبل التّوقّف بفعل نهاية

خارجية، بقدر ما لا تجعلها تذهب باتجاه ذروة... السطّيحة هي قطعة محايدة. كلّ جسد دون أعضاء مكوّن من سطّيحات. كلّ جسد دون أعضاء هو ذاته سطّيحة تتواصل مع السطّيحات الأخرى على مسطح القوام. إنّه مكوّن عبور» (صص ١٩٥ - ١٩٦). تشرحيًا، السطّيحة هي الحامل المنبسط أفقيًا أو هي القُبُرديّ الحامل للثقلّة اللاّقة أو هي الشرط المادّي لتخلّق الفسول والأبصال والجزيرات والذرّات والنجم والعساليج والخلايا والهباءات والذرّيرات، حيث المهمّ في هذه التخلّقات ليس هو تنويع أو تأويج التجانس بل ترابطات التنافر والتوزّع والتنوّع والتصرّير. ونحن لا نقول ذلك على سبيل المجاز، بل على جهة التحقّق المحايث.

السطّيحات منفصلة ومستقلّة بعضها عن بعضها الآخر باعتراف المفكرّين منذ التوطئة، والكتاب «ليس مكوّنًا من فصول بل من «سطّيحات»... يمكن أن تُقرأ هذه السطّيحات بشكل مستقلّ عن بعضها البعض، ما عدا الخاتمة التي لا يجب أن تُقرأ إلّا في النهاية» (ص ٨). ومع ذلك ثمة خيط رابط بينها هو طبيعة التّحليل ونوعية المفاهيم وطريقة الطّرح. كتاب ألف سطّيحة مكوّن من سطّيحات وليس من فصول. التّقسيم إلى فصول معناه اتباع منهج محدّد سلفا بينما المنهج لا يأتي إلّا في الأخير مثلما يقول نيتشه في الفقرة الثالثة عشرة من المسيح الدّجال: «أنفسُ الأنوار نكتشفها في النّهاية: غير أنّ أنفس الأنوار هي المناهج». إذًا، الكتابة وفق فصول هي اتباع خطّة وتخطيط، وفق خطّ سببيّ يحدّد الوجهة ويوصل إلى غاية، بينما الكتابة عند دلوّز وغواتاري هي تجريب ومحاولة ورسم خرائط وإضافات وإطراحات ليس همّها البحث عن وحدة مفترضة، بل هي سيرورات وتصرّيرات لكثرات قد تصل حدّ التنافر. وعليه، فإنّ كتابا دون منهج هو ما يتألف مع جسد دون أعضاء مشبع بالافعالات، مع تنضيات مكينة راغبيّة دون تقنين، مع مكنة حرب مترحّلة لم تستحوذ عليها أجهزة

الدولة، مع سلسلات هبائية، مع خطوط إفلات... يمكن للسطّيحيات أن تتواصل في ما بينها أفقيًا ودون مراتبية. ذلك أنه «من حيث أن كتابا يكون مكوّنًا من فصول فإنّ له نقاط ذروته، نقاط نهايته. على العكس من ذلك ما الذي يحدث بالنسبة إلى كتاب مكوّن من سطّيحيات يتواصل بعضها مع بعضها الآخر عبر شقوق صغرى، كما بالنسبة إلى دماغ؟ نسمّي «سطّيحة» كلّ كثرة قابلة للرّبط مع سطّيحيات أخرى بقضبان تحارضية سطّحية، بكيفية تُمكن من تشكيل جذمور ومدّه... لقد رأينا خطوطا وكأنها طواوير من النّمل الصغير، مغادرةً سطّيحة للوصول إلى أخرى. لقد قمنا بدوائر تقارب. يمكن أن تُقرأ أيّة سطّيحة في أيّ موضع وأن تُربط بأيّة سطّيحة أخرى» (صص ٣٢ - ٣٣). كتابة السطّيحيات هي إذاً الكتابة وفق إيقاعات المترحلّين الخارجة عن «وجهة نظر المقيمين» (ص ٣٤) الذين غالبا ما كُتب التاريخ باسمهم، إنّها صياغة ملفوظات - خطوط «حيث تتباعد الجُمْل وتشتّت، أو تتدافع وتتماعى... [إنّها] الكتابة المترحلة والجذمورية» (صص ٣٤ - ٣٥). هي كتابة هذيات في السّيميائية، في الحفر الأركيولوجي كما في تاريخ السياسة.

هو ذا كتاب ألف سطّيحة، إنّهُ مصنع للمفاهيم بل هو مكنة تفرم تاريخ الفلسفة. نقول دون مبالغة، إنّ النص الفرنسيّ الذي أقبلنا على ترجمته إلى العربيّة يحتاج إلى ترجمته إلى الفرنسيّة أولاً نظرا لصياغته غير الاعتيادية والتي تخرج عن المألوف من كُتب الفلسفة تعبيراً ومنهجاً وأسلوباً. كأنّ كتابة دلوز - غواتاري هي كتابة هلدريين، كلايست ونيثشه ضد غوته وهيغل وفاغانار، إنّها كتابة ضدّ السائد من الكتابات، سائدا لا يقدر لا على الارتحال ولا على المغامرة ولا على ارتياد أراض مجهولة ولا على تقحّم أوعر المسالك ولا على التوغّل بعيداً في تعاريق اللغة. وعليه، إذا ما واجه القارئ العربيّ صعوبة فإنّ الصعوبة ليست متأّتية من الترجمة وإنّما من طبيعة المشكلات المطروحة ومن

طبيعة اللسان الفرنسيّ المستعمل. لا نقول ذلك تفصيلاً من المسؤولية، فنحن نتحمل أعباء جهدنا كلّ تأليفاً وترجمة مثلما كان حالنا دائماً، وإنّما الذي قصدنا إليه هو التّنبية إلى عواصة هذا النصّ الذي جاهد اللسان العربيّ في قوله أيّة مجاهدة، وحتى لا يتعلّل الكثيرون بعسر العبارة، إذ التشكيك من عسر العبارة ينتمي إلى نفس الحجّة الكسولة التي تتهم الفلسفة بالغموض دون أن تدرك أنّ بعض ما يخالطها أو يُضايّفها من التباس إنّما مأناه عسر قضاياها ذاتها وليس البحث المتعمّد عن العتمة المصطنعة. لذلك ذيلنا النصّ بثبت للمصطلحات قد يساهم في تيسير الكثير من غرابة بعض المصطلحات.

ماذا في الكتاب إذاً؟ فيه كسر مستمرّ للثنائيات والذهاب إلى الكثرة والتّصير والفرق، وهو ما تعبّر عنه كلّ سطيحاته والسّطوح العاشرة تخصيصاً. فيه مواجهة للسببيّة الخطيّة وللغائيّة، فيه تأكيد السّطوح ضدّ الأوج وتأكيد المحايّة في مواجهة التّعالّي، وفي ذلك تأكيد إتيقيّ للبهجة بالدلالة السبينوزيّة، بهجة جسد دون أعضاء هو مكن الرغبة، جسداً لا يرتدّ مع ذلك إلى أعضاء دون جسد، أي إلى قطع مجرّاة تبحث عن وحدة. في الكتاب تأكيد على الجذمور وليس على الشّجرة، على الأفقيّ وليس على العموديّ، على ما تحت الأرض وليس على ما فوقها، على الكثرة والمحيط والهامش وليس على المركز. في الكتاب تأكيد على الأملس وليس على المخدّد. الأملس ليس هو المتجانس، إنّّه فضاء مفتوح، متعدّد الأبعاد. إنّّه التّنوع المستمرّ، لا تتبع فيه الخطوط النّقاط بل تكون النّقاط تابعة للمسافات، «الفضاء الأملس اتّجاهيّ وليس بُعدياً أو متريّاً. الفضاء الأملس تملؤه أحداث أو هذيات (heccéités) أكثر من امتلائه بأشياء متكوّنة ومدرّكة. إنّّه فضاء أفعالات أكثر من كونه فضاء خصائص. إنّّه إدراك لمسيّ عوضاً عن كونه فضاء بصريّاً» (ص ٥٩٨)، باختصار، «الأملس ناموس بينما للمخدّد دائماً لوغوسه» (ص ٥٩٧). في الكتاب

بحث في أشكال العنف من عنف الصّراع إلى عنف الجريمة والحرب وعنّف الدّولة، وفيه بحث في أجهزة الدّولة من الإمبراطوريّات القديمة إلى الدّولة الحديثة أو الدّولة-أمّة. في الكتاب بحث في الطبقات والتّنضيدات وفي مسطّحات القوام المواجهة لمسطّحات التّنظيم. في الكتاب بحث في الهبّاءات والهدّيّات، نعني في الهبائيّ المواجه للكتلويّ، في السّرعات والعلاقات والجغرافيا عوضا عن التّاريخ، في مكنة الحرب ضدّ جهاز الدّولة الاستحواذيّ، في نقد التّواصل وفي بيان ظهور الألسن نتيجة عدم التّفاهم وليس نتيجة التّفاهم، في دلالة الأقلّيّة وعلاقتها بالأغليّة وفي ألاّ علاقة للأقلّيّة بالعدد، في أنّه لا نهاية للتّاريخ أو لا وجود لما هو أخير، حيث يذهب دلوز وغواتاري إلى أنّه ثمّة دائما ما قبل الأخير أو السّابق للأخير (pénultième) بالنّسبة إلى الحدّ والعتبة والنّهائيّ، أي ثمّة الأخير قبل... وبالتالي هما يطالبان «بالخروج من مسطّح رأس المال، بعدم التّوقّف عن الخروج منه، تصبح كتلة ما كتلة ثوريّة باستمرار وتُحطّم التّوازن المهيمن للمجموعات القابلة للعدّ» (ص ٥٨٩).

إجمالا، الكتاب استثمر الموسيقى، الرّسم، الأدب (الأدب الأنغلو-ساكسونيّ خاصّة)، السينما، علم الثّبات، علم الحيوان، الكيمياء، الفيزياء، الرياضيّات، وحتى هندسة الجسور والطرق. في الكتاب مواجهة للسّائد من التّحليل النّفسيّ ومن عصاب التّأويل. الكتاب استثمر اللّسانيّات والأنثروبولوجيا. لكنّ التّعاطي الأنثروبولوجيّ والرّجوع إلى البدائيين ليس دعوة للانتكاس والتّقهقر والرّجوع إلى الوراء وإنّما هو عمل على استثمار ليونة الأقسام وخطوط الإفلات ومواجهة المتصلّب والمتيسّس والمثنويّ في تنظيمات المجتمعات الحديثة، كسرا للرؤية التطوريّة أيّا كانت، في الاقتصاد، في السياسة، في التّاريخ، سواء كانت تلك الرؤية مادّية، دياكتيكيّة أو إثنوغرافيّة. نقد أنّ الكتاب يغلب عليه الطّابع الأركيولوجيّ، إذ كل

سطيحة تعبّر عنها صورة وتاريخ. ونقدّر في الأخير أنّ في الكتاب تمرينا سبينوزيًا، إذ فيه بديهيات وقضايا ومشكلات وتعريفات تجعل «الفكر مثل مصّاص الدماء، لا صورة له، لا لتكوين نموذج ولا ليكون صورة» (ص ٤٦٨).

عبد العزيز العيادي

القيروان/ أكتوبر ٢٠٢٣

توطئة

١. مقدّمة: جذمور
 ٢. ذئب أو كثرة من الذئاب
 ٣. ألف سنة قبل المسيح - جيولوجيا الأخلاق
 ٤. ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ - مصادرات اللّسانية
 ٥. ٥٨٧ قبل الميلاد - ٧٠ بعده - حول بعض نُظُم العلامات
 ٦. ٢٨ نوفمبر ١٩٤٧ - كيف نكون جسدا دون أعضاء؟
 ٧. السنة صفر - الوجّهية
 ٨. ١٨٧٤ - ثلاث أقصوصات أو «ما الذي حدث؟»
 ٩. ١٩٣٣ - السياسة المجهرية والنظام القسُمويّ
 ١٠. ١٧٣٠ - التّصيّر - شدّة، التّصيّر - حيوانا، التّصيّر - ما يندّ عن الإدراك
 ١١. ١٨٣٧ - في اللّازمة
 ١٢. ١٢٢٧ - مبحث التّرحّل: مكنة الحرب
 ١٣. سبعة آلاف سنة قبل المسيح - جهاز الاستحواذ
 ١٤. ١٤٤٠ - الأملس والمخدّد
 ١٥. خاتمة: قواعد عينية ومكنات مجرّدة
- فهرس الاستنساخات
فهرس المواد

(*) الأرقام الواردة في متن النّص بين معقّفين هي أرقام النّص الفرنسي.

هذا الكتاب هو تنمة ونهاية الرأسالية والفصام الذي كان جزؤه الأول هو أوديب- مضادًا .

إنه ليس مكوّنًا من فصول بل من «سَطِيحات». سنعمل لاحقًا على تفسير سبب ذلك (وكذلك لماذا مؤرّخة هي النصوص). إلى حدّ ما، يمكن أن تُقرأ هذه السَطِيحات بشكل مستقلّ عن بعضها البعض، ما عدا الخاتمة التي لا يجب أن تُقرأ إلّا في النهاية.

كان نُشر: «جذمور» (éd. Minuit, 1976)؛ «ذئب أو كثرة من الذئاب؟» (revue *Minuit*, n°5)؛ «كيف نكون جسدا دون أعضاء؟» (*Minuit*, n° 10)؛ أعيد نشرها هنا وتعديلها.

7 studi NOTTE XIV piano piece for David Tudor 4
disegno del 1968
adagione pianissimo: 27.3.1959

SYLVANO BUSSOTTI

لقد كنّا اثنين في كتابة أوديب - مضادًا. بما أنّ كلّ واحد منّا كان كثرة، فقد مثّل ذلك بالفعل جمعا غفيرا من الناس. استعملنا هنا كلّ ما كان يقترب منّا، الأقرب والأبعد. لقد وزّعنا أسماء مستعارة مأكرة حتى لا يقع التعرّف علينا. فلمّ احتفظنا بأسمائنا؟ إنها العادة، العادة وحسب. حتى لا يقع التعرّف علينا نحن بدورنا. حتى لا ندقّ عن الإدراك نحن ذواتنا وإنما ما يجعلنا نعمل، نحسّ أو نفكر. ثمّ لأنّه من الممتع أن نتحدّث كما يتحدّث الجميع، وأن نقول إنّ الشمس تشرق، مع أنّ الجميع يعلم أنّ تلك مجرد طريقة في الحديث. ليس إلى درجة الوصول حدّ التخلي كلياً عن قول أنا، لكن إلى درجة لم يعد فيها أية أهمية لقول أو لعدم قول أنا. لم نعد نحن ذواتنا. كلّ واحد سيتعرّف على ذويه. لقد تعاونا وتساحبنا وتكثّرنا.

ليس لكتاب ما موضوع ولا ذات، إنه مقدود من موادّ متشكّلة تنوعيًا، من تواريخ وسرعات مختلفة جدًا. مذ ننسب كتابا لذات فإننا نهمل عمل الموادّ هذا كما برّانية علاقاتها. نصنع إلها فاطرا للحركات الجيولوجية. ثمّة في كتاب كما في كلّ شيء، خطوط تمفصل أو مَقطعية، طبقات، [١٠] إقليميّات؛ لكن فيه أيضا خطوط إفلات، حركات لا تأرضن ولا تراصف. سرعات السيلان التي تقع المقارنة بينها وفق هذه الخطوط، تؤدّي إلى ظاهرات تأخّر نسبيّ، إلى ظاهرات لزوجة أو على العكس من ذلك إلى ظاهرات إسرّاع أو انقطاع. كلّ ذلك، الخطوط والسرّعات القابلة للقيس، تُشكّل تنضيدا. كتاب هو هذا التنضيد الذي بما هو كذلك لا يكون قابلا للإسناد. إنه كثرة- لكننا لا نعرف بعد ما تستتبعه الكثرة عندما يقع الكفّ عن إسنادها، أي عندما تُرفع إلى حالة الاسم الموصوف. تنضيد مكنيّ ملتفت جهة الطبقات التي تجعل منه دون شكّ ضربا من العضوية أو بالأحرى كلّية دالة، أو كذلك تحديدا يمكن إسناده إلى ذات، لكنه ليس أقلّ التفاتا جهة جسد دون أعضاء لا يكفّ عن تفكيك العضويّة، عن تمرير ونشر جزئيات غير ذات دلالة، أي عن تمرير ونشر شُدّد محض، وأن يستحوذ على الذوات التي لم يترك لها غير اسم بوصفه أثرا لشدّة. ما هو الجسد دون أعضاء لكتاب؟ ثمّة الكثير تبعا لطبيعة الخطوط المعنيّة، تبعا لمؤدّاها أو لشدّتها الخاصة، تبعا لإمكان التقائها على «مسطّح قِوام» يؤمّن انتقاءها. الأساسيّ هنا كما في أيّ موضع آخر، هو وحدات القيس: تكميم الكتابة. لا فرق بين ما يتحدّث عنه كتاب وبين الكيفية التي قدّ بها. إذّا، كذلك لا موضوع لكتاب ما. من حيث هو تنضيد، هو ذاته وحسب في ترابط مع تنضيدات أخرى، بالنسبة إلى أجساد أخرى دون أعضاء. لن نسأل أبدا ما معنى كتاب، مدلولاً كان أو دالّا، لن نبحث عن أيّ شيء للفهم في كتاب، سنتساءل عمّا به يعمل، عمّا به يرتبط ليمرّر شُددا أو لا يمرّرها، عن الكثرات التي يمرّر فيها كثرته ويحوّلها،

عن الأجساد دون أعضاء التي يجعل هو ذاته جسده الذي دون أعضاء يلتقيها. لا يوجد كتاب إلا بالخارج وفي الخارج. هكذا، كتاب بما هو ذاته مكنة صغيرة، في أية علاقة هي بدورها قابلة للقيس، تكون هذه المكنة الأدبية مع مكنة حرب، مكنة حب، مكنة ثورية، إلخ- ومع مكنة مجردة تجرّ تلك المكنات؟ لقد وقعت مؤاخذتنا على أننا غالبا ما نستحضر أدباء. لكنّ السؤال الوحيد عندما نكتب هو معرفة مع أية مكنة أخرى يمكن أن ترتبط المكنة الأدبية بل ويجب أن ترتبط حتى تعمل. كليست هو مكنة حرب مجنونة، كافكا هو مكنة بيروقراطية رائعة... (وإذا كنّا أصبحنا حيوانا أو نباتا بفعل الأدب، وهو ما لا يعني أننا أصبحنا كذلك أدبيا ولا ريب؟ ألا نصبح أولا حيوانا بواسطة الصّوت؟). الأدب تنزيد ولا علاقة له بالإيديولوجيا، لا وجود للإيديولوجيا ولم يكن ثمة إيديولوجيا على الإطلاق.

نحن لا نتحدّث عن شيء آخر: الكثرات، الخطوط، [١١] الطبقات والمقطعيّات، خطوط الإفلات والشّد، التنزيذات المكنيّة وأنواعها المختلفة، الأجساد دون أعضاء وبنائوها وانتقاؤها، مسطّح القِوام، وحدات القيس في كلّ حالة. مقاييس الطبقات، مقاييس التدمير، وحدات الجسد دون أعضاء للشّد، وحدات الجسد دون أعضاء للتقارب، لا تشكّل تكميما للكتابة وحسب، لكنها تحدّد الكتابة على أنها دائما مقياس شيء آخر. ليس للكتابة أية علاقة بالدلالة، وإنما لها علاقة حتى بمسح أصقاع مقبلة ورسم خرائط لها.

صنف أوّل للكتاب هو الكتاب- الجذر. الشجرة هي بالفعل صورة العالم أو الجذر هو صورة الشجرة- العالم. ذلك هو الكتاب الكلاسيكي بوصفه داخلانية عضوية جميلة، دالة وذاتية (طبقات الكتاب). الكتاب يحاكي العالم مثلما يحاكي الفنّ الطبيعة: يحاكيه بطرائق خاصة به، طرائق تنجز ما لا تستطيع الطبيعة القيام به أو لم تعد قادرة على القيام به. قانون الكتاب هو قانون الانعكاس، الواحد الذي

يصبح اثنين. كيف لقانون الكتاب أن يكون في الطبيعة بما أنه يدير القسمة ذاتها بين العالم والكتاب وبين الطبيعة والفن؟ واحد يصبح اثنين: في كل مرة نلتقي فيها هذه الصيغة، حتى وإن كان لفظها ماو وستونغ، حتى وإن فهمت بأكثر الأشكال «ديالكتيكية»، فإننا نجد ذواتنا إزاء الفكر الأكثر كلاسيكية والأكثر انعكاسية، إزاء الفكر الأقدم والأثقل. لا تعمل الطبيعة على هذا النحو: الجذور ذاتها دَوَّارة فيها، ذات تفريع أكبر، تفريعا جانبيًا ودائريًا وليس ثنائيًا. الفكر يتأخر عن الطبيعة. حتى الكتاب بوصفه حقيقة طبيعية هو دَوَّار، مع محوره والأوراق المحيطة به. لكن الكتاب بوصفه حقيقة فكرية، بوصفه الشجرة أو الجذر من حيث هو صورة، لا يكف عن تطوير قانون الواحد الذي يصبح اثنين، ثم اثنين اللذين يصبحان أربعة... المنطق الثنائي هو الحقيقة الفكرية للشجرة- الجذر. حتى المبحث الأكثر «تطورًا» مثل اللسانيات، يحتفظ بهذه الشجرة- الجذر كصورة قاعدية، يربطها بالتفكير الكلاسيكي (كذا الحال مع شومسكي وشجرة التركيب اللغوي التي تبدأ من ص (S) لتعمل بقسمة ثنائية). ذلك يعني أن هذا الفكر لم يفهم الكثرة إطلاقًا: ينبغي أن تكون له وحدة رئيسية قوية مفترضة حتى يصل إلى اثنين وفق منهج روحاني. ومن جهة الموضوع، يمكن المرور مباشرة دون شك من واحد إلى ثلاثة، إلى أربعة أو خمسة وفق المنهج الطبيعي، لكن دائما شريطة امتلاك وحدة رئيسية قوية، وحدة المحور الذي يحمل الجذور الثانوية. لم يتحسن الأمر قط. العلاقات المزدوجة بين الدوائر المتعاقبة عوّضت المنطق الثنائي للتنصيف وحسب. الجذر الدَوَّار لم يعد يتضمّن الكثرة أكثر مما لم يعد يتضمّن الجذر ذو الفرعين. الأول يعمل في الموضوع بينما يعمل الثاني في الذات. المنطق الثنائي والعلاقات [١٢] المزدوجة ما زالت تهيمن على التحليل النفسي (شجرة الهذيان في التأويل الفرويدي لشرایبار)، على اللسانيات والبنوية، وحتى على الإعلامية.

النظام- الجُذيرِّي أو الجذر الحُزيميّ هو الشكل الثاني للكتاب الذي تدّعيه حداثتنا طواعية. هذه المرّة، أجهّض الجذر الرئيسيّ أو تدمّر من جهة طرفه؛ طعمته كثرة مباشرة وعادية من الجذور الثانوية التي تطوّرت تطوُّراً كبيراً. هذه المرّة، يتبدّى الواقع الطبيعيّ في إجهاض الجذر الرئيسيّ، لكن مع ذلك تستمرّ وحدته بوصفها مضت أو هي مقبلة، بوصفها ممكنة. ويجب أن نتساءل عمّا إذا لم يكن الواقع الروحانيّ والحصيف يعوّض هذه الوضعية مبرزاً بدوره ضرورة وحدة خفية أكثر شمولاً أو ضرورة كلية أكثر امتداداً. ليكن منهج التقطيع والتلصيق عند بيروغ (Burroughs): طيّ نصّ على آخر، طيّاً مكوّنًا لجذور متعدّدة وحتى عرضية (كأنها فسيلة) يتضمّن بُعداً تكميليّاً بالنسبة إلى بُعد النصوص المنظور فيها. إنه في هذا البُعد التكميليّ للطّي تُواصل الوحدة عملها الروحانيّ. بهذا المعنى يمكن كذلك تقديم الأثر الأشدّ تجزئة على أنه الأثر التامّ أو الصنيع الأكبر. أغلب المناهج الحديثة لتكثير سلسلات أو لتنمية كثرة تكون مفيدة تماماً في وجهة خطيّة مثلاً، بينما تتوكّد بالأحرى وحدةً تشميل في بُعد آخر، بُعد دائرة أو دور. في كلّ مرّة تستغرق فيها بنية كثرةً ما فإنّ تنامي تلك الكثرة يعوّض اختزال لقوانين التركيب. مُجهضو الوحدة هم هنا صنّاع الملائكيّ (doctores angelici)، بما أنهم يؤكّدون وحدة ملائكية وعليا بشكل خاصّ. كلمات جويس التي هي بحقّ «ذات جذور متعدّدة»، لا تكسر فعليّاً الوحدة الخطيّة للكلمة أو حتى للسان إلّا بوضع وحدة دورية للجملة، للنص أو للمعرفة. الحُكم النيتشيّة لا تكسر الوحدة الخطيّة للمعرفة إلّا بالإحالة على الوحدة الدورية للعود الأبديّ الحاضر بوصفه غير معروف في الفكر. ذلك يعني أنّ النظام الحُزيميّ لا يقطع حقاً مع الثنائية، مع التكامل بين ذات وموضوع، مع حقيقة طبيعية وحقيقة روحانية: لا تكفّ الوحدة عن أن تكون محبّطة وممنوعة في الموضوع، بينما ينتصر ضرب جديد من الوحدة في الذات. لقد فقد العالم محوره،

الذّات لم تعد قادرة حتى على التفريع الثنائي، لكنها تصل إلى وحدة أكثر علوّاً، وحدة من التضارب أو من التحديد المفرط، في بُعد تكميليّ دائماً بالنسبة إلى بُعد موضوعها. لقد أصبح العالم شواشا لكنّ الكتاب يظلّ صورة للعالم، شواشا نسيقا- جُذيرياً، عوضاً عن العالم- الجذر. [١٣] غريب هو خداع الكتاب الذي بقدر ما يكون شاملاً يكون متشذراً. الكتاب بوصفه صورة العالم، على أية حال كم هي فكرة مسيخة. في الحقيقة، لا يكفي أن نقول تحيا الكثرة، مع أنه من العسير إطلاق هذه الصرخة. ولا مهارة طباعية، معجمية أو حتى تركيبية ستكون كافية لسماعها. الكثرة ينبغي صنعها، وما ذلك بالإضافة الدائمة لبُعد أعلى، وإنما على العكس من ذلك وبكلّ بساطة، نتيجة الاتّزان، على صعيد الأبعاد التي في حوزتنا، هي دائمة ن - ١ (على هذا النحو فقط يكون الواحد جزء من الكثرة، لكونه مطروحاً دوماً). طرح الواحد من الكثرة التي ستكون؛ الكتابة ل ن - ١. مثل هذا النظام يمكن تسميته جذموراً. الجذمور بوصفه ساقاً تحارضية يختلف بإطلاق عن الجذور والجذيرات. الأبصال والدّرناات هي جذامير. نباتات ذات جذر أو جُذير يمكن أن تكون ذات شكل جذموريّ في حالات أخرى كثيرة: تتعلّق المسألة بمعرفة ما إذا لم يكن عالم النبات بكامله جذموريّ الشكل في خصوصيته. حيوانات هي أيضاً جذمورية في شكلها الجماعيّ، الفئران جذامير. كذلك هي ذوات الجحور في كلّ وظائف سكنها ومؤنّتها وتنقلها ومراوغتها وتوقّفها. للجذمور في ذاته أشكال شديدة التنوّع، انطلاقاً من امتداده السّطحيّ المتفرّع في كلّ الاتجاهات وصولاً إلى تكثّفه في أبصال ودّرناات. كذلك عندما تنزل الفئران بعضها تحت بعضها الآخر. ثمّة الأفضل والأسوأ في الجذمور: البطاطس والعشب والنبات الطفيليّ. الحيوان والنبات والعشب، إنه النّجم. يعترينا الشعور بأننا لن نقنع أحداً ما لم نعدّد بعض الخصائص التقريبية للجذمور.

أولاً وثانياً: مبدأ الترابط والتباين: أية نقطة في جذمور يمكن أن ترتبط بأية نقطة أخرى، ويجب أن ترتبط. ذلك أمر مختلف عن الشجرة أو عن الجذر اللذين يثبتان نقطة أو نظاماً. ما زالت الشجرة اللسانية على طريقة شومسكي تبدأ من نقطة ص وتعمل بقسمة ثنائية. على العكس من ذلك، كل خاصية في الجذمور لا تحيل بالضرورة إلى خاصية لسانية: حلقات سيميائية بكل أنواعها مرتبطة في الجذمور بصيغ تقنين شديدة التنوع، حلقات بيولوجية وسياسية واقتصادية، إلخ.، لا تضع على المحك نُظُم علامات مختلفة وحسب، وإنما أيضاً أوضاع الظروف. بالفعل، تعمل التنضيدات الجماعية للتلفظ بشكل مباشر في التنضيدات الممكنية، ولا يمكن إقامة قطيعة جذرية بين نُظُم العلامات ومواضيعها. في اللسانيات، حتى عندما نزع التقيّد بما هو واضح ولا نفترض أيّ شيء من اللسان فإننا نظلّ داخل دوائر خطاب ما يزال يتضمّن صيغ تنزيد وضروب سلطة، صيغاً وتنضيدات اجتماعية خاصّة. نحوية [١٤] شومسكي، الرّمز المقوليّ ص الذي يهيمن على كلّ الجُمْل هو أولاً علامة سلطة وليس علامة تركيبية: ستكون جملاً صحيحة نحويّاً، ستقسّم كلّ ملفوظ إلى مرّكب اسميّ ومرّكب فعليّ (التقسيم الثنائيّ الأوّل...). لن نؤاخذ مثل هذه النماذج اللسانية على كونها شديدة التجريد، بل على العكس من ذلك على كونها لم تكن مجردة كفاية وعلى أنها لم تصل إلى الممكنة المجردة التي تقيم ربط لسان ما بالمضامين الدلالية والتداولية للملفوظات، بتنضيدات جماعية للتلفظ، بكامل سياسة مجهرية للحقل الاجتماعيّ. قد لا يتوقّف جذمور عن الربط بين حلقات سيميائية، منظمات سلطة، مناسبات تحيل على الفنون والعلوم والصراعات الاجتماعية. حلقة سيميائية هي مثل درنة تجمع أفعالا شديدة التباين، أفعالا لسانية لكنها أيضاً إدراكية، محاكاتية، إيمائية وتفكيرية: لا وجود للسان في ذاته ولا لكلية اللغة، وإنما يوجد تنافس لهجات، لهجات عامية ومحلية وألسن خاصّة. لا

يوجد متكلم - مستمع مثاليّ مثلما لا توجد جماعة لسانية متجانسة. اللسان وفق عبارة واندرايخ (Weinreich) هو «واقع متنافر بشكل أساسي». لا وجود للسان - أمّ وإنما استحوّاذ على السلطة من طرف لسان مهيمن في كثرة سياسية. يتوطّد اللسان حول أبرشية، أسقفية، عاصمة. إنه يتشكّل بصلّة. إنه ينمو بسيقان وتدفّقات تحأرضية، بمحاذاة سهول نهريّة أو بمحاذاة خطوط سكك حديدية، إنه يتحرّك على شاكلة بقع الزيت^(١). بالإمكان أن تُجري دائما على اللسان تفكيكات بنيوية داخلية: ذلك لا يختلف أساسيا عن البحث عن الجذور. ثمة دائما شيء من الجنياولوجيا في الشجرة، وذلك ليس منهجا شعبيا. على العكس من ذلك، لا يمكن لمنهج من نوع الجذمور أن يدرس اللغة إلّا بإزاحتها عن مركزها باتجاه أبعاد أخرى وسجّلات أخرى. لا ينغلق لسان ما أبدا على نفسه إلّا إذا كانت وظيفته وظيفة عجز.

ثالثا: مبدأ الكثرة: إنه يكون كذلك فقط عندما يكون وقع التعاطي مع المتكثّر بصفته اسما وكثرة وأنه لم تعد له أية رابطة بالواحد بوصفه ذاتا أو موضوعا، بوصفه حقيقة طبيعية أو روحانية، بوصفه صورة وعالما. الكثرات جذمورية وهي تلغي أشباه الكثرات الشجرانية. لا وجود لوحدة تُستخدم كمحور في الموضوع ولا لوحدة تنقسم في الذات. لا وجود لوحدة حتى لو كان ذلك لتُجهض في الموضوع ولـ«تعود» في الذات. الكثرة لا ذات ولا موضوع لها، وإنما لها فقط تحديدات وأعظام وأبعاد [١٥] لا يمكن أن تنمو دون أن تغيّر الكثرة من طبيعتها (قوانين التركيب تنمو إذاً مع الكثرة). خيوط الدّمية من حيث هي جذمور أو كثرة لا تحيل إلى إرادة فنّان أو عارض يُفترض أن تكون موحّدة، وإنما إلى كثرة الألياف العصبية التي تشكّل بدورها دمية أخرى

(١) انظر، برتيل مالبارغ، التوجّهات الجديدة للسانيات، المطابع الجامعية الفرنسية، (مثال اللهجة القتالية)، ص ٩٧ وما بعدها.

وفق أبعاد أخرى متّصلة بالأبعاد الأولى: «لنسمّ حبكة الخيوط أو القضبان التي تحرّك الدّمى. يمكن الاعتراض بأنّ الكثرة قائمة في شخص الممثل الذي يعكسها في النصّ. ليكن، لكن هذه الألياف العصبية تشكّل بدورها حبكة. وتغوص هذه الألياف العصبية عبر الكتلة الرمادية، عبر الشبكة، حدّ الوصول إلى اللامتمايز... تقترب اللعبة من النشاط المحض للنّساجين، ذلك النشاط الذي تنسبه الميثاث إلى ربّات القدر وإلى ربّات الأزمنة الثلاثة [أوردري (Urdhri) للماضي، فرزندى (Verdhandi) للحاضر، سكول (Skul) للمستقبل]»^(١). التنضيد هو بالتحديد هذا التّماء الذي للأبعاد في كثرة تغيّر بالضرورة طبيعتها بقدر ما تزيد من ترابطاتها. لا وجود لنقاط أو لوضعيات داخل الجذمور كتلك التي نجدها في بنية، في شجرة، في جذر. لا وجود إلّا لخطوط. عندما يسرّع غلين غولد (Glenn Gould) عزف قطعة موسيقية فإنه لا يتصرّف بصفته عازفا بارعا وحسب بل هو يحوّل النقاط الموسيقية إلى خطوط ويكثر الكلّ. ذلك أنّ العدد لم يعد مفهوما كليّا يقيس عناصر وفق موقعها في بُعد ما، ليصبح هو ذاته كثرة متغيّرة تبعا للأبعاد المنظور فيها (أولية المجال بالنسبة إلى مرّكب من الأعداد المرتبطة بذلك المجال). ليس لدينا وحدات قيس وإنما كثرات أو أصناف قيس وحسب. لا يظهر مفهوم الوحدة البتّة إلّا عندما يحدث في كثرة ما استيلاء دالّ على السلطة، أو يحدث مسار مماثل من الذّينة: كذا الحال بخصوص الوحدة- المحور التي تؤسّس جملة من العلاقات المزدوجة بين عناصر أو نقاط موضوعية، أو كذلك الواحد الذي ينقسم تبعا لقانون منطق ثنائيّ للتمايز في الذّات. تعمل الوحدة دائما في صلب بُعد إضافيّ خاوٍ بالنسبة إلى وحدة النسق المنظور فيه (اشتطاط التقنين).

(١) أرنست جنغار، مقاربات مخدّرات وسكر (Ernest Jünger, *Approches*) (drogues et ivresse, Table ronde, p. 304, § 218).

وبالفعل، يتأبى الجذمور أو الكثرة عن اشتطاط التقنين، لا يمتلك البتة بُعداً إضافياً بالنسبة إلى عدد خطوطه، أي بالنسبة إلى كثرة الأعداد المرتبطة بهذه الخطوط. كلّ الكثرات مسطّحة من حيث أنها تملأ كلّ أبعادها وتحتلّها: سنتحدّث إذاً عن مسطّح متانة الكثرات، مع أنّ هذا «المسطّح» له أبعاد متنامية وفق عدد الرّوابط التي تقوم فوقه. تتحدّد الكثرات بالخارج: بالخطّ المجرد، خطّ الإفلات أو اللّا أرضنة [١٦] التي تبعاً لها تُغيّر الكثرات من طبيعتها في اتصالها بكثرات أخرى. يعيّن خطّ الإفلات في نفس الوقت حقيقة عدد الأبعاد المتناهية التي تملؤها الكثرة فعلياً؛ استحالة كلّ بُعد إضافيٍّ من دون أن تتغيّر الكثرة تبعاً لذلك الخطّ؛ إمكانية وضرورة تسطّيح كلّ هذه الكثرات فوق نفس سطح المتانة أو البرانية، مهما كانت أبعاد تلك الكثرات. ما يصبو إليه كتاب ما هو بسط كلّ شيء على مثل مسطّح البرّانية ذاك، على صفحة وحيدة، على نفس المدى: أحداث معيشة، تحديدات تاريخية، مفاهيم وقع التفكير بها، أفراد، جماعات وتشكيلات اجتماعية. لقد اخترع كليست (Kleist) كتابة من هذا النوع، تسلسلا متكسّراً من الأفعالات، بسرعات متغيّرة، بإسراعات وبتغييرات، في علاقة دائماً بالخارج. إنها حلقات مفتوحة. كذلك تتعارض هذه النصوص مع الكتاب الكلاسيكيّ والرومنطقيّ المتكوّن من داخلانية جوهر أو ذات. الكتاب-مكنة الحرب ضدّ الكتاب-جهاز الدّولة. الكثرات المسطّحة ذات الأبعاد اللانهاية لا دلالة ولا ذات لها. إنها متعيّنة بصيغ تنكيريّة أو بالأحرى تبغيضيّة (إنها عشب، إنها جذمور...).

رابعا: مبدأ القطيعة عديمة الدّلالة: ضدّ القطيعات الدّالة جدّاً التي تفصل بين البنيات أو تجتاز إحداها. يمكن أن يُقطع جذمور أو يُكسر في موضع ما، لكنه يعاود مساره وفق هذا الخطّ أو ذاك من خطوطه ووفق خطوط أخرى. لا نملّ من ذكر النمل لأنه يشكّل جذمورا حيوانياً يمكن إبادة أكبر جزء منه دون أن يتوقّف عن تكوين ذاته من جديد. كل

جذمور يحتوي على خطوط مَقطعية هي التي تبعا لها يكون متراصفا ومتأرضنا ومننظما ومدلولا ومَعزوا، إلخ؛ لكنه يحتوي كذلك على خطوط إفلات بها يفلت باستمرار. ثمة انقطاع في الجذمور كلّما انفجرت خطوط مَقطعية في خطّ إفلات، لكنّ خطّ الإفلات ينتمي إلى الجذمور. لا تتوقّف هذه الخطوط عن الإحالة على بعضها البعض. لذلك لا يمكن أن نكرّس البتة ثنائية أو تنصيفا، حتى وإن كان ذلك في الشكل البسيط للجيد والردّيء. نقوم بقطيعة أو نرسم خطّ إفلات، لكننا نوشك أن نعثر من جديد فوق هذا الخطّ على تنظيمات تعيد من جديد ترصيف الكلّ، على تشكيلات تمنح السلطة من جديد لدالّ، على نعوت تعيد بناء ذات- على كلّ ما نشاء، من الطّفرات الأوديبية إلى الكتل الفاشية. تحمل الجماعات والأفراد فاشيات صغرى لا تنتظر غير التبلور. نعم، العشب هو أيضا جذمور. الجيد والردّيء لا يمكن أن يكونا إلّا نتاجا لانتقاء فاعل ومؤقت، لانتقاء مكرور.

[١٧] كيف لا تكون حركات اللاتأرضن ومسارات إعادة التأرضن نسبية ومتصلة دوما ومتواشجة؟ لا تتأرضن زهرة الأوركيد [السّحلبية] مشكّلة صورة واستنساخا للزنبور؛ لكنّ الزنبور يعيد التأرضن على هذه الصّورة. ومع ذلك لا يتأرضن الزنبور، متحوّلا هو ذاته إلى قطعة في الجهاز التناسليّ للأوركيد؛ لكنه يعيد أرضنة الأوركيد بحمله للقاحها. الزنبور والأوركيد يشكّلان جذمورا من حيث أنهما متباينان. بمستطاعنا القول إنّ الأوركيد يحاكي الزنبور الذي تستنسخ الأوركيد صورته بكيفية دالّة (محاكاة، تقليد، خديعة، إلخ.). لكنّ ذلك ليس حقيقيا إلّا على مستوى الطبقات- موازاة بين طبقتين بحيث أنّ تنظيما نباتيا على أحدهما يحاكي تنظيما حيوانيا على الأخرى. في نفس الوقت يتعلّق الأمر بشيء آخر مختلف تماما: لم يعد الأمر متعلّقا إطلاقا بالمحاكاة بل بتملّك التقنين، بفائض قيمة التقنين، بتزايد التكافؤ، بالضرورة الحقّ، صيرورة الأوركيد زنبورا وصيرورة الزنبور أوركيدا، كلّ واحدة

من هذه الصيرورات تؤمّن لا تارضن أحد العناصر وإعادة أرضنة العنصر الآخر، تترباط الصيرورتان وتتناوبان وفق تَنَقُّلٍ شَدَدٍ يدفع اللاتارضن دائما إلى مدى أبعد. لا وجود لمحاكاة ولا لمشابهة وإّما انفجار لسلسلتين متباينتين في خطّ الإفلات المتكوّن من جذمور مشترك لم يعد من الممكن عزوه أو إخضاعه إلى أيّ شيء دالّ. يقول ريمي شوفان (Rémy Chauvin) بوضوح: «تطوّر لا متواز لكائنين لا علاقة لأحدهما بالآخر إطلاقا»^(١). بشكل أعمّ، لعلّ رسيمات التطوّر قد توصّلت إلى التخلي عن النموذج القديم للشجرة وللنسب. في ظروف معيّنة يمكن لفيروس أن يرتبط بخلايا جرثومية وينتقل هو ذاته بوصفه مورثة خلوية من نوع مرّكب؛ بل أكثر من ذلك، بإمكانه الإفلات والدخول في خلايا من نوع آخر مختلف تماما، لكن ليس من دون أن يحمل «معلومات وراثية» متأتية من المضيف الأوّل (كذا حال البحوث الرّاهنة لراؤول بنفنيست وجورج تودارو حول فيروس من الصنف س، في ارتباطه المزدوج مع الحامض الريبي النووي منقوص الأكسجين لقرد البابوان والحامض الريبي النووي منقوص الأكسجين لبعض أنواع القطط الأليفّة). لم تعد رسيمات التطوّر تتّم وفق نماذج النسب الشجرانيّ وحسب، بداية من الأقلّ انفراقا إلى الأكثر انفراقا، وإنّما وفق جذمور يعمل مباشرة في المتباين ويقفز من خطّ مُنفَرَق بالفعل إلى خطّ آخر^(٢).

-
- (١) ريمي شوفان، ضمن حوارات في الجنسية، نشر بلون (Plon)، ص ٢٠٥.
- (٢) حول أعمال راؤول أميل بنفنيست وجورج تودارو، راجع إيف كريستن، «دور الفيروسات في التطوّر»، مجلة البحث، عدد ٥٤، مارس ١٩٧٥: «نتيجة خطّ في الاقتلاع، يمكن للفيروسات أن تحمل بعد الهجرة - الاقتلاع داخل خلية، أجزاء من الحامض الريبي النووي منقوص الأكسجين لمضيفها ونقلها إلى خلايا جديدة: بل تلك هي قاعدة ما يسمّى الهندسة الوراثية. ينتج عن ذلك كون المعلومة الوراثية الخاصة بعضوية ما يمكن نقلها إلى عضوية أخرى بفضل

[١٨] هنا أيضا، تطوّر لا متواز لقرد البابوان وللقط، حيث من المؤكّد أنّ أحدهما ليس نموذجا للآخر، والآخر ليس نسخة للأول (الصيرورة- قرد بابوان في القط لا تعني أنّ القط «يلعب دور» البابوان). نحن نشكّل جذمورا مع فيروساتنا أو بالأحرى فيروساتنا هي التي تجعلنا نشكّل جذمورا مع حيوانات أخرى. مثلما يقول فرانسوا جاكوب، انتقالات المادّة الوراثية عن طريق الفيروسات أو عن طريق عمليات أخرى، انصهارات الخلايا المتأتية من أنواع مختلفة، لها نتائج مماثلة لنتائج «المحبّات المارقة العزيزة على العصور القديمة أو على القرون الوسطى»^(١). اتصالات عرضانية بين الخطوط المنفرقة تربك أشجار الأنساب. البحث دائما عن الهباءة أو حتى عن الجسيم الجزيئي الذي نتزاوج وإياه. نحن نتطوّر ونموت نتيجة الزكام الشّكيل والجذموريّ أكثر ممّا نتطوّر ونموت بأمراضنا النّسبية أو التي لها هي ذاتها نسبها. الجذمور هو جنيالوجيا مضادّة.

نفس الأمر بالنسبة إلى الكتاب وإلى العالم: الكتاب ليس صورة للعالم وفق اعتقاد متجدّد. إنه يشكّل جذمورا مع العالم، ثمّة تطوّر لا متواز للكتاب وللعالم، يؤمّن الكتاب لا تأرضن العالم لكنّ العالم يقوم بإعادة تأرضن الكتاب الذي لا يتأرضن بدوره في ذاته داخل العالم (إذا كان قادرا على ذلك وإذا كان يستطيعه). المحاكاة مفهوم سيء جدّا،

الفيروسات. عند الاهتمام بالحالات القصوى يمكننا حتى تخيل أنّ نقلة المعلومة هذه يمكن أن تتمّ من نوع أكثر تطوّرًا إلى نوع أقلّ تطوّرًا أو هو مولّد النوع الأول. تعمل هذه الآلية إذا في اتجاه معاكس للذي يستعمله التطوّر بكيفية كلاسيكية. إذا كان لمثل تنقّلات المعلومات هذه أهمية قصوى، فستوصل في بعض الحالات حتى إلى الاستعاضة برسيمات شبكية (بالاتصالات بين الأغصان بعد انفراقها) عن الرّسيمات التي في شكل دُغل أو شجرة التي تُستخدم اليوم لتجسيد التطوّر» (ص ٢٧١).

(١) فرانسوا جاكوب، منطق الحيّ، غاليمار، ص ٣١٢، ٣٣٣.

إنه تابع لمنطق ثنائي يصلح لظواهرات من طبيعة أخرى مختلفة تماما .
التمساح لا يحاكي جذع شجرة مثلما لا تحاكي الحرباء ألوان ما يحيط
بها . النمر الوردى لا يحاكي أي شيء ، لا يستنسخ أي شيء ، إنه
يضيف لونه على العالم ، ورديا على وردى ، تلك هي صيررته - عالما
بشكل يجعله هو ذاته يدق عن الإدراك ، يجعله غير ذي دلالة هو ذاته ،
يجعله يقوم بقطيعته ، بخط إفلاته الذي يخصّه ، يجعله يوصل حتى
النهاية «تطوره اللامتوازي» . حكمة النباتات : حتى عندما تكون ذات
جذور ، ثمة دائما خارج حيث تكوّن جذمورا مع شيء ما - مع الريح ،
مع حيوان ، مع إنسان (وأیضا مع مظهر تُشكّل به الحيوانات [١٩] ذاتها
جذمورا ، ويشكّل به البشر جذمورا ، إلخ .) . «الانتشاء بوصفه اقتحام
النبته لنا اقتحاما منتصرا» . ومتابعة الجذمور دائما بالقطع ، تمديد وإطالة
ونقل خط الإفلات وتنويعه ، وصولا إلى الخط الأكثر تجريدا والأكثر
تعرجا ، إلى الخط ذي الأبعاد اللامتناهية والاتجاهات المقطوعة .
وَصُلّ الاندفاعات اللامتأرضنة . متابعة النباتات : سنبداً بوضع حدود
خط أول وفق دوائر التقارب حول فرادات متتابعة ؛ ثم نرى ما إذا كان
في داخل هذا الخط دوائر تقارب جديدة تقوم مع نقاط جد ائنة
خارج الحدود وفي اتجاهات أخرى . أن نكتب ، أن نكون جذمورا ، أن
نوسّع المجال باللاتأرضن ، أن نمدّ خط الإفلات حتى النقطة التي يغطي
فيها كامل مسطح المتانة في مكنة مجردة . «اذهب أولا إلى نبتتك
الأولى وهناك لاحظ بانتباه كيف ينساب الماء الجاري انطلاقا من هذه
النقطة . كان على المطر أن يحمل البذور بعيدا . تابع الجداول التي
حفرها الماء ، وهكذا ستعرف وجهة السيلان . ابحث إذاً عن النبته التي
توجد في هذا الاتجاه أبعد ما تكون عن نبتتك . كل النباتات التي تنمو
بين هاتين النبتتين هي لك . لاحقا ، عندما ستزرع هذه الأخيرة بذورها ،
ستتمكن من توسيع مجالك باتباع مجرى المياه انطلاقا من كل واحدة

من هذه النباتات»^(١). لم تتوقف الموسيقى عن تمرير خطوط إفلاتها وكأنها «كثرات للتغيير»، حتى بقلب تقنياتها الخاصة التي تهيكّلها أو تُشجّرنها؛ لذلك يكون الشكل الموسيقيّ، حتى في تقطّعاته وتشعّبه شبيها بالأعشاب الطفيلية، شبيها بجذمور^(٢).

خامسا وسادسا: مبدأ الخرائطية والمُلصَقية: لا يخضع الجذمور لأيّ نموذج بنيويّ أو توليديّ. إنه غريب عن كلّ فكرة لمحور جينيّ كما عن بنية عميقة. المحور الجينيّ هو بمثابة وحدة محورية موضوعية تنظم فوقها أطوار متعاقبة؛ بنية عميقة هي بالأحرى بمثابة متتالية قاعدية قابلة للانقسام إلى مكوّنات مباشرة، بينما تنتقل وحدة الناتج إلى بُعد آخر تحويليّ وذاتيّ. لا نخرج على هذا النحو من النموذج التصرّويّ للشجرة أو للجذر- المحوريّ أو الحُزيميّ (على سبيل المثال «الشجرة» الشومسكية المقترنة بالمتوالية القاعدية، والممثّلة [٢٠] لسيرورة تولّدها وفق منطق ثنائيّ). إنه تنويع على أقدم فكر. نقول عن المحور الجينيّ أو عن البنية العميقة إنهما قبل كلّ شيء مبدأ استنساخ قابليْن للتكرار بشكل لا نهائيّ. منطق الشجرة كلّهُ هو منطق استنساخ وتقليد. موضوع هذا المنطق في اللسانيات كما في التحليل النفسي هو لا وعي هو ذاته ممثّل، متبلور في مرّكّبات مقنّنة، مقسّم على محور جينيّ أو موزّع في بنية تركيبية. هدف هذا المنطق هو توصيف وضع قائم، إعادة توازن العلاقات البيذاتية أو بلورة لا وعي موجود بالفعل، كامن في الزوايا المظلمة للذاكرة وللغة. إنه يتمثّل في استنساخ شيء ما نتعاطى معه تامّ

(١) كارلوس كاستينادا، نبات الشيطان والدخان الخفيف، نشر الشمس السوداء، ص ١٦٠.

(٢) بيار بولاز، إرادياً وتصادفياً، سوي، ص ١٤: «تزرعها في تربة معيّنة، وفجأة تبدأ بالتكاثر مثل الأعشاب الطفيلية». وفي مواضع متفرّقة حول التوالد الموسيقيّ، ص ٨٩: «موسيقى تتموّج، حيث الكتابة ذاتها تحمل للعازف استحالة الحفاظ على تطابق مع زمن منتظم».

التكوين انطلاقاً من بنية تُقنن بإفراط أو من محور يتحمّل. ثمفصيل الشجرة استنساخات وتنظّمها تراتبياً، الاستنساخات هي بمثابة أوراق الشجرة.

مغاير بالتمام هو الجذمور، إنه خارطة وليس استنساخاً. يلعب دور الخارطة وليس الاستنساخ. الأوركيد لا تستنسخ الزنبور، إنها تشكّل خارطة مع الزنبور صلب جذمور. إذا كانت الخارطة تتعارض مع الاستنساخ فلأنها ملتفتة بتمامها جهة تجريب لائظ بالواقع. الخارطة لا تستنسخ لا وعياً منغلقة على ذاته بل هي تبنيه. إنها تساهم في ترابط المجالات، في تحرير الأجساد دون أعضاء وفي انفتاحها الأقصى على مسطح اتّساق. إنها تشكّل هي ذاتها جزءاً من الجذمور. الخارطة مفتوحة، إنها قابلة للربط من كلّ أبعادها، قابلة للتفكيك، يمكن قلبها، قابلة لتلقّي تحولات بشكل دائم. يمكن تمزيقها وقلبها وأقلمتها مع تركيبات متنوّعة وتشغيلها من طرف فرد أو جماعة أو تشكيلة اجتماعية. بالإمكان رسمها على جدار، تصوّرها كأثر فنيّ، بناؤها كفعل سياسي أو كتأمل. لعلّ واحدة من أهمّ خصائص الجذمور هي أن يكون دائماً متعدّد المداخل؛ بهذا المعنى، الجحر هو جذمور حيوانيّ، وهو يتضمّن في بعض الأحيان تمييزاً واضحاً بين خطّ الإفلات بما هو رواق تنقل وبين طبقات الاحتياط أو السّكن (راجع الفأر المائيّ). للخارطة مداخل متعدّدة، على عكس الاستنساخ الذي يعود دائماً إلى «نفس الشيء». الخارطة هي مسألة أداء، بينما يحيل الاستنساخ دائماً إلى «كفاءة» مزعومة. على نقيض التحليل النفسي والكفاءة التحليلية النفسية التي ترتدّ بكلّ رغبة وبكلّ ملفوظ على محور جينيّ أو على بنية مُستطّة التقنين، والتي تسحب ما لا نهاية له من النّسخ الرّتيبة للأطوار على هذا المحور أو من المكوّنات في هذه البنية، يرفض التحليل الفصاميّ كلّ فكرة عن حتمية مستنسخة، أيّاً كان الاسم الذي نمحه لها، سواء كانت ربّانية، تأويلية، تاريخية، [٢١] اقتصادية، بنيوية، وراثية أو تركيبية.

(نلاحظ جيدا كم أنّ ميلاني كلين لا تفهم مشكل خرائطية أحد أبنائها المرضى الذي هو الطفل ريشار، وتكتفي بسحب نسخ جاهزة- أوديب، الأب الجيّد والأب والسيء، الأمّ الجيدة والأمّ السيئة- بينما يحاول الطفل يائسا متابعة أداء يتجاهله التحليل النفسي بشكل مطلق)^(١).
الدوافع والموضوعات الجزئية، لا هي أطوار على المحور الجينيّ، ولا هي مواضع في بنية عميقة، إنها اختيارات سياسية بالنسبة إلى مشكلات، إلى مداخل ومخارج، إلى ردوب يحياها الطفل سياسيا، أي في كامل قوّة رغبته.

مع ذلك، ألسنا بصدد ترميم مجرد ثنائية ونحن نواجه الاستنساخات بالخارطات، مواجهتنا بين بين جانب جيّد وجانب سيّء؟ أليس من خاصية الخارطة إمكان استنساخها؟ أليس من خاصية الجذور ملاقة الجذور والاختلاط بها أحيانا؟ ألا تحمل الخارطة ظاهرات تكرر هي فعلا بمثابة استنساخاتها الخاصّة؟ أليس للكثرة طبقاتها حيث تتجذّر توحيدات وتجميعات، تكتّلات، آليات محاكاتية، استيلاءات دالّة على السلطة، إسنادات ذاتية؟ ألا تذهب حتى خطوط الإفلات، لصالح تباينها المحتمل، إلى استنساخ التشكيلات التي كان من مهمّتها تفكيكها أو تحاشيها؟ لكنّ العكس صحيح أيضا، فالمسألة مسألة منهج: ينبغي أن نحيل النسخة دائما على الخارطة. وهذه العملية ليست مناظرة للعملية السابقة على الإطلاق. ذلك أنه وبكلّ صرامة ليس صحيحا أنّ استنساخا يحاكي الخارطة. إنه بالأحرى بمثابة صورة أو بمثابة صورة إشعاعية قد تبدأ بانتقاء أو بعزل ما تسعى إلى استنساخه بواسطة وسائل اصطناعية، بواسطة أصباغ أو بواسطة طرائق إكراه أخرى. المحاكي هو الذي يبتكر دائما نموذجيه ويجتذبه إليه. بالفعل،

(١) راجع، ميلاني كلين، تحليل نفسيّ لطفل، نشر تشو: دور الخرائط الحربية في نشاطات ريشار.

لقد نقل الاستنساخُ الخارطةَ إلى صورة، لقد حوّل بالفعل الجذمور إلى جذور وجذيرات. لقد نظّم، ثبّت، حيّد الكثرات وفق محاور إدلال وذتيّة هي محاوره. الاستنساخ ولّد الجذمورَ وهيكله، لكنه لا يستنسخ فعلا إلا ذاته معتقدا أنه يستنسخ شيئا آخر. لذلك هو خطير جدًا. إنه يضحّ ضروبا من التكرار وينشرها. ما يكرّره الاستنساخ من الخارطة أو من الجذمور هي الرّدوب والانسدادات وبذور المحور أو نقاط الهيكله وحسب. انظروا التحليل النفسيّ واللسانيات: الأوّل لم يسحب أبدا غير [٢٢] نُسخ أو صور للاوعي، الثانية لم تسحب أبدا غير نُسخ أو صور للغة، مع كلّ الخيانات التي يفترضها ذلك (ليس من الغريب أن يربط التحليل النفسيّ مصيره بمصير اللسانيات). انظروا ما الذي كان حدث بالفعل للطفل هانس مع التحليل النفسيّ المحض للطفل: لم يقع التوقّف عن كسر جذموره، عن تلويث خارطته، عن إعادة وضعها له في غير موضعها المناسب، عن سدّ كل المنافذ في وجهه، حدّ وصوله إلى أن يرغب بخجله وذنبه، حدّ الوصول إلى تجذير الخجل والذنب فيه، إنه الرّهاب (نقطع عليه جذمور العمارة، ثمّ جذمور الشّارع، نجذّره في سرير الوالدين، نُجذّيره على جسده هو، نوقفه على الأستاذ فرويد). يأخذ فرويد في اعتباره بشكل واضح خرائطية الطفل هانس، لكن ليرتدّ بها دائما وحسب، إلى صورة الأسرة. وانظروا ما الذي تفعله ميلاني كلين مع الخرائط الجيوسياسية للطفل ريشار: إنها تسحب منها صوراً وتجعل منها نُسخاً، اتخّذوا وضعاً أو اتّبّعوا محورا، مرحلة جينية أو مصير بنيويّ، فسيقع كسر جذموركم. سيُسمح لكم بالعيش والكلام شريطة سدّ كلّ المنافذ أمامكم. عندما يُسدّ جذمور ويُشجرن، ينتهي الأمر، ولم يعد يمرّ أيّ شيء من الرّغبة؛ ذلك أنّ الرّغبة تتحرّك وتنتج دائما من خلال الجذمور. كلّما اتّبعت الرّغبةُ شجرةً، تكون ثمة انعكاسات داخلية تجعل الرّغبة تنهار وتسوقها إلى الموت؛ لكن الجذمور يؤثّر على الرّغبة بطفرات خارجية ومنتجة.

لأجل ذلك يكون من المهمّ جدًّا تجريب العملية الأخرى،
 المعاكسة لكنها غير المناظرة. إعادة ربط الاستنساخات بالخارطة،
 العودة بالجذور أو الأشجار إلى جذمور. دراسة اللاوعي في حالة
 الطفل هانس، معناها بيان الكيفية التي يحاول بها تكوين جذمور مع
 المنزل العائليّ لكن كذلك مع خطّ إفلات العمارة والشارع، إلخ. ؛
 كيف تكون هذه الخطوط مسدودة والطفل وقع تجذيره في العائلة،
 تصويره تحت الأب، استنساخه عن السرير الأموميّ؛ ثمّ كيف أنّ
 تدخّل الأستاذ فرويد يؤمّن استيلاء الدالّ على السلطة بوصفه ذتيّة
 للأفعالات؛ كيف أنه لم يعد للطفل أن يفلت إلّا في شكل صيرورة-
 حيوان وقد أُسِر بوصفه مخجلا ومذنبا (صيرورة الطفل هانس حصانا،
 إنه اختيار سياسيّ حقيقيّ). لكن سيتوجّب دائما إعادة تنزيل الرّدوب
 على الخارطة، وبذلك فتحها على خطوط إفلات ممكنة. وسيكون
 الأمر هو ذاته بالنسبة إلى خارطة جماعة: أن نبين في أية نقطة من
 الجذمور تتشكّل ظاهراتٌ كثلثة ويروقراطية وزعامة وافتتان، إلخ. ، أيّ
 الخطوط تستمرّ مع ذلك حتى وإن كانت تحارضية، مواصلة كونها
 جذمورا بشكل غامض. منهج دلييني (Deligny): إنجاز خارطة
 إيماءات وحركات طفل متوحّد، تجميع الكثير من الخرائط [٢٣] لنفس
 الطفل، لأطفال كثيرين^(١)... إذا كان من الحقيقيّ أنّ الخارطة أو
 الجذمور لهما بالأساس مداخل كثيرة، فسنلاحظ أيضا أنه بالإمكان
 الدخول إليهما عن طريق الاستنساخات أو عن طريق الأشجار-
 الجذور، مع مراعاة الاحتياطات اللازمة (هنا أيضا سنتخلّى عن ثنائية
 مانوية). على سبيل المثال، غالبا ما سنكون مكرهين على الدوران في
 ردوب، على المرور بسلطات دالّة وانفعالات ذاتية، على الاستناد إلى

(١) فرناند دلييني، «الصوت والبصر»، كراسات اللا متحرّك، بحوث، أبريل

تشكيلات أوديبية، ذهانية أو أسوأ من ذلك، كأننا نستند إلى إقليمية متصلة تجعل عمليات تغييرية أخرى ممكنة. بل يحدث حتى أن يعمل التحليل النفسي، رغما عنه، كنقطة ارتكاز. على العكس من ذلك، سنستند مباشرة في حالات أخرى إلى خطّ إفلات يمكن من تشظية الطبقات، من قطع الجذور ومن إجراء ترابطات جديدة. ثمّة إذا تنضيدات شديدة الاختلاف، خارطات- استنساخات، جذامير- جذور، مع مُعاملات لا تأرضن متحوّلة. توجد في الجذامير بُنى شجرة أو جذور، لكن عكسيا يمكن لغصن شجرة أو لقسم من جذر أن يبرعم جذموريّا. لا يتوقّف الرّصد هنا على التحليلات النظرية المتضمّنة لكليات وإنما على براغماتية تركّب الكثرات أو مجموعات الشّدّد. يمكن لجذمور جديد أن يتكوّن في قلب شجرة، في جوف جذر أو في باطن غصن. أو أنّ عنصرا مجهرّيّا من الشجرة- الجذر، أي جُذيرا هو الذي يستهلّ إنتاج جذمور. مهنة المحاسبة والبيروقراطية هما اللتان تتصرّفان استنساخيّّا: غير أنه بإمكانهما أن تُبرعما وأن تُطلقا قضبان جذمور كما في رواية لكافكا. يبدأ خطّ اشتداديّ في العمل لحسابه الخاص، إدراك هلوسي واختلاط حسّي وتحوّل منحرف ولعبة صور تنفصل، وهيمنة الدالّ تجد ذاتها موضع تشكيك. سيميائيّات حركية، محاكائيّة، لعبيّة، إلخ.، تستعيد حريتها عند الطفل وتحرّر من «الاستنساخ»، أي من الكفاءة المهيمنة للسان المعلّم- حدث مجهرّيّ يقلب توازن السّلطة المحلية. هكذا يمكن للأشجار التوليدية المبنية وفق النموذج التركيبيّ لشومسكي، أن تنفتح في كلّ الاتجاهات وأن تكون بدورها جذمورا^(١). اتخاذ شكل جذموريّ معناه إنتاج قضبان وخيوط

(١) راجع دياتير فاندريتش، «تداولية، وضعية تَلَفُظ وإشارية»، في لغات، عدد ٢٦، جوان ١٩٧٢، ص ٥٠ وما بعدها: محاولات ماك كاولي، صادوك وفاندريتش لإدخال «خاصيات تداوليّة» في الشّجرات الشومسكية.

تبدو كأنها جذور، وأكثر [٢٤] من ذلك ترتبط تلك القضبان والخيوط بالجذور حين دخولها في الجذع، حتى وإن استُخدمت في استعمالات جديدة غريبة. لقد أتعبتنا الشجرة. لم يعد لنا أن نعتقد في الأشجار، في الجذور ولا في الجذيرات، لقد عانينا من ذلك كثيرا. الثقافة الشجرانية كلّها قائمة عليها، من البيولوجيا إلى اللسانية. على العكس من ذلك، لا شيء جميل، لا شيء عاشق، لا شيء سياسي، غير القضبان التّحارّضية والجذور الجوية، الأعشاب الطفيلية والجذمور. أمستردام، مدينة غير متجذّرة على الإطلاق، مدينة- جذمور بقنواتها- القضبانية، حيث ترتبط المنفعة بأعظم جنون في علاقتها بمكنة حرب تجارية.

الفكر ليس شجرانياً والدماغ ليس مادّة متجذّرة أو متفرّعة. ما نسميه بشكل خاطئ «تشعّبات» لا تؤمّن ترابط الخلايا العصبية في نسيج متصل. انفصال الخلايا، دور المحاورات [المحاور العصبية]، عمل المشابك العصبية، وجود الشقوق المشبكية الصغرى، قفز كلّ رسالة فوق هذه الشقوق، تجعل من الدماغ كثرة تسبح في مسطح اتساقه أو في خلايا جهازه العصبيّ، إنه نظام احتماليّ غامض بأكمله، جهاز عصبيّ غامض. الكثير من الناس لهم شجرة مزروعة في الرأس، لكنّ الدماغ ذاته هو عشبة أكثر من كونه شجرة. «المحاور والتّغصّن العصبيّ يلتقّان أحدهما حول الآخر التّفاف اللبلاّب حول العوسج، مع مشبك في كلّ شوكة»^(١). مثلما هو الحال بالنسبة إلى الذاكرة... حيث يميّز علماء الأعصاب وعلماء النفس الفيزيولوجيين بين ذاكرة طويلة وذاكرة قصيرة (بنحو دقيقة). لكنّ الفرق ليس كمياً وحسب: الذاكرة القصيرة هي من نوع الجذمور والرّسم البيانيّ بينما الذاكرة الطويلة شجرانية

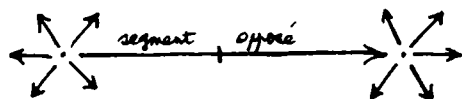
(١) ستيفن روز، الدماغ الواعي، نشر سوي، ص ٩٧، وحول الذاكرة، ص ٢٥٠ وما بعدها.

ومتمركزة (بصمة، انطباع، استنساخ أو صورة). الذاكرة القصيرة ليست خاضعة البتة لقانون التماس أو المباشرة مع موضوعها، يمكنها أن تتخذ منه مسافة، تأتي أو تعود بعد فترة طويلة، لكن دائما في ظروف الانفصال والقطيعة والكثرة. بل أكثر من ذلك، الذاكرتان لا تتمايزان تمايز صيغتين زمنيتين لدرك نفس الشيء؛ ليس نفس الشيء، ليست نفس الذكرى، وليست كذلك نفس الفكرة هي التي تتمكّن منها كلتاها. سناء فكرة قصيرة: نكتب بالذاكرة القصيرة، وبالتالي بأفكار قصيرة حتى وإن قرأنا وأعدنا القراءة بالذاكرة الطويلة للمفاهيم الطويلة. الذاكرة القصيرة تفهم النسيان بوصفه مسارا؛ إنها لا تتطابق والآن وإنما مع الجذمور الجماعي، الزمّني [٢٥] والعصبي. الذاكرة الطويلة (الأسرة، العرق، المجتمع أو الحضارة) تستنسخ وترجم، لكنّ ما ترجمه يواصل عمله فيها، عن بعد، بشكل طارئ، «لا ترمّنيًا» وليس آنيًا.

الشجرة أو الجذر يوحيان بصورة حزينة للفكر الذي لا يتوقّف عن محاكاة الكثرة انطلاقا من وحدة عليا، وحدة مركز أو قطعة. فعليًا، عندما ننظر في مجموعة الأغصان-الجذور، فإنّ الجذع يلعب دور القطعة المضادة بالنسبة إلى إحدى المجموعات الفرعية التي يقع تأملها من الأسفل إلى الأعلى: مثل هذه القطعة ستكون «قطب ربط ثنائي» في اختلافه عن «الأقطاب الثنائية-الوحدات» التي تشكّلها الشعاعات المنطلقة من مركز واحد^(١). لكنّ الترابطات يمكنها هي ذاتها أن تتكاثر

(١) راجع، جوليان باكوت، الشبكة الشجرانية، الرّسمة الأولانية للفكر، نشر هرمان، ١٩٣٦. يدرس هذا الكتاب ويحلّل رسيّمات متنوّعة للشكل الشجرانيّ الذي لم يقع تقديمه بوصفه مجرد شكلايّة وإنما بوصفه «الأساس الحقيقيّ للفكر الشكلاّنيّ». إنه يدفع الفكر الكلاسيكيّ إلى متناه. إنه يجمع كلّ أشكال «الواحد-اثنين»، نظرية القطب الثنائيّ. المجموعة جذع-جذور-أغصان ينتج عنها الرّسم التالي:

كما في النظام الجُذيرِيّ، ولا نخرج البتّة من الواحد- اثنين ومن الكثرات الترمويهية وحسب. التجدّدات والاستنساخات والأوبّات والهيدرات والهلاميات لن تخرجنا هي أيضا من ذلك. الأنظمة الشجرانية هي أنظمة تراتبية تتضمّن مراكز إدلال وذتيّة وأجهزة آليّة كما ذاكرات مننّمة. ذلك أنّ النماذج الموافقة لها هي على نفس الحال بحيث أنّ عنصرا لا يتلقّى فيها معلوماته إلّا من وحدة عليا، وتخصيصا ذاتيا إلّا من ترابطات معدّة سلفا. نلاحظ ذلك بوضوح في المشكلات الرّاهنة للإعلامية والمكنات الإلكترونيّة التي ما زالت تحتفظ بأقدم فكر من حيث أنها تمنح السلطة لذاكرة أو لجهاز مركزيّ. في مقال جيّد يشجب «تصوير شجرانيّات القيادة» (منظومات مرّكزة أو بُنى تراتبية)، يلاحظ بيار روزنستيال وجون بتيو أنّ: «التّسليم بأولوية البنى التراتبيّة يعني تفضيل البنى الشجرانيّة (...) الشكل الشجرانيّ يقبل تفسيراً طوبولوجيا (...)» في نظام تراتبيّ، لا يقبل الفرد غير مجاور واحد ناشط هو رئيسه. (...) قنوات [٢٦] الإيصال مُعدّة مسبقا: الشجرانية توجد قبل الفرد الذي يندمج صلبها في مكان محدّد» (إدلال وذتيّة). بهذا الخصوص، يشير المؤلّفان إلى أنه حتى عندما نعتقد أنّنا وصلنا إلى كثرة فإنّه يمكن أن تكون هذه الكثرة زائفة- وهو ما نسميه النّمط الجُذيرِيّ- لأنّ عرضها أو إعلانها الظّاهريّ الغير تراتبيّ لا يسمحان فعليا إلّا بحلّ تراتبيّ بالتّمام: هكذا هي المبرهنة الشهيرة، مبرهنة



بشكل أكثر دقة، يحلّل ميشال سارّ أصناف الأشجار وسلسلاتها في المجالات العلمية الأكثر اختلافا: كيف تتشكّل الشجرة انطلاقا من «شبكة» (الترجمة، مينيوي، ص ٢٧ وما بعدها؛ نيران وعلامات ضباب، غراسيه، ص ٣٥ وما بعدها).

الصِّدَاقَة، «إذا كان لشخصين في مجتمع ما، صديق مشترك، فإنه يوجد بالتالي فرد صديق لكلّ الآخرين» (مثلما يقول روزنستياي وبتيتو، من هو الصِّدِيق المشترك؟) «الصِّدِيق الكلِّي لهذا المجتمع الذي هو مجتمع الأزواج، السيد، المعترف، الطبيب؟ الكثير من الأفكار البعيدة بشكل غريب عن بديهيات المنطقي»، صديق الجنس البشري؟ أو هو الفيلسوف مثلما يبدو في الفكر الكلاسيكي، حتى وإن كانت الوحدة المجهُضَة التي لا قيمة لها إلّا بغيابها الخاصّ أو بذاتيتها، قائلة أنا لا أعرف شيئاً، أنا لا شيء؟) يتحدّث المؤلّفان بهذا الصّدّد عن مبرهّنات الديكتاتورية. هو ذا مبدأ الأشجار- الجذور، أو المنفذ، ذوبان الجُذُيرات، بنية السّلطة^(١).

هذه الأنظمة ذات المركز يقابلها المؤلّفان بأنظمة لا مركز لها، شبكات أجهزة آلية محدّدة يتمّ فيها التواصل من مجاور إلى مجاور آخر أيّا كان، حيث لا توجد القضبان أو الأقنية وجوداً مسبقاً، حيث يتعاوض الأفراد جميعهم، يعرفون فقط بحالة في لحظة محدّدة، بحيث تتناسق العمليات الموضوعية وبحيث تكون النتيجة النهائية الشاملة مُزامنة باستقلال عن الهيئة المركزية. نقلة لاقحة لحالات اشتدادية تحلّ محلّ الطوبولوجيا، و«المِبيان المنظّم لتداول المعلومة هو إلى حدّ ما نقيض المِبيان التراتبيّ... لا سبب يجعل المِبيان شجرة» (كنّا أسميناً مثل هذا المِبيان خارطة). المسألة مسألة مكنة حرب أو مسألة فرقة إطلاق النار: هل الجنرال ضروريّ حتى يصل عدد من الأفراد في نفس الوقت إلى حالة إطلاق النار؟ من جهة جذمور حرب أو من جهة منطق حرب

(١) بيار روزنستياي وجان بتيتو، «الجهاز الآلي اللا اجتماعي والأنظمة التي لا مركز لها»، في تواصليات عدد ٢٢، ١٩٧٤. بخصوص مبرهنة الصِّدَاقَة، راجع أيضاً هربارت صول ويلف، مبرهنة الصِّدَاقَة في التوافقية الرِّياضيّة، مطابع والش الأكاديمية؛ وبخصوص مبرهنة من نفس النوع تسمّى مبرهنة التحجّر الجماعيّ، راجع كانات جوزيف أزو، اختيار جماعيّ وأفضليات فردية، نشر كالمان ليفي.

عصابات، وُجد الحلّ من دون جنرال بالنسبة إلى كثرة غير ذات مركز تشمل عددا محدودا من الحالات ومن علامات السّعة المتطابقة معها، دون نقل نظام مركزيّ ودون استنساخه. إننا نبرهن حتى على أنّ مثل هذه الكثرة، هذا التنضيد أو هذا المجتمع، المكنيّة كلها، ترفض كلّ جهاز آليّ ممركز وموحد بوصفه [٢٧] «دخيلًا اجتماعيًا»^(١). مذكّ، العدد ن هو دائما ن-١. يلخّ روزنستيال وبتيو على أنّ قيمة التقابل مركز- من دون مركز ليست في الأشياء التي يعيّن بها بقدر ما هي في صيغ الحساب الذي يطبّقه على الأشياء. يمكن لأشجار أن تتوافق مع جذمور أو على العكس من ذلك تتبرعم جذموريًا. صحيح بشكل عامّ أنّ نفس الشيء يقبل صيغتيّ الحساب أو نمطيّ التنظيم، لكن ليس من دون أن يغيّر وضعه خصيصا في الحالتين جميعا. ليكن التحليل النفسيّ مرّة أخرى على سبيل المثال: ليس في نظريته وحسب وإنما في ممارسة حسابه وعلاجه، إنه يُخضع اللاوعي لبنى شجرانية، لميانيات تراتبية، لذاكرات إيجازية، لأعضاء مركزية مثل القضيب والشجرة- القضيب. لا يمكن للتحليل النفسيّ أن يغيّر منهجه بهذا الخصوص: إنه يقيم سلطته الديكتاتورية الخاصّة على تصوّر ديكتاتوريّ للاوعي. وهكذا

(١) م. ن، الخاصية الأساسية للمنظومة التي لا مركز لها، هو كون المبادرات الموضوعية متناسقة باستقلال عن هيئة مركزية، ذلك أن الحساب يتمّ في جملة الشبكة (الكثرة). «لأجل ذلك، الموضع الوحيد الذي يمكن أن يتكوّن فيه ملفّ للأشخاص، هو عند هؤلاء الأشخاص ذواتهم، القادرين هم وحدهم على حمل توصيفهم وعلى صيانتهم: المجتمع هو الملفّ الوحيد الممكن للأشخاص. مجتمع طبيعيّ من غير مركز يرفض الجهاز الآليّ الممركز بوصفه دخيلًا اجتماعيًا» (ص ٦٢). بخصوص «مبرهنة فرقة إطلاق النار»، صص ٥٠-٥٧. بل يحدث حتى عند الجنرالات، في حلمهم بامتلاك التقنيات الصورية لحرب العصابات، أن يلتجئوا إلى كثرات «وحدات متزامنة»، «قاعدتها خلايا خفيفة كثيرة لكنها مستقلّة»، لا تشمل نظريًا غير القليل من السلطة المركزية و«التعاقب التراتبيّ»: كذا الحال عند غي بروسولاي، بحث في بطلان المعركة، نشر بلان، ١٩٧٥.

يكون هامش مناورة التحليل النفسي محدودا جدًا. ثمة دائما جنرال وقائد في التحليل النفسي كما في موضوعه (الجنرال فرويد). على النقيض من ذلك، في التعاطي مع اللاوعي بوصفه نظاما لا مركز له، أي بوصفه شبكة مكنية لأجهزة آلية متناهية (جذمور)، يصل التحليل الفصامي إلى حالة أخرى للاوعي مغايرة تماما. نفس الملاحظات تنطبق على اللسانيات؛ كان روزنستال وبتيو محققان في ملاحظتهما إمكان «تنظيم لا مركز له لمجتمع من الكلمات». بالنسبة إلى الملفوظات كما بالنسبة إلى الرغبات، لا تتعلّق المسألة إطلاقا باختزال اللاوعي وتأويله ولا بجعله يدلّ تبعا لشجرة. تتعلّق المسألة بإنتاج اللاوعي، ومعه بملفوظات جديدة ورغبات جديدة: الجذمور هو هذا الإنتاج للاوعي ذاته.

من الغريب أن تكون الشجرة قد هيمنت على الواقع الغربي وعلى كامل الفكر الغربي، من علم النبات إلى البيولوجيا وعلم التشريح، لكن كذلك إلى الغنوصية والشيولوجيا والأنطولوجيا وإلى الفلسفة [٢٨] بكاملها... : الأساس - الجذر، العلة، الجذور والأسس. للغرب علاقة متميّزة بالغابة وبقطع الأشجار؛ الحقول التي تمّ ربحها بالزحف على الغابة تمّ تعميرها بنباتات ذات بذور، إنها موضوع زراعة سلالية تتعلّق بالتنوع وهي من نمط شجرانيّ؛ تربية الماشية المنتشرة من ناحيتها على الأراضي البور، تنتقي سلالات تُشكّل شجرانية حيوانية بكاملها. يمثل الشرق صورة أخرى مغايرة: العلاقة بالسّهوب وبالحديقة (في حالات أخرى، الصحراء والواحة)، عوضا عن العلاقة بالغابة وبالحقل؛ زراعة دَرَنات تعمل وفق تجزئة الفرد؛ استبعاد أو تعليق تربية الماشية المحبوسة في فضاءات مغلقة أو إبعادها إلى سهوب الرّحل. غرب، زراعة لسلالة مختارة مع الكثير من الأفراد المتغيّرين؛ شرق، بستنة عدد صغير من الأفراد بالإحالة على سلسلة كبرى من «النّسيّلات». ألا يوجد في الشرق وخاصة في أوقيانوسيا ما يشبه

النموذج الجذموريّ الذي يتعارض من جميع التّواحي مع النموذج الغربيّ للشجرة؟ حتى أنّ هودريكور (Haudricourt) يرى في ذلك سببا للتقابل بين أخلاق أو فلسفات التعالي العزيزة على الغرب وبين المحايثة في الشّرق: الإله الذي يزرع ويحصّد بالتقابل مع الإله الذي يَخز وينبش (الحَقن ضدّ البذر^(١)). التعالي مرض خاصّ بأروبا. وليست نفس الموسيقى، ليس في الأرض نفس الموسيقى. وليست نفس الجنسانية على الإطلاق: التّباتات ذات البذور حتّى وإن جمّعت الجنسّين فإنّها تُخضع الجنسانية لنموذج الإنجاب؛ على العكس من ذلك يكون الجذمور تحريرا للجنسانية، ليس بالنسبة إلى الإنجاب وحسب وإنما بالنسبة إلى التناسل. عندنا، انزعت الشجرة في الأجساد، لقد صلّبت ورصّفت حتّى الأجناس. لقد أضعنا الجذمور أو العشب. يقول هنري ميلار: «الصين هي العشبة الطفيلية في مربّع كرُنب الإنسانية. (...) العشبة الطفيلية هي عدوّ الجهود البشرية. في كلّ أشكال الوجود المتخيّلة التي نمنحها للنباتات والحيوانات والنجوم، لعلّ العشبة الطفيلية هي التي تحيا الحياة الأكثر حكمة. من الحقيقيّ أنّ العشب لا ينتج لا أزهارا ولا حاملة طائرات ولا مواعظ على الجبل. (...) لكن في نهاية المطاف للعشب دائما الكلمة الأخيرة. في نهاية المطاف كلّ شيء يعود إلى حالة الصين. ذلك هو ما يسمّيه المؤرّخون [٢٩] عادةً ظلمات القرون الوسطى. لا منفذ غير العشب. (...) لا

(١) بخصوص الزراعة الغربية للنباتات ذات البذور والبستنة الشرقية للدّرّنات، بخصوص التقابل بين البذر-الوخز، بخصوص الفروق بالنسبة إلى تربية الحيوان، راجع هودريكور، «تدجين الحيوانات، زراعة النباتات ومعاملة الآخر»، (الإنسان، ١٩٦٢) و«أصل النّسيلات والأرهاب» (الإنسان، جانفي ١٩٦٤). الدّرة والأرز لا يمثّلان دحضا لذلك التقابل: إنهما حبوب «اعتمدها زارعو الدّرّنات بشكل متأخّر» وتمّت معالجتهم بكيفية ملائمة، من المحتمل أن يكون الأرز «ظهر بوصفه عشبة طفيلية في خنادق القلقاش».

يوجد العشب إلّا بين الفضاءات الكبرى التي بقيت بورا. العشب يملأ الفراغات. إنه يَنبت بين، ووسط الأشياء الأخرى. الزهرة جميلة، الكُرنب مفيد، الخشخاش يُجنّن. لكنّ العشب فينص، ذلك درس في الأخلاق^(١). - عن آية صين يتحدث ميلار، عن الصين القديمة، الحالية، المتخيّلة، أو عن صين أخرى أيضا قد تشكّل جزءاً من خارطة متحرّكة؟

قد يجب أن نخصّص مكانا على حدة لأميركا. بالتأكيد هي ليست مستثناة من هيمنة الأشجار ومن بحث عن الجذور. نلاحظ ذلك حتى في الأدب، في تعقّب هوية قومية، وحتى في البحث عن نسب أو عن جنياولوجيا أوروبية (ينطلق كرواك (Kerouac) من جديد للبحث عن أسلافه). غير أنّ كلّ ما حدث من مهمّ، كلّ ما يحدث من مهمّ يعمل بجذمو أميريكيّ: المتهتكون، السريون، السردايون، الجماعات والعصابات، طفرات جانبية متتابعة في ترابط مباشر مع خارج. ثمة فرق بين الكتاب الأميركيّ والكتاب الأوروبيّ حتى عندما يبدأ الكتاب الأميركيّ بتعقّب الأشجار. فرق في تصميم الكتاب. «أوراق عشب». والوجهات ليست هي نفسها في أميركا: إنه في الشرق يتمّ البحث الشجرانيّ والعودة إلى العالم القديم. لكنّ الغرب جذموريّ، بهنوده دون نسب، بحده الهارب دوما، بحدوده المتحرّكة والمتنقلة. «خارطة» أميركية بكاملها في الغرب، حيث حتى الأشجار تتجذمر. أميركا قلبت الوجهات: لقد وضعت شرقها في غربها وكأنّ الأرض كانت أصبحت مدوّرة بالتحديد في أميركا؛ غربها هو حافة الشرق ذاتها^(٢). (ليست

(١) هنري ميلار، هاملت، كوربا، صص ٤٨ - ٤٩.

(٢) راجع، ليسلي فيادلار، عودة الهنود الحمر، نشر سوي. نجد في هذا الكتاب تحليلا جيّدا للجغرافيا، لدورها الميثولوجي والأدبيّ في أميركا، ولقلب الوجهات. في الشرق بحث عن تقنين أميركيّ بشكل خاص، وكذلك عن إعادة تقنين مع أوروبا (هنري جايمس، أليوت، باوند، إلخ.)؛ شطط التقنين العبوديّ

الهند هي الوسيط بين الغرب والشرق مثلما كان يعتقد هودريكور، أميركا هي محور الاستقلاب وآليته). المغنّية [٣٠] الأميركية باتي سميث (Patti Smith) تُشدّ إنجيل طبيب الأسنان الأميركيّ: لا تبحثوا عن جذر، اتّبِعُوا القنال...

ألا توجد أيضا بيروقراطيتان وحتى ثلاث بيروقراطيات (بل وأكثر من ذلك)؟ البيروقراطية الغربية: أصلها الزّراعيّ، العقاريّ، الجذور والحقول، الأشجار ودورها كحدود، التعداد السّكّانيّ الكبير لغيوم الغازي، الإقطاعية، سياسة ملوك فرنسا، إقامة الدّولة على المِلْكِيّة، الاستيلاء على الأراضي بالحرب، المحاكمات والزيجات. ملوك فرنسا يختارون الرّزّيق لأنّه نبتة ذات جذور عميقة تتدلّى في المنحدرات. أهو نفس الأمر في الشرق؟ بالطبع، من السّهل جدّا تقديم شرق مكوّن من الجذمور والمحايثة؛ لكنّ الدّولة لا تعمل فيهما وفق رسم شجرانيّ مطابق لطبقات محدّدة سلفا، طبقات مُشجّرة ومتجذّرة؛ إنها بيروقراطية قنوات، مثال ذلك، السلطة المائية الشهيرة ذات «المِلْكِيّة الضعيفة»، حيث تفرز الدّولة طبقات موجّهة وموجّهة (وهو ما لم يقع دحضه قطّ في أطروحات فيتفوجيل). يعمل المستبدّ في ذلك بصفته نهرا وليس بصفته عينا ستظلّ نقطة، نقطة- شجرة أو جذرا؛ إنه يتآلف مع المياه أكثر من جلوسه تحت الشجرة؛ وشجرة بوذا ذاتها تصبح جذمورا؛ نهر ماوو

في الجنوب، مع انهياره الخاصّ وخراب المزارع في الحرب الأهلية (فولكنار، كالدوال)؛ فكّ التقنين الرّأسماليّ الآتي من الشمال (دوس باسّوس، درايزر)؛ لكنّ دور الغرب بوصفه خطّ إفلات، هو الذي يقترن فيه السّفر والجنون والهنديّ والتجريب الإدراكيّ والدّهنيّ وحركة الحدود والجذمور (كين كيزاي ومكنته التي هي «مكنة الضّباب»؛ جيل المتهتكين، إلح.). كلّ كاتب أميركيّ كبير يقوم برسم خارطة حتى لأسلوبه؛ على العكس ممّا يحدث عندنا، هو يرسم خارطة ترتبط مباشرة بالحركات الاجتماعية الواقعية التي تعبر أميركا. على سبيل المثال، تعيين الوجهات الجغرافية في كامل آثار فيتزجيرالد.

وشجرة لويس. هنا أيضا، ألم تعمل أميركا بوصفها وسيطا؟ ذلك أنها تعمل في نفس الوقت بالإبادات والتصفيات الدّاخلية (ليس للهنود وحسب بل للمزارعين، إلخ.) وبطفرات هجرات خارجية متلاحقة. اندفاق رأس المال يُحدث فيها قناة ضخمة، تكميما للسلطة، مع «كوانتات» مباشرة حيث يستفيد كلّ واحد على طريقته في عبور الاندفاق- المال (من هنا الميثة- الواقع للفقير الذي يصبح مليارديرا ليصبح فقيرا من جديد): هكذا يجتمع كلّ شيء في أميركا، في نفس الوقت الشجرة والقناة، الجذر والجذمور. لا وجود لرأسمالية كئيّة وفي ذاتها، الرأسمالية قائمة في تقاطع كل ضروب التشكّلات، إنها دائما رأسمالية جديدة بالطبيعة، إنها تبتكر للأسوأ وجهها الشرقيّ ووجهها الغربيّ وتحويرها للإثنين.

مع كلّ هذه التوزيعات الجغرافية، نحن في نفس الوقت على طريق سيئة. ذلك ردّب، نعم الأمر. إذا تعلّق الأمر ببيان أنّ الجذامير لها هي أيضا استبدادها الخاصّ ومراتبيتها الخاصّة وهما أكثر صلابة، فذلك جيّد، إذ لا وجود لثنائية، لا وجود لثنائية أنطولوجية هنا وهناك، لا وجود لثنائية أكسيولوجيّة للجيّد والردّيء، لا وجود لخليط أو لشميلة أميركية. ثمّة عقّد شجرانية في الجذامير وطفرات جذمورية في الجذور. بل أكثر من ذلك ثمّة تشكّلات استبدادية، تشكّلات محايدة وتوجيه خاصّة بالجذامير. ثمّة تشويهاات فوضوية في النظام المتعالي للأشجار، جذور هوائية وقضبان تحأرضية. المهمّ [٣١] هو أنّ الشجرة- الجذر والجذمور- القناة لا يتعارضان تعارض نموذجين: يعمل الأوّل بوصفه نموذجا وبوصفه استنساخا متعاليّين، حتى وإن أفرز انفلاتاته الخاصّة؛ يعمل الآخر بوصفه سيرورةً محايدةً تقلب النموذج وترسم خارطة، حتى وإن كوّن مراتبيّاته الخاصّة، حتى وإن أحدث قناة استبدادية. لا يتعلّق الأمر بهذا الموضع أو ذاك على الأرض ولا بهذه اللحظة في التاريخ، وأقلّ من ذلك بهذه المقولة أو تلك في الفكر. يتعلّق الأمر بالنموذج

الذي لا يتوقّف عن الانتصاب والغوص، وبالسيرورة التي لا تتوقّف عن التمدّد، عن الانكسار وعن استعادة المسار. ثنائية جديدة أو أخرى، لا. مشكل الكتابة: من الضروريّ أن نجد بشكل مطلق عبارات لا دقيقة لتعيين شيء ما بشكل دقيق. وما ذلك البتة لأنه يتوجّب المرور من هناك، وما ذلك البتة لأنه لا يمكننا إلّا العمل من خلال الاحتمالات: التّحير ليس أبدا تخمينا، على العكس من ذلك هو النّاقل الدقيق لما يحدث. نحن لا نستحضر ثنائية إلّا لاستبعاد أخرى. نحن لا نستعمل ثنائية النماذج إلّا من أجل الوصول إلى سيرورة تستبعد كلّ نموذج. يجب أن يكون ثمة في كلّ مرّة مقومات عصبية تفكّك الثنائيات التي لم نسع إلى إقامتها والتي نعبرها. الوصول إلى الصيغة السحرية التي نبحث عنها جميعنا: التعدّدية = أحادية، مرورا بكلّ الثنائيات التي هي العدو، لكنه العدو الضروري حتما، هو الأثاث الذي لا نتوقّف عن نقله من موضع إلى آخر.

لنلخّص الخصائص الأساسيّة لجذمور: على خلاف الأشجار أو جذورها، يربط الجذمور نقطة ما مع نقطة أخرى ما، وكلّ واحدة من خصائصه لا تحيل بالضرورة إلى خصائص من نفس الطبيعة، إنه يشغل نُظُم علامات شديدة الاختلاف بل وإلى حالات عدم علامات. الجذمور لا يرتدّ لا إلى الواحد ولا إلى الكثرة. إنه ليس الواحد الذي يصبح إثنين، ولا حتى الذي قد يصبح مباشرة ثلاثة، أربعة أو خمسة، إلخ. إنه ليس كثرة مشتقة من الواحد ولا هو ما قد ينضاف إليه الواحد (ن+١). إنه ليس مقدودا من وحدات وإنما من أبعاد، أو بالأحرى من وجهات متحرّكة. ليس له لا بداية ولا نهاية، لكن له دائما وسط، منه ينمو ويمتدّ. إنه يكون كثرات خطيّة ذات أبعاد لا نهائية، لا ذات ولا موضوع لها، أبعادا يمكن بسطها على مسطح اتّساق، ويكون الواحد مطروحا منها بشكل دائم (ن-١). مثل هذه الكثرة لا تُنوّع أبعادها دون تغيير طبيعتها ودون انقلاب عينها. على النقيض من بنية تتحدّد

بمجموعة من النقاط والوضعيات، بعلاقات ثنائية بين هذه النقاط وبروابط مزدوجة بين هذه الوضعيات، يكون الجذمور مقدودا من خطوط وحسب: خطوط مقطعية وتراصف بوصفها أبعادا، لكن كذلك خطّ إفلات أو لا تأرضن بوصفه [٣٢] بعدا أقصى، طبقا له وباتباعه، تنقلب عين الكثرة محوّلة طبيعتها. لن نخلط بين مثل هذه الخطوط أو التَّخْطُّطات وبين السلالات التي هي من نوع شجرانيّ والتي هي روابط يمكن تحديد مواضعها بين النقاط والوضعيات وحسب. على العكس من الشجرة، الجذمور ليس موضوع استنساخ: لا هو استنساخ خارجيّ مثل الشجرة- الصّورة ولا هو استنساخ داخليّ مثل البنية- الشجرة. الجذمور جنيا لوجيا مضادّة. إنه ذاكرة قصيرة أو ذاكرة مضادّة. يعمل الجذمور تنويعا وتوسّعا وغزوا وغُنما وحَقْنَا. على النقيض من الرّسم والتصوير أو الصّورة، على النقيض من الاستنساخات، يتعلّق الجذمور بخارطة يجب أن تُنتج وتُبنى وتكون قابلة دائما للتفكيك والربط والقلب والتبديل، تكون ذات مداخل ومخارج كثيرة، مع خطوط إفلاتها. الاستنساخات هي التي يجب إرجاعها إلى الخارطات وليس العكس. ضدّ الأنساق المُمرّكة (حتى متعدّدة المراكز)، ذات التواصل التراتبيّ والترابطات المعيّنة مقدّما، يكون الجذمور نظاما لا مركز له، غير تراتبيّ وغير دالّ، لا جنرال له ولا ذاكرة منظّمة أو جهازا آليّا مركزيّا، إنه يتحدّد بحركة الحالات وحسب. يتعلّق الأمر في الجذمور بالعلاقة مع الجنسانية، لكن كذلك مع الحيوان والنبات والعالم والسياسة والكتاب والأشياء الطبيعيّة والصّنعية، علاقة مختلفة تماما عن العلاقة الشجرانية: إنها كلّ ضروب «الصيرورات».

السّطيحة قائمة دائما في الوسط، لا بداية ولا نهاية. الجذمور مكوّن من سطيحات. يستعمل غريغوري باتسون كلمة «سّطيحة» للإشارة إلى شيء ما شديد الخصوصية: إنه منطقة شدّد متصلة، مرتجة فوق ذاتها وتتطوّر متحاشية كل توجيه على نقطة الدّروة أو باتّجاه غاية خارجية.

يذكر باتسون مثال الثقافة الباليينية [جماعة عرقية في أندونيسيا] حيث الألعاب الجنسية بين الأم والطفل أو النزاعات بين الرجال، تمرّ بهذا التثبيت الاشتداديّ الغريب. «نوع من السّطيحة المتّصلة من الشّدّة هو الذي يعوّض النّشوة الجنسية»، يعوّض الحرب أو نقطة الذّروة. إنها خاصية مؤسفة للفكر الغربيّ أن يجعل العبارات والأفعال تابعة لغايات خارجية أو متعالية، عوض تقويمها على سطيحة محايدة وفق قيمتها الذاتية^(١). على سبيل المثال، من حيث أنّ كتابا يكون مكوّنًا من فصول فإنّ له نقاط ذروته، نقاط نهايته. على العكس من ذلك ما الذي يحدث بالنسبة إلى كتاب مكوّن من سطيحات يتواصل بعضها مع بعضها الآخر عبر شقوق صغرى، كما بالنسبة إلى دماغ؟ نسّمى [٣٣] «سّطيحة» كلّ كثرة قابلة للرّبط مع سطيحات أخرى بقضبان تحأرضية سطحية، بكيفية تمكّن من تشكيل جذمور ومدّه. نحن نكتب هذا الكتاب على شاكلة جذمور. لقد كوّنناه من سطيحات. لقد أعطيناه شكلا دائريّا، لكننا كنّا نمزح. كنّا نستيقظ كلّ صباح، وكان كلّ واحد منّا يتساءل عن السّطيحات التي يأخذها وهو يخطّ خمسة أسطر هنا، عشرة أسطر هناك. لقد كانت لنا تجارب هلوسية، لقد رأينا خطوطا وكأنها طوابير من النمل الصغير، مغادرةً سطيحة للوصول إلى أخرى. لقد قمنا بدوائر تقارب. يمكن أن تُقرأ آية سطيحة في أيّ موضع وأن تُربط بأيّة سطيحة أخرى. تستوجب الكثرة منها أن ينجزها فعليّا؛ هذا المنهج لا يمكن أن تعوّضه لا خدعة مطبعية، لا مهارة معجمية، لا خلط للكلمات أو لا ابتداعها ولا جرأة تركيبية. هذه كلها ليست في الغالب غير طرائق محاكاتية مخصّصة لبعثرة أو لتفكيك وحدة تظلّ قائمة في بعد آخر لكتاب- صورة. تكنو- نرجسية. الاختراعات المطبعية والمعجمية أو

(١) باتسون، نحو إيكولوجيا للفكر، الجزء الأوّل، سوي، صص ١٢٥-١٢٦. سلاحظ أنّ كلمة «سّطيحة» قد استعملت كلاسيكيّا في دراسة الأبصار والدّرنات والجذامير: راجع معجم علم النبات لبايون، مقال «بصلة».

التركيبية ليست ضرورية إلّا إذا توقّفت عن الانتماء إلى الشكل التعبيري لوحدة مخفية لتصبح هي ذاتها واحدة من أبعاد الكثرة موضوع النظر؛ نحن نعرف نجاحات نادرة من هذا النوع^(١). في ما يخصّنا، لم نتمكن من القيام بذلك. لقد استعملنا وحسب، كلمات تعمل عندنا من ناحيتها بوصفها سطّحات. جذموريّ = تحليل فصاميّ = تحليل تراصفيّ = تداولية = سياسة مجهرية. مفاهيم هي هذه الكلمات لكن المفاهيم خطوط، أي منظومات أعداد مرتبطة بهذا البعد أو ذاك من أبعاد الكثرة (طبقات، سلسلات هبائية، خطوط إفلات أو قَطْع، دوائر تقارب، إلخ.). ولا بحال من الأحوال نحن ندّعي علما. نحن لا نعرف علميةً بأكثر ممّا نعرف إيديولوجيا، وإنما نعرف تنضيدات وحسب. ولا وجود إلّا لتنضيدات مكنية للرغبة، بوصفها تنضيدات جماعية للتلفّظ. لا وجود لإدلال ولا لذينة: الكتابة بشكل محايد (كلّ تلفّظ مفردن يظلّ حبيس الدلالات المهيمنة، كلّ رغبة دالّة تحيل إلى ذوات مهيمن عليهم). بالضرورة وفي نفس الوقت يشتغل التنضيد في كثرته على اندفاعات سيميائية، اندفاعات مادية واندفاعات اجتماعية (بغض النظر عن إمكان استعادته في مدوّنة نظرية أو علمية). لم يعد لدينا تقسيم ثلاثي بين حقل الواقع الذي هو العالم، حقل [٣٤] التصرّو الذي هو الكتاب وحقل الذاتية الذي هو المؤلف. لكنّ تنضيدا يربط بعض الكثرات المأخوذة في كل واحد من هذه الترتيبات، بحيث أنّ كتابا لا امتداد له في الكتاب اللاحق، ولا موضوع له في العالم ولا ذات له في مؤلّف أو في العديد من المؤلّفين. باختصار، يبدو لنا أنّ الكتابة لن تكون أبدا بشكل كاف باسم خارج. الخارج لا صورة ولا دلالة ولا ذاتية له. الكتاب تنضيد مع الخارج، ضدّ الكتاب - صورة العالم. كتاب - جذمور ولم يعد تفريعا ثنائيا، دَوّارا أو حُزيميا. لا امتداد لجذر

(١) كما مع جويل دي لاكرانير، حتمي بإطلاق، مينوي، وهو كتاب مترحل حقّا. في نفس الاتجاه، راجع بحوث «مركز مونفوكون للأبحاث».

على الإطلاق ولا زرعه مع أنه من العسير ألا نسقط مجدداً في هذه الطرائق القديمة. «الأشياء التي تخطر ببالي لا تحضر عندي بجذرها وإنما بنقطة ما قائمة باتجاه وسطها. حاولوا إذاً الاحتفاظ بها، حاولوا إذاً الاحتفاظ بقليل من العشب الذي لا يبدأ بالنمو إلا من وسط القضيب، وتمسكوا به»^(١). لِمَ الأمر عسير إلى هذا الحد؟ إنها بالفعل مسألة سيميائية إدراكية. من غير اليسير إدراك الأشياء من الوسط وليس من الأعلى إلى الأسفل أو العكس، من اليسار إلى اليمين أو العكس: حاولوا وسترون أنّ كلّ شيء يتغيّر. ليس من اليسير رؤية العشب في الأشياء وفي الكلمات (بنفس الشكل كان نيتشه يقول إنّ حكمة يجب أن تكون «مُجتَرّة»، وإنّ المنبسط لا ينفصل عن الأبقار التي تعمّره، والتي هي كذلك سحب السّماء).

نكتب التاريخ، لكننا كتبناه دائماً من وجهة نظر المقيمين، وباسم جهاز واحدٍ للدولة، وهو على الأقلّ ممكن حتى عندما كنّا نتحدّث عن المترحّلين. ما ينقصنا هو مبحث ترَحُّلٍ مناقض للتاريخ. لكن هنا أيضاً ثمة نجاحات نادرة وكبرى، على سبيل المثال بخصوص الحملات الصليبية للأطفال: كتاب مارسيل شُوب (Marcel Schwob) الذي يعدّ الروايات وكأنها سطّحات ذات أبعاد متحوّلة. كتاب أندرجوسكي (Andrzejewski)، أبواب الفردوس، المعمول من جملة واحدة، متّصلة، اندفاق أطفال، اندفاق مشي مع المراوحة في نفس المكان، تمُدّد، استعجال، اندفاق سيميائيّ لكلّ اعترافات الأطفال الذين يأتون للتصريح للرّاهب العجوز على رأس الموكب، اندفاق رغبة وجنسانية، كلّ واحد رحل بمحبّة، تقوده تقريبا بشكل مباشر الرغبة السوداء اللاحقة واللّوادية لكونت فاندوم، مع دوائر تقارب- ليس الأساسيّ هو أن تصنع الاندفاعات «واحداً أو كثرة»، لقد تجاوزنا ذلك: ثمة تنضيدٌ

(١) كافكا، يوميات، غراساي، ص ٤.

تلفظ جماعي، تنضيد رغبة مكني، أحدهما في الآخر، وهما موصولان بخارج مذهب يكون كثرة على أية حال. ثم في الآونة الأخيرة، كتاب التفكك لأرماند فراشي (Armand Farrachi) حول الحملة الصليبية الرابعة، حيث تتباعد الجمل [٣٥] وتتشتت، أو تتدافع وتتماعى، والحروف أو الطباعة تبدأ بالتراقص، بقدر ما تهذي الحملة الصليبية^(١). هذه نماذج من الكتابة المترحلة والجدمورية. تتزوج الكتابة مع مكنة حرب وخطوط إفلات، تتخلّى عن الطبقات والمقطعيات والاستقرار وجهاز الدولة. لكن لم نحتاج مرة أخرى إلى نموذج؟ ألا يظلّ الكتاب «صورة» للحملة الصليبية؟ ألا توجد بعد وحدة محفوظة بوصفها وحدة دوارة في حالة شوب، بوصفها وحدة مجهضة في حالة فراشي، بوصفها وحدة الكونت الجثمانى في الحالة الأجل لأبواب الفردوس؟ أيتطلب الأمر ترحلا أعمق من ترحل الحملات الصليبية، ترحل المترحلين الحقيقيين، أو ترحل أولئك الذين لم يعودوا حتى يتحركون والذين لم يعودوا يحاكون شيئا؟ إنهم ينضدون وحسب. كيف سيجد الكتاب خارجا كافيا يتمكن معه من التنضيد في المتنافر، عوضا عن عالم للاستنساخ؟ الكتاب بما هو ثقافى فإنه بالضرورة استنساخ: استنساخ ذاته أولا، استنساخ الكتاب السابق لنفس المؤلف، استنساخ كتب أخرى أيا كانت الفروق بينها، نقل مستمر للمفاهيم والكلمات السارية، نقل للعالم الحاضر، الماضي أو المستقبل. لكن الكتاب المضاد للثقافة ما يزال من الممكن اختراقه بثقافة شديدة الثقل: غير أنه سيستعملها مع ذلك استعمالا فاعلا للنسيان وليس

(١) مارسال شوب، حملة الأطفال الصليبية، ١٨٩٦؛ جرزاي أندرجوسكي، أبواب الفردوس، ١٩٥٩، غاليمار؛ أرماند فراشي، التفكك، ١٩٧٤، ستوك. إنه بخصوص كتاب شوب كان بول ألفندري يقول إن الأدب في بعض الحالات كان يمكنه أن يجدد التاريخ ويفرض عليه «وجهات بحث حقيقية»؛ (المسيحية وفكرة الحملة الصليبية، الجزء الثاني، ألبان ميشال، ص ١١٦).

للذاكرة، استعمالَ تخلف وليس استعمال تقدم يحتاج تطويرا، استعمال ترخل وليس استعمال استقرار، استعمال خارطة وليس استعمال استنساخ. جذمورية = تحليل موسيقى شعبية، حتى وإن كان للشعب شيء آخر يفعله غير القراءة، حتى وإن ظلت كتل الثقافة الجامعية أو شبه العلمية مرهقة أو ثقيلة. ذلك أن العلم قد يكون مجنونا بالتمام إذا تركنا له العنان، انظروا إلى الرياضيات، إنها ليست علما وإنما هي لغة اصطلاحية عجيبة وترحلية. حتى في الميدان النظري، وخاصة في هذا الميدان، أية سقالة هشة وبراعماتية هي أفضل من استنساخ المفاهيم مع قطيعاتها وتطوراتها التي لا تغير شيئا. القطيعة التي تند عن الإدراك بدلا من القطيعة الدالة. لقد اخترع المترحلون مكنة حرب ضد جهاز الدولة. التاريخ لم يفهم الترحل أبدا، الكتاب لم يفهم الخارج أبدا. خلال تاريخ طويل كانت الدولة نموذج الكتاب والفكر: اللوغوس، الفيلسوف- المملك، تعالوية الفكرة، داخلانية المفهوم، جمهورية الأرواح، محكمة العقل، [٣٦] موظفو الفكر، الإنسان المشرع والذات. سعي الدولة لأن تكون الصورة المستبطنة لنظام العالم ولتجذير الإنسان. لكن علاقة مكنة حرب مع الخارج ليست «نموذجا» آخر، إنها تنزيد يجعل الفكر يتحول هو ذاته إلى مترحل، الكتاب إلى قطعة لكل الممكنات المتحركة، يكون قضيبا لجذمور (كلايست وكافكا ضد غوته).

الكتابة للثابت ن، ن-١، الكتابة بشعارات: كونوا جذمورا وليس جذرا، لا تغرسوا البتة! لا تزرعوا، احقنوا! لا تكونوا واحدا ولا كثرة، كونوا كثرات! كونوا الخط وليس النقطة أبدا! السرعة تحول النقطة إلى خط^(١)! كونوا سريعين حتى في نفس المكان! خط خط!

(١) راجع، بول فريليو، «الناقل» في مترحلون ومتشردون، ١٨/١٠، ص ٤٣: بخصوص انبثاق الخطية وقلب الإدراك بواسطة السرعة.

خطّ خاصرة، خطّ إفلات. لا تستثيروا جنرا لا فيكم! لا أفكار صحيحة، بل مجرد فكرة (غودار). لتكن لديكم أفكار قصيرة. أنجزوا خارطات ولا تنجزوا صورا ولا رسومات. تكونوا النمر الوردى ولتكن محباتكم أيضا مثل الدّبّور والأوركيد، مثل القِطّ وقرد البابون. يقال عن الرجل العجوز - النهر:

مكتبة

t.me/soramnqraa

إنه لا يزرع بطاطس

لا يزرع قطنا

من يزرعه سريعا ما يُنسى

لكن نهر الرّجل العجوز يتابع مجراه.

الجدّمور لا يبدأ ولا ينتهي، إنه دائما في الوسط، بين الأشياء، إنه يبيكائن، إنه فاصل. الشجرة نَسْبُ أمّا الجدّمور فمصاهرة، للمصاهرة فقط. تفرض الشجرة فعل «كان»، لكنّ نسيج الجدّمور وَصُل «و... و... و...». ثمّة في هذا الوصل ما يكفي من القوّة لزعزعة الفعل كان واقتلاعه. إلى أين تذهبون؟ من أين تنطلقون؟ إلى أين تريدون الوصول؟ هذه الأسئلة مفيدة جدّا. الضرب صفحا عن كلّ شيء أو معاودة الانطلاق من الصفر، البحث عن بداية أو عن أساس، هذه جميعها تستتبع تصوّرا خاطئا للسّفر وللحركة (المنهجية، البيداغوجية، المسارية، الرمزية...). لكنّ كلايست، لانز أو بوكنار لهم طريقة أخرى في السّفر كما في الحركة، الانطلاق في الوسط، من الوسط، الدّخول والخروج، ليس البدء والانتها^(١). أكثر من ذلك، الأدب الأميركيّ وكذلك الأنغليزي هما اللّذان أبرزا هذا المعنى الجدّموريّ، عرفا كيف يتحرّكان بين الأشياء، وكيف يقيمان منطقا للمع، كيف

(١) راجع، جون كريستوف بايي، الخرافة المبعثرة، ١٨/١٠: توصيف الحركة في الرومنطيقية الألمانية، ص ١٨ وما بعدها.

يقلبان [٣٧] الأنطولوجيا، يزيلان الأساس، يلغيان النهاية والبداية. لقد عرفا كيف يصنعان تداولية. ذلك أنّ الوسط ليس معدّلاً، إنه على النقيض من ذلك المحلّ الذي تتزايد فيه سرعة الأشياء. لا يشير بين الأشياء إلى علاقة يمكن تحديد موضعها ذهاباً وإياباً من شيء إلى آخر، بل إلى وجهة تعامدية، إلى حركة عرضانية تجرف هذا الشيء وذاك، إلى سبيل لا بداية ولا نهاية له، يقضم جانبيه وتتزايد سرعته في الوسط.

٢. ١٩١٤ - ذئب واحد
أم كثرة من الذئاب؟



حقل آثار أقدام أو خطّ ذئب

في ذلك اليوم نزل رجل الذئاب من الأريكة متعباً للغاية. كان يعرف أنّ لفرويد عبقرية في ملامسة الحقيقة والمرور بجانبها، ثمّ في ملء الفراغ بالتراطات. كان يعرف أنّ فرويد لم يكن يعرف شيئاً عن الذئاب، ولا عن الشّراج [٣٩] أيضاً. فرويد كان يفهم فقط ما الذي كان يعنيه كلب وذئب كلب. لم يكن ذلك كافياً وقد لا يكون كافياً. رجل الذئاب كان يعرف أنّ فرويد قد يعلن قريباً أنه شفي، مع أنّ الأمر ليس كذلك إطلاقاً، وأنه قد يواصل العلاج إلى ما لا نهاية له مع روث (Ruth) ولاكان (Lacan) ولوكلار (Leclair). كان يعرف في النهاية أنه بصدد الحصول على اسم علم حقيقي، رجل الذئاب، اسم علم يعبر عنه أكثر من اسمه، بما أنه كان وصل إلى أرقى فرادة في الدّرك الآنّي لكثرة نوعية: الذئاب- لكن هذا الاسم الجديد، اسم العلم الحقيقي هذا، كان سيتمّ تشويهِه وكتابته بشكل خاطئ وإعادة تدوينه على أنه كنية.

غير أنّ فرويد من جانبه، كان سيكتب عمّا قريب بعض الصّفحات الرائعة. صفحات عملية تماماً، في مقال ١٩١٥ حول «اللاوعي»، بخصوص الفرق بين العُصاب والذهان. يقول فرويد إنّ هستيريا أو مهووساً هما شخصان قادران على المقارنة بشكل عامّ بين جورب وفرج، بين ندبة وخصي، إلخ. لا ريب أنهما يقاربان الموضوع بوصفه شاملاً ومفقوداً في نفس الوقت. لكن فهم الجلد شبقياً على أنه كثرة من المسام، من التّقط الصغيرة، من النّدبات الصغيرة أو من الثقوب الصغيرة، فهم الجورب شبقياً على أنه كثرة من الغرز، هذا هو ما لا يخطر على بال العُصابيّ، بينما الذّهانيّ قادر على ذلك: «نعتقد أنّ كثرة التّجويّفات الصغيرة قد تمنع العُصابيّ من استعمالها كبدايل للأعضاء التناسلية الأنثوية»^(١). مقارنة جورب وفرج، ذلك مقبول ونقوم به كلّ

(١) فرويد، الميتاسيكولوجيا، غاليمار، ص ١٥٣.

يوم، لكن يجب أن يكون المرء مجنوناً ليقارن محض مجموعة من العُزُر بحقل من الفُرُج: ذلك هو ما يقوله فرويد. ثمّة ههنا اكتشاف إكلينيكي هامٌّ جدًّا: هذا هو ما يشكّل فرقاً واضحاً في الأسلوب بين العُصاب والذهان. على سبيل المثال، عندما يُجهد سلفادور دالي نفسه لتكرير الهذيانات، بإمكانه أن يتحدّث مطوّلاً عن قرن وحيد القرن؛ ومع ذلك هو لا يخرج عن خطاب عُصابي. لكن عندما يشرع في المقارنة بين القشعريرة على الجلد مع مجال قرون صغيرة جدًّا لوحيد القرن، نشعر فعلياً بتغيّر الأجواء وبأننا دخلنا منطقة الجنون. وهل ما زال الأمر متعلّقاً بمقارنة؟ الأمر متعلّق بالأحرى بكثرة محض تُغيّر عناصرها أو هي تصوير. في المستوى المجهرّي «تصبح» البثرات قروناً، والقرون أيّوراً صغيرة.

لم يكد فرويد يكتشف أعظم فنّ للاوعي، هذا الفنّ الذي هو فنّ الكثرات الهبائية، حتى ظلّ يعود باستمرار إلى الوحدات الكتلية وإلى الالتقاء من جديد بمباحثه المعتادة، الدّأب، القضيب، الفرج، الخضاء... إلخ. (وهو على وشك اكتشاف [٤٠] جذمور، يعود فرويد دائماً إلى مجرّد جذور). طريقة الرّدّ مهمّة جدًّا في مقال ١٩١٥: يقول إنّ العُصابيّ يقود مقارناته أو مطابقات على تصوّرات الأشياء، بينما الذّهانيّ لم تعد لديه غير تصوّرات الكلمات (على سبيل المثال كلمة نُقْب). «إنها هوية التعبير اللفظيّ هي التي قادت اختيار البديل وليس تشابه الموضوعات هو الذي أملاه». وهكذا، إذا لم يكن ثمّة وحدة الشيء، ثمّة على الأقلّ وحدة الكلمة وهويتها. سنلاحظ أنّ الأسماء اتّخذت هنا استعمالاً موسّعاً، أي أنها تعمل بوصفها أسماء مشتركة تكفل توحيد مجموعة هي تستغرقها. اسم العَلَم لا يمكنه أن يكون إلّا حالة قصوى للاسم المشترك، متضمّناً في ذاته كثرته التي وقع تدجينها سلفاً وهو يسحبها على كائن أو على موضوع وقع افتراض أنه أوحده. ما وقعت المخاطرة به، من جهة الكلمات كما من جهة

الأشياء، هي علاقة اسم العلم بوصفه شِدَّة بالكثرة التي يقاربها فورياً. بالنسبة إلى فرويد، عندما يتشظى الشيء ويفقد هويته، فإنَّ الكلمة ما تزال حاضرة لتعيدها إليه أو لتبتدع له هوية جديدة. يعوّل فرويد على الكلمة لرأب وحدة لم تعد كائنة في الأشياء. ألسنا نواكب ولادة مغامرة لاحقة هي مغامرة الدالّ، هذه الهيئة الاستبدادية الماكرة التي تعوِّض هي ذاتها أسماء الأعلام غير الدالّة، كما تستبدل الكثرات بالوحدة البائسة لموضوع وقع الإعلان عن فقدانه؟

لسنا بعيدين عن الذئاب. ذلك أنّ إنسان الذئاب هو كذلك من سيراقت باستمرار، في فترته الثانية التي اعتُبر فيها دُهانيًا، تغيّرات الثقوب الصغيرة أو الندبات الصغيرة، أو مساقفتها المتحرّكة على جلدة أنفه. لكن في الفترة الأولى التي يعلن فيها فرويد أنها عُصائية، يحكي رجل الذئاب أنه حلم بسبعة أو سبعة ذئاب فوق شجرة، وقد صوّر منها خمسة. من يجهل بالفعل أنّ الذئاب تتحرّك زُمرا؟ لا أحد غير فرويد. ما يعرفه أيّ طفل، فرويد لا يعرفه. يسأل فرويد بتحير زائف: كيف نفّس وجود خمسة، ستّة أو سبعة ذئاب في الحلم؟ بما أنه قرّر أنّ الأمر كان متعلّقًا بالعصاب، يستعمل فرويد إذاً طريقة الرّد الأخرى: ليس الاستغراق اللفظي على مستوى تصوّر الكلمة، إنما ربط حرّ على مستوى تصوّرات الأشياء. النتيجة هي ذاتها بما أنّ الأمر يتعلّق دائما بالرجوع إلى وحدة وإلى هوية الشخص أو الموضوع الذي يُفترض فيه أنه ضاع. ها أنه على الذئاب أن تتطهّر من كثرتها. تتمّ العملية بربط الحلم بحكاية الذئب والجداء السبعة (التي ستّة منها فقط هي التي أُكِلت). نشهد الابتهاج الاختزالي لفرويد، نلاحظ حرفيًا خروج الكثرة من الذئاب لتلحق بالجداء التي لا علاقة لها أصلا بالمسألة. [٤١]

سبعة ذئاب ليست غير جداء، ستّة ذئاب بما أنّ الجدي السابع (الإنسان ذو الذئاب ذاته) يختبئ في الساعة الحائطية، خمسة ذئاب بما أنه قد يكون رأى والديه يمارسان الجنس على الساعة الخامسة وأنّ الرّم

الروماني V مرتبط بالفتحة الشبقية للأفخاذ الأثوية، ثلاثة ذئاب بما أن الوالدين لعلهما يمارسان الجنس ثلاث مرّات، ذئبان لأنّ الوالدين كانا يمارسان الجنس على طريقة الكلاب، أو حتى كلبان قد يكون الطفل رآهما من قبل يتزاوجان، ثمّ ذئب بما أنّ الذئب هو الأب، وهو ما كنّا نعرفه منذ البداية، وفي النهاية صفرُ ذئب بما أنه فقد ذيله، مخصّي بقدر ما هو خاص. بمن نهزأ؟ لم يكن للذئاب أيّ حظّ في الخلاص وفي إنقاذ زمرتها: لقد قرّرنا منذ البداية أنّ الحيوانات لم يكن بوسعها أن تكون صالحة إلّا لترمز لجماع بين والدين، أو العكس، أن يُرمز لها بمثل هذا الجماع. من الجليّ أنّ فرويد يجهل كلّ شيء عن السّحر الذي تمارسه الذّئاب، عمّا يعنيه نداء الذّئاب الصّامت، نداء الصيرورة- ذئبا. ذئاب تترصد الطّفل الحالم وتحّدق فيه؛ من المريح جدًا القول إنّ الحُلم أنتج إقلابا، وإنّ الطّفل هو الذي ينظر إلى كلاب أو إلى والدين وهما بصدد ممارسة الجنس. فرويد لا يعرف الذّئب أو الكلب إلّا وهو مُؤدّبين، الذّئب- الأب المخصّي الخاصّي، الكلب في مأواه، واو واو الصّادرة عن المحلّل النّفسيّ.

يستمتع قرّائي إلى برنامج إذاعيّ حول الذّئاب. قلّت له: تودّ أن تكون ذئبا؟ إجابة متكبرة- هذا حمق، لا يمكن أن نكون ذئبا، إنّنا دائما ثمانية أو عشرة ذئاب، ستة أو سبعة ذئاب. ليس ستة أو سبعة ذئاب في نفس الوقت للذّئب وحده، بل ذئب من بين آخرين، مع خمسة أو ستة ذئاب أخرى. المهمّ في التّصيّر- ذئبا، هو وضعية الحشد، وأوّل وضعية الفرد ذاته بالنسبة إلى الزّمرة، بالنسبة إلى الكثرة- ذئاب، الكيفية التي يدخل أو لا يدخل بها إليها، المسافة التي يقف عندها، الكيفية التي يلزم الكثرة أو لا يلزمها. لتلطيف حدّة جوابه، يسرد قرّائي حلما: «ثمة الصّحراء. هنا أيضا قد لا يكون أيّ معنى لقوليّ إنني في الصّحراء. إنها رؤية شمولية للصّحراء، هذه الصّحراء لا هي تراجيدية ولا هي قفر، إنها ليست صحراء إلّا بلونها الأغر وضوئها الحارّ الذي

لا ظلّ له. فيها مجموعة محتشدة، سرب من النحل مختلط بلاعبي كرة قدم أو بجماعة من التوارق. أنا على حافة هذا الحشد، في محيطه؛ لكنني أنتمي إليه، أنا مرتبط به من خلال طرف من أطراف جسمي، يَبْدُ أو بِرَجْل. أعرف أنّ ذلك المحيط هو موقعي الوحيد الممكن، قد أموت لو كنت استسلمت للانقياد إلى مركز الممعمة، لكن قد أموت كذلك بكلّ تأكيد لو كنت تخليت عن هذا الحشد. ليس من اليسير الحفاظ على وضعي، بل من العسير جدّا الإبقاء عليه، ذلك أنّ هذه الكائنات تتحرّك دون توقف، حركاتها لا يمكن التنبؤ بها ولا تستجيب لأيّ إيقاع. [٤٢] تارة تدور وطورا تذهب نحو الشمال ثم تنقلب فجأة نحو الشرق، ولا واحد من الأفراد الذين يكوّنون الحشد يظلّ في نفس المكان بالنسبة إلى الآخرين. إذا أنا أيضا متحرّك على الدوام؛ كلّ ذلك يتطلّب جهدا كبيرا، لكنه يمنحني إحساسا بسعادة غامرة تكاد تكون مدوّخة. «هذا حلم فُصاميّ جيّد جدّا. أن تكون في قلب الحشد وفي نفس الوقت في الخارج تماما، بعيدا جدّا: حافة، جولة على طريقة فرجينيا وولف («أبدا لن أقول أنا هذا، أنا ذاك»).

مشكلات إعمار في اللاوعي: كلّ ما يمرّ عبر مسامّ الفُصاميّ وعروق المدمن على المخدّرات، تخدّرات، احتشادات، انتعاشات، شدد، أعراق وقبائل. هل الحكاية حكاية جان راي (Jean Ray) الذي عرف كيف يربط الرّعب بظواهرات الكثرات الصّغرى، هذه الحكاية حيث ينتفخ الجلد الأبيض بالكثير من البثور والدّمّل، وبرؤوس قزّمة سوداء تمرّ بالمسامّ، متجهّمة، كريهة، ويجب كشطها بالشّفرة كلّ صباح؟ وكذلك «الهلوسات القزمية» كشطها بالإتير. فُصاميّ، فُصاميان، ثلاثة فُصاميين: «في كلّ سَمّ من مسامّ الجلد، ينبت لي رُضّع»- «أوه، أنا، ليس في المسامّ بل في عروقي تنبت قضبان حديد صغيرة»- «لا أودّ أن أُحقّن إلا بالكحول المعطر بالكافور. وإلا فإنه ستنبت لي أئداء في كلّ سَمّ من المسامّ». لقد حاول فرويد معالجة

ظاهرات الحشد من زاوية نظر اللاوعي، لكنه لم ير جيّدا ولم يكن يرى أنّ اللاوعي ذاته كان بالأصل حشدا. لقد كان أخسر وأصمّ؛ لقد كان يتّخذ من الحشود شخصا. على النقيض من ذلك، عين الفُصاميّين حادة، وأذنههم أيضا. إنهم لا يتّخذون من صخب الحشد واندفاعاته صوتا للأب. لقد حلم يونغ ذات مرّة بعظام وجماجم. عَظْم وجمجمة لا يوجدان البتّة وحدهما. المَعظمة كثرة. لكن فرويد يريد أن يعني ذلك موت أحد ما. «يلاحظ له يونغ متفاجئا أنه كان ثمة الكثير من الجماجم وليس جمجمة واحدة فقط. لكن فريد كان يواصل...»^(١).

كثرة من المسامّ، من البثور السوداء، من الندوب الصغيرة أو من الثّقوب. من الأثداء والرُّضّع والقضبان. كثرة من النّحل ولاعبي كرة القدم والتّوارق. كثرة من الذّئاب ومن بني آوى... كلّ هذا لا يقبل الاختزال بل يحيلنا على منزلة معيّنة لتشكّلات اللاوعي. لنحاول تحديد العوامل التي تتدخّل هنا: أوّلا شيء ما يلعب دور جسد مليء- جسد دون أعضاء. إنه الصحراء في الحلم السّابق. إنه الشجرة الجرداء التي تجثم فوقها الذّئاب في حلم إنسان الذّئاب. إنه الجلد بوصفه غلافا أو طوقا، الجورب بوصفه سطحاً ذا وجهين. يمكن أن يكون منزلا، حجرة في منزل، والكثير من الأشياء الأخرى، أيّ شيء كان. [٤٣] لا أحد يمارس الجنس بحبّ دون أن يكون لوحده، مع الآخر أو الآخرين، جسدا دون أعضاء. جسد دون أعضاء ليس جسدا خاويا وخلوّا من الأعضاء، بل هو جسد يتوزّع ما يُستخدم فوقه كأعضاء (ذئاب، أعين ذئاب، فكوك ذئاب؟) وفق ظاهرات حشد، تبعا لحركات تصادفية، في شكل كثرات هبائية. الصّحراء مأهولة. إذّا، لا يتعارض الجسد دون أعضاء مع الأعضاء بقدر ما يتعارض مع تنظيم الأعضاء من حيث هو ما قد يشكّل جهازا عضويّا. الجسد دون أعضاء ليس جسدا

(١) إدوارد أرمسترونغ بّناي، ما قاله يونغ حقّا، منشورات ستوك، ص ٨٠.

ميتا بل هو جسد حيّ، هو أكثر حيوية واكتظاظا بقدر ما يكون نفس الجهاز العضويّ وتنظيمه. قُمّل يقفز فوق شاطئ البحر. مستعمرات الجلد. الجسد المليء دون أعضاء هو جسد مأهول بالكثرات. ومشكل اللاوعي، بكلّ تأكيد، لا علاقة له بالإنسال بل له علاقة بالإعمار، بالسَّكَّان. مسألة سَكَّان عالمية فوق جسم الأرض المليء، وليست مسألة إنسال أسريّ عضويّ. «أودّ استحداث عشائر وقبائل وأصول عرق... أعود من قبائلي. أنا حتى اليوم ابن خمس عشرة قبيلة بالتبنيّ، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ. وتلك القبائل هي قبائلي التي أتبتها، إذ أحبّ كلّ واحدة منها أكثر وبشكل أفضل ممّا لو كنت ولدتُ فيها.» يقال لنا: مع ذلك، للفصاميّ أب وأمّ؟ يؤسفنا أن نقول لا، ليس له والدان بوصفهما كذلك. له فقط صحراء وقبائل تسكنه، له جسد مليء وكثرات تعلّق به.

من هنا في المقام الثاني، طبيعة هذه الكثرات وعناصرها. الجذمور. واحدة من الخصائص الأساسية للحُلم بالكثرات هي عدم توقّف كلّ عنصر عن تنويع مسافته وتغييرها بالنسبة إلى العناصر الأخرى. على أنف رجل الذئب لن تكفّ العناصر عن الرّقص، عن الزيادة والنقصان، وقد وقع تحديدها على أنّها مسامّ في الجلد، ندوب صغيرة في المسامّ، تجاويف صغيرة في النسيج النديّ. لكن هذه المسافات المتحوّلة ليست كميات امتدادية قد ينقسم بعضها في بعضها الآخر، بل هي بالأحرى ما لا يقبل القسمة كلّ مرّة، إنها «ما لا يقبل القسمة نسبيّاً»، أي ما لا ينقسم في ما دون أو في ما بعد عتبة معيّنة، لا تتزايد أو لا تتناقص دون أن تتحوّل عناصرها بالطبيعة. سرب نحل، ها هي مختلطة بلاعبي كرة قدم يحملون قمصانا مخطّطة، أو بجماعة من التّوارق. أو كذلك أيضا: زمرة الذئب تتضاعف بسرب نحل ضدّ جماعة الدّوله (Deulhs) بفعل ماوغلي (Mowgli) الذي يجري على الحافة (آه نعم، كيبلغ كان يفهم نداء الذئب وحسّها

الليبيديّ، بشكل أفضل من فرويد، ثمّ في رجل الذئاب ثمة أيضا حكاية الزنابير أو الفراش التي تأتي لتحلّ محلّ الذئاب، يقع المرور من الذئاب إلى الزنابير). لكن ما الذي يعنيه ذلك، هذه المسافات [٤٤] التي لا تقبل القسمة والتي تبدّل باستمرار، والتي لا تنقسم ولا تبدّل من دون أن تتغيّر عناصرها بالطبيعة كلّ مرّة؟ أليست هي فعلا الخاصية الاشتدادية للعناصر ولعلاقاتها في هذا الضرب من الكثرة؟ بالضبط درجة الحرارة مثلها مثل السرعة، لا تتكوّنان من سرعات أو من درجات حرارة، بل تتلاقان في سرعاتٍ أو في درجات حرارة أخرى وتلّقان سرعاتٍ أو درجات حرارة أخرى تعيّن في كلّ مرّة تحوّلًا بالطبيعة. ذلك أنّ هذه الكثرات لا تجد مبدأ قيسها في وسط متجانس، لكن في مكان آخر، في القوى العاملة فيها، في المظاهر الفيزيائية التي تعمّرها، تحديدا في الليبيدو الذي يكوّنها من الدّاخل، والذي لا يكوّنها دون أن ينقسم إلى اندفاعات متغيّرة ومتمايّزة كيفيّا. فرويد ذاته يعترف بكثرة «التيارات» الليبيدية التي تتماعى في إنسان الذئاب. نظلّ أكثر استغرابا من الكيفية التي يعالج بها فرويد كثرات اللاوعي. ذلك أنه بالنسبة إليه سيكون ثمة دائما اختزال في الواحد: الدّوب الصغيرة والثقوب الصغيرة ستكون هي تفرّعات الدّبة الكبيرة أو الثقب الأكبر الذي يسمّى خصاء، ستكون الذئاب بدائل نفس الأب الواحد الذي نلتقيه في كلّ مكان، نلتقيه العديد من المرّات بقدر ما نكون سلّما به (مثلما يقول روث ماك برانسفيك (Ruth Mack Brunswick)، هيّا أيتها الذئاب، إنهم «كلّ الآباء والأطباء»، لكن رجل الذئاب يفكّر: ومؤخّرتي، أليست ذئبا؟).

كان يجب أن نقوم بعكس ذلك، كان يجب أن نفهم اشتداديا: الذئب هو القطيع، أي الكثرة المدركة بما هي كذلك في لحظة، بقربها وبُعدها من الصّفر - مسافات في كلّ مرّة لا تنحلّ. الصّفر هو جسد إنسان الذئاب دون أعضاء. إذا كان اللاوعي لا يعرف السلب فلاّنه لا

شيء سلبي في اللاوعي، بل ثمة تقاربات وتباعدات لا محدّدة من النقطة صفر، التي لا تعبر البتة عن العوز بل عن إيجابية الجسد المليء بوصفه دعامة وتابعا (ذلك أن «تدقّقا يكون ضروريًا فقط من أجل الدلالة على غياب الشدّة»). تشير الذئاب إلى شدّة، إلى عُصبة شدّة، عتبة شدّة على جسد إنسان الذئاب دون أعضاء. كان طيب أسنان يقول لرجل الذئاب «ستسقط أسنانك نتيجة خبطة فكّك، خبطة فكّك قوية جدًّا»- وفي نفس الوقت كانت لثته قد غطّتها البثور والثقوب الصّغيرة^(١). الفكّ بوصفه شدّة عليا، الأسنان بوصفها شدّة سفلى، واللثة البثرية بوصفها اقترابا من الصّفر. الذئب بوصفه دُرْكا فوريا لكثرة في منطقة معيّنة [٤٥]، ليس ممثّلا أو بديلا، إنه أنا أحسّ. أحسّ أنني أصير ذئبا، ذئبا بين الذئاب، على حافة الذئاب، وصرخة الضيق، التي وحدها يسمّعها فرويد: أعينوني على ألاّ أصير ذئبا (أو على النقيض من ذلك على ألاّ أخفق في هذه الصيرورة). لا يتعلّق الأمر بتصوّر: عدم الاعتقاد إطلاقا في أننا ذئب أو تصوّرنا ذئبا. الذئب، الذئاب هي شدد، سرعات، درجات حرارة، مسافات متغيّرة لا تنحلّ. تألّب واستذابّ. ومنّ بوسعه الاعتقاد أنّ المكنة الشرجية لا علاقة لها بمكنة الذئاب، أو أنّ الاثنين يربط بينهما الجهاز الأوديي فقط، أو الصّورة الإنسانية جدّا للأب؟ إذ في نهاية المطاف يعبر الشرج هو أيضا عن شدّة، هنا الاقتراب من صفر المسافة التي لا تنحلّ من دون أن تغيّر العناصر طبيعتها. مجال شرج، تماما كما زمرة ذئاب. أليس الشرج هو الذي ينتسب به الطفل إلى الذئاب، إلى المحيط؟ نزول الفكّ إلى الشرج. الانتساب إلى الذئاب بالفكّ وبالشرج. الفكّ ليس فكّ ذئب، الأمر ليس بمثل هذه البساطة، بل فكّ وذئب يشكّلان كثرة تبدّل في

(١) روث ماك برانسفيك (Ruth Mack Brunswick)، «تكملة لقصة فرويد عن عُصاب طفولي»، المجلّة الفرنسية للتحليل النفسي، ١٩٣٦، العدد ٤.

عَيْن وذئب، في شرح وذئب، وفق مسافات أخرى، تبعا لسرعات أخرى، مع كثرات أخرى، في حدود عتبات. خطوط إفلات أو خطوط لا تأرضن، التّصير- ذئبا، التّصير- لا إنسانيا للشّدّد اللامتأرضنة، تلك هي الكثرة. التّصير ذئبا، التّصير ثقبا، معناه اللاتأرضن وفق خطوط متمايضة متشابكة. ثقب ليس أكثر سلبية من ذئب. الخصي، العوز، البديل، أية حكاية يقصّها أحرق واع جدّا، وهو لا يفهم شيئا من الكثرات بوصفها تشكيلات لا وعي. ذئب، لكن كذلك ثقب، هما جزئيات اللاوعي، لا شيء غير جزئيات، إنتاجات جزئيات، مسافات جزئيات، من حيث هي عناصر كثرات هبائية. لا يكفي حتى القول إنّ الجزئيات الكثيفة والمتحرّكة تمرّ بالثقوب، الثقب جُزْيء مثله مثل ما يمرّ فيه. يقول فيزيائيون: الثقوب ليست غيايات جزئيات بل هي جزئيات أسرع من الضوء. شُرُوج طائرة، فروج سريعة، لا وجود لخصاء.

لِنَعُدْ إلى قصّة الكثرة هذه، إذ كانت لحظة مهمّة جدّا عندما استحدثنا مثل هذا الاسم تحديدا لتتخلّص من التقابل المجرد بين الكثير والواحد، لتتخلّص من الديالكتيك، لنصل إلى التفكير بالكثير في الحالة المحض، لنكفّ عن أن نجعل منه الجزء العدديّ من وحدة أو من كلّ مفقودين، أو على النقيض من ذلك لنجعل منه العنصر العضويّ لوحدة أو لكلّ مقبلين- ولنميّز بالأحرى بين ضروب من الكثرة. هكذا نجد عند الرّياضيّ- الفيزيائيّ ريامان التمييز [٤٦] بين الكثرات المنفصلة والكثرات المتّصلة (هذه الأخيرة لا تجد مبدأ قيسها إلّا في قوى عاملة فيها). ثمّ نجد عند ماينونغ (Meinong) وعند راسل تمييزا بين كثرات امتدادية ذات عِظَم أو ذات قابلية للقسمة، وكثرات مسافة أقرب إلى الاشتدادية. أو كذلك التمييز عند برغسون، بين كثرات عديدة أو ممتدّة وكثرات كيفية وديمومية. نحن نقوم بنفس الشيء تقريبا بتمييزنا بين كثرات شجرانيّة وكثرات جذمورية. بين كثرات كبرى وكثرات صغرى.

من ناحية كثرات امتدادية، تقبل الانقسام وهي كتلوية؛ قابلة للتوحيد والكَلْيَنَة والتنظيم؛ واعية أو قَبَواعية- ومن ناحية أخرى كثرات لبيديّة لا واعية، هبائية، اشتدادية، متكوّنة من جزيئات لا تنقسم دون تغيير طبيعتها، من مسافات لا تتغيّر دون أن تدخل في كثرة أخرى، لا تكفّ عن التشكّل والتفكّك بتواصلها وبمرور بعضها في البعض الآخر داخل عتبة، في ما بعدها أو في ما دونها. عناصر هذه الكثرات الأخيرة جزيئات؛ علاقاتها مسافات؛ حركاتها تصادفية؛ كميتها شدد وفروق شدة.

ليس ثمة هنا غير قاعدة منطقية. إلياس كنانتي يميّز بين ضربين من الكثرة يتقابلان تارة ويتداخلان تارة أخرى: كثرة كتلة وكثرة زمرة. من بين خاصيات الكتلة حسب كنانتي، ينبغي أن نلاحظ الكمية الكبرى، انقسامية العناصر وتساويها، التمرکز، اجتماعية المجموعة، وحدة الوجهة التراتبية، تنظيم الإقليمية أو التارّضن، إرسال العلامات. من بين خاصيات الزمرة، صغر العدد أو حصره، التوزّع، المسافات المتغيرة التي لا تنحلّ، انقلابات العين الكيفية، التفاوتات بوصفها بقايا أو اجتيازات، استحالة كَلْيَنَة أو تراتبية ثابتتين، التنوّع التصادفيّ للوجهات، خطوط اللاتأرضن، انقذاف الجزيئات^(١). لا ريب أنه ليس ثمة تساوي أكثر وتراتبية أقلّ في الزمر ممّا في الكتل، لكنهما ليسا هما ذاتهما. زعيم الزمرة أو الفرقة يلعب خطوة بخطوة، عليه أن يستأنف كلّ شيء مع كلّ خطوة، بينما زعيم المجموعة أو الكتلة يعزّز المكتسبات ويكتنزها. الزمرة، حتى في مواقعها، تتكوّن على خطّ إفلات أو لا تأرضن يُشكّل جزءاً منها، تمنحه قيمة عليا إيجابية، بينما الكتل لا تُدمج مثل هذه الخطوط إلّا من أجل [٤٧] تقسيمها، سدّها،

(١) إلياس كنانتي (Elias Canetti)، الحشد والقدرة، غاليمار، ص ٢٧-٢٩، ٩٧ وما بعدها. بعض الفروقات المشار إليها أعلاه قد عيّنها كنانتي.

إفراها بعلامة سلبية. يلاحظ كُنَاتِي أَنَّ كُلَّ واحد في الزمرة يظلّ وحده ومع ذلك هو مع الآخرين (كذلك هي الذئاب- الصّائدة)؛ كُلَّ واحد يتدبّر أمره في نفس الوقت الذي يشارك فيه العُصبة. «في التّجمّعات المتغيّرة للزّمرة، سيبقى الفرد على حافتها. سيكون داخلها وفورا بعد ذلك على الحافة، وعلى الحافة وفورا بعد ذلك في الدّاخل. عندما تتحلّق الزّمرة حول نارها، يمكن أن يكون لكلّ واحد جيران يميناً ويساراً، لكن ظهره طليق، الظّهر معروض عارياً للطبيعة البريّة.» نتعرّف على الوضعية الفُصامية، الكيان في الهامش، الإمساك بيد أو برجل... ستُقابل تلك الوضعية بالوضعية الدّهانية لذات الحشد، مع كلّ تماهيات الفرد مع المجموعة، المجموعة مع الزّعيم، الزّعيم مع المجموعة؛ الاندماج جيّداً في الحشد، الاقتراب من المركز، عدم البقاء على الحافة إلّا في خدمة مفروضة. لِمَ نفترض (مع كونراد لورنز على سبيل المثال) أنّ الفرق ونوعية ترافقها تمثّل حالة تطوّرية أكثر بدائية من مجتمعات المجموعات أو مجتمعات التّزاوج؟ لا توجد فرق بشرية وحسب بل ثمة فرق مُنقّاة بشكل خاصّ: الـ«دنيوية» تختلف عن الـ«اجتماعية» لأنها أقرب إلى زمرة، والإنسان الاجتماعيّ يجعل من الدّنيويّ صورة معيّنة حاسدة وزائفة، لأنّه يتجاهل الوضعيات وتراتيباتها التي تخصّها، علاقات القوى، المطامح والمشاريع الخاصّة جدّاً. العلاقات الدّنيوية لا تغطّي البتة العلاقات الاجتماعية ولا تتطابق وإياها. حتى «التّصنّيعات» (موجودة لدى كلّ الفرق) تنتمي إلى الكثرات الصّغرى وتختلف عن العادات أو الأعراف الاجتماعية.

مع ذلك لا يتعلّق الأمر بالتقابل بين نوعين من الكثرات، بين الممكنات الكتلوية والممكنات الهبائية، وفق ثنائية قد لا تكون أفضل من ثنائية الواحد والكثير. ثمة فقط كثراتٌ كثراتٌ تُشكّل نفس التّنضيد، تعمل في نفس التّنضيد: الزُّمر في الكتل والعكس بالعكس. للأشجار خطوط جذموريّة، لكن للجذمور نقاط شجرانيّة. كيف قد لا يستوجب

الأمر وجود مسرّع دورانيّ ضخّم لإنتاج جزيئات مجنونة؟ كيف قد تتعيّن خطوط لا تأرضني خارج مسارات الأقلّمة؟ كيف لا يجري فجأة الجدول الصغير لشدة جديدة في الامتدادات الكبرى وفي علاقة بانقلابات كبرى في هذه الامتدادات؟ ما الذي لا يجب القيام به لصوت جديد؟ التّصيّـر- حيوانا، التّصيّـر- هبائيا، التّصيّـر لا إنسانيا، تمرّ هذه التّصيّرات بامتداد كتلويّ، بتركيز إنسانيّ فائق، أو تهيوّهما. لن نفصل عند كافكا [٤٨] بين إنشاء مكنة بيروقراطيّة ذهانيّة كبيرة وبين إرساء مكينات فُصاميّة صغيرة للتّصيّـر- كلبا، للتّصيّـر- خنفساء. لن نفصل عند إنسان الذّئاب بين التّصيّـر- ذئبا في الحُلم، وبين التنظيم الدّينيّ والعسكريّ للوساوس. عسكريّ يقوم بدور الذّئب، عسكريّ يقوم بدور الكلب. لا وجود لكثرتين أو لمكنتين، وإنما يوجد نفس التنضيد المكنيّ الواحد الذي ينتج الكلّ ويورّعه، أي جملة الملفوظات التي تُوائم «المرّكب». ما الذي للتحليل التّفسيّ أن يقوله حول كلّ ذلك؟ أوديب، لا شيء غير أوديب، بما أنه لا يصغي لأيّ شيء ولا لأيّ كان. إنه يسحق كلّ شيء، كتلا وزُمرّا، مكينات كتلوية وهبائية، كثرات من كلّ نوع. ليكن الحُلم الثّاني لإنسان الذّئاب، لحظة الفترة المسمّاة ذهانية: في شارع، ثمة جدار فيه باب مغلق، وعلى اليسار خزانة فارغة؛ المريض أمام الخزانة، وامرأة فارعة الطّول ذات ندب صغير يبدو أنها تريد تجنّب الجدار؛ ووراء الجدار ذئاب تتسارع نحو الباب. السيدة برانشفيك ذاتها لا يمكنها أن تخطئ الأمر: لقد حاولت عبثا التّعرف على ذاتها في المرأة فارعة الطّول، إنها ترى بوضوح أنّ الذّئاب هم البلاشفة هذه المرّة، الحشد الثّوريّ الذي أفرغ الخزانة أو استولى على ثروة إنسان الذّئاب. في حالة استقرار، مرّت الذّئاب جهة مكنة اجتماعية كبرى. لكن التحليل النفسيّ ليس له ما يقول بخصوص هذه النّقاط جميعا- ما عدا ما كان قاله فرويد: كل هذا يحيل مرّة أخرى على الأب (حسنا، لقد كان واحدا من زعماء الحزب الليبيراليّ في روسيا، لكن نادرا ما

تكون لهذا الأمر أهمية، يكفي القول إنّ الثورة «أشبت شعور المريض بالذنب». قد نعتقد حقًا أنّ الليبدو في استثماراته واستثماراته المضادة لا علاقة له بارتجاجات الحشود، بتحركات الزُّمر، بالعلامات الجماعية وبجزئيات الرّغبة.

لا يكفي إذاً إسناد الكثرات الكتلوية أو مكّنات الكتلة لما قبل اللاوعي، مع الاحتفاظ بنوع آخر من المكّنات أو الكثرات لللاوعي. ذلك أنّ ما ينتمي على أية حال لللاوعي، هو تنضيد الاثنتين، الكيفية التي تشرط بها الأولى الثانية، والتي تهىء بها الثانية الأولى أو تفلت منها أو تعود إليها: الليبدو يغمر الكلّ. أخذ كلّ شيء بعين الاعتبار دفعة واحدة- الكيفية التي يكون بها لمكّنة اجتماعية أو لكتلة مننظمة لا وعي هبائي لا يعيّن نزوعهما إلى التحلّل وحسب، إنّما يعيّن المكوّنات الحالية لممارستهما وتنظيمهما ذاتهما؛ الكيفية التي يكون بها لهذا الفرد أو ذاك، المندمج في كتلة، له هو ذاته لا وعي زُمرة لا يشبه بالضرورة زُمر الكتلة التي هو جزء منها؛ الكيفية التي ستعيش بها في لا وعي فرد أو كتلة [٤٩] كتلٌ وزُمرٌ كتلة أخرى أو فرد آخر. ما الذي تعنيه محبة شخص ما؟ أن ندركه دائماً في كتلة، ننتزعه من مجموعة ينتمي إليها حتى وإن كانت مقيدة فقط بأسرته أو بشيء آخر؛ ومن بعد ذلك نبحث عن زُمره التي تخصّه، عن الكثرات التي يحبسها داخله، والتي قد تكون ذات طبيعة مغايرة. أضّمّها لكثراتي، أدخلها فيها، وأنفذ إلى كثراته. زيجات ربّانية، كثراتٌ كثراتٍ. لا محبة لا تكون ممارسة تبديد للصفة الشخصية على جسد دون أعضاء يقع العمل على تشكيكه؛ وفي أعلى نقطة من هذا التبديد للصفة الشخصية، يمكن لشخص ما أن يُسمّى، أن ينال لقبه أو اسمه، يحوز التمييزية الأشدّ في الدّرك المباشر للكثيرين الذين ينتمون إليه وينتمي إليهم. زمرة بُقع نَمَش على وجهه، زمرة شبّان يتحدّثون في صوت امرأة، وكر فتيات في وكر السيّد شارلي (Charlus)، ثلّة من الذئاب في رقبة شخص ما،

كثرة أشراج في الشَّرح، الفم أو العين التي ننحني عليها. كلّ واحد يمرّ بالكثير من الأجساد في كلّ واحد. ألبرتين تمّ انتزاعها بتودة من مجموعة من الفتيات التي لها عددها، تنظيمها، تقنينها، تراتبيتها؛ وليس لاوعي بكامله يغمر هذه المجموعة وهذه الكتلة المقيّدة وحسب، لكن لألبرتين كثراتها التي تخصّها التي يكتشفها الراوي، وقد عزلها، فوق جسدها وفي أكاذيبها- إلى أن تعيدها نهاية المحبة إلى اللامتمايز.

لا ينبغي الاعتقاد خاصّة في كفاية التمييز بين الحشود والجماعات الخارجية التي يشارك فيها شخص ما أو ينتمي إليها، ولا في المجموعات الدّاخلية التي قد يطوّقها في ذاته. ليس التمييز البتة بين الخارج والدّاخل، النسبيين والمتغيّرين، المتقابلين دوما، إنّما بين ضروب من الكثرات التي تتماعى، تتداخل وتغيّر موضعها-مكنات، دوايب، محرّكات وعناصر تتدخّل في لحظة معيّنة لتشكّل تنзиّدا متّجا للملفوظ: أحبك (أو شيء آخر). مرّة أخرى، بالنّسبة إلى كافكا، فايليس (Félice) ملازمة لمكنة اجتماعية معيّنة، لمكنات إسطوانات هي التي تمثّل شركتها؛ كيف لا تنتمي إلى هذا التّنظيم، في نظر كافكا المنبهر بالتجارة والبيروقراطية؟ لكن في نفس الوقت، أسنان فايليس، أنيابها اللاحمة تجعلها تفرّ عبر خطوط أخرى، في الكثرات الهبائية للتّصير-كلبا، للتّصير-ابن آوى... فايليس، ملازمة في نفس الآن لعلامة المكنات الاجتماعية الحديثة التي هي مكناتها، ولمكنات كافكا (المغايرة لمكناتها)، وللجزئيات، للمكنات الصّغرى الهبائية، لكامل الصّيرورة الغريبة، للمسافة التي سيحدثها كافكا والتي سيحدثها فيها هي عبر جهاز كتابته الشّاذّ.

[٥٠] لا وجود لملفوظ فرديّ، لكن توجد تنزيّدات مكنية منتجة للملفوظات. نقول إنّ التنزيّد لبيديّ ولا واع بشكل أساسيّ. إنه هو اللاوعي عينه. حاليا نرى فيه عناصر (أو كثرات) متنوّعة: مكنات

بشرية، اجتماعية وتقنية، كتلوية منظّمة؛ مكنات هبائية مع جزئيات تصيّرّها- لا إنسانية؛ أجهزة أوديبية (إذ نعم، بالتأكيد، ثمة ملفوظات أوديبية، بل والكثير منها)؛ أجهزة ضدّ- أوديبية، ذات سرعة واشتغال متغيّرين. سنرى ذلك لاحقاً. لم يعد بإمكاننا حتى الحديث عن مكنات متمايضة، وإنّما فقط عن أنواع من الكثرات التي تتداخل وتُشكّل في لحظة معيّنة نفس التنزيد المكنيّ الواحد، الذي هو صورة لليبيدو دون وجه. كلّ واحد منّا واقع في مثل هذا التنزيد، يعيد إنتاج ملفوظه عندما يعتقد أنه يتحدّث باسمه، أو بالأحرى يتحدّث باسمه عندما يعيد إنتاج ملفوظه. كم أنّ هذه الملفوظات غريبة، إنها خطابات مجانيين حقيقية. لقد كنّا أسميناً كافكا، يمكن كذلك أن نسمّي إنسان الذئب: مكنة دينية- عسكرية يخصّصها فرويد للعُصاب الوسواسيّ - مكنة شرجيّة لزمرة أو للتصيّر- ذئبا، أو كذلك للتصيّر- زنبورا أو فراشة، والتي يُفرد بها فرويد الخاصية الهستيرية- جهاز أوديبيّ يجعل منه فرويد المحرّك الوحيد، المحرّك الثابت الذي يجب أن نعثر عليه في كلّ مكان- جهاز أوديبيّ- مضادّ (نكاح الأخت، النكاح- الفُصاميّ، أو كذلك ممارسة الجنس مع «من هم أدنى مكانة»، أو أيضاً الجنسية الشرجيّة، الجنسية المثلية؟)، كل هذه الأشياء التي لا يرى فيها فرويد غير بدائل لأوديب، نكوصات له أو مشتقات منه. في الحقيقة فرويد لا يرى شيئاً ولا يفهم شيئاً. لا فكرة له عمّا يكونه تنزيد ليبيديّ مع كلّ المكنات المشتغلة وكلّ المحبّات المتكثّرة.

ثمة بالطبع ملفوظات أوديبية. على سبيل المثال حكاية ابن آوى والعرب لكافكا، من اليسير قراءتها على هذا النحو: يمكننا دائماً، لا نخشى شيئاً، كلّ شيء على ما يرام في كلّ الحالات، شرط أن لا نفهم شيئاً. بوضوح، العرب يتعلّقون بالأب، أبناء آوى بالأُم؛ بين الإثنين تاريخ خصي ترمز إليه المقصّات الصّدئة. لكن يتبيّن أنّ العرب هم حشد منظّم، مسلّح، توسّعيّ، منتشر في كامل الصّحراء؛ وأبناء آوى،

زمرة كثيفة لا تفتأ تتوغّل في الصّحراء وفق خطوط إفلات أو لا تارضن («إنهم مجانين، مجانين حقيقيون»); بين الإثنين، على الحافة، يوجد إنسان الشّمال وإنسان بني آوى. والمقصّات الكبرى، أليست هي علامة العربيّ، الذي يقود الجزئيات- بني آوى أو يطلقها، وذلك من أجل تسريع جريها المجنون بفصلها عن الحشد كما من أجل إعادتها إلى هذا الحشد، ترويضها وجلدّها، جعلها تدور؟ جهاز تغذية أوديبيّ، الجَمَل [٥١] الميّت؛ جهاز ضدّ- أوديبيّ للجيفة: قتل الحيوانات من أجل الأكل، أو الأكل من أجل التخلص من الجيف. بنو آوى يطرحون الإشكال جيّدا: ليست المسألة مسألة خصي بل مسألة «نظافة»، إنها اختبار الصّحراء- رغبة. من ذا الذي سيفوز من بينهما بالليبدو الذي يغمر الصّحراء كلّها بوصفه جسدا دون أعضاء حيث تجري الدراما، إقليمية الحشد أو لا تارضن الزّمرة؟

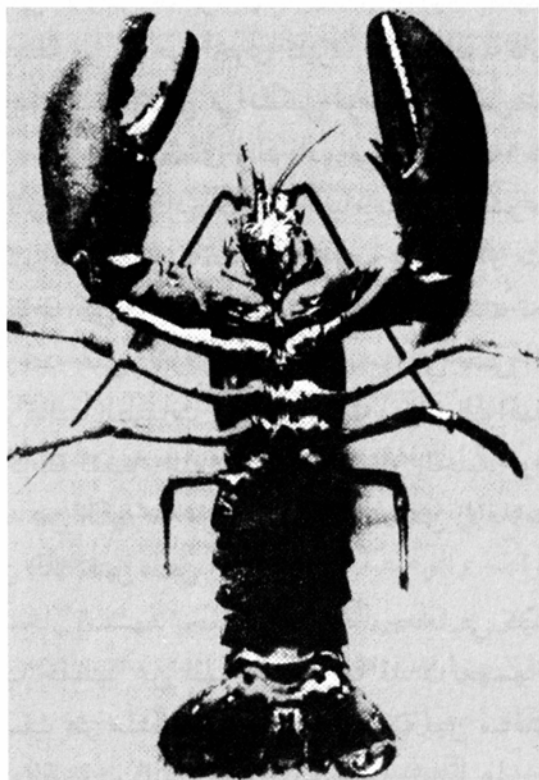
ليس ثمة ملفوظ فرديّ ولم يكن ثمة أبدا. كلّ ملفوظ هو نتاج تنضيد مكنيّ، أي نتاج فاعلين جماعيين للتلفّظ (لا يجب أن نفهم من «فاعلين جماعيين» شعوبا أو مجتمعات بل الكثرات). لكن اسم العَلَم لا يشير إلى فرد: على النقيض من ذلك عندما يفتح الفرد للكثرات التي تخترقه من جانب إلى آخر، في نهاية أقسى ممارسة لنزع الصّفة الشخصية، حينها يكتسب اسم عَلمه الحقيقيّ. اسم العَلَم هو الدّرك الفوريّ لكثرة. اسم العَلَم هو فاعل المصدر المحض مفهوما بوصفه كذلك في حقل شدّة. يقول بروسست عن الاسم: عندما أنطق اسم جيلبارت، كان يحصل لديّ انطباع بحيازتها عارية تماما في فمي. إنسان الذّئاب، اسم عَلم حقيقيّ، اسم حميميّ يحيل على صيرورات ومصادر وشِدَد فرد بُدّدت شخصيته وتضاعف. لكن ما الذي يفهمه التحليل النفسيّ من التّكثير؟ ساعة الصّحراء حيث يصبح الجَمَل وحيد السّنام ألف جَمَل ضاحك في السّماء. ساعة العشيّ حيث ينحفر ألف ثقب على سطح الأرض. الخصي الخصي تصرخ فزاعة التحليل النفسيّ

التي لم تر قط غير ثقب، غير أب، ترى كلبا هنالك حيث ثمة ذئاب، ترى فردا مدجنا هنالك حيث ثمة كثرات برية. لا نلوم التحليل النفسي عن كونه انتقى الملفوظات الأوديبية وحدها وحسب. ذلك أن هذه الملفوظات ما زالت إلى حد ما تشكّل جزءاً من تنضيد مكني قد تصلح بالنسبة إليه كعلامات للإصلاح، كما في حساب الأخطاء. يعاب على التحليل النفسي استعماله للملفوظ الأوديبى لجعل المريض يعتقد أنه سيدير ملفوظات شخصية وفردية، أنه سيتحدّث في نهاية المطاف باسمه. لكن كلّ شيء مفتح منذ البداية: رجل الذئاب لن يستطيع الحديث أبداً. سيتحدّث عبثاً عن الذئاب، يعوي مثل ذئب، فرويد لا يصغي حتى إليه، ينظر إلى كلبه ويجب إنه «بابا». بقدر ما تستمرّ هذه الحال، فرويد يقول إنه العُصاب، وعندما يكون الانهيار، يكون الذهان. سينال رجل الذئاب وسام التحليل النفسي من أجل ما قدّمه من خدمات للقضية، بل وسينال الثقة الغذائية التي تُمنح لقدماء المحاربين المشوّهين. قد لا يكون تمكّن من الحديث باسمه إلّا إذا كان وقع تحديث التنضيد المكني الذي يكون أنتج هذه أو تلك من الملفوظات. لكن المسألة لا تتعلّق بهذا الأمر [٥٢] في التحليل النفسي: في اللحظة ذاتها التي نقنع فيها المريض بأنه سينطق بملفوظاته الأشدّ فردية، نسحب منه كلّ شرط من شروط التلقّظ. إسكات الناس، منعهم من الحديث وخاصّة عندما يتحدّثون، التصرّف وكأنهم لم يكونوا قالوا شيئاً: الحياد التحليلي النفسي الشهير. يواصل إنسان الذئاب صراخه: ستّة أو سبعة ذئاب! يجب فرويد: ماذا؟ جداء؟ كم أن الأمر مهمّ، أسحب الجداء، يبقى ذئب، هو إذا أبوك... لذلك يشعر إنسان الذئاب أنه متعب جدّاً: يظلّ ممدّداً مع كلّ ذئابه في حلقة، وكلّ الثقوب الصّغرى على أنفه، كلّ تلك القيم الليبيدية على جسده الذي دون أعضاء. ستقبل الحرب، ستصبح الذئاب بلاشفة، يبقى الإنسان مخنوقاً بكلّ ما كان يؤدّ قوله. سينبثوننا فقط أنه أصبح مهذباً أكثر، مؤدّباً،

خاضعا، «نزيها وحيّ الضمير»، باختصار، لقد سُفي. ينتقم مذكّرا أنّ التحليل النفسّي تعوزه رؤية حيوانية حقّا: «لا شيء يمكن أن تكون له قيمة أكبر بالنسبة إلى شاب من حبّ الطبيعة وفهم العلوم الطبيعية، وبشكل أخصّ فهم علم الحيوان»^(١).

(١) رسالة ذكرها رولان جاكّار (Roland Jaccard)، إنسان الذّئاب، المطابع الجامعية، ص ١١٣.

[٥٣] ٣. ١٠٠٠٠ قبل المسيح- جيولوجيا الأخلاق
(مَنْ تَظُنُّ نَفْسَهَا الْأَرْضَ؟)



تَمَفْضُلُ مِضَاعَفِ

الأستاذ شلنجر (Challenger)، هذا الذي جعل الأرض تولول
بواسطة مكنة موجعة، في الظروف التي وصفها كونان دويل (Conan
Doyle)، خالطا بين الكثير من كتيبات الجيولوجيا والبيولوجيا وفق

سجيته الهزليّة، قام بمحاضرة. لقد بيّن أنّ الأرض - اللامتأرضنة، الجليدية، الهباءة العملاقة - كانت جسداً دون أعضاء. هذا الجسد دون أعضاء كانت تخترقه موادّ [٥٤] متقلّبة غير متشكّلة، تيارات في كلّ الاتجاهات، شديد طليقة أو فرادات مترحّلة، جزيئات مجنونة أو عابرة. لكن المسألة ليست هي هذه في اللحظة الرّاهنة. إذ، في نفس الوقت، كانت تتّم على الأرض ظاهرة مهمّة جدّاً، حتمية، مفيدة من بعض النّواحي، مؤسفة من نواحي أخرى كثيرة: التّراصّف. كانت الطبقات سافّات، أحزمة. كانت تتمثّل في تشكيل موادّ، في حبس شديد أو تثبيت فرادات داخل منظومات الصّدى والتّرداد، في تكوين هباءات كبيرة نسبياً على جسم الأرض، وفي إدخال هذه الهباءات في مجموعات كتلوية. الطبقات كانت اعتقالات، كانت مثل «ثقوب سوداء» أو مثل انسدادات تسعى للاحتفاظ بكلّ ما كان يمرّ في نطاقها^(١). كانت تعمل بواسطة التقنين والأرضنة على الأرض. كانت تتعامل في نفس الآن بالقانون وبالإقليمية. كانت الطبقات هي قضاء الله، كان التّراصّف العامّ هو المنظومة الكاملة لقضاء الله (لكن الأرض أو الجسد دون أعضاء لم يكن يتوقّف عن التّهرّب من هذا القضاء، عن الإفلات، عن اللّا تراصّف، عن اللّا تقنين، عن اللّا تأرضن).

كان شلّنجر استشهد بجملة مؤكّداً أنّه وجدها في كتيّب جيولوجيا وكان يتوجّب حفظها عن ظهر قلب لأنها قد لا نفهمها إلّا لاحقاً: «سطح تراصّف هو مسطّح قوام أكثر سماكة بين سافتين». كانت السّافات هي الطبقات ذاتها. إنها كانت تعمل ثنائياً على الأقلّ، تقوم إحداها بدور الطبقة التّحتيّة بالنّسبة إلى الأخرى. كان سطح التّراصّف

(١) رولان أماناس (Roland Omnès)، الكون وتبدّلاته، هرمان، ص ١٦٤. «نجمّة تدرجت تحت الشّعاع الحرج تُشكّل ما يسمّى ثقباً أسود (astre occlus). هذه العبارة تعني أنّه لم يعد بمقدور أيّ شيء نرسله باتجاه مثل هذا الموضوع أن يخرج منه. إنّهُ إذاً أسود بالتمام، إذ لا يرسل ولا يعكس أيّ ضوء.»

تنضيدا مكنيًا لم يكن يختلط مع الطبقات. كان التنضيد بين سافتين، بين طبقتين، كان له بالتالي وجه ملتفت نحو الطبقات (بهذا المعنى، كان يُطبّقًا)، لكن كان له كذلك وجه ملتفت نحو مكان آخر، نحو الجسد دون أعضاء أو نحو مسطح القوام (لقد كان ما بعد طبقيّ). بالفعل، كان الجسد دون أعضاء يشكّل هو ذاته مسطح القوام الذي كان أصبح متراصًا أو كان يزداد سماكة على مستوى الطبقات.

الله سرطان بحريّ أو كُلابة بفكّين، إنه مأزق. ليست الطبقات وحدها هي التي تكون ثنائية على الأقلّ، لكن بكيفية مغايرة تكون كلّ طبقة مزدوجة (سيكون لها هي ذاتها الكثير من السّافات). كلّ طبقة تُظهر بالفعل ظاهرات تكوينية ذات تمفّصل مضاعف. مَفْصَلوا مرّتين، ب-أ، أ، ب. ذلك لا يعني البتة أنّ الطبقات تتكلّم أو هي من قبيل [٥٥] اللغة. التّمفصل المضاعف كثير التّغير بحيث لا نستطيع الانطلاق من نموذج عامّ وإنّما فقط من حالة بسيطة نسبيًا. قد يختار التّمفصل الأوّل أو قد يقطع من تدفّقات- الجزيئات غير المستقرّة، وحداتٍ هبائية أو شبه هبائية شبه مستقرّة (موادّ) قد يفرض عليها نظام ترابطات وتتابعات إحصائيّ (صور). قد يقوم التّمفصل الثاني بإنشاء البنى الثابتة، المترابطة والوظيفية (صور) وقد يكون المركّبات الكتلية أين تتفعل هذه البنى في نفس الوقت (موادّ). على هذا النحو، التّمفصل الأوّل في طبقة جيولوجية هو الـ«ترسّب» الذي يكّدس وحدات ترسّبات دورية وفق نظام إحصائيّ: الرّكام الصّخريّ وما يتبعه من صخر رمليّ ومن صخر متبلّر. التّمفصل الثاني هو «التّجعيد» الذي ينشئ بنية وظيفية مستقرّة ويؤمّن انتقال الترسّبات إلى الصّخور الترسّبية.

نلاحظ أنّ التّمفصلين لا يتوزّعان أحدهما للموادّ والآخر للصّور. الموادّ ليست غير موادّ متشكّلة. الأشكال تتضمّن تقنيننا، صيغ تقنين وفكّ تقنين. الموادّ بوصفها موادّ متشكّلة تحيل إلى إقليميات، إلى درجات تأرضن ولا تأرضن. لكن، ثمة بالتحديد تقنين وإقليمية لكلّ

تمفصل، كلّ تأرضن يتضمّن لوحده صورة ومادّة. حاليا كان أمكننا القول وحسب، إنّ كلّ تمفصل كان يوافقه ضرب من الأقسامية أو من الكثرة: الضرب الأوّل لّين أو بالأحرى هبائيّ ومرتبّ وحسب؛ الآخر، أشدّ صلابة، كتلويّ ومنظّم. بالفعل، مع أنّ التّمفصل الأوّل لا تعوزه التفاعلات المنتظمة، فإنه في مستوى التّمفصل الثاني خاصّة كانت تحدث ظاهرات المركّزة، التوحيد، الكلّينة، الإدماج، التراتب، الاستكمال، التي كانت تشكّل تقنيّا مشطّا. كلّ واحد من التّمفصلين كان يقيم علاقات ثنائية بين أقسوماته الخاصّة. لكن بين أقسومات هذا التّمفصل وأقسومات ذاك، كان ثمة روابط تقابلية وفق قوانين أشدّ تعقيدا. كلمة بنية كان بإمكانها أن تشير بعامة إلى جملة تلك العلاقات والروابط، لكن كان من الوهم الاعتقاد أنّ البنية كانت هي كلمة الأرض الأخيرة. أكثر من ذلك، لم يكن من اليقينيّ أنّ التّمفصلين يتوزّعان دائما وفق التمييز بين الهبائيّ والكتلويّ.

كان وقع القفز على التنوّع الهائل للطبقات الطاقية، الفيزيائية-الكيميائية، الجيولوجية. كان وقع العثور على الطبقات العضوية أو على وجود تراصف عضويّ كبير. لكن مشكل العضوية-كيف «نصنع» عضوية للجسد؟- كان ما يزال هو مشكل التّمفصل، مشكل العلاقة [٥٦] التّمفصليّة. الدّوغون الذين كان الأستاذ يعرفهم جيّدا، كانوا يطرحون المشكل على هذا النّحو: كانت العضوية تطرأ على جسد الحدّاد تحت تأثير مكنة أو تنضيد مكّنيّ هو الذي كان يقوم برصفها. «في الصّدمة كانت الكتلة والسّندان كسرا السّاعدين والسّاقين، في مستوى المنكبين والرّكبتين اللّذين لم يكن يمتلكهما حتى ذلك الحين. هكذا كان تلقّى التّمفصلات الخاصّة بالشكل الإنسانيّ الجديد الذي كان سيعمّ الأرض وكان مكرّسا للعمل. (...) من أجل العمل كان ساعده قد انثنى»^(١). لكن بكلّ تأكيد، اختزال العلاقة التّمفصلية في

(١) غريول (Griaule)، إله الماء، منشورات فايار، صص ٣٨-٤١.

العظام لم تكن غير طريقة في الكلام. العضوية كلها هي التي كان يتوجب النظر فيها في ظلّ تمفصل مضاعف وفي مستويات مختلفة جدًا. أولاً على صعيد التخلّق: من ناحية، وقائع من نوع هبائي ذات علاقات عرضية عالقة في ظاهرات حشد أو في مجموعات إحصائية تُحدّد نظاماً (الليف البروتيني وتسلسليته أو أقسوميته)؛ من ناحية أخرى، هذه المجموعات ذاتها عالقة في بنى ثابتة «تنقي» المركّبات المجسّامية التي تشكّل أعضاء، وظائف وانتظامات، تنظّم آليات كتلوية بل وتوزّع مراكز قادرة على التحليق فوق الحشود، على مراقبة الآليات، على استعمال المعدّات وإصلاحها، على «التقنين التضافري» لكلّ (انثناء الليف في بنية مترابطة، والأقسومية الثانية^(١)). ترسّب وتجميع، ليف وانثناء.

لكن على صعيد آخر، الكيمياء الخلوية التي تتحكّم بتكوين البروتينات تعمل كذلك وفق تمفصل مضاعف. يمضي هذا الأخير إلى داخل الهبائي، بين الهباءات الصّغرى والكبرى، أقسومية بواسطة تعديلات متلاحقة وأقسومية بواسطة التكوثر. «يقع في مرحلة أولى تجميع العناصر المأخوذة من المجال عبر سلسلة من التغيّرات. (...) هذا النشاط كلّ يفسح المجال لمئات عديدة من ردّات الفعل. لكنه يفضي في نهاية المطاف إلى إنتاج عدد محدود من المركّبات الصّغرى، إلى بعض العشرات على أقصى تقدير. في المرحلة الثانية للكيمياء الخلوية، يقع تجميع الهباءات الصّغرى لإنتاج الهباءات الكبرى. إنه بتكوثر الوحدات المترابطة من طرف إلى آخر تتكوّن السّلسلات المميّزة

(١) حول وجهي التخلّق بشكل عامّ، راجع ريمون رويار (Raymond Ruyer)، تكوّن الأشكال الحيّة، فلما ريون، ص ٥٤ وما بعدها، وبيار فانديرياس (Pierre Vindryès)، الحياة والاحتمال، ألبان ميشال، يحلّل أندرياس بالتحديد دور العلاقة التمهّلية والنّظم الممهّلة. حول الوجهين البنيويين لليف، راجع جاك مونو (Jacques Monod)، الاتّفاق والحتمية، منشورات سوي، صص ١٠٥-١٠٩.

للهباءات الكبرى. (. . .) مرحلتا الكيمياء الخلوية تختلفان إذا [٥٧] في نفس الوقت بوظيفتهما، بإنتاجاتهما، بطبيعتهما. الأولى تقطع نماذج كيميائية، الثانية تجمّعها. الأولى تكوّن مركّبات لا توجد إلّا مؤقتًا. ذلك أنّها تكوّن وسائط في مسارات التركيب الحيوي؛ الثانية تنشئ نتائج ثابتة. الأولى تعمل بواسطة سلسلة من ردّات الفعل المتميزة؛ الثانية بواسطة معاودة نفس السلسلة^(١). - ومرة أخرى، على صعيد ثالث تتوقّف عليه الكيمياء الخلوية ذاتها، التقنين الوراثي لا ينفصل من ناحيته عن أقسومية مضاعفة أو عن تمفصل مضاعف يمرّ الآن بين نوعين من الهباءات المستقلّة، من ناحية متتالية الوحدات البروتينية، من ناحية أخرى متتالية الوحدات النووية، وحدات نفس النوع لها علاقات ثنائية، والوحدات ذات النوع المختلف لها علاقات تقابلية. ثمّة إذاً بشكل دائم تمفصلان، أقسوميتان، صنفان من الكثرة، كلّ واحد منهما يفسح المجال لصور وموادّ؛ لكنّ هذين التّمفصلين لا يتوزّعان بشكل ثابت، حتى صلب طبقة معيّنة.

المستمعون المتجهّمون نوعاً ما، كانوا يشجبون الكثير من الأشياء التي لم تُفهم، الكثير من المعاني المتناقضة وحتى من الإخلالات في عرض الأستاذ بالرغم ممّا يدّعيه من هيبة بها يسمّيهم «أصدقاء». حتى الدّوغون. . . وسيكون الأمر أسوأ بعد حين. كان الأستاذ يتبجّع بصلف بأنّه أنجب أطفالاً من ظهور الآخرين، لكنهم يكادون يكونون مسخاً، أوراماً، أجزاء وقطعا، أو تبسيطات حمقاء. وبالمناسبة، لم يكن الأستاذ لا جيالوجياً ولا بيولوجياً ولا حتى لسانياً، أتولوجياً أو محلّلاً نفسانياً، وكنا نسينا منذ زمن طويل ماذا كان اختصاصه. في الحقيقة، الأستاذ شلنّجار كان مزدوجاً، مُمفصلاً مرّتين، وهو ما لم يكن ييسّر الأمور، لم نكن نعرف البتة من كان هناك. هو (?) كان يزعم

(١) فرانسوا جاكوب، منطق الحيّ، صص ٢٨٩ - ٢٩٠.

أنه ابتكر مبحثاً كان أسماه بأسماء متنوعة، مبحثاً جذموريّاً، تحليلاً- طبقياً، تحليلاً- فُصاميّاً، ترخّلية، سياسة- مجهرية، ذرائعية، علّم كثرات، لكنّنا لم نر بوضوح لا أهداف ولا منهج ولا مبرّر هذا المبحث. الأستاذ الشابّ ألسكا (Alasca)، تلميذ شلنجر المفضّل، حاول الدّفاع عنه برياءٍ مبيناً أنّ الانتقال من تمّفصل إلى آخر في طبقة معيّنة، كان يقع التّحقّق منه بيسر بما أنه كان يتمّ دائماً عن طرق فقدان الماء، في علم الوراثة كما في الجيولوجيا، بل وحتى في اللسانيات حيث كان يقع قيس أهمية ظاهرة «اللّعب المفقود». أحسّ شلنجر أنه أهين، وقال إنه اختار الاستشهاد بصديقه الجيولوجيّ الدّنماركي السبينوزيّ يالمسلاف (Hjelmslev)، الأمير الغامض سليل هاملت، الذي كان يهتمّ [٥٨] كذلك باللغة، لكن ليستخلص منها «التّراصف» على وجه التحديد. لقد كان يالمسلاف تمكّن من إنشاء شبكة كاملة بمصطلحات المادّة، المضمون والتعبير، الصورة والمادّة. تلك كانت هي «الطبقات» فيما كان يقول يالمسلاف. بيد أنّ هذه الشبكة كان لها فضل القطع بالفعل مع ثنائية الشّكل- المضمون، بما أنه كان ثمة شكل للمضمون كما شكل للتعبير. أعداء يالمسلاف لم يروا في ذلك غير طريقة لإعادة تسمية مصطلحات المدلول والدّال سيّئة السّمعة، لكن الأمر كان مختلفاً تماماً. وعلى الرغم من يالمسلاف ذاته، كان للشبكة مدى آخر، مصدر آخر غير المصدر اللّسانيّ (كان يتوجّب قول نفس الشيء عن التّمفصل المضاعف: إذا كان للغة خصوصية، ولها بكلّ تأكيد واحدة، فإنها لم تكن تتمثّل لا في التّمفصل المضاعف ولا في شبكة يالمسلاف، اللّذين كانا خاصّيتين عامّتين للطّبعة).

أسمينا مادّة مسطّح القِوام أو الجسد دون أعضاء، أي الجسد غير المتشكّل، غير المنظّم، غير المتراصف أو الذي أزيل تراصفه، وكل ما كان يسيل فوق مثل هذا الجسد، جزيئات ما تحت هبائية وما تحت دّرّية، شُدّد محض، فرادات طليقة ما قبل فيزيائية وما قبل حيوية.

أسمينا مضمونا المواد المتشكّلة التي كان يجب النظر فيها مذكاً من زاويتين، من زاوية المادّة من حيث أنّ مثل هذه المواد كانت «اختيرت»، ومن زاوية الصّورة من حيث أنها كانت اختيرت في نظام معيّن (مادّة وصورة المضمون). قد نسمّي تعبيرا البنى الوظيفية التي كان يتوجّب النظر فيها هي ذاتها من زاويتين، زاوية تنظيم صورتها الخاصة، وزاوية المادّة من حيث أنّ تلك البنى كانت تشكّل مرّكبات (صورة ومادّة التعبير). كان ثمة دائما في طبقة ما بُعد لما يتعدّر التعبير عنه أو للتعبير بوصفه شرط ثبات نسبيّ: على سبيل المثال، السّلسلات النووية كانت ملازمة لتعبير ثابت نسبيا هو الذي كانت السّلسلات النووية تحدّد عن طريقه المرّكبات، أعضاء ووظائف الجهاز العضوي^(١). التعبير هو التّغني على الدّوام بمجد الله. كلّ طبقة هي قضاء الله، ليست وحدها التّباتات والحيوانات، أزهار الأوركيد والزّناير هي التي تتغنى أو تعبّر عن ذاتها، هي الصّخور وحتى الأنهار، كلّ أشياء الأرض المتراصفة. ها هو إذا التّمفصل الأوّل يخصّ المضمون والثاني يخصّ التعبير. التمييز بين التّمفصلين لا يمرّ بين الصّور [٥٩] والموادّ وإنما بين المضمون والتعبير، ليس للتعبير مادّة أقلّ من التي للمضمون، وليس للمضمون صورة أقلّ من التي للتعبير. إذا كان التّمفصل المضاعف يتطابق أحيانا مع الهبائيّ والكتلويّ وأحيانا لا يتطابق، فلأنّ المضمون والتعبير يتوزّعان تارة بذلك الشّكل وتارة أخرى بشكل مغاير. بين المضمون والتعبير لا وجود أبدا لتناسب ولا لتطابق، وإنما يوجد فقط تشاكل مع افتراض مسبق متبادل. بين المضمون والتعبير، يكون التمييز حقيقيا دائما، بعناوين متنوّعة، لكن

(١) فرانسوا جاكوب، «النّموذج اللّسانيّ في البيولوجيا»، مجلّة نقد، مارس ١٩٧٤، ص ٢٠٢: «للمادّة الوراثية دورانٌ لعبهما؛ من جانب أوّل يجب أن تتناسل حتى يقع نقلها إلى الجيل اللاحق؛ من الجانب الثاني يجب التعبير عنها لتحديد بُنى الجهاز العضويّ ووظائفه».

لا يمكننا القول إنّ الحدود توجد قبل التّفصل المضاعف. إنه هو الذي يورّعها وفق مساره في كلّ طبقة، وهو الذي يكون التمييز الحقيقيّ بينهما. (على النقيض من ذلك، بين الصّورة والمادّة ليس ثمة تمييز حقيقيّ، وإنما تمييز ذهنيّ أو صوريّ وحسب: الموادّ ليست غير موادّ متشكّلة، لم يكن بالإمكان تصوّر موادّ دون صورة، حتى وإن كان العكس ممكناً في بعض الحالات).

حتى في التمييز الحقيقيّ بينهما، المضمون والتعبير كانا متّصلين (التّفصلان «الأوّل» و«الثاني» كان يجب فهمهما كذلك بطريقة موصولة تماماً). حتى في قدرته على الثبات، كان التعبير متغيّراً بمقدار تغيّر المضمون. المضمون والتعبير كانا هما متغيّراً دالّة تراصف. لم يكونا يتغيّران من طبقة إلى أخرى وحسب، لكنهما كانا يحشدان ذاتيهما أحدهما في الآخر، كانا يتكاثران أو ينقسمان لا نهائياً في نفس الطبقة. بالفعل، بما أنّ كلّ تمفصل هو تمفصل مضاعف، فإنه ليس ثمة تمفصل للمضمون وتمفصل للتعبير، من دون أن يكون تمفصل المضمون مضاعفاً من جهته ومكوّناً في نفس الوقت تعبيراً موصولاً في المضمون - ومن دون أن يكون تمفصل التعبير مضاعفاً من ناحيته ومكوّناً في نفس الوقت مضموناً موصولاً في التعبير. لذلك ثمة بين المضمون والتعبير وبين التعبير والمضمون، حالات وسيطة، مستويات، توازنات وتبادلات تمرّ من خلالها منظومة متراصفة. باختصار، نعثر على صور وموادّ لمضمون لها دور تعبير بالنسبة إلى غيرها من الصّور والموادّ، وعكسياً بالنسبة إلى التعبير. هذه التمييزات الجديدة لا تتطابق إذاً مع التمييزات بين الصّور والموادّ في كلّ تمفصل، إنها تُظهر بالأحرى الكيفية التي كان بها كلّ تمفصل مضاعفاً أو ما يزال. نحن نلاحظ ذلك بالنسبة إلى الطبقة العضوية: بروتينات المضمون لها شكلان، أحدهما (الليف المُنّي) يتّخذ له دور تعبير وظيفيّ بالنسبة إلى الآخر. وبالمثل، من جهة الأحماض النووية للتعبير، تمفصلات مضاعفة تجعل بعض

العناصر الصّورية والمادية تلعب دور المضمون بالنسبة إلى عناصر صورية ومادية أخرى: ليس [٦٠] نصف السلسلة الذي استنسخه النصف الآخر هو فقط الذي يصبح مضمونا، بل السلسلة التي أعيد تشكيلها تصبح هي ذاتها مضمونا بالنسبة إلى «المرسال». ثمّة في الطبقة كمّاشات في كلّ مكان، مآزق، سرطانات بحر في كلّ مكان، في كلّ الاتجاهات، كثرة من التمثيلات المضاعفة التي تخترق التعبير تارة والمضمون تارة أخرى. من جميع هذه النواحي لم يكن يتوجّب نسيان تحذير يالمسلاف: «الحدود ذاتها التي هي حدود مسطح التعبير ومسطح المضمون قد تمّ اختيارها وفق الاستعمال الشائع وهي اعتباطية تماما. من خلال تعريفها الوظيفي، من المحال أن ندعم القول بأنه يكون من المشروع تسمية أحد هذه الأعظام تعبيراً والآخر مضموناً وليس العكس: إنهما لا يُعرّفان إلّا بوصفهما متكافئين ولا يمكن تعريف أيّ منهما وحده بأكثر دقّة. منفصلان، لا يمكن تعريفهما إلّا بالتقابل وبشكل نسبيّ، مثل دلّولات نفس الدالّة التي يقابل أحدهما الآخر»^(١). علينا أن نوحّد هنا كلّ موارد التمييز الحقيقيّ، الافتراض المتبادل والنسبية المعمّمة.

كنّا ذهبنا بدءاً إلى التساؤل عمّا لم يكن يتغيّر في طبقة معيّنة. ما الذي كان يكوّن وحدة وتنوّع طبقة ما؟ المادّة، المادّة المحض لمسطح القوام (أو الثقل) كائنة خارج الطبقات. لكن على طبقة معيّنة، يمكن للموادّ الهوائية المأخوذة من الما تحت طبقات أن تكون هي ذاتها بالرغم من أنّ الهباءات ليست كذلك. العناصر المادية يمكن أن تكون هي ذاتها على كامل الطبقة دون أن تكون الموادّ كذلك. العلاقات الصورية أو الرّوابط يمكن أن تكون هي ذاتها دون أن تكون الصّور

(١) يالمسلاف، مقدّمات لنظرية اللغة، طبعة مينوي، ص ٨٥.

كذلك. وحدة تكون الطبقة العضوية في البيوكيمياء تتحدّد على صعيد المواد والطاقة، على صعيد العناصر المادية أو على صعيد الجذريات والروابط والارتكاسات. لكنها ليست نفس الهباءات، نفس المواد ولا نفس الصّور. - ألم يكن ثمة مجال للثناء على جوفروا سانت-هيلار (Geoffroy Saint-Hilaire)؟ ذلك أنّ جوفروا كان عرف في القرن التاسع عشر، إقامة تصوّر رائع للتراصّف. كان يقول إنّ المادّة، في معنى انقساميتها القصوى، كانت تتمثّل في جزيئات تنازلية، في اندفاعات أو سوائل مظاطية «كانت تنبسط» مُشعّة في الفضاء. كان الاحتراق هو سيرورة هذا الإفلات أو هذا الانقسام اللانهائي على مسطح القوام. لكن الكهربة هي السيرورة العكسية، المكوّنة للطبقات والتي بواسطتها تتجمّع الجزيئات المتشابهة في ذرّات وهباءات، الهباءات المتشابهة [٦١] في هباءات أكبر، الهباءات الأكبر في مجموعات كتلوية: «اجتذاب الذات لذاتها»، مثل كمّاشة أو مثل تمفصل مضاعف. هكذا لم يكن للطبقة العضوية أية مادّة حيوية مخصصة، بما أنّ المادّة كانت هي نفسها بالنسبة إلى كلّ الطبقات، لكن كانت لها وحدة تركيب مخصصة، كان لها نفس الحيوان المجرّد الواحد، نفس المكنة المجرّدة الواحدة المأخوذة من الطبقة، وكانت تقدّم نفس المواد الهبائية، نفس العناصر أو المكوّنات التشرّحية للأعضاء، نفس الترابطات الصّورية. وهو ما لم يكن يمنع الصور العضوية من أن تكون مختلفة في ما بينها، وكذلك الأعضاء أو المواد المرغّبة، وكذلك الهباءات. لم يكن من المهمّ جدّاً أن يكون جوفروا قد اختار العناصر التّشريحية بوصفها هي الوحدات المادية، عوضاً عن جذريات البروتينات والأحماض النووية. عدا عن ذلك كان استحضار من قبل مجموعة كاملة من الهباءات. كان المهمّ هو مبدأ وحدة الطبقة وتنوعها: تشاكل الصّور دون تطابق، وحدة العناصر أو المكوّنات دون تماهي المواد المرغّبة.

هنا كان تدخّل الحوار أو بالأحرى الجدل العنيف مع كوفي (Cuvier). لشّد انتباه المستمعين الأخيرين، كان شلّنجار تخيل حوار أموات، حوارا إبستمولوجيا بوجه خاصّ، على شاكلة مسرح دمي. جوفروا كان ينادي المسوخ لتحضر لديه، كوفي كان يرتّب بانتظام كلّ الأحفوريات، بثير (Baër) كان يلوّح بأنابيب الأجنّة، فيالتون (Vialleton) كان يتمنطق بحزام رباعيّ الأرجل، برياي (Perrier) كان يحاكي الصراع الدرامي بين الفم والدماغ... إلخ. جوفروا: الدليل على التّشاكل هو أنه بالإمكان المرور دائما عن طريق «الثني» من صورة إلى أخرى، مهما كانت هذه الصّور مختلفة على الطبقة العضوية. من الفقريّ إلى رأسيّ الأرجل: قرّبوا جزئيّ العمود الفقريّ للفقريّ، اسحبوا رأسه باتجاه أرجله، حوضه باتجاه رقبته... كوفي (بغضب): هذا غير صحيح، هذا غير صحيح، لن تنتقلوا من فيل إلى قنديل بحر، لقد حاولتُ. ثمّة محاور وأصناف وتفرّعات عصية على الاختزال. ثمّة تشابّهات أعضاء وتماثل أشكال ولا شيء غير ذلك. أنت مزوّر وميتافيزيقيّ. - فيالتون (تلميذ كوفي وبثير): وحتى إذا كانت نتيجة الثني جيّدة، من قد يستطيع تحمّلها؟ لم يكن من الصدفة ألاّ يهتم جوفروا إلّا بعناصر تشريحية. لا عضلة ولا رباط ولا خاصرة قد تتمكّن من العيش بعدها. - جوفروا: لقد قلتُ إنه كان ثمّة تشاكل لكن ليس ثمّة تطابق. ذلك أنه ينبغي إشراك «درجات تطوّر أو إجادة». لا تصل الموادّ في كلّ مكان على الطبقة إلى الدّرجة التي قد تمكّنها من تكوين هذه المجموعة أو تلك. العناصر التشريحية يمكن إيقافها أو كبّحها هنا وهناك، بواسطة الطّرق الهبائيّ، تأثير الوسط أو ضغط [٦٢] الأجوار، بحيث أنها لا تكوّن نفس الأعضاء. العلاقات أو الارتباطات الصورية وقع تحديدها إذا لتتفعّل في صور وانتظامات مختلفة تماما. ومع ذلك نفس الحيوان المجرّد هو الذي يتحقّق على كامل الطّبقه، لكن بدرجات متنوّعة وبهيئات متنوّعة، كاملا كلّ مرّة على قدر استطاعته وفق المحيط

والبيئة (بطبيعة الحال ما زال الأمر لا يتعلق بعد بالتطور: لا الثني ولا الدرجات يتضمنان نسباً أو تحداراً، إنما تحقّقات مستقلة لنفس المجرد وحسب). ههنا يستحضر جوفروا المسوخ: المسوخ البشرية هي أجنّة توقفت عند درجة نموّ معيّنة، الإنسان في هذه الأجنّة ليس سوى قشرة لصور وموادّ غير بشرية. أجل، المسخ المزدوج هو قشريّة. - بثير (حليف كوفي، معاصر داروين لكنه متحفّظ إزاءه مثلما هو عدوّ جوفروا): هذا غير صحيح، لا يمكنكم الخلط بين درجات التطور وأصناف الصور. نفس الصنف له عدّة درجات، نفس الدرجة يقع العثور عليها في الكثير من الأصناف. لكن يستحيل عليكم تكوين أصناف بواسطة درجات. جنين من صنف معيّن لا يمكنه أن يظهر صنفاً آخر، على أقصى تقدير يمكن أن تكون له نفس درجة جنين من الصنف الآخر. - فيالتون (تلميذ بثير، يُزايد في نفس الوقت على داروين وعلى جوفروا): ومن بعد ذلك ثمة أشياء وحده الجنين يقدر على فعلها أو تحمّلها. يقدر على فعلها أو تحمّلها تحديداً بموجب صنفه وليس لأنه قد يستطيع الانتقال من صنف إلى آخر وفق درجات تطوره. لتعجبوا بالسّلحفاة التي تتطلب رقبتها انزلاق عدد معيّن من الفقرات الأولى، ويتطلّب العضو الأماميّ، انزلاقاً بمائة وثمانين درجة بالنسبة إلى انزلاق عصفور. لا يمكنكم الانتقال البتّة من التكوّن الجنينيّ إلى التطور النساليّ؛ الثني لا يسمح بالانتقال من صنف إلى آخر، على النقيض من ذلك، الأصناف هي التي تشهد لصالح أشكال الثني العvisية على الاختزال... (هكذا يكون لفيالتون نوعان مترابطان من الحجج لنفس الغرض، تارة يقول إنّ ثمة أشياء لا يمكن لأيّ حيوان أن يقوم بها بموجب مادّته، وطوراً ثمة أشياء وحده الجنين يمكنه القيام بها بموجب صورته. إنهما حجّتان قويتان)^(١).

(١) راجع، جوفروا سانت-هيلار، مبادئ فلسفة حيوانية، حيث نجد مقاطع من سجّاله مع كوفي؛ مصطلحات تركيبية، حيث يعرض جوفروا تصوّره الهباتيّ

لم نعد نعرف بوضوح أين نحن من الأمر. ثمّة الكثير من الأشياء على المحكّ في هذه التّقسيمات. ثمّة الكثير من التّمييزات التي لا تفتأ تتكاثر. ثمّة الكثير من تصفية الحسابات، ذلك [٦٣] أنّ الإيستيمولوجيا ليست بريئة. جوفروا بارع ولطيف جدّا، كوفيي جدّيّ وعنيف، يتصارعان حول نابليون. كوفيي، اختصاصيّ صلب، وجوفروا جاهز دائما لتغيير الاختصاص. كوفيي يكره جوفروا، لا يتحمّل الصيغ السّطحية لجوفروا، سخرية جوفروا (أجل، للدّجاج أسنان، سرطان البحر جلده على عظامه، إلخ.). كوفيي رَجُل سلّطة وميدان، وسيُشعر بذلك جوفروا الذي ينبئ فعليا بإنسان السّرعات المترحّل. كوفيي يتفكّر وفق فضاء أوقليديّ، بينما يفكّر جوفروا طوبولوجيّاً. لنستحضر اليوم تجعّد اللّحاء بكل مفارقاته. الطبقات طوبولوجية، وجوفروا فنّان طيّ عظيم، فنّان رائع؛ كان له بالفعل نتيجة ذلك، استشعارُ جذمور حيوانيّ معيّن ذي تواصلات شاذّة هي المسوخ، بينما كوفيي يرّد الفعل في صيغة صور منفصلة وفي صيغة استنساخات أحفورية. لكننا لم نعد نعرف بوضوح أين نحن من الأمر، لأنّ التّمييزات تكاثرت في كلّ الاتجاهات.

لم نأخذ بعدُ بعين الاعتبار حتى داروين، التطورية والتّطورية الجديدة. رغم أنه هناك تحدث ظاهرة حاسمة: مسرح دُمانا يصبح إشكاليّاً أكثر فأكثر، أي جماعيّاً وفارقيّاً. العاملان اللّذان استحضرناهما مع علاقاتهما الملتبسة، لتفسير التّنوّع على طبقة - درجات التّطوّر أو الكمال، وأصناف الأشكال - يخضعان لتغيير عميق. وفق نزوع مضاعف؛ أصناف الأشكال يجب أن تُفهم تدريجيّاً انطلاقاً من السّكّان، الزُّمر والمستعمرات، الجماعات أو الكثرات؛ ودرجات

للاشتعال، للكهربة وللجاذبية. بثير، حول التاريخ التّطوّريّ للحيوانات، و«السيرة الذاتية لكوفيي» (حوليات العلوم الطّبيعية، ١٩٠٨). فيالتون، أطراف وأحزمة الفقريات رباعية الأرجل.

التطوّر يجب أن تُفهم في صيغة سرعاتٍ، نسَبٍ، ضواربٍ وعلاقاتٍ تفاضلية. تعميق مضاعف. ذاك هو المكسب الأساسي للداروينية التي تتضمن تزاوجاً جديداً بين الأفراد- الأوساط على الطبقة^(١). من ناحية، إذا افترضنا وجود سَكّان ابتدائيين أو حتى هبائيين في وسط معين، فإنّ الأشكال لا تسبق وجود هؤلاء السَكّان، [٦٤] الأشكال هي بالأحرى نتائج إحصائية: سيتوزّع السَكّان بشكل أفضل في الوسط، سيقترمون به بقدر ما سيتخذون أشكالاً متباينة، بقدر ما ستقسم كثرتهم إلى كثرات مختلفة بالطبيعة، بقدر ما ستدخل عناصرهم في مركّبات أو في موادّ متشكّلة متميزة. بهذا المعنى، التكوّن الجنيني والتطوّر النسالي يقلبان ما بينهما من علاقات: لم يعد الجنين هو الذي يشهد على شكل مطلق مُعدّ مسبقاً في وسط مغلق، التطوّر النسالي للسكّان هو الذي يمتلك حرية أشكال نسبية، ولا واحد منها يكون مُعدّ مسبقاً في وسط مفتوح. في حالة التكوّن الجنيني، «يمكن القول بالرجوع إلى الوالدين، واستباقاً لنهاية المسار، إنّ الذي بصدد النّموّ هو حمامة أو ذئب... لكن هنا المعالم هي ذاتها متحرّكة: لا وجود لنقاط ثابتة إلّا من أجل انسجام اللغة. على نطاق التطوّر الكونيّ، كلّ رصد من هذا النوع مستحيل... الحياة على الأرض تظهر بوصفها جملة من الحيوانات والنباتات

(١) إنه في هذا التاريخ الطويل كان يمكن أن نخصّص مكاناً خاصاً، وإن لم يكن محدّداً، لأدموند برّيه (Edmond Perrier). لقد كان استعداد مشكل وحدة التركيب، مجدّداً جوفروا باستخدام داروين وخاصة باستخدام لامارك. بالفعل، أثر برّيه كلّ موجه نحو مبّشرين: المستعمرات أو الكثرات الحيوانية من ناحية، من ناحية أخرى، السرّعات التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الدّرجات والطيات المتغيرة («التخلّق المعجّل»). على سبيل المثال: كيف يمكن لدماغ الفقريات أن يأخذ مكان الفم عند الحلّقيات، «صراع الفم والدماغ». راجع، المستعمرات الحيوانية وتكوّن العضويات؛ «أصل تفرّعات المملكة الحيوانية» (في مجلّة عِلْم، ماي- جوان ١٩١٨). برّيه كتب تاريخاً للفلسفة الحيوانية قبل داروين، وفيه فصول ممتازة حول جوفروا وكوفي.

المستقلة نسبياً، بحدود متحرّكة أو متنافذة أحياناً. العصور الجغرافية لا يمكن أن تأوي فيها إلّا نوعاً واحداً من الشّواش، أو في أفضل الأحوال، تناغمات برّانية من نوع إيكولوجيّ، توازنات مؤقتة بين الفئات السّكانية»^(١).

من ناحية أخرى، في نفس الوقت وفي ظلّ نفس الأوضاع، الدّرجات ليست درجات نموّ أو كمال موجودين مسبقاً، إنها بالأحرى توازنات نسبية وإجمالية: إنّ قيمتها تحدّد وفق المزايا التي تضيفها على عناصر محدّدة، ثمّ على كثرة محدّدة في الوسط البيئيّ، ووفق تغيّر معيّن في الوسط البيئيّ. بهذا المعنى، لم تعد الدّرجات تقاس بكمال متدرّج، بتمايز الأجزاء وتضاعفها، إنما بهذه العلاقات والمُعاملات التفاضلية من مثل ضغط الانتقاء، فعل المحفّز، سرعة الانتشار، نسبة النموّ والتطوّر والتحوّل، إلخ. ؛ التّقدّم النسبيّ يمكن أن يتمّ إذا بتبسيط كمّيّ وصوريّ بدلاً من المضاعفة، بفقدان المكوّنات والسّميلات بدلاً من القُنية (يتعلّق الأمر بالسرعة، والسرعة تفاضلية). بالسّكان يتمّ التكوّن واتّخاذ أشكال، بالفقدان يتمّ إحراز التّقدّم واكتساب السّرعة. المكسبان الأساسيان للدّاروينية يتّجهان وجهة عِلْم للكثرات: الاستعاضة بالسّكان عن الأصناف وينسب العلاقات التفاضلية عن الدّرجات^(٢). إنها مكتسبات مترحلة، مع حدود متحرّكة للسّكان أو تغيّراتٍ كثرات، [٦٥]، مع مُعاملات تفاضلية أو تغيّرات علاقات. والبيوكيمياء الحالية، مثلما يقول مونو، «الدّاروينية الهبائية» كلّها تؤكّد في مستوى نفس الفرد الشامل والإحصائيّ الواحد، في مستوى مجرد عيّنة، الأهمية الحاسمة للسّكان الهبائيين وللنسب الميكروبيولوجية (على سبيل

(١) كانغيلام والمساهمون معه، «من التّموّ إلى التطوّر في القرن التّاسع عشر»، ضمن طاليس، ١٩٦٠، ص ٣٤.

(٢) جورج غايلور سمبسون، التطوّر ودلالته، منشورات بايو.

المثال، المتتالية التي لا حصر لها في سلسلة، وتغيّر نفس الأقسام اتفاقاً في هذه المتتالية).

شلنجر كان أكّد أنه كان قام باستطراد مطوّل، لكن لا شيء كان بإمكانه التمييز بين الاستطراذّي وغير الاستطراذّي. كان الأمر يتعلّق باستخلاص الكثير من النتائج المتعلّقة بهذه الوحدة وبهذا التنوّع لنفس الطبقة، أي الطبقة العضوية.

في المقام الأوّل، كان لطبقة وحدة تركيب، بها كان يمكنها أن تُسمّى طبقة: موادّ هبائية، عناصر مادّية، علاقات أو سمات صورية. لم تكن الموادّ هي المادّة غير المتشكّلة لمسطح القوام، لقد كانت مترافقة بالفعل وكانت متأتية من «الما تحت طبقات». لكن بكلّ تأكيد، ما تحت الطبقات لم يكن يجب اعتباره مجرد مقوّمات: خصوصاً أنه لم يكن لها تنظيم أقلّ تعقيداً أو تنظيم أدنى، وكان يتوجّب تحاشي كل تطورية كونية سخيفة. الموادّ التي توفرها ما تحت طبقة كانت دون شكّ أبسط من مرّكّبات الطبقة، لكن مستوى التنظيم الذي كانت تنتمي إليه هذه الموادّ في الما تحت الطبقة لم يكن أقلّ من الذي للطبقة ذاتها. بين الموادّ والعناصر المادّية كان ثمة تنظيم آخر، تغيير تنظيم وليس زيادة. كانت الموادّ التي وقع توفيرها تُشكّل وسطاً بيئياً خارجياً لعناصرٍ ومرّكّبات الطبقة موضوع النّظر؛ لكنها لم تكن خارجية بالنسبة إلى الطبقة. العناصر والمرّكّبات كانت تشكّل داخلاً بالنسبة إلى الطبقة، مثلما كانت الموادّ تشكّل خارجاً بالنسبة إلى الطبقة، لكن الاثنين كانتا تنتميان إلى الطبقة، هذه كمادّ متوفرة ومقتطعة، وتلك بوصفها متشكّلة مع الموادّ. وكذلك هذا الخارج وهذا الدّاخل كانا موصولين ولا يوجدان إلّا بما بينهما من تبادلات، إذاً بالطبقة التي كانت تربط بينهما. هكذا، على طبقة بلورية، الوسط عديم الشكل يكون خارج البذرة لحظة يكون البلور لم يتكوّن بعد؛ لكن البلور لا يتكوّن دون استدخال واستدماج كتل من المادّة اللّامتشكّلة. عكسياً،

داخلانية البذرة البلورية يجب أن تمرّ داخل برّانية النظام الذي يمكن فيه للوسط اللّامتشكّل أن يتبلّر (القدرة على اتخاذ التنظيم الآخر). بحيث أنّ البذرة هي التي تأتي من الخارج. باختصار، الخارج والداخل كلاهما داخل الطبقة. كذا الأمر بالنسبة إلى العضويّ: المواد التي وفّرتها الما تحت طبقات هي أيضا وسطّ خارجيّ مكوّن للحساء الشهير للمُعِينات الحيوية، بينما تلعب المحفّزات [٦٦] دور البذرة لتكوين عناصر وحتى مرّكّبات مادية داخلية. لكن استملاك هذه العناصر والمرّكّبات للموادّ ليس أقلّ من اطّراحها هي في الخارج عن طريق الانتساخ في نفس ظروف الحساء الابتدائيّ. هنا أيضا يتمّ التبادل بين الدّاخل والخارج بما أنهما داخل الطبقة العضوية. بينهما يكون الحدّ، الغشاء الذي ينظّم التبادلات وتغيير التنظيم، التوزيعات الدّاخلية في الطبقة والتي تُحدّد فوقها جملة العلاقات أو السّمات الصّورية (حتى وإن كان لهذا الحدّ وضع ودور متغيّران جدّا وفق كلّ طبقة: على سبيل المثال، حدّ البلور وغشاء الخلية). إذا، يمكن أن نسَمّي سافة مركزية أو حلقة مركزية لطبقة، المجموعة اللاحقة لوحدة التركيب: الموادّ الهبائية الخارجية، العناصر المادية الدّاخلية، الحدّ أو الغشاء الحامل للعلاقات الصّورية. ثمة ما يشبه نفس المكنة المجرّدة الواحد. سوفة في الطبقة، والتي تكوّن وحدتها. إنها المسطّح المسكون في تقابل مع المسطّح التائه لمسطّح القوام.

لكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد أنّ هذه السّافة المركزية الواحدة للطبقة كانت قابلة للعزل، أو كان يمكن الوصول إليها في ذاتها وعن طريق الارتداد. أوّلا، كانت الطبقة تنتقل ضرورة ومنذ البداية، من سافة إلى سافة. كانت لها بالفعل سافات كثيرة. كانت تنتقل من مركز إلى محيط، وفي نفس الوقت كان المحيط يؤثّر على المركز وكان يشكّل بالفعل مركزا جديدا لمحيط جديد. اندفاقات لم تكن تتوقّف عن الانتشار والتّراجع. كان ثمة طفرة وتضاعفّ لحالات وسيطة، هذه

السيرورة كانت تُفهم ضمن الشروط الموضوعية للحلقة المركزية (فروقٌ تمركز، تغييرات مقبولة أدنى من عتبة الهوية). هذه الحالات الوسيطة كانت تُقدّم أشكالاً جديدة لأوساط أو موادّ، لكن كذلك لعناصر ولمركّبات. بالفعل، لقد كانت هذه الحالات وسيطة بين الوسط الخارجي والعنصر الداخليّ، بين العناصر المادية ومركّباتها، بين المركّبات والموادّ، وكذلك بين مختلف الموادّ المتشكّلة (موادّ مضمون وموادّ تعبير). كنّا أسمىنا طبقات عارضة هذه الوسائط والتراكبات، هذه الطفرات وهذه المستويات. في مثالينا، الطبقة البلورية تتضمّن الكثير من الوسائط الممكنة بين الوسط أو المادّة الخارجيينّ والبذرة الداخليّة: كثرة حالاتٍ شبه الاستقرار المنفصلة بالتمام، كما الكثير من الدّرجات التراتبية. الطبقة العضوية ليست أكثر انفصالاً عن الأوساط المسمّاة داخلية، والتي هي بالفعل عناصر داخلية بالنسبة إلى موادّ خارجية، لكن كذلك عن العناصر الخارجية بالنسبة إلى [٦٧] موادّ داخلية^(١). ونحن نعرف أنّ هذه الأوساط العضوية الداخليّة تنظّم الدّرجات في تَعَقُّدٍ وَتَخَلُّقٍ أجزاءٍ عضوية مّا. طبقة مأخوذة في وحدة تركيبها لا توجد إذاً إلّا في طبقاتها المادّية العارضة التي تكسر اتصاليّتها، تشظّي حَلَقَتِها وتُدَرِّجُها. الحلقة المركزية لا توجد باستقلال عن محيط يشكّل مركزاً جديداً ويؤثّر على الأوّل، وينتشر بدوره في طبقات عارضة منفصلة.

ثمّ ليس هذا كلّ شيء. لم يكن ثمّة فقط هذا التّرابط الجديد أو الثاني بين الدّاخلّي والخارجيّ، لكن ثمّة كذلك تاريخ كامل على صعيد الغشاء أو الحدّ. بالفعل، من حيث أنّ العناصر والمركّبات كانت

(١) جيلبار سيموندون، الفرد وتكوّنه الفيزيائيّ- البيولوجيّ، المنشورات الجامعية الفرنسية، ص ١٠٧-١١٤، ٢٥٩-٢٦٤: حول الدّاخل والخارج في حالة البلور وفي حالة العضوية، وكذلك حول دور الحدّ أو الغشاء.

تتدامج وكانت تستملك الموادّ، فإنّ العضويات المناظرة لها كانت مرعّمة على التوجّه إلى موادّ مختلفة، «أكثرَ غربة وأقلّ تلاؤماً»، كانت تستعيرها إمّا من كُتْل ما تزال سليمة وإمّا على النقيض من ذلك من عضويات أخرى. كان الوسط يتّخذ هنا صورةً ثالثة أيضاً: لم يعد هو الوسط الخارجيّ أو الدّاخليّ، حتى وإن كان نسبياً، ولا هو وسط وسيط، إنّما هو بالأحرى وسط شريك أو مُضاف. الأوساط الشريكة كانت تتضمّن بدءً مصادرَ طاقة مختلفة عن الموادّ الغذائية ذاتها. ما لم يكن قد كان وقع التمكنّ من هذه المصادر، كان بالإمكان القول عن العضوية إنّها كانت تتغذى لكنها لم تكن تتنفس: لقد كانت ظلّت بالأحرى في حالة اختناق^(١). الفوز بمصدر طاقة كان يمكنّ في المقابل من توسّع المواد القابلة للتحوّل إلى عناصرٍ ومركّبات. هكذا كان الوسط المشارك يُعرّف بالاستحواذ على مصادر طاقة (التنفس بالمعنى الأعمّ)، بالتمييز بين الموادّ، بإدراك حضورها أو غيابها (الإدراك) وبصنع أو عدم صنع عناصر أو مركّبات مُناظرة لها (إجابة، ردّة فعل). أن يكون ثمة بهذا الخصوص إدراكات هبائية بقدر ما يكون ثمة من ردود أفعال، فذلك ما نلاحظه في كامل اقتصاد الخلية وفي خاصية عوامل التنظيم، في «التعرّف» الحصريّ على نوع أو نوعين كيميائيّين في وسط برّانية شديد التنوّع. لكنّ نماء الأوساط الشريكة أو المضافة يصل هو ذاته إلى العوالم الحيوانية كالتي وصفها أواكسكول (Uexküll)، مع خصائصها الطاقية، الإدراكية والفاعلة. عالمٌ مترابط لا يُنسى للقرادة التي وقع تعريفها بطاقة سقوطها الجاذبيّ، [٦٨] بخاصيتها الشّمّية للتقاط رائحة العرّق، بخاصيتها الفاعلة التي هي الوخز: تصعد القرادة إلى أعلى

(١) جوزاف هارولد روش (J.H. Rush)، أصل الحياة، بايو، ص ١٨٥: «العضويات البدائية كانت تعيش، بمعنى ما، في حالة اختناق. كانت الحياة وُلدت، لكنها لم تكن بدأت تنفّس».

غصن لتسقط على ثدييَّ مارَّ، تتعرّف عليه من خلال رائحته وتخزه في تجويف الجلد (عالم مترابط مكوّن من ثلاثة عوامل . هو ذا كلّ شيء).
الخصائص الإدراكية والفاعلة هي ذاتها بمثابة الكمّاشة أو التمثيل المضاعف^(١).

لكن هذه المرّة، الأوساط المشاركة كائنة في علاقة وطيدة مع الأشكال العضوية. مثل هذا الشكل ليس مجرد بنية، إنما هو هيكلية وتكوين لوسط مشارِك. وسط حيوانيّ مثل نسيج عنكبوت ليس أقلّ «تخلّقيّة» من شكل العضوية. لا ريب أنه لا يمكن القول إنّ الوسط هو الذي يحدّد الشكل؛ لكن لتكون أكثر تعقيدا، علاقة الشكل بالوسط ليست أقلّ حسما. من حيث أنّ الشكل يتوقّف على تقنين مستقلّ فإنه لا يقدر على التكوّن إلّا في وسط مشارِك يشبّك بكيفية معقّدة الخصائص الطاقية، الإدراكية والفاعلة طبقا لمتطلّبات التقنين ذاته؛ ولا يمكنه النماء إلّا من خلال الأوساط الوسيطة التي تنظّم سرعات ونسب موادّه؛ لا يمكنه اختبار ذاته إلّا في الوسط البرّانيّ الذي يقيس المزايا المقارّنة للأوساط المشاركة والعلاقات التفاضلية للأوساط الوسيطة. تؤثر الأوساط دائما عن طريق الانتقاء، على عضويات بأكملها، عضويات تتوقّف أشكالها على التقنيات التي تُقرّها هذه الأوساط بشكل غير مباشر. تقتسم الأوساط المشاركة نفس وسط البرّانية تبعا للأشكال المختلفة، مثلما تقتسمه الأوساط الوسيطة تبعا لنسب أو لدرجات نفس الشكل. لكن هذه الاقسامات لا تتمّ بنفس الطريقة. بالنسبة إلى الحزام المركزيّ للطبقة، الأوساط أو الحالات الوسيطة كانت تُشكّل «طبقات عارضة»، بعضها فوق بعضها الآخر، ومشكّلة مراكز جديدة لمحيطات جديدة. لكن كنّا عزمنا على تسمية «شبه طبقات» هذه الكيفية الأخرى

(١) جاكوب جوهان فون أوكسكول، عوالم حيوانية وعالم إنسانيّ، منشورات غونتيه.

التي كان يتشظى بها الحزام المركزيّ إلى جوانب وجانبياً، إلى أشكال لا تقبل الاختزال وإلى أوساط كانت مشاركة لها. هذه المرّة على مستوى الحدّ أو الغشاء الخاص بالحزام المركزيّ، كانت العلاقات أو السّمات الصورية، المنتمية إلى الطبقة بكاملها، تتخذ بالضرورة أشكالاً أو أنماطاً من الأشكال المختلفة تماماً، المناظرة لشبه الطبقات. طبقة لم تكن توجد هي ذاتها إلّا في طبقاتها العارضة وفي شبه طبقاتها، بحيث أنّ هذه الطبقات العارضة وشبه الطبقات كان عليها في ما يخصّها أن تُعتبر، إلى حدّ ما، بمثابة طبقات. حزام الطبقة، حلقتها المتصلة مثالياً، المسطح المسكون، المحدّد بهوية المواد الهوائية [٦٩]، بالعناصر الماديّة والعلاقات الصورية، لم يكن يوجد إلّا بوصفه مكسوراً، متشظياً إلى طبقات عارضة وإلى شبه طبقات كانت تستتبع مكنات عينيّة، مع المؤشرات التي تخصّ كلّ منها، وكانت تُكوّن هباءات مختلفة، موادّ مخصوصة، أشكالاً عصية على الاختزال^(١).

كان يمكننا الرّجوع إلى المكسبين الأساسيين: لماذا كان يتوجّب فهم الأشكال وأنماط الأشكال في شبه الطبقات بالنسبة إلى السّكان، ولماذا كان يتوجّب فهم درجات النّماء على الطبقات العارضة بوصفها نسباً وعلاقات تفاضلية. أوّلاً لأنّ شبه الطبقات كانت تطوّق التقنيات ذاتها، التقنيات التي كانت تتوقّف عليها الأشكال، وكانت تتعلّق ضرورة بالسّكان. كان يتوجّب فعلاً وجود سّكان هبائين بكاملهم حتى يقع تقنينهم، ومفاعيل التقنين أو التغيير في التقنين كانت تُقوّم في مستوى سّكان كُتلويين تقريباً، بموجب قابليتهم للانتشار في الوسط، أو بأن يصنعوا لذواتهم وسطاً جديداً مشاركاً قد يكون فيه التغيير قابلاً لأن

(١) بيا لافيوزا زانبوتّي (Pia Laviosa- Zambotti)، أصول الحضارة وانتشارها، بايو: استعمالها لمصطلحات الطبقة، ما تحت الطبقة وشبه الطبقة (مع أنها لا تعرّف هذا المصطلح الأخير).

يكون سگانًا. أجل، كان يتوجب التفكير دائما في صيغة زُمر وكثرات: إذا كان لتقنين أن ينجح أو لا ينجح، فلأنَّ الفرد المَقَنَّ ينتمي إلى سگان «هم الذين يقطنون أنبوب اختبار، بركة ماء أو مَعِيَّ ثديي». لكن ما الذي كان يعنيه التغيّر في تقنين أو تعديل تقنين، أو تبدّل شبه طبقة، هو الذي منه كانت ربّما تتأتى أشكال جديدة وأوساط مشاركة؟ نعم، التغيّر ذاته لم يكن متأتيا بطبيعة الحال من الانتقال بين الأشكال المُعدّة سلفا، أي من التعبير عن تقنين في آخر. ما دام المشكل قد كان طُرح على هذا النحو، فإنه كان غير قابل للحلّ، وكان يتوجب القول ولا ريب مع كوفي وبثير إنَّ أنماط الأشكال المستقرّة، بما أنها عصية على الاختزال، لم تكن تسمح بأيّ نقل ولا بأيّ تغيير. لكنّ المشكل يُطرح بكيفية مغايرة تماما مذ نلاحظ عدم انفصال تقنين عن سيرورة استشفار ملازمة له. لا وجود لعلم وراثه دون «انحراف جيني». النظرية الحديثة في الطّفرات بيّنت بوضوح كيف أنَّ تقنينا، هو بالضرورة تقنين سگان، يتضمّن هامش استشفار أساسي: كلّ تقنين له ملحقات قادرة على التغيّر بحرية، لكنّ نفس الأقسومة يمكن استنساخها مرّتين، تصبح الأقسومة الثانية حرّة من أجل التغيّر. وكذلك تتمّ تحويلات أجزاء تقنين، من خلية إلى أخرى متأتيتين من نوعين مختلفين، إنسان وفأر، قرد وقطّ، بواسطة فيروس أو بطرائق أخرى، دون أن يكون ثمة [٧٠] نقل تقنين إلى آخر (الفيروسات ليست نواقل)، إنما ثمة بالأحرى ظاهرة فريدة نسمّيها فائض قيمة التقنين، تواصل جانبي^(١). سوف تكون لدينا فرصة للحديث في ذلك لأنّ الأمر أساسي بالنسبة إلى كل التصيّرات-حيوانات. لكن بالفعل، الملحقات وفوائض القيمة، ملحقات في نظام كثرة، فوائض قيمة في نظام جذمور، يجعلان تقنينا أيّا كان مخصوصا

(١) فرانسوا جاكوب، منطق الحيّ، ص ٣١١-٣١٢، ٣٣٢-٣٣٣ وما يسميه ريمي شوفان (Rémy Chauvin) «التطوّر الموازي».

بها مش استشفار. الأشكال، بعيدا عن أن تكون ثابتة وساكنة فوق الطبقات، هي في شبه الطبقات، وشبه الطبقات ذاتها قائمة في تواشج مكني: إنها تحيل على فئات سكانية، الفئات السكانية تستتبع تقنيات، التقنيات تتضمن بشكل أساسي ظاهرات استشفار متصلة بها، وتكون أكثر قابلية للاستعمال والتركيب والجمع بقدر ما تكون متصلة و«جانبية» دائما.

إذا كانت الأشكال تحيل إلى تقنيات، إلى سيرورات تقنين ولا تقنين في شبه الطبقات، فإنّ المواد بوصفها موادّ متشكّلة تحيل إلى إقليميات، إلى حركات لا تأرضن وإعادة تأرضن على الطبقات العارضة. والحقّ يقال، الطبقات العارضة ليست أقلّ ارتباطا بهذه الحركات التي تُكوّنها من ارتباط شبه الطبقات بتلك السيرورات. من السّافة المركزية إلى المحيط، ثمّ من المركز الجديد إلى المحيط الجديد، تمرّ موجات مترحلة أو تيّارات لا تأرضن تسقط من جديد على المركز القديم وتنطلق نحو المركز الجديد^(١). الطبقات العارضة منتظمة في اتجاه لا تأرضن متزايد الاتّساع. تعبّر الجزيئات الفيزيائية والموادّ الكيميائية، على طبقتها وعبر الطبقات، عتبات لا تأرضن مناظرة لحالات وسيطة شبه مستقرّة، لتكافؤات، لوجودات شبه عابرة، لإسهامات في هذا الجسم أو ذاك، لشِدّد جوار، لترابطات شبه متعيّنة الموضع. ليست الجزيئات الفيزيائية وحدها هي التي تتميز بسرعات لا تأرضن- تاكيونات [حُبّيات]، ثقب- جزيئات، كواركات [ذُرّيات] على طريقة جويس (Joyce) للتذكير بالفكرة الأساسيّة لل«حساء»- لكن نفس المادّة الكيميائية، مثل الكبريت والكاربون، إلخ.، لها حالات

(١) راجع، بيا لافيوزا زانبوتّي (Pia Laviosa- Zambotti)، أصول الحضارة وانتشارها، م. م: فهمها للموجات والتيارات، من المركز إلى المحيط، للترخّل وللهجرات (التيارات المترحلة).

شبه لا مُتأرضِنة. على طبقتها الخاصّة، تكون العضوية أكثر لا تأرضن بقدر ما تنطوي على أوساط داخلية تؤمّن استقلاليتها وتضعها في مجموعة علاقات تصادفية مع الخارج. بهذا المعنى، درجات النّماء [٧١] لا يمكن فهمها إلّا نسبياً وطبقاً للسرّعات، للعلاقات وللنسب التفاضلية. يجب التّفكير باللاتأرضن بوصفه قوّة إيجابية تماماً، لها درجاتها وعتباتها (طبقات عارضة)، وهي نسبية دوماً، لها عكسها، لها تَمَامِيَّتُها في إعادة التّأرضن. عضوية لا مُتأرضِنة بالنسبة إلى الخارج تعيد التّأرضن حتماً على أوساطها الدّاخلية. فلذّة معيّنة يُفترَض أنها فلذّة جنين لا تتأرضن بتغيير العتبة أو المُمال، لكنها تتلقّى تخصيصاً جديداً من المحيط الجديد. الحركات الموضعية هي بالفعل تحولات. على سبيل المثال، التّنقّلات الخلوية، التمدّدات، الانغمادات، الانثناءات. ذلك أنّ كلّ رحلة هي رحلة اشتدادية، وتتمّ في عتبات شدّة تنمو فيها، أو تتخطّاها. إنّنا ننقل عن طريق الشّدّة، والتّنقّلات والأشكال في الفضاء تتوقّف على العتبات الاشتدادية لللاتأرضن المترحّل، وبالتالي على العلاقات التفاضلية التي تحدّد في نفس الوقت إعادات التّأرضن المقيمة والتكميلية. كلّ طبقة تعمل على هذا النّحو: تقبض في كمّاشاتها على أكبر قدر من الشّدّد ومن الجزيئات الاشتدادية، حيث تطرح صورها وموادّها، وتشكّل مُمالاتٍ وعتباتٍ إصداء محدّدة (يجد اللّاتأرضن ذاته محدّداً دائماً على طبقة في علاقة بإعادة التّأرضن التكميلية)^(١).

طالما بقينا نقارن بين أشكال مُعدّة مسبقاً ودرجات محدّدة مسبقاً، فإنّنا لم نكن مجبرين على البقاء عند مجرد ملاحظة كونهما عصيّتين على الاختزال وحسب، بل لم يكن لنا أية وسيلة أخرى لإصدار حُكم على

(١) حول ظاهرات الإصداء بين نُظُم الأعظام المختلفة، راجع سيموندون، م. م، ص ١٦ - ٢٠، ١٢٤ - ١٣١، وفي غيرها من الصّفحات.

التواصل الممكن بين العاملين. ها هي الأشكال تتوقف على التقنيات في شبه الطبقات، وتغوص في سيرورات اللّا تقنين أو الانحراف؛ الدّرجات مأخوذة هي ذاتها في حركات لا تَأْرُضُن وإعادة تَأْرُضُن مشتدّين. تقنيات وإقليميات، لا تقنيات ولا تَأْرُضُن، لا تتناظر تماما: على النقيض من ذلك، يمكن لتقنين أن يكون تقنين لا تَأْرُضُن، إعادة تقنين يمكن أن تكون إعادة تقنين استشفار. ثمة فَعَرَات كبرى بين تقنين وإقليمية. العاملان لهما نفس «الموضوع» في طبقة: إنَّهم السَّكَّان هم الذين لا يَتَأْرُضُونَ ويعيدون التَّأْرُضُن، بقدر ما يتقنّون ولا يتقنّون. وهذه العوامل تتواصل وتتشابك في الأوساط.

من ناحية، تحويرات التّقنين لها بالفعل سبب عرضيّ في وسط البرّانية، وتأثيراتها على الأوساط الدّاخلية وتلاؤمها معها هما اللّذان يقرّران بشأن صبغتها السّكّانية. [٧٢] اللّا تَأْرُضُنات وإعادة التَّأْرُضُنات لا تحدّدان التحويرات، لكنهما تُحدّدان انتقاءها بدقّة. من ناحية أخرى، لكلّ تحوير وسطه المشارِك الذي سيفضي بدوره إلى مثل هذا اللّا تَأْرُضُن بالنسبة إلى وسط البرّانية، إلى مثل إعادة هذا التَّأْرُضُن على أوساط داخلية أو وسيطة. في وسطِ مشارِك، تنشئ الإدراكات والأفعال أو تنتج علامات إقليمية (مؤشّرات) حتى على الصعيد الهبائيّ. من باب أولى، يكون عالم حيوانيّ مكوّن ومعلّم بمثل تلك العلامات التي تقسّمه إلى مناطق (منطقة الكنّ، منطقة الصيد، منطقة محيّدّة، إلخ.). تحشد أعضاء خاصّة، وتُناظر أجزاء من التّقنين، بما في ذلك هامش اللّا تقنين الملازم للتّقنين. حتى الجزء المكتسّب احتفظ به التقنين أو احتكره. لكن المؤشّرات أو العلامات الإقليمية لا تنفصل عن حركة مضاعفة. الوسط المشارِك بما أنه يواجه دائما وسط برّانية ينخرط فيه الحيوان فإنه يخاطر بذاته حتما، يجب الحفاظ على خطّ إفلات يمكّن الحيوان من العودة إلى وسطه المشارِك عندما يظهر الخطر (من ذلك خطّ إفلات الثور في الحلبة، التي يمكنه بواسطتها الالتحاق بالميدان الذي

اختاره^(١)). ثمّ يظهر خطّ إفلات ثان عندما يجد الوسط المشارك ذاته متحيّراً تحت ضربات الخارج، ويكون على الحيوان التخلّي عنه ليضمّ إليه أجزاء برّانية جديدة، مستنداً هذه المرّة إلى أوساطه الدّاخلية وكأنّها عكّازات هشة. عندما يجفّ البحر، تغادر السمكة الابتدائية وسطها المشارك لتستكشف الأرض، مُرغمة على «الهجرة»، ولم تعد تحمل المياه إلّا داخل أغشيتها السّلوّية لحماية الجنين. بكيفية أو بأخرى، الحيوان هو الذي يفلت وليس هو الذي يهاجم، لكنّ ضروب إفلاته هي كذلك انتصارات وإبداعات. إذًا، الإقليميات تخترقها من جهة إلى أخرى خطوط إفلات تشهد فيها على حضور حركات لا تأرضن وإعادة تأرضن. بكيفية معيّنة، الإقليميات هي الثانية. إنها قد لا تمثّل هي ذاتها شيئاً دون هذه الحركات التي تُرسّبها. باختصار، على المسطح المسكون أو على وحدة تركيب طبقة، لا تفتأ الطبقات العارضة وشبه الطبقات تتحرّك، تنزلق، تنتقل وتغيّر، بعضها تحمله خطوط الإفلات وحركات اللاتأرضن، والبعض الآخر تحمله مسارات الاستشفار أو الانحراف، وتلتقي هذه وتلك في مفترق الأوساط. لا تفتأ ظاهرات التكسير أو التقطيع تهزّ الطبقات، إمّا على مستوى [٧٣] ما تحت الطبقات التي توفرّ الموادّ، إمّا على مستوى «الحساءات» التي تحملها كلّ واحدة من الطبقات (حساء قَبْحيويّ، حساء قَبْكيميائيّ...)، إمّا على مستوى الطبقات العارضة التي تتراكم، إمّا على مستوى شبه الطبقات التي تتساند: تنبثق في كلّ مكان تسارعات وانسدادات متآنية، سرعاتٌ مقارّنة، فروقٌ لا تأرضن تصنع حقولاً متّصلة من إعادة الأرضنة.

من المؤكّد أنّه لم يكن يتوجّب الخلط بين هذه الحركات النسبية

(١) كلود بوبلان (Claude Popelin)، الثّور وصراعه، منشورات ١٨/١٠: مشكل مناطق الإنسان والثّور في الحلبة، في الفصل الرّابع.

وبين إمكان لا تأرُضُن مطلق، خطّ إفلات مطلق، انحراف مطلق. الأولى كانت طبقاتيّة أو بيُطبقاتيّة، بينما هذه الأخيرة كانت تخصّ مسطّح القِوام ولا تراصفه («احتراقه» مثلما كان يقول جوفروا). لا شكّ أنّ الجُزيئات الفيزيائية الجنونية كانت تصطدم بالطبقات عند اندفاعها، كانت تخترقها تاركة وراءها أثرا ضئيلا، كانت تفلت من الإحداثيات المكانية- الزمنية وحتى الوجودية لتتجه نحو حالة لا تأرُضُن مطلق أو نحو مادّة غير متشكّلة، على مسطّح القِوام. بطريقة ما، تسارع اللاّ تأرُضُنات النسبية كان يبلغ جدار الصوت: إذا كانت الجزيئات ترتدّ على هذا الجدار أو كانت تدع نفسها للثقوب السوداء، فإنها كانت تسقط من جديد في الطبقات وفي علاقاتها وأوساطها، لكن إذا كانت تخترق الجدار فإنها كانت تبلغ الوسط غير المتشكّل واللاّ متراصف لمسطّح القِوام. كان يمكننا حتى القول إنّ المكنات المجرّدة، التي كانت ترسل الجزيئات وكانت تجمعها، كان لها ما يشبه صيغتي وجود مختلفتين تماما: المسطّح المسكون والمسطّح الثّائ. تارة كانت تظّلّ حبيسة التّراصفات، كانت ملفوفة في هذه الطبقة المحدّدة أو تلك هي التي كانت تُحدّد برنامجها أو وحدة تركيبها (الحيوان المجرّد، الجسم الكيميائيّ المجرّد، الطّاقة في ذاتها)، والتي فوقها كانت تُنظّم حركات اللاّتأرُضن النسبية. وتارة أخرى كانت المكنة المجرّدة على النقيض من ذلك تجتاز كلّ التّراصفات، تتطوّر لوحدها ولذاتها على مسطّح القِوام الذي كانت تكوّن برنامجها، نفس المكنة كانت تعرك كذلك الفيزيائيّ- الفلكيّ والميكرو- فيزيائيّ، الطّبيعيّ والاصطناعيّ، وكانت تقود اندفاقات لا تأرُضُن مطلق (لا ريب أنّ المادّة غير المتشكّلة لم تكن البتّة أيّ شواش كان). لكن هذا العرض ما يزال بسيطا جدا.

من ناحية، لم نكن نمرّ من التّسبيّ إلى المطلق بمجرد تسارع، مع أنّ زيادة السرّعات تتّجه نحو هذه النتيجة الشاملة والمقارّنة. لا تأرُضُن مطلق لم يكن يتحدّد بمسرّع ضخم، لقد كان مطلقا أو غير مطلق بصرف

النَّظَرُ عَنْ كَوْنِهِ كَانَ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ سُرْعَةً أَوْ بَطْءً. [٧٤] كَانَ يُمْكِنُنَا بَلُوغُ الْمَطْلُوقِ حَتَّى بَظَاهِرَاتِ بَطْءٍ أَوْ تَأَخُّرِ نَسْبِيِّينَ. تَأَخَّرَاتُ تَطَوُّرٍ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ. مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يُمَيِّزَ اللَّاتَارُضْنَ لَمْ تَكُنْ هِيَ سُرْعَتُهُ (ثُمَّ لَا تَارُضُنَاتٍ بَطِيئَةً)، بَلْ طَبِيعَتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا كَانَتْ تَكُونُ طَبَقَاتٍ عَارِضَةً وَشَبَهَ طَبَقَاتٍ، وَكَانَتْ تَعْمَلُ بِوَاسِطَةِ أَقْسُومَاتٍ مَمْفُضَةٍ، أَوْ عَلَى النِّقِیْضِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا كَانَتْ تَقْفِزُ مِنْ فِرَادَةٍ إِلَى أُخْرَى وَفَوْقَ خَطِّ غَيْرِ أَقْسُومِيٍّ لَا يَقْبَلُ التَّجْزِئَةَ هُوَ الَّذِي كَانَ يَرَسُمُ مَا بَعْدَ طَبَقَةٍ لِمَسَطَّحِ الْقِوَامِ. مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، لَمْ يَكُنْ يَجِبُ الْإِعْتِقَادُ خَاصَّةً فِي كَوْنِ اللَّاتَارُضْنَ الْمَطْلُوقِ كَانَ يَحْدُثُ فَجْأَةً، بِالإِضَافَةِ، لِأَحْقَا أَوْ فِي مَا أَبْعَدَ. قَدْ لَا نَفْهَمُ فِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ لِمَ كَانَتْ الطَّبَقَاتُ ذَاتَهَا تَنْشِطُهَا حَرَكَاتٌ لَا تَارُضْنِ وَلَا تَقْنِینِ مَوْصُولَيْنِ، لَمْ يَكُونَا عَلَى هَذِهِ الطَّبَقَاتِ بِمِثَابَةِ أَعْرَاضٍ. فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ، مَا كَانَ أَوَّلَ هُوَ لَا تَارُضْنُ مَطْلُوقٌ، خَطِّ إِفْلَاتٍ مَطْلُوقٌ، مَهْمَا كَانَ مَعْقِدًا وَمَتَكَثِّرًا فَهُوَ خَطِّ إِفْلَاتٍ مَسَطَّحِ الْقِوَامِ أَوْ الْجَسَدِ دُونَ أَعْضَاءِ (الْأَرْضِ، اللَّامُتَارُضْنَ بِإِطْلَاقٍ). وَلَمْ يَكُنْ لِيَصْبِحَ نَسْبِيًّا إِلَّا بِالتَّرَاصُفِ عَلَى هَذَا الْمَسَطَّحِ، عَلَى هَذَا الْجَسَدِ: كَانَتْ الطَّبَقَاتُ دَائِمًا بِقَايَا وَلَيْسَ الْعَكْسُ - لَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ كَيْفَ كَانَ يَخْرُجُ شَيْءٌ مَّا مِنَ الطَّبَقَاتِ، إِنَّمَا بِالْأُخْرَى كَيْفَ كَانَتْ تَدْخُلُ إِلَيْهَا الْأَشْيَاءُ. بِحَيْثُ أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ عَلَى الدَّوَامِ تَأْصُلُ اللَّاتَارُضْنَ الْمَطْلُوقِ فِي اللَّاتَارُضْنَ النَّسْبِيِّ؛ وَأَنَّ التَّنْضِيدَاتِ الْمَكْنِيَّةَ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ، الَّتِي كَانَتْ تَنْظُمُ الْعِلَاقَاتِ التَّفَاضُلِيَّةَ وَالْحَرَكَاتِ النَّسْبِيَّةَ، كَانَتْ لَهَا هِيَ أَيْضًا رُؤُوسٌ لَا تَارُضْنَ مُلْتَفَتَةً نَحْوَ الْمَطْلُوقِ. دَائِمًا تَحَايُثُ الطَّبَقَاتُ وَمَسَطَّحِ الْقِوَامِ، أَوْ تَمَاعِي حَالَتِي الْمَكْنَى الْمَجْرَدَةِ وَكَأَنَّهُ تَحَايُثُ حَالَتِي شِدَّةٍ مُخْتَلِفَتَيْنِ.

أَغْلَبُ الْمُسْتَمْعِينَ كَانُوا غَادَرُوا (أَوَّلًا مَارْتِنِيَّ التَّمْفِصَلِ الْمَضَاعَفِ، ثُمَّ يِلْمَسَالْفِيَّ الْمَضْمُونِ وَالتَّعْبِيرِ، وَبِيُولُوجِيَّ الْبُرُوتِينَاتِ وَالْأَحْمَاضِ

النوية). وحدهم الرياضيون مكثوا لأنهم كانوا متعودين على حماقات أخرى، بعض المنجمين والأركيولوجيين، وأشخاص متفرقون. علاوة على ذلك، شلنجر كان تغير منذ البداية، صوته أصبح أجشّ، وأحيانا يخترقه سعال قُرديّ. لم يكن حلمه تقديم محاضرة لكائنات بشرية بقدر ما كان اقتراح برنامج لمحضر حواسيب. أو هو أكسيومية، ذلك أنّ الأكسيومية كانت تخصّ التراصف بشكل أساسي. شلنجر لم يكن يتوجّه إلّا إلى الذاكرة. الآن وقد تحدّثنا على ما كان يظّل ثابتا على طبقة وما كان يتغيّر عليها، من منظور الموادّ والصّور، فإنه كان بقي لنا أن نتساءل عمّا كان يتغيّر من طبقة إلى أخرى، معتمدين منظور المضمون والتعبير. [٧٥] ذلك أنه إذا كان صحيحا أنّه يوجد دائما تمييز فعليّ تكوينيّ لتمفّصل مضاعف وللزوم متبادل بين المضمون والتعبير- فإنّ ما يتغيّر من طبقة إلى أخرى، هي طبيعة هذا التمييز الفعليّ، وطبيعة الحدّين المختلفين ووضع كلّ واحد منهما. لننظر فعلا في مجموعة أولى كبرى من الطبقات: يمكن توصيف الطبقات بالقول إجمالياً إنّ المضمون (الصّورة والمادّة) فيها هبائيّ، والتعبير (الصّورة والمادّة) فيها كتلويّ. الفرق بين الاثنين هو أوّلا من قبيل العظم أو السّلم. التّمفصل المضاعف يتضمّن هنا صنفين من العظم. إنه الإصداء، التواصل الطارئ بين الصّنفين المستقلّين هو الذي يُرسي النظام المتراصف الذي مضمونه الهبائيّ له هو ذاته صورة متطابقة مع توزيع الكتل الأوّلية ومع النشاط القائم من هبأة إلى أخرى، بمثل ما تكون للتعبير صورة تُظهر في ما يخصّها المجموعة الإحصائية وحالة التّوازن في المستوى العيانيّ. التعبير هو بمثابة «عملية هيكلية مكبّرة تنقل إلى مستوى ماكروفيزيائيّ الخصائص النشطة للانفصالية الميكروفيزيائية ابتدائيّا».

لقد كنّا انطلقنا من مثل هذه الحالة بالنسبة إلى الطبقة الجيولوجية، بالنسبة إلى الطبقة البلّورية، بالنسبة إلى الطبقات الفيزيائية-الكيميائية،

من أيّ مكان نستطيع فيه القول إنّ الكتلويّ يعبر عن التفاعلات الهبائية المجهرية («البّلور هو التعبير العيانيّ عن بنية مجهرية»، «يعبر شكل البلّورات عن بعض الخصائص الهبائية أو الذّريّة للنوع الكيميائيّ المكوّن»). لا ريب أنّ الإمكانات كانت هي ذاتها متنوّعة جدّا بهذا الخصوص، تبعا لعدد وطبيعة الحالات الوسيطة، تبعا كذلك لتدخّل قوى خارجية من أجل تكوين التّعبير. كان يمكن أن يكون ثمة الكثير أو القليل من الحالات الوسيطة بين الهبائيّ والكتلويّ؛ كان يمكن أن يكون ثمة القليل أو الكثير من القوى الخارجية أو من المراكز التنظيمية المتدخّلة في تكوين الشّكل الكتلويّ. ولا شكّ أنّ هذين العاملين كانا يشران تناسبيا إلى حالتين حدّيتين. على سبيل المثال، شكل التّعبير الكتلويّ كان يمكنه أن يكون من نمط «قالب»، مجدّدا أقصى ما يكون من القوى الخارجية؛ أو على النقيض من ذلك من نمط «تضمين»، لا يُشرك غير أدنى قدر منها؛ مع ذلك كان ثمة حتى في وضع القالب حالات وسيطة، تكاد تكون مؤقتة، بين المضمون الهبائيّ الذي كان يتشكّل بأشكاله المخصوصة، والتعبير الكتلويّ المحدّد من الخارج بشكل القالب. عكسيّا، عندما كان التكاثر وترمين الحالات الوسيطة يشهدان على الخاصية الدّاخلية للشّكل الكتلويّ كما هو الشّأن بالنسبة إلى البلّورات، فإنّ الحدّ الأدنى من القوى الخارجية لم يكن أقلّ تدخّلا في كلّ واحدة [٧٦] من هذه المراحل^(١). كان علينا إذا أن نقول إنّ الاستقلالية النسبية للمضمون وللتعبير، التمييز الفعليّ بين المضمون الهبائيّ مع أشكاله والتعبير الكتلويّ مع أشكاله، كانت له منزلة خاصّة تتمتّع بمدى معيّن بين الحالات الحدّية.

(١) حول مقاييس العِظَم وإرساء إصدارها على الأفعال التي من نمط «قالب»، «تضمين» و«قولية»، حول القوى الخارجية والحالات الوسيطة، راجع جيلبار سيموندون.

بما أن الطبقات كانت هي قضاء الله فإنه لم يكن يتوجب التردد في استعارة كلّ دقائق أسكولائية القرون الوسطى ولاهوتها. لقد كان ثمة تمييز حقيقي بين المضمون والتعبير بما أن الأشكال المناظرة لهما كانت متميزة حاليا في الـ«شيء» ذاته وليس في ذهن مُلاحظ وحسب. لكنّ هذا التمييز الحقيقي كان خاصا جدّا، كان صوريّا وحسب، بما أن الشّكلين كانا يكوّنان نفس الشيء الواحد أو كانا يجعلانه مطابقا لذاته، كانا يكوّنان نفس الموضوع الواحد المتراصّف أو كانا يجعلانه مطابقا لذاته. قد نقدّم أمثلة متنوّعة عن التمييز الصّوريّ: بين درجات أو مقاييس العِظَم (كما بين خارطة ونموذجها؛ أو بكيفية أخرى، بين مستويات ميكروفيزيائية وماكروفيزيائية، كما في مثل طاولتي إدغتون)- بين حالات متنوّعة أو علل صوريّة يمرّ بها ذات الشيء- بين الشيء وقد اتخذ شكلا، وفي العلاقة السببية التي ربما تكون خارجية وهي التي تمنحه شكلا آخر... إلخ. (ثمة الكثير من الأشكال المتميزة بحيث أن المضمون والتعبير ليسا هما اللذان لكلّ منهما شكله وحسب، إنما الحالات الوسيطة هي أيضا كانت تُدخل أشكال تعبير خاصّة بالمضمون، وأشكال مضمون خاصّة بالتعبير).

التمييزات الصّورية، مهما كانت متنوّعة وحقيقية، فإنّ طبيعة التمييز هي التي تتبدّل مع الطّبعة العضوية، وبذلك يتبدّل توزيع المضمون والتعبير بتمامه على هذه الطّبعة. مع ذلك تحتفظ هذه الطّبعة بالعلاقة بين الهبائيّ والكتلويّ مع كلّ ضروب الحالات الوسيطة، بل وتُضخّمها. لقد رأينا ذلك بخصوص التّشكّل الحيويّ حيث يبقى التّفصل المضاعف مرتبطا بالتّواصل بين مقياسيّ عِظَم. كذلك الشّأن بالنّسبة إلى الكيمياء الخلويّة. لكن ثمة خاصية أصلانية للطّبعة العضوية التي عليها أن تأخذ بعين الاعتبار هذه التّضخيمات ذاتها. ذلك أن التعبير كان يتوقّف سابقا على المضمون الهبائيّ المعبرّ عنه، في كلّ الاتجاهات ووفق كلّ الأبعاد، ولم تكن له استقلالية إلّا بقدر ما كان

يستعين بمقياس عِظَم أعلى وبقوى خارجية: التمييز الحقيقي كان بين أشكال، لكنّها أشكال لنفس المجموعة الواحدة، [٧٧] لنفس الشيء أو الموضوع. لكن التعبير يصبح الآن مستقلاً بذاته، أي قائماً برأسه. في حين أنّ تقنين طبقة سابقة كان مُتماذاً للطبقة، فإنّ تقنين الطبقة العضوية يتمّ على خطّ مستقلّ وقائم برأسه، ينفصل إلى أقصى حدّ عن البعدين الثاني والثالث. يتوقّف التعبير عن أن يكون ضخماً أو سطحياً ليصبح خطيّاً وأحاديّ البعد (حتى في أقسوميته). الأساسي هو خُطّيّة المتتالية الذريّة^(١). التمييز الحقيقي مضمون- تعبير لم يعد بالتالي مجرد تمييز صوريّ، إنه حقيقيّ بالمعنى الدقيق للكلمة، إنه يمرّ الآن داخل الهبائيّ بغضّ النّظر عن مقاييس العِظَم، يمرّ بين فتّئي هباءات، أحماض تعبير نووية وبروتينات مضمون، بين عناصر نووية أو نوويدات (nucléotides) وعناصر بروتينيّة أو أحماض أمينيّة. في كلّ من التعبير والمضمون ما هو هبائيّ وما هو كتلويّ. لم يعد التمييز يتعلّق بنفس المجموعة الواحدة أو بنفس الموضوع الواحد؛ الخُطّيّة تجعلنا نحقّق أولاً مكسبا في مجال الكثرات المسطّحة بدلا من التوجّه نحو الوحدة. يحيل التعبير بالفعل على النوويدات وعلى الأحماض النووية كما على هباءات مستقلّة تماما في صورتها ومادّتها، ليس عن هباءات المضمون وحسب، بل عن كلّ فعل موجّه للوسط الخارجيّ. هكذا تنتمي الثابتيّة إلى بعض الهباءات ولم تعد تنتمي إلى السّلم الكتلويّ. عكسيّا، البروتينات في مادّتها وكذلك في صورة مضمونها، ليست أقلّ استقلالية عن النوويدات: ما هو محدّد بطريقة أحادية هو فقط كون هذا الحامض الأمينيّ وليس غيره هو الذي يتطابق ومتتالية

(١) بطبيعة الحال، ثمة كثرة متتاليات أو خطوط. لكنّ ذلك لا يمنع من أن يكون «نظام النّظام» أحاديّ الخطّ (راجع، فرانسوا جاكوب، منطق الحيّ، ص ٣٠٦، «النّموذج اللسانيّ في البيولوجيا»، صص ١٩٩-٢٠٣).

ذات ثلاث نويدات^(١). ما تُحدّده الصورة الخطيّة للتعبير هو إذاً صورة تعبير مشتقّ، متّصلة هذه المرّة بالمضمون، وستعطي في نهاية الأمر، بواسطة انشاء المتتالية البروتينية للأحماض الأمينية، البنى المخصوصة ثلاثية الأبعاد. باختصار، ما يميّز الطبقة العضوية هو هذا التّصنيف للتعبير، هذا الاستنفاد أو هذا الانفصال لخطّ تعبير، هذا الارتداد لصورة ولماّدة التعبير على خطّ ذي بعد واحد، هو الذي سيؤمّن الاستقلال المتبادل مع المضمون بغضّ النظر عن مقاييس العِظم.

[٧٨] تتولّد عن ذلك الكثير من النّتائج. هذه الوضعية الجديدة للتعبير وللمضمون لا تشرّط قدرة العضوية على التّكاثر وحسب بل فضلا عن ذلك قدرتها على اللاتأرضن أو على تسريعه. تصنيف التقنين أو خطيّة المتتالية النووية يعيّنان بالفعل عتبة لا تأرضن الـ«علامة»، التي تحدّد الإمكان الجديد لقابليتها للاستنساخ، لكنّها تحدّد كذلك العضوية بما هي أكثر لا تأرضنا من بلّور: وحده اللامتأرضن قادر على التكاثر. بالفعل، طالما أنّ المضمون والتعبير يتوزّعان وفق الهبائيّ والكتلويّ، فإنّ الموادّ تنتقل من حالة إلى حالة، من الحالة السّابقة إلى الحالة اللاحقة، أو من سافة إلى سافة، من سافة متكوّنة بالفعل إلى السّافة التي هي بصدد التّكوّن، بينما تقوم الصّور على حافة السّافة الأخيرة أو على حافة الحالة الأخيرة، وعلى حافة الوسط الخارجيّ. بحيث أنّ الطبقة تتطوّر إلى طبقات عارضة وإلى شبه طبقات بواسطة مجموعة مُحاثّاتٍ من سافة إلى سافة، من حالة إلى حالة، أو إلى الحدّ. تُفرز بلّورة هذه السيرورة في حالتها الخام، بما أنّ صورتها تمتدّ في كلّ الاتّجاهات، لكن دائما وفقا

(١) حول استقلالية كلّ من البروتينات والأحماض النووية، وتلازمها المتبادل، راجع، فرنسوا جاكوب، منطق الحيّ، صص ٣٢٥-٣٢٧، وجاك مونو، المصادفة والحتمية، صص ١١٠-١١٢، ١٢٣-١٢٤، ١٢٩، ١٥٩-١٦٠.

للسّافة السّطحية للمادّة، التي يمكن إفراغها من جزئها الدّاخليّ الأكبر دون أن توقف النموّ. إنه إخضاع البلّور للأبعاد الثلاثة، نعني مؤشّر إقليميّه الذي يجعل البنية غير قادرة صوريّاً على التكاثر وعلى التعبير عن ذاتها، ويسمح بذلك فقط للسّطح المتاح، الذي هو وحده يقبل اللاتأرضن. على النقيض من ذلك، انفصال خطّ تعبير محض عن الطّبقه العضوية سيجعل العضوية قادرة في الوقت نفسه على الوصول إلى عتبة لا تأرضن أعلى بكثير، على امتلاك آليّة تكاثر لكلّ تفاصيل بنيّتها المعقّدة في الفضاء، وعلى وضع كلّ سافاتّها الدّاخلية «طبولوجيّاً في علاقة» مع الخارج، أو بالأحرى مع الحدّ المستقطّب (من هنا الدّور الخاص للغشاء الحيّ). تطوّر الطّبقه إلى طبقات عارضة وإلى شبه طبقات لم يعد يتمّ بالتالي بواسطة مُحاثّات بسيطة وإنما بواسطة نقلات لاقحة تأخذ بعين الاعتبار تضخيم الإصداء بين الهبائيّ والكتلويّ بغضّ النّظر عن مقاييس العِظَم، والنجاعة الوظيفية للموادّ الدّاخلية بغضّ النّظر عن المسافات، وإمكان تكاثر الصّور وحتى تشابكها بغضّ النّظر عن التّقنيات (فوائض قيمة التقنين أو ظاهرات انقلاب التقنين، التطوّر اللّاموازي^(١)).

[٧٩] مجموعة ثالثة كبرى من الطبقات سيقع تعريفها، هنا مرّة أخرى، بتوزيع جديد للمضمون وللتعبير وليس بماهية إنسانية. صورة المضمون تصبح «تأقلمية» ولم تعد «مثليّة»، أي أنها تُجرى تغييرات في العالم الخارجيّ. صورة التعبير تصبح لسانية ولم تعد تكوينية، أي أنها تعمل برموز قابلة للفهم، للإبلاغ وللتغيّر من الخارج. ما نسّميه خصائص الإنسان- التقنية واللّغة، الأداة والرّمز، اليد الطليقة والحنجرة

(١) حول مصطلح الثّقلة اللاّقحة، راجع، جيلبار سيموندون (لكنه يستعمل المصطلح بالمعنى الأعمّ ويجعله يمتدّ إلى كلّ النّظم): ص ١٨ - ٢١. وحول الغشاء، ص ٢٥٩ وما بعدها.

اللينة، «الحركة والكلام»-، هي بالأحرى خصائص هذا التوزيع الجديد، الذي من العسير جعله يبدأ مع الإنسان وكأنه يبدأ من أصل مطلق. انطلاقاً من تحليلات لوروا غوران، نلاحظ كيف أنّ المضامين تجد ذاتها مرتبطة بالزوج يد- أداة، والتعابير مرتبطة بالزوج محيا- لغة، وجه- لغة^(١). لا يجب النظر إلى اليد هنا على أنها مجرد عضو بل على أنها تقنين (قانون إصبعي)، هيكله دينامية، تشكيل دينامي (صورة يدوية أو سمات صورية يدوية). اليد بوصفها صورة عامة لمضمون تمتد في الأدوات التي هي ذاتها صور عاملة، متضمنة لمواد بوصفها موادّ متشكّلة؛ أخيراً، التّاجات هي موادّ متشكّلة أو هي موادّ تعمل بدورها كأدوات. إذا كانت السمات الصورية اليدوية تشكّل بالنسبة إلى الطبقة وحدة تركيب، فإنّ صور وموادّ الأدوات والتّاجات تنتظم في شبه طبقات وطبقات عارضة، تعمل هي ذاتها بوصفها طبقات حقيقية وتعيّن الانفصالات، الانكسارات، الاتّصالات والتوزيعات، الترحّلات والتّوطّانات، العتبات المتعدّدة وسرعات اللّاتأرضن النسبية في السّكان البشريين. إذ، مع اليد بوصفها سمة صورية أو صورة مضمون عامّة، فتلك بالفعل عتبة لا تأرضن كبرى وقع بلوغها، وهي تنفتح، إنّها مُسرّع يمكن في حدّ ذاته من حركة تنقل بكاملها للّا تأرضن وإعادة التّأرضن المتضاهيين- فعلاً، هي ظاهرات «تأخّر التطوّر» في ما تحت الطبقة العضوية هي التي تجعل هذا التّسريع ممكناً. ليست اليد رجلاً أمامية لا متأرضنة وحسب، بل اليد الطليقة لا متأرضنة بالنسبة إلى يد القرد الأخاذة والمحرّكة. أخذ اللّا تأرضنات التّأرضية لأعضاء أخرى بعين الاعتبار (القَدَم على سبيل المثال). كذلك أخذ اللّا تأرضنات المتضايقة مع الأوساط بعين الاعتبار: السّبابس، وسَطُ مشارِك أكثر لا

(١) أندريه لوروا غوران، الحركة والكلام، التقنية واللّغة، منشورات ألبان ميشال،

تَأْرُضُنَا من الغابة، ويمارس على الجسد وعلى التقنية ضغط لا تَأْرُضُن [٨٠] انتقائياً (ليس في الغابة بل في السَّباسب يمكن لليد أن تظهر بوصفها صورة طليقة، والنَّار بوصفها مادَّة قابلة للتَّشكُّل تكنولوجياً). أخيراً أخذ إعادة التَّأْرُضُنات التكميلية بعين الاعتبار (القَدَم بوصفها إعادة تَأْرُضُن تعويضية لليد، وتتمَّ على السَّباسب). بهذا المعنى، صُنِع خرائط عضوية، إيكولوجية وتكنولوجية سيقع بسطها على مسطَّح القِوام.

من الجهة الأخرى، تتبدَّى اللِّغة بوصفها الصُّورة الجديدة للتعبير، أو بالأحرى هي جملة السَّمات الصُّورية التي تعرّف التعبير الجديد على كامل الطَّبعة. لكن، كما أنَّ السَّمات الصُّورية اليدوية لا توجد إلَّا في صور وموادّ متشكِّلة تكسر الاتصالية وتوزَّع مفاعيلها، فإنَّ سمات التعبير الصُّورية لا توجد إلَّا في الألسن الصُّورية المتنوّعة وتتضمَّن مادَّة أو موادّ قابلة للتَّشكُّل. المادَّة هي أوَّلا المادَّة الصُّوتية التي تضع على المحكَّ عناصر عضوية متنوّعة، ليست الحنجرة وحدها وإنما كذلك الفم والشفاه، وحركية المحيَّا كلّها والوجه بتمامه. هنا أيضاً، أخذ خارطة اشتدادية بكاملها بعين الاعتبار: الفم بوصفه لا تَأْرُضُن الشُّدق («خصام كامل بين الفم والدِّماغ» مثلما كان يقول برييه)؛ الشِّفاه بوصفها لا تَأْرُضُن الفم (وحدهم البَشَر لهم شفاه، أي انثناء الغشاء المخاطيِّ الدَّاخليّ؛ وحدثنَّ إناث البَشَر لهنَّ أُنذاء، أي لهنَّ غدد ثديَّة لا متأرضنة: تحدث إعادة تَأْرُضُن تكميلية للشِّفاه على الثدي وللثدي على الشِّفاه، في الإرضاع المُطوَّل الملائم لتعلُّم اللغة). أيّ لا تَأْرُضُن عَجيب، أن يملأ المرء فمه بالكلمات عوضاً عن ملئه بالأغذية والضَّوضاء. ما زال يبدو أنَّ السَّباسب قد مارست ضغط انتقاء قويّ: الـ«حنجرة اللَّيئة» هي بمثابة نظير اليد الطليقة، ولا يمكنها النماء إلَّا في وسط غير مشجَّر، حيث لم يعد من الضَّروريّ وجود أكياس حُنجرية هائلة للهيمنة بالصيحات على صخب الغابة الدَّائم. النطق، التكلّم،

هو التكلّم بصوت خافت، ونعلم أنّ الحطّابين قليلا ما يتكلّمون^(١). لكن ليست المادّة الصّوتية، السّمعية أو الفيزيولوجية وحدها هي التي تمرّ بكلّ هذه اللّا تأرُضُنا، إنّها صورة التعبير كذلك بوصفها لغةً هي التي تجتاز عتبة.

[٨١] للعلامات الصّوتية خطيّة زمنية، وهذه الخطيّة التّصافريّة هي التي تصنع لا تأرُضُنها المخصوص واختلافها عن الخطيّة التكوينيّة. هذه الأخيرة هي بالفعل خطيّة مكانية قبل كلّ شيء، حتى وإن كانت أقسوماتها مبنيةً ومستنسخة تعاقبيّا؛ بحيث أنّها لا تتطلّب في هذا المستوى أيّ تقنين فعليّ مشتطّ، إنّما تتطلّب فقط ظاهرات مترابطة، تنظيمات موضعية وتفاعلات جزئية (التّقنين المشتطّ لن يتدخّل إلّا في مستوى اندماجات تستتبع مقاييس عِظَم مختلفة). من هنا تحفّظات فرنسوا جاكوب على كلّ تقريب بين الشّفرة الوراثية واللغة: في الواقع، ليس ثمة في الشّفرة الوراثية لا مُرسِل ولا مُتقبّل، لا استيعاب ولا ترجمة، إنّما استفاضات وفواض قيمة وحسب^(٢). على النّقيض من ذلك، لا تحليل الخطيّة الزّمنية لتعبير اللغة على تتابع وحسب، لكن على شميّلة صورية للتّتابع في الزّمن، تتابعا يكوّن تقنينا خطيًّا تضافريّا ويبرز ظاهرة مجهولة للطّبقات الأخرى: التّرجمة، قابلية الترجمة في تعارض مع ضروب الحثّ أو مع النّقلات اللاحقة السّابقة. ولا يجب أن نفهم

(١) بخصوص كلّ هذه المشكلات - اليد الطليقة، الحنجرة اللّينة، الشّفاء، ودور السّبابب بوصفها عامل لا تأرُضُن، راجع، الكتاب الرّائع لإميل دُفو (Émile Devaux)، النّوع، الغريزة، الإنسان، منشورات الفرنسوا، الجزء الثالث (الفصل السّابع: «كان على المُتأنّسين أن يكتسب أياذ طليقة وحنجرة ليّنة وقد فُطم عن غابته، تباطأ تطوّره، أصبح طفوليّا»، والفصل التّاسع: «الغابة صنعت القرد، الكهف والسّبابب صنعا الإنسان»).

(٢) فرنسوا جاكوب، منطق الحيّ، ص ٢٩٨، ٣١٠، ٣١٩. جاكوب ومونو يستعملان أحيانا لفظة ترجمة مكان شفرة وراثية، لكن للتّيسير، وتدقيقا مع مونو «الشّفرة لا يمكن نقلها إلّا بتناجات ترجمة».

من الترجمة أنّ لساناً ما يمكنه أن «يمثل» بطريقة ما معطيات لسان آخر وحسب، بل أكثر من ذلك كون اللغة، مع معطياتها الخاصة على طبقتها، بإمكانها تمثيل الطبقات الأخرى كلّها، وتبلغ بالتالي تصوّراً علمياً للعالم. يظهر العالم العلمي (عالم مقابل بيئة الحيوان) فعلاً بوصفه ترجمة كلّ اندفاعات، تقنيات وإقليميات الطبقات الأخرى إلى نظام علامات لا متأرضنة كفاية، أي إلى تقنين تضافريّ خاصّ باللغة. إنها خاصية التقنين التضافريّ أو الخطيّة التضافريّة هذه هي التي تفسّر أنه ليس ثمة في اللغة استقلال التعبير بالنسبة إلى المضمون وحسب، إنّما استقلال صورة التعبير بالنسبة إلى المواد: الترجمة ممكنة لأنّ صورة يمكنها الانتقال من مادة إلى أخرى، على النقيض ممّا يحدث في الشفرة الوراثية، بين سلسلات الحامض الرّبيّ النوويّ المرسال والحامض الرّبيّ النوويّ منقوص الأكسجين على سبيل المثال. سنرى كيف أنّ هذه الوضعية تثير بعض المزاем الإمبريالية للغة، مزاем تعبّر عن ذاتها بسداجة في صيغ من نوع: «على كلّ دلائليّة نظام غير لسانيّ أن تستعير طريق اللسان. (...) اللسان هو تُرجمان النُّظم الأخرى كلّها، اللسانية وغير اللسانية». يكفي تجريد خاصية من خاصيات اللغة لنقول إنّ الطبقات الأخرى لا يمكنها المساهمة في [٨٢] هذه الخاصية إلّا إذا كانت متكلمة. قد نتشكك في ذلك. لكن بشكل أكثر إيجابية، علينا أن نلاحظ أنّ هذه المحايثة التي هي محايثة ترجمة كليّة للغة، تجعل الطبقات العارضة وشبه الطبقات، تعمل في نظام تراكبات التّوزيعات والتّواصلات والحافات، بكيفية مغايرة تماماً للتي على الطبقات الأخرى: كلّ الحركات الإنسانية، حتى أكثرها عنفاً، تستتبع ترجمات.

كان شلنجر يقول يجب أن نسرّع، الآن خطّ الزّمن هو الذي يستعجلنا على نمط الطبقة الثالث هذا. لدينا إذاً تنظيمٌ مضمون- تعبير جديد، لكلّ واحد صور وموادّ: مضمون تكنولوجي- تعبير رمزيّ أو

سيمائي. لا يجب أن نفهم من المضمون كونه اليد والأدوات وحسب، بل هو مكنة اجتماعية تقنية سابقة عليهما وتكوّن حالات قوّة أو تشكيلات اقتدار. لا يجب أن نفهم من التعبير كونه الوجه واللغة وحسب، ولا كونه الألسن، بل هو مكنة جماعية سيميائية سابقة عليها، وتكوّن نُظُم علامات. تشكيلة اقتدار أكثر بكثير من أداة، نظام علامات أكثر بكثير من لسان: إنهما يعملان بالأحرى بوصفهما عاملين محدّدين وانتقائيين، بالنسبة إلى تكوين الألسن والأدوات كما بالنسبة إلى استعمالهما وتواصلهما وتوزيعهما المتبادل أو الخاصّ بكلّ منهما. مع الطبقة الثالثة يتمّ إذاً بروز المكنات التي تنتمي كلياً إلى هذه الطبقة، لكنها في نفس الوقت تتعرّز وتمدّد كمّاشاتها في كلّ الاتجاهات نحو كلّ الطبقات الأخرى. أليس الأمر شبيهاً بحالة وسيطة بين حالتي المكنة المجرّدة- الحالة التي كانت ظلّت فيها ملفوفة في طبقة مُناظرة لها (مسطّح مسكون)، الحالة التي كانت تطوّرت فيها في حدّ ذاتها على مسطّح القوام اللامتراصف (مسطّح تائه). هنا تبدأ المكنة المجرّدة بالانبساط، تبدأ بالانتصاب، منتجّة وهماً يتخطّى كلّ الطبقات، مع أنها ما زالت تنتمي إلى طبقة محدّدة. إنه بطبيعة الحال الوهم المكوّن للإنسان (الإنسان، من يظنّ نفسه؟). إنه الوهم المتأتّي من التقنين المشتطّ المحايث للغة ذاتها. لكن ما ليس وهمياً، هي هذه التوزيعات الجديدة للمضمون وللتعبير: مضمون تكنولوجي مميّز بيّد- أداة، يحيل بشكل أعمق إلى مكنة اجتماعية وإلى تشكيلات اقتدار؛ تعبير رمزيّ مميّز بوجه- لغة، يحيل بشكل أعمق إلى مكنة سيميائية وإلى نُظُم علامات. من الجانبين، الطبقات العارضة وشبه الطبقات، الدّرجات المتراكبة والأشكال الحافة، تضاهي أكثر من أيّ وقت مضى طبقات هي ذاتها مستقلّة. إذا توصّلنا إلى التّمييز بين نظامي علامات أو تشكيلتي [٨٣] اقتدار، نقول إنهما طبقتان بالفعل في السّكان الآدميين. لكن بصورة محدّدة، ما العلاقة التي تقوم مذكّك بين المضمون

والتعبير، وأيّ ضرب من التمييز بينهما؟ كلّ هذا يحدث في الرأس. ومع ذلك لم يكن ثمة البتّة تمييز أكثر واقعية. نوذّ القول إنّ ثمة وسط خارجيّ مشترك على كامل الطبقة، تحتاه كامل الطبقة، إنه الوسط العصبيّ الدماغيّ. إنه يأتي من ما تحت الطبقة العضوية، لكنّ هذه الأخيرة لا تلعب بكلّ تأكيد دور القوام ولا دور دعامة سلبية. هو ذاته ليس أقلّ تنظيمًا. إنه يكون بالأحرى الحساء القَبَائِسانيّ حيث نسبح. نجعل أيدينا ووجوهنا تسبح فيه. الدماغ مجموعة سكانية، مجموعة قبائل تنحو باتجاه قطبين. عندما يحلّل لوروا غورون بالتدقيق تكوّن قطبين في هذا الحساء، أحدهما ستوقّف عليه أفعال الوجه، والآخر أفعال اليد، فإنّ تضائفيهما أو ترابطهما لا يمنعان التمييز الفعليّ، على التقيض من ذلك ينجرّ عن الحساء هذا التمييز بوصفه الافتراض المتبادل لتمفصلين، التمثفصل اليدويّ للمضمون، التمثفصل الوجهيّ للتعبير. والتمييز ليس فعليًا وحسب كما بين هبّاءتين، بين أشياء أو موضوعات، لقد أصبح ماهويّا (مثلما كان يقال في القرون الوسطى)، كما بين صفات، أجناس كيان أو مقولات عصيّة عن الاختزال: الأشياء والكلمات. الحركة الأعمّ التي يكون بها كلّ واحد من التمثفصلين المتمايزين مضاعفًا بالفعل على حياله، نلتقيها بالفعل وقد ارتفعت إلى هذا المستوى، بعض عناصر المضمون الصّورية تلعب دور تعبير بالنسبة إلى المضمون ذاته، بعض عناصر التّعبير الصّورية تلعب دور مضمون بالنسبة إلى التّعبير ذاته. يبيّن لوروا غوران في الحالة الأولى كيف أنّ اليد تصنع عالم رموز بأكمله، تصنع لغة متعدّدة الأبعاد بكاملها لا تتطابق مع اللغة اللفظيّة واحدية الخطّ، والتي تكوّن تعبيرًا مشعًا خاصًا بالمضمون (قد يكون أصلًا للكتابة)^(١). أمّا في الحالة الثانية، يظهر ذلك بوضوح في التمثفصل المضاعف الخاصّ باللغة ذاتها، بما أنّ

(١) لوروا غوران، م. ن، صص ٢٦٩ - ٢٧٥.

الصّواتم تشكّل مضمونا مشعّا خاصّا بالتعبير عن اللّفاظم من حيث هي أقسومات خطيّة دالّة (إنه في ظلّ هذه الشروط وحدها يتخذ التّمفصل المضاعف بوصفه خاصية عامّة للطبقة، المعنى اللسانيّ الذي يخصّه به مارتنيه). هكذا نكون قد انتهينا مؤقّتا من العلاقات مضمون- تعبير، من التمييز الفعليّ بينهما، ومن تغيّرات هذه العلاقات وهذا التمييز وفق الأنواع الكبرى للطبقات.

شلنّجار كان يريد الإسراع أكثر فأكثر. لم يكن قد بقي أحد، [٨٤] ومع ذلك كان يواصل. عدا عن ذلك كان صوته يتغيّر بشكل متزايد وكذلك مظهره، فيه شيء حيوانيّ مذ كان يتحدّث عن الإنسان. كان الأمر ما يزال غير قابل للتّعيين، لكن شلنّجار كان يبدو أنه لا يتأرضن في نفس الموضع. كان ما يزال يودّ النّظر في ثلاث مشكلات. المشكل الأوّل كان يبدو أنه اصطلاحيّ بشكل خاصّ: متى يمكن الحديث عن العلامات؟ هل علينا أن نضع العلامات في كلّ مكان، على كلّ الطبقات، ونقول إنّه كان ثمة علامة كلّما كان ثمة صورة تعبير؟ كنّا ميّزنا إجمالاً بين ثلاثة ضروب من العلامات: المؤشّرات (علامات إقليمية)، الرّموز (علامات لا متأرضنة)، الأيقونات (علامات إعادة تأرضن). هل كنّا سنزرع العلامات في كلّ الطبقات بحجّة أنها كانت تتضمّن جميعها، إقليميات، حركات لا تأرضن وإعادة تأرضن؟ مثل هذا المنهج التوسّعيّ قد يكون خطيراً جدّاً لأنه كان يهيئ إمبريالية اللّغة أو يعزّزها، حتى وإن لم يكن ذلك إلّا بالاعتماد على وظيفتها كترجمان أو مؤوّل كلّيّ. ليس ثمة بطبيعة الحال نظام علامات يجتاز جملة الطبقات حتى وإن كان ذلك في شكل «إقليم» سيميائيّ قد نفترض نظريّاً أنه سابق للتّرميز. يبدو أنه لا يمكن الحديث بكامل الصّرامة عن العلامات إلّا إذا كان ثمة تمييز مقولاتيّ وليس تمييزاً فعليّاً وحسب، بين صور التّعبير وصور المضمون. حينها تكون ثمة سيميائية على الطبقة المناظرة، لأنّ الممكنة المجردة تتخذ بالتّدقيق الوضعية المنتصبة التي

تسمح لها «بالكتابة»، أي بمعالجة اللغة وباستخراج أنظمة علامات منها. لكن في ما دون ذلك، في التقنيات المسمّاة طبيعية، تظلّ الممكنة المجرّدة ملفوفة في الطبقات: إنها لا تكتب البتّة ولا تمتلك أية درجة من الحرّية لتعرّف على شيء ما بوصفه علامة (ما عدا بالمعنى الإقليمي الضيق للحيوان). وفي ما أبعد من ذلك، تتطوّر الممكنة المجرّدة على مسطح القوام، ولم يعد بإمكانها التمييز قطعياً بين العلامات والجزئيات؛ إنها تكتب مثلاً، لكنها تكتب في علاقة مباشرة بالواقع، لها تدوين مباشر على مسطح القوام. يبدو من المعقول إذاً تخصيص كلمة علامة بحصر المعنى للمجموعة الأخيرة من الطبقات. لكن هذا النقاش الاصطلاحيّ قد لا تكون له أية فائدة حقاً ما لم يكن قد أحال كذلك على خطر آخر: لم يعد هو إمبريالية اللغة على كلّ الطبقات، أو امتداد العلامة إلى كلّ الطبقات، بل إمبريالية الدالّ على اللّغة ذاتها، على مجموع أنظمة العلامات وعلى امتداد الطبقة التي تحمل هذه الأنظمة. لم يعد الأمر يتعلّق بمعرفة ما إذا كانت العلامة تنطبق على كلّ الطبقات، بل ما إذا كان الدالّ ينطبق على كلّ العلامات، ما إذا كانت العلامات حمّالة تمعين، ما إذا كانت سيميائية العلامات تحيل بالضرورة على سيميولوجيا الدالّ. على هذه الطّريق، لربّما نكون انقدنا حتى إلى التّخلّي [٨٥] عن مصطلح علامة، بما أنّ أولية الدالّ على اللّغة تؤمّن بشكل أفضل بكثير أولية اللّغة على كلّ الطبقات من مجرّد انتشار العلامة في كلّ الاتجاهات. نعني أنّ الوهم الخاصّ بهذا الوضع الذي هو وضع الممكنة المجرّدة، وهَمّ التمكن من كلّ الطبقات والخلط بينها في كمّاشاتها، يمكن أن يتمّ عن طريق انتصاب الدالّ بشكل أكثر وثوقاً من أن يكون عن طريق امتداد العلامة (بفضل التّمعين، تزعم اللّغة أنها في علاقة مباشرة مع الطبقات، بغضّ النظر عن المرور بالعلامات المفترضة لكلّ طبقة). لكننا ندور دائماً في نفس الحلقة، ننشر نفس الغنغرينة.

العلاقة اللسانية دالّ- مدلول تمّ تصوّرها ولا ريب بكيفيات شديدة التّنوُّع: تارة بوصفها علاقة اعتباطيّة، تارة بوصفها علاقة ضرورية مثل وجه نفس الورقة وقفاها، تارة بوصفها تناظر حدّين، تارة شموليّاً، تارة بوصفها علاقة ازدواجية جدّاً بحيث لا نستطيع التمييز بين الحدّين. على أية حال، المدلول لا يوجد خارج علاقته مع الدالّ، والمدلول الأقصى هو الوجود ذاته، وجود الدالّ الذي نعّمه في ما أبعد من العلامة. لا يسعنا القول عن الدالّ إلّا شيئاً واحداً: إنه الإطناب، إنه المطيّب. من هنا استبداده المذهل وما حقّقه من نجاح. الاعتباطيّ، الضّروريّ، المناظر بين حدّين أو الشّموليّ، المزدوج، هذه جميعها تخدم قضية واحدة تشمل اختزال المضمون في المدلول واختزال التعبير في الدالّ. لكن صور المضمون وصور التّعبير هما في غاية الاتّصال وهما دائماً في حالة افتراض متبادل؛ إنهما تقيمان بين الأقسامات الخاصّة بكلّ منهما علاقات مزدوجة، خارجية و«ممسوخة»؛ لا وجود إطلاقاً لتطابق بينهما ولا لتطابق من الواحدة إلى الأخرى، إنّما ثمة دائماً استقلالية وتمايز فعليّان؛ للملاءمة بين إحدى الصّور وصورة أخرى، ولتحديد العلاقات، يتعيّن حتى وجود تنضيد مخصوص متغيّر. ولا واحدة من هذه الخصائص تنسجم مع العلاقة دالّ- مدلول، حتى وإن بدا أنّ بعض الخصائص لها مع هذه العلاقة ضرب من التّوافق الجزئيّ والعرضيّ. وجملة الخصائص تتعارض جذريّاً مع مشهد الدالّ. صورة مضمون ليست هي المدلول كما أنّ صورة التعبير ليست هي الدالّ^(١). يصدق ذلك على كلّ الطّبقات بما فيها تلك التي تتدخل فيها اللّغة. يحتفظ محبّو الدالّ بوضعية شديدة البساطة وكأنّهم يحتفظون

(١) لذلك يبدو لنا هلمسلاف، رغم تحفّظاته الخاصّة ورغم تردّداته، اللّسانيّ الوحيد الذي يقطع فعلياً مع الدالّ والمدلول. أكثر بكثير من لسانيين آخرين يتظاهرون بالقيام بهذه القطيعة متعمّدين، دون تحفّظ، لكنهم يحتفظون بالمفترضات الضمنية للدالّ.

بنموذج ضمني: الكلمة والشيء. يستخرجون من الكلمة [٨٦] الدالّ ومن الشيء المدلول المطابق للكلمة، الخاضع بالتالي إلى الدالّ. على ذلك هم يستقرّون في نطاق داخلي متجانس مع اللّغة. لِنَسْتَعْرِ من فوكو تحليلًا نموذجيًا متعلّقًا أكثر باللّسانيات ممّا قد يبدو: ليكن شيئًا ما مثل السّجن. السّجن صورة، «صورة- سجن»، صورة مضمون على طبقة، في علاقة بصور أخرى لمضامين (مدرسة، ثكنة، مستشفى، مصنع). لكنّ هذا الشيء أو هذه الصّورة لا يحيلان على كلمة «سجن»، بل على كلمات ومفاهيم أخرى مختلفة تمامًا، مثل «الجناح، الجنوح»، المعبران عن كيفية جديدة في التصنيف والتلفّظ والثقل وحتى في القيام بأعمال إجرامية. «الجنوح» هو صورة التّعبير في افتراض متبادل مع صورة المضمون «سجن». إنه ليس دالّا على الإطلاق حتى وإن كان دالّا قانونيًا قد يكون مدلوله هو السّجن. على هذا النّحو قد نسطّح مجمل التّحليل. عدا عن ذلك، صورة التّعبير لا ترتدّ إلى كلمات وإنّما إلى مجموعة ملفوظات تنبثق في المجال الاجتماعيّ باعتباره طبقة (تلك هي منظومة علامات). صورة المضمون لا ترتدّ إلى شيء وإنّما إلى واقع حال معقّد بوصفه تكوين اقتدار (هندسة معمارية، برنامج حياة، إلخ.). ثمة ههنا ما يشبه كترتين لا تفتان تقاطعان، «كثرات خطّابية» هي كثرات تعبير و«كثرات غير خطّابية» هي كثرات مضمون. وإنّ الأمر لأشدّ تعقيدًا بحيث أنّ السّجن بوصفه صورة المضمون له هو ذاته تعبيره النسبيّ، كلّ أشكال الملفوظات الخاصّة به والتي لا تتطابق بالضرورة مع ملفوظات الجنوح. عكسيًا، الجنوح بوصفه صورة التّعبير، له هو ذاته مضمونه المستقلّ، بما أنه لا يعبر فقط عن طريقة جديدة لتقويم الجرائم، إنّما عن طريقة القيام بها. صورة المضمون وصورة التّعبير، السّجن والجنوح، لكلّ منهما تاريخه، له تاريخه المجهرّي وله أقسوماته. على أقصى تقدير، هما تستبعان مع مضامين أخرى وتعابير أخرى، نفس حالة الممكنة المجرّدة التي لا تعمل البتة بوصفها دالّا،

إنّما بوصفها ضرباً من المبيان (نفس الممكنة المجردة بالنسبة إلى السّجن، المدرسة، الثّكنة، المستشفى، المصنع...). وللملاءمة بين نوعي الصّور، بين أقسومات المضمون وأقسومات التّعبير، يتوجّب وجود تنفيد عينيّ بكامله له كمّاشة مزدوجة أو بالأحرى رأس مزدوجة، يأخذ بعين الاعتبار التمييز الفعليّ بين نوعي الصّور. يتوجّب وجود تنظيم بأكمله يُفصل تشكيلات الاقتدار وأنظمة العلامات، ويعمل على الصّعيد الهبائيّ (ما يسمّيه فوكو المجتمعات ذات السلطة التّأديبية^(١)). باختصار، لا يجب [٨٧] أن نقابل البتّة بين كلمات وأشياء يُفترض أنهما متناظران، ولا بين دوالّ ومدلولات يُفترض أنهما متطابقان، إنّما بين صوّرّات في حالة توازن متقلقل أو في حالة افتراض متبادل. «مهما حاولنا قول ما نرى، فإنّ ما نراه لا يسكن أبداً في ما نقول». الأمر كما في المدرسة: ليس ثمة درس كتابة قد يكون هو درس الدّالّ المكرور بالنسبة إلى أيّة مدلولات كانت، ثمة صوّرّتان متمايزتان، في افتراض متبادل وتكوّنان كمّاشة مزدوجة: صوّرّنة التّعبير في درس القراءة والكتابة (مع مضامينه النسبية الخاصّة)، وصوّرّنة المضمون في درس الأشياء (مع تعابيره التّسبية الخاصّة). لسنا دالّ ولا مدلولاً على الإطلاق، إنّنا متراصفون.

عوض المنهج التوسّعيّ الذي يضع علامات في كلّ الطبقات، أو الدّالّ في كلّ العلامات (حتى وإن وقع الاستغناء في أقصى الحالات عن العلامات)، سنفضّل بالتالي منهجاً حصريّاً تاماً. ثمة أوّلاً أشكال تعبير دون علامات (على سبيل المثال، الشّفرة الوراثية لا علاقة لها

(١) ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، غاليمار. من قبل في أركيولوجيا المعرفة، غاليمار، كان فوكو ابتداءً نظريته في الكثرثين، كثرة التّعابير أو الملفوظات، كثرة المضامين أو الموضوعات، مبيّناً استحالة اختزالهما في زوج الدّالّ-المدلول. كان فسر أيضاً كيف أنّ عنوان أحد كتبه السّابقة الذي هو الكلمات والأشياء، كان يجب أن يُقهم سلبياً (صص ٦٦-٦٧).

بلغة ما). تقال العلامات فقط في بعض أوضاع الطبقات، ولا تتطابق حتى مع اللغة بشكل عام، لكنها تتحدّد بأنظمة ملفوظات هي الكثير من الاستعملات الفعلية أو تتحدّد بوظائف اللغة. لكن لِمَ يقع الاحتفاظ بكلمة علامة بالنسبة إلى هذه الأنظمة التي تُصوّرُن تعبيراً، دون الإشارة إلى مضامين متزامنة تتصوّرُن بكيفية أخرى ودون أن تدلّ عليها؟ لأنّ العلامات ليست علامات شيء ما، إنها علامات لا تأرُضُن وإعادة تأرُضُن، إنّها تؤشّر على عتبة معيّنة وقع اجتيازها في هذه الحركات، وبهذا المعنى يجب الحفاظ عليها (لقد رأينا ذلك حتى بالنسبة إلى «العلامات» الحيوانية).

بعد ذلك، إذا نظرنا في أنظمة العلامات وفق هذا الاستعمال الحصريّ، نرى أنها ليست دالّة أو أنها ليست كذلك ضرورة. كما أنّ العلامات لا تشير إلّا إلى صوّرنة تعبير معيّنة على مجموعة محدّدة من الطبقات، فإنّ التّمعين ذاته لا يشير إلّا نظام معيّن من بين أنظمة أخرى، في هذه الصوّرنة الخاصّة. كما أنه ثمة تعابير لا سيميائية أو دون علامات، ثمة أنظمة علامات لا سيميائية، علامات غير دالّة، في نفس الوقت على الطبقات وعلى مسطّح القوام. كلّ ما يمكن أن نقوله عن التّمعين هو أنه ينعت نظاماً، ليس هو حتى النظام الأهمّ ولا هو الأحدث أو الرّاهن، لعلّه فقط [٨٨] الأكثر إيذاءً، الأكثر سرطنة، الأكثر استبداداً من الأنظمة الأخرى، الأكثر توغّلاً في التوهّم.

على أية حال، المضمون والتعبير لا يمكن اختزالهما أبداً في المدلول- الدالّ. (هذا هو المشكل الثّاني) لا اختزالهما فضلاً عن ذلك في بنية تحتية- بنية فوقية. لم يعد بإمكاننا وضع أولية المضمون بوصفه محدّداً أكثر من وضع أولية التعبير بوصفه دالّاً. لا يمكن أن نجعل من التّعبير صورة قد تعكس المضمون، حتى ولو منحناه استقلالية «معيّنة» وإمكانية ردّ فعل معيّنة. حتى وإن كان ذلك لكون المضمون المُسمّى مضموناً اقتصاديّاً له بالفعل صورة، بل وحتى صور تعبير خاصّة

به. صورة المضمون وصورة التعبير تحيلان على صُورَتَيْن متوازيتين تُفترض إحداهما الأخرى: من الواضح أنهما لا تفتآن تقيمان تقاطعا بين أقسوماتهما، تضعان بعضها في بعضها الآخر، لكنّ ذلك يتمّ عن طريق مكنة مجرّدة تتأتّى منها الصّورتان، وعن طريق تنضيدات مكنية تنظّم علاقاتهما. لو استعضنا عن هذا التّوازي بصورة هرمية، نجعل من المضمون (بما في ذلك صورته) بنية تحتية اقتصادية للإنتاج، تأخذ كلّ خصائص المجرّد؛ نجعل من التّنضيدات الطّابق الأوّل لبنية فوقية يجب أن تتموقع بما هي كذلك في جهاز دولة؛ نجعل من أنظمة العلامات ومن صور التّعبير الطّابق الثاني للبنية الفوقية، الذي تعرّفه الإيديولوجيا. أمّا بخصوص اللّغة، لم نعد نعرف بوضوح ماذا نفعل بها: لقد قرّر المستبدّ الأكبر ضرورة منحها مكانا على حدة بوصفها ملكية عامّة للأمة وبوصفها وسيلة إبلاغ. على هذا التّحو، نتجاهل في نفس الوقت طبيعة اللّغة التي لا توجد إلّا في أنظمة علامات متنافرة، تُوزّع أوامر متناقضة عوضا عن نقل المعلومات، - وطبيعة أنظمة العلامات التي تعبّر بالتّدقيق عن منظمّات السّلطة أو عن التّنضيدات، والتي لا علاقة لها بالإيديولوجيا بوصفها تعبيرا مفترضا عن مضمون (الإيديولوجيا هي أقدر مفهوم يخفي كلّ المكنات الاجتماعية الفعلية)، - وطبيعة منظمّات السّلطة التي لا تتموقع البتّة في جهاز دولة، لكنّها تُجري في كلّ المواقع صُورناتٍ مضمون وتعبير وتقيم تقاطعا بين أقسوماتهما، - وطبيعة المضمون الذي ليس هو البتّة مضمون اقتصادي «في آخر المطاف»، بما أنه ثمة الكثير من العلامات أو التّعابير الاقتصادية مباشرة كما من المضامين غير الاقتصادية. كذلك، لا نبلور منزلة للتشكيلات الاجتماعية بوضع الدّالّ في البنية التّحتية، أو على العكس من ذلك بوضع القليل من القضيّب أو من الخصي في الاقتصاد السّياسي، القليل من الاقتصاد أو من السياسة في التّحليل النّفسي.

[٨٩] ثمة أخيرا مشكل ثالث. إذ يعسر بسط منظومة الطّبقات دون

إعطاء الانطباع بإدخال نوع من التطور الكونيّ أو حتى الروحانيّ بينها، وكأنّها كانت تنتظم في أطوار وكانت تمرّ بدرجات اكتمال. ومع ذلك ليس الأمر على هذه الحال. مختلف صور المضمون والتعبير ليست أطواراً. لا وجود لمحيط حيويّ، لمحيط فكريّ، ليس ثمة في كلّ مكان غير محيط مكنيّ واحد هو نفسه. إذا نظرنا أولاً في الطبقات في حدّ ذاتها، لا يمكننا القول إنّ إحداها أقلّ تنظيماً من غيرها. حتى التي تُستخدم كقوام: لا وجود لنظام ثابت، ويمكن لطبقة أن تُستخدم كقوام مباشر لأخرى بغضّ النظر عن الوسائط التي قد نحسبها ضرورية من زاوية الأطوار والدرجات (على سبيل المثال، قطاعات ميكروفيزيائية بوصفها قواماً مباشراً لظواهرات عضوية). أو كذلك النظام الظاهريّ يمكن قلبه، وظواهرات تكنولوجية أو ثقافية يمكن أن تكون سماداً جيّداً، حساء جيّداً لتطور الحشرات والبكتيريات والجراثيم أو حتى الجُسيمات. العصر الصنّاعيّ معرّفاً بوصفه عصر الحشرات... اليوم، الأمر أسوأ بكثير: لا يسعنا القول مقدّماً أية طبقة تتّصل بأخرى، ولا في أيّ اتجاه. خاصّة أنه ليس ثمة تنظيم أقلّ، أقلّ دقّة أو أكثر دقّة، وما تحت الطبقة هو جزء لا يتجزّأ من الطبقة، إنه قائم فيها بمثابة وسط يتمّ فيه التغيّر وليس ازدياد التّظيم^(١). إذا نظرنا من ناحية أخرى في مسطح القوام، نلاحظ أنه تجوّه الأشياء والعلامات الأكثر تنافراً: مقطع سيميائيّ يجاور تفاعلاً كيميائيّاً، إلكترون يصطدم بلغة، ثقب أسود يلتقط رسالة وراثية، تبلّر يحدث انفعالا، الزنبور والأوركيد يجتازان حرفاً... الأمر ليس «مثل»، ليس «مثل إلكترون»، «مثل تفاعل»، إلخ. مسطح القوام هو إلغاء كلّ مجاز؛ كل ما يتشكّل هو واقعيّ. إنها إلكترونات بعينها، ثقب سوداء حقيقية، عضيّات في الواقع، متتاليات علامات أصلانية. إلّا أنّها مقتلعة من طبقاتها، لا مترافعة، لا مقنّنة،

(١) جيلبار سيموندون، م. ن، صص ١٣٩ - ١٤١.

لا مُتَأَرِّضَةٌ، وذلك هو ما يُمْكِن من تجاوزها ومن تنافذها المتبادل في مسطّح القِوام. مسطّح القِوام يجهل الفروق بين المستويات، بين أصناف العِظَم والمسافات. يجهل كلّ فرق بين الاصطناعي والطبيعي. يجهل التّمييز بين المضامين والتّعابير، كما بين الصّور والموادّ المتشكّلة، التي لا توجد إلّا بالطّبقات وبالنسبة إلى الطّبقات.

[٩٠] لكن كيف ما يزال يتأتّى لنا التّعرّف على أشياء وتسميتها، إذا فقدت الطّبقات التي تحدّدها، إذا انتقلت إلى اللّاتأرّض المطلق؟ العيون ثقوب سوداء، لكن ما الثقوب السّوداء وما العيون خارج طبقاتها وإقليميّاتها؟ بكامل الدّقة، لا نستطيع الاكتفاء بثنائية أو بتقابل إجماليّ بين الطّبقات ومسطّح القِوام اللّامتراصف. ذلك أنّ الطّبقات تحرّكها وتحدّدها هي ذاتها سرعات لا تأرّضن نسبيّ؛ أكثر من ذلك، اللّاتأرّضن المطلق موجود هنا منذ البداية، والطّبقات هي تداعيات وتغليظات على مسطّح قِوام حاضر في كلّ مكان، هو الأوّل في كلّ مكان وهو محايث بشكل دائم. كذلك أيضا لأنّ مسطّح القِوام تحتله المكنة المجرّدة وترسمه؛ بيّد أنّ هذه الأخيرة توجد متطوّرة في نفس الوقت على المسطّح اللّامتراصف الذي ترسمه، إلّا أنها توجد ملفوفة في كلّ طبقة هي التي تُحدّد وحدة تركيبها، وتوجد حتى نصف منتصبّة في بعض الطّبقات هي التي تحدّد صورة إطباق قبضتها. ما يمرّ أو يرقص على مسطّح القِوام يحمل إذا من طبقة هالة، تمّوجا، ذكرى أو توترا. يحتفظ مسطّح القِوام فقط بما يكفي من الطّبقات ليستخرج منها متغيّرات تعمل فيه بوصفها وظائفه الخاصّة. مسطّح القِوام أو المسطّح الثّائ، ليس هو البتّة مجموعة لا متمايزة من الموادّ غير المتشكّلة، لكنه فضلا عن ذلك ليس شواش موادّ متشكّلة أيّا كانت. صحيح أنّه لم يعد ثمة على مسطّح القِوام لا صور ولا موادّ، لم يعد ثمة لا مضمون ولا تعبير، لم يعد ثمة لا تأرّضات نسبية وخاصّة. لكن تحت صور وموادّ الطّبقات، يبني مسطّح القِوام (أو المكنة المجرّدة) استرسالاتٍ شدّة: يخلق استمراريّة

لشدّ يستخلصها من صور وموادّ متميزة. تحت المضامين والتّعايير، يرسل مسطّح القِوام (أو الممكنة المجرّدة) ويجمّع علامات-جُسيمات (حُبّيات) تشغل العلامة الأكثر دلالة في الجُسيم الأكثر لا تأرُضنا. تحت الحركات النّسبية، يُجري مسطّح القِوام (أو الممكنة المجرّدة) ارتباطات اندفاقات لا تأرُضن تُحوّل المؤشّرات الخاصة إلى قيم مطلقة. لا تعرف الطّبقات إلّا شدّدا منفصلة، قائمة في صور وموادّ؛ وغير حُبّيات منقسمة إلى جُسيمات مضمون وأغراض تعبير؛ واندفاقات لا مُتأرُضنة، منفصلة وأعيدت أُرُضتُها. استرسال شدّد، إرسال مُدمج من الحُبّيات أو الجُسيمات-العلامات، ارتباط اندفاقات لا مُتأرُضنة، هي ذي بالعكس، العوامل الثلاثة الخاصة بمسطّح القِوام، التي تقوم بها الممكنة المجرّدة والتي تكوّن اللّا تراصف. لكن لا شيء من هذا كله هو ليل أبيض شواشيّ، ولا هو [٩١] ليل أسود لا متمايز. ثمة قواعد، هي قواعد «التّخطيط» والمبينة. سرى ذلك لاحقا أو في موضع آخر. الممكنة المجرّدة ليست أيّة ممكنة كانت؛ الاتصالات والإرسالات والتّجميعات والتّصريفات لا تتكوّن كما اتفق.

حاليّا، كان لا بدّ من تعيين تمييز أخير. ليس للممكنة المجرّدة حالات مختلفة متزامنة وحسب، تضع في الحسابان تَعقُد ما يحدث على مسطّح القِوام- لكن لا يجب الخلط بينها وبين ما نسمّيه تنزيّدا مكنيّا عينيّا. تتطوّر الممكنة المجرّدة تارة على مسطّح القِوام الذي تبني استرسالاته وإرسالاته وتصريفاته، وتظلّ تارة ملفوفة في طبقة هي التي تُحدّد وحدة تكوينها وقوّة جذبها أو إطباق قبضتها. التّنزيّد المكنيّ مختلف تماما مع أنه في علاقة وطيدة بها: إنه يقوم أوّلا بالملاءمات بين المضمون والتّعبير على طبقة، يؤمّن العلاقات المزدوجة بين الأقسامات من أقسومة إلى أخرى، يقود انقسامات الطّبقية إلى طبقات عارضة وإلى شبه طبقات؛ بعد ذلك، يؤمّن من طبقة إلى أخرى، العلاقة مع ما هو تحت طبقة، ويؤمّن تغيّرات التنظيم المُناظرة لها؛

أخيراً، يكون تَوَجُّه إلى مَسَطَّح القِوَام، لأنه يشغَل بالضرورة المَكْنَةُ المَجْرَدَةُ على هذه الطبقة أو تلك، وبين الطَّبَقَات، وفي علاقة الطبقات بالمَسَطَّح. كان لا بدّ من تنضيد، سِنْدَان الحدّاد عند الدَّوْعُون على سبيل المثال، حتّى تَتَمَّ تمفصلات الطبقة العضوية. لا بدّ من تنضيد حتّى تَتَمَّ العلاقة بين طبقتين. حتّى تجد العضويات نفسها أسيرة حقل اجتماعيّ تدخّل فيه ويستعملها: أَلَمْ يكن على الأمازونيّين قطع ثدي حتّى تتأقلم الطبقة العضوية مع طبقة تكنولوجيا حربية، كما لو أنّ الأمر هو اقتضاء تنضيد مرعب امرأة- قوُس- سباسب؟ لا بدّ من تنضيدات حتّى تقوم حالات قوّة وأنظمة علامات بتشبيك علاقاتهما. لا بدّ من تنضيدات حتّى تكون وحدة تكوين ملفوفة في طبقة، حتّى تكون العلاقات بين طبقة معيّنة وغيرها من الطَّبَقَات، حتّى تكون العلاقة بين هذه الطَّبَقَات ومَسَطَّح القِوَام، منظّمة وليست أيّاً كانت. من جميع النّواحي، تُفَعِّل التنضيدات المكنية المَكْنَةُ المَجْرَدَةُ مثلما تمّ تطويرها على مَسَطَّح القِوَام أو لُقُّها في طبقة. ولن يكون ثَمّة مشكل أهمّ من التّالي: تنضيد مكنيّ قائم، ما علاقة تفعيله بالمَكْنَةُ المَجْرَدَةُ؟ كيف يفَعِّل هذه العلاقة، بأية كفاية؟ بترتيب التنضيدات. ما نسَمِّيه محيطاً مكنيّاً هو مجموعة المكنات المَجْرَدَةُ والتّنضيدات المكنية، في نفس الوقت خارج الطَّبَقَات، على الطَّبَقَات وبين الطَّبَقَات.

[٩٢] منظومة الطَّبَقَات لم تكن لها بالتّالي أية علاقة بالدّالّ- المدلول، بالبنية التّحتية- البنية الفوقية، بالمادّة- الفكر. كلّ ذلك هو كيفيات لجعل كلّ الطَّبَقَات ترتدّ إلى طبقة واحدة، أو كذلك غلق المنظومة على ذاتها بقطعها عن مَسَطَّح القِوَام بوصفه عدم تراصف. كان لا بدّ من التّليخيص قبل أن نفقد الصّوت. شلّنجار كان قد أنهى مداخلته. صوته كان أصبح غير مسموع، أصبح حادّاً. لقد كان يَخْتَق. يدها كانتا أصبحتا كمّاشتين ممدودتين لم يعد باستطاعتهما تناول أيّ شيء وكانتا ما تزالان تشيران بغموض إلى شيء ما. القناع المضاعف

والرأس المزدوجة كانا يبدوان ينحدران من الداخل، في مادة لم يعد بإمكاننا أن نقول عنها ما إذا كانت تزداد سماكة أو كانت على النقيض من ذلك تصبح مائعة. مستمعون كانوا قد عادوا، لكنهم مثل ظلال أو هامات. «هل سمعتم، إنه صوت حيوان؟» كان لا بدّ إذاً من أن نلخص بسرعة، من أن نثبت، نثبت الاصطلاح قدر ما كنّا نستطيع، دون مسوّغ. ثمّة أولاً مجموعة أولى من المصطلحات: الجسد دون أعضاء أو مسطح القوام اللامتراصف، - مادة المسطح، ما يحدث في هذا الجسد أو على هذا المسطح (كثرات متفرّدة، غير منقسمة، متكوّنة من استرسالات اشتدادية، من إرسالات علامات- جسيمات، من ارتباطات اندفاقات)، - المكنة أو المكنات المجرّدة من حيث أنها تبني هذا الجسد، ترسم هذا المسطح أو «تُمَيِّن» ما يحدث (خطوط إفلات أو لا تَارُضُنات مطلقة).

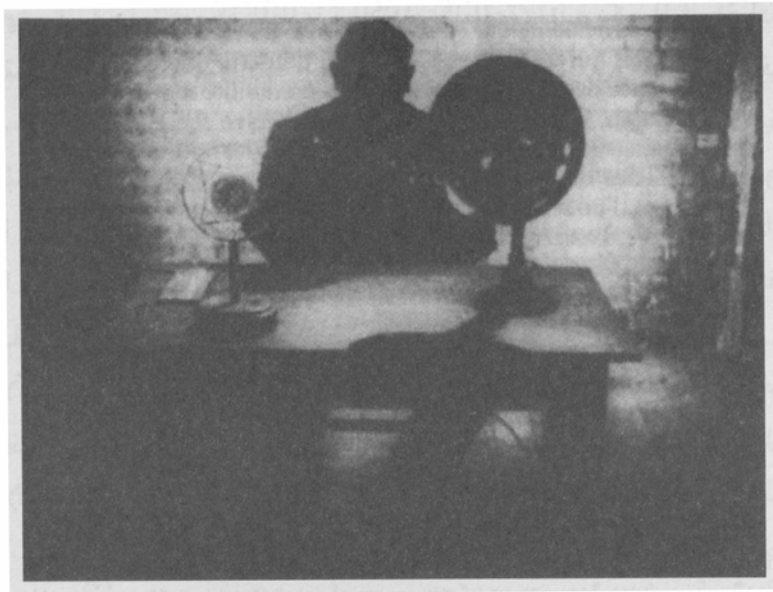
ثمّ كانت ثمّة منظومة الطبقات. في الاسترسال الشدديّ كانت الطبقات تفصل صوراً وتشكّل الموادّ في محتويات، في الإرسالات المجمّعة كانت تميّز بين تعابير ومضامين، بين وحدات تعبير ووحدات مضمون، بين علامات وجسيمات على سبيل المثال. كانت تفصل في الارتباطات بين الاندفاقات معيّنة لها حركات نسبية وإقليميات متنوّعة، لا تَارُضُنات نسبية وإعادة تَارُضُنات تكميلية. هكذا كانت الطبقات تُرسي في كلّ مكان تمفصلات مضاعفة نابضة بالحركات: صور وموادّ مضمون، صور وموادّ تعبير، كانت تكوّن كثرات أقسومية في ظلّ علاقات قابلة للتحديد في كلّ مرّة. تلك كانت هي الطبقات. كانت كلّ طبقة تمفصلاً مضاعفاً لمضمون ولتعبير متمايزين فعلياً كليهما، كليهما في افتراض متبادل، ينتشران أحدهما في الآخر، مع تنضيدات مكنية ذات رأسين تربط بين أقسوماتهما. ما كان يتغيّر من طبقة إلى أخرى، كان هو طبيعة التمييز الفعليّ بين مضمون وتعبير، طبيعة الموادّ بوصفها موادّ متشكّلة، طبيعة الحركات النسبية. كان بإمكاننا التمييز أجمالاً بين

ثلاثة أنماط كبرى من التمييز الفعليّ: التّمييز الفعليّ - الصّوريّ بالنسبة إلى أصناف العِظَم حيث كان يتمّ إرساء إصداء تعبير (حَثُّ)؛ [٩٣] التّمييز الفعليّ - الفعليّ بالنسبة إلى موضوعات مختلفة حيث كان يتمّ إرساء خطيّة تعبير (نقطة لاقحة)؛ تمييز واقعيّ - ماهويّ بالنسبة إلى نعوت أو مقولات مختلفة حيث كان يتمّ إرساء خطيّة تعبير تضافريّة (ترجمة).

كانت طبقة تعمل بمثابة ما تحت طبقة لطبقة أخرى. كان لطبقة وحدة تكوين وفق وسطها وعناصرها المادّية وملامحها الصّورية (مسطّح مسكون). لكنها كانت تنقسم إلى شبه طبقات، وفق صورها التي تتأبّى على الاختزال ووفق أوساطها المشاركة، وإلى طبقات عارضة وفق سافات موادّها المتشكّلة وأوساطها الوسيطة. طبقات عارضة وشبه طبقات كان لا بدّ من اعتبارها هي ذاتها بمثابة طبقات. تنضيد مكنيّ كان يَطبّقائيّاً، من حيث أنه كان ينظّم العلاقات بين الطبقات، لكنه كان كذلك ينظّم على كلّ واحدة منها، العلاقات بين المضامين والتعبير طبقاً للتقسيمات السّابقة. نفس التّنضيد كان يمكنه أن يستعير من طبقات مختلفة، ووفق بعض الاضطراب البينّ؛ عكسيّاً، طبقة أو عنصر طبقة كان بإمكانهما العمل كذلك مع طبقات أو مع عناصر أخرى، بواسطة تنضيد مغاير. في نهاية المطاف، كان التّنضيد المكنيّ ما بعد طبقة، لأنّه كان متّجهاً من ناحية أخرى جهة مسطّح القِوام وكان يفعل بالضرورة المكنة المجرّدة. هذه الأخيرة كانت توجد ملتقّة في كلّ طبقة هي التي كانت تحدّد مسطّحها المسكون أو وحدة تكوينها، وتوجد متنامية على مسطّح القِوام الذي كانت تقود لا تراصفه (المسطّح الثّالث). إذّا، التّنضيدات لم تكن تلائم بين متغيّرات طبقة وفق وحدتها، دون أن تفعل كذلك بهذه الطريقة أو تلك، المكنة المجرّدة كما كانت خارج الطبقات. كانت التّنضيدات المكنية قائمة في نفس الوقت في تقاطع المضامين والتّعبير على كلّ طبقة، وفي تقاطع مجموع الطبقات مع مسطّح القِوام. لقد كانت تدور فعليّاً في كلّ الاتّجاهات مثل منارات.

لقد كان انتهى الأمر. كل ذلك لم يكن له ليتخذ معنى عينياً إلا لاحقاً. القناع المضاعف المتمفصل قد كان انحلاً، لكن كذلك القفازات والسُترة، التي كانت تنبعث منها سوائل كانت تبدو في مسار فرارها تنخر طبقات قاعة المحاضرات «المليئة بأبخرة اللبان والمفروشة بالبُسُط ذات الرسوم الغريبة». مضطرباً، لا مُتأرضيناً، كان شلنجر يتمتم أنه كان يحمل الأرض معه، أنه كان يغادر إلى العالم المُلغز الذي هو حديقته السامة. كان ما يزال يهمس: بالتدافع تتقدم الأشياء وتتكاثر العلامات. الهلع هو الإبداع. فتاة تصرخ، «تحت تأثير أعتى وأعمق وأشنع أزمة هلع صرْعِيّ». لا أحد كان استمع إلى الخلاصة ولا أحد كان يبحث عن استبقاء شلنجر. شلنجر أو ما كان بقي منه، كان يسارع ببطء باتجاه مسطّح القوام، وفق مسار غريب لم يعد فيه بالفعل [٩٤] أي شيء نسبيّ. لقد كان يحاول التسلّل داخل التضيد الذي كان بمثابة الباب الدوّار. الساعة الحائطية ذات الحُبيبات، ذات الدّقّات الاشتدادية، ذات الإيقاعات الموصولة التي تُمطرُ المطلق: «سيغور الطّيف في وِضعة بالكاد تكون إنسانية ويشرع منبهاً في حركة فريدة باتجاه الساعة الحائطية التي لها شكل تابوت والتي كانت ترسل دقّات إيقاعها الغريب والكونيّ. (...) كان الطّيف بلغ الآن الساعة الحائطية العجيبة، والمشاهدون يرون من خلال الأبخرة الكثيفة مِخلباً أسوداً ضبابياً بصدد العبث بباب الهيروغليفيات الكبير المفتوح. مُلامسة المِخلب تُصدر صوت صرير غريب. يدخل الطّيف إذاً في الصندوق الذي له شكل تابوت ويُغلق الباب خلفه. يُستأنف الدّقّ الغريب، يُمطرُ الإيقاع الكونيّ الأسود الذي هو في أصل انفتاح كل الأبواب السرية^(١)» - المحيط المكنيّ أو الجذموريّ.

(١) لوفكرافت، شياطين وعجائب، المكتبة العالمية، صص ٦١ - ٦٢.



تنفيذ الأوامر

I. قد تكون اللغة إخبارية وتواصلية

معلّمة المدرسة لا تستفسر عندما تسأل تلميذا، بأكثر ممّا تفسّر عندما تدرّس قاعدة نحو أو حساب. إنّها «تأمر»، تُصدر أوامراً، تتحكّم. أوامر الأستاذ ليست خارجة عمّا يعلّمنا إيّاه، ولا تنضاف إليه إضافة. إنّها لا تنبع من دلالات أولية، إنّها ليست نتيجة معلومات: يُحمل الأمر بالفعل دائماً على أوامر، لذلك يكون الأمر تردّادا. مكنة التعليم الإلزامي لا تبلّغ معلومات، لكنها تفرض على الطّفل إحداثيات

سيمائية مع كلّ أسس النحو الثنائية (مذكر- مؤنث، مفرد- جمع، اسم- فعل، الذات المتلفظة- موضوع التلّفظ، إلخ). الوحدة الدّنيا للغة- الملفوظ-، هي الأوامر. عوضا عن الحسّ المشترك الذي هو مَلَكَة قد تُمرّكز [٩٦] المعلومات، يجب تحديد مَلَكَة بغيضة تتمثل في إبلاغ الأوامر واستقبالها ونقلها. اللغة ليست مجعولة حتى للاعتقاد فيها، إنما هي مجعولة للطاعة وللإلزام بالطّاعة. «لم يكن للبارونة أدنى نيّة لإقناعي بحسن نواياها، إنها تشير عليّ فقط بما تُفضّل أن تراني أقوم به متظاهرا بالقبول^(١)». نلاحظ ذلك في بلاغات الشرطة أو الحكومة، البلاغات التي لا تهتمّ كثيرا بالشبهة أو بالحقيقة، لكنها تقول بوضوح ما يجب التّقيّد والإرتداع به. عدم اكتراث البلاغات بكلّ مصداقية غالبا ما يقارب الاستفزاز. تلك حُجّة على أنّ الأمر يتعلّق بشيء آخر. لنقل ذلك لأنفسنا... اللغة لا تتطلّب أكثر من ذلك. يلاحظ سبنغلار أنّ الأشكال الأساسية للكلام ليست هي إعلان حُكم أو التعبير عن إحساس وإنما هي «التّحكّم، البرهنة على الطّاعة، التّوكيد، السّؤال، الإثبات أو النّفي»، جُمْل قصيرة جدّا هي التي تتحكّم بالحياة وهي التي لا تنفصل عن المؤسّسات أو عن الأشغال الكبرى: «جاهز؟»، «نعم»، «انطلق»^(٢). الكلمات ليست أدوات؛ لكنّا نعطي الأطفال لغةً، أقلاما وكراساتٍ، مثلما نعطي مجارف وفؤوسا للعمّال. قاعدة نحوية هي علامة سلطة قبل أن تكون علامة تركيب نحويّ. الأمر لا يتعلّق بدلالات سابقة ولا بتنظيم مسبق للوحدات التمييزية. العكس هو

(١) جورج داريان (Georges Darien)، الكُتِفيّة، مطبوعات ١٨/١٠، ص ٤٣٥. أو زولا، الدّابة البشرية، غاليمار، ص ١٨٨: «وكانت قالت ذلك، ليس لإقناعه، إنّما فقط لتحذيره أنه كان يتوجّب أن تكون بريئة في أعين الآخرين». تبدو لنا جملة من هذا النوع خاصية للرّواية بعامة، أكثر بكثير من الجملة الإخبارية «خرجت الماركيّزة عند السّاعة الخامسة».

(٢) سبنغلار، الإنسان والتقنية، غاليمار، سلسلة «أفكار»، ص ١٠٣.

الصحيح. ليس الإخبار غير الحد الأدنى الضروري لإبلاغ ونقل ومراعاة الأوامر من حيث هي فروض. على المرء أن يكون مطلعاً بما يكفي حتى لا يخلط بين إلى اللهب وإلى اللعاب!، أو حتى يتجنب الوضعية المؤسفة جداً للأستاذ والتلميذ وفق لويس كارول (الأستاذ يلقي سؤالاً من أعلى السلم، ينقله مستخدمون يحرفونه في كل طابق، بينما يرسل التلميذ الموجود في الأسفل في الساحة، إجابة هي ذاتها وقع تحريفها في كل مرحلة من مراحل الصعود). اللغة ليست هي الحياة، إنها تصدر أوامر للحياة؛ الحياة لا تتكلم، إنها تصغي وتنتظر^(١). في كل أمر، حتى من أب إلى ابنه، ثمة حكم صغير بالموت - إصدار حكم مثلما كان يقول كافكا.

[٩٧] ما هو عسير هو تحديد منزلة وامتداد الأمر. ليست المسألة في الحقيقة مسألة أصل اللغة، بما أن الأمر هو وظيفة - لغة وحسب، وظيفة متمادة مع اللغة. إذا كان يبدو أن اللغة تفترض اللغة دوماً، إذا لم يكن بمقدورنا تحديد نقطة انطلاق غير لسانية، فلأن اللغة لا تقوم بين شيء ما مرئي (أو محسوس) وشيء ما مقول، لكنها تذهب دائماً من قول إلى قول. لا نعتقد بهذا الصدد أن الحكاية تتمثل في إيصال ما رآه المرء، وإنما في إبلاغ ما سمعه، ما قاله له شخص آخر. هي أقوال. لا يكفي حتى استحضار رؤية تحريفية متأتية من الانفعال. اللغة «الأولى»، أو بالأحرى التّحديد الأوّل الذي يملأ اللغة، ليس هو الاستعارة أو المجاز، إنه الخطاب اللّامباشر. الأهمية التي أردنا إعطاؤها للمجاز وللكنائية تبين أنها مدمرة لدراسة اللغة. المجازات

(١) بريس باران (Brice Parain)، حول الديالكتيكا، غاليمار. يبسط باران نظرية «الافتراض» أو الافتراض المسبق في اللغة، في علاقة بهذه الأوامر الصادرة للحياة؛ لكنه لا يرى في ذلك سلطة بالمعنى السياسي بقدر ما يرى فيه واجباً بالمعنى الأخلاقي.

والكنايات هي مفاعيل وحسب، مفاعيل لا تنتمي إلى اللّغة إلّا في حالة افتراضها بالفعل للخطاب اللّا مباشر. ثمة الكثير من الانفعالات في انفعال، وكلّ أنواع الأصوات في صوت، صخب، لغو: لذلك كلّ خطاب هو خطاب لا مباشر، والتحويل الخاصّ باللّغة هو تحويل الخطاب اللّا مباشر^(١). ينفي بنفنيست أن يكون للنّحلة لغة مع أنها تملك تقنيّا عضوياً، وتستخدم حتى الاستعارات. ليس لها لغة لأنّها قادرة على إبلاغ ما رآته، لكنها غير قادرة على نقل ما وقع إبلاغه لها. النّحلة التي لمحت فيثا بإمكانها إبلاغ الرّسالة إلى اللّواتي لم تلمحنه؛ لكن النّحلة التي لم تلمح لا تقدر على نقل ذلك إلى الأخريات اللّواتي قد تكنّ لم تلمحن أيضاً^(٢). لا تكفي اللّغة بالذهاب من أوّل إلى ثان، من شخص رأى إلى شخص لم ير، لكنها تذهب ضرورة من ثان إلى ثالث، لا هذا ولا ذاك قد رأى. بهذا المعنى تكون اللّغة نقلاً للكلمة التي تعمل بوصفها أمراً، وليست إبلاغاً لعلامة بوصفها إخباراً. اللّغة [٩٨] خارطة وليست نسخاً. لكن كيف يكون الأمر وظيفه متمادّة مع اللّغة، بينما يبدو أنّ الفرض أو التحكّم يحيل إلى ضرب محدود من القضايا الصريحة الموسومة بصيغة الأمر؟

(١) كاتبان خاصّة هما اللّذان استخلصا أهمية الخطاب اللّا مباشر، على وجه الخصوص في شكله المسمّى «مرسل»، من زاوية نظرية التلقّظ التي تخطّطى المقولات اللسانية التقليدية. ميخائيل باختين (بالنسبة إلى اللسان الرّوسى، الألمانيّ والفرنسيّ)، الماركسية وفلسفة اللّغة، منشورات مينوي، الجزء الثالث؛ بيار باولو بازوليني (بالنسبة إلى اللسان الإيطاليّ)، التجربة الهرطقية، منشورات بايو، الجزء الأول. نستعمل كذلك دراسة غير منشورة لجان بيار بامبرغار حول «أشكال الخطاب اللّا مباشر في السينما الصّامتة والنّاطقة».

(٢) أميل بنفنيست، مشكلات اللّسانية العامّة، غاليمار، ص ٦١: «لم نلاحظ أنّ نّحلة تنقل على سبيل المثال إلى خلية أخرى الرّسالة التي تلقّتها في خليتها، وهو ما قد يكون طريقة نقل أو إبدال».

تبيّن أطروحات أوستين الشهيرة أنّه ليس ثمة فقط، بين الفعل والكلام، علاقات خارجية متنوّعة بحيث أنّ ملفوظة يمكنها أن تصف فعلا في الصيغة الإشاريّة، أو تثيره في صيغة الأمر، إلخ. ثمة كذلك علاقات داخلية بين الكلام وبعض الأفعال التي نقوم بها ونحن نقولها (الأدائيّ: أقسم قائلا «أقسم على ذلك»)، وبشكل أعمّ بين الكلام وبعض الأفعال التي نقوم بها ونحن نتحدّث (التحقّقّيّ: أسأل قائلا «هل...؟»، أعد قائلا «أحبك...»، أمر مستعملا صيغة الأمر... إلخ). إنها هذه الأفعال المباطنة للكلام، هذه العلاقات المحايثة للملفوظات مع الأفعال، هي التي أمكننا تسميتها مفترضات ضمنية أو غير خطابيّة، للتفريق بينها وبين الافتراضات القابلة دائما للتوضيح والتي في ظلّها تحيل ملفوظة على ملفوظات أخرى، أو على فعل خارجيّ (ديكرو Ducrot). توضيح دائرة الأدائيّ والدائرة الأوسع للتحقّقّيّ، كان له بالفعل ثلاث نتائج مهمّة: (١) استحالة فهم اللغة على أنها تقنين، بما أن التقنين هو الشرط الذي يجعل التفسير ممكنا؛ واستحالة فهم الكلام على أنه إبلاغ معلومة: الأمر، السؤال، الوعد، الإثبات ليس إعلاما بأمر، بشكّ، بالتزام، بتوكيد، إنما هو قيام بهذه الأفعال المخصوصة المحايثة، الضمنية بالضرورة. (٢) استحالة تحديد دلالية، تركيبية نحوية أو حتى أصواتيّة، بوصفها مناطق علمية للغة وقد تكون مستقلّة عن التداولية؛ تكفّ التداولية عن أن تكون «مكبّ نفايات»، تكفّ التحديدات التداولية عن الخضوع للإمّيّة: إمّا الوقوع ثانية خارج اللّغة، وإمّا الاستجابة لشروط واضحة تكون التحديدات التداولية نحوية ودلالية في ظلّها؛ على النقيض من ذلك تصبح التداولية هي مفترض الأبعاد الأخرى كلّها، وتتسلّل إلى كل مكان. (٣) استحالة الإبقاء على التمييز بين اللّسان والكلام، بما أنه لم يعد بالإمكان تعريف الكلام بمجرد الاستعمال الفرديّ والبرّانيّ لدلالة أولى، أو التطبيق المتغيّر لتركيب نحويّ مسبق: على النقيض من ذلك، معنى اللّسان

وتركيبه التَّحويّ هما اللَّذان يتَّيان عن التَّعريف بمعزل عن أفعال الكلام التي يفترضها اللِّسان^(١).

[٩٩] صحيح أننا ما زلنا لا نرى جيّدا كيف نجعل من أفعال الكلام أو المفترضات الضمنية، وظيفةً متمادّة مع اللّغة. لا نرى ذلك جيّدا بقدر أكبر إذا انطلقنا من الأدائيّ (ما نفعله ونحن نقوله) لذهب بصورة موسّعة حتى التَّحقيقيّ (ما نفعله ونحن نتحدّث). إذ يمكننا دائما مَنع هذا التوسّع وإغلاق الأدائيّ على ذاته، مفسّرين إياه بخصائص دلالية وتركيبية خاصّة تتفادى كلّ لجوء إلى تداوليّة معمّمة. هكذا، وفق بنفنيست، لا يحيل الأدائيّ على أفعال، لكنه يحيل على النقيض من ذلك على خاصية الحدود ذاتية المرجع (الضّمائر الحقيقية، أنا، أنت...، معرفة بوصفها أدوات وُضِل): بحيث أنّ بنية ذاتية أو بيّذاتية سابقة في اللّغة، تدلّ على أفعال الكلام بشكل كاف، عوضا عن افتراضها^(٢). إذا، اللّغة وقع تعريفها هنا بوصفها إبلاغية عوضا عن كونها إخبارية، وهذه البيّذاتية أو هذا التّذيت اللّسانيّ بشكل خاصّ هو الذي يفسّر بقية الأشياء، أي كلّ ما نوجّده ونحن نقوله. لكنّ المسألة تتعلّق بمعرفة ما إذا كان الإبلاغ الذاتيّ هو مصطلح لسانيّ أفضل من

(١) لقد بيّن ويليام لابوف (William Labov) بكامل الوضوح التناقض، أو على الأقل المفارقة التي كان انتهى إليها التمييز بين اللسان والكلام: نعرّف اللسان على أنه «الجزء الاجتماعيّ» للغة، ونحيل الكلام على الفروقات الفردية؛ لكن الجزء الاجتماعيّ طالما أنه مغلق على ذاته، فإنّه يَنَتج عن ذلك حتما أنّ فردا واحدا سيعبّر من جهة الحق عن اللسان بغضّ النظر عن كلّ معطى خارجيّ، بينما لن يقع الكشف عن الكلام إلّا في سياق اجتماعيّ. إنها نفس المفارقة من سوسير إلى شومسكي: «الجانب الاجتماعيّ للغة يخضع للدراسة في حميمية مكتب، بينما يتطلّب جانبه الفرديّ بحثا صلب الجماعة» (لسانيات اجتماعية، منشورات مينيوي، ص ٢٥٩ وما بعدها، ٣٦١ وما بعدها).

(٢) بنفنيست، مشكلات اللّسانية العامّة (الجزء الخامس): حول حذف التَّحقيقيّ، راجع ص ٢٧٤ وما بعدها.

الإخبار المثالي. لقد فضّل أوسفالد ديكرود القول في الأسباب التي أوصلته إلى قلب ترسيمة بنفنيست: ليست ظاهرة المرجع الذاتي هي التي بإمكانها أن تدلّ على الأدائي، على العكس من ذلك، ما يدلّ عليه هو «كون بعض الملفوظات مكرّسة اجتماعيًا لتنفيذ بعض الأعمال»، ذلك هو ما يفسّر المرجع الذاتي. بحيث أنّ الأدائي يَنفَسِر بالتحقيقي وليس العكس. التحقيقي هو الذي يكون المفترضات الضمنية أو غير الخطائية. والتحقيقي بدوره، يَنفَسِر بتنضيدات تَلَفُظ جماعية، بأفعال قانونية، بمرادفات أفعال قانونية توزّع سيرورات التذيت أو تعيينات الذوات في اللسان، من غير أن تكون تابعة له. الإبلاغ ليس مفهوماً أفضل من الإخبار، البيذاتية ليست أقل من التمعين للتدليل على تلك التنضيدات التي هي تنضيدات «ملفوظات- أفعال» تقيس في كلّ لسان دور [١٠٠] الصّرافم الذاتية ونصيبها^(١). (سنرى أنّ تحليل الخطاب اللاّ مباشر يؤكد وجهة النظر هذه، بما أنّ التذيتات ليست هي الأولى فيه، بل هي تابعة من تنضيد معقّد).

لا نسمّي أمراً فئة خاصّة من الملفوظات البيّنة (في صيغة الأمر مثلاً)، إنّما علاقة كلّ كلمة أو كلّ ملفوظة مع المفترضات الضمنية، أي مع أفعال الكلام التي تتمّ في الملفوظة، ولا يمكن أن تتمّ إلّا فيها. إذا، الأوامر لا تحيل على فروض وحسب، إنّما على كلّ الأفعال

(١) أوسفالد ديكرود (Oswald Ducrot)، نقول ولا نقول، منشورات هرمان، صص ٧٠-٨٠ (و«من سوسير إلى فلسفة اللّغة»، توطئة أفعال اللّغة، جون روجيه سيرل (John Rogers Searle)، منشورات هارمان). يضع ديكرود موضع نظر مصطلحات الإخبار والتقنين، الإبلاغ والذاتية اللسانيين. يطوّر نظرية «الافتراض اللّساني» أو الضمني غير الخطائي، في تعارض مع الضمني الخطائي والمقرّر الذي ما زال يعود إلى تقنين. يبيّن تداولية تنفذ في اللّسانية كلّها، ويسعى إلى دراسة تنضيدات التَلَفُظ منظورا فيها من الزاوية «القانونية»، «الجدالية» أو «السياسية».

المرتبطة بملفوظات بواسطة «إلزام اجتماعي». لا وجود لملفوظة لا تعبر عن هذه الرابطة بشكل مباشر أو غير مباشر. سؤال، وغد، هما أوامر. لا يمكن تعريف اللغة إلا بمجموعة أوامر، بمفترضات ضمنية أو بأفعال كلام، سارية في لسان ما في لحظة معينة.

بين الملفوظة والفعل، العلاقة داخلية ومحايثة، لكن ليس ثمة تطابق. العلاقة هي بالأحرى علاقة ترداد. الأمر في حد ذاته ترداد للفعل وللملفوظة. الجرائد والأخبار تعمل ترداديا من حيث أنها تقول لنا ما «يجب» التفكير به واستبقاؤه وانتظاره، إلخ. اللغة لا هي إخبارية ولا هي إبلاغية، ليست إبلاغا لخبر، لكن المختلف جدا هو كونها نقلا لأوامر، إما من ملفوظة إلى أخرى، إما داخل كل ملفوظة، من حيث أن الملفوظة تنجز فعلا والفعل يتم في الملفوظة. الترسمة الأعم للإعلامية تضع مبدئيا إخبارا مثاليا أقصى، وتجعل من الترداد مجرد شرط تقييدي يخفّض هذا الأقصى النظري لمنعه من أن يغطيه الضجيج. على النقيض من ذلك نحن نقول إن ما هو أول هو ترداد الأمر، إن الإخبار ما هو إلا الشرط الأدنى لنقل الأوامر (لأجل ذلك لا إمكان لإقامة تعارض بين الضجيج والإخبار، إنما بالأحرى إقامة تعارض بين كل الانضباطات التي تعرك اللغة والأمر الذي هو بمثابة انضباط أو «نحوية»). للترداد شكلان، تواتر وإصداء، يتعلّق الشكل الأوّل بتمعين الإخبار، [١٠١] يتعلّق الثاني (أنا = أنا) بذاتية الإبلاغ. لكن على وجه التحديد، ما يتبدّى من زاوية النظر هذه، هو تبعية الإخبار والإبلاغ، بل وكذلك التمعين والتذيت، بالنسبة إلى الترداد. يحدث أن نفصل بين الإخبار والإبلاغ؛ يحدث كذلك أن نستخرج تمعينا مجردا من الإخبار، وتذيتا مجردا من الإبلاغ. لكن لا شيء من هذا كلّه يمدّنا بشكل أولي أو ضمني للغة. ليس ثمة تمعين مستقلّ عن الدلالات المهيمنة، ليس ثمة تذيت مستقلّ عن نظام إخضاع قائم. الشكّان يتعلّقان بطبيعة الأوامر وينقلها في حقل اجتماعي معيّن.

ليس ثمة تَلَفُظٌ فرديّ وليس ثمة حتّى ذاتا متلفّظة. غير أنّه ثمة نسبيّا القليل من اللّسانيين الذين درسوا خاصية التلّفُظ التي هي بالضرورة خاصية اجتماعية^(١). ذلك أنّ هذه الخاصية غير كافية بذاتها، وكذلك تكاد تكون برّانية: لذلك نقول فيها أكثر من اللّزوم أو أقلّ من اللّزوم. الخاصية الاجتماعية للتلفّظ لا متانة جوهرية لها إلّا إذا توصلنا إلى بيان الكيفية التي يحيل بها التلّفُظ بحدّ ذاته على تنضيدات جماعية. بالتّالي نرى بوضوح أنّه ليس ثمة تفريد للملفوظة وتذيت للتلفّظ، إلّا بقدر ما يقتضيه ويحدّده التّنضيد الجماعيّ اللّا شخصيّ. تلك بالتّحديد هي القيمة المثلى للخطاب اللّا مباشر، وخاصّة للخطاب اللّامباشر «الحرّ»: ليس ثمة حافات مميّزة واضحة. ليس ثمة أوّلا إقحام لملفوظات مفردة بأشكال مختلفة، ولا لإدغام ذواتٍ تَلَفُظٍ مختلفين، إنّما ثمة تنضيد جماعيّ سيحدّد السيرورات النسبية للتذيت والتعيينات الفردية وتوزيعاتها المتحرّكة في الخطاب، بوصفها نتيجته. ليس التّمييز بين الدّوات هو الذي يفسّر الخطاب اللّامباشر، التّنضيد مثلما يظهر بحرية في هذا الخطاب هو الذي يفسّر كلّ الأصوات الحاضرة في صوت، ألق الفتيات في مناجاة شارلوس، الألسنة في لسان، الأوامر في كلمة. القاتل الأمريكيّ «ابن سام» كان يقتل بدافع صوت آت من السّلف، لكنه صوت كان يمرّ هو ذاته بصوت كلب. مصطلح التّنضيد الجماعيّ للتلفّظ هو الذي يصبح الأهمّ، بما أنّه عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الخاصية الاجتماعية. غير أنّه يمكننا دون شكّ تعريف التّنضيد الجماعيّ بالمرگّب [١٠٢] التّراديّ للفعل وللملفوظ الذي ينجزه بالضرورة. لكن ليس لدينا حتّى الآن غير تعريف اسميّ؛ ولسنا قادرين

(١) ألحّ باختين ولابوف بطريقتين مختلفتين على الخاصية الاجتماعية للتلفّظ. وبذلك هما لا يعارضان الدّاتوية وحسب بل كذلك البنيوية، مع أنّ هذه الأخيرة تحيل نظام اللّسان على فُهم فردٍ من جهة الحقّ، وتحيل العوامل الاجتماعية على الأفراد العيينين من حيث أنهم يتكلّمون.

حتى على تبرير موقفنا السابق الذي تبعنا له لا يرتدّ التردّد إلى مجرد تَمَاهٍ (أو تبعنا له ليس ثمة مجرد تَمَاهٍ بين الملفوظة والفعل). إذا أردنا المرور إلى تعريف فعليّ للتنزيد الجماعيّ، سنتساءل فيمَ تتمثّل الأفعال المحايثة للغة، الأفعال التي تتردّد مع الملفوظات، أو تُشكّل أوامر.

يبدو أنّ هذه الأفعال تتحدّد بمجموعة التغيّرات اللاجسدية الرّائجة في مجتمع معيّن، والتي تُنسب إلى أجساد هذا المجتمع. بإمكاننا إعطاء كلمة «جسد» المعنى الأعمّ (ثمة أجساد أخلاقية، النفوس أجساد، إلخ.).؛ علينا مع ذلك أن نميّز بين الأفعال والانفعالات التي تؤثر على هذه الأجساد، وبين الأفعال التي ليست غير صفات غير جسدية أو هي «منطوق» ملفوظة. عندما يتساءل ديكرو فيمَ يتمثّل فعل، فإنّ تساؤله يفضي تحديدا إلى التنزيد القانونيّ، ويعطي مثالا على ذلك حكم القاضي، الذي يحوّل متهمًا إلى مُدان. بالفعل، ما يحدث من قبل، أي الجريمة التي يُتّهم بها شخص ما، وما يحدث لاحقا، أي تنفيذ عقوبة المُدان، هي أفعال- انفعالات تؤثر على الأجساد (جسد الملكية، جسد الضحية، جسد المُدان، جسد السّجن)؛ لكن تحويل المتهم إلى مدان هو محض فعلٍ آنّي أو هو صفة لا جسدية، هي منطوق حكم القاضي^(١). السّلم والحرب هما حالتان أو مزيجان من الأجساد المختلفة جدّا؛ لكنّ قرار التّعبئة العامّة يعبر عن تغيّر لا جسديّ وأنّي للأجساد. للأجساد أعمار، تناضج، تشايخ؛ لكن الرئاسة، التقاعد،

(١) ديكرو، ص ٧٧: «نعت فعل بأنّه جريمة (سرقة، خيانة مؤتمن، ابتزاز، إلخ.)، ليس هو بالمعنى الذي نعطيه لهذا اللفظ، تقديمه كفعل، بما أنّ الوضعية القانونية للجُرم، التي تُعرّف الجريمة، يُفترض فيها أن تكون متأتية من هذه أو تلك من النتائج الأخرى للنشاط الموصوف: مثل هذا النشاط يُعتبر قابلا للمعاقبة لأنه يضرّ بالغير، بالنّظام، بالمجتمع، إلخ. التّطرق بالحكم من طرف قاض يمكن اعتباره على التّقيض من ذلك فعلا قانونيًّا، بما أنّه لا أثر يقع إقحامه بين كلام القاضي وتحويل المتهم إلى مُدان».

فئة عمرية معينة، هي تغييرات لا جسدية تُسند مباشرة إلى الأجساد، في هذا المجتمع أو ذاك. «لم تعد طفلاً...»: تتعلّق هذه الملفوظة بتغيّر لا جسديّ، حتى وإن كان هذا التغيّر يقال على الأجساد ويدخل في أفعالها وانفعالاتها. التغيّر اللاّ جسديّ يقع التعرّف عليه [١٠٣] بأنّيته، بمباشريته، بتزامن الملفوظ الذي يعبر عنه والأثر الذي يُنتجه هو؛ لذلك تكون مواقيت الأوامر محدّدة بدقّة، بالسّاعة والدقيقة والثانية، وتكون ذات قيمة مذ يتحدّد ميقاتها. المحبّة امتزاج أجساد، يمكن تجسيدها بقلب يخترقه سهم، بوحدة نفسيّين، إلخ.؛ لكنّ التصريح بـ«أحبّك» يعبر عن صفة لا جسدية للأجساد، للمحبّ كما للمحسوب. أكلّ الخبز وشربّ الخمر هما امتزاجات أجساد؛ التوحّد مع المسيح هو أيضاً امتزاج بين أجساد روحانية محض، ليست أقلّ «واقعية». لكنّ تحويل جسد الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح هو المنطوق المحض لملفوظ يُسند إلى الأجساد. في تحويل وجهة طائرة، تهديد القرصان الذي يشهر مسدّساً هو فعل ولا ريب؛ كذلك إعدام الرّهائن إذا تمّ. لكنّ تحويل الرّكّاب إلى رهائن، والجسد- طائرة إلى جسد- سجن، هو تحويل لا جسديّ آتِيّ، هو فعل إعلاميّ بالمعنى الذي يتحدّث فيه البريطانيون عن الفعل اللغويّ. تشير أوامر أو تنضيّجات التلفّظ في مجتمع معيّن، وباختصار يشير التحقيقيّ، إلى هذه العلاقة الآنية للملفوظات مع التغيّرات اللاّ جسدية أو الصّفات الغير جسدية التي تعبر عنها.

غريب جدّاً هو حال آتية الأمر هذه التي يمكن ارتسامها إلى ما لا نهاية، والتي وُضعت في أصل المجتمع: هكذا الانتقال عند روسو من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية كأنه قفز في نفس المكان، إنّه تغيّر لا جسديّ يتمّ في اللحظة صفر. دون شكّ، يروي التاريخ الحقيقيّ أفعال وانفعالات الأجساد التي تنمو في حقل اجتماعيّ، إنه يُبلغها بشكل ما؛ لكنه ينقل كذلك الأوامر، أي الأفعال المحض التي تندرج في هذا التطوّر. لن يتخلّص التاريخ من المواقيت. لعلّ الاقتصاد أو التحليل

المالي هو الذي يبيّن بالشكل الأفضل حضور هذه الأفعال التقريرية وآتيها في سيرورة شاملة (لأجل ذلك وبكل تأكيد لا تشكّل الملفوظات جزءاً من الإيديولوجيا، لكنها تعمل بالفعل في المجال المفترض للبنية التحتية). التضخّم المتصاعد في ألمانيا بعد ١٩١٨، هو سيرورة تؤثر على الجسم التقديّ وكذلك على أجسام أخرى؛ لكنّ جملة «الظروف» تمكّن فجأة من تغيير سيميائيّ، تغييراً بقدر ما هو مرتبط نظرياً بجسد الأرض وبالمحرّكات الماديّة، هو كذلك فعل محض أو تغيير لا جسديّ- ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣^(١)...

[١٠٤] لا تتوقّف التنزيدات عن التنوّع، عن أن تكون هي ذاتها خاضعة لتغييرات. أولاً، ينبغي أن نجعل الظروف تتدخل: يبيّن بنفنيست بوضوح أنّ ملفوظة أدائية لا تساوي شيئاً خارج الظروف التي تجعل منها ملفوظة. أيّ شخص يمكنه أن يصرخ «أنا أعلن التّعبئة

(١) جون كَنّاث غالبرايت (John Kenneth Galbraith)، المال، غاليمار، سلسلة «أفكار»، «التضخّم النهائي»، ص ٢٥٩ وما بعدها: «نزل الستار يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣. كما بالنسبة إلى التّمسا منذ سنة خلت، حدثت النهاية فجأة. ومثل التضخّم الفرنسيّ الأقلّ حدّة، انتهى بسهولة مذهلة. لعلّه انتهى لأنه لم يعد بإمكانه الاستمرار. في العشرين من نوفمبر وقع إصدار مرسوم يقضي بأنّ المارك الألمانيّ القديم لم يعد عملة. سيقع إرساء عملة جديدة هي المارك الرّيعيّ. (...) وقع إصدار مرسوم يقضي بأنّ المارك الرّيعي الجديد سيكون مؤمناً بالرّهن العقاريّ على كلّ الأرض والمحرّكات المادية الأخرى التي يملكها الرّايع. يعود مصدر هذه الأفكار إلى الحوالات: لكنه كان أكثر احتيالا بشكل واضح. [يريد غالبرايت أن يقول: لا متأرضنا]. في فرنسا ١٧٨٩، كانت توجد أراض شاسعة وقع افتكاكها حديثاً من الكنيسة وكان يمكن في البداية مبادلتها بالمال كمقابل لها. لكن إذا كان ألمانيّ مارس حقّ الاستيلاء على ملكية عقارية، فربّما قد يقع الشكّ في مداركه العقلية. ومع ذلك كانت المنظومة تعمل. بمؤاتاة الظروف (...) إذا كانت الميزانية الألمانية قد خضعت بعد ١٩٢٣ إلى نفس المتطلّبات كما في السّابق (الترميمات وتكلفة المقاومة السّليبيّة) فإنّه لا شيء قد يكون أنقذ المارك وسُمّعتة.»

العامّة»، ذلك فعل طفوليّ أو جنونيّ وليس فعل تَلَفُظ، ما لم يكن ثمة متغيّر تمّ القيام به هو الذي يمنح الحقّ في التَلَفُظ. يصحّ الحال كذلك على عبارة «أحبّك»، التي لا معنى لها ولا ذات ولا متلقّي، خارج الظروف التي لا تكتفي بجعلها ذات مصداقية بل تجعل منها تنزيها حقيقيّا، علامة سلطة، حتى في حالة حبّ عاثر (كذلك نخضع وفق إرادة اقتدار...). غير أنّه لا يجب أن يذهب بنا الظنّ إلى أنّ التَلَفُظ العامّ للظروف يتعلّق بالظروف الخارجية وحسب. عبارة «أقسم على ذلك» ليس لها نفس المعنى وفق ما نقولها في العائلة، في المدرسة، في وضعية حبّ، في جمعية سرية، في محكمة: ليست نفس الشيء، لكن ليست نفس الملفوظة أيضا؛ ليست نفس وضعية الأجساد، لكنها ليست التغيّر اللّا جسديّ أيضا. التغيّر يقال على الأجساد، لكنّه هو ذاته لا جسديّ، وهو داخل التَلَفُظ. ثمة متغيّرات تعبير تضع اللسان في علاقة بالخارج، لكن تحديدا لأنّها محايدة للسان. طالما بقيت اللسانيات عند ثوابت صوتية، صرفية أو تركيبية، فإنّها تُرجع الملفوظ إلى دالّ والتَلَفُظ إلى ذات، وبالتالي تخطئ التّنْزِيد، تُرجع الظروف إلى الخارج، تغلق اللسان على ذاته وتجعل من التّداولية بقيّا. على النقيض من ذلك، لا تستدعي التّداولية ظروفا خارجية وحسب: إنها تستخلص متغيّرات تعبير أو تَلَفُظ هي بالنّسبة إلى اللسان أسباب داخلية متعدّدة لعدم انغلاقه على ذاته. مثلما يقول باختين، طالما تستخرج اللسانيات ثوابت، فإنّها تظلّ عاجزة عن [١٠٥] إفهامنا كيف أنّ كلمة تُشكّل ملفوظة تامة؛ يجب أن يكون ثمة «عنصر تكميليّ يظلّ عصيا على كلّ المقولات أو التّحديدات اللّسانية»، مع أنه قائم بالتّمام داخل نظرية التَلَفُظ أو اللسان^(١). الأمر هو بالتّحديد المتغيّر الذي يجعل من الكلمة

(١) باختين، صص ١٥٦ - ١٥٧. وحول «علاقات القوّة الرّمزية» من حيث هي متغيّرات داخل التَلَفُظ، راجع بيار بورديو، «اقتصاد المبادلات اللّسانية»، ضمن

بما هي كذلك تَلَفُظًا. آنية الأمر أو مباشريته، تعطيه قوّة تنويع، في علاقة بالأجساد التي يُسند لها التّغيير.

التداولية هي سياسة اللّسان. دراسة مثل دراسة جون بيار فاي حول تكوين الملفوظات النّازية في الحقل الاجتماعيّ الألمانيّ هي دراسة نموذجية بهذا الخصوص (ولا يمكن تطبيقها على تكوين الملفوظات الفاشية في إيطاليا). مثل هذه الدّراسات التّحويلية تتعلّق بتنويع الأوامر وبالصفات الغير جسدية المتّصلة بالأجساد الاجتماعية، مُحدّثة أفعالاً محايثة. سنّخذ كذلك مثالا، في ظروف أخرى، هو تكوين نمط من الملفوظات الليلينية بخاصّة في روسيا السّوفياتية، انطلاقاً من نصّ لينين عنوانه «بخصوص الأوامر» (١٩١٧). كان ذلك بالفعل تحويل لا جسديّ كان استخلص من الجموع طبقة بروليتارية من حيث هي تنضيد تَلَفُظ، قبل توقّر الشّروط لقيام بروليتاريا بوصفها جسداً. إنّها عبقرية الأممية الماركسية الأولى التي «تبتكر» نمطا جديدا للطّبعة: يا جميع عمّال العالم اتّحدوا^(١) ! لكن، من أجل القّطع مع الاشتراكيين-الديمقراطيين، يبتكر لينين أو يفرض كذلك تحويلا لا جسديّا آخر، يستخلص من الطّبعة البروليتارية طليعة بوصفها تنضيد تَلَفُظ، وهي التي سيّتصف بها الـ«حزب»، يتّصف بها نمط حزب جديد بوصفه جسداً مستقلاً، حتى وإن وقع السّقوط في نظام ترداد بيروقراطيّ بشكل خاصّ. رهان لينينيّ، جسارة؟ يعلن لينين أنّ إعلان الأمر: «السّلطة كلّها للسّوفيات» لم يكن صالحاً إلّا من ٢٧ فيفري/فبراير إلى ٤ جويلية/

اللّسانيات واللّسانيات الاجتماعية، اللّسان الفرنسيّ، ماي ١٩٧٧، منشورات لاروس، صص ١٨ - ٢١.

(١) مصطلح الطّبعة البروليتارية ذاته قابل لسؤال: هل توجد البروليتاريا من قبل في لحظة معيّنة، ويوصفها جسداً؟ (أو هي ما تزال موجودة؟) نلاحظ كيف أنّ الماركسيين يستعملون مصطلح الطّبعة البروليتارية استعمالاً استباقياً، عندما يتحدّثون مثلاً عن «بروليتاريا جينية».

يوليو، من أجل التطوير السلمي للثورة، لكنه لم يعد صالحا لحالة الحرب، الانتقال من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية يستتبع هذا التحوّل الذي لا يكتفي بالذهاب من الجموع إلى بروليتاريا تقود، لكن من بروليتاريا إلى طليعة تسوس. في الرابع من جويلية/ يوليو تحديدا، [١٠٦] انتهى حكم السوفييات. بالإمكان استحضار كلّ الظروف الخارجية: ليست الحرب وحدها، إنّما التمردّ هو الذي أجبر لينين على الفرار إلى فنلندا. يبقى أنه في الرابع من جويلية/ يوليو، يقع الإعلان عن التحوّل اللاجسديّ، قبل أن يتنظّم الجسم أي الحزب ذاته الذي سيُعزى له هذا التحوّل. «كلّ أمر يجب استخلاصه من جملة خصائص وضعية سياسية محدّدة». إذا وقع الاعتراض بالقول إنّ هذه الخصائص تحيل فعلا على السياسة وليس على اللسانيات، فمن الواجب الإشارة إلى أنّ السياسة تعرك اللسان من الدّاخل، لا تُنوّع المعجم وحسب، لكن البنية وكلّ عناصر الجُمْل، في نفس الوقت الذي تتغيّر فيه الأوامر. لا يمكن تقويم نمط من التّلَفْظ إلّا طبقا للاستباعات التّداولية، أي في علاقته مع المفترّضات الضّمّنية، مع الأفعال المحايّثة أو التحوّلات اللاّ جسدية التي يعبر عنها، والتي ستدخل تقسيمات جديدة بين الأجساد. الحدس الحقيقيّ ليس هو حكم النّحوية، إنّما هو تقويم متغيّرات التّلَفْظ الداخلية في علاقة بجملة الظروف.

لقد ذهبنا من التعاليم الصّريحة إلى الأوامر بوصفها مفترّضات ضمنية؛ من الأوامر إلى الأفعال المحايّثة أو التّغييرات اللاّ جسدية التي تعبر عنها؛ ومن هناك إلى تنضيدات التّلَفْظ التي هي متغيّراتها. بقدر ما تدخل هذه المتغيّرات في علاقات قابلة للتّحديد في لحظة معيّنة، بقدر ما تجتمع التّنضيدات في نظام علامات أو في مكنة سيميائية. لكن من البيّن أنّ مجتمعا ما تخترقه الكثير من السيميائيات، ويمتلك فعليّا نُظْما مختلطة. بل أكثر من ذلك، تنبثق أوامر جديدة في لحظة أخرى، أوامر سنوّع المتغيّرات وهي ذاتها ما تزال غير منتمية لنظام معروف. إذا

بكيفيات كثيرة يكون الأمر تَرَدّادا؛ إنه لا يكون كذلك وفق ما فيه من نقل جوهريّ وحسب، إنه كذلك أيضا في حدّ ذاته ومذ إرساله، في ظلّ علاقته «المباشرة» مع الفعل أو مع التّغيير الذي يُجرّيه. حتّى الأمر المنفصل عن سيميائيةٍ منظّور فيها، هو بالفعل تَرَدّاد. لذلك ليس للتّنْضيد الجماعيّ للتلفّظ ملفوظات أخرى غير ملفوظات خطاب هو دائما خطاب لا مباشر. الخطاب الّلا مباشر هو حضور ملفوظ منقول في الملفوظ النّاقِل، إنه حضور الأمر في الكلمة. اللّغة بتمامها هي خطاب لا مباشر. بعيدا عن افتراض الخطاب الّلا مباشر لخطاب مباشر، هذا الأخير هو الذي يُستخلص من ذاك، من حيث أنّ عمليات التّمعني وسيرورات التّذيت في تنْضيد مّا، تجد نفسها موزّعة، مُسندة، مخصّصة، أو أنّ متغيّرات التّنْضيد تدخل في علاقات ثابتة، مهما كانت هذه العلاقات مؤقتة. [١٠٧] الخطاب المباشر هو جزء مفصول من كتلة، ويولد من تجزئة التّنْضيد الجماعيّ؛ لكنّ هذا الأخير هو دائما بمثابة الجلبة التي أستمَدّ منها اسمي، مجموع الأصوات المتألّفة أو غير المتألّفة التي أستقي منها صوتي. أنا معتمد دوما على تنْضيدٍ تلفّظ هبائيّ، ليس قائما في وعيي، بأكثر من عدم اعتماده فقط على محدّداتي الاجتماعية الظّاهرة، والذي يجمع الكثير من أنظمة العلامات المتنافرة. إنه هذر عتهيّ. لعلّ الكتابة هي إضاءة هذا التّنْضيد الذي هو تنْضيد الّلاوعي، انتقاء الأصوات الهامسة، استدعاء القبائل واللّهجات السرية، التي منها أستخلص شيئا مّا أسمّيه أنا. ضمير المتكلّم أمر. يعلن فصاميّ: «سمعت أصواتا تقول: إنه واع بالحياة^(١)». ثمة بهذا المعنى كوجيطو فصاميّ، لكنّه يجعل من الوعي بالذّات التّغيير الّلا

(١) ذكره دافيد كوبر، لغة الجنون، منشورات سوي، صص ٣٢-٣٣. يعلّق كوبر: «لفظة أسمع أصواتا تعني أنّنا أصبحنا واعين بشيء مّا يتخطّى وعي الخطاب العاديّ [أي المباشر] والذي يتوجّب- نتيجة لذلك- تجريبه بوصفه مختلفا».

جسديّ لأمر أو يجعل منه نتيجة لخطاب لا مباشر. خطابي المباشر ما يزال هو الخطاب اللامباشر الحرّ الذي يخترقني من جهة إلى أخرى، والذي يأتي من عوالم أخرى أو من كواكب أخرى. لأجل ذلك، الكثير من الفنانين والكتّاب أغرّتهم الطاولات الدوّارة. مذّاك، عندما نسأل ما هي المَلَكَة الخاصّة بالأمر، علينا أن نعرّف له بخصائص عجيبة: ضربٌ من الآنية في الإرسال، إدراكٌ ونقل الأوامر؛ تنوّعٌ كبير وقدره على النسيان تجعل المرء يحسّ أنه براء من الأوامر التي اتّبعها ثمّ تخلّى عنها ليستقبل أخرى؛ قدرةٌ فكرانية أو شبحية بشكل خاصّ في درك التغيّرات اللاجسدية؛ كفاءةٌ في إدراك اللغة في ظلّ نوع من خطاب لا مباشر ضخّم^(١). [١٠٨] ملكة الملقّن والملقّن، ملكة الأغنية التي تضع

(١) ألياس كنانتي (Elias Canetti) هو واحد من الكتّاب النادرين الذين اهتمّوا بصيغة الفعل السيكلوجيّ للأمر (الحشد والقدرة، غاليمار، صص ٣٢١ - ٣٥٣). هو يفترض أنّ أمراً يطبع في النفس وفي الجسد ضرباً من المثير الذي يشكّل كيساً، جزءاً متبيّساً محفوظاً إلى الأبد. مذّاك لا يمكن أن نشعر بالارتياح إلّا بنقله في أسرع وقت ممكن إلى الآخرين، ليكون «حشداً» حتى وإن ارتدّ الحشد ضدّ مرسل الأمر. لكن كذلك، أن يكون الأمر بمثابة جسم غريب في الجسم، بمثابة خطاب لا مباشر في الكلام، فذلك هو ما يفسّر النسيان العجيب: «القائم بالفعل لا يتهم ذاته، إنه يتهم المثير، الهيئة الخارجية، المخطئ الحقيقي إذا جاز القول، الذي يحمله معه في كلّ مكان. (...) المثير هو الشاهد الدائم على أنّ المرء لم يكن هو ذاته القائم بهذا الفعل أو ذاك. يحسّ المرء أنه ضحيته، ولا يبقى بالتالي أدنى إحساس للضحية الحقيقية. صحيح إذا أنّ أناساً تصرفوا وفق أمر يعتبرون أنفسهم أبرياء تماماً، ويبدوون من جديد بشكل أفضل مع أوامر أخرى (ص ٣٥٢). يقدّم كنانتي هنا تفسيراً عميقاً لإحساس النازيين بالبراءة، أو لقدرة الستالينيين القدامى على النسيان، خاصة وأنهم أكثر فقداناً للذاكرة حتى أنهم يستحضرون ذاكرتهم وماضيهم ليمنحوا لأنفسهم الحقّ في إعطاء أو في اتّباع أوامر جديدة أكثر دهاء، إنه «هوس المثيرات». يبدو لنا تحليل كنانتي أساسياً بهذا الخصوص. غير أنه تحليل يفترض وجود ملكة نفسية خاصّة جداً، من دونها قد لا يتمكّن الأمر من اكتساب صيغة الفعل هذه. النظرية العقلانية الكلاسيكية كلّها لـ«حسن مشترك»، لسداد مشترك كليّاً، سداداً قائماً على الإخبار والإبلاغ، هي

دائماً لحناً في لحن في علاقة بالترداد، هي في الحقيقة ملكة توسيطية، عتية أو حوارية لسانية.

لنعد إلى السؤال: كيف لدالة- لغة، دالة متمدة مع اللغة، أن يكون وقع تعريفها على هذا النحو؟ من البديهي أن الأوامر، التضييدات الجماعية أو أنظمة العلامات، لا تخالط اللغة. لكنّها تحقق شرطها (الخطية المفرطة للتعبير)؛ إنها تفي دائماً بالشرط، بحيث أنه من دونها قد تظلّ اللغة افتراضية محضاً (خاصية الخطية المفرطة للخطاب اللامباشر). ودون شكّ، تتنوع التضييدات وتتغير. لكنّها لا تتنوع بالضرورة وفق كلّ لسان، إنها لا تتطابق مع الألسنة المتنوعة. يبدو أن اللسان يتحدّد بثوابته الصوتية، الدلالية والتركيبية التي تدخل في ملفوظاته؛ على النقيض من ذلك يتعلّق التضييد الجماعي، باستعمال هذه الثوابت وفق المتغيرات الداخلية للتلفظ ذاته (متغيرات التعبير، الأفعال المحايثة أو التغييرات اللاجسدية). ثوابت مختلفة وألسنة مختلفة يمكن أن يكون لها نفس الاستعمال؛ ونفس الثوابت في لسان معين يمكن أن تكون لها استعمالات مختلفة إمّا تعاقباً وإمّا تزامنياً. لا يمكننا التمسك بثنائية بين الثوابت بوصفها عوامل لسانية واضحة أو قابلة للتوضيح، والمتغيرات بوصفها عوامل خارجية غير لسانية. ذلك أن المتغيرات التداولية للاستعمال هي متغيرات داخلية في التلفظ، وتُشكّل المفترضات الضمنية للسان. إذاً، إذا كان التضييد الجماعي متماداً في كلّ مرة مع اللسان موضوع النظر ومع اللغة ذاتها، فذلك لأنه يعبر عن جملة التغيرات اللاجسدية التي تحقق شرط اللغة، والتي تستعمل عناصر اللسان. الدالة- لغة معرفة على هذا النحو لا هي

طريقة لتغطية أو لإخفاء ملكة أكثر إثارة للقلق هي ملكة الأوامر أو لتبريرها المسبق. إنها ملكة لا عقلانية بامتياز نصادق عليها بقدر ما نَعْمدها باسم العقل المحض ولا شيء غير العقل المحض...

إخبارية ولا هي إبلاغية؛ إنها لا تحيل لا على إخبارٍ ذي دلالة ولا على إبلاغٍ بئذاتي. وقد لا تكون ثمة [١٠٩] فائدة من انتزاع تَمَعْنٍ خارج الإخبار أو ذاتية خارج الإبلاغ. ذلك أنّ سيرورة التذيت وحركة التَمَعْنِي هما اللتان تحيلان على أنظمة علامات أو على تنضيدات جماعية. الدالّة- لغة هي نقل أوامر، والأوامر تحيل على التنضيدات اللاجسدية التي تكون متغيرات الوظيفة. لا تُمثل اللسانيات شيئا خارج التداولية (السيمائية أو السياسية) التي تحدّد تحقق شرط اللغة واستعمال عناصر اللسان.

II. قد تكون ثمة مكنة مجردة للسان، قد لا تستدعي أيّ عامل « خارجي ».

لو نميّز في حقل اجتماعي بين جملة التحويلات الجسدية وجملة التغيرات اللاجسدية، رغم تنوع كلّ واحدة منهما، فإننا نجد ذواتنا إزاء صُورَتَيْن، واحدة للمضمون، الأخرى للتعبير. ذلك أنّ المضمون لا يتعارض مع الصّورة، له صُورَتُهُ الخاصّة: القطب يد- أداة أو درس الأشياء. لكنه يتعارض مع التعبير من حيث أنّ للتعبير صُورَتُهُ الخاصّة أيضا: القطب وجه- لغة أو درس العلامات. تحديدا لأنّ للمضمون صورته كما للتعبير صورته أيضا، لا يمكننا أن نعيّن لصورة التعبير مجرد وظيفة تمثيل، توصيف أو ملاحظة مضمون مطابق له: ليس ثمة لا مطابقة ولا ملاءمة. الصُّورَتَان ليست لهما نفس الطبيعة، وهما مستقلّتان ومتنافرتان. الرّواقيون هم الأوائل الذين وضعوا نظرية هذه الاستقلالية: إنهم يميّزون بين أفعال وانفعالات الأجسام (بإعطائهم كلمة «جسم» الامتداد الأكبر، أي كلّ مضمون متشكّل)، والأفعال اللاجسدية (التي هي «منطوق» الملفوظات). صورة التعبير سيكوّنها تسلسل المنطوقات، مثلما أنّ صورة المضمون ستكوّنها لحمه الأجسام. عندما يدخل السّكين في اللحم، عندما ينتشر الطّعام أو السّم

في الجسم، عندما تُسكب قطرة التَّبِيد في الكأس، يكون ثَمّة اختلاط أجسام؛ لكن ملفوظات «السَّكِين يقطع اللّحم»، «أنا أكل»، «الماء يحمرّ»، تعبّر عن تغيّرات لا جسدية ذات طبيعة مغايرة تماما (أحداث^(١)). عبقرية الرّواقيين كونهم دفعوا هذه المفارقة إلى الحدّ الأقصى، حدّ الجنون وحدّ الوقاحة، وكونهم أقاموها على العلل الأكثر وجاهة: المكافأة هي كونهم الأوائل الذين أنجزوا فلسفة لغة.

[١١٠] المفارقة لا تعني شيئا ما لم تُصَف مع الرّواقيين: التّغيّرات اللاّ جسدية والصفّات اللاّ جسدية تقال على الأجسام ذاتها ولا تقال على غيرها. التّغيّرات والصفّات هما ما تنطق به الملفوظات لكّتهما تُسندان إلى الأجسام. لكنّ ذلك ليس من أجل توصيف أو تمثيل الأجسام؛ ذلك أنّ هذه الأخيرة لها بالفعل ميزاتها الخاصّة، لها أفعالها وانفعالاتها، لها أنفسها، باختصار لها أشكالها التي هي ذاتها أجسام- والتصوّرات هي كذلك أجسام! إذا كانت الصفّات اللاّ جسدية تقال على الأجسام، إذا كانت هناك إمكانية للتمييز بين المنطوق اللاّ جسدي «يحمرّ» والخاصية الجسمية «أحمر»، إلخ.، فإنّما ذلك بالتّالي لسبب آخر مختلف تماما عن سبب التّصوّر. لا يمكننا حتى القول إنّ الجسم، أو الأحوال هي «مرجع» العلامة. بالتّعبير عن الصّفة الغير جسدية وفي نفس الوقت إسنادها إلى الأجسام فإنّنا لا نمثّل ولا نحيل، إنّنا نتدخّل بطريقة ما، وذلك فعل لغة. استقلالية الصّورتين، صورة التّعبير وصورة المضمون، لم يقع نقضهما، بل على النقيض من ذلك وقع تأكيدهما بالتّالي: كون التّعابير أو المنطوقات ستندرج في المضامين، ستتدخّل في المضامين، ليس من أجل تمثيلها وإنّما من أجل استباقها، قهقرتها،

(١) راجع الكتاب الكلاسيكيّ لأميل برييه، نظرية اللاّ أجسام في الرّواية القديمة، منشورات فران، ص ١٢، ص ٢٠، حول ملفوظات «السَّكِين يقطع اللّحم» أو «الشجرة تَحْضُوضِر».

إبطائها أو تسريعها، فصلها أو تجميعها، تقطيعها بشكل مغاير. سلسلة التغيرات الآنية ستندرج كامل الوقت في نسيج التحوّلات المتواصلة (من هنا معنى المواقيت عند الرواقيين: انطلاقاً من أية لحظة يسعنا القول إنّ شخصاً ما هو أصلع؟ وبأيّ معنى تعبّر ملفوظة من نوع «ستكون ثمة معركة بحرية غدا» عن تاريخ مهمّ أو عن أمر؟) ليلة الرابع من أغسطس، الرابع من يوليو ١٩١٧، العشرون من نوفمبر ١٩٢٣: أيّ تغيّر لا جسديّ وقع التعبير عنه، ومع ذلك هو يُسند إلى الأجسام ويندرج فيها؟ استقلالية صورة التعبير وصورة المضمون لا تؤسّس لأيّ توازٍ بينهما، كذلك لا تمثيل من الواحدة إلى الأخرى، إنما على النقيض من ذلك تجزئة الصّورتين، طريقة بها تندرج التعابير في المضامين، بها نقفز باستمرار من سجلّ إلى آخر، بها تعرك العلامات الأشياء ذاتها، في نفس الوقت الذي تمتدّ فيه الأشياء أو تنبسط عبر العلامات. تنزيد تَلَفُظ لا يتحدّث «عن» الأشياء، بل يتحدّث مباشرة عن حالات الأشياء أو حالات المضمون. بحيث أنّ نفس المجهول أو نفس الجُزئي سيعمل بوصفه جسماً يؤثّر ويتأثّر، أو بوصفه علامة تعبّر عن فعل، عن أمر، وفق الصّورة التي اتّخذتها (كذا الحال في المجموعة النظرية- التجريبية في الفيزياء). باختصار، الاستقلالية الوظيفية للصّورتين هي فقط صورة افتراضهما المتبادل، وصورة الانتقال المتواصل من الواحدة إلى الأخرى. لا نجد ذاتنا أبداً إزاء تسلسل أوامر، وإزاء سببية مضامين كلّ واحد منها قيمته في ذاته، أو أحدها يمثل [١١١] الآخر، والآخر يُستخدم كمرجع. على النقيض من ذلك، استقلالية الخطّين توزيعية، وتجعل أقسومة أحدهما تحلّ باستمرار محلّ أقسومة الآخر، تندسّ أو تدخل في الآخر. لا نفتأ ننتقل من الأوامر إلى «النظام الصّامت» للأشياء، مثلما يقول فوكو، والعكس بالعكس.

لكن عندما نستعمل هذه الكلمة الغامضة، كلمة «تَدخّل»، عندما نقول إنّ التعابير تندخّل أو تندرج في المضامين، أليس ذلك أيضاً

ضرب من المثالية حيث يأتي الأمر من السماء، أنيا؟ قد لا يجب تحديد مصدر وإنما تحديد نقاط التدخل والإدراج، وذلك في إطار الافتراض المتبادل بين الصورتين. لكنّ صورتَي المضمون كما التعبير، التعبير كما المضمون، ليستا قابلتين للفصل عن حركة لا تأرُضُن هي التي تحملهما. التعبير والمضمون، كلّ واحد منهما لا مُتأرُضُن على نحو ما، لا مُتأرُضُن نسبياً وفق حالة معيّنة لصورته. بهذا الصّدّد، لا يمكن أن نسبق التعبير على المضمون أو العكس. يحدث أن تكون المكونات السيميائية أكثر لا تأرُضُنا من المكونات المادية، لكن العكس يحدث أيضاً. على سبيل المثال، يمكن لمركّب علامات رياضيّ أن يكون أكثر لا تأرُضُنا من مجموعة جزئيات؛ لكن عكسياً، يمكن أن تكون للجزئيات آثار تجريبية لا تُؤرُضُن النظام السيميائيّ. يمكن لفعل إجراميّ أن يكون لا مُأرُضُنا بالنسبة إلى نظام العلامات الموجود (تصرخ الأرض طلباً للانتقام وتتوارى، خطئي جسيم)؛ لكنّ العلامة التي تعبّر عن فعل الإدانة يمكن أن تكون بدورها لا مُتأرُضُنة بالنسبة إلى كلّ الأفعال وردود الأفعال («ستكون هارباً وطريداً في الأرض»، لن نقدر حتى على قتلِكَ). باختصار، ثمة درجات لا تأرُضُن تُكمّم الصور الخاصّة بكلّ من المضمون والتعبير، وهي التي تبعا لها تتربط المضامين والتعابير، تتناوب، يُسرّع بعضها بعضاً، أو على النقيض من ذلك تستقرّ وهي تُجري إعادة تأرُضُن. ما نسمّيه ظروفاً أو متغيّرات، هي هذه الدّرجات ذاتها. ثمة متغيّرات مضمون، هي نسب في أخلاط الأجسام أو مجاميعها، وثمة متغيّرات تعبير، هي العوامل الدّاخلية للتلفّظ. في ألمانيا، حوالي العشرين من نوفمبر سنة ١٩٢٣: التّضحّم اللاّ مُتأرُضُن للجسم النّقديّ، لكن كذلك التّغيير السيميائيّ، تغيّر المارك الألماني إلى المارك الرّيعيّ، هو الذي يصبح بديلاً ويمكّن من إعادة أرضنة. في روسيا حوالي الرّابع من يوليو ١٩١٧: نسب حالة «أجسام» السوفيات-الحكومة المؤقّتة، لكن كذلك بناء سيميائية لا جسديّة بولشيفية تسرّع

الأشياء، وسيقع استبدالها من الجهة الأخرى بالفعل التفجيري للحزب. باختصار، ليس باكتشاف [١١٢] مضمونٍ أو بتمثيله يدخل تعبير في علاقة معه. بتزاوج كمّات اللاتأرضن الخاصّ بكلّ منهما، تتواصل صور التعبير والمضمون، يتدخّل بعضها في الأخريات، تعمل الأخريات في تلك.

يمكننا أن نستخلص من ذلك النتائج العامّة حول طبيعة التّضيدات. وفق محور أوّل أفقيّ، يتضمّن التّضيد أقسومتين، واحدة للمضمون والأخرى للتّعبير. من ناحية هو تضيد مكّنّي للأجسام، للأفعال وللانفعالات، خليط أجسام يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر؛ من ناحية أخرى تضيد جماعيّ للتلفّظ، تضيد أفعال وملفوظات، تغييرات لا جسدية تُسند إلى الأجسام. لكن وفق محور عموديّ موجّه، للتضيد من ناحية جنبات إقليمية أو أعيدت أرضتها هي التي تثبتّه، له من ناحية أخرى رؤوس لا تأرُضن هي التي تحمله. لا أحد أكثر من كافكا عرف كيف يستخلص محاور التّضيد هذه وجعلها تعمل معا. من ناحية المكنة- الباخرة، المكنة- النّزل، المكنة- السّيرك، المكنة- القصر، المكنة- المحكمة: كلّ واحدة بقطعها، بدواليبها، بسيروراتها، بأجسامها المتشابكة، المتداجمة، المنفصلة (انظر، الرّأس التي تثقب السّقف). من ناحية أخرى نظام العلامات أو التلفّظ: كلّ نظام مع تغييراته اللّاجسدية، أفعاله، أحكامه بالإعدام وقراراته، محاكماته، «قانونه». لكن من البين أنّ الملفوظات لا تمثّل المكنات: خطاب السّائق لا يصف السّياقة بوصفها جسما، له صورته الخاصّة وتطوّره دون مشابّهة. ومع ذلك يُسند إلى الجسم، إلى الباخرة كلّها بوصفها جسما. خطاب خضوع للأوامر، خطاب نقاش، مطالبة، اتّهام ومرافعة. ذلك أنه وفق المحور الثّاني، ما يقارن بين وجهين أو يجمع بينهما، ما يضع باستمرار أحدهما في الآخر، هي درجات اللّاتأرضن المترابطة أو المتناوبة، وعمليات إعادة التّأرضن التي تثبت الكلّ في

لحظة معيّنة. ك، الدّالة ك، تشير إلى خطّ الإفلات أو اللّاتأرضن الذي يجرّ كلّ التّنضيدات، لكنه يمرّ كذلك بكلّ إعادات التّأرضن والترّدادات، ترّدادات الطّفولة والقرية والحبّ والبيروقراطية... إلخ.

تكافؤ رباعيّ للتّنضيد. مثال ذلك التّنضيد الإقطاعيّ. سننظر في أخلاط الأجسام التي تعرّف الإقطاعية: جسم الأرض وجسم المجتمع، أجساد السيّد الإقطاعيّ، التّابع والقرنّ، جسد الفارس والحصان، العلاقة الجديدة التي يدخلان فيها مع الرّكاب، مع الأسلحة والأدوات التي تمكّن من تكافل الأجسام- إنه تنضيد مكنيّ بالتّمام. لكن كذلك الملفوظات، التّعايير، النظام القانونيّ لرمز النّباله، [١١٣] جملة التّغييرات اللّاجسدية، خاصّة الأيمان مع متغيّراتها، يمين الولاء، لكن كذلك يمين المحبّة، إلخ. : إنه التّنضيد الجماعيّ للتلفّظ. بمتابعة المحور الآخر، نجد الإقليميات وإعادات الأرضنة الإقطاعية، في نفس الوقت مع خطّ اللّاتأرضن الذي يحمل الفارس وركوبته، يحمل الملفوظات والأفعال. كيف يجتمع كلّ ذلك في الحملات الصّليبية؟

قد يتمثّل الخطأ إذا في الاعتقاد أنّ المضمون يحدّد التعبير بواسطة فعل سببيّ، حتّى وإن كنّا منحنا للتّعبير القدرة، ليس فقط على «عكس» المضمون، وإنّما على التّأثير عليه حيويّاً. مثل هذا التّصوّر الإيديولوجيّ للملفوظ، الذي يجعله تابعا لمضمون اقتصاديّ أوّل، يصطدم بكلّ أنواع الصّعوبات المحايثة للدّيالكتيكا. أوّلا، إذا كان بمقدورنا عند الاقتضاء تصوّر فعل سببيّ يذهب من المضمون إلى التّعبير، فالحال ليست تلك بالنّسبة إلى الصّور الخاصة بكلّ منهما، صورة المضمون وصورة التّعبير. يجب أن نعترف للصّورة الأخيرة باستقلالية ستمكّن التّعايير من التّأثير على المضامين. لكن هذه الاستقلالية أسيء فهمها. إذا اعتُبرت المضامين اقتصادية فإنّ صورة المضمون لا يمكن أن تكون كذلك، وتجد نفسها مرتدّة إلى تجريد محض، نعني إلى إنتاج الخيرات وإلى وسائل هذا الإنتاج منظورا إليها في ذاتها. بالمثل، إذا اعتُبرت التّعايير

إيديولوجية فإن صورة التعبير ليست كذلك، وتجد نفسها مرتدة إلى اللغة بوصفها تجريدا، بوصفها تنظيما لخير مشترك. مذاك، نزع أننا نخصّ المضامين والتعابير بكل الاختصاصات والصراعات التي تخترقهما بكيفيتين مختلفتين، لكن هذه الصور ذاتها هي في ما يخصها خالية من كلّ اختصاص ومن كلّ صراع، وتظلّ علاقة كلّ منهما غير محدّدة تماما^(١). قد لا نتمكّن من تحديدها إلّا بتحوير نظرية الإيديولوجيا، وبجعل التعابير والملفوظات تتدخل سلفا في الإنتاجية، في شكل إنتاج معنى أو قيمة- علامة. مقولة الإنتاج لها هنا دون شكّ ميزة القطع مع رسيمات التّصوّر، الإخبار والإبلاغ. لكن هل هي أكثر ملاءمة من هذه الرسيمات؟ تطبيقها على اللغة ملتبس جدّا، طالما أننا نستنجد بمعجزة دياكتيكية [١١٤] ثابتة هي التي تغيّر المادّة إلى معنى، المضمون إلى تعبير، السّيرورة الاجتماعية إلى نظام دالّ.

في وجهه المادّيّ أو المكنّي، لا يبدو لنا أنّ التنضيد يحيل على إنتاج خيرات، إنما على حالة دقيقة لاختلاط أجسام في مجتمع، حالة تتضمّن كلّ أشكال الجذب والتّنبذ، التّعاطف والتّنافر، التبدّلات، الأشابات، التوغّلات والتوسّعات التي تؤثر على مختلف أنواع الأجسام بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر. نظام غذائيّ ونظام جنسيّ ينظّمان قبل كلّ شيء أخلاطا إلزامية، ضرورية أو مباحة للأجسام. حتى التّكنولوجيا مخطئة في النّظر إلى الأجسام في حدّ ذاتها: هذه الأجسام لا توجد إلّا بالنسبة إلى الأخلاط التي تجعل هذه الأجسام ممكنة أو تجعلها

(١) هكذا يزعم ستالين في نصّه الشّهير حول اللّسانيات، استخلاص صورتين محايدتين تخدمان دون تمييز كلّ المجتمع وكلّ الطبقات وكلّ الأنظمة: من ناحية كلّ المعدّات والمكنتات بوصفها محض وسيلة إنتاج لأيّ خيرات كانت، من ناحية أخرى اللغة بوصفها محض وسيلة للإخبار والإبلاغ. حتّى باختين يعرف اللغة بوصفها شكلا للإيديولوجيا، لكنه ينصّص على أنّ صورة الإيديولوجيا ليست هي ذاتها إيديولوجية.

الأجسام ممكنة. الرّكّاب يؤدّي إلى تكافل جديد بين رَجُل - حصان، تكافلا يؤدّي في نفس الوقت إلى أسلحة جديدة ومعدّات جديدة. الأدوات ليست مفصولة عن التّكافلات أو الأشابات التي تحدّد تنضيدا مكنيّا هو طبيعة - مجتمع. تفترض الأدوات مكنة اجتماعية تنتقيها وتدخلها في «شعبتها»: يتحدّد مجتمع بأشاباته وليس بأدواته. وبالمثل، في وجهه الجماعيّ أو السّيميائيّ، لا يحيل التّنضيد على إنتاجية للغة، إنّما على أنظمة علامات، على مكنة تعبير تحدّد متغيّراتها استعمال عناصر اللّسان. لا قيمة للأدوات بذاتها، بأكثر ممّا لهذه العناصر بذاتها. ثمّة أولية لتنضيد مكنيّ للأجسام على الأدوات والخيرات، أولية تنضيد تَلَفُظ جماعيّ على اللّسان والكلمات. وتمفصل وجهي التّنضيد يتمّ بواسطة حركات اللّاتأرُضن التي تكمّم صورها. لذلك لا يتحدّد حقل اجتماعيّ بصراعاته وتناقضاته بقدر ما يتحدّد بخطوط إفلاته التي تخترقه. لا يتضمّن تنضيد ما لا بنية تحتية وبنية فوقية، لا بنية عميقة وبنية سطحية، إنّما يسطّح بالأحرى كلّ أبعاده على نفس مسطّح القوام حيث تتحرّك المفترضات المتبادلة والإدراجات المشتركة.

الخطأ الآخر (الذي يتّحد عند الحاجة مع الخطأ الأوّل) قد يكون هو الاعتقاد في كفاية صورة التّعبير بوصفها نظاما لسانيا. هد نظام يمكن فهمه على أنه بنية صوتية دالّة، أو بوصفه بنية تركيبية عميقة. قد تكون له على أيّة حال فضيلة توليد الدّلالية، وبالتالي ملء التّعبير، بينما قد تُترك المضامين لاعتباطية مجرّد «مرجع»، والتّداولية لبرّانية العوامل غير اللّسانية. المشترك بين كلّ هذه المشاريع هو بناء مكنة مجرّدة للّسان، لكن بتكوين هذه المكنة بوصفها مجموعة تزامنية من [١١٥] الثّوابت. لكن لن يقع الاعتراض بالقول إنّ هذه المكنة مفهومة على هذا النّحو هي مكنة مجرّدة جدّا. على التّقيض من ذلك، إنّها ليست مجرّدة كفاية، إنّها تبقى «خطيّة». إنّها تبقى عند مستوى تجريد أوسط، يسمح لها من ناحية بالنظر في العوامل اللّسانية في ذاتها، بغضّ النّظر عن

العوامل غير اللسانية؛ ومن ناحية أخرى بالنظر في هذه العوامل اللسانية بوصفها ثوابت. لكن لو غالينا في التجريد، نصل حتما إلى مستوى تترك فيه أشباه ثوابت اللسان مكانها لمتغيرات التعبير الكائنة داخل التلّف ذاتها؛ مذكّان لن تكون متغيرات التعبير هذه قابلة للانفصال عن متغيرات المضمون التي هي في تفاعل دائم. إذا كان يجب أخذ التداولية الخارجية للعوامل غير اللسانية في الاعتبار، فلأنّ اللسانية ذاتها لا يمكن فصلها عن تداولية داخلية تتعلق بعواملها الخاصة. لا يكفي أن نأخذ المدلول أو حتى بالمرجع بعين الاعتبار، بما أنّ مصطلحي الدلالة والمرجع ذاتهما ما تزال لهما علاقة ببنية تعبير نفترضها مستقلة وثابتة. لا يفيد في شيء بناء دلالية، أو حتى الاعتراف ببعض الحقوق للتداولية إذا كنّا مازلنا نجعل هذه الحقوق تمرّ بمكنة تركيبية أو صوتية عليها أن تعالجها مسبقا. ذلك أنّ مكنة مجردة حقيقية ترتبط بتنضيد في مجمله: إنّها تتحدّد بوصفها مبيان هذا التنضيد. إنّها ليست لغوية بل هي مبيانية وخطيّة تضافريّة. المضمون ليس مدلولاً والتعبير ليس دالاً، لكنّهما متغيرات التنضيد. لم نفعل شيئاً إذا ما لم نربط مباشرة التّحديدات التداولية، لكن كذلك التّحديدات الدلالية، التركيبية والصوتية، بتنضيدات التلّف التي تتوقّف عليها هذه التّحديدات. مكنة شومسكي المجردة تظلّ مرتبطة بنموذج شجرانيّ، وبالنّظام الخطّي للعناصر اللسانية في الجمل وفي توافقيّتها. لكن مذ نأخذ في الحسبان القيم التداولية أو المتغيرات الدّاخلية، خاصة وفق الخطاب اللّامباشر، نكون مجبرين على إشراك «ما فوق جمل»، أو على بناء «موضوعات مجردة» (تغييرات لا جسديّة)، تتضمّن خطيّة تضافريّة، نعني مسطّحا لم يعد لعناصره نظام خطّي ثابت: إنه نموذج الجذور^(١). من هذه الزاوية،

(١) بخصوص هذه المسائل، راجع جرّولد صادق (Jerrold. M. Sadock)، «ما فوق الجمل»، أطروحات فلسفية، جامعة إلينوا، ١٩٦٨؛ دياتير واندرليش (Dieter

تأويل [١١٦] اللسان مع الحقل الاجتماعي ومع المسائل السياسية هو في أعماق المكنة المجردة وليس على السطح. المكنة المجردة من حيث أنها ترتبط ببيان التّضيد، ليست لغة محضا على الإطلاق، إلّا في حالة غياب التّجريد. اللّغة هي التي تتوقّف على المكنة المجردة وليس العكس. في أقصى الحالات يمكننا أن نميّز في اللّغة بين حالتين مبيان، حالة تتوزّع فيها متغيّرات المضمون والتّعبير وفق التباين بين صورة كلّ منهما في افتراض متبادل على مسطح قوام، الحالة الأخرى هي التي لم نعد نستطيع فيها حتى التّمييز بينهما، لأنّ تقلّبيّة نفس المسطح تغلبت تحديدا على ثنائية الصّور، وجعلتها «غير قابلة للتّمايز». (الحالة الأولى قد تحيل على حركات لا تأرّضن ما تزال نسبية، بينما قد تكون الحالة الثانية بلغت عتبة لا تأرّضن مطلقة).

III. قد تكون ثمة ثوابت أو كليّات للسان، قد تُمكن من تعريف هذا الأخير بوصفه نظاما متجانسا.

مسألة الثوابت البنيوية- وفكرة البنية ذاتها ملازمة لمثل هذه الثوابت الذّريّة أو العلائقية- أساسية بالنّسبة إلى اللّسانيات، إنها الشرط الذي بمقتضاه يمكن للّسانيات الانتساب إلى علمية محض، لا شيء غير

(Wunderlich)، «التداولية، وضعية التلقظ والإشارية»، لغات، لاروس، جوان/ يونيو ١٩٧٢؛ وخاصة سيباستيان كونستنتينوفيتش سوميان (Konstantinovič Saumjan) الذي يقترح نموذج موضوعات مجردة قائمة على عملية التّطبيق، نموذج توليديّ تطبيقيّ (لغات، مارس ١٩٧٤). سوميان يعلن انتسابه إلى يالمسلاف: ذلك أنّ قوّة يالمسلاف تكمن في كونه فهم صورة التّعبير وصورة المضمون بوصفهما متغيّرين نسبيين تماما، على نفس المسطح، بوصفهما «دالات نفس الدّالة» (مقدّمات لنظرية اللّغة، ص ٨٥). يبيّن أن هذا التّقدّم نحو تصوّر مبيانيّ للمكنة المجردة، وقعت معارضته بالتّالي: هالمسلاف ما زال يفهم التّمييز بين التّعبير والمضمون على هيئة دالّ- مدلول، ويحافظ بالتّالي على تبعية المكنة المجردة للّسانيات.

العِلْم... ، بمنأى عن كلّ عامل خارجيّ مزعوم أو تداوليّ. مسألة الثّوابت هذه تتّخذ الكثير من الأشكال ذات الارتباط الوثيق: (١) ثوابت لسان (صوتية بالإبدال، تركيبية بالتغيّرية، دلالية بالتوليد)؛ (٢) كليّات اللّغة (بتفكيك الصّوتم إلى سمات مميّزة، تفكيك التركيب إلى مكوّنات قاعدية، تفكيك الدّلالة إلى عناصر دلاليّة دنيا)؛ (٣) الأشجار التي تربط الثّوابت في ما بينها بعلاقات ثنائية بالنسبة إلى مجموع الأشجار (راجع المنهج الخطّي الشّجرانيّ لشومسكي)؛ (٤) الكفاءة، المُتمادّة من جهة الحقّ مع اللّسان والتي وقع تعريفها بأحكام النّحويّة؛ (٥) التّجانس الذي يتعلّق بالعناصر والعلاقات بقدر ما يتعلّق بالأحكام الحدسيّة؛ (٦) التّزامن الذي يقيم «في ذاته» و«لذاته» [١١٧] للّسان، منتقلا على الدّوام من النّظام الموضوعيّ إلى الوعي الذاتيّ الذي يدركه من جهة الحقّ (وعي اللّسانيّ ذاته).

يمكننا اللّعب بكلّ هذه العوامل، بالإنقاص منها أو حتى بالإضافة إليها. إلّا أنها مع ذلك متماسكة جميعها، لأنّنا نجد في مستوى أحدها ما هو أساسيّ بالنسبة إلى البقية. على سبيل المثال، التّمييز بين اللّسان والكلام وقعت استعداته بالتمييز بين الكفاءة والأداء، لكن على صعيد النّحويّة. إذا وقع الاعتراض بأنّ التّمييز بين الكفاءة والأداء هو تمييز نسبيّ تماما - كفاءة لسانية يمكن أن تكون اقتصادية، دينيّة، سياسية، إستيطيقيّة... إلخ.؛ الكفاءة المدرسيّة لمعلّم يمكن ألا تكون غير أداء بالنسبة إلى تقويم المتفكّد أو بالنسبة إلى القواعد الوزارية، يجب اللّسانيون أنهم مستعدّون لمضاعفة مستويات الكفاءة، بل وحتّى إلى إدخال قيم تداولية في المنظومة. على هذا النّحو يقترح براكل (Brekle) إضافة عامل «كفاءة أدائية خصوصيّة»، مرتبط بمجموعة كاملة من العوامل اللّسانية، التّفنسية أو الاجتماعيّة. لكن ما فائدة حقّن التّداولية هذا إذا كانت التّداولية بدورها يُنظر إليها بوصفها ذات ثوابت أو كليّات خاصّة بها؟ وبِمَ قد تكون عباراتٌ مثل «ضمير المتكلّم»، «وَعَد»،

«عَرَفَ» أكثر كَلِيَّةً من «حَيًّا»، «سَمَى» أو «أَدَانَ»^(١)؟ كذلك عندما نسعى إلى بَرَعْمَة الشَّجَرَاتِ الشومسكية وإلى كسر النِّظام الخَطِّي، فإننا لم نربح شيئاً حقيقة، لم نكوِّن جذمورا، ما دامت المكوّنات التّداولية التي تعيّن القطيعات متموّقة في قَمّة الشَّجرة، أو تَمَحِّي إِبَّان الاشتقاق^(٢). في الحقيقة، المشكل الأعمّ يتعلّق بطبيعة الممكنة المجرّدة: لا وجود لأيّ سبب لربط المجرّد بالكَلِّي أو بالثّابت، ولمحو فُرادة الممكنات المجرّدة من حيث أنها بُنِيَتْ حول متغيّرات وتغيّرات.

يمكن أن نفهم بشكل أفضل ما أشرنا إليه بالعودة إلى التّقاش الذي وضع شومسكي ولابوف وجها لوجه. أن يكون كلّ لسان واقعا مرّكباً متنافرا بشكل أساسي، فذلك ما يعرفه اللّسانيون ويقولونه؛ لكن تلك ملاحظة واقع حال. يطالب شومسكي فقط بتفصيل نظام متجانس أو موحد في هذه المجموعة، بوصفه شرط التّجريد والمثْلنة، يمكن من دراسة علمية من جهة الحقّ. [١١٨] لا يتعلّق الأمر إذاً بالبقاء عند أنغليزية موحّدة، إذ حتى عندما يدرس أنغليزية السّود أو أنغليزية المعازل، سيجد اللّسانيّ ذاته مجبرا على استخلاص نظام موحّد يؤمّن ثبات وتجانس الموضوع المدروس (يقال إنه لا علم قد يتمكّن من العمل بشكل مغاير). إذاً، يتظاهر شومسكي بأنه يعتقد أنّ لابوف، عندما يؤكّد اهتمامه بالسمّات المتغيّرة للغة، فإنه يتموقع بالتالي ضمن تداولية سارية وخارجة عن اللّسانيات^(٣). غير أنّ لابوف له طموح آخر. عندما يستخرج خطوط تغيّيرٍ محايّثة، فإنّه لا يرى في ذلك مجرد «متغيّرات

(١) راجع، هربارت أرناست براكل (Herbert Ernst Brekle)، الدّلالية، منشورات أرمان كولان، صص ٩٤ - ١٠٤: حول فكرة تداولية كَلِيَّة وفكرة «كَلِيّات الحوار».

(٢) حول هذا التبرّع ومختلف تصوّراته، راجع، واندرليش، «التّداولية...».

(٣) ناعوم شومسكي وميتسو رونات، حوارات، منشورات فلاماريون، صص ٧٢ -

حرّة» قد تتعلّق بالنّطق، بالأسلوب أو بالسّمات غير الملائمة، من حيث أنّها كائنة خارج النّظام وتسمح ببقاء تجانس النّظام؛ لكنه لا يرى فيها كذلك مجرد خليط واقعيّ بين نظامين قد يكون كلّ منهما متجانسا في ما يخصّه، وكأنّ المتكلّم كان يمرّ من أحدهما إلى الآخر. إنه يرفض الإميّة التي أرادت اللّسانيات الاستقرار فيها: إسناد المتغيّرات إلى أنظمة مختلفة، أو إرجاعها إلى ما دون البنية. التّغاير ذاته هو النّسقيّ، بالمعنى الذي يقول به الموسيقيون إنّ «اللّحن هو التّنوع». يرى لابوف في التّغاير مكوّنا من جهة الحقّ يؤثّر على كلّ نظام من الدّاخل، ويجعله يسرع أو يقفز بقدرته الخاصّة، مانعا إغلاقه على ذاته وعلى مُجانسته مبدئيّا. ودون شكّ، التّغايرات التي نظر فيها لابوف متنوّعة، صوتية، صوّاتيّة، تركيبية، دلاليّة، أسلوبية. يبدو لنا من العسير الاعتراض على لابوف كونه يجهل التّمييز بين ما هو من جهة الواقع وما هو من جهة الحقّ - أو كذلك بين التّزامنيّ والتّعاقيّ، أو بين السّمات الملائمة والسّمات غير الملائمة، أو بين الكفاءة والأداء، أو بين نحويّة اللّسان ونحويّة الكلام. حتى لو صلّبنا مواقف لابوف، قد نقول بالأحرى إنه يطالب بتوزيع آخر للواقع وللحقّ، وخاصّة بتصوّر آخر للحقّ ذاته وللتّجريد. يذكر لابوف مثال شابّ أسود، يبدو أنّه ينتقل ثمانية عشر مرّة في سلسلة موجزة جدّا من الجُمْل، من نظام أنغليزية السّود إلى الأنغليزية الموحّدة والعكس بالعكس. لكن بشكل محدّد، أليس التّمييز المجرّد بين النظامين هو الذي يتبدّى مجرّدا، غير كاف، بما أنّ معظم الصّور لم يقع إلحاقها بهذا النّظام أو ذاك إلّا بمصادفات هذه المتوالية أو تلك؟ إذّا، ألا يجدر التّسليم بأنّ كلّ نظام هو نظام متغيّر، ولا يتحدّد بثوابته وتجانسه، إنّما على النقيض من ذلك بتغاييريّة [١١٩] خاصّياتها أن تكون محايدة، متواصلة، ومضبوطة وفق صيغة خاصّة جدّا (قواعد متغيرة أو اختيارية)^(١)؟

(١) ويليام لابوف (William Labov)، اللّسانية الاجتماعية، خاصّة صص ٢٦٢ -

كيف ندرك هذا التّغاير المتواصل الذي يعرك لسانا من الدّاخل، حتى وإن كان علينا أن نخرج من الحدود التي يفرضها لابوف على نفسه، ومن شرط العلمية التي تستدعيها اللّسانيات؟ في نفس اليوم يمرّ فرد بشكل مستمرّ من لسان إلى آخر. بالتّتابع، سيتحدّث مثلما «يتوجّب على الأب أن يتحدّث»، ثمّ سيتحدّث بوصفه ربّ عمل؛ للمحبوبة سيتحدّث لسانا صبيانيّا؛ في نومه سيغرق في خطاب حلميّ، وفجأة يعود إلى لسان مهنيّ عندما يرنّ جرس الهاتف. سيقع الاعتراض على ذلك بالقول إنّ هذه التّغايرات برّانية، وأنّ اللّسان هو نفسه. لكن في ذلك حكم مسبق على المسألة. ذلك أنّه من ناحية ليس من المؤكّد أن يتعلّق الأمر بنفس الصّوّة ولا بنفس التركيبيّة وبنفس الدّلالية. من ناحية ثانية، تتمثّل المسألة كلّها في معرفة ما إذا كان اللّسان المُفترَض فيه أنه هو نفس اللّسان، يتحدّد بثوابت أو على النقيض من ذلك بخطّ التّغاير المتواصل الذي يخترقه. بعض اللّسانيين ارتأوا أنّ التّغير اللّسانيّ لا يتمّ بقطع نظام بقدر ما يتمّ بتحويل تدريجيّ للتّواتر، بتماعي الاستعمالات المختلفة وبتواصلها. لتكن نفس الملفوظة الواحدة «أقسم على ذلك!». ليست هي نفس الملفوظة تبعا لما إذا كان قالها طفل أمام والده، قالها محبّ أمام المحبوبة، قالها شاهد أمام المحكمة. إنها بمثابة ثلاث متتاليات. (أو هي مثل التّراتيل الأربعة الممتدّة على سبع ترنيمات لماسيان (Messiaen)). هنا أيضا لا سبب يدفعنا إلى القول إنّ المتغيّرات هي متغيّرات ظرف وحسب، وإنّ الملفوظة تظلّ ثابتة من جهة الحقّ. ليس ثمة فقط من الملفوظات بقدر ما ثمة من التّحقّقات، لكن جملة الملفوظات تجد ذاتها حاضرة في تحقّق إحداها، بحيث أنّ خطّ التّغاير افتراضيّ، أي واقعيّ دون أن يكون حاليّا، وتبعا لذلك هو

٢٦٥. سنلاحظ أنّ لابوف، تارة يفرض على ذاته الشّروط التّقييديّ للنّظر في ملفوظات لها تقريبا نفس المعنى، تارة أخرى يتخلّص من هذا الشّروط ليتابع تسلسل ملفوظات تكاملية لكنها متنافرة.

متواصل ومهما كانت قفزات الملفوظ. وضع الملفوظ في تغيار متواصل، معناه جعله يمرّ بكلّ المتغيّرات الصّواتية، التّركيبية، الدّلاليّة، النّبرية، التي يمكنها التّأثير عليه في أقصر لحظة زمنية (أقصر فاصل). بناء اطّراد: أقسم على ذلك! مع التّغيّرات المطابقة له. تلك هي وجهة نظر التّداولية؛ لكنّ التّداولية أصبحت داخل اللّسان، محايدة وتتضمّن تغيار أية عناصر لسانية كانت. على سبيل المثال خطّ المسارات الثلاثة لكافكا: مسار الأب في الاسرة؛ مسار الخطوبة في النّزل؛ مسار [١٢٠] المحكّمة. نميل دائما إلى البحث عن «خَفْض»: سنفسّر كلّ شيء بوضعية الطّفل أمام أبيه، أو بوضعية الإنسان بالنّسبة إلى الخصاء، أو بوضعية المواطن بالنّسبة إلى القانون. لكن نكتفي حينئذ باستخراج ثابت زائف لمضمون، وهو ليس أفضل من استخلاص ثابت زائف لتعبير. الوضع موضع تغيار يجب أن يجنّبنا هذه المخاطر، بما أنه يبيّن اطّرادا أو وسيطا لا يحمل لا بداية ولا نهاية. لن نخلط بين التّغايير المتواصل والخاصية المتّصلة أو المنفصلة للمتغيّر ذاته: أمر، هو تغيار متواصل بالنّسبة إلى متغيّر منفصل... يمكن لمتغيّر أن يكون متواصلا على جزء من خطّ سيره، ثم يثب أو يقفز دون أن يتأثّر نتيجة لذلك تغيّره المتواصل، وهو يفرض تطوّرا غائبا بوصفه «استمرارية بديلة»، استمرارية افتراضية ومع ذلك واقعية.

لا يتحدّد ثابت أو لا متغيار بدوامه وديمومته بقدر ما يتحدّد بدالة مركزه حتى وإن كان المركز نسبيا. في النظام الطّنينيّ أو الدّيأتوني، قوانين الإصداء والجذب تحدّد مراكز ملائمة عبر كلّ المقامات، مراكز ذات ثبات وقوّة جاذبة. هذه المراكز هي بالتّالي مراكز منظمّة لصور متمايضة وتمييزية، متمركزة بوضوح عبر بعض الأجزاء الزمنية: نظام ممرّكز، مقنّن، خطّي، من نمط شجرانيّ. صحيح أنّ الـ«مقام» الصّغير، بموجب طبيعة فواصله وبموجب أدنى ثبات لتوليف نغماته، يمنح الموسيقى الطّنينيّة خاصية فالتة، هاربة، لا متمركزة. له كذلك التّباس

خضوعه لعمليات تجعله متّسقاً مع نموذج أو معيار السّلم الموسيقي الكبير، لكن له مع ذلك تأكيد بعض الاقتدار المَقاميّ الذي يتعذّر رده إلى الطّنينيّة، وكأنّ الموسيقى تسافر وتستجمع كل الانبثاقات، أشباح الشرق، المناطق الخيالية، الأساليب المتأّتية من كلّ الأصقاع. لكن أكثر من ذلك، السّلم الموسيقيّ المعدّل أو التّلوينية المعدّلة هي التي تقدّم التباساً آخر: التباس امتداد فعل المركز إلى النغمات الأبعد، لكن كذلك تهية تفكيك المبدإ المركزيّ، الاستعاضة عن الصّور الممرّكة بالتطوّر المتواصل لصورة لا تفتأ تذوب أو تتغيّر. عندما يجعل التطوّر الصّورة تابعة له وينسحب على المجموع كما عند بيتهوفن، فإنّ التّنويع يبدأ بالتحرّر ويتطابق مع الإبداع. غير أنه يجب انتظار تحرّر التّلوينية، تصبح تلوينية معمّمة، تنقلب ضدّ التّوليف، ولا تؤثر على الارتفاعات وحسب، بل على كلّ مكوّنات الصّوت، الامتدادات، الشّدّد، الأجراس، الاستهلالات. إذا لم يعد بالإمكان الحديث عن صورة صوتية قد تنظّم مادّة؛ لم نعد نقدر حتى على الحديث عن تطوّر متواصل للصّورة. يتعلّق الأمر بالأحرى [١٢١] بموادّ شديدة التعقيد وشديدة التطوّر، ستجعل من قوى غير صوتية قوى مسموعة. يُستبدل الزّوج مادّة- صورة بقران موادّ- قوى. حلّ مرّكب الأصوات الإلكترونيّ محلّ «الحكم التّركيبيّ القبليّ» القديم، لكن بذلك تتغيّر كلّ الوظائف. بوضع كلّ المكوّنات موضع تغاير متواصل، تصبح الموسيقى ذاتها نظاماً خطيّاً تضافريّاً، جذموراً عوضاً عن شجرة، وتنتقل إلى خدمة متّصل كونيّ افتراضيّ، تنتمي إليه حتى الثقوب وضروب الصّمت والتّقطّعات والانقطاعات. بحيث أنّ المهمّ ليس هو بكلّ تأكيد انفصال زائف بين النظام الطّنينيّ وموسيقى لا تُناليّة؛ على النقيض من ذلك، هذه الأخيرة، بقطعها مع النظام الطّنينيّ، لم تفعل غير دفع السّلم الموسيقيّ المعدّل حتى نتائج القصوى (مع ذلك ولا فيناوويّ توقّف عند ذلك الحدّ). الأساسيّ يكاد يكون هو الحركة المعاكسة: الغليان الذي لحق

بالنظام الطنيني ذاته، في فترة طويلة من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، والذي أذاب السّلم الموسيقي المعدّل، وسّع التّلوينية، مع الحفاظ على طنين نسبيّ، يعيد ابتكار مقامات جديدة، يضع السّلم الكبير والسّلم الصغير في أشابة جديدة، ويكتسح في كلّ مرّة مجالاتٍ تغايّر متواصل لهذه ولتلك من المتغيّرات. يمرّ هذا الغليان إلى المقام الأوّل، يقع سماعه في حدّ ذاته، وبموادّه الهوائية التي وقع هكذا عركها، يجعل قوى الكون غير الصّائنة التي كانت تهزّ الموسيقى دائماً، قوى مسموعة - القليل من الوقت في الحالة المحض، ذرّة شدّة مطلقة... طنينيّ، مقاميّ، لا توناليّ، لم تعد تعني الكثير. ليس ثمة غير الموسيقى لتكون هي الفنّ بوصفه كونا، وترسم الخطوط الافتراضية للتّغاير اللامتناهي.

هنا أيضاً يقع الاعتراض بالقول إنّ الموسيقى ليست لغة، مكوّنات الصّوت ليست سمات ذات صلة باللسان، لا وجود لتطابق بين الموسيقى واللّغة. لكنّنا لا نلتمس مطابقة، نحن لا نفتأ نطالب بترك ما هو موضوع نظر مفتوحا، وبرفض كلّ تمييز مفترَض مسبقاً. قبل كلّ شيء، التّمييز بين اللسان والكلام كان مجعولا لوضع كلّ أنواع المتغيّرات التي تعرك التعبير أو التلفّظ خارج اللّغة. على التّقيض من ذلك، جان جاك روسو كان اقترح علاقة بين الصّوت والموسيقى، علاقة قد كان يمكنها أن تقود، ليس الأصوات والأوزان وحسب، إنّما اللسانيات كلّها، إلى وجهة أخرى. الصّوت في الموسيقى لم يتوقّف أبداً عن كونه محور تجريب مفضّل، يلعب في نفس الوقت باللّغة وبالصّوت. ربطت الموسيقى بين الصّوت والآلات بكيفيات متنوّعة جدّاً؛ لكن طالما كان الصّوت غناء، فإنّ دوره المركزيّ هو «إدارة» الصّوت، إنه يقوم بوظيفة ثابت مقبّد على نوتة، في نفس الوقت الذي يكون فيه مصحوباً بالآلة. عندما يحال على الجرسية، حينها يكتشف في ذاته سلّم أنغام يجعله مباينا لذاته [١٢٢] ويمنحه قوّة تغايّر مستمرّ:

حينئذ لم يعد مصحوبا، إنه «ممكن» فعليًا، إنه ينتمي إلى مكنة موسيقية تضع امتداديًا أو تراكبيًا على نفس المسطح المصوت الأجزاء المنطوقة، المغناة، الصاخبة، الآلاتية وربما الإلكترونية. مسطح «غليساندو» معمم كذلك، تستتبع تكوين فضاء إحصائي، حيث ليس لكل متغير قيمة متوسطة وحسب، بل له احتمالية تواتر تضعه في تغاير متواصل مع المتغيرات الأخرى^(١). مقطوعة وجه لباريو (Berio)، أو مقطوعة هنر عتهّي لدياتير شنيبال (Dieter Schnebel)، قد تكونان مثالين نموذجيين بهذا الخصوص. ومهما يقل باريو ذاته، فإن الأمر لا يتعلق بإنتاج سيمولاكر لغة أو مجاز صوت، بواسطة شبه ثوابت، بقدر ما يتعلق بالوصول إلى هذا اللسان المحايد، السري، دون ثوابت، القائم كله في خطاب لا مباشر، حيث يتحدث مرّكب الأصوات الإلكترونية والآلة بقدر ما يتحدث الصوت، ويعزف الصوت بقدر ما تعزف الآلة. لن نفكر أنّ الموسيقى لم تعد تعرف الغناء في عالم أصبح ميكانيكيًا أو درّيًا، إنما نعتقد بالأحرى أنّ معامل تغاير ضخم يؤثر على كلّ الأجزاء التوصيلية، اللاتوصيلية، اللسانية، الشعرية، الأدائية، الموسيقية التي هي أجزاء نفس التنضيد الصائت ويجعلها تنقاد له - «مجرّد صيحة تجتاز كلّ الرتب» (طوماس مان). طرائق تغاير الصوت عديدة، ليس فقط في الترانيم التي لا تفتأ تغادر التنغيم بنزول أو بصعود، إنّما في تقنيات التنفس الدائري، أو مناطق الإصداء حيث يبدو أنّ أصواتا كثيرة تخرج من نفس الفم. تتخذ الألسن السريّة هنا أهمية كبرى، في الموسيقى العالمية كما في الموسيقى الشعبية. موسيقاريّون إنيون استخرجوا حالات استثنائية، على سبيل المثال، في داهوماي، حيث تارة يترك

(١) هكذا يسعى لا بوف إلى تعريف مصطلحه الموسوم بـ «قواعد متغيرة أو اختيارية»، بالتقابل مع القواعد الثابتة: ليس مجرد تواتر ملحوظ، إنما كمية مخصوصة تشير إلى احتمالية التواتر أو تطبيق القاعدة (راجع، التحدث العادي، منشورات ميني، الجزء الثاني، ص ٤٤ وما بعدها).

جزء أوّل دياتونيّ صوتيّ مكانه لانحدار تلوينيّ في لسان سرّيّ، منزلقا من صوت إلى آخر بكيفية متواصلة، محوّلا استرسالا صائتا إلى فواصل متزايدة الصّغر، حتى الالتقاء بـ«تكلّم» تنطمس كل فواصله- وتارة هو الجزء الدّياتونيّ الذي يجد ذاته قد وقع تحويله وفق مستويات تلوينية لبنيان ذي شرفات، الغناء يقطعه التّكلّم أحيانا، إنه مجردّ محادثة دون ارتفاع محدّد^(١). لعلّها [١٢٣] فضلا عن ذلك خاصية للألسن السّريّة، اللّهجات العامية، الرّطانات، اللّغات المهنية، ترانيم الأطفال، صيحات الباعة، ألا تكون قيمتها في ابتكاراتها المعجمية أو صورها البلاغية بقدر ما هي في الطريقة التي تنجز بها تغيّرات متواصلة على العناصر المشتركة للّسان. إنها ألسنة ملوّنة قريبة من ترقيم موسيقيّ. لسان سرّيّ ليس له اصطلاح أو رمز مخفيّ ما يزال يعمل ثبوتيا ويشكّل نظاما فرعيا؛ إنّه يضع في حالة تغيّرات نظام متغيّرات اللّسان العموميّ.

ها هو ما كنّا نوّد قوله: تلوينية معمّمة... وضع أية عناصر كانت موضع تغيّرات متواصل، إنّها عملية لعلّها تجعل تمييزات جديدة تظهر، لكنّها لا تحتفظ بأية واحدة منها على أنها نهائية، ولا تستحوذ على أية واحدة منها بشكل مسبق. على التّقيض من ذلك، مبدئيّا تتعلّق هذه العملية في نفس الوقت بالصّوت والكلام واللّسان والموسيقى. لا سبب يدفع إلى القيام بتمييزات مسبّقة ومبدئيّة. اللّسانيات بعامة لم تغادر بعد نوعا من المّقام الكبير، ضربا من السّلم الموسيقيّ الدّياتونيّ، ميلا غربيا إلى الدّرجات المسيطرة والثوابت والكليّات. في غضون ذلك، كلّ الألسن كائنة في تغيّرات متواصل محايث: لا تزامن ولا تعاقب، بل لا توافقت، تلوينية بما هي حالة متغيّرة ومتواصلة للّسان. من أجل لسانيات تلوينية تمنح الدّرائعية شددها وقيمها.

(١) راجع مقال جيلبار روجيه، «سّلم إفريقيّ ملوّن»، ضمن الإنسان، سبتمبر/أيلول ١٩٦١ (حيث أدرجت أسطوانة «أناشيد طقوسية من داهوماي»).

ما نسمّيه أسلوباً، والذي يمكن أن يكون أكثر الأشياء طبيعية في العالم، هو تحديداً طريقة تَغَايُرٍ مستمرّ. لكن من بين كلّ الثنائيات التي أرسّتها اللّسانيات، قليلة هي الأقلّ وجاهة من تلك التي تفصل اللّسانيات عن الأسلوبية: ليس الأسلوب إبداعاً سيكولوجياً فردياً، إنّما هو تنضيد تَلَفُظ، لن نقدر على منعه من صنع لسان داخل لسان. لتكن قائمة اعتباطية لمؤلّفين نحَبّهم، نذكر مرّة أخرى كافكا، بيكات، غيراسيم لوكا، جان ليك غودار... نلاحظ أنّهم يكادون يكونون في ازدواجية لسانية معيّنة: كافكا يهوديّ تشيكيّ يكتب بالألمانية، بيكات إرلنديّ يكتب في نفس الوقت بالإنجليزية وبالفرنسية، لوكا من أصل رومانيّ، غودار وإرادته أن يكون سويسريّاً. لكن تلك ليست غير مناسبة، فرصة، والفرصة التي لعلّها وُجدت في مكان آخر. نلاحظ أيضاً أنّ الكثير من بين هؤلاء ليسوا كتّاباً وحسب أو ليسوا كتّاباً في المقام الأوّل (بيكات والمسرح أو التّلفاز، غودار والسينما والتّلفاز، لوكا ومكناته السّمعية-البصرية): ذلك أنه عندما نُخضع العناصر اللّسانية لمعالجة تَغَايُرٍ مستمرّ، نتأدّى بالضرورة إلى التّعاطي بنفس الطريقة مع [١٢٤] العناصر غير اللّسانية مثل الحركات والأدوات، كما لو أنّ جانبي التّداولية يلتقيان على نفس خطّ التّغاير وفي نفس الاطراد. أكثر من ذلك، لعلّ الفكرة أتت أوّلاً من الخارج، ولم تفعل اللّغة غير اتّباعها، كما في المصادر الخارجية بالضرورة لأسلوب ما. لكنّ الأساسيّ هو أنّ كلّ واحد من هؤلاء المؤلّفين، له طريقته في المغايرة، له تلوينيّته الموسّعة، له إنتاجه المجنون للسرّعات وللفواصل. التّأناة الإبداعية لغيراسيم لوكا في قصيدة «يَعشُق»^(١). تأناة أخرى هي تأناة

(١) غيراسيم لوكا (Gherasim Luca)، ترنيمة الشّبوط، منشورات الشّمس السوداء؛ والأسطوانة التي طبعها جيفدان (Givaudan)، حيث يلقي غيراسيم لوكا قصيدة «يَعشُق».

غودار. في المسرح، همسات بوب ويلسون (Bob Wilson) التي لا ارتفاع محدّد لها، التّغايّرات الطّالعة والنّازلة لكارملو بيني (Carmelo Bene). التّأتأة يسيرة، لكن أن يكون المرء مُتأتّتا في اللّغة ذاتها، فتلك مسألة أخرى، تضع موضع تغيّير كلّ العناصر اللّسانية وحتى العناصر غير اللّسانية، متغيّرات التّعبير ومتغيّرات المضمون. إنها صورة أخرى للتّرداد. و... و... و. كان ثمة دائما صراع في اللّغة بين الفعل «كان» وأداة الوصل «و»، بين كان ومع. هذان الحدّان لا يتوافقان ولا يتلاءمان إلّا ظاهريّا، لأنّ أحدهما يعمل في اللّغة بوصفه ثابتا ويشكّل السّلم التّغمي للّسان، بينما يضع الآخر كلّ شيء موضع تغيّير، مكوّنا خطوط تلوينية معمّمة. من هذا الحدّ إلى ذاك، ينقلب كلّ شيء. أكثر متّا، الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأمريكية كانوا واعين بهذا الصّراع وبرهانه، وبالقدرة التّكافئية لل«و»^(١). كان بروس يقول: «الرّوائع مكتوبة في ضرب من لسان غريب». هو ذات الشيء والتّأتأة، لكنها تأتأة اللّغة وليست مجرد تأتأة الكلام. أن يكون المرء غريبا، لكن داخل لسانه الخاصّ، وليس فقط مثل شخص يتكلّم لسانا آخر غير لسانه. أن يكون المرء مزدوج اللّسان، متعدّد الألسن، لكن في نفس اللّسان الواحد، دون نفس الكلام الدّارج أو اللّهجة العاميّة. أن يكون المرء لقيطا، خِلاسيّا، لكن بتطهير العرق. ههنا يكون الأسلوب لسانا.

(١) ال«و»، مع، لها دور مهمّ جدّا في الأدب الإنجليزي، ليس بموجب العهد القديم وحسب، لكن بموجب «الأقليات» التي تعرك اللّسان: لنذكر من بين حالات أخرى، حالة سينج (Synge) (راجع، ملاحظات فرانسوا رونيو (François Regnault) حول العطف في الأنغلو-إيرلندية، ترجمة مهرّج العالم الغربيّ، مكتبة الرّسم البيانيّ). لن يقع الاكتفاء بتحليل ال«و» بوصفه أداة وصل؛ إنّهُ بالأحرى شكل خاصّ جدّا من كلّ وُضْل ممكن، ويضع على المحكّ منطقا للّسان. سنجد في كتابات جان فال (Jean Wahl) تأمّلا عميقا بخصوص هذا المعنى الذي لل«و»، بخصوص الكيفية التي يضع بها على المحكّ أوليّة فعل كان.

ههنا تصبح اللّغة اشتدادية، تكون محض اطراد لقيَم وشِدَد. ههنا يصبح كلّ لسان لسانا سرّيّا، ومع ذلك ليس لديه ما يخفيه، عوضا عن نحته [١٢٥] نظاما فرعيا سرّيّا في اللّسان. لا نصل إلى هذه النّتيجة إلّا برصانة وبسلب إبداعيّ. التّغاير المستمرّ ليس له غير خطوط نُسكية، القليل من العشب والماء النّقيّ.

يمكننا تناول أيّ متغيّر لسانيّ، ومُغايرته بين حالتين على خطّ متواصل افتراضيّ بالضرورة. لم نعد في وضعية اللّسانيّين الذين ينتظرون أن تتلقّى ثوابت اللّسان ضربا من التحوّل، أو أن تخضع لمفعول التحوّلات المتراكمة في مجرّد الكلام. خطوط التحوّل أو الإبداع تشكّل جزءً من الممكنة المجرّدة، بشكل تامّ ومباشر. يالمسلاف كان لاحظ أنّ لسانا يتضمّن بالضرورة إمكانات غير مستثمّة، وعلى الممكنة المجرّدة أن تفهم هذه الإمكانيات أو هذه القابليات^(١). بالتّحديد، «الإمكانيّ» أو «الافتراضيّ» لا يتعارض والواقعيّ؛ على النّقيض من ذلك، واقع ما هو إبداعيّ أو التنوع المستمرّ للمتغيّرات هو الذي يتعارض فقط مع التّحديد الحاليّ لعلاقاتها الثّابتة. كلّما رسمنا خطّ تغيّر، تكون للمتغيّرات هذه الطّبيعة أو تلك، طّبيعة صوّاتية، تركيبية أو نحوية، دلالية، إلخ، لكنّ الخطّ ذاته يكون لا متلائما، لا تركيبيا أو لا نحويّا، لا دلاليا. اللّانحويّة على سبيل المثال، لم تعد خاصيّة عرضيّة للكلام تتعارض ونحويّة اللّسان، على النّقيض من ذلك، الخاصية المثالية للخطّ هي التي تضع المتغيّرات النّحوية في حالة تغاير مستمرّ. لنسترجع تحليلا لنيكولا ريووات (Nicolas Ruwet) يتعلّق ببعض التّعبير الشّاذّة لكومّنج (Cummings)، رقص رقصته، أو هم ذهبوا هم جاؤوا. يمكن أن نعيد تركيب التّغايرات التي تمرّ بها المتغيّرات النّحوية افتراضيا للوصول إلى مثل هذه التّعبير اللّانحوية

(١) يالمسلاف، اللّغة، منشورات مينيوي، ص ٦٣ وما يليها.

(قام برقسته، رقص رقسته، رقص ما قام به...، ذهبوا كما جاؤوا، ذهبوا في حال سبيلهم...^(١)).

بالرغم من التأويل البنيوي لريوات، سنتجنب الاعتقاد في أن التعبير اللانمطي تنتجه الصيغ الصحيحة المتعاقبة. هو بالأحرى الذي ينتج تباير الصيغ الصحيحة ويقتلعها من حالتها التي هي حالة ثوابت. التعبير اللانمطي يكون رأس [١٢٦] لا تأرضن اللسان، إنه يلعب دور الموتّر، أي ما يجعل اللسان ينحو باتجاه حدّ لعناصره، صيغه أو مصطلحاته، باتجاه ما دون اللسان أو ما بعده. يُجري الموتّر ضربا من تعدي الجملة، ويجعل الحدّ الأخير يعود على الحدّ السابق، عودا على كامل السلسلة. إنه يؤمن معالجة شدّدية وتلونية للسان. عبارة بسيطة مثل عبارة مع... يمكن أن تلعب دور الموتّر عبر اللغة كلّها. بهذا المعنى، مع ليست وضلا بقدر ما هي التعبير اللانمطي على كلّ ضروب الوصل الممكنة التي يجعلها هذا التعبير في تباير مستمرّ. كذلك لا يقبل الموتّر الاختزال لا في ثابت ولا في متغير، بل يمكن من تباير المتغير مستخلصا في كلّ مرة قيمة الثابت (ن-١). لا تتماهى الموتّرات مع أية مقولة لسانية؛ هي مع ذلك قيم تداولية أساسية بالنسبة إلى تنضيدات التلفّظ كما بالنسبة إلى الخطابات اللّامباشرة^(٢).

(١) نيكولا ريوات، «التوازي والانحرافات في الشعر»، ضمن اللسان، الخطاب، المجتمع، منشورات سوي. يحلّل ريوات القصيد التاسع والعشرين في القصائد الخمسين لكوتمنغ؛ يقدم تحليلا محدودا وبنويًا لظاهرة التباير هذه مستحضرا مصطلح «التوازي»؛ في نصوص أخرى، يضيّق نطاق هذه التبايرات بإرجاعها إلى تمارين هامشية لا تتعلق بالتحوّلات الحقيقية في اللسان؛ ومع ذلك، يظهر لنا أنّ تعليقه ذاته يتخطى كل قيود التأويل هذه.

(٢) راجع، فيدال سفيها (Vidal Sephiha)، «مقدمة لدراسة الشدديّ»، لغات، مارس ١٩٧٠. إنها واحدة من أولى الدراسات حول التوتّرات والتبايرات اللانمطية للغة، مثلما تظهر خاصّة في الألسن المسماة صغرى.

نعتقد أحيانا أنّ هذه التّغايرات لا تعبّر عن العمل العاديّ للإبداع داخل اللّسان، وتظلّ هامشية، حكرًا على الشعراء، على الأطفال والمجانين. ذلك لأنّنا نريد تعريف المكنة المجرّدة بثوابت لا يمكن أن تتغيّر حينئذٍ إلّا بشكل ثانويّ، بمفعول تراكميّ أو بتحوّل سياقيّ. لكنّ مكنة اللّسان المجرّدة ليست كلّية ولا حتى عامّة، إنّها متفرّدة؛ إنّها ليست حالية لكنّها افتراضية- واقعية؛ ليس لها قواعد إجبارية أو ثابتة، لكن لها قواعد اختيارية تتحوّل دون انقطاع مع التّغاير ذاته، كما في لعبة قد تُوجّه فيها كلّ ضربة إلى القاعدة. من هنا التّكامل بين المكنات المجرّدة وتنضيدات التّلّفظ، حضور هذه في تلك. ذلك أنّ المكنة المجرّدة هي بمثابة مِبيان تنزيد. إنّها ترسم خطوط تغيّار مستمرّ، بينما يعالج التّنزيد العينيّ متغيّرات، ينظّم علاقاتها المتنوّعة جدًّا وفق تلك الخطوط. التّنزيد يتداول المتغيّرات في مستوى هذا التّغاير أو ذاك، تبعًا لهذه الدّرجة أو تلك من اللّا تأرضن، ليحدّد تلك التي ستدخل في العلاقات الثابتة أو ستخضع لقواعد إجبارية، تلك التي على النقيض من ذلك ستستخدم مادّة متقلّبة للتّغاير. لن نستنتج من ذلك أنّ التّنزيد يواجه المكنة المجرّدة بمقاومة معيّنة أو بعطالة وحسب؛ إذ حتّى «الثّوابت» أساسية بالنّسبة إلى تحديد الافتراضيات التي يمرّ بها التّغاير، [١٢٧] إنّها هي ذاتها وقع اختيارها إراديًّا. ثمّة كبّح ومقاومة في مستوى معيّن، لكن لم يعد ثمّة في مستوى آخر من التّنزيد غير ذهاب وإياب بين مختلف أصناف المتغيّرات، وغير أروقة عبور تُقطع في الاتجاهين: المتغيّرات كلّها ووفق جملة علاقاتها، تفعل المكنة في نفس الوقت. لا مجال إذًا للتمييز بين لسان جماعيّ وقارّ، وبين أفعال كلام متغيّرة وفردية. المكنة المجرّدة هي دائما مكنة متفرّدة، يشار إليها باسم عَلم، باسم جماعة أو فرد، بينما يكون تنزيد التّلّفظ جماعيًّا دوما، في الفرد كما في الجماعة. مكنة مجرّدة- لينين وتنزيد

جماعي- بولشفيك... الأمر ذاته في الأدب وفي الموسيقى. لا أولية إطلاقاً للفرد، وإنما عدم قابلية مجرد متفرد وعيني جماعي للانحلال. الممكنة المجردة لا توجد مستقلة عن التنضيد أكثر مما يعمل التنضيد باستقلال عن الممكنة.

IV. قد لا نستطيع دراسة اللسان علمياً إلا في ظلّ شروط لسان رئيسي أو عياريّ.

بما أنّ الجميع يعرف أنّ لسانا هو حقيقة متغيرة متنافرة، فما الذي يعنيه مطلب اللسانيين بنحت نظام متجانس لجعل الدّراسة العلمية دراسة ممكنة؟ يتعلّق الأمر باستخلاص مجموعة ثوابت من المتغيرات، أو بتحديد علاقات ثابتة بين المتغيرات (نلاحظ ذلك بوضوح في تبادلية علماء الصّوت). لكنّ النموذج العلميّ الذي يصبح به اللسان موضوع دراسة لا يختلف عن النموذج السياسيّ الذي يكون به اللسان من ناحيته متجانسا، ممرّزا، موحد العيار، لسان سلطة، لسانا رئيسيا أو مهيمنًا. مهما حاول اللسانيّ الانتساب إلى العلم، ولا شيء غير العلم المحض، فقد لا تكون المرّة الأولى التي قد يأتي فيها نظام العلم ليؤمّن مطالب نظام آخر. ما النّحوية، والعلامة الدّالّ، الرّمز المقوليّ الذي يهيمن على الملفوظات؟ إنه مؤشّر سلطة قبل أن يكون مؤشرا تركيبيا، والشّجرات الشومسكية تقيم علاقات ثابتة بين متغيرات السّلطة. تكوين جُمْل نحوية صحيحة، هو بالنّسبة إلى فرد عاديّ، مقدّمة كلّ خضوع للقوانين الاجتماعية. لا أحد يُفترض فيه جهل النّحوية، الذين يجهلونّها ينتمون إلى مؤسسات خاصّة. وحدة لسان ما هي أوّلا وحدة سياسية. لا وجود للسان- أمّ، بل تولّي سلطة من طرف لسان مهيمن، يتقدّم تارة على جبهة واسعة، وينقضّ تارة في آن واحد على مراكز متنوّعة. [١٢٨] يمكن أن نتصوّر طرقا عديدة بها يتجانس

لسان ما ويتركز: الطريقة الجمهورية ليست بالضرورة هي ذاتها الطريقة الملكية، وليست الأقلّ صلابة^(١). لكن المسعى العلميّ في استخراج ثوابت وعلاقات ثابتة يضاعفها دائما المسعى السياسيّ لفرضها على المتكلّمين، ولنقل أوامر.

التكلّم الأبيض وبصوت عال

يا له من لسان رائع

للتشغيل

لإعطاء الأوامر

لتحديد ساعة الموت في العمل

وتحديد الاستراحة التي تنعش...

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) حول امتدادات وتوزيعات حالات اللّسان، تارة في شكل «بقعة زيت»، تارة في شكل «فيالق محمولة جوًّا»، راجع، بارتيل مالمبارغ (Bertil Malmberg)، التّوجّهات الجديدة للّسانيات، المطابع الجامعية الفرنسية، الفصل الثالث (يستحضر الدراسات المهمّة جدًّا لناتان لندكفيست (Natan Lindqvist) حول مبحث اللّهجات). قد يكون من الضّروريّ إذاً إيجاد دراسات مقارنة تخصّص الكيفية التي تتمّ بها مجانسة ومركزة هذا اللّسان الرئيسيّ أو ذاك. بهذا الصّدّد، التاريخ اللّسانيّ للفرنسية ليس هو على الإطلاق نفس تاريخ الأنغليزية؛ العلاقة بالكتابة بوصفها شكل المجانسة ليست هي ذاتها كذلك. بالنسبة إلى الفرنسية بما هي لسان ممرّكز بامتياز، سنعود إلى تحليل ميشال دي سارتو (Michel de Certeau)، جوليا دومينيك (Julia Dominique) جاك رفال (Jacques Revel)، سياسة اللّسان، غاليمار. يتعلّق هذا التّحليل بفترة وجيزة جدًّا، في نهاية القرن الثامن عشر، حول القسّ غريغوار، وتُعيّن مع ذلك لحظتين مختلفتين: الأولى حيث يتعارض اللّسان المركزيّ مع اللّهجات الرّيفية، تعارض المدينة مع الرّيف والعاصمة مع المقاطعات؛ الثانية حيث يتعارض اللّسان مع «الاصطلاحات الإقطاعية»، لكن كذلك مع لغة المهاجرين، تعارض الأمّة مع كلّ ما هو غريب عنها أو مُعاد لها (ص ١٦٠ وما بعدها: «من البديهيّ كذلك أنّ رفض اللّهجات ينتج عن عجز تقنيّ في فهم القوانين الثابتة في الشفهيّ أو في اللّهجات المحليّة»).

إذن، أيتوجّب التمييز بين نوعين من الألسن، «عالية» و«خافتة»، رئيسيّة وثانوية؟ قد يُعرّف بعضها تحديداً بسلطة الثوابت، ويُعرّف البعض الآخر بالقدرة على التّغاير. لا نوّد مجابهة وحدة لسان رئيسيّ بكثرة لهجات وحسب. بالأحرى كلّ لهجة هي التي تجد ذاتها متأثرة بمنطقة انتقال أو تغاير، أو أكثر من ذلك، كلّ لسان ثانويّ هو الذي يجد نفسه متأثراً بمنطقة تغاير لهجيّ بشكل خاص. وفق مالبارغ، نادراً ما نجد حدوداً بيّنة على خارطات اللّهجات، إنّما نجد مناطق متاخمة وانتقالية، مناطق عدم تمايز. يقال أيضاً إنّ «اللّسان الكيبيكيّ ثريّ بالكثير من تعديلاتٍ وتغايرات اللّكنات المحليّة وبحركات النبرات النّغمية، بحيث، مع ذلك ودون مغالاة، يبدو أحياناً أنه قد يقع الحفاظ عليه بشكل أفضل بالترقيم [١٢٩] الموسيقيّ منه بأيّ نظام لقواعد الكتابة^(١)». مصطلح اللّهجة ذاته غامض جدّاً. فضلاً عن ذلك، هو نسبيّ، لأنّه يجب أن نعرف بالنسبة إلى أيّ لسان رئيسيّ هو يمارس وظيفته: على سبيل المثال، اللّسان الكيبيكيّ لا يقع تقويمه فقط بالنسبة إلى فرنسيّة عيارية، إنّما بالنسبة إلى الأنغليزية الرئيسيّة التي يستعير منها كلّ أنواع العناصر الصّوتية والتركيبية حتّى يجعلها متغايرة. لهجات البنتو لا تقوّم فقط بالنسبة إلى لسان-أمّ، إنّما بالنسبة إلى الأفريقيّانية بوصفها لساناً رئيسيّاً، وبالنسبة إلى الأنغليزية بوصفها لساناً ضدّ-رئيسيّ مفضّلاً عند السّود^(٢). باختصار، ليس مصطلح اللّهجة هو الذي

(١) راجع، ميشال لالوند (Michelle Lalonde)، في مجلّة تبادُل، العدد ٣٠، حيث نجد في نفس الوقت القصيدة السّابقة «التكلّم الأبيض»، وبيانا حول اللّسان الكيبيكيّ.

(٢) حول الوضع المعقّد للأفريقيّانية، الكتاب الجميل لبرايتن برايتنباخ (Breyten Breytenbach)، نار باردة، منشورات بورغوا: دراسة ج. م. لوروا (G.M. Leroy) (صص ١٠١-١٠٧) توضّح مسعى برايتنباخ، عنف معالجته الشّعريّة للّسان، إرادته أن يكون «لقيطاً، مع لسان لقيط».

يضيء مصطلح اللسان الثانوي، إنما العكس، اللسان الثانوي هو الذي يحدّد لهجات بإمكانات تغيّره الخاصّة. حينئذ، هل يجب التمييز بين اللسان الرئيسية واللسن ثانوية، أمّا بالتموقع في الوضعية المحلية للسان مزدوج أو لتعددية لسانية تتضمّن على الأقلّ لسانا مهيمنا ولسانا مهيمنا عليه، وأمّا بالنظر في وضعية عالمية تمنح بعض الألسن سلطة إمبريالية بالنسبة إلى غيرها من الألسن (هكذا هو دور الأنغليزية- الأميركية اليوم)؟

سببان على الأقلّ يمنعاننا من تبني وجهة النظر هذه. مثلما يلاحظ ذلك شومسكي، لهجة، لسان غيتو (ghetto) أو لسان ثانوي، لا يفلت من شروط معالجة تستخلص منه نظاما متجانسا وتستخرج منه ثوابت: أنغليزية السود لها بالفعل نحو خاص لا يتحدّد بوصفه مجموعة أخطاء أو إخلالات إزاء الأنغليزية العيارية، لكن بصورة محدّدة، هذا النحو لا يمكن النظر فيه إلّا بإخضاعه لنفس قواعد دراسة نحو الأنغليزية العيارية. بهذا المعنى، مصطلحا رئيسي وثانوي يبدوان غير ذات فائدة لسانية. الفرنسية، بفقدانها وظيفتها الرئيسية العالمية، لا تفقد شيئا من ثباتها وتجانسها ومن تمركزها. عكسيّا، الأفريقانية ربحت تجانسها عندما كانت لسانا ثانويّا محليّا في صراع ضد الأنغليزية. حتى أننا لا نرى جيّدا وخاصة سياسيّا، كيف يمكن لأصحاب لسان ثانوي أن يتصرّفوا، إلّا بمنحه، حتى وإن لم يكن ذلك إلا بالكتابة، الثبات والتجانس اللذين يجعلان منه لسانا رئيسيّا محليّا، لسانا قادرا على انتزاع الاعتراف الرّسميّ به (من هنا الدّور السياسيّ للكتاب الذين [١٣٠] أكّدوا حقوق لسان ثانوي). لكن يبدو أنّ الحجّة المضادة ما تزال لها قيمة أكبر: بقدر ما يكون للسان خواصّ لسان رئيسي أو يكتسب تلك الخواصّ، بقدر ما تعرّكه تغيّرات متواصلة تُحوّله إلى «ثانوي». لا فائدة من نقد الإمبريالية العالمية للسان بشجب المفسد التي يُدخلها في ألسن أخرى (على سبيل المثال، نقد الصّفويين للتأثير

الأنغليزيّ، الشجب البوجادي [اليمينيّ] أو الأكاديمي للـ«فرنغليزية».)
 ذلك أنّ لسانا، مثل الأنغليزية أو الأميركية ليس لسانا رئيسيًا عالميًا
 دون أن يكون معروكا بكل أقليات العالم، بأنماط تغاير متنوّعة جدًا.
 طريقة تُنوّع بها الغيلية (gaélique) والأنغلو-إرلندية، اللّسان
 الأنغليزيّ. طريقة تنوّع بها أنغليزيّة السّود والكثير من «الغيتوات»،
 اللّسان الأميركيّ، حدّ أنّ نيو يورك تكاد تكون مدينة دون لسان (أكثر
 من ذلك، الأميركية لم تتكوّن، في اختلافاتها عن الأنغليزية، دون هذا
 العمل اللّساني للأقليات.) أو كذلك الوضعية اللّسانية في الإمبراطورية
 التّساوية القديمة: الألمانية ليست لسانا رئيسيًا بالنّسبة إلى الأقليات
 دون أن تخضع من جانبهم لمعالجة تجعل منها لسانا ثانويًا بالنّسبة إلى
 ألمانية الألمانين. بيد أنّه ليس ثمة لسان ليس له أقليّاته الدّاخلية،
 الذاتيّة، الدّخلِسانية. بحيث أنّه من زاوية النظر الأعمّ للّسانيّات، لا يفتأ
 موقف شومسكي وموقف لابوف يمرّ أحدهما في الآخر ولا يفتآن
 يتحوّلان. يمكن لشومسكي أن يقول إنّ لسانا حتى وإن كان ثانويًا،
 لهجيّا أو لسان غيتو، لا تمكن دراسته خارج الشّروط التي تستخرج منه
 ثوابت، وتحذف المتغيّرات «الخارجية أو المختلطة»؛ لكنّ لابوف
 يجيب بأنّ لسانا، حتى وإن كان رئيسيًا وعياريّا، فإنّه غير قابل للدراسة
 باستقلال عن التّغايرات «الملازمة»، التي لا هي بالتحديد مختلطة ولا
 هي خارجية. لن تتوصّلوا إلى نظام متجانس لا يكون ما يزال معروكا
 أو كان عُرك بتغاير محايث، مستمرّ ومنّظّم (لَمْ يتظاهر شومسكي بأنّه
 لم يفهم؟).

ليس ثمة بالتّالي نوعان من الألسن، إنّما معالجتان ممكّتان لنفس
 اللّسان. تارة نعالج المتغيّرات بطريقة تجعلنا نستخرج منها ثوابت
 وعلاقات ثابتة، تارة بطريقة تجعلنا نضعها في حالة تغاير مستمرّ. لقد
 كنّا على خطإ أحيانا ونحن نتصرّف وكأنّ الثّوابت كانت توجد إلى
 جانب المتغيّرات، ثوابت لسانية إلى جانب متغيّرات تَلَفُظ: لم يكن

ذلك إلّا من أجل تيسير العرض. إذ من البين أنّ الثّوابت مستخرجة من المتغيّرات ذاتها؛ ليس للكليات من وجود في ذاته في اللّسانيات أكثر ممّا لها في الاقتصاد، وهي مستنتجة دوماً من إضفاء طابع كلّّي أو طابع توحيدّي يتعلّقان بالمتغيّرات. الثّابت لا يتعارض مع المتغيّر، معالجة المتغيّر هي التي تتعارض مع المعالجة الأخرى التي هي معالجة [١٣١] التّغير المستمرّ. القواعد المسماة قواعد إلزامية تتطابق مع المعالجة الأولى، بينما تتعلّق القواعد الاختيارية ببناء أطرادٍ تغيّر. أكثر من ذلك، عدد معيّن من المقولات أو من التّمييزات لا يمكن استحضارها، إنها غير قابلة للتّطبيق ولا للموضعة، لأنّها تفترض سلفاً المعالجة الأولى وهي تابعة بتمامها للبحث في الثّوابت: على هذا التّحو يكون اللّسان من حيث أنّا نقابل بينه وبين الكلام؛ بين التّزامنيّ والتّعاقيبيّ؛ بين الكفاءة والأداء، بين السّمات التّمييزية والسّمات غير التّمييزية (أو التّمييزية ثانويّاً). ذلك أنّ السّمات غير التّمييزية، التّداولية، الأسلوبية، التّنغميّة، ليست فقط متغيّرات دائمة الحضور تتمايز عن حضور أو عن غيابٍ ثابت، عن عناصر خطيّة تضافيّة & و «فوقأقسومية» تتمايز عن العناصر الأقسوميّة الخطيّة: خاصياتها ذاتها تمنحها القدرة على وضع كلّ عناصر اللّسان في حالة تغيّر مستمرّ— هكذا تأثير النّغمة على الظّاهرات، النّبرات على الصّرافم، التّرنيم على التّركيب. إنها ليست إذا سمات ثانوية، لكنها معالجة أخرى للّسان، لم تعد تمرّ بالمقولات السّابقة.

«رئيسيّ» و«ثانويّ» لا ينعان لسانين، بل ينعان استعمالين للّسان أو وظيفتين له. الأكّد أنّ لازدواجية اللّسان قيمةً نموذجيّة، لكن، هنا أيضاً، لمجرّد التيسير. لا شكّ، في الإمبراطورية التّمسّاوية، التشيكية لسان ثانويّ بالنّسبة إلى الألمانية؛ لكنّ ألمانية براغ تعمل بالفعل بوصفها لساناً قابلاً لأن يكون ثانويّاً بالنّسبة إلى لسان فيانّا أو برلين؛ وكافكا، يهوديّ تشيكيّ يكتب بالألمانية، إنها الألمانية التي يُخضعها

لمعالجة إبداعية للسان ثانوي، بانبا باطراد تغايراً، مُحاوَرًا كلَّ المتغيّرات حتى يحصر في نفس الوقت الثوابت ويمدّد المتغيّرات: جَعَلَ اللّسان يُتَأَتَّى أو جَعَلَهُ «يُقَوِّقًا»... مَدُّ موثّرات داخل اللّسان كلّهُ، حتى وإن كان مكتوباً، ومنه استخراج صرخات، صيحات، ارتفاعات، مُدَدًا، جَرَسِيَّات، نبرات، شِدداً. غالباً ما عايَنا اتجاهين متلازمين للالسن المسمّاة ألسنا ثانويّة: تفقير وضياح للأشكال التركيبية أو المعجمية؛ لكن في نفس الوقت انتشار غريب للمفاعيل المتغيّرة، ميل إلى الشّحن المفرط للّسان والإسهاب في تفسيره. يمكن أن نقول ذلك أيضاً عن ألمانية براغ، عن أنغليزية السّود أو عن الكيبكية. لكن، ما عدا استثناءات نادرة، تأويل اللّسانيين كان بالأحرى تأويلاً ماكرًا، يستدعي فقراً وحذلقة متّحدّين جوهريّاً. الفقر المزعوم هو في واقع الأمر حصر للثوابت مثلما الشّحن المفرط امتداد للتّغايرات من أجل بسط اطّراد يكتسح كلّ المكوّنات. هذا [١٣٢] الفقر ليس عَوْزاً بل هو خلاء أو حذف إيجازيّ يجعلاننا نتفادى ثابتاً دون أن ندخل فيه، أو نقاربه من فوق أو من تحت دون أن نستقرّ فيه. وهذا الشّحن المفرط ليس صورة بلاغية، مجازاً أو بنية رمزية، إنه إسهاب متحرّك يعبر عن الحضور الّلا متموقع لخطاب لا مباشر صلب كل ملفوظ. نشهد من الجانبيين رفضاً للمعالم المرجعية، تفكّكا للشّكل الثابت لصالح فروق في الدينامية. وبقدر ما يدخل لسان في هذه الحالة، بقدر ما يكون أقرب، ليس فقط من ترقيم موسيقيّ، إنّما من الموسيقى ذاتها^(١).

(١) حول المظهر المزدوج للالسن الثانوية، الفقر- الحذف الإيجازيّ، الشّحن المفرط- التّغاير، سنعود إلى عدد معيّن من التّحليلات التّموجية: تحليل واغنباخ (Wagenbach) لألمانية براغ في مستهلّ القرن العشرين (فرانز كافكا، سنوات الشّباب، منشورات ماركير دي فرانس)؛ تحليل بازوليني الذي يبيّن أنّ الإيطالية لم تُبْنَ على مستوى عياريّ أو متوسط، لكنّها انفجرت في اتجاهين متزامنين، «باتّجاه الأسفل وباتّجاه الأعلى»، موادّ مبسّطة ومبالغة تعبيرية (التجربة

الاقطاع والوضع موضع مغايرة، الاجتزاء والوضع موضع مغايرة، هما العملية الواحدة نفسها. ليس ثمة فقر وشحن مفرط قد يميزان الألسن الثانوية بالنسبة إلى لسان رئيسي أو عياري؛ ثمة اتزان وتغاير هما بمثابة معالجة ثانوية للسان العياري، بمثابة تصير - ثانوي للسان الرئيسي. ليس المشكل مشكل تمييز بين لسان رئيسي ولسان ثانوي، إنما مشكل صيرورة. لا تتعلق المسألة بإعادة الأرضنة على لهجة أو على لهجة محلية، إنما بلا أرضنة لسان رئيسي. السود الأميركيون لا يعارضون الأنغليزية بالأسود، إنهم يصنعون من الأميركيكية التي هي لسانهم الخاص لغة للسود. الألسن الثانوية لا توجد في ذاتها: إنها لا توجد إلا بالنسبة إلى لسان رئيسي، إنها استثمارات كذلك لهذا اللسان حتى يصبح هو ذاته لسانا ثانويًا. على كل واحد أن يجد اللسان الثانوي، اللهجة أو بالأحرى اللهجة، التي انطلاقا منها سيجعل لسانه الرئيسي لسانا ثانويًا. هي ذي قوة المؤلفين الذين نسميهم «أقليين»، والذين هم الأعظم، [١٣٣] هم العظماء دون سواهم: لهم أن يكتسبوا لسانهم الخاص، أي أن يصلوا إلى هذا الاتزان في استعمال اللسان الرئيسي ليضعوه في حالة تغاير مستمر (نقيض النزعة المحلية). في

الزائفة، منشورات بايو، صص ٤٦ - ٤٧)؛ تحليل جوي لي ديلا (Joey Lee Dillard)، الذي استخلص النزوع المضاعف لأنغليزية السود، من ناحية، النزوع إلى الحذف، التبديد أو التخلص من، من ناحية أخرى، النزوع إلى الشحن المفرط، إلى بناء «كلام منقّ» (أنغليزية السود، منشورات الكتاب الكلاسيكي، نيويورك). مثلما يلاحظ ديلا ذلك، ليس ثمة هنا أية دونية بالنسبة إلى لسان عياري، إنما ثمة تضائف حركتين تفلتان حتما من المستوى العياري للسان. دائما بخصوص أنغليزية السود، يبين لوروا يونس (LeRoi Jones) إلى أي حدّ يقرب هذان المنزعان المقترنان اللسان من الموسيقى (شعب البلوز، غاليمار، صص ٤٤ - ٤٥ وكامل الفصل الثالث). بشكل أعمّ، ستذكّر التحليل الذي قام به بيار بولاز لحركة موسيقية مضاعفة، تفكيك الشكل، شحن مفرط أو انتشار ديناميّان: إراديا وتصادفيا، منشورات سوي، صص ٢٢ - ٢٤.

لسانه الخاص يكون المرء مزدوج اللسان أو متعدّد الألسن. تطويع اللسان الرئيسيّ لرسم فيه ألسنا ثانوية ما تزال مجهولة. استعمال اللسان الثانويّ لتميرير اللسان الرئيسيّ. المؤلّف الأقلّي هو الغريب داخل لسانه الخاصّ. إذا كان لقيطاً، إذا كان يحيا كلقيط، فما ذلك نتيجة لامتزاج أو اختلاط الألسن، إنّما بالأحرى نتيجة ما يجريه من اقتطاع وتغيّير في لسانه، نتيجة ما يمدّ فيه من المؤثرات.

مصطلح معقّد جدّا هو مصطلح الأقلية، بإحالاته الموسيقية، الأدبية، اللسانية، لكن كذلك القضائية والسياسية. الأقلية والأغلبية لا يتعارضان بكيفية كمّية وحسب. تتضمّن الأقلية ثابتاً تعبيرياً أو مضمونياً، هو بمثابة متر- عيار تقوم ذاتها بالنسبة إليه. لنفترض أنّ الثابت أو العيار هو إنسان- أبيض- ذكر- راشد- قاطن مدن- متكلّم لسان عياريّ- أوروبّي- أيّ متغايّر جنسيّ (أوليس جويس أو عزرا بوند). من البديهيّ أنّ «الإنسان» له الأغلبية، حتى وإن كان أقلّ عدداً من البعوض، من الأطفال، من النساء، من السّود، من المزارعين، من المثليين...، ذلك أنه يظهر مرّتين، مرّة في الثابت ومرّة في المتغيّر الذي نستخرج منه الثابت. نفترض الأغلبية حالة سلطة وهيمنة وليس العكس. إنها نفترض المتر- العيار وليس العكس. حتى الماركسية «عبّرت تقريباً بشكل دائم عن الهيمنة من زاوية نظر العامل القوميّ، المختصّ، الذّكر والذي تفوق سنّه الخامسة والثلاثين»^(١). تحديد آخر غير تحديد الثابت سيقع النّظر إليه بوصفه أقلّيّاً، بالطبيعة وأيّاً كان عدده، أي بوصفه نظاماً فرعياً أو خارج النظام. نلاحظ ذلك بوضوح في كلّ العمليات، الانتخابية أو غيرها، حيث يقع تمكيننا من الاختيار، شرط أن يبقى اختيارنا مطابقاً لحدود الثابت («ليس لكم أن تختاروا تغيير المجتمع...»). لكن، عند

(١) يان موليه (Yann Moulier)، توطئة كتاب ماريو ترونتي (Mario Tronti)، عمّال ورأس مال، منشورات بورغوا.

هذه النقطة، ينقلب كل شيء. ذلك أنّ الأغلبية، من حيث أنها متضمنة تحليليًا في العيار المجرد، فإنّها دائماً لا أحد، إنّها دائماً أحد ما-أوليس-، بينما الأقلية هي صيرورة الجميع، صيرورتهم الكامنة شريطة انحرافهم عن النموذج. ثمّة «واقع حال» أغلبيّ، لكنه واقع حال تحليليّ للا أحد، هو الذي يواجه التّصير-أقلّيًا للجميع. لذلك علينا أن نميّز: الأغلبيّ بوصفه النّظام المتجانس والثابت، الأقلّيات بوصفها أنظمة فرعية، والأقلّيّ بوصفه صيرورة [١٣٤] كامنة ومبتكرة، مبتكرة. لا يتمثل المشكل أبداً في اكتساب الأغلبية، حتى بإقامة ثابت جديد. ليس ثمّة صيرورة أغلبية، الأغلبية ليست صيرورة على الإطلاق. ليس ثمّة صيرورة إلّا وهي أقلّية. النّساء، أيّا كان عددهنّ، هنّ أقلّية يمكن تعريفها بوصفها حالة أو مجموعة فرعية؛ لكنهنّ لا يبدعن إلّا بجعل صيرورة ما ممكنة، صيرورة لا يمتلكن خاصيتها، عليهنّ هنّ ذواتهنّ أن يدخلن إليها، التّصير- امرأة يخصّ الإنسان برمته، بما في ذلك الرّجال والنّساء. نفس الشيء بالنّسبة إلى الألسن الثانوية: إنّها ليست مجرد ألسنة فرعية، لهيئات أو لهجات، إنّما هي فواعل كامنة لإدخال اللّسان الرّئيسيّ بكلّ أبعاده وبكلّ عناصره في التّصير أقلّيًا. سنميّز بين ألسن ثانوية، اللّسان الرّئيسيّ وتّصير اللّسان الرّئيسيّ لسانا ثانويًا. بالطبع، الأقلّيات هي حالات يمكن تحديدها موضوعيًا، حالات لسان وعرق وجنس، مع إقليميَّاتها التي هي إقليميَّات غيتو؛ لكن يجب النظر إليها كذلك بوصفها بذورا، بلّورات صيرورة لا قيمة لها إلّا ببعث حركات منفلّته ولا تأرضنات للمتوسّط أو للأغلبية. لذلك كان بازوليني يبيّن أنّ الأساسيّ، تحديداً في الخطاب اللّا مباشر الحرّ، لم يكن لا في لسان أ، لا في لسان ب، إنّما في «لسان س»، الذي ليس هو غير اللّسان أ وهو بصدد التّصير فعليًا لسانا ب^(١). ثمّة صورة كلية للوعي الأقلّيّ،

(١) ييار باولو بازوليني، التجربة الرّائعة، ص ٦٢.

بوصفه صيرورة الجميع، وهذه الصيرورة هي الإبداع. ولا نصل هذا الإبداعَ باكتساب الأغلبية. صورة الوعي تلك، هي بالتحديد التّغايّر المستمرّ بوصفه غزارة لا تفتأ تفيض بالزيادة وبالنقصان على العتبة التمثيلية للعيار الأغلب. بإقامة صورة وعي كلّيّ أقلّي، نتوجّه إلى قوى صيرورة تنتمي إلى مجال آخر غير مجال السّلطة والهيمنة. التّغايّر المستمرّ هو الذي يشكّل تصوّر الجميع أقلّيًا، في تعارض مع واقع الحال الأغلبيّ لأيّ كان. التّصوّر أقلّيًا بوصفه صورة كلّية للوعي يسمّى استقلالية. الأكّد أنه ليس باستعمال لسان أقلّي بوصفه لهجة، باستعمال المحليّة أو الغيتو، نصبح ثوريين؛ باستعمال الكثير من عناصر الأقلية، يربط هذه العناصر ومزاوجتها، نبتكر صيرورة مخصوصة مستقلّة وطارئة^(١).

[١٣٥] المنوال الأغلبيّ والمنوال الأقلّي هما معالجتان للّسان، يتمثّل أحدهما في استخراج الثّوابت من اللّسان ويتمثّل الآخر في وضعه في تَغايّر مستمرّ. لكن من حيث أنّ الأمر هو متغيّر التّلَفْظ الذي يقوم شرطًا للّسان ويحدّد استعمال العناصر وفق هذه المعالجة أو تلك، فإنّه تجب العودة إلى الأمر، وكأنّها عودة إلى «الميتا- لغة» الوحيدة القادرة على أخذهما معا في الاعتبار، هذه الوجهة المزدوجة وهذه المعالجة المزدوجة للمتغيّرات. إذا كان مشكل وظائف اللّغة قد طُرِحَ بشكل عامّ طرحا سيّئًا، فلأنّنا تركنا جانبًا هذا المتغيّر الذي هو الأمر، الذي يستلحقّ كلّ الوظائف الممكنة. طبقا لإشارات كانتّي، بإمكاننا

(١) راجع، بيان «الجماعيّ الإستراتيجيّ» بخصوص اللّسان الكيبكيّ، ضمن مجلّة غَيّر، العدد ٣٠: يشجب البيان «ميثة اللّسان الهدّام»، كما لو أنّها كانت تكفي حالة أقلية ليكون ثمة لهذا السّبب موقف ثوريّ («هذه المعادلة الآلية تتعلّق بتصور شعبيّ للّسان. (...) ليس لأنّ فردا يتكلّم لسان الطّبقة العاملة معناه أنه يتبنّى مواقف هذه الطّبقة. (...) الأطروحة القائلة إنّ اللّهجة الجوّالية تملك قوّة هدامة، ضد- ثقافية، هي أطروحة مثالية تماما»، ص ١٨٨).

الانطلاق من الوضعية التداولية التالية: الأمر حكم بالموت، إنه يتضمّن دائماً مثل هذا الحكم، حتى وإن كان ملطفاً جدّاً، وقد أصبح رمزياً، مُسارّياً، مؤقتاً... إلخ. يحمل الأمر موتاً مباشراً لمن يتلقّى الأمر، أو موتاً محتملاً إذا لم يمتثل، أو كذلك موتاً عليه أن يسبّبه هو ويحمله إلى موضع آخر. أمر أب لابنه، «ستقوم بهذا»، «لن تقوم بذلك»، هذا الأمر يتأبّى عن الانفصال عن الحكم الصّغير بالموت الذي يستشعره الابن في نقطة ما من شخصه. موت، موت، ذلك هو الحكم الوحيد، وما يجعل من الحكم نظاماً. إنه قرار حكم. لكنّ الأمر هو كذلك شيء آخر مرتبط به ارتباطاً وثيقاً: إنه مثل نداء استغاثة أو رسالة هروب. قد يكون من البسيط جدّاً القول إنّ الهروب هو ردّة فعل ضدّ الأمر؛ إنه بالأحرى متضمّن فيه، إنه بمثابة وجهه الآخر في تنضيد معقّد، إنه مكوّنه الآخر. كانتني على حقّ في استدعاء زئير الأسد الذي يعبر عن الهروب والموت في آن^(١). للأمر صبغتان. يتلقّى النبيّ الأوامر وهو يهرب بقدر تمنّيه الموت: النّبوة اليهودية وحدّت بين تمنّي الموت والاندفاع إلى الهرب من الأمر الرّبّانيّ.

لكن إذا نظرنا في الوجه الأوّل للأمر، أي في الموت بوصفه منطوق الملفوظ، فإنّنا نلاحظ جيّداً توافقه مع المتطلّبات السّابقة: مهما تعلّق الموت أساسيّاً بالأجساد، مهما نُسب إلى الأجساد، فإنه يدين لمباشريته وآنيته، بالخاصية الأصلانيّة لتغيير [١٣٦] لا جسديّ. ما يسبقه وما يلحقه يمكن أن يكونا منظومة طويلة من الأفعال والانفعالات، عملاً بطيئاً للأجساد؛ في حدّ ذاته، الموت لا هو فعل ولا هو انفعال، بل هو محض حدث، محض تغيير يوحد التلقّف بينه

(١) ألياس كانتني، الكتلة والافتقار. (راجع الفصلين الأساسيين الموافقين للأمر، «الأمر» و«انقلاب العين»؛ وخاصة صص ٣٣٢-٣٣٣، توصيف الحجّ إلى مكّة، مع وجهه المقنّن المضاعف، التحجّر المأمنيّ والهروب المذعور.)

وبين الملفوظ، إنه إصدار حكم. هذا الرَّجُل قد مات... أنت قد متّ فعلا لحظة تلقّيك للأمر... الموت قائم بالفعل في كلّ مكان بوصفه هذا الحدّ المنيع والفكرانيّ الذي يفصل بين الأجساد، بين أشكالها وحالاتها، وبوصفه الشرط، حتى وإن كان الشرط المُسارّيّ، حتى وإن كان الشرط الرّمزيّ الذي يجب أن تمرّ به الذات لتغيّر شكلها أو حالتها. بهذا المعنى يتحدّث كانتّي عن «تساكس الشكليّ»: نظام يحيل على سيّد ثابت وتراتيبيّ، يشرّع في كلّ لحظة بواسطة ثوابت، مانعا أو محدّدا بشكل دقيق انقلابات العين، محدّدا للأشكال حافات بيّنة وثابتة، مواجهها بين الأشكال مثني مثني، فارضا على الدّوات أن تموت حتى تمرّ من شكل إلى آخر. دائما بشيء ما لا جسديّ ينفصل جسد عن جسد آخر ويختلف عنه. الصّورة من حيث أنّها منتهى جسد، هي الصّفة الغير جسدية التي تحدّه وتنتهي: الموت هو الشّكل: بموت ينتهي جسد ليس في الزّمن وحسب، بل في المكان، وتُشكّل خطوطه حافة وتحصرها. ثمّة أمكنة ميّنة كما ثمّة أزمنة ميّنة. «معاودة التّساكس الشكليّ تقود إلى تقليص العالم (...).؛ لعلّ الموانع الاجتماعية لانقلاب العين هي أهمّ الموانع جميعها (...). إنّهُ الموت ذاته هو الذي نوسّطه بين الطّبقات، وهو أشدّ الحدود صرامة.» في مثل هذا النّظام، يطلب كلّ جسد جديد تشييد شكل قابل للمواجهة كما تكوين ذوات متمايزين: الموت هو التّغيير اللّا جسديّ العامّ الذي يُنسب إلى كلّ الأجساد من جهة صورها وموادّها (على سبيل المثال، جسد الحزب لن يتفكّك دون عملية تّساكس شكليّ، ودون تكوين مناضلين جدد يفترضون إلغاء جيل أوّل).

صحيح أنّنا نستدعي هنا اعتباراتٍ مضمون بقدر ما نستدعي اعتباراتٍ تعبير. بالفعل، في اللّحظة ذاتها التي يتمايز فيها المسطّحان أشدّ التّمايز، مثل نظام الأجساد ونظام العلامات داخل تنضيد، فإنهما ما يزالان يحيلان إلى افتراضهما المتبادّل. التّغيير اللّا جسديّ هو

منطوق الأوامر، لكنه صفة الأجساد كذلك. ليست المتغيرات اللسانية للتعبير فقط، لكن كذلك المتغيرات غير اللسانية للمضمون، هما اللتان تدخلان بالتناوب في علاقات تعارض أو تمايز شكلانيّين، علاقات قادرة على استخراج ثوابت. مثلما يشير إلى ذلك يالمسلاف، بنفس الطريقة ينقسم تعبير إلى وحدات صوتية مثلا، وينقسم مضمون إلى وحدات فيزيائية، حيوانية [١٣٧] أو اجتماعية («عجل» ينقسم إلى بقريّ- ذكر- صغير^(١)). شبكة الثنائيات والتشجّرات، تنطبق على الجانبين. ومع ذلك ليس ثمة تشابه، ولا تطابق أو تماثل تحليليّ للمسطّحين. لكن استقلاليتهما لا تستبعد تشاكلهما، أي وجود نفس الضرب من العلاقات الثابتة من الجانبين. وهذا الضرب من العلاقات هو الذي يجعل منذ البداية العناصر اللسانية وغير اللسانية غير قابلة للانفصال رغم غياب تناظرهما. في ذات الوقت ستمنح عناصر المضمون حافات بيّنة لأخلاط الأجساد، وستمنح عناصر التعبير سلطة قرارات أو أحكام للمنطوقات غير الجسدية. لكلّ هذه العناصر درجات تجريد ولا تأرضن مختلفة، لكنّها تُجري في كلّ مرّة إعادة أرضنة للتّضيد بأكمله، على هذه الأوامر وعلى هذه الحافات. حتى أنّ ذلك هو معنى مذهب الحكم التركيبيّ، كونه بيّن أنه كان ثمة رابطة قبليّة (تُشاكل) بين القرار والشكل، بين صورة التّعبير وصورة المضمون.

لكن لو نظرنا في الوجه الآخر للأمر الذي هو الهرب وليس الموت، يظهر أنّ المتغيرات تدخل صلبه في حالة جديدة هي حالة

(١) لقد رأينا أنّ يالمسلاف كان يفرض شرطا حصريّا، شرط التّماثل بين مسطّح المضمون وضرب من «المدلول». بالتّالي منتقدوه على حقّ في معارضته بالقول إنّ تحليل المضمون بالشكل الذي يقترحه، لا يعود إلى اللّسانيات بقدر ما يعود إلى مباحث أخرى، إلى علم الحيوان على سبيل المثال (كذا مارتنيه، اللّسانيات، منشورات دنويل، ص ٣٥٣). لكن هذا الاعتراض يبدو لنا أنه موجه فقط ضدّ الشرط الحصريّ ليالمسلاف.

التّغايير المستمرّ. الآن يبدو تجاوز الحدّ بمثابة تغيير لا جسديّ لا يفتأ يُعزى مع ذلك إلى الأجساد: إنها الطّريقة الوحيدة، ليس لإلغاء الموت وإنّما لتقليصه أو لنجعل منه هو ذاته تغيّراً. في نفس الوقت تكون اللّغة مدفوعة بهذه الحركة التي تجعلها تنحو باتّجاه حدودها الخاصّة، والأجساد، تتملّكها حركة انقلابٍ عين مضمونها، أو يتملّكها الإنهاك الذي يجعلها تصل إلى منتهى أشكالها أو إلى تجاوزها. قد يكون ثمة مجال للتّعارض هنا بين علوم ثانويّة وعلوم رئيسيّة: على سبيل المثال اندفاع الخطّ المنكسر باتّجاه المنحني، هندسة إجرائية بأكملها للخطّ وللحركة، علم براغماتي للمُغايّرات، يعمل بشكل مغاير للعلم الرئيسيّ أو المَلَكِيّ لأقليديس، ويجتاز تاريخاً طويلاً من الرّيبة وحتى من القمع (سنعود إلى هذه المسألة). شيطانيّ دائماً هو أصغر فاصل: سيّد انقلابات العين يتعارض والمَلَك التراتبيّ الثابت. وكأنّ مادّة كثيفة قد تحرّرت، أطراد تغيّرت، هنا في موثّرات اللّسان الدّاخلية، هناك في توتّرات [١٣٨] المضمون الدّاخلية. فكرة أصغر فاصل لا تقوم بين أشكال لها نفس الطّبيعة، إنّما تتضمّن على الأقلّ المنحني والمستقيم، الدّائرة والمُماسّ. نشهد تغييراً للموادّ وتحلّلاً للصور، تَجَاوُز الحافات للحدّ أو إفلاتها، لصالح قوى سائلة واندفاعات وهواء وضوء ومادّة، تجعل جسداً أو كلمة لا يتوقّفان عند أية نقطة محدّدة. قدرة لا جسدية لهذه المادّة الكثيفة، قدرة مادية لهذا اللّسان. مادّة أكثر مباشرة، أكثر ميوعة واحتداماً من الأجساد والكلمات. في التّغايير المستمرّ لم يعد حتّى من المتاح التّمييز بين صورة تعبير وصورة مضمون، بل التّمييز بين مسطّحين حتى وإن كانا متلازمين في افتراض متبادل. الآن، نسبة التّمييز بينهما قد تحقّقت بالتّمام على مسطّح القِوام حيث يصبح اللّاتأرض مطلقاً وهو يكتسح التّضيد. المطلق مع ذلك لا يعني هنا اللّا تمايز: الفروق وقد أصبحت «لا متناهية الصّغر»، ستتمّ في المادّة الواحدة نفسها التي ستقوم مقام التعبير بوصفه قدرة لا جسدية، لكن

ستقوم كذلك مقام المضمون بوصفه جسدية لا حدود لها. متغيرات المضمون والتعبير لم تعد قائمة في علاقة الافتراض المسبق الذي ما زال يتطلب صورتين: وضع المتغيرات موضع مغايرة مستمرة، يقوم بالأحرى بالتقريب بين الصورتين، بالوصل بين طرفي اللاتأرض من هذا الجانب كما من الجانب الآخر، على نفس مسطح المادة المحررة، التي لا أشكال لها، غير المتشكلة قصدا، التي لا تستبقي على وجه الدقة غير تلك الأطراف، تلك المؤثرات أو التوترات في التعبير كما في المضمون. الحركات والأشياء، الأصوات والتغيمات، تملكها نفس «الآثار»، تستحوذ عليها المفاعيل المتحوّلة للتأناة، للتهديد، للارتجاف وللتدقق. مرّكب الأصوات الإلكترونيّ يضع موضع تغاير مستمرّ كلّ الثوابت ويؤدّي تدريجيّا إلى جعل «عناصر متنافرة بالأساس، تنتهي إلى تحوّل أحدها في الآخر بطريقة ما». ثمّة مادّة مشتركة مذ يكون ثمّة ذلك القران. ههنا فقط نصل إلى المكنة المجردة أو إلى مبيان التنّضيد. لقد حلّ مرّكب الأصوات الإلكترونيّ محلّ الحكم، كما حلّت المادّة محلّ الشكل أو محلّ المادّة المتشكّلة. لم يعد حتى من المناسب تجميع شِدّد طاقة، فيزيائية- كيميائية، بيولوجية من ناحية، ومن ناحية أخرى تجميع شِدّد سيميائية، إبلاغية، لسانية، إستيطيقية، رياضية. إلخ. كثرة منظومات الشّدّد تتضافر، تتجذّر على التنّضيد بأكمله، منذ اللحظة التي تستحوذ فيها عليه هذه المتّجّهات أو توتّرات الإفلات. ذلك أنّ السّؤال لم يكن: كيف السّبيل إلى الإفلات من الأمر؟ - إنّما كيف السّبيل إلى الإفلات من الحكم بالإعدام، كيف السّبيل إلى منع الإفلات من [١٣٩] الرّجوع إلى المتخيّل، أو من السّقوط في ثقب أسود، كيف السّبيل إلى المحافظة على الإمكان الثّوريّ للأمر أو كيف تحريره؟ هوفمانستال (Hofmannsthal) يوجّه إلى نفسه هذا الأمر «ألمانيا، ألمانيا!»، إنها الحاجة إلى إعادة الأرضنة حتّى في «مرآة سوداوية». لكن تحت هذا الأمر هو يسرّب أمرا آخر: كأنّ «الصّور»

الألمانية القديمة كانت مجرد ثوابت امّحت الآن لتشير إلى علاقة مع الطبيعة ومع الحياة، علاقة أكثر عمقا بقدر ما هي متغيرة- في أية حالة يجب أن تكون هذه العلاقة مع الحياة تَصْلُبًا، في أية حالة يجب أن تكون خضوعا، في أية لحظة يتعلّق الأمر بالثورة، في أية لحظة يجب الاستسلام أو اللامبالاة، ومتى يجب أن يكون الكلام جافًا، متى يجب أن يكون الكلام فيضا أو تسلية^(١)؟ أيّا كانت القطيعات أو التوقّفات، وحده التّغايير المستمرّ سيستخلص هذا الخطّ الافتراضيّ، هذا الاطراد الافتراضيّ للحياة، «العنصر الأساسيّ أو الواقع من وراء اليوميّ». في فيلم لهرزوغ (Herzog)، ثمة ملفوظ رائع. تقول الشخصية الأساسية في الفيلم وهي تطرح على نفسها سؤالاً: من سيقدم إجابة على هذا السؤال؟ ليس ثمة سؤال، فعليًا، لا نجيب البتة إلّا على إجابات. نجيب على الإجابة المعروفة مسبقًا في سؤال (استجواب، مناظرة، استفتاء، إلخ.)، نعارض بأسئلة متأتية من إجابة أخرى. نستخرج أمرا من أمر. في الأمر، على الحياة أن تجيب على إجابة الموت، ليس بالهرب، إنّما بجعل الإفلات يعمل ويبدع. ثمة كلمات عبور تحت الأوامر. كلمات قد تكون بمثابة عبور، مكوّنات عبور، بينما تُعيّن الأوامر توقّفات، تكوينات تراتبية ومنتظمة. نفس الشيء، نفس الكلمة لها دون شكّ هذه الطبيعة المضاعفة: يجب استخراج هذه الطبيعة من تلك- تغيير تكوينات الأمر إلى مكوّنات معابر.

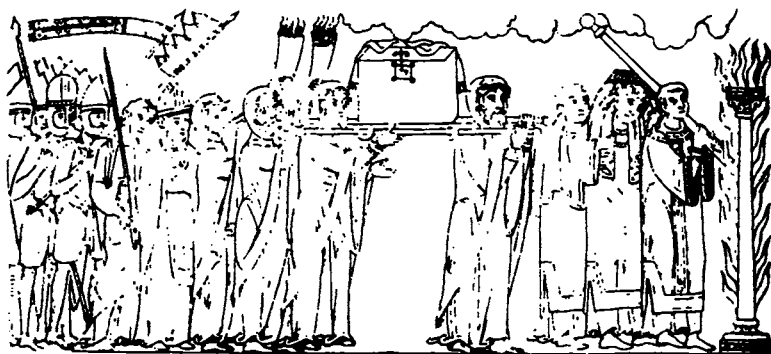
(١) راجع، تفاصيل نص هوفمانشتال في رسائل مسافر عند عودته (رسالة ٩ مايو ١٩٠١)، منشورات ماركير دي فرانس.

٥٨٧ قبل الميلاد - ٧٠ بعده -

[١٤٠]

حول بعض أنظمة العلامات

أمر الإسرائيليين بالسَّير



نظام جديد

نسمي نظام علامات كل شكلة لتعبير مخصوص، على الأقل في الحالة التي يكون فيها التعبير لسانيا. نظام علامات يكون سيميائية. لكن يبدو من العسير النظر في السيميائيات في حد ذاتها: بالفعل، ثمة دائما صورة للمضمون، ملازمة لصورة التعبير ومستقلة عنها في نفس الوقت؛ والصورتان تحيلان على تنضيدات ليست لسانية بشكل رئيسي. غير أنه بإمكاننا التصرف وكأن شكلة التعبير كانت مستقلة وكافية. إذ، حتى في ظل هذه الظروف، ثمة مثل هذا التنوع في صور التعبير، هذا المزيج من هذه الصور، بحيث لا يمكننا أن نعير أية أفضلية خاصة

للصورة أو لنظام «الدالّ». إذا سمينا سميولوجيا السيميائية الدالة، فإنّ السميولوجيا ليست غير نظام علامات من بين أنظمة أخرى، وليس هو أهمّها. من هنا ضرورة العودة إلى تداوليّة، حيث لا كليّة أبداً للغة في [١٤١] ذاتها، لا وجود لشكلنة كافية وعامة، لا وجود لسميولوجيا ولا لميتا- لغة عامّتين. إذا، دراسة نظام الدالّ أولاً هي التي تشهد على عدم تلاؤم المفترضات اللسانية، وذلك باسم أنظمة العلامات ذاته.

النظام الدالّ للعلامة (العلامة الدالة) له صيغة عامّة بسيطة: تحليل العلامة على العلامة، ولا تحليل إلّا على العلامة إلى ما لا نهاية. لذلك يمكننا حتى الاستغناء إلى حدّ ما عن مصطلح العلامة، بما أنّنا لا نحفظ أساسيّاً بعلاقتها بواقع حال تشير إليه ولا بوحدة تدلّ عليها، إنما فقط بالعلاقة الصّورية للعلامة مع العلامة من حيث أنها تعرّف سلسلة تُسمّى سلسلة دالة. لا محدودية التّمعني عوّضت العلامة. عندما نفترض أنّ التّأشير (هنا، جملة التّسمية والدلالة) يشكّل بالفعل جزءاً من التّضمين، حينها نكون في صُلب هذا النّظام الدالّ للعلامة. لا نهتمّ تخصيصاً بالأمارات، أي بالأوضاع الإقليميّة التي تكوّن ما يقبل التّسمية. لا نهتمّ تخصيصاً بالأيقونات، أي بعمليات إعادة الأرضنة التي تكوّن من ناحيتها ما يقبل الدلالة. وصلت العلامة إذا بالفعل إلى درجة عليا من اللاتأرضن النّسبيّ، تُعتبر في ظلّها بمثابة الرّمز في إحالة قارة للعلامة على العلامة. الدالّ، هو العلامة التي ترتدّ مع العلامة. أيّة علامات كانت تتشكّل علامة. لا يتعلّق الأمر بعدُ بمعرفة ما تدلّ عليه مثل هذه العلامة، إنّما على أيّة علامات أخرى تحليل، أيّة علامات أخرى تنضاف إليها، لتشكيل شبكة لا بداية لها ولا نهاية، تعكس ظلّها على اطّراد بيئيّ لا شكل له. هذا الاطّراد اللّامتشكّل هو الذي يلعب الآن دور «المدلول»، لكنه لا يفتأ ينزلق تحت الدالّ الذي هو له بمثابة الوسيط أو الجدار وحسب: كلّ المضامين تأتي لتذيب فيه أشكالها الخاصّة. بيّانة أو دنيّة المضامين. إذا يقع غضّ الطرف عن المضمون.

نحن في الوضعية التي وصفها ليفي شتراوس: بدأ العالم بالتدليل قبل أن نعرف ما الذي كان يدلّ عليه، أعطى المدلول دون أن يكون بالرغم من ذلك معروفاً^(١). رمقتك زوجتك بنظرة غريبة، وهذا الصّباح ناولتك البوّابة رسالة ضرائب وهي تشبّك أصابعها، ثمّ أنت دست على براز كلب، رأيت على الرّصيف قطعتي خشب تلتقيان مثل عقارب السّاعة، وقع التّهامس عليك عندما كنت وصلت إلى المكتب. لا أهمية لما يعنيه ذلك، إنّ الدّالّ على الدّوام. [١٤٢] العلامة التي تحيل على العلامة أصابها عجز غريب، أصابها تردّد، لكنه قويّ هو الدّالّ الذي يكوّن السّلسلة. كذلك يشارك الدّهانيّ الهذائيّ في هذا العجز الذي يحاصر العلامة اللّامتأرضنة من كلّ الجوانب في البيئة الزّليقة، لكنه يصل بالأحرى إلى السّلطة الخارقة للدّالّ، في الشعور المَلَكِيّ للغضب، بوصفه سيّد الشبكة التي تنتشر في البيئة. نظام استبداديّ ذهانيّ هذائيّ: إنهم يهاجمونني ويجعلونني أعاني، لكنني أخمّن نواياهم، أستبقهم، كنت أعرف ذلك طوال الوقت، لديّ السّلطة حتى في عجزني، «سوف أتمكّن منهم».

لا ننتهي من أيّ شيء في مثل هذا النّظام. إنه مجعول لذلك، إنه النّظام التراجيديّ للدّين اللانهائيّ، الذي يكون فيه المرء مدينا ودائنا في نفس الوقت. تحيل علامة على علامة أخرى وتدخل فيها، وهذه الأخيرة توصلها من علامة إلى علامة لتدخل كذلك في علامات أخرى. «حتّى لو تطلّب الأمر العود دائريّاً...» لا تشكّل العلامات سلسلة لا نهائية وحسب، سلسلة العلامات دائرية بشكل لا نهائيّ. يبقى الملفوظ

(١) ليفي شتراوس، «مقدّمة لأعما مراسال موس»، ضمن السّوسولوجيا والأنثروبولوجيا، المنشورات الجامعية الفرنسيّة، صص ٤٨ - ٤٩ (سيُظهر ليفي شتراوس في بقية النّصّ مظهراً آخر للمدلول). حول هذه القيمة الأولى للاطّراد المناخيّ، راجع التوصيفات الطّبية النفسيّة لبينسفنغار وأرياتي (Binswanger et Arieti).

بعد موضوعه، يبقى الاسم بعد صاحبه. سواء دخلت في علامات أخرى، سواء وقع الاحتفاظ بها احتياطياً لبعض الوقت، تبقى العلامة بعد واقع حالها كما بعد مدلولها، إنها تتوَّج على طريقة وحش أو ميت لتستعيد مكانها في السلسلة ولتستثمر حالة جديدة، مدلولاً جديداً تنسحب منه مجدداً^(١). إنها بصمة العود الأبديّ. ثمة نظام كامل من الملفوظات العائمة والجوّالة، من الأسماء المعلّقة، من علامات ترصّد، منتظرة أن تدفعها الشبكة إلى الأمام حتى تعود. الدالّ بوصفه تردادا للعلامة اللامتأرضنة لذاتها، إنّه عالم مأميّ وعالم رعب.

لكنّ المهمّ ليس هو دائرية العلامات هذه بقدر ما هو كثرة الدوائر أو السلسلات. العلامة لا تحيل فقط إلى العلامة على نفس الدائرة، إنّما تحيل من دائرة إلى دائرة أو من لؤبة إلى أخرى. يروي روبر لوي (Robert Lowie) كيف أنّ هنود الكرو [الغربان] (les Crow) والهوبي [شعب السلام] (les Hopi) يتفاعلون بشكل مختلف عندما تخدعهم نساؤهم (الكرو هم صيادون مترحلون، بينما الهوبي هم مقيمون مرتبطون بتقليد إمبراطوريّ): «هنديّ كرو وقد خانت زوجته، يجرح وجهها، بينما الهوبي الذي يكون ضحية لنفس الواقعة، دون أن يفقد هدوءه، ينعزل ويصليّ من أجل أن يحلّ الجفاف والمجاعة بالقرية.» نرى في أيّ جانب تكون البارانويا، العنصر الاستبداديّ أو النظام الدالّ، «التزمّت» مثلما يقول أيضا ليفي شتراوس: «ذلك أنّ كلّ شيء مترابط بالنسبة إلى هوبيّ: انخرام اجتماعيّ أو حادث منزليّ، يجرّمان نظام الكون [١٤٣] الذي تكون مستوياته موحّدة بكثرة من التناظرات؛ اضطراب على صعيد لا يكون معقولا، ولا يكون مقبولا أخلاقيا، إلا بوصفه إسقاطا لاضطرابات أخرى، تؤثر على مستويات أخرى^(٢).»

(١) راجع، ليفي شتراوس، الفكر البرّيّ، منشورات بلون، ص ٢٧٨ وما بعدها (دراسة الحالّتين).

(٢) ليفي شتراوس، توطئة كتاب، شمس الهوبي، ص VI.

يقفز الهوبي من دائرة إلى أخرى، أو من علامة إلى أخرى على لولبتين. نخرج من القرية أو من الحاضرة ونعود إليها. يحدث أن تكون هذه القفزات منتظمة، ليس فقط عن طريق طقوس دالة مسبقاً، إنما عن طريق بيروقراطية إمبراطورية هي التي تقرّر بشأن مشروعيتها. لا نقفز كما اتفق، ولا دون قواعد؛ والقفزات ليست منظمة وحسب، إنما فيها ما هو محظور: عدم تجاوز الدائرة الأبعد، عدم الاقتراب من الدائرة الأكثر مركزية... يتأتى الفرق بين الدوائر من التالي: مع أن كلّ العلامات لا يحيل بعضها على بعضها الآخر إلا وهي لا متأرضنة، متّجهة نحو نفس مركز التّمعني، موزّعة في أطراف غير ذي شكل، فإنه لها مع ذلك سرعات لا تأرّضن مختلفه تشهد على مكان المنشأ (المعبد، القصر، المنزل، الشّارع، القرية، الأدغال، إلخ.)، على العلاقات الفارقة التي تحافظ على التّمييز بين الدوائر أو تكون عتبات في بيئة الاطّراد (الخاصّ والعموميّ، الحادث المنزليّ والانخرام الاجتماعيّ). هذه العتبات وهذه الدوائر لها علاوة على ذلك توزيع متحرّك تبعاً للحالات. ثمة غشّ أساسي في النظام. القفز من دائرة إلى أخرى، تحويل المشهد بشكل دائم، تمثيله في مكان آخر، تلك هي العملية الهيستيرية للغشّاش بوصفه ذاتاً، يجيب على العملية البارانونية للمستبدّ القائم في مركز تمّعنيه.

ما يزال ثمة وجه آخر: النظام الدالّ لا يجد نفسه إزاء مهمّة تنظيم العلامات المرسلة من كلّ جانب في دوائر وحسب؛ عليه أن يؤمّن باستمرار توسيع الدوائر أو اللّولب، إعادة تزويد المركز بالدالّ للتغلب على القصور الحراريّ الخاص بالنظام، ولتنمية دوائر جديدة أو لإعادة شحن القديمة. يجب إذاً توفّر آلية ثانوية تكون في خدمة التّمعني: إنها التّأوّل أو التّأويل. هذه المرّة، يتّخذ المدلول وجهاً آخر: إنه يكفّ عن أن يكون هذا الاطّراد الذي لا شكل له، المُنعطي دون أن يكون معروفاً، الذي كانت تلقي عليه شبكة العلامات شبّاكها. سنعمل على

مواءمةٍ قَدَّر من المدلول المحدّد بوصفه مدلولاً مطابقاً، ومذّاك قابلاً لأن يُعرف، مع كلّ علامة أو مجموعة علامات. محور التركيب التعبيريّ للعلامة التي تحيل على العلامة ينضاف إليه محور الصيغ الصّرفية حيث العلامة التي هكذا تَشكّلنت تَقْطع لنفسها مدلولاً مطابقاً (إذاً هنا كذلك تجريد للمضمون، لكن بكيفية جديدة). الكاهن التّأويليّ أو العرّاف، هو أحد بيروقراطييّ الإله-المستبدّ. يظهر وجه جديد للغشّ، غشّ الكاهن: [١٤٤] يذهب التّأويل إلى ما لا نهاية، ولا يلتقي أبداً بأيّ شيء للتّأويل لم يكن هو ذاته من قبل تأويلاً. بحيث أنّ المدلول لا يفتأ يُرجع الدّالّ، يعيد شحنه أو ينتجه. تأتي الصّورة دائماً من الدّالّ. المدلول النّهائيّ هو بالتّالي الدّالّ ذاته في تردادهِ أو «فائضه». لا جدوى على الإطلاق من ادّعاء تجاوز التّأويل وحتّى التّواصل بإنتاج الدّالّ، بما أنّ تواصل التّأويل هو الذي يكون دائماً بمثابة إعادة إنتاج الدّالّ وبمثابة إنتاجه. الآكّد أنه ليس على هذا النّحو يمكننا تجديد مصطلح الإنتاج. ذلك كان اكتشاف الكهنة المحلّلين النّفسانيين (لكن ما كان فعله في زمانهم كلّ الكهنة الآخرين وكلّ العرّافين الآخرين): كان يتوجّب أن يكون التّأويل خاضعاً للتّمعني، إلى درجة أنّ الدّالّ لم يكن يعطي أيّ مدلول من دون أن يكون المدلول أعاد بدوره إعطاء الدّالّ. إلى حدّ ما وبالفعل، لم يعد ثمة مجال حتّى للتّأويل، لكن ذلك لأنّ أفضل تأويل، أشدّه جسامّة، أشدّه جذريّة، هو الصّمت الذي في غاية الدّلالة. من المعروف جدّاً أنّ المحلّل النّفسانيّ لم يعد حتّى يتحدّث، وأنه لا يفتأ يؤوّل، أو، أكثر من ذلك، يمكّن من التّأويل الذات التي تقفز من دائرة جهنمية إلى أخرى. في الحقيقة، التّمعني وعُصاب التّأويل هما مرّضا الأرض أو الجِلد، أي مرّضا الإنسان، إنّهما العُصاب القاعديّ.

عن مركز التّمعني أو عن الدّالّ نفسه، هناك القليل ممّا يمكن قوله، ذلك أنّه محض تجريد بقدر ما هو مبدأ محض، أي لا شيء.

ليس من المهمّ النقص أو الشطط. أن نقول إنّ العلامة تحيل على العلامة بشكل لا نهائيّ، أو أنّ المجموعة اللانهائية للعلامات تحيل على دالّ أعظم، هما نفس الشيء. لكن بالفعل، هذا الترداد الصوريّ المحض للدالّ قد لا يمكن حتى التفكير به دون مادة تعبيرية خاصّة يجب أن نجد لها اسما: الوجّهية. اللغة ليست مصحوبة دائما بملامح وجّهية وحسب، إنما الوجه يجمّد جملة التردادات، إنه يرسل ويتقبّل، يطلق العلامات الدالّة ويعيد التقاطها. إنه بالنسبة إلى ذاته جسد بالتمام: إنه بمثابة جسد مركز التمعني، الذي تُعلّق عليه كلّ العلامات اللامتأرضنة، وهو الذي يعيّن حدًّا لا تأرضنها. إنه من الوجه يخرج الصّوت؛ حتّى أنه لهذا السبب، مهما كانت الأهميّة الأساسية لمكنة كتابة في البيروقراطية الإمبراطورية، يحتفظ المكتوب بخاصية شفهيّة، غير كُتبيّة. الوجه هو الأيقونة الخاصّة للنظام الدالّ، إنه إعادة الأرضنة داخل التّسق. يعيد الدالّ تأرضنه على الوجه. الوجه هو الذي يزود الدالّ بمادّته، إنه هو الذي يمكن من التأويل، وهو الذي يتغيّر، يغيّر ملامحه، عندما يعيد التأويل إعطاء الدالّ لمادّته. انظر، [١٤٥] لقد غيّر وجهه. الدالّ مُوجّهن دائما. الوجّهية تسيطر مادّيّا على كامل هذه المجموعة من التّمعينات والتأويلات (كتب علماء النفس الكثير حول علاقات الرّضيع بوجه الأمّ، علماء الاجتماع حول دور الوجه في الوسائل السّميّة- البصرية أو في الإشهار). الإله- المستبدّ لم يُخف وجهه أبدا، على النقيض من ذلك: إنه يجعل منه واحدا وحتّى كثرة. القناع لا يخفي الوجه، إنه هو. الكاهن يستخدم وجه الرّب. كلّ شيء عموميّ عند المستبدّ، وكلّ ما هو عموميّ هو عموميّ بواسطة الوجه. الكذب والغشّ ينتميان أساسيّّا لنظام الدالّ، لكن ليس السّر^(١).

(١) على سبيل المثال، في ميثة البانتو، يُظهر المؤسّس الأوّل للدولة وجهه، يأكل ويشرب علانية، بينما الصيّاد ثمّ المحارب ينتكران السّرّ، يغيبان عن الأنظار

عكسيًا، عندما يَمحي الوجه، عندما تختفي ملامح الوجهية، يمكن أن نكون متيقنين من أننا دخلنا في نظام آخر، في مناطق أخرى أكثر صمتًا وتأييًّا عن الإدراك بما لا يقاس حيث تجري تَصيُّرات- حيوانات، تَصيُّرات- هبائية خفية، لا تَأْرُضُنات ليلية تتخطى حدود النسق الدَّالِّ. المستبدُّ أو الإله يلوح بوجهه الشَّمسي الذي هو جسده بتمامه، بوصفه جسد الدَّالِّ. لقد رمقني بنظرة غريبة، قَطَب الحاجب، ما الذي فعلته حتى يغيّر وجهه؟ لديّ صورته أمامي، تبدو وكأنها تنظر إليّ... مراقبة الوجه فيما كان يقول سترندبارغ (Strindberg)، اشتطاط تقنين الدَّالِّ، إشعاع في كلّ الاتجاهات، حضور كلّيّ لا موضع له.

في النهاية، وجهه أو جسد المستبدِّ أو الله، له ما يشبه جسدا مضادًا: جسد المعذَّب، بل وأيضا جسد المنبوذ. أن يتواصل هذان الجسدان، فذلك مؤكَّد، بما أنه يحدث أن يكون جسد المستبدِّ خاضعا لاختبارات إذلال وحتى تعذيب، أو نفي وإبعاد. «في الطرف الآخر، قد يمكننا تخيّل تحديد مكان لجسد المدان، له هو ذاته منزلته القانونية، إنه يُحدث مراسيمه (...). ليس أبدا من أجل تأسيس المزيد من السُّلطة التي كانت تخصّ شخص العاهل، إنما من أجل تقنين أقلّ ما يكون من السُّلطة التي وُسم بها أولئك الذين يقع إخضاعهم لعقوبة. في المنطقة الأشدّ ظلمة من الحقل السياسيّ، يرسم المدان الصورة المُناظرة والمقلوبة للملك^(١)». المعذَّب هو أوّلا من يفقد وجهه، ويدخل في التّصير- حيوانا، في التّصير- هبائيًا الذي نذرو أرمذته للرياح. لكن قد يقال إنّ المعذَّب ليس هو على الإطلاق [١٤٦] الحدّ النهائيّ، على

ويأكلان من وراء حاجز: راجع، لوك دي هوش (Luc de Heusch)، المَلِك المخمور أو أصل الدّولة، غاليمار، صص ٢٠-٢٥. يرى هوش في اللّحظة الثانية دليلا على حضارة أكثر «تهذيبا»: يبدو لنا على الأصحّ أنّ الأمر يتعلّق بسيميائية أخرى، سيميائية حرب ولم تعد سيميائية أشغال عمومية.

(١) فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص ٣٣.

النقيض من ذلك هو الخطوة الأولى قبل الإبعاد. أوديب على الأقل كان فهم ذلك. إنه يعذب نفسه، يفقأ عينيه، ثم يرحل. طقس التصير- حيوانا لكبش الفداء يبين ذلك جيّدا: كبش تكفيريّ أوّل وقعت التضحية به، لكن كبش فداء ثانٍ أُطرد، أُرسِل إلى الصحراء القاحلة. يمثل كبش الفداء في النظام الدّالّ صورة جديدة لارتفاع القصور الحراريّ بالنسبة إلى منظومة العلامات: إنه مكلف بكلّ ما هو «سيء»، لمدة معيّنة، أي بكلّ ما وقف في وجه العلامات الدّالّة، بكلّ ما أفلت من إحالات علامة على علامة عبر الدوائر المختلفة؛ إنه يضطلع كذلك بكلّ ما لم يتمكن من إعادة شحن الدّالّ في مركزه، مازال يحمل كلّ ما يتخطى الدائرة الأبعد. هو يجسّد أخيرا وبشكل خاصّ خطّ الإفلات الذي لا يمكن أن يتحمّله النظام الدّالّ، أي يجسّد لا تأرضنا مطلقا على هذا النظام تجميده أو أنه لا يستطيع تحديده إلّا بكيفية سلبية، وذلك تحديدا لأنه يتخطى درجة لا تأرضن العلامة الدّالّة، مهما كانت قوّة تلك الدّرجة بالفعل. خطّ الإفلات هو بمثابة مُماسّ بالنسبة إلى دوائر التّمعني وبالنسبة إلى المركز الدّالّ. إنه سيصاب باللعنة. شرح كبش الفداء يقابل وجه المستبدّ أو وجه الله. سنقتل وسنهرّب ما يوشك أن يهرّب المنظومة. كل ما يفيض على فائض الدّالّ أو كلّ ما يمرّ تحته، سيوسّم بقيمة سلبية. لن يكون لكم من اختيار إلّا بين مؤخّرة كبش الفداء ووجه الرّبّ، بين السّحرة والكهنة. بالتالي تحتوي المنظومة الكاملة على: الوجه أو الجسد البارانونيّ للإله- المستبدّ في المركز الدّالّ للمعبد؛ على الكهنة المؤوّلين الذين يعيدون دائما شحن المدلول في المعبد وهم يدلّلون؛ الحشد الهيستيريّ في الخارج، في دوائر متدامجة، وهو يقفز من دائرة إلى أخرى؛ كبش الفداء المكتئب، الذي لا وجه له، المنبعث من المركز، الذي تمّ اختياره ومعالجته، الذي زيّنه الكهنة، الذي يجتاز الدّوائر في إفلاته الولهان باتّجاه الصّحراء. - لوحة موجزة جدّا ليست لوحة النظام الاستبداديّ الإمبراطوريّ وحسب،

لكنها تحضر كذلك في كلّ المجموعات الممرّكة، التراتبية، الشجرانية، الخاضعة: أحزاب سياسية، حركات أدبية، جمعيات تحليلية نفسانية، أسر، زيجات... في كلّ مكان تتدخل الصورة، الوجهية، الترداد، التمعني والتأويل. عالم حزين هو عالم الدالّ، قدامته ذات الوظيفة الرّاهنة دوماً، غشّه الأساسي الذي يدلّ ضمناً على كلّ المظاهر، تهريجه العميق. يتحكّم الدالّ بكلّ المشاهد المنزلية كما يتحكّم في كلّ أجهزة الدولة.

يتحدّد النظام الدالّ للعلامة بثمانية مظاهر أو مبادئ: (١) تحليل العلامة على العلامة إلى ما لا نهاية (لا محدود التّمعني الذي لا يؤرّضن العلامة)؛ العلامة تستردّها العلامة ولا تفتأ تعود (دورية العلامة اللامتأرضنة)؛ [١٤٧] (٣) تقفز العلامة من دائرة إلى أخرى، ولا تفتأ تحوّل المركز في نفس الوقت الذي تكون فيه على صلة به (مجاز العلامات أو هستيريتها)؛ (٤) توسّع الدوائر تؤمّنه دائماً التأويلات التي تعطي المدلول وتعيد إعطاء الدالّ (العُصاب التأويلي للكاهن)؛ (٥) المجموعة اللامتناهية للعلامات تحليل على دالّ أعظم يمثّل كذلك بوصفه عوزاً كما بوصفه إفراطاً (الدالّ الاستبداديّ، حدّ لا تارّضن النّسق)؛ (٦) صورة الدالّ لها مادّة، أو الدالّ له جسد هو الوجه (مبدأ الملامح الوجهية التي تشكّل إعادة أرضنة)؛ (٧) خطّ إفلات النّسق موسوم بقيمة سلبية، مدان بوصفه ما يتخطى قدرة لا تارّضن النظام الدالّ (مبدأ كبش الفداء)؛ (٨) إنه نظام غشّ كلّيّ، بالتزامن في القفزات، في الدوائر المضبوطة، في تراتيب تأويلات الألوهي، في إشهار المركز الممّوجّه، في معالجة خطّ الإفلات.

ليس فقط أنّ مثل هذه السّيميائية ليست هي الأولى، إنّما لا نرى كذلك أيّ سبب لمنحها أفضلية خاصّة من زاوية نظرٍ تطوريّة مجردة. نوّد أن نشير بإيجاز إلى بعض خصائص السّيميائيتين الأخريّتين. أولاً السّيميائية الماقبل - دالّة التي تسمّى ابتدائية، هي الأقرب إلى السّنن

«الطَّبِيعِيَّة» العاملة دون علامات. لن نجد فيها أيَّ اختزال في الوَجْهِيَّة بوصفها المادَّة الوحيدة للتعبير: ليس ثمة أيَّ استبعاد لصور المضمون بواسطة تجريد مدلول. وبالرَّغم من أنَّنا نغضُّ الطرف مع ذلك عن المضمون من منظور سيميائيٍّ دقيق، فذلك لصالح تعدّدية صور التعبير أو تعدّد أصواتها، صورَ تعبير تدرأ تحكّم الدّالّ وتحافظ على صور تعبيرية خاصّة بالمضمون ذاته: هكذا تتعايش في المتنافر صور الجسديَّة والإشارية والإيقاع والرقص والطقس مع الصّورة الصّوتية^(١). الكثير من صور وموادّ التعبير تتقاطع وتتناوب. إنها سيميائية أقسومية، لكنها متعدّدة الخطوط ومتعدّدة الأبعاد، تحارب مسبقا كلّ دائرية دالّة. الأقسومية هي قانون الأنساب. بحيث أنّ العلامة لم تعد تدين هنا بدرجة لا تَأْرُضْنَهَا التَّسْبِيَّ إلى إحالة دائمة على العلامة، إنّما إلى تَوَاجُهِ الإقليميات والأقسامات المقارَنة التي تُستَخْلَصُ منها كلّ علامة (المعسكّر، الدّغل، تغيير [١٤٨] المعسكّر). ليست تعدّدية الملفوظات هي وحدها التي وقعت المحافظة عليها، لكن نحن قادرون على وضع حدٍّ لملفوظ: اسمٌ تَأْكُلُ وأُلْغِي، وذلك أمر مختلف عن الوضع موضع احتياط أو عن التّغيير الدّالّ. عندما يكون ما قبل دالّ، يكون لأكل لحوم البشر هذا المعنى تحديدا: أكل الاسم، إنه تدوين عَلامِيٍّ ينتمي بالتّمام إلى سيميائية، بالرَّغم من علاقته بالمضمون (لكنه مضمون تعبيرِيٌّ)^(٢). ستتحاسى الذّهاب إلى أنّ مثل هذه السيميائية تعمل نتيجة الجهل بالدّالّ، نتيجة كبته أو إعاقته. على النقيض من ذلك يحركها

(١) راجع، غريماس، «ممارسات ولغات إشارية»، ضمن لغات، العدد ١٠، جوان/يونيو ١٩٦٨؛ لكن غريماس يُرجع هذه السيميائية إلى مقولات مثل «ذات الملفوظ»، «ذات التلقّظ»، التي تبدو لنا متمية إلى أنظمة علامات أخرى.

(٢) حول أكل لحوم البشر كطريقة لاستدعاء أفعال الأنفس أو أسماء الموتى؛ وحول وظيفته السيميائية كـ«روزنامة»، راجع، بيار كلاستر، يوميات هنود غياكي، منشورات بلون، صص ٣٣٢-٣٤٠.

الاستشعار الغليظ بما سيقبل، إنها ليست في حاجة إلى الفهم حتى تقاتل، إنها مرصودة بكاملها بأقساميتها وحتى بتعدديتها لمنع ما يهدد بالفعل: التجريد ذو الطابع الكلّي، انتعاز الدّال، التوحيد الصوريّ والمادّي للتلفّظ، دورية الملفوظات مع مضافاتها، جهاز الدّولة، تنصيب المستبدّ، فئة الكهنة، كبش الفداء...، وفي كلّ مرّة نأكل فيها ميتا، يمكننا القول: مرّة أخرى هذا واحد لن يكون للدّولة.

ثمّ كذلك سيميائية أخرى سنسمّيها ضدّ- دالّة (بخاصّة سيميائية الرّحل المرعبين مربّي الماشية والمحاربين، في اختلافهم عن الرّحل الصّيادين الذين كانوا يشكّلون جزءاً من السيميائية السّابقة). هذه المرّة، لا تعمل هذه السيميائية أقسومياً بقدر ما تعمل بواسطة الأثرماتيقا والعّد. من المؤكّد أنّ العدد كانت له بالفعل أهميّة كبرى في قسمة أو في توحيد الأنساب الأقسومية؛ لقد كانت له كذلك وظيفة حاسمة في البيروقراطية الإمبراطورية الدّالّة. لكنه كان عدداً يمثّل أو يدلّ، «أثاره وأنتجه وسببه شيء آخر مغاير له». على النقيض من ذلك، علامة رقمية لم ينتجها شيء خارج عن التأشير الذي ينشئها، تعيّن توزيعاً تعددياً ومتحرّكا، تركّز هي ذاتها وظائف وعلاقات، تتّجه إلى ترتيبات أكثر من توجّوها إلى مجاميع، إلى توزيعات أكثر ممّا إلى تشكيلات، عاملة بواسطة القطع والانتقال والهجرة والتراكم أكثر من عملها بواسطة توليف الوحدات، مثل هذه العلامة يبدو أنّها منتمية إلى سيميائية مكنة حرب مترخّلة، موجّهة بدورها ضدّ جهاز الدّولة. إنّها عدد عادّ^(١). التّنظيم الرّقمي وفق ١٠، ٥٠، ١٠٠، ١٠٠٠... إلخ.، والتّنظيم المكانيّ المشارك له، ستقع استعادتهما طبعاً من قبل جيوش الدّولة، لكنّهما

(١) التّعابير السّابقة المتعلّقة بالعدد استعرناها من جوليا كريستيفا، مع أنّها تستعملها لتحليل نصوص أدبية في فرضية «الدّالّ»: سيميائية، منشورات سوي، ص ٢٩٤ وما يليها، ص ٣١٧.

يشهدان أولاً على نظام عسكريّ خاصّ [١٤٩] بعظماء مترحّليّ السّباسب، بالهيكسوس والمنغوليين، ويتراكبان على مبدأ الأنساب. السّرّ والجؤوسة هما العنصران المهمّان لسيمائية الأعداد هذه في مكنة الحرب. دور الأعداد في التّوراة ليس مستقلاً عن المترحّلين، بما أنّ موسى تلقّى فكرة الأعداد من صهره يثرون القينيّ (Jéthro le Qénien): جعل منها مبدأ تنظيم لأجل الخروج والهجرة، ويطبّقها هو ذاته على المجال العسكريّ. في هذه السّيمائية الضّد- دلالية، تمّ تعويض خطّ الإفلات الاستبدادي بخطّ إلغاءٍ ينقلب ضدّ الإمبراطوريات الكبرى، يخرقها أو يدمرها، هذا إذا لم يكتسحها ويندمج فيها مشكّلاً سيمائية مختلطة.

نودّ الحديث بشكل أدقّ عن نظام رابع للعلامات أيضاً، نظاماً ما بعد- دالّ، يعارض التّمعني بخصائص جديدة، ويتحدّد بإجراء «دُتّينة» أصلائيّ. - إذا ثمة الكثير من أنظمة العلامات. قائمتنا ذاتها تمّ تحديدها اعتبارياً. لا وجود لأيّ سبب حتّى نطابق بين نظام أو سيمائية مع شعب، أو مع لحظة تاريخية. في نفس الفترة أو في نفس الشعب، ثمة مثل هذا الخليط بحيث نستطيع القول فقط إنّ شعباً، لساناً أو لحظة تؤمّن السّيطرة التّسبية لنظام ما. لعلّ كلّ السّيمائيات مختلطة، لا تتوحّد مع صور المحتويات المتنوّعة وحسب، إنّما تتوحّد أيضاً أنظمة علامات مختلفة. عناصر ما قبل دالّة هي عناصر فاعلة دوماً، عناصر ضدّ- دالّة هي دائماً عناصر عاملة وحاضرة، عناصر ما بعد- دالّة قائمة بالفعل في النظام الدالّ. ما يزال ثمة تعيين للكثير من الزّمنية. السّيمائيات واختلاطها يمكنها أن تظهر في تاريخ تتواجه فيه الشعوب وتختلط، لكنها تظهر كذلك في لغات تتضافر فيها الكثير من الوظائف، في مستشفى للأمراض النّفسية حيث تتعايش صور هذيانات بل وتنزع في نفس الحالة، في محادثة عادية حيث النّاس الذين يتحدّثون نفس اللّسان لا يتحدّثون نفس اللّغة (فجأة تنبثق نبذة من سيمائية غير منتظرة). نحن

لا نقوم بتطورية ولا حتى بتاريخ. تتوقف السيميائيات على التّضيدات التي تجعل بإمكان شعب ما، لحظة ما أو لسان ما، لكن كذلك أسلوب ما، دُرْجة ما، مرض ما، حدث بسيط ما في وضعية محدّدة، تأمين غلبة هذه السيميائية أو تلك. نحاول بناء خارطات أنظمة علامات: بإمكاننا قلبها، الاحتفاظ بهذه أو بتلك من إحدائياتها، بهذه أو بتلك من أبعادها، وستحصّل وفق الحالة على معلومة اجتماعية، على هذيان [١٥٠] مرَضِيّ، على حدث تاريخيّ... إلخ. ما زلنا سنرى ذلك في مناسبة أخرى: تارة سنواجه منظومة اجتماعية مؤرّخة، «حبّا عذريّا»، تارة أخرى سنواجه مشروعًا خاصًا يسمّى «المازوخية». بإمكاننا أيضًا توحيد هذه الخارطات أو التّفريق بينها. للتمييز بين ضربين من السيميائيات، على سبيل المثال بين النظام الما بعد- دالّ والنّظام الدالّ، علينا النظر بالتّائي في مجالات متنوّعة جدّا.

في بدايات القرن العشرين، وجد الطّبّ التّفسّي ذاته وهو في أوج ألمعيته الإكلينيكية، إزاء مشكل الهذيان غير الهلّاسية، مع الاحتفاظ بالسّلامة العقلية، دون «نقص فكريّ». كان ثمة مجموعة كبرى أولى، هذيانات بارانونية وهذيانات تأويل، تتضمّن بالفعل وجوها مختلفة. لكنّ المسألة كانت تهتمّ الاستقلالية المحتملة لمجموعة أخرى وقع ابتداؤها في الهوس الأحاديّ لأسكيرو (Esquirol)، في اختصاص كرابلان (Kraepelin)، ثمّ وقع تعريفها في هذيان المطالبة لسريو وكابغراس (Serieux et Capgras)، وفي الهذيان الانفعاليّ لكليرمبو (Clérambault) («اختصاص أو مطالبة، غيرة، هوس شبقيّ»). وفق الدّراسات الرّائعة جدّا لسريو وكابغراس من ناحية، ولكليرمبو من ناحية أخرى (هو الذي ذهب إلى أبعد مدى في طريق التّمييز)، قد نعارض بين نظام تمعّن فكريّ، بارانونيّ- تأويليّ، ونظام ذاتيّ ما بعد- دالّ وانفعاليّ. يتحدّد الأوّل ببداية مأكرة، بمرکز خفيّ معبّر عن قوى داخلية المنشأ حول فكرة؛ ثمّ بتطوّر شبكيّ حول اطّراد غير ذي

شكل، بيئة زَلْفَة يمكن الاستحواذ فيها على أبسط حادث؛ بتنظيم مشع في دوائر، بتوسّع عن طريق إشعاع دائريّ في كلّ الاتجاهات حيث يقفز الفرد من نقطة إلى أخرى، من دائرة إلى أخرى، يقترب من المركز أو يبتعد عنه، يقوم بالاستقبال والاستعادة؛ بتغيير البيئة، وفق سمات متغيّرة أو مراكز ثانوية تتجمّع حول النواة المركزية. على النقيض من ذلك يتحدّد النّظام الثّاني بمناسبة خارجية حاسمة، بعلاقة مع الخارج تعبّر عن ذاتها بالأحرى بوصفها إحساسا عوضا عن كونها فكرة، وبوصفها جهدا أو فعلا عوضا عن كونها مخيلة («هذيان أفعال عوضا عن هذيان أفكار»؛ بكوكبة محدودة، عاملة في قطاع واحد؛ ب«مصادرة» أو ب«صيغة موجزة» هي نقطة انطلاق سلسلة خطيّة لمسار، وصولا إلى الإنهاك الذي سيسم انطلاق مسار جديد؛ باختصار، بالتتابع الخطّي والزّمنيّ لمسارات متناهية، عوضا عن تأني الدوائر التي هي في توسّع لا محدود^(١).

[١٥١] هذا التاريخ الذي للهذيانين دون نقص فكريّ له أهمية كبرى. ذلك أنه لا يُحدث اضطرابا في الطّبّ النفسيّ الموجود، إنه في قلب تكوين الطّبّ النفسانيّ في القرن التاسع عشر، ويفسرّ كون الطّبيب

(١) راجع، سريو وكابغراس، الاختلالات المتعلّقة، منشورات ألكان، ١٩٠٩؛ كليرمبو، أثر في الطّبّ النفسيّ، أعادت نشره المطابع الجامعية الفرنسية؛ لكن كابغراس يؤمن بسميائية مختلطة أو متعدّدة الأشكال بشكل أساسي، بينما يستخلص كليرمبو تجريديّا سيميائيّتين خالصتين، حتى وإن كان يعترف باختلاطهما الفعليّ. - حول أصل هذا التّمييز بين مجموعتين من الهذيانات، سيقع الرّجوع أساسيا إلى أسكيروول، في الأمراض العقلية، ١٨٣٨ (إلى أيّ حدّ يكون «الهوس الأحاديّ» قابلا للانفصال عن الهوس؟)؛ وكرابلان، الوجيز في الطّبّ النفسيّ (إلى أيّ حدّ يكون «الاختصاص» قابلا للانفصال عن البارانويا؟). مسألة المجموعة الثّانية للهذيانات أو الهذيانات الانفعالية، وقعت استعادتها وعرضها تاريخيا من طرف لاكان، في الدّهان البارانويّ، منشورات سوي، ومن طرف لاغاش، الغيرة الغرامية، المنشورات الجامعية الفرنسية.

التفساني يولد منذ البداية وسيستمرّ على ما هو عليه: إنه محاصر وعالق بين متطلّبات خيرة وبوليسية وقانونية، إلخ. ، وهو متّهم بكونه ليس طبيبا حقيقيا، وهو مشتبه في كونه يعتبر مجانيين من ليسوا كذلك وكونه لا يرى من هم مجانيين، هو ذاته فريسة لمآسي الضمير، إنه الصّورة الأخيرة للسّاذج الهيجلي. إذا نظرنا فعليّا في نوعي الهاذين السّليمين، يمكننا القول عن البعض إنهم يبدون مجانيين تماما، لكنهم ليسوا كذلك: يطور القاضي شرايبر هذيانه الهذائيّ المشعّ وعلاقاته بالله في كلّ الاتجاهات، ومع ذلك هو ليس مجنونا بما أنه يظلّ قادرا على إدارة ثروته بحكمة، وعلى التّمييز بين الدّوائر. في الطّرف الثاني، ثمة من يبدو أنّهم ليسوا مجانيين على الإطلاق، غير أنّهم مجانيين، مثلما تشهد على ذلك أفعالهم الفجائية، خصوماتهم، ما يشعلونه من حرائق وما يرتكبونه من قتل (بالفعل أنواع الهوس الأحاديّ الأربعة الكبرى لأسكيروول، الهوس الشّبقيّ، الهوس المتعقّل، هوس إضرام النّار، هوس القتل). باختصار، الطبّ التّفسانيّ لم يتكوّن أبدا في علاقة بمفهوم الجنون، ولا حتّى مع تحويل هذا المفهوم، إنّما بالأحرى مع تحلّله في هذين الاتجاهين المتقابلين. أليست تلك صورتنا المزدوجة التي يكشفها الطّبّ التّفسانيّ لجميعنا على هذا النّحو، يبدو الواحد ممّا مجنونا تارة دون أن يكون كذلك، وتارة هو مجنون دون أن يبدو كذلك؟ (ستظلّ هذه المعاينة المزدوجة هي نقطة انطلاق التّحليل التّفسيّ، طريقتة في الرّبط مع الطّبّ التّفسانيّ: يبدو أنّنا مجانيين، لكننا لسنا كذلك، انظروا الحُلم، نحن مجانيين، لكننا لا نبدو كذلك، انظروا الحياة اليومية). إذا، كان الطّبيب التّفسانيّ يذهب تارة إلى الدّفاع عن السّاهل والتّفهم، إلى التّأكيد على عدم جدوى الحجر، إلى الحثّ على بيمارستانات مفتوحة؛ وطورا، على التّقيض من ذلك، إلى المطالبة بمراقبة مشدّدة، بيمارستانات أمن خاصّة، أكثر قساوة بقدر ما لم يكن

المجنون كذلك^(١). هل من قبيل الصدفة [١٥٢] أن يتقاطع في الكثير من النقاط التمييز بين الهذيانين الكبيرين، بين الأفكار والأفعال مع التمييز بين الطبقات (الذهاني الهذائي ليس في حاجة ملحة للحجر، هو بورجوازيّ أولاً، بينما المهووس الأحاديّ، المُطالب الانفعاليّ، هو الذي غالباً ما يقع استخراجاً من الطبقات الريفية والعماليّة، أو من حالات هامشية للقتلة السياسيين^(٢)). طبقة ذات أفكار نيّرة، مشعّة (حتماً) ضدّ طبقة مقتصرة على الأفعال الموضعيّة، الجزئيّة، المشتتة، الخطيّة... كلّ الذهانين الهذائيين ليسوا بورجوازيين، كلّ الانفعاليين أو المهووسين الأحاديين ليسوا بروليتاريين. لكن، في أخلاط الواقع، الله وأطبته التفسانيون موكول إليهم التعرّف على الذين يحافظون على نظام اجتماعيّ طبقيّ، حتى وإن كانوا هاذين، وعلى الذين يسبّبون الاضطراب، حتى وإن كان محصوراً في نطاق ضيق، حرق طاحونة، قتل الوالدين، حبّ أو اعتداء مُهملان.

نبحث إذًا عن التمييز بين نظام علامات مستبدّ، دالّ وبارانويّ، ونظام متسلّط، ما بعد-دالّ، ذاتيّ أو انفعاليّ. بكلّ تأكيد، التسلّطيّ ليس هو ذاته الاستبداديّ، الانفعاليّ ليس هو ذاته البارانويّ، الذاتيّ ليس هو ذاته الدالّ. ما الذي يحدث في هذا النّظام الثّاني، في مقابل

(١) راجع، سريو وكابغراس، ص ٣٤٠ وما بعدها. وكليرمبو، ص ٣٦٩ وما بعدها: الهاذون الانفعاليون لا يقع الالتفات إليهم حتى في البيمارستان، لأنهم هادئون وماكرون، «مصابون بهذيان محدود جدّاً حتّى يعرفوا كيف يمكننا الحكم عليهم»؛ من الحتميّ بالأحرى إبقاؤهم في الحجر؛ «مثل هؤلاء المرضى لا تجب مساءلتهم، بل تحريكهم، ولتحريكهم، لا وجود إلّا لوسيلة واحدة هي إثارة مشاعرهم».

(٢) يقترح أسكيروول كون الهوس الأحاديّ هو «مرض الحضارة»، ويتّبع تطوّراً اجتماعيّاً: بدايته تكون دينيّة، لكنه ينحو بالتدرّج ليصبح سياسيّاً، مسكوناً برجال الأمن (في الأمراض العقلية، الجزء الأوّل، ص ٤٠٠). راجع أيضاً ملاحظات أمانويل ريجيس، قنلة الملوك في التّاريخ وفي الحاضر، (١٨٩٠).

النظام الدالّ الذي وقع تحديده آنفا؟ في المقام الأوّل، تنفصل علامة أو حزمة علامات عن السلسلة الدائرية المشعّة، تبدأ بالعمل لصالحها الخاصّ، بالتسرب على خطّ مستقيم، وكأنّها تغيب في ممرّ ضيق مفتوح. كانت المنظومة الدالّة رسمت من قبل خطّ إفلات أو لا تأرُضن يتخطى القرينة الخاصّة بعلاماتها اللاّ متأرضنة؛ لكن بالفعل، هذا الخطّ كان طبعها بقيمة سلبية وجعل كبش الفداء يفرّ منها. قد نقول الآن إنّ هذا الخطّ يتلقّى علامة إيجابية، إنّهُ مشغول ومُتّابِع فعلا من طرف شعب بأكمله يجد فيه علّة كيانه أو مصيره. ومن المؤكّد هنا مرّة أخرى أنّنا لا نؤرّخ: نحن لا نقول إنّ شعبا يبتكر نظام العلامات هذا، إنّما نقول فقط إنه يقوم في لحظة ما بالتّضيد الذي يؤمّن السيطرة النّسبية لهذا النّظام في ظروف تاريخية (ويمكن تأمين هذا النّظام، هذه السيّطرة، هذا التّضيد في ظروف أخرى، على سبيل المثال في ظروف مرّضية أو أدبية، أو غرامية، أو يومية بالتّمام، إلخ.). نحن [١٥٣] لا نقول إنّ شعبا يملكه نوع معيّن من الهذيان، إنّما نقول إنّ خارطة هذيان ما، بالنّظر إلى إحداثياته، يمكن أن تتطابق مع خارطة شعب، بالنّظر إلى خارطاته. هكذا الفرعون البارانونيّ والعبريّ الانفعاليّ؟ مع الشعب اليهوديّ، تنفصل مجموعة علامات عن الشّبكة الإمبراطورية المصرية التي كانت تشكّل جزءا منها، تبدأ باتّباع خطّ إفلات في الصّحراء، معارضة التّمعني الاستبداديّ بالذّاتية الأكثر تسلّطا، الهذيان البارانونيّ التّأويليّ بالهذيان الأكثر انفعالية والأقلّ تأويلا، باختصار، الشّبكة الدائرية المشعّة بـ«المحاكمة أو المطالبة» الخطيّتين. مطالبكم، محاكمتكم، ذلك هو ما ستكونه كلمة موسى لشعبه، وتتوالى المحاكمات على خطّ انفعال^(١). سيستخرج كافكا من ذلك تصوّره الخاصّ للاختصاص أو

(١) سفر التّثنية، I، ١٢. يوضّح بول دورم (Paul Dhorme) في موسوعة لا بلاياد: «مطالبكم هي حرفيا محاكمتكم».

للمحاكمة، وتتأبّع الأقسامات الخطيّة: المحاكمة- الأب، المحاكمة-
النزل، المحاكمة- السفينة، المحاكمة- المحكمة...

لا يمكننا أن نتجاهل هنا الحدث الأهمّ أو الأشمل في تاريخ
الشّعب اليهوديّ: تهديم الهيكل الذي تمّ على مرحلتين (٥٨٧ قبل
الميلاد- ٧٠ بعد الميلاد). كامل تاريخ الهيكل، أوّلا حركية التّابوت
وهشاشته، ثمّ بناء سليمان لبَيْت، إعادة بنائه أيّام داريوس، هذه كلّها لا
معنى لها إلّا بالنّسبة إلى سيرورات هدم متجدّدة، كانت لحظاتها
الأساسيّة مع نبوخذ نصر (Nabuchodonosor) ومع تيتوس. هيكل
متحرّك، هشّ ومدمّر: لم يعد التّابوت غير مجموعة صغيرة من
العلامات التي يمكن للمرء أن يحملها معه. ما أصبح مستحيلا هو فقط
خطّ إفلات سلبيّ، يستحوذ عليه الحيوان أو الكبش، من حيث أنّه
محمّل بكلّ المخاطر التي كانت تتهدّد الدّالّ. ليُصيّنا الشّرّ، تلك كانت
العبارة التي تُنقّط التّاريخ اليهوديّ: نحن الذين علينا اتّباع الخطّ الأكثر
لا تارصّنا، خطّ الكبش، مع تغييرنا لعلامته، مع جعلنا منه الخطّ
الإيجابيّ لذاتيتنا وانفعالنا ومحاكمتنا أو مطالبتنا. سنكون لأنفسنا كبشنا
الخاصّ. سنكون الحَمَل: «الرّبّ الذي كان مثل الأسد يكرّمه دم
القرايين، يجب إرجاعه الآن إلى الخلف، حتّى يحتلّ الرّبّ الذّبيح
مركز الصّدارة. (...) أصبح الرّبّ الحيوان الذّبيح عوض أن يكون
الحيوان الذي يذبح^(١)». ستبّع التّماسّ الذي يفصل بين الأرض والبحر
وسنلتزم به، سنفصل بين الشّبكة الدّائرية والاطراد الزّلق، ستنبّى خطّ
الفصل لرسم فيه طريقنا ولنفكّك عناصر الدّالّ (يمامة سفينة نوح). ممرّ
ضيق، وسَطّ ليس متوسّطا، إنّما هو [١٥٤] خطّ مُستدّق. ثمة خصوصية
يهودية بالكامل تتأكّد بالفعل في سيميائية. هذه السّيميائية ليست مع ذلك
أقلّ اختلاطا من غيرها. من ناحية هي في علاقة وثيقة بالسّيميائية

(١) دافيد هربارت لورانس، نهاية العالم، منشورات بلّاند، الفصل العاشر.

الضد- دالة للمترحلين (للعبرانيين ماضي ترحل كامل، علاقة حالة كاملة مع التنظيم الرقمي المترحل الذي يستلهمون منه، كامل تصير- مترحل خصوصي؛ وخط لا تأرضهم يستعير الكثير من الخط العسكري للتهديم المترحل^(١)). من ناحية أخرى هي في علاقة أساسية بالسيميائية الدالة ذاتها، التي لا يفتأ الحنين إليها يخترقهم هم ذواتهم وإلههم: إعادة إنشاء مجتمع إمبراطوري يندمجون فيه، يتخذون لهم ملكا (صموئيل) مثل الجميع، يعيدون في نهاية الأمر بناء هيكل وطيد (داود وسليمان، زكريا)، إنجاز البناء اللولبي لبرج بابل والعثور من جديد على وجه الرب، ليس إيقاف التيه وحسب، إنما تجاوز الشتات الذي لا يوجد هو ذاته إلا وفق نموذج تجمع كبير. يمكن أن نشير فقط إلى ما يشهد في هذه السيميائية المختلطة على النظام الانفعالي أو الذاتي الجديد، النظام الما بعد- دال.

يعتري الوجهية تغيير عميق. يشيح الله بوجهه الذي لا يجب أن يراه أي مخلوق؛ لكن عكسياً يشيح العبد بوجهه وقد أصابه خوف حقيقي من الله. الوجوه التي تتلفت وتتخذ وضعة جانبية، تعوض الوجه المشع الذي يرى أماميا. إنه في هذا التلفت المضاعف يرتسم خط الإفلات الإيجابي. النبي هو شخصية هذا التنضيد؛ إنه في حاجة إلى علامة تضمن له كلام الله، وهو ذاته قد تلقى علامة تعين النظام

(١) راجع، دورم، دين العبرانيين المترحلين، بروكسيل، وماياني، الهكسوس وعالم التوراة، منشورات بايو. يلح الكاتب على علاقات العبرانيين بالحايرو [الرجال الأحرار]، المترحلين المحاربين، وبالقينين، الحدادين المترحلين؛ ما هو خاص بموسى، ليس هو مبدأ التنظيم الرقمي المستعار من المترحلين، إنما هو فكرة اتفاق- حكم، عقد- حكم قابل دائما للتقوض. يوضح ماياني أن هذه الفكرة بالذات ليست متأتية لا من المزارعين المتجذرين ولا من الرحل المحاربين، ولا حتى من المهاجرين، إنما من قبيلة سائرة يقع التفكير بها في صيغة مصير ذاتي.

الخاص الذي ينتمي إليه . سبينوزا هو الذي أوجد النظرية الأعمق للنبوة، أخذاً في الحسبان هذه السيمائية الخاصة . قابيل الذي تلفت بالفعل عن الله الذي كان تلفت بدوره عنه، يتبع خطّ اللاتأرضن، تحميه العلامة التي تجعله يفلت من الموت . علامة قابيل . عقوبة أشنع من الموت الإمبراطوري؟ الإله اليهودي يبتكر الإرجاء، الوجود في الإرجاء، في الإمهال اللامحدود^(١) . لكن كذلك إيجابية التحالف بوصفه علاقة جديدة مع [١٥٥] الإله، بما أنّ العبد يظلّ حيّاً على الدوام . لا قيمة لهابيل الذي اسمه استعلاء، لكنّ قابيل هو الإنسان الحقيقي . لم تعد المنظومة على الإطلاق منظومة تزييف وانتحال، منظومة تحيي وجه الدالّ وتأويل المتنبئ وتنقلات الفاعل . إنه نظام الخيانة، الخيانة الكلّية، حيث لا يفتأ الإنسان الحقيقي يخون الله بقدر ما يخون الله الإنسان، في غضب إلهي يحدّد الإيجابية الجديدة . تلقى موسى قبل موته كلمات نشيد أنشاد الخيانة . على التقيض من الكاهن-المتنبئ، حتّى النبي خائن بشكل أساسي، وهو يحقق بالتالي أمر الربّ بشكل أفضل ممّا قد يكون حقّقه مؤمن . أمر الله يونس بالذهاب إلى نينوه لاستدعاء السكّان للتكفير عن ذنوبهم وهم الذين لم يتوقّفوا عن خيانة الله . لكن حركة يونس الأولى تمثّلت في اتّخاذه الوجهة المعاكسة، لقد خان الله بدوره، وفرّ «بعيدا من وجه يهوه» . ركب فُلُكا واتّجه نحو ترشيش، نام في الفُلّك نومَ حقّانيّ . العاصفة التي فجّرها الله ألقت به في الماء، التقمه الحوت ثمّ نبذه في العراء على الحدّ بين الأرض والبحر، إنّه حدّ الفصل أو خطّ الإفلات الذي كان من قبل خطّ

(١) راجع، كافكا، المحاكمة . الرّسام تيتورالي هو الذي صنع نظرية الإمهال اللامحدود . لكن باستثناء التبرئة النهائية التي لا وجود لها، يميّز تيتورالي بين «التبرئة الظاهرية» و«الإمهال اللامحدود» بوصفهما نظامين قانونيين: الأوّل دائريّ ويحيل على سيمائية الدالّ، بينما الثاني خطّيّ وأقسوميّ، يحيل على السيمائية الانفعالية .

يَمَامَةُ التَّابُوتِ (يُونُسُ هُوَ بِالْتَّحْدِيدِ اسْمُ الْيَمَامَةِ). لَكِنْ يُونُسُ وَهُوَ يَفْرَّ مِنْ وَجْهِ اللَّهِ، فَعَلَ بِالضَّبْطِ مَا كَانَ اللَّهُ يَرِيدُهُ، حَمَلَ عَلَى عَاتِقِهِ النِّقْمَةَ الَّتِي سَتَصِيبُ نِينُوهُ، قَامَ بِذَلِكَ بِشَكْلِ أَفْضَلِ مِمَّا كَانَ اللَّهُ يَرِيدُهُ، لَقَدْ اسْتَبَقَ اللَّهُ. لِذَلِكَ كَانَ يَنَامُ بِوَصْفِهِ حَقًّا نِيًّا. أَبْقَاهُ اللَّهُ حَيًّا، حَمَاهُ مُؤَقَّتًا بِشَجَرَةِ الْيَقْطِينِ، لَكِنَّهُ أَمَاتَ شَجَرَةَ الْيَقْطِينِ بِدَوْرَهَا، بِمَا أَنَّ يُونُسَ أَعَادَ تَكْوِينَ الْعَهْدِ مُسْتَوِلِيًا عَلَى خَطِّ الْإِفْلَاتِ^(١). الْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ حَتَّى الْكَلْبِيِّ مَنْظُومَةَ الْخِيَانَةِ: لَقَدْ خَانَ إِلَهُ الْيَهُودِ، خَانَ الْيَهُودَ، خَانَهُ اللَّهُ (لَمْ تَخَلِّتْ عَنِّي؟)، خَانَهُ يَهُوذَا، الْإِنْسَانُ الْحَقِيقِيُّ. لَقَدْ تَحَمَّلَ هُوَ النِّقْمَةَ، لَكِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ تَحَمَّلُوا هُمْ النِّقْمَةَ أَيْضًا. يُطَالَبُ الْمَسِيحُ بِعَلَامَةِ نَسَبِهِ الْإِلَهِيِّ: يَسْتَحْضِرُ عِلَامَةَ يُونُسَ. قَابِيلُ، يُونُسُ وَالْمَسِيحُ يَشْكُلُونَ ثَلَاثَةَ مَسَارَاتٍ خَطِيئَةٍ كَبْرَى تَغِيبُ فِيهَا الْعَلَامَاتُ وَتَتَنَاقَبُ. ثَمَّةُ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَسَارَاتِ الْآخَرَى. فِي كُلِّ مَكَانٍ تَحْوِيلٌ وَجْهَةً مَضَاعَفٌ عَلَى خَطِّ الْإِفْلَاتِ.

عِنْدَمَا يَرْفُضُ النَّبِيُّ الْعَهْدَةَ الَّتِي أَنَاطَهُ اللَّهُ بِهَا (مُوسَى، إِرْمِيَا، إِشْعِيَا، إِيخ.)، فَمَا ذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَنْوُو بِهَا، عَلَى طَرِيقَةِ كَاهِنٍ أَوْ عَرَّافٍ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ قَدْ يَرْفُضُ مَهْمَةً خَطِيرَةً: بِالْآخَرَى عَلَى طَرِيقَةِ يُونُسَ، مَتَمَلِّصًا وَهَارِبًا وَخَائِنًا يَسْتَبِقُ قَصْدَ الْإِلَهِ، [١٥٦] بِشَكْلِ أَفْضَلِ مِمَّا لَوْ كَانَ أَطَاعَ. لَا يَفْتَأُ النَّبِيُّ يُرْغَمُ مِنْ طَرَفِ اللَّهِ، يُغْتَصَبُ حَرْفِيًّا مِنْ قَبْلِهِ، أَكْثَرَ مِمَّا يُوحَى إِلَيْهِ. النَّبِيُّ لَيْسَ كَاهِنًا. النَّبِيُّ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَحَدَّثُ، يَحْشُو لَهُ اللَّهُ الْكَلَامَ فِي فَمِهِ، إِنَّهُ أَكُلَ الْكَلَامَ، ابْتِلَاعَ الْمَنِيِّ بِشَكْلِ جَدِيدٍ. عَلَى التَّقْيِيزِ مِنَ الْعَرَّافِ، النَّبِيُّ لَا يُؤَوِّلُ شَيْئًا: لَهُ هَذِيانُ فَعَلَ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ هَذِيانُ فِكْرَةً أَوْ تَخْيِيلًا، عِلَاقَةٌ بِاللَّهِ انْفِعَالِيَّةٌ وَتَسْلُطِيَّةٌ عَوْضًا عَنْ عِلَاقَةٍ اسْتِبْدَادِيَّةٍ وَدَالَّةٍ؛ إِنَّهُ يَسْتَبِقُ قُوَى الْمُسْتَقْبَلِ وَيَتَرَصَّدُهَا عَوْضًا

(١) جِيرُومُ لِينْدَن (Jérôme Lindon) هُوَ أَوَّلُ مَنْ دَرَسَ هَذِهِ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ النَّبُوَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْخِيَانَةِ، فِي الْحَالَةِ التَّمُودُجِيَّةِ لِيُونُسَ، يُونُسَ، مَنَشُورَاتُ مِينُوي.

عن تطبيق السُّلطات الحاضرة والماضية. لم تعد لملاحم الوجهية وظيفة منع تشكيل خطِّ إفلات، أو تشكيل جسد تَمَعْنٍ يراقبه ولا يرسل إليه غير كبش لا وجه له. الوجهية هي التي تنظّم على النقيض من ذلك خطِّ الإفلات في تَوَاجُه الوجهين اللذين ينحفر أحدهما في الآخر وابتعد أحدهما عن الآخر ويتخذان وضعة جانبية. لقد أصبحت الخيانة فكرة ثابتة، هي الهوس الأكبر الذي يعوّض غشّ البارانويّ والهستيريّ. العلاقة «مضطهد- مضطهد» ليست وجهة على الإطلاق: إنها تُغيّر معناها تماما تبعا للنظام البارانويّ الاستبداديّ، وتبعا للنظام الانفعاليّ التسلّطيّ.

شيء يُربكنا مرّة أخرى، إنه تاريخ أوديب. ذلك أنّ أوديب في العالم الإغريقيّ يكاد يكون فريدا. الجزء الأوّل كلّهُ إمبراطوريّ، استبداديّ، بارانويّ، تأويليّ، تنبُّئيّ. لكنّ الجزء الثاني كلّهُ هو تيه أوديب، خطِّ إفلاته في التحوّل المضاعف لوجهه ولوجه الرّبّ. عوضا عن الحدود الدّقيقة جدّا التي نجتازها بشكل منظمّ، أو على النقيض من ذلك التي لا حقّ لنا في اجتيازها (الشُّطط)، ثمة تَوَارٍ للحدّ الذي يبتلع أوديب. عوضا عن الإشعاع الدّالّ التّأويليّ، ثمة سيرورة خطيّة ذاتية ستمكّن أوديب فقط من الاحتفاظ بسرّ هو بمثابة مُتَبَقٍّ قادر على إنعاش مسار خطّيّ جديد. أوديب المسمّى الضّالّ: إنه يبتكر شيئا أشنع من الموت أو من التّفي، إنه يتّبع خطّ الفصل أو اللاتأرضن الإيجابيّ بشكل غريب حيث يتيه ويستمرّ حيّا. هلدلين وهيدغر يريان في ذلك ولادة التّحوّل المضاعف، تحوّل الوجه وولادة التراجيديا الحديثة، التي ينسبناها بغرابة لليونانيين: لم تعد النّهاية هي القتل والموت الفجئيّ، بل البقاء في الإرجاء، إنه إمهال لا محدود^(١). [١٥٧] كان نيتشه ارتأى أنّ

(١) هلدلين، ملاحظات حول أوديب، منشورات ١٨/١٠ (لكن بالفعل ما يفرضه هلدلين من قيود على الخاصية الإغريقية لومثل هذا الموت «البطيء والعسير»؛

أوديب، في مقابل بروميثيوس، هو الميثة الساميّة لليونانيين، تمجيد الانفعال أو الانفعالية^(١). أوديب هو قابيل اليونانيّ. لنعد مرّة أخرى إلى التحليل النفسيّ. لم يَنْقُصْ فرويد على أوديب صدفة. إنّها حقاً حالة سيميائية مختلطة: نظام استبداديّ للتّمعني وللتأويل، مع إشعاع الوجه؛ لكن كذلك نظام تسلّطيّ للذّئبة وللنبوة مع تحوّل الوجه (فجأة)، المحلّل النفسيّ القائم وراء المريض يصبح وجوده منطقيّاً). الجهود الحالية لتفسير كون «دالّ يمثّل الذات بالنسبة إلى دالّ آخر» هي جهود تلفيقية بشكل نموذجيّ. مسار خطّيّ للذّاتية، تطوّر دائريّ في نفس الوقت للدالّ وللتأويل. إنهما نظاماً علامات مختلفان بالتّمام بالنسبة إلى مختلّط واحد. لكن على هذا تقوم أسوأ السّلطات وأمكرها.

مرّة أخرى كلمة حول تاريخ الخيانة الانفعالية التسلّطية، مقابل الغشّ البارانونيّ الاستبداديّ. كلّ شيء خِسّة، لكنّ بورخس (Borges) أخطأ تأريخه للخِسّة الكلّية. كان من الواجب التّمييز بين المجال الشّاسع لضروب الغشّ والمجال الشّاسع للخانات. ثمّ مختلف أشكال الخيانة. ثمّة بالفعل شكل ثان للخيانة، يطلع في لحظات معيّنة، في أماكن معيّنة، لكن دائماً وفق تنضيد يتغيّر تبعاً لمكوّنات جديدة. المسيحية حالة ذات أهميّة خاصّة من سيميائية مختلطة، مع توليفها الإمبراطوريّ الدالّ، لكن أيضاً مع ذاتيتها اليهودية الما بعد-دالّة. إنّها تُغيّر المنظومة الفكرانية الدالّة لكن كذلك المنظومة الانفعالية الما بعد-دالّة. إنّها تبتكر تنضيدا جديداً. ما زالت البدع تشكّل جزءاً من الغشّ، مثل أرثودوكسيّة التّمعني. لكن ثمّة بالفعل بدع هي أكثر من بدع، وتدّعي الانتماء إلى الخيانة المحض: الهرطقيّون البلغار، ليس من قبيل

والتعليق الرّائع لجون بوفريه على طبيعة هذا الموت وعلاقاته بالخيانة: «بالنسبة إلى التحوّل الجازم لله الذي لم يعد غير زمن، على الإنسان أن يتطابق مع ذلك بتحوّله هو ذاته بوصفه خائناً».

(١) نيتشه، ولادة التراجيديا، § ٩.

الصدفة أن يكون للبلغاريين مكان خاص. كان السيّد بلوم يقول: احذروا البلغاريين. إنه مشكل إقليمية بالنسبة إلى حركات اللاتأرضن العميقة. ثمّ إقليمية أخرى أو لا تأرضن آخر، هو أنغلتر: كرومويل، خائن في كلّ مكان، خطّ دَينَة انفعالية مستقيم يعارض مركز التّمعني المَلَكِيّ والدّوائر الوسيطة: الطّاغية ضدّ المستبدّ. ريشارد الثالث، الآثم، المراءوغ، مثله الأعلى هو خيانة كلّ شيء: يواجه الليدي آن وجها لوجه حيث يشيح الوجهان أحدهما عن الآخر لكنّ كلّاً منهما يعرف أنّه للآخر وأنه منذور للآخر. فرّق مع مسرحيات تاريخية أخرى [١٥٨] لشكسبير: الملوك الذين يغشّون لامتلاك السّلطة، إنهم قتلة لكنهم يصبحون ملوكاً جيّدين. إنهم رجال دولة. ريشارد الثالث يأتي من مكان آخر: قضيته، بما في ذلك مع النّساء، متأتية من مكنة حرب أكثر من تأتيها من جهاز دولة. إنّ الخائن المنحدر من كبار المترخّلين ومن سرّهم. إنّ يقول ذلك منذ البداية، متحدّثاً عن مشروع سرّيّ، يتخطّى لا نهائياً الاستيلاء على السّلطة. إنه يريد إعادة مكنة الحرب داخل الدّولة الهشّة كما داخل الأزواج المسالمين. وحدها ليدي آن استكشفت ذلك منبهة، مرتعبة، مستسلمة. المسرح الإليزاباتيّ كلّهُ مخترق بشخصيات الخونة هذه التي تبحث عن أن تكون مطلقة والتي تواجه ضروب الغشّ التي يمارسها رجل البلاط أو حتى رجل الدّولة. - الاكتشافات الكبرى في المسيحية، اكتشاف الأراضي والقارّات الجديدة، كم صاحبّتها من خيانات: خطوط لا تأرضن، حيث تخون مجموعات صغيرة كلّ شيء، تخون الرّفقاء والمَلِك والسّكان الأصليين والجار المستكشف، يملكها أمل مجنون في أن تؤسّس مع امرأة من أسرتهم عرقاً نقياً في النهاية سيجعل كل شيء يبدأ من جديد. فيلم هارزوغ، أغير (Aguirre)، الشكسبيريّ جدّاً، يطرح فيه أغير السّؤال التالي: كيف يكون المرء خائناً في كلّ مكان وفي كلّ شيء؟ أنا الخائن الوحيد هنا. انتهى الغشّ، تبدأ لحظة الخيانة. أيّ حلم كبير هذا!

سأكون الخائن الأخير، الخائن التّام، وبالتالي الإنسان الأخير. - ثمّ الإصلاح: شخصية لوثر الرّائعة بوصفه خائناً لكلّ شيء ولكلّ النّاس، علاقته الشّخصية بالشّيطان التي تتولّد منها الخيانة الكلّيّة في الأعمال الجيّدّة كما في الأعمال السيّئة. - ثمّة دائماً عودة إلى العهد القديم في هذه الوجوه الجديدة للخيانة: أنا غضب الرّب. لكنّ الخيانة أصبحت إنسانويّة، إنّها لم تعد تحدث بين الله وعباده، إنّها تستند إلى الله لتحدث بين عباده وبين الآخرين المُدّانين بوصفهم غشّاشين. بشكل ما، لا وجود إلّا لإنسان واحد هو إنسان الله أو إنسان غضب الله، خائن وحيد ضدّ كلّ الغشّاشين. لكنه مختلط دائماً، أيّ غشّاش لا يدّعي أنه هو ذلك الإنسان؟ وأيّ خائن لا يقول عن نفسه ذات يوم إنّهُ لم يكن إلّا غشّاشاً؟ (انظر الحالة العجيبة لموريس ساخ.)

من الواضح أنّ الكتاب أو ما يقوم مقامه، يتغيّر معناه بين النّظام البارانويّ الدّالّ والنّظام الانفعالي ما بعد- الدّالّ. في الحالة الأولى، ثمّة أولاً إرسال الدّالّ الاستبداديّ وتأويله من طرف الكتبة أو الكهنة، الإرسال الذي يثبّت المدلول ويعيد الدّالّ؛ لكن ثمّة كذلك من علامة إلى علامة، حركة تذهب من إقليم إلى آخر، وتؤمّن بتنقلها سرعة لا تَأْرُضُن معيّنة (على سبيل المثال تنقل ملحمة، التّنافس بين الكثير من المدن لإنجاب بطل، وهنا مرّة أخرى دور [١٥٩] الكهنة- الكتبة في تبادلات الإقليميات والجنياولوجيّات^(١)). لكن ما يقوم مقام الكتاب له هنا دائماً نموذج خارجيّ، مرجع، وجه، أسرة أو إقليم، تحفظ للكتاب خاصية شفوية. على النقيض من ذلك قد نقول إنّ الكتاب في النّظام الانفعاليّ يستبطن ذاته ويستبطن كلّ شيء: يصبح كتاباً مكتوباً مقدّساً.

(١) حول طبيعة «المكتبات» الملحمية (الخاصّة الإمبراطورية، دور الكهنة، التّنقل بين المعابد والمدن)، راجع، شارل أوتران (Charles Autran)، هوميروس والأصول الكهنوتية للملحمة اليونانية، منشورات دنويل.

إنّه هو الذي يحلّ محلّ الوجه، والله الذي يخفي وجهه يعطي موسى الألواح الصخرية المكتوبة. يتبدّى الله بواسطة الأبواق وبواسطة الصّوت؛ لكن في الصّوت نستمع إلى اللا- وجه، مثلما نرى في الكتاب الكلام. لقد أصبح الكتاب هو جسد الآلام، مثلما كان الوجه هو جسد الدالّ. الكتاب الأكثر لا تأرؤنا هو الذي يحدّد الآن الأقاليم والجنياولوجيات. الجنياولوجيات هي ما يقوله الكتاب، الأقاليم هي أين يقال الكتاب. بحيث أنّ التأويل تتغيّر وظيفته كليّا. إمّا أنها تختفي بالتّمام، لصالح تلاوة محض للكتاب الذي يحرم أدنى تغيير، أدنى إضافة، أدنى تعليق (عبارة «تحمّقوا» المسيحية الشهيرة تنتمي إلى هذا الخطّ الانفعاليّ؛ والقرآن هو الذي يذهب إلى الأقصى في هذا الاتجاه). أو أنّ التأويل يظلّ قائما، لكنّه يصبح داخل الكتاب ذاته الذي يفقد وظيفته التّنقيّة بين عناصر الخارج: على سبيل المثال، إنّ تبعا لمحاوّر داخل الكتاب تحدّد مختلف ضروب التأويل المقتنّة؛ إنّ وفق تطابقات بين كتابين، مثلما هو الحال بين العهد القديم والعهد الجديد، ينتظم التأويل، حتى بإحداث كتاب ثالث أيضا يسبح في نفس الوسط الدّاخليّ^(١). أو في النهاية يرفض التأويل كلّ وسيط كما كلّ مختصّ، يصبح مباشرا، لأنّ الكتاب مدوّن في ذاته وفي القلب في نفس الوقت، مرّة بوصفه نقطة ذتيّة ومرّة في الذات (تصوّر إصلاحيّ للكتاب). على آية حال، الانفعال الهذيانّي للكتاب، بوصفه أصل العالم وغايته، يجد ههنا نقطة انطلاقه. الكتاب الأوحّد، الأثر الشّامل، كلّ التّوليفات الممكنة داخل الكتاب، الكتاب- الشّجرة، الكتاب- العالم، كلّ هذه الإعادات العزيزة على حرس الطليعة الذين يقطعون الكتاب عن علاقاته بالخارج، هي أسوأ بكثير من نشيد الدالّ. الأكّد أنّها تساهم بشكل وثيق

(١) راجع، تقنيات تأويل الكتاب في العصر الوسيط؛ والمحاولة القصوى لجواشيم الفلوري (Joachim de Flore)، الذي يُحدث من الدّاخِل حالة ثالثة أو مسارا ثالثا انطلاقا من التّألفات بين العهدين (الإنجيل الخالد، منشورات ريادر).

في السيميائية المختلطة. لكن لها [١٦٠] في الحقبة أصل ورع بشكل خاص. فاغنر، ملارمي وجويس، ماركس وفرويد ما يزالون كُتب تورا. إذا كان الهذيان الانفعالي هو هوس أحادي بشكل عميق، فإنّ الهوس الأحادي من جانبه قد وجد عنصرا أساسيا لتنزيده في التوحيد في وفي الكتاب المقدس. إنّها أعجب عبادة.

هو ذا ما يحدث في النظام الانفعالي أو في نظام الدّينة. لم يعد ثمة وسط تمعّن في علاقة بالدوائر أو بلولب في حالة توسّع، إنّما نقطة دّينة تعطي انطلاق الخطّ. لم تعد ثمة علاقة دالّ-مدلول، إنّما ذات تلفّظ تتولّد من نقطة الدّينة، وذات ملفوظ في علاقة قابلة للتحديد بدورها مع الذات الأولى. لم تعد ثمة دورية من العلامة إلى العلامة، إنّما مسار خطّي أين تغيب العلامة عبر الدّوات. لننظر في ثلاثة مجالات مختلفة:

(١) اليهود في تعارض مع الإمبراطوريات: الرّبّ وهو يسحب وجهه أصبح نقطة دّينة بالنسبة إلى مسار خطّ إفلات أو لا تأرضن؛ موسى بوصفه ذات تلفّظ تتكوّن انطلاقا من ألواح الرّبّ التي تعوّض الوجه؛ الشعب اليهوديّ يكوّن ذات الملفوظ من أجل الخيانة، لكن كذلك من أجل الأرض الجديدة، مشكّلا تحالفا أو «مسارا» خطّيلا لاستعادة دائما، عوضا عن توسّع دائريّ.

(٢) الفلسفة المسمّاة فلسفة حديثة أو مسيحيّة: ديكارت في تعارض مع الفلسفة القديمة: فكرة اللّانهائيّ بوصفها الفكرة الأولى، نقطة دّينة حتمية بإطلاق؛ الكوجيطو، الوعي، «أنا أفكر» بوصفه ذات تلفّظ تتفكّر استعمالها الخاصّ ولا تدرك ذاتها إلّا وفق خطّ لا تأرضن يمثّله الشكّ المنهجيّ؛ ذات الملفوظ، وحدة النّفس والجسد أو الإحساس، التي سيضمّنها الكوجيطو بطريقة معقّدة، والتي ستقوم بإعادة الأرضنات الضّرورية. الكوجيطو، الذي يتكرّر دائما بوصفه مسارا، مع إمكانية الخيانة التي تسكنه، الله المخادع والشيطان الماكر.

وعندما يقول ديكارت: يمكنني الاستدلال على «أنا أفكر إذا أنا كائن»، بينما لا يمكنني ذلك بالنسبة إلى «أنا أتجول إذا أنا كائن»، فإنه يطلق التمييز بين ذاتين (ما يسميه اللسانيون الحاليون الديكارتيون دوما بالمتحول، حتى وإن عثرنا في الذات الثانية على أثر الأولى).

(٣) الطّب النفسي للقرن التاسع عشر: الهوس الأحادي مفصّلا عن الهوس؛ الهذيان الذاتيّ معزولا عن الهذيانات الفكرانيّة؛ حلول الـ«هلوسة» محلّ الشعوذة؛ تحرير بطيء للهذيانات الانفعالية التي تختلف عن البارانويا... رسيمة الهذيان الانفعاليّ وفق كليرمبو هي: المسلّمة بوصفها نقطة الدّتيّة (هو يحبّني)؛ الكبرياء بوصفها مزاج ذات التّلّفظ (التعقّب المحموم للكائن المحبوب)؛ الامتعاظ والحقّد (بوصفهما [١٦١] مفعول النّكوص في ذات الملفوظ). الهذيان الانفعاليّ هو كوجيطو حقيقيّ. في هذا المثال الذي هو مثال الهوس الشّبقيّ، كما بالنسبة إلى الغيرة أو الاختصام، يلحّ كليرمبو كثيرا على التّالي: أن يكون على العلامة الذّهاب إلى أقصى حدّ من تنضيد أو من مسار خطّيّ قبل أن تستأنف تنضيدا أو مسارا خطّيّا آخر، بينما لا تفتأ العلامات تُشكّل في الهذيان البارانويّ شبكة تتطوّر في كلّ الاتّجاهات وتعّدّل ذاتها. كذلك يتّبع الكوجيطو مسارا زمنيّا خطّيّا يجب أن يتكرّر. تاريخ اليهود كان منقّطا بالكوارث حيث في كلّ مرّة كان يبقى فقط القليل من النّاجين لاستئناف مسار جديد. جملة المسار موسومة غالبا بالتّالي: صيغة الجمع مستعملة طالما كان ثمة حركة خطيّة، لكن يظهر تذكّر في صيغة المفرد مذ تُثبت استراحة أو توقّف نهاية حركة قبل استئناف حركة أخرى^(١). إنها أقسوميّة أساسية: يجب أن ينتهي مسار

(١) على سبيل المثال، سفر التثنية، XIX، ١: «ارتحلوا من رفيديم وجاؤوا إلى برية سيناء فنزلوا في البرية. هناك نزل إسرائيل مقابل الجبل». [هذه الآية موجودة في مستهلّ الإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج وليس من سفر التثنية مثلما يذكر المؤلفان (المترجم)].

(وانتهاؤه ملحوظ) قبل بداية آخر، وحتى يتمكن المسار الآخر من البدء.

الخطّ الانفعاليّ للنّظام الما بعد- دالّ يجد مصدره في نقطة الذّتيّة. هذه الأخيرة يمكن أن تكون أيّ شيء. يكفي أنه يمكننا العثور انطلاقاً من هذه النّقطة على الملامح المميّزة لهذه السّيميائية الذّاتية: التّحويل المضاعف، الخيانة، الوجود في الإمهال. يلعب الغذاء هذا الدّور بالنّسبة إلى القهَميّ (القَهَميّ لا يواجه الموت، لكنه ينجو بخيائته للغذاء، والغذاء ليس أقلّ خيانة، إنه مشتبه فيه كونه يحتوي يركات ودودا وجراثيم). فستان، ملابس داخلية، حذاء، هي نقاط ذّتيّة بالنّسبة إلى فيتشيّ. ملمح وجّهية بالنّسبة إلى عاشق، لكنّ الوجّهية تغيّر معناها، توقّفت عن كونها جسد دالّ لتصير نقطة انطلاق لا تارُضن لتجعل كلّ شيء آخر يفرّ. شيء أو حيوان يمكنهما الإيفاء بالغرض. ثمّة كوجيطات على كلّ شيء. «عينان واسعتان جدّاً، رأس منحوتة في الكوارتز، خصر كان يبدو أنه يتمتّع بحياة شخصية (...). كلّما أصبح الجمال لا يقاوم إلّا وأمكن اختزاله في خاصية وحيدة»: نقطة ذّتيّة في انطلاق خطّ انفعاليّ^(١). بل أكثر من ذلك، تتماعى الكثير من النّقاط بالنّسبة إلى فرد أو جماعة معيّنة، تنخرط دائماً في الكثير من المسارات الخطيّة المتمايّزة، لكنها ليست متوائمة دوماً. تتمثّل أشكال التربية أو «الطبّعة» المختلفة المفروضة على فرد، [١٦٢] في جعله يغيّر نقطة الذّتيّة لتكون دائماً أرقى وأنبّل وأكثر تطابقاً مع مثل أعلى مفترَض. ثمّ من نقطة الذّتيّة تتولّد ذات التّلَفّظ طبقاً لواقع ذهنيّ محدّد من قبل هذه النّقطة. ومن ذات التّلَفّظ تتولّد بدورها ذات الملفوظ، أي ذاتا منخرطة في ملفوظات مطابقة لواقع مهيم (لا يشكّل الواقع الذهني المذكور غير جزء منه، حتى عندما يبدو معارضا له). ما هو مهمّ، ما يجعل بالتّالي

(١) هنري ميلار، صَبُوات، منشورات بوشاي- شاستل، ص ٣٣٤.

من الخطّ الانفعاليّ الما بعد- دالّ خطّ ذتيّنة أو إخضاع، هو تكوين الذاتين ومضاعفتهما، وارتداد إحداهما على الأخرى، ارتداد ذات التلقّظ على ذات الملفوظ (ما يعترف به اللسانيون عندما يتحدثون عن «أثر مسار التلقّظ في الملفوظ»). كان التّمعني يقوم بتأحيد جوهريّ للتلقّظ، لكنّ الذاتيّة تُجري الآن تفريدا جماعيّاً أو خاصّاً. مثلما يقال، أصبح الجوهر ذاتاً. ترتدّ ذات التلقّظ على ذات الملفوظ حتى وإن اقتضى الأمر أن توقّر هذه الأخيرة بدورها ذات تلقّظ لمسار آخر. لقد أصبحت ذات الملفوظ «رديفاً» لذات التلقّظ في ضرب من التريد الاختزاليّ صلب علاقة تناظرية. هذه العلاقة أو هذا الارتداد هو كذلك ارتداد الواقع الذّهنيّ على الواقع المهيمن. ثمّة دائماً استدعاء لواقع مهيمن يعمل من الدّاخل (كذلك هو الحال بالفعل في العهد القديم؛ في الإصلاح، مع التجارة والرّأسمالية). لم تعد ثمّة حاجة حتى إلى مركز سلطة متعالية، لكن ثمّة حاجة بالأحرى إلى سلطة محايدة تختلط بال«واقع» وتعمل بواسطة الطّبعنة. ثمّة هنا ابتكار عجيب: كأنّ الذات المنشطرة كانت في أحد أشكالها، علّة الملفوظات التي كانت هي جزء منها في أحد أشكالها الأخرى. إنّها مفارقة المشرّع- الذات الذي يحلّ محلّ الدّالّ المستبدّ: بقدر ما تخضع لملفوظات الواقع المهيمن، بقدر ما تأمر بوصفك ذات تلقّظ في الواقع الذّهنيّ، إذ لا تخضع في نهاية الأمر إلّا لذاتك، إنك تخضع لذاتك! مع ذلك أنت من يأمر من حيث أنّك كائن عاقل... لقد ابتكرنا شكل عبودية جديد، أن يكون المرء عبداً لذاته، أو ابتكرنا «العقل» المحض، الكوجيطو. هل ثمّة ما هو أكثر انفعالية من العقل المحض؟ هل ثمّة انفعال أكثر فتورا وأكثر قُصووية وأكثر اكترائاً من الكوجيطو؟

استخرج التوسير بوضوح هذا التّكوين الذي هو تكوين الأفراد الاجتماعيّين بوصفهم ذواتاً: يسمّي هذا التّكوين مناداة (يا، أنت، هناك!)، يسمّي ذاتاً مطلقة نقطة الذّتيّنة، يدرس «التّضاعف المرآويّ»

للذّوات، ويُجري برهنته باعتماد [١٦٣] مثال الله وموسى والشّعب اليهوديّ^(١). لسانيّون مثل بنفنيست أنشأوا شَخَصَةً لسانية، قريبة جدّا من الكوجيطو: الآنّت، الذي يمكنه أن يشير دون شكّ إلى الشّخص الذي نتوجّه إليه، لكن أكثر من ذلك إلى نقطة ذَتِيّة انطلاقا منها يتشكّل كلّ واحد بوصفه ذاتا؛ الأنا بوصفه ذات التَّلَفُّظ يشير إلى الشّخص الذي يتلفّظ ويتفكّر استعماله الخاصّ في الملفوظ («علامة خاوية غير مرجعية»)، مثلما يظهر في قضايا من نمط «أعتقد، أفترض، أفكّر...»؛ أخيرا الأنا بوصفه ذات الملفوظ، الذي يشير إلى حالة يمكن تعويضها دائما بهو («أتألّم، أمشي، أتنفّس، أحسّ...»^(٢)). غير أنّ الأمر لا يتعلّق بعملية لسانية، ذلك أنّ الذّات ليست البتّة شرط لغة ولا علّة ملفوظ: ليس ثمة ذات، إنّما فقط تنضيدات تَلَفُّظ جماعية، الذّتِيّة ليست إلّا واحدا منها، وهي تشير بهذه الصّفة إلى صُورَنَة التّعبير أو إلى نظام علامات، وليس إلى شرط مُداخل للغة. لا يتعلّق الأمر فضلا عن ذلك، مثلما يقول ألتوسير، بحركة قد تخصّص الإيديولوجيا: الذّتِيّة بوصفها نظامَ علامات أو شكلَ تعبير تحيل على تنضيد، أي على تنظيم للسلطة يعمل فعليّا بالتّمام في الاقتصاد، ولا يأتي ليتربّغ على مضامين أو على علاقات مضامين محدّدة بوصفها مضامين واقعية في نهاية المطاف. رأس المال هو نقطة ذَتِيّة بامتياز.

كوجيطو تحليليّ نفسيّ: يحضر المحلّل النفسيّ بوصفه نقطة ذَتِيّة فكرانية، ستجعل المريض يتخلّى عن نقاطه القديمة المسمّاة نقاطا عُصابيّة. سيكون المريض ذاتَ تلفّظ في كلّ ما يقوله للمحلّل النفسيّ،

(١) ألتوسير، «الإيديولوجيا والأجهزة الإيديولوجيّة للدولة»، في مجلّة الفكر، جوان/يونيو، ١٩٧٠، صص ٢٩-٣٥.

(٢) بنفنيست، مشكلات اللّسانية العامّة، غاليمار، ص ٢٥٢ وما بعدها، يتحدّث بنفنيست عن «مسار».

وفي الظروف الذهنية الاصطناعية لجلسة العلاج: سيُسمّى كذلك «الخاضع للتحليل النفسي» هو المحلّل النفسي للمحلّل النفسي». لكن في كلّ ما يقوله أو يفعله في مكان آخر، هو ذاتٌ ملفوظ، إنه خاضع للتحليل النفسي على الدوام، من مسار خطّي إلى مسار خطّي، حتّى وإن غيّر المحلّل النفسي، فإنه يظلّ أكثر خضوعاً لطبّعة واقع مهيمين. بهذا المعنى ينتمي التحليل النفسي بالكامل، في سيميائتيه المختلطة، إلى خطّ دَتيّنة. لم يعد المحلّل النفسي في حاجة حتّى إلى الكلام، يأخذ المحلّل النفسي على عاتقه مهمّة التأويل؛ أمّا الخاضع للتحليل النفسي فهو ذاتٌ تكون بحال أفضل بقدر ما تفكّر بجلستها المقبلة أو السابقة في شكل أقسومات.

[١٦٤] كما أنه كان للنظام البارانويّ محوران، من ناحية، العلامة التي تحيل على علامة (وبذلك تكون دالّة)، من ناحية أخرى الدالّ الذي يحيل على المدلول، كذلك للنظام الانفعاليّ أو لخطّ الدّتيّنة محوراها السّياقيّ والاستبداليّ: الأوّل مثلما رأينا هو الوعي. الوعي بوصفه انفعالا هو بالضّبط هذا الانشطار الذي هو انشطار الذاتين إلى ذات تَلَفُظ وذات مَلْفُوظ، وارتداد إحداها على الأخرى. لكنّ الشكل الثاني للدّتيّنة هو الحبّ بوصفه انفعالا، الحبّ- الانفعال، وهو ضرب آخر من القران، من الانشطار والارتداد. هنا أيضا نقطة دَتيّنة متحوّلة ستُستخدم لتوزيع الذاتين اللّتين ستؤايريّان وجهيهما بقدر ما ستنزح إحداها باتجاه الأخرى، وستتقرنان بخطّ إفلات يقربهما ويفصلهما بشكل دائم. لكن كلّ شيء يتغيّر: ثمة جانب أعزب للوعي الذي ينشطر، ثمة زوج الحبّ الانفعاليّ الذي لم يعد في حاجة إلى وعي ولا إلى عقل. ومع ذلك هو نفس النظام حتّى في الخيانة، وحتى إذا قام بالخيانة طرف ثالث. آدم وحواء، زوجة قابيل (التي كان على التّورا أن تستزيد عنها الحديث). ريشارد الثالث الخائن الذي يؤول إلى الوعي الذي يحمله له الحُلم، لكنّه مرّ بالمواجهة الغريبة مع ليدي آن، مواجهة

وجهين يتواريان وهما يعرفان أنهما مرصودان أحدهما للآخر وفق نفس الخط الذي سيفرقهما بالرغم من ذلك. الحب الأكثر وفاء والأكثر حنواً أو الأشد أواراً، يوزع ذات تلفظ وذات ملفوظ لا يفتان يتبادلان، في رقة كوني أنا ذاتي ملفوظاً عارياً في فم الآخر، وكون الآخر تلفظاً عارياً في فمي. لكن ثمة دائماً خائن مُبَيَّت. أيُّ حبٍّ لن تقع خيانتة؟ أيُّ كوجيطو ليس له شيطانه الماكر، الخائن الذي لا يستطيع التخلّص منه؟ «تريستان... إيزولد... إيزولد... تريستان...» [أوبرا لريشارد فاغنر]: صراخ الذاتين يصعد هكذا سلّم الاشتدادات بكامله، حتى يصل إلى قمة وعي خانق، بينما تتبّع السفينة خطّ المياه، خطّ الموت واللاوعي، خطّ الخيانة، خطّ اللحن المتواصل. الحبّ الانفعاليّ هو كوجيطو ثنائيّ مثلما الكوجيطو هو انفعال للذات وحدها. ثمة زوج كامن في الكوجيطو، مثل انشطار ذاتٍ افتراضية واحدة في الحبّ-الانفعال. أمكن لكلوسفسكي استخراج أعجب الوجوه من هذا التّكامل لفكر محتدم جدّاً ولزوج محموم جدّاً. خطّ الدّثينة كلّهُ استولى عليه بالتالي الانشطار، لكن له وجهان مثلما ثمة ضربان من الانشطارات: الوجه السيّاقيّ للوعي أو للانشطار الوعويّ الذي يتعلّق بالصّورة (أنا = أنا)؛ الوجه الاستبداليّ للزوج أو الانشطار الانفعاليّ الذي يتعلّق بالمادّة [١٦٥] (الرّجل = المرأة، الانشطار هو بشكل مباشر الفرق بين الجنسين).

بإمكاننا متابعة صيرورة هذه الانشطارات في سيميائيات مختلطة تُشكّل كذلك أخلاطاً مثلما تُشكّل تقهقرات. من ناحية، الانشطار الغراميّ الانفعاليّ، زوج الحبّ-الانفعال يسقط في علاقة زوجية أو حتى في «شجار عائليّ»: من هي ذات التّلّفظ؟ من هي ذات الملفوظ؟ صراع الجنسين: أنت تسرق أفكارِي، الشّجار العائليّ كان دائماً كوجيطو ثنائيّاً، كوجيطو حرب، لقد دفع سترندبارغ (Strindberg) إلى أقصى حدّ سقوط الحبّ-الانفعال في الزّوجية الاستبدادية وفي

المشهد البارانوني- الهستيري («هي» تقول إنها وجدت كل شيء بنفسها؛ في حقيقة الأمر هي تدّين لي بكل شيء، صدى، سرقة أفكار، أوه يا سترندبارغ^(١)!). من ناحية أخرى، الانشطار الوَعْيوي للفكر المحض، زوج المشرّع- الذات يسقط في علاقة بيروقراطية، وشكل اضطهاد جديد، حيث يستولي أحدهما على دور ذات التَلَفُظ بينما لا يكون الثاني غير ذات مَلْفُوظ: يصبح الكوجيطو هو ذاته «شجار مكتب»، هذيانا غراميًا بيروقراطيًا، شكل بيروقراطية جديد يحلّ محلّ البيروقراطية الإمبراطورية القديمة أو يتزاوج معها، يقول البيروقراطي أنا أفكر (كافكا هو الذي ذهب إلى أقصى مدى في هذا الاتجاه، كما في مثال القصر، سورتيني وسورديني، أو كذلك مختلف دَتِينات كُلام (Klamm)^(٢)). الزّواجية هي تطوّر القرينين مثلما البيروقراطية هي تطوّر الكوجيطو: لكن إحدهما في الأخرى، بيروقراطية غرامية وزوجان بيروقراطيان. لقد وقعت الكتابة كثيرا في الصُّنو كيفما اتَّفَق، ميتافيزيقيا بوضعه في كلّ مكان، في آية مرآة كانت، دون رؤية نظامه الخاصّ في سيميائية مختلطة حيث يُدخِل لحظات جديدة كما في السِّيميائية المحض للذَّئِنَة حيث يتنزّل على خطّ الإفلات ليفرض عليه صورا خاصّة جدًا. مرّة أخرى: صورتنا الفكر- الوعي والحبّ- الانفعال في النّظام الما بعد- دالّ؛ لحظتنا الوعي البيروقراطيّ والعلاقة الزّواجية في السَّقُوط أو في التوليف المختلطين. لكن، حتى في المختلط، الخطّ الأصلائي ينبعث يسر من تحت شروط تحليل سيميائيّ.

-
- (١) تَمَثّل وجه من وجوه عبقرية سترندبارغ في رفع الزّوج والمعاشرة/ الخصومة العائلية إلى مستوى سيميائيّ مكثّف، وفي جعله عامل إبداع في نظام العلامات. لم تكن تلك هي الحال مع جوهندو (Jouhandeau). بالمقابل، عرف كلوسفسكي كيف يستحدث مصادر وصراعات جديدة لكوجيطو انفعاليّ ثنائيّ، من زاوية نظرية عامّة للعلامات (قوانين الضّباية، غاليمار).
- (٢) راجع أيضا، دوستوفسكي، الصُّنُوء.

ثمة تردد للوعي وللحبّ، ليس هو [١٦٦] نفسه التردد الدالّ للنظام الآخر. في النظام الدالّ يكون التردد ظاهرة تواتر موضوعي يلحق العلامات أو عناصر العلامات (الصّواتم، الحروف، مجموعات حروف داخل لسان): ثمة في نفس الوقت تواتر أقصى للدالّ بالنسبة إلى كلّ علامة، وتواتر مقارن لعلامة بالنسبة إلى علامة أخرى. قد نقول على أية حال إنّ هذا النظام يطوّر ضرباً من «جدار» تُدوّن عليه العلامات في علاقاتها بعضها ببعضها الآخر كما في علاقتها بالدالّ. على التقيض من ذلك، في النظام الما بعد- دالّ، يكون التردد تردد إصداء ذاتي، يؤثر قبل كلّ شيء على أدوات الوصل، على الضّمائر وعلى أسماء الأعلام. هنا أيضاً سنميّز بين إصداء أقصى للوعي بالذات (أنا = أنا) وإصداء مقارن بين الأسماء (تريستان... إيزولد...). لكن هذه المرّة لم يعد ثمة جدار حيث يُحتسب التواتر، إنه بالأحرى ثقب أسود يجذب الوعي والانفعال اللّذين يُصديان فيه. تريستان ينادي إيزولد، إيزولد تنادي تريستان، الاثنان معا يتقدّمان بالتّجاه الثقب الأسود لوعي بالذات يسوقهما إليه الدّفق، يسوقهما إلى الموت. عندما يميّز اللّسانيون بين صورتين من التردد هما التواتر والإصداء، فإنّهم عادة ما يعطون للثاني مجرد منزلة مشتقّة^(١). في الحقيقة، يتعلّق الأمر بسميائيّتين تختلطان لكن لهما مع ذلك مبدآن مختلفان (قد نستطيع بالمثل تحديد صور أخرى من التردد أيضاً، صوراً إيقاعية أو إشاريّة، صوراً رقميّة، تحليل على أنظمة أخرى للعلامات). ما يميّز جوهرياً بين النظام الدالّ والنظام الذاتيّ كما بين تردد كلّ منهما، هو حركة اللاتأرُضن التي يقوم بها. لأنّ العلامة الدالّة لم تعد تحليل إلّا على العلامة، ومجموع العلامات تحليل على الدالّ ذاته، فإنّ السيميائية المطابقة لهما تتمتع بدرجة عالية

(١) حول صورتين التردد هاتين، راجع مقال «ترداد» في مارتنيه، اللسانية، الدليل الألفبائيّ، منشورات دنوال، صص ٣٣١-٣٣٣.

من اللاتأرضن، لكنّها درجة ما تزال نسبية ومعبراً عنها بوصفها تواترا. في هذه المنظومة يظلّ خطّ الإفلات سلبياً، مخصوصاً بعلامة سلبية. لقد رأينا أنّ النظام الذاتيّ كان يعمل بشكل مغاير: فعلاً لأنّ العلامة تقطع علاقة تمعّنيها مع العلامة، وتبدأ في الإسراع على خطّ إفلات إيجابيّ، إنّها تصل لا تأرضنا مطلقاً يعبر عن ذاته في الثقب الأسود للوعي وللانفعال. إنّ اللاتأرضن المطلق للكوجيطو. لأجل ذلك يبدو التردّد الذاتيّ منزوعاً في التردّد الدالّ ومستمدّاً منه وكأنّه تردّد من درجة ثانية.

وإنّ الأمر لأكثر تعقيداً ممّا نقول. الدّتيّة تخصّ خطّ الإفلات بعلامة إيجابية، إنّها توصل اللاتأرضن [١٦٧] إلى المطلق، الشّدة إلى أعلى درجة، التردّد إلى صورة منعكسة، إلخ. لكن دون السقوط مجدداً في النظام السّابق، لها طريقتها الخاصّة في التّصلّ من الإيجابية التي تحرّرها أو في تنسيب المطلق الذي تصل إليه. مطلق الوعي هو مطلق العجز، وهو شدّة الانفعال، حرارة الخلاء في هذا التردّد الذي هو تردّد الإصداء. ذلك أنّ الدّتيّة تكوّن جوهرية مسارات خطيّة منتهية، من مثل انتهاء أحدها قبل أن يبدأ الآخر: كذا الحال بالنسبة إلى كوجيطو مكرور دائماً، بالنسبة إلى انفعال أو إلى مطالبة مُعادين دوماً. كلّ وعي يتابع موته الخاصّ، كلّ حبّ - انفعال يتابع نهايته الخاصّة، يجذبهما ثقب أسود، وكلّ الثّقوب السوداء تُصدي مع بعضها. بذلك تفرض الدّتيّة على خطّ الإفلات أقسوميّة لا تفتأ تتنصّل منها، وعلى اللاتأرضن المطلق نقطة إلغاء لا تفتأ توصلها وتغيّر مجراها. السّبب في ذلك بسيط: صور التّعبير أو أنظمة العلامات ما تزال طبقات (حتى عند تأملها في حدّ ذاتها، بغضّ النّظر عن صور المضمون)؛ الدّتيّة طبقة بقدر ما التّمعني طبقة.

الطبقات الرّئيسية التي تقيّد الإنسان هي العضوية، لكن كذلك التّمعني والتّأويل، الدّتيّة والإخضاع. هذه الطبقات مجتمعة هي التي

تفصلنا عن مسطّح القوام وعن الممكنة المجرّدة، هنالك حيث لم يعد ثمة نظام علامات، إنّما حيث يُجري خطّ الإفلات إيجابيته الخاصة الكامنة، وحيث يُجري اللاتأرضن اقتداره المطلق. لكن الإشكال بهذا الصّد يتمثّل في قلب التّضيد الأكثر ملاءمة: جعله يمرّ من وجهه الملتفت نحو الطبقات إلى الوجه الآخر الملتفت نحو مسطّح القوام أو نحو الجسد دون أعضاء. تصل الذّتيّة بالرّغبة إلى نقطة قصوى من الشّطّط والانفلاق بحيث إنه على الرّغبة أن تلتغيّ في ثقب أسود أو أن تغيّر مسطّحها. إزالة التّراصّف، الانفتاح على وظيفة مبيانيّة جديدة. أن يتوقّف الوعي عن أن يكون صِنُو ذاته وأن يتوقّف الانفعال عن أن يكون صِنُو هذا لذاك. أن نجعل من الوعي تجريب حياة ومن الانفعال حقل شدّد متواصلة، حقل إرسال علامات- جُزيئات. تكوين جسد دون أعضاء للوعي وللحُبّ. استعمال الحُبّ والوعي لإلغاء الذّتيّة: «ليصير المرء هو العاشق الأكبر، المُمغنِط والمحفّز، عليه أن يحيا أولا حكمة ألا يكون غير آخر الحمقى»^(١). استعمال الأنا أفكّر من أجل [١٦٨] التّصير- حيوانا، واستعمال الحُبّ من أجل التّصير- زوجة رَجُل. المطلوب عدم ذّتيّة الوعي والانفعال. أليس ثمة تَردادات مبيانيّة لا تتطابق لا مع التّردادات الدّالّة ولا مع التّردادات الذّاتيّة؟ تَردادات قد لا تكون عُقد تشجّر بل استعادات وتوتّبات في جذمور؟ أن يكون المرء مُتأتى لغة وغريبا في لسانه الخاص،

«لا تُلا هيْم لا انفع لا تهيمونا

لا تهيمونا على انفعالاتكم السّلبية لا

(١) هنري ميلار، صَبُوات، ص ٣٠٧. مبحث الأحمق هو ذاته شديد التّنوّع. إنه يعبر الكوجيطو بوضوح وفق ديكارت والشّعور وفق روسو. لكنّ الأدب الرّوسيّ يجرّه نحو سبُل أخرى، في ما أبعد من الوعي ومن الانفعال.

لا تُلْهَمُونَ لَا تُلْهَمُونَ لَا تُلْهَمُونَ

فترانكم هي حصصكم فترانكم حصصكم لا لا... (١)

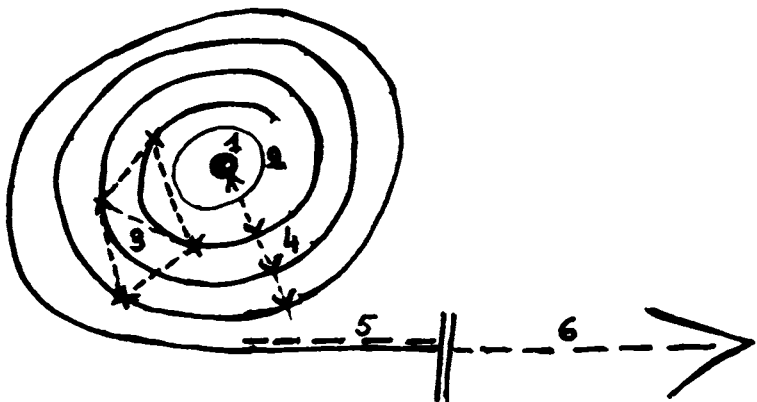
كما لو أنه كان يتوجب التمييز بين ثلاثة أصناف من اللا تارُضُن: بعضها نسبية، خاصة بالطبقات وتُتَوَّج مع التَّمَعْنِي؛ الأخرى مطلقة لكنها ما تزال سلبية وترَاصِفِيَّة، تظهر في الذِّتِيَّة (عقل وانفعال)؛ أخيرا إمكان لا تارُضُن إيجابِيّ مطلق على مسطَّح القِوَام أو على الجسد دون أعضاء.

الآكد أننا لم ننجح في التخلّص من صور المضمون (على سبيل المثال دور المعبد، أو كذلك وضع واقع مهيمِن، إلخ). لكننا فصلنا في ظروف اصطناعية بين عدد معيّن من سيميائيّات ذات خصائص متنوّع جدًا. السيميائية الما قبل دالّة، حيث يعمل «اشتطاط التقنين» الذي يسم أفضلية اللّغة بشكل منتشر: يكون فيها التلّفُظ جماعيّا، الملفوظات ذاتها متعدّدة الأصوات، موادّ التعبير متعدّدة؛ يكون فيها اللا تارُضُن النسبيّ محدّدًا بتجاوئه الإقليميات والأنساب الأقساميّة التي تتحاشى جهاز الدّولة. السيميائية الدّالّة: هنالك حيث يتمّ التقنين المشتطّ تماما بواسطة الدّالّ وبواسطة جهاز الدّولة الذي يبثّه؛ ثمّة تنميط للتلفّظ، توحيد لمادّة التعبير، مراقبة الملفوظات في نظام استدارية؛ اللا تارُضُن النسبيّ فيها مدفوع إلى أعلى نقطة بإحالة دائمة وترداديّة للعلامة على العلامة. السيميائية الضّدّ- دالّة: التقنين المشتطّ يؤمّنه فيها العدد بوصفه صورة تعبير أو تلفّظ وبواسطة مكنة الحرب التي هو متوقّف عليها؛ يتّبع اللا تارُضُن خطّ تهديم أو إلغاء فاعل. السيميائية الما بعد دالّة، حيث يقع تأمين التقنين المشتطّ بترداد الوعي؛ تحدث ذتيّة للتلفّظ على خطّ انفعاليّ يجعل تنظيم السّلطة تنظيمًا محايدًا ويرفع اللا تارُضُن

(١) غيراسيم لوكا، ترنيمة الشبّوط، صص ٨٧ - ٩٤.

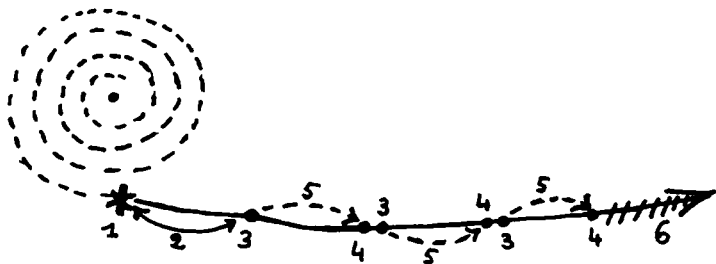
إلى درجة المطلق، حتى وإن كان ذلك بطريقة [١٦٩] ما تزال سلبية. -
لكن علينا النظر في جانبين: من ناحية، هذه السيميائيات، حتى بغضّ
النّظر عن صور المضمون، هي سيميائيات عينية، إنّما من حيث أنّها
مختلطة، من حيث أنّها تشكّل توليفات مختلطة. كلّ سيميائية هي
سيميائية مختلطة ولا تعمل إلّا على ذلك النّحو؛ كلّ واحدة منها تستولي
بالضرورة على أجزاء من سيميائية أو من كثرة من السيميائيات الأخرى
(فوائض قيم تقنين). حتى من هذه الزاوية، ليس للسيميائية الدّالة أن
تؤكد لذاتها أية أفضلية لتشكيل سيمولوجيا عامّة: خاصّة الطّريقة التي
تتألف بها مع السيميائية الانفعالية للذّاتية («الدّالّ للذات») لا تستتبع أية
أفضلية بالنّسبة إلى توليفات أخرى، على سبيل المثال بين السّيمياء
الانفعالية والسّيمياء الضّد-دالة، أو كذلك بين السّيمياء ضّد-دالة
والسّيمياء الدّالة ذاتها (عندما تجعل الأعداد من ذاتها أعدادا
إمبراطورية)، إلخ. لا وجود لسيمولوجيا عامّة.

على سبيل المثال، ودون أفضلية نظام على آخر، يمكننا إنجاز
رسيمات تتعلّق بالسيميائية الدّالة والسيميائية الما بعد-دالة، حيث
تبدّى بالتأكيد إمكانات الاختلاط العيني:



١. المركز أو الدالّ، وَجْهِيَّةُ الإله أو المستبدّ؛ ٢. المعبد أو القصر، مع الكهنة والبيروقراطيين؛ ٣. التنظيم في دوائر والعلامة التي تحيل على علامة، على نفس الدائرة أو من دائرة إلى أخرى؛ ٤. التحويل التّأويليّ للدّالّ إلى مدلول، لإعطاء الدّالّ من جديد؛ ٥. الكيش التّكفيريّ، سدّ خطّ الإفلات؛ ٦. كيش الفداء، العلامة السّلبية لخطّ الإفلات.

لكنّ المظهر الآخر، التّكميليّ والمختلف جدّا، يتمثّل في التّالي: إمكانية تغيير سيميائية محض أو مجردة في سيميائية أخرى، بموجب التّرجميّة التي تتولّد من التّقنين المشتطّ بوصفه ميزة خاصّة للغة. هذه



١. خطّ الدّيتنة يعوّض مركز التّمغني؛ ٢. الوجهان اللّذان يتلفّتان؛ ٣. ذات التلقّظ المستمدّة من نقطة الدّيتنة في التلقّظ؛ ٤. ذات الملفوظ التي ترتدّ عليها ذات التلقّظ؛ ٥. تتابع المسارات الخطيّة المنتهية، مع شكل جديد من الكهنة ومع بيروقراطية جديدة؛ ٦. ما به يظلّ خطّ الإفلات سلبيّا ومسدودا، متحرّرا لكنه ما يزال مقسّما.

المرّة لم يعد الأمر متعلّقاً [١٧٠] بالسّميات العينيّة المختلطة، إنّما بتغييرات سيميائية مجرّدة في أخرى (حتى إذا لم يكن هذا التّغيير مجرّداً فيما يخصّه، أي أنّه حدث فعليّاً دون أن يقوم به «ترجمان» بوصفه عالِماً خالصاً). قد نسمّي تحوّلات تماثليّة كلّ تلك التي قد تنقل سيميائيّة ما إلى النّظام الما قبل دالّ؛ تحوّلات رمزية، في النّظام الدّالّ؛ تحوّلات جدالية أو استراتيجية، في النّظام الضّد- دالّ؛ وغيويّة أو محاكائيّة، في النّظام الما بعد- دالّ؛ وأخيراً مبيانيّة، تلك التي قد تشظّي السّميات أو أنظمة العلامات فوق مسطّح القوام لئلاّ تارصن إيجابيّ مطلق. لا يتطابق التّحوّل مع ملفوظ سيميائيّة محض؛ ولا حتّى مع ملفوظ ملتبس حيث يتوجّب القيام بتحليل تداوليّ كامل لمعرفة السّميات التي ينتمي إليها؛ ولا مع ملفوظ ينتمي إلى سيميائيّة مختلطة (مع أنّ التّحوّل يمكن أن يكون له مثل هذا المفعول). ملفوظ تحويليّ يسم بالأحرى الكيفيّة التي تترجم بها سيميائيّة معيّنة لصالحها ملفوظات متأتية من أماكن أخرى، لكن بتحويلها، تاركة منها بقايا لا يمكن تحويلها، ومقاومة التّحوّل المعاكس بفعاليّة. بل أكثر من ذلك، التّحوّلات لا تقتصر على القائمة السّابقة. إنّها دائماً بواسطة التّحويل تكون سيميائيّة جديدة قادرة على صنع ذاتها لصالح ذاتها. يمكن للترجمات أن تكون مبدعة. يقع تشكيل أنظمة جديدة لعلامات محض بواسطة التّحويل والترجمة. هنا أيضاً لن نجد سيميولوجيا عامّة، إنّما نجد بالأحرى تحوّلًا سيميائيّاً.

[١٧١] غالباً ما نلاحظ في التّحوّلات التّماثلية كيف يمكن للنوم والمخدّرات والانتشاء الغراميّ أن تشكّل تعابير تترجم الأنظمة الدّالّة أو الدّاتية التي نوّد فرضها عليها إلى أنظمة ما قبل دالّة، لكنّها تقاومها فارضة عليها بدورها أقسوميّة وتعدّدية صوتيّة غير منتظرَتين. تعرّضت المسيحيّة إلى ترجمات إبداعية غريبة بانتقالها إلى «الهمجيين» أو حتّى إلى «المتوحّشين». إدخال العلامات النّقدية في بعض المسالك التّجاريّة

الإفريقية عرّض هذه العلامات لتحوّل تماثليّ يعسر جدّا استخدامه (إلا أن تكون هذه المسالك هي التي تتعرّض على التّقيض من ذلك إلى تحوّل تدميريّ^(١)). أغاني السّود الأمريكيين، بما في ذلك الكلمات، وخاصّة الكلمات، قد تكون لها قيمة أكثر نموذجية، لأنّنا نفهم فيها أوّلا كيف «يترجم» العبيد الدّالّ الأنغليزيّ، ويستعملون اللّسان استعمالا ما قبل- دالّ أو حتّى ضدّ- دالّ، خالطين إياه بالسنتهم الإفريقية الخاصّة، مثلما يخلطون أعمالهم الشّاقة الجديدة بغناء أعمالهم القديمة في إفريقيا؛ ثمّ كيف أنّهم، مع التّنصير وإلغاء العبودية، يجتازون مسار «ذتيّة» أو حتّى مسار «تفريد»، يغيّر موسيقاهم في نفس الوقت الذي تغيّر فيه هي هذا المسار بالتّماثل، كذلك كيف تُطرح مشكلاتٌ وجهيّة خاصّة، عندما يستحوذ البيّض دَوُو «الوجه المسوّد» على الكلمات والأغاني، لكنّ السّود بدورهم يسوّدون الوجه بطلاء إضافيّ، يستعيدون رقصاتهم وأغانيهم بتغيير أو حتّى بترجمة رقصات وأغاني البيّض^(٢). الأكّد أنّ أبرز التّغييرات وأوقحها تتمّ في الاتّجاه الآخر: ترجمات رمزيّة عندما يستولي الدّالّ على السّلطة. نفس الأمثلة كما في السّابق، أمثلة العلامات النّقديّة أو النّظام الإيقاعيّ، قد تكون ما تزال صالحة بالنّسبة إلينا بقلب معناها. الانتقال من رقصة إفريقية إلى رقصة بيضاء يُبرز غالبا ترجمة وغيويّة أو مُحاكاتيّة، مع استحواذ على السّلطة يقوم به التّمعني والذّتيّة. («في إفريقيا، الرّقص لا شخصيّ، مقدّس وفاحش. عندما ينتصب القاضي ويقع تحريكه مثل

(١) على سبيل المثال، عندما أدخل البيّض العملة عند شيان (les Siane) غينيا الجديدة، بدأ هؤلاء بترجمة الأوراق والقطع النّقديّة إلى فئتين من المتوجات غير القابلة للتّحويل. انظر، مورييس غودلييه (Maurice Godelier)، «الاقتصاد السياسيّ والأنثروبولوجيا الاقتصاديّة»، الإنسان، سبتمبر ١٩٦٤، ص ١٢٣.

(٢) حول هذه التّرجمات- التّغييرات، راجع لوروا يونس، شعب البلوز، الفصول VII - III.

مؤزة، فإنّ الأمر لا يتعلّق بانتعاض شخصيّ: إنّنا نشهد انتصاباً قَبليّاً. (...). رَقصة الجنس الطّقوسية، في إطار القبيلة، تقام فرديّاً؛ و[١٧٢] هذه الظّاهرة هي لوحدها ذات دلالة مدهشة. يمنع القانون كلّ إجابة وكلّ مشاركة. لا شيء يتبقّى من الطّقس البدائيّ غير الحركات الإيحائية للجسد. وتتغيّر إichاءاتهم مع فردية الملاحظ^(١).»

إنّها ليست مجرد تغييرات لسانية، معجميّة أو حتّى تركيبيّة هي التي تحدّد أهميّة ترجمة سيميائية حقيقيّة. بل حتّى بالأحرى قد يكون العكس. حديث الجنون غير كاف. إنّنا مجبرون على أن نقوم في كلّ حالة ما إذا كنّا نوجد إزاء تكييف سيميائية قديمة، أو إزاء تفريع جديد لمثل هذه السيميائية المختلطة، أو كذلك إزاء مسار صنع نظام ما يزال مجهولاً. على سبيل المثال، من اليسير نسبياً أن نكفّ عن قول «أنا»، لكنّنا لم نتجاوز بذلك نظام الدّتيّة؛ وعكسيّاً، بإمكاننا مواصلة قول أنا، للإرضاء، ونكون بالفعل في نظام آخر لم تعد تعمل فيه الضّمائر إلّا بوصفها تخيّلات. التّمعني والتّأويل مقاومان جدّاً، إنّهما يشكّلان مع الدّتيّة خليطاً شديداً الالتحام، بحيث يكون من اليسير الاعتقاد بأنّنا في الخارج بينما نحن ما نزال نُفرز ذلك الخليط. يحدث أن نشجب التّأويل، لكنّنا نعرض وجهها دالّاً إلى حدّ بعيد حتّى أنّنا نفرضه في نفس الوقت على الذات التي تواصل التّغذّي منه حتّى تستمرّ في البقاء. من بمقدوره الاعتقاد حقيقة أنّ التّحليل النفسيّ قادر على تغيير سيميائية تجتمع فيها كلّ أشكال الغشّ؟ لقد وقع تغيير الأدوار وحسب. عوض مريض كان يعبّر ومحلّل نفسيّ يؤوّل، لدينا الآن محلّل نفسيّ دالّ، والمريض هو الذي يتكفّل بكلّ التّأويلات. في تجربة كينغسلاي هال (Kingsley Hall) المضادّة للطّب النفسيّ، تتبّي ماري بارناس (Mary Barnes)، وهي ممرّضة قديمة أصبحت «فصاميّة»، سيميائية السّفر

(١) هنري ميلار، صَبُوات، ص ٦٣٤.

الجديدة، لكن من أجل امتلاك سلطة حقيقية داخل الجماعة، ومن أجل أن تُدخل من جديد أسوأ نظام تأويل تحليلي نفسي بوصفه هديانا جماعياً («لقد كانت تؤوّل كلّ ما كان يفعله الآخرون من أجلها، أو من أجل شخص آخر...»^(١)). من العسير القطع مع سيميائية شديدة التراصّف. حتى سيميائية ما قبل دالّة، أو ضدّ دالّة، حتّى مبيان غير ذي دلالة يحمل عُقد تطابق مهياة تماماً لتكوين مراكز تمعّن ونقاط دتينة افتراضية. الأكّد أنّ تجربة تأويل ليست يسيرة، عندما يتعلّق الأمر بتدمير سيميائية مناخية مهمينة. واحدة من الفوائد العميقة لكُتب كستنادا (Castenada)، تحت تأثير [١٧٣] المخدّرات أو أشياء أخرى، وتحت تأثير تغيّر المناخ، هي بالتّحديد بيان الكيفية التي يصل بها الهنديّ إلى مقارنة آليات التّأويل من أجل إنشاء سيميائية ما قبل دالّة أو حتى إنشاء مبيان غير ذي دلالة عند تابعه: توقّف! أنت تتعبني! جرّب عوض أن تدلّل وتؤوّل! اعثر بنفسك على مواضعك، على إقليمياتك، على لا تارصّاناتك، على نظامك، على خطوط إفلاتك! قم أنت بإنشاء سيميائيتك عوض البحث عنها في طفولتك الجاهزة وفي سيمولوجيتك الغربية... «أكّد دون جوان أنّه كان يتوجّب إيقاف العالم حتما حتّى نرى. بالتّمام يعبر إيقاف العالم عن بعض حالات الوعي التي تكون خلالها حقيقة الحياة قد تبدّلت، هذا لأنّ دفع التّأويلات المتواصل عادة، قطعتّه مجموعة من الطّروف الخارجة عن هذا الدّفق^(٢)» باختصار، يستدعي تحويل سيميائي حقيقيّ كلّ ضروب المتغيّرات، ليست المتغيّرات الخارجيّة وحسب، إنّما الضّمنية في اللّسان، الكائنة داخل الملفوظات.

(١) ماري بارناس وجوزيف بارك، ماري بارناس، رحلة عبر الجنون، منشورات سوي، ص ٢٦٩. يبدو أنّ فشل تجربة كينغسلاي هال المضادة للطّب النفسي، ناتجة عن هذه العوامل الدّاخلية بقدر ما هي ناتجة عن الطّروف الخارجيّة.

(٢) كستنادا، الرّحلة إلى إكستلان، غاليمار، ص ١٢.

إذن، تُقدّم التداوليّة بالفعل مكوّنين: بالإمكان تسمية الأوّل مكوّنًا توليديًا، من حيث أنه يبيّن الكيفية التي تُكوّن بها الأنظمة المجرّدة سيميائيات عينيّة مختلطة، بأية متغيّرات تكونها، كيف تتألف هذه التّنظيمات وفي ظلّ أية غلبة. المكوّن الثاني هو المكوّن التحويليّ الذي يبيّن الكيفية التي تقع بها ترجمة أنظمة العلامات هذه بعضها إلى بعضها الآخر، وخاصّة إبداعها لأنظمة جديدة. التداولية التوليدية تستنسخ بوجه ما سيميائيات مختلطة، بينما تصنع التداولية التحويلية خارطات تحويل. مع أنّ سيميائية مختلطة لا تستتبع بالضرورة إبداعية راهنة، لكنّها تقدر على الاكتفاء بإمكانات توليف دون تحويل حقيقيّ، إنه المكوّن التحويليّ هو الذي يسوّغ أصالة نظام كما جدّة الأخلاط التي يدخل فيها، في لحظة معيّنة أو في مجال معيّن. كذلك هذا المكوّن الثاني هو الأعمق وهو الوسيلة الوحيدة لتقويم عناصر المكوّن الأوّل^(١). سنتساءل مثلاً: متى ظهرت ملفوظات من نمط بولشيفيّ، وكيف قامت اللينينية إبان القطع مع الاشتراكيين - الديمقراطيّين، بتغيير حقيقيّ، مبدع لسيميائية أصيلة، حتّى وإن كان قدّر عليها أن تسقط حتماً في السيميائية المختلطة للتّنظيم الستالينيّ. دَرَس جان- بيار فاي (Jean-Pierre Faye) تفصيليّاً في بحث نموذجيّ [١٧٤] التّغييرات التي أنتجت التّازية التي وقع النّظر فيها بوصفها منظومة علامات جديدة في حقل اجتماعيّ معيّن. أسئلة من نوع: ليس فقط في أية لحظة، إنّما في أيّ مجال يتنزّل نظام علامات؟ - في شعب بأكمله؟ في جزء من هذا الشعب؟ في مجال يمكن بالأحرى رصده داخل مستشفى للأمراض العقلية؟ - هكذا رأينا أنّه كان يمكن رصد سيميائية دَتيّنة في التّاريخ القديم لليهود، لكن كذلك في تشخيص

(١) «التوليديّ» و«التحويليّ» هما لفظان لشومسكي، الذي يكون التحويليّ تحديداً بالنسبة إليه هو الوسيلة الأفضل والأعمق لتحقيق التوليديّ؛ لكننا نستعمل هذين اللفظين في معنى مغاير.

الطَّبَّ العقليّ للقرن التاسع عشر-، بطبيعة الحال مع تنويعات عميقة وحتى مع تغييرات حقيقيّة في السِّيميائيّة المقابلة- كلّ هذه الأسئلة هي من شأن التّداولية. الأكّد اليوم أنّ التّغييرات أو التّرجمات الإبداعية الأعمق لا تمرّ عبر أوروبا. على التّداولية أن ترفض فكرة ثابت قد يستطيع التّملّص من التّغييرات، بما في ذلك ثابت «نحويّة» مهيمنة. ذلك أنّ اللّغة هي مسألة سياسيّة قبل أن تكون مسألة لسانيّات؛ حتّى تقويم درجات النّحوية هو مادّة سياسيّة.

ما السِّيميائيّة، أي ما نظام علامات أو شكّنة تعبير؟ إنّها في نفس الوقت أكثر من اللّغة وأقلّ منها. تتحدّد اللّغة بشرط «خطّيتها»؛ تتحدّد الألسن بثوابتها، بعناصرها وبالعلاقاتها ذات المنزلّة الصّوتية، التركيبيّة والدّلاليّة. ولا ريب أنّ كلّ نظام علامات ينجز شرط اللّغة ويستعمل عناصر اللّسان، لكنّه يقف عند ذلك الحدّ. ولا نظام يقدر على التّطابق مع الشّروط ذاته، ولا نظام تكون له خاصيّة الثّوابت. مثلما بيّن فوكو ذلك بوضوح، أنظمة العلامات هي دالات وجود وحسب، تمرّ تارة بألسن متنوّعة وتوزّع طورا في نفس اللّسان، ولا تتماهى لا مع بنيّة ولا مع وحدات من هذا التّنظيم أو ذاك، لكنّها تلتقيها وتُظهرها في المكان وفي الزّمان. إنّّه بهذا المعنى تكون أنظمة العلامات تنضيدات تَلْفُظ، لا تكفي أيّة مقولة لسانية للإحاطة بها: يحيل ما يجعل من عبارة أو حتّى من مجرد كلمة «ملفوظا»، على مفترضات ضمنيّة غير قابلة للبلورة، تحشد متغيّرات تداوليّة خاصّة بالتلفّظ (تغييرات لا مادّية). من المستبعد إذا أن يتمكّن التّنضيد من تفسير ذاته بواسطة الدّالّ أو كذلك بواسطة الدّات، بما أنّ الدّالّ والدّات يحيلان على النقيض من ذلك على متغيّرات تَلْفُظ في التّنضيد. التّمعني أو الدّتيّنة هما اللّذان يفترضان تنضيدا وليس العكس. الأسماء التي سمّينا بها أنظمة العلامات، «ما قبل دالّة، دالّة، ضدّ دالّة، ما بعد دالّة»، قد تظّلّ حييسة التّطوريّة ما لم تكن ناظرتها بالفعل وظائف متنافرة أو تشكيلات تنضيد

(الأقسامية، التّمعني والتّأويل، الرّقمنة، الدّينونة). أنظّمة العلامات تتحدّد على هذا النّحو بمتغيّرات من صميم التّلفّظ ذاته، لكنّها تظلّ خارجيّة بالنّسبة إلى ثوابت اللّسان ومُتأبّية عن الاختزال في مقولات لسانية.

لكن، عند هذه النّقطة، ينقلب كلّ شيء، والأسباب التي من أجلها يكون نظام علامات أقلّ من اللّغة تصبح أسبابا من أجلها أيضا يكون أكثر من اللّغة. لا يكون التّنضيد تنضيد تُلَفّظ ولا يُشكّلن التّعبير إلّا على أحد وجوهه؛ على وجهه الآخر الملازم للأوّل، يُشكّلن المضامين، إنّهُ تنضيد مَكْنِيّ أو تنضيدُ أجساد. لكنّ المضامين ليست «مدلولات» قد تتوقّف على الدّالّ بطريقة أو بأخرى، ولا على الـ«موضوعات» التي قد تكون في علاقة سببيّة ما مع الذات. من حيث أنّ المضامين لها شكّلنتها الخاصّة، فإنّها لا علاقة لها البتّة بتطابق رمزيّ أو بعليّة خطيّة مع صورة التّعبير: الصّورتان تفترض إحداها الأخرى بشكل متبادلّ، ولا يسعنا إغفال إحداها إلّا بشكل نسبيّ جدّا، بما أنّهما وجّهان لنفس التّنضيد. كذلك يتوجّب الوصول في التّنضيد ذاته، إلى شيء ما أشدّ عمقا من هذين الوجهين، والذي يحيط في نفس الوقت بالصّورتين اللّتين تفترض إحداها الأخرى، صور التّعبير أو أنظّمة العلامات (المنظومات السّيميائية)، صور المضمون أو أنظّمة الأجساد (المنظومات الماديّة). ذلك هو ما نسمّيه مكنة مجرّدة، المكنة المجرّدة التي تكوّن ذرى لا تارضن التّنضيد وتزواج بينها^(١). إنّهُ

(١) طوّر فوكو نظرية في الملفوظات وفق مستويات متعاقبة وتتقاطع مع جملة هذه المشكلات. (١) ميّز فوكو في أركيولوجيا المعرفة بين ضربين من «الكثرات»، بين المضمون والتّعبير، اللّذين يتأبّيان عن الاختزال في علاقات تطابق أو سببيّة، لكنّهما في افتراض متبادلّ؛ (٢) يبحث في المراقبة والمعاقبة عن هيئة قادرة على الإحاطة بصورتين متنافرتين متداخلتين، ويجد تلك الهيئة في تنضيدات سلطة أو سلطة-مجهرية؛ (٣) لكنّ سلسلة هذه التّنضيدات الجماعيّة (المدرسة، الجيش،

[١٧٦] يجب القول عن الممكنة المجردة: إنها حتما «أكثر بكثير» من اللغة. عندما يرتقي لسانيتون (في أعقاب شومسكي) إلى فكرة ممكنة مجردة لغوية محض، فإنه يقع الاعتراض مسبقا بالقول إن هذه الممكنة، بعيدا عن كونها مجردة جدًا، فإنها ما تزال غير مجردة بما يكفي، بما أنها تظل مقصورة على صورة التعبير وعلى ما يُسمّى كليات تفترض اللغة. مذكّك، غرض النظر عن المضمون هو عملية نسبية وغير كافية لا سيما من زاوية التجريد ذاته. ممكنة مجردة حقيقية لا وسيلة لديها للتمييز لذاتها بين مسطح تعبير ومسطح مضمون، لأنها ترسم نفس مسطح القوام الواحد، هو الذي سيُشكلن المضامين والتعبير وفق الطبقات أو إعادة الأرضنات. لكن الممكنة المجردة اللا متراصفة واللا متأرضنة على حيالها، لا صورة لها في حدّ ذاتها (مثلما أنه ليس لها قوام)، ولا تميّز في ذاتها بين مضمون وتعبير، مع أنها تدير خارج ذاتها هذا التمييز وتوزعه في الطبقات، في المجالات والمحلات. ممكنة مجردة في ذاتها ليست أكثر مادية أو جسدية من كونها سيميائية، إنها ميبائية (لا سيما أنها تجهل التمييز بين الاصطناعي والطبيعي). إنها تعمل بالمادة وليس بالقوام؛ بالوظيفة وليس بالصورة. القوامات والصّور هي قوامات وصور التعبير «أو» المضمون. لكن الوظائف ليست متشكّلة بعدُ «سيميائيًا»، والموادّ ليست متشكّلة بعدُ «جسديًا». الممكنة المجردة هي

المصنع، المستشفى، السجن، إلخ.) أيضا ليست درجات أو فرادات في «مبيان» مجرد يحتوي لصالحه وحسب، على مادة ووظيفة (كثرات بشرية للمراقبة أيا كانت تلك الكثرات)؛ (٤) يذهب تاريخ الجنسانية أيضا في اتجاه آخر، بما أنّ التنضيدات لم تعد تابعة فيه لمبيان ومجاوبة له، إنّما ل«بيو- سياسة السكّان» بوصفها ممكنة مجردة. - قد تتعلّق اختلافاتنا الوحيدة مع فوكو بالنقاط التالية؛ (١) لا تبدو لنا التنضيدات تنضيدات سلطة قبل كلّ شيء بل تنضيدات رغبة، تكون الرغبة منضّدة دوما، وتكون السلطة بعدا تراصفيّا من أبعاد التنضيد؛ (٢) المبيان أو الممكنة المجردة لهما خطوط إفلات هي الأولى، وهي ليست في التنضيد ظاهرات مقاومة أو ردّ فعل، إنّما هي رؤوس إبداع أو لا تأرضن.

الوظيفة- المادة المحض- إنها المِبيان، بمعزل عن الصّور والموادّ، عن التعابير والمضامين التي سيورّعها.

نعرف الممكنة المجرّدة بالهيئة، باللحظة التي لم يعد ثمة فيها غير وظائف وموادّ. ليس للمِبيان بالفعل لا قِوام ولا صورة، وليس له لا مضمون ولا تعبير^(١). بينما القِوام هو مادة متشكّلة فإنّ المادة قِوام غير متشكّل، جسدياً أو سيميائياً. بينما التعبير والمضمون لهما صورتان متميزتان وتمايزان فعلياً، فإنّ الوظيفة ليس لها غير «ملاح» مضمون وتعبير هي التي تؤمّن الرّبط بينهما: لم يعد بإمكاننا حتّى أن نقول ما إذا كانت جُزئاً أو علامة. مضمون- مادة لم يعد يقدّم غير درجات شدّة ومقاومة وتوصيل وإحماء وشدّ وسرعة أو [١٧٧] تأخير؛ تعبير- وظيفة لم يعد يقدّم غير «مؤثّرات»، كما في كتابة رياضية أو موسيقية. إذا، تعمل الكتابة لائطة بالواقع، مثلما يكتب الواقع مادّياً. وبالتالي هو المضمون الأشدّ لا تَأرُضنا والتعبير الأشدّ لا تَأرُضنا هما اللذان يحتفظ بهما المِبيان ليزاوج بينهما. والحدّ الأقصى للّا تَأرُضن يتأتّى تارة من ملمح مضمون وطورا من ملمح تعبير سيسمّى «لا مَأرُضنا» بالنسبة إلى الملمح الآخر، لكن تحديداً لأنّه يُمبِّينه، ينقله معه ويرفعه إلى قدرته الخاصّة. الملمح الأكثر لا تَأرُضنا يجعل الملمح الآخر يجتاز عتبة تُمكن من الرّبط بين لا تَأرُضن كليهما، إنّهُ تطويح مشترك. إنّهُ اللّا تَأرُضن المطلق والإيجابي للمكنة المجرّدة. إنّهُ بهذا المعنى يتوجّب التّمييز بين المِبيانات والمؤثّرات التي هي علامات إقليمية، لكنها أيضاً أيقونات لا تَأرُضن، ورموز لا تَأرُضن نسبيّ أو سلبيّ^(٢). وقد

(١) اقترح بالسلاف تصوّراً مهماً جدّاً للمادة أو «المعنى» بوصفه غير متشكّل، غير ذي صورة أو هو عديم الشّكل: مقدّمات لنظرية اللّغة، § ١٣؛ بحوث لسانية، منشورات مينوي، ص ٥٨ وما بعدها (وتوطئة فرانسوا راستيه، ص ٩).

(٢) التّمييز بين المؤثّرات والأيقونات والرموز متأتّ من بيرس (Peirce)، راجع، كتابات في العلامة، منشورات سوي. لكنّه يميّز بينها بواسطة علاقات بين الدالّ

وقع هكذا تحديد المكنة المجردة بمبانياتها، فإنها ليست بنية تحتية في آخر المطاف، وليست فكرة متعالية في المقام الأول. لها بالأحرى دور ريادي. ذلك أن مكنة مجردة أو مبيانية لا تعمل لتمثيل شيء ما حتى وإن كان واقعياً، لكنّها تبني واقعا مقبلا، ضربا جديدا من الواقع. إذا هي ليست خارج التاريخ، بل هي بالأحرى دائما «قبل» التاريخ، في كلّ لحظة تُكوّن فيها نقاط إبداع أو إمكان. كلّ شيء يفلت، كلّ شيء يُبدع، لكن ليس وحده إطلاقا، على النقيض من ذلك هو يكون مع مكنة مجردة تقوم باطرادات الشدّة، بتوصيلات اللا تأرضن، باقتلاعات التعبير والمضمون. إنها مجردة- واقع لا سيّما وهي تواجه التجريد الوهمي لمكنة تعبير مفترَض فيها أنها مكنة محض. إنها مطلق، لكن لا هو غير متمايز ولا هو متعال. للمكنات المجردة أيضا أسماء أعلام (وكذلك تواريخ)، الأكّد أنّها لم تعد تشير [١٧٨] إلى أشخاص أو ذوات وإنّما إلى موادّ ووظائف. اسمٌ موسيقيّ أو عالمٌ يُستعملان مثل اسم رسّام للإشارة إلى لون، درجة، تنغيم، شدّة: يتعلّق الأمر دائما بالربط بين مادّة ووظيفة. اللاّ تلأرضن المزدوج للصّوت وللآلة سيقع وسمه بمكنة مجردة- فاغنر، بمكنة مجردة- وبارن، إلخ. سيقع الحديث عن مكنة مجردة- ريامان، في الفيزياء والرياضيات، عن مكنة مجردة- غالوا في الجبر (معرفة تحديدًا بالخطّ الاعتباري المسمّى خطّ

والمدلول (الملازقة بالنسبة إلى المؤشّر، المشابهة بالنسبة إلى الأيقونة، القاعدة الاصطلاحية بالنسبة إلى الرّمز)؛ ذلك هو ما أوصله إلى أن يجعل من «المبيان» حالة خاصّة من الأيقونة (أيقونة العلاقة). بيرس هو حقّا مبتكر السّمياتيّة. لذلك بإمكاننا أن نستعير منه ألفاظا حتى وإن غيّرنا استعمالها. من ناحية، تبدو لنا المؤشّرات والأيقونات والرّموز متمايزة بعلاقات إقليمية- لا تأرضن، وليس بعلاقات دالّ- مدلول. من ناحية أخرى يبدو لنا المبيان مذّاك، يلعب دورا مختلفا، لا يقبل الاختزال في الأيقونة وفي الرّمز. حول التمييزات الأساسية لبيرس والمنزلة المعقّدة للمبيان، سوف نرجع إلى تحليل ياكبسون «في البحث عن ماهية اللّغة»، ضمن مشكلات اللّغة، غاليمار، سلسلة «ديوجين».

جمع يتزاوج مع جسم قاعديّ)، إلخ. ثمة مبيان في كلّ مرة تعمل فيها ممكنة مجردة مفردة بشكل مباشر في مادة.

ها هو إذاً، على الصعيد المبيانيّ أو على مسطح القوام، لم تعد ثمة حتى أنظمة علامات بالمعنى الدقيق للكلمة، بما أنّه لم تعد ثمة صورة تعبير قد تختلف فعلياً عن صورة مضمون. لا يعرف المبيان غير سمات وذرى ما تزال سمات وذرى مضمون من حيث أنّهما مادّيتان، أو هما سمات وذرى تعبير من حيث أنّهما وظيفيتان، لكنّهما تتساحبان، تتناوبان وتتدامجان في لا تأرضن مشترك: علامة-جزيء، دقائق. والأمر ليس غريباً؛ ذلك أنّ التمييز الفعليّ بين صورة تعبير وصورة مضمون تتمّ مع الطبقات وحسب، وبأشكال متعدّدة مع كلّ طبقة. وهنا يظهر تمفصل مزدوج سيُشكلن سمات التعبير على حدة وسمات المضمون على حدة، وسيصنع من الموادّ قوامات متشكّلة جسدياً أو سيميائيّاً، مع وظائف صور التعبير أو صور المضمون. بالتالي يكوّن التعبير مؤشّرات، أيقونات أو رموزاً تدخل في أنظمة أو في سيميائيّات. بالتالي يكوّن المضمون أجساداً، أشياء أو موضوعات تدخل في منظومات مادّية وفي عضويّات وتنظيمات. الحركة الأعمق التي كانت تزواج بين المادة والوظيفة-اللاتأرضن المطلق بوصفه مماثلاً للأرض ذاتها- لم تعد تظهر إلّا في صورة إقليميات خاصّة، في لا تأرضنات نسبيّة أو سلبية، وفي إعادة لا تأرضنات تكاملية. ودون شكّ يُتوّج كلّ شيء مع طبقة لغويّة تُرسي ممكنة تجريدية في مستوى التعبير، وتجرد المضمون خاصّة وأنها تسعى حتّى إلى حرمانه من صورة خاصّة (إمبريالية اللّغة، نُشدان سيميولوجيا عامّة). باختصار، الطبقات تُجوهر الموادّ المبيانية، تفصل بين مسطح مكوّن من مضمون ومسطح مكوّن من تعبير. إنّها تلتقط التعابير والمضامين المُتجوّهة والمشكّلة كلّ منها من جانبها، بكماشات [١٧٩] تمفصل مضاعف يكفل استقلاليتها أو تمايزهما الفعليّ، وتمكّن لسيادة ثنائية لا تفتأ تتكرّر أو

تنقسم من جديد. إنها تكسر اطرادات الشدة بإدخالها قطيعات طبقة في طبقة أخرى وداخل كل طبقة. إنها تمنع ترابطات خط الإفلات، إنها تسحق ذرى اللاتأرضن، إمّا بإجراء إعادة التأرضنات التي ستجعل هذه الحركات نسبية تماما، إمّا بوسم هذا أو ذاك من الخطوط بقيمة سلبية وحسب، إمّا بتقسيم الخط، بإيقافه، بسده، مدرجة إياه في ضرب من الثقب الأسود.

لن نخلط خاصة بين الميانية وبين عملية من نمط أكسيومي. بعيدا عن رسم خطوط إفلات إبداعية وعن المزاجية بين سمات لا تأرضن إيجابيًا، تسد الأكسيومية كل الخطوط وتضعها لمنظومة دقيقة، وتوقف الكتابات الجبرية والهندسية التي كانت تفلت من كل جانب. الأمر كما في مسألة اللا تحدّد في الفيزياء: تمّ القيام بعملية «إرجاع الأمور إلى نصابها» للمصالحة بين اللا تحدّد وبين الحتمية الفيزيائية. كتابات رياضية تأكّست، أي أعادت تراصفها وسمياتها؛ تدفقات مادية استرجعت صبغتها الفيزيائية. المسألة مسألة سياسة بقدر ما هي مسألة علم: لا يجب أن يصبح العلم مجنونا... هيلبارت ودي بروي كانا رجلين سياسيين بقدر ما هما عالمان: لقد أعادا الأمور إلى نصابها. لكن الأكسمة، إضفاء الصبغة السيمائية والصبغة الفيزيائية ليست ميانا، بل هي نقيض ذلك. إنها برنامج طبقة ضدّ مبيان مسطح القوام. لكن ذلك لا يمنع المبيان من استئناف سبيل إفلاته، ومن نشر مكنات مجردة فريدة جديدة (يقوم الإبداع الرياضي للدالات غير المحتملة ضدّ الأكسمة، ويتمّ الابتكار الماديّ للجزيئات التي يتعدّر العثور عليها ضدّ إضفاء الصبغة الفيزيائية). ذلك أنّ العلم من حيث هو كذلك مثله مثل كلّ شيء، فيه من الجنون الخاصّ به بقدر ما فيه من وضع وإعادة وضع الأمور في نصابها، ويمكن لنفس العالم أن يشارك في الوجهين، بجنونه الخاصّ، بشرطه الخاصة، بتمعناته، بذّيناته، لكن كذلك بمكناته المجردة - من حيث هو عالم. تشير «سياسة العلم»

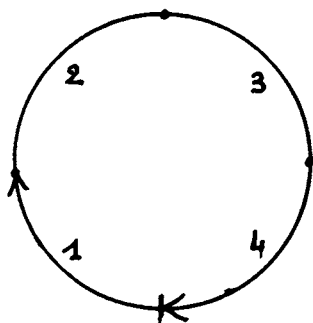
بوضوح إلى هذه التيارات الكائنة داخل العلم، وليس فقط إلى الظروف الخارجية وإلى عوامل الدولة التي تؤثر عليه، وتجعله يصنع هنا قنابل ذرية، هناك برامج عابرة للفضاءات، إلخ. هذه التأثيرات أو التحديدات السياسية الخارجية قد لا تكون لها أية قيمة ما لم يكن للعلم ذاته أقطابه الخاصة، تذبذباته، طبقاته وتخليه عن تراصفاته، خطوط إفلاته وإعادة وضعه الأمور في نصابها، باختصار ما لم تكن له على أقل تقدير الأحداث الكامنة لسياسته الخاصة، كامل «جداله» الخاص به، مكنة حربه الداخلية [١٨٠] (التي ينتمي إليها تاريخياً العلماء المحبّطون، المضطهدون أو المعرقلون). لا يكفي القول إنّ الأكسيومية لا تضع في اعتبارها الابتكار والإبداع: ثمة فيها إرادة مبيّنة للتعطيل والتثبيت وللحلول محلّ المبيان، وذلك بالتّنزّل في مستوى تجريد جامد، واسع جداً فعلياً بالنسبة إلى العينيّ، ضيق جداً بالنسبة إلى الواقع. سرى باي معنى هو مستوى «رأسماليّ».

مع ذلك لا يمكننا الاكتفاء بشئائيّة بين مسطّح القوام، مبياناته أو مكنااته المجرّدة، ومن ناحية أخرى الطبقات، برامجها وتنضيداتها العينية. لا توجد المكنات المجرّدة على مسطّح القوام وحسب حيث تُطوّر مبيانات، إنّها كائنة هناك سلفاً، محاطة بالطبقات بعامة أو «مدغمة» فيها، أو حتّى مشيدة على الطبقات الخاصة حيث تُنظّم في نفس الوقت صورة تعبير وصورة مضمون. وما هو وهميّ في هذه الحالة الأخيرة، هو فكرة مكنة مجرّدة لغويّة أو تعبيرية بشكل حصريّ، لكن ليس فكرة مكنة مجرّدة داخل الطبقة، والتي عليها أن تفصح عن نسبيّة الصورتين المتميزتين. ثمة إذاً ما يشبه حركة مضاعفة: واحدة تعرك بها المكنات المجرّدة الطبقات، ولا تفتأ تهزّب منها شيئاً ما، والحركة الأخرى تكون بها المكنات متراففة فعلياً ومستولى عليها من قبل الطبقات. من ناحية، قد لا تنتظم الطبقات إطلاقاً ما لم تكن قد استحوذت على موادّ أو على وظائف مبيان، تُشكّلنها من الجهة

المزدوجة للتعبير وللمضمون؛ بحيث أن كلّ نظام علامات، حتّى التّمعني، حتّى الدّتيّنة، ما يزالان مفاعيل مبيانيّة (لكنّها مفاعيل منسّبة ومُنسّلية). من ناحية أخرى، قد لا تكون الممكنات المجرّدة حاضرة على الإطلاق، بما في ذلك حضورها سلفا في الطّبقات، ما لم تكن لها القدرة أو الإمكان لاستخلاص ولتسريع العلامات- الجزيئات اللّاتراصف (المرور إلى المطلق). القوام ليس مُكَلِّنا ولا مهيكلا بل هو لا مُأرُضِن (على سبيل المثال، طبقة بيولوجيّة لا تتطوّر بمعطيات إحصائيّة، إنّما يذُرّى لا تَأرُضِن). أَمِن الطّبقات، هدوؤها واستتباب توازنها ليست مضمونة بالتّمام على الإطلاق: يكفي أن نمدّد خطوط الإفلات التي تعرك الطّبقات، أن نملاّ الخطوط المنقّطة، أن نذرّ مسارات اللّاتأرُضِن، حتّى نعثر على مسطّح قِوام يندرج في أشدّ منظومات التراصف اختلافا، ويقفز من واحدة إلى أخرى. لقد رأينا بهذا المعنى كيف أنّ التّمعني والتّأويل، الوعي والانفعال، كان بإمكانها التّمديد، لكن بإمكانها الانفتاح في نفس الوقت على تجربة مبيانيّة بَحَث. وكلّ حالات أو أحوال المكنة المجرّدة هذه تتماعى تحديدا في ما نسمّيه [١٨١] تنزيذا مكنيا. للتّنزيد بالفعل ما يشبه القطبين أو المتّجهين، أحدهما ملتفت نحو الطّبقات حيث يوزّع الإقليميّات، يوزّع اللّاتأرُضِنات النسبية وإعادة التّأرُضِنات، متّجه آخر ملتفت نحو مسطّح القِوام أو اللّاتراصف، حيث يُزاوج بين سيرورات اللّاتأرُضِن ويرفعها إلى درجة مطلق الأرض. على متّجه الطّبقيّ يميّز بين صورة تعبير يتبدّى فيها بوصفه تنزيد تلفّظ جماعيّ، وصورة مضمون يتبدّى فيها بوصفه تنزيذا مكنيا للأجساد؛ ويلائم بين صورة وأخرى، بين أظهر وآخر، في افتراض متبادل. لكن، على متّجه اللّاتراصف والمبيانيّ، لم يعد له وجهان، إنّّه لا يحتفظ إلّا بِسِمات مضمون كما بِسِمات تعبير، يستخرج منها درجات لا تَأرُضِن ينضاف بعضها إلى بعضها الآخر، وذُرّى يتدامج بعضها مع بعضها الآخر.

نظام علامات ليس له مكوّنان وحسب. ثمة في الحقيقة أربعة مكوّنات هي موضوع التداولية. المكوّن الأوّل كان هو المكوّن التوليديّ الذي يبيّن كيف أنّ صورة التعبير تستدعي دائما على طبقة لغويّة، أنظمة كثيرة متضافرة، أي كيف يكون مختلطا عينيا كلّ نظام علامات أو كلّ سيميائية. يمكننا غضّ الطرف في مستوى هذا المكوّن عن صور المضمون، لكن بقدر ما نشدّد بشكل أفضل على اختلاطات الأنظمة في صورة التعبير: سوف لن ننتهي إذا إلى غلبة نظام قد يشكّل سيميولوجيا عامّة وقد يوحد الصّورة. المكوّن الثاني هو المكوّن التحويليّ الذي كان يبيّن كيف يمكن لنظام مجرد أن يُترجم في نظام آخر، أن يتغيّر في نظام آخر، وأن يقع إبداعه خاصّة انطلاقا من أنظمة أخرى. هذا المكوّن الثاني هو بالتأكيد أشدّ عمقا، لأنّه ليس ثمة أيّ نظام مختلط لا يفترض مثل هذه التّغييرات من نظام إلى آخر، سواء كانت تغييرات ماضية، راهنة أو ممكنة (وفق إبداع أنظمة جديدة). هنا أيضا، نغضّ الطرف أو يمكننا غضّ الطرف عن المضمون، بما أنّنا نتمسّك بانقلابات عين داخل صورة التعبير، حتّى وإن كانت هذه الأخيرة غير كافية للإحاطة بها. لكنّ المكوّن الثالث هو مكوّن مبيانيّ: إنّهُ يتمثّل في تناول أنظمة العلامات أو صور التعبير ليستخرج منها علامات- جزيئات لم تعد متشكّلة، لكنّها تكون سمات غير متشكّلة وقابلة للتلاؤم مع بعضها البعض. تلك هي ذروة التجريد، لكن كذلك هي اللّحظة التي يصبح فيها التجريد واقعيّا؛ كلّ شيء يمرّ فيها فعليّا بمكنات مجرّدة- واقعيّة (لها أسماؤها وتواريخها). وإذ يمكننا غضّ الطرف عن صور المضمون، فلاّنه علينا أن نغضّ الطرف في نفس الوقت عن صور التعبير، [١٨٢] بما أنّنا لا نحتفظ إلّا بِسمات غير متشكّلة لهذه الصّور ولتلك. من هنا عبثيّة مكنة مجرّدة محض لغويّة. هذا المكوّن المبيانيّ هو بالتأكيد أشدّ عمقا بدوره من المكوّن التحويليّ: تغييرات- إبداعات نظام علامات تمرّ فعليّا بانبثاق مكنات

مجرّدة جديدة دوماً. في النّهاية، مكوّن أخير مكنّي بشكل خاصّ، يُفترض فيه أن يبيّن الكيفيّة التي تتجسّم بها المكنات المجرّدة في تنضيدات عينيّة، تمنح بالتّحديد صورة مختلفة لسماتٍ مضمون-الصّورتان كائنتان في افتراض متبادلّ، أو لهما علاقة حتمية غير متشكّلة، هي التي تمنع مرّة أخرى صورة التّعبير من اعتبار نفسها صورة كافية (مع أنّها لها استقلاليتها أو تمايزها الصّوريّ بشكل خاصّ). إذن، يمكن تجسيم التّداولية (أو التّحليل الفصاميّ) بالمكوّنات الأربعة الدّائرية، لكنّها مكوّنات تتبرّع وتكوّن جذمورا:



- (١) مكوّن توليديّ: دراسة السّيميائيات العينية المختلطة، دراسة اختلاطاتها وتنويعاتها.
- (٢) مكوّن تحويليّ: دراسة السّيميائيات المحض، دراسة ترجماتها-تحوّلاتها وخلق سيميائيات جديدة.
- (٣) مكوّن مبيانيّ: دراسة المكنات المجرّدة، من زاوية الموادّ غير المتشكّلة سيميائيًا في علاقة بالموادّ غير المتشكّلة مادّيًا.
- (٤) المكوّن المكنّي: دراسة التّنضيدات التي تصنع المكنات المجرّدة، والتي تجعل موادّ التّعبير سيميائيّة، في نفس الوقت الذي تجعل فيه موادّ المضمون مادّيّة.

قد تتمثّل التّداولية كلّها في التّالي: استنساخ السّيميائيات المختلطة في المكوّن التّوليديّ؛ إنجاز الخارطة التّحويليّة للأنظمة، مع إمكانات

ترجمتها [١٨٣] وإبداعها وتبرعها على النسخ؛ إنجاز مبيان الممكنات المجردة المشغلة في كل حالة، بوصفها إمكانات أو انبثاقات فعلية؛ إنجاز برنامج التنضيدات التي تهوي الكل وتنقل الحركة، مع تابعاتها، مع قفزاتها وتحولاتها.

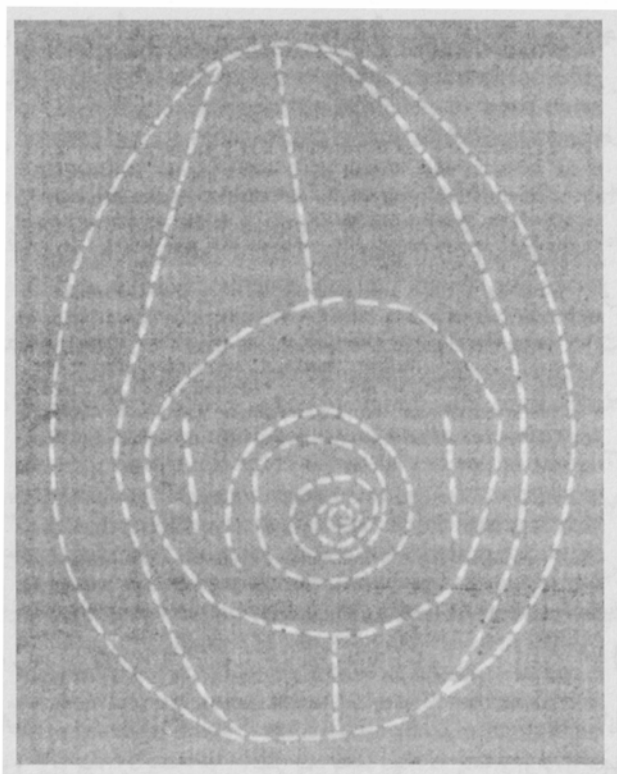
على سبيل المثال، قد ننظر في «عبارة» ما، أي في مجموعة لفظية معرّفة تركيبياً، دلاليًا ومنطقيًا، بوصفها تعبيراً لفرد أو لجماعة: «أحبك»، أو «أنا غيران...». قد نبدأ بالتساؤل عن الـ«ملفوظ» الذي تتطابق معه هذه العبارة عند الجماعة أو الفرد (ذلك أن نفس العبارة يمكنها أن تحيل على ملفوظات مختلفة تماماً). هذا التساؤل يعني: في أيّ نظام علامات استعملت هذه العبارة، نظاماً من دونه قد تظلّ العناصر التركيبية، الدلالية والمنطقية شروطاً كلية خاوية تماماً؟ ما هو العنصر الغير لساني، متغيّر التلقظ الذي يمنحه قواماً؟ ثمّة «أنا أحبك» ما قبل-دالّ، من نمط جماعيّ، حيث تضمّ رقصة كلّ نساء القبيلة كما كان يقول ميلار؛ «أنا أحبك» ضدّ-دالّ، من نمط توزيعيّ وجداليّ، قائم في الحرب، في علاقة القوى، مثل علاقة بنتزيلاي بأشيل؛ «أنا أحبك» يتوجّه إلى مركز تمعّن، ويجعل سلسلة بأكملها من المدلولات تتطابق مع السلسلة الدالّة بواسطة التأويل؛ «أنا أحبك» انفعاليّ أو ما بعد-دالّ، يشكّل مسارا انطلاقاً من نقطة ذتيّة، ثمّ مسارا آخر... إلخ. كما أنّ عبارة «أنا غيران» ليست هي بالتأكيد نفس الملفوظة وفق انخراطها في نظام الذتيّة الانفعاليّ أو في نظام التمعني البارانوني: هما هذانان مختلفان جدّاً. في المقام الثاني، بمجرد أن يتمّ تحديد الملفوظ الذي تتطابق معه العبارة عند مثل هذه الجماعة أو مثل هذا الفرد في مثل هذه اللحظة، قد لا نبحت عن إمكانات الاختلاط وحسب، بل عن إمكانات الترجمة أو التحوّل في نظام آخر، في ملفوظات تنتمي إلى أنظمة أخرى، عمّا يمضي أو لا يمضي، عمّا يظلّ عصياً على الاختزال أو عمّا يتدقّق في مثل هذا التحوّل. في المقام

الثالث، يمكن أن نبحث عن خلق ملفوظات جديدة ما تزال مجهولة بالنسبة إلى هذه العبارة، حتّى وإن كانت لهجات اشتهاة، ففيزياءات وسيميائيات مقطّعة، أفعالات لا ذاتية، علامات دون تمعّن، حيث قد يغور التركيب، الدلاليّة والمنطق. قد يتوجّب فهم هذا البحث من الأسوا إلى الأفضل، بما أنّه قد يغطّي أنظمة دقيقة، مجازية ومُحمّقة، كما صرخات- أنفاس، ارتجالات محمومة، تصيُّرات- حيوانات، تصيُّرات هبائية، تحولات جنسيّة فعليّة، اطراداتٍ شديد، تكوينات [١٨٤] أجساد دون أعضاء. وهذان القطبان المتلازمان هما ذاتهما، الكائنات في علاقات دائمة من التحوّل والتبديل والقفز والسقوط والصعود. هذا البحث الأخير، يضع على المحكّ المكنات المجرّدة، المبيانات والوظائف المبيانية من ناحية، في نفس الوقت من ناحية أخرى، يضع على المحكّ التّنضيدات المكنية، الاختلافات الصّورية لتعبيرها ومضمونها، لاستثمارات كلماتها ولاستثمارات أعضائها في ظلّ افتراض متبادل. على سبيل المثال، الـ«أنا أحبّك» للحبّ العذريّ: ما هو مبيانه، أيّ انبثاق للمكنة المجرّدة، وأيّ تنضيد جديد؟ في إبطال التّراصف كما في تنظيم الطّبقات... باختصار، ليس ثمة تعابير قابلة للتّعريف تركيبياً أو دلاليّاً أو منطقيّاً، قد يتأتّى لها التّعالّي على الملفوظات أو الإطلال عليها من علّ. كلّ منهج لجعل اللّغة متعالية، كلّ منهج يمدّ اللّغة بكليّات، من منطق رسل إلى نحو شومسكي، يسقط في أسوا التّجريدات، بالمعنى الذي يُقرّ فيه مستوى يكون بالفعل مجرّدا جدّا وما يزال غير مجرّد كفاية في نفس الوقت. في الحقيقة، ليست الملفوظات هي التي تحيل على العبارات، إنّما العكس. ليست أنظمة العلامات هي التي تحيل على اللّغة، وليست اللّغة هي التي تكوّن بذاتها مكنة مجرّدة، بنيويّة أو توليديّة. إنّما هو التّقيض. اللّغة هي التي تحيل على أنظمة العلامات، وأنظمة العلامات هي التي تحيل على المكنات المجرّدة، على وظائف مبيانيّة وعلى تنضيدات مكنية تتخطّى كلّ

سيمولوجيا، كلّ لسانيّة وكلّ منطق. ليس ثمة منطق قَضويّ كلّّي وليس ثمة نَحويّة في ذاتها بأكثر من وجود دالّ لذاته. «خلف» الملفوظات وخلف إضفاء السّمة السّيميائية، ليس ثمة غير مكنات، تنزيذات، حركات لا تَأْرُضُن تمرّ عبر تراصف مختلف الأنساق، وتفلت من إحداثيات اللّغة كما من إحداثيات الوجود. لذلك ليست التّداولية تكملة لمنطق، لتركيبية أو لدلاليّة، بل على النّقيض من ذلك هي العنصر الأساسيّ الذي يتوقّف عليه كلّ شيء آخر.

٦. ٢٨ نوفمبر ١٩٤٧ - كيف نصنع

لأنفسنا جسدا دون أعضاء؟



بيضة الدوغون وتوزيع الشدد

على أيّ حال لكم جسد دون أعضاء (أو كثرة)، ليس من حيث أنّه يوجد بشكل مسبق أو كونه معطى بالتّمام - مع أنّه يوجد مسبقا من بعض النّواحي - لكن على أيّ حال أنتم تصنعون واحدا، لا يمكنكم أن

ترغبوا دون صنع واحد، - وهو ينتظركم، إنه مِراس، إنه تجريب لا بدّ منه، تجريبا تمّ بالفعل في اللَّحظة التي تباشرونه فيها، لا يتمّ ما لم تباشروه. الأمر ليس مُطمئنا، لأنّه يمكنكم أن تُخطئوه. أو أنّه يمكن أن يكون [١٨٦] مرعبا ويسوقكم إلى الموت. إنه ليس رغبة مثلما هو رغبة. إنّهُ ليس مصطلحا وليس مفهوما على الإطلاق، إنّهُ بالأحرى ممارسة، مجموعة ممارسات. الجسد دون أعضاء لا نطاله ولا يمكن أن نطاله، لم تنته أبدا من بلوغه، إنه حَدّ. يقال: ما هو الجسد دون أعضاء- لكنّ المرء فوقه بالفعل، يزحف فوقه كالحشرة، يتلمّسه كالأعمى أو يجري فوقه كالمجنون، مثل جوّال الصحراء ورّحالة السّباسب. فوقه نحن ننام ونسهر ونتقاتل، نهزم ونُهزم، نبحث عن مكاننا، نعرف سعادتنا غير المسبوقه وسقطاتنا المذهلة، نخترق ونُخترق، نحبّ. الثامن والعشرون لسنة ١٩٤٧، يعلن أرطو الحرب على الأعضاء: حتى نضع حدّا لحكم الله، «إذ قيّدوني إن شئتم، لكن ليس ثمة ما هو عديم الفائدة أكثر من عضو». إنّهُ ليس تجريبا إذاعيا وحسب، بل هو تجريب بيولوجي وسياسي يستجلب لنفسه المنع والقمع. مدوّنة ووحدة جامعة، سياسة وتجريب. لن يتركوكم تجربون في عزلتكم.

الجسد دون أعضاء: إنه بالفعل في الطّريق مذ يكون الجسد ملّ الأعضاء، ويريد خلعها، أو يفقدها. تطواف طويل: - للجسد الوسواسي الذي تَلَفَت أعضاؤه، وقد تمّ التّلف بالفعل فإنّه لم يعد ثمة ما يحدث، «تؤكّد الأنسة س أنّها لم يعد لها لا دماغ ولا أعصاب ولا صدر ولا معدة ولا أحشاء، لم يتبقّ لها غير جلد وعظام الجسد المختلّ، هذه كانت عباراتها هي»؛ - للجسد البارانوني، حيث لا تفتأ التأثيرات تهاجم الأعضاء، لكن كذلك لا تفتأ طاقات خارجيّة ترمّمها «لقد عاش طويلا دون معدة، دون أمعاء، تقريبا دون رئتين، المريء ممزّق، دون مثانة، الضّلوع مطحونة، لقد أكل أحيانا حنجرته جزئيا،

وهكذا دوايك، لكنّ المعجزات الرّبّانيّة كانت تبعث دائما من جديد ما كان أُتِلِف... .)؛ للجسد الفُصاميّ، الذي يصل إلى صراع داخليّ نشيط هو الذي يقوده بنفسه ضدّ الأعضاء، مقابل الجامود، ثمّ للجسد المدمن على المخدّرات، الفُصاميّ التّجريبيّ: «للعنويّة البشرية لا فاعلية فاضحة؛ عوض فم وشرج يكادان كليهما يَنخرَبَان، لِمَ قد لا يكون لنا غير فتحة متعدّدة الاستعمالات للتغذّي وللتغوّط؟ قد نستطيع سدّ الفم والأنف، جَسُر المعدة وحفر ثقب تهوية مباشرة في الرّئتين، وهو ما قد كان يتوجّب فعله منذ البداية^(١)»؛ للجسد المازوخيّ، نُسيء فهمه انطلاقا من الألم، إنّها أوّلا مسألة جسد دون أعضاء؛ إنّهُ يخيّط ذاته بساديه أو مومِسه، يخيّط العينين والشرج والإحليل والثديين والأنف؛ يعلّق ذاته [١٨٧] ليوقف عمل الأعضاء، يَسْلخ وكأنّ الأعضاء كانت ملتصقة بالجِلد، يَنكح، يَخْنق، حتّى يُخْتَم كلّ شيء مغلقا بإحكام.

لِمَ هذه الحزمة القاتمة من أجساد مَخِيطة، مُزَجّجة، مجمّدة، مشفوفة، بما أنّ الجسد دون أعضاء مليء كذلك بالبهجة والنّشوة والرّقص؟ إذا لماذا هذه الأمثلة، لماذا يجب المرور بها؟ أجساد مفرّغة عوضا عن أجساد ملّانة. ما الذي حدث؟ هل اتّخذتم ما يكفي من التّدير؟ ليس الحكمة بل التّدير بوصفه جرعة، بوصفه قاعدةً محايّنة للتّجريب: حقنات تدبير. الكثيرون هُزِمُوا في هذه المعركة. هل من المُحزن والخطير جدّا عدم تحمّل العينين للرّؤية، الرّئتين للتّنفس، الفم للبلع، اللّسان للكلام، الدّماغ للتّفكير، الشّرج والحنجرة، الرّأس والسّاقين؟ لِمَ لا المشي على الرّأس، الغناء بالجيوب الأنفية، الرّؤية بالجِلد، التّنفس بالبطن، شيء بسيط، وحدة، جسد ملّان، سفر ساكن، فقدان شهية، رؤية جلدية، يوغا، كريشنا (Krishna)، حُبّ،

(١) ويليام بورّوغ (William Bourroughs)، الوليمة العارية، غاليمار، ص ١٤٦.

تجريب. هناك حيث يقول التحليل النفسي: توقّفوا، استعيدوا أناكم، قد يتوجّب القول: لنَمْضِ إلى الأقصى، لم نجد بعدُ جسدنا الذي دون أعضاء، لم يتفكّك أنانا بما فيه الكفاية. عوّضوا الحَكْيَ بالنسيان والتأويل بالتجريب. اعثروا على جسدكم الذي دون أعضاء، تعلّموا صنعه، إنها مسألة حياة أو موت، شباب وشيخوخة، غمّ وبهجة. ههنا يتمّ كلّ شيء.

«سيدتي، ١) يمكنكِ شدّ وثاقي إلى الطاولة، مشدودا بإحكام لمدة تتراوح بين عشر دقائق وخمسة عشر دقيقة، في انتظار تجهيز الأدوات؛ ٢) مائة جلدة بالسّوط على الأقلّ، مع التوقّف لبعض الدّقّاق؛ ٣) تبدئين الخياطة، تخيطين ثقب الحشفة، تضمّين الجلد الذي حول الثقب إلى الحشفة منعاً لها من التراجع، تخيطين كيس الخصيتين إلى جلد الفخذين. تخيطين الثديين، لكن تخيطين بإحكام على كلّ حلمة زراً ذا أربعة ثقوب. يمكنكِ جمعهما بسلكٍ مطّاط ذي عُروتين - تنتقلين إلى المرحلة الثانية؛ ٤) لكِ الاختيار بين قلبي على الطاولة، على البطن المقيّدة، لكنّ السّاقين مضمومتين، وبين شدّ وثاقي إلى العمود وحده، مضموم المعصمين والسّاقين أيضاً، كامل الجسد مربوط بإحكام؛ ٥) تجلدين ظهري ومؤخرتي وفخذيّ، مائة جلدة على الأقلّ؛ ٦) تخيطين ردفيّ معا وتلّم المؤخّرة بأكمله. بإحكام تخيطين بخيط مزدوج مع التوقّف عند كل غرزة. إذا كنتِ على الطاولة، تربطيني إذاً إلى العمود؛ ٧) تجلدين ردفيّ خمسين جلدة؛ ٨) إذا أردتِ تقوية التعذيب وتنفيذ تهديد المرّة السّابقة، تُدخلين الدّبابيس عميقاً في الرّدفين؛ ٩) يمكنكِ إذاً ربطني إلى الكرسيّ، جلدُ ثديي ثلاثين جلدة وتدخلين فيهما دبابيس أقل حجماً، إذا شئتِ بإمكانك إحماء بعض الدّبابيس أو كلّها مسبقاً على موقد. الرّبط على الكرسيّ [١٨٨] يجب أن يكون محكماً والمعصمان خلف الظّهر لإبراز الصّدر. إذا لم أتحّدث عن الحروق فلأنّه عليّ أن أقوم بفحص في بضعة أيّام والحروق تتطلب

وقتا للعلاج. «- ليس استيهاما، إنّه برنامج: فرق جوهريّ بين التأويل التحليليّ النفسيّ للاستيهام والتّجريب الضّدّ تحليليّ نفسيّ للبرنامج. فرق بين الاستيهام والتّأويل الذي يحتاج هو ذاته إلى تأويل، وبين البرنامج محرّك التّجريب^(١). الجسد دون أعضاء هو ما يتبقّى عندما نكون أزلنا كلّ شيء. وما نزيله هو الاستيهام تحديدا، جملة التّمعّنات والدّتينات. التّحليل النفسيّ يفعل العكس: إنّه يترجم كلّ شيء إلى استيهامات، إنه يطبع كلّ شيء بطابع الاستيهامات، إنّه يحافظ على الاستيهام، وبامتياز يخطئ الواقع لأنّه أخطأ الجسد دون أعضاء.

سيحدث شيء ما، شيء ما يحدث بالفعل. لكن لن نخلط بالتّمام بين ما يحدث على جسد دون أعضاء وبين الطّريقة التي نصنع بها لأنفسنا جسدا دون أعضاء. مع أنّ أحدهما متضمّن في الآخر. من هنا المرحلتان اللّتان وقع تأكيدهما في الرّسالة السّابقة. لِمَ مرحلتان متميّزتان بوضوح، بينما هو الشيء ذاته في الحالتين، خياطة وضرب بالسّيّاط؟ إحداهما لصنع الجسد دون أعضاء، الأخرى لجعل شيء ما يسري ويحدث فيه؛ مع ذلك هي نفس الأساليب التي تتحكّم بالمرحلتين، لكنّها في حاجة للاستعادة، للإعادة مرّتين. المؤكّد هو أنّ المازوخيّ صنّع لنفسه جسدا دون أعضاء في مثل هذه الطّروف، بحيث أنّ هذا الأخير لم يعد له مذّاك أن يكون عامرا إلّا بشدّد ألم، بموجات مؤلمة. من الخطأ القول إنّ المازوخيّ يبحث عن الألم، لكن ليس أقلّ خطأ القول إنّّه يبحث عن المتعة بطريقة معطّلة أو مواربة بشكل خاصّ. إنّّه يبحث عن جسد دون أعضاء، لكن من نمط لن يتيسّر له معه إلّا أن يملأه الألم ويجوبه، تبعا للطّروف ذاتها التي تكوّن فيها. الآلام هي

(١) التّقابل برنامج- استيهام يظهر بجلاء عند موزان (M'Uzan)، بخصوص حالة مازوخية؛ راجع، الجنسانية الشاذّة، بايو، ص ٣٦. مع أنّ موزان لا يدقّق التّعارض، إلّا أنه يستخدم مصطلح البرنامج ليضع موضع سؤال مواضيع أوديب، القلق والخشاء.

سَكَّانُ وَقُطْعَانُ وَهَيْئَاتُ المَازُوخِيِّ- المَلِكِ فِي الصَّحْرَاءِ الَّتِي اسْتَحْدَتْهَا وَجَعَلَهَا تَنمو. كَذَلِكَ الجَسَدُ المَدْمَنُ عَلَى المَخْدَرَاتِ وَشِدَدَ البَرْدِ، المَوَاجَاتِ البَارِدَةِ. عَلَيْنَا أَنْ نَسْأَلَ بِخُصُوصٍ كُلَّ نَمَطٍ مِنْ أَنْمَاطِ الجَسَدِ دُونَ أَعْضَاءِ: (١) مَا هُوَ هَذَا النَّمَطُ، كَيْفَ صُنِعَ، بِأَيَّةِ طَرَائِقٍ وَبِأَيَّةِ وَسَائِلٍ تَحْكُمُ مَسْبَقًا بِالفِعْلِ عَلَى مَا سَيَحْدُثُ؟ (٢) وَمَا هِيَ هَيْئَاتُهُ، مَا الَّذِي يَحْدُثُ، بِأَيَّةِ مَتَغَيِّرَاتٍ، أَيْةِ مَفَاجَأَتٍ، أَيْةِ طَارِئَاتٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْتِظَارِ؟ بِإِخْتِصَارٍ، بَيْنَ جَسَدٍ دُونَ أَعْضَاءٍ مِنْ هَذَا النَّمَطِ أَوْ ذَاكَ وَبَيْنَ مَا يَحْدُثُ فِيهِ، ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ تَرْكِيبٍ أَوْ تَحْلِيلٍ خَاصَّةٍ جَدًّا: تَرْكِيبٌ قَبْلِيٍّ حَيْثُ سَيَقَعُ حَتْمًا إِنْتَاجُ شَيْءٍ مَّا عَلَى هَيْئَةٍ مَعِيْنَةٍ، لَكُنَّا [١٨٩] لَا نَعْلَمُ مَا سَيَقَعُ إِنْتَاجُهُ؛ تَحْلِيلٌ لَا نِهَائِيٍّ حَيْثُ مَا أُنتِجَ عَلَى الجَسَدِ دُونَ أَعْضَاءٍ يَنْتَمِي مَسْبَقًا إِلَى إِنْتَاجِ هَذَا الجَسَدِ، هُوَ مُتَضَمِّنٌ فِيهِ مَسْبَقًا، هُوَ فَوْقَهُ، لَكِنْ مُقَابِلَ انْتِقَالَاتٍ وَانْقِسَامَاتٍ وَإِنْتَاجَاتٍ فَرَعِيَّةٍ لَا نِهَائِيَّةٍ. تَجْرِبٌ حَسَّاسٌ جَدًّا بِمَا أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ رُكُودٍ لِلْهَيْئَاتِ، وَلَا انْزِلَاقٍ لِلنَّمَطِ: المَازُوخِيُّ وَمَدْمَنُ المَخْدَرَاتِ يَلَامِسُونَ هَذِهِ المَخَاطِرَ الدَّائِمَةَ الَّتِي تُفَرِّغُ الجَسَدَ دُونَ أَعْضَاءٍ لِكُلِيهِمَا عَوَضًا عَنْ مَلْتِهِ.

يُمْكِنُ أَنْ نَخْفِقَ مَرَّتَيْنِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ نَفْسُ الْإِخْفَاقِ وَنَفْسُ الْخَطَرِ. عَلَى صَعِيدِ تَكْوِينِ الجَسَدِ دُونَ أَعْضَاءٍ وَعَلَى صَعِيدِ مَا يَحْدُثُ أَوْ لَا يَحْدُثُ. كُنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ صَنَعْنَا لِأَنْفُسِنَا جَسَدًا جَيِّدًا دُونَ أَعْضَاءٍ، لَقَدْ اخْتَرْنَا الْمَوْضِعَ وَالْإِقْتِدَارَ وَمَا هُوَ جَمَاعِيٌّ (ثَمَّةَ دَائِمًا جَمَاعِيٍّ حَتَّى وَإِنْ كُنَّا وَحْدَنَا). ثُمَّ لَا شَيْءَ يَمُرُّ، لَا شَيْءَ يَسْرِي أَوْ أَنَّ شَيْئًا مَّا يَوْقِفُ ذَلِكَ. نَقْطَةُ بَارَانَوِيَّةٍ، نَقْطَةُ انْسِدَادٍ أَوْ نَفْسٍ هَازٍ، نَلْحِظُ ذَلِكَ جَيِّدًا فِي كِتَابِ الْإِسْرَاعِ لِبَرُوعِ الْإِبْنِ. هَلْ يُمْكِنُنَا تَعْيِينَ هَذِهِ النِّقْطَةِ الْخَطِيرَةِ، هَلْ عَلَيْنَا طَرْدَ الْمَعْوُوقِ، أَوْ عَلَى النِّقْيِضِ مِنْ ذَلِكَ «نَحَبٌّ، نُجَلٌّ» وَنُخْدِمُ الْمَخْبُولَ كُلَّمَا ظَهَرَ؟ أَنْ نَمْنَعَ وَنُمنَعُ، أَلَيْسَ ذَلِكَ شِدَّةً أَيْضًا؟ نَحْدَدُ فِي كُلِّ حَالَةٍ مَا يَحْدُثُ وَلَا يَمُرُّ، مَا يُمَرُّ وَيَمْنَعُ مِنَ الْمُرُورِ. كَمَا فِي مَسَلِكِ اللَّحْمِ وَفَقَ لَوِين (Lewin)، يَسْرِي شَيْءٌ مَّا عَبْرَ قَنَوَاتٍ أَقْسَامَهَا مُحَدَّدَةً

بأبواب وبوابين ومهريين^(١). فتأحو أبواب ومغلقو بوابات، أقوياء الشكيمة والمتبجحون. لم يعد الجسد غير مجموعة من الصّمامات، من المَسَدّات، من الأقفال، من الأوعية أو من الأواني المستطرقة: اسم عَلم لكل واحد، تعمير جسد دون أعضاء، مدينة- أمّ يجب التعاطي معها بالسّوط. ما الذي يعمّر، ما الذي يَمّر وما الذي يعيق؟

الجسد دون أعضاء مصنوع بكيفية لا تتيح شُغله ولا تعمّره غير شِدّد. وحدها الشّدّد تمرّ وتجوب. كذلك الجسد دون أعضاء ليس ساحة، موضعاً، ولا حتّى دعامة قد يحدث فيها شيء ما. لا علاقة له باستيهام ولا شيء فيه للتأويل. الجسد دون أعضاء يمرّر شِدّداً، ينتجها ويوزّعها في فضاء هو ذاته شِدّديّ وغير ممتدّ. إنّهُ ليس فضاء ولا هو في فضاء، إنّهُ مادّة ستحتلّ الفضاء في هذه الدّرجة أو تلك- في الدّرجة التي توافق الشّدّد المنتجّة. إنّهُ المادّة الكثيفة وغير المتشكّلة وغير المتراصفة، إنّهُ المنبت الشّدّديّ، الشّدّة المساوية لصفر، لكن لا شيء سلبيّ في هذا الصّفر، ليس ثمة شِدّد سلبية ولا شِدّد متناقضة. إنّهُ مادّة مساوية للطّاقة. هو إنتاج للواقع بوصفه عِظْماً شِدّديّاً انطلاقاً من صفر. [١٩٠] لذلك نتناول الجسد دون أعضاء بوصفه البيضة المملّاء قبل امتداد العضوية وانتظام الأعضاء، قبل تكوّن الطبقات، البيضة الكثيفة التي تُعرّف بالمحاور والمتّجهات، بالتدرّجات والعتبات، بالتوجّهات الدّينامية مع تحوّل الطاقة، بالحركات الدّيناميكية مع انتقال الجماعات، بالهجرات، كلّ ذلك بغضّ النّظر عن الأشكال المتئمّمة، بما أنّ الأعضاء لا تظهر ولا تعمل هنا إلّا بوصفها شِدّداً محضاً^(٢). يتغيّر

(١) راجع، توصيف مسلك اللّحم ودّفقه في العائلة الأميركيّة، لوين، «الإيكولوجيا السيكلوجيّة»، في السيكلولوجيا الدّيناميّة، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٢٢٨ - ٢٣٤.

(٢) دالك (Dalcq)، البيضة ودّيناميتها التّنظيميّة، منشورات ألبان ميشال، ص ٩٥: «الأشكال عرضيّة إزاء الدّيناميّة الحركيّة. أن تنحرف فتحة أو أن لا تنحرف في بذرة

العضو باجتيازه عتبة، بتغيّر تدرّجه. «تفقد الأعضاء كلّ ثبات، سواء تعلّق الأمر بموقعها أو بوظيفتها، (...) تظهر أعضاء جنسيّة في كلّ مكان تقريبا، تبرز، تنفتح أشراج للتغوّط ثمّ تنغلق، (...) العضويّة بأكملها تُغيّر نسيجها ولونها، تغيّرات تآصليّة مننّمة وفق عُشر من الثّانية...^(١)» بيضة لحمية.

في الأخير، ألا يكون الكتاب العظيم حول الجسد دون أعضاء هو كتاب الإنثيقا؟ الصّفات هي أصناف الجسد دون أعضاء أو أجناسه، جواهر، اقتدارات، شدّد صفر بوصفها منابت مننّجة. الأحوال هي كلّ ما يحدث: التّموجات والاهتزازات، الهجرات، عتبات وتدرّجات، الشّدّد النّاتجة في ظلّ هذا الضّرب الجوهريّ أو ذاك، انطلاقا من منبت معيّن. الجسد المازوخيّ بوصفه صفة أو جنس جوهر، وإنتاجه للشّدّد والأحوال المؤلمة، انطلاقا من تخييطه ومن درجته الصّفر. الجسد المدمن على المخدّرات بوصفه صفة أخرى، مع إنتاجه لشّدّد مخصوصة انطلاقا من برّد مطلق مساوٍ لصفر. («يتذمّر الحشّاشون باستمرار ممّا يسمّونه البرد العظيم، ويرفعون ياقة معافطهم السّوداء ويضمّون قبضاتهم حول رقابهم الجافّة (...) كل هذا تمثيل: الحشّاش لا يريد أن يكون في الدّفء، إنه يريد أن يكون في الهواء الطّلق، في البرد، في الصّقيع العظيم. لكنّ البرد يجب أن يصيبه كما أصابته المخدّرات: ليس في الخارج، حيث لا يشعره ذلك بأيّ ارتياح، إنّما داخله، حتّى يتمكّن من الجلوس بهدوء، مع العمود الفقريّ المتصلّب مثل رافعة هيدروليكية متجمّدة، ويهبط أيّضه إلى درجة الصّفر المطلق...») إلخ. يصبح مشكل نفس الجوهر لكلّ الجواهر، مشكل جوهر وحيد لكلّ الصّفات

فذلك أمر عرضيّ. سيرورة الهجرة ذاتها دون سواها هي المهمّة، وهذه التّغيّرات الكرونولوجية والكميّة المحض هي التي تمنح موضع الانغماد مظهر فتحة، تصدّع أو خطّ ابتدائيّ.

(١) بيروغ، الوليمة العارية، ص ٢١.

هو: هل ثمة مُجمل لكلّ الأجساد دون أعضاء؟ لكنّ الجسد دون أعضاء هو حدّ بالفعل، فما الذي يجب قوله عن جملة كلّ الأجساد دون أعضاء؟ ليس المشكل مشكلَ الواحد [١٩١] والكثير، إنّما مشكل كثرة الانصهار التي تتجاوز فعليًا كلّ تعارض بين الواحد والكثير. كثرة صورية للصفات الجوهرية التي تكوّن الوحدة الأنطولوجية للجوهر بما هو كذلك. اطراد كلّ صفات أو أجناس الشّدّة تحت نفس الجوهر، واطراد شدّد جنس معيّن تحت نفس النّمط أو الصّفة. اطراد كلّ الجواهر في شِدّة، لكن كذلك كل الشّدّد في جوهر. اطراد غير منقطع للجسد دون أعضاء. الجسد دون أعضاء محايشة، حدّ محايش. المدمنون على المخدّرات، المازوخيّون، العشاق، كلّ الأجساد دون أعضاء تشيد بسبينوزا. الجسد دون أعضاء هو حقل محايشة الرّغبة، مسطّح القوام الخاصّ بالرّغبة (هناك حيث تتحدّد الرّغبة بوصفها سيرورة إنتاج، دون رجوع إلى أيّة هيئة خارجيّة، إلى عوز قد يأتي لنُخرها، إلى متعة قد تأتي لمثلها).

في كلّ مرّة وقعت فيها خيانة الرّغبة، لغُنها، اقتلاعها من حقل محايشتها، إلّا وكان ثمة كاهن من وراء ذلك. أطلق الكاهن اللّعة الثلاثيّة على الرّغبة: لعنة القانون السّلبّي، لعنة القاعدة البرانيّة، لعنة المثل الأعلى المتعالي. قال الكاهن ملتفتا جهة الشّمال: الرّغبة عوز (كيف قد لا يعوزه ما يرغب فيه؟) كان الكاهن قدّم القربان الأوّل المسمّى خصاء، وكلّ رجال ونساء الشّمال كانوا أتوا للاصطفاف وراءه، مردّدين بانتظام «عوز، عوز، إنّ القانون المشترك». ثمّ ملتفتا جهة الجنوب، ألحق الكاهن الرّغبة بالمتعة. إذ ثمة كهنة لذّيون وحتيّ نشويّون. سترضي الرّغبة حاجتها في المتعة؛ والمتعة الحاصلة لن تُسكّت الرّغبة لفترة وحسب، بل الحصول عليها هو بالفعل طريقة لقطع الرّغبة، لتفريغها في الحال ولتفريغكم منها. إنّها الرّغبة- التّفريغ: يقدّم الكاهن القربان الثاني المسمّى استمناء. ثمّ يهتف ملتفتا جهة الشّرق:

الاستمتاع محال، لكن الاستمتاع المحال مدوّن في الرّغبة. إذ ذلك هو المثل الأعلى في استحالته ذاتها، «عوز الاستمتاع الذي هو الحياة». كان الكاهن قدّم القربان الثالث، استيهام أو ألف ليلة وليلة، مائة وعشرون يوما، بينما كان أناس الشّرق ينشدون: نعم، سنكون استيهامكم، مثلكم الأعلى واستحالتكم، التي هي لكم ولنا أيضا. لم يكن الكاهن قد التفت جهة الغرب، لأنّه كان يعرف أنّه كان مفعما بمسطح قوام، لكنه كان يعتقد أنّ هذه الوجهة كانت مسدودة بأعمدة هرقل، لا مخرج لها وغير مأهولة بالبشر. ومع ذلك هناك كانت تختبئ الرّغبة، كان الغرب هو أقصر طريق للشّرق، وللوجهات الأخرى التي أعيد اكتشافها أو لا تأرّضنها.

الوجه الأحدث للكاهن هو المحلّل النفسيّ مع مبادئه الثلاثة. المتعة، الموت والواقع. لا ريب أنّ التحليل النفسيّ كان يبيّن أنّ الرّغبة لم تكن خاضعة للإنجاب ولا حتّى [١٩٢] للأعضاء التّناسلية. تلك كانت حدائته. لكنّه كان احتفظ بالأساسيّ، بل إنّ وجد وسائل جديدة ليدوّن في الرّغبة القانون السّلبيّ للعوز، القاعدة الخارجيّة للمتعة، المثل الأعلى المتعالي للاستيهام. ليكن تأويل المازوخية: عندما لا يقع استدعاء دافع الموت السّخيف، نزع مثل جميع الناس أنّ المازوخية تبحث عن المتعة، لكنّها لا تستطيع بلوغها إلّا بالآلام وبضروب الإذلال الاستيهامية التي قد تكون مهمّتها تلطيف ضيق عميق أو استبعاده. ذلك ليس دقيقا؛ معاناة المازوخيّ هي الثّمّن الذي ينبغي أن يدفعه، ليس من أجل بلوغ المتعة، إنّما من أجل حلّ الرابط الرّائف بين الرّغبة والمتعة بوصفه إجراء برّانيّا. ليست المتعة على الإطلاق هي ما قد لا يمكن بلوغه إلّا مرورا بالمعاناة، بل هي ما يتوجّب إرجاؤه إلى أقصى حدّ بوصفه ما يقطع المسار المتواصل للرّغبة الإيجابية. ذلك أنه ثمة فرح محايت للرّغبة التي وكأنّها كانت تمتلئ بذاتها وبتأمّلاتها، والتي لا تتضمّن أيّ عوز، أيّة استحالة، وفضلا عن ذلك لا تقاس على

المتعة بما أنّ هذا الفرح هو الذي سيورّع شدّد المتعة ويمنع اختراقها من قبل الضيق والتّصاغر والشعور بالذّنب. باختصار، يستخدم المازوخيّ المعاناة استخدامه لوسيلة من أجل تكوين جسد دون أعضاء ومن أجل استخلاص مسطّح قوام الرّغبة. أن تكون ثمة وسائل أخرى وطرائق أخرى مغايرة للمازوخيّة، وأفضل منها بالتّأكيد، فتلك مسألة أخرى؛ يكفي أن تكون هذه الطّريقة ملائمة للبعض.

ليكن ثمة مازوخيّ لم يكن مرّ بالتحليل النّفسيّ: «برنامج...». وضع اللّجام ليلا وشدّ وثاق اليدين بإحكام إمّا إلى الشّكيمة بالسّلسلة وإمّا إلى الحزام الكبير عند العودة من الحمام. وضع العُدّة بكاملها دون إضاعة الوقت، العنان والإبهامية، ربط الإبهاميات إلى العُدّة. القضيب محبوس في غمد معدنيّ. الإمساك بالعنان لساعتين في اليوم، ومساءً وفق مشيئة المالك. سجن لمدة ثلاثة أو أربعة أيّام، اليدان مقيّدتان دوما، العنان مشدود ومرخيّ. لن يقترب المالك من حصانه على الإطلاق دون سوطه الذي سيستعمله في كلّ مرّة. إذا كان ظهر ضجر الحصان وعصيانه سيقع شدّ العنان بشكل أقوى، قد يمسك السيّد بالأعنة وقد يعتدي بالضّرب المبرّح على الدّابة^(١). «ماذا يفعل هذا المازوخيّ؟ يبدو أنّه يحاكي الحصان في ركوبه على الفرس، لكنّ الأمر ليس ذاك. أكثر من ذلك، الحصان ومروّضه والسيّدة ليسوا نُسخا للأمر أو للأب. إنّها مسألة مختلفة تماما، إنّها التّصيّر الأساسيّ حيوانا للمازوخيّة، [١٩٣] إنّها مسألة قوى يقدّمها المازوخيّ على هذا النّحو: «بديهة ترويض - تحطيم القوى الغريزيّة لتعويضها بالقوى المنقولة». «في الحقيقة لا يتعلّق الأمر بتحطيم بقدر ما يتعلّق بتبادل وبتداول («ما يحدث للحصان يمكن أن يحدث لي كذلك»). الحصان مروّض:

(١) روجيه ديبوي (Roger Dupouy)، «في المازوخيّة»، الحوليات الطّبيّة - السيكلوجيّة، ١٩٢٩، II، صص ٣٩٧ - ٤٠٥.

يفرض الإنسان على قوى الحصان الغريزية قوى منقولة هي التي ستُنظَّم الأولى، تنتقيها، تهيمن عليها، تقنّنها تضافريًا. يُجري المازوخيّ قلبا للعلامات: سينقل له الحصان قواه المنقولة حتى تُروّض قوى المازوخيّ الفطرية بدورها. ثمّة سلسلتان، سلسلة الحصان (قوة فطرية، قوة نقلها له الإنسان)، سلسلة المازوخيّ (قوة منقولة من الحصان، قوة فطرية للإنسان). تنفجر سلسلة في الأخرى، تدخل معها في نفس المسار: زيادة الاقتدار أو مسار الشّدّة. «السّيّد»، أو بالأحرى السيّدة - الفارسة، راكبة الخيول هي التي تبدّل القوى وتقلب العلامات. لقد شيّد المازوخيّ تنصيذاً بأكمله يرسم ويملأ في نفس الوقت حقلَ محاياة الرّغبة، مكوّنًا مع ذاته، مع الحصان ومع السيّدة جسداً دون أعضاء أو مسطّح قوام. «النتائج المرجوة: أن أكون في انتظار دائم لإشاراتك وأوامرك، وبالتّدرّج يترك كلّ تعارض مكانه لانصهار شخصي مع شخصك. (...). بهذا الصّدّد يجب أن تأخذني الرّهبة بمجرد استحضار حذائك الطّويل، حتى دون أن أعترف بذلك. بهذا الشّكل، لن تكون أرجل النّساء هي التي تؤثر عليّ، وإذا أرضاك أن تأمرني لي بمداعبات، ستمنحيني عندما تحصلين عليها وتشعرينني بها، بصمة جسدك مثلما لم أتحصّل عليها من قبل إطلاقاً ومثلما لن أتحصّل عليها إطلاقاً دون ذلك.» ما تزال الأرجل أعضاء، لكن الأحذية الطّويلة لم تعد تحدّد غير منطقة شِدّة بوصفها بصمة أو منطقة على الجسد دون أعضاء.

بالمثل، أو بالأحرى بكيفيّة أخرى، قد يكون من الخطأ تأويل الحبّ العذريّ تحت طائلة قانون العوز أو قانون مثل أعلى للتّعاليم. الزّهد في المتعة الخارجيّة أو تأخيرها، إبعادها جهة اللّا نهائيّ، يدلّل على النقيض من ذلك على حالة حاصلة حيث لم يعد يُعوز الرّغبة أيّ شيء، إنها مُترعة بذاتها وتبني حقلَ محايتها. المتعة هي وجدان شخص أو ذات، إنّها الوسيلة الوحيدة التي «يجد فيها» شخص ما ذاته

في سيرورة الرّغبة التي تتخطّاها؛ المتع، حتى أكثرها اصطناعاً، هي إعادة أرصّانات. لكن فعلاً، هل من الضّروريّ الالتقاء من جديد؟ الحبّ العذريّ لا يحبّ الأنا بأكثر ممّا يحبّ الكون كلّه محبّة ربّانيّة أو دينيّة. يتعلّق الأمر بصنع جسد دون أعضاء، هنالك حيث تمرّ الشّدّة وتفضي إلى أنّه لم يعد ثمة لا الأنا ولا الآخر، ليس باسم عمومية أعلى، وليس [١٩٤] باسم امتداد أكبر، إنّما بموجب فرادات لم يعد لنا أن نقول عنها إنّها شخصيّة، وشّدّد لم يعد لنا أن نقول عنها إنّها امتداديّة. حقل المحايّنة ليس داخل الأنا، لكنّه لا يصدر كذلك عن أنا خارجيّ أو عن لا-أنا. إنّّه بالأحرى مثل الخارج المطلق الذي لم يعد يعرف الأنوات، لأنّ الدّاخل والخارج ينتميان كذلك إلى المحايّنة التي ذاباً فيها. الـ«بهجة» في الحبّ العذريّ، تبادل المشاعر، الامتحان أو الـ«اختبار»: كل شيء جائر ما لم يكن خارجيّاً بالنّسبة إلى الرّغبة وما لم يكن متعلّياً على مسطّحها، لكن ما لم يكن داخل الأشخاص كذلك. أدنى مداعبة لا تقلّ كذلك قوّة عن نشوة الجِماع؛ نشوة الجِماع ليست غير واقعة مؤسفة نوعاً ما بالنّسبة إلى الرّغبة التي تتابع حقّها. كلّ شيء جائز: المهمّ هو فقط أن تكون المتعة هي دقّ الرّغبة ذاتها، أن تكون محايّنة، عوضاً عن إجراء قد يأتي لقطعها أو قد يجعلها تابعة للأشباح الثلاثة: العوز الدّاخلّي، المتعالّي الأعلى، الخارج الظّاهري^(١). إذا لم

(١) بخصوص الحبّ العذريّ ومحايّنته الجذريّة التي ترفض في نفس الوقت التّعالّي الدّينيّ والبرانيّة اللّذيّة، راجع، رونيّه نلّلي (René Nelli)، شَبَق الشّعراء الجوّالين، منشورات ١٨/١٠، خاصّة الجزء الأوّل، ص ٢٦٧، ٣١٦، ٣٥٨، ٣٧٠، الجزء الثّاني، ص ٤٧، ٥٣، ٧٥. (والجزء الأوّل، ص ١٢٨: واحد من أكبر الفروق بين الحُبّ الفُرسانيّ والحبّ العذريّ، هو أنّه «بالنّسبة إلى الفُرسان، القيمة التي بفضلها نستحقّ الحبّ هي دائماً خارجيّة بالنّسبة إلى الحُبّ»، بينما في المنظومة العذريّة، الاختبار داخليّ أساسيّاً بالنّسبة إلى الحبّ، تترك القيمة الحربيّة مكانها لـ«بطولة شعورية»: إنّّه تحوّل لمكنة الحرب).

تكن المتعة هي معيار الرّغبة، فما ذلك باسم عوز قد يستحيل سدّه، إنّما على التّقيّض من ذلك نتيجة إيجابيّتها، نعني نتيجة مسطّح القِوام الذي ترسمه إبّان مسارها.

تمّ في ما بين سنوات ٩٨٢ - ٩٨٤ تجميعُ يابانيّ كبير لرسائل طاوية صينيّة. نلاحظ فيها مسار شدّد بين الطاقة الأنثوية والطاقة الذكورية، تلعب المرأة دور القوّة الغريزية أو الفطرية (يين Yin)، لكنّ الرّجل يوّاري هذه القوّة أو هي تنتقل إليه، بحيث أنّ قوّة الرجل المنقولة (يانغ Yang) تصبح بدورها أكثر فطريّة: إنّّه تزايد القوى^(١). شرط هذا الانتقال وهذا التّكاثر، هو ألاّ يقذف الرّجل المنيّ. لا يتعلّق الأمر بالإحساس بالرّغبة بوصفها عوزا داخليّا، ولا بتأخير المتعة لإحداث ضرب من فائض القيمة الذي يمكن إعطاؤه صبغة خارجية، إنّما يتعلّق الأمر على النقيض من ذلك بتكوين جسد شدديّ دون أعضاء، الطّاو هو حقل محايّنة لا تحتاج فيه الرّغبة شيئاً، ولم تعد مرتبطة فيه مذكّك بأيّ مقياس خارجيّ أو متعال. صحيح أنّ المسار بأكمله يمكن إرجاعه إلى غايات الإنجاب (قذف المنيّ [١٩٥] في أفضل لحظة من لحظات الطّاقات)؛ وعلى هذا التّحو كانت تفهمه الكونفوشيوسيّة. لكنّ ذلك ليس صحيحاً إلّا بالنسبة إلى أحد وجهيّ تنضيد الرّغبة هذا، الوجه الملتفت جهة الطّبقات، العضويّات، الدّولة، الأسرة... لكنّ ذلك لم يعد صحيحاً بالنسبة إلى الوجه الآخر، وجه طاو (Tao) اللّا تراصف الذي يرسم مسطّح القِوام الخاصّ بالرّغبة ذاتها. هل الطّاو مازوخيّ؟ هل العُذريّ طاويّ؟ ليس لهذه الأسئلة من معنى على الإطلاق. مجال المحايّنة أو مسطّح القِوام يجب أن يُبنى؛ لكن يمكن أن يُبنى في تشكيلات اجتماعيّة مختلفة جدّاً، وبتنضيدات مختلفة جدّاً، تنضيدات

(١) فان غليك (Van Gulik)، الحياة الجنسيّة في الصّين القديمة، غاليمار؛ وتعيق جان فرانسوا ليوتار، الاقتصاد الليبيديّ، منشورات مينوي، صص ٢٤١ - ٢٥١.

شاذّة، فنيّة، علميّة، صوفيّة، سياسيّة، ليس لها نفس نمط الجسد دون أعضاء. سيُبنى قطعة قطعة، ولا يمكن ردّ مواضعه وشروطه وتقنياته بعضها إلى بعضها الآخر. قد تتعلّق المسألة بالأحرى بمعرفة ما إذا كان يمكن للقطع أن تترابط وبأيّ ثمن. ثمة بالضرورة تقاطعات فظيعة. قد يكون مسطح القِوام هو جملة كلّ الأجساد دون أعضاء، يكون كثرة محضا للمحاياة، يمكن أن تكون إحدى قطعه صينيّة، الأخرى أميركيّة، الأخرى قُرُوسيّة وأخرى شرّير- صغير، لكن في حركة لا تَرْضُن معمّمة حيث تستولي كلّ واحدة على ما تستطيع وتقوم بما تستطيع، وفق ميولها التي قد تكون نجحت في انتزاعها من أنا ما، وفق سياسة أو استراتيجية قد نكون نجحنا في استخلاصها من هذه التشكيلة أو تلك، وفق منهاج معيّن قد يكون جُرّد من أصله.

نميّز بين: (١) الأجساد دون أعضاء بوصفها أصنافا، أجناسا، صفاتٍ جوهرية، على سبيل المثال بَرَد الجسد دون أعضاء المدمن على المخدّرات، ألم الجسد دون أعضاء المازوخيّ؛ لكلّ واحد درجته الصّفر بوصفها مبدأ إنتاج (إنّه التّعافي)؛ (٢) ما يحدث على كلّ صنف من الأجساد دون أعضاء، نعني الأحوال، الشّدّد الحادثة، التّموجات والاهتزازات التي تمرّ (المرونة)؛ (٣) المجموع المحتمل لكلّ الأجساد دون أعضاء، مسطح القِوام (كلّيّة المثل التي تسمّى أحيانا الجسد دون أعضاء). - لكنّ الأسئلة متعدّدة: ليس كيف نصنع لأنفسنا جسدا دون أعضاء وحسب، وكذلك كيف ننتج الشّدّد الموافقة له التي قد يظلّ من دونها خاويا؟ السّؤال ليس هو نفسه. لكن أيضا: كيف الوصول إلى مسطح القِوام؟ كيف نخيط وكيف نبرّد وكيف نجمع كلّ الأجساد دون أعضاء؟ إذا كان ذلك ممكنا فإنّه لن يتمّ كذلك إلّا بمزاوجة الشّدّد الناتجة فوق كلّ جسد دون أعضاء، بإحداث اطّراد لكلّ الاستمراريات الشّدديّة. ألا يتوجّب وجود تنضيدات لصنع كلّ جسد دون أعضاء، ألا يتوجّب وجود مكنة مجردة كبرى لبناء مسطح القِوام؟ يسمّى باتيزون

سَطِيحَاتِ مناطقٍ شِدَّةَ متواصلة، مكوَّنة بطريقة معيَّنة لا تجعلها تقبل التوقُّف بفعل نهاية خارجيَّة، بقدر ما لا تجعلها تذهب باتجاه ذروة: من ذلك بعض التَّمشَّيات الجنسيَّة، [١٩٦] أو العدوانية في الثقافة البالينية (culture balinaise)^(١). السَّطِيحة هي قطعة محايَّثة. كلَّ جسد دون أعضاء مكوَّن من سَطِيحات. كلَّ جسد دون أعضاء هو ذاته سَطِيحة تتواصل مع السَّطِيحات الأخرى على مسطَّح القِوام. إنَّه مكوَّن عبور.

إعادة قراءة هيليوغابال وتراهومارا. ذلك أنَّ هيليوغابال هو سبينوزا، سبينوزا هو هيليوغابال المنبعث حيًّا. أمَّا شعب تراهومارا فهو التجريب والبيُّوط [مخدَّر مكسيكيّ]. سبينوزا، هيليوغابال والتَّجريب لهم نفس الصَّيغة: الأنارخيَّة والوحدة هما الشَّيء الواحد ذاته، ليست وحدة الواحد، لكنَّها وحدة أشدَّ غرابة لا تقال إلَّا على الكثير^(٢). ذلك هو ما يعبِّر عنه كِتَابًا أرطو: كثرة الانصهار، قابليَّة الانصهار بوصفها صفرا لا نهائيًّا، مسطَّح قِوام، مادَّة لا آلهة فيها؛ المبادئ بوصفها قوى، ماهيات، جواهر، عناصر، تعافيات، إنتاجات؛ أساليب الكيان أو الطَّرائق بوصفها شِدداً منتَّجة، اهتزازات، أنفاسا، أعدادا. وأخيرا صعوبة الوصول إلى هذا العالَم، عالَم الأنارخيَّة المتوجَّجة إذا ما نحن بقينا عند الأعضاء، «الكبد الذي يجعل الجلد أصفر، الدِّماغ الذي يصيب ذاته بالزَّهريّ، المعويّ الذي يُخرج الفضلات»، وإذا ما بقينا محبوسين في العضويَّة أو في طبقة توقف كل الاندفاعات وتجمّدنا في عالَمنا هنا.

(١) غريغوري باتيزون (Gregory Bateson)، نحو إيكولوجيا للفكر، صص ١٢٥-١٢٦.

(٢) أرطو، هيليوغابال، الأعمال الكاملة، VII، غاليمار، صص ٥٠-٥١. صحيح أنَّ أرطو ما زال يقدِّم تماهي الواحد والكثير بوصفه وحدة ديكليتيكية، ويختزل الكثير بإرجاعه للواحد. يجعل من هيليوغابال ضربا من الهيجليَّة. لكن تلك طريقة حديث؛ إذ الكثرة تتخطى منذ البداية كلَّ تعارض وتطيح بالحركة الديالكتيكيَّة.

ندرك بالتدريج أنّ الجسد دون أعضاء ليس مضاداً للأعضاء على الإطلاق. أعداؤه ليست هي الأعضاء. العدو هو العضوية. لا يتعارض الجسد دون أعضاء مع الأعضاء بل مع تنظيم الأعضاء هذا الذي نسميه عضوية. صحيح أنّ أרטو يخوض صراعه ضدّ الأعضاء، لكنّه في نفس الوقت يخوضه ضدّ العضوية وهي التي يستهدفها: الجسد هو الجسد. إنّهُ بمفرده. وليس هو في حاجة إلى الأعضاء. الجسد ليس عضوية أبداً. العضويات هي أعداء الجسد. الجسد دون أعضاء لا يتعارض مع الأعضاء إنّما مع «أعضائه الحقيقيّة» التي يجب تركيبها وتحديد أمكنتها، إنّهُ يتعارض مع العضوية، مع التنظيم العضويّ للأعضاء. حكم الرّب، منظومة حكم الرّب، المنظومة اللاهوتية، هي تحديداً عملية من يصنع عضوية، عملية تنظيم أعضاء نسميها عضوية، لأنّ القائم بذلك لا يستطيع تحمّل جسد دون أعضاء، لأنّه يتعبّه، يَبْقُرُه ليمرّ قبله ويمرّر العضوية قبله. العضوية هي ذاك بالفعل، حكم الله الذي يستغلّه الأطباء ويستمدّون منه سلطتهم. ليست العضوية [١٩٧] هي الجسد إطلاقاً، ليست الجسد دون أعضاء، بل هي طبقة فوق الجسد دون أعضاء، أي أنّها ظاهرة تراكُم، تَخَثُّر، تَرَسُّب يفرض على الجسد دون أعضاء أشكالاً، وظائف، روابط، تنظيمات مهيمنة وتراتبية، تعاليات منظمّة لتستخرج منه عملاً مفيداً. الطبقات قيود، كمّاشات. «قيدوني إن شئتم.» نحن لا نفقأ نتراصف. لكن من هي هذه النّحن التي ليست هي أنا بما أنّ الذات كما العضوية تنتمي إلى طبقة وتتوقّف عليها؟ نجيب الآن: إنّها الجسد دون أعضاء، الذي هو الحقيقة الجليديّة التي سيتكوّن فوقها هذا الطّمي، هذه الترسّبات والتّخثّرات والطّيّات والارتدادات التي تشكّل عضوية - ودلالة وذاتا. الجسد دون أعضاء هو الذي يُنِخ حكم الله ويمارس، هو الذي يتحمّله. هو الذي فيه تدخل الأعضاء في علاقات التّركيب هذه التي تسمّى عضوية. يصرخ الجسد دون أعضاء: لقد صنعوا لي عضوية! لقد

طَوَّعُونِي دُونَ وَجْهِ حَقٍّ! لَقَدْ سَرَقُوا جَسَدِي! حَكَمَ الرَّبُّ يَقْتُلُهُ مِنْ مَحَايَئِهِ وَيَصْنَعُ لَهُ عَضْوِيَّةً، دَلَالَةً، ذَاتًا. إِنَّهُ هُوَ الْمُرَاصِفُ. بَحِثْ أَنَّهُ يَتَأَرَّجُ بَيْنَ قَطْبَيْنِ، سَطُوحِ التَّرَاصِفِ الَّتِي يَرْتَدُّ عَلَيْهَا وَيَخْضَعُ لِلْحُكْمِ، مَسَطَّحِ الْقِيَامِ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِيهِ وَيَنْفَتَحُ لِلتَّجْرِبِ. وَإِذَا كَانَ الْجَسَدُ دُونَ أَعْضَاءٍ حَدًّا، إِذَا لَمْ نَتَوَقَّفْ قَطَّ عَنِ الْوُلُوجِ إِلَيْهِ، فَلَأَنَّهُ ثَمَّةٌ دَائِمًا طَبَقَةً وَرَاءَ طَبَقَةٍ أُخْرَى، طَبَقَةً مُقَحَّمَةً فِي طَبَقَةٍ أُخْرَى. إِذْ لِيَقُومَ حَكَمُ الرَّبِّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةً الْكَثِيرِ مِنَ الطَّبَقَاتِ وَلَيْسَ الْعَضْوِيَّةُ وَحَسْبُ. إِنَّهُ صِرَاعٌ دَائِمٌ وَعَنِيفٌ بَيْنَ مَسَطَّحِ الْقِيَامِ الَّذِي يَحَرَّرُ الْجَسَدَ دُونَ أَعْضَاءٍ، يَخْتَرِقُ كُلَّ الطَّبَقَاتِ وَيَفْكَكُهَا، وَبَيْنَ سَطُوحِ التَّرَاصِفِ الَّتِي تَوَقُّفُهُ أَوْ تَطْوِيهِ.

لِنَنْظُرْ فِي الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ الْكُبْرَى بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، أَيْ تِلْكَ الَّتِي تَقْيِدُنَا عَلَى نَحْوٍ مُبَاشِرٍ: الْعَضْوِيَّةُ، التَّمْعِنِي، الذَّنِّيَّةُ. سَطْحُ الْعَضْوِيَّةِ، زَاوِيَةُ التَّمْعِنِ وَالْأَوَّلِ، نَقْطَةُ الذَّنِّيَّةِ أَوْ الْإِخْضَاعِ. سَتَكُونُ مَنْظَّمًا، سَتَكُونُ عَضْوِيَّةً، سَتُمْفَصِلُ جَسَدَكَ - وَإِلَّا فَإِنَّكَ سَتَكُونُ مَنْحَطًا. سَتَكُونُ دَالًّا وَمَدْلُولًا، مَوْوَلًا وَمَوْوَلًا - وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَنْ تَكُونَ إِلَّا مَنْحَرَفًا. سَتَكُونُ ذَاتًا وَمُثَبَّتًا بِمَا أَنْتَ كَذَلِكَ، ذَاتٌ تَلْفُظُ مَرْتَدَّةً عَلَى ذَاتٍ مَلْفُوظَةٍ - وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَنْ تَكُونَ إِلَّا مُتَشَرِّدًا. جَمْلَةُ الطَّبَقَاتِ يُوَاجِهُهَا الْجَسَدُ دُونَ أَعْضَاءٍ بِالتَّفْكِيكِ (أَوْ بِمَا لَانْهَاءِ لَهُ مِنَ التَّمْفِصَلَاتِ) الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ خَاصِيَةِ لِمَسَطَّحِ الْقِيَامِ، بِالتَّجْرِبِ بِوَصْفِهِ عَمَلِيَّةٌ فَوْقَ هَذَا الْمَسَطَّحِ (لَا وَجُودَ لِدَالٍ، لَا تَوَوَّلُوا أَبَدًا!)، بِالتَّرَحُّلِ بِوَصْفِهِ حَرَكَةٌ (حَتَّى فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، تَحَرَّكُوا، لَا تَتَوَقَّفُوا عَنِ الْحَرَكَةِ، سَفَرٌ سَاكِنٌ، لَا ذَّنِّيَّةٌ). مَا مَعْنَى فَكِّكَ، تَوَقَّفْ عَنْ كَوْنِهِ عَضْوِيَّةً؟ كَيْفَ نَقُولُ إِنَّ الْأَمْرَ بَسِيطٌ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ وَإِنَّا نَقُومُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ. بِأَيِّ [١٩٨] تَدْبِيرٍ ضَرُورِيِّ، فَنَ الْمَقَادِيرِ وَخَطَرِ الْإِفْرَاطِ. لَا نَزْهَبُ إِلَى ذَلِكَ بِعَنْفٍ إِنَّمَا بِمِبْرَدٍ دَقِيقٍ جَدًّا. نَبْتَكَرُ تَدْمِيرَاتِ ذَاتِيَّةٍ لَا تَتطَابَقُ وَدَافِعَ الْمَوْتِ. تَفْكِيكُ الْعَضْوِيَّةِ لَمْ يَكُنِ الْبَتَّةَ اسْتِحْدَاثًا لِلْمَوْتِ، بَلْ هُوَ فَتْحُ الْجَسَدِ لِلْإِقْتِرَانَاتِ الَّتِي تَفْتَرِضُ تَنْضِيدًا بِأَكْمَلِهِ،

تفترض مسارات، ترابطات، تدرّجات وعتبات، ممرّات وتوزيعات
شِدّة، أقاليم ولا تَارُضُنات محسوبة على طريقة ماسح الأراضي. إلى
حدّ ما، تفكيك العضويّة ليس أعسر من تفكيك الطبقات الأخرى مثل
التّمعني والدّتيّنة. التّمعني يَعلّق بالنّفس بقدر ما تَعلّق العضوية بالجسد،
لا نتخلّص من ذلك بسهولة أيضا. والذّات، كيف لنا أن ننفكّ عن نقاط
الدّتيّنة التي تثبتنا، تسمّرنا في واقع مهيمٍ؟ انتزاع الوعي من الذّات
لنجعل منه وسيلة بلورة، انتزاع اللاوعي من التّمعني ومن التّأويل لنجعل
منه إنتاجا حقيقيّا، فذلك بكلّ تأكيد لا هو أكثر ولا هو أقلّ صعوبة من
انتزاع الجسد من العضويّة. التدبير هو الفنّ المشترك لثلاثتها؛ وإذا
حدث ولا مَسْنَا الموت بتفكيك العضويّة، فإنّنا نلامس المزيّف والوهميّ
والهلّسيّ والموت النّفسيّ بإفلاتنا من التّمعني ومن الإخضاع. أرطو يزن
ويقس كلّ كلمة من كلماته: الوعي «يعرف ما هو جيّد بالنّسبة إليه وما
لا قيمة له عنده؛ وبالتالي يعرف الأفكار والمشاعر التي يمكنه تلقّيها
دون خطر وعلى نحو مفيد، وتلك التي هي مضرّة بممارسة حرّيته.
ويعرف بخاصّة المدى الذي يمتدّ إليه كيانه، والمدى الذي لم يذهب
إليه بعدُ أو ليس له الحقّ في الدّهَاب إليه دون أن يسقط في الزّائف
والوهميّ واللا متحقّق واللا مهيب... مسطّح لا يطاله الوعي العاديّ
لكن حيث يمكّنا سيغوري من الوصول إليه، وهو بالذّات لغز كلّ شعور.
لكن ثمة في الكائن الإنسانيّ مسطّح آخر، مبهم ودون ملامح هو، لم
يدخله الوعي لكنه يحيط به بما يشبه الامتداد المعتم أو بتهديد تبعاً
للحالات. ويفرز كذلك إحساسات جسورة وإدراكات. إنّها
الاستيهامات الوقحة التي تصيب الوعي المريض. أنا أيضا انتابتني
إحساسات زائفة، إدراكات زائفة واعتقدت فيها»^(١).

يجب الاحتفاظ من العضوية، بما يكفي حتى تتشكّل من جديد مع

(١) أرطو، تراهومارا، الجزء التاسع من الأعمال الكاملة، صص ٣٤-٣٥.

كلّ مطلع فجر؛ التزوّد بالقليل من مؤنّ التّمعني والتّأويل حتّى وإن كان ذلك من أجل أن نواجه بها منظومتها الخاصّة عندما تقتضي الظروف ذلك، عندما تجبرك الأشياء والأشخاص وحتى الأوضاع على ذلك؛ والاحتفاظ بما يكفي من أجزاء صغيرة من الدّاتيّة للقدرة على الاستجابة للواقع المهيمن. قلّدوا الطّبقات. لا نصل إلى الجسد دون أعضاء وإلى مسطّح [١٩٩] قوامه بإزالة تراصفه بشكل متوحّش. لذلك قد تعترضنا منذ البداية مفارقة هذه الأجساد الكثيبة والمفرّغة: لقد أفرغت من أعضائها عوض البحث عن التّقاط التي كان باستطاعتها تفكيك تنظيم الأعضاء هذا الذي نسّميه عضوية، بأناة وبشكل مؤقت. ثمة حتّى طرق كثيرة بها نخطئ الجسد دون أعضاء، إمّا أنّنا لا نصل إلى إنتاجه، إمّا ونحن ننتجه بكيفيّة ما، لا شيء يحدث فوقه، الشّدّد لم تكن تمرّ أو أنّها كانت تتوقّف. ذلك أنّ الجسد دون أعضاء لا يفتأ يتأرجح بين الأسطح التي تُراصفه والمسطّح الذي يحرّره. حرّره بحركة عنيفة جدّا، فجّروا الطّبقات دون حذر، ستموتون أنتم ذواتكم، غائرين في ثقب أسود أو حتّى مجروفين في كارثة، بدلا من رسم المسطّح. ليس الأسوأ هو أن نظلّ متراصفين - منتظمين، مدلولين، خاضعين - إنّما أن نلقي بالطّبقات في انهيار انتحاريّ أو جنونيّ، يجعلها تُنخّ علينا بكلّكلها إلى الأبد. ها هو إذا ما قد يتوجّب القيام به: المكوث على طبقة، تجريب ما توفّره لنا من حظوظ، البحث فيها عن موضع مناسب، عن حركات لا تارضين محتمّلة، عن خطوط إفلات ممكنة نخبرها، نوّمن هنا وهناك ارتباطات اندفاقات، نجرب أقسوما بأقسام اطّرادات شديّد، الحصول دوما على جزء صغير من أرض جديدة. إنّنا نصل إلى تحرير خطوط الإفلات، إلى تمرير وتهريب الاندفاقات المتزاوجة، إلى استخلاص شِدّد متّصلة لجسد دون أعضاء، تبعا لعلاقة دقيقة مع الطّبقات. الرّبط والمزاوجة والاستمرار: «ميّان» بكامله ضدّ البرامج التي ما تزال دالّة وذاتيّة. نحن في تشكيل اجتماعيّ؛ ننظر أولا في كيفيّة تراصفه بالنّسبة إلينا، فينا، في

الموضع الذي نحن فيه؛ الرجوع من الطبقات إلى التنزيد الأعظم حيث نحن عالقون؛ زحزحة التنزيد برفق، تمريره جهة مسطح القوام. هناك فقط يتبدى الجسد دون أعضاء على ما هو عليه، ترابط رغبات، اقتران اندفاعات، أطراد شدد. بنى كُلُّ مكنته التي تخصه، مكنة جاهزة وفق الظروف للارتباط بمكنات جماعية أخرى. يصف كاستنادا تجربيا مطولا (ليس مهما أن يتعلّق الأمر بالبيوط (peyotl) أو بشيء آخر): لنحتفظ حاليا بالكيفية التي يُجبر بها الهنديّ الجسد دون أعضاء أولا على البحث عن «موضع»، وهي عملية عسيرة بالفعل، ثم على العثور على «حلفاء»، ثم على التخلّي التدريجيّ عن التأويل، ثم بناء خطوط التجريب، التّصير - حيوانا، التّصير هبائيا، إلخ. ، اندفاعا باندفاع وأقسوما بأقسام. ذلك أنّ الجسد دون أعضاء هو كلّ ذلك: موقع بالضرورة، مسطح بالضرورة، مشترك بالضرورة (ينضد عناصر، أشياء، نباتات، حيوانات، أدوات، بشر، اقتدارات، قطعاً من كلّ ذلك، إذ ليس ثمة [٢٠٠] جسديّ دون أعضاء، إنما «أنا» فوقه، ما يتبقّى من أنا، ثابتا ومتغيّر الشكل، مجتازا لعبات).

على مرّ كُتُب كاستنادا، قد يخامر القارئ الشكّ في وجود دون جوان الهنديّ وفي أشياء أخرى كثيرة. لكن ليس لذلك أية أهمية. نعم الأمر إذا كانت هذه الكتب عرضا لانتقائية بدلا من كونها أتوغرافيا، وإجراء تجريبيّا بدلا من كونها بيان مُسارّة. ها هو الكتاب الرابع، حكايات سلطة، يتعلّق بالتمييز الحيّ بين «الطونال» [عالم الأشياء المادية] و«النّغال» [العالم الروحانيّ]. يبدو أنّ للطونال امتدادا تنافريّا: إنه العضوية، وكذلك كلّ ما هو منظم ومنظم؛ لكن هو كذلك التّمعني، كلّ ما هو دالّ ومدلول، كلّ ما هو قابل للتأويل والتفسير، كلّ ما يمكن أن تحتفظ به الذاكرة، في شكل شيء ما يُذكر بشيء آخر؛ وأخيرا هو الأنا، الذات، الشّخص الفرديّ، الاجتماعيّ أو التاريخيّ، وكلّ المشاعر المُناظرة لذلك. باختصار، الطونال هو كلّ شيء بما في ذلك

الله وحكم الله، بما أنه «يبنى قواعد يأسر بواسطتها العالم، إنه بالتالي يخلق العالم إذا جاز القول». ومع ذلك فإنّ الطّونال ليس إلّا جزيرة. ذلك أنّ النّغال هو أيضا كلّ شيء. وهو نفس الكلّ، لكن في ظروف جعلت الجسد دون أعضاء يعوّض العضوية، التّجريب عوّض كلّ تأويل لم يعد في حاجة إليه. اندفاقات الشّدّة، سوائها، أليافها، اطّرادات أفعالها وترباطاتها، الرّيح، تجزئتها الدقيقة، الإدراكات المجهرية عوّضت عالم الذات. التّصيّرات، التّصيّرات-حيوانات، التّصيّرات-هبائيات تعوّض التّاريخ الفرديّ أو الجماعيّ. في الحقيقة، الطّونال ليس متنافرا مثلما يبدو: إنّه يتضمّن جملة الطبقات، وكلّ ما يمكن أن يتعلّق بالطبقات، تنظيم العضوية، تأويلات وتفسيرات ما له مغزى، حركات الدّنيّة. على النقيض من ذلك، النّغال يفكّك الطبقات. لم تعد عضوية هي التي تعمل بل جسد دون أعضاء هو الذي يبنى. لم تعد ثمة أفعال للتفسير، أحلام أو استيهامات للتأويل، ذكريات طفولة للاستحضار، كلمات للتدليل، بل ثمة ألوان وأصوات، تصيّرات وشِدّد (وعندما تصبح كلبا، لا تتساءل ما إذا كان الكلب الذي تلعب معه هو حلم أو واقع، هو «أمك اللّعيّنة» أو هو شيء آخر مختلف). لم يعد أنا هو الذي يحسّ، يفعل ويتذكّر، إنّه «ضباب ساطع، بخار أصفر وداكن»، له أفعالات ويحسّ بحركات وسرعات. لكنّ المهمّ هو عدم تفكيك الطّونال بتخريبه فجأة. يجب إنقاصه، تقليصه، تنظيفه، وذلك في بعض الأوقات وحسب. يجب الحفاظ عليه من أجل البقاء، من أجل تحويل وجهة هجوم النّغال. ذلك أنّ ناغالا قد يباغت، [٢٠١] قد يدمّر الطّونال، أنّ جسدا دون أعضاء قد يُتلف كلّ الطبقات، قد يتحوّل سريعا إلى جسدٍ عدم، إلى تحطيم ذاتيّ محض لا مخرج آخر له غير الموت: «الطّونال تتوجّب حمايته مهما كلّف الأمر».

لم نُجب بعدُ على السّؤال: لِمَ كلّ هذه المخاطر؟ لِمَ مذكّك كلّ هذه الاحتياطات الصّروية؟ لأنّه لا يكفي أن نواجه تجريديّا بين

الطبقات والجسد دون أعضاء. ذلك أننا نجد الجسد دون أعضاء في الطبقات بقدر ما نجده على مسطح القوام اللامتراصف، لكن بكيفية أخرى. لتكن العضوية بوصفها طبقة: ثمّة حقاً جسد دون أعضاء يتعارض مع تنظيم الأعضاء الذي نسميه عضوية، لكن ثمّة كذلك جسد دون أعضاء للعضوية، منتمياً إلى هذه الطبقة بالذات. نسيج سرطاني: في كلّ حين، في كلّ ثانية، تصبح خليةً خليةً سرطانية، مجنونة، تنتشر وتفقد شكلها، تستحوذ على كلّ شيء؛ يجب أن تعيدها العضوية إلى قاعدتها أو تعيد تراصفها، ليس فقط من أجل بقائها هي، إنّما أيضاً من أجل أن يكون الإفلات ممكناً خارج العضوية، ومن أجل صنع الجسد «الآخر» دون أعضاء على مسطح القوام. لتكن طبقة التّمعني: هنالك أيضاً ثمّة نسيج سرطاني للتّمعني، ثمّة جسد متبرّع للمستبدّ الذي يعطل حركة العلامات بأكملها بقدر ما يمنع ولادة العلامة الدّالة على الجسد «الآخر» دون أعضاء. أو كذلك جسد الدّتيّة الخانق الذي يجعل التّحرّر أكثر استحالة بحيث لا يذر مجالاً حتى للتمييز بين الدّوات. حتّى إذا نظرنا في هذا التّشكيل الاجتماعيّ أو ذاك، في جهاز طبقة معيّن في تشكيل ما، فإنّنا نقول إنّ للأجساد كما للتّشكيلات جسدها دون أعضاء الذي هو مستعدّ لنخر كامل الحقل الاجتماعيّ، للانتشار فيه، لتغطيته ولاكتساحه، بدخوله في علاقات عنف ومنافسة كما في علاقات تحالف أو تواطؤ. جسد دون أعضاء للمال (التّضخّم)، لكن كذلك جسد دون أعضاء للدولة، للجيش، للمصنع، للمدينة، للحزب، إلخ. إذا كانت الطبقات هي مسألة تخثّر وترسّب، فإنّه يكفي أن تكون ثمّة سرعة ترسّب مندفعة في طبقة حتى تفقد هذه الأخيرة شكلها وتمفصلاتها، وتُشكّل ورمها المخصوص داخل ذاتها، أو في تشكيل معيّن وفي جهاز معيّن. تنسل الطبقات أجسادها التي دون أعضاء، أجساداً كليانية وفاشية، استنساخات كاريكاتورية مرعبة لمسطح القوام. لا يكفي التّمييز إذاً بين الأجساد المملّآة دون أعضاء على مسطح القوام والأجساد الخاوية دون

أعضاء على بقايا الطبقات بواسطة اللا تراصف العنيف جدًا. يجب أن نأخذ في الاعتبار كذلك أجسادا دون أعضاء مصابة بالسّرطان في طبقة أصبحت بؤرة لتكاثره. مسألة الأجساد الثلاثة. كان أרטو يقول إنه خارج «المسطّح» كان ثمة هذا المسطّح الآخر الذي يسيّجنا «بامتداد معتم أو بتهديد تبعا للحالات». إنّه صراع، وبما هو كذلك فإنه لا يتضمّن إطلاقا الوضوح الضّروريّ. كيف نصنع لأنفسنا أجسادا دون أعضاء دون أن تكون الجسد السّرطانيّ دون أعضاء [٢٠٢] للفاشيّ فينا، أو الجسد الخاوي دون أعضاء لمدمن على المخدّرات، لبارانويّ أو لوسواسيّ؟ كيف نميّز بين الأجساد الثلاثة؟ لم يفتأ أרטو يواجه هذا المشكل. تركيب عجيب لِمِن أجل القطع مع حكم الله: يبدأ بلعن جسد أمريكا السّرطانيّ، جسد الحرب والمال؛ يدين الطبقات التي يسمّيها «برازا»؛ يواجهها بالمسطّح الحقيقيّ، حتى وإن كان هو نُهير التراهومارين أو البيوط؛ لكنّه يعرف كذلك مخاطر لا تراصف عنيف جدًا ومتهوّر. لا يفتأ أרטو يواجه كلّ ذلك ويسيح فيه. رسالة إلى هتلر: «سيّدي العزيز، لقد أطلعتكم سنة ١٩٣٢ في مقهى إيدار (Idar) في برلين في أحد المساءات التي تعارفنا فيها وقبل تبوئكم للسلطة بفترة وجيزة، على الحواجز المرسومة على خارطة لم تكن مجرد خارطة جغرافيّة، حواجز ضدّي أنا، اقتحاما بالقوّة متّجها نحو عدد معيّن من الوجهات التي كنتم عيّنتموها لي. اليوم أرفع الحواجز التي كنتُ وضعتها يا هتلر! الباريسيون محتاجون للغاز. أنا أنطونان أרטو-تذييل: بطبيعة الحال، سيّدي العزيز، هذه لا تكاد تكون دعوة، إنّها بخاصّة تحذير...^(١)» هذه الخارطة التي ليست خارطة جغرافيّة وحسب، هي شيء ما شبيه بخارطة شدّة جسد دون أعضاء، حيث تشير الحواجز إلى عتبات، وتشير الغازات إلى تموجات واندفاعات. حتّى

(١) راجع، قضية مشتركة، عدد ٣، أكتوبر ١٩٧٢.

إذا لم ينجح أרטو في ما يخصّه، فالمؤكّد أنّه عن طريقه نجح شيء ما بالنسبة إلينا جميعا.

الجسد دون أعضاء هو البيضة. لكنّ البيضة ليست تراجعيّة: على التقيض من ذلك هي معاصرة بامتياز، يحملها المرء دائما معه بوصفها محلّ تجربيه الخاصّ، محلّه المرتبط به. البيضة هي محلّ الشدّة المحض، إنّها الفضاء وليست الامتداد، إنّها الشدّة الصّفر بوصفها مبدأ إنتاج. ثمة تقارب أساسيّ بين العلم والميثة، بين علم الأجنّة والميثولوجيا، بين البيضة البيولوجيّة والبيضة النفسيّة أو الكونيّة: تشير البيضة دائما إلى هذه الواقع الشّدديّ، ليس الواقع اللامنفق، لكن حيث تمايز الأشياء والأعضاء بتدرّجات وهجرات ومناطق جوار ليس إلّا. البيضة هي الجسد دون أعضاء. الجسد دون أعضاء ليس كائنا «قبل» العضويّة، إنه ملازق لها ولا يفتأ يتخلّق. إذا كان مرتبطا بالطفولة، فليس ذلك بالمعنى الذي قد يتراجع فيه الكهل إلى الطّفل، والطفل إلى الأمّ، إنّما بالمعنى الذي يحمل فيه الطّفل معه مثل توأم الدّوغون، قطعة من المشيمة، ينتزع من الشّكل العضويّ للأمّ مادّة كثيفة ولا مترافقة هي التي تشكّل على التّقيض من ذلك قطعه المتواصل مع الماضي، تشكّل تجربته وتجريبه الحاليّين. الجسد دون أعضاء هو كتلة طفولة وصيرورة وهو ضديد ذكريات الطفولة. إنّهُ ليس الطّفل «قبل» الكهل، ولا الأمّ «قبل» [٢٠٣] الطّفل: إنّهُ التّعاضّر الدّقيق للكهل، تعاضّر الطّفل والكهل، خارطة شدّدهما وشدّدهما المقارّنة، وكلّ التّنويعات على هذه الخارطة. الجسد دون أعضاء هو بالتّدقيق هذه البذرة المشتدّة حيث ليس ثمة ولا يمكن أن يكون ثمة آباء ولا أولاد (تصوّر عضويّ). ذلك هو ما لم يفهمه فرويد في ويسمان (Weismann): الطّفل بوصفه المعاصر البذريّ للوالدين: بحيث أنّ الجسد دون أعضاء ليس هو البتّة جسّدك، جسديّ... إنّهُ دائما جسد مفرد. إنه ليس إسقاطياّ بأكثر ممّا هو تراجعيّ. إنّهُ انغماد لكنّه انغماد

إبداعيّ ومعاصر دوما. تتوزّع الأعضاء على الجسد دون أعضاء؛ لكن تتوزّع فيه تحديدا باستقلال عن صورة العضوية، تصبح الصّور عرضيّة، لم تعد الأعضاء غير شدّد ناتجة، اندفاقات، عتبات وتدرّجات. بطن، عين، فم: أداة التّنكير لا يعوزها شيء، إنّها ليست لا محدّدة أو لا مفروقة، بل هي تعبّر عن التّحديد المحض للشّدّة وعن الفرق الشّدديّ. أداة التّنكير هي ناقل الرّغبة. لا يتعلّق الأمر إطلاقا بجسد مجزئ، متشظّ، أو بأعضاء دون جسد. الجسد دون أعضاء هو نقيض ذلك تماما. لا وجود إطلاقا لأعضاء مجزّاة بالنّسبة إلى وحدة مفقودة، ولا لعودة إلى اللاّ مفروق بالنّسبة إلى كلّية قابلة للفرق. ثمّة توزيع للمبرّرات الشّدديّة للأعضاء، مع أدوات تنكيرها الإيجابيّة، صلب مجموع أو كثرة، في تنضيد ووفق روابط مكنيّة عاملة على الجسد دون أعضاء. إنّ لوغوس منويّ. خطأ التّحليل النّفسيّ هو كونه فهم ظاهرات الجسد دون أعضاء على أنّها تراجّعات، إسقاطات، استيهامات، وفق صورة للجسد. وبذلك لم يكن أدرك إلّا العكس، وكان استعاض بالفعل عن خارطة عالميّة للشّدّة بصور أُسرّيّة، بذكريات طفولة وبموضوعات جزئيّة. إنه لم يكن يفهم شيئا للبيضة ولا لأدوات التّنكير ولا لمُعاصرة وسط لا يفتا يتخلّق.

الجسد دون أعضاء رغبة، إنّ هو وبه هو نرغب. وليس ذلك فقط لأنّه مسطّح قوام الرّغبة أو حقل محايثتها؛ لكن حتى عندما يسقط في خلاء اللاّ تراصف العنيف، أو كذلك في تناسل الطبقة السّرطانيّة، فإنّه يظلّ رغبة. تذهب الرّغبة إلى ذلك الحدّ، رغبة المرء بتعديم ذاته تارة، وطورا رغبته بمن له القدرة على التّعديم. رغبة المال، رغبة الجيش، رغبة الشرطة والدّولة، رغبة- فاشية، حتى الفاشيّة رغبة. ثمّة رغبة كلّما كان ثمّة تكوين لجسد دون أعضاء في ظلّ هذه العلاقة أو تلك. ليست المسألة مسألة إيديولوجيا بل مسألة مادّة محض، ظاهرة مادّة فيزيائية، بيولوجيّة، نفسيّة، اجتماعيّة أو كونيّة. لذلك يتمثّل المشكل المادّيّ

لتحليل فُصاميّ في معرفة ما إذا كانت لنا وسائل [٢٠٤] الانتقاء، وسائل فصل الجسد دون أعضاء عن بدائله: أجساد زجاجة خاوية، أجساد سرطانية، كلياّية وفاشيّة. اختبار الرّغبة: ليس شجب رغبات زائفة، بل التّمييز في الرّغبة بين ما يحيل على انتشار الطّبقّة، وعلى اللّاتراصّف العنيف جدّا، وبين ما يحيل على بناء مسطّح القِوام (مراقبة الفاشيّ، وكذلك الانتحاريّ والمجنون حتى فينا نحن). مسطّح القِوام ليس هو مجرّد ما كوّنته كلّ الأجساد دون أعضاء. ثمة فيه ما ينبذه من هذه الأجساد، إنّّه هو الذي يقوم بالاختيار، مع المكنة المجرّدة التي ترسمه. والتّمييز حتى في جسد دون أعضاء (الجسد المازوخيّ، الجسد المدمن على المخدّرات، إلخ.) بين ما يقبل وما لا يقبل التّركيب على المسطّح. استعمال فاشيّ للمخدّر أو استعمال انتحاريّ أيضا، لكن كذلك استعمال مطابق لمسطّح القِوام؟ حتى البارانونيا: إمكانية استعمالها جزئيّا؟ عندما كنّا طرحنا مسألة مجموع كلّ الأجساد دون أعضاء، وقد اتّخذناها كصفات جوهرية لجوهر وحيد، فإنّه قد توجّب فهم ذلك بالمعنى الدّقيق بخصوص المسطّح وحسب. إنّّه هو الذي يكوّن مجموع كلّ الأجساد دون أعضاء، الأجساد الملاّى التي وقع انتقاؤها (لا وجود لمجموع إيجابيّ مع الأجساد الخاوية أو السرطانية). ما طبيعة هذا المجموع؟ منطقيّ وحسب؟ أم أنّه يجب القول إنّ كلّ جسد دون أعضاء يُنتج في جنسه مفاعيل مطابقة أو مماثلة لمفاعيل الأجساد الأخرى التي دون أعضاء في جنسها الخاصّ؟ ما يتحصّل عليه المدمن على المخدّرات وما يتحصّل عليه المازوخيّ، قد يمكن الحصول عليه بكيفيّة أخرى في أوضاع المسطّح: الانتشاء على أقصى حدّ دون مخدّرات، السّكر بالماء العذب، كما في تجريب هنري ميلار؟ أو كذلك أيضا: هل يتعلّق الأمر بانتقال حقيقيّ للموادّ وباستمراريّة شدّديّة لكلّ الأجساد دون أعضاء؟ كلّ شيء ممكن دون شكّ. نقول فقط: تطابق المفاعيل، استمرارية الأجناس ومجموع كلّ

الأجساد دون أعضاء لا يمكن الحصول عليها على مسطّح القِوام إلّا
بمكّنة مجرّدة قادرة على الإحاطة به وحتى على رسمه، بتنضيدات قادرة
على أن تكون موصولة بالرغبة، تأخذ على عاتقها الرّغبات فعليّاً، تؤمّن
ترابطاتها المستمرّة وأواصرها العَرْضانيّة. وإلّا فإنّ الأجساد دون
أعضاء التي هي أجساد المسطّح ستظلّ منفصلة في جنسها، مهمّشة،
مختزّلة في ما هو موجود، بينما ستنتصر على «المسطّح الآخر» البدائل
السرطانيّة أو المفرّغة.



لقد كنّا صادفنا محوريّن، محور التّمعني ومحور الدّتيّنة. لقد كانتا
سيمياثيّتين أو حتّى طبقتيّن. لكنّ التّمعني لا يكون دون جدار أبيض
يدوّن عليه علاماته وترداداته. الدّتيّنة لا تكون دون ثقب أسود تُسكن فيه
وعياها وانفعالاتها وتردادها. بما أنّه ليس ثمة غير سيمياثيّات مختلطة، أو
أنّ الطبقات تكون ثنائيّة، فإنّه ليس لنا أن نستغرب من تركيب عُدّة

خاصّة جدّا عند تقاطعها . ومع ذلك غريب هو الوجه : إنّه منظومة جدار أبيض - ثقب أسود . وجه عريض ذو وجنتين بيضاويتين ، وجه شاحب تشقّه عينان هما بمثابة الثقب الأسود . رأس مهرّج ، مهرّج متّشح بالبياض ، مهرّج غريب الأطوار ، ملك موت ، وشاخ أقدس . الوجه [٢٠٦] ليس غلافا خارجيّاً لمن يتكلّم ، يفكر أو يحسّ . صورة الدالّ في اللّغة ، قد تظلّ وحداته ذاتها غير محدّدة إذا لم يكن المستمع المحتمل قد وجّه اختياراته إلى وجه من يتكلّم («حسنا ، يبدو أنّه غاضب . . .» ، «لم يكن بوسعه أن يقول ذلك . . .» ، «ترى وجهي عندما أخاطبك . . .» ، «انظر إليّ مليّاً . . .») . طفل ، امرأة ، ربّة منزل ، رجل ، أب ، زعيم ، معلّم ، شرطيّ لا يتحدثون لسانا بعامّة ، إنّما يتحدثون لسانا تُركّز خواصّه الدالّة على ملامح الوجهيّة . أوّلا الوجوه ليست فرديّة ، إنّها تحدّد مناطق تواتر أو احتمال ، تُعيّن حدود مجال يحدّد مسبقا التعابير والتّرابطات المتمرّدة على ما يطابقها من دلالات . كذلك صورة الذاتيّة ، صورة الوعي أو الانفعال ، قد تظلّ خاوية بإطلاق ما لم تكن الوجوه قد شكّلت مواضع الإصداء التي تنتقي الواقع الذهنيّ أو المحسوس ، جاعلة منه مسبقا واقعا مطابقا لواقع مهيمّن . الوجه ذاته ترداد . ويقوم هو ذاته بترداد مع تردادات التّمعني أو التّواتر ، كما مع تردادات الإصداء أو الذاتيّة . يبني الوجه الجدار الذي يحتاجه الدالّ ليرتطم به ويرتدّ ، إنه يكون جدار الدالّ ، جدار الإطار أو الشّاشة . يحفر الوجه الثقب الذي تحتاجه الدّيتنة لتطلع ، يكون الثقب الأسود للذاتيّة بوصفها وعيا أو انفعالا ، إنّها الكاميرا ، العين الثالثة .

أم أنّه يتوجّب قول الأشياء بطريقة أخرى ؟ ليس الوجه تحديدا هو الذي يكون جدار الدالّ ولا تُقبّ الذاتيّة . الوجه ، على الأقلّ الوجه العينيّ ، قد يبدأ بالتشكّل بغموض على الجدار الأبيض . قد يبدأ بالظهور بغموض في الثقب الأسود . للصورة المقرّبة للوجه في السّينما ما يشبه القطبين ، جعل الوجه يعكس الضّوء أو على التّقيض من ذلك

تكثيف الظلال حتّى إغراقه «في ظلمة حالكة»^(١). كان عالم نفس يقول إنّ الوجه هو أدراك بصريّ يتبلور انطلاقاً من «تنوّع الإضاءات الباهتة التي لا شكل ولا حجم لها». بياض إيحائيّ، ثقب آسر، وجه. الثقب الأسود دون حجم والجدار الأبيض دون شكل قد يكونان حاضريّن سلفاً منذ البداية. وفي هذه المنظومة قد تكون الكثير من التوليفات ممكنة بالفعل: إمّا ثقب سوداء تتوزّع على الجدار الأبيض؛ إمّا الجدار الأبيض ينسلّ ويتّجه جهة الثقب الأسود الذي يجمع كلّ الثقوب السوداء، يسرّعها أو «يستقطبها». تارة قد تظهر وجوه بثقوبها على الجدار؛ تارة قد تظهر في الثقب مع جدارها الخطي [٢٠٧] والمتكوّر. حكاية رعب، لكنّ الوجه هو حكاية رعب. من المؤكّد أنّ الدالّ لا يبنى وحده الجدار الضّروريّ له؛ من المؤكّد أنّ الذاتيّة لا تحفر وحدها ثقبها. لكن ليست الوجوه العينيّة أيضاً هي التي قد نستطيع تلبّسها جاهزة. تولد الوجوه العينيّة من مكنة مجردة للوجهيّة، ستنتجها في نفس الوقت الذي تمنح فيه الدالّ جداره الأبيض والذاتيّة ثقبها. المنظومة ثقب أسود- جدار أبيض قد لا تكون بالتّالي وجهاً بالفعل، قد تكون هي المكنة المجردة التي تنتج وفق التوليفات اللدنة لآلياتها. نحن لا نتوقّع أن تكون المكنة المجردة شبيهة بما تُنتج وبما سُنّج.

تنبثق المكنة المجردة حيث لا ننتظر انبثاقها، في مجرى غفوة، حالة غسقيّة، هلوسة، تجربة فيزيائية مسلّية... أقصوصة كافكا، بلومفيلد: يعود الأعزب إلى منزله مساء ويجد كرسيّ لعبة طاولة صغيرتين تقفزان من تلقائهما على «جدار» الأرضيّة، ترتدان في كلّ مكان، تحاولان حتّى إصابته في وجهه، وتبدوان حاملتيّن لكرات كهربائيّة أخرى أقلّ حجماً. ينجح بلومفيلد أخيراً في حبسها في الثقب

(١) جوزيف فون ستارنبارغ (Josef von Sternberg)، ذكريات عارض أخيلة الظلّ،

منشورات لافون، صص ٣٤٢-٣٤٣.

الأسود لصندوق صغير. يتواصل المشهد في اليوم الموالي عندما يحاول بلومفيلد إعطاء الكرات لصبي صغير غبي ولبنتين صغيرتين متجهمتين، ثم في المكتب حيث يلتقي بالمتدربين عنده، المتجهمتين والغيبين اللذين يودّان الاستيلاء على مكنسة. في باليه رائع لديبوسّي ونيجنسكي (Debussy et Nijinski)، كرة تنس صغيرة تأتي لترتدّ على الرّكح عند الغسق؛ ستطلع كرة أخرى كذلك في النهاية. بين الكرتين، هذه المرّة، تبسط بنتان وصبي يراقبهما، ملامحهما الانفعالية في الرقص والوجه تحت الأضواء الباهتة (فضول، استياء، تهكّم، انتشاء...^(١)). لا شيء للتفسير، لا شيء للتأويل. مكنة مجرّدة محض لحالة غسقيّة. جدار أبيض - ثقب أسود؟ لكن وفق التّوليفات، يمكن كذلك أن يكون الجدار هو الأسود والثقب هو الأبيض. يمكن للكرات أن ترتدّ على جدار أو أن تقع في ثقب. يمكن أن يكون لها حتى في تصادمها دور نسبيّ لثقب بالنسبة إلى الجدار، كما في مسارها الحادّ دور نسبيّ لجدار بالنسبة إلى الثقب الذي تتجه نحوه. إنّها تنتقل في منظومة جدار أبيض - ثقب أسود. لا شيء هنا يشبه الوجه، ومع ذلك تتوزّع الوجوه في كامل المنظومة وتتنظم ملامح الوجهيّة. ومع ذلك مرّة أخرى، يمكن لهذه المكنة المجرّدة [٢٠٨] أن تتجسّم بالتأكيد في شيء آخر غير الوجوه؛ لكن ليس في أيّ نظام كان ولا دون أسباب ضروريّة.

اهتمّ علم النفس الأميركيّ كثيرا بالوجه، خاصّة في علاقة الطّفل بأمّه، اتّصال عينيّ بعينيّ. مكنة ذات أربع عيون؟ لنذكر ببعض المراحل في هذه البحوث: (١) دراسات إيزاكوار (Isakower) حول الإغفاء، حيث تحيل إحساسات تسمّى تقبّليّات ذاتيّة، يدوية، فميّة، جلديّة أو حتى بصرية غائمة، على علاقة طفولية فم - ثدي؛ (٢) اكتشاف

(١) راجع بخصوص هذا الباليه، دبّيسّي (Debussy) لجون بارّاكي (Jean Barraqué)، الذي يورد نصّ العرض الموجز، منشورات سوي، صص ١٦٦ - ١٧١.

لوين (Lewin) لشاشة بيضاء للحلم، مغطاة عادة بالمضامين البصرية، لكنها تظلّ بيضاء عندما لا تكون للحلم من مضامين غير إحساسات تقبُّليات ذاتية (هذه الشاشة أو هذا الجدار الأبيض، قد يكون كذلك هو الثدي الذي يقترب، يكبر، يتسطح)؛ (٣) تأويل سبيتز (Spitz) الذي يذهب إلى أنّ الشاشة البيضاء تظلّ بالفعل أدراكا بصريا يتضمن أدنى حدّ من المسافة، وهو الذي سيبرز بصفته تلك، الوجه الأمومي الذي به يسترشد الطفل للإمساك بالثدي، بدلا من كونه يمثل الثدي ذاته بوصفه موضع إحساس لمسيّ أو احتكاك مباشر. قد يكون ثمة إذاً توليف بين نوعين من العناصر مختلفين جدّا: الإحساسات التقبُّلية الذاتية اليدوية، الفمّية والجلدية؛ الإدراك البصريّ للوجه المرئيّ أماميا على شاشة بيضاء، مع رسم العينين بوصفهما ثقبين سوداوين. سريعا ما يتخذ هذا الإدراك البصريّ أهميّة حاسمة بالنسبة إلى فعل التّغذي، بالنسبة إلى الثدي بوصفه حجما وبالنسبة إلى الفم بوصفه فتحة، وهذه كلّها تُختبر لمسيّا^(١).

يمكننا أن نقترح إذا التمييز التالي: ينتمي الوجه إلى منظومة سطح-ثقوب، سطح مثقوب. لكنّ هذه المنظومة لا يجب الخلط بينها خاصّة وبين المنظومة حجم-فتحة، الخاصّة بالجسد (تقبُّلية ذاتية). الرّأس يشملها الجسد، لكن ليس الوجه. الوجه سطح: ملامح، خطوط، تجاعيد الوجه، وجه طويل، مربع، مثلث، الجسد خارطة حتّى وإن انطبق على حجم والتفّ عليه، حتّى وإن طوّق فتحات وأحاط بها وهي لم تعد توجد إلّا بوصفها ثقبوا. الرّأس حتى وإن كانت بشريّة فإنّها ليست وجها بالضرورة. لا يتنتج الوجه إلّا عندما تكفّ الرّأس عن

(١) راجع، إيزاكوار، «مساهمة في علم النّفس المرضي للظواهرات المرتبطة بالإغفاء»، مجلّة التحليل النّفسي الجديدة، عدد ٥، ١٩٧٢؛ لوين، «التوم، الفم وشاشة الحلم»، م. ن؛ سبيتز، من الولادة إلى النطق، المطابع الجامعية الفرنسية، صص ٥٧-٦٣.

الانتماء إلى الجسد، عندما تكفّ عن أن تكون مقنّنة من طرف الجسد، عندما تكفّ هي ذاتها عن أن يكون لها تقنين جسديّ يكون تنوّع تأويله متعدّد الأبعاد- عندما يجد الجسد ذاته، بما في ذلك الرأس، قد فكّ تقنيته، ويجب أن يقنّنه تضافريّا شيء ما سنسمّيه وجها. يمكن القول إجمالاً إنّ الرأس، كلّ عناصر حجم- فتحة [٢٠٩] الرأس يجب أن تكون مُوجّهنة. وستكون كذلك بواسطة الشّاشة المثقوبة، بواسطة الجدار الأبيض- الثّقب الأسود، بواسطة المكنة المجرّدة التي تنتج الوجه. لكنّ العمليّة لا تتوقّف عند هذا الحدّ: لن يتوجّهن الرأس وعناصره ما لم يكن الجسد بكامله قادرا على أن يكون كذلك، ما لم ينته به الأمر إلى أن يكون كذلك في سيرورة لا مناص منها. الفم والأنف، وقبل ذلك العينان، لا تصبح سطحا مثقوبا من دون استدعاء كلّ أحجام الجسد الأخرى وكلّ فتحاته الأخرى. إنّها عملية تليق بالّدكتور مورو (Moreau): عملية رهيبة ورائعة. اليد، الثدي، البطن، القضيب والفرج، الفخذ، السّاق والقدم ستتوجّهن. الفيتيشيّة، الهوس الشّبقيّ، إلخ.، ليست منفصلة عن سيرورات الوجّهنة هذه. لا يتعلّق الأمر إطلاقا بانتزاع جزء من الجسد لجعله شيئا بوجه، أو باللجوء إلى وجه حُلُميّ كما لو أنّه على جناح سحابة. لا تشبيهيّة على الإطلاق لا تعمل الوجّهنة بالمشابهة وإنّما بتتابع العلل. إنّها عمليّة لا واعية وممكنة بشكل أكبر هي التي تجعل الجسد بكامله يمرّ بالسّطح المثقوب، وحيث لا يكون للوجه دور النّمودج أو الصّورة، إنّما دور اشتطاط التّقنين بالنسبة إلى كلّ الأجزاء التي فكّ تقنيته. يظلّ كلّ شيء جنسيّا، لا وجود لأيّ تصعيد وإنّما توجد إحداثيّات جديدة. تحديدًا لأنّ الوجه متوقّف على مكنة مجرّدة فإنّه لن يكتفي بتغطية الرأس، بل سيّطال أجزاء الجسد الأخرى، وحتى عند الحاجة سيّطال مواضيع أخرى دون مشابهة. حينئذ تصبح المسألة متعلّقة بمعرفة الظّروف التي بدأت فيها هذه المكنة بالاشتغال، وهي التي تنتج الوجه والوجّهنة. إذا لم تكن

الرأس، حتى البشرية، وجها بالضرورة، فإنّ الوجه تنتج في البشرية، لكن بحتمية ليست هي حتمية الناس «بعامة». الوجه ليس حيوانا، لكنه ليس بشريا بعامة أيضا، ثمّة حتى شيء ما لا إنساني بإطلاق في الوجه. خطأ هو التصرف كما لو أنّ الوجه لم يصبح لا إنسانيا إلا انطلاقا من عتبة معيّنة: صورة مقرّبة، تكبير مفرط، تعبير مستغرب، إلخ. لا إنساني في الإنسان، الوجه هو كذلك منذ البداية، إنه بطبيعته صورة مقرّبة، بسطوحه البيضاء الجامدة، بثقوبه السوداء اللامعة، بخوائه وضجره. وجه- مخبأ. حدّ أنّه إذا كان للإنسان مصير، فسيكون بالأحرى هو الإفلات من الوجه، تفكيك الوجه والوجهات، التصيّر لا مُستبين، التصيّر مستترا، وما ذلك بالرجوع إلى الحيوانية، ولا حتّى بعودات إلى الرأس، إنما بتصيّرات- حيوانات روحانية جدّا وخاصة جدّا، بتصيّرات غريبة في الحقيقة ستجتاز الجدار وستخرج من الثقوب السوداء، ستجعل ملامح الوجهية ذاتها تتخلّص في النهاية من تنظيم الوجه، تصيّرات لن تسمح باستغراقها في الوجه، بُقّع نمش تجري في الأفق، شعر تذروه الريح، عيانان نجتازهما عوضا عن النّظر إلى أنفسنا فيهما، أو النّظر إليهما في [٢١٠] المواجهة الكثيبة للذاتيات الدّالة. «لم أعد أنظر في عيني المرأة التي أحتضنها، لكنني أجتازهما سباحة بالرأس والذراعين والسّاقين بكاملهما، وأرى أنّه وراء محجريّ هاتين العينين يمتدّ عالم مجهول، عالم الأشياء المقبلة، وهذا العالم يغيب فيه كلّ منطق. (...) لقد كسرت الجدار (...)، عيناى لم تعودا مفيدتين لي في شيء، ذلك أنهما لا ترسلان لي غير صورة ما هو معروف. على جسدي كلّهُ أن يصبح شعاع ضوء دائم، أن يتحرّك بسرعة متزايدة دوما، دون توقّف، دون عودة، دون ضعف. (...) أغلق بالتالي أذنيّ، عينيّ وأطبق شفّتي^(١).» جسد دون أعضاء. أجل، للوجه مستقبل كبير،

(١) هنري ميلار، مدار الجدي، منشورات السّنديان، صص ١٧٧ - ١٧٩.

شريطة تدميره وتفكيكه. أن يكون في طريقه إلى اللا دالّ، إلى اللا ذاتي. لكننا لم نفسر بعد شيئاً ممّا نحسّه.

من منظومة جسد- رأس إلى منظومة الوجه، ليس ثمة تطوّر وليس ثمة مراحل جينية. لا وضعيات فنومينولوجيّة. لا اندماجات لموضوعات جزئية مع تنظيمات هيكلية أو مهيكلية. وزيادة على ذلك ليس ثمة إحالة على ذات قد تكون موجودة بالفعل، أو قد يفضي بها الحال إلى أن تكون كذلك، دون أن تمرّ بهذه المكنة الخاصّة بالوجهيّة. في أدب الوجه، عيب نصّ سارتر حول النظرة ونصّ لكان حول المرأة هو الإحالة على شكل ذاتيّة، على شكل إنسانيّة مفتكّرة في حقل فنومينولوجي، أو مُصدّعة في حقل بنيوي. لكنّ النظرة ليست إلّا تالية بالنسبة إلى عيون دون نظرة، بالنسبة إلى ثقب الوجهيّة الأسود. المرأة ليست إلّا تالية بالنسبة إلى جدار الوجهيّة الأبيض. لن نتحدّث أيضاً عن محور جينيّ ولا عن اندماج الموضوعات الجزئية. التفكير في المراحل التي في التناضح هو تفكير حَكَم: نحسب أنّ الأسرع هو الأوّل، حتى وإن استعمل كقاعدة أو كمقفز لما يأتي بعده. أمّا التفكير في الموضوعات الجزئية فهو أتعس من ذلك بكثير، إنّه تفكير مجرّب مخبول يمزّق، يقطّع، يشرّح في كلّ الاتجاهات، حتى وإن أعاد الخياطة كيفما اتّفق. يمكننا ضبط قائمة أيّا كانت بالموضوعات الجزئية: اليد، الثدي، الفم، العينان... لا نخرج من فرانكنشتاين. ليس لنا أن ننظر في أعضاء دون جسد وفي جسد مجزّئ، إنّما أن ننظر أولاً في جسد دون أعضاء، تنشّطه حركات شدويّة مختلفة هي التي ستحدّد طبيعة الأعضاء المعنّية وموضعها، هي التي ستجعل من هذا الجسد عضويّة، أو حتى منظومة طبقات لا تشكّل العضويّة إلّا جزء منها. لذا، الحركة الأبطأ ليست هي الحركة الأقلّ شدّة، وليست هي آخر ما يحدث أو ما يقع. والحركة الأسرع يمكنها أن تتّجه إليها، أن ترتبط بها، في اختلال تطوّر لا تزامنيّ لطبقات [٢١١] هي مع ذلك

متزامنة، في اختلال سرعات مختلفة دون تتابع مراحل. ليست مسألة الجسد مسألة موضوعات جزئية بل مسألة سرعات تفاضلية.

هذه الحركات هي حركات لا تَأْرُضُن. إنها هي التي «تصنع» للجسد عضوية حيوانية أو إنسانية. على سبيل المثال، اليد الممسكة تستتبع لا تَأْرُضُنا نسبياً ليس للرجل الأمامية وحسب، وإنما لليد المحركة. لها هي ذاتها مضاف هو موضوع الاستعمال أو الأداة: العَصَا بوصفها غصنا لا مُتَأْرُضُنا. يشير ثدي المرأة في وضعيتها العمودية إلى لا تَأْرُضُن الغدة الثديية الحيوانية، فم الطفل المزود بشفتين بواسطة زَم الغشاء المخاطي إلى الخارج، يعين لا تَأْرُضُن الشُّدْق أو الفم الحيوانيين. والشَّفاء- الثدي، كلٌّ منهما هو بمثابة المُضَافِ لِلْآخِر^(١). تستتبع الرَّأْسُ البشريَّة لا تَأْرُضُنا بالنسبة إلى الحيوان، في نفس الوقت الذي يكون فيه مضافها هو تنظيم عالم بوصفه وسطا لا مُتَأْرُضُنا هو ذاته (السَّبابِس هي «العالم» الأوَّل في تعارض مع الوسط الغابي)، لكن الوجه بدوره يمثل لا تَأْرُضُنا أكثر كثافة بكثير، حتَّى وإن كان أكثر بطأً. قد يمكننا القول إنه لا تَأْرُضُنُ مطلق: إنه يتوقَّف عن أن يكون نسبياً، لأنَّه يُخْرِج الرَّأْسَ من طبقة العضوية، عضوية إنسانية مثلما هي حيوانية، لربطها بطبقات أخرى مثل طبقتي التَّمعني أو الذَّتيَّة. لكن للوجه مضاف ذو أهمية كبرى، هو

(١) كلاتش (Klaatsch)، «تطوُّر الجنس البشري»، في الكون والبشرية، بقلم كريومار (Kreomer)، الجزء الثاني: «عبثاً حاولنا العثور على أثر طرف أحمر على شفاء صغار الشامبانزي الأحياء، التي تشبه الإنسان كثيراً في ما عدا ذلك. (...). ما قد يكون الوجه الأنيق جداً لفتاة إذا كان الفم قد ظهر وكأنَّه نُلَم بين طرفين أبيضين؟ (...). من ناحية أخرى، تحمل المنطقة الصَّدرية عند القردة الشبيهة بالإنسان، حلمتي الغدة الثديية، لكن لا تتكوَّن فيهما إطلاقاً حشوات شحم شبيهة بالأثداء.» وعبارة أميل دوفو (Emile Devaux)، النوع، الغريزة، الإنسان، منشورات لو فرانسوا، ص ٢٦٤: «الطفل هو الذي صنع ثدي المرأة والأم هي التي صنعت شفتي الطفل.»

المشهد الذي ليس وسطا وحسب بل هو عالم لا مُتأرضين. عديدة هي التّضائّفات وجه- مشهد في هذا المستوى «العالي». تمارس التّربية المسيحيّة في نفس الوقت المراقبة الرّوحانيّة للوجّهية وللمشهدية: ركبوا هذه كما تلك، لَوْنُوهما، أكملوهما، نظّموهما، في تكاملية تعكس المشاهد والوجوه^(١). تُشكّل كتيّبات الوجه والمشهد [٢١٢] بيداغوجيا وانضباطا صارما، وتُلهم الفنون كما تَسْتلهم منها. يضع الفنّ المعماريّ مجموعات، منازل، قرى أو مدنا، صروحا أو مصانع، تعمل بوصفها وجوها في مشهد يغيّره الفنّ المعماريّ. يستعيد الرّسم نفس الحركة لكنّه يقلبها أيضا، واضعا المشهد تبعا للوجه، متعاطيا مع هذا كما مع ذاك: «مبحث الوجه والمشهد». تتعامل الصّورة المقرّبة في السّينما قبل كلّ شيء مع الوجه بوصفه مشهدا، وعلى هذا النّحو وقع تعريفه، ثقب أسود وجدار أبيض، شاشة وكاميرا. لكن كذلك الفنون الأخرى، الفنّ المعماريّ، الرّسم، وحتّى الرّواية: صورة مقرّبه هي التي تحرّكها مبتكرة كلّ التّضائّفات. وأمّك، مشهد هي أم وجه؟ وجه أم مصنع؟ (غودار). ولا وجه لا يحيط بمشهد مجهول وغير مستكشف، ولا مشهد لا يكون عامرا بوجه محبوب أو مأمول، لا يطوّر وجهها مقبلا أو منصرما. أيّ وجه لم يستدع المشاهد التي كان يُملغّمها، البحر والجبل، أيّ مشهد لم يستحضر الوجه الذي قد يكون استكملة، الذي قد يكون أمده بالتّكملة اللّا منتظرة لخطوطه وملامحه؟ حتّى عندما يصبح الرّسم مجردا فإنّه لا يقوم إلّا بالعثور على الثّقب الأسود والجدار

(١) تلعب الوجوه دورا أساسيا في المبادئ البيداغوجيّة لجان بابتيست دي لاسال. لكن إنياس دي ليولا كان ربط من قبل ذلك دروسه بتمارين مشهد أو «تركيب وسط»، يخصّ حياة المسيح وجهتّم والعالم، إلخ. : يتعلّق الأمر كما يقول بارط بصور هياكل عظيمة تابعة للغة، لكن يتعلّق الأمر أيضا برسيمات فاعلة يجب إتقانها وتلوينها، مثل التي سنعرّث عليها في كتب التّعليم المسيحية وفي كتيّبات التّقوى.

الأبيض، التركيب الكبير بين القماشة البيضاء والثَّقَّ الأسود. تَمَرُّق اللوحة لكن كذلك تمديدها بمحور إفلات، بنقطة استهراب، بخط قُطريّ، بضربات سَكِين، بَشَقُّ أو ثقب: الممكنة حاضرة هناك بالفعل، تعمل دائما لإنتاج الوجوه والمشاهد حتى وإن كانت الأشدّها تجريدا. لوتيسيان (Le Titien) كان يبدأ برسم الأسود والأبيض، ليس بهدف تشكيل حافات لملئها، إنّما بوصفها رجما لكلّ لون مقبل.

الرّواية- رأى برسفال طيران إوزات بريّة كان أبهرها الثلج. (...). عثر الصّقر على واحدة منها تخلّفت عن السّرب. ضربها، نقرها بقوة حتى صرعها. (...) ورأى برسفال تحت قدميه الثلج الذي حطّت عليه والدّم الذي ما يزال ظاهرا. انحنى من فوق حربته حتّى يتأمّل منظر الدّم والثلج معا. بدا له هذا اللّون الطّريّ هو لون وجه صديقه. أنّه ينسى كلّ شيء من كثرة تفكيره بذلك، إذ هكذا كان يرى على وجه لبابة خبزه، القرمزيّ موضوعا على الأبيض مثل قطرات الدّم الثلاث التي كانت تظهر على الثلج. (...) لقد رأينا فارسا ينام على صهوة جواده. كلّ شيء موجود في هذه الرّواية: التّرداد الخاصّ بالوجه وبالمشهد، الجدار الأبيض الثلجيّ للمشهد- الوجه، الثّقب الأسود للصّقر أو للقطرات الثلاث الموزّعة على الجدار؛ أو كذلك في نفس الوقت الخطّ الفضيّ للمشهد- الوجه المسرع نحو الثّقب الأسود للفارس، حالة [٢١٣] تشنّج عصبيّ عميقة. وأحيانا كذلك، في بعض الطّروف، ألا يقدر الفارس على دفع الحركة دائما إلى الأبعد، مجتازا الثّقب الأسود، مخترقا الجدار الأبيض، مفكّكا الوجه، حتى وإن أخفقت المحاولة^(١)؟ كلّ هذا لا يعيّن البتّة

(١) كريتيان الترويسيّ (Chrétien de Troyes)، برسفال أو رواية الكأس المقدّسة، غاليمار، «فوليو»، صص ١١٠-١١١. نجد في رواية مالكولم لوري (Malcolm Lowry)، ما وراء البحار، (منشورات دنويل، صص ١٨٢-١٩٦)، مشهدا شبيها تهيمن عليه «آلية» الباخرة: تغرق حمامة في الماء الذي تغزوه أسماك

نهاية الجنس الروائي بل هو هناك منذ البداية وينتمي إليه بشكل أساسي. من الخطأ أن نرى في دون كيشوت نهاية رواية الفروسية، باستحضار الهلوسات، إفلات الأفكار، الحالات التثويمية أو التخشيبية للفارس. من الخطأ أن نرى في روايات بيكات نهاية الرواية بشكل عام، باستحضار الثقوب السوداء، خط لا تأرُضُ الشخصيات، الجولات الفُصاميّة لمولوي (Molloy) أو لمن تتعذر تسميته، فقدان كلّ واحد منهم لاسمه وذكرياته ومشروعه. ثمّة بالفعل تطوّر للرواية، لكنّه ليس قائماً هنا بكلّ تأكيد. لا تفتأ الرواية تُعرّف بمغامرة شخصياتها التائهة التي لم تعد تعرف أسماءها، عمّا تبحث ولا ما تفعل، إنّها فاقدة للذاكرة، مترنّحة، تخشبيّة. إنّها هي التي تفرّق بين الجنس الروائي والأجناس الدراميّة والملحميّة (عندما يصاب البطل الملحميّ أو الدرامي بالجنون، بالنسيان، إلخ، فذلك يكون بطريقة مغايرة تماماً). أميرة كليفاس هي رواية تحديدا بسبب ما بدا مفارقياً لمعاصريها، حالات الغياب أو «الاستراحة»، حالات السّبات التي تصيب الشخصيات: ثمّة دائماً تربية مسيحيّة في الرواية. مولوي هو بداية الجنس الروائي. عندما تبدأ الرواية بكريتيان الترويسي فإنها تبدأ بالشخصية الأساسيّة التي سترافقها في كامل مسارها: يُمضي فارس رواية الحبّ العذريّ وقته في نسيان اسمه، في نسيان ما قام به، في نسيان ما يقال له، لا يعرف إلى أين يذهب ولا إلى من يتحدّث، لا يفتأ يرسم خطّ لا تأرُضُ مطلق، لكن لا يفتأ كذلك يفقد طريقه فيه، لا يفتأ يتوقّف ويسقط في ثقوب سوداء. «إنه ينتظر الفروسية والمغامرة.»

القرش، «ورقة حمراء سقطت على سيل أبيض»، وبشكل لا يقاوم، ستوحي بوجه دام. مشهد لوري مأخوذ من عناصر مختلفة جدّاً، منظم بشكل خاصّ جدّاً بحيث لا يكون ثمّة أيّ تأثير، وإنّما التقاء وحسب مع مشهد كريتيان الترويسي. فضلاً عن ذلك هو تأكيد لمكنة مجرّدة حقيقيّة، ثقب أسود أو بقعة حمراء - جدار أبيض (ثلج أو ماء).

افتحوا كريتيان الترويسي في آية صفحة، ستجدون فارسا متخسبا جالسا على حصانه، متكئا على حربته، ينتظر، يرى في المشهد وجه حبيبته الذي يجب أن يضربه ليجيب. لانسولو أمام وجه الملكة الأبيض لا يشعر بحصانه يتوغل في النهر؛ أو كذلك [٢١٤] يمتطى عربة مارة، يصادف أنها عربة العار. ثمّة مجموعة وجه- مشهد تنتمي إلى الرواية، وتارة تتوزع فيها الثقوب السوداء على جدار أبيض، وطورا يسرع خط الأفق الأبيض نحو ثقب أسود، والاثنان معا.

مبرهّنات اللاتأرضن أو قضايا مكنية

المبرهنة الأولى: لا تأرضن انفرادي أبدا، إنّما لا تأرضن حدّين على الأقلّ، يد- موضوع استعمال، فم- ثدي، وجه- مشهد. ولا يتأرضن كلّ واحد من الحدّين على الآخر. بحيث أنّه لا يجب الخلط بين إعادة الأرضنة وبين العودة إلى إقليمية بدائية أو قديمة. تستتبع إعادة الأرضنة بالضرورة جملة من الحيل التي يقوم بها عنصر، هو ذاته لا متأرضن، مقام إقليمية جديدة بالنسبة إلى الإقليمية الأخرى التي فقدت كذلك إقليميتها. من هنا منظومة كاملة من إعادة تأرضنات أفقيّة وتكامليّة، بين اليد والأداة، بين الفم والثدي، بين الوجه والمشهد. - المبرهنة الثانية: من عنصريّ أو من حركة لا تأرضن، الأسرع ليس هو بالضرورة الأشدّ أو الأكثر لا تأرضنا. لا يجب الخلط بين شدّة اللاتأرضن وبين سرعة الحركة أو التطوّر. بحيث أنّ الأسرع يربط شدّته بشدّة الأبطأ، التي هي من حيث هي شدّة، لا تتبعه لكنّها تعمل تزامنيا على طبقة أخرى أو على مسطح آخر. هكذا تجد العلاقة ثدي- فم طريقها بالفعل على مسطح وجهيّة. - المبرهنة الثالثة: يمكننا حتى استنتاج أنّ الأقلّ لا تأرضنا يعيد أرضنته على الأكثر لا تأرضنا. تبرز هنا منظومة إعادة لا تأرضن عمودية من أسفل إلى أعلى. بهذا المعنى، ليس الفم وحده وقعت «وجهنته»، إنّما الثدي، اليد، الجسد بكامله،

الأداة ذاتها وقعت «وَجَهَنَّتْهَا». كقاعدة عامّة، اللّا تَأْرَضُنَات التَّسْبِيّة (تحويل التّقنين) تعيد لا تَأْرَضُنْهَا على لا تَأْرَضُنْ مطلق بهذا الخصوص أو ذاك (التّقنين التّضافريّ). لكنّنا رأينا أنّ لا تَأْرَضُنْ الرّأس إلى وجهه كان لا تَأْرَضُنْنا مطلقا، مع أنّه يظلّ سلبيا، من حيث أنّه كان يمرّ من طبقة إلى أخرى، من طبقة العضويّة إلى طبقتيّ التّمعني والذّيّنة. تعيد اليد والثّدي تَأْرَضُنْهُمَا على الوجه، في المشهد: لقد تَوَجَّهْنَا في نفس الوقت الذي تَمَشَّهْدَا فيه. حتّى موضوع استعمال سِيُوجْهَنْ: عن بيت، عن ماعون أو عن موضوع، عن لباس، إلخ.، سنقول إنّها تنظر إلَيّ، ليس لأنّها قد تشبه وجهها، إنّما لأنّها مأخوذة في سيرورة [٢١٥] جدار أبيض- ثقب أسود، لأنّها تتّصل بالممكنة المجرّدة للوَجْهَنة. تتناول الصّورة المقرّبة في السّينما خنجرا، كوبا، ساعة حائطيّة، غلاية مثلما تتناول وجهها أو عنصرا من وجهه؛ هكذا يَنْظُرُ إلَيّ غريفيث (Griffith) والغلاية. أليس صحيحا القول بالتّالي إنّه ثَمّة صور مقرّبة في الرواية، كما عندما يكتب ديكانز الجملة الأولى من صرصار اللّيل على الموقد: «الغلاية هي التي بدأت...»^(١) وفي الرّسم كيف تتحوّل طبيعة ميّنة من الدّاخل إلى وجهه- مشهد، أو كيف يَتَوَجَّهَنْ عند بونّار (Bonnard) وفولّار (Vuillard)، ماعون، كوب على السّماط، إبيريق شاي. المبرهنة الرّابعة: الممكنة المجرّدة لا تتّمّ إذا في ما تنتجه من وجوه

(١) إيزنشتاين، صورة الفيلْم، منشورات كُتب ماريديان، صص ١٩٤-١٩٩: «الغلاية هي التي بدأت... الجملة الأولى لديكانز في صرصار اللّيل على الموقد. أيّ شيء أبعد منها عن الأفلام؟ لكنّ مهما بدا ذلك غريبا، فإنّ السّينما أيضا تبدأ بالغليان في هذه الغلاية. (...) مذ نتعرّف في ذلك على صورة مقرّبة نموذجيّة، نصرخ: إنه غريفيث محض بكلّ تأكيد... هذه الغلاية هي صورة مقرّبة غريفيثيّة بشكل نموذجيّ. صورة مقرّبة مشبّعة بهذا المناخ الديكانزيّ الذي يمكن لغريفيث أن يحيط فيه، بنفس التّمكّن، بالصّورة القاسية للحياة في بعيدا إلى الشّرق، وبالصّورة الأخلاقية المتجمّدة للشّخصيات، التي كانت تدفع المذنبه أنا على السّطح المتحرّك لكتلة جليد تهاوى» (نلتقي هنا بالجدار الأبيض).

وحسب، إنّما في ما تُوجّهه بدرجات متنوّعة في أجزاء من الجسد، في الثّياب وفي الموضوعات وفق تسلسل العلل (ليس وفق تنظيم مشابّهات).

في حقيقة الأمر يظلّ السّؤال قائما: متى تدخل المكنة المجرّدة حيّز العمل؟ متى يتمّ تشغيلها؟ لنأخذ أمثلة بسيطة: السّلطة الأموميّة التي تمرّ بالوجه إبّان الرّضاعة بالذّات، السّلطة الانفعاليّة التي تمرّ بوجه المحبوب، حتّى في المداعبات، السّلطة السّياسيّة التي تمرّ بوجه الزّعيم، لافتات، أيقونات وصور، حتّى في أفعال الجماهير؛ سلطة السّينما التي تمرّ بوجه النّجم والصّورة المقرّبة، سلطة التّلفاز... لا يعمل الوجه هنا بوصفه وجها فرديّا، التّفريد هو الذي يَنْتج عن حتمية كونه ثمّة وجه. المهمّ ليست هي فردية الوجه بل نجاعة التّرقيم الذي يمكّن هو من إجرائه وفي أيّة حالات. ليست المسألة مسألة إيديولوجيا، بل مسألة اقتصاد وتنظيم سلطة. الأكّد أنّنا لا نقول إنّ الوجه أو قدرة الوجه هي التي تفرز السّلطة وتفسّرها. بالمقابل، بعض تنضيدات السّلطة في حاجة إلى إنتاج الوجه، بعضها في غير ما حاجة إلى ذلك. إذا نظرنا في المجتمعات البدائيّة فإنّ أشياء قليلة تمرّ بالوجه: سيميائيّتها غير دالّة، غير ذاتيّة، إنّها جماعيّة بالأساس، متعدّدة الأصوات وجسديّة، تتلاعب بصور وبموادّ تعابير شديدة [٢١٦] التّنوع. تعدّد الأصوات يمرّ بالأجساد، بأحجامها، بتجاويفها الداخليّة، بارتباطاتها وبإحداثياتها الخارجيّة المتغيّرة (إقليميّات). مَقطع من سيميائيّة يدويّة أو متتالية يدويّة تناسق دون تبعية ودون توحيد مع متتالية شفويّة أو جلدية أو إيقاعيّة، إلخ. يبيّن ليزو (Lizot) على سبيل المثال كيف «يكون الفصل بين الواجب والطّقس والحياة اليوميّة فصلا يكاد يكون تامّا (...)، غريبا، لا تستوعبه عقولنا»: في حالة حداد، يتفوّه البعض بمزّح فاحشة بينما آخرون ييكون؛ أو أنّ هنديّا يتوقّف فجأة عن

البكاء لإصلاح نايه؛ أو أنّ الجميع ينامون^(١). كذلك بالنسبة إلى نكاح المحارم، ليس ثمّة تحریم، ثمّة متتاليات محرّمة تترايط مع متتاليات تحریم وفق هذه أو تلك من الإحداثيات. تتزاوج الرّسوم، الأوشام، العلامات على الجلد مع تعدّد أبعاد الأجساد. حتّى الأقنعة تكفل انتماء الرّأس إلى جسد بدلا من إبراز وجه. تحدث دون شكّ حركات لا تآرُضن عميقة تربك إحداثيات الجسد وترسم تنضيدات خاصّة للسلطة؛ غير أنّ الأمر لا يتعلّق بوضع الجسد في ارتباط بالوجهيّة، إنّما بتصيّرات حيوانات، خاصّة بواسطة المخدّرات. الآكد أنّه ليس هنالك روحانيّة أقلّ: ذلك أنّ التّصيّرات- حيوانات تدور حول روح حيوانيّ، روح- نمر مرّقط، روح- عصفور، روح- قطّ برّيّ، روح- طوقان، تستولي على داخل الجسم، تدخل في فجواته، تملأ أحجاما، بدلا من صنع وجه له. تعبّر حالات الاستيلاء على علاقة مباشرة للأصوات بالجسد وليس بالوجه. تنظيمات سلطة الشّامان والمحارب والصيّاد، تنظيمات هشة ومتقلقلة، هي أكثر روحانيّة بقدر مرورها بالجسديّة والحيوانيّة والنباتيّة. عندما كنّا قلنا إنّ الرّأس البشريّة ما زالت تنتمي إلى طبقة العضويّة، فإنّنا لم نكن نطعن بطبيعة الحال في وجود ثقافة ومجتمع، كنّا نقول وحسب إنّ تقنيات هذه الثقافات وهذه المجتمعات تتناول الأجساد، تتناول انتماء الرّؤوس إلى الأجساد، تتناول استعداد منظومة جسد- رأس للتّصير، لاستقبال أنفُس، استقبالها صديقة واستبعادها عدوّة. يمكن أن يكون للـ«بدائيّين» أكثر الرّؤوس إنسانيّة وجمالا وروحانيّة، لكن ليس لهم وجه وليسوا في حاجة إليه.

وذلك لسبب بسيط. الوجه ليس كليّا. ليس هو حتّى وجه الرّجل الأبيض، إنه الرّجل الأبيض ذاته، بوجنتيه العريضتين البيضاويتين

(١) جاك ليزو، دائرة التّيران، منشورات سوي، ص ٣٤ وما بعدها.

وبالثقب الأسود للعينين. [٢١٧] الوجه هو المسيح. الوجه هو الأوروبي النموذجي، ما كان يسميه عزرا باوند الإنسان الشّهواني أياً كان، باختصار هو المهووس الشّبقيّ العاديّ (الأطباء النفسانيون للقرن التاسع عشر كانوا على حقّ في القول إنّ الهوس الشّبقيّ، على خلاف الغلّة الأنثويّة، كان يظلّ عادة طاهراً وعفيفاً، ذلك أنّه يمرّ بالوجه والوجهة). ليس هو كلّيّ، إنّما هو وجه الكون كلّّه. هو المسيح نجم النجوم: يبتكر وجهه الجسد بكامله وينشرها في كلّ مكان (آلام جان دارك بالصّورة المقرّبة). الوجه إذاً فكرة خاصّة جدّاً في طبيعتها، وهو ما لم يمنعها من كونها اكتسبت ومارست الوظيفة الأعمّ. هي وظيفة الازدواج والتّثنية. ثمة هنا جانبان: المكنة المجرّدة للوجهيّة، مثلما هي متكوّنة من بثقب أسود- جدار أبيض، تعمل بكيفيتين تخصّ إحداهما الوحدات أو العناصر وتخصّ الأخرى الاختيارات. وفق الجانب الأوّل، يعمل الثقب الأسود بمثابة حاسوب مركزيّ، مسيح، عين ثالثة تنقل على الجدار أو على الشاشة البيضاء بوصفها سطح مرجعية عامّ. أياً كان المضمون الذي نخصّها به، ستّمضي المكنة في تكوين وحدة للوجه، وجهاً ابتدائياً في علاقة مزدوجة مع وجه آخر: رجل أو امرأة، غنيّ أو فقير، كهل أو طفل، رئيس أو مرؤوس، «س أو ي». تنقل الثقب الأسود على الشاشة، مسار العين الثالثة على سطح المرجعيّة يُشكّل الكثير من التقسيمات أو من التّشجّرات، مثل مكّنات ذات أربع عيون هي وجوه ابتدائية مترابطة اثنين اثنين. وجه معلّم وتلميذ، أب وابن، عامل وربّ عمل، شرطيّ ومواطن، متّهم وقاضٍ («للقاضي وجه صارم، لم يكن لعينه أفق...»): الوجوه العينيّة المُفردنة تَتَنَجّج وتَغَيّر حول هذه الوحدات، من هذه التّوليفات التي هي توليفات الوحدات، مثل هذا الوجه لابن ثريّ حيث نَمِيز بالفعل الميل العسكريّ، الرّقبة السّنسيريّة. إنّنا نَنصّب في وجه بدلا من امتلاك وجه.

وفق الجانب الثّاني، تقوم المكنة المجرّدة للوجهيّة بدور الإجابة

الانتقائية أو بدور الاختيار: وجهٌ عينيٌّ معيّن، تقدّر المكنة أن يمرّ أو لا يمرّ، يلائم أو لا يلائم، تبعاً لوحداث الوجوه الابتدائية. تكون العلاقة الثنائية هذه المرّة، من صنف «نعم - لا». العين الخاوية للثقب الأسود تلتهم أو تنبذ، مثل مستبدّ يكاد يكون خَرَفًا ما زال يعبر عن القبول أو الرّفص. وجه معيّن لمعلّمة تجوبه تشنّجات لا إرادية ويغظيه قلق يجعل كون «الأمر ليس على ما يرام». متّهم ومرؤوس يقدّمان خضوعاً شديداً للتّصنّع فيصبح وقاحة. أو كذلك: يكون مؤدّباً جدّاً حتى ليُشكّ بصدقه. مثل هذا الوجه لا هو وجه رجل ولا هو وجه امرأة. أو كذلك لا هو وجه فقير ولا هو وجه ثريّ، هل هو متروك فقدّ ثروته؟ في كلّ لحظة، [٢١٨] تنبذ المكنة وجوها غير مطابقة أو هيئات مريبة. لكن عند هذا المستوى من الاختيار وحسب. إذ سيتوجّب أن تنتج بالتتابع انزياحات انحراف معيارية لكلّ ما يفلت من العلاقات المزدوجة، وإقامة علاقات ثنائية بين ما هو مقبول في اختيار أوّل وبين ما هو مسموح به في اختيار ثان وثالث، إلخ. لا يتوقّف الجدار الأبيض عن التّموّ في نفس الوقت الذي يعمل فيه الثقب الأسود عديد المرّات. أصبحت المعلّمة مجنونة؛ لكنّ الجنون وجه مطابق لاختيار لا نهائيّ (مع ذلك ليس هو الاختيار الأخير، بما أنّه ما تزال ثمة وجوه مجانيّن غير مطابقة للجنون مثلما نفترض ما يجب أن يكون). آه، لا هو رجل ولا هو امرأة، إنه متخنّث: العلاقة الثنائية تقوم بين «لا» الفئة الأولى و«نعم» الفئة الموالية التي يمكنها كذلك أن تعيّن تساهلاً في ظلّ بعض الشّروط بدلاً من الإشارة إلى عدوّ يجب التّعلّب عليه مهما كان الثّمن. على أيّة حال، لقد تعرّفنا عليك، المكنة المجرّدة دونّتك ضمن جملة شبكتها. نلاحظ جيّداً أنّ مكنة الوجّهية، في الدّور الجديد الذي تقوم به لكشف الانحرافات، لا تكتفي بحالات فردية، بل تعمل كذلك بشكل عامّ كما في دورها الأوّل الذي هو دور ترتيب الاعتياديات. إذا كان الوجه هو المسيح فعلاً، أي الإنسان الأبيض المتوسّط أيّاً كان، فإنّ الانحرافات

الأولى، الانزياحات المعيارية، هي انحرافات وانزياحات عنصرية: إنسان أصفر، إنسان أسود، بشر من صنف ثان أو ثالث. هم أيضا سيدونون على الجدار، سيوزّعهم الثقب. يجب تنصيرهم، أي وجهتهم. العنصرية الأوروبية بوصفها مسعى للرجل الأبيض لم تعمل أبدا من خلال الإقصاء ولا بتعيين شخص ما مشارا إليه بوصفه آخر: بل في المجتمعات البدائية قد ندرك الغريب بوصفه «آخر»^(١). تعمل العنصرية بواسطة انزياحات انحراف، وفق وجه الرجل الأبيض الذي يسعى إلى إدماج الملامح التي ليست مطابقة في تموجات يتزايد لا تركزها وتأخيرها، تارة ليتسامح مع تلك الملامح في مكان محدد وفي ظروف محددة، في غيتو محدد، وتارة لمحوها من على الجدار الذي لا يتحمل الآخريّة إطلاقا (إنه يهودي، إنه عربي، إنه زنجي، إنه مجنون... إلخ). من زاوية النظر العنصرية ليس ثمة خارج، ليس ثمة بشر برانيون. ليس ثمة غير بشر قد يتوجب أن يكونوا مماثلين لنا، وجريمتهم هي ألا يكونوا كذلك. القطيعة لم تعد تمرّ بين داخل وخارج، إنما داخل سلسلات دالة متزامنة واختيارات ذاتية متتابعة. العنصرية لا تلتقط البتة جزيئات [٢١٩] الآخر، إنها تنشر تموجات الهو هو حدّ إفناء ما لا يستجيب للتماهي (أو ما لا يستجيب للتماهي إلا انطلاقا من هذا الانزياح أو ذاك). قساوتها لا يضاهيها إلا قصورها أو سذاجتها.

بطريقة أبهج، لعب الرّسم بكلّ موارد المسيح- الوجه. المكنة المجردة للوجهية، جدار أبيض- ثقب أسود، استعملت تلك الموارد في كلّ الاتجاهات لتنتج بوجه المسيح كلّ وحدات الوجه، لكن لتنتج

(١) في إدراك الغريب بوصفه آخر، راجع هودريكور (Haudricourt)، «أصل الاستنساخات والعشائر»، ضمن مجلة الإنسان، جانفي ١٩٦٤، صص ٩٨-١٠٢، وجولان (Jaulin)، أناسنا، أناس الآخر، منشورات ١٨/١٠ (التمهيد، ص ٢٠).

كذلك كلّ انزياحات الانحراف. ثمة اغتباط للرّسم بهذا الخصوص، من القرون الوسطى إلى عصر النهضة، وكأنّه حرّية جامحة. لا يتحكّم المسيح فقط بوجّهة الجسد بكامله (جسده هو)، بمشّهدة كلّ المواضع (مواضعه هو)، لكنّه يركّب كلّ الوجوه الابتدائية ويدير كلّ الانزياحات: مسيحٌ - رياضيّ احتفال، مسيحٌ - متأنّق مثليّ، مسيحٌ زنجيّ، أو على الأقلّ عذراء زنجية على هامش الجدار. أعظم أشكال الجنون تظهر على قماشة اللوحة عبر التقنين الكاثوليكيّ. مثال واحد من بين أمثلة كثيرة: على خلفيّة مشهد بيضاء، وثُقب سماء أزرق - أسود، المسيح مصلوب، أصبح مكنة طائرة ورقية، يرسل بالأشعة ندوبا إلى القديس فرانسيس؛ تقوم النّدوب بوجّهة جسد القديس، على شاكلة جسد المسيح؛ لكن كذلك الأشعة التي تحمل النّدوب للقديس هي الخيوط التي يحرك بها هذا الأخير الطّائرة الورقية الرّبّانية. إنّهُ تحت لواء الصليب تمّ التّمكّن من سحن الوجه في كلّ الاتّجاهات، وكذلك سيرورات الوجّهة.

نظرية المعلومات تمنح نفسها مجموعة متجانسة من الرّسائل الدّالة الجاهزة التي اعتُبرت بالفعل كعناصر في العلاقات المزدوجة، أو أنّ عناصرها منظّمة من رسالة إلى أخرى تبعا لتلك العلاقات. في المقام الثّاني، يتوقّف سحب تركيبة على عدد معيّن من الاختيارات الثّنائية الدّاتية التي تنمو تناسيبًا مع عدد العناصر. لكنّ السّؤال هو: كلّ هذه المزوجة وكلّ هذه الثّنية (التي لا تتوقّف فقط مثلما يقال، على سهولة أكبر بالنّسبة إلى الحساب) تفترضان بالفعل بسط جدار أو شاشة، إنشاء ثُقب مركزيّ ملائم من دونهما قد لا تُفهم أية رسالة ولا يتمّ أيّ اختيار. الفضاء بأكمله يجب أن تغطّيه بالفعل منظومة ثقب أسود - جدار أبيض، يجب أن ترسم تبرّعّماته أو انقساماته، حتى يتمكّن الدّالّ والذّاتية ببساطة من جعل تبرّعّماتهما وانقساماتهما ممكنة. السّيميائية المزدوجة للتمعني والذّتيّة في حاجة أكيدة لحماية ذاتها ضدّ كلّ تسلّل للخارج.

بل يجب أن لا يعود ثمة برآئية: لا يجب أن تثبّق آية مكنة مترحلة وآية تعددية ابتدائية مع توليفات موادّ تعبيرهما المتنافرة. [٢٢٠] يجب أن تكون ثمة مادة تعبير وحيدة بوصفها شرطا لكلّ قابلية ترجمة. لا يمكن تكوين سلسلات دالة عاملة بعناصر منفصلة، مرقمنة، لا مُتأرِضنة، إلّا بشرط امتلاك شاشة سيميولوجيّة وجماد يحميها. لا يمكن القيام باختيارات ذاتيّة بين سلسلتين أو في كلّ نقطة من سلسلة إلّا بشرط ألاّ تجرف آية عاصفة برآئية السّلسلات والذّوات. لا يمكن تكوين نسيج ذاتيّات إلّا بامتلاك عين مركزيّة، ثقب أسود يأسر كلّ ما قد يكون فائضا، كلّ ما قد يغيّر الأفعالات المفردة كما الدلالات المهيمنة. بل أكثر من ذلك، من العبث الاعتقاد أنّ اللّغة من حيث هي كذلك يمكنها نقل رسالة. يكون لسان ما مأخوذا دائما في وجوه تعلن ملفوظاته، تشحنها بالنسبة إلى الدّوالّ التي هي قيد الاستعمال وبالنسبة إلى الدّوات المعنيّة. إنّهُ على الوجوه تجد الاختيارات طريقها وتنتظم العناصر: يستحيل على النّحو المشترك الانفصال عن تربية الوجوه. الوجه هو بوق حقيقيّ. إذا، ليست المكنة المجردة للوجهيّة هي وحدها التي عليها توفير شاشة واقية وثقب أسود ملائم، بل الوجوه التي تنتجها هي التي ترسم كلّ ضروب التّبرعمات والانقسامات التي من دونها قد لا يتمكّن الدّالّ والذّاتيّ من تشغيل ما يعود إليهما منها في اللّغة. لا ريب أنّ ثنائيات الوجه وازدواجيّاته ليست هي نفس ثنائيات وازدواجيّات اللّغة وعناصرها وذواتها. إنّها لا تتشابه على الإطلاق. لكنّ الأولى هي التي تشكّل قاعدة للثانية. بالفعل، مكنة الوجهيّة وهي ترجم مضامين متشكّلة أيّا كانت إلى مادة تعبير واحدة، تُخضعها سلفا للشكل الحصريّ للتعبير الدّالّ والذّاتيّ. إنّها تلجأ إلى التشبيك المسبّق الذي يمكّن من تبيان العناصر الدّالة ومن تفعيل الاختيارات الدّاتيّة. مكنة الوجهيّة ليست ملحقا للدّالّ وللذّات، هي بالأحرى مرتبطة بهما وشارطة لهما: ازدواجات الوجه وثنائياته تضاعف الدّالّ والذّات، تردادات الوجه

تصادى مع التّردادات الدّالة والدّاتيّة. وذلك تحديدا لأنّ الوجه يتوقّف على مكنة مجرّدة، لا يفترض ذاتا ولا يفترض دالاّ موجودين سلفا؛ بل هو مرتبط بهما ويمنحهما القوام الضّروريّ. ليست الدّات هي التي تختار الوجوه كما في اختبار سزوندي (Szondi)، الوجوه هي التي تختار ذواتها. ليس دالاّ هو الذي يؤوّل صورة البقعة السوداء- الثقب الأبيض، أو الصّفحة البيضاء- الثقب الأسود، كما في اختبار رورشاش (Rorschach)، بل هي هذه الصّورة هي التي تبرمج الدّوالّ.

لقد تقدّمنا في السّؤال: ما الذي يطلق المكنة المجرّدة للوجهيّة بما أنّها لا تعمل دائما، [٢٢١] ولا تعمل في أيّما تشكيلات اجتماعيّة؟ بعض التشكيلات الاجتماعية في حاجة إلى الوجه وكذلك إلى المشهد^(١). ذلك تاريخ كامل. لقد تمّ في أوقات مختلفة انهيار معمم لكلّ السّيميائيات البدائيّة، المتفرّعة، المتنافرة، المتلاعبه بموادّ وصور التعبير المتنوّعة جدّا، لصالح سيميائيّة التّمعني والدّتيّنة. أيّا كانت الفروق بين التّمعني والدّتيّنة، أيّا كان انتشار هذا أو تلك في هذه الحالة أو تلك، أيّا كانت الصور المتغيّرة لاختلاطهما الفعليّ، فإنّهما يشتركان تحديدا في سحق كلّ تفريع، في إقامة اللغة على شكل تعبير حصريّ، في العمل وفق مزاجيّة دالّة وثنائيّة ذاتيّة. تكفّ الخطيّة الفائقة الخاصّة بالّلغة عن التّناسق مع الصّور متعدّدة الأبعاد: إنّها تُسطّح الآن كلّ الأحجام، إنّها تجعل كلّ الخطوط تابعة لها. هل من قبيل الصدفة أن تتعرّض اللّسانيات دائما وبسرعة لمشكل الجناس أو الملفوظات الملتبسة التي ستعمل على معالجتها بجملة من الاختزالات الشائنيّة؟

(١) يبيّن موريس روناي (Maurice Ronai) كيف أنّ المشهد في واقعه كما في مصطلحه، يحيل على سيميائيّة وعلى أجهزة سلطة خاصّة جدّا: تجد فيها الجغرافيا واحدا من مصادرها، لكن تجد فيها كذلك مبدأ تبعيّة السّياسيّة (المشهد بوصفه «وجه الوطن أو الأمّة»). راجع «مُشاهد» في مجلّة هروودوت، العدد الأوّل، جانفي/يناير ١٩٧٦.

بشكل أعم، لا يمكن تحمّل أيّ تفرّع ولا أية سمة للجذمور: طفل يجري، يلعب، يرقص، يرسم، لا يمكنه تركيز انتباهه على اللّغة والكتابة، ولن يكون كذلك ذاتا جيّدة على الإطلاق. باختصار، السّيميائية الجديدة في حاجة إلى تحطيم مُمنهَج لكثرة السّيميائيات البدائية بكاملها، حتى وإن احتفظت ببقايا منها في أسِجة معيّنة.

مع ذلك ليست السّيميائيات هي التي تتحارب بأسلحتها وحدها. إنّها التّنضيدات الخاصّة جدّا للسلطة هي التي تفرض التّمعني والدّتيّة بوصفهما صورة تعبيرها المحدّد، في افتراض متبادل مع مضامين جديدة: لا وجود لتّمعّنٍ دون تنضيد استبداديّ، لا وجود لدّتيّة دون تنضيد تسلّطيّ، لا وجود لاختلاطهما دون تنضيدات سلطة تعمل تحديدا بواسطة الدّوالّ، وتمارس على النّفوس والدّوات. لكنها هذه التّنضيدات التي هي تنضيدات سلطة، هذه التّشكّلات الاستبدادية أو التّسلّطية هي التي تمنح السّيميائية الجديدة وسائل إمبرياليّتها، أي في نفس الوقت وسائل سحق السّيميائيات الأخرى وحماية نفسها ضدّ كلّ تهديد متأتّ من الخارج. يتعلّق الأمر بإلغاء متعمّد للجسد وللإحداثيات الجسديّة التي كانت تمرّ بها السّيميائيات المتفرّعة أو متعدّدة الأبعاد. [٢٢٢] سنؤدّب الأجساد، سنفكّك الجسديّة، سنطارد التّصيّرات-حيوانات، سندفع اللاّ تارّضن حتى عتبة جديدة، بما أنّنا سنقفز من طبقات عضويّة إلى طبقا تّمعّنٍ ودّتيّة. سننتج مادّة تعبير واحدة. سنبنّي منظومة جدار أبيض- ثقب أسود، أو بالأحرى سنطلق هذه الممكنة المجرّدة التي ستسمح فعليّا بقوة الدّالّ المطلقة وتأمينها كما ستسمح بقيومة الدّات وتأمينها. ستعلّقون على الجدار الأبيض وستغوصون في الثّقب الأسود. هذه المكنة سُمّيت مكنة وَجْهِيّة لأنّها إنتاج اجتماعيّ للوجه، لأنّها تقوم بوجهنة الجسد بكامله، بوجهنة جواراته وموضوعاته، بمشاهدة كلّ العوالم والمواضع. لا أرضنة الجسد تستتبع إعادة أرضنة على الوجه؛ فكّ تقنين الجسد يستتبع تقنينا تضافريّا بواسطة

الوجه، انهيار الإحداثيات الجسدية أو المواضع يستتبع تكوين مشهد. سيميائية الدالّ والذاتي لا تمرّ بالأجساد إطلاقاً. من العبث زعم وضع الدالّ في علاقة بالجسد. أو على الأقلّ ليس وضعه في علاقة إلا مع جسد مُوجّهٍ بالتّمام من قبل. الفرق بين أزيائنا الموحّدة والبستنا من ناحية، الرّسوم والملابس البدائية من ناحية أخرى، هو أنّ الأولى تقوم بوجهة الجسد بواسطة ثقب الأزرار الأسود وجدار القماش الأبيض. حتّى القناع يجد هنا وظيفة جديدة مضادّة تماماً للوظيفة السابقة. ذلك أنّه ليس ثمة وظيفة واحدة للقناع، إلّا أن تكون وظيفة سلبية (لا يُستخدم القناع بأيّ حال من الأحوال للإخفاء، للتغطية، حتى وهو يُظهر أو يكشف). إمّا أنّ القناع يكفل انتماء الرّأس إلى الجسد وإلى تصوّره - حيواناً، كما في السيميائيات البدائية. أو على النقيض من ذلك، مثلما هو الحال الآن، يكفل القناع انتصاب الوجه وتعليته، وجهة الرّأس والجسد: القناع هو الوجه في حدّ ذاته، هو تجريد الوجه أو تدبيره. لا إنسانية الوجه. لا يفترض الوجه على الإطلاق دالّاً أو ذاتاً مسبقين. الترتيب مختلف تماماً: تنضيد عينيّ للسلطة الاستبدادية والتسلّطية - غ إطلاق المكنة المجرّدة للوجهيّة، جدار أبيض - ثقب أسود - غ إقامة السيميائية الجديدة، سيميائية التّمغني والذّئنة فوق هذا السطح المثقوب. لذلك لم نتوقّف عن النّظر حصريّاً في مشكلين: علاقة الوجه بالمكنة المجرّدة التي تنتجه؛ علاقة الوجه بتنضيدات السلطة التي تحتاج لهذا الإنتاج الاجتماعيّ. الوجه سياسة.

بطبيعة الحال، لقد رأينا في موضع آخر أنّ التّمغني والذّئنة كانا سيميائيتين متميزتين تماماً من جهة الحقّ، مع نظامهما المختلف (إشعاع دائريّ، خطيّة أقسومية)، [٢٢٣] مع جهاز سلطتهما المختلف (العبودية الاستبدادية المعمّمة، العقد - المحاكمة التسلّطيّ). ولا واحدة منهما تبدأ مع المسيح، مع الإنسان الأبيض بوصفه كليّاً مسيحياً: ثمة تشكيلات استبدادية آسيوية، زنجيّة أو هندية للتّمغني؛ تظهر السيرورة

التَّسْلُطِيَّةُ لِلذَّيْنَةِ بِأَكْثَرِ نَقَاءٍ فِي مَصِيرِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ. لَكِنْ مَهْمَا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ السِّمِّيَّاتِ، فَإِنَّهَا تَشْكَلُ مَعَ ذَلِكَ خَلِيطًا مِنْ جِهَةِ الْوَاقِعِ، وَإِنَّهُ حَتَّى فِي مَسْتَوًى هَذَا الْخَلِيطِ هِيَ تُؤَكِّدُ إِمْبِرْيَالِيَّتَهَا، أَيْ سَعِيَهَا الْمَشْتَرَكُ لِسَحْقِ كُلِّ السِّمِّيَّاتِ الْآخَرَى. لَا وَجُودَ لَتَمَعْنٍ لَا يَتَضَمَّنُ بَذْرَةَ ذَاتِيَّةً؛ لَا وَجُودَ لَذَيْنَةٍ لَا تَنْجَرُّ عَنْهَا بَقَايَا دَالٍّ. إِذَا ارْتَدَّ الدَّالُّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى جِدَارٍ، إِذَا أَسْرَعَتِ الذَّاتِيَّةُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ثُقْبٍ، يَجِبُ الْقَوْلُ إِنَّ جِدَارَ الدَّالِّ يَتَضَمَّنُ بِالْفِعْلِ ثُقُوبًا سُودَاءَ وَأَنَّ ثُقْبَ الذَّاتِيَّةِ الْأَسْوَدِ مَا يَزَالُ يَحْمِلُ مِرْقَ جِدَارٍ: لِلْمَخْتَلِطِ أُسٌّ مَتِينٌ إِذَا فِي الْمَكْنَةِ الَّتِي لَا فِكَاكَ فِيهَا بَيْنَ الْجِدَارِ الْأَبْيَضِ - الثُّقْبِ الْأَسْوَدِ، وَلَا تَفْتَأُ السِّمِّيَّاتَانِ تَخْتَلِطَانِ تَهْجِينًا، تَقَاطَعَا وَوَصُلَا لِلوَاحِدَةِ بِالْآخَرَى كَمَا بَيْنَ «الْعِبْرَانِيِّ وَالْفِرْعَوْنِ». إِنَّمَا ثَمَّةُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْأَخْلَاطِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ شَدِيدَةً التَّغْيِيرِ. إِذَا أَمَكَّنَا التَّأْرِيخَ لِمَكْنَةِ الْوَجْهِيَّةِ مُحَدِّدِينَ إِيَّاهَا بِالسَّنَةِ صَفَرٍ لِلْمَسِيحِ وَبِالتَّطَوُّرِ التَّأْرِيخِيِّ لِلْإِنْسَانِ الْأَبْيَضِ، فَلَأَنَّ الْخَلِيطَ يَتَوَقَّفُ بِالتَّالِيِ عَنْ أَنْ يَكُونَ تَقَاطَعًا أَوْ تَشَابُكًا لِيَصْبِحَ تَدَاخُلًا تَامًا حَيْثُ يُشْبِعُ كُلُّ عُنْصُرٍ الْعُنْصُرَ الْآخَرَ، مِثْلَ قَطْرَاتِ خَمَرٍ أَحْمَرٍ - أَسْوَدٍ فِي مَاءٍ أَبْيَضٍ. سِيمِيَّائَتُنَا الَّتِي هِيَ سِيمِيَّائَةُ النَّاسِ الْبَيْضِ الْحَدِيثِينَ، تِلْكَ ذَاتُهَا الَّتِي هِيَ سِيمِيَّائَةُ الرُّأْسِمَالِيَّةِ، وَصَلَتْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ حَيْثُ يَمْتَدُّ التَّمَعْنُ وَالذَّيْنَةُ فَعَلِيًّا أَحَدُهُمَا عِبْرَ الْآخَرِ. هُنَاكَ إِذَا تَأَخَذَ الْوَجْهِيَّةُ أَوْ مَنْظُومَةُ الْجِدَارِ الْأَبْيَضِ - الثُّقْبِ الْأَسْوَدِ كَامِلَ مَدَاهَا. عَلَيْنَا مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَمَيِّزَ بَيْنَ حَالَاتِ الْإِخْتِلَاطِ وَالتَّنَاسُبِ الْمَتَغْيِّرِ لِلْعُنْصُرِ. سَوَاءٌ فِي الْحَالَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، لَكِنْ كَذَلِكَ فِي الْحَالَاتِ الْمَاقِبِلِ مَسِيحِيَّةٍ، يُمْكِنُ لِعُنْصُرٍ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى عُنْصُرٍ آخَرَ وَيَكُونَ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْهُ بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ. نَتَأَدَّى إِذَا إِلَى تَعْرِيفِ وَجْهِهِ - حُدُودِ لَا تَخْتَلِطُ مَعَ وَحْدَاتِ الْوَجْهِ وَلَا مَعَ انْزِيَاخَاتِ الْوَجْهِ الْمُحَدَّدَةِ آفًا.

I. هُنَا، الثُّقْبُ الْأَسْوَدُ كَائِنٌ عَلَى الْجِدَارِ الْأَبْيَضِ. تِلْكَ لَيْسَتْ وَحْدَةً بَلَى أَنَّ الثُّقْبَ الْأَسْوَدَ لَا يَفْتَأُ يَتَنَقَّلُ عَلَى الْجِدَارِ، وَيَعْمَلُ مَشْوِيًّا.

ثقبان أسودان، أربعة ثقب سوداء، ما لا نهاية له من الثقوب السوداء التي تتوزع كالأعين. الوجهية هي دائما كثرة. سنعمّر المشهد بأعين أو بثقوب سوداء، كما في لوحة لآرنست (Ernst)، كما في تصوير لألويز (Aloïse)، أو لولولفي (Wölfl). نرسم على الجدار الأبيض دوائر تحيط بثقب: في كلّ مكان توجد فيه مثل هذه الدائرة، يمكن أن نضع عينا. يمكن حتى [٢٢٤] أن نقترح قانونا: بقدر ما يكون ثقب محاطا، بقدر ما يتمثل مفعول ما يحيط به في تكبير السطح الذي ينزلق عليه، وإعطاء هذا السطح قوة استحواذ. لعلّ الحالة الأشدّ صفاء تقدّمها اللّفائف الشعبية الأثيوبية التي تجسّد شياطين: ثقبان أسودان على السطح الأبيض للرّق أو للوجه المستطيل أو المدوّر الذي يرسم عليه، لكنّ هذه الثقوب السوداء تُحشّد وتتوالد، تشكّل تردادا، وفي كلّ مرّة نحدّ فيها دائرة ثانوية، نكوّن ثقباً أسود جديدا ونضع فيه عينا^(١). مفعول استحواذ لسطح ينغلق بقدر ما يكون توسّع. إنه الوجه الاستبداديّ الدالّ، وتضاعفُه الخاص، تكاثره، ترداد تواتره. تضاعفُ الأعين. المستبدّ أو ممثّلوه منتشرون في كلّ مكان. إنه الوجه مرئيّ أماميّ، تراه ذات هي ذاتها تلتقفها الثقوب السوداء أكثر من كونها ترى. ذلك شكل للقدر، القدر الأرضيّ، القدر الدالّ الموضوعيّ. الصّورة المقرّبة في

(١) راجع، جاك مارسويه (Jacques Mercier) لفائف سحرية أثيوبية، منشورات سوي. و«رسوم اللّفائف الأثيوبية الواقية»، مجلة الدّراسات الأثيوبية، XII، جويلية/يوليو ١٩٧٤؛ «دراسة أسلوبية لرسوم اللّفائف الأثيوبية الواقية»، موضوعات وعوالم، XIV، صيف ١٩٧٤ («تصلح العين للوجه الذي يصلح للجسد. (...) وقع رسم الحدقات في الفضاءات الدّاخليّة. (...) لأجل ذلك يجب الحديث عن وجهات معان سحرية مكوّنة من أعين ووجوه، وقد استعملت زخارف تقليدية مثل المصلّبات، التّرايع، النجوم ذات الفروع الأربعة، إلخ.». سلطة المَلِك (Négus)، مع تحداره السّليمانيّ، مع حاشية سحرته، كانت تمرّ بأعين الجمر العاملة بمثابة ثقب أسود، ملاكا أو شيطانا. ثمثّل جملة دراسات مارسويه إضافة أساسية لكلّ تحليل لوظائف الوجه.

السّينما تعرف جيّدا هذا الشكل: صورة مقرّبة لغريفيث، على وجه، على عنصر من وجه أو على موضوع مُوجّهٍ تتخذ بالتّالي قيمة زمنيّة استباقية (عقارب البندول تعلن عن شيء ما).

II. هنا، على التّقيض من ذلك، انفتل الجدار الأبيض، خيط فضيّ يتّجه نحو الثّقب الأسود. ثقب أسود «يلتهم» كلّ الثّقوب السوداء، كلّ الأعين، كلّ الوجوه، في نفس الوقت الذي يكون فيه المشهد خيطا يلتفتّ عند طرفه النّهائيّ حول الثّقب. إنّها دائما كثرة، لكنّها شكل آخر للقدّر، القدر الذاتي، الانفعاليّ، المنعكس. إنّ الوجه أو المشهد البحريّ: إنّ يتّبع خطّ الفصل بين السّماء والبحر، أو بين الأرض والبحر. هذا الوجه التّسلّطيّ هو وجه جانبيّ ويسرع نحو الثّقب الأسود. أو وجهان متقابلان، لكنّهما جانبيّان بالنّسبة إلى الملاحظ، واجتماعهما موسوم سلفا بفصل لا حدود له. أو كذلك الوجوه التي تتلقّت تحت وطأة الخيانة التي تجرفها. تريستان، إيزولد، إيزولد، تريستان، في المركب الذي يدفعهما حتى الثّقب الأسود للخيانة وللموت. وَجْهِيَّة [٢٢٥] الوعي والانفعال، تردّادُ إصداء أو تراوَج. هذه المرّة لم يعد مفعول الصّورة المقرّبة هو تكبير سطح يعيد إغلاقه في نفس الآن، لم تعد له وظيفة قيمة زمنيّة استباقية. إنّ يعيّن مصدر سلّم شِدّة، أو يكون جزءاً من هذا السّلّم، إنّ يشعل الخطّ الذي تتّبعه الوجوه كلّما اقتربت أيضا من الثّقب الأسود بوصفه منتهى: صورة مقرّبة لإزنشتاين مقابل صورة مقرّبة لغريفيث (الصّعود المحتدّ للحزن أو للغضب في الصّور المقرّبة للبارجة بوتمكنين^(١)). هنا أيضا نرى بوضوح أنّ كلّ [٢٢٦] التّوليفات ممكنة بين الشّكلين - الحَدّين للوجه. في ليلي (Lulu) لبابست (Pabst)، الوجه الاستبداديّ لليلي المنهارة

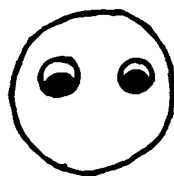
(١) حول الطّريقة التي يميّز بها إزنشتاين ذاته تصوّره للصّورة المقرّبة عن تصوّر غريفيث، راجع، صورة الفيلم.



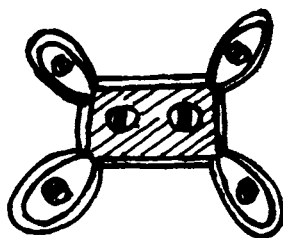
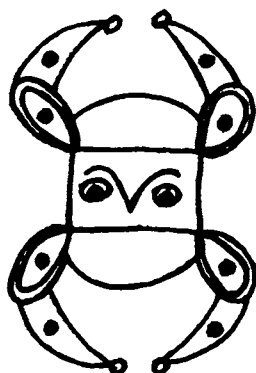
مكنة بأربع أعين



مع مفعول مضاعفة
الحافة



مكنة بسيطة

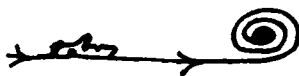


تكاثر العيون في كلّ حافة مضاعفة

وجه استبداديّ أرضيّ دالّ

يرتبط بصورة سكّين الخبز، صورة ذات قيمة استباقية تعلن عن الجريمة؛ لكن كذلك الوجه التسلطيّ لجاك السّفاح يمرّ بسلم شدّد بأكمله يقوده نحو السكّين ونحو قتل ليلي.

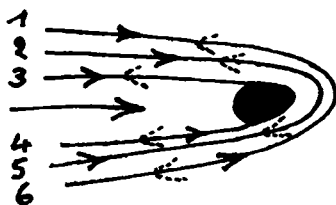
بشكل أعمّ، سنلاحظ الخاصيّات المشتركة بين الشكّلين- الحديّين. من ناحية، الجدار الأبيض، الخدود العريضة البيضاء حاولت عبثاً أن تكون العنصر الأساسيّ للدالّ، والثقب الأسود والأعين حاولت عبثاً أن تكون العنصر المنعكس للذاتية، إنهما متساوقان دوماً، لكن



مكنة عزباء



مكنة مزدوجة



مكنة معقدة:

١. خط الموسيقى
 ٢. خط التصويرية
 ٣. خط المشهدية
 ٤. خط الوجهية
 ٥. خط الوعي
 ٦. خط الانفعال
- الخ.

وجه تسلطي ذاتي بحري
(استنادا إلى تريستان وإيزولد)

وفق الصيغتين، حيث تارة، تتوزع ثقب سوداء وتتضاعف على الجدار الأبيض، تارة على النقيض من ذلك، يندفع الجدار الأبيض وقد اختزل في ذروته أو في خط أفقه، باتجاه ثقب أسود يلتهمها جميعها. لا وجود لجدار أبيض دون ثقب سوداء، لا وجود لثقب أسود دون جدار أبيض. من ناحية أخرى، في الحالتين معا، يكون الثقب الأسود محاطا، بل ومحاطا بشكل مُشط؛ يتمثل مفعول الحافة إمّا في توسيع سطح الجدار وإمّا في جعل الخط أكثر كثافة؛ ويستحيل على الإطلاق أن يكون الثقب الأسود في الأعين (الحدقة)، إنه دائما داخل الحافة، والأعين كائنة دائما داخل الثقب: عيون منطفئة ترى بشكل [٢٢٧] أفضل بقدر ما تكون في الثقب الأسود^(١). هذه الخاصيات المشتركة لا

(١) إنه مبحث معتاد في رواية الرعب وفي الخيال العلمي: الأعين في الثقب الأسود وليس العكس («أرى قرصا مشعا يطلع من هذا الثقب الأسود، يبدو كأنه

تمنع الفرق- الحدّ بين شكلي الوجه، والنسب التي وفقها يتغلّب هذا أو ذاك في السيمائية المختلطة- الوجه الاستبداديّ الأرضيّ الدالّ، الوجه التسلّطيّ الانفعاليّ والذاتيّ البحريّ (الصّحراء يمكنها كذلك أن تكون بحر الأرض). شكلان للقدّر، حالتان لمكنة الوجّهية. بيّن جون باريس (Jean Paris) بوضوح ممارسة هذين القطبين في الرّسم، من المسيح المستبدّ إلى المسيح الانفعاليّ: من ناحية، وجه المسيح مرثيّ أماميّاً، كما في فسيفساء بيزنطيّة، مع ثقب العينين الأسود على خلفية ذهبيّة، العمق كلّهُ منقذف أماميّاً؛ من ناحية أخرى، الوجوه التي تتلاقى وتتلقّت عن بعضها البعض، بشكل يكاد يكون تامّاً أو جانبيّ، كما في قماش لوحة من القرن الخامس عشر، مع نظرات مائلة ترسم خطوطاً متعدّدة، مدمجة العمق في اللّوحة ذاتها (يمكن أن نسوق أمثلة انتقال واختلاط بشكل عشوائيّ: نداء الحوّاريين، لدوشيو (Duccio)، على مشهد مائيّ، حيث تحمل الصيغة الثانية بالفعل المسيح والآثم الأوّل، بينما يظلّ الآثم الثّاني حبيس التقنين البيزنطيّ^(١)).

حُبّ سوان: عرف بروست كيف يجعل الوجه والمشهد والرّسم والموسيقى، إلخ. تتصادى. ثلاث لحظات في قصّة سوان- أوداة (Swann- Odette). ينشأ أوّلاً جهاز دالّ بأكمله. وجه أوداة بالخدّين العريضين الأبيضين أو الصّفراوين، وبعينين كأنّهما ثقبان أسودان. لكنّ هذا الوجه لا يفتأ يحيل هو ذاته على أشياء أخرى، منظّمة هي أيضاً

أعين»). الرّسوم المتحرّكة، سيركيس رقم ٢ على سبيل المثال، تُمثّل ثقباً أسود عامراً بالوجوه والأعين واجتياز هذا الثقب الأسود. حول علاقة الأعين بالثقوب وبالجدران، راجع نصوص وصور جون ليك بران (Jean-Luc Parant)، وخاصة أعين ألفين وخمسائة وستّة، منشورات بورغوا.

(١) راجع، تحليلات جون باريس، الفضاء والنّظر، منشورات سوي، I، الفصل الأوّل، (كذلك تطوّر العذراء وتنوّع علاقات وجهها بوجه الطّفل عيسى: II، الفصل الثّاني).

على الجدار. هي ذي التزعة الإستيطقيّة ونزعة الهواية عند سوان: يجب أن يذكّره دائما شيء ما بشيء آخر، في شبكة تأويلات في ظلّ الدالّ. وجه يحيل على مشهد. على وجه أن «يذكّره» بلوحة، بجزء من لوحة. على موسيقى أن تدع جملة صغيرة تفلت لترتبط بوجه أداة، حدّ أنّ الجملة الصّغيرة لم تعد غير إشارة. يصبح الجدار الأبيض مأهولا وتنظم الثقوب السوداء. جهاز التّمعني هذا كلّ، في تبادل للتأويلات، يهيئ اللّحظة الثّانية، الذّاتيّة الانفعاليّة، حيث ستتطورّ غيرة سوان وخصامه وهوسه الشّبقيّ. ها هو الآن وجه أداة يجري على خطّ [٢٢٨] يندفع نحو ثقب أسود وحيد، هو ثقب انفعال سوان. الخطوط الأخرى أيضا، خطوط المشهديّة والتّصوريّة والموسيقية، تتسارع نحو هذا الثّقب المتصلّب وتلتفتّ حوله، لتحيط به مرّات كثيرة.

لكن، لحظة ثالثة، في نهاية شغفه الطّويل، يذهب سوان إلى حفل استقبال حيث يرى أوّلا وجه الخدم والمدعوين يتفكّك إلى سمات إستيطقيّة مستقلّة: كأنّ خطّ التصويريّة كان وجد من جديد استقلاليته، في نفس الوقت في ما أبعد من الجدار وخارج الثّقب الأسود. ثمّ هي جملة فتوي (Vinteuil) الصّغيرة التي تعثر مجدّدا على تعاليها وترتبط من جديد بخطّ موسيقى محض أكثر شدّة، موسيقى غير دالّة وغير ذاتيّة. ويعرف سوان أنه لم يعد يحبّ أداة، وخاصّة أنّ أداة لن تحبّه إطلاقا في المستقبل. - هل كان يتوجّب هذا الخلاص بالفنّ، بما أنّ سوان كما بروس، لن ينجو؟ هل كانت تتوجّب هذه الطّريقة لاختراق الجدار أو الخروج من الثّقب، بالتخلّي عن الحبّ؟ ألم يكن هذا الحبّ فاسدا منذ البداية، معمولا بالتّمعني والغيرة؟ هل كان ثمّة شيء آخر ممكن، بالنظر إلى أداة الباهتة وسوان المحبّ للجمال؟ إلى حدّ ما، هي نفس قصّة المادلين. الرّاي يمضغ مادلينته: ترداد، ثقب أسود لذكرى لا إراديّة. كيف سيخرج من هناك؟ قبل كلّ شيء، هو شيء ما يجب الخروج منه، يجب الإفلات منه. بروس يعرف ذلك جيّدا، مع أنّ

شراحه لم يعودوا يعرفون ذلك . لكنه سيخرج من هناك بالفنّ، بالفنّ وحده .

كيف الخروج من الثقب الأسود؟ كيف نخترق الجدار؟ كيف نفكّك الوجه؟ أيّا كانت عبقرية الرواية الفرنسية فتلك ليست قضيتها . إنها منشغلة جدًا بقيس الجدار، أو حتّى بينائه، بسبر الثقوب السوداء، بتركيب الوجوه . الرواية الفرنسية متشائمة ومثاليّة للغاية، «تنقد الحياة بدلا من إبداعها» . إنها تحشر شخصياتها في الثقب وتجعلها ترتدّ على الجدار . إنها لا تتصوّر غير رحلات منظّمة وغير خلاص إلا بالفنّ . إنّه ما يزال خلاصا كاثوليكيّا، أي خلاصا بالخلود . إنها تُمضي وقتها في التحقّق بدلا من رسم خطوط، خطوط إفلات فاعل أو خطوط لا تَرْضُن إيجابيّ . شيء مغاير تماما هي الرواية الأنغلو-أميريّة . «الرحيل، الرحيل، الهروب . . . اختراق الأفق . . .»^(١) من طوماس هاردي إلى لورانس، من ملفيل إلى ميلار، تتردّد نفس المسألة، العبور، الخروج، الاختراق، رسم الخطّ وليس وضع نقطة النهاية . العثور على خطّ الفصل، اتّباعه أو إبداعه، حدّ الخيانة . لذلك لهم مع السّفر، مع طريقة السّفر، مع الحضارات الأخرى، [١٢٩] الشّرق، أميركا الجنوبيّة، وكذلك مع المخدّرات، مع السّفر في نفس الموضع، علاقة مغايرة تماما لعلاقة الفرنسيين . إنهم يعرفون إلى أيّ حدّ يكون من العسير الخروج من ثقب الذاتيّة الأسود، من الوعي ومن الذاكرة، من الزّوجين ومن العلاقة الزّواجيّة . كم راودنا الوقوع في الولع بوجه والانغماس فيه والتشبّث به . . . «حبسة في هذا الثقب الأسود، (. . .) كانت تغترف منه ضربا من فسفوريّة مطليّة بالنّحاس، ذائبة، (. . .) كانت الكلمات تخرج من فمها مثل الحمم البركانية، كان جسدها كلّ

(١) دافيد هربارت لورانس، دراسات في الأدب الأميركيّ الكلاسيكيّ، منشورات سوي، «هرمان ملفيل أو العودة المستحيلة»: يبدأ نصّ لورانس بتمييز جيّد بين الأعين الأرضيّة والأعين البحريّة .

يتمدد مثل مخلب مفترس، يبحث عن فريسة، عن نقطة صلبة وجوهرية أين يمكنه، عن ملجأ يأوي إليه ويرتاح فيه قليلا. (. . .) في البداية اعتبرت ذلك شغفا، انتشاء، (. . .) اعتقدت أنني اكتشفت بركانا حيا، لم يخطر ببالي أنه يمكن ان يكون سفينة تتحطم في محيط من اليأس، في بحور من طحالب الوهن والعجز. عندما أفكر اليوم في هذا الكوكب الأسود الذي كان يشع من الثقب الكائن في السقف، في هذا الكوكب الثابت الذي يتدلى فوق خليتنا الزوجية، أكثر ثباتا وأكثر بعدا من المطلق، أعرف أنها كانت هي، مفرغة من كل ما كان يجعلها تكون هي ذاتها بحصر المعنى، شمس سوداء ميتة، لا هيئة لها^(١). «فسفورية مطلية بالنحاس مثل وجه في أسفل ثقب أسود. يتعلّق الأمر بالخروج منه، ليس في الفنّ، أي في الرّوح، لكن في الحياة، في الحياة الفعلية. لا تجردوني من قوّة أن أحبّ. الرّوائيون الأنغليز الأميركيون يعلمون كذلك أنه من العسير اختراق جدار الدّالّ. الكثير من النّاس حاولوا ذلك، منذ المسيح، ابتداءً بالمسيح. لكنّ المسيح ذاته أخفق في العبور والقفز، لقد ارتطم بالجدار، و«مثل نابض يعود فجأة إلى الوراء، ترتدّ قذارة الدّفق السّلبيّ بكاملها، يبدو أنّ التوتّب السّلبيّ للإنسانيّة يتجمّع في كتلة جامدة وضخمة جدّا يلد منها نوع العدد الإنسانيّ الكامل، العدد واحد، الوحدة التي لا تقبل القسمة»- الوجه^(٢). تخطّي الجدار، لعلّ الصّينيين فعلوا ذلك، لكن بأيّ ثمن؟ ثمن ذلك هو التّصير- حيوانا، التّصير- زهرة أو صخرة، وأكثر من ذلك، تصير- لما يندّ عن الإدراك بشكل غريب، التّصير- متحجّرا الذي يكون هو والحبّ واحد^(٣). إنّها مسألة سرعة حتى وإن كان ذلك في نفس المكان. هل ذلك هو أيضا تفكيك الوجه، أو مثلما كان يقول ميلّار، ألا ننظر

(١) هنري ميلّار، مدار الجدي، ص ٣٤٥.

(٢) م. ن، ص ٩٥.

(٣) م. ن، ص ٩٦.

للعينين ولا فيهما، بل عبورهما سباحة، يُغلق المرء عينيه ويجعل من جسده شعاع ضوء يتحرك بسرعة متزايدة دوماً؟ فعلاً، ذلك يتطلب كلّ موارد الفنّ والفنّ الأرقى. يتطلب خطّ كتابة بكامله، خطّ [٢٣٠] تصويريّة بكامله، خطّ موسيقيّة بكامله... ذلك أنّ المرء بالكتابة يصير حيواناً، باللّون يصير ما ينبت عن الإدراك، بالموسيقى يصير متحرّجاً ودون ذكرى، يصير في نفس الوقت حيواناً وما ينبت عن الإدراك: يصير عاشقاً. لكنّ الفنّ ليس غاية أبداً، إنه ليس إلّا وسيلة لرسم خطوط الحياة، أي رسم كلّ هذه التصرّيات الفعلية التي لا تحدث في الفنّ وحسب، كلّ هذه الإفلاتات الفاعلة التي لا تتمثّل في الإفلات في الفنّ، في اللّجوء إلى الفنّ، هذه اللّا تارصّونات الإيجابية التي لن تعيد تارصّنها على الفنّ، بل تحمله بالأحرى معها باتّجاه مناطق اللّا دالّ واللّا ذاتيّ ومن لا وجه له.

تفكيك الوجه ليس مسألة بسيطة. إنّنا نجازف فيها بالجنون: هل من قبيل الصدفة كون الفصاميّ يفقد في نفس الوقت معنى الوجه، وجهه هو ووجه الآخرين، معنى المشهد، معنى اللّغة ودلالاتها المهيمنة؟ ذلك أنّ الوجه تنظيم محكم. يمكن القول إنّ الوجه يأخذ في مستطيله أو في استدارته مجموعة كاملة من السّمات، سمات الوجّهية التي سيستغرقها ويضعها في خدمة التّمعني والدّتيّة. ما العرّة؟ إنّها بالتحديد الصّراع المكوّن دائماً بين سمة وجّهية تسعى إلى الإفلات من التّنظيم السياديّ للوجه، والوجه ذاته الذي ينغلق على تلك السّمة، يستحوذ عليها، يقطع عليها خطّ إفلاتها، يفرض عليها تنظيمه من جديد. (في التّمييز الطّبيّ بين العرّة الاختلاجية أو التّشنّجية، والعرّة التوتريّة أو المتقطّعة، لعلّه يجب أن نرى في الحالة الأولى تفشّي سمة الوجّهية التي تحاول الإفلات، في الحالة الثانية تفشّي تنظيم الوجه الذي يبحث عن الإغلاق والتّثبيت). غير أنّه إذا كان تفكيك الوجه مسألة مهمّة، فلاّنه ليس مجرد حكاية عرّاتٍ ولا هو مغامرة هاوٍ أو محبّ للجمال. إذا كان

الوجه سياسة فإن تفكيكه هو سياسة أيضا تستدعي التصيُّرات الفعلية، تستدعي تصيُّرا - خفيًا بأكمله. تفكيك الوجه يضاهي اختراق جدار الدالّ، الخروج من ثقب الذاتيّة الأسود. برنامج التحليل الفصامي وشعاره يصبح هنا: ابحثوا عن ثقبكم السّوداء وجدرانكم البيضاء، تعرّفوا عليها، تعرّفوا على وجوهكم، لن تفكّكوها بشكل مغاير، لن ترسموا خطوط إفلاتكم بشكل مغاير^(١).

[٢٣١] ذلك أنّه الآن أيضا، علينا مضاعفة التدابير العمليّة. أوّلا لا يتعلّق الأمر البتّة برجوع إلى... لا يتعلّق الأمر بال«عودة» إلى سيميائيّات البدائيين الما قبل دالّة والما قبل ذاتيّة. سنخفق دائما في أن نكون الزنجيّ أو الهنديّ، وحتى الصّينيّ، وليست الرّحلة في بحور الجنوب، أيّا كانت قساوة الظّروف، هي التي ستجعلنا نجتاز الجدار، نخرج من الثّقب أو نفقد الوجه. أبدا لن نستطيع إعادة صنع رأسٍ وجسدٍ بدائيّين لنا، رأسا بشريّة، روحانيّة ودون وجه. بالمقابل، سيكون ذلك وسيلة لإعادة صنع صور، للارتطام بالجدار، سنجد في ذلك إعادة أرّضنات بشكل دائم، يا جزيرتي القفّر الصّغيرة حيث أعرّس من جديد على بستان لياكي، يا محيطي العميق الذي يعكس بحيرة غابة بولونيا، يا جملة فانتوي الصّغيرة التي تذكّرني بلحظة ناعمة. تمارين شرق جسديّة وروحانيّة، لكننا نقوم بها أزواجا، مثل سرير الزوجية الذي قد نوشيه بلحاف صينيّ: هل قمّت بتمرينك اليوم بشكل جيّد؟ لورانس لا يلوم ملفيل إلّا لأجل شيء واحد: كونه عرف كيف يجتاز

(١) التحليل الطبائعيّ لرايش (منشورات بايو) يعتبر الوجه وسمات الوجّهية بمثابة القطع الأولى لـ«مدرّعة» الطّبع ولمقاومات الأنا (راجع، «الحلقة البصرية»، ثمّ «الحلقة الفمويّة»). يتمّ تنظيم هذه الحلقات على مسطّحات متعامدة مع «تيّار طاقة الحياة (orgone)»، ويتعارض مع الحركة الحرّة لهذا التّيّار في كامل الجسد. من هنا أهميّة إلغاء المدرّعة أو «حلّ» الحلقات، راجع ص ٣١١ وما بعدها.

الوجه، الأعين والأفق، الجدار والثقب، بشكل أفضل ممّا يمكن أن يفعله أيّ شخص آخر، لكنّه في نفس الوقت خلط بين هذا الاجتياز، هذا الخطّ الإبداعيّ، وبين «عودة مستحيلة»، عودة إلى المتوحّشين في تيبّي البولينيّة، وتلك أيضا طريقة يكون بما المرء فنّانا ويكره الحياة، طريقة مضمونة للحفاظ على الحنين إلى مسقط الرّأس («كان ملفيل حنين إلى بيته وإلى أمّه، إلى هذه الأشياء ذاتها التي كان هرب منها بعيدا إلى حيث كانت قاده السفن. (...). لقد رجّع إلى الميناء ليواجه وجوده المطوّل. (...). إنّّه يرفض الحياة. (...). إنّّه يتشبّث بالمثل الأعلى لوحده التّامة، لحبّه المطلق، بينما الوحدة التّامة حقّا، هي تلك التي يقبل فيها كلّ واحد بوجود فضاءات واسعة مجهولة في الآخر. (...). في العمق كان ملفيل متصوّفا ومثاليّا. إنّّه يتشبّث بأسلحته المثاليّة. أمّا أنا فأتخلّى عن أسلحتي وأقول: لتتلف الأسلحة القديمة. اصنعوا أسلحة جديدة وصوّبوا جيّدا»^(١)).

لا يمكننا الرّجوع إلى الوراء. وحدهم العُصاويّون، أو مثلما يقول لورانس، «المرتدّون»، الغشّاشون، يسعون إلى التّقهقر. ذلك أنّ الجدار الأبيض للدّالّ والثقب الأسود للذّاتيّة ومكنة الوجه، هي ردوب، هي مقياس ضروب رضوخنا وإذعاننا؛ لكنّنا ولدنا هناك داخلها، وضدّ ذلك يجب أن نكافح. ليس بمعنى لحظة حتميّة، إنّما بمعنى وسيلة يجب أن نبتكر لها استعمالا جديدا. عبر جدار الدّالّ فقط سنمرّر خطوط اللاّ تمعني التي تُبطل كلّ ذكرى، كلّ إحالة، كلّ دلالة ممكنة وكلّ تأويل [٢٣٢] يمكن إعطاؤه. إنّّه فقط في الثقب الأسود للوعي وللانفعال الذّاتيّين سنكتشف الجسيمات المأسورة، المشتعلة، المتغيّرة، التي يجب إحيائها من أجل حبّ حيّ، غير ذاتيّ، حيث يرتبط كلّ واحد بالفضاءات المجهولة للآخر دون أن يدخلها ودون

(١) دافيد هربارت لورانس، م. م.

الاستيلاء عليها، حيث تتشكّل الخطوط بوصفها خطوطا منكسرة. صُلِبَ الوجه وحسب، من عمق ثقبه الأسود وعلى جداره الأبيض ستمكّن من تحرير سمات الوجهيّة وكأنّها عصافير، ليس رجوعا إلى رأس بدائيّة، بل ابتكارا للتّوليفات التي تترابط فيها هذه السّمات بسّمات المَشهديّة، المتحرّرة هي ذاتها من المشهد، بسّمات التّصويرية والموسيقية المتحرّرة هي ذاتها من التّقنيات الخاصّة بكلّ منها. بأية بهجة، لم تكن فقط بهجة الرغبة في الرّسم، بل بهجة كلّ الرّغبات، استعمل الرّسامون وجه المسيح ذاته بكلّ المعاني وفي كلّ الاتّجاهات. وهل بالإمكان القول ما إذا كان الفُصام التّخشيبي لفارس رواية الحبّ العذريّ يتأتّى من كونه يقبع في أسفل الثّقب الأسود، أو من كونه يمتطي بالفعل الحُبّيات التي تُخرجه منه لأجل رحلة جديدة؟ يكتب لورانس الذي وقعت مقارنته بلنسولو (Lancelot): «أن يكون المرء وحيدا، دون روح، دون ذاكرة، بجانب البحر. (...) وحيد وغائب وحاضر مثل واحد من السّكّان الأصليين، بُنيّ داكن على الرّمْل المشمس. (...) ذهب بعيدا، بعيدا جدّا وكأنّه كان لامس الأرض على كوكب آخر، مثل إنسان يتخذ له موطئ قدم بعد الموت. (...) المشهد؟ إنه كان يسخر من المشهد. (...) البشريّة؟ لم تكن توجد. الفكر؟ سقط مثل حَجَر في الماء. الماضي الهائل والمتألّئ؟ مفقّر وباليّ، هسّ وقليل الشّفاقيّة مثل صَدَفَة ملقاة على الشّاطئ^(١)». لحظة متقلّبة حيث منظومة جدار أبيض- ثقب أسود، نقطة سوداء- شاطئ أبيض، تتوحّد كما على مطبوعة يابانيّة، مع منفذها الخاصّ، مع مخرجها الخاصّ، مع عبورها.

ذلك أنّنا رأينا الحالتين المختلفتين جدّا للمكنة المجرّدة: هي مأخوذة تارة في الطّبقات حيث تؤمّن لا تارُضّات نسبية وحسب، أو لا

(١) لورانس، كنغر، غاليمار.

تَأْرُضْنَاط مَطْلَقَة تَظَلَّ مَعَ ذَلِكَ سَلْبِيَّةٌ؛ تَارَة عَلَى التَّقْيِضِ مِنْ ذَلِكَ تَتَطَوَّرُ عَلَى مَسَطَّحٍ قِوَامٍ يَمْنَحُهَا وَظِيفَةً «مِبَانِيَّة» وَقِيَمَةً لَا تَأْرُضُنْ إِيْجَابِيَّ، مِثْلُ قُوَّةِ تَكْوِينِ مَكْنَاتٍ مَجْرَدَّةٍ جَدِيدَةٍ. تَارَة سَتَجْعَلُ الْمَكْنَةَ الْمَجْرَدَّةَ، مِنْ حَيْثُ هِيَ مَكْنَةٌ وَجْهِيَّةٌ، الْاِنْدِفَاقَاتِ تَرْتَدُّ عَلَى التَّمْعِنِيَّاتِ وَالذَّتِّيَّاتِ، عَلَى عُقْدٍ تَبْرُعُومٍ وَثَقُوبٍ إِغْءَاءٍ؛ تَارَة عَلَى التَّقْيِضِ مِنْ ذَلِكَ، مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تَقُومُ «بِإِزَالَةِ وَجْهَتِهِ» حَقِيقِيَّةً، فَإِنَّهَا تَحْرَّرُ بِشَكْلِ مَا رُؤُوسًا مَوْجَّهَةً تَفَكِّكُ الطَّبَقَاتِ فِي طَرِيقِهَا، [٢٣٣] تَخْتَرِقُ جِدْرَانَ التَّمْعِنِيَّاتِ وَتَفْجَرُ ثَقُوبَ ذَاتِيَّةٍ، تَقْتَلِعُ الْأَشْجَارَ لِصَالِحِ الْجَذَامِيرِ، وَتَقُودُ الْاِنْدِفَاقَاتِ عَلَى خُطُوطِ اللَّا تَأْرُضُنْ الْإِيْجَابِيَّ أَوْ عَلَى خُطُوطِ الْإِفْلَاتِ الْإِبْدَاعِيَّ. لَمْ تَعُدْ ثَمَّةُ طَبَقَاتٍ مَنْظَّمَةٍ تَرَاكُزِيًّا، لَمْ تَعُدْ ثَمَّةُ ثَقُوبٍ سُودَاءٍ تَلْتَفُّ حَوْلَهَا الْخُطُوطُ لِتَحِيطَ بِهَا، لَمْ تَعُدْ ثَمَّةُ جِدْرَانَ تُعَلِّقُ عَلَيْهَا التَّقْسِيْمَاتِ وَالثَّنَائِيَّاتِ وَالْقِيَمِ ثَنَائِيَّةِ الْقُطْبِ. لَمْ يَعُدْ ثَمَّةُ وَجْهٍ يَتَرَدَّدُ مَعَ مَشْهَدٍ، مَعَ لَوْحَةٍ، مَعَ جُمْلَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ صَغِيرَةٍ، وَحَيْثُ يَذْكَرُ أَحَدُهَا بِالْآخِرِ بِشَكْلِ دَائِمٍ، عَلَى سَطْحٍ مُوَحَّدٍ لِلْجِدَارِ أَوْ فِي الدَّوْرَانِ الْمَرْكَزِيِّ لِلثَّقْبِ الْأَسْوَدِ. لَكِنْ كُلُّ سَمَةِ وَجْهِيَّةٍ مَحْرَّرَةٍ تَكُونُ جَذْمُورًا مَعَ سَمَةِ مَشْهَدِيَّةٍ وَتَصْوِيرِيَّةٍ وَمُوسِيقِيَّةٍ مَحْرَّرَةٍ: لَيْسَتْ تَشْكِيلِيَّةٌ مَوْضُوعَاتٍ جَزْئِيَّةٍ، بَلْ هِيَ كَتْلَةُ حَيَّةٍ، تَرَابِطُ قَضْبَانٍ حَيْثُ تَدْخُلُ سَمَاتُ الْوَجْهِ فِي كَثْرَةِ فَعْلٍ. فِي مِيبَانٍ، مَعَ سَمَةِ مَشْهَدٍ مَجْهُولَةٍ، مَعَ سَمَةِ رَسْمٍ أَوْ مُوسِيقَى وَقَعَ إِنْتَاجُهُمَا وَإِبْدَاعُهُمَا فَعْلِيًّا، وَفَقَ كَمَّاتٍ لَا تَأْرُضُنْ إِيْجَابِيَّ مُطْلَقٍ، وَلَمْ تَعُدْ مُسْتَحْضَرَةٌ أَوْ مَدْعُوءَةٌ وَفَقَ مَنْظُومَاتٍ إِعَادَةِ تَأْرُضُنْ. سَمَةُ زَنْبُورٍ وَسَمَةُ أَوْرَكِيدٍ. كَمَّاتٌ تَعَيَّنَ الْكَثِيرُ مِنْ تَحَوُّلَاتِ الْمَكْنَاتِ الْمَجْرَدَّةِ، بَعْضُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضِهَا الْآخَرِ. يَنْفَتَحُ مُمْكِنُ جَذْمُورِيٍّ، يَقُومُ بِتَحْفِيزِ الْمُمْكِنِ ضِدَّ الْمُمْكِنِ الشَّجَرَانِيٍّ الَّذِي كَانَ يَعْيِّنُ تَغْلِيْقًا وَعَجْزًا.

وَجْهٌ، آيَةٌ شَنَاعَةٌ، إِنَّهُ طَبِيعِيًّا مَشْهَدٌ قَمْرِيٍّ، مَعَ مَسَامَةٍ، تَسَطُّحَاتِهِ، انْطِفَاءَاتِهِ، التَّمَاعَاتِهِ، بِيضَانَاتِهِ، ثُقْبُهُ: لَيْسَ ثَمَّةُ حَاجَةٍ لِنَجْعَلَ مِنْهُ صُورَةً مَقْرَبَةً لِأَجْلِ أَنْ نَجْعَلَهُ لَا إِنْسَانِيًّا، إِنَّهُ صُورَةٌ مَقْرَبَةٌ طَبِيعِيًّا، وَطَبِيعِيًّا هُوَ

لا إنسانيّ، إنه قناع فظيع. إنّ كذلك بالضرورة لأنّه نتاج ممكنة، ولمتطلّبات جهاز سلطة خاصّ يشغلّ الممكنة، يدفع اللاتأرضن حتّى المطلق مع إبقائه في السّلبيّ. لكنّنا نكون سقطنا في الحنين إلى عودة أو تراجع عندما نكون واجهنا الوجه اللّإنسانيّ بالرّأس البشريّة، الرّوحانيّة والبدائيّة. في الحقيقة، ليس ثمة غير لا إنسانيّات، الإنسان مقدود فقط من لا إنسانيّات، لكنّها لا إنسانيّات مختلفة جدّا، ووفق طبائع وسرعات مختلفة جدّا. الإنسانيّة البدائيّة، إنسانيّة ما قبل الوجه، هي تنوّع داخل سيميائيّة تجعل من الرّأس انتماء إلى الجسد، إلى جسد هو بالفعل لا مُتأرضن نسبيّا، في اتّصال بتصيّرات روحانيّة- حيوانيّة. في ما أبعد من الوجه، ثمة أيضًا لا إنسانيّة أخرى مغايرة تماما: لم تعد لا إنسانيّة الرّأس البدائيّة، بل لا إنسانيّة «رؤوس التّوجيه» حيث تصبح أطراف اللّاتأرضن فاعلة، تصبح خطوط اللّاتأرضن إيجابيّة مطلقة، مشكّلة تصيّرات جديدة غريبة [٢٣٤] وتنوّعات جديدة. التّصير- مخفيّا، الكيان جذمورا في كلّ مكان، من أجل عجيبة حياة غير إنسانيّة يجب إبداعها. الوجه يا حبيّ، لكنّه أصبح رأس توجيه... سنة زان (zen)، سنة نهاية، سنة خاتمة المطاف... أيّجب أن نُنهّي هكذا بثلاث حالات لا أكثر، رؤوس بدائيّة، وجه- مسيح ورؤوس موجّهة؟

أو «ما الذي حدث؟»



ليس من العسير تحديد ماهية «الأقصوصة» بوصفها جنسا أدبيًا :
ثمة أقصوصة عندما يكون كل شيء منتظمًا حول السؤال «ما الذي
حدث؟ ما الذي أمكن أن يحدث؟» الحكاية هي نقيض الأقصوصة لأنها
تُبقي القارئ لاهثًا تحت طائلة سؤال مغاير تمامًا : ما الذي سيحدث؟
دائمًا سيقبل شيء ما، سيحدث شيء ما. أمّا الرواية فيحدث فيها دائمًا
شيء ما، مع أنّ الرواية تُدمج في تنوع حاضرها الحيّ الدائم

(الدَّيمومة) عناصر من الأقصوصة ومن الحكاية. بهذا الصدد، الرواية البوليسية هي جنس هجين بصورة خاصّة، بما أنّه غالبا ما يكون حدث شيء مجهول في سياق جريمة أو سرقة، لكن [٢٣٦] الذي حدث سيقع اكتشافه، وذلك في الحاضر المحدّد من طرف الشرطيّ- النموذج. غير أنّنا سنكون مخطئين إذا اخترنا هذه الجوانب المختلفة في أبعاد الزّمن الثلاثة. شيء ما قد حدث، أو شيء ما سيحدث، يمكنهما الإشارة من ناحيتهما إلى ماضٍ مباشر جدّا، إلى مستقبل قريب جدّا، بحيث أنّهما يتوخّدان (فيما يقول هوسرل) مع أشكال حفظ الحاضر ذاته وإطالاته. مع ذلك يظلّ التّمييز مشروعا باسم مختلف الحركات التي تحرّك الحاضر، التي هي معاصرة للحاضر، واحدة تتحرّك معه، لكن حركة أخرى تلقي به فعليا في الماضي مذ يكون حاضرا (الأقصوصة)، حركة أخرى تسحبه إلى المستقبل في نفس الوقت (الحكاية). لحسن حظّنا أنّه يوجد تحت تصرّفنا نفس الموضوع الذي عالجه حاكٍ وقصاص: موضوع عاشقين، يموت أحدهما فجأة في غرفة الآخر. في حكاية موباسّان (Maupassant) التي عنوانها «خُدعة»، كلّ شيء موجّه نحو أسئلة «ما الذي سيحدث؟ كيف سيخرج مَنْ بقي حيّا من هذه الوضعية؟ ما الذي سيختلقه الشّخص المنقذ، الذي هو الطبيب في هذه الحالة؟» في أقصوصة بارباي الأورفيليّ (Barbey d'Aureville) التي عنوانها «السّتار القرمزيّ»، يتوجّه كلّ شيء نحو: لقد حدث شيء ما، لكن ما هو؟ ليس فقط لأنّنا لا نعرف حقّا سبب موت الفتاة اللاّ مكتثرة، لكنّنا لن نعرف أيضا سبب استسلامها للضّابط الصّغير، ولن نعرف أيضا كيف تمكّن الشخص الثّالث المنقذ الذي هو العقيد الذي يقود الكتيبة، من تسوية الأمور لاحقا^(١). لا يجب أن نعتقد أنّه من الأيسر ترك كلّ شيء

(١) راجع، الأبالة لبارباي، ١٨٧٤. طبعا، موباسّان ذاته لا يُختزل في الحكاية: ثمة عنده أقصوصات أو عناصر أقصوصات في رواياته. في حياة مثلا، مشهد

غامضاً: أن يكون حدثٌ شيءٌ ما، بل وحتى أشياء كثيرة متتابعة لن نعرفها على الإطلاق، فذلك لا يتطلب تمحيصاً ودقة أقلّ من الحالة الأخرى حيث على الكاتب أن يتكرّر تفصيلياً ما ستتوجب معرفته. لن نعرف على الإطلاق ما حدث، سنعرف دائماً ما سيحدث، هذان هما اللّهاتان المختلفان للقارئ، إزاء الأقصوصة والحكاية، لكنهما طريقتان ينقسم بهما الحاضر الحيّ في كل آن. في الأقصوصة لا ننتظر حدوث شيء ما، ننتظر أن يكون شيء ما قد حدث فعلاً. الأقصوصة أقصوصة أخيرة، بينما الحكاية حكاية أولى. «حضور» الحاكي والقصاص حضوران مختلفان تماماً (مختلف كذلك هو حضور الروائيّ). إذاً لا يجب أن نستحضر [٢٣٧] كثيراً أبعاد الزمن: ليس للأقصوصة علاقة كبرى بذاكرة الماضي أو بفعل تفكّر، بحيث أنّها تعوّل على النقيض من ذلك على نسيان أساسيّ. إنّها تتطوّر في عنصر «ما حدث»، لأنّها تضعنا في علاقة بما يندّ عن المعرفة وما يندّ عن الإدراك (وليس العكس: ليس لأنّها قد تتحدّث عن ماضٍ قد لا تمكّننا من معرفته). في الحدّ الأقصى ذاته، لا شيء قد حدث، لكن تحديداً هذا اللّاشيء هو الذي يجعلنا نقول: «ما الذي أمكن أن يحدث حتى أنسى أين وضعت مفاتيحي، أن لا أعرف إن كنت أرسلت هذه الرّسالة... إلخ؟ أيّ شريان صغير في دماغي أمكنه أن ينفجر؟ ما هو هذا اللّاشيء الذي يجعل كون شيء ما قد حدث؟» الأقصوصة هي أساسيّاً في علاقة مع سرّ (ليس مع مادّة أو موضوع السرّ الذي هو للاكتشاف، إنّما مع صورة السرّ التي تظلّ منيعة)، بينما تكون الحكاية في علاقة بالاكشاف (صورة الاكتشاف بغضّ النظر عمّا يمكن اكتشافه). والأقصوصة كذلك تقدّم

الخالة ليزون: «كان ذلك زمنٌ تَعُنّت ليزون. (...) لم نكن قلنا أبداً أكثر من ذلك، وكان هذا التّعنّت قد ظلّ محاطاً بالضباب. ذات مساء، عمر ليزون حينها عشرون سنة، كانت ألقت بنفسها في الماء دون أن نعرف السّبب. لا شيء في حياتها، في تصرّفاتّها، كان يمكن أن يجعلنا نستشعر هذا الجنون (...).»

وَضَعَاتٍ لِلْجَسَدِ وَالرُّوحِ، وَضَعَاتٍ هِيَ بِمَثَابَةِ طَيَّاتٍ أَوْ تَغْلِيفَاتٍ، بَيْنَمَا الْحِكَايَةُ تَضَعُ عَلَى الْمَحَكِّ هَيْئَاتٍ وَوَضْعِيَّاتٍ هِيَ انْبِسَاطَاتٍ أَوْ تَطْوِيرَاتٍ، حَتَّى مِنْ أَكْثَرِهَا فَجَائِيَّةٌ. نَلْحِظُ جَيِّدًا عِنْدَ بَارْبَايَ إِحْسَاسَهُ بِوَضْعَةِ الْجَسَدِ، أَيْ بِالْحَالَاتِ الَّتِي يَفَاجَأُ فِيهَا الْجَسَدُ عِنْدَمَا يَكُونُ حَدَثٌ شَيْءٌ مَّا. حَتَّى أَنَّ بَارْبَايَ يَرْتَثِي فِي تَوَطُّةِ الْأَبَالَسَةِ، أَنَّهُ ثَمَّةُ إِبْلِيسِيَّةٍ لَوَضْعَاتِ الْجَسَدِ، ثَمَّةُ جِنْسَانِيَّةٍ، بَوْرُونُغَرَايَا وَدِرَاسَةِ غَائِطِيَّةٍ لِهَذِهِ الْوَضْعَاتِ، مُخْتَلِفَةً جَدًّا عَنْ تِلْكَ الَّتِي تَسْمُ، مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، هَيْئَاتِ الْجَسَدِ وَوَضْعِيَّاتِهِ. الْوَضْعَةُ شَبِيهَةٌ بِتَرْقُبٍ مَقْلُوبٍ. لَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ إِذَا بِإِعَادَةِ الْأَقْصُوصَةِ إِلَى الْمَاضِي، وَالْحِكَايَةُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّمَا بِالْقَوْلِ إِنَّ الْأَقْصُوصَةَ تَحِيلُ فِي الْحَاضِرِ ذَاتَهُ عَلَى الْبَعْدِ الصُّورِيِّ لِشَيْءٍ مَّا قَدْ حَدَثَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لَا شَيْءٌ أَوْ يَظَلُّ مُجْهُولًا. لَنْ نَحَاوِلَ كَذَلِكَ الْمَوَاقِفَ بَيْنَ الْفَرْقِ أَقْصُوصَةٍ - حِكَايَةٍ وَبَيْنَ مَقُولَاتٍ مِثْلَ الْعَجِيبِ، الْغَرَائِبِيِّ، إلخ. : قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُشْكَلًا آخَرَ، وَلَا يَوْجَدُ سَبَبٌ لَتَقَاطَعِ كُلِّ ذَلِكَ. تَسْلُسِلُ الْأَقْصُوصَةُ هُوَ: مَا الَّذِي حَدَثَ؟ (طَرَاظٌ أَوْ تَعْيِيرٌ)، سَرٌّ (صُورَةٌ)، وَضْعَةُ الْجَسَدِ (مُضْمُونٌ).

لِيَكُنْ فَيْتَزْجَرَالْدُ. إِنَّهُ حَكَّاءٌ وَقَصَّاصٌ عَبْقَرِيٌّ. لَكِنَّهُ قَصَّاصٌ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَسَاءَلُ فِيهَا: مَا الَّذِي أَمْكَنَ أَنْ يَحْدُثَ حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ؟ هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي عَرَفَ كَيْفَ يَصِلُ بِهَذَا السَّؤَالِ إِلَى دَرَجَةِ الشَّدَّةِ هَذِهِ. لَيْسَ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ سَؤَالُ الذَّكَاكِرَةِ وَالتَّفَكُّيرِ وَلَا سَؤَالُ الشَّيْخُوخَةِ أَوْ التَّعَبِ، بَيْنَمَا قَدْ تَكُونُ الْحِكَايَةُ حِكَايَةً طُفُولَةٍ، حِكَايَةً فَعْلٍ أَوْ حِمَاسَةٍ. غَيْرَ أَنَّهُ [٢٣٨] مِنَ الْحَقِيقِيِّ أَنَّ فَيْتَزْجَرَالْدَ لَا يَطْرَحُ سَؤَالَ كَقَصَّاصٍ إِلَّا عِنْدَمَا يَكُونُ هُوَ شَخْصِيًّا مِنْهُكَ وَمَتَعِبٌ وَمَرِيضٌ، بَلْ وَفِي حَالَةٍ أَسْوَأَ. لَكِنْ هُنَاكَ أَيْضًا، لَا وَجُودَ حَتْمِيًّا لِتَرَابُطٍ: قَدْ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةً هَمَّةٍ وَحَبٍّ. إِنَّهَا كَذَلِكَ فَعَلًا حَتَّى فِي تِلْكَ الْأَوْضَاعِ الْيَائِسَةِ. قَدْ يَتَوَجَّبُ بِالْأُخْرَى فَهَمُّ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَنَّهَا مَسْأَلَةُ إِدْرَاكِ: نَدْخُلُ غُرْفَةً، وَنَدْرِكُ شَيْئًا مَّا عَلَى أَنَّ مَوْجُودَ هُنَاكَ بِالْفَعْلِ، حَدَثَ لِلتَّوَّ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ

ما زال لم يحدث. أو أننا نعرف أن ما هو بصدد الحدوث، هو يحدث بالفعل للمرة الأخيرة، وقد انتهى. نسمع «أنا أحبّك»، التي نعرف أنها قيلت للمرة الأخيرة. إنها سيميائية إدراكية. يا رب، ما الذي أمكن أن يحدث، بينما كل شيء يندّ عن الإدراك ويظلّ كذلك، ولأجل أن يندّ كل شيء عن الإدراك ويظلّ كذلك إلى الأبد؟

ثمّ ليس ثمّة فقط خصوصيّة الأقصوصة، ثمّة الكيفيّة المخصوصة التي تعالج بها الأقصوصة مادّة كليّة. ذلك أننا معمولون من خطوط. لا نوّد الحديث فقط عن خطوط الكتابة، خطوط الكتابة تتزّوج مع خطوط أخرى، خطوط حياة، خطوط سعد أو نحس، خطوطا تُبدل خطّ الكتابة ذاته، خطوطا كائنة بين الخطوط المكتوبة. لعلّه للأقصوصة طريقتهما الخاصّة في إبراز وتوليف هذه الخطوط التي تنتمي مع ذلك إلى الجميع وإلى كلّ جنس. كان فلاديمير بروب (Vladimir Propp) يقول باتّزان كبير إنه كان على الحكاية أن تتحدّد تبعاً لحركات خارجيّة وداخليّة، أن تصف وتُشكّل وتركّب بطريقتها المخصوصة^(١). قد نوّد أن نبين كون الأقصوصة تتحدّد وفق خطوط حيّة، خطوط لحم، تعمل الأقصوصة من جانبها على إظهارها إظهاراً خاصّاً جدّاً. مارسال أرلان على حقّ في قوله عن الأقصوصة: «أنّها ليست غير خطوط محض حتّى في الفُيُورقات، وإنّها ليست غير فضيلة محض وواعية للكلمة^(٢)».

الأقصوصة الأولى،

«في القفص»، هنري جايمس، ١٨٩٨، الترجمة الفرنسيّة، منشورات ستوك.

البطلة، فتاة تعمل على التلغراف، لها حياة مقسّمة جدّاً، محسوبة جدّاً، تعمل بأقسامات محدّدة: البرقيّات التي تسجّلها تباعا كلّ يوم،

(١) فلاديمير بروب، مورفولوجيا الحكاية، غاليمار.

(٢) مارسال أرلان، المتجول، منشورات بافوا.

الأشخاص الذين يرسلون هذه البرقيات، الطبقة الاجتماعية التي لهؤلاء الأشخاص الذين لا يستعملون التلغراف بنفس الطريقة، الكلمات التي يجب [٢٣٩] حسابها. أكثر من ذلك، قفصها كعامل تلغراف يشبه أقسومة ملازقة لمتجر البقالة المجاور حيث يعمل خطيبها. إنه تجاور أقاليم. وخطيبها لا يفتأ يخطط، يفصل مستقبلهما، عملهما، عطلهما، منزلهما. ثمة هنا، كما بالنسبة إلى كل واحد منا، خط أقسومية صلب حيث يبدو كل شيء قابلا للحسبان ومخططا له. ، بداية ونهاية الأقسومة، الانتقال من أقسومة إلى أخرى. هكذا هي حياتنا: ليست المجموعات الكتلوية الكبرى وحسب (الدول، المؤسسات، الطبقات)، بل الأشخاص بوصفهم عناصر مجموعة، المشاعر بوصفها علاقات بين الأشخاص هي مشاعر مقسمة بطريقة ليست مجعولة للإرباك والتشتيت، إنما على النقيض من ذلك لتأمين ومراقبة هوية كل هيئة، بما في ذلك الهوية الشخصية. يمكن للخطيب أن يقول للفتاة: بالنظر إلى الاختلافات بين أقسوماتنا، فإنه لنا نفس الميول ونحن متشابهان. أنا رجل وأنت امرأة، أنت عاملة تلغراف وأنا بقال، أنت تحسبين الكلمات وأنا أزن الأشياء، أقسوماتنا تتوافق وتتزوج. الزواجية. مجموعة كاملة من الأقاليم المحددة والمخطط لها جيدا. لنا مستقبل وليس لنا صيرورة. ها هو خط حياة أول، خط أقسومية صلب أو كتلوي، ليس خطا ميتا على الإطلاق، بما أنه يملأ حياتنا ويعبرها، وسيبدو هو الغالب في نهاية المطاف. إنه يحمل حتى الكثير من الحنو والمحبة. قد يكون من اليسير جدا القول: «هذا الخط بالذات سيء»، لأنكم ستجدونه في كل مكان وفي كل الخطوط الأخرى.

يدخل زوجان ثريان إلى مكتب البريد، ويحملان للفتاة إظهار حياة أخرى أو على الأقل توكيدها: برقيات عديدة، مشفرة، موقعة بأسماء مستعارة. لم نعد نعرف بوضوح من هو من ولا ما الذي يعنيه هذا لهذا. عوض خط صلب، مكوّن من أقسومات محدّدة بوضوح، يشكّل

التلغراف الآن دفقا مرنا، معلّما بكمّات هي بمشابة الكثير من الأقسوميّات الصّغيرة العاملة، التي وقع التقاطها منذ نشأتها وكأنّها في شعاع قمر أو على سُلّم اشتداديّ. تتبيّن الفتاة بفضل «فنّ تأويلها المذهل»، أنّ الرّجل يحمل سرّا يضعه في خطر، في خطر متزايد، في حالة خطر. لا يتعلّق الأمر فقط بعلاقاته الغراميّة مع المرأة. وصل هنري جايمنس إلى هذه اللّحظة من أثره حيث لم تعد مادّة سرّ هي التي تشغله، حتّى وإن نجح في جعل هذه المادّة تافهة تماما وغير ذات أهميّة. المهمّ الآن هو صورة السّرّ الذي لم يعد لمادّته حتى أن تُكتشف (لن نعرف، ستكون ثمّة إمكانات عديدة، سيكون ثمّة لا تحدّد موضوعيّ، ضرب من جعل السّرّ هبائيّا). وبالفعل بالنّسبة إلى العلاقة بهذا الرّجل، ومباشرة معه، تُطوّر الفتاة العاملة على التلغراف تواطوا انفعاليّا غريبا، حياة [٢٤٠] هبائيّة محتدمة بأكملها لا تدخل حتّى في تنافس مع الحياة التي تعيشها مع خطيبها هي. ما الذي حدث؟ ما الذي أمكن أن يحدث؟ مع ذلك هذه الحياة ليست في رأسها وليست خياليّة. قد نقول بالأحرى إنّ ثمّة هنا سياستان مثلما توحى بذلك الفتاة في محادثة رائعة مع خطيبها: سياسة كبرى وسياسة مجهرية لا تنظران البتّة بنفس الطّريقة إلى الطّبقات، الأجناس، الأشخاص، المشاعر. أو أنّه ثمّة ضربان من العلاقات متمايزان جدّا: علاقات داخلانيّة بين الأزواج تضع على المحكّ مجموعات أو عناصر بعينها (الطّبقات الاجتماعيّة، الرّجال والنساء، هذا الشّخص وذاك)، ثمّ علاقات أقلّ تحديدا، كائنة دائما خارجهم، تخصّ بالأحرى اندفاعات وجُسيّمات تفلت من هذه الطّبقات، من هذه الأجناس، من هؤلاء الأشخاص. لِمَ هذه العلاقات الأخيرة هي علاقات بدائل عوضا عن كونها علاقات أزواج؟ «لعلّها كانت تخشى هذا الآخر الذي هو ذاتها الذي كان ينتظرها ولا ريب في الخارج؛ لعلّه كان هو الذي كان ينتظرها، الذي كان آخَرُها هي والذي كانت تخافه.» على أيّة حال، ها هو خطّ مختلف جدّا عن الخطّ

السَّابِق، خَطُّ أَقْسُومِيَّةِ مَرْنِ أَوْ هَبَائِيٍّ، حَيْثُ تَكُونُ فِيهِ الْأَقْسُومَاتُ بِمِثَابَةِ كَمَّاتٍ لَا تَأْرُضُنَ. إِنَّهُ عَلَى هَذَا الْخَطِّ يَتَحَدَّدُ حَاضِرٌ صَوْرَتُهُ ذَاتَهَا هِيَ صُورَةُ شَيْءٍ مَا قَدْ حَدَثَ، حَدَثٌ فَعَلًا، مَهْمَا كَانَ حَدُوثُهُ قَرِيبًا، بِمَا أَنَّ الْمَادَّةَ الدَّقِيقَةَ لِهَذَا الشَّيْءِ مَا أَضَحَّتْ هَبَائِيَّةً بِالتَّمَامِ، بِسُرْعَاتٍ تَتَجَاوَزُ الْعَتَبَاتِ الْاِعْتِيَادِيَّةَ لِلْإِدْرَاكِ. مَعَ ذَلِكَ لَنْ نَقُولَ إِنَّ هَذَا الْخَطَّ هُوَ بِالضَّرُورَةِ أَفْضَلُ الْخُطُوطِ. مَكْتَبَةُ سُرِّ مَن قَرَأَ

الْآكِدَ أَنَّ الْخَطِّينَ لَا يَفْتَأَنَ يَتَدَاخِلَانِ، يُوَثِّرُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، يُدْخِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الْآخَرِ إِمَّا تِيَّارَ مَرُونَةٍ وَإِمَّا نَقْطَةَ صَلَابَةٍ. ثُمَّ جَدَّ نَتَالِي سَارُوتَ فِي بَحْثِهَا حَوْلَ الرِّوَايَةِ، الرِّوَائِيِّينَ الْأَنْغَلِيزَ لَكُونِهِمْ لَمْ يَكْتَشِفُوا فَقَطْ مِثْلَ بَرُوسْتِ أَوْ دَسْتِيفَسْكِي، الْحَرَكَاتِ الْكُبْرَى، الْأَقَالِيمِ الْكُبْرَى وَنِقَاطِ اللَّاَوَعِيِّ الْكُبْرَى الَّتِي تَسْتَعِيدُ الزَّمَانَ أَوْ تَحْيَا الْمَاضِي مِنْ جَدِيدٍ، إِنَّمَا لَكُونِهِمْ اتَّبَعُوا بِشَكْلِ طَارِئٍ هَذِهِ الْخُطُوطَ الْهَبَائِيَّةَ، الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ حَاضِرَةٌ وَتَنْدُّ عَنِ الْإِدْرَاكِ. إِنَّهَا تَبَيَّنَ كَيْفَ أَنَّ الْحَوَارَ أَوْ الْمَحَادَثَةَ يَخْضَعَانِ بَوُضُوحٍ إِلَى قَطِيعَاتٍ أَقْسُومِيَّاتٍ ثَابِتَةٍ، إِلَى حَرَكَاتٍ شَاسِعَةٍ هِيَ حَرَكَاتُ تَوْزِيعِ مَنْظَمَةٍ مُتَلَائِمَةٍ مَعَ أَوْضَاعٍ وَمَوَاقِفٍ كُلِّ وَاحِدٍ، لَكِنْ كَذَلِكَ كَيْفَ تَجْتَازُهُمَا وَتَجْرِفُهُمَا حَرَكَاتٌ - مَجْهَرِيَّةٌ، تَقْسِيمَاتٌ دَقِيقَةٌ مُوزَّعَةٌ بِشَكْلِ مَغَايِرٍ تَمَامًا، جُسَيْمَاتٌ مَفْقُودَةٌ لِمَادَّةٍ مَجْهُولَةٍ، تَصَدَّعَاتٌ وَوَضْعَاتٌ دَقِيقَةٌ لَمْ تَعُدْ تَمَرُّ بِنَفْسِ الْهَيْئَاتِ، حَتَّى فِي اللَّاَوَعِيِّ، خُطُوطٌ سَرِّيَّةٌ لِلتَّوْهَانِ أَوْ لِلَّا تَأْرُضُنَ: مَحَادَثَةٌ تَحْتِيَّةٌ بِكَامِلِهَا فِي [٢٤١] الْمَحَادَثَةِ فِيمَا تَقُولُ نَتَالِي سَارُوتَ، أَيْ سِيَاسَةُ مَجْهَرِيَّةٌ لِلْمَحَادَثَةِ^(١).

(١) نَتَالِي سَارُوتَ (Nathalie Sarraute)، (عَصْرُ الرِّبَةِ)، «الْمَحَادَثَةُ وَمَا تَحْتَ الْمَحَادَثَةِ»، غَالِيمَارَ تَبَيَّنَ كَيْفَ أَنَّ بَرُوسْتِ يَحْلُلُ أَصْغَرَ الْحَرَكَاتِ، النَّظَرَاتِ أَوْ التَّرَانِيمِ. إِنَّهُ يَدْرِكُهَا مَعَ ذَلِكَ فِي الذِّكْرِ، يَعْيِّنُ لَهَا «وَضْعِيَّةً»، يَعْتَبَرُهَا بِمِثَابَةِ تَسْلُسِلِ الْمَفَاعِيلِ وَالْعَلَلِ، «نَادِرًا مَا حَاوَلَ أَنْ يَحْيَاهَا مِنْ جَدِيدٍ وَأَنْ يَجْعَلَ الْقَارِئَ يَحْيَاهَا فِي الْحَاضِرِ، بَيْنَمَا هِيَ تَشْكَلُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَتَطَوَّرُ فِيهِ مِثْلُ الْكَثِيرِ مِنَ التَّمثِيلِيَّاتِ الصَّغْرَى الَّتِي لِكُلِّ أَحَدَةٍ مِنْهَا طَوَارِئُهَا، لَغْزَاهَا وَحَلُّهَا الْفَجَائِيَّةُ».

ومن بعد ذلك تصل بطله جايمس، في أقسوميتها المرنه أو في خط اندفاقها، إلى ضرب من الكمّ الأقصى الذي لم يعد لها أن تذهب إلى ما أبعد منه (حتى وإن أرادت، فإنّه لا إمكان للذهاب إلى ما أبعد). هذه الارتجاجات التي تخترقنا، خطر إثارتها في ما يتخطى تحمّلنا. العلاقة الهبائية بين عاملة التلغراف ومرسل البرقيات ذابت في صورة السرّ - ما الذي حدث؟ - بما أنّه لا شيء قد حدث. كلّ واحد من الاثنين سيجد نفسه مرتدّا نحو أقسوميته الصّلبة، سيتزوّج هو السيّدة التي أصبحت أرملة، ستتزوّج هي خطيبها. ومع ذلك قد تغيّر كلّ شيء. لقد بلغت الفتاة ما يشبه خطّا جديدا، خطّا ثالثا، ضربا من خطّ إفلات، هو خطّ حقيقيّ أيضا حتى وإن كان يتمّ على عين المكان: خطّ لم يعد يقبل أقسومات على الإطلاق، وهو بالأحرى مثل انفجار السّلسلتين الأقسوميتين. لقد اخترق الجدار وخرج من الثّقوب السّواء. لقد بلغ ضربا من اللّاتأرّض المطلق. «لقد كانت [الفتاة] توصّلت إلى معرفة الكثير بحيث لم يعد بوسعها أن تؤوّل أيّ شيء. لم تعد ثمة ظلمات بالنّسبة إليها تجعلها ترى بشكل أوضح، لم يكن بقي غير ضوء فياض.» لا يمكن الدّهاب إلى ما أبعد في الحياة إلّا في جملة جويس تلك. مرّة أخرى غير السرّ طبيعته. لا ريب أنّه للسرّ دائما علاقة بالحبّ وبالجنسانية. لكن تارة كانت المادّة وحدها هي المخفية، أكثر تخفّيا بقدر ما كانت مادّة عادية، مُنعطية في الماضي، ولم نكن نعرف جيّدا أيّة صورة نمنحها: انظروا، إنني أنثني تحت سرّي، انظروا أيّ لغز يعركني، تلك طريقة لجلب الاهتمام، وهو ما كان لورانس يسمّيه «السرّ الصغير القذر»، أوديب أنا نوعا ما. تارة يكون السرّ قد أصبح هو صورة شيء ما كانت مادّته كلّها قد اتخذت شكلا هبائيا، يدقّ عن الإدراك والتّعيين: ليس معطى في الماضي، بل هو ما لا ينعطي من «ما الذي حدث؟». لكن، على الخطّ الثالث، لم يعد ثمة وجود حتّى للصّورة - لم يعد ثمة غير خطّ مجرد محض. ذلك لأنّه لم يعد لدينا أيّ شيء

نخفيه بحيث لم يعد بالإمكان إدراكنا. أن يتصير المرء ذاته ما يدقّ عن الإدراك، أن يكون فكّك الحبّ ليصبح قادرا على المحبة. أن يكون فكّك أنه الخاصّ ليصبح في النهاية وحيدا، [٢٤٢] ويلتقي بصنوه الحقيقي في الطرف الآخر من الخطّ. إنه عابر سرّي لرحلة ساكنة. التّصير مثل كلّ الناس، لكن تحديدا إنه ليس تصوّرا إلّا بالنسبة إلى من يعرف أن لا يكون أيّ شخص، لم يعد أيّ شخص. لقد ارتسم رماديا على رماديّ. مثلما يقول كياركيغارد، لا شيء يميّز بين فارس العقيدة وبين بورجوازيّ ألمانيّ يعود إلى منزله أو يقصد مكتب بريد: لا علامة تلغرافية خاصّة تصدر عنه، إنه يُنتج أو يعيد إنتاج أقسومات متناهية باستمرار، لكنّه كائن بالفعل على خطّ آخر لا نشته حتى بوجوده^(١). على أيّة حال، الخطّ التلغرافيّ ليس رمزا وليس بسيطا. ثمة ثلاثة خطوط على الأقلّ، خطّ أقسوميّة صلب ومقسّم جيّدا، خطّ تقسيم هبائيّ، ثمّ الخطّ المجرّد، خطّ الإفلات، الذي ليس هو أقلّ مائيّة ولا أقلّ حياة. ثمة على الخطّ الأوّل الكثير من الكلام ومن المحادثات، من الأسئلة أو الأجوبة، من تفسيرات لا تنتهي، من الإيضاحات؛ الخطّ الثّاني مكوّن من ضروب صمت وتلميحات وضمنيات سريعة تفتح للتأويل. لكن إذا كان الخطّ الثّالث يسطع، إذا كان خطّ الإفلات مثل قطار يتحرّك، فلائنا نقفز فيه حطّيا، في نهاية الأمر يمكننا الحديث فيه «حرفيا»، عن أيّ شيء، عن القليل من العشب، عن كارثة أو عن إحساس، في قبول هادئ لما يحدث حيث لم يعد بوسع أيّ شيء أن يضاهي شيئا آخر. مع ذلك لا تفتأ الخطوط الثلاثة تتمازج.

(١) كياركيغارد، الخشية والرّجفة، منشورات أوبيه، ص ٥٢ وما بعدها.

الأقصوصة الثانية،

«الصّدع»، فيتزجيرالد، ١٩٣٦، الترجمة الفرنسية، غاليمار.

ما الذي حدث؟ هو السّؤال الذي لا يتوقّف فيتزجيرالد عن إثارته، في النّهاية، بمجرّد القول إنّ «كلّ حياة هي، بطبيعة الحال، سيرورة هذم». كيف نفهم «بطبيعة الحال» هذه؟ يمكن القول أوّلاً إنّ الحياة لا تفتأ تدخل في أقسوميّة تتزايد صلابة وتيّبسا. بالنّسبة إلى الكاتب فيتزجيرالد، ثمّة تآكل الأسفار، مع أقسوماتها المقطّعة بشكل جيّد. ثمّة كذلك، من أقسومات إلى أقسومات، الأزمة الاقتصادية، خسران الثروة، التعب والتّشاؤخ، إدمان الكحول، إفلاس الزّواجية، صعود السّينما، مجيء الفاشية والستالينيّة، فقدان النّجاح والموهبة - هناك حيث سيجد فيتزجيرالد عبقريته. «طفرات فجائيّة كبرى تأتي أو يبدو أنّها تأتي من الخارج»، وتعمل بواسطة قطيعات دالّة جدّا، تجعلنا نمرّ من حدّ إلى حدّ، في «اختيارات» ثنائيّة متعاقبة: غنيّ - فقير... مع ذلك قد يتمّ التّغيير [٢٤٣] في الاتّجاه الآخر، لا شيء قد يأتي لتعويض التّيبس، لتعويض التّشاؤخ الذي يقنّن تضافريّا كلّ ما يحدث. ها هو خطّ أقسوميّة صلبة تضع على المحكّ كتلا كبرى، حتّى وإن كانت ليّنة في البداية.

لكن فيتزجيرالد يقول إنّ ثمّة نوع آخر من التّصدّعات، وفق أقسوميّة أخرى مغايرة تماما. لم تعد قطيعات كبرى إنّما هي تشقّقات مجهرية، مثل التي على صحن، تشقّقات أكثر دقّة ومرونة، وتحدث بالأحرى عندما تكون الأشياء أفضل على الجهة الأخرى. إذا كان ثمّة تشاؤخ كذلك على هذا الخطّ، فإنّه لا يكون بنفس الطّريقة: لا نشيخ هنا إلّا عندما لا نشعر بذلك على الخطّ الآخر، ولا نتفطّن لذلك على الخطّ الآخر إلّا عندما يكون «هذا» قد حدث عليه. في مثل هذه اللّحظة التي لا تتواءم مع عصور الخطّ الآخر، نصل إلى درجة، إلى

كَمْ، إلى شِدَّة لم يعد باستطاعتنا الذهاب إلى ما أبعد منها. (مسألة الشَّد مُسألة حسَّاسة جدًّا: أجمل شِدَّة تصبح مُضرَّة عندما تتخطَّى قوانا في هذه اللَّحظة، يجب أن تكون لنا القدرة على التَّحمُّل، أن يكون بوسعنا.) لكن بحقٍّ، ما الذي حدث؟ في الحقيقة لا شيء يمكن تعيينه ولا إدراكه؛ تبدَّلات هبائيَّة، إعادات توزيع للرَّغبة تفضي إلى أنَّه عندما يحدث شيء ما، فإنَّ الأنا الذي كان ينتظره قد مات، أو أنَّ الذي قد ينتظره لم يصل بعدُ. هذه المرَّة، طفرات وتصدَّعات في محاياة جذمور، عوضا عن الحركات الكبرى والقطيعات الكبرى التي يحدِّدها تعالي شجرة. التَّشَقُّق «يكاد يتمُّ دون أن نعلم بذلك، لكننا نعيه حقًّا دفعة واحدة». هذا الخطُّ الهبائيُّ الأكثر ليونة، الذي ليس أقلَّ إثارة للقلق، الأكثر إثارة للقلق بكثير، ليس خطًّا داخليًّا أو شخصيًّا وحسب: إنَّه يضع أيضا كلَّ شيء على المحكِّ، لكن وفق سُلَّم آخر وفي أشكال أخرى، مع تقسيمات ذات طبيعة أخرى، تقسيمات جذمورية بدلا من الشَّجرانيَّة. إنَّها سياسة - مجهرية.

ثمَّ ما يزال ثمة خطُّ ثالث، بوصفه خطُّ انقطاع، وهو الذي يعيِّن انفجار الخطَّين الآخرين وصدامهما... لصالح شيء آخر؟ «أصل إلى فكرة أنَّ الذين كانوا بقوا على قيد الحياة كانوا قاموا بقَطْع حقيقيّ. القَطْع بليغ جدًّا ولا علاقة له بقَطْع سلسلة، حيث نقصد بشكل عامٍّ إلى العثور على سلسلة أخرى أو إلى استعادة السَّلسلة القديمة.» هنا، يقيم فيتزجيرالد القَطْع في وجه القطيعات البنيويَّة الزَّائفة في سلسلات تسمَّى سلسلات دالَّة. لكنَّه يميِّزه مع ذلك عن التَّرابطات أو القضبان الأكثر ليونة والأكثر تخفُّيا، من نوع «السَّفر» أو حتى النُّقلات الهبائيَّة. «الهروب الشَّهير أو الإفلات بعيدا عن كلَّ شيء هو رحلة داخل فحٍّ، حتَّى وإنَّ كان الفحٌّ يتضمَّن بحار الجنوب التي لم توجد إلَّا من أجل أولئك الذين يريدون الإبحار فيها أو رسمها. قَطْع حقيقيّ هو [٢٤٤] شيء ما لا يمكن العودة عليه، هو شيء لا يُغتفر لأنَّه يجعل الماضي قد

توقف عن الوجود.» هل يمكن أن تكون الارتحالات عودة بشكل دائم إلى الأقسامية الصلبة؟ هل نلتقي دائما الأب والام في الرحلة، ومثل ما قيل، حتى في بحار الجنوب؟ العضلات متصلبة؟ هل يجب الاعتقاد أن الأقسامية اللينة تعيد هي ذاتها تشكيلا مجهريا ومصغرا للأشكال الكبرى التي كانت تسعى إلى التخلص منها؟ تنيخ على كل الرحلات جملة بيكات التي لا تنسى: «فيما أعلم، نحن لا نرتحل لأجل متعة السفر؛ نحن حمقى، لكن ليس إلى هذه الدرجة.»

ها إنه في القطع، ليست مادة الماضي وحدها هي التي تبخرت، بل صورة ما حدث، صورة شيء ما يند عن الإدراك قد حدث في مادة متبخرة، لم تعد موجودة. لقد أصبحنا نحن ذواتنا نند عن الإدراك وأصبحنا متسترين في رحلة ساكنة. لا شيء يمكنه أن يحدث ولا كان حدث. لا أحد يمكنه القيام بشيء لصالحه أو ضدي. أقاليمي منيعة، ليس لأنها خيالية، على النقيض من ذلك: لأنني بصدد رسمها. انتهت الحروب الكبرى أو الصغرى. انتهت الارتحالات التي تكون دائما في ذيل شيء ما. لم يعد لدي أي سر، نتيجة فقدان وجهي، صورة ومادة. لم أعد غير خط. أصبحت قادرا على الحب، ليس حبا كليا مجردا، لكن الحب الذي سأختاره، والذي سيختارني، عشوائيا، صنوي الذي لم يعد له أنا غير أناي. لقد نجونا بالحب وللحب بتخلينا عن الحب وعن الأنا. لم نعد غير خط مجرد، مثل سهم يخترق الخلاء. إنه لا تأرضن مطلق. لقد أصبحنا مثل كل الناس، لكن على طريقة أن لا أحد يمكنه أن يصير مثل كل الناس. لقد رسمنا العالم على ذواتنا ولم نرسم ذواتنا على العالم. لا يجب أن نقول إن العبقري هو إنسان خارق، ولا إن للجميع عبقرية. العبقري هو من يعرف كيف يجعل من الجميع تصيرا (لعله أوليس، الطموح المخفق لجايمنس، ونصف التاجع عند باوند). لقد دخلنا في التصيرات - حيوانات، في التصيرات - هبائين، أخيرا في التصيرات - دقيقين عن الإدراك. «كنت دائما على الجانب الآخر من

المتراس. الإحساس الفظيع بالحماسة كان متواصلا. (...). سأحاول أن أكون حيوانا مستقيما قدر المستطاع، وإذا رميتم لي عظاما مكسوا ببعض اللحم لعلّي سأكون قادرا على لعق يدكم. «لِمَ هذه النّعمة اليائسة؟ ألا يكون لخطّ القطع أو الإفلات الحقّ خطرُهُ الأسوأ من كلّ الخطوط الأخرى؟ لقد آن أوان الموت. على أيّة حال، يقترح علينا فيتزجيرالد التّمييز بين ثلاثة خطوط تخرقنا وتكوّن «حياة» (عنوان على طريقة موباسّان). خطّ قطيعة، خطّ تشقّق، خطّ قطع. خطّ الأقساميّة [٢٤٥] الصّلب أو خطّ القطيعة الكتليّة؛ خطّ الأقساميّة المرنة أو خطّ التشقّق الهبائيّ؛ خطّ الإفلات، المجرّد، المائت والحيّ، غير الأقساميّ.

الأقصومة الثالثة،

«حكاية الهوة والنّظارة»، بيارّات فلوسيو، ١٩٧٦،

منشورات جوليار.

ثمّة أقسومات، متقاربة نوعا ما، متباعدة نوعا ما. تبدو هذه الأقسومات محيطة بهوة، بنوع من ثقب أسود كبير. ثمّة على كلّ أقسومة نوعان من المراقبين، المتجسّسون دون عدسات مكبّرة والمتجسّسون ذوّو العدسات المكبّرة. ما يراقبونه، هي الحركات، الطّفرات، المخالفات، القلاقل والتمرّدات التي تحدث في الهوة. لكن ثمّة فارق كبير بين نوعي المراقبين هؤلاء. للمتجسّسين دون عدسات مكبّرة نظارة بسيطة. يرون في الهاوية حافة الزّرنانات الضّخمة، الانقسامات الثّنائية الكبرى، انقسامات ازدواجيّة، أقسومات هي ذاتها محدّدة بدقّة، من نوع «قاعة تدريس، ثكنة، مساكن اجتماعيّة أو بلدان شوهدت من طائرة». يرون قضباناً، سلاسل، صفوفاً، أعمدة، ألبسة، تَقْنَع، أخاديد. يكتشفون أحيانا على الحافات شكلا مرسوما بشكل سيّء، حافة مرتجّة. إذا سندهب للبحث عن النّظارة الشّعاعيّة المرعبة.

لا تصلح هذه النظارة للرؤية وإنما للقطع والتقطيع. إنها هي الوسيلة الهندسية التي ترسل شعاع ليزر، وتجعل القطيعة الكبرى الدالة تسود في كل مكان، ترمم النظام الكتلي الذي وقع تهديده للحظة. نظارة التقطيع تقنن تضافرياً كل شيء؛ إنها تعمل في اللحم والدم، لكنها ليست غير هندسة محض، الهندسة بوصفها قضية دولة، وفيزياء المتجسسين دون عدسات مكبرة في خدمة هذه المكنة. ما الهندسة؟ ما الدولة، ما المتجسسون دون عدسات مكبرة؟ ها هي أسئلة لا معنى لها («أتحدث حرقياً»)، بما أن الأمر لا يتعلق حتى بالتعريف، إنما بالرسم الفعلي لخط لم يعد هو خط الكتابة، إنه خط أقسومية صلبة حيث سيحاكم فيها الجميع ويقومون وفق هذه الحافات، أفرادا كانوا أو جماعات.

مختلفة جداً هي وضعية الروى بالمنظار، وضعية المتجسسين ذوي العدسات المكبرة، في التباسهم ذاته. إنهم قلة، واحد لكل أقسومة على أقصى تقدير. لهم نظارة دقيقة ومعقدة. لكن بكل تأكيد هم ليسوا زعماء. وهم يرون شيئاً مغايراً لما يراه الآخرون. إنهم يرون بالكامل أقسومية صغيرة، تفصيلات تفصيلات، «شلال إمكانات»، حركات دقيقة لا تنتظر وصولها إلى الحافات، خطوطاً أو اهتزازات تعمل على التشكل قبل الحافات، «أقسومات تتحرك ارتجاجياً». إنه [٢٤٦] جذمور بتمامه، أقسومية هبائية تتأبى عن التقنين التضافري عن طريق دال بوصفه مكنة تقطيع، وتتأبى حتى عن إسنادها لشكل معين، لمجموعة معينة أو لعنصر معين. هذا الخط الثاني لا ينفصل عن التقسيم المجهول الذي ينتجه، والذي يضع كل شيء موضع نظر في كل حين، دون هدف ودون سبب: «ما الذي حدث؟» المتجسسون ذوو العدسات المكبرة بإمكانهم التنبؤ بالمستقبل، لكن دائماً في صورة تصوّر شيء ما حدث بالفعل في مادة هبائية، في جسيمات غائبة. كما الحال في البيولوجيا: كيف تكون التقسيمات الكبرى والانقسامات الخلوية

مصحوبة في حافاتهما بهجرات، بأنغمادات، بتنقلات، بتوثبات تشكّل حيويّ، لم تعد أقسوماتها معلّمة بنقاط محدّدة، إنّما بعثبات شدّة تحدث من تحت، إنّها انقسامات فتيليّة حيث يضطرب كلّ شيء، هي خطوط هبائيّة تتقاطع داخل خلايا كبرى وداخل قطيعاتها. كما الحال في مجتمع: كيف تقع من الأسفل إعادة تقطيع الأقسومات الصّلبة والقاطعة بإفراط بتقسيمات ذات طبيعة مغايرة. لكن لا تلك ولا هذا، لا بيولوجيا ولا مجتمع ولا تشابه بين الاثنين: «أتحدّث حَرْفِيًّا»، أرسم خطوطا، خطوط كتابة، وتمرّ الحياة بين الخطوط. برز خطّ أقسوميّة مرنة متشابكا مع الخطّ الآخر، لكنه مختلف عنه اختلافا كبيرا، إنّهُ مرسوم بطريقة مهترّة من طرف السّياسة المجهريّة للمتجسّسين ذوي العدسات المكبّرة. إنّهُ شأن سياسيّ عالميّ مثل الخطّ الآخر بل وأكثر، لكن بمقياس وفي صورة لا تقبل التراكب ولا المقايسة. لكنّه شأن إدراك أيضا، ذلك أنّ الإدراك، السّيميائيّة، الممارسة، السّياسة، النظريّة، تكون دائما معا. نرى، نتكلّم، نفكر، في هذا النّطاق أو ذاك ووفق خطّ معيّن يمكنه التّزاوج أو عدم التّزاوج مع نطاق الخطّ الآخر حتّى وإن كان الآخر هو كذلك عين الذات. في حال عدم التّزاوج، لا يجب الإلحاح والنّقاش، بل الإفلات، الإفلات، حتّى بالقول «موافق، ألف مرّة موافق». لا حاجة للحديث، قد يتوجّب أوّلا تغيير النّظارات والأفواه والأسنان وكلّ الأقسومات. لسنا نتحدّث فقط حَرْفِيًّا، نُدرك حَرْفِيًّا، نحيا حَرْفِيًّا، أي وفق خطوط قابلة أو غير قابلة للوصل، حتّى عندما تكون شديدة التّنافر. ومن بعد ذلك، أحيانا لا يستقيم الأمر عندما تكون متجانسة^(١).

(١) في أقصوصة أخرى من نفس المجموعة، «الرّواية الأخيرة للشفافية»، تستخرج بيارات فلوسيو (Pierrette Fleutiaux) ثلاثة خطوط إدراك، دون تطبيق تخطيط مرسوم مسبقا. للبطل إدراك كتلويّ يتعلّق بالمجموعات وبالعناصر المقسّمة بدقّة، بالمناطق الممتلئة وبالمناطق الجوفاء المورّعة بدقّة (إنّهُ إدراك مقنّن،

[٢٤٧] التباس وضعيّة المتجسّسين ذوي العدسات المكبّرة هي التّالية: هم مؤهّلون ليكشفوا في الهاوية أتفه المخالفات المجهرية التي لا يراها الآخرون؛ لكنهم يلاحظون كذلك أشنع الأضرار التي تسبّبها نظّارة التّقطيع، تحت غطاء عدالتها الهندسيّة الظّاهريّة. لديهم إحساس بالتّوقّع، وبكونهم سباقين، بما أنّهم يرون أصغر شيء وكأنّه حدث بالفعل؛ لكنّهم يعرفون أنّ تحذيراتهم غير ذات جدوى، لأنّ نظّارة التّقطيع ستنظّم كلّ شيء، دونما حاجة إلى التنبؤ ودونما إمكان له. يشعرون تارة بأنّهم يرون شيئا آخر غير ما يراه الآخرون؛ يشعرون تارة أخرى أنّه ليس ثمة غير فرق في الدّرجة لا يصلح للاستعمال. إنّهم يشاركون في عمل المراقبة الأقسى والأشنع، لكن كيف قد لا يشعرون بتعاطف غامض مع النّشاط الخبيء الذي انكشف لهم؟ إنه التباس هذا الخطّ الهبائيّ، وكأنّه كان يتردّد بين منقلبين. ذات يوم (ما الذي سيكون حدث؟) سيغادر المتجسّس دون عدسة مكبّرة أقسومه، سيدخل مَعبرا ضيقا فوق الهوة السّوداء، سينطلق على خطّ الإفلات وقد كسر نظّارته، للالتقاء بصنوّ أعمى يتقدّم نحو الطّرف الآخر.

تخترقنا الخطوط أفرادا أو جماعات، خطوط طول، خطوطا جيوديسيّة، استوائيّة، أعمدة دوران لا تنبض بنفس الإيقاع وليس لها نفس الطّبيعة. إنّها خطوط تكوّننا، كنّا قلنا إنّها ثلاثة أنواع من

موروث، مقنّن تضافريّا بالجدران: عدم الجلوس إلى جانب الكرسيّ، إلخ.). لكنّ البطل مأخوذ كذلك في إدراك هبائيّ مكوّن من تقسيمات دقيقة ومتحرّكة، من سمات مستقلّة، حيث تنبثق ثقب في المليء، صور مجهرية في الخلاء، بين شيئين، حيث «يتسارع كلّ شيء ويتحرّك» من خلال ألف شقّ. يتمثّل ارتباك البطل في كونه لا يستطيع الاختيار بين الخطّين، وهو يقفز باستمرار من هذا إلى ذاك. هل سيأتي الخلاص من خطّ إدراك ثالث، إدراك إفلات، «وجهة افتراضية وقعت الإشارة إليها مجرد إشارة» بزاوية الخطّين الآخرين، «زاوية الشّفاية» التي تفتح فضاء جديدا؟

الخطوط. أو بالأحرى هي حُزَم خطوط، إذ كلّ نوع متعدّد. يمكن الاهتمام بواحد من هذه الخطوط أكثر من الاهتمام بالخطوط الأخرى، وبالفعل لعلّه ثمة واحد، ليس هو المحدّد، لكنه أهمّ من البقية... إذا كان حاضرا. ذلك أنّه من بين كلّ هذه الخطوط، بعضها مفروض علينا من الخارج، في جزء منه على الأقلّ. بعضها الآخر يولد بالصدفة تقريبا، يولد من لا شيء، ولن نعرف أبدا سبب ذلك. البعض الآخر يجب استحداثه ورسمه دون أيّ نموذج ولا أيّة مصادفة: علينا استحداث خطوط إفلاتنا إذا كنّا قادرين على ذلك؛ ولا نستطيع استحداثها إلّا برسمها فعليّا في الحياة. خطوط الإفلات، أليس استحداثها هو الأعسر؟ بعض الجماعات وبعض الأشخاص يفتقرون إليها ولن يكون لهم منها نصيب على الإطلاق. بعض الجماعات وبعض الأشخاص [٢٤٨] يفتقرون إلى نوع معيّن من الخطّ أو أنّهم فقدوه. تهتمّ الرّسامة فلورونس جوليان (Florence Julien) تخصيصا بخطوط الإفلات: إنّها تنطلق من صور وتبتكر الطّريقة التي ستمكّن بها من استخراج خطوط منها، خطوطا تكاد تكون مجردة ودون شكل. لكن هنا أيضا، هي حزمة كاملة من الخطوط المتنوّعة جدّا: خطّ إفلات الأطفال الذين يخرجون جريا من المدرسة، إنّّه ليس نفس خطّ المتظاهرين الذين تتعقّبهم الشرطة، ولا هو خطّ السّجين الهارب. خطوط إفلات حيوانات مختلفة: لكلّ نوع ولكلّ فرد خطوطه. فرنان دليني يدوّن خطوط ومسافات أطفال متوحّدين، إنّّه يصنع الخارطات: إنّّه يميّز بدقّة بين «خطوط التّجوال» وال«خطوط الاعتياديّة». وهذا الأمر لا ينطبق على الجولات وحدها، ثمة كذلك خارطات إدراك، خارطات حركات (الطّبخ أو تجميع الحطب) مع حركات اعتياديّة وحركات تجوال. كذا الحال بالنّسبة إلى اللّغة، إذا كانت لها خارطات. فتح فرنان دليني خطوط كتابته على خطوط حياة. وتلتقي الخطوط باستمرار، تتقاطع لبرهة من الزّمن، تتابع لمدّة معيّنة. تقاطع خطّ

تجوال مع خطّ اعتياديّ، ههنا يقوم الطّفل بشيء ما لم يعد ينتمي بالتحديد إلى أيّ من الخطّين، إنّه يعثر من جديد على شيء كان أضعاه- ما الذي حدث؟- أو أنّه يقفز، يصفّق، في حركة صغيرة وسريعة- لكنّ حركته ذاتها ترسل من ناحيتها خطوطا كثيرة^(١). باختصار، خطّ إفلات معقّد بالفعل، مع فراداته؛ لكن كذلك خطّ كتلويّ أو اعتياديّ مع أقسوماته؛ وبين الخطّين (؟)، خطّ هبائيّ، مع كمّاته التي تجعله يميل إلى هذا الجانب أو إلى ذاك.

نرى جيّدا مثلما يقول دلييني أنّ هذه الخطوط لا تعني شيئا. المسألة مسألة خرائطيّة. تُشكّلنا هذه الخطوط مثلما تُشكّل خارطتنا. إنّها تتغيّر ويمكن حتّى انتقال أحدها إلى الآخر. إنّها جدمور. بكلّ تأكيد لا علاقة لها باللّغة، على التّقيض من ذلك، اللّغة هي التي يجب أن تتّبعها، الكتابة هي التي يجب أن تتغذّى منها بين سطورها الخاصّة. بكلّ تأكيد لا علاقة لها بدالّ، لا علاقة لها بتحديد ذات بواسطة الدّالّ؛ الدّالّ هو الذي ينبثق بالأحرى في المستوى الأشدّ صلابة لواحد من هذه الخطوط، الدّات هي التي تولد في المستوى الأدنى. بكلّ تأكيد لا علاقة لها ببنية، البنية لم تهتمّ قطّ إلّا بالنّقاط والوضعيّات، بالتّشجّرات، وأغلقت دائما منظومة لتمنعها تحديدا من الإفلات. يستحضر دلييني جسدا مشتركا تُدوّن عليه تلك الخطوط بوصفها العديد من الأقسومات، العتبات أو الكمّات، الإقليميات، اللّا تارُضّيات وإعادة التّارُضّيات. [٢٤٩] تُدوّن الخطوط على جسد دون أعضاء حيث يُرسم كلّ شيء ويفلت، خطّ مجرد هو ذاته، دون أشكال خياليّة ودون وظائف رمزيّة: إنّّه واقع الجسد دون أعضاء. ليس للتّحليل الفُصاميّ موضوع عمليّ آخر: ما هو جسدك الذي دون أعضاء؟ ماهي خطوطك

(١) فرنان دلييني (Fernand Deligny)، «الصّوت والرؤية»، كراسات الثّابت، أفريل

الخاصة بك، ما هي الخارطة التي أنت بصدد صنعها وتعديلها، أيّ خطّ مجرد سترسمه، وبأيّ ثمن، بالنسبة إليك وبالنسبة إلى الآخرين؟ خطّ إفلاتك الذي يخصّك؟ جسدك دون أعضاء الذي يختلط وإيّاها؟ تنهار؟ ستنهار؟ لا تتأرّضن؟، أيّ خطّ تكسر، أيّ خطّ تُمدّد أو تستعيد، دون أشكال ودون رموز؟ التحليل الفُصامي لا يتعلّق لا بالعناصر ولا بالمجموعات، لا بالذّوات، لا بالعلاقات ولا بالبنى. إنّهُ لا يتعلّق إلّا بالملامح التي تتخلّل الجماعات كما الأفراد. التحليل الفُصامي بما هو تحليل الرّغبة، هو مباشرة تحليل عمليّ، مباشرة تحليل سياسيّ، سواء تعلّق الأمر بفرد، بجماعة أو بمجتمع. ذلك أنّه قبل الكائن ثمة السّياسة. الممارسة لا تأتي بعد تنزيل الحدود وعلاقاتها في مواضعها، لكنّها تشارك بفعاليّة في مسار الخطوط، تواجه نفس المخاطر ونفس التغيّرات التي تواجهها الخطوط. التحليل الفُصاميّ هو مثل فنّ الأقصوصة. أو بالأحرى لا مشكل تطبيق لديه: إنه يستخرج خطوطاً يمكن أن تكون خطوط حياة، خطوط أثر أدبيّ أو فنيّ، خطوط مجتمع، وفقاً لمثل هذه المنظومة المحصورة من الإحداثيات.

خطّ أقسوميّة صلبة أو كتلويّة، خطّ تقسيم لّين وهبائيّ، خطّ إفلات: تُطرح الكثير من المشكلات. أوّلاً بخصوص الطابع الخاصّ بكلّ خطّ منها. قد نعتقد أنّ الأقسومات الصّلبة محدّدة، محدّدة بشكل مسبق اجتماعيّاً ومقنّنة تضافريّاً من طرف الدّولة؛ قد ننزع بالمقابل إلى أن نجعل من الأقسوميّة اللّينة ممارسة داخلية، خياليّة أو استيهاميّة. أمّا خطّ الإفلات، ألا يكون شخصيّاً بالتّمام، وهو كيفية يفلت بها فرد لصالح ذاته، يفلت من «مسؤولياته»، يفلت من العالم، يلتجئ إلى الصّحراء أو إلى الفنّ... إلخ. انطباع خاطئ. الأقسوميّة اللّينة لا علاقة لها بالخياليّ، والسّياسة المجهرية ليست أقلّ امتداداً وواقعية من السّياسة الأخرى. السّياسة الكبرى لا يمكنها البتّة تحريك مجموعات الكتلويّة دون المرور بهذه الحقنات المجهرية، بهذه التّسرّبات التي

تدعمها أو تعرقلها؛ بل بقدر ما تكون المجموعات كبيرة بقدر ما يقع إضفاء الطابع الهبائي على الهيئات التي تضعها على المحك. أما خطوط الإفلات فإنها لا تتمثل البتة في الإفلات من العالم، إنما بالأحرى في جعله يفلت، مثلما نثقب أنبوبا، وليس ثمة منظومة اجتماعية لا تفلت من كل الأطراف حتى وإن كانت أقسوماتها لا تفتأ تتصلب لتسدّ خطوط الإفلات. لا شيء خيالي ولا شيء رمزي في خطّ إفلات. لا شيء أكثر فعالية من خطّ إفلات، عند [٢٥٠] الحيوان وعند الإنسان^(١). وحتى التاريخ مُجبر على المرور من هناك عوضا عن المرور بـ«قطيعات دالة». في كل لحظة، ما الذي يفلت في مجتمع؟ إننا نبتكر على خطوط الإفلات أسلحة جديدة لنواجه بها الأسلحة الضخمة للدولة، و«يمكن أن أفلت، لكن طيلة إفلاتي، أبحث عن سلاح». إنه على خطوط إفلاتهم كان المترحلون يزيحون كل شيء في طريقهم، وكانوا يجدون أسلحة جديدة كانت تصيب الفرعون بالذهول. من كل الخطوط التي نميز بينها، من الممكن لنفس الجماعة أو لنفس الفرد تقديمها كلّها في نفس الوقت. لكن غالبا ما تعمل جماعة، يعمل فرد هو ذاته بصفته خطّ إفلات؛ إنه يبدعه بدلا من أتباعه، إنه هو ذاته السلاح الحي الذي يشكّله بدلا من الاستيلاء عليه. خطوط الإفلات حقائق: إنها أمر خطير جدًا بالنسبة إلى المجتمعات، مع أنها لا يمكنها الاستغناء عنها، وفي بعض الحالات هي التي تهيتها.

المشكل الثاني قد يخصّ الأهمية الخاصة بكل خطّ من الخطوط. يمكن الانطلاق من الأقسومية الصلبة، ذلك أيسر وأقلّ عناء؛ ثم نرى الكيفية التي بها تتقاطع معها تقريبا أقسومية ليّنة هي نوع

(١) كتب هنري لابوريت (Henri Laborit)، تقرّظ الإفلات (منشورات لافون)، حيث بيّن الأهمية البيولوجية لخطوط الإفلات عند الحيوان. لكنه مع ذلك قدّم عنها تصوّرا شكلانيّا جدًا؛ وبدا له الإفلات عند الإنسان مرتبطا بقيم المتخيّل المرصودة لزيادة «شكلنة» العالم.

من الجذمور الذي يحيط بالجذور. ثم نرى كيف ينضاف إليها كذلك خطّ إفلات. والتّحالفات والصّراعات. لكن يمكننا الانطلاق كذلك من خطّ إفلات: لعلّه هو الأوّل مع لا تأرّضنه المطلق. من البديهيّ أنّ خطّ الإفلات لا يأتي لاحقاً، إنّهُ حاضر منذ البداية، حتى وإن كان ينتظر ساعة حدوثه وساعة تَفْجُر الخطّين الآخرين. حينئذ، قد لن تكون الأقساميّة اللّينة غير ضرب من الوفاق، تعمل بلا تأرّضنات نسبية، وتُمْكِن من إعادات أرضنة تُعْطَل وتحيل على خطّ صلب. غريب هو أن تكون الأقسامية اللّينة كائنة بين الخطّين الآخرين، مستعدّة لتميل إلى هذا الجانب أو ذاك، ذلك هو التباسها. وكذلك يجب أن نرى التّوليفات المختلفة: خطّ إفلات شخص ما، إفلات جماعة أو فرد، يمكن ألاّ يشجّع خطّ إفلات فرد آخر أو جماعة أخرى؛ يمكنه على التّقيض من ذلك إغلاقه وسدّه، والقذف به فضلاً عن ذلك في أقسوميّة صلبة. يحدث في الحُبّ يكون أن الخطّ الإبداعيّ لشخص ما هو سجن الآخر. ثمّة مشكل توليف الخطوط، توليف خطّ مع آخر، حتى في نفس الجنس. ليس من المؤكّد أن يكون خطّ إفلات منسجمين ومُتماكنين. ليس من المؤكّد [٢٥١] أنّ الأجساد دون أعضاء تتوالف بيسر. ليس من المؤكّد أنّ حُبّاً يصمد أمام ذلك، ولا سياسة أيضاً.

المشكل الثالث، ثمّة المحايّثة المتبادلة بين الخطوط. ليس من اليسير كذلك الفصل بينها. ولا واحد من الخطوط له تعالیه، كلّ واحد منها يعمل في الخطوط الأخرى. محايّثة في كلّ مكان. خطوط الإفلات محايّثة للحقل الاجتماعيّ. الأقساميّة اللّينة لا تفتأ تفتّك تَصَلِّبات الأقساميّة الصّلبة، لكنّها تعيد بناء كلّ ما فكّته على صعيدها هي، تعيد بناء أوديات مجهرية، تشكيلات مجهرية للسلطة، فاشيات مجهرية. خطّ الإفلات يفجّر سلسلتيّ التقسيم، لكنه قادر على الأسوأ، قادر على الارتداد على الجدار، على السّقوط مجدّداً في ثقب أسود، على السّير في طريق التّفهقر الكبير، وعلى صنع أشدّ الأقسامات صلابة

وفق ما يصادف من منعطفاته. هل بدأنا بالطّيش؟، إنّ ذلك أسوأ من لو أنّنا لم نكن هربنا، راجع ما يؤاخذ به لورانس مالفيل. بين مادّة سرّ صغير قذر في الأقسوميّة الصّلبة، الصّورة الخاوية لـ«ما الذي حدث؟» في الأقسوميّة اللّينة، وسرّيّة ما لم يعد بالإمكان أن يحدث على خطّ الإفلات، كيف لا نرى اهتزازات هيئة متشعّبة هي السرّ الذي يوشك أن يقلب كلّ شيء؟ بين زوج الأقسوميّة الأولى، مثنى الأقسوميّة الثانية، سرّيّ خطّ الإفلات، ثمّة الكثير من الاختلاطات والانتقالات الممكنة. - أخيرا، المشكل الأخير كذلك، المقلق أكثر من غيره، يخصّ المخاطر الخاصّة بكلّ خطّ. هناك القليل ممّا يمكن قوله بخصوص خطر الخطّ الأوّل وتصلّبه الذي لا يكاد يُسوّى. القليل ممّا يمكن قوله بخصوص التباس الخطّ الثّاني. لكن لم يتضمّن خطّ الإفلات في ما يخصّه، حتى بغضّ النظر عن مخاطر سقوطه مجدّدا في الخطّين الآخرين، يأسا مخصوصا جدّا، رغم رسالة الفرح التي يحملها، وكأنّ شيئا ما كان يهدّده حتى في قلب عمله الخاصّ، يهدّده موت، تقويض، في اللحظة ذاتها التي ينحلّ فيها كلّ شيء؟ كان شستوف يقول عن تشيكوف الذي هو فعلا مبدع عظيم للأقاصيص: «لقد بذل جهدا، لا يمكن الشكّ في ذلك بهذا الخصوص، وقد انكسر فيه شيء ما. وسبب هذا الجهد، لم يكن بعض عمل مُضنّ: لقد انكسر دون القيام بإنجاز يفوق قدراته. لم يكن على الجملة إلّا حادثا تافها، لقد تعثّر، زلّت قدمه. (...) ظهر لنا إنسان جديد، بائس وكئيب، مجرم^(١)». ما الذي حدث؟ هنا أيضا هو السّؤال لكلّ شخصيّات تشيكوف. ألا يمكن أن نبذل جهدا، وحتى يُكسر فينا شيء ما، دون أن نسقط في ثقب أسود من المرارة والرّمْل؟ لكن هل سقط تشيكوف حقّا،

(١) ليون شاستوف (Léon Chestov)، الرّجل العالق في الفخّ، منشورات ١٠/١٨،

أليس ذلك حُكم خارجيٍّ بالتّمام؟ ألم يكن تشيكوف ذاته [٢٥٢] على حقّ في قوله إنّ شخصياته مهما كانت بائسة، فإنّه مازال يحمل «خمسین كيلوغراما من المحبّة»؟ الآكد أنّه لا شيء يسيرٌ على الخطوط التي تكوّننا والتي تشكّل ماهية الأقصوصة، وأحيانا الأقصوصة الجيدة.

مَنْ هم أزواجك، مَنْ هم مَثانِيك، مَنْ هم مستتروك، وما هي الاختلاطات بينهم؟ عندما يقول الواحد للآخر: أَجِبِّي على شفاهي طعم الويسكي مثلما أَحَبَّ في عينيك بريق الجنون، أيّ الخطوط هما بصدد تكوينها أو على النقيض من ذلك هما بصدد جعلها غير متماكنة؟ يقول فيتزجيرالد: «لعلّ خمسین في المائة من أصدقائنا وأقربائنا سيقولون لكم بحسن نيّة إنّ مشروبهم هو الذي جعل زلدا (Zelda) مجنونة، النّصف الآخر قد يؤكّد لكم إنّ جنونها هو الذي دفعهم إلى الشّرب. لا واحد من هذين الحُكميّن قد يكون مهمّا. هاتان المجموعتان من الأصدقاء والأقرباء قد تُجمعان معا على القول إنّ كلّ واحد منّا قد يكون على حال أفضل من دون الآخر. مع هذه الصّيغة التّهكّميّة القائلة إنّنا لم نعرف في حياتنا حبّا أوثق من الذي كان بيننا. إنّها تحبّ الكحول على شفتيّ. أحبّ هلوساتها الأكثر شططا.» «في النّهاية لا شيء كان حقّا ذا أهمّيّة. لقد حطّمنا بعضنا. لكن بكلّ صدق، لم أفكر على الإطلاق بأنّ كلّ واحد منّا حطّم الآخر.» يا لجمال هذه النّصوص. كلّ الخطوط حاضرة فيها: خطّ الأسر والأصدقاء، خطّ كلّ الذين يتكلّمون، يفسّرون ويحلّلون نفسيا، يورّعون الخطأ والصّواب، كامل المكنة الثنائية للزوج المقترن أو المنفصل، في الأقسوميّة الصّلبة (٥٠ ٪). ثمّ خطّ التّقسيم اللّين، حيث مدمن الكحول والمجنونة كأنّهما ينهلان من قبلة على الشّفاء وعلى العيون تكاثر الصّنو على حدّ ما يمكنهما تحمّله في وضعيتهما، مع الضمنيّات التي يستخدمانها كرسالة داخلية. لكن كذلك خطّ الإفلات، الذي هو مشترك بقدر ما هما منفصلان، أو العكس، كلّ واحد هو مستتير الآخر، صِنُو

ناجح بقدر ما لم يعد لأيّ شيء أيّة أهميّة، وكلّ شيء يمكن أن يبدأ من جديد، ذلك أنّهما تحطّما، لكن لم يحطّم أحدهما الآخر. لا شيء سيمرّ بالذكّرى، كلّ شيء مرّ على الخطوط، بين الخطوط، في المع التي تجعلهما يدقان عن الإدراك، الواحد والآخر، لا فضل ولا وُضُل، إنّما خطّ إفلات لا يفتأ يرتسم، لأجل قبول جديد مناقض لتنازل أو استسلام، سعادة جديدة؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

[٢٥٣] ٩. ١٩٣٣ - السياسة المجهرية والأقسوميّة



الأقسوميّات (جملة الأنماط)

[٢٥٤] نحن مقسّمون في كلّ مناحينا وفي كلّ الاتجاهات. الإنسان حيوان أقسوميّ. تنتمي الأقساميّة إلى كلّ الطبقات التي تُكوّننا. السّكن والتنقّل والعمل واللّعب: المعيش مقسّم مكانياً واجتماعياً. المنزل مقسّم وفق الغاية من حُجراته؛ الأنهج وفق تنظيم المدينة؛ المعمل وفق طبيعة الأعمال والعمليّات. نحن مقسّمون ثنائياً، وفق تعارضات ثنائيّة كبرى: الطبقات الاجتماعيّة، لكن كذلك الرّجال والنساء، الكهول والأطفال، إلخ. نحن مقسّمون دائريّاً، في دوائر تزداد اتّساعاً، في أقراص أو حصون تزداد رحابة، على طريقة «رسالة» جويس: شؤونيّ، شؤون حييّ ومدينتيّ وبلديّ وشؤون العالم... نحن مقسّمون خطيّاً، على خطّ مستقيم، على خطوط مستقيمة حيث تمثّل كلّ أقسومة حلقة أو «مساراً»: لا نكاد ننهي مساراً حتّى نبدأ آخر، إنّنا مدّعون أو مدّعى علينا على الدّوام، الأسرة، المدرسة، الجيش، المهنة، والمدرسة تقول لنا: «لم تعد في الأسرة»، والجيش يقول: «لم تعد في المدرسة...» تارة تحيل الأقسامات المختلفة على أفراد مختلفين أو على جماعات مختلفة، تارة هو نفس الفرد أو نفس الجماعة هما اللّذان يمرّان من أقسومة إلى أخرى. لكن دائماً أشكال الأقسامات هذه، الثنائيّة والدائريّة والخطيّة، متآخذه في ما بينها بل ويمرّ أحدها في الآخر، وهي تتغيّر وفق زاوية النّظر. البريّون يشهدون على ذلك بالفعل: يبيّن ليزو كيف أنّ المنزل المشترك يكون منظّماً دائريّاً، من الدّاخل إلى الخارج، في سلسلة من الحصون حيث تُمارَس ضروب من الأنشطة القابلة للتّحديد (طقوس واحتفالات دينيّة، ثمّ تبادل البضائع، ثمّ حياة أسريّة، ثمّ النّفايات والفضلات)؛ لكن في نفس الوقت، «كلّ واحد من هذه الحصون مقسّم هو ذاته عرضانياً، كلّ أقسومة عائدة إلى سلالة خاصّة ومفرّعة بين عدّة جماعات جرمانيّة^(١)».

(١) جاك ليزو (Jacques Lizot)، دائرة النّيران، منشورات سوي، ص ١١٨.

في سياق أعم، يبيّن ليفي- شتراوس أنّ التّنظيم الثنائيّ للبدائين يحيل إلى شكل دائريّ، وينتقل كذلك إلى شكل خطّي يشمل «أي عدد من الجماعات» (ثلاث جماعات على الأقل)^(١).

لِمَ الرّجوع إلى البدائين بما أنّ الأمر يتعلّق بحياتنا نحن؟ الحقيقة هي أنّ مصطلح الأُقسوميّة أنشأه الإثنولوجيون للتعبير عن المجتمعات المسمّاة بدائيّة، دون جهاز دولة مركزيّة ثابتة، دون سلطة شاملة ودون مؤسّسات [٢٥٥] سياسيّة مختصّة. للأُقسومات الاجتماعيّة حينئذ ليونة معيّنة وفق المهمّات والوضعيات، بين القطبين الأقصيين للانصهار والانفصال؛ تواصلية كبرى بين المتنافرات، بحيث أنّ وُضُل أقسومة بأخرى يمكن أن يتمّ بطرق متعدّدة؛ بناء موضعيّ يستبعد إمكانية تحديد مجال قاعديّ بشكل مسبق (مجال اقتصاديّ، سياسيّ، قضائيّ، فنيّ)؛ خاصيّات برّانية لوضعيّة أو لعلاقات يتعذّر ردّها إلى خاصيّات داخلانيّة للبنية؛ نشاط متواصل يجعل الأُقسوميّة لا تُدرَك بمعزل عن تقسيم كائن بالفعل، يعمل بالظّفرات والانفصالات والتّجميعات. الأُقسوميّة البدائيّة هي في نفس الوقت أقسومية تقنين متعدّد الدّلالات، قائم على سلاطات، على وضعياتها وعلاقاتها المتغيّرة، وأُقسوميّة إقليميّة جوّالة قائمة على تقسيمات موضعيّة متداخلة. التّقنيات والأقاليم، السّلاطات العشائريّة والإقليميات القبليّة تنظّم نسيج أُقسوميّة ليّنة نسبياً^(٢).

مع ذلك يبدو لنا أنّه من العسير القول إنّ المجتمعات التي لها دولة، أو حتى دولنا الحديثة، هي أقلّ انقساماً. التّعارض الكلاسيكيّ

(١) ليفي- شتراوس، الأثروبولوجيا البنيويّة، منشورات بلون، الفصل الثامن: «هل توجد تنظيمات ثنائيّة؟»

(٢) راجع دراستين نموذجيتين ضمن منظومات سياسيّة إفريقيّة، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة: دراسة ميار فورتاس (Meyer Fortes) حول الطّلنسين (les Tallensi)، ودراسة أفانس- برينشارد (Evans-Pritchard) حول النويريين (les Nouer).

بين الأقسومي والمُمرّكز قليلا ما يبدو مناسباً^(١). الدّولة لا تمارس فعلها فقط على الأقسامات التي تحافظ عليها أو تبقي عليها، لكنّها تمتلك في ذاتها أقسوميّتها الخاصّة وتفرضها. لعلّ التّقابل الذي يقيمه علماء الاجتماع بين الأقسوميّ والمركزيّ له خلفيّة بيولوجيّة: الدّودة الحلقيّة، والجهاز العصبيّ المُمرّكز. لكنّ الدّماغ المركزيّ هو ذاته دودة، وهو أشدّ انقساماً من البقية، بما في ذلك كلّ استبدالاته وبالرّغم منها. ليس ثمة تعارض بين المركزيّ والأقسوميّ. النّظام السّياسيّ الحديث هو كلٌّ شامل، موحدٌ وموحدٌ، لكنّ لأنّه يتضمّن مجموعة من الأنظمة الفرعية المترابطة، المتشابكة، المنتظمة، بحيث أنّ تحليل القرارات يفعل كلّ التّقسيمات والسيرورات الجزئيّة التي لا يواصل بعضها بعضها الآخر دون انحرافات ودون تنقّلات. تعمل التّقنوقراطيّة بواسطة تقسيم العمل الأقسوميّ (بما في ذلك في التّقسيم الدّولي للعمل). لا توجد البيروقراطيّة إلّا بمكاتبها المقسّمة، ولا تعمل إلّا بـ«تنقّلات الهدف» وبالـ«اختلالات» المطابقة لها. التّراتبيّة ليست هرميّة وحسب، مكتب المسؤول يوجد في طرف [٢٥٦] الممرّ بقدر ما يوجد في أعلى البرج. باختصار، قد نقول إنّ الحياة الحديثة لم تقم نية الأقسوميّة، بل على التّقيض من ذلك جعلتها أكثر صلابة.

عوض المعارضة بين الأقسوميّ والمُمرّكز، قد يتوجّب التّمييز إذا بين ضربين من الأقسوميّة، الأولى «بدائيّة» وليّنة، الأخرى «حديثة» وصلّبة. وهذا التّمييز قد يأتي ليتقاطع مع كلّ واحد من الأشكال السّابقة:

(١) التّقابلات الثنائيّة (رجال- نساء، الذين هم في الأعلى- الذين

(١) يحلّل جورج بالوندييه (Georges Balandier) الطّرق التي يحدّد بها الإثنولوجيين وعلماء الاجتماع هذا التّعارض: الأنثروبولوجيا السّياسيّة، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ١٦١-١٦٩.

هم في الأسفل، إلخ.) قوّة جدّا في المجتمعات البدائيّة، لكن يبدو بوضوح أنّها ناتجة عن مكّنات وعن تنضيد ليسا ثنائيّين كلّ من جانبه. تحشد الثنائيّة الاجتماعيّة رجال- نساء، في جماعة معيّنة، قواعد يتّخذ وفقها كلّ واحد من الرّجال والنّساء قرينه داخل جماعات هي ذاتها مختلفة (من هنا ثلاث جماعات على الأقلّ). إنّ بهذا المعنى أمكن لليفي- شتراوس أن يبيّن كيف أنّ التّنظيم الثنائيّ لا قيمة له في حدّ ذاته على الإطلاق في مثل هذا المجتمع. على النقيض من ذلك، خاصّة المجتمعات الحديثة، أو بالأحرى التي لها دولة، هي تُمثّل مكّنات ثنائيّة تشغل بما هي كذلك، عاملة في نفس الآن بواسطة علاقات مزدوجة، وتعاقبيّا بواسطة اختيارات ثنائيّة. الطبقات، الأجناس تكون ثنائيّة، وظاهرات التّثليث تتولّد عن نقلة ثنائيّة بدلا من العكس. لقد رأينا ذلك خاصّة بالنّسبة إلى مكنة الوجه، التي تختلف بهذا الصّد عن المكّنات ذات الرّؤوس البدائيّة. يبدو أنّ المجتمعات الحديثة كانت رفعت الأقسوميّة الثنائيّة إلى مستوى تنظيم له كفايته. لا تتعلّق المسألة إذا بمعرفة ما إذا كانت النّساء، أو من هم في الأسفل، لهم منزلة أفضل أو أسوأ، وإنّما بنمط التّنظيم الذي تنتج عنه هذه المنزلة.

(٢) يمكن أن نلاحظ بنفس الكيفيّة أنّ الأقسوميّة الدائريّة لا تستتبع بالضرورة عند البدائيّين أن تكون الدّوائر متراكزة أو أن يكون لها نفس المركز. في نظام لّين، تعمل المراكز بالفعل وكأنّها الكثير من العقّد، من العيون أو من الثّقوب السّواء؛ لكنّها لا تتصادي مع بعضها كلّها، لا تسقط على نفس النّقطة، لا تتبارى في نفس الثقب الأسود المركزيّ. ثمّة كثرة من العيون الإحيائيّة التي تجعل كلّ واحدة منها مثلا تتأثّر بروح حيوانيّ خاصّ (الرّوح- الثّعبان، الرّوح- نقار الخشب، الرّوح- التّمساح...). كلّ ثقب أسود تحتله عين حيوانيّة مختلفة. نرى دون شكّ هنا وهناك ارتسام عمليّات تصلّب ومركزة: يجب أن تمرّ كلّ المراكز بدائرة واحدة لم يعد لها هي بدورها غير مركز واحد. يرسم

السّاحر خطوطاً بين كلّ التّقاط أو الأرواح، يرسم كوكبة، مجموعة مشعّة من الجذور التي تحيل إلى شجرة مركزيّة. ولادة سلطة مُمرّكة حيث يأتي نظام شجرانيّ لفرض الانضباط على طفرات [٢٥٧] الجذمور البدائيّ^(١)؟ وتلعب الشّجرة هنا في نفس الوقت دور مبدأ قسمة أو ثنائيّة، ودور محور دوران... لكنّ سلطة السّاحر ما تزال مُمرّكة، وثيقة التّبعيّة لأقسومة خاصّة، مشروطة بالمخدرات، وكلّ نقطة تُواصل إرسال متوالياتها المستقلّة. لن نقول نفس الشيء عن المجتمعات الحديثة أو حتى عن الدّول. الّاكد أنّ المُمرّكز لا يتعارض مع الأقسوميّ، وتظلّ الدّوائر متمايضة. لكنّها تصبح متراكزة ومُشجّرة بشكل نهائيّ. تصبح الأقسومية صلبة، من حيث أنّ كلّ المراكز تُصدي، كلّ الثّقوب السّوداء تسقط في نقطة ترائم، مثل نقطة تقاطع في موضع ما وراء كلّ الأعين. وجه الأب، وجه المُعلّم، وجه العقيد، وجه ربّ العمل، تشرع كلّ هذه الوجوه في التّرداد، تحيل على مركز تَمعّنٍ يجوب مختلف الدّوائر ويجتاز كلّ الأقسومات. تقع الاستعاضة عن الرّؤوس - الصّغرى اللّيّة، عن الوجّهات الحيوانيّة بوجه كبير مركزه في كلّ مكان ومحيطه في لا مكان. لم يعد لنا عدد لا نهائيّ من الأعين في السّماء، أو في التّصيّرات نباتات وحيوانات، إنّما لنا عين مركزيّة ناظمة تكنس كلّ الأشعّة. الدّولة المركزيّة لم تتكوّن بهدم أقسوميّة دائريّة، إنّما بتراكزيّة دوائر مختلفة أو بتصادي المراكز. ثمّة بالفعل الكثير من مراكز السّلطة في المجتمعات البدائيّة؛ أو إن شئنا، ما يزال ثمّة الكثير منها في المجتمعات التي لها دولة. لكنّ هذه الأخيرة

(١) حول تلقين السّاحر ودور الشّجرة عند هنود اليانومامي (Yanomami)، راجع جاك ليزو، صص ١٢٧ - ١٣٥: «نحفر بين ساقيه على عَجَل ثقباً ندخل فيه ساق السارية التي نغرسها هناك. يرسم تورايوي (Turaewë) على الأرض خطوطاً خياليّة تشعّ على كلّ ما حولها. يقول: إنّها الجذور.»

تتصرّف بوصفها أجهزة إصداء، إنّها تنظّم الإصداء، بينما الأولى تكبّحه^(١).

(٣) أخيراً، من زاوية نظر أقسوميّة خطيّة، قد نقول إنّ كلّ أقسومة تجد ذاتها مؤكّدة، مصوّبة، متجانسة في ذاتها وبالنسبة إلى الأقسومات الأخرى. ليس لكلّ أقسومة وحدة قياسها وحسب، بل ثمة تكافؤ وقابلية ترجمة بين الوحدات. ذلك أنّ مُضايِف العين المركزيّة هو الفضاء الذي تتنقّل فيه، وتظلّ هي ذاتها ثابتة بالنسبة إلى [٢٥٨] تنقّلاتها. منذ المدينة الإغريقية وإصلاح كليستان (Clisthène)، ظهر فضاء سياسيّ متجانس ومُنظر لذاته يقنّن تضافريّاً أقسومات الأنساب، في نفس الوقت الذي تبدأ فيه المساكن المتميزة في التّصادي داخل مركز يعمل بوصفه قاسماً مشتركاً^(٢). وأبعد من المدينة الإغريقيّة، يبيّن بول فريليو كيف أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة تفرض منطق دولة خطّيّ أو هندسيّ يتضمّن رسماً عامّاً للمحتشدات وللأماكن المحصّنة، فنّ كلّيّ لل«تحديد بخطوط»، تهيئة الأقاليم، الاستعاضة بالفضاء عن المواضع والإقليميات، تحويل العالم إلى مدينة، باختصار، أقسومية متزايدة

(١) لا تتحدّد الدّولة إذاً بنوع من السّلطات العموميّة، إنّما بوصفها صندوق إصداء للسّلطات الخاصّة كما العموميّة. إنّ هذا المعنى يمكن لألتوسير القول: «التمييز بين العموميّ والخاصّ هو تمييز داخل القانون البورجوازي، وهو صالح في المجالات الثّانويّة حيث يمارس القانون البورجوازيّ سلطاته. مجال الدّولة يفلت منه لأنّه في ما أبعد من القانون. (...) إنّّه على التّقيض من ذلك شرط كلّ تمييز بين العموميّ والخاصّ» («الإيديولوجيا والأجهزة الإيديولوجيّة للدّولة»، الفكر، جوان/يونيو ١٩٧٠).

(٢) جان-بييار فرنان، الميثّة والفكر عند الأغارقة، منشورات ماسبرو، الجزء الأوّل، القسم الثّالث («وقد أصبح المسكن مشتركاً، وقد أقيم على الفضاء العموميّ وهو مفتوح على الأغورا، ولم يعد داخل المنازل الخاصّة (...)»، يعبر المسكن مذكاً على المركز من حيث هو قاسم مشترك بين كل البيوت المكوّنة للمدينة»، ص ٢١٠).

الصَّلابة^(١). ذلك أنَّ الأقسامات المؤكَّدة أو المقنَّنة تضافريًا، يبدو أنَّها فقدت هكذا قدرتها على التبرعم وعلاقتها الديناميَّة بالتقسيمات الكائنة بالفعل، التي هي بصدد التشكُّل والتحلُّل. إذا كان ثمة «هندسة» بدائيَّة (الهندسة الابتدائيَّة)، فإنَّها هندسة إجرائيَّة حيث يستحيل فصل الأشكال عن تأثيراتها، الخطوط عن صيرورتها، الأقسامات عن انقسامها: ثمة «استدارات» لكن ليس ثمة دائرة، ثمة «استقامات» لكن ليس ثمة خطَّ مستقيم، إلخ. على التقيُّض من ذلك، هندسة الدَّولة، أو بالأحرى ارتباط الدَّولة بالهندسة، سيبرز في أوَّلِيَّة العنصر- المُبرهنة الذي يستعِض بالماهيات المثاليَّة أو الثابتة عن التشكُّلات المورفولوجية اللَّيِّنة، بالخصائص عن الأفعالات، بالأقسامات المحدَّدة سلفًا عن التَّقسيمات الموجودة بالفعل. الهندسة والأرثماتيكا تتخذان قوَّة مُشرط. المِلَكِيَّة الخاصَّة تستتبع فضاء مقنَّنًا تضافريًا ومؤطرًا بالسَّجلِّ العقاريِّ. ليس لكلِّ خطِّ أقسوميَّة وحسب، إنَّما أقسوميَّات خطَّ تتطابق وأقسوميَّات خطَّ آخر: على سبيل المثال، نظام الأجرة سيوائم بين أقسومات ماليَّة، أقسومات إنتاج وأقسومات سلع استهلاكيَّة.

بإمكاننا تلخيص الفروق الأساسيّة بين الأقسوميَّة الصَّلبة والأقسوميَّة اللَّيِّنة. في ظلِّ الصيغة الصَّلبة، تجد الأقسوميَّة الثَّانيَّة قيمتها في ذاتها وتتوقَّف على المكنات الكبرى للتَّثنية المباشرة، بينما في ظلِّ الصيغة الأخرى، تنتج الثَّانيَّات عن «كثرات» ذات أبعاد لا نهائيَّة. في المقام الثَّاني [٢٥٩]، تسعى الأقسوميَّة الدَّائرية إلى أن تصبح متراكزة،

(١) فريليو، انعدام أمن الإقليم، منشورا ستوك، ص ١٢٠، صص ١٧٤-١٧٥. حول «تعيين المواقع المحصَّنة»: «الهندسة هي القاعدة الضَّروريَّة لتوسُّع محسوب لسلطة الدَّولة في المكان والزَّمان؛ بالتالي، عكسيًا تمتلك الدَّولة في ذاتها صورة كافية، مثاليَّة شرط أن تكون صورة هندسية بشكل مثاليِّ. (...) لكن فنلون، بمعارضته لسياسة دولة لويس الرابع عشر، يصرخ: تحدَّوا شعوذات الهندسة ونعوته الشيطانيَّة!»

أي أنها تجمع كل بؤرها في مركز واحد لا يفتأ يتنقل، لكنّه يظلّ ثابتاً في تنقلاته، مُحِيلاً على مكنة إصداء. في الأخير، تمرّ الأقسامية الخطيّة بمكنة تقنين تضافريّ تُشكّل الفضاء المتجانس بكيفيّة هندسيّة، وتسحب أقسومات محدّدة في جوهرها وشكلها وعلاقاتها. سنلاحظ أنّه في كلّ مرّة تعبّر الشجرة عن هذه الأقسامية المتصلّبة. الشجرة عقدة تشجّر أو مبدأ انقسام ثنائيّ؛ إنّها محور دوران يكفل التّراكم، إنّها بنية أو شبكة تحيط بالممكن. لكن، عندما نعارض على هذا النّحو بين أقسومية مُشجّنة وأقسومية جذموريّة، فليس ذلك من أجل الإشارة إلى حالتين لنفس السيّورة وحسب، إنّما أيضاً من أجل إبراز سيّورتين مختلفتين. ذلك أنّ المجتمعات البدائيّة تعمل أساسيّاً بواسطة التّقنيات والإقليميات. حتّى أنّه نفس التّمييز بين هذين العنصرين، بين النّظام القبليّ للأقاليم والنّظام العشائريّ للأنساب هو الذي يمنع الإصداء^(١). بينما المجتمعات الحديثة أو التي لها دولة، قد عوّضت التّقنيات الضّعيفة بتقنين تضافريّ أحاديّ، والإقليميات الضّائعة بإعادة أرضنة مخصّصة (تتمّ تحديداً في فضاء هندسيّ مقنّن تضافريّاً). تظهر الأقسامية دائماً بوصفها نتيجة لمكنة مجرّدة؛ لكنّها ليست نفس المكنة المجرّدة هي التي تعمل في الصّلب وفي اللّين.

(١) يحلّل ميار فورتاس الفرّق عند الطّلنسيين بين «حرّاس الأرض» وبين الرّعاء. هذا التّمييز بين السّلطات هو تمييز عامّ جدّاً في المجتمعات البدائيّة؛ لكنّ المهمّ هو أن يكون منظماً تحديداً بشكل يمنع تصادمي السّلطات. على سبيل المثال، وفق تحليل بارث (Berthe) بخصوص بادوج جافا (Baduj de Java)، من ناحية تُعتبّر سلطة حارس الأرض سلبية وأنثويّة، ومن ناحية ثانية تُسند للبيكر: ليست «تدخّلاً للرّقابة في النّظام السّياسي»، إنّما على التّقيّض من ذلك هي «اقتضاء نظام سياسيّ يقع التّعبير عنه في صيغة رقابة»، لمنع إقامة تصادم قد تُستمدّ منه المِلْكِيّة الخاصّة (راجع، لويس بارث، «الأبكار ومن يتلوهم، الزّواج والتراتب عند البادوج»، الإنسان، جويلية/يوليو ١٩٦٥).

لا تكفي المواجهة إذاً بين المُمركز والأُقسوميّ. لكن لا تكفي كذلك المواجهة بين أُقسوميّتين، الواحدة ليّنة وبدائيّة، الأُخرى حديثة ومتصلّبة. ذلك أنّ الاثنتين متمايزتان تماماً، لكنّهما متلازمتان، متشابكتان الواحدة مع الأُخرى، الواحدة في الأُخرى. للمجتمعات البدائيّة نُوّيات صلابة وتَشجّر تستبق الدّولة بقدر ما تتجنّبها. عكسيّاً، تُواصل مجتمعاتنا الحديثة السّباحة في سلسلة ليّنة من دونها قد لا تماسك الأُقسومات الصّلبة. لا يمكننا أن نجعل الأُقسوميّة الليّنة قاصرة على البدائيين. الأُقسوميّة الليّنة [٢٦٠] ليست حتى بقيّة بريّ ما يزال حيّاً فينا، إنّها وظيفة راهنة بالتّمام وملازمة للأُقسوميّة الأُخرى. كلّ مجتمع، لكن كذلك كلّ فرد، تخترقهما الأُقسوميّتان في نفس الوقت: الواحدة كتلويّة والأُخرى هبائيّة. إذا كانتا متمايزتين فلاُنهما لا تمتلكان نفس الحدود، نفس العلاقات، نفس الطّبيعة، نفس نمط الكثرة. لكن إذا كانتا متلازمتين فلاُنهما متماعيتان، تمرّ إحداهما في الأُخرى وفق أشكال مختلفة كما عند البدائيين أو عندنا نحن - لكن دائماً مع افتراضهما معاً. باختصار، كلّ شيء سياسيّ، لكنّ كلّ سياسة هي في نفس الوقت سياسة كبرى وسياسة مجهرية. لتكن مجموعات من نوع الإدراك أو الإحساس: تنظيمها الكتلويّ، أُقسوميّتها الصّلبة، لا تمنع عالماً بكامله من الادّراكات المجهرية اللاّ واعية، من الافعال اللاّ واعية، من الانقسامات الدّقيقة، التي لا تدرك نفس الأشياء أو لا تشعر بها، تتوزّع بشكل مغاير وتعمل بشكل مغاير. سياسة مجهرية للإدراك، للانفعال، للتّخاطب، إلخ. إذا نظرنا مليّاً في المجموعات الثنائيّة الكبرى مثل الأجناس أو الطّبقات، نلاحظ بوضوح أنّها تمرّ كذلك في تنضيدات هبائيّة ذات طبيعة مغايرة، وأنّه ثمة تبعيّة ثنائيّة متبادلة. إذ يحيل الجنسان على تركيبات هبائيّة متعدّدة لا تضع على المحكّ الرّجل في المرأة والمرأة في الرّجل وحسب، بل علاقة كلّ واحد في الآخر مع الحيوان، مع النّبات، إلخ. : ما لا يحصى من

الأجناس- الصّغرى. والطّبقات الاجتماعية تحيل هي ذاتها على «حشود» ليست لها نفس الحركة، نفس التّوزيع، نفس الأهداف ولا نفس طرق الصّراع. محاولات التّمييز بين الحشد والطّبة تنحو فعلياً نحو هذا الحدّ: وهو أنّ مصطلح الحشد هو مصطلح هبائيّ، يعمل بواسطة ضرب من التّقسيم الذي لا يمكن اختزاله في الأقساميّة الكتليّة للطّبة. غير أنّ الطّبقات منحوتة بوضوح في الحشود وهي تثبتّها. والحشود لا تفتأ تتدفّق وتنحدر من الطّبقات. لكن افتراضهما المتبادل لا يمنع الفرق في المنظور والطبيعة والمنزلة والوظيفة (مصطلح الحشد مفهومهما على هذا النّحو، له تقبّل مختلف تماماً عن ذاك الذي اقترحه كانتّي).

لا يكفي تعريف البيروقراطيّة بأقساميّة صلبة، مع الفصل بين المكاتب المتلازمة، رئيس مكتب على كلّ أقسومة، ومركّزة مُناظرة في طرف كلّ ممرّ أو في أعلى البرج. ذلك أنّه ثمة في نفس الوقت تقسيم بيروقراطيّ، ليونة وتواصل بين المكاتب، انحراف بيروقراطيّة، ابتكارية وإبداعية مستمرّتان تمارسان حتى ضدّ التّراتيب الإداريّة. إذا كان كافكا هو أكبر منظري البيروقراطيّة [٢٦١] فلأنّه يبيّن كيف أنّه في مستوى معيّن (لكن أيّ مستوى هو؟ ولا يمكن تحديد موضعه) تتوقّف الحواجز بين المكاتب عن أن تكون «حدوداً دقيقة»، تغوص في وسط هبائيّ يذيبها، في نفس الوقت الذي يجعل فيه هذا الوسط رئيس المكتب يتكاثر في أشكال- مجهرية يستحيل التّعرف عليها، يستحيل تحديد هويّتها، وهي التي لا يقلّ عدم تبيّنها عن عدم مركّزتها: نظام آخر يتواجد مع الفصل بين الأقسامات الصّلبة وكليّتها^(١). سنقول كذلك إنّ

(١) كافكا، القصر، خاصّة الفصل الرابع عشر (تصريحات بارنابي). مثل المكتبين- الكتليّ والهبائيّ- ليس له إذا تأويل فيزيائيّ واحد، مثل تأويل إدنغتون، إنّما له تأويل بيروقراطيّ بشكل أساسيّ.

الفاشية تستتبع نظاما هبائيا لا يختلط مع أقسومات كتلوية ولا مع مَرَكزتها. لا ريب أنَّ الفاشية قد ابتكرت مفهوم الدَّولة الكليانيَّة، لكن ليس ثمة سبب لتعريف الفاشية بمصطلح هي ذاتها التي تبتكره: ثمة دول كليانيَّة دون فاشيَّة، من النمط الستالينيِّ أو من نمط الديكتاتورية العسكرية. مفهوم الدَّولة الكليانيَّة لا ينطبق إلَّا على درجة سياسيَّة كبرى، على أقسوميَّة صلبة وعلى صيغة خاصَّة للكلينة والمَرَكزة. لكن الفاشية ملازمة للبؤر الهبائيَّة التي تتكاثر وتقفز من نقطة إلى أخرى تفاعليًا، قَبْل أن تتصادي جميعها مع بعضها في الدَّولة القوميَّة-الاشتراكية. فاشية ريفيَّة وفاشية مدينة أو حيِّ، فاشية شابَّة وفاشية متمرَّسة، فاشية يسار وفاشية يمين، فاشية الأزواج والأسرة والمدرسة أو المكتب: كلَّ فاشية تتحدَّد بثقب أسود مجهرِيٍّ قائم بذاته ويتواصل مع الثقوب الأخرى، قبل أن يُصديَّ في ثقب كبير أسود مركزيِّ معمَّم^(١). ثمة فاشية عندما تكون مكنة حرب قد تركّزت في كلَّ ثقب وفي كلَّ ركن. حتى عندما ستقع إقامة الدَّولة القوميَّة-الاشتراكيَّة فإنَّها ستكون في حاجة إلى استمرار هذه الفاشيَّات المجهرية التي تمنحها وسيلة تأثير لا يضاهي على «الحشود». دانيال غيران على حقِّ في قوله إذا كان هتلر استحوذ على السِّلطة عوضا عن هيئة الأركان الألمانيَّة فلأنَّه كانت بحوزته أوَّلا تنظيمات مجهرية كانت تمنحه «وسيلة لا تضاهي ولا تعوِّض للتفاد إلى كلِّ خلايا المجتمع»، أقسوميَّة ليَّنة

(١) تتمثَّل قوَّة كتاب فاي (Faye)، لغات كليانيَّة، منشورات هارمان، في كونه يبيِّن كثرة تلك البؤر، العمليَّة والسِّيميائيَّة، التي انطلاقا منها تتكوَّن النَّازية. لذلك يكون فاي في نفس الوقت هو أوَّل من قام بتحليل صارم لمفهوم الدَّولة الكليانيَّة (في أصلها الإيطاليِّ والألمانيِّ)، وهو كذلك أوَّل من رفض تعريف الفاشيَّة الإيطاليَّة والنَّازية الألمانيَّة بهذا المفهوم (الذي يعمل على صعيد آخر مغاير لل«مسار الكامن»). أوضح فاي موقفه من هذه النقاط، في نقد اللِّغة واقتصادها، منشورات غاليليه.

وهبائية، اندفاعات قادرة على غمر كل [٢٦٢] نوع من الخلايا. عكسيًا، إذا كانت الرأسمالية انتهت إلى اعتبار التجربة الفاشية تجربة كارثية، إذا كانت فضلت التحالف مع الكليانية الستالينية الأكثر حكمة وقابلية للتعاطي معها وفق ما يروق للرأسمالية، فلأن الكليانية الستالينية كانت لها أقسومية ومركزة أكثر كلاسيكية وأقل تقلبًا. إنها قوة سياسية مجهرية أو هبائية تجعل الفاشية خطرة لأنها حركة حشدية: جسد سرطاني بدلا من عضوية كليانية. غالبا ما بينت السينما الأميركية هذه البؤر الهبائية، فاشية الجماعة، العصابة، الطائفة، الأسرة، القرية، الحي، السيارة، والتي لا تستثني أحدا. ليس ثمة غير الفاشية لتجيب على السؤال الشامل: لِمَ ترغب الرغبة بقمعها الخاص، كيف لها أن ترغب بقمع ذاتها؟ الآكد أن الحشود لا تخضع سلبيا للسلطة؛ إنها لا «تريد» كذلك أن تُقمع في ضرب من الهستيريا المازوخية؛ وهي زيادة على ذلك لا تُخدع بحيلة إيديولوجية. لكن الرغبة ليست مفصلة أبدا عن التنضيدات المعقدة التي تمرّ حتما بمستويات هبائية، بتشكيلات مجهرية هي التي تصنع بالفعل الوضعات، المواقف، الإدراكات، الاستباقات، السيميائيات، إلخ. الرغبة ليست أبدا طاقة نزوعية مبهمة، لكنها تنتج هي ذاتها عن تركيب مهين، عن هندسة ذات تفاعلات عالية: أقسومية ليّنة بكاملها تعالج طاقات هبائية وعند الاقتضاء تحدّد الرغبة في أن يكون المرء فاشيا بالفعل. ليست المنظمات اليسارية هي آخر من تفرز فاشياتها المجهرية. من اليسير جدًا أن يكون المرء ضد-فاشي على الصّعيد الكتلوي، دون أن نرى الفاشي الذي هو نحن ذواتنا، الفاشي الذي نرعا ونغذيه، الذي نُعزّه نحن ذواتنا، مع هبئات شخصية وجماعية.

سنتحاشى أربعة أخطاء متعلّقة بهذه الأقسومية الليّنة والكتلوية. الخطأ الأوّل أكسيولوجي وقد يتمثّل في الاعتقاد بكفاية القليل من الليونة لنكون «أفضل». لكنّ الفاشية أكثر خطورة سيما بفاشياتها

المجهرية، وبالانقسامات الدقيقة التي لا تقلّ ضرراً عن الأقسامات الأكثر تصلّباً. الخطأ الثاني سيكولوجي، كما لو أنّ الهبائي كان من مجال المخيلة، وكان يحيل فقط على الفردي أو على البيفريدي. لكن ليس ثمة واقع - اجتماعي على خطّ أقلّ منه على الخطّ الآخر. في المقام الثالث، الصورتان لا تتمايزان فقط بالأبعاد، مثل صورة صغيرة وصورة كبيرة؛ وإذا كان صحيحاً أنّ الهبائي يعمل في التفصيل ويمرّ بمجموعات صغرى، فإنّه ليس أقلّ امتداداً إلى الحقل الاجتماعي كلّه، مثله مثل التنظيم الكتلوي. أخيراً، الفرق الكيفي بين الخطّين لا يمنع إنعاش أحدهما للآخر أو تقاطع أحدهما مع الآخر بحيث أنّه ثمة دائماً [٢٦٣] علاقة تناسبية بينهما، إمّا تناسيبية مباشرة وإمّا تناسيبية عكسية.

بالفعل، في حالة أولى، بقدر ما يكون التنظيم الكتلوي قوياً بقدر ما يثير هو ذاته هيئته عناصره، علاقاته وأجهزته البسيطة. عندما تصبح الممكنة عالمية أو كونية، يتزايد ميل التضيّقات إلى تصغير ذاتها وإلى أن تصبح تضيّقات مجهرية. وفق عبارة غورز (Gorz)، لم يعد للرأسمالية العالمية من عنصر عمل غير الفرد الهبائي أو المُهَبَّان، أي فرد «الحشد». إدارة أمن كتلوي كبير منظّمة، مُضايِفُها هو إدارة مجهرية بكاملها للمخاوف الصغرى، للكثير من عدم الأمان الهبائي الدائم، إلى حدّ أنّ عبارة وزارات الداخلية قد تكون: سياسة كبرى للمجتمع لأجل وبواسطة سياسة مجهرية لعدم الأمان^(١). غير أنّ الحالة الثانية هي أكثر أهميّة، من حيث أنّ الحركات الهبائية لم تعد تأتي لإكمال التنظيم العالمي الكبير، بل لمعارضته واختراقه. ذلك هو ما كان قاله الرئيس جيسكار دستان في درسه حول الجغرافيا السياسية والعسكرية: بقدر ما

(١) حول هذا التكامل بين «السياسة الكبرى للأمن - السياسة المجهرية للرعب»، راجع فريليو، المرجع المذكور آنفاً، ص ٩٦، ١٣٠، ٢٢٨ - ٢٣٥. لقد لاحظنا في غالب الأحيان، في المدن الكبرى الحديثة، هذا التنظيم المجهري لـ«ضغط نفسي» دائم.

يكون ثمة توازن بين الغرب والشرق، في مكنة ثنائية مشتتة التقنين والتسلح، بقدر ما «يتزعزع» الأمر على الخط الآخر، من الشمال إلى الجنوب. ثمة دائما فلسطيني، لكن كذلك باسكي، كورسيكي، لـ«زعزعة محلية للأمن»^(١). بحيث أنّ المجموعتين الكتلويتين الكبيرتين في الشرق وفي الغرب يعركهما باستمرار انقسام هبائي، مع تصدع متعرج يعسر عليهما الاحتفاظ بأقساماتهما الخاصة. وكأنّ خط إفلات، حتّى وإن يبدأ بجدول صغير، كان يسيل دائما بين الأقسامات وكان يفلت من مركزتها وكان يهرب من كليّتها. الحركات العميقة التي تهزّ مجتمعا تمثّل على هذا النحو حتّى وإن وقع «تقديمها» حتما بوصفها تجاوب أقسومات كتلويّة. نقول خطأ (خاصّة في الماركسيّة) إنّ مجتمعا يتحدّد بتناقضاته. لكن ذلك ليس صحيحا إلّا على صعيد واسع. من زاوية السياسة المجهريّة، يتحدّد المجتمع بخطوط إفلاته التي هي دائما خطوط هبائيّة. دائما يسيل شيء ما أو يفلت، يهرب من التنظيمات الثنائيّة، من جهاز الإصغاء، للشباب، للنساء، للمجانين، إلخ. كان لـ«تطوّر [٢٦٤] الأعراف»، للشباب، للنساء، للمجانين، إلخ. كان ماي/مايو ٦٨ في فرنسا هبائيا، لا سيما وأنّ شروطه تدقّ عن الإدراك من زاوية نظر السياسة الكبرى. يحدث حينئذ أن يدرك أناس عنيدون جدّا أو مستون جدّا الحدث بشكل أفضل من أكثر السياسيين تقدّما، أو الذين يعتقدون أنّهم كذلك من زاوية التنظيم. مثلما يقول غابريال تارد، قد يتوجّب أن نعرف أيّ المزارعين وفي أية جهة من جهات وسط فرنسا، هم الذين بدأوا بعدم إلقاء التحيّة على الملاك في الجوار. مالك مسنّ جدّا قد عفا عليه الزّمن يمكنه أن يقيّم الأشياء بهذا الصّد

(١) انظر، جيسكار دستان، خطاب الأوّل من جوان/يونيو ١٩٧٦ في معهد الدّراسات العليا للدّفاع الوطني (النّص الكامل في جريدة العالم بتاريخ ٤ جوان/يونيو ١٩٧٦).

بشكل أفضل من حداثويّ. ماي/مايو ٦٨ هو نفس الشيء: كلّ الذين كانوا حكموا عليه في صيغة سياسة كبرى لم يفهموا شيئاً للحدث، لأنّ شيئاً ما غير قابل للتعيين كان يفلت. رجال السياسة، الأحزاب، النقابات، الكثير من اليساريين تعاطوا معه باستياء كبير؛ كانوا لا يفنّون يذكّرون بأنّ «الشروط» لم تكن متوقّرة. وكأنّه وقع إبعادهم مؤقّتا عن كلّ مكنة ثنائية كانت جعلت منهم محاورين أكفاء. بشكل غريب، دي غول وحتى بومبيدو فهما بشكل أفضل بكثير من الآخرين. دفع هبائيّ كان يفلت، دقيقا في بادئ الأمر، ثم يكبر دون أن يتوقّف عن كونه غير قابل للتعيين... مع ذلك، العكس صحيح أيضا: الإفلاتات والحركات الهبائية قد لا تمثّل شيئاً ما لم تكن مرّت بالتنظيمات الكتلويّة وما لم تكن بدلت أقسوماتها والتوزيعات الثنائية لأجناسها وطبقاتها وأحزابها.

المسألة إذا هي أنّ الكتلويّ والهبائيّ لا يتمايزان فقط بالمقاس والدرجة أو الحجم، إنّما بطبيعة النظام المرجعيّ المرسوم. لعلّه يجب تخصيص كلمات «الخطّ» و«الأقسومة» حينئذٍ للتنظيم الكتلويّ، والبحث عن كلمات أخرى قد تكون أكثر تلاؤما مع التكوين الهبائيّ. فعليّا، في كلّ مرّة نتمكّن فيها من تعيين خطّ ذي أقسومات محدّدة بوضوح، نبيّن أنّه يمتدّ في شكل آخر، في دفع كوانتيّ. وفي كلّ مرّة نتمكّن من تعيين موضع «مركز سلطة» بوصفه كائنا على الحدّ بين الاثنين، ولا نعرّفه بممارسته المطلقة في مجال معيّن، إنّما بالتكيفات والتبدّلات النسبية التي يُجريها بين الخطّ والدّفق. لنفترض خطّا نقديّا مع أقسومات. هذه الأقسومات يمكن تحديدها بزوايا نظر مختلفة: على سبيل المثال، من زاوية ميزانية مؤسّسة: الأجور الحقيقيّة، الأرباح الصّافية، أجور التسيير، فائدة رؤوس الأموال، المدخّرات، الاستثمارات... إلخ. لكنّ خطّ النّقد- الدّفق هذا يحيل على مظهر آخر مختلف تماما، أي على دفع نقد- تمويل لم يعد يتضمّن أقسومات، إنّما يتضمّن أقطابا، فرادات وكمّات (أقطاب الدّفق هي خلق العملة وإتلافها، الفرادات هي

جاهزيّات التّسميات، الكمّات هي التّضخّم، الانكماش، الرّكود، إلخ). تمكّنّا من الحديث بهذا الخصوص [٢٦٥] عن «دفع متحوّل، تشنّجيّ، إبداعيّ ومتنقّل»، مرتبط بالرّغبة، كائن دائماً تحت الخطّ الصّلب وتحت الأقسامات التي تحدّد فيه الفائدة، تحدّد العرض والطلب^(١). نجد في ميزان الدّفع أقسوميّة ثنائيّة تميّز مثلاً بين المعاملات المسمّاة مستقلّة والمعاملات التعويضيّة؛ لكن بشكل محدّد، حركات رؤوس الأموال لا تخضع للتّقسيم على هذا النّحو، لأنّها «اندفاعات مفكّكة تبعاً لطبيعتها، لمدّتها، لشخصيّة الدّائن أو المدين»، بحيث أنّنا «لم نعد نعرف إطلاقاً أين نضع الخطّ» بالنّسبة إلى هذا الاندفاق^(٢). التّضايّف الدائم بين المظهرين ليس أقلّ وجوداً بما أنّه بالخطيّة وبالاتقسام يُستنفد الاندفاق، ومنهما كذلك ينطلق إبداع جديد. عندما نتحدّث عن نفوذ بنكيّ مُمرّكز خاصّة في البنوك المركزيّة، فإنّ الأمر يتعلّق بهذا التّفوذ التّسبيّ الذي يتمثّل في أن ننظّم «قُدْر» الإمكان، التّواصل والتّبدّل والتّكيّف المشترك لجزئيّ المسار. لذلك تتحدّد مراكز السّلطة بما يفلت منها أو بعجزها أكثر من تحديدها بمنطقة قدرتها. باختصار، الهباتيّ، الاقتصاد المجهريّ، السّلطة المجهرية لا تتحدّد من ناحيتها بصغر عناصرها، إنّما بطبيعة «حشدها»- إنّها الاندفاق الكوانتيّ في اختلافه عن الخطّ الكتليّ ذي الأقسامات^(٣). مهمّة الملاءمة بين

(١) حول «دفع السّلطة المتحوّلة» والتّمييز بين العملتين، راجع برنار شमित، العملة، الأجور والأرباح، منشورات كاستلا، ص ٢٣٦، ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) ميشال لولار (Michel Lelart)، الدّولار عملة عالميّة، منشورات الباتروس، ص ٥٧.

(٣) ليكن تحليل فوكو، وما يسمّيه «ميكروفيزياء السّلطة» في المراقبة والمعاقبة: في المقام الأوّل، يتعلّق الأمر فعلاً بالكيات مصغّرة، ببؤر هباتيّة تمارس تفصيليّاً أو في اللامتناهي في الصّغر، والتي تكون الكثير من «أشكال الانضباط» في المدرسة، في الجيش، في العمل، في السّجن، إلخ (راجع ص ١٤٠ وما يليها). لكن في المقام الثّاني، هذه الأقسامات ذاتها، والبؤر التي تعركها على

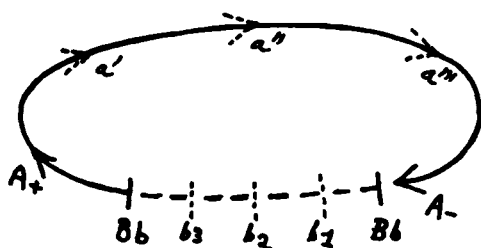
الأقسامات والكمّات أو ضبط الأقسامات وفقا للكمّات، تستتبع تغييرات في الإيقاع وفي الصيغة تتم بصعوبة عوضا عن تضمّنها لسلطة مطلقة، ودائما يفلت شيء ما.

بإمكاننا الاستشهاد بأمثلة أخرى. هكذا عندما نتحدّث عن سلطة الكنيسة، هذه السّلمة كانت دائما في علاقة بإدارة معيّنة للخطيئة، إدارةً تتضمّن أقسوميّة مفرطة، تتضمّن أنواع الخطيئة (سبع خطايا رئيسيّة)، وحدات قياس (كم من مرّة؟)، قواعد تكافؤ وتكفير (اعتراف وتوبة... إلخ). [٢٦٦] لكنّه مختلف جدّا مع أنّه مكمل هو ما يمكن تسميته الاندفاق الهبائيّ لقابليّة الإثم: هذا الأخير يحصر المنطقة الخطيّة وكأنّه يأتي عبرها بعمل منكر، لكنه لا يتضمّن في ما يخصّه غير أقطاب (الخطيئة الأصليّة - الخلاص أو النعمة)، وكمّات («خطيئة أن لا يبلغ الوعي بالخطيئة»، خطيئة الوعي بالخطيئة، خطيئة أثر الوعي بالخطيئة^(١)). قد يكون بإمكاننا قول نفس الشيء عن اندفاق الإجرام، في اختلاف عن الخطّ الكتلويّ لتقنين قضائيّ ولتقسيماته. أو كذلك عندما نتحدّث عن سلطة عسكريّة، عن سلطة الجيش، نلاحظ جيّدا خطّا قابلا للانقسام وفق أنماط حرب تتطابق تحديدا مع الدّول التي تقوم بالحرب ومع الأهداف السياسيّة التي تطرحها هذه الدّول على نفسها (من الحرب «المحدودة» إلى الحرب «الشّاملة»). لكن، وفق حدّس كلاوزفيتز (Clausewitz)، مختلفة جدّا هي مكنة الحرب، أي اندفاق حرب مطلقة، يتدفّق من قطب هجوميّ إلى قطب دفاعيّ، ولا تسمه غير

المستوى الميكروفيزيائيّ، تمثّل بوصفها فرادات «مبيان» مجرّد، متمادّ لكامل الحقل الاجتماعيّ، أو بوصفها كمّات مقتطّعة من أيّ اندفاق كان، - الاندفاق أيّا كان معرّف بـ «كثرة من الأفراد» الذين تجب مراقبتهم (راجع ص ٢٠٧ وما بعدها).

(١) حول قابلية الإثم الكميّ، الكمّات والقفزة الكيفيّة، يمكن الرّجوع إلى ثيولوجيا مجهرية بكاملها كوّنها كياركيغارد في مفهوم الضيق.

كَمّات (قوى مادّية ونفسية هي بمثابة جاهزيّات تسميات الحرب). اندفاق محض، يمكن القول إنه مجرد ومع ذلك واقعيّ؛ فكريّ ومع ذلك ناجع؛ مطلق ومع ذلك «مفروق». صحيح أننا لا ندرك الاندفاق وكَمّاته إلّا من خلال مؤشّرات الخطّ ذي الأقسامات؛ لكن عكسيّا لا يوجد الخطّ ولا توجد أقسوماته إلّا من خلال الاندفاق الذي يغمرهما. في كل الحالات، نرى أنّ الخطّ ذا الأقسامات (السياسة الكبرى) يغوص في اندفاق ذي كَمّات ويمتدّ فيه (سياسة مجهرية)، اندفاقا لا يفتأ يبدّل ويحرّك أقسومات الخطّ:



ألف كبرى: اندفاقات وأقطاب
ألف صغرى: كَمّات
ب صغرى: خطّ أقسومات
ب كبرى: مركز سلطة
(الكلّ دورة أو مرحلة)

تكريما لغابريال تارد (١٨٤٣-١٩٠٤): آثاره التي ظلّت منسية لفترة طويلة استعادت راهنيتها تحت تأثير علم الاجتماع الأميركيّ، وخاصّة تحت تأثير علم الاجتماع المصغّر. لقد تمّ سحق تارد [٢٦٧] تحت تأثير دوركهيم ومدرسته (في سجال من نفس النوع ولا يقلّ حدّة عن ذاك الذي كان لكوفييه ضدّ جوفروا سان-هيلار). ذلك أنّ دوركهيم كان وجد موضوعا مفضّلا في التّصوّرات الجماعية الكبرى، التي هي بشكل عامّ تصوّرات ثنائية، إصدائية، مقنّنة تضافريّا... يعترض تارد بالقول إنّ التّصوّرات الجماعية تفترض ما يجب تفسيره، أي «تشابه ملايين البشر». لذلك يهتمّ تارد بالأحرى بعالم التفاصيل أو بعالم المتناهي في الصّغر: صغرى المحاكاة، التّعارضات والابتكارات، التي تشكّل مادّة تحت-تصوريّة بكاملها. وأفضل

صفحات تارد هي تلك التي يحلّل فيها تجديدا بيروقراطيا، لسانيا بسيطا، إلخ. لقد أجاب الدوركهايميون بأنّ الأمر كان يتعلّق بالسيكولوجيا أو بالبيسيكولوجيا وليس بعلم الاجتماع. لكنّ ذلك ليس صحيحا إلّا ظاهريا، في تقدير أوّل: يبدو جليا أنّ محاكاة مصغّرة تذهب من فرد إلى آخر. في نفس الوقت وبأكثر عمقا هي تتعلّق باندفاق أو بموجة وليس بفرد. المحاكاة هي انتشار اندفاق؛ التعارض هو التّشنية، وضع الاندفاقات في ثنائيات؛ الابتكار هو تزاوج أو ترابط عدّة اندفاقات. وما هو الاندفاق حسب تارد؟ إنّه اعتقاد أو رغبة (مظهرًا كلّ تنضيد)، الاندفاق هو دائما اندفاق اعتقاد أو رغبة. الاعتقادات والرّغبات هي أساس كلّ مجتمع لأنّها بصفتها تلك اندفاقات «قابلة للتّكميم»، إنّها كمّيات اجتماعيّة حقيقيّة، بينما الإحساسات كميّة والتّصورات مجرد حصائل^(١). المحاكاة والتّعارض والابتكار المتناهية في الصّغر هي إذا بمثابة كمّات اندفاق تعيّن انتشارا وتثنية أو تزاوجا بين الاعتقادات والرّغبات. من هنا أهميّة الإحصاء، شرط أن يهتمّ بالأطراف وليس بالمنطقة «الثّابتة» للتّصورات فقط. ذلك أنّ الفرق في النّهاية ليس كائنا على الإطلاق بين الاجتماعيّ والفرديّ (أو البيفرديّ) إنّما بين المجال الكتلويّ للتّصورات، سواء كانت جماعيّة أو فرديّة، والمجال الهبائيّ للاعتقادات والرّغبات، حيث يفقد التّمييز بين الاجتماعيّ والفرديّ كلّ معنى، بما أنّ الاندفاقات ليست أكثر قابليّة للعزو للأفراد من قابليتها لتقنين تضافريّ بدوآل جماعيّة. بينما تُحدّد التّصورات بالفعل مجموعات كبرى أو أقسومات محدّدة على خطّ، الاعتقادات والرّغبات هي اندفاقات موسومة بكمّات تُصنع،

(١) وفق تارد (Tarde)، السيكولوجيا كميّة، لكن من حيث أنّها تدرس مكوّنات الرّغبة والاعتقاد في الإحساس. والمنطق كميّ عندما لا يتمسّك بأشكال التّصور بل يطال درجات الاعتقاد والرّغبة وتركيباتهما: راجع، المنطق الاجتماعيّ، منشورات ألكان، ١٨٩٣.

تُستنفد [٢٦٨] أو تتحوّل، وتنضاف، تنطرح أو تتألف. تارد هو مبتكر
سوسولوجيا مصغرة، أعطاهها كامل امتدادها ومداها مُبطلا بشكل مسبق
سوء الفهم التي سيجعل منها ضحية.

ها هي الكيفيّة التي قد نستطيع بها التّمييز بين الخطّ ذي
الأقسام والاندفاق ذي الكمّات. اندفاق متحوّل يستتبع دائما شيئا
مّا يسعى إلى الإفلات من التّقنيات، إلى التّخلّص من التّقنيات؛
والكمّات هي بالتحديد علامات أو درجات لا تآرُضن على الاندفاق
الذي انحلّ تقنيه. على التّقيض من ذلك، يستتبع الخطّ الصّلب تقنيّا
تضافريّا يعوّض التّقنيات المقصّرة، والأقسامات هي بمثابة إعادات
أرضنة على الخطّ المقنّن تضافريّا أو المقنّن تضافريّا. لنعد إلى حالة
الخطيّة الأصليّة: إنّها الفعل ذاته لاندفاق يعيّن استشفارا بالنسبة إلى
الحلق (مع مسكن وحيد مخصّص للعدراء)، ولا تآرُضن بالنسبة إلى
الأرض الآدميّة؛ لكنّه يُجري في نفس الوقت تقنيّا تضافريّا بواسطة
تنظيمات ثنائيّة وذات إصدار (سلطات، كنيسة، إمبراطوريّات، أغنياء-
فقراء، رجال-نساء... إلخ)، وإعادات لا أرضنة تكميليّة (على
أرض قابيل، على العمل، على الجيل، على المال...). لكن في
ذات الآن: المنظومتان المرجعيّتان متعاكستان، بهذا المعنى وهو أنّ
إحدهما تفلت من الأخرى، والأخرى توقف الأولى وتمنعها من زيادة
الإفلات؛ لكنهما متكاملتان ومتماعتان بشكل قطعيّ لأنّ إحدهما لا
توجد إلّا بمقتضى الأخرى؛ وهما مع ذلك مختلفتان طرّدا، لكن دون
أن تتناظرا بالتمام، لأنّ المنظومة الثّانية لا توقف المنظومة الأولى فعليّا
إلّا على «مسطّح» لم يعد هو مسطّح الأولى، وتواصل الأولى توتّبها
على مسطّحها الخاصّ.

حقل اجتماعيّ لا تفتأ تحرّكه كلّ ضروب حركات اللاّ تقنين
واللاّ تآرُضن التي تؤثر على «حشود» وفق سرعات ووتيرات مختلفة.
إنها ليست تناقضات، إنّها انفلاتات. كلّ شيء هو مسألة حشد في هذا

المستوى. على سبيل المثال، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر تقريبا، نلاحظ تسارع عوامل اللاتقنين وسرعات اللاتأرضن: حشود آخر الغزاة الذين يطلعون من الشمال، من الشرق ومن الجنوب؛ حشود عسكرية تصبح عصابات نهب؛ حشود كنسية في صراع مع الكفار والضالين، وتطرح على نفسها أهدافا يتزايد لا تأرضنها؛ حشود مزارعين يغادرون الأراضي الإقطاعية؛ حشود إقطاعية عليها هي ذاتها أن تجد وسائل استغلال أقل إقليمية من القناة؛ حشود حضرية تفصل عن المناطق الداخلية وتجد في المدن تجهيزات تتناقص إقليمية؛ حشود نسوية تفصل عن التقنين الانفعالي والزواجي القديم؛ حشود مالية [٢٦٩] تتوقف عن أن تكون موضوع ادخار لتحقيق في المسالك التجارية الكبرى^(١). يمكن أن نستشهد بالحروب الصليبية من حيث قيامها بعملية ربط بين هذه الاندفاعات، بحيث أن كل اندفاق يدفع ويسرع بقية الاندفاعات (حتى اندفاق النسوية في «الأميرة البعيدة»، حتى اندفاق الأطفال في الحملات الصليبية للقرن الثالث عشر). لكن في نفس الوقت وبالتلازم حدثت التقنيات التفاضلية وإعادة الأرضنة. الحروب الصليبية يحددها الكاهن تضافريا ويعين أهدافها الإقليمية. الأرض المقدسة، السلم الربانية، نمط جديد من الأديرة، أشكال جديدة من العملة، صيغ جديدة من استغلال المزارع بواسطة الإجارة الزراعية ونظام التأجير (أو العودات كذلك إلى الاسترقاق)، إعادة أرضنة المدينة، إلخ.، تشكل منظومة معقدة. من هذه الزاوية، علينا مذك أن ندخل فرقا بين مصطلحين، ترابط وتزواج الاندفاعات. ذلك أنه إذا كان «الترباط» يعين الكيفية التي بها تدفع اندفاعات مستشفرة ولا متأرضنة بعضها بعضا، تسرع إفلاتها المشترك، وتجمع أو تثير كماتها،

(١) حول كل هذه النقاط راجع بشكل خاص دوب (Dobb)، دراسات حول تطور الرأسمالية، منشورات ماسيرو؛ دوبي (Duby)، محاربون ومزارعون، غاليمار.

فإنَّ «تزاوج» نفس هذه الاندفاعات يشير بالأحرى إلى توقّفها التّسبيّي، بوصفه نقطة تراكم تسدّ أو تعطلّ الآن خطوط الإفلات، تُجري إعادة أرضنة عامّة، وتمرّر الاندفاعات تحت سيطرة أحد الخطوط القادر على تقنينها تضافريًا. لكن بشكل محدّد، الاندفاق الأكثر لا تَأَرْضُنَا، هو الذي يقوم في كلّ مرّة وفق المظهر الأوّل، بمراكمة السيّورات أو الرّبط بينها، يحدّد التقنين التّضافريّ ويعمل كقاعدة لإعادة الأرضنة، وفق المظهر الثّاني (اعترضتنا مبرهنة تقول إنّ إعادة الأرضنة تتمّ دائماً على الأكثر لا تَأَرْضُنَا). هكذا تُزاوج البورجوازية التّجاريّة للمدن بين معرفة، تكنولوجيا، تنضيدات ومسارات أو تُرسملها وستدخل تحت إمّرتها النّباله والكنيسة والحرفيّون والمزارعون ذواتهم. لأنّ البورجوازية التّجاريّة هي رأس اللّاتَأَرْضُنْ، هي المسرّع الحقيقيّ للجُسيمات، لأنّها تقوم كذلك بإعادة أرضنة الكلّ.

مهمّة المؤرّخ هي تعيين «مرحلة» تمّاعي أو تزامن الحركتين (استشفار- لا تَأَرْضُنْ من ناحية، ومن ناحية أخرى تقنين تضافريّ- إعادة أرضنة). وإنّه على هذه المرحلة نميّز بين المظهر الهبائيّ والمظهر الكتليّ: من ناحية، الحشود أو الاندفاعات، مع تحولاتها، كمّات لا تَأَرْضُنْها، ترابطاتها، تسارعاتها؛ من ناحية أخرى، الطبقات أو الأقسامات، مع تنظيمها الثّنائيّ، إصدائها، اقترانها أو تراكمها، خطّ [٢٧٠] تقنينها التّضافريّ لصالح إحداها^(١). الفرق بين تاريخ كبير

(١) روزا لوكسمبورغ (الأعمال الكاملة، الجزء الأوّل، منشورات ماسبيرو) هي التي طرحت مشكل الفروق والعلاقات بين الحشود والطّبقات، لكن من زاوية نظر ما تزال ذاتيّة: الحشود بوصفها «قاعدة غريزيّة للعوي الطّبقيّ» (راجع مقال بولت وموارو (Boulte et Moiroux) في «روزا لوكسمبورغ حيّة»، الأنصار، ١٩٦٩). باديو وبالماس (Badiou et Balmès) يقترحان فرضيّة أكثر موضوعيّة: الحشود قد تكون «ثوابت» تُعارض الصّورة- الدّولة بشكل عامّ، وتعارض الاستغلال، بينما الطّبقات قد تكون هي المتغيّرات التاريخيّة التي تحدّد الدّولة العينيّة، وفي حالة

وتاريخ مجهرى لا يتعلّق البتّة بطول الفترات المدروسة، بالكبير والصغير، إنّما بالمنظومات المرجعية المتميزة وفق النّظر في خطّ ذي أقسومات مقنّن تضافريّا أو في اندفاق متحوّل ذي كمّات. والمنظومة الصّلبة لا توقف المنظومة الأخرى: يتواصل الاندفاق تحت الخطّ متحوّلا باستمرار، بينما الخطّ يُكَلِّين. الحشد والطّبة ليس لهما نفس الحافة ولا نفس الدّيناميّة، مع أنّ نفس المجموعة تكون موسومة بالعلامتين. البورجوازية بوصفها حشدا وبوصفها طبقة... ليس للحشد نفس العلاقات مع الحشود الأخرى كالتّي للطّبة «المُناظرة» لها مع الطّبقات الأخرى. الأكّد أنّه ليس ثمة علاقات قوّة وعنف أقلّ من هذا الجانب أو ذاك. لكن بشكل محدّد، يتّخذ نفس الصّراع مظهرين مختلفين جدّا، حيث لا تكون الانتصارات والهزائم هي ذاتها. حركات الحشد تتسارع وتتناوب (أو تتلاشى لفترة طويلة، مع إغماءات مطوّلة)، لكنّها تقفز من طبقة إلى أخرى، تمرّ بطفرات، تفرز أو ترسل كمّات جديدة تغيّر العلاقات الطّبقية، تضع على المحكّ تقنينها التّضافريّ وإعادة أرضتها، تمرّر في موضع آخر خطوط إفلات جديدة. ثمة دائما خارطة حشود متغيّرة تحت إعادة إنتاج الطّبقات. تعمل السياسة وفق قرارات كبرى واختيارات ثنائية، وفق مصالح إثنيّة؛ لكن مجال القابل للحسم يظلّ ضئيلا. ويضرب القرار السّياسي حتما بجذوره في عالم التّحديدات المجهرية، عالم النّزوعات والرّغبات، الذي عليه أن يستشعره أو يقوّمه بكيفية أخرى. تقويم الاندفاقات وكمّاتها في ظلّ التّصوّرات الخطيّة والقرارات الأقسوميّة. صفحة غريبة لميشليه (Michelet) تؤاخذ فرانسوا الأوّل عن كونه أساء تقدير اندفاق الهجرة

البروليتاريا، إمكانية انحلال فعليّ (في الإيديولوجيا، منشورات ماسبيرو). لكن من ناحية لا نرى جيّدا لماذا لا تكون الحشود هي ذاتها متغيّرات تاريخيّة؛ ومن ناحية أخرى لماذا هي خاصّة بالمستغلّين («الحشد المزارع - العواميّ»)، بينما اللفظ يناسب أيضا الحشود الإقطاعيّة، البورجوازية - أو حتى الماليّة.

الذي كان يدفع نحو فرنسا الكثير من الناس المعارضين للكنيسة: فرانسوا الأول لم ير في ذلك غير إمداد بجنود ممكنين، عوض أن يحسّ فيه اندفاقا هباتيا لحشد [٢٧١] قد يكون بإمكان فرنسا استغلاله لصالحها، بتزعمها لإصلاح مختلف عن الإصلاح الحاصل^(١). تمثّل المشكلات دائما على هذا النحو. جيّدة أو سيّئة، السياسة وأحكامها هي دائما كتلويّة، لكنّ الهباتي مع تقويماته هو الذي «يصنعها».

إنّا أقدر على رسم خارطة. إذا أعدنا إعطاء معنى عامّ جدّا لكلمة «خطّ»، نرى أنه ليس ثمة خطّان وحسب بل بالفعل ثلاثة خطوط: (١) خطّ تقنيات وإقليميات متشابكة لّين نسبيا؛ لذلك كنّا انطلقنا من أقسوميّة مسّماة بدائيّة، حيث كانت أقسومات الأقاليم والأنساب تكوّن الفضاء الاجتماعيّ؛ (٢) خطّ صلب ينهج إلى التنظيم الثنائيّ للأقسومات، إلى تراكُز الدوائر المُتصادية، إلى التقنين التّضافريّ المعمّم: يستتبع الفضاء الاجتماعيّ هنا جهاز دولة. إنّها منظومة أخرى مغايرة للمنظومة البدائيّة، تحديدا لأنّ التقنين التّضافريّ ليس تقنيّا أكثر قوّة، إنّما هو إجراء مخصوص مختلف عن إجراء التقنيات (كذلك إعادة الأرضنة ليست إقليما إضافيا بل هي تتمّ في فضاء آخر غير فضاء الأقاليم، تحديدا في الفضاء الهندسيّ المقنّن تضافريّا)؛ (٣) خطّ أو خطوط إفلات موسومة بكّمات ومحدّدة بلا تقنين وبلا تآرُضن (ثمة دائما شيء ما مثل مكنة حرب تعمل على هذه الخطوط).

لكن ما يزال لهذا العرض عيبه المتمثّل في اعتباره المجتمعات البدائيّة وكأنّها كانت هي الأولى. في الحقيقة، التقنيات ملازمة دوما لحركة اللاّ تقنين، للأقاليم ولموجّهات الّلاتآرُضن التي تخترقها. والتّقنين التّضافريّ وإعادة الأرضنة لا يأتیان بعد ذلك بكثير. إنّ الأمر

(١) ميشليه، تاريخ فرنسا، التّهضة.

يشبه بالأحرى فضاء تتماعى فيه أنواع الخطوط الثلاثة وثيقة التشابك، القبائل والإمبراطوريات ومكنات الحرب. قد يكون بإمكاننا القول أيضا إن خطوط الإفلات هي الأولى، أو الأقسامات المتصلبة بالفعل، وإن التقسيمات اللينة لا تفتأ تتأرجح بينهما. لتكن عبارة مثل عبارة المؤرخ بيران (Pirenne)، بخصوص القبائل الهمجية: «هجوم الهمجيين على الإمبراطورية لم يكن تلقائيا؛ لقد كانوا مدفوعين في ذلك بالزحف الهوني الذي كان عليه أن يحدّد اللاحق من الغزوات...»^(١) ها هي من جهة الأقسامية الصلبة للإمبراطورية الرومانية، مع مركز إصدارها ومحيطه، مع دولتها، مع سلمها الرومانية، هندستها، معسكراتها، حصونها. ثم في الأفق، خط آخر مختلف تماما، هو خط المترحلين الذين يخرجون من السباسب، يباشرون [٢٧٢] إفلاتا نشطا وسلسا، يحملون اللاتأرضن إلى كلّ مكان، يطلقون اندفاقات تنهيا كمّاتها التي تسحبها مكنة حرب دون دولة. الهمجيون المهاجرون كائنون بين الاثنين: إنهم يذهبون ويجيئون، يجتازون الحدود في الاتجاهين، ينهبون أو يفتدون، لكنهم يندمجون كذلك أو يعيدون تأرضنهم. تارة يتوغّلون في الإمبراطورية، ينسبون منها لأنفسهم أقسومة معينة، يكونون مرتزقة أو متّحدين معها، يستقروّن، يمتلكون أراض أو يقطّعون هم ذواتهم دولا (حكماء القوط الغربيين). تارة على النقيض من ذلك، ينتقلون جهة المترحلين ويتحدون معهم، يصبحون غير متمايزين عنهم (القوط الشرقيون المتألقون). ولعلّ الونداليين الذين هم «قوطيون من درجة ثانية»، من فرط انهزامهم من طرف الهونيين والقوطيين الغربيين، يرسمون خط إفلات يجعلهم لا يقلّون قوّة عن أسيادهم؛ إنّها العصابة أو الحشد الوحيد الذي اجتاز البحر الأبيض المتوسط. لكن كذلك هم الذين قاموا بإعادة الأرضنة الأكثر مباحّة، إقامة إمبراطورية

(١) بيران، محمّد وشارلمانيو، المطابع الجامعية الفرنسية، ص ٧.

إفريقيا^(١). يبدو إذاً أنّ الخطوط الثلاثة لا تتواجد معا وحسب، لكنها تتغير، ويمرّ كل واحد منها في الخطّين الآخرين. ومرة أخرى سقنا مثالا إجمالياً حيث الخطوط جسّمتها جماعات مختلفة. ناهيك عندما تكون في نفس الجماعة، في نفس الفرد.

قد يكون من الأفضل حينئذ النظر في حالات متزامنة للممكنة المجرّدة. من ناحية، ثمة مكنة مجرّدة للتقنين التّضافريّ: هي التي تحدّد أقسوميّة صلبة، أقسوميّة كبرى، لأنها تنتج أو بالأحرى تعيد إنتاج الأقسومات بجعلها تتواجه اثنتيّ اثنتين، بجعلها كلّ المراكز تتصادى، وبتوسيعها لفضاء متجانس، قابل للقسمّة، محدّد في كلّ الاتّجاهات. تحليل مثل هذه الممكنة المجرّدة على جهاز الدّولة. ومع ذلك نحن لا نخلط بين هذه الممكنة المجرّدة وجهاز الدّولة ذاته. سنحدّد مثلاً الممكنة المجرّدة بطريقة هندسيّة، أو في ظروف أخرى بـ«نظام تبديهيّ»؛ لكنّ جهاز الدّولة لا هو الهندسة ولا هو النّظام التّبديهيّ: إنّه تنضيد إعادة الأرضنة الذي يحقّق مكنة التقنين التّضافريّ في حدود معيّنة وفي ظروف معيّنة وحسب. يمكن القول فقط إنّ جهاز الدّولة يسعى تقريبا إلى التّطابق مع هذه الممكنة المجرّدة التي يحقّقها. هنا يأخذ مصطلح الدّولة الكليانيّة معناه: تصبح دولة ما كليانيّة عندما تستعيز عن تحقيق الممكنة العالميّة للتقنين التّضافريّ داخل حدودها هي، بالتّطابق معها بواسطة خلق شروط «استكفاء»، تنفيذ إعادة أرضنة بـ«الانعزال»، في [٢٧٣] خدعة الخلاء (التي ليست أبداً عمليّة إيديولوجيّة، إنّما هي عمليّة اقتصادية وسياسيّة^(٢)).

(١) راجع، أميل فليكس غوتيه (Emile-Félix Gautier)، جنزريك، ملك الواندال، منشورات بايو («تحيّداً لأنهم كانوا الأضعف، كانوا مدفوعين دائماً من الخلف، لقد أُجبروا على الذهاب بعيداً»).

(٢) ما يعرف الكليانيّة ليست هي أهميّة قطاع عموميّ، بما أنّ الاقتصاد يبقى ليبرالياً في الكثير من الحالات. إنّ التّكوين الاصطناعي للـ«عزلة»، وخاصّة منها العزلة

من ناحية أخرى، ثمة في الطرف الآخر مكنةٌ تحويلٍ مجردة تعمل بلا تقنين ولا تأرُضُن. إنها هي التي ترسم خطوط الإفلات: إنها تقود الاندفاعات ذات الكَمّات، تكفل خلق الاندفاعات والربط بينها، ترسل كَمّات جديدة. إنها هي ذاتها في حالة إفلات، وتقيم مكينات حرب على خطوطها. إذا كانت تشكّل قطبا آخر فلأنّ الأقسامات الصّلبة أو الكتليّة لا تفتأ تعرقل، توقف، تعترض خطوط الإفلات، بينما هي لا تتوقّف عن جعل هذه الخطوط تتدفّق «بين» الأقسامات الصّلبة وفي اتّجاه آخر تحت-هبائيّ. لكن ثمة كذلك بين القطبين مجال بكامله من التّداول والتّرجمة والنّقلة اللاحقة الهبائيّة بشكل خاصّ، حيث تارة تكون الخطوط الكتلية معروكة فعليّا بتشقّقات وتصدّعات، تارة تكون خطوط الإفلات منجذبة بالفعل نحو الثقوب السوداء، ترابطات الاندفاعات تكون وقع تعويضها فعليّا باقترانات حصريّة، انبعاثات الكَمّات تكون تحوّلت إلى نقاط-مراكز. وكلّ ذلك في نفس الوقت. في نفس الوقت تربط خطوط الإفلات بين شدّدها وتجعلها تتواصل، تجعل علامات-جُسيمات تندفق خارج الثقوب السوداء؛ لكنها ترتدّ على ثقب سوداء مجهريّة حيث تدور حول اقترانات هبائيّة تقطع عليها الطّريق؛ وكذلك، تدخل في أقسامات ثابتة، مثانة، ممرّكة، متمحورة حول ثقب أسود مركزيّ ومقنّنة تضافريّا.

سؤال ما معنى مركز سلطة أو بؤرتها؟ هو سؤال قادر على بيان التّداخل بين كلّ هذه الخطوط. نتحدّث عن سلطة جيش، كنيسة، مدرسة، عن سلطة عموميّة أو خاصّة... مراكز السّلطة تخصّ بطبيعة الحال الأقسامات الصّلبة. لكلّ أقسومة كتليّة مركزها أو مراكزها. يمكن الاعتراض بالقول إنّ هذه الأقسامات ذاتها تفترض مركز سلطة

المالية وحتى الصّناعية. بهذا المعنى أوّلا شكّلت الفاشية الإيطاليّة والنّازيّة الألمانيّة دولا كليّانيّة، مثلما بيّن ذلك دانيال غران (Daniel Guérin)، (الفاشية ورأس المال الضّخم، منشورات ماسبيرو، الفصل الثّاسع).

بوصفه هو الذي يمايز بينها ويجمّعها، يجعلها تتواجه وتتصادى. لكن ليس ثمة أيّ تناقض بين الأجزاء الأقسومية والجهاز المُمرّكز. من ناحية، الأقسومية الأشدّ صلابة لا تمنع المَرَكزة: ذلك أنّ النّقطة المركزيّة المشتركة لا تعمل بوصفها نقطة قد تختلط فيها النّقاط الأخرى، إنّما بوصفها نقطة إصداء في الأفق، من وراء كلّ النّقاط الأخرى. الدّولة ليست نقطة تضطلع بالنّقاط الأخرى، إنّما هي صندوق إصداء بالنّسبة إلى كلّ النّقاط. وحتىّ عندما تكون الدّولة كليانيّة، [٢٧٤] فإنّ وظيفة إصدائها لمراكز ولأقسامات متمايضة لا تتغيّر: إنّها تتمّ فقط في ظروف عزلة تزيد من مداها الدّاخليّ أو تُضاعف الـ«إصداء» بـ«حركة قسريّة». بحيث أنّه من ناحية أخرى وبشكل عكسيّ، المَرَكزة الأدقّ لا تلغي التّمييز بين المراكز، بين الأقسامات والدّوائر. الخطّ المقنّن تضافريّا بالفعل لا يرتسم دون تأمين سيادة أقسومة بما هي كذلك على الأخرى (في حالة الأقسومية الثنائيّة)، دون أن يمنح لمثل هذا المركز سلطة إصداء نسيّة بالنّسبة إلى مراكز أخرى (في حالة الأقسومية الدائريّة)، دون التّشديد على الأقسومة المهيمنة التي يمرّ بها هو ذاته (في حالة الأقسومية الخطيّة). بهذا المعنى تكون المَرَكزة تراتبيّة دوماً، لكنّ التّراتبيّة أقسوميّة دوماً.

كلّ مركز سلطة هو هبائيّ أيضاً، يمارس فوق نسيج مجهريّ حيث لم يعد يوجد إلّا بما هو منتشر، مشّتت، مضاعف، مصغّر، متنقّل باستمرار، فاعل بواسطة تقسيمات دقيقة، عامل في التّفصيل وفي أدقّ التّفاصيل. تحليل «الانضباطات» أو السّلطات المجهريّة وفق فوكو (مدرسة، جيش، معمل، مستشفى، إلخ). تعبّر على «بؤر التّقلقل» هذه حيث تتواجه تجمّعات وتراكمات، لكن كذلك منافذ وانفلاتات، وحيث تحدث انقلابات^(١). لم يعد المهّم هو معلّم المدرسة، بل القيم، التّلميد

(١) فوكو، المراقبة والمعاقبة، ص ٣٢: «تغوص هذه العلاقات بعيداً في سُمك المجتمع، إنّها لا تتجمّع في علاقات الدّولة بالمواطنين أو على حدود الطبقات،

التَّجِيب، التَّلْمِيز الكسول، البَوَّاب، إلخ. لم يعد المهمّ هو الجنرال، بل الضَّبَّاط الصَّغار، ضبَّاط الصَّفّ، الجنديّ في داخلي، الرّأس العنيدة أيضا، كلّ واحد مع نوازعه، أقطابه، صراعاته، علاقات قوّته. وحتى ضابط الصَّفّ أو البَوَّاب لم يقع ذكرهما إلّا من أجل زيادة الفهم؛ ذلك أنّه لهما جانب كتلويّ وجانب هبائيّ، وبرهنان على أنّ الجنرال والمالك كان لهما هما أيضا هذان الجانبان. قد يقال إنّ اسم العَلَم لا يفقد سلطته، لكنّه يجد سلطة جديدة عندما يدخل في هذه المناطق التي هي مناطق عدم التّمايز. للحديث مثل كافكا، نقول إنّ المهمّ لم يعد هو الموظّف كُلام (Klamm)، بل لعلّه كاتبه موميس (Momus) أو كُلامات آخرون هبائيّون، الفروق بينهم وبين كُلام هي من الاتّساع بحيث لم تعد قابلة للتّعيين («هؤلاء الموظّفون لا يتمسّكون دائما بنفس الكتب، لكنّهم لا يبدّلونها، إنهم يغيّرون هم ذواتهم [٢٧٥] أماكنهم، ويكونون مجبرين على التّزاحم نتيجة ضيق الرّفاق...»). «هذا الموظّف يشبه كثيرا لكُلام، وإذا كان في مكتب خاصّ به، أمام طاولة عمله، وكان ثمة اسمه على الباب، قد لا أشكّ للحظة...»، ذلك ما يقوله بارنبيه (Bernabé) الذي قد يحلم بأقسوميّة كتلوية فقط، مهما تكن صلبة ومرعبة، بوصفها الضّمان الوحيد لليقين والأمن، لكنّ عليه أن يدرك أنّ الأقسومات الكتلويّة تنغمس حتما في هذا الحساء الهبائيّ الذي هو بمثابة غذائها وهو الذي يزعزع حافاتها). وليس ثمة مركز سلطة ليس له هذا النّسيج المجهرّي. إنّ هذا النّسيج المجهرّي- وليس المازوخيّة- هو الذي يفسّر كون شخص مقموع يمكنه دائما أن يشغل مكانا فاعلا في منظومة القمع: عمّال البلدان الثريّة يشاركون بفعاليّة في استغلال العالم الثالث، في تسليح الأنظمة الديكتاتوريّة، في تلويث الجوّ.

وهي لا تكتفي بإعادة إنتاج... الصّورة العامّة للقانون أو للحُكم. (...). إنّها تحدّد ما لا حصر له من نقاط المواجهة، من بوّارٍ تَقْلُق يتضمّن كلّ منها مخاطر صراعه، نزاعاته، وعلى الأقلّ الانقلاب المؤقتّ لعلاقات القوى..»

وذلك ليس غريباً، بما أن هذا النسيج كائن بين خطّ التقنيين
 التضافريّ ذي الأقسامات الصلبة، والخطّ النهائيّ ذي الكمّات. لا يفتأ
 هذا النسيج يتأرجح بين الخطّين، وتارة يرتدّ بالخطّ ذي الكمّات على
 الخطّ ذي الأقسامات، تارة يهرّب من الخطّ ذي الأقسامات اندفاقاتٍ
 وكمّات. هذا هو تحديد المظهر الثالث لمراكز السّلطة أو حدّها. ذلك
 أنّ هذه المراكز لا سبب لوجودها غير أن تترجم قدر ما تستطيع، كمّات
 الاندفاق إلى أقسومات خطّ (وحدها الأقسامات قابلة للكليّة بكيفيّة أو
 بأخرى). لكن بهذه الطّريقة هي تلتقي في نفس الوقت بمبدأ اقتدارها
 وبأسّ عجزها. وبعيدا عن أن يكونا متعارضين، فإنّ الاقتدار والعجز
 يتكاملان ويعزّز أحدهما الآخر في ضرب من الارتياح الأخاذ الذي
 نجده بشكل بارز عند أشدّ رجال الدّولة رداءة، والذي يحدّد «مجدهم».
 ذلك أنّهم يستمدّون مجدهم من عدم قدرتهم على التنبؤ، يستمدّون
 اقتدارهم من عجزهم الذي يؤكّد أنّه لم يكن ثمة اختيار. رجال الدّولة
 العظماء «الوحيدون» هم الذين يصلون أنفسهم بالاندفاقات وكأنّهم
 علامات- موجهة، علامات- جُسيمات، ويصدّرون كمّات تجتاز
 الثقوب السّوداء: ليس من قبيل الصدفة ألا يلتقي هؤلاء الرّجال إلّا على
 خطوط الإفلات التي هم بصدد رسمها، استشعارها، اتّباعها أو
 استباقها، حتّى وإن أخطأوا وسقطوا (موسى العبرانيّ، جنزريك
 الوانداليّ، جنكيس المغوليّ، ماوو الصّينيّ...). لكن ليس ثمة سلطة
 تنظّم هذه الاندفاعات ذاتها. لا نسيطر حتّى على تزايد «كتلة ماليّة».
 عندما نختطّ صورة سيّد في أقاصي الكون، فكرة دولة أو حُكم سرّيّ،
 فكأنّ هيمنة كانت تمارس على الاندفاعات كما على الأقسامات،
 وبنفس الكيفيّة نسقط في تصوّر تافه ووهميّ. تمدّنا البورصة بصورة
 للاندفاعات وكمّاتها بشكل أفضل من الذي تمدّنا به الدّولة.
 الرّأس ماليون [٢٧٦] بإمكانهم التّحكّم بفائض القيمة وتوزيعه، لكنّهم لا
 يسيطرون على الاندفاعات التي يصدر عنها فائض القيمة. بالمقابل

تُمارَس مراكز السُّلطة في النِّقاط التي تتحوَّل فيها الاندفاعات إلى أقسومات: إنها مبدِّلات، مغيِّرات، مُدبِّذبات. ومع ذلك ليست الأقسومات هي بالذَّات التي تتوقَّف على سلطة قرار. لقد رأينا على النقيض من ذلك كيف أنَّ الأقسومات (الطبقات على سبيل المثال) كانت تتشكَّل عند التقاء الحشود والاندفاعات اللَّامُتأرِضِنة، الاندفاق الأكثر لا تَأرُضُنا يحدِّد الأقسومة المهيمنة: هكذا هو الدُّولار أقسومة تهيمن على العُملة، البورجوازية أقسومة تهيمن على الرأسمالية... إلخ. بالتَّالي تتوقَّف الأقسومات هي ذاتها على مكنة مجرَّدة. لكن ما يتوقَّف على مراكز السُّلطة هي التَّنضيدات التي تحقِّق هذه المكنة المجرَّدة، أي التي لا تفتأ تكيِّف تنويعات الحشد والاندفاق مع أقسومات الخطِّ الصَّلب، وفق أقسومة مهيمنة وأقسومات خاضعة. يمكن أن يكون ثَمَّة الكثير من الانقلابات في هذه التَّكيِّفات.

إنَّه بهذا المعنى سنتحدَّث عن سلطة مصرفية (البنك الدولي، البنوك المركزيَّة، بنوك الائتمان): إذا كان اندفاق العُملة- التَّمويل، عُملة الائتمان، يحيل على حشد الصِّفقات الاقتصادية، فإنَّ ما يتوقَّف على البنوك هو تحوُّل هذه العُملة المصنوعة للائتمان إلى عُملة دَفْع أُقسوميِّ ملائمة، عُملة معدنيَّة أو عُملة دولة، مشترية لسلع هي ذاتها مقسَّمة (أهميَّة نسبة الفائدة بهذا الخصوص). ما يتوقَّف على المصارف هو تحوُّل العُملتين، وتحوُّل أقسومات العُملة الثانية إلى مجموعة متجانسة، وتحوُّل العُملة الثانية إلى آية سلعة كانت^(١). سنقول نفس الشَّيء عن كلِّ مركز سلطة. لكلِّ مركز سلطة مظاهره الثلاثة أو مناطقه الثلاث: (١) منطقة اقتداره، في علاقة بأقسومات خطِّ قاسٍ صلب؛ (٢) منطقة عدم تمايزه في علاقة بانتشاره في نسيج ميكرو- فيزيائي؛ (٣) منطقة

(١) حول مظاهر السُّلطة المصرفية، راجع، سوزان دي برينهوف (Suzanne de Brunhoff)، عَرَضُ العُملة، منشورات ماسبيرو، خاصَّة الصِّفحات ١٠٢-١٣١.

عجزه في علاقة بالاندفاعات والكّمات التي لا يستطيع تحويلها، دون توّصله لا إلى مراقبتها ولا إلى تحديدها. لكن دائما من عمق عجزه يستمدّ كلّ مركز اقتداره: من هنا شرّيته الجذريّة وغروره. كمّة اندفاق صغيرة أولى من مبدّل، مُدْبَذِب، موزّع كتلويّ! بالعودة على المثال التّقدي، المنطقة الأولى تمثّلها البنوك المركزيّة العموميّة؛ المنطقة الثانية تمثّلها «سلسلة العلاقات الخاصّة اللاّ محدّدة بين المصارف والمقترضين»؛ [٢٧٧] المنطقة الثالثة يمثّلها الاندفاق الرّاغب بالعملة التي تكون كمّاتها محدّدة من طرف حشد الصّفقات الاقتصاديّة. صحيح أنّ نفس المشكلات تُطرح وتوجد على صعيد هذه الصّفقات ذاتها، مع مراكز أخرى للسلطة. لكن في كلّ الحالات، المنطقة الأولى لمركز السلطة وقع تحديدها في جهاز الدّولة بوصفه تنزيذا يحقّق الممكنة المجرّدة للتّقنين التّضافريّ الكتلويّ؛ المنطقة الثانية وقع تحديدها في النّسيج الهبائيّ حيث يتوغّل هذا التّنّزيد؛ المنطقة الثالثة وقع تحديدها في مكنة التّحويل المجرّدة، في اندفاعات وكمّات.

لكن، عن هذه الخطوط الثلاثة، لا يمكن أن نقول إنّ أحدها يكون سيّئا، أو الآخر جيّد، بالطبيعة وحتميّا. دراسة المخاطر على كلّ خطّ هي موضوع التّداوليّة أو التّحليل الفصاميّ، من حيث أنّ هذه الدّراسة لا تطرح على نفسها أن تصوّر، أن تؤوّل ولا أن تُرمّز، إنّما أن تصنع خرائط وأن ترسم خطوطا وحسب، بتعيين اختلاطاتها كما تمايزاتها. نيتشه كان جعل زرادشت يقول، كاستنادا كان جعل الهنديّ دون جوان يقول: ثمّة ثلاثة أو حتى أربعة مخاطر، أوّلا الخوف، ثمّ الوضوح، وثمّ السلطة، وأخيرا القرف الكبير، الرغبة بالقتل وبقتل النّفس، الشّغف بالإلغاء^(١). بإمكاننا أن نخمّن ما يكونه الخوف. طوال الوقت

(١) كاستنادا، نبات الشيطان والدّخان الخفيف، صص ١٠٦-١١١.

نخشى أن نخسر. الأمان، التّنظيم الكتلويّ الكبير الذي يؤازرنا، الشّجرائيّات التي نتشبّث بها، المكنات المَثنويّة التي تمنحنا منزلة محدّدة بدقّة، الإصداءات التي ندخل فيها، نظام التّقنين التّصافريّ الذي يسيطر علينا، إنّنا نرغب بكلّ ذلك. «القيم، الأخلاق، الأوطان، الأديان والإيقانات الخاصّة التي يمنحنا إيّاها بسخاء غرورنا وتلّظفنا مع ذواتنا، هي عدد كبير من الإقامةات التي يهيئها العالم للذين يعتقدون أنّهم يبقون هكذا وقوفاً وقُعوداً، بين الأشياء الثّابتة؛ إنّهم لا يعرفون شيئاً عن هذا الانكسار الهائل الذي هم متّجهون إليه... هروب من الهروب^(١)». نهرب من الهروب، نصلّب أقسوماتنا، نستسلم للمنطق الثّنائيّ، سنكون أكثر صلابة على أقسومة معيّنة بقدر ما سوف يكون الآخرون أكثر صلابة معنا على أقسومة أخرى معيّنة، نعيد أرضنة ذواتنا على أيّ شيء كان، لا نعرف إلّا الأقسوميّة الكتلويّة، على صعيد المجموعات الكبرى التي ننتمي إليها كما على صعيد الجماعات الصّغرى التي ننخرط فيها، وعلى صعيد ما يعتمل بداخلنا في الأكثر حميميّة أو الأكثر خصوصيّة. كلّ شيء معنيّ بذلك، كيفيّة الإدراك، نوع الفعل، طريقة التّنقل، نمط الحياة، النظام السّيميائيّ. [٢٧٨] الرّجل الذي يعود إلى البيت ويقول: «هل الطّعام جاهز؟»، المرأة التي تجيب: «أنت عابس! هل أنت سيّء المزاج؟»: إنّهُ مفعول أقسومات تتواجه اثنتين اثنتين. بقدر ما ستكون الأقسوميّة صلبة، بقدر ما تطمئننا. هذا هو الخوف وكيف يجعلنا نرتدّ على الخطّ الأوّل.

يبدو الخطر الثّاني الذي هو الوضوح أقلّ بداهة. ذلك أنّ الوضوح يتعلّق فعليّاً بالهبائيّ. هنا أيضاً، كلّ شيء معنيّ، حتّى الإدراك، حتّى السّيميائيّة، لكن على الخطّ الثّاني. على سبيل المثال، يبيّن كاستنادا وجود إدراك هبائيّ تفتحه لنا المخدّرات (لكن الكثير من الأشياء يمكن

(١) بلانشو، الصّداقة، غاليمار، ص ٢٣٢.

أن تصلح كمخدرات): نصل إلى إدراك مجهرى سمعى ومرئى يكشف عن فضاءات وخلاءات بوصفها ثقباً في البنية الكتلوية. ذلك هو الوضوح تحديداً: هذه التّمييزات التي تقوم في ما كان يظهر لنا مليئاً، هذه الثّقوب في المتراصّ؛ وعكسيّاً، هناك حيث كنّا نرى منذ قليل نهايات قطعّية للأقسامات، ثمّة بالأحرى هوامش ملتبسة، تعدّيات، تداخلات، هجرات، أفعال تقسيم لم تعد تتطابق مع الأقسامية الصّلبة. كلّ شيء أصبح ليونة ظاهرة، خلاءات صلب الممتلئ، سُدْمَا في الأشكال، ارتجافات في الخطوط. كلّ شيء اتّخذ وضوح المجهر. نعتقد أنّنا فهمنا كلّ شيء واستخلصنا منه التّناج. نحن فرسان جُدّد، بل ولنا رسالة. فيزياء مجهرية للمهاجر حلّت محلّ الهندسة الكبرى للمقيم. لكنّ هذه الليونة وهذا الوضوح ليس لهما خطرهما وحسب بل هما ذاتهما خطر. أوّلاً لأنّ الأقسامية اللينة توشك أن تعيد إنتاج الانفعالات بشكل مصغّر، انفعالات الأقسامية الصّلبة: نعوض الأسرة بالجماعة، نعوض الزّواجية بنظام تبادل وهجرة، لكن ثمّة ما هو أسوأ، قيام أوديات مجهرية، تحكّم الفاشيات المجهرية، اعتقاد الأمّ في كونها مجبرة على مداعبة طفلها، الأب يصبح أمّاً. وضوح غامض لا يأتي من أيّ نجم، ويصدر مثل هذا الحزن: هذه الأقسامية المتحرّكة تنبع مباشرة من الأقسامية الأشدّ صلابة، إنّها تعويضها المباشر. بقدر ما تصبح المجموعات كتلوية، بقدر ما تصبح العناصر وعلاقاتها هبائية، إنّ الإنسان الهبائيّ للإنسانية كتلوية. لا نتأرّضن، نكون حشداً، لكن لعقد وإلغاء حركات الحشد واللا تأرّضن، لا ابتكار كلّ إعادات التّأرّضن الهامشية الأسوأ من الأخريات. لكنّ الأقسامية اللينة بشكل خاصّ، تثير مخاطرها الخاصّة التي لا تكتفي بإعادة إنتاج مخاطر الأقسامية الكتلوية بشكل مصغّر، ولا بالصدور عنها أو تعويضها: لقد رأينا ذلك، للفاشيات المجهرية خصوصيتها، يمكنها أن تتبلّر في [٢٧٩] فاشية كبرى، لكنّه يمكنها

أيضا أن تطفو في ما يخصها على خطّ لَيْن وتغمر كلّ خلية صغرى . كثرة من الثّقوب السّوداء يمكنها تماما ألاّ تتمركز، وأن تكون مثل فيروسات تتأقلم مع أكثر الظروف تنوعا، حافرة خلاءات في الإدراكات وفي السّيميائيّات الكتلويّة . تفاعلات دون إصداء . بدلا من الخوف البارانونيّ الكبير، نجد أنفسنا قد تملّكنا ما لا يحصى من الهوس الآحاديّ، من البدايات والوضوحات التي تنبثق من كلّ ثقب أسود، والتي لم تعد تشكّل منظومة، بل هي ضجّة وطنين، أضواء ساطعة تمنح أيّا كان مهمّة قاض، منصف، شرطيّ لحاله، مدير عمارة أو إقامة . لقد انتصرنا على الخوف، لقد غادرنا سواحل الأمان، لكننا دخلنا في منظومة ليست أقلّ تركيزا، ليست أقلّ تنظيما، هي منظومة المخاوف الصّغرى التي تجعل كلّ واحد يعثر على ثقبه الأسود ويصبح خطّرا في هذا الثّقب، متملّكا لوضوح بخصوص حالته، بخصوص دوره ومهمّته، وضوحا أخطر من بدايات الخطّ الأوّل .

السّلطة هي الخطر الثّالث لأنّها قائمة على الخطّين في نفس الوقت . إنّها تمتدّ من الأقسومات الصّلبة، من تقنينها التّضافريّ وإصدائها إلى الانقسامات الدّقيقة، إلى انتشارها وتفاعلاتها، والعكس بالعكس . ليس ثمة رَجُل سلّطة لا يقفز من خطّ إلى آخر، ولا يراوح بين أسلوب صغير وأسلوب كبير، بين الأسلوب الحقيقير والأسلوب البليغ لبوسّيه (Bossuet)، بين ديماغوجيا مكتب التّبغ وإمبرياليّة الموظّف الكبير . لكنّ كامل سلسلة ونسيج السّلطة هذين يغوصان في عالم يفلت منهما، عالم اندفاعات متحوّلة . وبشكل محدّد، عجز السّلطة هو الذي يجعلها خطيرة جدّا . لن يتوقّف رَجُل السّلطة عن السّعي إلى إيقاف خطوط الإفلات، ومن أجل ذلك، عن الاستحواذ على المكنة المتحوّلة وتثبيتها في مكنة التّقنين التّضافريّ . لكنّه لا يستطيع القيام بذلك إلّا بإحداث الخلاء، أي بتثبيت مكنة التّقنين التّضافريّ ذاتها أولا، بتضمينها في التّنضيد المحلّيّ المكلف بتحقيقها،

باختصار، بإعطاء التّنْزِيد أبعاد المكنة: ما يحدث في الظروف الاصطناعيّة للكليانيّة أو لل«انغزال».

لكن ما يزال ثمة خطر رابع، ودون شكّ هو الذي يهّمنا أكثر من غيره، لأنّه يخصّ خطوط الإفلات ذاتها. عبثا حاولنا تقديم هذه الخطوط بوصفها ضربا من التّحوّل والإبداع، لا ترسم في المخيلة إنّما في نسيج الواقع الاجتماعيّ ذاته، عبثا حاولنا إعطاءها حركة السّهم وسرعة المطلق، - قد يكون من البسيط جدّا الاعتقاد بأنّها لا تخشى ولا تواجه خطرا آخر على أية حال غير خطر اللّحاق بها، عرقلتها، تقييدها، استئْفافها، إعادة أرضنتها. إنّها تُفرز هي ذاتها [٢٨٠] يأسا غريبا، شبيها برائحة الموت والقربان، شبيها بحالة حرب نخرج منها منكسرين: لأنّها لها هي ذاتها مخاطرها الخاصّة التي لا تختلط بالمخاطر السّابقة. ذلك بالتّدقيق ما جعل فيتزجيرالد يقول: «كان تملّكني إحساس بأنني واقف عند الأصيل في ميدان رماية مهجور، بيدي بندقية فارغة، وقد أزيلت أهداف الرّماية. لا مشكل للحلّ. لا وجود إلّا للضّمت ولصوت تنفّسي دون سواه. (...) توضّحتي بذاتي كانت قذيفة قاتمة ومبتلّة^(١)». لمّ يكون خطّ الإفلات حربا يخاطر المرء كثيرا بالخروج منها مفكّكا، محطّما، بعد أن يكون دمر كلّ ما كان يستطيع تدميره؟ هو ذا بالتّحديد الخطر الرّابع: أن يجتاز خطّ الإفلات الجدار، أن يخرج من الثّقوب السّوداء، لكن عوض الارتباط بخطوط أخرى، عوض زيادة تكافؤاته في كلّ مرّة، يرتدّ إلى تدمير، إلْغاء تامّ، شغف بالإلْغاء. مثل خطّ إفلات كلايست، الحرب العجيبة التي يخوضها، والانتحار، الانتحار المزدوج بوصفه مخرجا يجعل من خطّ الإفلات خطّ موت.

(١) فيتزجيرالد، الصّدع، غاليمار، صص ٣٥٠ - ٣٥٤.

نحن لا نستحضر أيّ دافع موت. ليس ثمة دافع داخليّ في الرّغبة، ليس ثمة غير تنضيدات. الرّغبة منضّدة دوماً، والتنضيد هو الذي يحدّد كيانها. على صعيد خطوط الإفلات ذاته، يكون التّنضيد الذي يرسمها من نوع مكنة حرب. تحيل التّحوّلات إلى هذه المكنة، التي ليست الحرب هي موضوعها بكلّ تأكيد، بل إصدار كمّات لا تَأرُضُن، مرور اندفاقات متحوّلة (بهذا المعنى يمرّ كلّ إبداع بمكنة حرب). ثمة الكثير من الأسباب التي تبيّن أنّ مكنة الحرب لها أصل آخر، أنّها تنضيد مغاير لجهاز الدّولة. ذات أصل مترخّل، هي موجّهة ضدّ جهاز الدّولة. سيكون ذلك هو أحد المشاكل الأساسيّة للدّولة، للاستيلاء على مكنة الحرب هذه الغريبة عنها، لتجعل منها قطعة من جهازها في شكل مؤسّسة عسكريّ ثابتة؛ وستواجه الدّولة دائماً صعوبات كبرى بهذا الخصوص. لكن تحديداً عندما لا يكون لمكنة الحرب من موضوع غير الحرب، عندما تستبدل على هذا التّحوّل بالتّدمير، عندما تحرّر الشحنة الأكثر كارثيّة. لم يكن التّحوّل تغييراً للحرب على الإطلاق، على التّقيّض من ذلك الحرب هي التي تكون بمثابة سقوط أو تداعي التّحوّل، الموضوع الوحيد الذي يتبقّى لمكنة الحرب عندما تفقد قدرتها على التّحويل. بحيث أنّه علينا أن نقول عن الحرب ذاتها، إنّها عندما تكون هي المخلفات البغيضة لمكنة الحرب وحسب، سواء عند استيلاء جهاز الدّولة على هذه الأخيرة، سواء، وذلك هو الأسوأ، عندما تبني مكنة الحرب جهاز دولة [٢٨١] لم يعد صالحاً إلّا للتّدمير. حينئذ لم تعد مكنة الحرب ترسم خطوط إفلات متحوّلة، بل خطّ إلغاء محض وبارد. (حول هذه العلاقة المعقّدة بين مكنة الحرب والحرب، قد نسعى لاحقاً إلى تقديم فرضيّة).

ههنا نعثر من جديد على مفارقة الفاشيّة وعلى اختلافها عن الكلّيانيّة. ذلك أنّ الكلّيانيّة قضيّة دولة: إنّها تتعلّق أساسيّاً بعلاقة الدّولة بوصفها تنضيدا مُمَوْضَعاً، بمكنة التّقنين التّضافريّ التي تحقّقها

الدولة. حتى عندما يتعلّق الأمر بديكتاتورية عسكرية، فإنّ جيش الدولة هو الذي يستولي على الحكم، ويرفع الدولة إلى المرتبة الكليانية، ليست مكنة حرب هي التي تقوم بذلك. الكليانية محافظة بامتياز. بينما يتعلّق الأمر بوضوح في الفاشية بمكنة حرب. وعندما تقيم الفاشية دولة كليانية، فإنّ ذلك لم يعد بالمعنى الذي يستولي فيه جيش الدولة على السلطة، إنّما على التقيض من ذلك بالمعنى الذي تستحوذ فيه مكنة حرب على الدولة. ملاحظة غريبة لفيريليو تضعنا على الطريق الصحيح: في الفاشية، الدولة أقلّ كليانية بكثير من كونها انتحارية. ثمة في الفاشية عدمية متحققة. ذلك أنّه خلافاً للدولة الكليانية التي تسعى جاهدة إلى إيقاف كلّ خطوط الإفلات الممكنة، تنبني الفاشية على خطّ إفلات شديد تحوّل إلى خطّ تدمير وإلغاء محضين. غريب هو كيف أنّ النازيين كانوا أعلنوا منذ البداية لألمانيا ما كانوا يحملونه لها: في نفس الوقت أعراس وموت، بما في ذلك موتهم هم وموت الألمان. كانوا يفكّرون أنّهم سيهلكون، لكنّ مشروعهم قد يتكرّر على أية حال، في أوروبا في العالم، في كامل المعمورة. وكان الناس يهلّلون، ليس لأنّهم لم يكونوا فهموا، بل لأنّهم كانوا يرغبون بذلك الموت الذي كان يمرّ بموت الآخرين. وكأنّها إرادة وضع كلّ شيء على المحكّ في كلّ مرة، إقامة موت الآخرين ضد موتنا، وقيس كلّ شيء بـ«مقاييس التدمير». تُقدّم رواية كلوس مان (Klaus Mann)، مفيستو (Mephisto)، عيّات من خطابات أو من محادثات نازية عادية تماماً: «كان يتزايد غياب البطولة المحرّكة للمشاعر من حياتنا. (...) في الحقيقة نحن لا نمشي المشية العسكرية، نحن نتقدّم مترنّحين. (...) زعيمنا المبجل يسحبنا نحو الظلمات والعدم. (...) كيف لنا نحن الشعراء الذين نقيم علاقات خاصّة مع الظلمات والهوة، ألاّ نُعجب به؟ بروق نار في الأفق، سيول دم على كلّ الطرقات، ورقصة من أصابه مسّ هي رقصة الناجين، رقصة الذين حُقت دماؤهم حتى

الآن حول الجثث^(١)! لا يظهر الانتحار [٢٨٢] بوصفه عقوبة بل بوصفه تنويجا لموت الآخرين. يمكن القول دائما إنّ الأمر يتعلق بخطاب مبهم وبإيديولوجيا، ولا شيء غير الإيديولوجيا. لكن ذلك ليس صحيحا؛ قصور التعريفات الاقتصادية والسياسية للفاشية لا يستتبع فقط حتمية أن نضيف إليه تحديدات غامضة تسمى تحديدات إيديولوجية. نخير أتباع جان-بيار فاي عندما يتساءل حول التكوّن الدقيق للملفوظات النازية التي تُستخدم في السياسي، في الاقتصادي كما في المحادثة الأشدّ تفاهة. نعرّث دائما في هذه الملفوظات على الصّرخة «الحمقاء والبغيضة» القائلة يحيا الموت!، حتّى على الصّعيد الاقتصاديّ حيث يعوّض انتشارُ إعادة التسلّح تطوّر الاستهلاك، وحيث ينتقل استثمار وسائل الإنتاج نحو وسائل التدمير المحض. يبدو لنا تحليل فريليو صحيحا بشكل عميق عندما يعرّف الفاشية، ليس بمصطلح الدولة الكليانية إنّما بمصطلح الدولة الانتحارية: الحرب المسماة حربا شاملة لا تظهر في الدولة الانتحارية بوصفها مشروع دولة، بقدر ما هي مشروع مكنة حرب تستولي على الدولة، وتُمرّر من خلالها اندفاق

(١) كلوس مان، مفيسو، منشورات دونثيل، صص ٢٦٥-٢٦٦. تتكاثر مثل هذه التصريحات في لحظة التّجاحات النّازية ذاتها. راجع العبارات الشهيرة لغوبلز (Goebbels): «في عالم القدرية المطلقة الذي يتحرّك في هتلر، لا شيء ما يزال له معنى، لا الخير ولا الشرّ، لا الزّمان ولا المكان، وما يسمّيه النّاس الآخرون نجاحا لا يمكن أن اعتماده مقياسا. (...) من المحتمل أنّ هتلر سينتهي إلى الكارثة...» (هتلر يتحدّث إلى جنرالاته، منشورات ألبان ميشال). يمكن لهذه الكارثية أن تنسجم مع الكثير من الرّضا، مع الضّمير الخير ومع الطّمانينة المريحة، مثلما نرى ذلك أيضا في سياق آخر، عند بعض الانتحاريين. ثمة بيروقراطية كاملة للكارثة. بالنّسبة إلى الفاشية الإيطالية، سنعود بخاصة إلى ماريا أنتونيّا ماشيوشي، «الجنسانية النسوية في الإيديولوجيا الفاشية»، مجلة كما هو، العدد ٦٦: السّرب النسويّ للموت، مشهد الأرامل والنّساء الحزاني، الأوامر هي «نَعش ومُهود».

الحرب المطلقة التي لن يكون لها من مخرج آخر غير انتحار الدّولة ذاتها. «انطلاق سيرورة مادّيّة مجهولة بشكل فعليّ دون حدود ودون هدف. (...). بمجرد انطلاقها، لا يمكن لآليتها أن تنتهي إلى السّلم، ذلك أنّ الإستراتيجيا المباشرة تُرسي فعليّاً السّلطة المهيمنة خارج المقولات المعتادة للمكان وللزمان. (...). في النّهاية سيجد هتلر في الرّعب اليوميّ وفي وسطه، الوسيلة الأوثق لحكمه، التّشريع لسياسته ولاستراتيجيّته العسكريّة، وذلك حتّى النّهاية، بما أنه بعيدا عن تقويض الطبيعة الطّاردة لسلطته، فإنّ الخرائب، الفظاعات، الجرائم، فوضى الحرب الشّاملة سوف لن تفعل بطبيعة الحال غير توسيع مدى تلك السّلطة. البرقيّة ٧١: إذا خسرنا الحرب، لِنَهْلِك الأُمّة، يقرّر هتلر في هذه البرقيّة توحيد جهوده مع جهود أعدائه لإكمال تدمير شعبه بتعديم أقصى موارد سكّنه والمخزونات المدنيّة لكلّ طبيعة (الماء الصّالح للشّرب، الوقود، المَوْن، إلخ.)، تلك هي النتيجة الطّبيعيّة^(١).» كان بالفعل انقلاب خطّ الإفلات هذا إلى خطّ تدمير هو الذي كان يحرك كلّ البؤر الهبائيّة للفاشيّة، وكان يجعلها تتفاعل في مكنة حرب عوضا عن إصدائها في جهاز دولة. مكنة حرب لم يعد لها من موضوع غير الحرب، وكانت تقبل إلغائها خدّمها عوضا عن إيقاف التّدمير. كلّ مخاطر الخطوط الأخرى لا تساوي الشّيء الكثير بجانب هذا الخطر.

(١) بول فريليو، انعدام أمن الإقليم، الفصل الأوّل. وحتّى أرندت، مع أنّها تماهي بين النّازيّة والكليانيّة، فإنّها أبرزت هذا المبدأ الذي هو مبدأ الهيمنة النّازيّة: «لم يكن لفكرتهم عن الهيمنة أن تتحقّق لا بالدّولة ولا بمجرد جهاز عنف، إنّما فقط بحركة متحرّكة باستمرار»؛ وحتّى الحرب، وخطر خسارة الحرب، يتدخّلان بوصفهما مسرّعات (النّظام الكليانيّ، منشورات سوي، ص ٤٩، ١٢٤ وما بعدها، ٢٠٧ وما بعدها).

١٠. ١٧٣٠ - التصيرُ - شديد،

[٢٨٤]

التصيرُ - حيوانا، التصيرُ ما يندُّ عن الإدراك...



[٢٨٥] ذكريات مُشاهد. - أتذكر الشريط الجميل، شريط ويلار (١٩٧٢، دانيال مان). لعلّه من الدّرجة الثّانية، لكنّه شريط جميل لم يحظَ بشعبية لأنّ أبطاله فثران. ذكرياتي ليست دقيقة بالضرورة. أروي الحكاية إجمالياً. يعيش ويلار مع والدته المتسلّطة في منزل العائلة القديم. تأمره والدته بتدمير مجموعة فثران. لقد أبقى منها على واحد (أو اثنين أو على البعض). بعد شجار عنيف تموت الأمّ التي «تشبه» كلبا. يوشك ويلار على خسران المنزل الذي يرغب فيه رجل أعمال. ويلار يحبّ الفأر الرئيسيّ الذي أنقذه، بان (Ben)، والذي يظهر أنّه ذو ذكاء مذهل. ثمّة كذلك فأرة بيضاء هي صاحبة بان. يقضي ويلار كامل وقته معهما بعد رجوعه من المكتب. لقد تكاثرا الآن. يقود ويلار زمرة الفثران بقيادة بان نحو رجل الأعمال ويقتله بشكل مروّع. لكنه يقترب حماقة باصطحابه فأرئه المفضّلين إلى المكتب، وعليه أن يترك الموظفين يقتلون الفأرة البيضاء. يهرب بان بعد إلقائه نظرة طويلة ثابتة وحادة على ويلار. حينئذ يعرف هذا الأخير استراحة في قدره، في تصوّره فأرا. حاول بكلّ قواه أن يبقى بين البشر. يقبل حتى عرض فتاة من المكتب «شبيهة» كثيرا بفأرة، لكنها حقاً ليست إلّا شبيهة بها. لكن ذات يوم استدعى فيه الفتاة وهو جاهز للعلاقة الزوجيّة، ولإعادة الأديّنة، يرى بان يظهر من جديد، حاقدا. يحاول طرده لكنه في الواقع يطرد الفتاة، وينزل إلى الكهف حيث يجتذبه بان وحيث تنتظره زمرة لا حصر لها من الفثران لتقوم بتمزيقه. الأمر شبيه بحكاية، لا شيء فيه مرهق للأعصاب.

كلّ شيء كائن في الشريط: التّصوير - حيوانا الذي لا يكفيه المرور بالمشابهة، بل قد تمثّل له المشابهة عائقا أو توقفا، - التّصوير هباتيا، مع تكاثر الفثران، الزّمرة التي تقوّض القوى الكتلويّة الكبرى، الأسرة، المهنة، العلاقة الزوجيّة، - اختيارٌ شرّير، بما أنّه ثمّة «مفضّل» في الزّمرة، وضرب من عقد زواج، من معاهدة فظيعة مع المفضّل، - إقامة

تنضيد، مكنة حرب أو مكنة إجرامية يمكن أن تصل حتى إلى التدمير الذاتي، - تنقل أفعالات لا شخصية، تيار متناوب يربك المشروعات الدالة كما المشاعر الذاتية، ويشكل جنسانية غير إنسانية، - لا تأرضن لا يقاوم، يلغي مسببا محاولات إعادة الأرضنة الأوديبية، الزوجية أو المهنية (هل ثمة حيوانات أوديبية قد نتمكن من أن «نكون معها أوديبا»، نكون معها أسرة، كلبى الصغير، قطي الصغير، ثم حيوانات أخرى قد تُفضي بنا على النقيض من ذلك إلى نصير لا يقاوم؟ أو كذلك [٢٨٦] فرضية أخرى: هل يمكن لنفس الحيوان أن يعلق بين وظيفتين، بين حركتين متقابلتين وفق الحالة؟).

ذكريات طبيعاني. - كانت واحدة من المشكلات الرئيسية للتاريخ الطبيعي هي التفكير بعلاقات الحيوانات في ما بينها. الأمر مختلف جدًا عن التطورية اللاحقة التي وقع تعريفها من حيث هي جنيالوجيا، قرابة، نسب أو سلالة. نعرف أن التطورية ستصل إلى فكرة تطوّر قد لا يحدث سلاليًا بشكل حتمي. لكنه تطوّر لم يكن يستطيع المرور في البداية إلا بواسطة الدافع الجنياولوجي. عكسيًا، كان التاريخ الطبيعي تجاهل هذا الدافع، أو على الأقل الأهمية الحاسمة لهذا الدافع. يميز داروين ذاته بين المبحث التطوري للقرابة والمبحث الطبيعاني لجملته الفروق أو المشابهات وقيمتها، باعتبارهما مبحثين مستقلّين تماما أحدهما عن الآخر: فعليًا، جماعات لها قرابة أيضا يمكن أن تكون لها درجات فرق متغيرة تماما بالنسبة إلى السلف. تحديدا لأن التاريخ الطبيعي يهتم قبل كل شيء بجملته الفروق وقيمتها، فإنه بمقدوره أن يدرك تطورات وتراجعات، استمراريّات وانقطاعات كبرى، لكن بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس له أن يدرك تطورا، أي إمكانية نسب تتوقف درجات تبدلها على الظروف الخارجية. لا يمكن للتاريخ الطبيعي أن يفكر إلا في صيغة علاقات بين أ وب، لكن ليس في صيغة إنتاج من أ إلى س.

لكن على صعيد هذه العلاقات يحدث شيء ما مهم جدًا. ذلك أن التاريخ الطبيعي يدرك العلاقات بين الحيوانات بكيفيتين: سلسلة أو بنية. وفق سلسلة، أقول: إنَّ أ تشبه ب، ب تشبه ج...، كل هذه الحدود تنتسب هي ذاتها وفق اختلاف درجاتها إلى حدٍّ وحيد نهائي، كمال أو جودة بوصفها علّة السلسلة. ذلك بالضبط هو ما كان الثيولوجيون يسمّونه تشابه التناسب. وفق البنية، أقول إنَّ أ تكون بالنسبة إلى ب ما تكونه ج بالنسبة إلى د، وتحقق كل واحدة من هذه العلاقات على طريقتهما الكمال المعني: الخياشيم بالنسبة إلى التنفّس تحت الماء هي بمثابة الرّتين بالنسبة إلى التنفّس في الهواء؛ أو كذلك القلب بالنسبة إلى الخياشيم هو بمثابة غياب القلب بالنسبة إلى القصبات الهوائية... إنّه تشابه تناسبيّة. في الحالة الأولى لديّ تشابهات تختلف على طول سلسلة، أو من سلسلة إلى أخرى. في الحالة الثانية لديّ اختلافات تشابه داخل بنية، ومن بنية إلى أخرى. يُعتبر الشكل الأوّل للمشابهة أكثر حساسيّة وشعبيّة، ويتطلّب المخيلة؛ غير أنّ الأمر يتعلّق بمخيلة كادحة، عليها أن تأخذ بعين الاعتبار فروعاً من السلسلة، أن تملأ الانقطاعات الظاهرة، أن تستبعد المشابهات الكاذبة وأن تُدرّج المشابهات الحقيقية، أن تأخذ بعين الاعتبار في نفس الوقت التّطوّرات [٢٨٧] والتّراجعات أو الانتقاصات. الشكل الثّاني للمشابهة يُعتبر شكلاً ملكياً لأنّه يتطلّب بالأحرى كلّ موارد الذّهن لتثبيت العلاقات المتكافئة، تارة باكتشاف المتغيّرات المستقلّة القابلة للتّدامج داخل بنية، تارة باكتشاف المتضايّفات التي يجرّ بعضها بعضاً في كلّ بنية. لكنّ مبحثي السلسلة والبنية هذين، مهما كانا مختلفين جدّاً فإنّهما قد تواجدا دائماً معاً في التاريخ الطّبيعي، متناقضين ظاهريّاً، هما يشكّلان فعليّاً توافقات ثابتة نوعاً ما^(١). كذلك كان شكلاً المشابهة

(١) حول هذا التّكامل بين السلسلة والبنية، وحول الاختلاف عن التّطوّرة، راجع هنري دودان، كوفيه ولامارك: الفئات الحيوانيّة وفكرة السلسلة الحيوانيّة، وميشال فوكو، الكلمات والأشياء، الفصل الخامس.

يتواجدان معا في فكر الثيولوجيين، تحت توازنات متغيرة. ذلك أنه من هذه الناحية كما من الأخرى، وقع إدراك الطبيعة فيهما بوصفها محاكاة هائلة: تارة في شكل سلسلة كائنات قد لا تتوقف عن محاكاة بعضها البعض، تصاعديًا أو تراجعياً، بنزوعها نحو الحدّ الإلهي الأعلى الذي تحاكيه جميعها بوصفه نموذج السلسلة وعلتها، بمشابهة متدرجة؛ تارة في شكل حدّ مرآويّ لعلّه لم يعد له شيء ليحاكيه، بما أنه قد يكون هو ذاته النموذج الذي قد تحاكيه الكائنات جميعها، بفرق مرتّب هذه المرة... (هذه الرؤية المحاكية أو المحاكاتية هي التي تجعل من المستحيل في ذلك الحين فكرة تطوّر- إنتاج).

لكننا لم نخرج البتّة من هذا المشكل. الأفكار لا تموت. ليس لأنها تبقى حيّة لمجرّد كونها عتيقة. لكن لأنها استطاعت في لحظة ما بلوغ مرحلة علميّة، ثمّ فقدتها، أو لأنها تهاجر إلى علوم أخرى. يمكنها حينئذ تغيير التطبيق والمنزلة، يمكنها حتى تغيير الشكل والمضمون، إنّها تحافظ على شيء أساسي، في الطريقة، في التنقل، في اقتسام مجال جديد. الأفكار تضيق دائماً، بما أنّها استُخدمت دوماً، لكن وفق الصيغ الحالية الأكثر اختلافاً. ذلك أنه من ناحية، علاقات الحيوانات في ما بينها ليست موضوع علم وحسب، إنّما هي كذلك موضوع حلم، موضوع رمزيّة، موضوع فنّ أو شعر، موضوع ممارسة واستعمال عمليّ. من ناحية أخرى، علاقات الحيوانات في ما بينها واقعة ضمن علاقات الإنسان مع الحيوان، علاقات الرّجل مع المرأة، علاقات الرّجل مع الطّفل، علاقات الإنسان مع العناصر، علاقات الإنسان مع الكون الفيزيائيّ والفيزيائيّ المجهرّي. الفكرة المزدوجة «سلسلة- بنية» تجتاز في لحظة معيّنة عتبة علميّة، لكنّها لم تكن تأتت منها، ولا هي باقية عندها، أو أنّها تنتقل إلى علوم أخرى، إنّها تحرّك العلوم الإنسانيّة على سبيل المثال، لتُستخدَم في دراسة الأحلام، دراسة الميثاث والتنظيمات. [٢٨٨] لم يكن لتاريخ الأفكار

أن يكون متصلاً أبداً، قد يكون عليه أن يحترس من المشابهات، لكن كذلك من الأنساب والسّلالات، ليكتفي بتعيين العتبات التي تعبرها فكرة، الرّحلات التي تقوم بها والتي تغيّر طبيعتها أو موضوعها. لكن ها هي العلاقات الموضوعيّة بين الحيوانات قد وقعت استعادتها في بعض علاقات الإنسان الذاتيّة مع الحيوان، من زاوية نظر مخيّلة جماعيّة أو من زاوية نظر ذهن اجتماعيّ.

لقد طوّر يونغ نظريّة النموذج الأصليّ بوصفه لا وعياً جماعياً، حيث للحيوان دور مهمّ بشكل خاصّ في الأحلام، في الميثات والجماعات البشريّة. بشكل دقيق، لا ينفصل الحيوان عن سلسلة تتضمّن المظهر المزدوج للتّقدّم- التّراجع، وحيث يلعب كلّ حدّ دور مغيّر ممكن لليبدو (انقلاب عين). تنتج عن ذلك معالجة بكاملها للحلم بما أنّ صورة مربكة تكون موجودة، فإنّ الأمر يتعلّق بإدماجها في سلسلتها النموذجية الأصليّة. يمكن لمثل هذه السّلسلة أن تتضمّن متتاليات نسوية أو ذكوريّة، طفوليّة، لكن كذلك متتاليات حيوانيّة، نباتيّة، أو حتى عنصريّة، هبائيّة. على خلاف التّاريخ الطّبيعيّ، لم يعد الإنسان هو الحدّ النّهائيّ للسّلسلة، يمكن أن يكون حيواناً للإنسان، الأسد، سرطان البحر أو الطّير الكاسر، القملة، بالنّسبة إلى مثل هذا الفعل، إلى مثل هذه الوظيفة، تبعاً لمثل هذا الاقتضاء الذي هو اقتضاء اللاوعي. يؤلّف باشلار كتاباً يونغياً جميلاً جدّاً عندما يقيم سلسلة لوترايمون (Lautréamont) المتفرّعة، آخذاً بعين الاعتبار مُعامل سرعة انقلابات العين ودرجة كمال كلّ حدّ تبعاً لعدوانيّة محض بوصفها علّة السّلسلة: ناب الثّعبان، قرن الكركدن، سنّ الكلب ومنقار البومة، لكن بعلوّ متزايد، مخلب الصّقر أو النّسر، كُلاب سرطان البحر، أرجل القملة، مكبس الأخطبوط. في جملة أعمال يونغ ثمة محاكاة كاملة تجمع في شباكها الطّبيعة والثّقافة وفق مشابهات تناسب، حيث السّلسلات وحدودها، وخاصّة الحيوانات التي تحتلّ فيها مرتبة

وسطى، تؤمّن دورات تحوّل طبيعة- ثقافة- طبيعة: التّماذج الأصلانيّة بوصفها «تمثّلات تشابهيّة»^(١).

هل من قبيل الصدفة أن تكون البنيويّة قد شجبت بشدّة هالات المخيلة هذه، إقامة مشابّهات على طول السّلسلة، المحاكاة التي تعبر كامل السّلسلة وتوصلها إلى النّهاية، إلى التّطابق مع هذا الحدّ النّهائيّ؟ لا شيء أكثر وضوحاً بهذا الصّد من النّصوص الشهيرة لليفي- شتراوس حول [٢٨٩] الطّوطميّة: تجاوز المشابّهات الخارجيّة نحو التّماثلات الدّاخليّة^(٢). لم يعد الأمر متعلّقاً بإقامة تنظيم متسلسل للمتخيّل، إنّما بنظام رمزيّ وبنيويّ للذهن. لم يعد الأمر متعلّقاً بتدرّج مشابّهات وبالوصول في نهاية المطاف إلى تطابق بين الإنسان والحيوان داخل مشاركة صوفيّة. يتعلّق الأمر بتنظيم الفروق من أجل الوصول إلى تنأّظر العلاقات. ذلك أنّ الحيوان يتوزّع من ناحيته وفق علاقات فارقيّة أو تقابلات تمييزيّة بين الأنواع؛ وكذلك الإنسان وفق المجموعات المعنيّة. في المؤسّسة الطّوطميّة، لن نقول إنّ جماعة بشريّة معيّنة تتماهي مع نوع حيوانيّ معيّن، سنقول: ما تكونه الجماعة أ بالنّسبة إلى الجماعة ب، يكونه النّوع أ' بالنّسبة إلى النّوع ب'. ثمة ههنا منهج مختلف تماماً عن المنهج السّابق: إذا كان ثمة مجموعتان بشريّتان لكلّ منهما حيوانها- الطّوطم، سيتوجّب إيجاد ما به يكون الطّوطمان قد دخلا في علاقات مُناظرة لعلاقات المجموعتين- ما يكونه الغراب بالنّسبة إلى الصّقر...

المنهج صالح كذلك بالنّسبة إلى علاقات الرّجل- الطفل، الرّجل- المرأة، إلخ. بملاحظتنا مثلاً أنّ للمحارب علاقة عجيبة معيّنة مع

(١) راجع يونغ، خاصّة انقلاب عين النّفس ورموزها، مكتبة الجامعة، جنيف. وباشلار، لوترايمون، منشورات كورتني.

(٢) ليفي- شتراوس، الطّوطميّة اليوم، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، ص ١١٢.

الفتاة، ستتجنّب إقامة سلسلة خيالية قد تجمع بينهما، سنبحث بالأحرى عن الحدّ الذي يجعل تكافؤ العلاقات تكافؤاً فعلياً. على هذا النحو يمكن لفرنان أن يقول إنّ الزّواج يكون بالنّسبة إلى المرأة ما تكونه الحرب بالنّسبة إلى الرّجل، ينتج عن ذلك تماثلٌ بين العذراء التي ترفض الزّواج والمحارب الذي يتنكّر في زيّ فتاة^(١). باختصار، يعوّض الذّهن الرمزيّ تماثل التّناسب بتماثل تناسبيّ؛ يعوّض تسلسل المشابهات بهيكله الفروق؛ يعوّض تطابق الحدود بتساوي العلاقات؛ يعوّض انقلابات عين المخيلة بمجازات في المفهوم؛ يعوّض التّواصل الكبير طبيعة- ثقافة بصدع عميق يوزّع التّناظرات دون مشابّهة بين الاثنتين؛ يعوّض محاكاة نموذج أصلائيّ بمحاكاة هي ذاتها أولى ولا نموذج لها. أبدا لم يتمكّن أيّ إنسان من القول: «أنا ثور، أنا ذئب...»، لكنّه تمكّن من القول: أنا بالنّسبة إلى المرأة ما يكونه الثور بالنّسبة إلى البقرة، أنا بالنّسبة إلى إنسان آخر ما يكونه الذئب بالنّسبة إلى الخروف. البنيويّة ثورة كبرى، يصبح العالم بتمامه أكثر معقوليّة. لا يكفي لفي-شترأوس وهو ينظر في نموذجي السّلسلة والبنية، بجعل الثانية تتمتع بكلّ هيبات تصنيف حقيقيّ، [٢٩٠] إنّّه يحيل الأولى على المجال الغامض الذي هو مجال القربان، الذي يقدّمه على أنّه مجال وهميّ بل ولا سداد فيه. الغرض السّلسليّ للقربان يجب أن يترك مكانه للغرض البنيويّ للتّأسيس الطّوطميّ المفهوم جيّداً. ومع ذلك هنا أيضاً، بين السّلسلات النّمودجيّة الأصلائيّة والبنيات الرّمزيّة، تقوم الكثير من التّوافقات، كما في التّاريخ الطّبيعيّ^(٢).

(١) جان- بيار فرنان، في مشكلات الحرب في اليونان القديمة، منشورات موتون، صص ١٥-١٦.

(٢) حول التّقابل بين السّلسلة القربانيّة والبنية الطّوطميّة، راجع لفي-شترأوس، الفكر البرّيّ، منشورات بلون، صص ٢٩٥-٣٠٢. لكن رغم كل صرامته مع السّلسلة، يعترف لفي-شترأوس بالتّوافقات بين المبحثين: ذلك أنّ البنية تستتبع

ذكريات برغسوني. - لا شيء ممّا تقدّم يرضينا، من زاوية النظر المحدّدة التي تشغلنا. نعتقد في وجود تصوّرات - حيوانات خاصّة جدّا تخترق الإنسان وتجرفه، وليست أقلّ تأثيرا على الحيوان منها على الإنسان. «لم نعد نسمع حديثا إلّا عن مصاصيّ الدماء من ١٧٣٠ إلى ١٧٣٥...» لكن من المؤكّد أنّ البنيويّة لم تهتمّ بهذه التّصيّرات، بما أنّها وُجدت تحديدا من أجل نفيها أو على الأقلّ تحقير وجودها: تناظرٌ بين العلاقات لا يشكّل تصوّرا. بحيث أنّ البنيويّة في التقائها بمثل هذه التّصيّرات التي تجوب مجتمعا في كلّ الاتجاهات، ترى فيها ظاهرات تدهور تغيّر مجرى النظام الحقيقيّ وتعلّق بمغامرات التّقسيم الثّنائيّ. غير أنّ ليفي - شتراوس لا يفتأ يلتقي في دراساته للميثاث، هذه الأفعال الخاطفة التي يصير بها الإنسان حيوانا في نفس الوقت الذي يصير فيه الحيوان... (لكنّه ماذا يصير؟ يصير إنسانا أو يصير شيئا آخر؟). محاولة تفسير كتل الصّيرورة هذه بتناظر علاقتين هي دائما ممكنة، لكنّها تُفقر بكلّ تأكيد الظّاهرة المعنيّة. ألا يجب أن نسلّم بأنّ الميثة بوصفها إطار تصنيف عاجزة نسبيا عن تسجيل هذه الصّيرورات التي هي بالأحرى بمثابة مقاطع حكاية؟ ألا يجب أن نمّنع مصداقيّة لفرضية دوفينيو القائلة إنّ ظاهرات «غياب القانون» تعبر المجتمعات، وهي ليست ارتكاسات من النّوع الميثي إنّما هي ديناميّات عصيّة على الاختزال ترسم خطوط إفلات وتستتبع أشكال تعبير أخرى مغايرة لأشكال تعبير الميثة، حتى وإن كانت هذه الأخيرة تأخذها على عاتقها لتوقفها^(١)؟ كأنّه إلى جانب

هي ذاتها إحساسا عينيا جدّا بالتّوافقات (صص ٥١ - ٥٢) وتقوم هي ذاتها على سلسلتين تنظّم بينهما تماثلات علاقاتها. خاصّة وأنّ «التّصير التّاريخي» يمكن أن يفضي إلى تعقيدات أو إلى تقهقرات تستعيض عن هذه التّماثلات بمشابهات وبمطابقات بين الحدود (ص ١٥٢ وما بعدها، وما يسمّيه ليفي - شتراوس «قفا الطّوطميّة»).

(١) راجع، جان دوفينيو، غياب القانون، منشورات أنتزوبوس.

النَّمُودَجَيْنِ، نموذج القربان [٢٩١] ونموذج السِّلْسِلَة، نموذج التَّأْسِيس الطَّوْطَمِيّ ونموذج البنية، كان ما يزال ثَمَّة مكان لشيء ما مغاير، أكثر سرِّيَّة وأكثر تخفِّيًّا: السَّاحِر والتَّصَيُّرات التي تعبَّر عنها الحكايات، ولم تعد تعبَّر عنها الميثاث أو الطَّقوس؟

ليست الصَّيرورة تَنَاطُر علاقات. لكنَّها ليست كذلك مشابَهة، محاكاة، وفي أقصى الحالات تطابقا. يبدو أنَّ كامل النِّقد البنيوي للسِّلْسِلَة لا يمكن إيقافه. التَّصَيُّر لا هو تقدُّم ولا هو تقهقُّر وفق سلسلة. والتَّصَيُّر لا يتمَّ خاصَّة في المخيِّلة، حتَّى عندما تبلغ المخيِّلة المستوى الكونيَّ أو الدِّيناميَّ الأعلى، كما عند يونغ أو باشلار. التَّصَيُّرات-حيوانات ليست أحلاما وليست استيهامات. إنَّها واقعية بالتَّمام. لكن بأيِّ واقع يتعلَّق الأمر؟ ذلك أنه إذا لم يكن التَّصَيُّر حيوانا يتمثَّل في الكيان حيوانا أو في محاكاته، فمن المؤكَّد أيضا أنَّ الإنسان لا يصير حيوانا «بشكل واقعيّ» بأكثر ممَّا يصير الحيوان «بشكل واقعيّ» شيئا آخر. لا يُنتج التَّصَيُّر شيئا آخر غير ذاته. إمِّيَّة كاذبة هي التي تجعلنا نقول: إمَّا أن نحكي وإمَّا أن نكون. ما هو واقعيّ هو التَّصَيُّر ذاته، كتلة التَّصَيُّر، وليس حدودا يُفترض أنَّها ثابتة وقد يمرَّ فيها من يتصَيَّر. يمكن ويتوجَّب نعت التَّصَيُّر بوصفه تَصَيُّرا-حيوانا دون أن يكون له حدّ قد يكون هو الحيوان الذي تَصَيَّر. تَصَيُّر الإنسان حيوانا هو تَصَيُّر واقعيّ، دون أن يكون واقعيًّا الحيوان الذي تَصَيَّرَه؛ وفي نفس الوقت، تَصَيُّر الحيوان آخر هو تَصَيُّر واقعيّ دون أن يكون هذا الآخر واقعيًّا. هذه النِّقطة هي التي يجب تفسيرها: كيف لا يكون للتَّصَيُّر موضوع مختلف عنه هو ذاته، لكن كذلك كيف لا يكون له حدّ لأنَّ حدَّه لا يوجد بدوره إلَّا وهو مأخوذ في تَصَيُّر آخر هو موضوعه، ويوجد مع التَّصَيُّر الأوَّل ويتَّحد معه. إنَّه مبدأ واقع خاصّ بالتَّصَيُّر (الفكرة البرغسونيَّة لتماعي «ديمومات» شديدة الاختلاف، أعلى أو أدنى من «ديمومتنا»، وكلَّها متَّصلة ببعضها البعض).

أخيراً، التّصيّر ليس تطوّراً، على الأقلّ ليس تطوّراً بالنّسب والسّلالة. لا يُنتج التّصيّر شيئاً بواسطة السّلالة، كلّ سلالة قد تكون خياليّة. التّصيّر هو دائماً من نمط آخر مختلف عن السّلالة. إنّهُ من قبيل التّحالف. إذا كان التّطوّر يتضمّن تصيّرات، فذلك في ميدان التّكافل الحيويّ الفسيح الذي يضع على المحكّ كائنات ذات درجات وممالك مختلفة تماماً، دون أيّة سلالة ممكنة. ثمّة كتلة تصيّر تستولي على القطّ وقرد البابون، وهي التي يقوم فيها فيروس ج بالتحالف. ثمّة كتلة تصيّر بين الجذور اليافة وبعض العضويّات المجهرية، الموادّ العضوية المجمّعة في الأوراق والتي تقوم بالتحالف [٢٩٢] (النّطاق الجذموريّ). إذا أكّدت التّطوريّة الجديدة طرافتها، فذلك جزئياً بالنّسبة إلى هذه الظّاهرات التي لا يذهب فيها التّطوّر من الأقلّ انفراقاً إلى الأكثر انفراقاً، ويكفّ عن أن يكون تطوّراً نسبيّاً وراثيّاً ليصبح بالأحرى تطوّراً سارياً أو معدياً. قد نختار إذاً أن نسميه «انغماداً» هذا الشّكل من التّطوّر الذي يتمّ بين متنافرات، شريطة أن لا نخلط خاصّة بين الانغماد والتّقهقر. التّصيّر انغماديّ، الانغماد خلّاق. التّقهقر هو الذّهاب نحو الأقلّ انفراقاً. لكنّ الانغماد هو تكوين كتلة تتّبع خاطئها الخاصّ، «بين» الحدود الموضوعية على المحكّ، وفي ظلّ العلاقات القابلة للتّعيين.

تبدو لنا التّطوريّة الجديدة مهمّة لسببين: لم يعد الحيوان يتحدّد بميزات (مخصوصة، نوعيّة، إلخ.)، إنّما بفئات متغيّرة من وسط إلى آخر أو في نفس الوسط؛ لم تعد الحركة تتمّ فقط أو خاصّة بواسطة إنتاجات سلائيّة، بل باتّصالات عرضانيّة بين فئات متنافرة. التّصيّر جذمور وليس شجرة تصنيفيّة أو جنيا لوجيّة. الأكّد أنّ التّصيّر ليس محاكاة أو تطابقاً؛ ولا هو كذلك تقدّم-تقهقر؛ ولا هو كذلك تناظر، إقامة علاقات متناظرة؛ ولا هو كذلك إنتاج، إنتاج سلالة، إنتاج بالسّلالة. التّصيّر فعل (verbe) له كلّ قوامه؛ إنّهُ لا يفضي بذاته ولا بنا إلى «الظّهور»، ولا إلى «الكيان» ولا إلى «التّساوي» ولا إلى «الإنتاج».

ذكريات ساحر، I. - نحن نتعاطي دائما في التصيّر - حيوانا مع زمرة، جماعة، فئة، إعمار، باختصار مع كثرة. نحن السحرة، نعرف ذلك في كلّ الأزمنة. قد يكون لهيئات أخرى، زيادة على اختلافها الشديد في ما بينها، تصوّر آخر للحيوان: يمكن أن نحفظ من الحيوان أو ان نستخلص منه بعض الخصائص، الأنواع والأجناس، الأشكال والوظائف، إلخ. المجتمع والدولة في حاجة إلى خصائص حيوانية لتصنيف الناس؛ التاريخ الطبيعي والعلم في حاجة إلى خصائص لتصنيف الحيوانات ذاتها. التسلسلية والبنوية تارة يُدرّجان الخصائص وفق تشابهها، تارة ينظّمانها وفق فروقها. الخصائص الحيوانية يمكن أن تكون ميثية أو علمية. لكننا نحن، نحن لا نهتمّ بالخصائص، نهتمّ بصيغ التوسّع والانتشار والاستيلاء والعدوى والتّعمير. أنا فيلق. انبهار إنسان الذّئاب أمام الكثير من الذّئاب التي تنظر إليه. ما الذي قد يكون ذئب لوحده؟ وحوت، قملة، فأر، ذبابة؟ بعْل زبول (Belzébut) هو الشّيطان، لكنّه الشّيطان بوصفه سيّد [٢٩٣] الذّباب. الذّئب أوّلا ليس خاصية أو مجموعة معيّنة من الخصائص، إنّهُ استذآب. القملة استقمال... إلخ. ما الصّرخة بمعزل عن الجماعة التي تناديها أو تكون شاهدة عليها؟ فرجينيا وولف لم تر ذاتها كقرد أو كسمكة، إنّما كمجموعة قرّة، سرب أسماك، وفق علاقة تصيّر متغيّر مع الأشخاص الذين تقترب منهم. لا نوّد القول إنّ بعض الحيوانات تعيش في قطعان؛ لا نوّد الدّخول في تصنيفات تطوريّة سخيّة على طريقة لورنتر، حيث قد يكون ثمة قطعان دنيا ومجتمعات عليا. نقول إنّ كلّ حيوان هو أوّلا جماعة، قطع. إنّ له صيغ قطع بدلا من خاصّيات، حتّى وإن كان ثمة إمكانيّة للقيام بتمييزات داخل تلك الصّيغ. تلك هي النّقطة التي يكون فيها للإنسان صلة بالحيوان. نحن لا نصير حيوانا دون انبهار بالقطع وبالکثرة. انبهار بالخارج؟ أم أنّ الكثرة التي تبهرنا هي ذاتها بالفعل في علاقة مع كثرة تسكننا من الدّاخل؟ يروي لوفكرافت (Lovecraft) في

رائعته أبالسة وعجائب، قصّة راندولف كارتر، الذي يحسّ بـ«أنّاه» يهتزّ، والذي يتملّكه خوف أكبر من الخوف من الامّحاء: «كارترّيون، لهم شكل إنسانيّ وغير إنسانيّ في نفس الوقت، فقاريّ وغير فقاريّ، حيوانيّ ونباتيّ، ذو وعي ودون وعي، بل وكارترّيون لا شيء يجمعهم مع الحياة الأرضيّة، كاثنون على خلفيّات كواكب، مجرّات ومنظومات تنتمي إلى متواليات كونيّة أخرى. (...) يفتح الغوص في العدم نسيانا مريحا، لكن أن يكون المرء واعيا بوجوده ويعرف مع ذلك أنه لم يعد كائنًا محدّدًا ومتميّزا عن الكائنات الأخرى»، ولا هو متميّز عن كلّ التّصيّرات التي تخترقنا، «ها هي قمّة ما لا ينقال من الرّعب والاحتضار». هوفمنستال (Hofmannsthal)، أو بالأحرى اللّورد شاندوس، يقف مشدوها أمام «شعب من الفئران» التي تحتضر، وإنّ فيه هو، عبره، في فجوات أناه المتحيّر، «تكشّر نفس الحيوان عن أسنانها للقدر المريع»: ليست شفقة إنّما هي مشاركة قسريّة^(١). حينئذ يولد فيه الأمر العجيب: إمّا التوقّف عن الكتابة أو الكتابة مثل فأر... إذا كان الكاتب ساحرا فلاّن الكتابة تصوّر، الكتابة تخترقها تصوّرات عجيبة ليست تصوّرات- كاتبًا، بل تصوّرات- فأرا، تصوّرات- حشرة، تصوّرات- ذبّابا، إلخ. سيتوجّب القول لمّ تنفسر الكثير من انتحارات الكتاب بهذه المشاركات القسريّة، بهذه الرّيجات القسريّة. الكاتب ساحر [٢٩٤] لأنّه يرى أنّ الحيوان هو الفئة الوحيدة التي يكون مسؤولا أمامها من جهة الحقّ. الما قبل رومنسي الألمانيّ موريتز (Moritz) يحسّ أنّه مسؤول، ليس عن العجول التي تموت، إنّما أمام العجول التي تموت والتي تمده بالإحساس العجيب بطبيعة مجهولة-الأفعال^(٢). ذلك أنّ الأفعال ليس إحساسا شخصيّا، وليس هو كذلك

(١) هيفو فون هوفمنستال، رسائل مسافر عند عودته، منشورات ماركير دي فرانس.

(٢) جون- كريستوف بايي، الأسطورة المشتّتة، مختارات من الرّومنتيقية الألمانية، منشورات ١٨/١٠، صص ٣٦-٤٣.

خاصية، إنه تجسيد قدرة قطع تهزّ الأنا وتجعله يتحير. من لم يعرف عنف هذه المتتاليات الحيوانية التي تنتزعه من البشرية ولو للحظة، وتجعله يقضم خبزه مثل القوارض أو تعطيه عيون الهرّ الصّفراء؟ انغماد رهيب ينادينا نحو تصوّرات مذهلة. إنّها ليست تفهقرات مع أنّ قطع تفهقر ومتواليات تفهقر تنضمّ إليها.

قد يتوجّب أن نميّز حتّى بين ثلاثة أنواع من الحيوانات: الحيوانات المفردنة، الأليفة والأسرية، العاطفية، الحيوانات الأوديّة، المضحكة، قطي «أنا»، كلبى «أنا»؛ هذه الحيوانات تدعونا إلى التّفهقر، تفضي بنا إلى تأمل نرجسيّ، والتّحليل النّفسيّ لا يفهم غير هذه الحيوانات، حتى يكتشف من تحتها بشكل أفضل صورة الأب، الأمّ، الأخ الأصغر (عندما يتحدّث التّحليل النّفسيّ عن الحيوانات، تتعلّم الحيوانات الضّحك): كل الذين يحبّون القطط والكلاب هم أغبياء. ومن بعد ذلك قد يكون ثمة نوع ثان، الحيوانات ذات الخاصية أو الصّفة، حيوانات الجنس، التّصنيف أو الدّولة، مثلما تتناولها الميثاث الرّبّانية الكبرى لتستخرج منها سلسلات أو بنيات، نماذج أصلانية أو نماذج مثاليّة (يونغ على آية حال أعمق من فرويد). أخيرا، قد تكون ثمة حيوانات أكثر شيطانيّة، ذات قُطعان واقّعالات، وتُشكّل كثرة، تصوّرا، سكّانا، حكاية... أو كذلك مرّة أخرى، ألا يمكن التّعاطي مع كلّ الحيوانات بالطّرق الثلاث؟ سيكون ثمة دائما إمكانيّة للتّعاطي مع حيوان ما، قملة، فهد أو فيل بوصفه حيوانا أليفا، حيواني أنا العزيز عليّ، وفي أقصى الطّرف الآخر، يمكن التّعاطي كذلك مع أيّ حيوان وفق صيغة القطيع أو التّكاثر، التي تلائمنا نحن، السّحرة. حتّى القطّ، حتّى الكلب... وأن يكون للرّاعي أو القائد، للشّيطان، حيوانه المفضّل في القطيع، فإنّ ذلك لا يكون بنفس الكيفيّة السّابقة. نعم، كلّ حيوان هو قطع أو يمكن أن يكون قطيعا، لكن وفق درجات اقتدار متغيّر، تجعل اكتشاف الكثرة ومؤدّاها يسير نسبيا، المؤدّى الذي

تحتويه حاليًا أو افتراضيًا وفق الحالات. أسراب، جماعات، قُطعان وسكّان ليست أشكالًا اجتماعيّة دنيّا، [٢٩٥] إنّها أفعّالات واقتدارات، انغمادات تأخذ كلّ حيوان في تصوّر ليس أقلّ قوّة من تصوّر الإنسان مع الحيوان.

خورخي لويس بورخيس، كاتب معروف بفيض ثقافته، قد أخفق على الأقلّ في كتابين، عنوانهما وحدهما كانا جميلين: أوّلا تاريخ الخزي الكونيّ، لأنّه لم ير الفرق الدقيق الذي يقيمه السّحرة بين الغشّ والخيانة (وبالفعل التّصيّرات- حيوانات حاضرة هناك، بالضرورة جهة الخيانة). مرّة ثانية في كتاب المخلوقات الخياليّة، حيث لا يكوّن فقط صورة مخلّطة وباهتة عن الميثة، لكنّه يحذف كلّ مشكلات القطيع، ويحذف بالنّسبة إلى الإنسان المشكل المُناظر في تصوّره- حيوانا: «نستبعد من هذا الكتاب بشكل متعمّد، الأساطير حول تغيّرات الكائن البشريّ، الليبوزون، المستذئب، إلخ.» لا يهتمّ بورخيس إلّا بالخصائص، حتّى الأشدّ خياليّة من بينها، بينما يعرف السّحرة أن المستذئبين هم جماعات، وكذلك مصّاصو الدّماء، وأنّ هذه الجماعات يتغيّر بعضها في بعضها الآخر. لكن بصورة محدّدة، ما معنى أن يكون الحيوان جماعة أو قطيعا؟ ألا تستتبع الجماعة سلالة قد تعيدنا إلى إنسال بعض الخصائص؟ كيف نفهم قطيعا، انتشارا، تصوّرا، دون سلالة ودون إنسال وراثيّ؟ كثرة دون وحدة سلف؟ الأمر بسيط جدّا والجميع يعرفون ذلك، حتّى وإن كانوا لا يتحدّثون عنه إلّا سرّا. نعارض السّلالة بالبواء، الوراثة بالعدوى، الإنسال المجنّسن والاستيلاد الجنسيّ بالتكاثر عن طريق العدوى. تتكاثر الجماعات البشريّة والحيوانيّة عن طريق انتقالات العدوى، الأوبئة، الحروب والكوارث. مثلما هو الحال عند المهجّنين، عقيمون هم ذواتهم، ولدوا عن طريق جِماع لن يحدث ثانية، لكنه يتكرّر في كلّ مرّة، متفشّيا أكثر فأكثر. المشاركات والزّيجات القسريّة هي الطّبيعة الحقيقيّة التي

تخترق الممالك الحيوانية. الانتشار بواسطة الوباء والعدوى لا علاقة له بالسَّلالة عن طريق الوراثة، حتَّى وإن اختلط الموضوعان وكان كلٌّ منهما في حاجة إلى الآخر. مَصَّاص الدَّماء لا يُنْسَب، إنَّه يُعَدِي. الفَرْق هو أنَّ العدوى أو الوباء يضع على المحكَّ حدودا متنافرة كَلِّيًا: مَثَلًا، إنسان، حيوان وجرثومة، فيروس، هبَاءة، عضويَّة مجهرية. أو كما بالنَّسبة إلى الفُطر، شجرة، ذبابة وخنزير. تركيبات لا هي وراثية ولا هي بنويَّة، إنَّها بين-ممالك، مشاركات قسريَّة، لكنَّ الطبيعة لا تعمل إلَّا على هذا النِّحو، ضدَّ ذاتها. نحن بعيدون عن الإنسال السُّلاليّ، عن الاستيلاد الوراثيّ الذي لا يحتفظ من الفروقات إلَّا بمجرّد ثنائيَّة جنسيَّة داخل نفس النّوع، وبتبدّلات طفيفة على مدى [٢٩٦] الأجيال. بالنَّسبة إلينا، على النقيض من ذلك، ثَمَّة الكثير من الأجناس بقدر ما ثَمَّة من الحدود المتعايشة، ثَمَّة الكثير من الفروق بقدر ما ثَمَّة من العناصر المتدخّلة في مسار عدوى. نعرف أنَّه في العلاقة بين رجل وامرأة تمرّ الكثير من الكائنات المتأثّية من عوالم أخرى، تحملها الرياح وتشكّل جذمورا حول الجذور، وتستعصي على الفهم بصيغة الإنسال ولا تُفهم إلَّا بصيغة التّصير. الكون لا يعمل سلائيًا. إذًا نقول فقط إنَّ الحيوانات هي قُطعان، وإنَّ القطعان تتكوّن، تتطوّر وتتغيّر عن طريق العدوى.

هذه الكثرات ذات الحدود المتنافرة والعاملة تشاركيا بالعدوى، تدخل في تنضيدات معيَّنة، وهناك يُجري الإنسان تصيُّراته- حيوانات. لكن بالتّحديد، لن نخلط بين التّنضيدات المبهمة التي تحرك الأعمق فينا، وبين تنظيمات مثل مؤسّسة الأسرة وجهاز الدّولة. قد يكون بوسعنا ذِكر مجتمعات الصّيد، مجتمعات الحرب، المجتمعات السّريَّة، مجتمعات الجريمة، إلخ. التّصيّرات- حيوانات تنتمي إليها. لن نبحت فيها عن أنظمة سلائيّة من النّمط الأسريّ، ولا عن صيغ تصنيف وإسناد من نمط دولانيّ أو قبل دولانيّ، ولا حتّى عن مؤسّسات تسلسليّة من

النَّمط الدِّينِيّ. بالرَّغم من المظاهر والالتباسات الممكنة، لا تجد الميثاث هنا لا مجالاً لمأثاتها ولا نقطة لتطبيقها. إنّها حكاياتٌ أو قصصٌ وملفوظاتٌ تصيّر. من العبث أيضاً تدريج حتى الجماعات الحيوانية من زاوية نظر تطورية تخيلية حيث قد تكون القطعان في أدنى درجة، وقد تترك مكانها لاحقاً لمجتمعات أسرية ودولية. على التقيض من ذلك ثمة فرق بالطبيعة، وأصل القطعان مغاير تماماً لأصل الأسر والدول، وهو لا يفتأ يعركها تحتياً ويربكها من الخارج بصور مضمون أخرى وبصور تعبير أخرى. القطيع هو في نفس الوقت حقيقة حيوانية وحقيقة تصيّر الإنسان حيواناً؛ العدو هي في نفس الوقت تكاثر حيواني وانتشار تكاثر حيواني للإنسان. مكنة الصيد، مكنة الحرب، مكنة الجريمة تنجر عنها كلّ ضروب التصييرات - حيوانات التي لا تعبّر عن ذاتها في الميثاة ناهيك عنها في الطوطمية. لقد بين دوميزيل (Dumézil) كيف أنّ مثل هذه التصييرات كانت تنتمي أساسياً للمحارب، لكن طالما كان خارج الأسر والدول، طالما كان يززع السلالات والتصنيفات. مكنة الحرب كائنة دائماً خارج الدولة حتى عندما تستخدمها الدولة وتستولي عليها. للمحارب تصيّر بأكمله يتضمّن كثرة، سرعة، انتشاراً في كلّ مكان وفي كلّ الأوقات، انقلاب عين وخيانة، اقتدار أفعال. الرّجال - الذئاب، الرّجال - الدّبة، [٢٩٧] الرّجال - المفترسون، الرّجال من كلّ حيوانية، من كلّ الجمعيات السّرية، يحركون ميادين الحرب. لكنّ كذلك القطعان الحيوانية التي يستخدمها الناس في الحرب، أو التي تتابع الحرب وتستفيد منها. وجميعهم معا ينشرون العدو^(١). ثمة مجموعة معقدة، تصيّر الإنسان

(١) حول المحارب، موضعه البراني بالنسبة إلى الدولة، إلى الأسرة، إلى الدين، حول التصييرات - حيوانات والتصييرات - مفترسين التي يدخل فيها، راجع دوميزيل، وبشكل خاص ميثاث وآلهة الجرمانيين؛ الهوراسيون والكرياسيون؛ حسن طالع المحارب وسوء طالعه؛ الميثاة والملحمة، الجزء الثاني. سنود

حيوانا، قُطعان حيوانات، فيلة وفئران، رياح وأعاصير، جراثيم تنشر العدوى. الغضب الواحد نفسه. لقد تَضَمَّنَت الحرب متتاليات حيوانية قبل أن تتحوَّل إلى حرب جرثومية. هناك يتكاثر المستذئبون ومصاصو الدماء، مع الحرب، مع الجوع والوباء. أيّ حيوان يمكن أن تتملَّكه هذه القُطعان والتَّصَيُّرات المناظرة لها؛ لقد رأينا قططا في ساحات الحرب، بل وتُشكِّل جزءً من الجيوش. لذلك يجب أن يكون التَّمييز بين أنواع الحيوانات أقلَّ من التَّمييز بين الحالات المختلفة التي تندمج وفقها هذه الحيوانات في مؤسَّسات أُسريَّة، في أجهزة دولة، في مكناات حرب، إلخ. (ومكنة الكتابة، أو المكنة الموسيقيَّة، ما علاقتها بالتَّصَيُّرات - حيوانات؟).

ذكريات ساحر، II. - كان مبدؤنا الأوَّل يقول: قطع وعدوى، عدوى قطع، من هنا يمرَّ التَّصَيُّر - حيوانا. لكنَّ مبدأ ثانيا يبدو أنَّه يقول العكس: حيثما كانت ثمة كثرة ستجدون كذلك فردا استثنائيًا، وإنه معه سيتوجَّب التَّحالف من أجل التَّصَيُّر - حيوانا. لعلَّه لا وجود لذئب لوحده، لكن ثمة زعيم الجماعة، سيّد القطيع، أو الزعيم القديم المُقال

كذلك إلى الدِّراسات حول مجتمعات الرِّجال - الفهود، إلخ. ، في إفريقيا السوداء: من المحتمل أن تجد هذه المجتمعات أصلها في الجماعات المحاربة. لكن من حيث أنَّ الدَّولة الاستعماريَّة تمنع الحروب القَبليَّة، فإنَّها تتحوَّل إلى مجتمعات جريمة، مع حفاظها على أهميَّتها السياسيَّة والإقليميَّة. واحدة من أفضل الدِّراسات بهذا الخصوص هي دراسة بول - أرناست جوزاي (Joset Paul - Ernest)، المجتمعات السَّريَّة للرِّجال - الفهود في إفريقيا السوداء، منشورات بايو. التَّصَيُّرات - حيوانات الخاصَّة بهذه الجماعات تبدو لنا مختلفة جدًّا عن العلاقات الرَّمزيَّة إنسان - حيوان مثل تلك التي تظهر في أجهزة الدَّولة، لكن كذلك في مؤسَّسات ما قبل الدَّولة من التَّوع الطَّوطمي. يبيِّن ليفي - شتراوس بوضوح الكيفيَّة التي تتضمَّن بها الطَّوطميَّة بالفعل ضربا من الدَّولة الجينيَّة، من حيث أنَّها تتخطَّى الحدود القَبليَّة (الفكر البرِّي، ص ٢٢٠ وما بعدها).

الذي يعيش الآن وحيدا، ثمّة المتوحد، أو ثمّة الشيطان أيضا. لولّا حيوانه المفضّل الذي هو الفأر بان، وهو لا يتصيّر - فأرا إلّا في علاقة به، في ضرب من تحالف المحبة ثمّ البغضاء. موبى ديك هو واحد من أعظم روائع التّصيّر؛ للرّبّان آشاب تصيّر - حوت [٢٩٨] لا يقاوم، لكن فعلا لأنّه يتحاشى القطيع أو السّرب، ويمرّ مباشرة عبر تحالف فظيع مع الأوحّد، مع اللّوثيان، موبى ديك. ثمّة دائما ميثاق مع الشّيطان، ويظهر الشّيطان تارة بوصفه زعيم الجماعة وتارة بوصفه متوحدًا إلى جانب الجماعة، تارة بوصفه الاقترار الأعلى للجماعة. للفرد الاستثنائيّ الكثير من الوضعيّات الممكنة. كافكا، هو كذلك كاتب كبير بخصوص التّصيّرات الحيوانيّة الفعلية، يمتدح شعب الفئران؛ لكنّ جوزفين، الفأرة المغنّية، لها تارة وضعيّة مميّزة داخل الجماعة، تارة وضعيّة خارج الجماعة، تارة تتسلّل وتغيب مجهولة في الملفوظات الجماعيّة للجماعة. باختصار، لكلّ حيوان لا انتماؤه (Anomal). نعني: كلّ حيوان في قطيعه أو في كثرته له لا انتماؤه. لقد أمكننا أن نلاحظ كون كلمة «اللامنتمي»، وهي نعت مهجور، كان لها أصل مختلف جدّا عن كلمة «لا عاديّ» (anormal): اللّا عاديّ، وصف لاتينيّ دون موصوف، ينعت ما لا قاعدة له أو ما يناقض القاعدة، بينما «اللامنتمي» هو موصوف يونانيّ فقد وصفه، يشير إلى اللّا متساوي، الخشن، الغلظة، قمّة اللّا تارّضن^(١). اللّا عاديّ لا يمكن تعريفه إلّا وفق خاصيّات، مخصوصة أو نوعيّة؛ لكنّ اللّامنتمي هو وضعيّة أو مجموعة وضعيّات بالنّسبة إلى كثرة. السّحرة يستخدمون إذا النّعت القديم «لا منتمي» لتركيز وضعيات الفرد الاستثنائيّ في القطيع. دائما مع اللّامنتمي، موبى ديك أو جوزفين، يتمّ التحالف من أجل التّصيّر - حيوانا.

(١) راجع جورج كانغيلام، السويّ واللاسويّ، المنشورات الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٨١ - ٨٢.

قد يقال إنه ثمة تناقض: بين القطيع والمتوحد؛ بين العدوى الجماعية والتحالف التفضيلي؛ بين الكثرة المحض والفرد الاستثنائي، بين الكلّ العرضي والاختيار المسبق. والتناقض فعليّ: أشاب لا يختار موبي ديك، في هذا الاختيار الذي يتجاوزه والذي يأتي من مكان آخر، دون أن يقطع مع قانون صائديّ الحيتان الذي ينصّ على وجوب ملاحقة القطيع أولاً. بنتيسيليا (Penthésilée) تخرق قانون القطيع، قطع النساء، قطع الكلبات، عندما تختار أشيل بوصفه عدوّاً مفضّلاً. ومع ذلك فإنّه بواسطة هذا الاختيار اللامنتمي يدخل كلّ واحد في تصوّره - حيواناً، تصوّره - كلب بنتيسيليا، تصوّره - حوت الرّبّان أشاب. نحن السّحرة، نعرف جيّداً أنّ التّناقضات فعلية، لكنّ التّناقضات الفعلية ليست للإضحاك. ذلك أنّ المسألة كلّها هي: ما طبيعة اللّامنتمي على وجه التّحديد؟ ما وظيفته بالنّسبة إلى الجماعة، بالنّسبة إلى القطيع؟ من البديهيّ أنّ اللّامنتمي ليس هو مجرد الفرد الاستثنائيّ، وهو [٢٩٩] ما قد يحيله إلى الحيوان الأسري أو الأليف، المُدبّين على طريقة التّحليل النّفسيّ، صورة الأب... إلخ. بالنّسبة إلى أشاب، موبي ديك لا يشبه القطّ الصّغير أو الكلب الصّغير لامرأة عجوز تفضّله وتُعزّه. بالنّسبة إلى لورانس، التّصير - سلحفاة الذي دخل فيه لا صلة له بعلاقة وجدانية وأليفة. لورانس بدوره ينتمي إلى الكتاب الذين يسبّبون لنا مشكلاً وإعجاباً، لأنّهم عرفوا كيف يربطون كتابتهم بتصيّرات - حيوانات فعلية مذهلة. لكن يقع الاعتراض حقّاً على لورانس: «سلاحفك ليست واقعية!» ويجيب: ذلك ممكن، لكن تصوّري هو كذلك، تصوّري واقعيّ، بل وخاصّة إذا كنتم لا تقدرون على تقويمه، لأنكم كلاب صغيرة أليفة...^(١). اللّامنتمي، العنصر التّفضيليّ للقطيع، لا صلة له

(١) دافيد هربارت لورانس: «لقد تعبت من سماع القول إنّّه ليس ثمة مثل هذه الحيوانات. (...) إذا كنتُ زرافة، والأنغليز العاديّون الذي يكتبون عني هم

بالفرد المفضّل، الأليف والتحليليّ النفسيّ. لكنّ اللامنتمي ليس هو كذلك حامل نوع، قد يمثّل الخصائص المميّزة والنوعية في حالتها الأنقى، ليس هو النموذج أو المثال الأوحد، الكمال النموذجيّ المجسّد، الحدّ النهائيّ لسلسلة، أو عماد تناظر متناغم بإطلاق. اللامنتمي لا هو فرد ولا هو نوع، إنّهُ لا يحمل غير أفعالات، ولا يتضمّن لا عواطف أليفة أو مُدْتَيّنة، لا خصائص مميّزة أو مهمّة. العواطف والتصنيفات البشريّة هي كذلك غريبة عنه. لوفكرافت يسمّي دخيلاً (Outsider) هذا الشيء أو هذه الوحدة، الشيء الذي يحدث ويتخطّى جانبياً، هو خطّيّ ومع ذلك متعدّد، «مزدحم، مهتاج، عاصف، مُزبد، منتشر مثل مرض مُعد، هذا الارتياح الذي لا اسم له». لا هو فرد ولا هو نوع، فما اللامنتمي؟ إنّهُ ظاهرة، لكنّه ظاهرة حافة. ها هي فرضيتنا: لا تحدّد الكثرة بالعناصر التي تكونها ما صدقيّاً ولا بالخاصّيات التي تكونها مفهوميّاً، إنّما بالخطوط والأبعاد التي تتضمّنّها هي «داليّاً». بتغيير الأبعاد بالزيادة أو بالنقصان، تتغيّر الكثرة. من هنا وجود حافة وفق كلّ كثرة، حافة ليست مركزاً على الإطلاق، بل هي الخطّ المطوّق أو البُعد الأقصى الذي تبعاً له يمكن أن نُحصي الأبعاد الأخرى، كلّ تلك التي تكون القطيع في لحظة معيّنة (في ما أبعد من ذلك قد تُغيّر الكثرة من طبيعتها). ذلك هو ما يقوله الرّبّان آشاب لمعاونه: لا علاقة شخصيّة لي بموبي ديك، لا ثأر لي عنده، [٣٠٠] لا ميثة لأسردها، لكن عندي تصوّر! موبي ديك لا هو فرد ولا هو جنس، إنّهُ الحافة، ويجب أن أصيبها لبلوغ القطيع كلّهُ، لإصابة القطيع كلّهُ واجتيازه. عناصر القطيع ليست سوى «قوالب»

كلاب لطيفة مهذّبة، فالأمر بيّن، الحيوانات مختلفة. (...) أنتم لا تحبّوني، أنتم تكرهون غريزياً الحيوان الذي أنا إيّاه» (رسائل مختارة، منشورات بلون، الجزء الثاني، ص ٢٣٧).

خيالية، خصائص القطيع ليست غير وحدات رمزية، وحدها الحافة مهمة- اللامنتمي مهم. «بالنسبة إليّ هذا الحوت الأبيض هو السور، القريب جدًا منّي»، الجدار الأبيض، «أعتقد أحياناً أنه لا شيء وراءه، لكن لا بأس!» بالتالي إذا كان اللامنتمي هو الحافة، فإنّه يمكننا أن نفهم بشكل أفضل وضعياته المتعدّدة بالنسبة إلى القطيع أو إلى الكثرة التي يحيط بها، والوضعيات المتعدّدة لأننا منبهر. يمكن أن نقوم حتّى بتصنيف للقطعان دون السقوط مجدّداً في حبال نزعة تطوريّة لا ترى في ذلك غير درجة جماعيّة دنيا (بدلاً من التفكير في التّنضيدات الخاصّة التي تضعها القطعان على المحكّ). على أيّة حال، ستكون ثمة حافة قطع ووضعية لا منتمية، في كلّ مرّة، في فضاء معيّن، سيوجد حيوان على الخطّ أو بصدد رسم خطّ يكون كلّ أعضاء القطيع الآخرين بالنسبة إليه في نصفه، الأيسر أو الأيمن: وضعية محيطيّة تجعلنا لم نعد نعرف ما إذا كان اللامنتمي ما يزال داخل القطيع، خارج القطيع بالفعل، أو على حافة القطيع المتحرّكة. لكن تارة كلّ حيوان هو الذي يبلغ هذا الخطّ أو يحتلّ هذه الوضعيّة الديناميّة، كما في قطع من البعوض حيث «يتنقّل كلّ فرد من المجموعة بشكل عشوائيّ حتّى يرى كلّ مُجانسيه في نصف الفضاء نفسه، حينها يسرع إلى تغيير حركته بطريقة تجعله يدخل في الجماعة، الاستقرار يقع تأمينه كارثياً بواسطة حاجز^(١)». تارة حيوان بعينه هو الذي يرسم الحافة ويحتلّها من حيث أنّه هو رئيس القطيع. تارة يقع تحديد الحافة أيضاً أو مضاعفتها بكائن من طبيعة أخرى، لم يعد ينتمي إلى القطيع، أو لم ينتم إليه أبداً، ويمثّل قدرة من نوع آخر، يمكن أن يعمل بوصفه تهديداً كما أيضاً بوصفه مروّضاً، لا منتمياً... إلخ. على أيّة حال، لا وجود لجماعة دون ظاهرة الحافة

(١) رونه طوم، الاستقرار البنيوي والتشكّل الحيوي، منشورات و. أ. بنيامين، ص ٣١٩.

هذه أو دون ما هو لا منتم. صحيح أنّ الجماعات ملغومة كذلك بقوى مختلفة جدًا تنشئ فيها مراكز داخلية من نمط زواجي أو أسري، أو من نمط دولاني، وتجعلها تمرّ إلى شكل اجتماعية مغاير تمامًا، مستبدلة أفعالات القطيع بمشاعر الأسرة أو بمعقولات الدولة. يتخذ المركز أو الثقوب السوداء الدور الرئيسي. هذا هو المكان الذي تستطيع التطورية أن ترى فيه تقدّمًا، في هذه [٣٠١] المغامرة التي تحدث كذلك للجماعات البشرية عندما تعيد بناء أسروية المجموعة، أو حتى عندما تعيد بناء تسلّطية أو فاشية قطع.

كان للسحرة دوماً الوضعية اللا منتمية، على حدود الحقول أو الغابات. إنهم يسكنون التخوم. إنهم على حافة القرية أو بين قريتين. المهمّ هو انسجامهم مع الاقتران، مع الميثاق، انسجامهم الذي يمنحهم منزلة مقابلة لمنزلة السلالة. العلاقة مع اللا منتمي هي علاقة اقتران. الساحر في علاقة اقتران مع الشيطان بوصفه قوّة ما هو لا منتم. ميّز الثيولوجيون القدامى بوضوح بين ضربين من اللعنة التي كانت تُسلّط على الجنسانية. تتعلّق الأولى بالجنسانية بوصفها مساراً سلالياً تنقل بواسطته الخطيئة الأصلية. لكنّ اللعنة الثانية تتعلّق بالجنسانية بوصفها قوّة اقتران، وتوحي بارتباطات محرّمة أو بعلاقات جنسية مستهجنة: إنّها تختلف فضلاً عن ذلك عن الأولى من جهة سعيها إلى منع الإنجاب ومن جهة كون الشيطان لا قدرة له هو ذاته على الإنجاب، يجب أن يمرّ بوسائل غير مباشرة (فيكون بالتالي هو الشيطانة الأنثى لرجل ليصبح الشيطان الذكّر لامرأة ينقل إليها منّي الأول). صحيح أنّ الاقتران والسلالة يدخلان في علاقات تنظّمها قوانين الزواج، لكن حتى في هذه الحالة يحافظ الاقتران على قدرة خطيرة ومعدية. لقد تمكّن ليش (Leach) من بيان أنّ الساحر ينتمي أولاً، رغم كلّ الاستثناءات التي يبدو أنّها تكذب هذه القاعدة، إلى جماعة لا تربطها غير علاقة اقتران بمن يمارس عليه تأثيره: بالتالي، في جماعة أمومية، يجب البحث عن

السّاحر أو السّاحرة جهة الأب. وثمة تطوّر كامل للسّحر وفق ما يحوزه الاقتران من استمراريّة أو ما يتّخذ من قيمة سياسيّة^(١). لا يكفي أن يشبه المرء ذئبا أو أن يحيا مثل ذئب حتى يُنتج مستذئبين في عائلته: يجب أن تقع مضاعفة الميثاق مع الشّيطان باقتران مع عائلة أخرى، وعودة الاقتران إلى العائلة الأولى أو تأثير هذا الاقتران على العائلة الأولى هو الذي يُنتج مستذئبين على شاكلة ارتكاسيّة. حكاية جميلة لأركمان وشاتريون هي الذّئب هوغ (*Hugues le loup*)، تستجمع التّقاليّد التّراثيّة حول هذه الوضعيّة المعقّدة.

نلحظ التّلاشي المتزايد للتّناقض بين مبحثي «العدوى مع الحيوان بوصفه قطيعا»، «الميثاق مع اللاّمتعي بوصفه كائنا استثنائيّا». يمكن لـيش أن يجمع وهو على حقّ مفهومَي الاقتران والعدوى، الميثاق والوباء؛ يكتب في تحليله لسحر الكاشين (*Kachin*): «يُفترض في التّأثير الشّرّير أن يُنقل عن طريق الطّعام الذي تُعده المرأة (...). [٣٠٢] سحر الكاشين مُعَدّ بدلا من كونه وراثيّ، (...) إنّهُ مرتبط بالاقتران وليس بالنّسب.» الاقتران أو الميثاق هما صورة التّعبير، لعدوى أو لوباء هما صورة المضمون. في السّحر، الدّم للعدوى وللأقتران. سنقول إنّ تصوّرا - حيوانا هو مسألة سحر، ١) لأنّه يستتبع علاقة اقتران أولى مع شيطان؛ ٢) لأنّ هذا الشّيطان يمارس وظيفة حافّة قطع حيوانيّ ينتقل إليه الإنسان أو يتصيّر فيه عن طريق العدوى؛ ٣) لأنّ هذا التّصيّر يستتبع هو ذاته اقترانا ثانيا مع جماعة بشريّة أخرى؛ ٤) لأنّ هذه الحافّة الجديدة بين المجموعتين تقود عدوى الحيوان والإنسان داخل القطيع. ثمة سياسة بكاملها للتّصيّرات - حيوانات بوصفها سياسة سحر: تُبنى هذه السّياسة في التّنصيدات التي لا هي

(١) آدموند إدوار ليش، نقد الأنثروبولوجيا، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٤٠ -

تنضيدات الأسرة، لا هي تنضيدات الدّين، لا هي تنضيدات الدّولة. قد تعبّر بالأحرى عن جماعات أقلّيّة أو مقموعة أو محظورة أو متمرّدة أو دائماً على حافة المؤسّسات الرّسميّة، وهي أكثر سرّيّة بقدر ما تكون برّانيّة، باختصار هي لا منتمية. إذا اتّخذ التّصيّر- حيوانا شكل الغواية وشكل المسوخ التي يثيرها الشّيطان في المخيلة، فلأنّه يكون مصحوباً في أصوله كما في عمله، بقطيعة مع المؤسّسات المركزيّة القائمة أو التي تبحث عن الإنشاء.

لنذكر دون نظام، ليس من أجل صنع أخلاط وإنّما بالأحرى من أجل دراسة حالات مختلفة: التّصيّرات- حيوانات في مكنة الحرب، رجال- مفترسون من كلّ نوع، لكن مكنة الحرب تأتي تحديداً من الخارج، إنّها برّانيّة بالنّسبة إلى الدّولة التي تعامل المحارب بوصفه قوّة لا منتمية؛ التّصيّرات- حيوانات في مجتمعات الجريمة، الرّجال- الفهود، الرّجال- التّماسيح، عندما تمنع الدّولة الحروب المحليّة والقبليّة؛ التّصيّرات- حيوانات في مجموعات القطعان، عندما تجد الكنيسة والدّولة ذاتيهما أمام حركات مزارعين مع مكوّن سحريّ، وسيقمعانها بإقامة منظومة بكاملها من محكمة وقانون صالح لإبطال الموائيق مع الشّيطان؛ التّصيّرات- حيوانات في جماعات الزّهد، النّاسك الذي يتغذّى بالعشب أو الدّابة المفترسة، لكنّ مكنة الزّهد هي في وضعيّة لا منتمية، في وضعيّة خطّ إفلات، بجانب الكنيسة، وتعترض على سعي هذه الأخيرة إلى أن تصنع من نفسها مؤسّسة إمبراطوريّة^(١)؛ التّصيّرات- حيوانات في مجتمعات المسارّة الجنسيّة من نوع «المفتضّ المقدّس»، رجال- ذئاب، رجال- تيوس، إلخ.، يدّعون الانتساب إلى اقتران أعلى من نظام الأسر وخارجاً عنه، بينما سيكون للأسر أن تكسب ضدّهم حقّ تنظيم اقتراناتهم التي تخصّصهم، أن

(١) راجع جاك لاكاريار، عباد الله الممخومرين، منشورات فايار.

يحدّدوها وفق [٣٠٣] علاقات نسب إضافية، وأن يدجنوا قدرة الاقتران المهتاجة هذه^(١).

حينئذ بطبيعة الحال، تظلّ سياسة التّصيّرات- حيوانات ملتبسة إلى أقصى حدّ. ذلك أنّ المجتمعات حتى البدائية منها لن تتوقّف عن تملّك هذه التّصيّرات لكسرها وإرجاعها إلى علاقات تناظر طوطميّة أو رمزيّة. لن تتوقّف الدّول عن تملّك مكنة الحرب في شكل جيوش قوميّة تقيّد بشكل دقيق تصيّرات المحارب. لن تتوقّف الكنيسة عن حرق السّحرة

(١) درس بيار غوردون، (المُساوّة الجنسيّة والتّطوّر الدينيّ، المنشورات الجامعيّة الفرنسيّة) دور الرّجال- الحيوانات في طقوس «الافتضاض المقدّس». هؤلاء الرّجال- الحيوانات يفرضون اقترانا طقوسيّاً على جماعات السّلالة، يتّمون هم ذواتهم إلى طوائف خارجيّة أو على الحافة، وهم أسياد العدوى والوباء. يحلّل غوردون ردّة فعل القرى والمدن عندما تدخل في صراع ضدّ هؤلاء الرّجال- الحيوانات، ليكون لهم الحقّ في إقامة مُساوَرَاتهم الخاصّة وفي تنظيم اقتراناتهم وفق سلاطاتهم الخاصّة (كذا الصّراع ضدّ التّنين). - نفس المبحث مثلاً بالنّسبة إلى «الرّجل- الضّبع في التّراث السّوداني» (راجع، جنيفاف كالام- غريول وزبادونيس ليجارس، ضمن الإنسان، ماي ١٩٦١): يعيش الرّجل- الضّبع على حافة القرية أو بين قريتين، ويراقب الاتّجاهين. بطل أو حتى بطلان لكلّ منهما خطيبته في قرية الآخر، سينتصران على الرّجل- الحيوان. كما لو أنّه رَجَب التّمييز بين حالتي اقتران مختلفتين جدّاً: اقتران شيطانيّ يُفرض من الخارج، ويفرض قانونه على كلّ السّلالات (اقتران قسريّ مع الوحش، مع الرّجل- الحيوان)؛ ثمّ على النقيض من ذلك، اقتران إراديّ متطابق مع قانون السّلالات، عندما يتغلّب رجال القرية على الوحش وينظّمون علاقاتهم الخاصّة. مسألة نكاح المحارم يمكن أن تتغيّر. إذ لا يكفي القول إنّ تحرّم نكاح المحارم يتأتّى من الاقتضاءات الإيجابيّة للاقتران بعامّة. ثمّة بالأحرى اقتران غريب جدّاً عن السّلالة، معادٍ جدّاً للسّلالة، بحيث يتّخذ حتميّاً وضعيّة نكاح المحارم (الرّجل- الحيوان في علاقة دائمة بنكاح المحارم). يحرمّ الاقتران الثّاني نكاح المحارم لأنّه لا يمكن أن يكون تابعا لحقوق السّلالة إلّا باستقراره تحديداً بين سلاتين متمايزتين. يظهر نكاح المحارم مرّتين، بوصفه قوّة مرعبة للاقتران عندما يقلب هذا الأخير السّلالة، لكن كذلك بوصفه قوّة محرّمة للسّلالة عندما تستلحق هذه الأخيرة الاقتران وعليها تقسيمه بين أنساب متمايزة.

أو كذلك عن إعادة إدماج النَّسَّك في صورة ملطّفة لسلسلة القديسين الذين لم يعد لهم مع الحيوان غير علاقة أليفة وأهليّة بشكل عجيب. لن تتوقّف الأسر عن تحاشي القرين الشّيطانيّ الذي ينخرها، لتنظّم في ما بينها الاقترانات الملائمة. سنرى السّحرة يخدمون القادة، يضعون أنفسهم تحت تصرّف الاستبداد، يمارسون الرّقية كسحر مضادّ، ينتقلون جهة الأسرة والنّسب. لكن كذلك أيضا، سيكون موت السّاحر كما موت التّصيّر. سنرى التّصيّر يتمخّض عن كلب أليف ضخم، كما في لعنة ميلّار («كان من الأفضل أن نحكي، أن نقوم بدور [٣٠٤] الدّابة، بدور الكلب على سبيل المثال، أتلقّف العظم الذي قد يلقون به لي بين الفينة والأخرى») أو لعنة فيتزجيرالد («سأحاول أن أكون حيوانا مستقيما قدر الإمكان، وإذا ألقيتم لي عظما مكسّوا بما يكفي من اللّحم، لعلّي سأكون حتى قادرا على لعق اليد»). قلب عبارة فاوست: إذا هذه كانت صورة الطّالب المتجوّل؟ مجرد كلب طويل الشّعر!

ذكريات ساحر، III. - لا يجب تعليق أهميّة حصرية على التّصيّرات- حيوانات. قد تكون هذه التّصيّرات بالأحرى أقسومات تحتلّ منطقة وسطى. في ما دونها، نعثر على تصيّرات- امرأة، تصيّرات- طفلا (لعلّ التّصيّر- امرأة يمتلك سلطة استهلاكيّة خاصّة على بقيّة التّصيّرات، وليست المرأة هي السّاحرة بقدر ما هو السّحر الذي يمرّ بهذا التّصيّر- امرأة). في ما أبعد من ذلك أيضا، نجد تصيّرات- عنصرية، خلويّة، هبائيّة، وحتى تصيّرات- تدقّ عن الإدراك. مكنسة السّاحرات، إلى أيّ عدم تسوق هذه التّصيّرات؟ وآشاب، إلى أيّ مكان يسوقه موبي ديك بشكل هادئ جدّا؟ يجعل لوفكرافت بطله يمرّ بحيوانات عجيبة، لكنّه في النّهاية يدخل في المنطقة القصوى لمتمّصل مأهول بتموجات تندّ عن التّسمية وبجسيّمات لا وجود لها. للخيال العلميّ تطوّر كامل يجعله ينتقل من التّصيّرات حيوانات، نباتات أو

معادن، إلى تصيّرات جراثيم، فيروسات، هبّاءات وما يدقّ عن الإدراك^(١). مضمون الموسيقى الموسيقيّ على وجه الدقّة تجوبه تصيّرات- امرأة، تصيّرات- طفل، تصيّرات- حيوان، لكنّه ينحو بشكل متزايد في ظلّ كلّ ضروب التأثيرات التي تخصّ كذلك الآلات، إلى التّصير هبائيّا، في ضرب من البقبة الكونيّة حيث يُسمّع غير المسموع، يظهر ما يدقّ عن الإدراك بما هو كذلك: لم يعد الطّير الصّادح بل الهبّاء المدويّة. إذا كان تجريب المخدّرات طبع النّاس جميعا، حتى غير المدمنين، فذلك نتيجة تغيير الإحداثيات الإدراكيّة للمكان- الزّمان، وجعلنا ندخل في عالم إدراكات مجهرية حيث تحلّ التّصيّرات الهبائيّة محلّ التّصيّرات الحيوانيّة. تُبين كُتب كاستنادا بوضوح هذا التّطوّر، أو بالأحرى هذا الانغماد، حيث أفعالات التّصير- كلبا على سبيل المثال حلّت محلّها أفعالات التّصير- هبائيّا، إدراكات الماء والهواء مجهرية، إلخ. يتقدّم إنسان مترنّحا من باب إلى آخر، ويتبخّر في الهواء: «كلّ ما يمكنني أن أقوله لك، هو إنّنا مائعون، كائنات مضيئة مكوّنة من ألياف^(٢)». كلّ الرّحلات المسمّاة رحلات مُسارّة تتضمّن هذه العتبات [٣٠٥] وهذه الأبواب حيث يتصير التّصير ذاته، وحيث نغيّر التّصير وفق «ساعات» العالم، وفق دوائر جحيم أو وفق مراحل رحلة، جميعها تُنوّع الدّرجات، الأشكال والصّرخات. من الصّيحات الحيوانيّة إلى زعيق العناصر والجسيمات.

إذا، القُطعان، الكثرات لا يفتأ يتغيّر بعضها في بعضها الآخر، يمرّ بعضها في بعضها الآخر. يتحوّل المستذبّون بعد موتهم إلى مصّاصيّ دماء. لا غرابة في ذلك ما دام التّصير والكثرة هما الشّيء الواحد

(١) لمانزون (Matheson) وأزيموف (Asimov) أهميّة خاصّة في هذا التّطوّر (طوّر أزيموف بشكل كبير مبحث التّنافذ).

(٢) كاستنادا، تواريج سلطة، غاليمار، ص ١٥٣.

نفسه. لا تتحدّد الكثرة بعناصرها ولا بمركز توحيد أو مفهوم. إنّها تتحدّد بعدد أبعادها؛ إنّها لا تنقسم، إنّها لا تفقد أو لا تكسب أيّ بُعد دون تغيير طبيعتها. وبما أنّ تغييرات أبعادها محايدة لها، فمن سواء القول إنّ كلّ كثرة مكوّنة بالفعل من حدود متنافرة متنافذة، أو أنّها لا تفتأ تتغيّر في كثرات أخرى متتابعة، وفق عتباتها وأبوابها. هكذا كان قطع الذئاب يصبح عند رجل الذئاب، سرب نحل كذلك، وأيضا حقل أشراج، ومجموعة من الثقوب الصّغيرة ومن التّقرّحات الدّقيقة (مبحث العدوى)؛ لكن كذلك أيضا، كانت كلّ هذه العناصر المتنافرة هي التي تكوّن كثرة التّنافذ والتّصير. إذا تخيلنا وضعيّة أنا منبهر فلأنّ الكثرة التي ينزع فيها إلى قطع كلّ شيء، هي مواصلة كثرة أخرى تعرّكه وتضخّمه من الدّاخل. بحيث أنّ الأنا ليس إلّا عتبة، بابا، تصيرا بين كثرتين. كلّ كثرة محدّدة بحافة تعمل بوصفها لا متممة؛ لكن ثمة تتابع حافات، ثمة خطّ حافات متواصل (ليفّة) تتحوّل وفقه الكثرة. وميثاق جديد في كلّ عتبة أو باب؟ تذهب ليفّة من إنسان إلى حيوان، من إنسان أو حيوان إلى هبّاءات، من هبّاءات إلى جسيمات، وصولا إلى ما يدقّ عن الإدراك. كلّ ليفّة هي ليفّة كون. تكوّن ليفّة في تتابع حافات خطّ إفلات أو لا تَأْرُضُن. نلاحظ أنّ لّلا متّمي، للدّخيل عدّة وظائف: إنّّه لا يطوّق كلّ كثرة هو الذي يحدّد استقرارها المؤقت أو الموضعيّ بالبعد الأقصى المؤقت وحسب؛ إنّّه ليس شرط الاقتران الضّروريّ للتّصير وحسب؛ إنّّه يقود تغييرات التّصير أو انتقالات الكثرات دائما إلى أبعد مدى على خطّ الإفلات. موبي ديك هو السّور الأبيض الذي يطوّق القطيع؛ إنّّه كذلك حدّ الاقتران الشّيطانيّ؛ إنّّه في النّهاية خطّ الصّيد المرعب ذاته ذو الطّرف الطّليق، الخطّ الذي يخترق الجدار، ويقود الرّبّان إلى أين؟ إلى العدم...

[٣٠٦] الخطأ الذي يجب أن نحترس منه هو الاعتقاد في ضرب من النّظام المنطقيّ في هذا التّتابع، في هذه الانتقالات أو التّغييرات.

ومن المبالغ فيه بالفعل افتراض نظام قد يذهب من الحيوان إلى النبات، ثم إلى الهباءات والجسيمات. كل كثرة هي كثرة تنافذية، وتجمع في تصيرها حيوانات، نباتات، عضويات مجهرية، جسيمات مجنونة، مَجْرَة بأكملها. وليس ثمة فضلا عن ذلك نظام منطقي متشكّل سلفا بين هذه المتنافرات، بين الذئب، النحل، الأشراج والندوب الصغيرة لرجل الذئب. بطبيعة الحال، لا يفتأ السحر يقنن بعض تغييرات التصيرات. لتكن رواية ملاي بالتقاليد السحرية، مثل رواية قائد الذئب لألكسندر دوماس: في ميثاق أول يحصل رجل التخوم من الشيطان على تحقيق أمنياته، شريطة أن تصبح خصلة من شعره حمراء في كل مرة. نحن في الكثرة- الشعر مع حافتها. يستقر الرجل ذاته على حافة الذئب بوصفه رئيس القطيع. ثم عندما لم تعد له أية شعرة بشرية، ميثاق ثان يجعله يتصير- ذئبا هو ذاته، يتصير دون نهاية، على الأقل من جهة المبدإ، بما أنه ليس عطوبا إلا ليوم في السنة. بين الكثرة- شعر والكثرة- ذئب، نعرف جيّدا أن نظام مشابهة (أحمر مثل وبر ذئب) يمكن دائما أن يحدث، لكنه يظل دائما ثانويا (الذئب المتغير سيكون دائما أسود، مع وبر أبيض). في الواقع، ثمة كثرة- شعر أولى مأخوذة في تصير- وبر أحمر؛ كثرة- ذئب ثانية تتخذ بدورها شكل التصير- الحيواني للإنسان. عتبة وليفة بين الاثنين، تنافذ متنافرات أو انتقالها، هكذا نعمل نحن السحرة، ليس وفق نظام منطقي، إنما وفق تلاؤمات أو اتساقات لا منطقية. سبب ذلك بسيط وهو أنه لا أحد، حتى الله، يمكنه القول مسبقا إن حافتين ستتابعان أو تشكّلان ليفة، إن كثرة معينة ستنتقل أو لا تنتقل إلى أخرى معينة، إن عناصر متنافرة معينة ستتنافذ فعلا وستشكّل كثرة متسقة أو ذات وظيفة مشتركة قابلة للتغير. لا أحد بإمكانه القول من أين سيمرّ خطّ الإفلات: هل سيسخّ ليسقط من جديد في الحيوان الأوديبّي للأسرة، ليكون مجرد كلب طويل الشعر؟ أو أنه سيسقط في الخطر الثاني، مثل التحوّل إلى خطّ إلغاء، تعديم، تدمير

ذاتي، آشاب، آشاب...؟ نعرف جيّدا مخاطر خطّ الإفلات والتباساته. المخاطر حاضرة دوما، فرصة التخلّص منها ممكنة دوما: سنقول مع كلّ حالة ما إذا كان الخطّ متّسقا، أي ما إذا كانت المتنافرات تعمل فعليّا في كثرة تنافذ، ما إذا كانت الكثرات تتغيّر فعليّا في تصرّيات الانتقال. ليكن المثال البسيط جدّا الذي هو: يبدأ شخص ما في [٣٠٧] تعلّم البيانو... هل في ذلك رجوع أوديبيّ إلى الطّفولة؟ هل تلك طريقة للموت في ضرب من الإلغاء الصّائت؟ هل هي حافة جديدة مثل خطّ فاعل سيجرّ تصرّيات أخرى، تصرّيات مغايرة تماما للتصير أو للتصير من جديد عازف بيانو، والذي يفضي إلى تغيير كلّ التّضيدات السّابقة التي كان الشخص المعيّن منحسبا فيها؟ منفذ؟ ميثاق مع الشّيطان؟ التّحليل الفصاميّ أو التّداوليّة ليس لهما معنى آخر: كونوا جذمورا، لكنكم لا تعرفون بَمَ يمكنكم أن تكونوا جذمورا، أيّ قضيب تَحَارِضِي سيكون جذمورا بالفعل، أو سيصير ويعمر صحراءكم. جرّبوا.

من السّهل القول؟ لكن ليس ثمة نظام منطقيّ للتّصرّيات أو للكثرات متشكّل سلفا، ثمة مقاييس، والمهمّ هو ألا تأتي هذه المقاييس لاحقا بل أن تمارس أولا بأول، في الحال، وتكون كافية لتوجيهنا بين المخاطر. إذا كانت الكثرات تتحدّد وتتغيّر بالحافة التي تحدّد في كلّ مرّة عدد أبعادها، فإننا ننصوّر إمكانية بسطها على نفس المسطّح حيث تتتابع الحافات راسمة خطّا منكسرا. إذا ظاهريّا فقط «يختزل» مثل هذا السطّح الأبعاد؛ ذلك أنّه يجمّعها كلّها كلّما تدوّنت عليه الكثرات المسطّحة، ومع ذلك ذات الأبعاد المتزايدة أو المتناقصة. في عبارات مفخّمة ومبسّطة يحاول لوفكرات تقديم لفظ السّحر هذا: «تُعزّز الموجات قوّتها، وتكشف لكارتير عن الهوية ذات الأشكال المتعدّدة التي لم يكن يمثّل مقطعها الحاليّ إلّا جزء بسيطا جدّا منها. لقد علّمت هذه الأمواج أنّ كلّ صورة في الفضاء ليست غير

نتيجة لتقاطعها بواسطة مسطح مع صورة مُناظرة ذات بُعد أكبر، مثلما يكون مربع هو مقطع من مكعب ودائرة هي مقطع من أُكْرة. بنفس الكيفية، المكعب والأُكْرة هما صورتان لهما ثلاثة أبعاد، هما مقطع من الشكّلين المناظرين لهما واللّذين لها أربعة أبعاد واللّذين لا يعرفهما النّاس إلّا من خلال تخميناتهم أو أحلامهم. هذه الصّور ذات الأبعاد الأربعة هي بدورها مقطع من الأشكال ذات الأبعاد الخمسة، وهكذا دواليك، صعودا إلى الأعالي المنيعة والمدوّخة لئلا تنتهي النموذجيّ الأصلانيّ...» بعيدا عن اختزال عدد أبعاد الكثرات في بعدين، فإنّ مسطح القِوام يتقاطع معها جميعها ويُجري فيها التقاطع حتى يجعل الكثير من الكثرات المسطّحة ذات أيّ أبعاد كانت، توجد معا. مسطح القِوام هو تقاطع كلّ الأشكال العينيّة. كذلك كلّ التّصيّرات بوصفها رسوم سحرة تنكتب على مسطح القِوام هذا بما هو الباب النّهائيّ حيث تجد هذه التّصيّرات منفذها. ذلك هو المقياس الوحيد الذي يمنعها من الانسياخ أو من العودة إلى العدم. السّؤال الوحيد هو: هل يذهب التّصير [٣٠٨] إلى هذا الحدّ؟ هل يمكن بالتّالي لكثرة ما أن تُسطّح كل أبعادها المحفوظة مثل زهرة قد تحتفظ بحياتها كلّها حتى وهي مجفّفة؟ في تصوّره - سلحفاة، ينتقل لورانس من الدّيناميّة الحيوانيّة الأشدّ عنادا إلى الهندسة المجرّدة المحض، هندسة التّشقّقات وال«المقاطع»، دون أن يفقد مع ذلك شيئا من ديناميّته: إنّهُ يدفع التّصير - سلحفاة حدّ مسطح القِوام^(١). كلّ شيء يصير دقيقا عن الإدراك، كلّ شيء يتصير ما يدقّ عن الإدراك على مسطح القِوام، لكن هناك بالتّحديد تقع رؤية وسماع ما يدقّ عن الإدراك. إنّهُ المسطح الثّالث أو المدار الجذموريّ، إنّهُ الفيصل (وأسماء أخرى كذلك وفق تزايد الأبعاد). وفق عدد لا نهائيّ من الأبعاد نسمّيه المدار الأعلى، المحيط المكني. إنّهُ الشّكل المجرّد،

(١) راجع، لورانس، القصيدان الأوّل والثّاني من سلحفانيّات.

أو بالأحرى، لأنّه هو ذاته لا شكل له، نسمّيه المكنة المجرّدة، التي كلّ تنضيد عينيّ من تنضيداتها هو كثرة، تصوّر، أقسومة، ارتجاج. وهي قطاع الكلّ.

الأمواج هي الاهتزازات، هي الحافات المتحرّكة التي ترتسم بوصفها الكثير من التجريدات على مسطّح القوام. مكنة مجرّدة من الأمواج. في كتابها الأمواج، فرجينيا وولف التي عرفت كيف تجعل من حياتها كلّها ومن أعمالها الكاملة انتقالات، تصوّرًا، كلّ ضروب التّصوّر بين الأعمار والأجناس والعناصر والممالك، تمزج بين سبع شخصيّات، برنارد، نفيل، لويس، جنّي، رودا، سوزان وبرزفال؛ لكن كلّ واحدة من هذه الشخصيّات، مع اسمها وفرديّتها تشير إلى كثرة (برنارد على سبيل المثال يشير إلى سرب الأسماك)؛ كلّ شخصيّة كائنة في نفس الوقت في هذه الكثرة وعلى الحافة، وتنقل إلى الأخريات. بارسفال كأنّه هو التّهائي، مطوّقا أكبر عدد من الأبعاد. لكن ليس هو بعدّ الذي يكوّن مسطّح القوام. إذا كان رودا يعتقد أنّه يراه ناتئا على البحر فإنّه ليس هو، «عندما يضع مرفق يده على ركبته، يكوّن مثلثًا، عندما يكون واقفا يكون سارية، عندما ينحني يكون منحني نافورة، (...). يضجّ البحر من ورائه، إنّّه بعيد المنال عنا». كلّ شخصيّة تتقدّم شبيهة بموجة، لكن على مسطّح القوام، إنّها الموجة المجرّدة الوحيدة ذاتها التي ينتشر اهتزازها وفق خطّ إفلات أو لا تأرضن يجوب كامل المسطّح (كلّ فصل من فصول رواية فرجينيا وولف يكون مسبوقا بتأمّل حول مظهر من مظاهر الأمواج، حول واحد من مواقيتها، حول واحد من تصوّراتها).

ذكريات ثيولوجيّة. - الثيولوجيا صارمة جدّا حول النقطة التّالية: لا وجود لمستذئبين، لا يمكن للإنسان أن يصير حيوانا. ذلك أنّه لا وجود لتغيير الماهيات [٣٠٩] الأساسيّة، هذه الأخيرة لا تتغيّر ولا تقيم

غير علاقاتٍ مماثلة. الشَّيْطَان والسَّاحرة وما بينهما من عهد، ليسا أقلَّ واقعيَّة، إذ ثَمَّة واقع حركة موضعيَّة شيطانيَّة بشكل خاصّ. تميّز الثيولوجيا بين حالتين تشكّلان نموذجاً للتفتيش، حالة رفقاء أوليس وحالة رفقاء ديوماد: رؤية خياليَّة وسحر. يعتقد الفرد تارة أنّه تحوّل إلى حيوان، خنزير، ثور أو ذئب، والملاحظون يعتقدون ذلك أيضاً؛ لكن ثَمَّة هنا حركة موضعيَّة داخلية تعيد الصُّور العينيَّة نحو المخيلة وتجعلها ترتدّ على الحواسّ الخارجيّة. تارة «ينتحل» الشيطان أجسام حيوانات واقعيَّة، حتى وإن تطلّب الأمر نقل ما يحدث لها من عوارض وأفعالات إلى أجسام أخرى (على سبيل المثال، قِطّ أو ذئب ينتحل الشيطان صورتها، بإمكانهما تلقّي جروح ستُنقل بالضبط إلى جسد بشري^(١)). تلك طريقة للقول إنّ الإنسان لا يصير حيواناً حقّاً، لكن ثَمَّة مع ذلك حقيقة شيطانيَّة لتصير الإنسان حيواناً. من المؤكّد كذلك أنّ الشيطان يقوم بنقلات موضعيَّة من كلّ نوع. الشيطان ناقل، ينقل أمزجة، أفعالات أو حتّى أجساماً (لا يساوم التفتيش حول قدرة الشيطان هذه: مكنسة السَّاحرة، أو «عليك اللَّعنة»). لكن هذه النُّقلات لا تتخطّى لا حاجز الماهيات الأساسيّة ولا حاجز الجواهر أو الموضوعات.

ثمّ هنالك مشكل آخر مغاير تماماً، من زاوية قوانين الطبيعة والذي لم يعد متعلّقاً بعلم الشياطين، إنّما بالألخيمياء وخاصّة بالفيزياء. هو

(١) راجع دليل التفتيش مطرقة السَّاحرات، إعادة طبع منشورات بلون: I، ١٠ وII، ٨. تحيل الحالة الأولى الأبسط على رفقاء أوليس الذين يعتقدون ويعتقد الآخرون أنّهم تحوّلوا إلى خنازير (أو تحوّل الملّك نبوخذ نصر إلى ثور). الحالة الثَّانية أشدّ تعقيداً: لا يعتقد رفقاء ديوماد أنّهم تحوّلوا إلى طيور، بما أنّهم ماتوا، لكنّ الشياطين يتلبّسون أجسام طيور مدّعين بأنّها أجساد أصحاب ديوماد. تنفس حتميَّة تميّز هذه الحالة الأشدّ تعقيداً بظواهر تحويل الأفعالات: على سبيل المثال، سيّد صيَّاد يقطع ساق ذئب، ويعودته إلى بيته يجد زوجته مقطوعة اليد مع أنّها لم تغادر المنزل؛ أو أنّ رجلاً يضرب قططاً، يقع العثور على جراحها كما هي على أجساد نساء.

مشكل الماهيات العرضية المختلفة عن الماهيات الأساسية وعن الموضوعات المحددة. ذلك أنّ الماهيات العرضية قابلة للتقريب: محسنٌ تقريبا، وكذلك أبيض تقريبا، ساخن تقريبا. درجة حرارة هي حرارة مفردة بالتّمام ولا تختلط بالجوهر أو بالموضوع الذي يتلقاها. يمكن لدرجة حرارة أن تجتمع مع درجة أبيض أو مع درجة حرارة أخرى لتكوين فردية ثالثة فريدة لا تختلط مع فردية الفرد. ما فردية [٣١٠] يوم، فصل أو حدث؟ يوم أقصر أو يوم أطول لا يمثلان ملحقين بل هما درجتان خاصتان بالامتداد، مثلما ثمة درجات خاصة بالحرارة، باللون، إلخ. إذاً للماهية العرضية «خطّ عرض»، متكوّن من كثير من التفريعات القابلة للتوليف. درجة أو شدة هي فرد، هذية تتألف مع درجات أخرى، مع شدة أخرى لتكوين فرد آخر. هل سنقول إنّ خطّ العرض هذا يقبل التفسير لأنّ الفرد يشارك تقريبا في الماهية العرضية؟ لكن ألا تستتبع درجات المشاركة هذه في الماهية ذاتها ارتعاشا أو اختلاجا لا يُختزل في خصائص الفرد؟ أكثر من ذلك، إذا لم تكن شدة حرارة تتكوّن بالتجميع، فلاّنه يجب أن نضيف أفرادها الخاصين الذين يمنعون بالفعل حرارة الكلّ من أن تصبح أكبر. تلك حجة أخرى للقيام بتوزيعات شدة، لإنشاء خطوط العرض «مشوّهة بشكل مشوّه»، لإنشاء سرعات، تباطؤات ودرجات من مختلف الأنواع، مناظرة لجسم أو لمجموعة من الأجسام التي وقع اعتبارها خطّ طول: إنها خرائطية^(١). باختصار، بين الماهيات الجوهرية والأفراد المحددين، بين الاثنين، ليس ثمة ممارسة جملة نُقلات موضعية شيطانية وحسب، بل ثمة حركة طبيعية للهذيات، للدرجات، للشّد، للأحداث، للأعراض، التي

(١) حول مشكل الشّد في القرون الوسطى، حول غزارة الأطروحات بهذا الخصوص، حول تكوين علم الحركة والديناميكا، والدور المهمّ بشكل خاصّ لنيقولا أورااسم، راجع المؤلّف الكلاسيكي لبيار دوهيم، نظام العالم، الجزء السابع، منشورات هرمان.

تكوّن جميعها تفريعات مختلفة تماما عن تفريد الأفراد المتشكّلين جيّدا والذين يتلقّون تلك التّفريعات.

ذكريات سبينوزيّ، I. - لقد نقدنا الماهيات الأساسيّة أو الجوهريّة بطرق شديدة التّوّع. لكنّ سبينوزا يباشر الأمر بشكل جذريّ: الوصول إلى عناصر لم تعد لها لا ماهية ولا وظيفة، وبهذا المعنى هي مجردة إذا، مع أنّها واقعيّة تماما. إنّها تتميّز فقط بالحركة والسّكون، بالبطء والسّرعة. إنّها ليست ذرّات، أي عناصر متناهية ما تزال ذات ماهية. ليست كذلك ممّا يقبل الانقسام بشكل غير محدود. إنّها الأجزاء النّهائيّة اللّا متناهية في الصّغر للانّهائيّ حاليّ، مبسّطة على مسطّح قوام أو تكوين. إنّها لا تتحدّد بالعدد بما أنّها تتخذ دائما شكل لا متناهيات. لكن تبعا لدرجة السّرعة أو لعلاقة الحركة والسّكون التي تدخل فيها، فإنّها تنتمي إلى هذا الفرد أو ذاك، الذي يمكنه هو ذاته أن يكون جزءاً من فرد آخر في ظلّ علاقة أخرى أكثر تعقيدا، [٣١١] بشكل لا نهائيّ. ثمّة إذا لا متناهيات كبرى تقريبا، ليس تبعا للعدد إنّما تبعا لتكوّن العلاقة التي تدخل فيها أجزاؤها. بحيث أنّ كلّ فرد هو كثرة لا متناهية، والطبيعة كلّها كثرة كثرات متفرّدة تماما. مسطّح قوام الطّبيعة شبيه بمكنة مجردة ضخمة، مع أنّها واقعيّة وفرديّة وقطعها هي التّنضيدات أو الأفراد المتنوّعون الذين يجمع كلّ واحد منهم ما لا نهاية له من الجسيمات في ظلّ ما لا نهاية له من العلاقات التي تكاد تكون مرّكبة. ثمّة إذا وحدة مسطّح طبيعة يصلح للجمادات كما للأحياء، لما هو اصطناعيّ ولما هو طبيعيّ. لا علاقة لهذا المسطّح بماهية أو بشكل، ولا بغرض أو وظيفة. لا علاقة لوحده بوحدة أساس متوارٍ في عمق الأشياء، ولا بغاية أو مشروع في عقل الله. إنّهُ مسطّح بسّط، هو شبيه بالأحرى بمدار كلّ الأشكال، بمكنة كلّ الوظائف التي تتزايد مع ذلك أبعادها مع أبعاد كثرات أو فرادات يتقاطع المسطّح وإيّاه.

مسطّح ثابت حيث لا تتمايز الأشياء إلّا بالسرعة والبطء. مسطّح محايدة أو تواطؤ يتعارض والمماثلة. يقال الواحد بنفس المعنى الواحد على الكثير كلّ. تقال الكينونة بنفس المعنى الواحد على المختلف كلّ. لا نتحدّث هنا على وحدة الجوهر إنّما على لا تناهي التحوّلات التي هي أجزاء بعضها البعض على نفس مسطّح الحياة الواحد.

الجدال المعقّد بين كوفيه وجوفروا سانت-هيلار. على الأقلّ هما متفقان على شجب المشابهات أو المماثلات الحسيّة والخياليّة. لكنّ التّحديد العلميّ يخصّ عند كوفيه علاقات الأعضاء في ما بينها، وعلاقات الأعضاء بالوظائف. كوفيه ينقل المماثلة إذاً إلى الطّور العلميّ، إنّها مماثلة تناسبيّة. وحدة المسطّح وفق تقديره لا يمكن أن تكون غير وحدة مماثلة، وبالتالي وحدة متعالية لا تتحقّق إلّا بتفرّقها في تفرّعات متمايزة، وفق تركيبات متنافرة لا يمكن تخطّيها ولا اختزالها. سيضيف باثير (Bër): وفق أنماط من التّطور والتّخلّق غير المتّصلة. المسطّح هو مسطّح تنظيم مخفيّ، بنية أو تكوين. مغايرة تماماً هي وجهة نظر جوفروا، لأنّه يتجاوز الأعضاء والوظائف باتّجاه العناصر المجرّدة التي يسمّيها عناصر «تشريحيّة»، أو حتى باتّجاه جسيمات بما هي محض موادّ ستدخل في تركيبات متنوّعة وستشكّل عضواً ما وتتخذ وظيفة ما، تبعاً لدرجة سرعتها وبطئها. إنّها السرعة والبطء، الحركة والسكون، التّأخّر والعجلة، هي التي ستستلحق، ليس ماهية البنية وحسب، إنّما أنماط [٣١٢] التّطور. ستوجد هذه الوجهة لاحقاً، بمعنى تطوّريّ، في ظاهرات التّخلّق المعجّل لبرييه (Perrier)، أو في معدّلات النّموّ التفاضليّ وفي قياس التّباين: الأنواع بوصفها وحدات حركيّة، مبكّرة أو متأخّرة. (حتى مسألة الخصوبة ليست مسألة ماهية ووظيفة بل مسألة سرعة؛ هل ستأتي الصّبغيات الأبويّة مبكّراً لتندمج في نويات البويضات؟) على أيّة حال، محض مسطّح محايدة، تواطؤ، تركيب، حيث كلّ شيء معطى، حيث تتراقص عناصر وموادّ غير

متشكّلة لا تتمايز إلا بالسرعة، وتدخل في هذا التنّضيد المفرد أو ذاك تبعاً لترابطاتها وعلاقات حركاتها. مسطح حياة ثابت حيث كلّ شيء يتحرّك، يتأخّر أو يسرع. حيوان مجرد واحد لكلّ التنّضيدات التي تحقّقه. نفس المسطح الواحد للقوام أو للتركيب بالنسبة إلى رأسيّ الأرجل وبالنسبة إلى الفقريّ، بما أنّ الفقريّ قد يكفيه الانثناء سريعاً للحم عناصر جُزائيّ ظهره، تقريب حوضه من عنقه، وتجميع أعضائه إلى واحد من أطراف الجسم، ليصبح بالتالي أخطبوطاً أو حباراً، مثل «بهلوان يقلب كتفيه ورأسه إلى الوراء ليمشيّ على رأسه ويديه^(١)». إنّها طيّة. لم تعد المسألة على الإطلاق مسألة أعضاء ووظائف، ومسألة مسطح متعال قد لا يتأتّى له أن يتحرّك بتنظيمها إلّا في ظلّ علاقات تماثليّة وأنماط من التطوّر متباينة. ليست المسألة مسألة تنظيم بل مسألة تركيب؛ ليست مسألة التطوّر أو التخلّق بل مسألة حركة وسكون، سرعة وبطء. المسألة هي مسألة عناصر وجسيمات قد تأتيان أو لا تأتيان سريعاً لإحداث انتقال، تصوّر أو قفزة على مسطح محايدة محض. وإذا كان ثمة بالفعل قفزات أو ثغرات بين التنّضيدات، فليس ذلك نتيجة تأبّيها الطّبيعيّ عن الاختزال إنّما لأنّه ثمة دائماً عناصر لا تصل في الوقت المناسب أو تصل عندما يكون كلّ شيء قد انتهى، بحيث أنّه يتوجّب المرور بأبخرة متكاثفة أو بخلاءات، بتبكير أو بتأخّر، تنتمي هي ذاتها إلى مسطح المحايدة. حتى المجهضون ينتمون إلى المسطح. يجب أن نحاول التّفكير بهذا العالم حيث نفس المسطح الثابت، الذي سنسمّيه مسطح سكون أو حركة مطلقيّن، تجوبه عناصر فوضويّة ذات سرعة نسبيّة، تدخل في هذا التنّضيد المفرد أو ذاك تبعاً لدرجات سرعتها وبطئها. مسطح قوام مأهول بمادّة مجهولة، بقطع لانهائيّة من مادّة غير محسوسة تدخل في ترابطات متغيّرة.

(١) أتيان جوفروا سانت هيلار، مبادئ فلسفة حيوانيّة. وحول الجسيمات وحركاتها، مصطلحات تركيبيّة.

[٣١٣] الأطفال سبينوزيون. عندما يتحدث الطفل هانس عن «قضييه» فهو لا يتحدث عن عضو ولا عن وظيفة عضوية، إنما يتحدث أولاً عن مادة أي عن مجموعة من العناصر التي تتغير تبعاً لترابطاتها ولعلاقات حركتها وسكونها، وتبعاً للتنضيدات المفردة المختلفة حيث تدخل. هل للبننت قضيب؟ الطفل يقول نعم، وليس ذلك عن طريق المماثلة وليس لاتقاء خوف من الخصاص. للبنات قضبان بكل تأكيد بما أنهن يتبولن فعلياً: اشتغال مكني أكثر منه وظيفة عضوية. فقط، نفس المادة ليس لها نفس ترابطات ونفس علاقات الحركة والسكون، وهي لا تدخل في نفس التنضيد عند الفتى والفتاة (لا يتبول الفتاة وهي واقفة ولا يذهب بولها بعيداً). هل للقاطرة قضيب؟ أجل، في تنضيد مكني آخر أيضاً. الكراسي ليس لها ذلك: لكن لأن عناصر الكرسي لم تتمكن من استيعاب هذه المادة في علاقاتها أو لأنها فككت العلاقة بشكل كاف حتى ينتج عنها شيء آخر مغاير تماماً، حياة مضطربة على سبيل المثال. لقد أمكننا أن نلاحظ أن عضواً بالنسبة إلى الأطفال كان يخضع للـ«كثير من التقلبات»، لقد كان «يعسر تحديد موقعه ويعسر التعرف عليه، إذ هو تارة عظم، مكنة، غائط، رضيع، يد، قلب أب...» لكن ليس البتة لأن العضو يعاش بوصفه موضوعاً جزئياً. إنما لأن العضو سيكون بالتحديد ما ستصنعه منه عناصره تبعاً لعلاقة حركتها وسكونها، وللكيفية التي تتصل بها هذه العلاقة مع علاقة العناصر المجاورة أو تنفصل عنها. ليس الأمر أمر إحيائية أكثر من كونه أمر آلية، بل هو مكنية كلية: مسطح قوام تشغله مكنة مجردة ضخمة ذات تنضيدات لا متناهية. أسئلة الأطفال تُفهم بشكل خاطئ ما لم نعتبرها أسئلة-مكنات؛ من هنا أهمية أدوات التنكير في هذه الأسئلة (بطن، طفل، حصان، كرسي، «كيف تكون شخص ما؟») السبينوزية هي تصير الفيلسوف طفلاً. نسمي طولية جسد مجموعة الجسيمات التي تنتمي إليه وفق هذه العلاقة أو تلك، هذه المجموعات ذاتها ينتمي بعضها إلى

بعضها الآخر وفق تركيب العلاقة التي تحدّد التنضيد المفرد لهذا الجسد.

ذكريات سبينوزي، II. - ثمة جانب آخر عند سبينوزا. كلّ علاقة حركة وسكون، سرعة وبطء، التي تجمع عددا لا متناها من الأجزاء، تُناظرها درجة اقتدار. العلاقات التي تكون فردا، التي تفكّكه أو تغيّره، تُناظرها شدّد تؤثر عليه، تزيد أو تنقص من قدرته على الفعل، تلك القدرة المتأتية من أجزاء خارجية أو من أجزائه هو. الأفعالات تَصيُّرات. [٣١٤] يتساءل سبينوزا: ما الذي يقدر عليه جسد؟ سنسمّي عَرَضِيَّة جسد الأفعالات التي يقدر عليها وفق درجة اقتدار معيّنة، أو بالأحرى وفق حدود تلك الدّرجة. العَرَضِيَّة مكوّنة من أجزاء اشتدادية في ظلّ اقتدار، كما الطّوليّة مكوّنة من أجزاء امتدادية في ظلّ علاقة. مثلما كنّا نتجنّب تعريف جسد بأعضائه ووظائفه، نتجنّب تعريفه بخصائص النوع أو الجنس: نبحث عن احتساب أفعالاته. نسمّي مثل هذه الدّراسة «علم سلوك»، وبهذا المعنى كتب سبينوزا إتيقا حقيقية. ثمة عدد أكبر من الفروق بين حصان سباق وحصان حراثة من الذي بين حصان حراثة وثور. عندما يعرف فون أواكسكول (Von Uexkül) عوالم الحيوانات، يبحث عن الأفعالات الإيجابية والسّلبية التي يقدر عليها الحيوان، في تنضيد مفرد يكون هو جزء منه. القراة على سبيل المثال، تصعد وقد اجتذبتها الضّوء، إلى طرف غصن؛ حسّاسة تجاه رائحة ثديي، تترك نفسها تسقط عندما يمرّ تحت الغصن؛ تتوغّل تحت الجلد، في الموضع الذي فيه أقلّ ما يمكن الشّعور. ثلاثة أفعالات فقط، بقيّة الوقت تقضيه القراة نائمة، أحيانا لعدّة سنوات، غير مبالية بكلّ ما يحدث في الغابة الشّاسعة. درجة اقتدارها محصورة بين حدّين، الحدّ الأقصى لوليمتها التي تموت بعدها، الحدّ السّيء للغاية الذي هو حدّ انتظارها الذي تصوم فيه. سيقال إنّ أفعالات القراة الثلاثة تفترض

مسبقًا خصائص محدّدة ونوعيّة، أعضاء ووظائف، أرجل ومجسّات. ذلك صحيح من زاوية نظر الفيزيولوجيا؛ لكنّه ليس كذلك من زاوية نظر الإتيقا حيث على التّقيّض من ذلك تتأتّى الخصائص العضويّة من الطّوليّة وعلاقاتها، من العرضيّة ودرجاتها. لا نعرف شيئًا عن جسد ما دمنا لا نعرف ما الذي يقدر عليه، أي ما هي أفعالاته، كيف تستطيع أو لا تستطيع التّألف مع أفعالات أخرى، مع أفعالات جسد آخر، سواء لتحطيمه أو ليحطّمها هو، سواء لتبادل معه أفعالا وانفعالات، سواء لتشكّل معه جسدا أكثر اقتدارا.

سنلجأ من جديد إلى الأطفال. سنلاحظ كيف يتحدّثون عن الحيوانات وكيف يتعجّبون منها. إنّهم يضبطون قائمة أفعالات. حصان الطّفل هانس ليس تصوّريًا بل هو وجدانيّ. هو ليس عضوا من نوع بل هو عنصر أو فرد في تنضيد مكنيّ: حصان هيئة-عربة-شارع. لقد وقع تعريفه بقائمة من الأفعالات الإيجابيّة والسّليّة، وفق هذا التّنضيد المفرد الذي ينتمي إليه: وضع غمامات على عينيه، تكون له شكيمة ولجام، يكون أبيّا، له قضيب كبير، يجرّ أحمالا ثقيلة، يُضرب بالسّياط، يسقط، يصكّ بساقيه، يعضّ... إلخ. تتنقّل هذه الأفعالات وتتغيّر صلب التّنضيد: ما «يقدر» عليه حصان. لهذه الأفعالات حدّ أقصى في قمّة القدرة-حصان، لكن لها أيضا عتبة [٣١٥] سيّئة جدًا: حصان يسقط في الشّارع! ولا يستطيع الوقوف تحت الحمل الثّقل جدّا وتحت السّياط شديدة القساوة؛ حصان سيموت! مشهد عاديّ في ما مضى (أبكي نيتشه، دستوفسكي، نيجانسكي). إذا ما معنى التّصيّر-حصانا بالنّسبة إلى الطّفل هانس؟ هانس ذاته مأخوذ في تنضيد هو سرير الأمّ، العنصر الأبويّ، المنزل، المقهى المقابل، المستودع المجاور، الشّارع، الحقّ في الشّارع، انتزاع هذا الحقّ، الإباء، لكن كذلك مخاطر هذا الانتزاع، السّقوط، العار... إنّها ليست استيهامات أو أضغاث أحلام ذاتيّة: لا يتعلّق الأمر بمحاكاة الحصان، بال«تشبه»

بالحصان، بالتماهي معه، ولا حتى بإبداء مشاعر الرأفة أو التعاطف. ليست المسألة كذلك مسألة مماثلة موضوعية بين التنزيدات. يتعلّق الأمر بمعرفة ما إذا كان يمكن للطفل هانس أن يمنح عناصره الخاصة علاقات حركة وسكون، أفعالات تجعله يصير حصانا، بغضّ النظر عن الصّور والموضوعات. هل ثمة تنزيد ما يزال مجهولا قد لا يكون هو تنزيد هانس ولا هو تنزيد الحصان إنّما هو تنزيد تصوّر هانس حصانا، وحيث قد يُظهر الحصان أسنانه مثلاً، حتى وإن أظهر هانس شيئاً آخر، قدميه، ساقيه، قضيبه، أيّ شيء كان؟ وما الذي قد يجعل مشكل هانس يتقدّم نحو الحلّ، ما الذي قد يجعل منفذا ينفّث وقد أغلق سابقاً؟ عندما يتأمّل هوفمنستال احتضار فأر، فإنّه فيه هو «يُظهر الحيوان أسنانه للقدر الفظيع». يوضّح هوفمنستال أن ليس في ذلك إحساس بالشفقة ولا كذلك بالتماهي، إنّ تركيب سرعات وأفعالات بين أفراد مختلفين جدّاً، إنّ تناقضاً، وهو ما يجعل الفأر يصير فكرة في الإنسان، فكرة محمومة، في نفس الوقت الذي يصير فيه الإنسان فأراً، فأراً يصرّ أسنانه ويحتضر. الفأر والإنسان ليسا هما نفس الشّيء على الإطلاق، لكنّ الكينونة تقال عليهما معاً في نفس المعنى الواحد في لسان لم يعد هو لسان الكلمات، في مادّة لم تعد هي مادّة الصّور، في تأثريّة لم تعد هي تأثريّة الموضوعات. مشاركة قسريّة، لكن بالفعل مسطّح التركيب، مسطّح الطبيعة، هو من أجل مثل هذه المشاركات التي لا تفتأ تكوّن وتفكّك تنزيداتهما مستعملة كلّ المهارات.

ليس الأمر أمر مماثلة ولا تخيل بل هو تركيب سرعات وأفعالات على مسطّح القوام هذا: مسطّح، برنامج أو بالأحرى مبيان، مشكل، سؤال-مكنة. في نصّ غريب تماماً، يطرح فلاديمير سلابيان (Vladimir Slepian) الـ«مشكل»: أنا جائع، طوال الوقت جائع، ليس على الإنسان أن يحسّ بالجوع، عليّ إذاً أن أصير كلباً، لكن كيف؟ سوف لن يتعلّق الأمر لا بمحاكاة الكلب ولا بتماثل علاقات. يجب أن

أصل إلى منح أجزاء جسدي علاقات سرعة وبطء تجعله يصير كلبا، في تنضيد أصلا ني [٣١٦] لا يعمل بالمشابهة أو بالمماثلة. إذ لا يمكنني أن أصير كلبا دون أن يصير الكلب ذاته شيئا آخر. سلابيان، ليحلّ المشكل، خطر له أن يستعمل أحذية، حيلة الأحذية. إذا كانت يداي مُتعلّتين، فإنّ عناصرهما ستدخل في علاقة جديدة يتولّد عنها الأفعال أو التصرُّير المطلوبان. لكن كيف سأستطيع ربط خيوط الحذاء حول يدي الثانية ويدي الأولى محجوزة بالفعل؟ بفمي المنخرط هو بدوره في التّنضيد، والذي يصبح شدة كلب من حيث أنّ شدة الكلب يُستخدَم الآن لربط خيوط الحذاء. لا يجب أن نقارن بين الأعضاء في كلّ مرحلة من مراحل المشكل، بل أن نضع العناصر أو الموادّ في علاقة تنتزع العضو من خصوصيّته لتجعله يتصرُّير «مع» العضو الآخر. لكن ها هو التّصرُّير الذي استولى بالفعل على الرّجلين واليدين والفم، سيفشل مع ذلك. يخفق بخصوص الدّليل. قد كان يتوجّب استثمار الدّليل وإجباره على إفراز عناصر مشتركة بين العضو الجنسيّ والزّائدة الدّليليّة، حتى يكون العضو الأوّل مأخوذا في تَصِيرُ الإنسان كلبا، في نفس الوقت الذي يكون فيه الثاني الذي هو التّصيرُ كلبا مأخوذا في تَصِيرُ آخر قد يكون جزءً من التّنضيد. يفشل المسطّح، ولا يصل فيه سلابيان إلى هذه النّقطة. يظلّ الدّليل من النّاحيتين عضو إنسان وزائدة ذليّة للكلب، لا يؤلّفان بين علاقاتهما في التّنضيد الجديد. إذا هنا يبرز الانحراف التّحليليّ التّفسيّ وتعود كل العبارات المكرورة حول الدّليل، الأمّ، ذكريات الطّفولة حيث كانت الأمّ تُدخل الخيوط في الإبر، كلّ الصّور العينيّة والمماثلات الرّمزيّة^(١). لكنّ سلابيان يريد أن يكون الأمر على هذا النّحو في هذا النّصّ الرّائع. ذلك أنّه ثمة طريقة ينتمي بها المجهّض

(١) فلاديمير سلابيان، «اللّعين»، مجلّة مينيوي، عدد ٧، جانفي/يناير ١٩٧٤. نقدّم عن هذا النّصّ عرضا مبسّطا جدّا.

في هذا المسطح إلى المسطح ذاته: المسطح لا متناه، يمكنكم ابتداءه بأكثر من كيفية، ستجدون دائما شيئا ما يصل متأخرا جدًا أو مبكرًا جدًا، ويجبركم على إعادة تركيب كلّ علاقات سرعتكم وبطئكم، كلّ أفعالاتكم، وعلى تبديل التنضيد كلّ. لكن ثمة كذلك طريقة أخرى يفشل بها المسطح؛ هذه المرة لأنّ مسطحًا آخر يعود بقوة ويكسر التّصير- حيوانا، يجعل الحيوان يرتدّ على الحيوان والإنسان على الإنسان، لا يعترف إلّا بمشابهات بين العناصر ويتمائلات بين العلاقات. سلايان يواجه الخطرين.

نودّ قول شيء بسيط حول التحليل النّفسيّ: غالبا ما اعترضته منذ البداية مسألة التّصيرات- حيوانات للإنسان. عند الطّفل الذي لا يفتأ يجتاز مثل هذه التّصيرات. في الفيتيشية وخاصة في المازوخية اللتين لا تفتان [٣١٧] تواجهان هذا المشكل. أقلّ ما يمكن أن نقوله هو أنّ المحلّلين النّفسيين لم يفهوا، حتّى يونغ، أو أنّهم تعمّدوا عدم الفهم. لقد أجهزوا على التّصير- حيوانا عند الرّجل وعند الطّفل. لم يروا شيئا. يرون في الحيوان ممثّلا للدوافع أو تمثيلا للأبوين. إنهم لا يرون واقع التّصير- حيوانا، كيف أنّه الأفعال في حدّ ذاته، الدّافع بعينه، وهو ليس ممثّلا لأيّ شيء. ليس ثمة دوافع أخرى غير التّنضيدات ذاتها. في نصّين كلاسيكيين، لم يجد فرويد غير الأب في تصوّر هانس حصانا، وفرنسزي (Ferenczi) في تصوّر أرباد ديكا. غمومات الحصان هي نظارات الأب، الأسود حول الفم هو شاربه، الرّكلات هي «ممارسة» الوالدين «للجنس». ولا كلمة حول علاقة هانس بالشارع، حول الطريقة التي بها مُنع عليه الشارع، حول ما يكونه للطّفل مشهد «حصان أبيّ، حصان يجرّ عربة على غير هدى، حصان يسقط، حصان يُضرب بالسّياط...». ليس للتحليل النّفسيّ إحساس بالمشاركات القسرية ولا بالتّنضيدات التي يمكن أن يقيمها طفل لحلّ مشكل وقع سدّ كلّ المنافذ أمامه لحلّة: مسطح وليس استيهاما. بالمثّل، قد نقول أقلّ حماقات

حول الألم، الإذلال والكرب في المازوخية، إذا كنا نرى أنّ التصيُّرات- حيوانات هي التي تقودها وليس العكس. آلات، أدوات، مكنات تتدخل دائما، دائما حيل وقيود على الطبيعة الأكبر. ذلك أنّه يتوجب إلغاء الأعضاء، حبسها إذا جاز القول، حتى تتمكّن عناصرها المحرّرة من الدّخول في علاقات جديدة يتولّد عنها التصيُّر- حيوانا، وتَنقُلُ الاقّعالات في صلب التّنْضيد المكني. هكذا، مثلما رأينا ذلك في موضع آخر، القناع، اللجام، الشّكيمة، الواقي الذّكري في الحصان الشّبقّي: تنْضيد التّصير- حصانا هو مفارقيا من مثل أن يروّض الإنسان قواه «الغريزيّة» بينما ينقل إليه الحيوان قوى «مكتسبة». إنّ انقلاب ومشاركة قسريّة. والحذاء الطّويل للمرأة- العشيقه وظيفته إلغاء السّاق بوصفها عضوا بشريّا، ووضع عناصر السّاق في علاقة مطابقة لكامل التّنْضيد: «بهذه الكيفيّة لن تكون سيقان النّساء هي التي ستؤثّر عليّ...»^(١) لكن، لكسر التّصير- حيوانا، يكفي بالتّحديد أن نستخلص منه أقسومة، أن نستصفيّ منه لحظة، ألا نعتدّ بالسرّعات والتّباطؤات الدّاخليّة، إيقاف تَنقُلُ الاقّعالات. إذا لم يعد ثمة غير مشابّهات خياليّة بين الحدود، أو مماثلات رمزيّة بين العلاقات. [٣١٨] أقسومة معيّنة ستحيل على الأب، علاقة حركة وسكون معيّنة ستحيل على المشهد البدائيّ، إلخ. يتعيّن الاعتراف أيضا بأنّ التّحليل النّفسيّ لا يكفي لوحده لإثارة هذا التّكسير. إنّ لا يفعل غير تطوير خطر متضمّن في التّصير. دائما خطر أن يجد المرء ذاته بصدد «القيام بدور» الحيوان، الحيوان الأليف الأوديبّي. ينبج ميلار ويلتمس عظما، فيتزجرالد يلحق يدك، سلابيان يعود إلى أمّه، أو الشّيوخ يقوم بدور الحصان أو الكلب على بطاقة بريدية شبقّيّة تعود إلى سنة ١٩٠٠ (و«القيام بدور» الحيوان

(١) راجع، روجيه ديپوي (Roger Dupouy)، «في المازوخية»، الحوليّات الطّبيّة- السيّكولوجيّة، ١٩٢٩، II.

الوحشيّ قد لا يكون أفضل). التّصيّرات - حيوانات لا تفتأ تجاز هذه المخاطر.

ذكرياتٌ هذّية. - لا يقع تعريف جسد بالصّورة التي تحدّده ولا بجوهر أو موضوع محدّدَيْن ولا بالأعضاء التي يمتلكها أو الوظائف التي يمارسها. على مسطّح القوام يُعرّف جسد بطول وعرض فقط: أي بمجموع العناصر المادّية التي تنتمي إليه في ظلّ علاقات معيّنة من الحركة والسّكون، من السّرعة والبطء (الطول)، بمجموع الأفعالات الاشتدادية التي يقدر عليها، في ظلّ سلطة أو درجة اقتدار معيّنة (عرض). لا شيء غير أفعالات وحركات موضعية، سرعات تفاضلية. يعود الفضل إلى سبينوزا في كونه أبرز بُعديّ الجسد هذين وفي كونه عرّف مسطّح الطّبيعة بوصفه طولاً وعرضاً محضين. الطّول والعرض هما عنصرا خرائطيّة.

ثمة هيئة تفريد مختلفة جدّاً عن هيئة شخص، موضوع، شيء أو جوهر. نخصّ هيئة التّفريد هذه باسم الهذّية^(١). موسم، شتاء، صيف، ساعة، وقت، لها فردية تامّة ولا ينقصها شيء مع أنّها لا تختلط مع فردية شيء أو موضوع. إنّها هذّيات، بهذا المعنى وهو أنّ كلّ شيء فيها هو علاقة حركة وسكون بين هبّاءات أو جسيّمات، قدرة على التّأثير والتّأثر. عندما يعرض علم السّحر الفنّ الشّيطانيّ للحركات الموضعية ولنقلات الأفعالات، فإنّه يعيّن في نفس الوقت أهميّة الأمطار، البرّد، الرّياح، الأجواء البوائية أو الملوّنة مع جسيّماتها

(١) يصادف أن نكتب «eccéité» اشتقاقاً للكلمة من ecce، ها هو (voici). ذلك خطأ، بما أنّ دونس سكوت أنشأ الكلمة والمفهوم انطلاقاً من Haec، «هذا الشيء». لكنّه خطأ مشر لأنّه يوحي بهيئة تفريد لا تختلط تحديداً بهيئة شيء أو موضوع.

المضرة الملائمة لهذه الثقلات. الحكايات يجب أن تتضمن هذيات لا تكون مجرد موضوعة إنما هي تفريجات عينية لها قيمتها في ذاتها وتتحكم بانقلاب عين الأشياء والموضوعات. في أنماط الحضارة، للشرق [٣١٩] تفريجات بواسطة الهذيات أكثر بكثير مما له من تفريجات بواسطة الذاتية والجوهرية: وعلى هذا يتوجب أن يتضمن الهايكو [قصيدة يابانية قصيرة] مؤشرات بوصفها الكثير من الخطوط الطليقة التي تكون فردا مرگبا. عند شارلوت برونتي، كل شيء في صيغة ربح، الأشياء، الأشخاص، الوجوه، المحبات، الكلمات. الـ«خامسة مساء» للوركا، عندما يسقط الحب وتنهض الفاشية. يا لها من خامسة مساء فظيعة! نقول: أي تاريخ هذا، أية حرارة هذه، أية حياة هذه! للتعبير عن تفريد خاص جدا. ساعات النهار عند لورانس، عند فولكنار. درجة حرارة وشدة بياض هما فرديتان تامتان؛ ويمكن لدرجة حرارة أن تتألف عرضيا مع درجة أخرى لتشكيل فرد جديد، كما في جسد يشعر بالبرد هنا وبالحرارة هناك تبعا لطوليته. إنها عجة نورفيجية. يمكن لدرجة حرارة أن تتألف مع شدة بياض، كما في بعض الأجواء الثلجية لصيف قانظ. ليست البتة فردية آنية قد تتعارض مع فردية الاستمراريات أو الآماد. ليس للروزنامة اليومية وقت أقل من تقويم دائم مع أن الوقت ليس هو نفسه. لا يعيش حيوان بالضرورة أكثر من يوم أو أكثر من ساعة؛ عكسيا، مجموعة سنوات يمكن أن تكون أكثر طولا من الذات أو الموضوع الأكثر دواما. يمكن أن نتصور زمنا مجردا متساويا بين الهذيات، والموضوعات أو الأشياء. بين التباطؤات القصوى والسرعات المدوخة للجيولوجيا أو لعلم الفلك. يُبرز ميشال تورنييه علم الأرصاد الجوية حيث تحيا الشهب وفقا لإيقاعنا: «يتكون سحب في السماء مثل صورة في دماغي، الريح تعصف مثلما أتنفس، قوس قزح يتغلغل في أفقين مستغرقا الوقت اللازم لقلبي ليتصالح مع الحياة، يمر الصيف مرور الإجازات الطويلة.» لكن هل من قبيل الصدفة ألا

يتأتى هذا اليقين في رواية تورنييه إلا لبطل توأم، مشوّه ولا ذاتية له، قد اكتسب ضرباً من الحضور الكلّي^(١)؟ حتّى عندما تكون الأزمنة متساوية تجريدياً، لا يكون تفريد حياة هو نفس تفريد الذات التي تحياها أو تتحمّلها. وليس هو نفس المسطح: مسطح قوام أو تركيب هذيات في حالة أولى، لا يعرف غير سرعات وأفعالات، - مسطح مغاير تماماً للصور، للمواد وللذوات في الحالة الأخرى. وهو ليس نفس الزمن وليس نفس الزمنية. الدهر، الذي هو الزمن اللامحدود للحدث، الخطّ الطليق الذي لا يعرف غير السرعات، ولا يفتأ في نفس الوقت يفصل في ما يحدث بين ما هو هنا بالفعل وما ليس هو هنا بعد، بين متأخر جداً ومبكر جداً متزامنين، في نفس الوقت بين شيء ما سيحدث وشيء ما قد حدث. والزمان، [٣٢٠] على النقيض من ذلك، زمن القيس الذي يثبت الأشياء والأشخاص، يطوّر صورة ويحدّد موضوعاً. يميّز بولاز في الموسيقى بين سرعة الحركة وبطئها، بين «الزمن الموقّع» لموسيقى صوريّة ووظيفيّة قائمة على مدّة النغمات، وال«زمن غير الموقّع» لموسيقى طليقة، طليقة ومكنيّة، لم تعد فيها غير سرعات أو فروق في الديناميّة^(٢). باختصار، لا يمرّ الفرق إطلاقاً بين البائر والدائم، ولا بين المنتظم وغير المنتظم، إنّما بين صيغتي تفريد، صيغتي زمنيّة.

بالفعل، قد يتوجّب تجنّب توافق بسيط جداً، وكأنّه كان ثمة من جهة موضوعات متشكّلة، من نوع أشياء أو أشخاص، ومن الجهة الثّانية، إحداثيّات مكانيّة-زمنيّة من نوع هذيات. ذلك أنّكم لن تمنحوا الهذيات شيئاً دون أن تدركوا أنّكم هذيات وأنّكم لستم شيئاً آخر غير

(١) ميشال تورنييه، الشّهْب، غاليمار، الفصل XXII، «النّفس المبسوطة».

(٢) بيار بولاز، إراديّاً وتصادفيّاً، صص ٨٩-٩١. («ظواهرات سرعة الحركة هي ظواهرات لا يمكن إدخالها في موسيقى محسوبة بشكل إلكترونيّ محض، بمدّة يقع التعبير عنها بالثواني أو بأجزاء من الثواني»).

ذلك . عندما يصير الوجه هذبة : «لقد كان خليطا عجيبا وجه شخص ما بمجرد عثوره على الوسيلة التي يتعامل بها مع اللحظة الحاضرة، مع حالة الطقس، مع هؤلاء الناس الحاضرين^(١)». أنتم طول وعرض، مجموعة سرعات وتباطؤات بين جسيمات غير متشكّلة، مجموعة أفعالات غير مُدبّنة. لكم تفريدُ يوم، موسم، سنة، حياة (بغض النظر عن المدة)، - مناخ، ريح، ضباب، سرب، قطع (بغض النظر عن الانتظام). أو على الأقلّ بإمكانكم الحصول على ذلك التّفريد، بإمكانكم الوصول إليه. سرب من الجراد تسوقه الرّيح على السّاعة الخامسة مساءً؛ مصاص دماء يخرج ليلا، مستذئب يظهر مع اكتمال القمر. لن نعتقد أنّ الهذبة تتمثّل في مجرد زخرف أو في خلفيّة قد تُعيّن مواضع الموضوعات، ولا في زوائد قد تشدّ الأشياء والأشخاص إلى الأرض. إنّهُ التّنضيد كلّهُ في مجموعهُ المفردّ هو الذي يجد ذاته هذبة؛ إنّهُ هو الذي يتحدّد بطول وعرض، بسرعات وأفعالات، بغضّ النظر عن الصّور والموضوعات التي لا تنتمي إلّا إلى مسطّح آخر. إنّهُ الذئب ذاته، أو الحصان، أو الطفل هم الذين لا يتوقّفون عن كونهم موضوعات ليصيروا أحداثا، في تنضيدات لا تنفصل عن ميقات، عن موسم، عن بيئة، عن هواء، عن حياة. يختلط الشّارع بالحصان كما يختلط الفأر الذي يحتضر بالهواء، ويختلط الحيوان مع اكتمال القمر. سميّز في أقصى الحالات بين هذبات التّنضيدات (جسد لا يُعتبر [٣٢١] إلّا طولا وعرضا)، والهذبات البيّتنضيدية التي تُعيّن كذلك إمكانات التّصير صلب كلّ تنضيد (الوسط الذي تتقاطع فيه الأطوال والأعراض). لكنّهما مترابطتان بشكل وثيق. الطّقس، الرّيح، الموسم، التّوقيت، لا تختلف طبيعتها عن طبيعة الأشياء، عن طبيعة الحيوانات أو الأشخاص الذين يسكنونها، يتبعونها، ينامون أو يستيقظون فيها.

(١) راي برادبيري (Ray Bradbury)، مكناات السّعادة، منشورات دنويل، ص ٦٧.

ويجب أن نقرأ دفعة واحدة: يصطاد الحيوان على السّاعة الخامسة. تصوّر الحيوان عشيةً أو ليلاً، أعراس دم. السّاعة الخامسة هي ذلك الحيوان! ذلك الحيوان هو ذلك الموضوع! «يجري الكلب الهزيل في الشّارع، هذا الكلب الهزيل هو الشّارع»، هكذا تصرخ فرجينيا وولف. يجب أن نحسّ على هذا التّحوّل. العلاقات والتّحديدات المكانية- الزّمنية ليست محمولات للشيء إنّما هي أبعاد كثرات. الشّارع هو أيضاً جزء من التّنفيذ حصان جرّ، كما من تنفيذ هانس الذي يفتح له الشّارع التّصوّر- حصاناً. نحن جميعاً الخامسة مساءً، أو نحن توقيت آخر، وبالأحرى نحن توقيتان في نفس الآن، الأفضل والأسوأ، منتصف النّهار- منتصف اللّيل، لكنّها مواقيت موزّعة بكيفية متغيّرة. لا يتضمّن مسطّح القِوام غير هذيات وفق خطوط تتقاطع. الصّور والموضوعات لا تنتمي إلى هذا العالم. نزهة فرجينيا وولف وسط الجموع، بين سيارات الأجرة،- لكن بالفعل النّزهة هذية: أبداً لن تقول السيّد دلوواي «أنا هذا الشيء أو ذاك، إنّها هذا، إنّها ذاك». و«كانت تحسّ أنّها صغيرة جدّاً وفي نفس الوقت مُسنّة بشكل لا يصدّق»، سريعة وبطيئة، هي هنا بالفعل وليست هنا بعدد، «كانت تدخل مثل شفرة عبر كلّ الأشياء، في نفس الوقت كانت في الخارج وكانت تنظر، (...) كان يبدو لها دائماً أنّه من الخطير جدّاً أن نحيا، حتّى ليوم واحد». هذية، ضباب، ضوء ساطع. ليس للهذية لا بداية ولا نهاية، لا منشأ لها ولا وجهة؛ إنّها دائماً في الوسط. إنّها ليست معمولة من نقاط، إنّما من خطوط وحسب. إنّها جذمور.

وهي ليست نفس اللّغة، على الأقلّ ليس نفس استعمال اللّغة. ذلك أنّه إذا لم يكن لمسطّح القِوام من مضمون غير هذيات، فإنّ له أيضاً سيميائية خاصّة بكاملها يستخدمها كتعبير. مسطّح مضمون ومسطّح تعبير. هذه السّيميائية متكوّنة خاصّة من أسماء أعلام، من أفعال مصدرية ومن أدوات أو ضمائر نكرة. أداة تنكير+ اسم علم+

فعل مصدرِيّ تشكّل بالفعل سلسلة تعبير قاعدية، متضايقة مع المضامين الأقلّ صورية، من زاوية نظر سيميائية تحرّرت من التّمعّنات الصّورية كما من الدّثّنات الشخصية. في المقام الأوّل، الفعل المصدرِيّ غير محدّد على الإطلاق من جهة الزّمن، إنّهُ يعبر عن الزّمن الطّليق غير الموقع الخاصّ بالذّهر، أي زمن الحدث المحض أو التّصير، معلنا عن سرعات وتباطؤات [٣٢٢] نسبية بمعزل عن قيم التّسلسل الزّمنيّ أو الميقاتي التي يتّخذها الزّمن في الصّيغ الأخرى. بحيث أنّه من حقنا أن نقيم المصدر بوصفه صيغة وزمن التّصير في وجه جملة الصّيغ والأزمنة الأخرى التي تحيل على الزّمن مكوّنة نبضات أو قيم الكينونة (الفعل «كان» هو بالتّحديد الفعل الوحيد الذي لا صيغة مصدرية له، أو بالأحرى الذي ليس مصدره غير تعبير خاوٍ غير محدّد، مستعمل تجريدًا للإشارة إلى جملة الصّيغ والأزمنة المعرّفة^(١)). في المقام الثّاني، لا يشير اسم العَلَم البتّة إلى موضوع: يبدو لنا من غير المجدي حينئذ، التّساؤل عمّا إذا كان ما يقوم به اسم العَلَم يشبه تسمية نوع أو لا يشبهها، وفق ما يكون وقع اعتبار الموضوع ذي طبيعة أخرى مغايرة للشّكل الذي يصنّفه، أو فقط بوصفه الفعل النّهائي لهذا الشّكل، من حيث هو حدّ التّصنيف^(٢). ذلك أنّه إذا لم يكن اسم العَلَم يشير إلى

(١) اقترح غوستاف غيوم تصوّرًا مهمّا جدّا للفعل، حيث يميّز زمنا داخليًا ملفوفًا في «المسار»، وزمنا خارجيًا يحيل على التّمييز بين العصور («عصور ومستويات زمنية في نظام التّصريف الفرنسي»، كراسات اللّسانيات البنيوية، كندا، ١٩٥٥). يبدو لنا أنّ هذين القطبين، يتوافق أحدهما مع المصدر- التّصير، الذّهر، والآخر مع الحاضر- الكان، الزّمن. يميل كلّ فعل نوعًا ما جهة هذا القطب أو ذاك، ليس تبعًا لطبيعته وحسب، إنّما تبعًا لدرجات صيغته وأزمته. ما عدا «تصير» و«كان» اللّذين يتوافق كلّ منهما مع أحد القطبين. في دراسته حول أسلوب فلويار، يبيّن بروس كيف يتّخذ زمن الماضي المستمرّ عند فلويار قيمة مصدر- تصير (وقائع، غاليمار، صص ١٩٧-١٩٩).

(٢) حول مشكل أسماء الأعلام هذا (بأيّ معنى يكون اسم العَلَم خارج حدود التّصنيف وله طبيعة مغايرة، أو يكون على الحدّ وما يزال يشكّل جزءًا من

موضوع، فليس ذلك أيضا وفق شكل أو نوع يمكن لاسم أن يتخذ قيمة اسم علم. يشير اسم العلم أولا إلى شيء ما من صنف الحدث، التَّصِيرُ أو الهذية. والعسكريون وعلماء الأرصاد الجوية هم الذين يمتلكون سرّ أسماء الأعلام، عندما يطلقون هذه الأسماء على عملية استراتيجية أو على إعصار. اسم العلم ليس موضوع زمن إنما هو فاعل صيغة المصدر. إنه يسم طولا وعرضا. إذا كانت القراة، الذئب، الحصان، إلخ.، هي أسماء أعلام حقيقية، فليس ذلك نتيجة قواسم نوعية وخصوصية تميزها، إنما نتيجة السرعات التي تكونها والافعال التي تملؤها: الحدث الذي يكونونه لذواتهم وفي التنضيدات، التَّصِير-حصانا للطفل هانس، التَّصِير مستذبا للرواقي (أسماء أعلام أخرى).

[٣٢٣] في المقام الثالث، أداة وضمير التَّنْكِير ليسا لا محدَّدين أكثر من لا تحدّد الفعل المصدريّ. أو بالأحرى لا ينقصهما التَّحْدِيد إلا من حيث تطبيقهما على شكل هو ذاته غير محدّد، أو على موضوع قابل للتَّحْدِيد. بالمقابل لا شيء ينقصهما عندما يُدخلان هذيات وأحداثا لا يمرّ تفريدها بشكل ولا تُصنع من قِبَل موضوع. حينئذ يتزاج النكرة مع أقصى تحديد: كان ذات مرّة، نضرب طفلا، يسقط حصان... ذلك أنّ العناصر الموضوعية على المحكّ تجد هنا تفريدها في التَّنْضِيد الذي تُشكّل جزء منه، بمعزل عن شكل مفهومها وعن ذاتية شخصها. لقد لاحظنا لعدّة مرّات إلى أيّة درجة كان الأطفال يستخدمون التَّنْكِير ليس بوصفه لا محدّدا، إنما على التَّقْيِض من ذلك بوصفه مفردا في كيان جماعيّ. لذلك نحن نستغرب إزاء جهود التَّحْلِيل التَّنْفِسيّ الذي يريد بكلّ الوسائل أن يكون ثمة وراء التَّنْكرات معرّف خفيّ، ضمير متّصل، اسم مضمر: عندما يقول الطّفل «بطن»، «حصان»، «كيف يكبر الناس؟»، «نضرب طفلا»، يسمع المحلّل التَّنْفِسيّ «بطني»، «الأب»،

(التَّصْنِيف؟)، راجع غاردنار، نظرية أسماء الأعلام، لندن، وليفي-شتراوس، الفكر البرّي، الفصل السّابع.

«هل سأصير كبيرا مثل أبي؟». يسأل المحلل النفسي: من الذي ضُرب، ومن ضربه^(١)؟ لكن اللسانيات ذاتها ليست بمنأى عن نفس الابتسار ما دامت لا تنفصل عن علم الشخصية؛ وليست أداة التنكير وضمير التنكير وحدهما، إنما ضمير الغائب أيضا، تبدو لها مفتقرة لتحديد الذاتية الخاصة بضميري المتكلم والمخاطب، الذاتية التي قد تكون هي شرط كل تَلْفُظ^(٢).

نعتقد على التقيض من ذلك أن تنكير الضمير الثالث، هو، هم، لا يستتبع أيّ لا تحدّد من زاوية النّظر هذه، ولم يعد يحيل الملفوظ إلى ذات تَلْفُظ، إنما إلى تنضيد جماعيّ بوصفه شرطا. بلانشو على حق في قوله إنّ الضمير الرابع (on) وضمير الغائب المفرد- نموت، هو تعس- لا يحلّان البتّة [٣٢٤] محلّ ذات، لكنهما يطيحان بكلّ ذات لصالح تنضيد من نوع الهذية، الذي يحمل الحدث أو يبرزه في ما هو عليه من عدم تشكّل ومن عدم قابلية للتنفيذ من قِبَل أشخاص («يحلّ بهم شيء ما لا يمكنهم التّمكّن منه إلّا بتخليّهم عن قدرتهم على قول أنا^(٣)»). ضمير

(١) لقد اعترضنا هذا المشكل من قَبْل، بخصوص عدم اكتراث التحليل النفسي باستعمال أداة التنكير أو الضمير النكرة، مثلما يظهر عند الأطفال: عند فرويد بالفعل وبشكل أكبر عند ميلاني كلاين (الأطفال الذين تحلّهم نفسيا، وتخصيصا الطفل ريشار، يتحدثون بصيغة «واحد»، «أحد»، «الناس»، لكن ميلاني كلاين تقوم بعملية إرغام عجيبة لإرجاع تلك الصيغ إلى سياقات أُسريّة ذات ضمائر متصلة ومضمّرة)، في مجال التحليل النفسي، يبدو لنا أنّ لابانشو وبونتاليس هما وحدهما اللذان أحسا بالدور الخاصّ لأدوات التنكير، واعترضا على كلّ اختزال تأويليّ متسرّع جدّا: «استيهام أصلائي...»، الأزمنة الحديثة، عدد ٢١٥، أفريل/إبريل ١٩٦٤، ص ١٨٦١، ١٨٦٨.

(٢) راجع التّصوّر الشّخصانيّ أو الذاتويّ للغة عند أميل بنفنيست: مشكلات اللّسانيات العامّة، الفصلان العشرون والواحد والعشرون (خصوصا ص ٢٥٥، ٢٦١).

(٣) تعمل النّصوص الأساسيّة لموريس بلانشو بمثابة دحض لنظريّة الـ«واصلات» ولعلم الشخصية في اللّسانيات: راجع، المحادثة اللّنهائية، غاليمار، صص

الغائب المفرد لا يمثل ذاتا، لكنّه يُمَيِّن تنزيذا. إنّهُ لا يقنّن الملفوظات تضافريّا ولا يعلوها مثل ضميري المتكلّم والمخاطب، لكنه على النقيض من ذلك يمنعها من الوقوع تحت استبداد الكوكبات الدّالة أو الدّاتيّة، تحت نظام التّردادات الجوفاء. سلسلات التّعبير التي يحركها هي التي يمكن لمضامينها أن تتنضّد تبعا للمناسبات والتّصيّرات القصوى. «يقبلون كما القدر... من أين يأتون، كيف تأتي لهم الدّخول إلى هنا...؟» - ضمير الغائب المفرد أو الضمير الرّابع هو أداة تنكير، اسم علم، فعل مصدريّ: هانس يتصيّر حصانا، قطع يسمّى ذنبا ينظر له، يموتون، دبور يلتقي أوركيد، يأتون من الهانس. إعلانات صغيرة، مكناث برقيّات على مسطّح قوام (هنا أيضا، سنفكر بأساليب الشّعري الصّينيّ وبقواعد التّرجمة التي يقترحها أفضل المعلّقين^(١)).

ذكريات مصمّم. - لعلّه ثمة مسطّحان أو طريقتان لتصوّر مسطّح. يمكن للمسّطح أن يكون مبدأ خفيّا يَمَكِّن من رؤية ما نرى ومن سماع ما نسمع... إلخ.، ممّا يجعل المعطى معطى في كلّ حين، في حالة معيّنة وفي لحظة معيّنة. لكنّ المسّطح ذاته ليس معطى. إنّهُ متخفّف بالطبيعة. لا يمكننا إلّا استخلاصه، استقراؤه، استنتاجه انطلاقا ممّا يعطيه (في نفس الآن أو على التّوالي، تزامنيّا أو تعاقبيّا). مثل هذا المسّطح هو بالفعل مسّطح تنظيم مثلما هو مسّطح تطوير في نفس الوقت: إنّهُ بنيويّ وتكوينيّ، وهو الاثنان معا، بنية وتكوّن، مسّطح

٥٥٦ - ٥٦٧. وحول الفّرق بين الجمليّتين «أنا تعس» و «هو تعس»، أو «أنا أموت» و «نموت»، راجع، حصّة النّار، صص ٢٩ - ٣٠، والفضاء الأدبيّ، ص ١٠٥، ١٦٠ - ١٦١. يبيّن بلانشو في كلّ هذه الحالات أنّ التّكرار لا علاقة له بـ«الابتذال اليوميّ»، الذي قد تكون بالأحرى إلى جانب الضمير المنفصل.

(١) على سبيل المثال، فرانسوا شنغ، الكتابة الشّعريّة الصّينيّة، منشورات سوي: تحليله لما يسمّيه «الأساليب السّليّة»، ص ٣٠ وما يليها.

بنيويّ للتنظيمات المتشكّلة مع تطوّراتها، مسطّح تكوينيّ للتطوّرات
 التطوّريّة مع تنظيماتها. هذه ليست غير فويرقات في هذا التّصوّر الأوّل
 للمسطّح. وإيلاء الكثير من الاهتمام لهذه [٣٢٥] الفويرقات قد يمنعنا
 من إدراك شيء ما أكثر أهميّة. ذلك أنّ المسطّح مدرّك أو معمول على
 هذا النّحو، يخصّص على أيّ حال تطوّر الأشكال وتكوين الموضوعات.
 بنية خفيّة ضروريّة للأشكال، دالّ خفيّ ضروريّ للموضوعات. حينئذ
 يكون من غير المعقول ألاّ يكون المسطّح ذاته معطى. إنّّه لا يوجد
 بالفعل إلّا في بُعد إضافيّ بالنّسبة إلى ما يعطيه (مجموعة الأعداد
 الصّحيحة+١). بذلك يكون مسطّحا غائيّا، يكون مأربا، مبدأ ذهنيّا. إنّّه
 مسطّح تعالٍ. إنّّه مسطّح مماثلة، إمّا لأنّه يعيّن الحدّ النهائيّ لتطوّر ما،
 إمّا لأنّه ينشئ العلاقات التّناسبيّة للبنية. يمكن أن يكون في عقل إله، أو
 في لا وعي الحياة، النّفس أو اللغة: إنّّه مستنتج دوما من مفاعيله
 الخاصّة. إنّّه مستخلص دوما. حتى عندما نقول إنّّه محايث، فإنّه ليس
 كذلك إلّا بالغياب وبالمماثلة (مجازا واستعارة، إلخ.). الشّجرة معطاة
 في البذرة، لكن وفق مسطّح ليس معطى. كذا الحال في الموسيقى،
 مبدأ التّنظيم أو التطوّر لا يظهر لذاته في علاقة مباشرة مع ما يتطوّر أو
 يتنظّم: ثمة مبدأ تأليفيّ متعال ليس صائتا، ليس «مسموعا» بذاته أو
 لذاته. يسمح هذا الأمر بكلّ التّأويلات الممكنة. الأشكال وتطوّراتها،
 الموضوعات وتكوّاناتها تحيل على مسطّح يعمل بوصفه وحدة متعالية أو
 مبدأ خفيّا. سنتمكّن دائما من بسط المسطّح، لكن بوصفه جزءا على
 حدة، وغير مُعْطٍ في ما يعطيه. أليس هو هكذا بحيث أنه حتى بلزك،
 وحتى بروت كأنّهما يبسطان مسطّح تنظيم أو تطوير آثارهما، في لغة
 اصطناعيّة؟ لكنّ ستوكهوزن (Stockhausen) كذلك ألم يكن في حاجة
 إلى بسط بنية أشكاله الصّائتة وكأنّها «بجانب» تلك الأشكال، نتيجة
 عدم جعلها مسموعة؟ مسطّح حياة، مسطّح موسيقى، مسطّح كتابة،
 الكلّ سواء: مسطّح غير قابل للانعطاء من حيث هو كذلك، لا يمكن

أن يكون إلّا مستخلصاً وفق أشكال يطورها وموضوعات يشكّلها، لأنّه من أجل تلك الأشكال وتلك الموضوعات.

ثمّ إنّ ثمة مسطح آخر مغاير تماماً، أو تصوّر آخر مغاير تماماً للمسطح. ههنا لم يعد ثمة البتّة أشكال أو تطوّرات أشكال؛ لا موضوعات ولا تشكّلات موضوعات. لم يعد ثمة بنية ولا تكوّن. ثمة فقط علاقات حركة وسكون، سرعة وبطء بين عناصر غير متشكّلة، غير متشكّلة نسبياً على الأقلّ، هبّاءات وجسيمات من كلّ الأنواع. ثمة فقط هذيات، أفعالات، تفريدات دون موضوع، تُشكّل تنزيدات جماعيّة. لا شيء يتطور، إنّما أشياء تحدث متأخراً أو باكراً، وتشكّل هذا التّنّزيد أو ذاك تبعاً لتأليفات سرعتها. لا شيء يتدبّث، إنّما هذيات تتكوّن تبعاً [٣٢٦] لتألف اقتدارات أو أفعالات غير مُدبّثة. هذا المسطح الذي لا يعرف غير الأطوال والأعراض، السرعات والهذيات، نسّميه مسطح قوام أو تركيب (في تعارض مع مسطح التّنظيم والتّطور). إنّهُ حتميّاً مسطح محايدة ومواطأة. نسّميه إذاً مسطح طبيعة، مع أنّه لا علاقة للطبيعة بذلك بما أنّ هذا المسطح لا يفرّق إطلاقاً بين الطّبيعيّ والصّنعّي. مهما اتّسعت أبعاده، فليس له البتّة بُعد إضافيّ بالنّسبة إلى ما يحدث فوقه. بذلك أيضاً هو طبعيّ ومحايط. كما هو الحال بالنّسبة إلى مبدأ التّناقض: يمكن تسميته كذلك مبدأ عدم التّناقض. مسطح القوام قد يسمّى كذلك مسطح عدم القوام. إنّهُ مسطح هندسيّ لم يعد يحيل على مأرب ذهنيّ إنّما على تصوير مجرّد. إنّهُ مسطح لا تفتأ أبعاده تتوسّع مع ما يحدث دون أن يفقد مع ذلك شيئاً من سطحيّته. إنّهُ إذاً مسطح تكاثر وتنازل وعدوى؛ لكنّ تكاثر الموادّ هذا لا علاقة له بارتقاء، بتطور شكل أو بسلالة أشكال. ناهيك عن كونه ليس تراجعاً قد يعود إلى مبدأ. على التّقيض من لك هو انغماد حيث لا يفتأ الشّكل يتحلّل لتحرير الأزمنة والسرعات. إنّهُ مسطح ثابت، مسطح ثابت صائت، مرئيّ أو كتابيّ، إلخ. ثابت لا يعني هنا غير متحرّك: إنّها

الحالة المطلقة للحركة كما للسكون، الحالة التي ترتسم عليها كلّ السرعات والتباطؤات النسبية ولا شيء غيرها. بعض الموسيقيين الحديثين يواجهون المسطح المتعالي للتنظيم الذي يفترض فيه أنّه هيمن على كامل الموسيقى الغربية الكلاسيكية، بمسطح صائت محايث، مُنْعَطٍ دائما مع ما يُعطي، يمكن من إدراك ما يدقّ عن الإدراك ولم يعد يحمل غير سرعات وتباطؤات تفاضلية في ضرب من الاصطخاب الهبائي: على الأثر الفني أن يحدّد الثواني، أعشارها أو أجزاءها المائوية^(١). أو بالأحرى يتعلّق الأمر بتحرير الزّمن، الدّهر، زمن غير موقّع لموسيقى طليقة مثلما يقول بولاز، موسيقى إلكترونية تترك فيها الأشكال مكانها لتغيرات محض للسرعة. لا شكّ أنّ جون كايج (John Cage) هو أوّل من بسط بالكيفية الأتمّ هذا المسطح الثّابت الصّائت الذي يؤكّد سيرورة ضدّ كلّ بنية أو تكوّن، يؤكّد زمنا طليقا ضدّ الزّمن الموقّع أو ضدّ الزّمن، يؤكّد تجربيا ضدّ كلّ تأويل، وحيث الصمت بوصفه سكونا صائتا يعيّن كذلك الحالة المطلقة للحركة. قد نقول نفس الشيء عن المسطح الثّابت البصريّ: مسطح السّينما الثّابت قد رفعه غودار بالفعل [٣٢٧] على سبيل المثال، إلى هذه الدّرجة حيث تنحلّ الأشكال لكي لا يبقى شيء للرؤية غير التّغيّرات البسيطة للسرعة بين الحركات المربّكة. تقترح نتالي سرّوت في ما يخصّها تمييزا واضحا بين مسطّحيّ كتابة: مسطح متعال ينظّم الأشكال ويطوّرها (الأجناس، الأغراض، الدّوافع)، يعيّن الدّوات ويجعلها تتطوّر (الشّخصيّات، الطّبائع، الأحاسيس)؛ ومسطح آخر مغاير تماما يحرّر جسيّمات مادّة مجهولة، يجعلها تتواصل عبر «غلاف» الأشكال والدّوات، ولا يحتفظ بين هذه الجسيّمات إلّا بعلاقات حركة وسكون، سرعة وبطء، أفعالات

(١) راجع تصريحات الموسيقيين الأمريكيين الذين يلقّبون بـ«التكراريين»، خاصة تصريحات ستيف رايش وفيل غلاس.

طليقة، تجعل المسطح ذاته مدركا في نفس الوقت الذي يجعلنا ندرك فيه ما يدق عن الإدراك (مسطح مجهرى، مسطح هبائي^(١)). وبالفعل، من زاوية تجريد له وجاهته، يمكننا أن نتصرف وكأن المسطحين، وكأن تصوّري المسطح كانا متعارضين بوضوح وبإطلاق. من هذه الزاوية، سنقول إنكم ترون بوضوح الفرق بين النوعين التاليين من القضايا: (١) أشكال تتطور، موضوعات تتشكل، وفق مسطح لا يمكن أن يكون إلا مستنبطا (مسطح تنظيم- تطور)؛ (٢) ليس ثمة غير سرعات وتباطؤات بين عناصر غير متشكلة، وأفعالات بين اقتدارات غير مُذَيَّتة، وفق مسطح معطى ضرورة في نفس الوقت مع ما يعطيه هو (مسطح قوام أو تركيب^(٢)).

لنأخذ ثلاث حالات رئيسية من الأدب الألماني في القرن التاسع عشر، هلدلين، كلايست ونيثشه. - من ذلك التأليف العجيب لهيرون عند هلدلين، مثلما حلّه روبر روفيني: أهمية الهذيات من نوع مواسم، التي تُكوّن في نفس الوقت بطريقتين مختلفتين، «إطار الحكاية» (مسطح) وتفصيل ما يحدث فيها (التنضيدات وما بين التنضيدات^(٣)). لكن كذلك، في تعاقب المواسم، وفي تراكم نفس الموسم لسنوات مختلفة، انحلال الأشكال والأشخاص، إبراز الحركات، السّـرـت، التأخرات، الأفعالات، وكأن شيئا ما كان يفلت من مادة غير محسوسة كلما تقدّمت الحكاية. وكذلك لعلّها العلاقة مع «سياسة- واقعية»؛ مع

(١) تبين نتالي سرّوت في عصر الرّبة كيف أن بروست مثلا، يظلّ مترددا بين المسطحين، مع أنه يستخرج من شخصياته «الأجزاء الدقيقة لمادة لا تُحسّ»، لكنه يعيد كذلك الوصل بين كل جسيماته في شكل متسق، يدسّها في غلاف هذه الشخصية أو تلك، راجع ص ٥٢، ١٠٠.

(٢) راجع التمييز بين المسطحين عند أرطو، المسطحين اللذين يُشجّب أحدهما بوصفه مصدر كلّ الأوهام: التراهوماريون، ضمن الأعمال الكاملة، IX، صص ٣٤-٣٥.

(٣) هلدلين، هيرون، تقديم روبر روفيني، منشورات ١٨/١٠.

مكنة حرب؛ مع مكنة [٣٢٨] تنافر موسيقية. - كلايست: كيف أن كل شيء عنده، في كتابته كما في حياته، يصبح سرعة وبطؤا. تعاقب تشنجات وسرعات قصوى، إغماءات وسهام. ينام على ظهر حصانه ويطلق له العنان. القفز من تنضيد إلى آخر لصالح إغماء وهو يجتاز خلاء. يُضاعف كلايست «مسطحات حياة»، لكن دائما نفس المسطح الواحد هو الذي يحوي خلاءاته وكبواته، طفراته، زلازله وأوبئته. المسطح ليس مبدأ تنظيم إنما هو وسيلة نقلة. لا شكل يتطور، لا ذات تتكوّن، إنما أفعالات تنتقل، تصيُرات تنقذف وتتكتل، مثل التصيُر - امرأة لأشيل والتصيُر - كلبة لبنتسليا. لقد فسّر كلايست بكيفية رائعة كيف أن الأشكال والأشخاص كانا مجرد مظاهر أنتجها تنقل مركز ثقل على خط مجرد، وأنتجها ترابط هذه الخطوط على مسطح محايدة. يبدو له الدب حيوانا ساحرا يستحيل خداعه لأنه بعينه الصغيرتين البطاشتين يرى من وراء المظاهر «روح الحركة» الحقيقية، الوجدان أو الأفعال غير الذاتيّ: التصيُر - دبا لكلايست. حتى الموت لا يمكن تفكره إلا بوصفه تقاطع ردود فعل بسيطة ذات سرعات مختلفة جدا. جمجمة تنفجر، إنه هوس كلايست. أثر كلايست كلّ تجوبه مكنة حرب وقع استدعاؤها ضدّ الدولة، تجوبه مكنة موسيقية وقع استدعاؤها ضدّ الرسم أو «اللوحة». من العجب أن يكون غوته وهينغل على مثل هذا الكره لهذه الكتابة الجديدة. ذلك أنّه بالنسبة إليهما، يجب أن يكون المسطح تطورا نسيقا للشكل وتشكلا منتظما للذات، للشخصية أو للطبع (التربية الشعورية، الصلابة الجوهرية والداخلية للطبع، تناسق أو تماثل الأشكال واستمرارية التطور، عبادة الدولة، إلخ.). ذلك أنهما يكونان عن المسطح تصورا معارضا بالتّمام لتصور كلايست. غوتية مضادة، هيغلية مضادة لكلايست ومن قبله لهلدلين. يرى غوته ما هو أساسي عندما يؤاخذ كلايست في نفس الوقت على إقامته «سيرورة ثابتة» محضا من مثل المسطح الثابت بالفعل، على إدخاله خلاءات وطفرات تمنع كلّ

تطوّر لخاصية مركزية، على تعبئة عنف أفعالات يفضي إلى بلبله كبرى في المشاعر^(١).

الشيء نفسه مع نيتشه بوسائل أخرى. لم يعد ثمة تطوّر للأشكال ولا تشكّل للذوات. ما يؤاخذ به فاغنر هو كونه استمرّ في الحفاظ على شكل اللحن بكيفية مفرطة، وعلى الكثير من الشخصيات البيداغوجية وعلى «طباع»: على الكثير من هيغل ومن غوته. نيتشه كان يقول، على النقيض من ذلك كان بيزات (Bizet) . . . [٣٢٩] يبدو لنا أنّ المشكل عند نيتشه ليس هو إلى حدّ كبير مشكل كتابة شذرية. إنّّه بالأحرى مشكل سرعات أو تباطؤات: ليس أن نكتب ببطء أو بسرعة، إنّما أن تكون الكتابة وكلّ ما عداها، إنتاجاً للسرعات والتباطؤات بين جسيمات. ولا شكل سيصمد أمام ذلك، لا خاصية ولا ذات ستنجوان من ذلك. زرادشت ليس له غير سرعات وتباطؤات، والعود الأبديّ، حياة العود الأبديّ هي التجريد الكبير العينيّ الأوّل لزمان غير موقع. هذا هو الإنسان ليس له غير تفريعات بواسطة هذيات. من الحتميّ أنّ المخطّط الذي وقع إدراكه على هذا النحو يخفق دوماً، لكنّ الكبوات تشكّل جزءاً من المخطّط: راجع كثرة المخطّطات بالنسبة إلى إرادة الاقتدار. بالفعل، في حكمة معطاة، سيكون من الممكن دائماً بل ومن الحتميّ، إدخال علاقات سرعة وبطء جديدة بين عناصرها، تجعلها تتغيّر تنزيدها تغييراً حقيقياً، تجعلها تقفز من تنزيد إلى آخر (المسألة ليست إذا مسألة شذرة). مثلما يقول كايج، يعود إلى المخطّط كون المخطّط يخفق^(٢). بالفعل لأنّه ليس مخطّط تنظيم وتطوير أو تشكيل، إنّما هو

(١) استعملنا دراسة غير منشورة لماثيو كاريار (Mathieu Carrière) حول كلايست.

(٢) «من أين أتى عنوانك عام انطلاقاً من يوم الاثنين؟» - «من مخطّط شكّلناه مع مجموعة من الأصدقاء، أن نلتقي في مكسيكو يوم الاثنين المقبل في غضون سنة. كنّا اجتمعنا يوم سبت، ومخطّطنا لم يتحقّق أبداً. إنّّه ضرب من الصمت.

مخطّط تحويل غير إراديّ. أو كذلك قول بولاز: «برمجة الممكنة بحيث أنّه في كلّ مرّة نعيد فيها تمرير البكرة، تعطينا الممكنة خواصّ مختلفة للزّمن». إذا، المسطّح، مسطّح حياة، مسطّح كتابة، مسطّح موسيقى، إلخ. لا يمكنه إلّا أن يخفق، بما أنّه من المحال أن نكون أوفياء له، لكنّ الكبوات تشكّل جزءً من المسطّح بما أنّه يتنامى أو يتناقص مع أبعاد ما يبسطه في كلّ مرّة (سطحيّة ذات أبعاد غير محدودة). ممكنة غريبة، في نفس الوقت ممكنة حرب، ممكنة موسيقى وعدوى- تكاثر- انغماد).

لِمَ يحيل تعارض ضريّين من المسطّحات مع ذلك على فرضيّة ما تزال مجرّدة؟ لأنّنا لا نفتأ نمرّ من مسطّح إلى آخر، بدرجات غير محسوسة ودون معرفة ذلك أو معرفته لاحقاً. لأنّنا لا نفتأ نعيد بناء مسطّح على مسطّح، أو استخراج مسطّح من مسطّح. على سبيل المثال، يكفي أن ندخل مسطّح المحايّنة الطّليق أو أن نواريه في أعماق الطّبيعة عوضاً عن تركه يتحرّك بحريّة على السطح، حتى ينتقل بالفعل إلى الجانب الآخر ويتّخذ دور أساس لم يعد له إلّا أن يكون مبدأ مماثلة من زاوية [٣٣٠] التّنظيم، قانون استمراريّة من زاوية التّطوّر^(١). ذلك أنّ مسطّح التّنظيم أو التّطوير يغطّي بالفعل ما كنّا نسمّيه تراصفاً: الأشكال والذّوات، الأعضاء والوظائف هي «طبقات» أو علاقات بين

(...) نتيجة إخفاق مخطّطنا، نتيجة عجزنا عن الالتقاء، لا شيء أخفق، المخطّط لم يكن إخفاقاً (جون كايج، للعصافير، حوارات مع دانيال شارل، منشورات بلفون، ص ١١١).

(١) لذلك أمكننا اتّخاذ غوته كمثال لمسطّح متعال. مع ذلك يُعتبر غوته سبينوزيّاً؛ دراساته النباتيّة والحيوانيّة تكشف مسطّح تركيب محايّ يقربّه من جوفروا سانت- هيلار (غالباً ما وقعت الإشارة إلى هذا التّشابه). يبقى أنّ غوته سيحتفظ دائماً بالفكرة المزدوجة لتطوّر الشّكل ولتشكّل- تربية للذّات: بذلك يمرّ مسطّح محايّته فعليّاً إلى الجانب الآخر، باتجاه القطب الآخر.

الطبقات. على النقيض من ذلك، المسطح بوصفه مسطح محايثة، قوام أو تركيب، يستتبع لا تراصف الطبيعة كلّها، بما في ذلك لا تراصفها بالوسائل الأكثر اصطناعا. مسطح القوام هو الجسد دون أعضاء. محض علاقات السرعة والبطء بين الجسيمات، مثلما تظهر على مسطح القوام، تستتبع حركات لا تأرّضن مثلما تستتبع الافعالات المحض عملية لا ذئنة. أكثر من ذلك، مسطح القوام لا يوجد قبل حركات اللا تأرّضن التي تبسطه، لا يوجد قبل خطوط الإفلات التي ترسمه والتي تجعله يرتقي إلى السطح، لا يوجد قبل التّصيّرات التي تكونه. بحيث أنّ مسطح التنظيم لا يفتأ يعمل فوق مسطح القوام، محاولا باستمرار سدّ خطوط الإفلات، إيقاف أو قطع حركات اللا تأرّضن، إنقالها، إعادة تراصفها، إعادة تكوين الأشكال والذّوات في العمق. وعكسيّا، مسطح القوام لا يفتأ يتملّص من مسطح التنظيم، لا يفتأ يسرح جسيمات خارج الطبقات، يربك الأشكال بضربات سرعة أو بطء، يكسر الوظائف من فرط التّنضيدات والتّنضيدات المجهريّة. لكن هنا أيضا، كم يتوجّب الحذر حتى لا يصبح مسطح القوام محض مسطح هدم أو موت. حتى لا ينقلب الانغماد إلى تقهقر في اللا متمايز. ألا يتوجّب الحفاظ على أدنى قدر من الطبقات، على أدنى قدر من الأشكال والوظائف، على أدنى قدر من الموضوع لنستخرج منه المواد والافعال والتّنضيدات.

بحيث أنّه علينا إقامة تعارض بين المسطحين بوصفهما قطبين مجردين: على سبيل المثال، المسطح التنظيميّ المتعالى لموسيقى غربيّة قائمة على الأشكال الصّائنة وتطوّرها، نواجهه بمسطح قوام محايث للموسيقى الشّرقية، المعمولة من سرعات وتباطؤات، من حركات وسكنات. لكن، وفق الفرضيّة العينية، تصوّر الموسيقى الغربيّة كلّها، كلّ تصوّر موسيقيّ يستتبع حدّا أدنى من الأشكال الصّائنة، وحتى حدّا أدنى من الوظائف اللّحنيّة والنغميّة [٣٣١]، التي سنمرّر من خلالها السرعات

والتَّبَاطُؤَات، التي ترجعها تحديداً إلى الحدّ الأدنى. يُنتج بيتهوفن أغرب ثراء لتعدد النغمات مع الألحان الفقيرة نسبياً ذات الثلاث أو الأربع نغمات. ثمّة توالد ماديّ هو وتَفَكُّك الشكل شيء واحد (انغماد)، في نفس الوقت الذي يكون مصحوباً فيه بتطوّر متواصل للشكل. لعلّ عبقرية شومان هي الحالة الأبرز حيث لا يتطوّر شكل إلا من أجل سرعة وبطء يؤثّران عليه مادياً ووجدانياً. لا تفتأ الموسيقى تُخضع أشكالها وأنماطها إلى تغييرات زمنية، زيادة ونقصاناً، إبطاءات وتسارعات، لا تتمّ فقط وفق قوانين التنظيم وحتى وفق قوانين التطوّر. المسافات- المجهريّة، في الامتداد أو في الانكماش، تتحرّك داخل المسافات المقنّنة. ناهيك أنّ فاغنار والمابعد فاغناريين سيحرّرون تنويعات السّرعة بين الجسيمات الصّائتة. رافيل (Ravel) ودبيسي (Debussy) يحتفظان من الصّورة تحديداً بما يكفي لكسرها، للنّيل منها، لتغييرها تحت تأثير السّرعات والتّباطُؤَات. البوليرو، مدفوعاً إلى حدّ المغالاة، هو نوع تنضيد مكثّف يحتفظ من الشكل بأدنى حدّ حتى يفضي به إلى التّشظّي. يتحدّث بولاز عن تكاثرات أنماط صغرى، تراكمات نغمات صغرى تعمل حركياً ووجدانياً، تحمل شكلاً بسيطاً مضيفة إليه علامات سرعة، وتُمكن من إنتاج علاقات ديناميّة شديدة التّعقيد انطلاقاً من علاقات صورية بسيطة جوهرياً. حتى إيقاع حرّ لشوبان (Chopin) لا يمكن استنساخه بما أنّه ستكون له في كلّ مرّة خاصّيات زمنية مختلفة^(١). كما لو أنّ مسطّح قوام ضخم ذي سرعة

(١) حول كلّ هذه النّقاط (التّكاثرات- التّحلّلات، التّراكمات، علامات السّرعة، الدّور الدّيناميّ والوجدانيّ)، راجع بيار بولاز، إراديّاً وتصادفيّاً، ص ٢٢- ٢٤، ٨٨- ٩١. في نصّ آخر، يلجّ بولاز على جانب مجهول عند فاغنار: ليست اللّازمات وحدها هي التي تتحرّر من تبعيتها للشّخصيات المسرحيّة، إنّما سرعات التّابع تتحرّر من هيمنة «تقنين صوريّ» أو من مقياس سرعة العزف («الزّمن المبحوث عنه» ضمن كرّاس برنامج ذهَب نهر الرّاين، I، بايروث، ١٩٧٦،

متغيرة لا يفتأ يسوق الأشكال والوظائف، الأشكال والموضوعات، ليستخرج منها الجسيمات والافعال. ساعة قد تعطي تشكيلة كاملة من السرعات.

ما الفتاة؟ ما مجموعة فتيات؟ لقد بين بروس ذلك على الأقل بشكل نهائي: كيف أن تفريدهن الجماعي أو الفردي، لا يعمل بالذاتية بل بالهذية، بهذية محض. إنهن «كائنات إفلات». «إنهن» [٣٣٢] محض علاقات سرعات وتباطؤات ليس إلا. فتاة ما هي متأخرة بالسرعة: لقد قامت بالكثير من الأشياء، اجتازت الكثير من الفضاءات بالنسبة إلى الزمن الخاص بمن كان ينتظرها. حينئذ يتحول بطل الفتاة الظاهري إلى سرعة جنونية لا نتظارنا. يجب أن نقول بهذا الصدد، وبخصوص جملة البحث عن الزمن الضائع، إن سوان لم يكن البتة في نفس وضعيّة الراوي. سوان ليس تمهيدا للراوي أو مؤشرا عليه إلا بشكل ثانوي وفي لحظات نادرة. إنهما ليس كائنين على نفس المسطح. سوان لا يفتأ يفكر ويحس في صيغة ذات، شكل، تشابه بين الذوات، تناظر بين الأشكال. كذبة من أوديت هي عنده شكل يجب أن يكشف مضمونه الذاتي السري وأن يثير نشاط شرطي هاو. موسيقى فنتوي (Vinteuil) هي عنده شكل يجب أن يذكّره بشيء آخر، أن يرتد على شكل آخر، أن يتصادى مع أشكال أخرى، مع رسوم، وجوه أو مشاهد. بينما عبثا يحاول الراوي اتباع آثار سوان، ومع ذلك هو في وسط آخر، على مسطح آخر. كذبة من ألبارتين لم يعد لها مضمون على الإطلاق، إنها تنزع على النقيض من ذلك إلى التّطابق مع إرسال جسيم نابع من عيني المحبوب، والتي لها قيمتها في ذاتها، تذهب سريعا إلى المجال البصري أو السّمعّي للراوي، إنها سرعة هبائية لا يمكن تحمّلها حقيقة،

صص ٣-١١). يشيد بولاز بروس لكونه أحد الأوائل الذين فهموا هذا الدور الطّليق والقابل للتّحويل للأنماط الفاغاريّة.

بما أنّها تشير إلى مسافة، إلى جوار قد تودّ ألبارتين أن تحلّ فيه وها هي فيه بالفعل^(١). بحيث أنّ استعراض الرّاي لن يكون بشكل رئيسيّ من بعد ذلك هو استعراض شرطيّ يحقّق بل سيكون صورة مختلفة هي صورة سجّان: كيف يصبح هو سيّد السّرعة، كيف يتحمّلها عصبياً بوصفها ألما عصبياً، إدراكياً بوصفها برقاً، كيف يصنع سجنا لألبارتين؟ وإذا لم تعد الغيرة هي ذاتها، عندما ننقل من سوان إلى الرّاي، فإنّ إدراك الموسيقى لم يعد هو ذاته أيضاً: يقع التوقّف تدريجياً عن إدراك فتوي وفق أشكال تماثليّة ووفق ذوات قابلة للمقارنة ليتّخذ شكل سرعات وتباطؤات مذهلة تتزّوج على مسطّح قوام متغيّر، هو نفس مسطّح الموسيقى والبحث عن الزّمن الضّائع (شأن تخليّ الأنماط الموسيقيّة الفاغناريّة عن كلّ ثبات للشّكل وعن كلّ تعيين للشّخصيّات). قد نقول إنّ مفاعيل سوان اليائسة لإعادة أرضنة دفع الأشياء [٣٣٣] (إعادة أرضنة أوديت على سرّ، الرّسم على وجهه، الموسيقى على غابة بولونيو) قد تركت مكانها لحركة اللّاتأرّضن المتسارعة، لتسارع خطّيّ للممكنة المجرّدة، تسارعا يجتاح الوجوه والمّشاهد، ومن بعد ذلك الحبّ، ومن بعد ذلك الغيرة، ومن بعد ذلك الرّسم، ومن بعد ذلك الموسيقى ذاتها، وفق مُعامِلات متزايدة القوّة هي التي ستغذّي كامل الأثر، مع المجازفة بإذابة كلّ شيء، والانتهاء إلى الموت. ذلك أنّ الرّاي، بالرّغم من كلّ الانتصارات الجزئيّة، سيخفق في مشروعه الذي لم يكن على الإطلاق استعادة للزّمن ولا إرغاما للذاكرة، بل هو أن

(١) مواضيع السّرعة والبطء وقع تفصيل القول فيها بشكل خاصّ في السّجينة: «الفهم المشاعر التي تصدر عن [كائنات الإفلات] ولا تصدر عن كائنات أخرى حتى وإن كانت أجمل، يجب أن نحسب أنّها ليست ساكنة، بل هي في حركة، وأنّ نضيف لشخصهنّ علامة مناظرة لما في الفيزياء هو علامة تدلّ على السّرعة. (...). هذه الكائنات، كائنات الإفلات هذه، طبيعتها وانشغالنا يشبان لها أجنحة.»

يصير سيّدا للسرّعات على إيقاع رُبّوه. إنّها مواجهة الامّحاق. مخرج آخر كان ممكنا، أو كان بإمكان بروسث أن يجعله ممكنا.

ذكريات هبّاءة. - التّصير - حيوانا ليس إلّا حالة من بين حالات أخرى. نجد أنفسنا مأخوذِين في أقسومات تَصيرُ نستطيع أن نقيم بينها ضربا من النّظام أو من التّدرّج الظّاهريّ: التّصير - امرأة، التّصير - طفلا؛ التّصير - حيوانا، نباتا أو معدنا؛ التّصيرات - هبائيا من كلّ الأنواع، التّصيرات - جسيمات. ألياف يؤدّي بعضها إلى بعضها الآخر، يغيّر بعضها في بعضها الآخر، متخطّية الأبواب والعتبات. لعلّ الغناء أو التّأليف الموسيقيّ، الرّسم، الكتابة، ليس لها هدف آخر غير: تحرير هذه التّصيرات. الموسيقي بشكل خاصّ؛ تَصير - امرأة وتَصير - طفل يعبران الموسيقيّ، ليس في مستوى الأصوات وحسب (الصّوت الأنغليزيّ، الصّوت الإيطاليّ، القرار، الجواب)، إنّما في مستوى الألحان والجُمْل الموسيقيّة: اللّازمة الصّغرى، اللّازمة الدّائريّة، مشاهد الطّفولة وألعاب الطّفّل. التّجهيز والتّجويق الموسيقيّ تخترقهما أوّلا تَصيرات - حيوانات، تَصيرات - عصفور، وتَصيرات أخرى أيضا. الاندفاعات، التّأوّهات، الصّرخات الهبائية كائنة هناك منذ البداية، حتى وإن كان التطوّر الآلاتيّ موصولا بعوامل أخرى، يمنحها اليوم أهميّة متزايدة، مثل قيمة عتبة جديدة من زاوية مضمون موسيقيّ بشكل محدّد: الهبّاءة الصّائتة، علاقات السّرعة والبطء بين الجسيمات. التّصيرات - حيوانات ترتمي في تَصيرات هبائية. حينئذ تُطرح كلّ أنواع الأسئلة.

بطريقة ما، يجب أن نبدأ من النّهاية: كلّ التّصيرات هي بالفعل تَصيرات هبائية. ذلك أنّ التّصير ليس محاكاة لشيء ما أو لشخص ما، ليس تطابقا وإيّا. وليس هو كذلك ملائمة علاقات صورّة. ولا واحد من شكليّ المماثلة هذين يلائم التّصير، لا محاكاة ذات ولا تناسبيّة صورة. يكون التّصير انطلاقا ممّا لنا من صور، من الدّات التي نحن

إياها، من الأعضاء التي نمتلكها أو من الوظائف التي نقوم بها، استخلاص جسيمات نقيم بينها علاقات حركة وسكون، سرعة [٣٣٤] وبطء، الجسيمات الأقرب إلى ما نحن بصدد تصيُّره، والتي بواسطتها نتصيِّر. بهذا المعنى يكون التصيِّر سيرورة رغبة. مبدأ القرب أو التقريب هذا هو مبدأ خاصّ جدًّا ولا يَستدخل أيّة مماثلة. إنّه يشير بأدقّ ما يمكن إلى منطقة جوار أو إلى تآني حضور جُسيم، إلى الحركة التي يتخذها كلّ جُسيم عندما يدخل إلى تلك المنطقة. ينطلق لويس وولفسون في مغامرة عجيبة: فصاميّ، يترجم بأسرع ما يمكن كلّ جملة من لسانه الأمّ إلى كلمات غريبة لها صوت ومعنى متشابهان، مصاب بفقدان الشّهية، يندفع باتّجاه الثّلاجة، يمزّق العلب، ينتزع العناصر التي يلتهمها في أسرع وقت ممكن^(١). قد يكون من الخطأ الاعتقاد أنّه يستعير من الألسن الأجنبية الكلمات «المتنكّرة» التي يحتاجها. على العكس من ذلك هو ينتزع من لسانه الخاصّ جسيمات لفظيّة لم يعد بإمكانها الانتماء إلى صورة ذلك اللّسان، تماما مثلما ينتزع من الأغذية جسيمات غذائيّة لم تعد تنتمي إلى الموادّ الغذائيّة المتكوّنة: يتجاوز نوعا الجسيمات. بإمكاننا القول كذلك: إفراز جسيمات تأخذ علاقات حركة وسكون معيّنة لأنّها تدخل في منطقة جوار معيّنة؛ أو: إنّها تدخل في هذه المنطقة لأنّها تتخذ تلك العلاقات: هذيّة لا تنفصل عن الضباب أو عن البخار اللّذين يتوقّفان على منطقة هبائيّة، على فضاء جسيميّ. الجوار مصطلح طوبولوجيّ وكونيّ في نفس الوقت، يعيّن الانتماء إلى نفس الهباء بغضّ النظر عن الدّوات المعنيّة وعن الصّور المحدّدة.

لقد أبرز شيرار (Schérer) وهوّكنغام (Hocquenghem) هذه النّقطة الأساسيّة عندما أعاد النظر في مشكل الأطفال- الدّئاب. بطبيعة الحال، لا يتعلّق الأمر بإنتاج حقيقيّ وكأنّ الطّفل كان أصبح حيوانا

(١) لويس وولفسون، الفصاميّ والألسن، غاليمار.

«حقيقة»، لا يتعلّق الامر كذلك بمشابهة وكأنّ الطّفل كان حاكى حيوانات قد تكون قامت بتربيته حقيقة؛ لكن الأمر لا يتعلّق أيضا بمجاز رمزيّ وكأنّ الطّفل المتوحّد، المتروك أو المفقود، كان أصبح الـ«مماثل» لحيوان. شيرار وهو كَنُغام هما على صواب في شجب هذا الاستدلال الخاطي القائم على ثقافية أو أخلاقية تدعيان عدم قابلية النظام البشريّ للاختزال: بما أنّ الطّفل لم يتحوّل إلى حيوان، فإنّه قد يكون فقط في علاقة مجازية معه، مستمدّة من قصوره أو من نبذه. إنهما يستحضران في ما يخصّهما منطقة لا تحدّد أو ترتيب موضوعيّة، يستحضران «شيئا ما مشتركا أو مبهما»، جوارا «يجعل من المستحيل القول أين يمرّ الحدّ بين الحيوان وبين ما هو [٣٣٥] إنسانيّ»، ليس فقط عند الأطفال المتوحّدين، إنّما عند كلّ الأطفال، وكأنّه كان ثمة عند الطّفل مكان لتصيّرات أخرى، بغضّ النظر عن التّطوّر الذي يفرض به إلى الكهل، «لإمكانات أخرى معاصرة»، ليست تراجعات بل هي انغمادات خلّاقة وتشهد على «لا إنسانية معيشة مباشرة في الجسد من حيث هو كذلك»، إنّها أعراس مضادّة للطبيعة «خارج الجسد المبرمج». إنّها حقيقة التّصير- حيوانا دون أن نصبح حيوانا حقيقة. مذّاك لا جدوى من الاعتراض بالقول إنّ الطّفل- الكلب لا يقوم بدور الكلب إلّا في حدود تكوينه الصّوريّ، ولا يقوم بأيّ شيء كلبيّ قد لا يكون كائن بشريّ آخر قادر على القيام به لو كان أراد ذلك. ذلك أنّ ما يجب تفسيره، هو بالتّحديد كون كلّ الأطفال، وحتى الكثير من الكهول، يقومون به تقريبا، ويعبّرون مع الحيوان على تواطؤ لا إنسانيّ بدلا من متّحد رمزيّ أوديبّي^(١). لن نعتقد كذلك أنّ الأطفال الذين

(١) رنيه شيرار وغي هو كَنُغام، غضب مزدوج، بحوث، صص ٧٦-٨٢: نقدهما لأطروحة بتلهاييم الذي لا يرى في التّصيّرات- حيوانات للطّفل غير رمزيّة متوحّدة، تعبّر فضلا عن ذلك على قلق الوالدين أكثر من تعبيرها على الحقيقة الطّفولية (راجع، القلعة الخاوية، غاليمار)

يرعون الحشائش أو يأكلون التراب أو اللحم النيء، يجدون في ذلك فقط فيتامينات أو عناصر قد تكون عضويتهم في حاجة إليها. يتعلّق الأمر بالالتحام مع الحيوان، بجسد دون أعضاء تحدّده مناطق شدّة أو جوار. من أين يأتي حينئذ هذا اللاتحدّد وهذا الإبهام الموضوعيّان اللذان يتحدّث عنهما شيرار وهو كَنغام ؟

على سبيل المثال: ليست محاكاة الكلب، إنّما تركيب العضوية مع شيء آخر، بحيث أنّنا نُخرج من هذا الكلّ الذي تشكّل على هذا النحو، جُسيمات ستكون كلبية وفق علاقة الحركة والسكون، أو وفق التّجاوز الهبائيّ الذي تدخل فيه. من المفهوم أنّ هذا الشيء الآخر يمكن أن يكون متنوّعا جدّا ويتعلّق تقريبا بالحيوان المعنويّ مباشرة: يمكن أن يكون الغذاء الطّبيعيّ للحيوان (الأرض والدّودة)، يمكن أن تكون علاقاته الخارجيّة مع حيوانات أخرى (سيصير كلبا مع القطط، سيصير قردا مع حصان)، يمكن أن يكون آلة أو عضوا اصطناعيّا يركّبه له الإنسان (كمّامة، أعنة، إلخ.)، يمكن أن يكون شيئا ما لم تعد له حتى علاقة بالحيوان المعنويّ «يمكن تحديدها». بالنّسبة إلى هذه الحالة الأخيرة، رأينا كيف أنّ سلابيان (Slepian) يقيم محاولته في التّصوير- كلبا على فكرة شدّ خيوط الحذاء إلى يديه، ربطها بفمه- شدقيّه. يستشهد فيليب غافي (Philippe Gavi) بإنجازات لوليتو (Lolito) في أكل القوارير، الخزف الصّينيّ والخزف، الحديد، وحتى الدّراجات، وهو الذي يصرّح: «أعتبر نفسي بمثابة نصف [٣٣٦] حيوان، نصف إنسان. لعلّي حيوان أكثر من كوني إنسانا. أحبّ الحيوانات، والكلاب خاصّة، أحسّ أنّي مرتبط بها. أسناني تأقلمت مع ذلك؛ في حقيقة الأمر، عندما لا أكل البلّور أو الحديد، يتأكّلني فكّي مثل فكّ جُرّو يرغب بقضم عظم^(١)». تأويل كلمة «مثل» على طريقة مجاز، أو اقتراح

(١) فيليب غافي، «فلاسفة العجائبيّ»، في جريدة التّحرّر، ٣١ مارس ١٩٧٧.

ممائلة بنيوية للعلاقات (إنسان- حديد = كلب- عَظْم)، معناه عدم فهم أي شيء للتصير. كلمة «مثل» تنتمي إلى هذه الكلمات التي تُغيّر معناها ووظيفتها بشكل خاص مذ نلحقها بهذيات، مذ نجعل منها عبارات تصير ولا نجعل منها لا حالات مدلول عليها ولا علاقات دالة. قد يُعمل كلب فكّه في الحديد، لكنه يُعمل فكّه حينئذ بوصفه عضوا كتلويًا. عندما يأكل لوليتو الحديد، فذلك أمر مختلف تماما: إنّه يؤلف بين فكّه والحديد بحيث أنّه يصير هو ذاته فكّ- كلب هبائيّ. الممثل روبار دي نيرو، يمشي في مشهد من فيلم «مثل» سرطان البحر؛ لكن الأمر لا يتعلّق وفق قوله، بمحاكاة سرطان البحر؛ يتعلّق الأمر بتأليف شيء ما له علاقة بسرطان البحر من خلال الصّورة وسرعة الصّورة^(١). وهذا هو الأساسي بالنسبة إلينا: لا نصير- حيوانا، إلّا ونحن نرسل بواسطة وسائل أو عناصر أيّا كانت، جسيمات تدخل في علاقة حركة وسكون الجزئيات الحيوانية، أو، والأمر سيّان، في منطقة جوار الهباءة الحيوانية. لا نصير حيوانا إلّا هبائيًا. لا نصير كلبا كتلويًا نابحا، لكن بنباحنا، إذا قمنا بذلك بما يكفي من الحماسة والضّرورة والتوليف، نفرز كلبا هبائيًا. لا يصير الإنسان ذئبا ولا مصّاص دماء وكأنّه كان غير نوعه الكتلوي؛ لكنّ مصّاص الدماء والمستدئب هما تصيّرات للإنسان، أي هما تجاوزات بين هباءات مؤتلفة، علاقات حركة وسكون،

بالنسبة إلى الحالات السابقة، قد يتوجّب الوصول إلى فهم بعض التصرّفات التي تسمّى تصرّفات عُصابية وفق تصيّرات- حيوانات، بدلا من إرجاع التصيّرات- حيوانات إلى تأويل تحليليّ نفسانيّ لهذه التصرّفات. لقد رأينا ذلك بالنسبة إلى المازوخيّ (ويفسّر لوليتو كون أصل مأثره كائن في بعض التجارب المازوخية؛ نصّ رائع لكريستيان مورال (Christian Maurel)، يزاوج بين التصير- قردا والتصير- حصانا في زوج مازوخيّ). قد يتوجّب النّظر كذلك في القهامة من زاوية التصير- حيوانا.

(١) راجع، نيوزويك، ١٦ ماي ١٩٧٧، ص ٥٧.

علاقات سرعة وبطء بين جسيمات مرسلة. بالطبع، ثمة مستذنبون، مصاصو دماء، نقول ذلك بحميّة، لكن لا تبحثوا فيه عن مشابهة الحيوان أو مماثلته، بما أنّه التّصيّـر- حيوانا بالفعل، إنّهُ استيلاد الحيوان الهبائيّ (بينما [٣٣٧] الحيوان «الحقيقيّ» تملكه صورته وذاتيّته الكتلويتان). فينا نحن يُظهر الحيوان أسنانه مثل فأر هوفمنشتال، أو تُظهر الوردّة بتلاتها، لكن ذلك يكون بانبعاث جزئيّ، بتجاور هبائيّ، وليس بمحاكاة ذات ولا بتناسيّة شكل. بإمكان ألبارتين أن تحاكي زهرة بشكل دائم، لكن عندما تكون نائمة وعندما تتألف مع جسيمات النّوم، حينها تدخل شامة خدّها ونسيج جلدها في علاقة سكون وحركة يضعانها في منطقة نبات هبائيّ: التّصيّـر- نبتة ألبارتين. وإنّها عندما تكون سجيّنة تطلّق جزئيّات عصفور. وعندما تفلت، تندفع في خطّ إفلاتها، تصير حصانا، حتّى وإن كان حصان الموت.

أجل، كلّ التّصيّرات تصيّرات هبائيّة؛ الحيوان، الزّهرة أو الصّخرة التي نصير نحن إيّاها هي مجموعات هبائيّة، هذيات، وليست أشكالا، موضوعات أو ذوات كتلويّة نعرفها خارجنا، ونتعرّف عليها نتيجة التجربة أو العِلْم، أو العادة. لكن إذا كان ذلك صحيحا، يجب أن نقوله عن الشّؤون الإنسانية أيضا: ثمة تصيّـر- امرأة، تصيّـر- طفل، لا يشبهان المرأة أو الطّفل بوصفهما وحدات كتلويّة متمايزة بوضوح (مع أنّ المرأة أو الطّفل يمكن أن تكون لهما وضعيات مميّزة ممكنة، إلّا أنّها ممكنة وحسب، وفق مثل هذه التّصيّرات). ما نسّميه هنا وحدة كتلويّة على سبيل المثال، هو المرأة من حيث هي مأخوذة في مكنة ثنائيّة تجعلها تتعارض مع الرّجل، من حيث هي محدّدة بصورتها، ومحبوّة بأعضاء وبوظائف، ومتعيّنة بوصفها ذاتا. لكنّ التّصيّـر- امرأة ليس محاكاة لهذه الوحدة، ولا حتّى تغيرا فيها. ومع ذلك لن نتغاضى عن أهميّة المحاكاة أو عن لحظات المحاكاة عند بعض المثليين الذّكور؛ بل ولا عن المحاولة المذهلة للتّغيير الفعليّ عند بعض

المتحولين جنسيًا. نودّ القول فقط إنّ هذه الجوانب المتلازمة للتّصير- امرأة يجب أن تُفهم أولاً وفق شيء آخر: لا محاكاة ولا اتّخاذ للشّكل الأنثويّ، بل إطلاق جسيّمات تدخل في علاقة حركة وسكون أو في منطقة جوار لأنثويّة- مجهرية، أي استيلاد امرأة هبائيّة فينا، صنع المرأة الهبائيّة. لا نودّ القول إنّ مثل هذا الصّنع هو حكر على الرّجل، إنّما على النّقيض من ذلك، إنّ المرأة بوصفها وحدة كتلويّة عليها أن تصير- امرأة، حتى يصير الرّجل كذلك أيضًا أو يمكنه أن يصير كذلك. الأكّد أنّه من الضّروريّ أن تنفّذ النّساء سياسة كتلويّة، وفق اكتساح تقمن به لعضويتهنّ الخاصّة، لتاريخهنّ الخاصّ، لذاتيتهنّ الخاصّة: حينئذ تبدو عبارة «نحن من حيث أننا نساء...» بمثابة ذاتٍ تَلَفُظ. لكن من الخطير الارتداد على مثل [٣٣٨] هذه الذات التي لا تعمل دون تجفيف نبع أو إيقاف دفق. نشيد الحياة غالبا ما تنشده أكثر النّساء تيّبسا، اللّاتي يحركهنّ الاضطغان، إرادة الاقتدار والأومومة الباردة. مثل طفل هزيل يقوم بدور الطفل على أفضل وجه بحيث لم يعد يصدر عنه أيّ دفق للطّفولة. لا يكفي القول فضلا عن ذلك إنّ كلّ جنس يحتوي الجنس الآخر، وعليه أن يطوّر في ذاته القطب المقابل. الخنثويّة ليست مفهوما أفضل من مفهوم الفصل بين الجنسين. تصغير المكنة المزدوجة أو استبطانها لا يقلّ سوء عن إثارتها، ولا نخرج من هذا الوضع بهذه الكيفيّة. يجب أن نتصوّر إذا سياسة أنثويّة هبائيّة، تتسلّل داخل المواجهات الكتلويّة وتمرّ تحتها أو عبرها.

عندما نسأل فرجينيا وولف عن كتابة نسويّة تخصّيصا فإنّ فكرة الكتابة «بصفتها امرأة» ترعبها. يجب بالأحرى أن تُنتج الكتابة تصيرًا- امرأة، يكون بمثابة إنتاج ذرّات أنوثة قادرة على التّطواف في حقل اجتماعيّ والتّفاذ إليه بتمامه، وتسريب العدوى إلى الرّجال وأخذهم في هذا التّصير. جسيّمات لطيفة جدّا لكنّها صلبة وعنيدة أيضًا، متعنّة وجموحة. تصاعد النّساء في الكتابة الروائيّة الأنغليزيّة لن يستثني أيّ

رَجُل: الذين يُعتبرون أكثر الرجال فحولة وذكورية مثل لورانس وميلار، لن يتوقفوا بدورهم عن التقاط وعن إرسال هذه الجسيمات التي تدخل في جوار النساء أو في منطقة عدم تمايزهنّ. إنهم يتصيّرون- امرأة وهم يكتبون. ذلك أنّ المسألة ليست هي، أو ليست هي فقط مسألة العضوية والتاريخ والذات المتلفظة التي تعارض بين الذكورة والأنوثة في المكنات الثنائية الكبرى. المسألة هي أولاً مسألة الجسد- الجسد الذي يُسرق منا ليصنعوا منه عضويّات متقابلة. لكن ما تقع سرقة أولاً هو هذا الجسد الذي هو جسد الفتاة: توقفي عن الجلوس على هذا النحو، لم تعودى طفلة، لست فتاة مسترجلة، إلخ. الفتاة هي التي تقع سرقة تصيّرها أولاً لنفرض عليها تاريخاً أو ما قبل تاريخ. دور الفتى يأتي لاحقاً، لكن لنريه مثال الفتاة، لنعيّن له الفتاة بصفتها موضوع رغبته، لنصنع له بدوره عضوية مقابلة وتاريخاً مهيّماً. الفتاة هي الضحية الأولى، لكن يجب استخدامها كذلك مثلاً وفحاً. لذلك وبشكل عكسيّ، إعادة بناء الجسد بوصفه جسداً دون أعضاء، إعادة بناء عضوية الجسد، لا تنفصل عن التصيّير- امرأة أو عن إنتاج امرأة هبائية. لا ريب أنّ الفتاة تصير امرأة بالمعنى العضويّ أو الكتلويّ. لكن عكسيّاً التصيّير- امرأة أو المرأة الهبائية هما الفتاة ذاتها. الأكّد أنّ الفتاة لا تُعرّف بالعدريّة إنّما بعلاقة حركة وسكون، سرعة وبطء، بتركيب ذرّات وإرسال جسيمات: إنّها هذية. إنّها لا تفتأ [٣٣٩] تجري على جسد دون أعضاء. إنّها خطّ مجرّد أو خطّ إفلات. كذلك لا تنتمي الفتيات إلى سنّ، إلى جنس، إلى نظام أو إلى حكم: إنّهنّ تتسرّبن بالأحرى بين الأنظمة والأفعال والأعمار والأجناس؛ إنّهنّ تنتجن ما لا حصر له من الأجناس الهبائية على خطّ الإفلات بالنسبة إلى المكنات الثنائية التي تجتزئها من جهة إلى أخرى. الطّريقة الوحيدة للخروج من الثنائيات، للكيان في البينية، للمرور في الما بين، للكيان في الفاصل، هي ما عاشته فرجينيا وولف بكلّ قواها، في أثرها كلّها وهي لا تفتأ تتصيّر.

الفتاة مثل كتلة التصيّر التي تظلّ معاصرة لكل حدّ يمكن أن يكون معارضا لغيره، رَجُل، امرأة، طفل، كهل. ليست الفتاة هي التي تصير امرأة، إنّهُ التّصيّـر - امرأة هو الذي يصنع الفتاة الكلّية؛ ليس الطّفل هو الذي يصير كهلا، إنّهُ التّصيّـر - طفلا هو الذي يصنع شبابا كلّيا. تروست (Trost)، مؤلّف غامض، رسم صورة لفتاة ربط بها مصير الثّورة: سرعتها، جسدها المكنيّ الطّليق، شدّدها، خطّها المجرّد أو خطّ إفلاتها، إنتاجها الهبائيّ، عدم اكتراثها بالذاكرة، خاصّيتها اللاتصويريّة - «لا تصويريّة الرّغبة»^(١). جان دارك؟ خصوصيّة الفتاة في الإرهاب الرّوسيّ، الفتاة حاملة القنبلة، حارسة الدّيناميت؟ من المؤكّد أنّ السّياسة الهبائيّة تمرّ بالفتاة وبالطّفل. لكن من المؤكّد أيضا أنّ الفتيات والأطفال لا يستمدّون قوتهم من المنزلة الكتلويّة التي تروّضهم، ولا من العضويّة ومن الدّاتيّة اللتين يتقبّلانهما؛ إنّهم يستمدّون كامل قواهم من التّصيّـر الهبائيّ الذي يمرّرونه بين الأجناس والأعمار، تَصيّـر الكهل طفلا كما تَصيّـر الطّفل طفلا، تَصيّـر الرّجل امرأة كما تَصيّـر المرأة امرأة. الفتاة والطّفل لا يتصيّران، التّصيّـر ذاته هو الطّفل أو الفتاة. لا يصير الطّفل كهلا مثلما لا تصير الفتاة امرأة؛ لكنّ الفتاة هي التّصيّـر - امرأة لكلّ جنس، مثلما الطّفل هو التّصيّـر - شابّا لكلّ سنّ. أن يعرف المرء كيف يشيخ ليس معناه أن يظلّ شابّا، إنّما أن يستخلص من عمره الجسيّمات، السّرعات والتّباطؤات، الاندافاقات التي تشكّل شباب تلك السّنّ. أن يعرف المرء كيف يحبّ ليس معناه أن يظلّ رجلا أو امرأة، إنّما أن يستخلص من جنسه الجسيّمات، السّرعات والتّباطؤات، الاندافاقات، ما لا حصر له من الأجناس التي تكوّن فتاة

(١) تروست، مرثي ولا مرثي، منشورات أركان ومكني بكلّ حرّيّة، منشورات المينوتور: «لقد كانت في نفس الوقت في حقيقتها الحسيّة وفي الامتداد الفكريّ لخطوطها مثل بروز مجموعة بشريّة مقبلة.»

تلك الجنسية. إنه العمر ذاته هو التّصير - طفلا، مثل الجنسية، أية جنسانية كانت، هي التّصير - امرأة، أي فتاة. - من أجل الإجابة على السؤال الغيبي: لِمَ جعل بروس من أَلبار أَلبارتين؟

[٣٤٠] لكن إذا كانت كلّ التّصيرات هي بالفعل تصيرات هبائية، بما في ذلك التّصير - امرأة، يجب القول أيضا إنّ كلّ التّصيرات تبدأ بالتّصير - امرأة وتمرّ به. ذلك هو مفتاح التّصيرات الأخرى. أن يتنكر المحارب في زيّ امرأة، أن يفرّ متنكرا في زيّ فتاة، أن يختبئ في زيّ فتاة، فذلك ليس حادثا مؤقتا مخجلا في مسيرته المهنية. الاختباء أو التّمويه هو وظيفة حربية؛ وخطّ الإفلات يجلب العدو، يجتاز شيئا ما ويجعله يفرّ؛ في لا تناهي خطّ إفلات يطلع المحارب. لكن إذا لم تكن أنثوية المحارب عرضية، فلن يذهب بنا الظنّ إلى أنّها بنوية أو ينتظمها تناظر علاقات. لا نرى جيّدا كيف أنّ تناظر العلاقتين «رجل - حرب» و«امرأة - زواج» قد يمكنه أن يُفضي إلى تكافؤ بين المحارب وبين الفتاة من حيث هي امرأة ترفض الزّواج^(١). لا نرى أكثر من ذلك كيف أن الخنثوية العامة أو حتى المثلية الجنسية في المجتمعات العسكرية قد تفسّران هذه الظّاهرة التي ليست ظاهرة محاكاتية بأكثر ممّا هي ظاهرة بنوية، لكنّها تمثّل بالأحرى عدم انتماء أساسيّ لرجل الحرب. يجب أن نفهم هذه الظّاهرة في صيغة تّصير. لقد رأينا كيف أنّ رجل الحرب بحنقه وسرعته قد كانت تملكته تصيرات - حيوانات لا تقاوم. إنّها هذه التّصيرات هي التي تجد شرطها في التّصير - امرأة المحارب، أو في زواجه من الفتاة، في عدواه معها. رجل الحرب ملازم للأمازونيّين. الرّابطة بين الفتاة ورجل الحرب لا تُنتج حيوانات، لكنّها تنتج في نفس الوقت التّصير - امرأة لأحدهما والتّصير - حيوانا للآخر، في نفس

(١) راجع، الأمثلة والتفسير الذي يقترحه جان-بيار فرنان، في مشكلات الحرب في اليونان القديمة، منشورات موتون، صص ١٥ - ١٦.

«الكتلة» الواحدة حيث يصير المحارب بدوره حيوانا بواسطة عدوى الفتاة، في نفس الوقت الذي تصير فيه الفتاة محاربة بواسطة عدوى الحيوان. كل شيء يتجمّع في كتلة تصير لا متناظرة، في تعرّج فوري. إنّهُ في بقاء مكنة الحرب المضاعفة، مكنة حرب اليونانيين التي سريعا ما حلّت الدولة محلّها، ومكنة حرب الأمازونيين التي سريعا ما انحلت، إنّهُ في سلسلة من الانذهالات والدّوار والإغماءات الهبائية يختار آشيل وبنيتزيلي بعضهما، آخر رجل حرب، آخر ملكة للفتيات، آشيل للتصير - امرأة وبنيتزيلي للتصير - كلبة.

طقوس التّخنث أو الاسترجال، طقوس التّنكر في المجتمعات البدائية حيث يصير الرّجل امرأة لا تُفسّر لا بتنظيم اجتماعي قد يُناظر بين علاقات معطاة، [٣٤١] ولا بتنظيم نفساني قد لا يجعل رغبة الرّجل في أن يصير امرأة أقلّ من رغبة المرأة في أن تصير رجلا^(١). البنية الاجتماعية والتّماهي التّفناني يتجاهلان الكثير من العوامل الخاصّة: التّسلسل، إطلاق العنان وإرسال التّصيّرات التي يستثيرها المتنكر؛ ما يصدر عن ذلك من اقتدار على التّصير - حيوانا؛ وخاصّة انتماء هذه التّصيّرات إلى مكنة حرب مخصوصة. الأمر سيّان بالنّسبة إلى الجنسانية: يصعب تفسير الجنسانية بالتنظيم الثنائي للجنسين وتفسيرها بالتنظيم الحثي لكلا الجنسين ليس أفضل. تضع الجنسانية على المحكّ تصيّرات متزاوجة شديدة التّنوع هي بمثابة ما لا حصر له من الأجناس، مكنة حرب بكاملها يمرّ بها الحبّ. وهو ما لا يُردّ إلى المجازات الفظة بين الحبّ والحرب، بين الإغراء والإخضاع، بين صراع الجنسين والنّزاع العائلي، أو حتى الحرب - سترندبارغ: إنّهُ فقط عند انتهاء

(١) حول التّخنث والاسترجال في المجتمعات البدائية، راجع برونو بتلهاييم (Bruno Bettelheim)، الجراح الرّمزية، غاليمار (الذي يقدّم تأويلا سيكولوجيا تطابقيا)، وخاصّة غريغوري باتيزون، احتفال نافان، منشورات مينوي (يقترح باتيزون تأويلا بنويّا طريفا).

الحب تنضب الجنسية، وتبدى الأشياء على هذا النحو. لكن المهم هو أن الحب ذاته هو مكنة حرب لها قدرات عجيبة وتكاد تكون مرعبة. الجنسية هي نتاج ألف جنس هي كذلك تصيُّرات لا يمكن التحكُّم فيها. تمرّ الجنسية بتصيُّر الرّجل - امرأة وتصيُّر الإنسانى - حيوانا: إطلاق جُسيمات. لا حاجة بنا إلى الحيوانية بهذا الخصوص، مع أن الحيوانية يمكن أن تظهر في هذا التصيُّر، وعلى ذلك تشهد الكثير من طرائف الطبّ النفسى بكيفية مهمّة، لكنّها شديدة البساطة، وبالتالي وقع تحويل وجهتها وأضحت شديدة الغباوة. لا يتعلّق الأمر بـ«التّصرّف» مثل كلب، مثل شيخ على بطاقة بريديّة؛ لا يتعلّق الأمر إلى حدّ بعيد بممارسة الجنس مع الحيوانات. التّصيُّرات - حيوانات لها أولاً اقتدار مغاير بما أن حقيقتها ليست في الحيوان الذي قد نحاكه أو الذي قد نُنَاطِرُهُ، بل لها حقيقتها في ذاتها، في ما يتناوبا فجأة ويجعلنا نصير، في جوار، في لا تمايز يستخلص من الحيوان شيئا مّا مشتركاً، أكثر بكثير من كلّ تدجين، من كلّ استخدام، من كل محاكاة: إنّها «الدّابة».

إذا كان التّصيُّر - امرأة هو الكّمة الأولى أو الأقسومة الهبائية، ومن بعد ذلك التّصيُّرات - حيوانات التي ترابط معه، فإلى أين تتّجه جميعها؟ دون ريب، باتّجاه تصيُّر - يدقّ عن الإدراك. ما يدقّ عن الإدراك هو الغاية القصوى للتّصيُّر، صيغته الكونية. هكذا يمرّ الرّجل الذي ينكمش لماتيزون، عبر الممالك، يتسلّل بين الهباءات حتّى يصير [٣٤٢] جُسيماً يتعذّر العثور عليه، يتأمّل اللّانهائيّ بشكل لا نهائيّ. السيّد صفر لبول موران، يهرب من البلدان الكبرى، يجتاز أصغرها، يتخلّى عن الدّول ليكون في إمارة ليختنشتاين مجتمعاً مجهولاً له وحده، ويموت دقيقاً عن الإدراك مشكّلاً بأصابعه الجسيم صفر: «أنا رجل يفرّ سابحا بين ماءين وعليه تُطلق كلّ بنادق العالم نيرانها. (. . .) قد يتوجّب ألا أكون هدفاً على الإطلاق.» لكن ما الذي يعنيه التّصيُّر - ما يدقّ عن الإدراك، في نهاية كلّ التّصيُّرات الهبائية التي كانت بدأت بالتّصيُّر - امرأة؟ التّصيُّر ما

يَدِقُّ عن الإدراك يعني الكثير من الأشياء. أَيّْة علاقة بين ما يَدِقُّ عن الإدراك (اللّاعضويّ)، اللّا متمايز (ما لا دلالة له) واللّا شخصيّ (اللّا ذاتيّ)؟

قد نقول بادئ ذي بدء: أن نكون مثل جميع النَّاس. ذلك هو ما يرويه كياركيغارد في حكايته عن «فارس الإيمان»، رَجُل التَّصَيُّر: عبثاً نراقبه، لا نلاحظ شيئاً، إنّه بورجوازيّ، لا شيء غير كونه بورجوازيّاً. ذلك هو ما كان عاشه فيتزجيرالد: عَقِبَ كُلِّ توقّف حقيقيّ، نَصِلُ... حقّاً إلى أن نكون مثل جميع النَّاس. وذلك ليس بالأمر الهَيِّن على الإطلاق، أن لا يتفطّن إلينا أحد. أن يكون المرء مجهولاً حتّى من حارسة العمارة ومن جيرانه. إذا كان يعسر إلى حدّ بعيد أن نكون مثل جميع النَّاس، فلأنّه ثَمّة مسألة تصيُّر. ليس جميع النَّاس هم الذين يصيرون مثل جميع النَّاس، وليسوا هم من يجعل من كلّ النَّاس تصيُّراً. ذلك يتطلّب الكثير من الزّهد والاتّزان والانغماد الخلاق: أناقة أنغليزيّة، قماش أنغليزيّ، الاختلاط بالجدران، حذف المدرك أكثر من اللازم، ما هو للإدراك أكثر من اللازم. «حذف كلّ ما هو نُفاية، ميّت وغير ضروريّ»، شكوى وتظلُّم، رغبة غير مشبّعة، دفاع وترافع، كلّ ما يجذّر كلّ شخص (الجميع) في ذاته، في كتلويّته. ذلك أن كلّ النَّاس هم المجموعة الكتلويّة، لكن التَّصَيُّر كلّ النَّاس هو مسألة أخرى تضع على المحكّ الكون مع كلّ مكوّناته الهبائيّة. التَّصَيُّر كلّ النَّاس معناه أن نكون العالم، أن نكون عالماً. من فرط ما نحذف، لم نعد غير خطّ مجرّد، أو قطعة بيزل هي ذاتها مجرّدة. وإنّه بالمزاوجة بين خطوط أخرى وقطع أخرى وبالمواصلة معها نصنع عالماً، قد يغطّي العالم الأوّل كأنّما بشفافيّة. الأنافة الحيوانيّة، السّمكة - المُمَوّهة، المستسّرة: تجوبها خطوط مجرّدة لا تشبه شيئاً، ولا تتّبع حتّى انقساماتها العضويّة؛ لكن مشوّشة ومفكّكة على هذا النّحو، فإنّها تُشكّل عالماً مع خطوط صخرة، رمال ونباتات، لتصير ما يَدِقُّ عن الإدراك. السّمكة شبيهة

بالرّسام الشّاعر الصّينيّ: لا هو مُحاك ولا هو بنيويّ، لكنّه كونيّ. يبيّن فرانسوا شنغ (François Cheng) أنّ الشّاعر لا يتّبع المشابهة بأكثر ممّا يحسب «النّسب الهندسيّة». إنّهُ يحتفظ فقط بالخطوط وبالحرركات الأساسيّة للطّبيعة ويستخرجها، إنّهُ [٣٤٣] لا يعمل إلّا من خلال «خطوط» متواصلة أو متراكبة^(١). إنّهُ بهذا المعنى يكون التّصيّر مثل جميع النّاس، أن نصنع من العالم تصوّراً، هو أن نكون العالم، أن نصنع عالمًا، أن نصنع عوالم، أي أن نجد جواراتنا ومناطق لا تمايزنا. الكون مثل مكنة مجرّدة، وكلّ عالم هو بمثابة تنضيد عينيّ يحقّقه. الاختزال في خطّ أو في خطوط كثيرة مجرّدة ستتواصل مع خطوط أخرى وتتزاوج معها، لتنتج آنيّا وبشكل مباشر عالمًا هو الذي فيه يتصيّر العالم، نصير جميع النّاس. أن تكون الكتابة مثل خطّ التّصوير- القصيد الصّينيّ، ذلك كان حُلْم كرواك (Kerouac)، أو من قبل ذلك حُلْم فرجينيا وولف. تقول إنّهُ يجب «إشباع كلّ ذرّة»، ومن أجل ذلك يجب أن نقوم بالحذف، حذف كلّ ما هو مشابهة ومماثلة، لكن «وضع كلّ شيء» أيضًا: حذف كلّ ما يتخطّى اللّحظة لكن وضع كلّ ما تتضمّنه-واللحظة ليست الآنّي، إنّها الهذيّة التي نندسّ فيها، والتي تندسّ هي في هذيات أخرى بواسطة الشّفاقيّة^(٢). أن نكون على موعد مع زمن العالم. هذه هي الرّابطة بين ما يدقّ عن الإدراك، اللاّ متمايز، اللاّ شخصيّ، هذه هي الميزات الثلاث. الاختزال في خطّ مجرّد، في سمة حتى تجد منطقة لا تمايزها مع سمات أخرى، وتدخل بالتّالي في الهذيّة كما في لا شخصيّة المبدع. حينئذ نحن مثل العشب:

(١) فرانسوا شنغ، الكتابة الشّعريّة الصّينيّة، ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) فيرجينيا وولف، يوميات كاتب، الجزء الأوّل، منشورات ١٨/١٠، ص ٢٣٠: «خامرتني فكرة أنّ كلّ ما ساوّد القيام به الآن هو إشباع كلّ ذرّة»، إلخ. حول كلّ هذه المسائل، نستعمل دراسة غير منشورة لفانّي زفان (Fanny Zavin) تتعلّق بفرجينيا وولف.

لقد جعلنا من العالم ومن الجميع تصويرا لأننا صنعنا عالما موصلا بالضرورة، لأننا حذفنا من ذواتنا كل ما كان يمنعنا من التسرب بين الأشياء ومن النماء في وسط الأشياء. لقد ألفنا بين «الكل»، بين أداة التذكير، الفعل المصدري- تصوّر، واسم العلم الذي نحن مختزلون فيه. إشباع، حذف، وضع كل شيء.

الحركة في علاقة أساسية بما يدقّ عن الإدراك، إنها تدقّ عن الإدراك بطبيعتها. ذلك أنّ الإدراك لا يمكنه التمكن من الحركة إلا بوصفها نقلة متحرّك أو تطوّر شكل. الحركات والتّصيّرات، أي العلاقات المحض للسرعة والبطء، للأفعالات المحض، كائنة في ما دون أو في ما فوق عتبة الإدراك. لا ريب أنّ عتبات الإدراك نسبية، وبالتالي ستكون ثمة دائما عتبة قادرة على التمكن ممّا يفلت من عتبة أخرى: عين النّسر... لكنّ العتبة الملائمة لن تقدر بدورها على العمل إلا تبعا لشكل قابل للإدراك ولذات مدرّكة وملحوظة. بحيث أنّ الحركة في حدّ ذاتها تواصل حدوثها في مكان آخر: لو شكّلنا الإدراك في سلسلة، [٣٤٤] فإنّ الحركة تتّم دائما في ما أبعد من العتبة القصوى وفي ما دون العتبة الدّنيا، في مسافات فاصلة ممتدّة أو منقبضة (مسافات فاصلة مجهرية). مثل المصارعين اليابانيين الضّخام الذين تقدّمهم بطيء جدّا ومسكتهم سريعة جدّا ومفاجئة بحيث لا نتمكن من رؤيتهما: إذا ما يترابط هو البطء اللّامتناهي للانتظار (ما الذي سيحدث؟) مع السرعة اللّامتناهية للنتيجة (ما الذي حدث؟) أقلّ ممّا هو ترابط بين المتصارعين. قد يتوجّب بلوغ العتبة الفوتوغرافية أو السينماتوغرافية، لكن بالنسبة إلى الصّورة الفوتوغرافية، الحركة والاقعال ما يزالان فازّين في الأعلى أو في الأسفل. عندما يطلق كياركيغارد الشّعار الرّائع «لا أنظر إلا إلى الحركات»، فبإمكانه التّصرّف مثل رائد مذهل للسينما، ومضاعفة صيغ سيناريو حبّ بين أنياس وعريس البحر وفق سرعات وتباطؤات متغيرة. لديه كلّ الأسباب ليؤكد

خاصّة أن لا حركة إلّا للامتناهي؛ أنّ حركة اللامتناهي لا يمكن أن تحدث إلّا بواسطة الأفعال والشّغف والمحبّة في تصوّر هو فتاة، لكن دون الرّجوع إلى «تأمّل» أيّا كان؛ وأنّ هذه الحركة تفلت بما هي كذلك من الإدراك التّوسيطيّ بما أنّها منجّزة في كلّ حين، وأنّ الرّاقص أو العاشق يجد ذاته بالفعل «واقفا يمشي» في ذات اللحظة التي يسقط فيها وحتى في الآن الذي يقفز فيه^(١). مثل الفتاة بوصفها كائن إفلات، الحركة لا يمكن إدراكها.

ومع ذلك يجب أن نصوّب في الحال: الحركة أيضا يجب أن تُدرَك، لا يمكن إلّا أن تكون مدرّكة، ما يدقّ عن الإدراك هو كذلك مدرّك. ليس ثمة تناقض ههنا. إذا كانت الحركة تدقّ عن الإدراك بالطّبيعة، فذلك دائما بالنّسبة إلى عتبة ما للإدراك، عتبة يعود إليها أن تكون نسبيّة وأن تقوم بالتّالي بدور التّوسيط على مسطّح يقوم بتوزيع العتبات وتوزيع ما هو مدرّك، يمدّ ذوات مدرّكة بأشكال للإدراك: لكنّ مسطّح التنظيم والتّطوير هذا، مسطّح التّعالّي هو الذي يمكن من الإدراك دون أن يكون هو ذاته مدرّكا، دون قدرة على أن يكون مدرّكا. لكن على المسطّح الآخر، مسطّح المحايّثة أو القوام، مبدأ التركيب ذاته هو الذي يجب أن يكون مدرّكا، هو الذي لا يمكنه إلّا أن يكون مدرّكا، في نفس الوقت مع ما يرّكبه هو أو يعطيه. هنا، تتوقّف الحركة عن أن تكون تابعة لتوسيط عتبة نسبيّة تفلت منها لا نهائيّا بطبيعتها؛ تبلغ، أيّا كانت سرعتها أو بطؤها، عتبة مطلقة حتى وإن كانت مفروقة وتؤلّف كلّا مع بناء هذه [٣٤٥] المنطقة أو تلك من المسطّح المتواصل. قد نقول كذلك إنّ الحركة تتوقّف عن أن تكون طريقة لا

(١) نعود هنا إلى كتاب الخشية والرّجفة، الذي يبدو لنا أنّه أعظم كتب كياريغيارد، بطريقة طرحه لمشكل الحركة والسرعة، ليس في مضمونه وحسب، إنّما في أسلوبه وتركيبه.

تَأْرُضُنْ نَسْبِيَّ عَلَى الدَّوَامِ، لتصبح سيرورة اللَّا تَأْرُضُنْ المطلق. الفرق بين المسطَّحَيْنِ هو الذي يجعل كون ما لا يمكن أن يدرك على مسطَّح لا يمكن إلَّا أن يدرك على المسطَّح الآخر. هنا يصبح ما يدقُّ عن الإدراك مدرَكًا حتمًا، وهو يقفز من مسطَّح إلى آخر أو من عتبات نسبيَّة إلى العتبة المطلقة التي تتماعى وإيَّاهَا. يبيِّن كياركيغارد أنَّ مسطَّح اللَّا تناهي، ما يسمِّيه مسطَّح الإيمان، يجب أن يتحوَّل إلى مسطَّح محايثة لا يفتأ يعطي المتناهي مباشرة، ويعيد إعطاءه واستجماعه: على التَّقْيِضِ من المستسلم استسلامًا لا نهائيًا، فارس الإيمان، أي رَجُل التَّصَيِّرِ، سيحصل على الفتاة، سيكون له المتناهي كلُّه وسيدرك ما يدقُّ عن الإدراك من حيث أنَّه هو «الوريث المباشر للعالم المتناهي». ذلك أنَّ الإدراك لن يكون من بعد ذلك في العلاقة بين ذات وموضوع، بل في الحركة التي تُستخدم حدًّا لهذه العلاقة، في الفترة المرتبطة بهما. ستجد الحركة ذاتها في مواجهة مع حدِّها الخاصِّ؛ ستكون بين الأشياء، في جملة جوارها الخاصِّ، مثل حضور هذبة في أخرى، إمساك الواحدة بالأخرى أو مرور الواحدة في الأخرى: لا نَظَرُ إلَّا إلى الحركات.

غريب هو استعمال كلمة «إيمان» للإشارة إلى مسطَّح يعود إلى المحايثة. لكن إذا كان الفارس هو رَجُل التَّصَيِّرِ، فإنَّه ثمة فرسان من جميع الأنواع. أليس ثمة حتى فرسان مخدَّرات، بالمعنى الذي يكون فيه الإيمان مخدَّرًا، معنى مختلفًا جدًّا عن المعنى الذي يكون فيه الدِّين أفبونا؟ يزعم هؤلاء الفرسان أنَّ المخدَّر في ظروف الحيلة والتَّجريب الضَّروريَّين، لا ينفصل عن انبساط مسطَّح. وعلى هذا المسطَّح لا تتزاوج التَّصَيِّرات - امرأة، التَّصَيِّرات - حيوانات، التَّصَيِّرات - هبائيًا، التَّصَيِّرات - ما يدقُّ عن الإدراك وحسب، لكن ما يدقُّ عن الإدراك يصبح هو ذاته مدرَك حتميًا، في نفس الوقت الذي يصبح فيه الإدراك هبائيًا حتمًا: الوصول إلى ثقب، إلى مسافات فاصلة مجهرية بين المواد، بين الألوان والأصوات، حيث تغرق خطوط الإفلات، خطوط

العالم، خطوط الشفافية والقطع^(١). تغيير الإدراك؛ طرح المشكل في صيغة صحيحة لأنه يقدم مجموعة مهيمنة من «المخدّرات، بغض النظر عن التّمييزات الثّانويّة (هلسيّة أو غير هلسيّة، ثقيلة أو خفيفة، إلخ). كلّ المخدّرات تتعلّق أولاً بالسرّعات وبتغيير السرعة. وهو ما يمكن من توصيف تنضيد للمخدّر مهما كانت الفروق، إنّهُ خطّ سببيّة إدراكيّة هو الذي يجعل كون (١) ما يدقّ عن الإدراك مدرّكا، (٢) ما يجعل الإدراك هبائيّا، (٣) [٣٤٦] ما يجعل الرّغبة تستثمر الإدراك والمدرّك مباشرة. أمريكيو جيل المتنطّعين كانوا دخلوا بالفعل في هذه الطّريق، وكانوا يتحدّثون عن ثورة هبائيّة خاصّة بالمخدّرات. من بعد ذلك كانت الشّملة الكبرى لكستنادا. حدّد فيدلار (Fiedler) قُطْبَي الحُلُم الأميركيّ العالق بين كابوسين، الإبادة الجماعيّة الهنديّة والعبوديّة الرّنجيّة، كان الأميركيون جعلوا من الرّنجيّ صورة مكبوتة لقوّة الأفعال، لتضاعف الأفعالات، لكنّهم جعلوا من الهنديّ الصّورة المقموعة لرهافة الإدراك، لإدراك متزايد الرّهافة، إدراكا منقسما، متّثدا أو متسارعا لا نهائيّا^(٢). في أوروبا، كان هنري ميشو يسعى باستعداد أكبر إلى التّخلّص من الطّقوس والحضارات، لينشئ طرائق رائعة ودقيقة للتّجربة، لتتقّية مسألة سببيّة المخدّرات، للإحاطة بها إلى أقصى حدّ، لفصلها عن الهذيانات والهلوسات. لكن في هذه النّقطة تحديدا يلتقي كلّ شيء من جديد: مرّة أخرى يُطرح المشكل بشكل جيّد عندما نقول إنّ المخدّرات تتسبّب في خسران الأشكال والأشخاص، تتلاعب بالسرّعات المجنونة للمخدّرات وبالتباطؤات المذهلة لما بعد المخدّرات، تزواج بينهما

(١) كارلوس كاستنادا، هنا وهناك، وخاصّة رحلة إلى إكستلان، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٢) ليسلي فيدلار، عودة الهنديّ الأحمر، منشورات سوي. يفسّر فيدلار التّزاوج السّرّي بين الأميركيّ الأبيض والرّنجيّ أو الهنديّ بالرّغبة في الهروب من الصّورة ومن التّفوذ الكتلويّ للمرأة الأميركيّة.

مزاوجة بين مصارعين، تمنح الإدراك القدرة الهبائية على التمكن من ظاهرات مجهرية، من عمليات مجهرية، وتمنح المدرك قوة إرسال جسيمات متسارعة أو بطيئة، وفق زمن طليق لم يعد هو زمننا، ووفق هذيات لم تعد تنتمي إلى هذا العالم: لا تأرضن، «كنت تائها...» (إدراك أشياء وأفكار ورغبات، حيث تجتاح الرغبة والفكر والأشياء الإدراك بكامله، ما يدقّ عن الإدراك تم إدراكه في نهاية المطاف). لا شيء غير عالم السرعات والتباطؤات التي لا شكل لها ولا ذات ولا وجه. لا شيء غير تعرجات خطّ مثل «سير سوط سائق عربية حانق»، يمزّق الوجوه والمناظر^(١). عمل جذموريّ بالتّمام للإدراك، اللحظة التي تمتاز فيها الرغبة بالإدراك.

مهمّ هو مشكل السببية الخصوصية هذا. ما دمنا نستحضر سببيات عامة جدًا أو برّانية، سببيات سيكولوجية، سوسولوجية، للتعبير عن تنضيد، فكأننا لم نكن قلنا شيئًا. حلّ اليوم [٣٤٧] خطاب حول المخدرات لا يفعل غير تحريك عموميات حول المتعة والتعاسة، حول صعوبات التواصل، حول الأسباب التي تأتي دائما من مكان آخر. يتزايد تظاهرها بفهم ظاهرة نحن غير قادرين على إدراك علّتها الخاصة ما صدّقًا. لا ريب أنّ التنضيد لا يتضمّن على الإطلاق بنية تحتية سببية. ومع ذلك هو يتضمّن إلى أقصى حدّ، خطّا مجردا لسببية خصوصية أو إبداعية، يتضمّن خطّ إفلاته ولا تأرضنه الذي لا يمكن تحقّقه إلّا في علاقة بسببيات عامة أو ذات طبيعة مغايرة لكن من المحال أن ينفسر

(١) ميشو، المعجزة البائسة، غاليمار، ص ١٢٦: «كان الهلع يتمثل خاصّة في كوني لم أكن غير خطّ. في الحياة العادية نحن دائرة، دائرة تكتشف مشاهد (...). هنا ثمة خطّ وحسب. (...) المتسارع الخطّي الذي صرته أنا...» راجع الرّسوم الخطيّة لميشو. لكن في محن الفكر الكبرى، في الصفحات الثمانين الأولى من هذا الكتاب، يذهب ميشو إلى أبعد حدّ في تحليل السرعات، الإدراكات الهبائية و«الظواهرات المجهرية» أو «العمليات المجهرية».

بها. نحن نقول إنّ مشكلات المخدّرات لا يمكن إدراكها إلّا في المستوى الذي تستثمر فيه الرغبةُ الإدراكَ مباشرةً وحيث يصير الإدراك هبائيًا في نفس الوقت الذي يصير فيه ما يدقّ عن الإدراك مدرّكًا. حينها تظهر المخدّرات بوصفها فاعل هذا التّصيّر. وهنا قد يكون ثمة تحليل عقائريّ قد تتوجّب في نفس الوقت مقارنته بالتحليل التّفنسيّ ومواجهته له. ذلك أنّه ثمة إمكانية لنجعل من التّحليل التّفنسيّ في نفس الوقت نموذجًا ومقابلًا وخيانة. يمكن اعتبار التّحليل التّفنسيّ بالفعل نموذجًا مرجعيًا لأنّه بالنسبة إلى ظاهرات عاطفيّة بالأساس، عرف كيف يبني رسيمةً سببيّةً خاصّةً مختلفة عن العموميّات السيكلوجيّة أو الاجتماعيّة العاديّة. لكنّ هذه الرسيمة السببيّة تظلّ تابعة لمسطّح تنظيم لا يمكن إدراكه لذاته على الإطلاق، فهو ناتج دائمًا عن شيء آخر، دائمًا مستتجّ ومستخرج من منظومة الإدراك، ويطلقّ عليه تحديدًا اسم اللاوعي. مسطّح اللاوعي يظلّ بالتّالي مسطّح تعالٍ، عليه ضمان وتبرير وجود المحلّل التّفنسيّ وضرورة تأويلاته. مسطّح اللاوعي هذا يواجه كتلويًا منظومة الإدراك- الوعي، وبما أنّ الرّغبة يجب أن تتمّ على هذا المسطّح، فإنّها تكون هي ذاتها مشدودة إلى كتلويّات ضخمة انشدادها إلى الوجه المخفيّ من جبل الجليد (بنية أوديب أو صخرة الخصاء). بالتّالي يظلّ ما يدقّ عن الإدراك أكثر تأبّيًا عن الإدراك بقدر مواجهته للمدرّك في مكنة ثنائيّة. كلّ شيء يتغيّر على مسطّح قوام أو محايّنة يُدرّك لذاته بالضرورة في نفس الوقت الذي يقع فيه بناؤه: يحلّ التّجريب محلّ التّأويل؛ اللاوعي وقد أصبح هبائيًا، غير تصويريّ وغير رمزيّ، يُعطى بما هو كذلك للإدراكات المجهرية؛ تستثمر الرّغبة المجال الإدراكيّ بشكل مباشر حيث يظهر ما يدقّ عن الإدراك بوصفه الموضوع المدرّك للرّغبة ذاتها، إنّّه «غير تصويريّ الرّغبة». لم يعد اللاوعي يشير إلى المبدإ الخفيّ لمسطّح التّنظيم المتعالّي، لكنّه يشير إلى سيرورة مسطّح القوام المحايّث من حيث أنّه يظهر على ذاته تدريجيًا

وفق بنائه. ذلك أنّ اللاوعي يُصنع ولا يُعثر عليه. لم تعد ثمة مكنة [٣٤٨] ثنائية للوعي - اللاوعي، لأنّ اللاوعي كائن أو بالأحرى تمّ استيلاده هنالك حيث يتّجه الوعي الذي حمله المسطح معه. المخدرات تمنح اللاوعي المحايثة والمسطح اللذين لم يفتأ التحليل النفسي يخطئهما (بهذا الخصوص، يمكن أن يكون الحادث الشهير للكوكابين قد حدّد منعرجا أجبر فرويد على التخلّي عن مقاربة مباشرة للوعي).

لكن إذا كان صحيحا أنّ المخدرات تحيل إلى هذه السببية الإدراكية الهبائية والمحاينة، فإنّ السؤال يظل قائما برمته بخصوص معرفة ما إذا كانت هذه السببية تصل فعلياً إلى رسم المسطح الذي يشرط ممارستها. لكنّ الخطّ السببيّ أو خطّ إفلات المخدرات لا يفتأ ينقسم في الشكل الأكثر صلابة، شكل التبعيّة، الجرعة، المقدار والمروّج. وحتى في شكله اللين، يمكنه حشد تدرّجات وعتبات، بطريقة تُحدّد تصيُّرات - حيوانات، تصيُّرات - هبائية، كلّ شيء ما زال يتمّ في نسبة عتبات تكتفي بمحاكاة مسطح قوام عوضاً عن رسمه على عتبة مطلقة. ما الفائدة من أن ندرك بسرعة إدراك عصفور سريع، إذا كانت السرعة والحركة تواصلان الإفلات في مكان آخر؟ تظلّ اللا تأرضنات نسبية، تعوّضها إعادة التآرضنات الأكثر وضاعة، بحيث أنّ ما يدقّ عن الإدراك كما الإدراك لا يفتان يتتابعان أو لا يفتأ أحدهما يجري وراء الآخر دون أن يتزاوجا حقاً على الإطلاق. عوض أن تُمكن ثقب في العالم خطوط العالم من الإفلات هي ذاتها، تتلاقّ خطوط الإفلات وتبدأ في الدوران داخل ثقب سوداء، كلّ مدمن في ثقبه، جماعة أو فرداً، مثل قوقعة. المدمن محبّط عوض أن يكون منتشياً. الإدراكات المجهرية الهبائية مغطّاة مسبقاً، وفق المخدّر المعنوي، بهلوسات، بهذيانات، بإدراكات زائفة، باستيهامات، بنوبات هذائية، مستعدة في كلّ آن أشكالا وذوات باعتبارها أشباحاً أو أشباحاً قد لا تتوقّف عن إيقاف بناء المسطح. أكثر من ذلك، الأمر شبيه بما رأيناه

سابقا في تعداد المخاطر: مسطح المحايثة لا يتعرض فقط لخطر خيانه أو تحويل وجهته تحت تأثير سببيات أخرى تتدخل في مثل هذا التنفيد، لكن المسطح ذاته يولد مخاطره الخاصة التي يتفكك تبعاً لها مع تقدّم بنائه. لم نعد نحن ولا هو ذاته نتحكم بالسرعات. بدلا من صنع جسد دون أعضاء ثريّ أو مليء كفاية حتى تتمكّن الشّد من المرور، تصنع المخدّرات جسدا خاويا أو مزجّجا، أو جسدا مسرطنا: الخطّ السببيّ، الخطّ الخلاق أو خطّ الإفلات، ينقلب مباشرة إلى خطّ موت وإلغاء. التزجيج البغيض للأوردة، أو تقيح الأنف، إنّهُ الجسد الزّجاجيّ للمدمن على المخدّرات. ثقب سوداء وخطوط موت، تلتقي هنا تحذيرات [٣٤٩] أرطو وميشو (وهي أكثر تقنية ومتانة من الخطاب السّوسيو- سيكولوجيّ، أو التحليليّ النفسيّ، أو الإعلاميّ، لمراكز الاستقبال والعلاج). يقول أرطو: لن تتجنبوا الهلوسات، الإدراكات المغلوطة، الاستيهامات الوقحة أو المشاعر السيئة، على أنّها الكثير من الثقوب السوداء على مسطح القوام هذا، ذلك أنّ وعيكم سيتجه أيضا هذه الوجهة المفخّخة^(١). يقول ميشو: لن تتحكموا بعد الآن في سرعاتكم، ستدخلون في سباق محموم لما يدقّ عن الإدراك وللإدراك، سباقا يدور بشكل متزايد في حلقة مفرغة بحيث يكون فيه كلّ شيء نسبيّ^(٢). ستتضخّمون من تلقائكم، ستفقدون التّحكم في ذواتكم، ستكونون على مسطح قوام، في جسد دون أعضاء، لكن في المكان ذاته حيث لا تفتأون تخطئون كلّ ذلك وتفرغونه، وتفككون ما تقومون به، لتكونوا كيانات رخوة مشلولة لا تتحرّك. أية كلمات أبسط من «الإدراكات المغلوطة» (أرطو)، «المشاعر السيئة» (ميشو)، لنقول مع ذلك الشيء الأشدّ تقنية: كيف تخفق السببيّة المحايثة التي هي سببيّة

(١) أرطو، التراهامارين، الأعمال الكاملة، الجزء التاسع، صص ٣٤-٣٦.

(٢) ميشو، المعجزة البائسة، ص ١٦٤ («أن يظّل المرء متحكّما بسرعه»).

الرَّغبة، السَّبِيَّة الهَبَائِيَّة والإدراكيَّة، في التَّنْضِيد- المَخْدَر. لا يفتأ المدمنون يعاودون السَّقُوط في ما كانوا يريدون الإفلات منه: في أقسوميَّة أشدَّ صلابة لفرط هامشيَّتها، في تَأْرُضُن أكثر اصطناعيَّة بقدر تَكُونُه على موادَّ كيميائيَّة، في أشكال هلسيَّة ودَتِينات استيهاميَّة. يمكن اعتبار مدمني المخدَّرات رَوَّاداً أو مجرَّبين يختطون بلا هوادة طريقاً جديدة للحياة؛ لكن حتَّى حيطتهم لا تتوفَّر فيها شروط الحيطة. إذا، إمَّا أنَّهم يعاودون السَّقُوط في زمرة الأبطال الزائفين الذي يتَّبعون الطريق الأصوليَّة لموت تدريجيٍّ ولتعب مزمن. أو، وذلك هو الأسوأ، سوف لن يكونوا استُخدموا إلَّا لإطلاق محاولة لا تمكن استعادتها ولا يستفيد منها إلَّا الذين لا يستهلكون المخدَّرات، أو لم يعودوا يستهلكون المخدَّرات، الذين يعدِّلون ثانويًّا مسطَّح المخدَّرات المجهَّض دوماً، والذين يكتشفون بالمخدَّرات ما تفتقر إليه المخدَّرات لبناء مسطَّح قِوام. أيكون خطأ المدمنين على المخدَّرات هو في كلِّ مرَّة معاودة الانطلاق من الصَّفر، إمَّا لتناول المخدَّرات وإمَّا للتخلِّي عنها، بينما قد يتوجَّب اتِّخاذ بديل، الانطلاق «من الوسط»، الانشعاب في الوسط؟ بلوغ مرحلة السُّكر، لكن بالماء الزَّلَال (هنري ميللار). بلوغ الانتشاء، لكن بالامتناع، «نتناول ومنتع، نمتنع خاصَّة»، أنا سَكِّير ماء (ميشو). نصل إلى النِّقطة التي لم تعد فيها المسألة «أن نتناول المخدَّرات أو لا نتناولها»، إمَّا إلى أنَّ المخدَّرات غيَّرت بشكل كاف الشُّروط العامَّة لإدراك المكان والزَّمان حتَّى ينجح غير المدمنين في المرور [٣٥٠] بثقوب العالم وعلى خطوط الإفلات، في المكان ذاته الذي يجب أن توجد فيه وسائل أخرى غير المخدَّرات. ليست المخدَّرات هي التي تؤمِّن المحايَّثة، محايَّثة المخدَّرات هي التي تمكِّن من الاستغناء عنها. ندالة، تَرَبُّح، انتظار مخاطرة الآخرين؟ بالأحرى استعادة دائمة لعمل في وسطه وتغيير وسائله. ضرورة اختيار وانتقاء الهبَاءة الجيِّدة، هبَاءة الماء، هبَاءة الهيدروجين أو الهليوم. ليست المسألة مسألة نموذج، كلِّ

النماذج هي نماذج كتلويّة: يجب تحديد الهباءات والجسيمات التي تتوالد وتتحّد «التجاورات» (اللا تمايزات، التّصيّرات) بالنسبة إليها. التّنضيد الحيويّ، التّنضيد-الحياة، ممكن نظريًا أو منطقيًا مع كلّ أنواع الهباءات، السّيليكون على سبيل المثال. لكن يحدث ألا يكون هذا التّنضيد ممكنًا ممكنًا مع السّيليكون: تمنع المكنة المجرّدة مروره، لأنّه لا يوزّع مناطق التّجاور التي تبني مسطّح القوام^(١). سنرى أنّ الأسباب المكنيّة مغايرة تماما للأسباب وللممكنات المنطقيّة. نحن لا نمثّل لنموذج لكننا نمتطي حصانا. المدمنون لم يختاروا الهباءة الجيّدة أو الحصان الجيّد. هم ضخام جدًا حتّى يدركوا ما يدقّ عن الإدراك وحتى يصيروا هم ذواتهم يندّون عن الإدراك، اعتقدوا أنّ المخدّرات قد تمنحهم المسطّح، بينما المسطّح هو الذي يجب أن يستقطر مخدّراته الخاصّة ويظلّ متحكّمًا بالسرّعات والتّجاورات.

ذكريات السّرّ. - السّرّ في علاقة مميّزة لكنها متغيّرة جدًا مع الإدراك ومع ما يدقّ عن الإدراك. السّرّ يخصّ أولاً بعض المضامين. المضمون كبير جدًا بالنسبة إلى شكله... أو أنّ للمضامين ذاتها شكلا، لكنّ هذا الشّكل يغطّيه، يضاعفه أو يعوّضه مجرّد وعاء، غطاء أو علبة، يكون دورها هو إلغاء العلاقات الصوريّة. إنّها مضامين نرى من المناسب عزلها على هذا التّحو، أو تقنيّتها، لأسباب هي ذاتها متنوّعة. لكن بصورة محدّدة، ضبط قائمة بهذه الأسباب (المخجل، الكنز، الألوهي، إلخ). لا قيمة كبرى له طالما عارضنا بين السّرّ واكتشافه، كما في مكنة ثنائيّة حيث قد لا يكون ثمة غير حدّين، سرّ وإفشاء، سرّ واستباحة. من ناحية، ذلك أنّ السّرّ بوصفه مضمونا

(١) حول إمكانات السّيليكون وعلاقته بالكربون من زاوية نظر الكيمياء العضويّة، راجع مقال «سيليكون» في الموسوعة الكونية.

يتخطى ذاته باتجاه إدراك السرّ الذي ليس هو أقلّ سرّيّة منه. بغضّ النظر عن الغايات وعمّا إذا كان هدف الإدراك هو الإبلاغ، الإفشاء النهائي، الكشف. من جهة المزحة، إدراك [٣٥١] السرّ هو نقيض السرّ، لكن من جهة المفهوم، إدراك السرّ هو جزء من السرّ. المهمّ هو أنّ إدراك السرّ لا يمكن أن يكون هو ذاته إلّا سرّيّاً: الجاسوس، المتلصّص، المبتزّ، مؤلّف الرّسائل السّريّة ليسوا أقلّ سرّيّة ممّا سيكشفون، أيّا كان هدفهم اللاحق. ستكون ثمّة دائماً امرأة، طفل، عصفور حتّى ندرك السرّ سرّيّاً. سيكون ثمّة دائماً إدراك ألطف من إدراككم، إدراك لما يدقّ عن إدراككم، إدراك لما في علبتكم. نتوقّع حتّى سرّاً مهنيّاً للذين هم في وضعيّة إدراك السرّ. ومن يحمي السرّ ليس على علم بالضرورة، لكنه هو ذاته يحيل على إدراك، بما أنّه عليه أن يدرك وأن يتعقّب الذين يريدون اكتشاف السرّ (التجسس المضادّ). ثمّة إذاً وجهة أولى حيث يذهب السرّ باتجاه إدراك ليس أقلّ سرّيّة، إدراكاً قد يبحث على أن يدقّ عن الإدراك هو بدوره. كلّ أنواع الصّور المختلفة جدّاً يمكنها أن تدور حول هذه النقطة الأولى. ثمّ ثمّة نقطة ثانية ليست مفصولة هي ذاتها عن السرّ بوصفه مضموناً: الكيفيّة التي يفرض بها ذاته وينتشر. هنا أيضاً، أيّا كانت الغايات أو النتائج، للسرّ طريقة للانتشار، قائمة هي دوماً في السرّ. السرّ بوصفه إفرازا. يجب أن يندرج السرّ ويتسرّب ويتسلّل بين الأشكال العموميّة، أن يضغط عليها وأن يقود ذوات معروفة إلى التصرّف (تأثير من نوع «جماعة ضغط»، حتّى وإن لم تكن هذه الأخيرة في حدّ ذاتها مجتمعا سرّيّاً).

باختصار، السرّ وقد وقع تعريفه بوصفه مضموناً قد أخفى شكله لصالح مجرد وعاء، لا ينفصل عن حركتين بإمكانهما عرضيّاً إيقاف مساره أو خيانتة، لكنّهما يشكّلان جزء منه بشكل أساسي: شيء ما يجب أن يرشح من العلبة، شيء ما سيُدرك من خلال العلبة أو في العلبة المفتوحة جزئيّاً. السرّ ابتكره المجتمع، إنّّه مصطلح اجتماعيّ أو

سوسيولوجي. كلّ سرّ هو تنفيد جماعي. السرّ ليس مصطلحا ثابتا أو مجمّدا، ليس ثمة غير التصيُّرات هي التي تكون سرّيّة، للسرّ تصيُّره. السرّ أصله في مكنة الحرب، هي التي تجلب السرّ، مع تصيُّراته- امرأة، تصيُّراته- أطفالا، تصيُّراته- حيوانات^(١). يعمل مجتمع سرّي بشكل دائم في المجتمع بوصفه مكنة حرب. استخلص علماء الاجتماع الذين اهتموا بالمجتمعات السريّة، الكثير من قوانين هذه المجتمعات، الحماية، [٣٥٢] التكافؤ والمراتبية، الصّمت، الشعائريّ، اللاّ فردانية، المركّزة، الاستقلالية، الفصل، إلخ.^(٢). لكن لعلهم لم يعيروا كبير اهتمام للقانونين الأساسيين اللّذين يحكمان حركة المضمون: (١) يتضمّن كلّ مجتمع سرّيّ مجتمعا خلفيا أكثر سرّيّة بكثير، إمّا لأنّه يدرك السرّ، إمّا لأنّه يحفظه، إمّا لأنّه ينقذ عقوبات إفشائه (لكن ليس ثمة أية مصادرة على المطلوب لتعريف المجتمع السريّ بمجمعه السريّ الخلفي: يكون المجتمع سرّيّا مذ يحمل هذا التّضاعف وهذا الفرع الخاصّ)؛ (٢) يحمل كلّ مجتمع سرّيّ أسلوب فعله السريّ هو ذاته، نتيجة تأثير التّسرّب، التّلميح، الرّشح، الضّغط، الإشعاع الأسود، التي تتولّد منها «كلمات السرّ» واللّغات السريّة (وليس ثمة تناقض ههنا، المجتمع السريّ لا يمكنه العيش خارج البرنامج الكلّي لاختراق المجتمع كلّه، للتسلّل داخل كلّ أشكال المجتمع، مسرّعا فيه المراتبية والأقسوميّة: تتزاوج المراتبية مع تأمر المتساوين، يأمر المجتمع السريّ أعضائه بأن يكونوا في المجتمع مثل أسماك في الماء، لكن هو ذاته

(١) بيّن ليك دي هوش (Luc de Heusch) كيف أنّ المحارب هو الذي يجلب السرّ: يفكر، يأكل، يحبّ، يُقبل سرّيّا، بينما يتصرّف رجل الدّولة عموميا (المَلِك المخمور أو أصل الدّولة). فكرة سرّ الدّولة أتت متأخرة، وتفترض استيلاء جهاز الدّولة على مكنة الحرب.

(٢) جورج سيمال بشكل خاصّ، راجع، سوسيولوجيا جورج سيمال، منشورات غلانكو، الفصل الثالث.

أيضا يجب أن يكون مثل الماء بين الأسماك؛ إنه في حاجة إلى تواطؤ مجتمع محيط بكامله). نلاحظ ذلك جيّدا في حالات شديدة الاختلاف مثل مجتمعات رجال العصابات في الولايات المتحدة الأميركية، أو مجتمعات الرّجال- الحيوانات في إفريقيا: من ناحية تأثير المجتمع السّرّي وزعمائه على الشخصيات العامة أو على رجال السياسة المحيطين، من ناحية أخرى، صيغة مضاعفة المجتمع السّرّي في مجتمع خلفيّ يمكن تكوينه من فرع خاصّ من القتل والحراس^(١). تأثير ومضاعفة، إفراز وتصلّب، كلّ سرّ يتقدّم على هذا النحو بين «متكتمين» بإمكانهما فضلا عن ذلك الالتقاء والتّمازج في بعض الحالات. يؤلّف سرّ الطّفل بين هذه العناصر بشكل رائع: السّرّ مثل مضمون في علبة، التأثير أو الانتشار السّرّيّان للسّرّ، الإدراك السّرّيّ للسّرّ (سرّ الطّفل ليس متكوّنا من أسرار كهل مصغّرة، لكنّه مصحوب ضرورة بإدراك سرّيّ لسرّ الكهل). طفل يكتشف سرّا...

[٣٥٣] لكنّ تصيّر السّرّ يدفعه إلى ألاّ يكتفيّ بإخفاء شكله في مجرد وعاء، أو مقايضته بوعاء. الآن يجب أن يتملّك السّرّ شكله الخاصّ من حيث هو سرّ. يرتفع السّرّ من المضمون المتناهي إلى الشّكل اللّامتناهي للسّرّ. هنا يبلغ السّرّ ما يدقّ عن الإدراك المطلق، بدلا من الإحالة على مجموعة كاملة من الإدراكات والاستجابات النسبيّة. نذهب من مضمون محدّد بوضوح، متموضع أو منصرم، إلى

(١) يحدّد بول أرناست جوزاي (Paul Ernest Joset) بوضوح هذين المظهرين لمجتمع المساواة السّرّي، قبيلة مامبلا الكونغولية: من ناحية، علاقة تأثيرها على الرّعاء السياسيين التّقليديين، تأثيرا يمتدّ حتى إلى نقل السّلطات الاجتماعيّة؛ من ناحية أخرى، علاقتها الفعلية بالأنبوتيين، بوصفهم المجتمع السّرّي الخلفيّ للجريمة أو للرّجال- الفهود (حتى وإن كان للأنبوتيين أصل مغاير لجماعة المامبلا). راجع، المجتمعات السّريّة للرّجال- الفهود في إفريقيا السّوداء، الفصل الخامس.

الشكل العام القلبي لشيء ما قد حدث، إلى شيء غير قابل للموضعة. نذهب من السرّ باعتباره مضمون طفولة هستيريّ إلى السرّ باعتباره شكلا بارانويّا رجوليّا للغاية. وسنجد على هذا الشكل ذاته المصاحبين الاثنين للسرّ، الإدراك السرّي وأسلوب الفعل، التأثير السرّي، لكنّ هذين المصاحبين قد أصبحا «سمتين» للشكل الذي لا تفتآن تعيدان تكوينه وتشكيله وشحنه. من ناحية يُبطل البارانويّ المؤامرة العالميّة للذين يسرقون أسرارهم وأفكاره الأكثر حميميّة؛ أو يعلن عن موهبته في إدراك أسرار الآخر قبل تشكّلها (البارانويّ الغيّران لا يدرك الآخر بوصفه من يفلت منه بل على النقيض من ذلك يخمن أدنى نواياه). من ناحية أخرى يفعل البارانويّ أو يفعل بالإشعاعات التي يرسلها أو يتقبّلها (من أشعة رايمون روسال إلى أشعة شرايبار). التأثير بواسطة الإشعاع والمضاعفة بواسطة الطيران أو الصدى، هما الآن ما يعطي السرّ شكله اللامتناهي، حيث تمرّ الإدراكات كما الأفعال داخل ما يدقّ عن الإدراك. الحكم البارانويّ شبيه باستباق الإدراك الذي يعوّض البحث الخبريّ للعلب ولمضمونها: مذهب قبلّيّ وفي كلّ الأحوال! (هكذا هو تطوّر الراوي في البحث عن الزمن الضائع بالنسبة إلى ألبارتين). يمكن أن نقول على الجملة إنّ التحليل النفسيّ قد ذهب من تصوّر هستيريّ للسرّ إلى تصوّر بارانويّ متزايد^(١). تحليل نفسيّ لا ينتهي: تلقّى اللاوعي مهمّة شاقّة أكثر فأكثر في أن يكون هو ذاته الشكل اللانهائيّ للسرّ، بدلا من أن يكون علبة أسرار وحسب. ستقولون كلّ شيء، لكن بقول كلّ شيء لن تقولوا شيئا، بما أنّه يلزم «فنّ» المحلّل النفسيّ بتمامه لاقتياس مضامينكم بالنسبة إلى الشكل المحض. غير أنّه في هذه النقطة، تحدث

(١) حول التّصورات التحليليّة النفسيّة للسرّ، راجع «السرّ»، مجلّة التحليل النفسيّ الجديدة، العدد ١٤؛ وبالنسبة إلى تطوّر فرويد، مقال كلود جيران، «السرّ من أصوله».

مغامرة حتمية، عندما يرتفع السرّ على هذا النحو إلى الشكل . عندما يبلغ سؤال «ما الذي حدث؟» هذا الشكل الرجوليّ اللامتناهي، تكون الإجابة بالضرورة أن لا شيء قد حدث، مقوضة الشكل والمضمون . ينتشر الخبر سريعاً كون سرّ الرجال [٣٥٤] لم يك شيئاً، لم يك شيئاً على الإطلاق حقيقة . أوديب، القضيبي، الخصاء، «الشظية في اللحم»، هل كان ذلك هو السرّ؟ ثمة في ذلك ما يُضحك النساء، الأطفال، المجانين والهباءات .

بقدر ما نجعل منه شكلاً منظماً مهيكلاً، بقدر ما يصبح السرّ نحيلاً ومنتشراً في كلّ مكان، بقدر ما يصبح مضمونه هبائياً، في نفس الوقت الذي يذوب فيه شكله . لا مشكلة حقاً مثلما تقول جوكاست . غير أن السرّ لا يختفي، لكنّه يتخذ الآن منزلة أكثر أنثوية . وما الذي كان بالفعل في السرّ البارانونيّ للقاضي شرايبار غير التصيّر أنثوياً، غير التصيّر - امرأة؟ ذلك أن النساء ليس لهنّ أبداً نفس طريقة التعامل مع السرّ (إلا عندما تُعدّن بناء صورة مقلوبة للسرّ الرجوليّ، لهنّ ضرب من سرّ نسويّ). يؤاخذهنّ الرجال تارة عن عدم تحفظهنّ وعن ثرثرتهنّ، تارة أخرى عن قلة تضامنهنّ، عن خيانتهم . ومع ذلك غريب هو كيف يمكن لامرأة أن تكون متكتمة دون أن تخفي شيئاً، من شدة الشفافية والبراءة والسرعة . التنزيذ المعقّد للسرّ في الحبّ العذريّ، هو تنزيذ أنثويّ بشكل خاصّ ويعمل في تمام الشفافية . السرعة ضدّ الثقاله . سرعة مكنة حرب ضدّ ثقالة جهاز الدولة . يتخذ الرجال موقفاً جاداً، إنهم فرسان السرّ، «انظروا بأيّ حُمل أنوء، جدّيتي، تكتّمي»، لكنهم ينتهي بهم الأمر إلى قول كلّ شيء، ولم تكن للأمر أهميّة . على النقيض من ذلك ثمة نساء تقلن كلّ شيء، تتحدّثن حتى بإتقان رهيب، مع ذلك لن نعرف منهنّ في النهاية أكثر ممّا عرفنا في البداية، سوف تخفين كلّ شيء نتيجة السرعة والوضوح . ليس لهنّ سرّ لأنهنّ صرن هنّ ذواتهنّ سرّاً . هل تصرن سياسيات أكثر ممّا؟ إفيجينيا البريئة قبلها، ذلك

هو ما تطالب به الفتاة في ما يخصها ضدّ الحكم الصّادر عن الرّجال: «مذنبه قبلًا»... ههنا يبلغ السّرّ الحالة الأخيرة: لقد تَهَبَّين مضمونه، صار هبائيًا، في نفس الوقت الذي يتحلّل فيه شكله ليصير خطًا متحرّكًا محضًا، - بالمعنى الذي يمكن أن نقول فيه عن خطّ معيّن إنّهُ «سرٌّ» رسّام، أو عن خلية إيقاعيّة معيّنة، عن هبّاء صائتة معيّنة لا تشكّل لحنا أو شكلًا، إنّها «سرٌّ» موسيقيّ.

إذا كان لكاتب مشكلة مع السّرّ فهو هنري جايمس. لقد كان له تطوّر كامل بهذا الخصوص، تطوّرًا شبيها بتجويد فنّه. ذلك أنّه يبحث عن السّرّ أوّلا في مضامين حتى وإن كانت تافهة، مفتوحة جزئيًا، مدركة جزئيًا. ثمّ يستحضر إمكانيّة شكل لا نهائيّ للسّرّ قد لن يكون حتى في حاجة لمضمون وقد يكون استولى على ما يدقّ عن الإدراك. لكنّه لا يستحضر هذه الإمكانيّة إلّا من أجل طرح السّؤال: هل السّرّ في المضمون أم في الشّكل؟ - والإجابة معطاة سلفًا: لا هذا [٣٥٥] ولا ذاك^(١). ذلك أنّ جايمس ينتمي إلى هؤلاء الكتّاب المأخوذين في تصيّر - امرأة لا يقاوم. لن يتوقّف عن تعقّب هدفه، وعن ابتكار الوسائل التّقنيّة الضّروريّة. هَبَّيْنه مضمون السّرّ، خَطَّيْنه الشّكل. سيلبور جايمس كلّ شيء، من التّصيّر - طفلًا للسّرّ (دائمًا طفل يكتشف

(١) يبيّن برنار بنغو (Bernard Pingaud) معتمدا على النّصّ المثالي لجايمس «صورة في السّجّاد»، كيف أنّ السّرّ يقفز من المضمون إلى الشّكل ويفلت من كليهما: «السّرّ»، صص ٢٤٧ - ٢٤٩. غالبا ما وقع التّعليق على هذا النّصّ لجايمس من زاوية نظر تهّم التحليل التّفنسيّ؛ وتهّم أوّلا جون برتراند بونتاليس (J.-B. Pontalis)، بعد فرويد، غاليما. لكنّ التحليل التّفنسيّ يظلّ سجين مضمون كأنّه مقنّع ضرورة بشكل رمزيّ ضرورة (بنية، علّة غائبة...)، على صعيد يعرف في نفس الوقت اللاوعي واللّغة. لذلك، يخطئ التحليل التّفنسيّ في تطبيقاته الأدبيّة أو الإستطيقيّة السّرّ عند كاتب كما سرّ كاتب. كما هي الحال بالنّسبة إلى سرّ أوديب: نهتمّ بالسّرّين الأوّلين، لكن لا نهتمّ بالسّرّ الثالث، الذي هو مع ذلك السّرّ الأهمّ.

أسراراً، ما تعرفه مايزي) إلى التّصيّـر - امرأة للسّر (سرّ بواسطة الشّفاقيّة، والذي لم يعد غير خطّ محض بالكاد يترك أثر مروره، دايزي ميلار الرائعة). جايمس أقلّ قرباً من بروسست ممّا يقال، إنه هو الذي يؤكّد صرخة «بريئة قبلًا!» (دايزي لم تكن تطلب غير القليل من التقدير، كانت ستمنح حبّها من أجل ذلك...) ضدّ «المذنب قبلًا» الذي يدين ألبارتين. المهمّ في السّر ليس هو هذه الحالات الثلاث، مضمون الطفل، الشكل الرّجوليّ اللّانهائيّ، الخطّ الأنثويّ المحض، بقدر ما هو التّصيّرات المرتبطة بها، التّصيّـر - طفلاً للسّر، تصيّره - أنثويّاً، تصيّره - هبائيّاً - هناك تحديداً حيث لم يعد للسّر لا مضمون ولا شكل، ما يدقّ عن الإدراك وقع إدراكه في النّهاية، المتخفّي الذي لم يعد له أيّ شيء ليخفيه. من الرّفعة الرّماديّة إلى المحايّة الرّماديّة. يمرّ أوديب بالأسرار الثلاثة، سرّ أبي الهول الذي يثقب علبته، السّر الجاثم عليه مثل الشّكل اللّامتناهي لإحساسه الخاصّ بالذّنب، أخيراً السّر في كولونا الذي يجعله منيعاً ويتماهاى مع الخطّ المحض لإفلاته ومنفاه، هو الذي لم يعد له أيّ شيء لإخفائه، أو هو مثل ممثّل قديم في مسرح النّو، لم يعد له غير قناع فتاة حتى يغطّي غياب وجهه. البعض يمكنهم الحديث، لا يخفون شيئاً ولا يكذبون: إنهم متكتمون بالشّفاقيّة، حصينون مثل الماء، هم في الحقيقة مبهمون، بينما للآخرين سرّ مكشوف دوماً، مع أنّهم يحيطونه دوماً بجدار سميك أو يرفعونه إلى الشّكل اللّامتناهي.

ذكريات وتّصيّرات، نقاط وكتل. - لِمَ ثمة الكثير من تصيّرات الإنسان لكن ليس ثمة التّصيّـر - إنساناً؟ ذلك أوّلاً لأنّ الإنسان أغلبيّ بامتياز، بينما التّصيّرات أقلّيّة، كلّ تصوّر هو تصوّر أقلّيّ. [٣٥٦] لا نعني بالأغليّة كمّا نسبياً أكبر، إنّما نعني تحديد حالة أو عيار ستسمّى أقلّيّة بالنسبة إليه الكميّات الأكبر كما الأصغر. إنسان - أبيض - راشد -

ذَكَرَ، إلخ. تفترض الأغلبية حالة هيمنة وليس العكس. لا يتعلّق الأمر بمعرفة ما إذا كان ثمة عدد أكبر من البعوض أو الذّباب من عدد البشر، إنّما بالكيفيّة التي كوّن بها «الإنسان» في الكون عياراً بالنسبة إليه يكوّن البشر بالضرورة (تحليليًا) أغلبية. مثلما تفترض الأغلبية في المدينة حقّ الاقتراع، ولا تقوم هذه الأغلبية بين الذين يمتلكون هذا الحقّ وحسب، بل تمارس على الذين ليس لهم هذا الحقّ أيّا كان عددهم، تفترض الأغلبية في الكون أنّ حقّ الإنسان أو سلطانه مكفولان بالفعل^(١). إنّ هذا المعنى تكون النّساء والأطفال وكذلك الحيوانات والنباتات والهباءات أقلّيّة. لعلّها حتى الوضعيّة الخاصّة للمرأة بالنسبة إلى العيار-الرجل هي التي تجعل كلّ التّصيّرات، بما هي أقلّيّة، تمرّ بتّصير- امرأة. ومع ذلك لا يجب الخلط بين «أقلّيّ» من حيث هو تّصير أو سيرورة و«أقلّيّة» بوصفها مجموعة أو حالة. اليهود، الغجريّون، إلخ.، بإمكانهم تشكيل أقلّيات في هذه الظروف أو تلك؛ لكنّ ذلك ما يزال غير كاف لنجعل منه تّصيّرات. نعيد تأرّضنا أو نستسلم لإعادة التّأرّض على أقلّيّة بوصفها حالة؛ لكنّنا لا نتأرّض في تّصير. حتى السّود، فيما كان يقول الفهود السّود، عليهم أن يصيروا- سودا. حتى النّساء، عليهنّ أن يصرن- امرأة. حتى اليهود، عليهم أن يصيروا- يهودا (الآكد أنّه لا يمكن الاكتفاء بحالة). لكن إذا كان الأمر على هذا النّحو، فإنّ التّصير- يهوديًا يطال بالضرورة غير اليهوديّ كما اليهوديّ... إلخ. التّصير- امرأة يطال بالضرورة الرّجال كما النّساء. بطريقة ما، «الإنسان» دائماً هو فاعل التّصير؛ لكنّه ليس هذا الفاعل المعيّن إلّا بدخوله في تّصير- أقلّيّ ينتزعه من هويّته الرّئيسيّة. كما في رواية أرثر ميلار، بؤرة، أو في فيلم لوزاي (Losey)، السيّد كلاين، غير اليهوديّ

(١) حول أشكال غموض فكرة الأغلبية، راجع المبحثين الشهيرين لـ«مفعول كوندورساي» و«مبرهنة القرار الجماعي» لآرو (Arrow).

هو الذي يصير يهوديًا، عندما يأخذه هذا التصيّر ويكتسحه، عندما يتمّ انتشاله من قياسه العياريّ. عكسيًا، إذا كان على اليهود ذواتهم أن يصيروا- يهودا، على النساء أن يصرن- امرأة، على الأطفال أن يصيروا- طفلا، على السّود أن يصيروا- سودا، فذلك من حيث أنّ أقلّيّة هي وحدها التي يمكنها أن تُستخدم كوسيط فاعل للتّصيّر، لكن في ظلّ ظروف معيّنة تجعلها تتوقّف هي بدورها عن أن تكون مجموعة قابلة للتّحديد بالنّسبة إلى الأغليّة. التّصيّر- يهوديًا، التّصيّر- امرأة، إلخ.، يستتبعان بالتّالي تآني [٣٥٧] حركة مضاعفة، حركة بها ينسحب حدّ (الذّات) من الأغليّة، والحركة الأخرى يخرج بها حدّ (الوسيط أو الفاعل) من الأقلّيّة. ثمّة كتلة تصيّر متلازمة ولا متناظرة، كتلة تحالف: «السّيّدان كلاين»، اليهوديّ وغير اليهوديّ، يدخلان في تصيّر- يهوديّ (نفس الشيء في بؤرة).

على المرأة أن تتصير- امرأة، لكن في تصيّر- امرأة للرّجل بتمامه. اليهوديّ يصير يهوديًا، لكن في تصيّر- يهوديّ لغير اليهوديّ. لا يوجد التّصيّر أقلّيًا إلّا بوسيط وذات لا متأرضينّ هما بمثابة عناصره. ليس ثمّة ذات للتّصيّر إلّا بوصفها متغيّرا لا متأرضنا للأغليّة، وليس ثمّة وسيط للتّصيّر إلّا بوصفه متغيّرا لا متأرضنا لأقلّيّة. ما يدفعنا للدّخول في تصيّر، يمكن أن يكون أيّ شيء، ما لا يخطر على بال، الأكثر تفاهة. لا تحيدون عن الأغليّة من دون نقطة تفصيليّة صغيرة ستبدأ بالتّضحّم وتكتسحكم. ذلك أنّ بطل رواية البؤرة، وهو أميركيّ متوسّط، محتاج إلى نظّارات تمنح أنفه هيئة ساميّة بعض الشيء، إنّه «بسبب النظّارات» سيندفع في هذه المغامرة الغريبة للتّصيّر- يهوديّ لغير اليهوديّ. أيّ شيء يمكن أن يفني بالغرض، لكنّ الغرض يبدو سياسيًا. التّصيّر- أقلّيًا هو مسألة سياسيّة، ويستدعي عملا كاملا للاقتدار، لسياسة مجهرية فاعلة. إنّه ضديد السياسة الكبرى وحتى ضديد التّاريخ، حيث يتعلّق الأمر بالأحرى بمعرفة كيفية الاستيلاء أو الحصول على

أغلبية. مثلما كان يقول فولكنار، لم يكن ثمة من اختيار آخر غير التّصير- زنجياً حتى لا يجد المرء ذاته فاشياً^(١). على نقيض التاريخ، لا يقع التفكير بالتّصير في صيغة الماضي والمستقبل. التّصير- ثورياً يظلّ غير مكترث بمسائل مستقبل وماضي الثورة؛ إنّهُ يمرّ بينهما. كلّ تصير هو كتلة تماح. المجتمعات المسمّاة غير ذات تاريخ تضع نفسها خارج التاريخ، ليس لأنّها قد تكتفي بإعادة إنتاج نماذج ساكنة أو لأنّها قد تحكمها بنية ثابتة، إنّما لأنّها مجتمعات تصير (مجتمعات حرب، مجتمعات سرّية، إلخ.). ليس ثمة تاريخ إلّا للأغلبية أو لأقليات محدّدة بالنسبة إلى الأغلبية. لكن «كيفية الحصول على الأغلبية» مسألة ثانوية تماماً بالنسبة إلى مسارات ما يدقّ عن الإدراك.

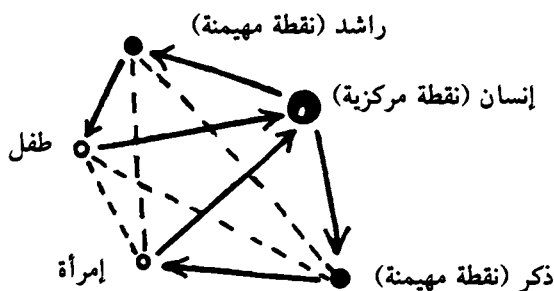
[٣٥٨] لنحاول قول الأشياء بشكل مغاير: ليس ثمة تصير- إنسان لأنّ الإنسان هو الوحدة الكتلوية بامتياز، بينما التّصيرات هبائية. وظيفة الوجّهية بيّنت لنا تحت أيّ شكل كان الإنسان يكون الأغلبية، أو بالأحرى يكون العيار الذي كان يشرطها: أبيض، ذكّر، راشد، «متعلّق»، إلخ.، باختصار، أيّ أوروبّي متوسّط، ذات التّلقّظ. وفق قانون التشجّر، النّقطة المركزيّة هذه هي التي تتنقل في الفضاء كلّهُ أو على الشّاشة، وهي التي ستغذي في كلّ مرّة تقابلاً تمييزياً وفق السّمة المستبقاة للوجّهية: هكذا ذكّر- (أنثى)؛ راشد- (طفل)؛ أبيض- (أسود، أصفر أو أحمر)؛ عاقل- (حيوان). النّقطة المركزيّة، أو العين الثالثة، لها بالتّالي خاصيّة تنظيم التّوزيعات المزدوجة في الممكنات الثنائية، خاصيّة التّكاثر في الحدّ المركزيّ للتّقابل، في نفس الوقت الذي يُصدي فيه التّقابل بتمامه في الحدّ المركزيّ. إنّهُ تكوين «أغلبية»

(١) راجع فولكنار، الدّخيل، غاليمار، ص ٢٦٤. يكتب فولكنار وهو يتحدّث عن بيض الجنوب بعد الحرب الأهلية الأميركيّة، ليس عن الفقراء وحسب، بل عن العائلات الثّرية القديمة: «نحن في وضعيّة ألمانيا بعد سنة ١٩٣٣، التي لم يكن لها من بديل غير أن تكون نازية أو يهوديّة».

بوصفها ترداداً. وهكذا يتشكل الإنسان بوصفه ذاكرة عملاقة، مع وضع النقطة المركزية وتواترها من حيث أنها تُكرّرها بالضرورة كل نقطة مهيمنة، إصدارها من حيث أن جملة النقاط مرتبطة بها. سيكون جزء من شبكة التشجر كل خط يذهب من نقطة إلى أخرى في جملة المنظومة الكتلوية، ويتحدّد إذاً بنقاط تستجيب لتلك الشروط التذكيرية للتواتر وللإصداء^(١).

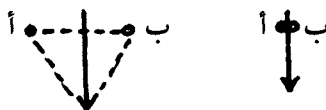
إنّه خضوع الخط للنقطة هو الذي يشكل التشجر. بالتأكيد للطفل والمرأة والزنجي ذكريات؛ لكنّ الذاكرة التي تجمع هذه الذكريات هي ذاتها الهيئة [٣٥٩] الغالبة التي تأخذها على أنها «ذكريات طفولة»، ذكريات زواجية أو استعمارية. يمكننا العمل بالربط بين النقاط المتلازمة أو بضم بعضها إلى بعضها الآخر، بدلا من العمل بواسطة علاقة بين نقاط متباعدة: سنحصل إذاً على استيهامات عوضاً عن ذكريات. هكذا يمكن أن تكون للمرأة نقطة أنثى ونقطة ذكر متضامتان، وللرجل نقطة ذكر ونقطة أنثى. تكوين هذه الهجائن لا يقدّمنا مع ذلك

(١) يظهر خضوع الخط للنقطة بوضوح في خطاطات التشجر: راجع جوليان باكوت، الشبكة الشجرانية، منشورات هارمان؛ ومنزلة الأنساق التراثية أو الممرّكة وفق بيار روزنستيال وجون بتيو، «الإنسان الآلي والأنساق الاجتماعية والأنساق اللا ممرّكة» (مجلة اتصالات، العدد ٢٢، ١٩٧٤). قد يكون بالإمكان تقديم الخطاطة الشجرانية للأغلبية في الشكل التالي:



أكثر باتجاه تصيّر حقيقيّ (الخشويّة على سبيل المثال، مثلما يلاحظ ذلك المحلّلون النفسانيّون، لا تمنع البتّة سيطرة الذكوريّ أو أغلبيّة «القضيب»). لا نقطع مع خطاطة التشجّر، لا نبلغ لا التّصيّر ولا الهبائيّ طالما ظلّ الخطّ ملحقاً بنقطتين متباعدين، أو ظلّ متكوّناً من نقاط متلازقة. خطّ تصيّر لا يتحدّد لا بالنقاط التي يربط بينها ولا بالنقاط التي تكوّنه: على النقيض من ذلك، هو يمرّ بين النّقاط، إنّها لا ينبت إلّا من الوسط، وينطلق بسرعة في اتجاه عموديّ بالنّسبة إلى النّقاط التي ميّزنا بينها أوّلاً، عرضانيّاً بالنّسبة إلى العلاقة القابلة للتّعيين بين النّقاط المتلازقة أو المتباعدة^(١). النّقطة هي دائماً نقطة أصل. لكنّ خطّ تصيّر لا بداية له ولا نهاية، لا انطلاق ولا وصول، لا أصل ولا وجهة؛ والحديث عن غياب الأصل، إقامة غياب الأصل كأصل، هو تلاعب سيّء بالألفاظ. خطّ تصيّر له وسط وحسب. الوسط ليس معدّلاً، إنّهُ مسرّع، إنّهُ السّرعة المطلقة للحركة. التّصيّر قائم دائماً في الوسط، لا يمكن الإمساك به إلّا في الوسط. التّصيّر لا هو واحد ولا هو اثنان ولا هو علاقة بين الاثنين، إنّما هو ما بين، إنّهُ حدّ أو خطّ إفلات أو سقوط متعامد مع الاثنين. إذا كان التّصيّر كتلة (كتلة - خطّ)، فلأنّهُ يشكّل منطقة جوار ولا تمايز، يشكّل منطقة محايدة، علاقة لا يمكن تعيينها تستولي على النّقطتين المتباعدتين أو المتلازقتين، حاملة إحداهما إلى جوار الأخرى، - والجوار - الحدّ محايد بالنّسبة إلى الملازقة كما بالنّسبة إلى المسافة. في خطّ أو في كتلة التّصيّر التي تجمع الزّنبور والأوركيد يحدث لا تآرُضُن مشترك، بين الزّنبور من

(١) خطّ تصيّر، بالنّسبة إلى الرّبط القابل للتّعيين بين أ و ب (مسافة)، أو بالنّسبة إلى تلازقهما:



حيث تَصَيِّرُهُ قطعة متحرّرة من جهاز تناسل الأوركيد، لكن كذلك للأوركيد من حيث [٣٦٠] تَصَيِّرُهَا نشوة الزنبور المتحرّر هو ذاته من تناسله الذي يَخْصُّهُ. تَمَاعِي حركتين لا متناظرتين تشكّلان كتلة، على خطّ إفلات يتغوّر فيه الضّغط الانتقائيّ. الخطّ أو الكتلة لا يربط بين الزنبور والأوركيد بأكثر ممّا يزواج أو يخلط بينهما: إنّهُ يمرّ بين الاثنين، يأخذهما في جوار مشترك حيث يغيب التّمييز بين النّقاط. المنظومة- خطّ (أو كتلة) للتّصَيّر تواجه المنظومة- نقطة للذاكرة. التّصَيّر هو الحركة التي يتحرّر بها الخطّ من النّقطة، ويجعل النّقاط لا مُتمايزة: جذمور، هو مقابل للتّشجّر، يتخلّص من التّشجّر. التّصَيّر ذاكرة مضادّة. لا ريب أنّه ثَمّة ذاكرة هبائيّة، لكن بوصفها عامل إدماج في منظومة كتلويّة أو أغليبيّة. للذكرى دائما وظيفة إعادة أرضنة. على النّقيض من ذلك، موجّه اللّاتأرُضن ليس لا متحدّدا على الإطلاق، لكنّه في علاقة وثيقة بالمستويات الهبائيّة، وبشكل أو ثقل عندما يكون أكثر لا تأرُضنا: اللّاتأرُضن هو الذي يجعل المكوّنات الهبائيّة «متماسكة» مع بعضها البعض. نواجه من زاوية النّظر هذه ذكريات الطّفولة بكتلة طفولة أو بتصَيّر- طفل: طفل هبائيّ وقع استيلاده... طفل يتواجد معنا، في منطقة جوار أو في كتلة تَصَيّر، على خطّ لا تأرُضن يجتاحنا كليّنا- على النّقيض من الطّفل الذي كنّا، الذي نتذكّره أو نَسْتَوْهمه، الطّفل الكتلويّ الذي مستقبله هو الكهل. تكتب فرجينيا وولف، «ستكون الطّفولة، لكنّها لا يجب أن تكون طفولتي». (أورلندو لم يكن يتصرّف بالفعل بواسطة الذّكريات، بل بواسطة الكتل، كتل الأعمار، كتل العصور، كتل عهود الحكم، كتل الأجناس، مشكّلا الكثير من التّصَيّرات بين الأشياء، أو مشكّلا خطوط لا تأرُضن^(١)). في

(١) فرجينيا وولف، يوميات كاتب، منشورات ١٨/١٠، الجزء الأوّل، ص ٢٣٨. نفس الشيء عند كافكا، حيث تعمل كتل الطّفولة في تعارض مع ذكريات

كلّ مرّة استعملنا فيها كلمة «ذكرى»، في الصّفحات السّابقة، كان ذلك بالتّالي بشكل خاطئ، كنّا نودّ القول «تصير»، كنّا نقول تصير.

إذا كان الخطّ يتعارض مع النّقطة (أو الكتلة مع الذّكرى، التصير مع الذّاكرة)، فليس ذلك بكيفيّة مطلقة: منظومة نَقْطِيّة تنطوي على استخدام معيّن للخطوط، وتحدّد الكتلة ذاتها وظائف جديدة للنّقطة. في منظومة نَقْطِيّة، بالفعل، تحيل نقطة أوّلا إلى إحداثيّات خطيّة. ولا نرسم خطّا أفقيّا وخطّا عموديّا وحسب، لكنّ الخطّ العموديّ يتنقّل بالتّوازي مع ذاته، [٣٦١] ويُرَاكِبُ الخطّ الأفقيّ خطوطا أفقيّة أخرى، بحيث أنّ كلّ نقطة يقع تعيينها بالنّسبة إلى الإحداثيّتين القاعديتين، لكنها تكون مرسومة كذلك على خطّ تَرَاكِبُ أفقيّ وعلى خطّ أو على مسطّح تنقّل عموديّ. أخيرا، نقطتان تكونان مترابطتين عندما يكون خطّ ما مرسوما من هذه النّقطة إلى تلك. سيقال عن منظومة إنّها منظومة نَقْطِيّة طالما ستُعْتَبَر فيها الخطوط بمثابة إحداثيّات أو بمثابة روابط قابلة للتّعيين: على سبيل المثال، منظومات التّشجّر أو المنظومات الكتليّة والتّذكاريّة بعمامة هي منظومات نقطيّة. للذاكرة تنظيم نقطيّ لأنّ كلّ حاضر يحيل في نفس الوقت على الخطّ الأفقيّ لمجرى الزّمن (مجرى حركيّ)، يذهب من حاضر قديم إلى الحاضر الحاليّ، ويحيل على خطّ عموديّ لنظام الزّمن (نظام تراصفيّ)، يذهب من الحاضر إلى الماضي أو إلى تصوّر الحاضر القديم. لا ريب أنّ هذه خطاطة قاعدية لا تتطوّر دون تعقيدات كبرى، لكنّنا سنعثر عليها مجدّدا في تصوّرات الفنّ مشكّلة «تعليميّة»، أي ذاكريّة. يرسم التّصوّر الموسيقيّ خطّا أفقيّا، نغميّا، الخطّ المنخفض الذي تتراكب عليه خطوط نغميّة أخرى، حيث تكون

الطفولة. حالة بروسست أكثر تعقيدا لأنّه يُجرى خلطا بين الاثنين. التّحليل النّفسيّ هو في وضعيّة إدراك الذّكريات أو الاستيهامات، لكن على الإطلاق في وضعيّة إدراك كتل الطفولة.

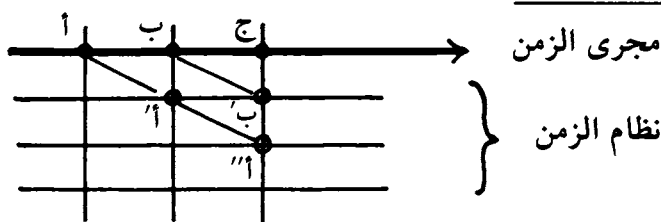
النِّقاط متعيّنة، تدخل من خطّ إلى آخر في علاقات طباق؛ من ناحية أخرى، خطّ أو مسطّح عموديّ، تناغميّ، يتنقّل على طول الخطوط الأفقيّة، لكنّه لم يعد خاضعا لها، متحرّكا من الأعلى إلى الأسفل، ومثبّتا تناغما قادرا على التّرابط مع التّناغمات اللاحقة. للتّصوّر التّصويري شكل مماثل مع وسائله الخاصّة به: ليس فقط لأنّ اللّوحة لها بُعدان عموديّ وأفقيّ، إنّما لأنّ الخطوط والألوان، كلّ من ناحيته، يحيل على متعامدات تنقّل وعلى أفقيّات تراكب (على هذا التّحو العموديّ والشّكل البارد، أو الأبيض، أو الضّوء أو درجة اللّون؛ الأفقيّ والشّكل الدافئ، أو الأسود، اللّونيّ، الشّكليّ، إلخ.) للاقتصار على أمثلة قريبة جدّا، نلاحظ ذلك جيّدا في منظومات تعليميّة مثل منظومة كندنسكي، منظومة كلّي، منظومة موندريان، التي تتضمّن جميعها بالضرورة مواجهة مع الموسيقى.

نلخص الخصائص الأساسيّة لمنظومة نَقْطِيّة: (١) تنطوي مثل هذه المنظومات على خطّين قاعديّين، لكنّهما أفقيّ وعموديّ يُستخدمان كإحداثيات لتعيين النّقاط؛ (٢) يمكن للخطّ الأفقيّ أن يترابك عموديّا، وللخطّ العموديّ أن يتنقّل أفقيّا، بكيفيّة تجعل نقاطا جديدة تولد أو تتكاثر، في ظلّ ظروف تواتر أفقيّ وإصداء عموديّ؛ (٣) من نقطة إلى أخرى، يمكن (أو لا يمكن) رسم خطّ، لكن بوصفه وصلا قابلا للموضعة؛ لكن الخطوط القُطريّة ستلعب حينئذ دور الرّوابط بين نقاط ذات مستوى وزمن مختلفين، منشئة بدورها [٣٦٢] تواترات وإصداءات مع تلك النّقاط التي هي نقاط أفق وقمّة، نقاطا متحوّلة، متلازقة أو متباعدة^(١). - هذه المنظومات شجرانيّة، تذكاريّة، كتلويّة، بنيويّة،

(١) على سبيل المثال، في منظومة الذاكرة، تَشكّل الذكرى يستتبع خطّا قُطريّا يمرّ حاضرا أ إلى تصوّر أ' بالنسبة إلى حاضر جديد ب، إلى أ'' بالنسبة إلى ج، إلخ.

منظومات أرضنة أو إعادة أرضنة. الخطّ والخطّ القُطريّ يظّلان تابعيْن بالتّمام للنّقطة، لأنّهما تُستخدمان كإحداثيّات بالنسبة إلى نقطة أو كروابط قابلة للموضعة بالنسبة إلى نقطة وأخرى، من نقطة إلى أخرى.

ما يتعارض مع المنظومة النّقطيّة هي المنظومات الخطيّة، أو بالأحرى متعدّدة الخطيّة. تحرير الخطّ، تحرير الخطّ القُطريّ: ليس ثمة موسيقيّ ولا رسّام لم يكن له هذا القصد. نُعدّ منظومةً نقطيّةً أو تصوّراً تعليميّاً، لكن بهدف كسرهما، بهدف تمرير هزّة زلزاليّة. ستكون منظومة نقطيّة أكثر أهميّة بقدر ما يعارضها موسيقيّ، رسّام، كاتب، فيلسوف، وحتى صنعها لمعارضتها، لاستعمالها كوسيلة للقفز. التّاريخ لم يصنعه إلّا الذين يعارضون التّاريخ (وليس الذين يندمجون فيه، أو حتى الذين يحوّرونه). ليس ذلك استفزازيّاً، لكن لأنّ المنظومة النّقطيّة التي كانوا يجدونها جاهزة، أو التي كانوا يبتكرونها هم ذواتهم، كان عليها أن تمكّن من هذه العمليّة: تحرير الخطّ والخطّ القُطريّ، رسم الخطّ بدلا من صنع النّقطة، إنتاج خطّ قُطريّ يدقّ عن الإدراك بدلا من التّشبّث بخطّ عموديّ وبخطّ أفقيّ حتّى وإن كانا معقّدين أو معدّلين. ذلك يعود مرّة أخرى إلى التّاريخ لكنّه لم يتأتّ أبداً منه. حاول التّاريخ عبثاً قطع أواصره مع الذاكرة؛ يمكنه تعقيد خطاطات الذاكرة، مراكة الإحداثيات وتحويلها، تأكيد الرّوابط أو تعميق القطائع. مع ذلك، الحدّ ليس هناك. الحدّ لا يمرّ بين التّاريخ والذاكرة، إنّما بين المنظومات النّقطيّة



راجع هوسرل، دروس في فنومينولوجيا الوعي الحميميّ بالزّمن، المنشورات الجامعيّة الفرنسيّة.

«تاريخ - ذاكرة»، والتّنزيذات متعدّدة الخطيّة أو القُطريّة، التي [٣٦٣] لا تنتمي إطلاقاً إلى الأبديّ، إنّما إلى التّصير، القليل من التّصير المحض، العابر للتّاريخ. ليس ثمة فعل إبداع لا يكون عابراً للتّاريخ ولا يعكس أو لا يمرّ بخطّ متحرّر. نيتشه لا يجعل التّاريخ معارضا للأبديّ، إنّما لما تحت التّاريخ أو لما فوقه: اللّاتزمّن، اسم آخر للهذية، للتّصير، لبراءة التّصير (أي النّسيان ضدّ الذاكرة، الجغرافيا ضدّ التّاريخ، الخارطة ضدّ الاستنساخ، الجذمور ضدّ التّشجر). «ما هو غير تاريخيّ يشبه الجوّ المحيط، حيث الحياة وحدها يمكن أن تتولّد فيه، لتغيب مجدّداً مع فناء هذا الجوّ. (...) حيث ثمة أفعال كان الإنسان قادراً على القيام بها دون أن يكون محاطاً أوّلاً بهذا الضّباب غير التاريخيّ^(١)» الإبداعات شبيهة بخطوط مجرّدة متحوّلة تخلّصت من مهمّة تمثيل عالم، تحديداً لأنّها تنضّد ضرباً جديداً من الواقع الذي لا يستطيع التّاريخ استدراكه أو إعادة تنزيله في منظومات نقطيّة.

عندما أصبح بولاز مؤرّخاً للموسيقى، فذلك من أجل بيان الكيفيّة التي يبتكر بها موسيقيّ عظيم نوعاً من الخطّ القُطريّ في كلّ مرّة بطريقة مختلفة جدّاً، ويمرّه بين العموديّ التّناغميّ والأفق التّغمي. وفي كلّ مرّة هو خطّ قُطريّ آخر، تقنية أخرى وإبداع. حينئذ، على هذا الخطّ العرضانيّ الذي هو خطّ لا تَارُضُن حقيقةً، تتحرّك كتلة صائتة، لم تعد لها نقطة أصل، بما أنّها كائنة بشكل دائم وبالفعل وسط الخطّ، لم تعد لها إحداثيّات أفقيّة وعموديّة، بما أنّها تبدع إحداثيّاتها الخاصّة، لم تعد تشكّل رابطة قابلة للموضوعة من نقطة إلى أخرى، بما أنّها كائنة في «زمن غير موقع»: كتلة إيقاعيّة لا مُتأرِضِنة، تخلّت عن النّقاط والإحداثيّات والقيس، مثل سفينة تائهة لا تتمايز هي ذاتها عن الخطّ، أو ترسم مسطّح قِوام. سرعات وتباطؤات تندرج في الشّكل الموسيقيّ،

(١) نيتشه، اعتبارات لا تزمّنيّة، «فائدة التّاريخ وعبوبه»، = ١.

دافعة إِيَّاه طورا إلى التكاثر، إلى تكاثرات مجهرية خطية، وطورا إلى انخمداد، إلى إلغاء الصّوت، إلى انغماد، والاثنان في نفس الوقت. يمكن للموسيقي أن يقول بامتياز: «أمقت الذاكرة، أمقت الذكري»، وذلك لأنّه يؤكّد اقتدار التّصير. يمكن أن نجد الحالة المثلى لمثل هذا الخطّ القُطريّ، الخطّ - الكتلة، في المدرسة النّمساوية. لكن يمكن أن نقول كذلك إنّ المدرسة النّمساوية تجد منظومة تَأْرُضُن جديدة، منظومة نقاط، منظومة عموديّات وأفقيّات تُنزلُها في التاريخ. محاولة أخرى، فعل إبداعيّ آخر يأتي لاحقا. المهمّ هو أنّ كلّ موسيقيّ عمل دائما على هذا النّحو: رَسَم [٣٦٤] خطّه القُطريّ، حتى وإن كان هشا، خارج النّقاط، خارج الإحداثيّات والرّوابط القابلة للموضوعة، ليجعل كتلة صائتة تسبح على خطّ وقع تحريره وإبداعه، وإطلاق كتلة متحرّكة ومتحوّلة في الفضاء، هذبة (على سبيل المثال، التلوينية الموسيقية، الأخلاط والنّوتات المعقّدة، لكن كذلك كلّ موارد وإمكانات تعدّد الأصوات، إلخ^(١)). لقد أمكن الحديث عن «المتّجهات المائلة»

(١) حول كلّ هذه الأغراض، راجع بيار بولاز: (١) كيف أنّه في كلّ مرّة تسعى عرضانيّات إلى الإفلات من الإحداثيّات الأفقية والعمودية للموسيقى، راسمة حتى في بعض الحالات «خطوطا افتراضية»، سجلّات متدرّب، منشورات سوي، ص ٢٣٠، ٢٩٠-٢٩٧، ٣٧٢. (٢) حول فكرة الكتلة الصّائتة أو «كتلة الديمومة»، في علاقة بهذا العرضانيّ، التفكير بالموسيقى اليوم، منشورات غونتييه، صص ٥٩-٦٣؛ حول التمييز بين النّقاط والكتل، بين الـ«مجموعات النّقطيّة» والـ«مجموعات التّجميعيّة» ذات الفردية المتغيّرة، «ماذا تريدن مني أينها السنونات؟»، في وسائط، العدد ٧، ١٩٦٤. غالبا ما يظهر كره الذاكرة عند بولاز: راجع «تقريب فقدان الذاكرة» (الموسيقى على المحكّ، العدد الرابع، ١٩٧١)، «ترعبي الذاكرة» (في روجيه ديزورميوار وزمنه، منشورات روشيه). للاقتصار على أمثلة معاصرة، قد نجد تصريحات مماثلة عند سترافنسكي، كاج، بريو. بالتأكيد ثمة ذاكرة موسيقية مرتبطة بالإحداثيّات، وتمارس داخل الأطر الاجتماعيّة (اليقظة والنّوم والانسحاب). لكن إدراك «جملة» موسيقية لا يستدعي ذاكرة حتى من نوع التّذكّر، بقدر ما يستدعي توسّع أو انكماش الذاكرة التي من

بخصوص الأرغن. غالبا ما يكون الخط القُطريّ متكوّنا من خطوط وفضاءات صائتة شديدة التعقيد. أهذا هو سرّ جملة صغيرة أو كتلة إيقاعيّة؟ لا ريب حينئذ أن تمتلك النّقطة وظيفة إبداعيّة أساسيّة جديدة: لم يعد الأمر يتعلّق فقط بالمصير المحتوم الذي يعيد بناء منظومة نقطيّة؛ على النقيض من ذلك، النّقطة هي التي تجد ذاتها الآن تابعة للخطّ، وهي التي تسم تكاثر الخطّ أو انعطافه الفجائيّ، اندفاعه، تباطؤه، احتياجه أو احتضاره. الـ«كتل المجهرية» لموزار. يحدث حتى اختزال الكتلة في نقطة كما في نوتة واحدة (كتلة- نقطة): سي (le Si) بارغ في فوتزاك، لا (le La) شومان. تكريم شومان، جنون شومان: عبر استرباع التّجويق، يشرّد الكمان الجهير ويرسم خطّه القُطريّ حيث تمرّ الكتلة الصّائتة اللّامُتأرِضنة؛ أو إنّ ضربا من اللّازمة شديدة البساطة يقع «التّعاطي» معها بخطّ نغميّ وبطراز متعدّد الأصوات شديد الإتقان.

كلّ شيء يتمّ في نفس الوقت، في منظومة متعدّدة الخطيّة: يتحرّر الخطّ من النّقطة بوصفها أصلا؛ يتحرّر الخطّ القُطريّ من العموديّ والأفقيّ بوصفهما إحداثيتين؛ كذلك يتحرّر الخطّ العرضانيّ [٣٦٥] من القُطريّ بوصفه رابطة قابلة للموضوعة من نقطة إلى أخرى؛ باختصار، يمرّ خطّ- كتلة وسط الأصوات، وينبت هو ذاته من وسطه الخاصّ غير القابل للموضوعة. الكتلة الصّائتة والفاصل. جسد دون أعضاء، ذاكرة مضادّة تمرّ عبر التّنظيم الموسيقيّ، وتكون بالأحرى أكثر إصاثة: «الجسد الشومانيّ لا يستقرّ على حال. (...) الفاصل متّحد جوهريا مع الأثر كلّه. (...) في النّهاية ليس ثمة غير فواصل. (...) الجسد

نوع لقاء. قد تتوجّب دراسة الكيفيّة التي يشغل بها كلّ موسيقيّ كتل نسيان حقيقيّة: على سبيل المثال ما يقوله برّاكاي عن «شرائح النّسيان» وعن «التّطوّرات الغائبة» عند دبوسيّ (دبوسيّ، صص ١٦٩-١٧١). بالإمكان الرّجوع إلى دراسة عامّة لدانيال شارل، «الموسيقى والنّسيان»، العوارض، عدد ٤، ١٩٧٦.

الشوماني لا يعرف غير انفعالات: إنه لا ينبغي، إنه يتشعب، باستمرار، على وقع تراكم الفواصل. (...) الدق الشوماني مهتاج، لكنه مقنن أيضا؛ وذلك لأن جنون الضربات يبقى على ما يبدو في حدود لسان حصيف يمرره عادة دون أن يقع التفتن له. (...) لتخيّل للمقام الموسيقي منزلتين متناقضتين، ومع ذلك متلازمتين: من ناحية شاشة (...)، لسان مخصّص لتحريك الجسد وفق تنظيم معروف (...)، من ناحية أخرى وبشكل تناقضي، يصبح المقام خادما حاذقا للضربات التي يزعم تدجينها على صعيد آخر^(١).

هل الأمر هو ذاته، هو ذاته بالضبط في الرسم؟ فعليًا، ليست النقطة هي التي تصنع الخط، الخط هو الذي يحمل النقطة اللا متأرضنة، يحملها في تأثيرها الخارجي؛ حينئذ لا يذهب الخط من نقطة إلى أخرى، بل هو يتسلّل بين النقاط في اتجاه آخر ويجعل النقاط لا متميزة. أصبح الخط خطًا قطريًا يتحرّر من العمودي والأفقي؛ لكن الخط القطري أصبح بالفعل الخط العرضاني، نصف القطري أو المستقيم الطليق، الخط المنكسر أو الزاوي، أو هو المنحني، الكائنة كلّها دائما في وسط ذاتها. بين الأبيض العمودي والأسود الأفقي، رماديّ كلي، أحمر كندنسكي، بنفسجيّ موناي، كلّ واحد منها يشكّل كتلة لون. الخط دون أصل، بما أنّه بدأ دائما خارج اللوحة التي لا تأخذه إلّا في الوسط، دون إحداثيات بما أنه يختلط هو ذاته مع مسطح قوام حيث يطفو وهو الذي يخلقه، دون رابطة قابلة للموضوعة، بما أنه لم يفقد وظيفته التّصوريّة وحسب، بل كلّ وظيفة تحديد أيّ شكل كان، - على هذا النحو بالذات أصبح الخط مجردًا، مجردًا حقًا ومتحوّلًا، أصبح كتلة بصريّة، والنقطة في هذه الوضعيّات، تجد مجددا

(١) رولان بارط، «راش»، في لسان، خطاب، مجتمع، منشورات سوي، صص

وظائف إبداعية، بوصفها نقطة - لونا أو نقطة - خطاً^(١). الخط كائن بين النقاط، وسط النقاط، ولم يعد كائنا من نقطة إلى أخرى. إنه لم يعد يحدّد [٣٦٦] حافة. «إنه لم يكن يمشط الأشياء، بل كان بين الأشياء». ليس ثمة مشكل أكثر زيفا في الرسم من مشكل العمق، وبشكل خاص من مشكل المنظور. ذلك أنّ المنظور ما هو إلا طريقة تاريخية للإشغال الخطوط القُطريّة أو العرضانيّة، خطوط الإفلات، أي إعادة أرضنة الكتلة البصريّة المتحرّكة. نقول «إشغالا» بمعنى إعطاء انشغال، تثبيت ذاكرة وتقنين، تعيين وظيفة. لكنّ خطوط الإفلات، العرضانيات، بإمكانها القيام بالكثير من الوظائف الأخرى غير هذه الوظيفة الكتليّة. بدلا من أن تكون خطوط الإفلات موجودة لتصوير العمق، إنّها هي التي تبتكر علاوة على ذلك إمكان مثل هذا التصوير الذي لا يشغلها إلا لبرهة وفي لحظة معيّنة. المنظور وحتى العمق، هما إعادة أرضنة خطوط الإفلات التي هي وحدها كانت تبدع الرسم حاملة إيّاه إلى الأبعد. بشكل خاصّ، المنظور المسمّى منظورا مركزيا، يدفع بكثرة الإفلاتات وبدينامية الخطوط في ثقب أسود نقطيّ. صحيح أنّه وبشكل عكسيّ، مشكلات المنظور قد فتحت الأبواب لاستفاضة تامّة من

(١) ثمة الكثير من الاختلافات بين الرّسامين بخصوص كلّ هذه التّواحي، لكن ثمة أيضا حركة جماعيّة: راجع كندنسكي، نقطة، خطّ، مسطح، كُلي، نظريّة الفنّ الحديث، منشورات غونتييه. تصريحات مثل تصريحات موندريان حول القيمة الحصريّة للعموديّ والأفقيّ، هدفها هو بيان الشّروط التي في ظلّها يكون العموديّ والأفقيّ كافيين لإطلاق خطّ قُطريّ لم يعد حتّى في حاجة إلى رسمه: على سبيل المثال، لأنّ إحداثيات السُّمك اللّامتناهية تُقتطع داخل الإطار وتمتدّ خارجه فاتحة «محورا ديناميا» بشكل عرضانيّ (راجع، تعليقات ميشال بيتور، تصانيف III، «المربّع وساكنه»، منشورات مينوي). بالإمكان كذلك مراجعة مقال ميشال فرياد بخصوص خطّ بولوك («ثلاثة رّسامين أميركيين»، في الرّسم، منشورات ١٨/١٠، وصفحات هنري ميلار حول خطّ ناش (منعطف في الثّمانين، كتاب الجيب).

الخطوط الإبداعية، أطلقت العنان للكتل البصريّة، في نفس الوقت الذي كانت تسعى فيه إلى السيطرة عليها. هل دخل الرّسم بكلّ واحد من أفعال إبداعه، في تصوّر شديد شدّة تصوّر الموسيقى؟

التّصوّر موسيقى. - بالنّسبة إلى الموسيقى الغربيّة (لكنّ الموسيقىات الأخرى يعترضها نفس المشكل، في ظلّ أوضاع أخرى، وتحلّه بشكل مغاير) حاولنا تحديد كتلة تصوّر في مستوى التّعبير، كتلة تعبير: بفضل العرضانيّات التي لا تفتأ تفلت من الإحداثيّات أو من المنظومات النّقطيّة العاملة في هذه اللّحظة أو تلك بوصفها تقنيات موسيقيّة. من البديهيّ أنّ كتلة مضمون تتلاءم مع كتلة التّعبير هذه. لكنّ ذلك لا يرقى حتى إلى مستوى التّطابق؛ قد لا تكون ثمة «كتلة» متحرّكة إذا لم يتداخل مضمون موسيقيّ هو ذاته (ليس موضوعاً أو لحناً) باستمرار مع التّعبير. لكن ما أمر الموسيقى، ما هو مضمونها الذي لا ينفصل عن التّعبير الصّائت؟ من الصّعب الإجابة عن ذلك، [٣٦٧] لكنّه شيء مثل: طفل يموت، طفل يلعب، امرأة تولد، امرأة تموت، عصفور يُقبل، عصفور يبتعد. نوّد القول إنّّه ليس ثمة هنا ألحان موسيقيّة عارضة، حتى وإن كان بمقدورنا مضاعفة الأمثلة منها، ناهيك عن عدم وجود ممارسات محاكاةيّة، إنّما ثمة شيء أساسي. لماذا طفل، امرأة، عصفور؟ ذلك لأنّ التّعبير الموسيقيّ لا ينفصل عن التّصوّر - امرأة، عن التّصوّر - طفلاً، عن التّصوّر - حيواناً، التي تكوّن مضمونه. لم يموت الطّفل أو يسقط العصفور وكأنّه اخترقه سهم؟ ذلك بسبب «الخطر» الخاص بكلّ خطّ يفلت، بكلّ خطّ إفلات أو لا تَأرُضن إبداعيّ: انقلابه إلى تحطيم وإلغاء. ماليزاند، امرأة - طفلة، سرّ، تموت مرّتين («إنّه الآن دور الصّغيرة المسكينة»). الموسيقى ليست تراجيديّة على الإطلاق، الموسيقى فرح. لكن يحدث بالضرّورة أن تذيّقنا طعم الموت، أقلّ ما يكون من السّعادة إنّما الموت بسعادة، الانطفاء. ليس بموجب غريزة

موت قد تثيرها فينا، إنّما بموجب بُعد خاصّ بتنزيدها الصّائت، مكتتها الصّائتة، اللحظة التي تجب مواجهتها، حيث ينقلب الخطّ العرضانيّ إلى خطّ إلغاء. سلّم وسُخط^(١). الموسيقى متعطّشة إلى التّحطيم، كلّ أنواع التّحطيم، إفناء، تكسير، اقتلاع. أليست تلك هي فاشيتها الكامنة؟ لكن في كلّ مرّة يكتب فيها موسيقيّ من الذاكرة، لا يتعلّق الأمر بدافع إلهام، لا يتعلّق بذكرى، بل على النقيض من ذلك يتعلّق الأمر بتصيير لم يفعل سوى مواجهة خطره الخاصّ، حتى وإن تهاوى ليولد من جديد: تصيّر - طفل، تصيّر - امرأة، تصيّر - حيوان، من حيث أنّهم مضمون الموسيقى ذاته ويذهبون حدّ الموت.

قد نقول إنّ اللاّزمة هي المضمون الموسيقيّ تحديدا، كتلة المضمون الخاصّ بالموسيقى. طفل يشعر بالاطمئنان في الظّلمة، أو يصنّق بيديه، أو يبتكر مشية، يكتيفها مع خصائص الرّصيف، أو يردّد «هناك بعيدا - هنا قريبا» (المحلّلون النّفسانيّون يتحدّثون بشكل سيّء جدّا عن الهناك بعيدا - الهنا قريبا، عندما يريدون أن يجدوا فيه تقابلا فونولوجيا أو تركيبة رمزيّة للأوعي - اللغة، بينما هو لازمة). ترا لا لا. امرأة تترنّم، «كنت سمعتها تردّد على مهل لحنا بصوت خفيض». عصفور يطلق لازمته. الموسيقى بتمامها [٣٦٨] اخترقها شدو العصافير بألف طريقة، من جائكان إلى مسّيام، فررر، فررر. الموسيقى اخترقتها كتل طفولة وأنوثة. الموسيقى اخترقتها كلّ الأقليات ومع ذلك تكون اقتدارا هائلا. لازمات أطفال، نساء، أعراق، أقاليم، حبّ وتحطيم: ولادة الإيقاع. أعمال شومان مكوّنة من لازمات، من كتل طفولة

(١) «ثمة شيء ما متوتّر، ساخط، شيء ما كان يصل تقريبا حدّ الغضب الذي لا يُحتمل في صدره كرجل شجاع، بينما كان يعزف موسيقى السّلم هذه الرقيقة والرّقيقة. بقدر ما كانت الموسيقى ممتعة بقدر ما كان يعزفها بإتقان في سعادة غامرة؛ وفي نفس الوقت كان سخطه الجنونيّ الذي كان يحمله في داخله يتنامى بنفس القدر» (لورانس، قضيب هارون، غاليمار، ص ١٦).

أخضعها إلى معالجة خاصّة جدّا: تَصْيُرُه - طفلا هو ذاته، تَصْيُرُه - امرأة هو ذاته، كلارا. بإمكاننا وضع جدول بالاستعمال القُطْرِيّ أو العرضانيّ للآزمة في تاريخ الموسيقى، كلّ ألعاب الطفل ومشاهد الأطفال، كلّ شدو العصفير. الجدول قد يكون لا لزوم له لأنّه قد يؤدّي إلى الاعتقاد في تكاثر الأمثلة الخاصّة حينئذ بالألحان، بالمواضيع، بالأنماط، بينما الأمر يتعلّق بالمضمون الأهمّ والألزم للموسيقى. يمكن أن تكون الفكرة الرئيسيّة للآزمة هي الضيق، الخوف، الفرح، الحبّ، العمل، المشي، الإقليم...، لكنّ الآزمة، أمّا هي، فهي مضمون الموسيقى. نحن لا نقول إطلاقا إنّ الآزمة هي أصل الموسيقى، أو أنّ الموسيقى تبدأ معها. لا نعرف جيّدا متى تبدأ الموسيقى. قد تكون الآزمة بالأحرى وسيلة لمنع الموسيقى، تحاشيها أو الاستغناء عنها. لكنّ الموسيقى توجد لأنّ الآزمة توجد أيضا، لأنّ الموسيقى تأخذ الآزمة وتستولي عليها بوصفها مضمونا في شكل تعبير، لأنّها تتوحد وإياها لتحملها إلى مكان آخر. لازمة الطفل التي ليست هي الموسيقى، تتوحد مع التّصْيُر - طفلا للموسيقى: توجّب مرّة أخرى وجود هذا التّأليف الّلا متناظر. «سأقول لك آه يا أمّي» عند موزار، لازمات موزار. لحن على الدّو متبوعا بإثني عشر تنويعا: ليس فقط كلّ نوتة من نوتات اللّحن مضاعفة، لكن اللّحن ذاته يتضاعف من الدّاخل. الموسيقى تُخضع الآزمة إلى هذه المعالجة الخاصّة جدّا للخطّين القُطْرِيّ أو العرضانيّ، تقتلعها من إقليميتها. الموسيقى هي العمليّة النّشطة والمبدعة والتي تتمثّل في لا أرضنة الآزمة. بينما الآزمة إقليميّة بالأساس، مؤرّضنة أو معيدة للأرضنة، الموسيقى تجعل منها مضمونا لا متأرضنا لصالح شكل تعبير لا مؤرّضين. ليسمحوا لنا بمثل هذه الجملة، قد يتوجّب أن تكون موسيقيّة، كتابتها موسيقيّا، ذلك هو ما يفعله الموسيقيّون. أقدم بالأحرى مثالا تصويريّّا: الهدهدة لموسرغسكي (Moussorgsky) في أناشيد ورقصات الموت، تُقدّم أمّا

مرهقة تسهر على ابنها المريض؛ تتناوب مع زائر هو الموت الذي يُنشد هدهدة كلّ مقطع فيها ينتهي بلازمة وقورة محزنة، إيقاع تكراريّ لنفس النّوّة، كتلة- نقطة، «اسكت أيّها الصّغير، نمّ يا صغيري» [٣٦٩] (يموت الطّفل، ليس ذلك وحسب، لكن لا تأرُضن اللاّزمة يضاعفه الموت عينه الذي يعوّض الأمّ).

هل للرّسم وضعيّة مماثلة، وبأيّ شكل؟ نحن لا نعتقد إطلاقاً في منظومة فنون جميلة، إنّما في مشكلات مختلفة جدّاً تجد حلولها في فنون متباينة. يبدو لنا الفنّ مفهومًا زائفاً، مفهومًا اسميّاً فقط؛ لكنّ ذلك لا يمنع إمكان استعمالٍ متزامن للفنون في كثرة قابلة للتّعيين. يتنزّل الرّسم في «مشكل» هو مشكل الوجه- المشهد. تنزّل الموسيقى في مشكل مغاير تماماً، هو مشكل اللاّزمة. كلّ واحد منهما يبرز في لحظة معيّنة وفي ظروف معيّنة، على خطّ مشكله؛ لكن لا تلاؤم رمزيّ أو بنيويّ بينهما، إلّا عندما نحولهما إلى منظومات نقطيّة. من جهة مشكل الوجه- المشهد، كنّا ميّزنا بين ما يشبه ثلاث حالات: (١) سيميائيّات جسديّة، ، خيالات، وِضعات، ألوان وخطوط (هذه السيميائيّات حاضرة بالفعل ومتكاثرة عند الحيوانات التي تكوّن فيها الرّأس جزءً من الجسم، مُضايِفُ الجسم هو الوسط، البيئة الحيويّة؛ نرى فيها بالفعل ظهور خطوط نقيّة جدّاً كما في مجاري «غريسة عشب»؛ (٢) تنظيم وجه، جدار أبيض- ثقب سوداء، سحنة- عيون، أو سحنة جانبيّة وعيون مائلة (هذه السيميائيّة التي هي سيميائيّة الوجهيّة مُضايِفُها هو تنظيم المشهد: وَجْهَةُ الجسد بتمامه ومَشْهَدَةُ كلّ الأوساط، نقطة مركزيّة أوروپيّة هي المسيح)؛ (٣) لا أَرْضُنة الوجوه والمشاهد لصالح رؤوس موجّهة، مع خطوط لم تعد تحدّد أيّ شكل، لم تعد تشكّل أيّة حافة، ألوانا لم تعد توزّع مشهدا (إنّها سيميائيّة الرّسم، جعل الوجه والمشهد يفلتان: مثال ذلك، ما يسمّيه ماندردان «مشهدا»، وله الحقّ في تسميته هكذا، مشهد محض من حيث هو لا مُتأرِضن حدّ المطلق). -

للتيسير، نعرض ثلاث حالات متميزة جدًا ومتتابعة، لكن بشكل مؤقت. لا نستطيع الحسم ما إذا لم تكن الحيوانات ترسم بالفعل، مع أنها لا ترسم على لوحات، وحتى عندما تُحدث هرمونات ألوانها وخطوطها: حتى هناك، تمييز حاسم بين الحيوان والإنسان قد يكون مشروعاً. عكسياً، علينا أن نقول إنَّ الرِّسم لا يبدأ مع الفنِّ المسمّى فناً تجريدياً، لكنّه يعيد خلق خيالاتٍ ووضعاتٍ الجسديّة، ويعمل كذلك بالفعل تماماً في تنظيم الوجه- المشهد (كيف «يعرك» الرّسامون وجه المسيح ويجعلونه يفرّ في كلّ الاتجاهات خارج التقنيين الدّينيّ). لم يكن الرّسم ليتوقّف أبداً عن أن يكون هدفه هو لا أرضنة الوجوه والمشاهد، إمّا بإعادة تنشيط [٣٧٠] الجسديّة وإمّا بتحرير خطوط أو ألوان، أو كليهما معاً. ثمّة الكثير من التّصيّرات- حيوانات، التّصيّرات- امرأة وطفلاً في الرّسم.

غير أنّ مشكل الموسيقى مختلف، إذا كان صحيحاً أنّه مشكل اللاّزمة. لا أرضنة اللاّزمة، ابتكار خطوط لا أرضنة للآزمة، يستتبع طرائق وبناءات لا علاقة لها بمشكلات الرّسم (إلا إذا كانت مماثلات باهتة، مثلما حاول الرّسامون ذلك أحياناً). لا ريب من أنّنا لسنا متأكّدين هنا مرّة أخرى أنّه بالإمكان تمرير حدّ بين الحيوان والإنسان: أليس ثمّة عصافير موسيقيّون مثلما يعتقد مسيّام على خلاف عصافير ليسوا موسيقيين؟ هل لازمة العصفور هي لازمة إقليميّة بالضرورة، أم أنّه يستعملها بالفعل في لا تأرؤنات دقيقة جدّاً، في خطوط إفلات انتقائيّة؟ الأكّد أنّ ليس الفرق بين الضّجيج والصّوت هو الذي يمكّن من تحديد الموسيقى، ولا هو حتّى الذي يميّز بين العصافير الموسيقيّين والعصافير غير الموسيقيّين، بل ذلك هو عمل اللاّزمة: هل تظّل اللاّزمة إقليميّة ومؤرؤنة، أم أنّها مأخوذة في كتلة متحرّكة ترسم خطّاً عرضانيّاً عبر كلّ الإحداثيّات- وعبر كلّ الوسائط بين الاثنين؟ الموسيقى هي بالتّحديد مغامرة لازمة: الكيفيّة التي تستحيل بها

الموسيقى لازمة (في رأسنا، في رأس سوان، في الرؤوس شبه الموجهة للتلفاز والراديو، ثمّة موسيقى عظيم إيحائي، أو ثمّة الترنيمه)؛ الكيفية التي تستحوذ بها الموسيقى على اللازمة، تجعلها بسيطة بشكل متزايد، بعض النوتات، لتحملها على خطّ إبداعيّ فضلا عن كونه ثريّ، خطّا لا نرى له أصلا ولا منتهى...

كان لوروا غورون أقام تمييزا وتضائفا بين قطبين، «يد- أداة»، «وجه- لغة». لكنّ الأمر كان يتعلّق بالتمييز بين شكل مضمون وشكل تعبير. الآن ونحن ننظر في تعابير لها مضمونها في ذاتها، لدينا تمييز آخر: الوجه مع مضايقاته البصريّة (الأعين) يحيل على الرّسم، الصّوت مع مضايقاته السّمعية يحيل على الموسيقى (الأذن ذاتها لازمة، ولها شكل اللازمة). الموسيقى هي أوّلا لا أرضنة الصّوت، الذي يتناقص بالتدرّج كيانه لغة، تماما مثل الرّسم الذي هو لا أرضنة الوجه. لكنّ سمات لفظيّة يمكن تثبيتها على سمات وجهيّة، كما عند قراءتنا كلاما على وجه، مع ذلك ليس لتلك السمات ما يناظرها، ويتناقص بالتدرّج هذا التّناظر بقدر ما تحملها الحركات الخاصّة بالموسيقى وبالرّسم. الصّوت متقدّم كثيرا على الوجه، متقدّم جدّا. عنونة أثر موسيقى بالوجه يبدو بهذا الخصوص أعلى [٣٧١] مفارقة صوتيّة^(١). مذكّك، الطّريقة الوحيدة لـ«حلّ» المشكلين، مشكلي الرّسم والموسيقى، هي اتّخاذ

(١) مع أنّ باريو يقدّم إشارات أخرى، فإنّه يبدو لنا أنّ أثره وجه مؤلّف وفق الحالات الثلاث للوجهيّة: أوّلا كثرة من الأجساد والخيالات الصّائنة، ثمّ زمن وجيز للتنظيم المسيطر والسّمفوني للوجه، أخيرا إطلاق رؤوس موجهة في كلّ الاتجاهات. مع ذلك لا يتعلّق الأمر إطلاقا بموسيقى «قد تحاكي» الوجه واتّساعاته، ولا بصوت قد يتشكّل مجازا. لكنّ الأصوات تسرّع لا أرضنة الوجه، مانحة إيّاه قدرة سمعيّة بالتحديد، بينما يستجيب الوجه موسيقيا مسرّعا بدوره لا أرضنة الصّوت. إنّ وجه هبائيّ ولدته موسيقى إلكترونيّة. الصّوت يسبق الوجه، يشكّله هو ذاته لوهلة، ويستمرّ بعده متّخذا المزيد من السرعة، شريطة أن يصير، غير منطوق، غير دالّ، غير ذاتيّ.

مقياس من خارج وهم منظومة للفنون الجميلة، هي المقارنة بين قوتَي اللّا أرضنة في الحاليتين. لكن يبدو أنّ للموسيقى قوّة لا مؤرضنة أكبر بكثير، شديدة وجماعيّة في نفس الوقت أكثر بكثير، وللصّوت كذلك قدرة أكبر على ألا يتأرضن. لعلّ هذه السّمة هي التي تفسّر الافتتان الجماعيّ الذي تمارسه الموسيقى، وحتى إمكان الخطر «الفاشي» الذي كنّا تحدّثنا عنه منذ قليل: الموسيقى بالطّبول والأبواق تفضي بالشعوب والجيوش إلى سباق يمكن أن يوصل إلى الهاوية، أكثر بكثير ممّا تفعله الرّايات والأعلام التي هي لوحات، وسائل تصنيف أو تحشيد. فرديّا، يمكن أن يكون الموسيقيّون أكثر رجعيّة من الرّسامين، أكثر تدنيّا، أقلّ «اجتماعيّة»؛ إلّا أنّهم يحركون قوّة جماعيّة أعلى من قوّة الرّسم بما لا يقاس: «إنّها رابطة وثيقة جدّا هي الجوقة التي شكّلها مجلس الشّعب...» يمكن أن نفسّر دائما هذه القوّة بالظّروف الماديّة للإرسال وللتلقّي الموسيقيّين، لكن العكس أفضل، إنّها بالأحرى هذه الظّروف هي التي تفسّر بقوّة لا أرضنة الموسيقى. قد نقول إنّ الرّسم والموسيقى لا يتوافقان مع نفس العتبات من زاوية مكنة مجرّدة متحوّلة، أو أنّ مكنة الرّسم والمكنة الموسيقيّة ليس لهما نفس المؤشّر. ثمة «تأخّر» للرّسم على الموسيقى، مثلما كان لاحظ ذلك كُلي، أكثر الرّسامين موسيقيّة^(١). لعلّه لهذا السّبب يختار الكثير من النّاس الرّسم، أو أنّ الأسطيقا اتّخذت من الرّسم نموذجا مفضّلا: [٣٧٢] من المؤكّد أنّ الرّسم أقلّ «إرعابا». حتّى علاقاته بالرّأسماليّة وبالتّشكيلات الاجتماعيّة ليست من نفس النّمط على الإطلاق.

لا ريب أنّه علينا في كلّ الحالات أن نشغل عوامل إقليمية، عوامل

(١) غروهمان، بول كُلي، منشورات فلاماريون: «نصف مقتنع، نصف مستمع، كان يعتبر نفسه سعيدا فيما كان يقول لكونه أوصل [الرّسم] تقريبا، على الأقلّ من جهة العلاقة بالشّكل، إلى المستوى الذي ترك فيه موزار الموسيقى قبل موته» (صص ٦٦ - ٦٧).

لا أرضنة، لكن كذلك عوال إعادة أرضنة. تبدو لازمات الحيوان والطفل لازمات إقليمية: وهي كذلك ليست لازمات «موسيقى». لكن متى تستحوذ الموسيقى على اللازمة للا أرضنتها هي والصوت، متى تستحوذ على اللازمة لتجعلها تتسلل داخل كتلة صائتة إيقاعية، متى «تصير» اللازمة شومان أو ديبسي، يكون ذلك من خلال منظومة إحداثيات تناغمية ونغمية حيث تعيد الموسيقى أرضنة ذاتها في ذاتها من حيث هي موسيقى. عكسياً، سنرى أن اللازمة الحيوانية، حتى هي كان لها بالفعل في بعض الحالات، قوى لا تأرطن أشد بكثير من الخيالات، الأوضاع والألوان الحيوانية. يجب إذاً أن نأخذ بعين الاعتبار الكثير من العوامل: الإقليمية النسبية، اللا أرضنات الخاصة بكل واحدة منها، لكن كذلك إعادات الأرضنة المتضايقة معها، وكذلك الكثير من صنوف إعادات الأرضنة، الداخلية مثلاً مثل الإحداثيات الموسيقية، أو البرانية مثل تهاوي اللازمة إلى تكرار ممجوج، أو تهاوي الموسيقى إلى دندنات. ألا تكون ثمة لا أرضنة دون إعادة أرضنة خاصة فذلك ما يوجب علينا التفكير بطريقة مغايرة في التّضايقات الذي يظل قائماً دوماً بين الكتلوي والهباتي: لا دفع ولا تصير-هبائي إلا وهما يفلتان من تشكيل كتلوي من دون أن تصحبهما مكوّنات كتلوية، مكوّنة ممّرات أو معالم قابلة للإدراك بالنسبة إلى السيّورات التي تدقّ عن الإدراك.

تصير الموسيقى - امرأة، تصيرها - طفلاً يظهران في مشكل تشكيل الصوت. تشكيل الصوت هو العملية الموسيقية الأولى. نعرف كيف وقع حلّ المشكل في الموسيقى الغربية، في أنغلترا وإيطاليا، بطريقتين مختلفتين: من ناحية صوت الطبقة العالية للمصّاح الذي يغني «في ما أبعد من صوته»، أو الذي يعمل صوته في تجويف الجيوب الأنفية، في البلعوم واللّهاة، دون الاعتماد على الغشاء الفاصل بين الصدر والبطن ودون اجتياز القصبات الهوائية؛ من ناحية أخرى، صوت البطن

للخصيان، صوتا «أقوى، أضخم، أكثر ليونة»، وكأنهم كانوا منحوا مادة لحمية لما يدقّ عن الإدراك، لغير المحسوس، للهوائي. كتب دومينيك فرنانداز بهذا الخصوص كتابا جميلا، حيث يتجنّب لحسن الحظّ كلّ اعتبار تحليليّ نفسيّ حول رابطة بين الموسيقى والخصاء، يبيّن أنّ المشكل الموسيقيّ لتشكيل الصّوت كان استتبع بالضرورة إلغاء الممكنة الضّخمة [٣٧٣] الثنائية، أي التّكوين الكتليّ الذي يوزّع الأصوات بين «رجل أو امرأة»^(١). أن يكون المرء رجلا أو امرأة فذلك لم يعد موجودا في الموسيقى. غير أنّه ليس من المؤكّد أنّ ميثة الخنثى التي يذكرها فرنانداز تكون كافية. الأمر لا يتعلّق بميثة إنّما بالتّصيير واقعا. يجب أن يبلغ الصّوت ذاته تصيّرا - امرأة أو تصيّرا - طفلا. وذلك هو المضمون المذهل للموسيقى. مذكّك، ومثلما يلاحظ فرنانداز، لا يتعلّق الأمر بمحاكاة المرأة أو بمحاكاة الطّفل، حتّى ولو كان طفلا يغني. الصّوت الموسيقيّ يصير هو ذاته طفلا، لكن في نفس الوقت يصير الطّفل صائتا، صائتا محضا. ولا طفل على الإطلاق قد يمكنه القيام بذلك، وإن قام به، فبتحوّله كذلك إلى شيء آخر غير الطّفل، طفلا من عالم آخر سماويّ وشهوانيّ بشكل عجيب. باختصار، اللاّ تارّضن مضاعف: لا يتأرضن الصّوت في تصيّر - طفل، لكنّ الطّفل الذي يتصيّره الصّوت هو ذاته لا متأرضن، لم يقع استيلاده، صائر. يقول شومان «نمت للطّفل أجنحة». نعر على نفس حركة التّعرجات في التّصيّرات - حيوانات للموسيقى: يبيّن مارسال موراى كيف أنّ موسيقى

(١) دومينيك فرنانداز، زهرة التيدوربين، منشورات جوليار (ورواية الأرجوان أو خافيات نابولي، منشورات غراسي. يذكر فرنانداز موسيقى البوب بوصفها عودة محتشمة إلى الموسيقى الصّوتية الأنغليزية الكبرى. قد يتوجّب النظر بالفعل في تقنيات التّنفس الدائريّ، حيث يتمّ الغناء شهيقا وزفيرا، أو تقنيات تصفية الصّوت تبعا لمناطق الإصداء (الأنف، الجبين، الوجنتان - استعمال موسيقى اللوجه بشكل خاص).

موزار يخترقها تصوّر - حصان، أو تصوّرات - عصفور. لكن ولا موسيقيّ يجرؤ على أن «يكون» الحصان أو العصفور. مضمون الكتلة الصّائفة ليس تصوّراً - حيوانا دون أن يتصوّر الحيوان في الإصانة شيئاً ما آخر في نفس الوقت، شيئاً ما مطلقاً، الليل، الموت، الفرح - الآكد أنّه لا يصير عموميّة ولا بساطة، بل هذيّة، الموت الذي هو هذا، الليل هنا. تتخذ الموسيقى من التّصوّر - حيوانا مضمونا لها؛ لكنّ الحصان على سبيل المثال يتخذ كتعبير في الموسيقى نقرات الطّبل الصّغيرة المجنّحة وكأنّها حوافر آتية من السّماء أو من الجحيم؛ وتتخذ العصافير كتعبير لها مجموعات صغيرة، نغمات زخرفيّة، نوتات قصيرة تجعل منها الكثير من الأنفس^(١). ما يشكّل الخطّ القُطريّ عند موزار هي النّبرات، النّبرات أوّلاً. ما لم نتابع النّبرات، ما لم نراقبها، نسقط مجدّداً في منظومة نقطيّة فقيرة نسبياً. لا يتأرضن الإنسان الموسيقيّ في العصفور، لكنّه عصفور هو ذاته لا مُتأرضن، «متغيّر»، عصفورا سماويّاً لا يتصوّر أقلّ ممّا يتصوّر معه. الرّبّان آشاب انخرط في تصوّر - حوت لا يُقاوم مع موبي ديك؛ لكن يجب في نفس الوقت أن [٣٧٤] يصير الحيوان موبي ديك، بياضا محضا لا يُطاق، سورا أبيض ناصعا محضا، خيطا فضيّاً محضا يمتدّ ويتلين «مثل» صبيّة، أو يتلوّى مثل سوّط أو ينتصب مثل سور. أيمن للأدب أن يدرك الرّسم وحتّى الموسيقى أحيانا؟ وللرّسم أن يدرك الموسيقى؟ (موراي يذكر عصافير كُلّي، وبالمقابل هو لا يفهم ماسّيام في شدو العصافير.) ولا فنّ يكون محاكياتيّ، لا يمكنه أن يكون محاكياتيّ أو تصويريّاً: لنفترض رسّاما «يصوّر» عصفورا؛ في الحقيقة هو تصوّر - عصفور لا يمكن أن يتمّ إلّا إذا كان العصفور ذاته بصدد التّصوّر شيئاً آخر، خطّاً محضا ولونا محضا. بحيث أنّ المحاكاة تتحطّم من تلقاء ذاتها، شريطة دخول من يحاكي دون أن يعلم في تصوّر، يتزاوج

(١) مارسال موراي، الإله موزار وعالم العصافير، غاليمار.

دون أن يعلم مع تصوّر ما يحاكيه. لا نحاكي إذاً إلّا إذا أخفقنا، عندما نخفق. ليس الرّسام أو الموسيقيّ هما اللّذان يحاكيان حيوانا، إنّهما هما يتصيّران- حيوانا، في نفس الوقت الذي يصير فيه الحيوان ما كانا يوّدان أن يصير، في أعماق انسجام لهما مع الطّبيعة^(١). أن يشتغل التّصيّر دائما بإثنين، أن يتصيّر ما نتصيّره بقدر الذي يتصيّر، ذلك هو ما يشكّل كتلة متحرّكة أساسيّاً وغير متوازنة أبداً. المربّع الكامل هو مربّع موندرين، الذي يترجّح على طرف مستدقّ ويولّد خطّاً قُطريّاً يوارب إغلاقه ويسحب الضّلعين معا.

التّصيّر ليس محاكاة على الإطلاق. عندما يلعب هيتشكوك دور العصفور فإنّه لا يحاكي أيّة صرخة عصفور، إنّهُ يُحدث صوتا إلكترونيّاً بوصفه حقل شدّد أو موجة ارتعاشات، تنويعا متواصلا كأنّه تهديد مرعب نستشعره في ذواتنا^(٢). وليست «الفنون» وحدها: صفحات مويي ديك أيضا تستمدّ قيمتها من المعيش المحض للتّصيّر المضاعف، وقد لا تكون لها هذه الجمالية بكيفيّة مغايرة. التّرانتيلا [رقصة شعبيّة إيطاليّة] هي الرّقصة العجيبة للضحايا المفترّضين لِلسّعة العنكبوت السّام: لكن عندما تؤدّي الضّحيّة رقصتها، هل بإمكاننا القول إنّها تحاكي العنكبوت، إنّها تتطابق وإيّاه، حتى في تطابق صراع «قتاليّ»، «نموذجيّ أصلايّ»؟ لا، بما أنّ الضّحيّة، السّقيم، المريض، لا يصير عنكبوتا راقصا إلّا إذا كان من المفترض في العنكبوت من ناحيته أن يصير خيالا محضا، لونا محضا وصوتا محضا، [٣٧٥] يرقص الآخر

(١) رأينا أنّ المحاكاة كان يمكن إدراكها بوصفها مشابهة بين حدود تنتهي إلى نموذج أصلايّ (سلسلة)، أو بوصفها تلاؤم علاقات تشكّل نظاما رمزيّاً (بنية)؛ لكنّ التّصيّر يتأبى على الاختزال لا في تلك ولا في هذه. مفهوم المحاكاة ليس غير كاف وحسب، بل هو خاطئ أصلا.

(٢) فرانسوا تريفو، السّينما في نظر هيتشكوك، منشورات سيغار، صص ٣٣٢-٣٣٣ («أبحث لنفسي درامياً إلّا أجعل العصافير تصرخ أبداً...»).

على إيقاعها^(١). لا نحاكي؛ نكون كتلة تصير، لا تتدخل المحاكاة إلا من أجل إحكام هذه الكتلة، كما في آخر اهتمام بالكمال، طرفة عين، توقيعاً. لكنّ المهمّ كلّ حدث في مكان آخر: تصير الرقص-عنكبوتا، شريطة تصير العنكبوت ذاته صوتاً ولوناً، جوقة ورسماً. لتكن حالة بطل محليّ فولكلوريّ، ألكسيس المهرول الذي كان يجري «مثل» حصان، بسرعة فائقة، كان يجلد ذاته بخيزرانة صغيرة، كان يصهل، كان يرفع قدميه، كان يركل، كان يتقوس، كان يرتخي على طريقة الجياد، يتنافس معها في سباقات، بدراجات أو بقطارات. كان يحاكي الحصان للإضحاك. لكن كانت له منطقة تجاور أو عدم تمايز أعمق. تخبرنا معلومات أنّه لم يكن أقرب إلى الحصان إلا عندما كان يعزف على الهارمونيكا: تحديداً لأنّه لم يعد حتى في حاجة إلى محاكاة ثانوية أو منظّمة. يقال إنّ كان يسمّي الهارمونيكا «شفاهه المدمّرة» وكان يتخطّى الجميع بهذه الآلة، كان يتخطّى زمن التّوليف، كان يفرض إيقاعاً غير إنسانيّ^(٢). كان ألكسيس صار حصاناً أكثر بكثير بقدر ما كان اللّجام صار هارمونيكا وصار حَبَب الحصان إيقاعاً مضاعفاً. ودائماً يجب قول ذلك بالفعل عن الحيوانات ذاتها. ذلك أنّ الحيوانات ليس لها ألوان وأصوات فقط، لكنّها لا تنتظر الرّسام أو الموسيقيّ ليُجعل منها رسماً، موسيقي، أي لتدخل في تصيّرات-

(١) راجع، ارناستو دو مارتينو، أرض التّدم، غاليمار، ص ١٤٢ - ١٧٠. غير أنّ مارتينو يحافظ على تأويل قائم على النّموذج الأصليّ، على المحاكاة والتّطابق.

(٢) راجع، جون-كلود لاروش، ألكسيس المهرول، منشورات التّهار، مونريال، شهادة منقولة: «كان يعزف موسيقى الفم وكأنّه ليس واحداً منّا؛ كانت له هارمونيكا ضخمة جدّاً، لم تكن حتى قادرين على العزف بها. (...) عندما كان يعزف معنا، كان يقرّر فجأة أن يتجاوزنا. أي كان يتجاوز زمن التّوليف؛ بينما كنّا نعزف لحنا كان يعزف اثنين، وهو ما كان يتطلّب نفساً استثنائيّاً» (ص ٩٥).

ألوانا وفي تصوّرات- أصواتا محدّدة (سنرى ذلك في موضع آخر) بمكوّنات لا تأرُضُن. عِلْمُ السّلوك الحيوانيّ متقدّم كفاية للتطرّق إلى هذا المجال.

نحن لا نناضل إطلاقا من أجل أسطيقا للكيفيّات، وكأنّ الكيفيّة المحض (اللّون، الصّوت، إلخ.) كانت تتضمّن سرّ تصوّر لا حدّ له، على طريقة الفيلاب. الكيفيّات المحض ما تزال تبدو لنا منظومات نقطيّة: إنّها استذكارات، إمّا أنّها ذكريات طلقة أو متعالية وإمّا أنّها بذور استيهام. على التّقيض من ذلك، لا يرى تصوّر وظيفيّ في كيفيّة ما غير الوظيفة التي تؤدّيها في تنضيد محدّد أو في المرور من تنضيد إلى آخر. الكيفية هي التي يجب التّفكير بها في التّصوّر الذي يستحوذ عليها، [٣٧٦] وليس التّفكير بالتّصوّر في كيفيات جوهريّة قد تكون لها قيمة نماذج أصلانيّة أو ذكريات تطوّريّة. على سبيل المثال، البياض، اللّون، يقع إدراكه في تصوّر- حيوان، يمكن أن يكون تصوّر الرّسام أو الرّبّان أشاب، كما في تصوّر- لون، تصوّر- بياض في نفس الوقت، يمكن أن يكون هو تصوّر الحيوان ذاته. بياض موبى ديك هو المؤشّر الخاصّ على تصوّره- وحيدا. الألوان، الخيالات واللّازمات الحيوانيّة هي مؤشّرات تصوّر- زواجيّ أو تصوّر- اجتماعيّ تستتبع كذلك مكوّنات لا تأرُضُن. لا تعمل كيفيّة ما إلّا بوصفها خطّ لا أرضنة تنضيد، أو ذهاب من تنضيد إلى آخر. إنّ بهذا المعنى تكون كتلة حيوانيّة شيئا مغايرا لذكرى تطوّريّة، وتكون كتلة طفولة شيئا مغايرا لذكرى طفولة. عند كافكا لا تعمل كيفيّة ما لذاتها أو بوصفها ذكرى، لكنّها تعدّل تنضيدا لا تتأرُضُن فيه، وعكسيّا، تمنحه خطّ لا تأرُضُن: هكذا ينتقل بُرج الكنيسة الذي كان عند الطّفولة إلى برج القصر، يمسك به في مستوى منطقة لا تمايزه («الأسوار المريبة») ليقذف به على خطّ إفلات (كما لو أنّ قاطنا «كان ثقب» السّقف). إذا كان الأمر أكثر تعقيدا وأقلّ بساطة عند بروسست، فلأنّ الكيفيّات تحافظ عنده على هيئة استذكار أو

استيهام؛ ومع ذلك، عنده هو أيضا، كتل وظيفية عاملة، ليس بوصفها ذكريات واستيهامات، إنما بوصفها تصيُّرات - طفلا، تصيُّرا - امرأة، بوصفها مكوّنات لا تأرُضُن، تنتقل من تنزيد إلى آخر.

مبرهّنات اللّا تأرُضُن البسيط التي كُنّا التقيناها (بمناسبة الوجه)، يمكننا أن نضيف إليها الآن مبرهّنات أخرى تتعلّق باللا تأرُضُن المضاعف المعّم. المبرهنة الخامسة: اللّا تأرُضُن مضاعف دوما لأنّه يستتبع وجودا مشتركا لمتغيّر رئيسيّ ومتغيّر ثانويّ يتصيّران في نفس الوقت (في تصيُّر ما، لا تبادل ولا تطابق بين الحدين، لكنهما يُسحبان داخل كتلة لا متناظرة، حيث لا يتغيّر أحدهما ناهيك عن الآخر). - المبرهنة السادسة: يمكن اللّا تأرُضُن المضاعف اللا متناظر من تعيين قوّة لا مؤرُضِنة وقوّة مؤرُضِنة، حتّى وإن كانت نفس القوّة تمرّ من قيمة إلى أخرى وفق «اللحظة» أو الجانب المعنيّ؛ أكثر من ذلك، الأقلّ لا تأرُضُنا يسرّع دائما لا تأرُضُن الأكثر لا تأرُضُنا، ممّا يزيد في تأثير هذا الأخير عليه. المبرهنة السابعة: يقوم اللا مؤرُضُن بالدور النسبيّ للتعبير ويقوم المؤرُضُن بالدور النسبيّ للمضمون (مثلما نرى ذلك بوضوح في الفنون)؛ لكن، ليس المضمون لا علاقة له بموضوع أو بذات خارجيّين وحسب، بما أنّه يشكّل [٣٧٧] كتلة لا متناظرة مع التعبير، لكنّ اللّا تأرُضُن يسوق التعبير والمضمون إلى مثل هذا التّجاور بحيث يكفّ التّمييز بينهما عن أن يكون ملائما، أو أنّ اللّا تأرُضُن يخلق عدم تمايزهما (مثال ذلك: الخطّ القطريّ الصّائت بوصفه شكل تعبير موسيقيّ، والتّصيّرات - امرأة، طفلا، حيوانا بوصفها مضامين موسيقية بخاصّة، بوصفها لازمات). - المبرهنة الثامنة: ليس لتنزيد معيّن نفس قوى أو نفس سرعات لا تأرُضُن تنزيد آخر؛ يجب أن نحسب في كلّ مرّة المؤشّرات والمعاملات تبعا لكتل التّصيّر المعنيّة ولتحوّلات مكنة معرّدة (على سبيل المثال، تباطؤ معيّن، لزوجة معيّنة للرّسم بالنسبة إلى الموسيقى؛ لكن أكثر من ذلك، لن نقدر على رسم حدّ رمزيّ فاصل بين

الإنسان والحيوان، لن نقدر على حسابان اقتدارات لا تَأْرُضُنْ وعلى المقارنة بينها).

ها هو فرنانداز قد بيّن حضور التّصيّرات- امرأة، التّصيّرات طفلاً، في الموسيقى الصّوتية. ثمّ يحتجّ ضدّ تصاعد الموسيقى الآلاتية والأوركسترالية؛ يؤاخذ بشكل خاصّ فاردي وفاغر على كونهما جنسنا الأصوات، على كونهما استعادا المكنة الثنائية بامثالهما لمطالب الرّأسمالية، التي تريد أن يكون الرّجل رجلاً والمرأة امرأة، وأن يكون لكلّ منهما صوته: الأصوات- فاردي والأصوات- فاغر أعيدت أرّضنتها على رجل وامرأة. يفسّر فرنانداز الاختفاء المبكر لروسيّني وبلليّني، تقاعّد أحدهما وموت الآخر، بالشّعور اليائس بأنّ التّصيّرات الصّوتية في الأوبرا لم تعد ممكنة. غير أنّ فرنانداز لا يحدّد شرط عودة تلك التّصيّرات الصّوتية ولا النّوعيات الجديدة للخطّ القطريّ. صحيح أولاً أنّ الصّوت يتوقّف عن التّشكّل لذاته مع مجرّد مرافقة آلاتية: يتوقّف عن كونه طبقةً أو خطّ تعبير له قيمته في ذاته. لكن لأيّ سبب؟ لقد اجتازت الموسيقى عتبة لا تَأْرُضُنْ جديدة، حيث الآلة هي التي تشكّل الصّوت، حيث الصّوت والآلة يُحملان على نفس المسطح، تارة في علاقة مواجهة، تارة في علاقة استبدال، تارة في علاقة تبادل وتكامل. لعلّه في النّشيد، وخاصة في نشيد شومان، تظهر لأوّل مرّة هذه الحركة المحض التي تضع الصّوت والبيانو على نفس مسطح القوام، وتجعل من البيانو آلة هذيان، في اتّجاه يمهد للأوبرا الفاغرية. حتى حالة مثل حالة فاردي: قيل عادة إنّ أوبراه تظلّ غنائية وصوتية، بالرّغم من تحطيمه للغناء الجميل، وبالرّغم من أهميّة التّجويق في أعماله الأخيرة؛ يبقى أنّ الأصوات وقع تجويقها، وتستفيد بشكل كبير من مجال الصّوت أو من امتداده (إنتاج الصوت الجهير- فاردي، الصوت الصّادح- فاردي). لا يتعلّق الأمر مع ذلك بمثل هذا الموسيقىقار، وخاصة [٣٧٨] بفاردي، ولا بهذا النّوع أو

ذاك، إنّما بالحركة الأعمّ التي تؤثر على الموسيقى، بالتحوّل البطيء للمكنة الموسيقية. إذا استعاد الصّوت توزيعاً ثنائياً للجنسين، فذلك في علاقة بالتّجميع الثنائيّ للآلات في التّجويق. ثمّة دائماً في الموسيقى منظومات كتلويّة بوصفها إحداثيات؛ لكن عندما نجد في مستوى الصّوت المنظومة الثنائية للجنسين، فإنّ هذا التوزيع النّقْطِيّ والكتلويّ هو شرط لاندفاعات هبائية ستقاطع، ستتزوج، ستدخل في آلايّة وفي تجويق يسعيان إلى أن يكونا جزءاً من الإبداع ذاته. يمكن للأصوات أن تعيد أرضنة ذاتها على توزيع الجنسين، لكنّ الاندفاع الصّائت والمتواصل سيمرّ أكثر فأكثر بين الاثنين مروّره في فرق اقتدار.

وهنا النّقْطة الثانية التي قد يتوجّب تحديدها: إذا لم يعد المشكل الأساسيّ مع هذه العتبة الجديدة لئلا تارّضن الصّوت هو مشكل تصوير- امرأة أو تصوير- طفلاً تصويراً صوتياً بشكل خاصّ، فلاّنه الآن مشكل تصوير- هبائيّ، حيث يجد الصّوت ذاته مجوّقاً. الآكد أنّ التّصيّرات- امرأة وطفلاً تحافظ على كامل أهمّيّتها، ستذهب حتى إلى اكتشاف أهميّة جديدة لها، لكن من حيث أنها تُفرز حقيقة أخرى: الذي كان تولّد، كان بالفعل طفلاً هبائياً، امرأة هبائية... يكفي أن نفكّر بدوبيسي (Debussy): التّصيّر- طفلاً، التّصيّر- امرأة هما تصويران مشتدان، لكنّهما لم يعودا قابلين للانفصال عن هبينة الفكرة الرئيسيّة، إنّها «كيمياء» حقيقة تتمّ مع التّجويق. الطّفل والمرأة لم يعودا منفصلين عن البحر، عن هبابة الماء (عرائس البحر تجسّد بالتّحديد واحدة من أولى المحاولات التّامة لإدماج الصّوت في الجوّقة). كان الحديث بالفعل يتعلّق بفاغنر لإلقاء اللّوم عليه بخصوص الخاصيّة «العنصريّة» لهذه الموسيقى، لمائيّتها، أو كذلك لـ«تذير» فكرتها الرّئيسيّة، «تقسيم إلى وحدات متناهية الصّغر». نرى ذلك بشكل أفضل عندما نفكّر بالتّصيّر- حيواناً: حافظت العصفير على كامل أهمّيّتها، ومع ذلك كأنّ عصر

الحشرات حلّ محلّ مملكة العصفير، مع اهتزازات، صرير، أزيز، طنين، صفق، كشط، احتكاك أكثر هبائية بكثير. العصفير صوتية أما الحشرات فآلاتية، طبول وكمنجات، غيتارات وصُنوج^(١). تصيّر- حشرة عوّض التصيّر- عصفورا، أو [٣٧٩] هو يتحد وإياه. الحشرة أقرب إلى التعبير عن هذه الحقيقة المتمثلة في كون كل التصييرات هي تصييرات هبائية (انظر، تموجات مارتنو، الموسيقى الإلكترونية). ذلك أنّ للهبائي القدرة على الوصل بين الابتدائي والكوني: تحديدا لأنّه يقوم بإذابة الشكل الذي يصل بين الأطوال والأعراض الأشدّ اختلافا، بين السرعات والتباطؤات الأشدّ تنوعا، والذي يكفل اطرادا بجعله التنوّع يمتدّ إلى ما أبعد من الحدود الصوريّة. إعادة اكتشاف موزار، وكون «اللحن» كان بالفعل هو التنوّع. يوضّح فاراز (Varèse) أنّ الهبأة الصائتة (الكتلة) تنفرّع إلى عناصر منتظمة بأشكال مختلفة وفق علاقات السرعة المتغيرة، لكن كذلك بوصفها الكثير من تموجات أو

(١) أندريه تاتري (André Tétry)، الأدوات عند الكائنات الحيّة، غاليمار، فصل حول «الآلات الموسيقية»، مع بيبليوغرافيا: يمكن أن يكون الصوت ناتجا عن حركة الحيوان أو عمله، لكن سنتحدّث عن آلات موسيقية كلّما كان للحيوانات أجهزة وظيفتها الوحيدة هي توليد أصوات متنوّعة (الخاصيّة الموسيقية، مع أنّها قابلة للتّحديد فإنّها شديدة التّغير، وهي كذلك للجهاز الصوتي للعصفير؛ ثمة عند الحشرات مهارات حقيقة). نميّز من زاوية النّظر هذه: (١) أجهزة صرير، من نوع الآلات الوترية، احتكاك سطح صلب بسطح آخر (حشرات، قشريّات، عناكب، عقارب، ذات السّويّقات)؛ أجهزة النّقر، من نوع الطّبل، الصّنج، الآلة الخشبيّة، عمل مباشر للعضلات على غشاء نابض (صراصير وبعض الأسماك). ليس تنوّع الأجهزة والأصوات هو تنوّع لا نهائيّ وحسب، لكنّ نفس الحيوان يغيّر إيقاعه، طنينه، شدّته، تبعا للظّروف أو لاقضاءات ما تزال غامضة. «إنّها إذا أغنية غضب، ضيق، خوف، انتصار، حبّ. تحت دافع إثارة قويّة، يتغيّر إيقاع الصّرير: عند خنفساء الأوراق، يمرّ تواتر الاحتكاكات من ٢٢٨ خبطة إلى ٥٥٠ خبطة وأكثر في الثانية.»

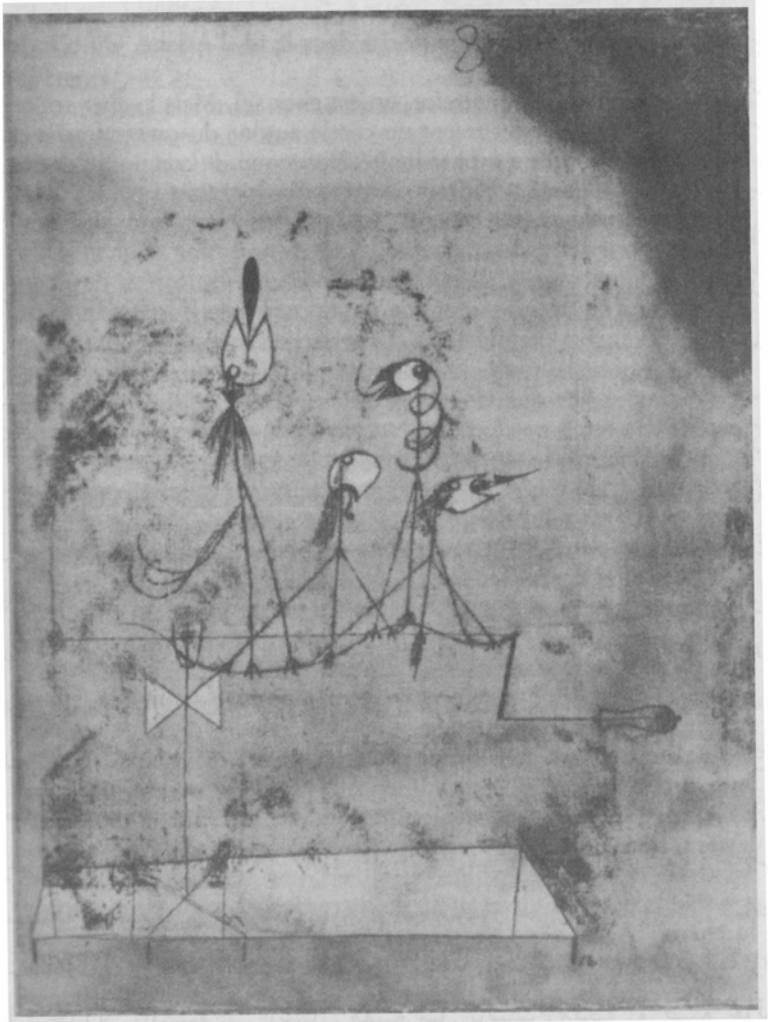
اندفاعات طاقة صوتية تنتشر في الكون، خطّ إفلات تائه. هكذا عمّر فاراز صحراء غوبي (Gobi) بالحشرات والنجوم التي كانت تشكّل تصوّر العالم- موسيقى، خطّا قُطريًا لعالم. يُحضر ماسيان (Messiaen) مُددا لونية متعددة متلاحمة، «بالتناوب بين أطول المُدد وأقصرها، حتى يوحي بفكرة العلاقات بين الأزمنة الأطول لا نهائيًا التي هي أزمنة النجوم والجبال، والأزمنة الأقصر لا نهائيًا التي هي أزمنة الحشرات والذرات: قدرة ابتدائية، كونية (...). متأتية قبل كلّ شيء من العمل الإيقاعي^(١)». ما يجعل موسيقيًا يكتشف العصافير هو الذي يجعله يكتشف الابتدائيّ والكونيّ. الواحد والآخر يشكّلان كتلة، ليف كوّن وخطّ قُطريّ أو فضاء معقّد. ترسل الموسيقى اندفاعات هبائية. الآكد، مثلما يقول ماسيان إنّ الموسيقى ليست امتيازًا للإنسان: الكون، العالم مصنوع من لازمات، مسألة الموسيقى هي مسألة قدرة اللاتأرُضن التي تخترق الطبيعة، الحيوانات، العناصر والصحارى ناهيك عن الإنسان. يتعلّق الأمر بالأحرى بما ليس موسيقيًا عند الإنسان وبما هو موسيقيّ بالفعل في الطبيعة. أكثر من ذلك، ما [٣٨٠] كان اكتشافه علماء السلوك الحيوانيّ جهة الحيوان، كان ماسيان اكتشافه جهة الموسيقى: لا امتياز البتّة للإنسان، ما عدا في وسائل التقنين التّضافريّ، في صنع منظومات نقطيّة. بل إنّ ذلك هو ضديد الامتياز؛ من خلال التّصيّرات- امرأة، طفلًا، حيوانًا أو هبأة، تُعارض الطبيعة بقدرتها وبقدرة الموسيقى، قدرة مكنات الإنسان، ضجيج المصانع وقاذفات القنابل. ويجب الذّهاب إلى هذا الحدّ، وهو أن الصّوت غير الموسيقيّ للإنسان يتوحّد مع تصوّر الصّوت- موسيقى، سواء تواجها أو تحاضنا، مثل مصارعين لم يعد بإمكانهما الانفصال وهما يتدحرجان على خطّ منحدر: «لِيُمثّل

(١) جيزال برولاي (Gisèle Brelet)، في تاريخ الموسيقى، الجزء الثاني، بلاياد، «الموسيقى المعاصرة في فرنسا»، ص ١١٦٦.

الخورس النّاجين (...). نصغي إلى حفيف الصّراصير الخافت. ثمّ إلى تسجيّعات قبرة، ثمّ تغريد العصفور المحاكي. أحد يضحك، امرأة تنفجر بالبكاء. رَجُل يطلق صيحة قوية: «لقد هلكنا!» صوت امرأة: «لقد نجونا!» تنطلق صرخات من كلّ مكان: «هلكنا! نجونا! هلكنا! نجونا^(١)!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) نصّ هنري ميّلاّر لفاراز، الكابوس المكثّف، غاليمار، صص ١٨٩-١٩٩.



مكنة تغريد

I. [٣٨٢]. طفل في الظلمة تملكه الخوف، يهدئ نفسه بالترنم. يمشي، يتوقّف وفق ما تقتضيه أغنيته. تائها، يأوي إلى حيث اتفق، أو يحدّد وجهته ما وسعه ذلك وفق أغنيته القصيرة. هذه الأخيرة هي بمثابة رسم تخطيطي لمركز ثابت وهادئ، مثبت ومهدئ صلب الشّواش. قد يحدث أن يقفز الطّفل وهو يغني، يسرّع خطاه أو يبطئها؛ لكنّ الأغنية هي ذاتها قفزة: إنّها تقفز من الشّواش إلى بداية نظام صلب الشّواش، إنّها توشك أن تتفكّك هي أيضا في كلّ لحظة. ثمّة دائما إصاّة في خيط أريان. أو هي أغنية أورفائي.

II. الآن، على النقيض من ذلك، نحن في بيتنا. لكنّ ألفي بيتنا لا يوجد مسبقا: توجّب رسم دائرة حول المركز الهشّ والمريب، تنظيم فضاء محدود. تتدخّل الكثير من المكوّنات شديدة التنوّع، جُدّدا وعلامات من كلّ نوع. كان ذلك صحيحا بالفعل بالنّسبة إلى الحالة السابقة. لكنّ الآن هي مكوّنات لتنظيم الفضاء ولم تعد مكوّنات لتحديد مؤقت لمركز. ها هي قوى الشّواش محتجزة في الخارج قدر الإمكان، والفضاء الدّاخليّ يحمي القوى الجرثوميّة لمهمّة ستنجز، لعمل سيقع القيام به. ثمّة ههنا نشاط بأكمله للانتقاء، للإلغاء، للاستئصال، حتى لا تنغمر القوى الحميمية والدّاخليّة للأرض، حتى تقدر على المقاومة أو حتى تقدر على استعارة شيء ما من الشّواش عبر مصفاة أو عبر غربال الفضاء المرسوم. لكنّ المكوّنات الصّوتيّة والصّائتة مهمّة جدّا: جدار صوت، في كلّ الأحوال جدار بعض آجراته صائتة. طفل يترنّم ليستجمع في ذاته قوى العمل المدرسيّ الذي عليه تقديمه. ربّة منزل ترنّم أو تفتح المذياع في نفس الوقت الذي تنصّب فيه قوى شغلها المضادّة للشّواش. أجهزة المذياع أو التّلفاز هي بمثابة جدار صائت بالنّسبة إلى أيّ منزل، وتعيّن مناطق (الجار يحتجّ عندما يكون الصّوت عاليا جدّا). بالنّسبة إلى أعمال مهيبة مثل تأسيس مدينة أو صنع غوليم (Golem)، نرسم دائرة، لكنّنا نمشي خاصّة حول الدّائرة وكأنّنا في

حلقة طفوليّة، ونؤلّف بين الحروف الصوامت والحروف المصوّتة الموقّعة التي تناظر قوى الإبداع الدّاخلية مناظرتها لأجزاء جهاز عضويّ متباينة. خطأ في السّرعة، في الإيقاع أو في الاتّساق قد يكون كارثيا بما أنّه قد يحطّم المبدع والإبداع باستعادته لقوى الشّواش.

III. الآن أخيرا، نفتح الدّائرة جزئيا، نفتحها، نترك أحدا يدخلها، ننادي أحدا، أو نذهب نحن ذواتنا إلى الخارج، ننطلق. لا نفتح الدّائرة من الجهة التي تتزاحم فيها قوى الشّواش القديمة، إنّما من جهة أخرى، صنعناها [٣٨٣] الدّائرة ذاتها. وكأنّ الدّائرة كانت تسعى هي ذاتها إلى الانفتاح على مستقبل، وفق قوى عاملة هي التي تأويها. وهذه المرّة، من أجل الالتقاء بقوى المستقبل، بالقوى الكونيّة. نندفع، نخشى الارتجال. لكن أن نرتجل معناه أن نلتقي بالعالم أو أن نختلط به. نخرج من بيتنا على وقّع ترنيمة. على الخطوط الحسيّة، الحركيّة، الصّائتة التي تسم المسار الاعتياديّ لطفل، تنزرع أو تبدأ بالتبرعم «خطوط تطواف» مع حلقات، عُقد، سرعات، حركات، إيماءات وصائتيّات مختلفة^(١).

إنّها ليست ثلاث لحظات متعاقبة في تطوّر. إنّها ثلاثة مظاهر على الشيء الواحد نفسه، اللّازمة. نعثر عليها في حكايات الرّعب أو في الخرافات، في الأغاني الشعبيّة أيضا. للّازمة المظاهر الثلاثة، تجعلها متآنية أو تخلط بينها: تارة وتارة وتارة. تارة يكون الشّواش ثوبا أسود ضخما، نسعى جاهدين لنثبّت فيه نقطة هشة بوصفها مركزا. تارة ننظّم حول النّقطة «وتيرة» (عوضا عن شكل) هادئة وثابتة: أصبح الثّقب الأسود سكنا. تارة، نزرع في هذه الوتيرة مخرجا، خارج الثّقب

(١) راجع، فرنان دوليني (Fernand Deligny)، «الصّوت والرؤية»، كراسات اللّامتحرك: الكيفيّة التي ينفصل بها «خطّ تطواف» عند الأطفال المتوحّدين، عن مسافة اعتياديّة، يأخذ في «الاختلاج»، «الانتفاض»، «الرّيفان»...

الأسود. إنّه بول كُلّي هو الذي بيّن بعمق هذه المظاهر الثلاثة وما يربط بينها. لأسباب متعلّقة بالرّسم، هو يقول «نقطة رماديّة» وليس ثقباً أسوداً. لكن بحق، النّقطة الرّماديّة هي أوّلاً الشّواش الذي لا أبعاد له والذي لا يقبل الموضوعة، إنّها قوّة الشّواش، حزمة مشوّشة من الخطوط الزائغة. ثمّ النّقطة التي «تقفز فوق ذاتها» وتُشعّع فضاء له أبعاد، مع طبقاته الأفقيّة، تقسيماته العموديّة، خطوطه الاعتياديّة غير المكتوبة، قوّة أرضيّة داخلية بأكملها (تظهر هذه القوّة كذلك بهيئة أكثر ميوعة في الجوّ أو في الماء). النّقطة الرّماديّة (الثّقب الأسود) غيّرت إذاً حالتها، ولم تعد تمثّل الشّواش وإنّما المسكن أو الكيان في البيت. أخيراً، تندفع النّقطة وتخرج من ذاتها تحت تأثير قوى نابذة تائهة تنبسط حتى حدود مجال الكون: «نمارس جهداً وفق طفرات حتى نُقلع من الأرض، لكن في الدّرجة التّالية نرتفع فعليّاً فوق الأرض (...) تحت تأثير قوى نابذة تتغلّب على الجاذبيّة»^(١).

شدّدنا غالباً على دور اللاّزمة: إنّها إقليميّة، إنّها تنضيد إقليميّ. أغاني العصافير: عندما يشدو العصفور فإنّه يحدّد منطقته... الأساليب اليونانيّة، الإيقاعات [٣٨٤] الهنديّة، هي ذاتها إقليميّة، محلّيّة، جهويّة. يمكن لللاّزمة أن تتخذ لها وظائف أخرى، غراميّة، مهنيّة أو اجتماعيّة، شعائريّة أو كونيّة: إنّها تحمل على الدّوام الأرض معها، مُرافقها هو أرض حتّى وإن كانت أرضاً روحيّة، إنّها في علاقة أساسيّة بمولديّ، بأهلّيّ. «تقسيم» موسيقيّ هو لحن موسيقيّ مقتضب، صيغة نغميّة تقترح نفسها على الاعتراف، وستظلّ قاعدة أو أرومة لتعدّد الأصوات (نغميّة ثابتة). النّاموس بوصفه قانوناً سارياً غير مكتوب لا ينفصل عن توزيع للفضاء، عن توزيع في الفضاء، بذلك هو مقام، لكنّ

(١) بول كُلّي، نظريّة الفنّ الحديث، ص ٥٦، ٢٧، راجع كذلك تعليق مالديناي، نظرة، كلمة، فضاء، منشورات عصر الإنسان، صص ١٤٩-١٥١.

المَقَام هو كذلك مُقام^(١). وتارة نذهب من الشّواش إلى عتبة تنضيد إقليميّ: مكوّنات اتجاهيّة، داخل التّنضيد. تارة نخرج من التّنضيد الإقليميّ باتجاه تنضيدات أخرى، أو كذلك إلى أماكن أخرى: بيّتنضيدية، مكوّنات عبور أو حتّى إفلات. والثلاثة معا. قوى الشّواش، قوى أرضيّة، قوى كونيّة: كل هذا يتواجه ويتنافس في اللّازمة.

تولد في الشّواش الأوسط والإيقاعات. ذلك شأن النّشكونيّات القديمة جدّا. الشّواش ليس غير ذي مكوّنات توجيهيّة هي انتشاءاته الخاصّة. لقد رأينا في مناسبة أخرى كيف أنّ كلّ أنواع الأوساط كان ينزلق بعضها بالنّسبة إلى بعضها الآخر، بعضها على بعضها الآخر، كلّ واحد منها محدّد بمكوّن. كلّ وسط هو وسط اهتزازيّ، أي هو كتلة مكانية- زمنيّة كونتها المعاودة الدّوريّة للمكوّن. هكذا يكون للحَيّ وسط خارجيّ يحيل على الموادّ؛ وسط داخليّ يحيل على العناصر المكوّنة والمواد المكوّنة؛ وسط أوسط يحيل على الأغشية والحدود؛ وسط ملحق يحيل على مصادر الطّاقة وعلى الإدراكات- الأفعال. كل وسط مقنّن، تقنينا يتحدّد بالمعاودة الدّوريّة؛ لكنّ كلّ تقنين هو في حالة دائمة من التّقنين المتنقل أو من التّنبيع. التّقنين المتنقل أو التّنبيع هو الكيفيّة التي يعمل بها وسط كقاعدة لوسط آخر، أو على التّقيض من ذلك يستقرّ فوق وسط آخر، يتبدّد أو يتشكّل في الوسط الآخر. بالفعل مصطلح

(١) حول التّقسيم الموسيقيّ، المَقَام هو الأرومة أو الأرض، خاصّة في تعدّد الأصوات، راجع جوزاف سامسون في تاريخ الموسيقى، بلاياد، الجزء الأوّل، صص ١١٦٨ - ١١٧٢. تمكن العودة أيضا، في الموسيقى العربيّة، إلى دور «المَقَام»، الذي هو في نفس الوقت ضرب مقاميّ وصيغة نغميّة: سيمون جارجي (Simon Jargy)، الموسيقى العربيّة، المنشورات الجامعيّة الفرنسيّة، ص ٥٥ وما يليها.

الوسط ليس موحدًا: ليس الحيّ وحده هو الذي يمرّ باستمرار من وسط إلى آخر، إنّها الأوساط هي التي ينتقل أحدها إلى الآخر، إنّها متواصلة بشكل أساسي. الأوساط مفتوحة في الشّواش الذي يهدّدها بالاستنزاف أو بالاندساس. [٣٨٥] لكنّ ردّة فعل الأوساط على الشّواش هي الإيقاع. المشترك بين الشّواش والإيقاع هو البيّنة، بين وسطين، إيقاع-شواش أو شواش نسيق: «بين اللّيل والنّهار، بين ما هو مبنّي وما ينبت طبيعيًا، بين تحولات اللاّ عضويّ إلى العضويّ، النّبتة إلى الحيوان، الحيوان إلى النّوع البشريّ، دون أن تكون هذه السّلسلة تدرّجًا...» إنّ هذه البيّنة يصبح الشّواش إيقاعًا، ليس بشكل حتميّ، لكن يبقى له حظّ أن يصير كذلك. الشّواش ليس نقيض الإيقاع، هو بالأحرى وسط كلّ الأوساط. ثمّة إيقاع مذ يكون ثمّة مرور مقنّن تضافريًا من وسط إلى آخر، ثمّة تواصل بين الأوساط، تناسق أمكنة-أزمنة متنافرة. النّضوب، الموت، الاندساس تتخذ لها إيقاعات. نعرف جيّدًا أنّ الإيقاع ليس ميزانا أو وتيرة حتى وإن كانت غير منتظمة: لا شيء أقلّ إيقاعيّة من مشية عسكريّة. الطّلبة الإفريقيّة ليست ١-٢، رقصة الفالس ليست ١، ٢، ٣، الموسيقى ليست ثنائيّة أو ثلاثيّة، بل لها بالأحرى سبع وأربعون نغمة أصليّة كما عند الأتراك. ذلك أنّ ميزانا منتظما أو غير منتظم، يفترض شكلا مقنّنًا يمكن لوحدة قياسه أن تتغيّر، لكن في وسط غير مُوصّل، بينما الإيقاع هو اللاّ متساوي أو اللاّ متقاييس، الكائن دوما في تقنين تضافريّ. الميزان دغمائيّ لكنّ الإيقاع نقديّ، إنّهُ يربط بين لحظات نقديّة أو ينعقد في انتقال وسط إلى آخر. إنّهُ لا يعمل في مكان-زمان متجانس، بل بكتل متنافرة. إنّهُ يغيّر الوجهة. باشلار على حقّ في قوله إنّ «ترابط الأنات الفاعلة حقًا (الإيقاعات) يتمّ دائما على مسطّح يختلف عن المسطّح الذي يُنجز عليه الفعل»^(١).

(١) باشلار، دياكتيكا الدّيمومة، منشورات بوفان، صص ١٢٨-١٢٩.

أبدا ليس للإيقاع نفس مسطّح الموقع. ذلك أنّ الفعل يتمّ في وسط بينما يقع الإيقاع بين وسطين أو بين وسطين، كما بين مائتين، بين ساعتين، بين كلب وذئب، غسق أو شفق، هذبة. تغيير الوسط، التلبّس، ذلك هو الإيقاع. الهبوط على الأرض، الإرساء على الماء، الطيران... بذلك نخرج بيسر من مُعاينة كانت توشك أن تحيي الميزان في الإيقاع، بالرغم من كلّ الوعود: بالفعل، كيف يمكن أن نعلن اللا تساوي المكوّن للإيقاع، بينما نمكّن أنفسنا في نفس من الوقت من الاهتزازات الضمنية، من المعاودات الدورية للمكوّنات؟ ذلك أنّ وسطا ما يوجد فعلا بواسطة معاودة دورية، لكنّ هذه الأخيرة لا مفعول لها غير إنتاج فرق تمرّ به إلى وسط آخر. الفرق هو الإيقاعي وليست المعاودة التي هي مع ذلك التي تنتج؛ لكن نتيجة لذلك، هذه المعاودة المنتجة لم تكن لها أية صلة بميزان انتساخي. قد يكون هذا هو «الحلّ النقديّ للنقيضة».

[٣٨٦] ثمة حالة تقنين تضافريّ مهمّة بشكل خاصّ: ذلك عندما لا يكتفي تقنين بأخذ أو قبول مكوّنات مقنّنة بشكل آخر، لكنه يأخذ أو يقبل مقاطع من تقنين آخر من حيث هو كذلك. قد تحيل الحالة الأولى على العلاقة ورقة-ماء، لكنّ الحالة الثانية قد تحيل على العلاقة عنكبوت-ذبابة. غالبا ما وقعت ملاحظة كون نسيج العنكبوت كان يتضمّن في تقنين هذا الحيوان مقاطع من تقنين الذّابة ذاته؛ قد يقال إنّ للعنكبوت ذبابة في رأسها، لها «نموذج» ذبابة، «لازمة» ذبابة. يمكن أن يكون التّضمّن متبادلا كما في الزّنبور والأوركيد، فم الذّئب والنّحلة الطّنانة. وُضع يعقوب فون أوأكسكيل (Uexküll) نظريّة رائعة لهذه التقنينات المتنقّلة، مكتشفا في المكوّنات الكثير من الألحان التي يعمل بعضها كخليفة إيقاعيّة للآخر والعكس بالعكس: الطبيعة بوصفها موسيقى^(١).

(١) يعقوب فون أوأكسكيل، عوالم حيوانية وعالم إنسانيّ، منشورات غونتييه.

في كلّ مرّة يكون فيها ثمة تقنين تضافريّ، يمكن أن نكون متأكّدين أنّه ليس ثمة جمع، بل تكوين لمسّطح جديد وكأنّه تكوين لفائض قيمة. مسّطح إيقاعيّ أو نغميّ، فائض قيمة عبور أو جسر، - لكنّ الحالتين ليستا نقيّتين على الإطلاق، إنهما مختلطتان واقعياً (مثل علاقة الورقة، ليس بالماء عامّة، إنّما بالمطر...).

غير أنّه ليس لدينا بعدُ إقليم ليس وسطا، ولا حتّى وسطا إضافيّاً، ولا إيقاعاً أو مروراً بين الأوساط. الإقليم هو بالفعل فعل يؤثر على الأوساط والإيقاعات و«يؤرضنها»، الإقليم هو نتاج أرضنة الأوساط والإيقاعات. سيّان التّساؤل متى تتأرضن الأوساط والإيقاعات، أو ما الفرق بين حيوان لا إقليم له وحيوان له إقليم. الإقليم يستعير من كلّ الأوساط، يتخطّاها، يطوّقها (مع أنّه يظل هشّاً بالنّسبة إلى الاندساسات). إنّهُ مبنيّ بجوانب أو يقطع أوساط. إنّهُ يحمل في ذاته وسطا خارجيّاً، وسطا داخليّاً، وسطا أوسط، وسطا مُلحقاً. فيه منطقة سكن أو إيواء داخليّة، منطقة خارجية لمجال، لحدود أو لأغشية قابلة للتّقلّص، مناطق وسيطة أو حتّى محيّدة، مخزونات أو ملحقات طاقية. إنّهُ موسوم أساسيّاً بـ«مؤشّرات»، وهذه المؤشّرات وقعت استعارتها من مكوّنات تنتمي إلى كلّ الأوساط: موادّ، منتوجات عضويّة، وضعيّات غشاء أو جلد، مصادر طاقة، مختصّرات إدراك- فعل. تحديداً، ثمة إقليم مذ تتوقّف مكوّنات أوساط عن أن تكون اتّجاهيّة لتصبح ذات أبعاد، عندما [٣٨٧] تتوقّف عن أن تكون وظيفيّة لتصبح تعبيريّة. ثمة إقليم مذ ثمة تعبيريّة إيقاع. انبثاق موادّ تعبير (كيفيّات) هو الذي سيحدّد الإقليم. لنأخذ مثلاً مثل مثال اللّون، عصافير أو أسماك: اللّون هو حالة غشاء تحيل هي ذاتها على حالات داخلية هرمونيّة؛ لكنّ اللّون يظلّ وظيفيّاً ومؤقّتاً طالما بقي مرتبطاً بنمط فعل معيّن (الجنسانيّة، العدوان، الهرب). على النّقيض من ذلك يصبح اللّون تعبيريّاً عندما يحوز ثباتاً زمنيّاً ومدى مكانيّاً يجعلان منه علامة إقليميّة أو بالأحرى

علامة مؤرّضة: يجعلان منه توقيعاً^(١). لا تتمثل المسألة في معرفة ما إذا كان اللون يستعيد وظائف أو يقوم بوظائف جديدة صلب الإقليم ذاته. هذا بيّن، لكن إعادة تنظيم الوظيفة هذه يستتبع بالضرورة أن يكون المكوّن المعنيّ قد أصبح تعبيرياً أولاً، وأن يكون معناه من هذه الزاوية، هو تحديد إقليم. نفس نوع العصفور يمكنه أن يحمل ممثلين ملوّنين أو غير ملوّنين. للملّونين إقليم، بينما الضّاربون إلى البياض قطيعيّون. نعرف دور البول أو الفضلات في رسم الحدود؛ لكن بالفعل، الفضلات الإقليمية عند الأرنب على سبيل المثال، لها رائحة خاصّة ناتجة عن غدد شرجيّة مختصّة. الكثير من القردة، في حالة النّشاط، تعرّض أعضاءها الجنسيّة للألوان الزّاهية: يصبح القضيب حامل - ألوان تعبيريّ وموقّع يعيّن حدود الإقليم^(٢). يصبح مكوّن وسط كيميّة وخاصيّة في نفس الوقت، ميزة وخاصّة. نلاحظ في الكثير من الحالات سرعة هذا التّصير، كيف يتكوّن إقليم على عجل، مع الكيفيّات التّعبيريّة المنتقاة أو المتولّدة. يقيم العصفور نقار الخشب جُده بإسقاطه كلّ صباح أوراقا قطعها من الشّجرة، ثمّ يقلبها على وجهها، حتى يتباين وجهها الدّاخليّ الأكثر شحوباً مع الأرض: يُنتج الاستقلاب مادّة تعبير...^(٣).

(١) كونراد لورانز، العدوان، منشورات فلاماريون، صص ٢٨ - ٣٠: «كساؤها الرائع ثابت. (...) توزيع الألوان على سطوح كبيرة نسبياً، متباينة بحدّة، يميّز الأسماك المَرجانيّة، ليس عن معظم أسماك المياه العذبة وحسب، وإنّما تقريباً عن كلّ الأسماك الأقلّ عدوانيّة والأقلّ ارتباطاً بإقليمها. (...) تماماً مثل ألوان الأسماك المَرجانيّة، يشير تغريد البلبل من بعيد إلى كلّ أقرانه بأنّ إقليماً قد عثر على مالكة التّهايّ».

(٢) آيبل - آيبستفلدت (Eibl-Eibestfeldt)، علم سلوك الحيوان، المنشورات العلميّة: حول القردة، ص ٤٤٩؛ حول الأرانب، ص ٣٢٥؛ وحول العصافير، ص ١٥١: «عصافير الماندرين التي ريش حليتها ملوّن جدّاً تقف متباعدة، بينما العصافير الضّاربة إلى البياض تجثو متقاربة».

(٣) راجع، ويليام هورمان ثورب، التعلّم والغريزة عند الحيوان، منشورات ماثوان وشركاؤه، ص ٣٦٤.

[٣٨٨] الإقليم ليس هو الأوّل بالنسبة إلى العلامة الباقية الكيفيّة، العلامة الباقية هو الذي يصنع الإقليم. الوظائف في إقليم ليست هي الأولى، إنّها تفترض بادئ ذي بدء تعبيريّة تتشكّل إقليمًا. إنّ بهذا المعنى يكون الإقليم والوظائف التي تُمارَس فيه، نتائج للأرضنة. الأرضنة هي فعل الإيقاع الذي أصبح تعبيريًا، أو هي فعل مكونات الأوساط التي أصبحت كيفيّة. تعيين حدود إقليم له أبعاد لكنّه ليس مقياسًا، إنّ إيقاع. إنّ يحتفظ بالخاصيّة الأعمّ للإيقاع، بخاصيّة الانتماء إلى مسطح آخر مغاير لمسطح الأفعال. لكن الآن، المسطحان يتمايزان تمايز مسطح التعبيرات المؤرضنة ومسطح الوظائف المؤرضنة. لأجل ذلك لا يسعنا أن نتبع أطروحة مثل أطروحة لورانز، التي تسعى إلى وضع العدوانيّة في قاعدة الإقليم: قد يكون التطوّر النساليّ لغريزة عدوانيّة هو الذي قد يشكّل الإقليم، منذ اللّحظة التي قد تصبح فيها هذه الغريزة ضُمْنوعيّة، منقلبة ضدّ مُجانسي الحيوان. حيوان له إقليم، قد يكون هو الذي يوجّه عدوانيّته ضدّ أعضاء آخرين من نوعه؛ وهو ما يعطي للنوع ميزة الانتقائيّة للتفرّق في فضاء، حيث يمتلك فيه كلّ واحد، فردًا أو جماعة، مكانه الخاص^(١). هذه الأطروحة الملتبسة ذات الأصداء السّياسيّة الخطيرة، تبدو لنا غير قائمة على أساس صحيح. من الواضح أنّ الوظيفة العدوانيّة تتخذ هيئة جديدة عندما تصبح ضُمْنوعيّة. لكنّ إعادة تنظيم هذه الوظيفة تفترض الإقليم ولا تفسّره. ثمة صلب الإقليم إعادات تنظيم كثيرة، تؤثر كذلك على الجنسانيّة، على الصّيد، إلخ، بل ثمة حتّى وظائف جديدة، مثل بناء سكن. لكنّ هذه الوظائف ليست منظّمة أو مخلوقة إلّا من حيث هي مؤرضنة، وليس العكس. العامل أ، العامل المؤرضين يجب البحث عنه

(١) يسعى لورانز باستمرار إلى تقديم الإقليميّة بوصفها مفعول العدوانيّة الضُمْنوعيّة: راجع ص ٤٥، ٤٨، ٥٧، ١٦١، إلخ.

في مكان آخر: تحديدًا في تصوّر الإيقاع- تعبيريًا أو في تصوّر اللحن- تعبيريًا، أي في انبثاق الكيفيات الخاصة (لون، رائحة، صوت، خيال...).

هل يمكن أن نسمّي هذا التّصوّر وهذا الانبثاق فنّا؟ قد يكون الإقليم هو مفعول الفنّ. الفنّان، الإنسان الأوّل الذي يقيم حدّا أو يصنع علامة باقية... الملكية الجماعيّة أو الفرديّة تنبع من هناك، حتى وإن كان ذلك من أجل الحرب أو القمع. الملكية فنيّة أوّلاً لأنّ الفنّ هو أوّلاً مُلصقة، لافتة. مثلما يقول لورانس، الأسماك المَرجانيّة مُلصقات. التعبيريّ يسبق التّملّكيّ، الخصائص التعبيريّة أو موادّ التعبير تملّكيّة بالضرورة، وتشكّل [٣٨٩] ملُكا أعمق من الكينونة^(١). ليس بالمعنى الذي قد تنتمي به هذه الخصائص إلى ذات، لكن بالمعنى الذي ترسم به إقليمًا سينتمي إلى الذات التي تحمل تلك الكيفيات أو تنتجها. هذه الكيفيات توقيعات، لكنّ التّوقيع، اسم العَلَم، ليس هو العلامة الباقية التي كوّننها ذات، هو العلامة الباقية المكوّنة لمجال، لِسكن. التّوقيع ليس إشارة لشخص، هو التّكوين الخَطَر لمجال. للمساكن أسماء أعلام وهي مستلهمّة. «المُلهمون وبيوتهم...»، لكن مع المسكن ينبثق الإلهام. أحبّ لونا في نفس الوقت الذي أصنع منه رايتي أو لافتتي. يضع المرء توقيعه على موضوع مثلما يزرع علمه في أرض معيّنة. قيّم عامّ في معهد كان يختم كلّ الأوراق التي كانت تغطّي الأرض في السّاحة، وكان يعيدها إلى مكانها. لقد كان وقّع. العلامات الإقليمية الباقية هي أشياء جاهزة. وكذلك ما نسّميه فنّا خاما ليس شيئًا سيكولوجيًا أو بدائيًا، إنه فقط هذا التّكوين وهذا التّحرير لموادّ التعبير، في حركة الإقليمية: إنّه قاعدة أو أرومة الفنّ. صُنِع مادة تعبير انطلاقًا

(١) حول أوليّة حيويّة وأستيطقيّة لل«ملِك»، راجع غابريال تارد، المعارضة الكلية، منشورات ألكان.

من أيّ شيء. نقار الخشب يقوم بالفنّ الخام. الفنّان هو نقار الخشب، حتّى وإن مزّق ملصقاته الخاصّة. الأكّد بهذا الصّدّد، أنّ الفنّ ليس ميزة الإنسان. ماسيان على حقّ عندما يقول إنّ الكثير من العصافير ليست بارعة وحسب، بل هي فنّانة، وهي كذلك أوّلاً بتغاريدها الإقليميّة (إذا أراد سارق «الاستيلاء على موقع لا ينتمي إليه دون موجب، المالك الحقيقيّ يغرّد، يغرّد بشكل رائع، بحيث الآخر يغادر (...)). إذا كان السّارق يغرّد بشكل أفضل، المالك يتخلّى له عن مكانه^(١))). اللّازمة هي الإيقاع واللّحن المتأرّضنين لأنّهما أصبحا تعبيريّين، - وأصبّحا تعبيريّين لأنّهما مؤرّضنين. لسنا ندور في حلقة مفرغة. نوّد القول إنّه ثمة حركة ذاتيّة للكيفيّات التّعبيريّة. التّعبيريّة لا تُختزّل في المفاعيل المباشرة لدافع يحفّز فعلاً في وسط: مثل هذه المفاعيل هي انطباعات أو انفعالات ذاتيّة بدلاً من كونها تعابير (هكذا هو اللّون المؤقت الذي تتّخذ سمكة المياه العذبة في ظلّ مثل هذا [٣٩٠] الدّافع). على النّقيض من ذلك تكون الكيفيّات التّعبيريّة، ألوان الأسماك المَرجانيّة هي ألوان موضوعيّة ذاتيّة، أي أنّها تجد موضوعيّة في الإقليم الذي ترسمه.

ما هي هذه الحركة الموضوعيّة؟ ما الذي تفعله مادّة مثل مادّة التّعبير؟ إنّها أوّلاً ملصقة أو لافتة، لكنّها لا تظلّ عند هذه الحالة. إنّها تمرّ من هناك، هو ذا كلّ شيء. لكنّ التّوقع سيصبح أسلوباً. فعليّاً، تدخل الكيفيّات التّعبيريّة أو موادّ التّعبير بعضها مع بعضها الآخر في علاقات متحرّكة سـ«تعبّر» عن علاقة الإقليم الذي ترسمه مع الوسط

(١) تفاصيل تصوّرات مسيان المتعلّقة بتغاريدها العصافير، تقويمه لخصائصها الإستيطقيّة، مناهجه، سواء لاستنساخها، سواء لاستعمالها بوصفها موادّ، توجد عند كلود سامويل، محادثات مع أليفيه مسيان (منشورات بلفون) وأنطوان غوليا، لقاءات مع أليفيه مسيان (منشورات جوليار). خاصّة لِم لا يستعمل مسيان لا مسجّلة صوت ولا مطّيات معتاد عند علماء الطّيور، راجع سامويل، صص ١١١ - ١١٤.

الذّاهليّ للدّوافع، ومع الوسط الخارجيّ للظّروف. لكنّ التعبير ليس تبعيّة. التعبير قائم برأسه. من ناحية، تدخل الكيفيّات التعبيريّة بعضها مع بعضها الآخر في علاقات داخلية تشكّل خلايا لحنية إقليمية: تارة تُطلّ هذه الخلايا اللّحنيّة على الدّوافع الذّاهليّة، تارة تُراكبها، تارة تؤسّس دافعا في آخر، تارة تمرّ وتمرّر من دافع إلى آخر، تارة تندرج بين دافعين، لكنّها ليست هي ذاتها «موقّعة». تارة تظهر هذه الخلايا اللّحنيّة غير الموقّعة في شكل ثابت، أو تتظاهر بأنّها كذلك، لكن كذلك، تارة نفس خلايا لحنية أخرى لها سرعة وتمفّصل متغيّران؛ وإنّهما تغيّرها كما ثباتها هما كذلك اللّذان يجعلانها مستقلّة عن الدّوافع التي تلائم بينها أو تحيّدّها. «نعرف عن كلابنا أنّها تنفّذ بهمة حركات الشّمّ والرّفّع والجري والمطاردة والتّهش وخضّ فريسة خياليّة حتى الموت، دون أن تجوع.» أو رقصة سمكة أبي شوّك، تعرّجها هو خليّتها اللّحنيّة حيث يتزاوج الزّيغ (zig) مع دافع عدوانيّ باتّجاه الشّريك، ويمثّل الانعطاف (zag) دافعا جنسيّا نحو العشّ، لكن حيث الزّيغ والانعطاف يقع تحريكهما بشكل مختلف وحتى توجيههما بشكل مختلف. من ناحية أخرى، تدخل الكيفيّات التعبيريّة أيضا كذلك في علاقات داخلية أخرى تصنع طباقات إقليمية: هذه المرّة، إنّها الطّريقة التي تُكوّن بها في الإقليم نقاطا تتخذ طباقات لها ظروف الوسط الخارجيّ. على سبيل المثال، عدوّ يقترب، أو يقتحم، أو يبدأ المطر يهطل، تشرق الشّمس، تغيب الشّمس... هنا أيضا للتّقاط وللطّباقات قيامها برأسها في ثباتها أو تغيّرها، بالنّسبة إلى ظروف الوسط الخارجيّ الذي تعبّر هي عن علاقته بالإقليم. ذلك أنّ هذه العلاقة يمكن أن تكون معطاة دون أن تكون الظّروف كذلك، تماما مثل العلاقة بالدّوافع يمكن أن تكون معطاة دون أن تكون الدّوافع كذلك. وحتى عندما تكون الدّوافع والظّروف معطاة، فإنّ العلاقة تكون أصلايّة بالنّسبة إلى ما تستحضره. تعبّر العلاقات بين موادّ التعبير عن علاقات الإقليم بالدّوافع

الدّاخلية، بالظّروف الخارجيّة: إنّها قائمة برأسها في هذا [٣٩١] التّعبير ذاته. في الحقيقة، تُبلور الخلايا اللّحنيّة والطّباقات الإقليميّة إمكانات الوسط، الدّاخليّ أو الخارجيّ. علماء السّلك الحيواني حدّدوا جملة هذه الظّواهر تحت مفهوم «التّطقيس»، وبيّنوا الرّابطة بين الطّقوس الحيوانيّة وبين الإقليم. لكنّ هذه الكلمة لا تلائم بالضرورة هذه الخلايا اللّحنيّة غير الموقّعة، هذه الطّباقات غير الموضّعة، ولا تأخذ في الاعتبار لا تغيّرها ولا ثباتها. ذلك أنّ الأمر لا يتعلّق بهذا أو بذاك، بالثّبات أو بالتّغير، لكن بعض الخلايا اللّحنيّة أو النّقاط ليست ثابتة إلّا إذا كانت خلايا لّحنيّة أو نقاط أخرى متغيرة، أو أنّها ليست مثبّنة في مناسبة إلّا لتكون متغيرة في مناسبة أخرى.

قد يتوجّب القول بالأحرى إنّ الخلايا اللّحنيّة الإقليميّة تشكّل وجوها أو شخصيّات إيقاعيّة، والطّباقات الإقليميّة مشاهد نغميّة. ثمّة شخصيّة إيقاعيّة عندما لم نعد نوجد في الوضعيّة البسيطة لإيقاع قد يكون مرتبطا هو ذاته بشخصيّة، بذات أو بدافع: الآن، الإيقاع ذاته هو الشخصية بكاملها، والذي يمكنه بصفته هذه أن يبقى ثابتا، لكن يمكنه كذلك أن يزيد أو ينقص، بإضافة الأصوات أو بسحبها، بالمُدّد المتصاعدة أو المتناقصة دوما، بالتّضخيم أو بالحذف اللّذين يميّتان ويحييان، يُظهران ويلاشيان. المشهد النّغميّ أيضا لم يعد نغما موصولا بمشهد، النّغميّة هي ذاتها التي تصنع مشهدا صائتا، وكلّ العلاقات مع مشهد افتراضيّ تجعل منها طباقات. بذلك نخرج من مرحلة اللّافّة: ذلك أنّه إذا كانت كلّ كيفيّة تعبيريّة، كلّ مادّة تعبير منظورا إليها في ذاتها هي لافّة أو ملصقة، فإنّ هذا الاعتبار يظلّ مع ذلك مجرّدا. تدخل الكيفيّات التّعبيريّة مع بعضها البعض في علاقات متغيرة أو ثابتة (ذلك هو ما تفعله موادّ التّعبير) لا لتكوّن لافّات تعيّن إقليما بل لتكوّن خلايا لّحنيّة وطباقات تعبّر عن علاقة الإقليم بالدّوافع الدّاخلية أو بالظّروف الخارجيّة، حتى وإن لم تكن هذه الأخيرة معطاة. لم تعد توقّعات بل

هي أسلوب. ما يميّز موضوعيًا عصفورا موسيقيًا عن عصفور غير موسيقي، هو بالتحديد هذه القابلية للخلايا اللحنيّة وللطبّاقات المتغيّرة أو حتى الثابتة التي تجعل منه شيئًا مغايرًا للملصقة، تجعل منه أسلوبًا بما أنّها تُفصل الإيقاع وتنغمّ اللحن. يمكن القول حينئذ إنّ العصفور الموسيقي يمرّ من الحزن إلى الفرح، أو أنّه يُحيي شروق الشّمس، أو أنّه يضع ذاته في خطر ليغرّد، أو أنّه يغرّد أفضل من عصفور آخر، إلخ. ولا واحدة من هذه العبارات تحمل أدنى خطر أنتروبومورفيّ أو تستتبع أدنى تأويل. قد تكون بالأحرى جيومورفيا. إنّ في الخليّة اللحنيّة وفي الطبّاق تكون انعطت العلاقة [٣٩٢] بالفرح والحزن، بالشّمس، بالخطر، بالكمال، حتى وإن كان حدّ كلّ واحدة من هذه العلاقات غير معطى. إنّ في الخليّة اللحنيّة وفي الطبّاق تصبح الشّمس، الفرح أو الحزن، الخطر، صائتة، إيقاعيّة أو نغميّة^(١).

موسيقى الإنسان هي كذلك تمرّ من هناك. بالنسبة إلى سوان المحبّ للفنّ، غالبا ما تعمل الجملة القصيرة لفتتاي مثل لافتة مرتبطة بغابة بولونيا، بوجه وبشخصيّة أوداة: وكأنّها كانت تحمل لسوان ضمانة كوّن غابة بولونيا كانت بالفعل إقليمه، وأوداة ملكيّته. ثمّة بالفعل الكثير من الفنّ في فهم الموسيقى على هذا النحو. كان دوبيسيّ ينقد فاغنر مقارنة الخلايا اللحنيّة بأعمدة إرشاد قد تشير إلى الظروف الخفيّة لوضعيّة ما، للدوافع الدّينية لشخصيّة ما. وإنّ الأمر كذلك في مستوى معيّن أو في لحظات معيّنة. لكن بقدر ما يتطوّر الأثر، بقدر ما تدخل الخلايا اللحنيّة في ترابط، بقدر ما تكتسح مسطّحها الخاصّ، بقدر ما يكون لها قيامها بذاتها بالنسبة إلى العمل الدراميّ، للدوافع، للوضعيّات، بقدر ما تكون مستقلّة عن الشّخصيّات والمشاهد، لتصبح

(١) حول كلّ هذه التّقاط، راجع كلود سامويل، محادثات مع أليفيه مبيان، الفصل الرابع، وحول مصطلح «الشّخصيّة الإيقاعيّة»، صص ٧٠-٧٤.

هي ذاتها مشاهد نغميّة، شخصيّات إيقاعيّة لا تفتأ تثري روابطها الداخليّة. يمكنها أن تظلّ حينئذ ثابتة نسبياً، أو على النقيض من ذلك تزيد أو تنقص، تنمو أو تتقلّص، تغيّر سرعة سيرها: في الحالتين جميعاً توقفت الخلايا اللّحنيّة عن كونها موقّعة ومُوضّعة، حتى الثّابتات هي للتّغيير، وهي تتصلّب أكثر بقدر ما تكون موقّعة وتؤكّد هذا التّغيير المستمرّ الذي تقاومه^(١). بشكل محدّد، كان بروست من بين الأوائل الذين شدّدوا على حياة الخليّة اللّحنيّة الفاغنريّة هذه: عوض أن تكون الخليّة اللّحنيّة مرتبطة بشخصيّة تظهر، يكون كلّ ظهور للخليّة اللّحنيّة هو ذاته الذي يكوّن شخصيّة إيقاعيّة في «ملاءٍ موسيقى تملؤها بالفعل الكثير من الموسيقىات التي كلّ واحدة منها هي كائن». وليس من قبيل الصدفة أن يتابع تَعَلُّمُ البحث عن الزّمن الضائع اكتشافاً مماثلاً بخصوص الجُمْل القصيرة لفتتاي: هي جُمْل لا تحيل على مشهد، لكنها تحمل وتطوّر في ذاتها مشاهد لم تعد موجودة في الخارج (السّوناتا البيضاء أو السّباعيّة الحمراء...). اكتشاف المشهد النّغميّ بخاصّة والشخصيّة الإيقاعيّة بخاصّة، يطبع لحظة الفنّ هذه من حيث توقّف الفنّ عن كونه رسماً صامتاً على يافطة. لعلّ تلك ليست هي [٣٩٣] كلمة الفنّ الأخيرة، لكنّ الفنّ مرّ من هناك، مثل العصفور، خلايا لحنية وطبقات تشكّل تطوّراً ذاتيّاً، أي أسلوباً. استبطان المشهد الصّائت أو النّغميّ يمكن أن يجد شكله التّمودجيّ عند ليزت (Liszt) مثلما تجد الشخصيّة الإيقاعيّة شكلها التّمودجيّ عند فاغنر. بكيفيّة أعمّ، التّرنيمة هي الفنّ الموسيقيّ للمشهد، الشكل الأكثر تصويريّة للموسيقى، الأكثر انطباعيّة. لكنّ القطبين وثيقي الصّلة بحيث تظهر الطّبيعة في التّرنيمة أيضاً بمثابة الشخصيّة الإيقاعيّة ذات التّغيّرات اللّامتناهية.

(١) بيار بولاز، «الزّمن المبحوث عنه»، في ذَهَبِ نهر الرّابن، بايروت، ١٩٧٦، صص ٥-١٥.

الإقليم هو أولاً المسافة النقدية بين كائنين من نفس النوع: تعيين المسافات. ما هو لي، هو أولاً مسافتي، لا أمتلك غير مسافات. لا أحب أن يلمسني أحد، أتذمر عندما يدخل أحد إلى إقليمي، أضع لافتات. المسافة النقدية هي علاقة صادرة عن مواد التعبير. يتعلّق الأمر بإبقاء قوى الشّواش التي تطرق الباب على مسافة. تأنقيّة: الإيتوس هو في نفس الوقت مُقام وتطّبع، موطن وأسلوب. نلاحظ ذلك جيّداً في الرّقصات الإقليمية المسمّاة رقصات باروكية أو تأنقيّة، حيث تقيم كلّ وقفة وكلّ حركة مثل هذه المسافة (الرقصات السّارابندية، الألمانية، الحاشدة، الرّيفيّة...^(١)). ثمّة فنّ كامل للوقفات، للوضعات، للخيالات، للخطوات وللأصوات. فُصاميّان يتحدّثان أو يتجوّلان، وفق قوانين حدّ وإقليم يمكن أن نفوتنا. إلى أيّ حدّ يكون من المهمّ عندما يهدّدنا الشّواش، رسم إقليم نقّال وهوائي. عند الحاجة سأحمل إقليمي على جسدي، أو قلم جسدي: بيت السّلحفاة، محبسة القشريّات، لكن كذلك كلّ الأوشام التي تجعل من الجسد إقليما. المسافة النقدية ليست ميزانا، إنّها إيقاع. لكن بالفعل، الإيقاع مأخوذ في تصوّر يجرف المسافات بين الشخصيّات ليجعل منها شخصيّات إيقاعيّة، متباعدة هي ذاتها نسبياً، قابلة للدّمج نسبياً (فواصل). يتواجه حيوانان لهما نفس الجنس ويتّميّان إلى نفس النوع؛ إيقاع أحدهما «يتزايد» عندما يقترب من إقليمه أو من مركز هذا الإقليم، إيقاع الآخر يتناقص عندما يبتعد عن إقليمه، وبين الاثنين، على الحدود، يقوم ثابت تذبذبيّ: إيقاع فاعل، إيقاع خاضع، إيقاع

(١) حول التّأنقيّة والشّواش، حول الرّقصات الباروكية وكذلك حول علاقة الفُصام بالتّأنقيّة والرقصات، راجع أفلين شنيّسار (Évelyne Sznycer)، «حقّ التّتبّع الباروكي»، في الفُصام والفنّ لليون نافراتيل (Léo Navratil)، منشورات كومبلاكس.

شاهد^(١)؟ أو أنّ الحيوان يوارب إقليمه لشريك الجنس الآخر: تتشكّل [٣٩٤] شخصية إيقاعيّة معقّدة، ثنائيّا، أغان متناوبة أو متضادّة الأصوات كما عند الطيور الجواثم الإفريقيّة. أكثر من ذلك، يجب أن نضع في الحسبان بالتّزامن جانبيّ الإقليم: إنّّه لا يؤمّن وينظّم فقط الوجود المشترك لأعضاء نفس النّوع بالفصل بينها، لكنّه يتيح الوجود المشترك لأكثر ما يكون من الأنواع المختلفة في نفس الوسط، بالتّمييز النّوعيّ بينها. في نفس الوقت يدخل أعضاء نفس النّوع في شخصيّات إيقاعيّة وتدخل الأنواع المختلفة في مشاهد نغميّة، المشاهد مأهولة بالشخصيّات، الشخصيّات منتمية لمشاهد. مثل الأزمنة الملوّنة لمسيان، مع ثمانية عشر أغنية عصافير، مشكّلة في نفس الوقت شخصيّات إيقاعيّة قائمة برأسها ومحقّقة مشهدا رائعا في طباق معقّد، توليفات نغميّة ضمنيّة أو مبتكرة.

الفنّ لا ينتظر الإنسان ليبدأ وحسب، بل بإمكاننا التّساؤل عمّا إذا كان الفنّ يظهر على الإطلاق عند الإنسان، إلّا في ظروف متأخّرة واصطناعيّة. غالبا ما تمّت ملاحظة كون الفنّ البشريّ كان ظلّ لوقت طويل محبوسا في الأعمال وفي طقوسٍ من طبيعة أخرى. غير أنّ هذه الملاحظة لعلّها لم يعد لها نفس مدى تلك التي قد تجعل الفنّ يبدأ مع الإنسان. ذلك أنّه من الصحيح جدّا حدوث مفعولين ملحوظين في نفس الإقليم: إعادة تنظيم الوظائف، تجميع القوى. من ناحية، أنشطة وظيفيّة لم تتأرضن دون أن تتخذ لها هيئة جديدة (خلق وظائف جديدة مثل بناء مسكن، تغيير وظائف قديمة مثل العدوانيّة التي تغيّر طبيعتها لتصبح ضمنيّة). ثمة هنا ما يشبه الموضوع الناشئ لتخصّص أو

(١) لورانز، العدوانيّة، ص ٤٦. - حول الشخصيّات الإيقاعيّة الثلاث التي وقع تعريفها بالتّابع كإيقاع فاعل، منفعل وشاهد، راجع مسيان وغوليا، صص ٩٠-

لحرفة: إذا كانت اللازمة الإقليمية غالباً ما تنتقل إلى اللازمات الحرفية، فذلك لأنّ الحرف تفرض ممارسة نشاطات وظيفية متنوعة في نفس الوسط، لكن كذلك ألا يكون لنفس النشاط فواعل آخرون في نفس الإقليم. تتقاطع لازمات حرفية في الوسط، مثل صيحات الباعة، لكن كلّ واحدة من اللازمات تحدّد إقليماً لا يمكن أن يمارس فيه نفس النشاط ولا أن يُحتفظ فيه بنفس الصيحة. عند الحيوان كما عند الإنسان، هي قواعد المسافة النقدية لممارسة المنافسة: ركنٌ رصيفي. باختصار، ثمة أرضة للوظائف هي شرط انبثاقها بوصفها «أعمالاً» أو «حرفاً». إنّ بهذا المعنى تكون العدوانية الضمنوعية أو المختصة عدوانية مؤرضة بدئياً بشكل حتمي، لا تفسّر الإقليم بما أنّها صادرة عنه. نتيجة لذلك، سنعترف بأنّ كلّ النشاطات تتخذ في الإقليم هيئة عملية جديدة. لكنّ ذلك ليس سبباً لنستنتج [٣٩٥] أنّ الفنّ لا يوجد لذاته في الإقليم، بما أنّه حاضر في العامل المؤرض الذي يشرط انبثاق الوظيفة- العمل.

والأمر سيّان لو نظرنا في المفعول الآخر للأرضة. هذا المفعول الآخر الذي لم يعد يحيل على أعمال وإنّما على طقوس أو أديان، يتمثّل في التّالي: يجمّع الإقليم كلّ قوى الأوساط المختلفة في حزمة واحدة متكوّنة من قوى الأرض. إنّ فقط في أعماق أعماق كلّ إقليم يتمّ عزو كلّ القوى المنتشرة إلى الأرض بوصفها وعاء أو مرتكزاً. «طالما نعيش الوسط المحيط بوصفه وحدة، فقد لا نتمكّن إلّا بعسر من التمييز في هذه المؤسسات الابتدائية بين ما ينتمي إلى الأرض بحصر المعنى وبين ما هو ظاهر من خلالها مثل الجبال والغابات والمياه والغطاء النباتي.» قوى الهواء أو الماء، العصفور والسّمكة، تصبح بالتّالي قوى أرضية. أكثر من ذلك، إذا كان الإقليم يفصل ما صدّقاً بين القوى الدّاخلية للأرض والقوى الخارجيّة للشّواش، فالحال ليس كذلك «مفهوميّاً»، في العمق، حيث يتحاضن ضرباً القوى ويتزاوجان في

صراع ليس له إلا الأرض غربالا ورهانا. ثمة دائما في الإقليم وسط تجتمع فيه كلّ القوى، شجرة أو بستان، في تلاحم طاقات. الأرض هي هذا التلاحم. هذا المركز المشتدّ قائم في نفس الوقت داخل الإقليم ذاته لكن كذلك خارج الكثير من الأقاليم التي تتجه نحوه عقب حجّ ضخّم (من هنا التباسات «المولدي»). داخله أو خارجه، يحيل الإقليم على مركز مشتدّ هو بمثابة الموطن المجهول، مصدر أرضيّ لكلّ القوى الصديقة أو المعادية، وحيث يتقرّر فيه كلّ شيء^(١). هنا أيضا علينا بالتالي أن نعترف بأنّ الدّين المشترك بين الإنسان والحيوان، لا يشغل الإقليم إلاّ لأنّه يتوقّف كما على شرطه، على العامل المحض الاستطقيّ المؤرّض. إنّه هو الذي ينظّمها جميعا، وظائف الوسط في أعمال، ويلمّ قوى الشّواش في طقوس وأديان، إنّها قوى الأرض. إنّها في نفس الوقت تتحوّل العلامات المؤرّضة إلى خلايا لحيّة وطبقات، وتعيد تنظيم الوظائف، تجمع القوى. لكن بذلك، يطلق الإقليم بالفعل شيئا ما سيتخطّاه هو.

نعود دائما إلى هذه «اللّحظة»: تصوّر الإيقاع- تعبيريا، انبثاق الكيفيات- الخاصّة التّعبيّية، [٣٩٦] تكوين موادّ تعبير تتطوّر إلى خلايا لحيّة وطبقات. قد يتوجّب بالتالي وجود مصطلح، حتى بمظهر سلبيّ، لإدراك هذه اللّحظة الخام أو التّخيّليّة. الأساسيّ قائم في الفجوة التي نلاحظها بين التّقنين والإقليم. ينبثق الإقليم على هامش حرية بالنسبة إلى التّقنين، ليس بشكل غير محدّد، إنّما هو محدّد بشكل آخر. إذا كان صحيحا أنّ كلّ وسط له تقنيته، وثمة دائما تقنين متنقّل بين الأوساط،

(١) راجع مرسيا ألياد، رسالة في تاريخ الأديان، منشورات بايو. حول «الحُدُس الابتدائيّ للأرض بوصفها شكلا دينيا»، ص ٢١٣ وما بعدها؛ حول مركز الإقليم، ص ٣٢٤ وما بعدها. يسجّل ألياد بوضوح أنّ المركز قائم في نفس الوقت خارج الإقليم ويعسر بلوغه، لكن كذلك داخل الإقليم وفي متناولنا بشكل مباشر.

يبدو على التقيض من ذلك أنّ الإقليم يتشكّل على مستوى إبطال تقنين ما. لقد شدّد البيولوجيون على أهميّة هذه الهوامش المحدّدة، لكنّها لا تختلط مع الطّفرات، أي مع التّحوّلات الدّاخليّة للتّقنين: يتعلّق الأمر هذه المرّة بمورّثات منشطرة أو بصبغيات زائدة لم تدخل في التّقنين الوراثي، هي حرّة وظيفيّاً وتوفّر مادّة حرّة للتّغيير^(١). لكن أن يكون بإمكان هذه المادّة خلق أنواع جديدة بمعزل عن الطّفرات، فذلك يظنّ مستبعداً جدّاً، ما لم تلتحق بها أحداث من نوع آخر، قادرة على مضاعفة تفاعلات العضويّة مع أوساطها. لكنّ الأرضيّة هي بالتحديد هذا العامل الذي يقوم على هوامش تقنين نفس النّوع، ويعطي للممثّلين المنفصلين لهذا النّوع إمكانيّة الانفراق. ذلك لأنّ الإقليميّة منزاحة بالنّسبة إلى تقنين النّوع فإنّه يمكنها أن تفضي بشكل غير مباشر إلى أنواع جديدة. كلّ مكان تظهر فيه الإقليميّة، تقيم فيه مسافة نقدية ضُمّوعيّة بين أعضاء نفس النّوع؛ وإنّه نتيجة انزياحها الخاصّ بالنّسبة إلى الفروق النّوعيّة تصبح وسيلة انفراق غير مباشرة ومائلة. بكلّ هذه المعاني يظهر إبطال التّقنين على أنّه «سليبيّ» الإقليم؛ والتّمييز الأوضح بين الحيوانات ذوات الإقليم والحيوانات التي لا إقليم لها، هو كون الأولى أقلّ تقنيّاً بكثير من الثانية. تحدّثنا بالكثير من السّوء عن الإقليم حتى نقوم الآن كل الإبداعات التي تنحو إليه، تتمّ فيه أو تخرج منه وستخرج منه.

لقد ذهبنا من قوى الشّواش إلى قوى الأرض. من الأوساط إلى الإقليم. من الإيقاعات الوظيفيّة إلى التّصيّر - التّعبيريّ للإيقاع. من ظاهرات التّقنين المتنقّل إلى ظاهرات إبطال التّقنين. من وظائف الوسط إلى الوظائف المؤرّضّة. لا يتعلّق الأمر بتطوّر بقدر ما يتعلّق بانتقال،

(١) غالباً ما ميّز البيولوجيون بين عامليّ تغيير: بعض العوامل من نوع الطّفرات، لكنّ العوامل الأخرى، سيرورة عزل أو فصل، يمكن أن تكون وراثيّة، جغرافيّة أو حتّى نفسيّة؛ قد تكون الإقليميّة عاملاً من النّوع الثّاني. راجع غينو، النّوع، منشورات دوان.

بجسور، بأنفاق. بالفعل مرور الأوساط بعضها إلى بعضها الآخر لم يكن توقّف. لكن [٣٩٧] ها هي الأوساط تمرّ إلى الإقليم. الكيفيات التعبيرية، تلك التي نسمّيها إستيطيّة، من المؤكّد أنّها ليست كيفيات «محضاً» ولا كيفيات رمزيّة، إنّما هي كيفيات خاصّة، أي قابلة للاحتياز، تنقلات تذهب من مكّونات وسط إلى مكّونات إقليم. الإقليم ذاته موضع عبور. الإقليم هو التّنْضيد الأوّل، الشّيء الأوّل الذي يتشكّل تنضيداً، التّنْضيد إقليميّ قبل كلّ شيء. لكن كيف لا يكون بالفعل بصدد الانتقال إلى شيء آخر، في تنضيدات أخرى؟ لذلك لم يكن بإمكاننا الحديث عن تكوين الإقليم دون الحديث من قبل ذلك عن تنظيمه الدّاخليّ. لذلك لم يكن بإمكاننا توصيف ما تحت- التّنْضيد (ملصقات أو لافتات) دون أن نكون سلفاً في الضّمْتَنْضيد (خلايا لحنية وطبقات). ليس بإمكاننا أن نقول أيّ شيء كذلك عن الضّمْتَنْضيد دون أن نكون سلفاً على الطريق التي تقودنا إلى تنضيدات أخرى أو إلى أمكنة أخرى. انتقال اللاّزمة. تذهب اللاّزمة جهة التّنْضيد الإقليميّ، تستقرّ فيه أو تخرج منه. بمعنى عامّ، نسمّي لازمة كلّ مجموعة موادّ تعبير ترسم إقليماً، وتتطوّر إلى خلايا لحنية إقليمية، إلى مشاهد إقليمية (ثمة لازمات حركيّة، إيمائيّة، بصرية، إلخ.). بمعنى حصريّ، نتحدّث عن لازمة عندما يكون التّنْضيد صائتاً أو «يهيمن» عليه الصّوت- لكن لم هذا الامتياز الظّاهريّ؟

نحن الآن في الضّمْتَنْضيد. لكنه يمثّل تنظيمًا ثريًا جدًّا ومعقّدًا. إنّهُ لا يتضمّن التّنْضيد الإقليميّ فقط، بل كذلك الوظائف المنضّدة والمؤرّضنة. لنأخذ مثال فصيلة الطّيور الوضعية، عائلة الطّيور الجواثم: يستحوذ الذّكر على إقليمه وينتج «لازمة صندوق موسيقيّ» هي بمثابة تحذير ضدّ المندسّين الممكنين، يبنى هو ذاته أعشاشاً في ذلك الإقليم، في بعض الحالات اثني عشر عشّاً؛ عندما تُقبل أنثى، ينتصب أمام

عشّ، يستدعيها لزيارته، يدلي جناحيه، يخفض من شدة تغريده الذي يُختزل حينها في تغريدة واحدة^(١). يظهر أنّ وظيفة التعشيش مؤرّضة بشدة بما أنّ الأعشاش وقعت تهيئتها من طرف الذكر وحده قبل مجيء الأنثى التي لا تقوم إلّا بزيارتها وإتمامها؛ وظيفة «المغازلة» هي كذلك مؤرّضة، لكن بدرجة أقلّ، بما أنّ اللازمة الإقليمية تُغيّر شدتها لتكون مُغوية. في الضّمّتْضيد تتدخل كلّ أنواع المكونات المتنافرة: ليست تتدخل وحدها علامات التّضيد التي تجمع موادّ، ألوانا، أصواتا، وِضعات، إلخ.، لكن كذلك العناصر المختلفة لهذا [٣٩٨] التّصرف المنضّد أو ذاك، العناصر التي تدخل في خلية لحيّة. على سبيل المثال، تصرف استعراض يتكوّن من رقصة، قطعة المنقار، إظهار الألوان، وضعة العنق الممدودة، صيحات، تنعيم الريش، انحناءات، لازمة... قد يتعلّق السّؤال الأوّل بمعرفة ما الذي يجعلها متماسكة كلّ هذه العلامات المؤرّضة، هذه الخلايا اللّحيّة الإقليمية، هذه الوظائف المؤرّضة في نفس الضّمّتْضيد. المسألة مسألة قوام: «تماسك» عناصر متنافرة. إنّها لا تشكّل بدءً غير مجموعة ضبابيّة، مجموعة متخفّية، ستّخذ لها قواما...

لكن يبدو أنّ مسألة أخرى توقف المسألة الأولى أو تتقاطع معها. ذلك أنّه في الكثير من الحالات، تكتسب وظيفة منضّدة ومؤرّضة ما يكفي من الاستقلالية لتشكّل هي ذاتها تنضيدا جديدا لا متأرضنا نسبيا، في طريقه إلى اللّاتأرضن. ليس ثمة حاجة إلى مغادرة الإقليم فعليّا من أجل الدّخول في هذه الطّريق؛ لكنّ الذي كان منذ قليل وظيفة متكوّنة في التّضيد الإقليمي، يصبح الآن العنصر المكوّن لتضيد آخر، عنصر المرور إلى تضيد آخر. كما في الحبّ العذريّ، يتوقّف لون عن كونه

(١) بول جيروداي، الطّيور الجوانم، منشورات دولاشو ونياستلي، الجزء الثاني، صص ٨٨ - ٩٤.

لونا إقليميًا ليدخل في تنضيد «مغازلة». ثمة انفتاح التنضيد الإقليمي لتنضيد مغازلة، أو لتنضيد اجتماعي قائم برأسه. ذلك هو ما يحدث عندما يقع التعرّف الخاصّ على الشريك الجنسيّ أو على عناصر المجموعة، تعرّفًا لم يعد يتماثل مع تعرّف الإقليم: نقول حينها إنّ الشريك هو «الحيوان المكافئ للفي بيته». سنتمكّن إذاً من التمييز في جملة الجماعات أو الأزواج بين جماعاتٍ وأزواجٍ وسط دون تعرّف فرديّ، جماعاتٍ وأزواجٍ إقليميةٍ حيث لا يُمارَس التعرّف إلّا في الإقليم، أخيراً جماعات اجتماعيّة وأزواج متحابّين عندما يتمّ التعرّف باستقلال عن الوسط^(١). لم تعد المغازلة أو المجموعة تنتمي إلى التنضيد الإقليمي، لكن ثمة تمكين تنضيد مغازلة أو جماعة- حتّى وإن بقينا داخل الإقليم. عكسيًا، تتمّ إعادة أرضنة صلب التنضيد الجديد، على عضو الزوجين أو على أعضاء المجموعة المكافئة (التكافؤ). مثل هذا الانفتاح الذي هو انفتاح التنضيد الإقليمي على تنضيدات أخرى يمكن تحليله بالتفصيل وهو يتغيّر كثيرًا. على سبيل المثال، عندما لا يكون الذكّر هو الذي يبني العشّ، عندما يكتفي الذكّر بحمل [٣٩٩] الموادّ أو بمحاكاة البناء كما عند شراشير أستراليا، تارة الشرشور يغازل الأنثى بالقليل من القشّ في منقاره (نوع باثيلدا)، تارة يستعمل مادّة أخرى غير المستعملة في بناء العشّ (نوع نيوشميا)، تارة لا يُستعمل القليل من العشّب إلّا في المراحل الأولى للمغازلة أو حتّى قبلها (أنواع الغيدوميسين أو لونشورا)، تارة يُنقَر العشّب دون تقديمه للأنثى (نوع الأمبلما^(٢)). يمكن

(١) في كتابه حول العدوانيّة، ميّز لورانز بوضوح بين الـ«جماعات المجهولة» من نوع سرب الأسماك التي تشكّل كُتْل وسط؛ الـ«جماعات المحليّة» حيث يقع التعرّف فقط صلب الإقليم ويتعلّق إلى أقصى حدّ بالـ«أجوار»؛ أخيراً، المجتمعات القائمة على «رباط» قائم برأسه.

(٢) كلوس إمالمان، مساهمة في بيولوجيا مقارنة للشراشير الأستراليّة، حوليّات حيوانيّة، قسم التصنيف، جغرافيا وبيولوجيا الحيوانات، ٩٠، ١٩٦٢.

القول دائما إِنَّ تصرّفات «القليل من العشب» هذه ليست غير قدامات أو بقايا من تصرّف التعشيش. لكن مصطلح التصرف هو الذي يظهر غير كاف بالنسبة إلى مصطلح التنزيد. ذلك أَنَّ العشب عندما لا يكون بُني بعدُ من طرف الذَّكر فَإِنَّ التعشيش يكفّ عن أن يكون مكوّنًا من مكوّنات التنزيد الإقليميّ، ينفصل نوعا ما عن الإقليم؛ أكثر من ذلك، المغازلة التي تسبق بالتالي التعشيش، تصبح هي ذاتها تنزيذا قائما برأسه نسبيا. وتعمل مادة التعبير «القليل من العشب» بوصفها مكوّن عبور بين التنزيد الإقليميّ وتنزيد المغازلة. أن تكون للقليل من العشب وظيفة ابتدائية متزايدة عند بعض الأنواع، أن تميل إلى الامحاء في سلسلة معيّنة، فذلك لا يكفي لنجعل منها ظللا ناهيك عن أن نجعل منها رمزا. أبدا ليست مادة التعبير ظللا أو رمزا. القليل من العشب هو مكوّن لا متأرضن أو في طريقه إلى اللاتأرضن. تلك ليست قدامة ولا هي موضوع جزئيّ أو انتقاليّ. إنها مُعامل أو متّجه. إنها محوّل تنزيد. يمتّحي القليل من العشب بوصفه مكوّن عبور من تنزيد إلى آخر. وما يؤكّد زاوية النّظر هذه هو كونه لا يسعى إلى الامحاء دون أن يعوّضه مكوّن بديل ودون أن يأخذ هذا البديل أهميّة متزايدة: نعني اللّازمة التي لم تعد إقليمية وحسب، بل تصبح غرامية واجتماعيّة، وتتغيّر نتيجة لذلك^(١). في تكوين تنزيدات جديدة، لِمَ يكون للمكوّن الصّائت «لازمة»، تكافؤ أقوى من المكوّن الحركيّ «القليل من العشب»، تلك مسألة لن نتمكّن من النّظر فيها إلّا

(١) آيبل آيسفالدت (Eibl-Eibesfeldt)، علم السلوك الحيواني، ص ٢٠١. «انطلاقا من نقل المواد لبناء عشّ، في تصرّف غزل الذَّكر، تطوّرت أفعال تستعمل القليل من العشب؛ عند بعض الأنواع، أصبحت هذه الأفعال ابتدائية أكثر فأكثر؛ في نفس الوقت، تغريد هذه العصافير الذي كان يُستعمل بدائيّا لتحديد الإقليم، يخضع لتغيير في الوظيفة عندما تصبح هذه العصافير اجتماعيّة جدًا. الذَّكور، تعويضًا عن المغازلة بتقديم العشب، تغرّد بلطف قريبا من الأنثى.» مع ذلك تؤوّل آيبل آيسفالدت تصرّف تقديم القليل من العشب بوصفه «ظللا».

لاحقا. المهمّ حاليًا هو ملاحظة [٤٠٠] هذا التكوّن لتنضيدات جديدة في التّنْضيد الإقليميّ، هذه الحركة التي تذهب من الضّمْتَنْضيد إلى البيْتَنْضيدات، مع مكوّنات عبور وتناوب. انفتاح مجدّد للإقليم تجاه الأنثى أو تجاه المجموعة. يمرّ الضّغط الانتقائيّ بالبيْتَنْضيدات. وكأنّ قوى اللّاتأرضن كانت تعرك الإقليم ذاته، وكانت تنقلنا من التّنْضيد الإقليميّ إلى ضروب أخرى من التّنْضيد، ضروب مغازلة أو جنس، جماعة أو مجتمع. القليل من العشب واللّازمة هما عاملاً هذه القوى، عاملاً لا تأرضن.

لا يفتأ التّنْضيد الإقليميّ يمرّ في تنضيدات أخرى. كما أنّ الما تحت- تنضيد لا ينفصل عن الضّمْتَنْضيد كذلك لا ينفصل الضّمْتَنْضيد عن البيْتَنْضيدات، ومع ذلك ليست الانتقالات ضروريّة وتتمّ «وفق الحالة». السّبب في ذلك بسيط: الضّمْتَنْضيد أو التّنْضيد الإقليميّ يؤرّضن وظائف وقوى، الجنسانية، العدوانيّة، القطيعيّة، إلخ.، ويغيّرها من خلال أرضيّتها. لكنّ هذه الوظائف وهذه القوى المؤرّضنة يمكنها أن تأخذ فجأة قيمومة تجعلها تقع في تنضيدات أخرى، تكون تنضيدات أخرى لا متأرضنة. يمكن للجنسانية أن تبدو كوظيفة مؤرّضنة في الضّمْتَنْضيد؛ لكن يمكنها كذلك أن ترسم خطّ لا تأرضن يوصّف تنضيدا آخر؛ من هنا العلاقات المتنوّعة جدّا للجنسانية- إقليم، كما لو أنّ الجنسانية كانت اتّخذت «مسافتها»... تستتبع المهنة والحرفة والاختصاص أنشطة مؤرّضنة؛ لكن يمكنها الانفصال كذلك عن الإقليم لتبني تنضيدا جديدا حول ذاتها وبين المهن. يمكن لمكوّن إقليميّ أو مؤرّضن أن يبدأ بالتبرعم، بالإنتاج: تلك هي حال اللّازمة بحيث لعله يجب أن يُسمّى لازمة كل ما يوجد على هذه الحال. هذا الالتباس بين الإقليميّة واللّاتأرضن هو التباس المولديّ. يفهم هذا الالتباس بشكل أفضل إذا اعتبرنا أنّ الإقليم يحيل على مركز مشدّد في أعماق أعماقه؛ لكن تحديدا ومثلما رأينا ذلك، هذا المركز المشدّد يمكن أن يتنزّل

خارج الإقليم، في نقطة تلاقي أقاليم مختلفة جدًا أو متباعدة جدًا. المولديّ في الخارج. يمكن أن نذكر عدداً معيناً من الحالات الشهيرة والمربكة، الملغزة نسبياً، التي توضح انفصالات مذهلة عن الإقليم، تجعلنا نواكب حركة لا تأرُضن وسريعة مهيمنة تماماً على الأقاليم ومختربة إياها بتمامها: (١) الحجّ إلى الأصول مثل أسماك السلمون؛ (٢) التجمّعات المفرطة مثل تجمّعات الجراد، الشراشيف، إلخ (عشرات [٤٠١] ملايين الشراشيف قريباً من ثاون سنتي ١٩٥٠-١٩٥١)؛ (٣) الهجرات الشمسية أو المغناطيسية؛ (٤) الرّحلات الطويلة لجراد البحر^(١).

أيّا كانت أسباب كلّ واحدة من هذه الحركات فإنّنا نرى جيّداً أنّ طبيعة الحركة تتغيّر. لم يعد يكفي حتى القول إنّّه ثمة بيّتنزيد، مروراً من تنزيد إقليميّ إلى تنزيد من نوع آخر، قد نقول بالأحرى إنّنا نخرج من كلّ تنزيد، إنّنا نتخطّى كلّ قدرات تنزيد ممكن لندخل على مسطح

(١) راجع الأوديسة التّخبريّة لفريق كوسطو، شريط رقم ٣٦، تعليق كوسطو-ديولا، الرّحلة الطويلة لجراد البحر: يحدث أن يغادر جراد البحر الشوكيّ أقاليمه على طول شاطئ يوكاتان الشمالي. يتجمّع أولاً في مجموعات صغيرة قبل عاصفة الشتاء الأولى، وقبل أن تصدر عنه علامة قابلة للكشف في مستوى الأجهزة البشرية. ثمّ عندما تأتي العاصفة، يشكّل مواكب مسير طويلة، في طابور مع زعيم بالمناوبة ومع حراسة خلفيّة (سرعة المشي ١ كم/ساعة على مسافة ١٠٠ كم أو أكثر). هذه الهجرة لا يبدو أنّها مرتبطة بوضع البيض الذي لن يحدث إلّا بعد ستّة أشهر. هرمكاند، مختصّ في جراد البحر، يفترض أنّ الأمر يتعلّق بـ«طلل» العصر الجليديّ الأخير (منذ أكثر من عشرة آلاف سنة). يميل كوسطو نحو تأويل أكثر راهنيّة، حتّى باستدعاء هاجس حقبة جليديّة جديدة. فعلياً، واقع الأمر هو أنّ التّنزيد الإقليميّ لجراد البحر يفتح هنا استثنائياً على تنزيد اجتماعيّ؛ وهذا التّنزيد الاجتماعيّ في علاقة بقوى كونيّة، أو مثلما يقول كوسطو، بـ«نبضات الأرض». يبقى أنّ «اللّغز يظلّ كاملاً»: خاصّة وأنّ موكب جراد البحر هذا هو مناسبة لمجزرة من قبل الصّيادين؛ ومن ناحية أخرى لا يمكن وسم هذه الحيوانات نتيجة انسلاخ القوقعات.

آخر. وبالفعل لم تعد حركة وسط ولا إيقاعه، ولا كذلك حركة ولا إيقاع مؤرضين أو مؤرضان، ثمة الآن ما هو كوني في هذه الحركات الأشمل. آليات الموضوعة لا تفتأ تتحدّد بدقّة، لكنّ الموضوعة أصبحت كونية. لم تعد القوى المؤرضنة، المتجمّعة في قوى الأرض، إنها قوى الكون اللامتأرضين التي وقع العثور عليها ثانية أو التي وقع تحريرها. في الهجرة، لم تعد الشمس هي الشمس الأرضية التي تسود الإقليم، حتى الهوائي، إنّها شمس الكون السماوية، كما في القدسين، إنّها نهاية العالم. لكن خارج هذه الحالات المفخّمة، حيث يكون اللاتأرضين مطلقاً دون أن يخسر شيئاً من دقّته (بما أنّه يقترن بمتغيّرات كونية)، يجب أن نلاحظ بالفعل أنّ الإقليم لا تفتأ تجوبه حركات لا تأرضين نسيّة بل وحتى على عين المكان، حيث يقع المرور من الضّمّتضيد إلى يّتنضيدات دون أن تكون ثمة حاجة إلى مغادرة الإقليم ولا إلى الخروج من التّنضيدات للاقتران بالكون. الإقليم دائماً في طريقه إلى اللاتأرضين، على الأقلّ اللاتأرضين الكامن، في طريق [٤٠٢] مروره إلى تنضيدات أخرى، حتى وإن كان التّنضيد الآخر يُجري إعادة أرضنة (شيء ما «مكافئ» للفي البيت)... لقد رأينا أنّ الإقليم كان يتكوّن على هامش إبطال تقنين يطال الوسط؛ نرى أنّ هامش لا أرضنة يطال الإقليم في حدّ ذاته. إنّها سلسلة انفكّاقات. الإقليم ملازم لبعض مُعاملات اللاتأرضين التي يمكن تقويمها في كلّ حالة، مغيرة علاقات كلّ وظيفة مؤرضنة مع الإقليم، لكن كذلك علاقات الإقليم مع كلّ تنضيد لا متأرضين. ونفس «الشيء» يظهر هنا بوصفه وظيفة مؤرضنة، مأخوذة في الضّمّتضيد، وهناك بوصفه تنضيدا قائما برأسه أو لا متأرضين، هو يّتنضيد.

لذلك يمكن تقديم تصنيف للآزمات على النحو التالي:

- (١) الآزمات الإقليميّة التي تبحث عن إقليم، تُحدّده وتنضّده؛
- (٢) الآزمات ذات الوظائف المؤرضنة، التي تتخذ لها وظيفة خاصّة في

التنْضيد (لازمة أغنية المهد التي تُورْضِن النوم والطفْل، لازمة العشق التي تُورْضِن الجنسانية والمحَبوب، اللّازمة المهنيّة التي تُورْضِن الحرفة والأعمال، اللّازمة التجاريّة التي تُورْضِن التّوزيع والمنتوجات...)؛ (٣) نفس اللّازمات من حيث أنّها تسم الآن تنضيدات جديدة، تمرّ إلى تنضيدات جدية بواسطة اللّا أرْضنة- إعادة الأرْضنة (قد تكون مثالا معقّدا جدّا: أغاني الأطفال لازمات إقليمية لا تُغنى بنفس الطّريقة من حيّ إلى آخر، في بعض الأحيان من نهج إلى آخر؛ إنّها توزّع أدوار ووظائف لعب في التّنْضيد الإقليميّ؛ لكنّها تمرّر الإقليم أيضا في تنْضيد اللّعب الذي ينحو هو ذاته إلى أن يصبح قائما برأسه^(١)؛ (٤) اللّازمات التي تلتقط القوى أو تجمّعها، إمّا صلب الإقليم وإمّا للذهاب إلى الخارج (إنّها لازمات مواجهة أو رحيل توظّف في بعض الأحيان حركة لا تَأرْضُن مطلقة، «وداعا، أغادر دون أن ألتفت». بشكل لا نهائيّ، على هذه اللّازمات أن تلتحق بأغاني الهباءات، بيباء الرُّضّع، بالعناصر الأساسيّة مثلما يقول مِلْيكان (Millikan). إنّها تتوقّف عن كونها أرضيّة لتصبح [٤٠٣] كونيّة: عندما ينمو التّاموس الدّينيّ وينحلّ في كون حلوليّ هبائيّ؛ عندما يترك تغريد العصافير مكانه لتوليفات الماء، الرّيح، السّحب والضّباب. «في الخارج الرّيح، المطر...» الكون بوصفه لازمة ضخمة لا متأرْضنة).

يتعلّق مشكل القِوام بالطّريقة التي تتماسك بها مكوّنات تنْضيد

(١) يبدو لنا أنّ أفضل كتاب لأغاني الأطفال وحول أغاني الأطفال هو أغاني الأطفال باللسان الفرنسيّ، مع تعليقات جون بوكومون، فرانك غيبات ومعاونوه، منشورات سيفار. تظهر الخاصيّة الإقليمية في مثال مميّز مثل «بمبانيكاي» التي تقع تأديتها بطريقتين مختلفتين في غرويار، وفق «جانبيّ النهج» (صص ٢٧ - ٢٨)؛ لكن ليس ثمة أغنية أطفال بالمعنى الدّقيق للكلمة إلا عندما يكون ثمة توزيع للأدوار المختصّة في لعبة ما، وتكوين تنْضيد لعب قائم برأسه يعيد تنظيم الإقليم.

إقليميّ. لكنّه يتعلّق كذلك بالطريقة التي تتماسك بها تنضيدات مختلفة، مع مكوّنات انتقال وتناوب. قد يكون حتى من الممكن ألا يجد القوام جملة شروطه إلّا على صعيد كونيّ بخاصّة، حيث يقع استدعاء كلّ المتباينات وكلّ المتنافرات. غير أنّه في كلّ مرّة تتماسك فيها المتنافرات في تنضيد أو في بَيِّنَتْنِضيدات، يُطرح مشكل القوام بالفعل، في صيغة تَماع أو تعاقب، أو فيهما معا. حتّى في تنضيد إقليميّ، لعلّ المكوّن الأكثر لا تَأَرْضُنَا، المتّجّه المؤرّضين، وبالتالي اللّازمة هي التي تكفل قِوام الإقليم. لو طرح السّؤال العامّ «ما الذي يؤمّن التماسك؟»، يبدو أنّ الإجابة الأوضح والأسهل يقدّمها نموذج شجرانيّ، مُمرّكز، تراتبيّ، خطّيّ، مُشكلين. على سبيل المثال، خطاطة تبرغان (Tinbergen) الذي يبيّن تسلسلا مقنّنا لأشكال مكانيّة-زمنيّة في الجهاز العصبيّ المركزيّ: يبدأ مركز وظيفيّ أعلى بالاشتغال آلياً ويحرّك سلوك شهية، بحثاً عن مثيرات مخصوصة (مركز تنقّل)؛ بواسطة المثير، يتحرّر مركز ثان كان مكبوتا إلى حدّ الآن، يحرك سلوك شهية جديد (مركز إقليم)؛ ثمّ مراكز أخرى تابعة، مراكز تقاتل، تعشيش، مغارلة... وصولاً إلى المثيرات التي تحرك أفعال التّنفيد الملائمة^(١). غير أنّ هذا التّصوّر وقعت إقامته على ثنائيات في غاية البساطة: كبت-إطلاق، فطريّ-مكتسب، إلخ. لعلماء السّلك الحيوانيّ حظّ أوفر من الإثنولوجيين: لم يسقطوا في الخطر البنيويّ الذي يقسّم «ميدانا» إلى أشكال قرابة، أشكال سياسة واقتصاد وميث، إلخ. علماء السّلك الحيوانيّ حافظوا على تمام «مجال» معيّن غير مُقسّم. لكن نتيجة توجيهه مع ذلك وفق محاور كبت-إطلاق، فطريّ-مكتسب، فإنّهم يوشكون على إعادة إدخال أنفُس أو مراكز في كلّ وسط وفي كلّ مرحلة من مراحل التّسلسلات. لذلك حتى المؤلّفين الذين يلحّون كثيراً على دور الهامش والمكتسب على صعيد مثيرات

(١) تبرغان، دراسة الغريزة، منشورات جامعة أكسفورد.

[٣٠٤] التحريك لا يقلبون بشكل حقيقي الخطاطة الخطيّة الشجرانيّة، حتى وإن عكسوا وجهة السّهام.

يبدو لنا أنّه من الأهمّ التّأكيد على عدد معيّن من العوامل القادرة على إثارة خطاطة أخرى مغايرة تماما، لصالح اشتغال جزموريّ ولم يعد مُشجّرنا، قد لم يعد له أن يمرّ بهذه الثّنائيات. في المقام الأوّل، ما نسّميه مركزا وظيفيّاً لا يضع على المحكّ موضعةً بل توزيعاً لكثرة من الخلايا العصبيّة المنتقاة من داخل الجهاز العصبيّ المركزي في كليته، كما في «شبكة أسلاك». حينئذ، في جملة هذا الجهاز المنظور إليه هو بالذّات (تجارب حيث تكون السّبل النّاقلة مجزأة)، سيكون حديثنا عن آلية مركز علويّ أقلّ من حديثنا عن التنسيق بين مراكز، وتجمّعات خلويّة أو مجتمعات هبائيّة هي القائمة بهذه المزاوجات: ليس ثمة شكل أو بنية جيّدة هي التي تفرض نفسها، لا من الخارج ولا من الأعلى، إنّما ثمة بالأحرى تمفصل من الدّاخل، كما لو أنّ هباءات متأرجحة ومؤرجحة كانت تمرّ من مركز تنافريّ إلى آخر، حتى وإن كان ذلك من أجل سيطرة أحد هذه المراكز^(١). وهو ما يستبعد بطبيعة الحال العلاقة

(١) من ناحية، بيّنت تجارب والتار ريدولف هاس أنّه لم يكن ثمة مثل هذا المركز الدّماغيّ، بل ثمة نقاط متمركزة في منطقة، موزعة في أخرى، قادرة على إحداث نفس المفعول؛ عكسيّاً، يمكن أن يتغيّر المفعول وفق مدّة وشدة إثارة نفس النّقطة. من ناحية أخرى، تُبيّن تجارب فون هولست على الأسماك «منزوعة الألياف العصبيّة الرّابطة بين بنيتين عصبيتين» أهميّة التنسيق العصبيّ المركزي في إيقاعات الرّعاف: تفاعلات لم تأخذها خطاطة تنبرغان في الحسابان إلّا بشكل ثانويّ. غير أنّه في مشكل الإيقاعات اليوميّة تفرض نفسها أكثر من غيرها فرضيّة «مجتمع مؤرّجين»، «زمرة هباءات متأرجحة»، قد تُشكّل أنظمة تمفصلات من الدّاخل، بغضّ النّظر عن مقياس مشترك. راجع آلان راينبارغ، «الزّمن الحيويّ»، في علوم، الجزء الأوّل، ١٩٧٠؛ طوماس فان دان درياسش و آلان راينبارغ، «إيقاعات بيولوجيّة»، في الموسوعة الكونيّة، الجزء الرّابع عشر، ص ٥٧٢: «لا يبدو أنّه من الممكن اختزال آلية الإيقاعيّة اليوميّة في متتالية بسيطة لسيرورات ابتدائيّة.»

الخطيّة من مركز إلى آخر، لصالح حُزَم علاقات تقودها الهباءات: التفاعل أو التنسيق يمكنه أن يكون إيجابياً أو سلبياً (إطلاق أو كبت)، ويستحيل أن يكون مباشراً كما في علاقة خطيّة أو في تفاعل كيميائيّ، إنّه يتمّ دائماً بين هباءات ذات رأسين على الأقلّ، ويكون مع كلّ مركز بشكل منفصل^(١).

ثمة هنا «مكنية» بيولوجيّة-سلوكيّة بكاملها، [٤٠٥] هندسة هبائيّة بكاملها عليها أن تُفهمنا بشكل أفضل طبيعة مشكلات القِوام. الفيلسوف أوجين دوبريال كان اقترح نظريّة التّوطيد؛ كان بيّن أنّ الحياة لم تكن تذهب من مركز إلى برّانيّة بل من خارج إلى داخل، أو بالأحرى من مجموعة ضبابيّة أو غير ظاهرة إلى توطيدها. لكنّ التّوطيد يستتبع ثلاثة أشياء: ألا تكون ثمة بداية قد تصدر عنها متتالية خطيّة، إنّما تصدر عنها تكشيفات، اشتدادات، تعزيزات، حقنات، حشو، بوصفها أفعالا بينيّة («ليس ثمة نموّ إلّا بالإقحام»). في المقام الثاني، وذلك ليس مناقضاً، يجب أن يكون ثمة تهيئة الفواصل، توزيع التّفافات، لدرجة أنّه لنوطد، يجب في بعض الأحيان حفر ثقب. في المقام الثالث، تراكب إيقاعات متباينة، تمّ فصل من الدّاخل لبيّاقاعيّة دون فرض مقياس أو وتيرة^(٢). لا يكتفي التّوطيد بالحدوث لاحقاً، إنّه خلاق. ذلك أنّ البداية لا تبدأ إلّا بين إثنين، في فاصل. القِوام هو التّوطيد بالتّحديد،

(١) جاك مونو، المصادفة والحتميّة: حول التفاعلات اللّامباشرة وخاصّيتها غير الخطيّة، ص ٨٤-٨٥، ٩٠-٩١؛ حول الهباءات المناظرة، ذات الرّأسين على الأقلّ، صص ٨٣-٨٤؛ حول الخاصيّة الكبتيّة أو المطلّقة لهذه التفاعلات، صص ٧٨-٨١. كذلك قد تتوقّف الإيقاعات اليوميّة على هذه الخاصّيات (راجع الجدول في الموسوعة الكونيّة).

(٢) وضع دوبريال مجموعة من المصطلحات الطّرفيّة «قِوام» (في علاقة بـ«الهشاشة»)، «توطيد»، «فاصل»، «إقحام». راجع، نظريّة التّوطيد، العلة والفاصل، القِوام والاحتمال الموضوعيّ، بروكسال؛ محاولة في فلسفة القيم، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة؛ باشلار يتبنّى هذه الكتابات في ديكالكتيكا الدّيمومة.

الفعل الذي يُنتج الموطّد، بالتتابع كما بالتّماعي، مع العوامل الثلاثة: إقحام، فواصل، تراكبات- تمفصلات. تشهد على ذلك الهندسة المعماريّة بوصفها فنّ السّكن والإقليم: إذا كان ثمة توطيدات لاحقة، ثمة كذلك توطيدات هي أجزاء مكوّنة للكلّ، من صنف حجر الزّاوية. لكن، بشكل أحدث، موادّ مثل الإسمنت المسلّح أعطت للكلّ الهندسيّ المعماريّ إمكانيّة التخلّص من التّماذج الشّجرانيّة التي كانت تعمل بواسطة دعامات- أشجار، أعمدة- أغصان، سقف- أوراق. الإسمنت المسلّح ليس مادّة متنافرة تتغيّر درجة قوامها مع عناصر الخليط وحسب، بل يُقحّم فيه الحديد وفق إيقاع، بل أكثر من ذلك، إنّه يشكّل في الأسطح ذاتيّة- الدّعم شخصيّة إيقاعيّة معقّدة، حيث لل«قُضبان» أقسام مختلفة وفواصل متغيّرة تبعاً لشدّة ووجهة القوّة التي يجب الحصول عليها (دعامة وليست بنية). إنّه بهذا المعنى أيضاً تكون للأثر الموسيقيّ أو الأدبيّ هندسة معماريّة: «إشباع الذّرة» فيما كانت تقول فرجينيا وولف؛ أو وفق هنري ميّلار، يجب «البدء من بعيد، من أبعد ما يمكن»، والعمل بواسطة «كتل مادّة معروكة». لم يعد الأمر يتعلّق بفرض صورة على مادّة، إنّما بتطوير مادّة يتزايد ثراؤها، يتزايد رسوخها، قادرة مذكّك على التقاط [٤٠٦] قوى يتزايد اشتدادها. ما يجعل مادّة يتزايد ثراؤها، هو ما يجعل متنافرات تتماسك دون أن تتوقّف عن كونها متنافرات؛ ما يؤدّي إلى التماسك على هذا النّحو، هي المؤرّجحات، المرّكبات المقحّمة ذات الرّأسين على الأقلّ؛ إنّها محلّلات فواصل؛ إنّها مُزامِنات إيقاعات (لفظة «مُزامِن» لفظة ملتبسة، بما أنّ هذه المُزامِنات الهبائيّة لا تعمل بقياسات مُساوية أو مُجانسة، وتعمل من الدّاخل، بين إيقاعين). أليس التّوطيد هو الاسم الأرضيّ للقوام؟ التّضيد الإقليميّ هو موطّد وسط، موطّد مكان- زمان، موطّد تماعٍ وتعاقب. وتعمل اللّازمة بالعوامل الثلاثة.

لكن يجب أن تقدّم موادّ التّعبير ذاتها خصائص تجعل اتّخاذ مثل

هذا القوام أمرا ممكنا. لقد رأينا بهذا الخصوص قدرتها على الدخول في علاقات داخلية تشكّل خلايا لحنية وطباقات: تصبح التّعينات المؤرّضة خلايا لحنية أو طباقات إقليمية، وتُشكّل التّوقيعات واللّافات «أسلوبا». لقد كانت عناصر مجموعة ضبابية أو غير ظاهرة؛ لكنّها تتوطّد وتتخذ لها قواما. بهذا الاعتبار أيضا تكون لها مفاعيل، مثل إعادة تنظيم الوظائف وتجميع القوى. للتّمكن بشكل أفضل من آلية مثل هذه القدرة، يمكننا تحديد بعض شروط الانسجام والتّنظر أولا في علامات أو موادّ من نفس النّوع: على سبيل المثال، مجموعة علامات صائتة، تغريدة عصفور. لتغريد الشّرشور عادة ثلاث جُمْل متميزة: تتكوّن الجملة الأولى من أربع إلى أربع عشرة نوتة، في تصاعد الوتيرة وانخفاضها؛ تتكوّن الجملة الثانية من نوتتين إلى ثماني نوتات، بوتيرة ثابتة أخفض ممّا سبق؛ تنتهي الجملة الثالثة بـ«زُخرف» أو بـ«حلية» معقّدة. لكن من زاوية الاكتساب، هذا الإنشاد (الأغنية الكاملة) يكون مسبقا بما تحت- الإنشاد (ما دون- الأغنية) الذي يستتبع في الظروف العادية امتلاكا للمقام العامّ، للمدّة الإجمالية ولمضمون المقاطع، وله ميل حتى إلى الاختتام بنوتة أعلى^(١). لكنّ التّنظيم وفق ثلاثة مقاطع، نظام تعاقب هذه المقاطع، تفصيل الحلية، ليست معطاة؛ قد نقول تحديدا إنّ ما يُعوّز هي تفصيلات الدّاخل، الفواصل، النّوتات البينية، كلّ ما يكوّن خلية لحنية وطباقا. التّمييز بين ما تحت- الإنشاد والإنشاد قد يمكن عرضه على النّحو التّالي: ما تحت- الإنشاد [٤٠٧] بوصفه علامة أو لافتة، الإنشاد بوصفه أسلوبا أو خلية لحنية، القدرة على أنّه سيكون للعزل الاصطناعيّ مفاعيل مختلفة جدّا وفق حدوثة قبل اكتساب مكوّنات ما تحت- الإنشاد أو بعده.

لكن، ما يشغلنا حاليّا، هو بالأحرى معرفة ما يحدث عندما تكون

(١) حول تغريد الشّرشور، والتّمييز بين الأغنية الكاملة وما دون- الأغنية، راجع، ثورب، التّعلّم والغريزة عند الحيوانات، صص ٤٢٠-٤٢٦.

تلك المكوّنات قد تطوّرت فعليًا إلى خلايا لحنية وطبقات للنشيد. نخرج بالضرورة حينئذ من ظروف الانسجاميّة الكيفيّة التي كنّا وفرناها لذواتنا. ذلك أنّه طالما ظللنا عند علامات فإنّ علامات جنس توجد مع علامات جنس آخر ليس أكثر: تتواجد أصوات مع ألوان، مع حركات، مع خيالات لنفس الحيوان؛ أو أنّ أصواتٍ مثل هذا النوع تتواجد مع أصوات أنواع أخرى، مختلفة جدًا في بعض الأحيان لكنّها متقاربة موضوعيًا. لكنّ تنظيم العلامات المؤمّلة في خلايا لحنية وطبقات سيفضي بالضرورة إلى اتّخاذ قوام أو إلى الاستيلاء على علامات ذات كفيّة أخرى، إلى توصيل متبادل بين أصوات-ألوان-حركات، أو إلى أصوات أنواع حيوانيّة مختلفة... إلخ. يتمّ القوام حتماً من متنافرٍ إلى متنافرٍ: ليس لأنّه قد تكون ثمّة ولادة لانفراق، لكن لأنّ المتنافرات التي كانت تكتفي بالتواجد معاً أو بالتتابع هي الآن واقعٌ بعضها في بعضها الآخر، بواسطة «توطيد» تماعيها وتتابعها. ذلك أنّ الفواصل، البينيّات والتّمفصلات، المكوّنة للخلايا اللّحنية وللطّباقات في نظام كفيّة تعبيرية، تحيط كذلك بكيفيّات أخرى من نظام مختلف، أو أنّ كيفيّات من نفس النّظام، لكنّها من جنس آخر أو حتى من نوع حيوانيّ آخر. سد «يتجاوب» لون مع صوت. ليس ثمّة خلية لحنية وطباق لكيفيّة، لشخصيّات مفهوميّة ومشاهد نغميّة في نظام معيّن، دون تكوين أوبرا مكنيّة حقيقيّة تجمع النّظم، الأنواع والكيفيّات المتنافرة. ما نسمّيه مكنيّة هو بالتحديد هذه الشّملة من حيث هي شملة المتنافرات. من حيث أنّ هذه المتنافرات هي موادّ تعبير، نقول إنّ شميلتها ذاتها، قوامها أو الاستيلاء عليها، تشكّل «ملفوظاً» مكنيّاً بخاصّة. العلاقات المتنوّعة التي يدخل فيها لون، صوت، إيماءة، حركة، وضع، في نفس النّوع وفي نفس الأنواع المختلفة، تُشكّل الكثير من التلقّظات المكنيّة.

لنعد إلى نقّار الخشب، العصفور السّحريّ أو عصفور الأوبرا. ليس له ألوان زاهية (وكأنّه ثمّة كبت). لكنّ تغريده أو لازمته تُسمّع من

بعيد جدًا (هل هو تعويض أو [٤٠٨] على النقيض من ذلك هو عامل ابتدائي؟) إنه يغرد على غصنه (عصا الغناء)، على عارشة أو على فنن، مباشرة فوق المشهد الذي جهّزه (العَرْض الأرضي)، مشهدا موسوما بالأوراق المقطوعة والمقلوبة التي تتباين مع لون الأرض. في نفس الوقت الذي يغرد فيه، يكتشف الجذر الأصفر لبعض الريش تحت منقاره: إنه يصبح في نفس الآن مرثيا وصائتا. يشكّل تغريده خلية لحنية معقدة ومتنوعة، منسوجة من نواته الخاصة ومن نوات عصافير أخرى يحاكيها في الفواصل^(١). يتشكّل إذا موّطد «يتقوم» في أصوات مخصصة، أصوات أنواع أخرى، صبغة الأوراق، لون عنق: الملفوظة المكنية أو تنزيد تكلّفظ نقار الخشب. عديدة هي العصافير التي «تحاكي» تغريد العصافير الأخرى. لكن ليس من المؤكّد أن تكون المحاكاة مفهوما جيّدا بالنسبة إلى ظاهرات تتغيّر تبعا للتنزيد الذي تدخل فيه. يتضمّن ما تحت- الغناء عناصر بإمكانها الدّخول في تنظيمات إيقاعية ونغمية مختلفة عن تنظيمات النوع المعني، وبالتالي يزوّد النّشيد بنوات حقيقية غريبة أو مضافة. إذا كانت بعض العصافير مثل الشّرشور تبدو متمرّدة على المحاكاة، فذلك من حيث أنّ الأصوات الغريبة التي من المحتمل أن تطرأ في ما تحت- غنائها قد ألغيت من قِوام النّشيد. على النقيض من ذلك، في الحالات التي توجد فيها الجُمْل المضافة مأخوذة في النّشيد، فذلك ربّما لأنّه ثمة تنزيد بيّنوعيّ من صنف التّطفّل، لكن كذلك لأنّ تنزيد العصفور يقوم هو ذاته بطبقات نغمة. لم يكن ثورب مخطئا في قوله إنّ ثمة هنا مشكل استيلاء على التّردّدات كما في أجهزة المذياع (المظهر الصّائت للإقليمية)^(٢). لا يتعلّق الأمر بمحاكاة تغريدة

(١) أندراو جون مارشال، عصافير التعريشة، مطابع كلارندون، أكسفورد.

(٢) ثورب (Thorpe)، ص ٤٢٦. تطرح التّغاريذ بهذا الخصوص مشكلا مختلفا تماما عن مشكل الصّرخات التي تكون في أغلب الأحيان قليلة التّمايز، ومتشابهة عند الكثير من الأنواع.

بقدر ما يتعلّق بالاستيلاء على تردّدات مناظرة؛ ذلك أنّه قد يبدو من المفيد الالتزام تارة بمنطقة محدّدة جدّاً، عندما تكون الطّباقات مكفولة من مكان آخر، تارة على النقيض من ذلك قد يبدو من المفيد توسيع أو تعميق المنطقة ليؤمّن العصفور ذاته الطّباقات وابتكار التّوليفات التي قد تبقى منتشرة كما في الغابة الاستوائية حيث نعثر تحديداً على أكبر عدد من العصافير «المحاكية».

من زاوية القوام، ليس لموادّ التعبير أن تُلحق فقط بقدرتها على تكوين خلايا لحنية وطباقات، إنّما بالكوابح وبالمحفّزات التي تؤثر عليها، وبآليات الفطرية أو التّعلّم، بالآليات الوراثية أو المكتسبة التي تعدّلها. غير أنّ خطأ [٤٠٩] علم السلوك الحيواني هو بقاءه عند توزيع ثنائي لهذه العوامل، حتى عندما نؤكّد وبشكل خاصّ على ضرورة أخذ العاملين في الاعتبار في نفس الوقت، وخلطهما في كلّ مستويات «شجرة سلوكات». قد يتوجّب بالأحرى الانطلاق من مصطلح إيجابيّ قادر على الإحاطة بالخاصية الخاصة جدّاً التي يتّخذها الفطريّ والمكتسب في جذمور، والتي قد تكون بمثابة علّة اختلاطهما. لن نعثر عليها في صيغة سلوك وإنّما في صيغة تنضيد. يشدّد بعض المؤلّفين على المسارات المقنّنة القائمة برأسها في مراكز (الفطرية)؛ يشدّد آخرون على التسلسلات المكتسبة التي تضبطها إحساسات محيطيّة (التّعلّم). لكنّ رايمون رويار (Raymond Ruyer) كان بيّن بالفعل أنّ الحيوان كان بالأحرى فريسة «إيقاعات موسيقيّة»، «ألحان إيقاعيّة ونغميّة» لا تُنفسر لا بتقنين أسطوانة فونوغراف مسجّلة ولا بحركات العزف التي تنفّذها وتُكيّفها مع الطّروف^(١). بل قد يكون الأمر على النقيض من ذلك: الألحان الإيقاعيّة أو النّغميّة تسبق تنفيذها وتسجيلها. قد يكون ثمة أوّلا قوام لازمة، لحن صغير، سواء في شكل نغم ذاكريّ قد لا يكون في

(١) رايمون رويار، تكوّن الأشكال الحيّة، الفصل السابع.

حاجة لتدوينه موضعياً في مركز، سواء في شكل خلية لحنية غامضة قد لا تكون في حاجة إلى أن تكون موقّعة أو محفّزة بالفعل. مصطلح شعريّ وموسيقىّ مثل مصطلح المُولديّ- في التّريمة، أو عند هلدلين أو كذلك عند طوماس هاردي- لعلّه قد يعلّمنا أكثر ممّا تعلّمنا مقولات الفطريّ والمكتسب الباهتة بعض الشيء والمشوّشة. إذ، مذ يكون ثمة تنضيد إقليميّ، يمكننا القول إنّ الفطريّ يتخذ صورة خاصّة جدّاً بما أنّه لا ينفصل عن حركة إلغاء التقنين، بما أنّه يمرّ على هامش التقنين، على النقيض من فطريّ الوسط الداخليّ؛ ويتّخذ الاكتساب كذلك صورة خاصّة جدّاً بما أنّه مؤرّضن، أي أنّه معدّل على موادّ تعبير ولم يعد معدّلاً على مثيرات الوسط الخارجيّ. المُولديّ هو الفطريّ تحديداً، لكنّه الفطريّ اللّا مقنّن، وهو المكتسب تحديداً، لكنّه المكتسب المؤرّضن. المُولديّ هو هذه الصّورة الجديدة التي يكتسيها الفطريّ والمكتسب في التّنضيد الإقليميّ. من هنا الأفعال الخاصّ بالمُولديّ مثلما نفهمه في التّريمة، أن يكون دائماً مفقوداً أو يقع العثور عليه من جديد أو هو ينزع دوماً باتجاه الوطن المجهول. في المُولديّ ينزع الفطريّ إلى التّنقل: مثلما يقول رويار، هو سابق نوعاً ما وهو في السّافلة بالنّسبة إلى الفعل؛ إنه لا يتعلّق بالفعل أو بالسلوك بقدر ما يتعلّق بموادّ التعبير ذاتها، بالإدراك الذي يميّز بينها وينتقيها، بالحركة التي تبنيها أو تُكوّنها هي ذاتها (لذلك ثمة «فترات حرجة» يثمنّ فيها الحيوان [٤١٠] موضوعاً أو وضعيّة، «يتشبع» بمادّة تعبير قبل أن يكون قادراً على تنفيذ السلوك الموائم). غير أنّ ذلك لا يعني أنّ السلوك متروك لمصادفات التّعلّم؛ إذ هو محدّد مسبقاً بهذا التّنقل، ويجد في أرضنته الخاصة قواعد التّنضيد. يتمثّل المُولديّ إذاً في إبطال تقنين الفطريّة وفي أرضنة التّعلّم، أرضنة أحدهما على الآخر، أحدهما مع الآخر. ثمة قوام للمُولديّ لا يفسر بخلط بين الفطريّ والمكتسب، بما أنّه على النقيض من ذلك يعرض هذه الأخلاط صلب التّنضيد الإقليميّ

وصلب البيّنضيدات. باختصار، مصطلح السلوك هو الذي تبين أنه غير كاف، أنه خطّي جدًا بالنسبة إلى مصطلح التنضيد. يذهب المولديّ ممّا يحدث في الضمّتنضيد حتى المركز الذي يمتدّ إلى الخارج، يجوب البيّنضيدات، ويذهب حتى أبواب الكون.

ذلك أنّ التنضيد الإقليمي ملازم لخطوط أو لمعاملات اللاتأرضن، للتقلّات نحو تنضيدات أخرى ولمناوباتها. غالبا ما وقعت دراسة تأثير الظروف الاصطناعيّة على تغريد العصافير؛ لكن النتائج تختلف من ناحية مع الأنواع، من ناحية أخرى مع نوعيّة المهارات وزمانها. الكثير من العصافير تتقبّل تغريد عصافير أخرى نُسِمِعها إيّاها في اللّحظة الحرجة، وتكرّر لاحقا هذه التّغاريد الغريبة عنها. غير أنّ الشّرشور يبدو أنّه أكثر التزاما بموادّ تعبيره الخاصّة، وحتى وهو معرّض لأصوات تركيبيّة، فإنّه يحافظ على إحساس فطريّ بنغميّة الخاصّة. كل شيء يتوقّف كذلك على اللّحظة التي نزل فيها العصافير، بعد اللّحظة الحرجة أو قبلها؛ إذ في الحالة الأولى، تُطوّر الشّراشير تغريدا عاديّا تقريبا، بينما في الحالة الثّانية، عناصر المجموعة المعزولة، التي لا يمكنها إلّا سماع بعضها البعض، تُطوّر تغريدا شادّا، غير مخصوص، ومع ذلك تشترك فيه المجموعة (راجع ثورب). ذلك أنّه يجب على أيّة حال، أن نأخذ في الاعتبار تأثيرات اللّاتأرضن ومغادرة الموطن الأمّ على مثل هذا النوع وفي مثل هذه اللّحظة. في كلّ مرّة يؤخذ فيها تنضيد إقليميّ في حركة لا تُورضنه (في ظروف تسمّى طبيعيّة، أو على النقيض من ذلك اصطناعيّة)، قد نقول إنّ مكنة بدأت تشتغل. بل ذلك هو الفرق الذي قد نوّد إقامته بين مكنة وتنضيد: المكنة هي بمثابة مجموعة من الأطراف التي تندرج في التنضيد الذي هو في طريقه إلى اللّاتأرضن، لرسم تغيّراته وتحولاته. إذ ليس ثمة مفاعيل آليّة؛ المفاعيل مكنيّة دوما، أي أنّها تتوقّف على مكنة في اتّصال بالتنضيد، ومتحرّرة بواسطة اللّاتأرضن. ما نسمّيه ملفوظات مكنيّة، هي هذه المفاعيل التي هي

مفاعيل مكنة [٤١١] تحدّد القوام الذي تدخل فيه موادّ التعبير. مثل هذه المفاعيل يمكن أن تكون شديدة التّنوع، لكنّها ليست رمزية أو خياليّة أبداً، لها دائماً قيمة عبور ومناوبة حقيقيّة.

عادة ما توصّل مكنة بتنضيد إقليميّ مخصوص وتفتحه على تنضيدات أخرى، تجعله يمرّ بـيّنتنضيدات من نفس النوع: على سبيل المثال، التّنضيد الإقليميّ لنوع عصفور يفتح على يّنتنضيدات مغازلته أو قطيعيّة، باتّجاه الشّريك أو «المصاحب». لكن يمكن كذلك للمكنة أن تفتح التّنضيد الإقليميّ لنوع ما على تنضيدات بيّنوعيّة، كما في حالة العصافير التي تأخذ تغاريد غريبة عنها، ومن باب أولى في حالات التّطفليّة^(١). أو كذلك، يمكن للمكنة أن تغمر كلّ تنضيد لتنتج انفتاحاً على الكون. أو عكسيّاً، عوض فتح التّنضيد المؤرّض على شيء آخر، يمكنها إنتاج مفعول تغليق، وكأنّ الكلّ كان سقط ودار في ضرب من الثّقب الأسود: ذلك هو ما يحدث في ظروف اللّاتأرّض المبكّرة والعنيفة، وعندما تنسدّ السّبل النّوعيّة، البيّنوعيّة والكونيّة؛ حينها تنتج المكنة مفاعيل «فرديّة» للجماعة، وكأنّها تدور في حلقة مفرغة، كما في حالة الشّراشير التي عُزلت مبكّراً، والتي لم يعد تغريدها المفقّر والمبسّط يعبر إلّا عن إصااة الثّقب الأسود الذي حُست فيه. من المهمّ العثور هنا على وظيفة «الثّقب الأسود» هذه، لأنّها قادرة على جعلنا نفهم ظاهرات الكبت بشكل أفضل، والقطع بدورها مع ثنائية بالغة الصّرامة، ثنائيّة كابت- مطلق. فعليّاً، تنتمي الثّقوب السّوداء إلى تنضيدات ناهيك عن خطوط اللّاتأرّض: لقد رأينا سابقاً أنّ يّنتنضيد كان بإمكانه أن يتضمّن خطوط تفكير وتثبيت تفضي إلى ثقب أسود،

(١) خاصّة حول «الحاضنات» (فيدوين)، عصافير طفيليّة لها تغريد إقليميّ مخصوص، ولها تغريد مغازلة تتعلّمه من ضيفها بالتّبيّن: راجع يورغن نيكولاي، تطفليّة حاضنة الفيدوين، منشورات ز. تياريس، الجزء XXI، ١٩٦٤.

حتى وإن وقع استبدال هذا التثبيت بخط لا تَأْرُضُنْ أثرى أو بخط إيجابيّ (هكذا مكوّن «القليل من العشب»، عند شراشير أستراليا، يسقط في ثقب أسود، ويقع استبداله بمكوّن «لازمة»^(١)). هكذا يكون الثقب الأسود مفعول [٤١٢] مكنة في التّنْضيدات، في علاقة معقّدة مع المفاعيل الأخرى. حتى تنطلق، قد يصادف أن تكون سيرورات مجدّدة في حاجة إلى السّقوط في ثقب أسود يشكّل كارثة؛ تنضاف توقّفات كبت إلى انطلاقات سلوكات-مفترقات. في المقابل، عندما تدوّي الثّقوب السّوداء معا، أو عندما تتزاج الموانع وتتصادى، نكون في حضرة انغلاق التّنْضيد بوصفه لا مُتَأْرِضُنا في الخلاء، بدلا من انفتاح قواميّ: هكذا هي الحال بالنّسبة إلى مجموعات الشّراشير الصّغيرة المعزولة. المكنات هي دوما مفاتيح فريدة تفتح أو تغلق تنْضيدا، إقليميا. أكثر من ذلك، لا يكفي أن نجعل المكنة تتدخّل في تنْضيد إقليميّ معيّن؛ إنّها تتدخّل بالفعل في انبثاق موادّ التّعبير، أي في تكوين هذا التّنْضيد، وفي موجّهات اللّاتأْرُضُنْ التي سريعا ما تعرّكه.

إذن، يحيل قوام موادّ التّعبير من ناحية إلى قدرتها على تشكيل ألحان إيقاعيّة ونغميّة، من ناحية أخرى على اقتدار المولديّ. ثمّة في الأخير وجه آخر هو علاقتها الخاصّة جدّا بالهبائيّ (تضعنا المكنة تحديدا على هذه الطّريق). الكلمات ذاتها «موادّ تعبير» تستتبع كون

(١) تظهر الكيفيّة التي ينتمي بها ثقب أسود إلى تنْضيد في كثير من أمثلة الكبت أو الإغواء-الانتشاء، وخاصّة في مثال الطّاووس: «ينفش الذّكر ريش ذيله في شكل مروحة (...)، ثمّ يجعله يميل إلى الأمام، ويشير إلى الأرض بمنقاره وقد انتصبت رقبته. تسرع الأنثى وتنقر باحثة عن الموضع المحدّد في الأرض الذي توجد فيه النّقطة البوريّة التي حدّدها تجويف الرّيش المنظّم لشكل المروحة. يوحي الذّكر ظاهريّا بطريقة ما بواسطة مروحة ذيله بوجود طعام خياليّ» (آيبل آيسفالدت (Eibl-Eibesfeldt)، علم السّلوّك الحيواني، ص ١٠٩). لكن كما أن القليل من العشب للشّرشور ليس ظلّلا أو رمزا، النّقطة البوريّة للطّاووس ليست مخيالا، إنّها محوّل تنْضيد ومرور إلى تنْضيد مغازلة، قام به هنا ثقب أسود.

التعبير له مع المادة علاقة أصلية. باتخاذها قواما شيئا فشيئا، تُشكّل موادّ التعبير سيميائيات، لكنّ المكونات السيميائية ملازمة للمكونات المادية، وهي مسيطرة بشكل عجيب على المستويات الهبائية. إذا، تتمثل المسألة كلّها في معرفة ما إذا كانت العلاقة كتلويّ- هبائيّ لا تتخذ هنا شكلا جديدا. بالفعل أمكننا التمييز بعامة بين توليفات «كتلويّ- هبائيّ» تتغيّر كثيرا تبعا للوجهة المتّبعة. في المقام الأوّل: يمكن للظواهرات الفردية للذرة أن تدخل في تراكمات إحصائية أو احتمالية تسعى إلى محو فرديتها، بالفعل في الهباء ثمّ في الكلّ الكتلويّ؛ لكن يمكنها كذلك أن تتعقّد بتفاعلات وتحافظ على فرديتها صلب الهباء ثمّ صلب الهباء- الكبرى، إلخ.، وذلك بتركيب اتّصالات مباشرة بين أفراد من مستويات مختلفة^(١). في المقام الثاني: نرى جيّدا أنّ الفرق ليس كائنا بين الفرديّ والإحصائيّ؛ في الواقع، [٤١٣] يتعلّق الأمر دائما بسكّان، الإحصاء يخصّ ظاهرات فردية، كما لا تعمل الفردية المضادة للإحصاء إلّا عن طريق سكّان هبائيين؛ الفرق كائن بين حركتيّ جماعة، كما في معادلة أالمبار (Alembert)، حيث تنزع جماعة نحو حالات احتمالية أكثر فأكثر، متجانسة ومتوازنة (موجة متباعدة وإمكان مؤجّل)، لكنّ الجماعة الأخرى تنزع نحو حالات تتركز أقلّ احتمالا (موجة متقاربة وإمكان مستبق)^(٢). في المقام الثالث: القوى الدّاخلية الضّمهبائية التي تمنح شكلها الكتلويّ لمجموعة، يمكن أن تكون من صنفين، إمّا علاقات قابلة للموضوعة، علاقات خطيّة، آلية، شجرانية، تساهمية، خاضعة لشروط الفعل وردّ الفعل الكيميائية، لردود الفعل المتسلسلة، أو علاقات لا تقبل الموضوعة، علاقات فوّخطيّة، مكنيّة وليست آلية، غير تساهمية، غير

(١) رايمون رويار، تكوّن الأشكال الحيّة، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) فرانسوا مايار، إشكالية التطوّر، المطابع الجامعية الفرنسية.

مباشرة، تعمل وفق تفريق أو تمييز انتقائي مجسّم بدلا من العمل تسلسلياً^(١).

ثمة هنا طرق كثيرة للتعبير عن نفس الفرق، لكنّ هذا الفرق يبدو أكثر اتساعا بكثير من الفرق الذي نبحث عنه: إنّه يخصّ بالفعل المادّة والحياة، أو حتى أنه يخصّ بالأحرى، بما أنّه ليس ثمة إلاّ مادّة واحدة، حالتين، وجهتين للمادّة الذريّة (على سبيل المثال، ثمة روابط يثبّت أحدها بالنسبة إلى الآخر الذرّات المترابطة، وروابط أخرى تمكّن من دوران حرّ). إذا أعلنّا عن الفرق في شكله الأعمّ، سنقول إنّه يقوم بين منظومتين متراصفتين، منظومات تراصّف من ناحية، ومن ناحية أخرى مجموعات ذات قوام، ذاتيّة القوام. لكن على وجه التّحديد، بعيدا عن كونه مخصّصا لأشكال حيويّة معقّدة، القوام يخصّ فعليّا بشكل كامل الذرّة والجُسيمات الأشدّ بساطة. ثمة منظومة تراصف مقنّنة في كلّ مرّة توجد فيها في الاتجاه الأفقيّ سببيّات خطيّة بين العناصر؛ وعموديا، تراتبيّات نظام بين تجمّعات؛ ولجعل الكلّ متماسكا في العمق، يكون ثمة تتابع صور مؤطّرة تُشكّل كلّ واحدة منها مادّة وتُستعمل من ناحيتها كمادّة للصّورة الأخرى. هذه السببيّات، هذه التراتبيّات، هذه التّأطيرات، ستكون طبقة كما انتقال طبقة إلى أخرى وكذلك التّوليفات المتراصفة للهبائيّ والكتلويّ. سنتحدّث على النقيض من ذلك عن مجموعات قوام عندما سنجد ذواتنا إزاء مجمّعات ذات مكوّنات متنافرة جدّا، انقطاعات نظام، أو حتّى سببيّات مقلوبة، استيلاءات متبادلة بين موادّ وقوى ذات طبيعة أخرى، بدلا من تتابع منتظم للصّور- الموادّ: [٤١٤] كأنّ شعبة مكنيّة، عَرْضانيّة لا تراصفيّة كانت تمرّ عبر العناصر، النّظم، الصّور والموادّ، الكتلويّ والهبائيّ، لتحرير مادّة وأسر قوى.

(١) جاك مونرو، المصادفة والحتميّة.

لكن إن نحن تساءلنا عن «موقع الحياة» في هذا التمييز، نرى دون شك أنه يستتبع كسبا قواميًا، أي فائض - قيمة (فائض - قيمة لا ترافقي). على سبيل المثال، يتضمن عددا أكبر من المجموعات ذاتية القوام، من سيرورات التوطيد، ويمنحها مدى كتلويًا. إنه لا ترافقي بالفعل بما أن تقنيته ليس موزعا على الطبقة كلها، لكنه يشغل خطأ وراثيًا على درجة عالية من التخصص. لكن السؤال يكاد يكون تناقضيًا، لأنّ التساؤل عن موقع الحياة يساوي التعاطي معها على أنها طبقة خاصّة، لها نظامها وتأتي في حينها داخل هذا النظام، لها صورتها وموادها. ومن الحقيقي هي الاثنان في نفس الوقت: منظومة ترافق معقدة بشكل خاص، ومجموعة قوام تبعثر النظم، الصور والمواد. هكذا رأينا كيف كان الحيّ يجري تقنيًا متنقلًا للأوساط، يمكن اعتباره كذلك بمثابة المكوّن لطبقة بمثل ما هو القائم بسببيّات مقلوبة وعرضانيّات لا ترافق. مباشرة يمكن أن يُطرح سؤال متى لم تعد الحياة تكتفي بخلط الأوساط إنّما تنضد أقاليم. يستتبع التنضيد الإقليمي لا تقنيًا، وليس معزولا هو ذاته عن لا تارُضن يؤثر عليه (ضربان جديدان من فائض - القيمة). نفهم حينئذ أنّ «علم السلوك الحيواني» هو مجال كتلويّ مبجل جدًا، لنبيّن كيف أنّ المكوّنات الأشدّ تنوعًا، المكوّنات البيوكيميائيّة، السلوكيّة، الإدراكيّة، الوراثة، المكتسبة، المرتجلة، الاجتماعيّة، إلخ.، يمكنها أن تتبلّر في تنضيدات لا تحترم لا التمييز بين النظم ولا تراتبيّة الأشكال. ما يجعل كلّ المكوّنات متماسكة هي العرضانيّات، والعرضانيّة ذاتها هي مكوّن يضطلع بموجّه اللا أرضنة المختصّ وحسب. بالفعل، لا يقوم تنضيد بواسطة حركة الأشكال المؤطرة أو السببيّات الخطيّة، إنّما بمكوّنه الأشدّ لا تارُضنا، بطرف لا تارُضن حاليًا أو إمكانيًا: اللّازمة على سبيل المثال، هي أكثر لا تارُضنا من القليل من العشب، وهو ما لا يمنعها من أن تكون «محدّدة»، أي في اتصال بمكوّنات بيوكيميائيّة وهبائيّة. يقوم التنضيد

بمكوّنه الأكثر لا تَارُضُنَا، لكنّ هذا المكوّن لا يعني أنّه غير محدّد (يمكن للآزمة أن تكون مرتبطة بشكل وثيق بهرمونات [٤١٥] ذكوريّة)^(١). مثل هذا المكوّن الذي يدخل في تنضيد يمكن أن يكون الأكثر تحدّداً وحتى الأكثر آليّة، لكنّه مع ذلك يمنح «حركة» لما يكوّنه، إنّّه يدعم دخول أبعاد جديدة للأوساط، إنّّه يطلق سيرورات تمييز، تخصّص، تقلّص، تسارع، تفتح إمكانات جديدة، تفتح التّنضيد الإقليمي على يّتنضيدات. لنعد إلى نقّار الخشب: يتمثّل فعله، واحد من أفعاله، في التّمييز وفي جعل الآخرين يميّزون بين وجهي الورقة. هذا الفعل في اتّصال بحتميّة المنقار المسنّن. بالفعل، ما يحدّد التّنضيدات هي في نفس الوقت موادّ تعبّير تتخذ لها قواماً بغضّ النظر عن العلاقة صورة- مادّة، سببيّات مقلوبة أو حتميّات «متقدّمة»، فطريّات لا مقنّنة تتعلّق بأفعال تمييز أو انتقاء، ولم تعد تتعلّق بردود أفعال متتابعة؛ توليفات هبائيّة تعمل بواسطة ترابطات غير تساهميّة وليس بواسطة علاقات خطيّة؛ باختصار، «هيئة» جديدة ولّدها تداخل السّيميائيّ والمادّي. إنّّه بهذا المعنى يمكننا أن نعارض ذاك الذي كان ما يزال تراصّف أوساط، بقوام التّنضيدات. لكن هنا أيضاً، هذا التّعارض ليس إلّا تعارضاً نسبياً، نسبياً بالتّمام. مثلما تتأرجح الأوساط بين حالة طبقة وحركة لا تراصف، تتأرجح التّنضيدات بين انغلاق إقليميّ يسعى إلى إعادة تراصفها، وانفتاح لا مؤرّضن يصلها على النقيض من ذلك بالكون. لم يعد من الغريب حينئذ ألا يكون الفرق الذي كنّا نبحث عنه قائماً بين التّنضيدات وشيء آخر بقدر ما هو قائم بين حدّي كلّ تنضيد ممكن، أي بين منظومة الطّبقات ومسّطح القوام. ولا يجب أن ننسى أنّه على مسّطح القوام تتصلّب الطّبقات وتنظم،

(١) إناث العصافير التي لا تغرّد عادة، تبدأ بالتغريد عندما نحقنها بهرمونات جنسيّة ذكوريّة، و«تعيد تغريد النوع الذي تطبّعت به» (آيل آيسفالدت، ص ٢٤١).

وأَنَّه في الطَّبقات يعمل مَسَطَّح القِوام وينبني، الاثنان معا قطعة بقطعة، خطوة بخطوة، عملية بعملية.

لقد ذهبنا من الأوساط المتراصفة إلى التَّنْضيدات المؤرَّضنة؛ وفي نفس الوقت من قوى الشَّواش مثلما هي مُهوَّاة، مقنَّنة، متحوَّلة التَّقنين عن طريق الأوساط، وصولا إلى قوى الأرض مثلما هي مستجمَّعة في التَّنْضيدات. ثمَّ ذهبنا من التَّنْضيدات الإقليميّة إلى البَيْتَنْضيدات، [٤١٦] إلى انفتاحات التَّنْضيد وفق خطوط لا تَأْرُضْنَ؛ وفي نفس الوقت من قوى الأرض المَجْمَّعة إلى قوى الكون اللَّامُتَأْرُضِنة، أو بالأحرى اللَّامُؤرَّضِنة. كيف يقدِّم بول كُلِّي هذه الحركة الأخيرة التي لم تعد «هيئة» أرضيّة بل هي «منفذ» كونيّ؟ وَلِمَ هذا اللَّفْظ الضَّخْم جدّا مثل لفظ الكون، للحديث عن عملية يجب أن تكون دقيقة؟ يقول كُلِّي إِنَّا «نبذل جهدا بطفرات لكي نُقْلِع من الأرض»، «نعلو فوقها تحت تأثير قوى نابذة تتغلَّب على الجاذبيّة». يضيف أَنَّ الفنَّان يبدأ بالنَّظر حوله، في كلّ الأوساط، لكن ليدرك أثر الخلق في المخلوق، أثر الطَّبيعة الطَّابِعة في الطَّبيعة المطبوعة؛ ومن بعد ذلك، وهو يستقرّ «في حدود الأرض»، يهتمّ بالمجهر، بالبلُّورات، بالهباءات، بالذَّرات والجُسيمات، ليس من أجل الملاءمة العلميّة، إِنَّمَا من أجل الحركة، فقط من أجل الحركة المحايّثة؛ يقول الفنَّان لنفسه إِنَّ هذا العالَم كانت له مظاهر مختلفة، وستكون له مظاهر أخرى أيضا، وثمة بالفعل مظاهر أخرى على كواكب أخرى؛ أخيرا إِنَّه ينفّث على الكون ليلتقط القوى في «أثر» (من دون ذلك قد لا يكون الانفتاح على الكون غير حُلْم يقظة عاجز عن توسيع حدود الأرض)، ويجب أن تكون ثمة من أجل مثل هذا الأثر، وسائل بسيطة جدّا، نقيّة جدّا، تكاد تكون طفوليّة، لكن يجب أن تكون ثمة أيضا قوى شَّعب، وذلك هو الذي ما يزال مفقودا، «تعوزنا هذه القوّة الأخيرة، نبحث عن هذا الدَّعم الشعبيّ،

بدأنا في بوهوس (Bauhaus)، ليس باستطاعتنا القيام بأكثر من ذلك...^(١)».

عندما نتحدث عن المنزع الكلاسيكيّ فإننا نعني علاقة بين الصّورة- المادّة، أو بالأحرى الصّورة- الهيولى، الهيولى هي بالتحديد مادة غير متشكّلة. تتابع صور مقسّمة، مُمرّكة، مترتبة بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر، تباشر هذه الصّور تنظيم المادّة، تضطلع كلّ واحدة منها بجزء مهمّ نوعاً ما. كلّ صورة هي بمثابة تقنين لوسط، والانتقال من صورة إلى أخرى هو انتقال حقيقيّ للتقنين. حتّى الفصول هي أوساط. ثمّة هنا عمليّتا وجود مشترك، واحدة تنفرق بها الصّورة وفق التّمييزات الثنائيّة، الأخرى تدخل بها الأجزاء الهيولانيّة اللامتشكّلة، الأوساط أو الفصول، في نظام تتابع يمكن أن يكون هو ذاته في الاتّجاهين. لكن، تحت هذه العمليّات، يخاطر الفنّان الكلاسيكيّ بمغامرة قصوى وخطيرة. إنّهُ يهُويّ الأوساط، يفصل بينها، يجعلها منسجمة، ينظّم اختلاطاتها، يمرّ من الواحد إلى الآخر. ما يواجهه على هذا النّحو هو الشّواش، قوى الشّواش، قوى مادّة خام عنيدة، على الصّور [٤١٧] أن تفرض عليها نفسها لتشكيل هيولات، تقنيات، من أجل صنع أوساط. رشاقة مذهلة. إنّهُ بهذا المعنى لم نتمكّن أبداً من رسم حدود واضحة بين الباروكيّ والكلاسيكيّ^(٢). الباروكيّ كلّهُ يزمجر في عمق الكلاسيكيّ؛ مهمّة الفنّان الكلاسيكيّ هي مهمّة الله ذاته، تنظيم الشّواش، وصرخته الوحيدة هي الخلق! الخلق! شجرة الخلق! نايّ خشبيّ عتيق ينظّم الشّواش، لكنّ الشّواش حاضر هنا مثل ملكة اللّيل. يعمل الفنّان الكلاسيكيّ وفق الواحد- اثنين: واحد- اثنان

(١) بول كُلي، نظريّة الفنّ الحديث، صص ٢٧- ٣٣.

(٢) راجع، النّهضة، الثّانقيّة، الباروك، أعمال تريبّس تور الحادي عشر، منشورات فران، الجزء الأوّل حول ال«تحقيقات».

انفراق الصّورة من حيث انقسامها (رَجُل - امرأة، إيقاعات ذكورية وأنثوية، الأصوات، عائلات الآلات، كل ثنائيات الفنّ الجديد)؛ واحد - اثنان التّمييز بين الأجزاء من حيث تجاوبها (النّاي المسحور والجرس السّحري). الأغنية الخفيفة، لازمة العصفور، هي الوحدة الثّنائية للخلق، الوحدة الانفراقية للبدء المحض: «أولا البيانو المنفرد يشكو مثل عصفور هجرته شريكته، يسمعه الكمان، يجيبه كما من شجرة مجاورة. كان الحال كما في بداية العالم، كما لو أنّه لم يكن غيرهما على الأرض، أو بالأحرى في هذا العالم المغلق في وجه كلّ شيء، عالما مبنيا وفق منطق خالق وحيث قد لا يكون فيه أبدا غيرهما: هذا اللّحن لآلة منفردة^(١)».

لو نحاول كذلك تعريف الرومنطيقيّة بشكل إجماليّ، نرى بوضوح أنّ كلّ شيء يتغيّر. صرخة جديدة تدوي: الأرض، إقليم الأرض! إنّهُ مع الرومنطيقيّة يتخلّى الفنّان عن طموحه إلى كليّة من جهة الحقّ وعن منزلته كخالق: إنّهُ يتأرّضن، يدخل في تنضيد إقليميّ. المواسم مؤرّضنة الآن. ودون شكّ ليست الأرض هي والإقليم نفس الشيء. الأرض هي هذه النّقطة المشتدّة في أعماق الإقليم، أو هي منقذة خارجه بوصفها نقطة بؤريّة تجتمع فيها كلّ القوى متجابهة. لم تعد الأرض قوّة من بين القوى، لم تعد هيولى ذات صورة أو وسطا مقنّنا قد يكون له حصنه وحصّته. أصبحت الأرض مَعمعة كلّ القوى، قوى الأرض كما قوى كلّ الموادّ الأخرى، بحيث أنّ الفنّان لم يعد يجابه الشّواش بل الجحيم والتّحارّضي وما لا قرار له. لم يعد يواجه خطر الذّوبان في الأوساط بل التوغّل بعيدا جدّا في الأرض. إنّهُ أنباذوقليدس. لم يعد يتماهى والخلق، إنّما والأساس أو التّأسيس، التّأسيس هو الذي أصبح خلاقا. لم يعد الإله بل البطل الذي يتحدّى الله: لنؤسّس، لنؤسّس،

(١) بروست، جانب منزل سوان، منشورات لابلداد، الجزء الأوّل، ص ٣٥٢.

وليس لنخلق. فاوست، خاصّة [٤١٨] فاوست الثاني، قاده هذا الاتجاه. الدغمائية، كاثوليكية الأوساط (تقنين)، وقعت الاستعاضة عنها ببروتستانتية الأرض. والأكّد أنّ الأرض بوصفها نقطة مشتدّة في العمق أو في الانتشار، بوصفها علّة وجود، هي منزاحة دوما بالنسبة إلى الإقليم؛ والإقليم، بوصفه شرط «معرفة»، علّة معرفة، هو دائما في انزياح بالنسبة إلى الأرض. الإقليم ألمانيّ بينما الأرض يونانيّة. وفعلا، إنّ هذا الانزياح هو الذي يصنع منزلة الفنّان الرّومنطقيّ من حيث أنّه لم يعد يواجه انفجار الشّواش وإنّما جاذبيّة القاع. الأغنية الخفيفة، لازمة العصفور تغيّرت: إنّها لم تعد بداية العالم، إنّها ترسم على الأرض التّنضيد الإقليميّ. فجأة، لم تعد مصنوعة من جزأين متأكّفين يبحثان عن بعضهما البعض ويتجاوبان، إنّها تتّجه إلى نشيد أعمق يؤسّسها، لكنه يصطدم بها أيضا، يجرفها ويجعلها تُشتر. اللّازمة متكوّنة بشكل لا انفصام فيه من أغنية الإقليم ومن نشيد الأرض الذي يرتفع ليغطّيها. هكذا، في نهاية نشيد الأرض، التّواجد المشترك للخليّتين اللّحنيّتين، واحدة نغميّة تستحضر تنضيدات العصفور والأخرى إيقاعيّة، هي تنفّس عميق للأرض أزليّا. يقول مالار (Mahler) إنّ تغريد العصافير، لون الأزهار، رائحة الغابات لا تكفي لصنع الطّبيعة، ذلك يتطلّب وجود الإله ديونيزوس أو إله الأركاديين العظيم. لازمة أصلانية للأرض تلتقط كلّ اللّازمات الإقليميّة أو غيرها، وكلّ لازمات الأوساط. في أوبرا الفوزّاك، لازمة أغنية المهد، اللّازمة العسكريّة، لازمة الشّرب، لازمة الصّيد، وفي الأخير اللّازمة الطّفوليّة، هي بمثابة التّنضيدات الرّائعة التي تحملها مكنة الأرض القويّة وأطراف هذه المكنة: صوت أوبرا فوزّاك الذي تصبح به الأرض صائتة، صرخة الموت التي تمرّ على البركة وقد أطلققتها مريم، نوتة السّي المضاعفة عندما تزار الأرض... هذا الانزياح، هذا اللّاتقنين هو الذي يجعل الفنّان الرّومنطقيّ يحيا الإقليم، لكنّه يحياه ضرورة بوصفه مفقودا،

ويحيا هو ذاته بوصفه منفيًا، مسافرا، لا متأرضينا، مدفوعا داخل الأوساط مثل السفينة الهولندية الطائفة أو مثل الملك فولدمار (بينما الكلاسيكي كان يقطن الأوساط). لكن في نفس الوقت، ما تزال الأرض هي التي تتحكم بهذه الحركة، جاذبية الأرض هي التي تصنع هذا التفور من الإقليم. علامة الإرشاد لم تعد تشير إلا إلى الطريق التي لا عودة منها لأي كان. هو ذا التباس المولدي الذي يظهر في التريمة، لكن كذلك في السمفونية والأوبرا: التريمة هي في نفس الوقت الإقليم، الإقليم المفقود، الأرض الاتجاهية. سيتخذ الفاصل أهمية متزايدة لأنه كان يلعب على كل الانزياحات بين الأرض والإقليم، كان يندرج فيها، كان يملؤها بطريقته، «بين ساعتين»، «منتصف النهار-منتصف الليل». نستطيع القول من زاوية النظر هذه، إن التجديدات الأساسية [٤١٩] للرومنطيقية تمثلت في التالي: لم تعد ثمة أجزاء مادية مناظرة لصور، أوساط مناظرة للتقنيات، مادة مشوشة قد تكون منتظمة في صورة وبتقنيات. كانت الأجزاء بالأحرى مثل تنضيدات كانت تتكون وتتحلل على السطح. الصورة ذاتها أصبحت صورة كبيرة في تطور مستمر، مجموعة قوى الأرض التي كانت تحزم كل الأجزاء. المادة ذاتها لم تعد شواشا للإخضاع والتنظيم بل هي المادة المتحركة ذات التغيير المستمر. الكلّي كان أصبح علاقة، تغييرا. تغيير مستمر للمادة وتطور مستمر للصورة. هكذا كانت المادة والصورة تدخلان في علاقة جديدة عبر التنضيدات: كانت المادة توقفت عن أن تكون مادة مضمون لتصبح مادة تعبير، كانت الصورة توقفت عن أن تكون تقنينا يروض قوى الشواش لتصبح هي ذاتها قوة، لتصبح مجموع قوى الأرض. كانت ثمة علاقة جديدة مع الخطر، مع الجنون، مع الحدود: لم تكن الرومنطيقية ذهبت إلى أبعد من النزعة الكلاسيكية الباروكية، لكنها كانت ذهبت إلى مكان آخر، مع معطيات أخرى وموجّهات أخرى.

أكثر ما يعوز الرومنطيقية هو الشَّعب. الإقليم مسكون بصوت منفرد يتصادى معه صوت الأرض ويتصادم، بدلا من التَّجاوب معه. حتى عندما يكون ثمة شعب فإنّه يكون موسوطا بالأرض، يطلع من أحشاء الأرض وهو مستعدّ للعودة إليها: إنّه شعب تحأرضيّ أكثر من كونه شعبا أرضيّاً. البطل هو بطل أرضيّ، ميثيّ وليس بطلا شعبيّاً، تاريخيّاً. ألمانيا، الرومنطيقية الألمانية، كانت لها عبقرية عيش الإقليم المولديّ ليس بوصفه صحراء إنّما بوصفه «متوحّدا»، مهما كانت كثافة السَّكان؛ ذلك أنّ هؤلاء السَّكان ليسوا غير انبجاس من الأرض وهم مساوون لواحد. لا يفتح الإقليم باتجاه شعب، يفتح قليلا على الصّديق، على المحبوبة، لكنّ المحبوبة قد ماتت، والصّديق مريب ومقلق^(١). يحدث كلّ شيء عبر الإقليم كما في ترنيمة، بين الواحد- وحده للنفس والواحد- الكلّ للأرض. لذلك تتخذ الرومنطيقية هيئة أخرى، بل وتطالب باسم آخر، بلافتة أخرى، في البلدان اللاتينيّة والبلدان السلافيّة حيث على النقيض من ذلك يمرّ كلّ شيء بموضوعة الشَّعب وبقوى شعب. هذه المرّة، الأرض هي الموسوطة بالشَّعب ولا توجد [٤٢٠] إلّا به. هذه المرّة، يمكن أن تكون الأرض «قفراء»، سهوب قاحلة، أو إقليم مفكّك ومدمّر، إنّها ليست متوحّدة أبدا بل هي مليئة بسكّان يترحلّون، ينفصلون أو يتجمّعون، يطالبون أو يكون، يهاجمون أو يهاجمون. هذه المرّة، البطل هو بطل الشَّعب ولم يعد بطل الأرض؛ إنه في علاقة مع الواحد- الحشد، ولم يعد في علاقة مع

(١) راجع، الدّور الملتبس للصّديق في نهاية نشيد الأرض. أو كذلك في ترنيمة شومان غَبَش (المقطوعة ٣٩)، قصيدة آيشندورف: «إذا كان لك صديق هنا في العالم، لا تثق به في هذه السّاعة، حتى وإن كان لطيف الرؤية والكلام، إنّهُ يحلم بالحرب زمن سلّم ماكركة.» (حول مشكل الواحد- وحده أو «الكائن المتوحّد» في الرومنطيقية الألمانية، يمكن الرّجوع إلى هلدلين، «مسار الإنسان ومصيره بعامة»، في شعر، العدد ٤).

الواحد- الكلّ. الأكّد أنّنا لن نقول إنه ثمة قوميّة نوعاً ما من هذا الجانب أو ذاك، ذلك أنّ القوميّة كائنة في كلّ أنحاء أشكال الرّومنيقيّة، تارة بمثابة محرّك، تارة مثل ثقب أسود (والفاشيّة تستعمل فاردي أقلّ بكثير ممّا تستعمل النازيّة فاغنر). المشكل موسيقيّ حقاً، موسيقيّ تقنيّاً، وبذلك هو سياسيّ بشكل خاص. البطل الرّومنيقيّ، الصّوت الرّومنيقيّ للبطل، يعمل بوصفه ذاتاً، بوصفه فرداً مُدّثيّاً له «أحاسيس»؛ لكنّ هذا العنصر الصّوتيّ الذّاتيّ ينعكس في مجموعة آلايّة وتجويقيّة تُحشّد على التّقيّض من ذلك «الافعالات» غير المُدّثيّة، وتأخذ كلّ أهمّيّتها مع الرّومنيقيّة. لكن لن يذهب في اعتقادنا أنّ الاثنين، العنصر الصّوتيّ والمجموعة الأوركسترايّة- الآلايّة، تكون ببساطة في علاقة برّانيّة: يفرض التّجويق على الصّوت هذا الدّور أو ذاك، بقدر ما يلفّ الصّوت هذا النّمط من التّجويق أو ذاك. التّجويق- الاستعمال الآلايّة يجمع أو يفرّق، يجمّع أو يشتّت قوى صائتة؛ لكنه يتغيّر، ودور الصّوت يتغيّر أيضاً تبعاً لما تكونه هذه القوى، قوى الأرض أو قوى الشّعب، قوى الواحد- الكلّ أو قوى الواحد- الحشد. في الحالة الأولى، يتعلّق الأمر بإقامة تجمّعات اقتدارات تُكوّن بالتّحديد أفعالات؛ في الحالة الأخرى، تفريّدات مجموعة هي التي تشكّل الأفعال وتكوّن موضوع التّجويق. تجمّعات الاقتدار متنوّعة تماماً، لكنّها كذلك بوصفها العلاقات الخاصّة بالكلّيّ؛ بينما في تفريد المجموعة، قد يتوجّب استدعاء كلمة أخرى، هي كلمة المنقسم (le dividuel)، للإشارة إلى هذا النّمط الآخر من العلاقات الموسيقيّة وإلى هذه التّنقّلات صلب الجماعة أو البيّجماعيّة. العنصر الذّاتيّ أو الشّعوريّ للصّوت ليس له نفس الدّور ونفس الوضع وفق مواجهته داخليّاً لتجمّعات الاقتدار غير المُدّثيّة أو للتفريّدات غير المُدّثيّة للجماعة، لعلاقات الكلّيّ أو لعلاقات «المنقسم». كان دوبيسيّ طرح بشكل جيّد مشكل الواحد- الحشد عندما كان يؤاخذ فاغنر على عدم

قدرته على «صنع» حشد أو شعب: يجب أن يكون الحشد مفردًا بالتّمام، لكن بتفريعات جماعة، تفريعات لا تُختزل في فردية الدّوات التي تُكوّنها^(١). على الشعب أن يتفرد، ليس [٤٢١] تبعاً للأشخاص وإنّما تبعاً للأفعالات التي يشعر بها فورياً وتتابعياً. نخطئ إذاً في نفس الوقت الواحد- الحشد أو المنقسم عندما نخترل الشعب في تراكب، وعندما نخترله في قدرة الكلّي. باختصار، كأنّه ثمة تصوّران مختلفان جدّاً للتّجويق وللعلاقة صوت- آلة، تبعاً لتوجّهنا إلى قوى الأرض أو إلى قوى الشعب لجعلها صائتة. المثال الأبسط لهذا الفرق قد يكون دون شكّ فاغنر- فاردي، من حيث أنّ فاردي يعطي أهميّة متزايدة لعلاقات الصّوت باستعمال الآلات وبالتّجويق. اليوم بالذّات، ستوكهوزن وباريو، يطوّران صيغة جديدة لهذا الفرق، مع أنّهما يواجهان مشكلاً موسيقياً مختلفاً عن مشكل الرّومنتيقيّة (ثمة عند باريو بحث عن صرخة متعدّدة، صرخة سگان، في منقسم الواحد- الحشد، وليس بحثاً عن صرخة الأرض في كلّي الواحد- الكلّ). لكنّ فكرة أوبرا عالم، أو فكرة موسيقى كونية، ودور الصّوت، تتغيّر بشكل خاصّ وفق قطبيّ التّجويق هذين^(٢). حتّى لا نبقي عند تعارض بسيط بين

(١) «شعب مسّورغسي في بوريس لا يشكّل حشداً حقيقياً؛ هو تارة مجموعة تغني، وتارة مجموعة أخرى وليست مجموعة ثالثة، لكلّ واحد دوره، وغالباً في انسجام. أمّا بخصوص شعب المبتزين فإنّه ليس حشداً، إنّهُ جيش، منظمّ بإحكام على الطّريقة الألمانية ويمشي في صفوف. ما أصبو إليه هو شيء ما أكثر تفرّقا، أكثر انقساماً، أكثر ميوعة، أكثر دقّة، شيء ما غير عضويّ ظاهريّاً ومع ذلك في عمقه هو منظمّ» (ذكره برّاكيه، دويستي، ص ١٥٩). هذا المشكل-كيفية تكوين حشد- يوجد بطبيعة الحال في فنون أخرى، في الرّسم، في السّينما... بالإمكان الرّجوع خاصّة إلى أفلام إيزنشتاين التي تنتهج هذا الضّرب من التّفريعات الخاصّة جدّاً، تفريعات المجموعة.

(٢) حول علاقات الصّرخة، الصّوت، الآلة والموسيقى بوصفها «مسرحاً»، راجع، تصريحات باريو وهو يقدّم أسطواناته، - سنتذكّر مبحث نبشّه الموسيقيّ للغاية، حول صرخة متعدّدة لكلّ النّاس المتفوّقين في نهاية زرادشت.

فاغنر- فاردي، قد يتوجب أن نبين كيف استطاع تجويق برليوز بعبقريّة، أن يمرّ من قطب إلى آخر، وحتى أن يتردّد بينهما، طبيعة أم شعب صائتان. كيف استطاعت موسيقى مثل موسيقى موسورغسكي أن تصنع حشداً (بالرغم ممّا يقوله دويستي). كيف استطاعت موسيقى مثل موسيقى بارتوك أن تستند على ألحان شعبية أو ألحان سگان، لتصنع سگاناً هم ذواتهم صائتون، آلايتون وجوقيون يفرضون سلماً موسيقياً جديداً للمنقسم، تلوينيّة جديدة مذهلة^(١). مجموعة أصوات غير فاغنريّة...

إذا كان ثمة عصر حديث فإنه بطبيعة الحال العصر الكونيّ. يعلن بول كلي أنّه ضدّ- فاوستيّ، «الحيوانات وكلّ المخلوقات الأخرى، [٤٢٢] لا أحبّها حبّ مودة أرضيّة، الأشياء الأرضيّة تهمني أقلّ ممّا تهمني الأشياء الكونيّة». لم يعد التّضيد يواجه قوى الشّواش، لم يعد يتعمّق في قوى الأرض أو في قوى الشعب، لكنّه يفتح على قوى الكون. كلّ ذلك يبدو عمومياً للغاية، وكأنّه هيغليّ معبر عن روح مطلق. ومع ذلك، قد يتوجب أن يكون تقنيّة، لا شيء غير كونه تقنيّة. لم تعد العلاقة الأساسيّة علاقة موادّ- صور (أو جواهر- صفات)؛ لكنّها كذلك ليست في التّطوّر المستمرّ للصّورة وفي التّغير المستمرّ للمادّة. إنّها تحضر هنا بوصفها علاقة مباشرة موادّ- قوى. الموادّ هي مادّة مُهيّنة، وعليها بصفتها هذه أن «تلتقط» قوى، قوى لم يعد بمقدورها إلّا أن تكون قوى الكون. لم تعد ثمة مادّة قد تجد في الصّورة مبدأ معقوليتها المُناظر لها. يتعلّق الأمر الآن بإنشاء موادّ مكلفة بالتقاط قوى من نوع آخر: على الموادّ البصريّة أن تغنم قوى غير مرئيّة. كان كلي يقول جعّل الشيء مرئياً، وليس استعادة المرئيّ

(١) حول تلوينيّة باروك، راجع دراسة جيزال برولاي، ضمن تاريخ الموسيقى، بلاياد، الجزء الثّاني، صص ١٠٣٦-١٠٧٢.

أو استنساخه. من هذا المنظور، تتابع الفلسفة نفس الحركة التي تتابعها الأنشطة الأخرى؛ بينما كانت الفلسفة الرومنطيقية ما تزال تستدعي هوية تركيبية صورية تكفل معقولة متواصلة للمادة (شميلة قَبْلِيَّة)، تسعى الفلسفة الحديثة إلى إنشاء موادّ تفكير من أجل الاستحواذ على قوى لا تقبل التفكير بها في حدّ ذاتها. إنها الفلسفة-الكون على طريقة نيتشه. الموادّ الهبائية مُتأرضِنة للغاية حتّى أنه لم يعد بالإمكان الحديث عن موادّ تعبير كما في الإقليميّة الرومنطيقية. تترك موادّ التعبير مكانها لموادّ الاستيلاء. مذكّك، لم تعد القوى التي سيقع الاستيلاء عليها هي قوى الأرض التي ما تزال تشكّل صورة تعبيرية كبرى، هي الآن قوى كون طاقيّ لا مُتشكّل ولا مادّيّ. يصادف الرّسام ميلاي أن يقول إنّ المهمّ في الرّسم ليس هو ما يحمله مزارع، شيء مقدّس أو كيس بطاطس مثلاً، إنّما المهمّ هو الوزن الدقيق لما يحمله. ذلك هو المنعرج الما بعد-رومنطقيّ: لم يعد الأساسيّ في الصّور والموادّ، ولا في المواضيع، إنّما في القوى، في الكثافات، في الشّدّد. الأرض ذاتها تتأرجح وتنحو باتّجاه أن تكون مساوية للمادة المحض لقوة جذب أو ثقالة. لعلّه سيتوجّب انتظار سيزان حتّى لا توجد الصّخور بعدئذ إلّا بقوى الطّيّ التي تلتقطها، المشاهد إلّا بالقوى المغناطيسيّة والحراريّة، التّفاح إلّا بقوى الإنبات: قوى غير بصريّة ومع ذلك جعلناها مرئيّة. إنّّه في نفس الوقت تصبح القوى كونيّة بالضرورة والموادّ هبائية؛ قوّة هائلة تعمل في فضاء لا متناه في الصّغر. [٤٢٣] لم يعد المشكل مشكلَ بداية، ولا هو كذلك مشكل تأسيس-أساس. لقد أصبح مشكل قوام أو توطيد: كيف نوّظد الموادّ، نجعلها راسخة حتّى تتمكّن من التقاط هذه القوى غير الصّائتة، غير المرئيّة، العصيّة على التفكير؟ حتّى اللاّزمة تصبح في نفس الوقت هبائية وكونيّة، يذهب ديبوسّي إلى أنّ الموسيقى تُهَبِّين المادة الصّائتة، لكنها تصبح قادرة أيضاً على التقاط قوى غير صائتة

مثل الـدِيمومَة والـشَّدة^(١). جَعَلَ المُدَّة صائتة. لتتذكَّر فكرة نيتشه: العُود الأبديّ بوصفه تكررًا صغيرًا، بوصفه لازمة، لكنّه يستولي على قوَى الكون الصّامتة والعصيّة على التّفكير. نخرج إذًا من التّنضيدات لندخل عصر المكنة، المحيط المكنيّ الضّخم، مسطّح كَوْنَة القوَى التي يجب التقاطها. مثاليّة قد تكون طريقة فاراز في فجر هذا العصر: مكنة قِوام موسيقيّة، مكنة ذات أصوات (وليست لاستنساخ أصوات)، تُهَيِّين وتذرّر، تُؤَيِّن المادّة الصّائتة وتلتقط طاقة كونيّة^(٢). إذا كان لا بدّ من تنضيد لهذه المكنة فسيكون مرّكّب أصوات الإلكترونيّ. مجمّعا المقامات، عناصر المصدر والمعالجة، المُدبذبات، المولّدات والمحوّلّات، مهَيِّثًا صغرى الفواصل، يجعل السّيرورة الصّائتة ذاتها مسموعة مع إنتاج هذه السّيرورة، ويضعنا أيضًا في علاقة مع عناصر أخرى تتخطّى المادّة الصّائتة^(٣). إنّهُ يوحد المتفرّقات ويحوّل المقاييس من صيغة إلى أخرى. حلّ مرّكّب الأصوات الإلكترونيّ، مع عمليّة

(١) يحلّل بازّاكيه في كتابه حول دوبيسيّ، «حوار الرّيح والبحر» في صيغة قوَى ولم يعد في صيغة موضوعات: صص ١٥٣ - ١٥٤. راجع تصريحات ماسيان حول آثاره الخاصّة: لم تعد الأصوات «غير توسيطات مبتذلة مخصّصة لتثمين المُدّة» (ضمن غوليا، ص ٢١١).

(٢) تبسط أوديل فيفياي طرائق فاراز لمعالجة المادّة الصّائتة، فاراز، منشورات سوي: استعمال الأصوات المحض العاملة مثل مؤشور (ص ٣٦)، آليات الإسقاط على مسطّح (ص ٤٥، ٥٠)، السّلالم غير الجوابيّة (ص ٧٥)، طريقة «التّأثّن» (ص ٩٨). في كلّ مكان موضوع الهبّاءات الصّائتة التي تكون تغيّراتها محدّدة بالقوَى أو بالطّاقات.

(٣) راجع حديث ستوكهوزن حول دور المرّكّبات الإلكترونيّة للأصوات والبُعد الذي هو بالفعل بُعد «كُونيّ» للموسيقى، في جريدة العالم، ٢١ جويلية / يوليو ١٩٧٧: «العمل داخل موادّ محدودة جدًّا، وندمج فيها الكون بواسطة تغيير متواصل». قام ريشار بنهاس في هذا الخصوص بتحليل ممتاز لممكنات المرّكّبات الإلكترونيّة للأصوات، في علاقة بموسيقى البوب: «المُدخلات - المُخرجات»، في أنام، عدد ١٠، ١٩٧٧.

قوامه، محلّ الأساس في الحكم التركيبيّ القَبليّ: التركيب فيه هو بين الهبائيّ والكونيّ، بين الموادّ والقوّة، ولم يعد بين الصّورة والمادّة، بين الأرض والإقليم. الفلسفة كذلك لم تعد حكما تركيبياّ، بل هي مرّكب أفكار، [٤٢٤] لجعل الفكر يرتحل ولجعله أكثر حركيّة وليجعل منه قوّة كونيّة (كذلك نجعل الصّوت يرتحل...).

شميلة المتفرّقات هذه ليست دون غموض. لعلّه نفس الغموض الذي نجده في التّمين الحديث لرسوم الأطفال، لنصوص المجانين، لحفلات الموسيقى الصّاخبة. يحدث أن نبالغ في ذلك، أن نضيف إليه، نعمل وفق ركام خطوط أو أصوات؛ لكن حينها، عوض إنتاج مكنة كونيّة قادرة على «جعل الشّيء صائتا»، نسقط من جديد في مكنة استنساخ، تنتهي فقط إلى إعادة إنتاج خربشة تمحو كلّ الخطوط، إلى تشويش يمحو كلّ الأصوات. نزعّم فتح الموسيقى لكلّ الأحداث، لكلّ الاقتحامات، لكن ما نعيد إنتاجه في نهاية المطاف هو التشويش الذي يمنع كلّ حدث. لم يعد لدينا غير صندوق إصداء بصدد صنع ثقب أسود. موادّ أقلّ ثراء تظلّ موادّ «مؤرّضنة» بشكل مفرط على مصادر الضّجيج، على طبيعة المواضيع... (حتّى بيانو كاج المعدّل). مجموعة نجعلها غائمة بدلا من تحديد المجموعة الغائمة بواسطة عمليّات القوام أو التّوطيد التي تتناولها. إذ ذلك هو الأساسيّ: مجموعة غائمة أو شميلة متفرّقات لا تتحدّد إلّا بدرجة رسوخ تُمكن تحديدا من التّمييز بين العناصر المتفرّقة التي تكونها (تمييزيّة)^(١).

(١) بالفعل، تعريف المجموعات الغائمة يطرح كلّ أنواع المشكلات، بما أنه لا يمكننا حتى أن نستحضر تحديدا موضعياّ: «مجموعة الموضوعات أيّا كانت التي هي على هذه الطاولة» بالتأكيد ليست مجموعة غائمة. لذلك لا يتحدّث الرّياضيّون المهتمّون بالمسألة إلّا عن «مجموعات فرعيّة غائمة»، أمّا المجموعة المرجعيّة يجب أن تكون عاديّة (راجع، أرنولد كوفمان، مقدّمة لنظرية المجموعات الفرعيّة الغائمة، منشورات ماسّون، وحموريّة سي ناصر، «منطق

يجب أن تكون المواد لا متأرضينة كفاية لتكون مُهَيَّنة، ولتفتح لما هو كونيّ بدلا من السقوط مجدداً في ركام إحصائيّ. لكننا لا نستوفي هذا الشرط إلا ببساطة معينة في المواد غير المتماثلة: الحد الأقصى المدروس من الاتّزان بالنسبة إلى المتفرقات أو إلى المقاييس. اتّزان التّضيدات التي تجعل ثراء مفاعيل الممكنة ممكنا. غالبا [٤٢٥] ما نميل كثيرا إلى إعادة الأرضنة على الطفل والمجنون والضّوضاء. في هذه اللحظة، نُغَيِّم بدلا من ترسيخ المجموعة الغائمة أو القبض على القوى الكونية في المواد اللامتأرضينة. لذلك يَحْنَق كُلّي عندما نتحدّث عن «طفولية» تصويره (وكذلك فاراز عندما نتحدّث عن الضّجيج المُصطنع، إلخ.). حسب كُلّي، يجب أن يكون ثمة خطّ محض وبسيط، مرتبط بفكرة موضوع ليس إلا، لـ«جعل الشيء مرثيا» أو للقبض على الكون: لا نحصل على أيّ شيء إلا على تشويش، على ضجيج بصريّ مصطنع عندما نضاعف الخطوط أو نتناول الموضوع كلّهُ^(١). وفق فاراز، يجب أن يكون ثمة شكل بسيط متحرّك، ومسّطح هو ذاته متحرّك حتى يُعطي الإسقاط صورة معقّدة جدّا، أي توزيعا كونيا؛ وإلا فإنّه ضجيج

ورياضيّات الغائم» في مجلّة نقد، ماي، ١٩٧٨). لنعبر الغائم بمثابة خاصيّة لبعض المجموعات، انطلقنا على التّقيض من ذلك من تعريف وظيفيّ وليس من تعريف موضعيّ: جملة المتنافرات التي كانت لها وظيفة إقليمية أو بالأحرى مؤرضنة. لكنّه كان تعريفا إسمائيا لم يكن أخذ بعين الاعتبار «ما كان يحدث». التّعريف الحقيقي لا يمكن أن يظهر إلا في مستوى السّيرورات التي تتدخّل في المجموعة الغائمة؛ تكون المجموعة غائمة عندما لا تنتمي إليها كلّ عناصرها إلا بواسطة عمليّات قوام أو توطيد مخصوصة، عناصر لها هي ذاتها بالتالي منطق خاصّ.

(١) بول كُلّي، نظرية الفنّ الحديث، ص ٣١: «خرافة طفولية تصويري يجب أن تجد أصلها في نتائج خطيّة حيث كنت أحاول ربط فكرة الموضوع، إنسان مثلا، بالعرض المحض لعنصر الخطّ. لإبراز الإنسان كما هو، كنت سأحتاج خربشة خطوط مربكة تماما. لم تكن النتيجة إذا عرضا محضا للعنصر بل تشوّشا قد لم يعد يتيسّر لنا أن نعرّ على ذواتنا فيه.»

مصطنع. اتّزان، اتّزان: ذلك هو الشرط المشترك لئلا تَارُضن الموادّ، لهيئنة الموادّ، لكوْننة القوى. لعلّ الطّفل يصل إلى ذلك. لكنّ هذا الاتّزان، هو اتّزان التّصيّـر - طفلا، الذي ليس هو بالضرورة صيرورة الطّفل، بل على النقيض من ذلك؛ اتّزان التّصيّـر - مجنوننا، الذي ليس هو بالضرورة صيرورة المجنون، على النقيض من ذلك. من البديهيّ وجوب وجود صوت محض وبسيط جدّا، إرسال أو موجة دون نغميّات، حتى يرتحل الصّوت وحتى نرتحل حول الصّوت (نجاح لامونت يونغ بهذا الخصوص). ستجدون أكثر ما يكون من المتنافرات بقدر ما ستكونون في جوّ متخلخل. شميّلة متنافراتكم ستكون أقوى بقدر ما ستعملون بحركة متّزنة، بفعل قِوام، باستيلاء أو استئصال سيعمل على موادّ ليست إجماليّة، بل مبسّطة بشكل مذهل، محدودة إبداعيّاً، منتقاة. إذ ليس ثمة مخيّلة إلّا في التّقنية. الصّورة الحديثة ليست صورة الطّفل ولا هي صورة المجنون، ناهيك عن كونها صورة الفنّان، إنّها صورة الحِرْفِيّ الكونيّ: قبله ذرّيّة تقليديّة الصّنع، في الحقيقة ذلك أمر بسيط، ذلك مُثَبّت، ذلك قد تمّ. أن يكون المرء حِرْفِيّاً ولم يعد فنّاناً، مبدعا أو مؤسّسا، وتلك هي الطّريقة الوحيدة للتّصيّـر كونيّاً، للخروج من الأوساط، للخروج من الأرض. استدعاء الكون لا يعمل إطلاقاً بوصفه مجازاً؛ على النقيض من ذلك، العمليّة فعليّة مذ يقيم الفنّان علاقة بين موادّ مع قوى ترسيخ أو توطيد.

[٤٢٦] للموادّ إذا ثلاث خاصيّات أساسيّة: إنّها مادّة مُهيّنة؛ إنّها في علاقة مع قوى يجب التقاطها؛ إنّها تتحدّد بعمليّات التّرسّخ التي تتناولها. من الواضح في النّهاية أنّ العلاقة بالأرض، بالشّعب، تتغيّر ولم تعد علاقة من نوع رومنتيقيّ. الأرض الآن هي الأكثر لا تَارُضنا: ليست نقطة في مجرّة وحسب بل هي مجرّة من بين مجرّات أخرى. الشّعب الآن هو الأكثر هَبِيّنة: سكّان هبائيّون، شعب مُدبّذبين هو بمثابة قوى تفاعل. يجرّد الفنّان صوره الرّومنتيقيّة، يتخلّى عن

قوى الأرض ناهيك عن قوى الشعب. ذلك أَنَّ الصِّراع، إذا كان ثمة صراع، قد حدث في مكان آخر. السُّلطات القائمة استولت على الأرض وصنعت مؤسسات شعب. وسائل الإعلام، مؤسسات الشعب الكبرى، من نوع الحزب أو التَّقابة، هي مكينات إعادة إنتاج، مكينات لصنع ما هو غائم، وتقوم فعليًا ببلبله كلَّ القوى الأرضية الشَّعبية. السُّلطات القائمة جعلتنا في وضعيَّة صراع ذَرِّيٍّ وكونيٍّ في نفس الوقت، في صراع مَجَرِّيٍّ. الكثير من الفنَّانين كان لهم وعي بهذه الوضعيَّة منذ زمن طويل، وحتى من قَبْل حدوث هذه الوضعيَّة (نيتشه مثلاً). وكان بإمكانهم الوعي بذلك لأنَّ نفس الموجَّه كان يخترق ميدانهم الخاص: هَيِّئَة، تدمير الموادِّ المقترن بكوْنَة القوى المحبوسة في هذه الموادِّ. مَذاك، كانت المسألة تتعلَّق بمعرفة ما إذا كان «السَّكَّان» الذَّرِّيُّون أو الهبائيُّون مهما كانت طبيعتهم (وسائل إعلام، وسائل مراقبة، حواسيب، أسلحة عملاقة) كانوا سيواصلون قصف الشعب الموجود، إمَّا لترويضه، إمَّا لمراقبته، إمَّا للقضاء عليه، - أو أنَّ سَكَّانا هبائيين آخرين كانوا ممكنين، كان يمكنهم التسلُّل بين الآخرين، لتحفيز شعب مقبل. مثلما يقول فريليو في تحليله الصَّارم جدًّا، إقفار الشعب ولا أرضنة الأرض، السَّؤال هو: «نقطن الأرض شعراء أم قتلة^(١)؟» القاتل هو من يقصف الشعب الموجود بسكَّان هبائيين لا يفتؤون يغلقون كلَّ التَّنصيدات ويزجَّون بها في ثقب أسود يتزايد اتِّساعه وعمقه. على التَّنقيض من ذلك الشَّاعر هو من يتخلَّى عن السَّكَّان الهبائيين أملا بزرعهم أو إنجابهم الشعب المقبل، مرورهم في شعب مقبل، [٤٢٧] فتحهم لكوْن. هنا أيضا لا يجب التَّعامل مع

(١) فريليو، انعدام أمن الإقليم، ص ٤٩. ذلك هو المبحث الذي كان طوره هنري ميلار في كتابه رامبو أو زمن القتل، أو كذلك في نصّه المكتوب لفاراز، «هالكون! ناجون!» لا شكَّ أنَّ ميلار دفع إلى الأقصى الصُّورة الحديثة للكاتب بوصفه جرفيًّا كونيًّا، خاصَّة في جنس.

الشاعر كما لو أنه كان متخماً بالمجازات: ليس من المؤكد أنّ الهباءات الصّائتة لموسيقى البوب لا تنشر هنا أو هناك، حالياً، شعبا من نوع جديد، غير مكترث تماماً بأوامر المذيع، بمراقبات الحواسيب، بتهديدات القنبلة الذّريّة. إنه بهذا المعنى تغيّرت كثيراً علاقة الفنّان بالشّعب: توقّف الفنّان عن كونه الواحد- وحده المنسحب داخل ذاته، لكنه توقّف أيضاً عن التّوجّه إلى الشّعب، عن استدعاء الشعب بوصفه قوّة متشكّلة. لم يكن في أيّ وقت محتاجاً مثلما هو محتاج الآن لشعب، لكنه يلاحظ على أقصى حدّ أنّ الشعب يُعوز- الشّعب هو أكثر ما يُعوز. ليسوا فنّانين شعبيّين أو شعبيّين، بل ملارميه هو الذي يمكنه القول إنّ الكتاب محتاج للشّعب، وكافكا، إنّ الأدب هو قضيّة شعب، وكلّي، إنّ الشّعب هو الأساسيّ، ومع ذلك هو الذي يُعوزنا. مشكل الفنّان إذاً هو كون الإقفار الحديث للشّعب يفضي إلى أرض فتوحة، وذلك بوسائل الفنّ أو بوسائل يساهم فيها الفنّ. بدلا من أن يُقصف الشعب والأرض من كلّ الجهات في كون يحدهما، يجب أن يكون الشعب والأرض بمثابة موجهات كون يحملهما؛ حينها سيكون الكون ذاته فنّا. القيام بإقفار شعب كونيّ وبلا أرضنة أرض كونيّة، تلك هي أمنية الفنّان- الحرفيّ، هنا أو هناك، موضعياً. إذا كانت حكوماتنا تتعامل مع ما هو هبائيّ وما هو كونيّ، فإنّ فنوننا كذلك تجد فيهما مطلبها، بنفس الرّهان، الشّعب والأرض، بوسائل للأسف لا تقبل المقارنة، ومع ذلك هي تنافسيّة. أليست خاصّة الإبداعات أن تفعل في صمت، موضعياً، أن تبحث في كلّ مكان عن توطيد، أن تذهب من الهبائيّ إلى الكونيّ غير المؤكّد، بينما تعمل سيرورات التّحطيم والحفظ إجمالاً، تكون في الصّدارة، تستولي على الكون كلّ لإخضاع الهبائيّ ووضعه في مستودع أو في قبلة؟

هذه «العصور» الثلاثة، الكلاسيكيّ، الرّومانيّ والحديث (في ظلّ غياب اسم آخر)، لا يجب أن نتأولها على أنّها تطوّر ولا على

أنها بنيات، مع قطيعات دالة. إنها تنضيدات تضمّ مكّنات مختلفة أو علاقات مختلفة مع الممكنة. بمعنى ما، كلّ ما ننسبه لعصر كان حاضرا سلفا في العصر السابق. كذلك القوى: كانت المسألة دائما مسألة قوى متعيّنة بوصفها قوى شواش أو قوى أرض. كذلك، حدّد الفنّ لنفسه دائما مهمّة أن يجعل الشّيء مرئيّا بدلا من استنساخ المرئيّ، والموسيقى أن تجعل الشّيء صائتا بدلا من استنساخ الصائت. لم تتوقّف مجموعات غائمة عن [٤٢٨] التكوّن وعن ابتكار سيرورات توطيدها. وتحرير الهبائيّ نجده بالفعل في موادّ المضمون الكلاسيكيّة، عاملا بواسطة اللّا تراصف، وفي موادّ التعبير الرومنطقيّة، عاملا بواسطة اللّا تقنين. كلّ ما نستطيع قوله هو إنّّه طالما كانت القوى وكأنّها تطلع من الأرض أو من الشّواش فإنّها لا يقع إدراكها مباشرة بوصفها قوى، لكنّها منعكسة في علاقات المادّة والصّورة. إذا، يتعلّق الأمر بالأحرى بعتبات إدراك، بعتبات تمييزيّة تنتمي إلى هذا التّنضيد أو ذاك. فقط عندما تكون المادّة لا مُتأرِضنة كفاية تنبثق هي ذاتها وكأنّها هبائيّة، وتجعل قوى محضا تنبثق لم يعد بالإمكان عزوها إلّا للكون. كان هذا حاضرا «دوما»، لكن في ظلّ ظروف إدراكيّة أخرى. يجب أن تتوفّر ظروف جديدة حتى يمرّ الآن إلى السّطح مان كان مغمورا أو مغطّى، مستنبّطا، منتهيا. ما كان متكوّنا في تنضيد، ما لم يكن بعدُ إلّا متكوّنا، يصبح مكوّنا لتنضيد جديد. بهذا المعنى، ليس ثمة تاريخ على الإطلاق إلّا للإدراك، بينما ما نؤرّخ له هو بالأحرى مادّة تصوّر وليس مادّة تاريخ. قد يكون التّصوير مثل الممكنة الحاضرة بشكل مختلف في كلّ تنضيد، لكنّها تنتقل من تنضيد إلى آخر، تفتح الواحد على الآخر بغضّ النّظر عن نظام ثابت أو عن تتابع محدّد.

إذن، يمكننا أن نعود إلى اللّازمة. يمكننا اقتراح تصنيف آخر لها: لازمات الأوساط، بجزأين على الأقلّ، حيث يجيب الواحدُ الآخرَ

(البیانو والکمان)؛ لازمات المؤلديّ أو الإقليم حيث يكون الجزء في علاقة بكلّ، بلازمة هائلة للأرض وفق علاقات هي ذاتها متغيّرة، هي التي تعيّن في كلّ مرّة انزياح الأرض بالنسبة إلى الإقليم (ترنيمه المهد، أغنية الشرب، أغنية الصّيد، أغنية العمل، النشيد العسكريّ، إلخ.)؛ اللّازمات الشّعبيّة والفولكلوريّة في علاقة هي ذاتها بأغنية شعب هائلة، وفق علاقات تفريعات متغيّرة لحشد، تفريعات تعزف في نفس الوقت أفعالات وأمما (البولنديّة، الأوفيرونيّة، الألمانية، المغياريّة أو الرومانيّة، لكن كذلك الشّجيّة، الارتياعيّة، الانتقاميّة... إلخ.)؛ اللّازمات المهيّنة (البحر، الرّيح) في علاقة بالقوى الكونيّة، باللّازمة-كون. ذلك أنّ الكون هو ذاته لازمة وكذلك الأذن (كلّ ما اعتبرناه متاهات، كان لازمات). لكن تحديدا، لِمَ تكون اللّازمة صائتة للغاية؟ من أين تأتي ميزة الأذن هذه بينما تقدّم لنا الحيوانات والعصافير بالفعل، الكثير من اللّازمات الإيمائيّة، الوضعيّة، اللّونيّة، البصريّة؟ أللرّسام لازمات أقلّ من الموسيقيّ؟ هل ثمة لازمات أقلّ [٤٢٩] عند سيزان أو عند كلّ ممّا هي عند موزار، شومان أو دوبيسّي؟ في أمثلة بروست: الشّقّ الصّغير في جدار فارمار الأصفر، أو أزهار رسّام، ورود ألسّير، هل هي «لازمة» أقلّ ممّا هي في جملة فانتوي؟ لا يتعلّق الأمر بكلّ تأكيد بمنح الأفضليّة لفنّ معيّن تبعا لتراتبية صوريّة ولمقاييس مطلقة. المشكل الأبسط، قد يتمثّل في المقارنة بين قدرات أو مُعامِلات لا تَأرُضُن المكوّنات الصّائتة والمكوّنات البصريّة. يبدو أنّ الصّوت ينصقل أكثر فأكثر بلا تَأرُضُنه، يتحدّد ويصبح قائما برأسه. بينما يتزايد التصاق اللّون، ليس بالموضوع ضرورة إنّما بالإقليميّة. عندما لا يتأرُضُن فإنّه ينحو إلى الدّوبان، إلى انقياده إلى مكوّنات أخرى. نلاحظ ذلك جيّدا في ظاهرات التّداخل الحسّيّ التي لا تُختزل في مجرد انسجام لون-صوت، لكن حيث تتخذ الأصوات دور الرّيادة وتفضي بالألوان التي تتراكب إلى الألوان التي وقعت رؤيتها، مانحة

إيّاها إيقاعاً وحركة صائتين بشكل خاص^(١). هذه القدرة لا يدين بها الصّوت لقيم دالّة أو لقيم «تواصّل» (هي على التّقيض من ذلك تفترض الصّوت)، ولا لخصائص فيزيائيّة (التي قد تمنح بالأحرى الأفضليّة للضّوء). إنّها خطّ نساليّ، شعبة مكنيّة تمرّ بالصّوت وتجعل منه طرف لا تارّضن. وذلك لا يتمّ دون التباسات كبرى: يجتاحنا الصّوت، يدفعنا، يسحبنا، يخترقنا. إنّهُ يغادر الأرض، لكن كذلك من أجل إسقاطنا في ثقب أسود كما من أجل أن يفتحنا على كون. إنه يجعلنا نتمنّى الموت. بامتلاكه أكبر قوّة لا تارّضن، يُجري كذلك إعادات اللّا تارّضن الأضخم، الأغبي، الأكثر تردّادا. انتشاء وتنويم. لا نحرك شعبا بواسطة الألوان. لا تقدر الأعلام على شيء من دون الأبواق، الليزر يعدّل ذاته على الصّوت. اللّازمة صائنة بامتياز، لكنّها تطوّر قدرتها كذلك في ترنيمة لزجة كما في الخليّة اللّحنيّة الأنقى أو في جملة فانتوي. وفي بعض الحالات بوضع هذا في ذاك: كيف يصبح بيتهوفن «إشاريّاً». فاشيّة كامنة في الموسيقى. يمكن أن نقول إجمالاً إنّ الموسيقى متّصلة بشعبة مكنيّة أقوى لا نهائيّاً من شعبة الرّسم: خطّ ضغط انتقائيّ. لذلك ليس للموسيقى نفس العلاقة مع الشعب، مع الممكنات، مع السّلطات القائمة، [٤٣٠] مثل تلك التي للرّسام. بشكل خاصّ، تشعر السّلطات بحاجة ملّحة لمراقبة توزيع الثّقوب السّوداء وخطوط اللّا تارّضن في شعبة الأصوات هذه، لتدرا مفاعيل المكنيّة الموسيقيّة أو لتستحوذ عليها. الرّسام، على الأقلّ في الصّورة التي نكوّنها عنه، يمكن أن يكون أكثر انفتاحاً بكثير من النّاحية الاجتماعيّة، أن يكون سياسياً أكثر بكثير، وأقلّ عرضة للمراقبة من الخارج ومن الدّاخل. ذلك لأنّ له

(١) حول هذه العلاقة بين الألوان والأصوات، راجع مّسيان وصامويل، محادثات، صص ٣٦-٣٨. ما يؤاخذ به مّسيان المدمنين على المخدّرات، هو تبسيطهم البالغ للعلاقة التي تتحرّك مذكّك بين صوت ولون، بدلا من إدخال مرّكّبات أصوات-مُدّد ومرّكّبات ألوان.

هو ذاته أن يبدع أو أن يعيد إبداع شعبة في كلّ مرّة، وعليه في كلّ مرّة أن يقوم بذلك انطلاقاً من أجسام ضوء ولون هو الذي ينتجها، بينما يمتلك الموسيقيّ على النقيض من ذلك ضرباً من الاستمرارية الجينية، حتى وإن كانت كامنة، حتى وإن كانت غير مباشرة، يُنتج انطلاقاً منها أجسامه الصّائتة. إنّها ليست نفس حركة الإبداع: تذهب حركة من الجسد إلى البذرة، والأخرى من البذرة إلى الجسد. لازمة الرّسام شبيهة بقفا لازمة الموسيقيّ، إنّها سلبّيّ الموسيقيّ.

لكن، على أية حال، ما اللاّزمة؟ هارمونيكاً زجاجيّة: اللاّزمة مؤشور، بلّورة مكان- زمان. إنّها تعمل على ما يحيط بها، صوتاً كان أو ضوءاً، لتستخرج منه اهتزازات متنوّعة، تفكّكات، إسقاطات وتغيّرات. للآزمة أيضاً وظيفة تحفيزيّة: ليس فقط زيادة سرعة التبادلات والاستجابات في ما يحيط بها، إنّما تأمين تفاعلات غير مباشرة بين عناصر تفتقر لانسجام يسمّى انسجاماً طبيعياً، وبذلك تُشكّل كتلاً منظّمة. قد تكون اللاّزمة إذاً من طينة البلّور أو البروتين. أمّا بخصوص البذرة أو البنية الدّاخلية، قد يكون لهما حينئذ مظهران أساسيان: الزّيادة والنّقصانات، الإضافات والانسحابات، تضخيمات وإزالات وفق قيم لا متكافئة، لكن كذلك حضور حركة تفهيريّة تذهب في الاتّجاهين «كما على الرّجاج العرضانيّ لترامواي يسير». الحركة التفهيريّة الغريبة لدعابة. يعود للآزمة أن تتمركز بواسطة الحذف على لحظة وجيزة للغاية، مثلما من الأطراف إلى المركز، أو على النقيض من ذلك أن تتطوّر بإضافات تذهب من مركز إلى الأطراف، لكن كذلك اجتياز هذه السّبل في الاتّجاهين^(١). اللاّزمة تصنع الزّمن. إنّها «الزّمن المتضمّن» الذي كان تحدّث عنه اللّسانيّ غيوم. حينئذ يظهر الالتباس

(١) حول البلّور أو التّمط البلّوريّ، القيم المضافة والمقتطّعة، الحركة التفهيريّة، بالإمكان الرجوع كذلك إلى نصوص مبيان في معادلاته كما إلى نصوص كلّ في يومياته.

بشكل أوضح: إذ، إذا لم تشكّل الحركة التّفهيريّة غير دائرة مغلقة، إذا كانت الزّیادات والنّقصانات لا تتمّ إلّا بقيم منتظمة، مثلاً بالضعف أو بالنّصف، فإنّ هذه الصّرامة المكانية- الزمنية الزائفة تترك بالأحرى المجموعة الخارجية في الضّبابيّة، المجموعة التي لم تعد لها مع البذرة غير علاقات [٤٣١] ترابطيّة، إشاريّة أو وصفيّة- «ورشة عناصر زائفة لتكوين بلّورات غير نقيّة»-، بدلاً من البلّور النّقيّ الذي يلتقط القوى الكونيّة. تبقى اللّازمة في حالة صيغة تستدعي شخصيّة إيقاعيّة، مشهاداً نغمياً. إنّهما إذاً مثل قطبيّ اللّازمة. وهذان القطبان لا يتوقّفان على كفيّة داخلية وحسب، إنّما أيضاً على حالة قوّة من يستمع: هكذا تبقى الجملة الصّغيرة في سوناتة فانتوي مرتبطة مطوّلاً بحبّ سوان، بشخصيّة أودات وبمشهد غابة بولونيا، حتى تعود على ذاتها، تنفتح على ذاتها للكشف عن إمكانيات ما تزال حتى الآن مجهولة، تدخل في ارتباطات أخرى، تُحوّل الحبّ نحو تنضيدات أخرى. ليس ثمة الزّمن بوصفه صورة قَبليّة، إنّما اللّازمة هي الصّورة القَبليّة للزّمن، هي التي تصنع في كلّ مرّة أزمنة مختلفة.

من الغريب ألاّ تحذف الموسيقى اللّازمة الرّديئة أو السيّئة، أو الاستعمال السيّئ للّازمة، بل تستدرجها على النّقيض من ذلك أو تستعملها كمحقّقز. «آه! سأقول لك يا أمّي...» «كانت لها ساق خشبيّة...»، «أخي جاك...». لازمة طفولة أو عصفور، أغنية فولكلوريّة، أغنية شُرب، رقصة فيانّا، جلاجل البقر، الموسيقى تستعمل كلّ شيء وتجرف كلّ شيء. إنّها ليست مجرد لحن طفل، عصفور أو فولكلور، يُختزّل في الصّيغة التّرابطيّة والمغلقة التي نتحدّث عنها منذ قليل. قد يتوجّب بالأحرى بيان الكيفيّة التي يكون بها موسيقيّ في حاجة إلى صنف أوّل من اللّازمة، لازمة إقليميّة أو تنضيديّة، لتغييرها من الدّاخل، لئلاّ أرضنتها ولإنتاج لازمة من صنف ثانٍ في النّهاية، بوصفها هدفاً نهائيّاً للموسيقى، لازمة كونيّة لمكنة أصوات. من صنف إلى آخر،

طرح جيزال برولاي المشكل بوضوح بخصوص بارتوك: كيف نبني، انطلاقاً من النغمات الإقليمية والشعبية، القائمة برأسها، المكتفية بذاتها، المنغلقة على ذاتها مثل مقامات، نبني تلوينية تجعلها تتواصل، ونخلق بالتالي «ألحاناً» تمكّن من تطوير الصورة أو تمكّن بالأحرى من تصوّر قوى؟ المشكل عام بما أنّه في الكثير من الاتجاهات ستزعر لازمات بواسطة بذرة جديدة تلتقي من جديد بالمقامات وتجعلها متواصلة، تفكّك السّلم الموسيقيّ المعدّل، تصهر السّلمين الكبير والصّغير، تزعزع المنظومة الطّنينيّة، تمرّ عبر جنباتها بدلاً من القطع معها^(١). [٤٣٢] يمكننا القول: ليحيا شابريري ضدّ شوانبارغ، مثلما كان نيتشه يقول يحيا بيزات، ولنفس الأسباب وفي نفس المقصد الموسيقيّ والتّقنيّ. نذهب من المقاميّ إلى تلوينيّة موسّعة غير معدّلة. لسنا في حاجة إلى إلغاء الطّنينيّ، نحن في حاجة إلى زعزعته. نذهب من اللّازمات المنضّدة (الإقليمية، الشعبيّة، الغراميّة، إلخ.) إلى اللّازمة الكونيّة الكبرى المُمكنة. لكنّ عمل الإبداع يتمّ بالفعل في اللّازمات الأولى، إنّها فيها بتمامه. في الشّكل الصّغير - لازمة أو دور، تدخل

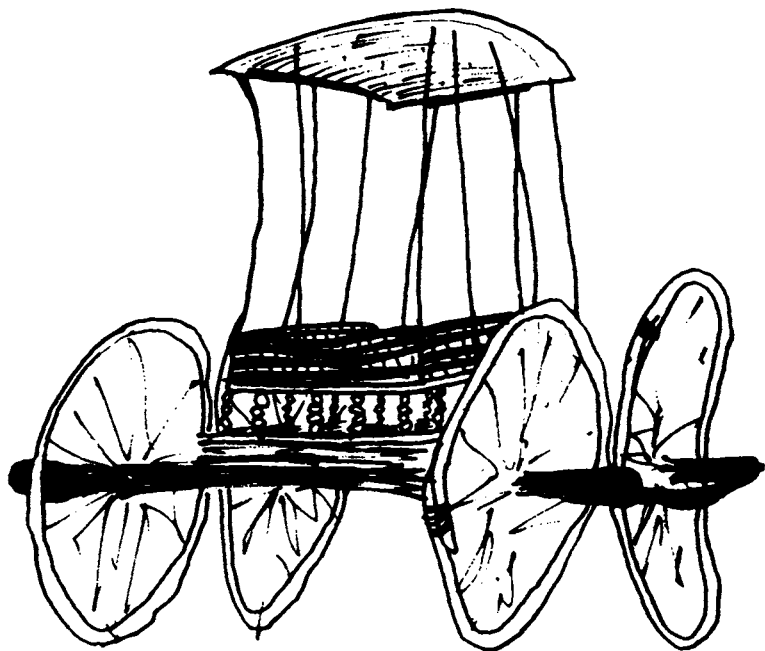
(١) في تاريخ الموسيقى، بلاياد، الجزء الثاني، راجع مقال رولان- مانويل حول «تطوّر النغميّة في فرنسا وتجديد ١٨٨٠» (ص ٨٦٧-٨٧٩) ومقال دُلاغ حول شابريري (صص ٨٣١-٨٤٠). وخاصّة دراسة جيزال برولاي حول بارتوك: «أليس من هذه التقيضة بين النغم واللحن تتأتى صعوبة استعمال الموسيقى العالمية للموسيقى الشعبيّة؟ الموسيقى الشعبيّة هي النغم بالمعنى الأتمّ، يدفعنا النغم إلى الاعتقاد أنّه يكتفي بذاته بل وأنّه هو الموسيقى. كيف له ألا يرفض الخضوع للتطوّر العالم لموسيقى تحرّكها مقاصدها الخاصّة؟ الكثير من السمفونيات المستوحاة من الفولكلور ليست غير سمفونيات قائمة على لحن شعبيّ، يظلّ التطوّر العالم بالنسبة إليه غريباً وخارجيّاً. النغم الشعبيّ قد لا يسعه أن يكون لحناً حقيقيّاً؛ لذلك، في الموسيقى الشعبيّة هو الأثر كلّ، وعند انتهائه، لم يعد له من مورد غير أن يتكرّر. لكن ألا يمكن للنغم أن يتحوّل إلى لحن؟ بارتوك يحلّ هذا المشكل الذي كنّا نعتقد أنّه عصيّ على الحلّ» (ص ١٠٥٦).

بالفعل تشويهات ستلتقط قوّة كبرى. مشاهد طفولة، ألعاب طفل: ننتقل من لازمة طفوليّة، لكن للطفل بالفعل أجنحة، إنه يصبح سماويّاً. تصوّر الموسيقيّ - طفلاً يتضاعف بتصوّر الطفل - هوائياً، في كتلة لا تنحلّ. ذاكرة ملاك، إنّهُ بالأحرى التّصوّر لكون. بلّورة: التّصوّر - عصفورا لموزار لا ينفصل عن تصوّر العصفور خبيراً ويتوحد معه^(١). إنّهُ العمل المعمّق للغاية حول الصّنف الأوّل من اللّازمات هو الذي سيصنع الصّنف الثّاني، أي جملة الكون الصّغيرة. في كونشرتو، شومان في حاجة إلى كلّ تنضيدات الجوقة حتى يجعل الكمان الجهير يشرد مثل ضوء يتعدّ أو ينطفئ. عند شومان، عمل نغميّ بالتّمام، تناغميّة وإيقاع عالم يفضي إلى هذه النتيجة البسيطة والمتّزنة، لا أرضنة اللّازمة^(٢). إنتاج لازمة لا مُتأرّضنة بوصفها هدفاً أسمى للموسيقى، إطلاقها في الكون، ذلك أهمّ من صنع منظومة جديدة. فتح التّنضيد على قوّة كونيّة. من الواحد إلى الأخرى، من تنضيد الأصوات إلى المكنة التي تجعل الشّيء صائتاً - من تصوّر الموسيقيّ - طفلاً إلى تصوّر الطفل - كونيّاً -، تبرز الكثير من المخاطر: الثّقوب السّوداء، الانغلاقات، شلل الإصبع وهلوسات السّمع، جنون شومان، القوّة الكونيّة التي أصبحت سيّئة، نوتة تتابعكم، صوت [٤٣٣] يصمّ آذانكم. ومع ذلك كانت الواحدة في الأخرى بالفعل، القوّة الكونيّة كانت في الموادّ، اللّازمة الكبرى كانت في اللّازمات الصّغرى، الحركة الكبيرة كانت في الحركة الصّغيرة. غير أنّنا لسنا متأكّدين على الإطلاق أنّنا أقوىاء كفاية بما أنّه ليست لنا منظومة، ليس لنا غير خطوط وحركات. شومان.

(١) مارسال موراي، الإله موزار وعالم العصفير، غاليمار، ص ١٦٨. وحول البلّور، صص ٨٣ - ٨٩.

(٢) راجع التحليل الشّهير الذي قام به بارغ لـ «حلم اليقظة»، كتابات، منشورات روشيه، صص ٤٤ - ٦٤.

[٤٣٤] ١٢. ١٣٢٧- مبحث الترخّلية: مكنة حرب



عربة مترخّلة مصنوعة كلّها من الخشب، الطاي
القرنان الرّابع والخامس قبل الميلاد

البديهيّة الأولى: مكنة الحرب خارجة عن جهاز الدّولة.
القضيّة الأولى: هذه الخارجانيّة أكّدتها أوّلا الميثولوجيا،
الملحمة، الدراما والألعاب.

بيّن جورج دوميزيل في تحليلات حاسمة للميثولوجيا الهندو-

أوروپيَّة أن السيَّادة السَّياسية، أو الهيمنة، لها رأسان: رأس المَلِك- السَّاحر ورأس الكاهن- القانوني. [٤٣٥] راكس وفلامان، راج وبراهمان، روميليس ونوما، فارونا وميترا، المستبدَّ والمشرِّع، المُلزم والمنظَّم. وهذان القطبان يتعارضان تماما دون شك، مثل الظلمة والضياء، العنيف والهادئ، السَّريع والرَّصين، المرعب والمنظَّم، الـ«إلزام» والـ«الميثاق»، إلخ.^(١) لكنَّ تعارضهما ليس إلَّا تعارضا نسبيا؛ إنَّهما يعملان زوجيا، بالتَّناوب، كما لو أنَّهما كانا يعبران عن قسمة الواحد أو كانا يشكَّلان هما ذاتهما وحدة سيادية. «هما في نفس الوقت متضادَّان ومتكاملان، ضروريَّان أحدهما للآخر وبالتالي دون عداوة بينهما، دون ميشيولوجيا صراع: كلَّ تخصيص على أحد الصَّعيدين يستدعي آليا تخصيصا مماثلا على الصَّعيد الآخر، ووحدهما معا يستنفدان مجال الوظيفة.» إنَّهما العناصر الأساسية لجهاز دولة يعمل وفق واحد- اثنين، يوزَّع التَّمييزات الثَّنائية ويشكِّل وسط داخلائيَّة. إنَّه تَمَفُّض مضاعف يجعل من جهاز الدَّولة طبقة.

سنلاحظ أنَّ الحرب ليست محصورة في هذا الجهاز. إمَّا أنَّ الدولة تمتلك عنفا لا يمرُّ بالحرب: تستعمل رجال شرطة وسجَّانين بدلا من محاربين، ليس لديها أسلحة وليست في حاجة إلى ذلك، إنَّها تعمل بواسطة أسْر سحريٍّ مباشر، إنَّها «تستولي» و«تُلزم»، مانعة كلَّ قتال. أو أنَّ الدَّولة تتمتَّع بجيش، لكنها تفترض إدماجا قانونيا للحرب وتنظيما لوظيفة عسكريَّة^(٢). أمَّا مكنة الحرب في حدِّ ذاتها فيبدو أنَّها تستعصي

(١) جورج دوميزيل، ميترا- فارينا، غاليمار (حول العقد والإلزام، الإلزام والعقد، راجع، صص ١١٨-١٢٤).

(٢) الدَّولة وفق قطبها الأوَّل (فارونا، أورانوس، روميليس)، تعمل وفق رابطة سحرية، استيلاء أو أسْر مباشر: إنها لا تقاتل، وليس لديها مكنة حرب، «إنَّها تُلزم ليس إلَّا». وفق قطبها الآخر (ميترا، زوس، نوما)، إنَّها تملك جيشا، لكن بإخضاعه إلى قواعد مؤسَّساتية وقانونية لم تعد تجعل منه غير قطعة من جهاز

على اختزالها في جهاز الدولة، إنها خارجة عن سيادتها، سابقة لقانونها: إنها تأتي من مكان آخر. إندرا، الإله المحارب لا يقلّ معارضة لفارونا من معارضته لميترا^(١). إنه لا يُختزل في أحدهما أكثر من عدم تشكيله لثالث. قد يكون بالأحرى مثل الكثرة المحض والتي لا مقياس لها، الزمرة، اقتحام الرّائل وقدرة انقلاب العين. إنه يفكّ الالتزام بقدر ما يخون الميثاق. إنه يؤكّد التّيه ضدّ المقياس، السرعة ضدّ الاتّزان، السرّ ضدّ العموميّ، الاقتدار ضدّ السّيادة، المكنة ضدّ الجهاز. إنه يعبر عن عدالة أخرى، وأحيانا عن قساوة غير مفهومة، لكن أحيانا كذلك عن حُنو [٤٣٦] مجهول (بما أنّه يحلّ من الإلزامات...^(٢)). إنه يعبر خاصّة عن علاقات أخرى مع النّساء، مع الحيوانات، بما أنّه يعيش كلّ شيء في علاقات تصوّر، بدلا من القيام بتوزيعات ثنائية بين «حالات»: تصوّر - حيوان للمحارب، تصوّر - امرأة بالكامل يتخطى في نفس الوقت ثنائيات الحدود كما تناظرات العلاقات. من جميع النّواحي، مكنة الحرب هي من نوع آخر، من طبيعة أخرى، من أصل آخر مغاير لجهاز الدولة.

قد يتوجّب اتّخاذ مثال محدّد، مقارنة مكنة الحرب بجهاز الدولة وفق نظرية الألعاب. ليكن الشّطرنج والغو، من ناحية القطع، من ناحية العلاقات بين القطع وبين والفضاء المعنويّ. الشّطرنج لعبة دولة أو بلاط، إمبراطور الصّين يمارسها. قطع الشّطرنج مقنّنة، لها طبيعة

الدولة: على هذا النّحو مارتينوس - تيواز ليس إلها محاربا، بل هو إله «فقيه بقانون للحرب». راجع، دوميزيل، ميترا - فارينا، ص ١١٣ وما يليها، ص ١٤٨ وما يليها، ص ٢٠٢ وما يليها.

- (١) دوميزيل، حسن طالع المحارب وسوء طالعه، المطابع الجامعية الفرنسية.
- (٢) حول دور المحارب من حيث أنّه «يحلّ من الإلزامات» ويعارض الرّابطة السّحرية كما العقد القانوني، راجع ميترا - فارينا، صص ١٢٤ - ١٣٢. وفي مواضع متفرقة عند دوميزيل، دراسة التّيه.

داخلية أو خاصيات أصلية تُستمدّ منها حركاتها، وضعياتها ومواجهاتها. إنها موسومة، يظلّ الحصان حصانا، البيدق بيدقا، البُندق بُندقا. كلّ قطعة شبيهة بذات ملفوظ، لها قدرة نسبية، وهذه القدرات النسبية تتجمّع في ذات تلفُّظ هي لاعب الشطرنج ذاته أو صورةً داخلانية اللعبة. على التقيض من ذلك، يبادق الغُو هي حَبّات، أقراص، مجرد وحدات أرثميتيقيّة، ولا وظيفة أخرى لها غير وظيفة مجهولة، جماعية أو منسوبة للضمير الثالث: «هو» يتقدّم، يمكن أن يكون رجلا، امرأة، برغوثا، فيلا. يبادق الغُو هي عناصر تنضيد مكثّي غير مُدثّين، دون خصائص أساسية، لها خصائص وضعية وحسب. كذلك العلاقات مختلفة جدًا في الحالتين. تقيم قطع الشطرنج في وسط داخلانيّتها علاقات مزدوجة بعضها مع بعضها الآخر، ومع قطع الخصم: وظائفها بنيوية. بينما يبدق الغُو ليس له إلّا وظيفة برّانية، أو علاقات برّانية مع سُدم، كوكبات، يؤدّي تبعاً لها وظائف إدراج أو وضع، مثل الحدّ، التطويق، التفجير. يستطيع يبدق غُو أن يقضي بمفره في نفس الآن على كوكبة، بينما لا تقدر قطعة شطرنج على فعل ذلك (أو لا تقدر عليه إلّا تعاقبياً). الشطرنج حرب، لكنها حرب مُمأسسة، منظّمة، مقنّنة، مع مقدّمة جيش ومؤخّرتة، ومعارك. لكنّ حرباً دون خطّ قتال، دون مواجهة ومؤخّرات، وفي أقصى حدّ دون معركة هي خاصّة الغُو: بينما الشطرنج هو [٤٣٧] سيمولوجيا. في النهاية ليس هو نفس الفضاء على الإطلاق: في حالة الشطرنج، يتعلّق الأمر باقتسام فضاء مغلق، بالذهاب إذاً من نقطة إلى أخرى، باحتلال أكثر ما يكون من الأمكنة بأقلّ ما يكون من القطع. في الغُو، يتعلّق الأمر بالتوزّع في فضاء مفتوح، بالإمساك بالفضاء، بالحفاظ على إمكانية الانبثاق في أيّة نقطة كانت: لم تعد الحركة تذهب من نقطة إلى أخرى، بل تصبح حركة دائمة، دون هدف ودون وجهة، دون انطلاق ودون وصول. فضاء «أملس» للغُو ضدّ فضاء «محزّز» للشطرنج. ناموس الغُو ضدّ دولة

الشطرنج، ناموس ضدّ بوليس. ذلك أنّ الشطرنج يقنّن الفضاء ويُحلّقنه، بينما يعمل الغوّ بكيفية مغايرة تماما، إنّهُ يؤرّضن الفضاء ولا يؤرّضنه (يجعل من الخارج إقليما في الفضاء، يوطّد هذا الإقليم بواسطة بناء إقليم ثان متاخّم له، لا أرضنة العدوّ بتفجير إقليمه من الدّاخل، لا تأرّضنه هو ذاته، بتخلّيه، بارتحاله إلى مكان آخر...).

عدالة أخرى، حركة أخرى، مكان- زمان آخر.

«يُقبلون كالقدر، دون سبب، دون علّة، دون مراعاة، دون ذريعة...» «من المحال فهم كيف توغلّوا حتّى وصلوا العاصمة، ومع ذلك هم هنا، ويبدو أنّ كلّ صباح يضاعف عددهم...» - أجلى ليك دي هوش (Luc de Heusch) ميثة لقباثل البانتو تعيدنا إلى نفس الخطاطة: نكونغولو، إمبراطور من السّكّان الأصليين، منظمّ الأشغال الكبرى، رَجُل جماهير وسياسة، يزوّج أخواته غير الشّقيقات من الصّيّاد مبيدي، الذي يعينه ثمّ يرحل؛ ابن مبيدي، كاتم السّرّ، يلتحق بأبيه، لكن ليعود من الخارج بهذا الشّيء الذي لا يخطر على بال، يعود بجيش ويقتل نكونغولو، حتى يعيد إقامة دولة جديدة^(١)... «بين» الدّولة الاستبداديّة- السّحريّة والدّولة القانونيّة التي تتضمّن مؤسّسة عسكريّة، قد يكون ثمة هذا الانبثاق لمكنة الحرب الآتية من الخارج.

من زاوية نظر الدّولة، أصلايّة رَجُل الحرب ولا تراكزيته تظهر بالضرّورة في شكل سلبيّ: غباء، تشوّه، جنون، لا مشروعيّة، اغتصاب سلطة، خطيّة... يحلّل دوميزيل «خطايا» المحارب الثّلاث في التّقليد الهندو- أوروبّي: ضدّ المَلِك، ضدّ الكاهن، ضدّ القوانين الصّادرة عن

(١) يلخّ ليك دي هوش (الملك المخمور أو أصل الدّولة) على الخاصيّة العموميّة لحركات نكونغولو في تعارض مع سرّيّة حركات مبيدي وابنه: خاصّة أنّ الأوّل يتناول طعامه علنيّا، بينما يتخفّى الآخراّن ساعة الطّعام. سنرى العلاقة الأساسيّة للسّرّ مع مكنة الحرب، من ناحية المبدأ كما من ناحية النّتائج: الجوسسة، الاستراتيجية، الدّبلوماسية. غالبا ما أكّد الشّراح على هذه العلاقة.

الدولة (سواء كان انتهاكا جنسياً يُقوّض تقسيم الرجال والنساء، سواء حتى خيانة قوانين [٤٣٨] الحرب مثلما ستتها الدولة^(١)). المحارب في وضعية خيانة كل شيء، بما في ذلك الوظيفة العسكرية، أو في وضعية عدم فهم أي شيء. يصادف مؤرخين بورجوازيين أو سوفياتيين اتّباع هذا التقليد السلبي، ويفسّرون كون جنكيز خان لا يفهم شيئا: هو «لا يفهم» ظاهرة الدولة، هو «لا يفهم» الظاهرة الحضريّة. من اليسير قول ذلك. لأنّ برّانية مكنة الحرب بالنسبة إلى جهاز الدولة تبدّد في كل مكان، لكنّها تظلّ عصيّة على التفكير. لا يكفي تأكيد كون المكنة كائنة خارج الجهاز، يجب التوصل إلى التفكير بمكنة الحرب بوصفها صورة برّانية محضا هي ذاتها، بينما جهاز الدولة يكون صورة الدّاخلانيّة التي نتخذها عادة كنموذج، أو التي تعودنا التفكير تبعاً لها. ما يعقد كل شيء، هو أنّ هذه القدرة البرّانيّة لمكنة الحرب، تنحو في بعض الظروف إلى التّطابق هي ذاتها مع هذه الرّأس أو تلك من رؤوس جهاز الدولة. تتطابق تارة مع العنف السّحريّ للدولة، تارة مع المؤسّسة العسكريّة للدولة. مثلاً، تبتكر مكنة الحرب السّرعة والسّر: لكن ثمة مع ذلك سرعة معيّنة وسرّ معيّن ينتميان إلى الدولة، نسبياً وثنائويّاً. ثمة إذا مخاطرة كبرى للمطابقة بين العلاقة البنيويّة لقطبيّ السّيادة السياسيّة، والعلاقة الديناميّة لهذين القطبين مع قدرة الحرب. يذكر دوميزيل سلالة ملوك روما: العلاقة روميليس-نوما التي تتكرّر على امتداد سلسلة، مع تغييرات وتناوب بين صنفين شرعيّين لأصحاب السّيادة؛ لكن كذلك العلاقة مع «ملك سيّء»، تولّيس هوستليس، تاركان المتغطرس، دخول

(١) دوميزيل، الميثقة والملحمة، غاليمار، الجزء الثّاني، صص ١٧-١٩: تحليل الخطايا الثّلاث الذي نعر عليه في حالة الإله الهنديّ أندرا، البطل الاسكندنافي ستاركاثروس، البطل اليونانيّ هيراكليس. راجع أيضاً حسن طالع المحارب وسوء طالعه.

المحارب عنوة بوصفه شخصية مخيفة، لا شرعية^(١). قد يسعنا أن نستحضر كذلك ملوك شكسبير: حتى العنف، جرائم القتل والانحرافات لا تمنع سلالة الدولة من تكوين ملوك «جيّدين»؛ لكن تتسلّل شخصية مخيفة، ريشارد الثالث الذي يعلن منذ البداية عن نيّته إعادة ابتكار مكنة حرب وفرض خطّ (مسيخ، مخادع وخائن، إنّهُ يستند إلى «هدف سرّيّ» مغاير بالتّمام للاستيلاء على سلطة الدولة، وإلى علاقة مغايرة مع النّساء). باختصار، في كلّ مرّة نخلط فيها بين الاقتحام الذي تقوم به مكنة الحرب مع سلالة هيمنة الدولة، يتشوّش كلّ شيء، ولم يعد بإمكاننا أن نفهم [٤٣٩] مكنة الحرب إلّا في صيغة السّلبّيّ، بما أنّنا لا ندع شيئاً يوجد خارج الدولة ذاتها. لكن بإعادة وضعها في وسط برّانيّتها، تظهر مكنة الحرب بنوع آخر، بطبيعة أخرى، بأصل آخر. قد نقول إنّها تستقرّ بين رأسيّ الدولة، بين التّمفصّلين، وإنّها ضروريّة للمرور من رأس إلى أخرى. لكنّها تؤكّد تحديداً «بين» الاثنين، في الآن حتى وإن كان عابراً وخاطفاً، عدم قابليّتها للاختزال. ليس للدولة بذاتها مكنة حرب؛ إنّها ستملّكها فقط في شكل مؤسّسة عسكريّة، ولا تفتأ هذه الأخيرة تسبّب لها مشكلات. من هنا خشية الدّول إزاء مؤسّستها العسكريّة، من حيث أنّها ترث مكنة حرب برّانيّة. استشعر كلاوزفيتس هذه الوضعيّة العامّة، عندما تناول اندفاق الحرب المطلقة بوصفه فكرة، وأنّ الدّول تستحوذ عليها جزئياً وفق احتياجات سياستها، وإنّ الدّول بالنسبة إليها هي «موصّلات» جيّدة نسبياً.

عالقاً بين قطبيّ السّيادة السّياسيّة، يظهر رَجُل الحرب متجاوزاً، مداناً، دون مستقبل، مختزلاً في غضبه الذي يقلبه ضدّ ذاته. ما زال

(١) جورج دوميزيل، ميترا- فارينا، ص ١٣٥. يحلّل دوميزيل مخاطر الخلط وأسبابه التي يمكن أن تكون راجعة إلى متغيّرات اقتصاديّة، راجع ص ١٥٣، ١٥٩.

لذريّة هيراكليس، آشيل ثمّ أجاكس، ما يكفي من القوى لتأكيد استقلاليتهما إزاء أغممنون، رجل الدّولة القديمة، لكنّهما عاجزان إزاء أوليس، رجل الدّولة الحديثة الوليدة، أوّل رجل للدّولة الحديثة. وأوليس هو الذي ورث أسلحة آشيل ليغيّر استعمالها ويخضعها لحقّ الدّولة، وليس أجاكس الذي أدانته الإلهة التي تحدّأها وأخطأ في حقّها^(١). ولا واحد بيّن بأفضل ممّا بيّن كلايست وضعيّة رجل الحرب هذه، الذي هو في نفس الوقت غريب الأطوار ومدان. ذلك أنّه في بانثسيليّا، انفصل آشيل بالفعل عن قدرته؛ انتقلت مكنة الحرب جهة الأمازونيّات، شعب- امرأة دون دولة، يقع تنظيم العدالة والذين والمحبات عنده في صيغة حربيّة دون سواها. الأمازونيّات سليلات السكيثيين تطلّعن كالصّاعقة، «بين» الدّولتين اليونانيّة والطروديّة. لقد كنسن كلّ شيء في طريقهنّ. يجد آشيل نفسه أمام صِْنوه، بانثسيليّا ملكة الأمازونيّات. وفي صراعه الملتبس، لا يسع آشيل إلّا أن يتبنّى مكنة الحرب أو أن يحبّ ملكة الأمازونيّات، أو أن يخون في نفس الوقت أغاممنون وأوليس. ومع ذلك، يعود بالفعل إلى الدّولة اليونانيّة بشكل كافٍ إلّا تدخل ملكة الأمازونيّات من جانبها في علاقة حرب غراميّة دون أن تخون هي ذاتها القانون الجماعيّ لشعبها، قانون [٤٤٠] الجماعة هذا الذي يمنع «اختيار» العدوّ والدّخول في مواجهات أو تمييزات ثنائيّة.

يتغنّى كلايست في كامل أثره بمكنة الحرب ويواجه بها جهاز الدّولة في معركة خاسرة مقدّمًا. لا ريب أنّ أرمنيوس يعلن عن مكنة حرب جرمانيّة تقطع مع النّظام الإمبراطوريّ للتّحالفات وللجيوش،

(١) حول أجاكس وتراجيديا سوفوكل، راجع تحليل جون ستاروينسكي، ثلاثة ضروب من الحقّ، غاليمار. يطرح ستاروينسكي بوضوح مشكل الحرب والدّولة.

ويقف دوما ضدّ الدولة الرّومانيّة. لكنّ أمير هومبورغ لم يعد يحيا إلّا في حلم ويجد ذاته مدانا لكونه انتصر بعصيانه لقانون الدولة. أمّا كوهلهاس فإنّ مكنة حربه لم يعد لها أن تكون غير مكنة نهب. أذلك هو قَدَرٌ مثل هذه المكنة عندما تنتصر الدولة، أن تسقط في إميّة: إمّا ألا تكون إلّا الذّراع العسكريّ والمنضبط لجهاز الدولة، وإمّا أن تنقلب ضدّ ذاتها وتصبح مكنة انتحار مزدوجة، لرجل وامرأة منفردتين؟ غوته وهينغل، مفكّرا دولة، يعتبران كلايست وحشا، وكلايست خسرا مقدّما. ومع ذلك لم تقف أغرب حادثة إلى جانبه؟ لأنّ عناصر أثره هي السّرّ والسرّعة والأفعال^(١). والسّرّ عنده لم يعد مضمونا مأخوذا في صورة داخلانيّة، على التّقيّض من ذلك يصبح صورة ويتماها مع صورة البرانيّة الكائنة دائما خارج ذاتها. كذلك اقتلعت المشاعر من داخلانيّة «ذات» لثرمي بعنف في وسط برانيّة محض تمنحها سرعة هائلة وقوّة منجنيق: لم يعد الحبّ أو الكراهة مشاعر على الإطلاق، بل هما أفعالان. وهذه الأفعالات هي بمثابة التّصيير - امرأة، التّصيير - طفلا لرجل الحرب (الدّبّ، الكَلْبَات). الأفعالات تخترق الجسد مثل السّهام، إنّها أسلحة حرب. سرعة لا تَأْرُضُن الأفعال. حتى الأحلام (حلم أمير هومبورغ، حلم بانثسيليا) تبدّت خارجيّاً بواسطة منظومة مَرَحَلَاتٍ ووُضُلَاتٍ، ترابطات برانيّة تنتمي إلى مكنة الحرب. حلقات مكسورة. عنصر البرانيّة هذا الذي يسيطر على كلّ شيء، الذي ابتكره كلايست في الأدب، وهو أوّل من ابتكره، سيمنح الزّمن إيقاعا جديدا، تتابعا لا حدّ له من التّشنّجات أو من الإغماءات، ومن الإيماضات أو الاندفاعات. التّشنّج معناه أنّ «هذا الأفعال قويّ جدّا بالنّسبة إلى»، والإيماضة معناها أنّ «قوّة هذا الأفعال تجرّفني»، لم يعد الأنا غير شخصيّة لم تعد حركاتها ومشاعرها مُدْتَبِنَةً، حتى وإن أدّت إلى موتها.

(١) موضوعات حلّلها ماثيو كاريار في دراسة غير منشورة حول كلايست.

هي ذي العبارة الشخصية لكلايست: تتابع سباقات مجنونة وتشنجات مجمدة حيث لا تبقى أية داخلانية ذاتية. ثمة الكثير من الشرق عند [٤٤١] كلايست: المصارع اليابانيّ دون حراك لا نهاية له، ثمّ يقوم بحركة لا يمكن إدراكها نتيجة سرعتها القصوى. لا عب الغو. الكثير من الأشياء في الفن الحديث متأية من كلايست. غوته وهيغل هما رجلان مسنان بالنسبة إلى كلايست. أيمن في اللحظة التي لم تعد فيها مكنة الحرب موجودة، هزمتها الدولة، أن تعبّر إلى أقصى حدّ عن استعصائها على الاختزال، عن اكتساحها مكنات تفكير، مكنات حبّ، مكنات موت، مكنات إبداع، مكنات تمتلك قوى حيّة أو ثورية قادرة على دحض الدولة المنتصرة؟ إنّه في نفس الحركة يكون وقع بالفعل تجاوز مكنة الحرب، إدانتها، امتلاكها، واتخاذها أشكالا جديدة، انقلاب عين، مؤكّدة استعصاءها على الاختزال، مؤكّدة برّانيتها: بسط هذا الوسط الذي هو وسط برّانية محض، والذي لا يفتأ يختزله رجل الدولة الغربيّ أو المفكّر الغربيّ؟

المشكل الأوّل: هل من سبيل لدَرْء تكوين جهاز دولة (أو معادلاتها داخل جماعة)؟
القضية الثانية: برّانية مكنة الحرب تشهد لها كذلك الإثنولوجيا (تكريما لذكرى بيار كلاستر).

غالبا ما وقع تعريف المجتمعات البدائية الأقسومية على أنّها مجتمعات من دون دولة، بمعنى لا تظهر فيها هيئات سلطة متميزة. لكن كنّا ننتهي من ذلك إلى أنّ هذه المجتمعات لم تبلغ درجة تطوّر اقتصاديّ أو مستوى تمايز سياسيّ، قد يجعلان من الممكن ومن الحتميّ في نفس الوقت تكوين جهاز دولة: بالتالي، البدائيون «لا يفهمون» جهازا بمثل هذا التعقيد. تتمثل الأهميّة الأولى لأطروحات كلاستر في القطع مع هذه المسلّمة التطوريّة. إنّه لا يشكّك فقط في كون

الدولة هي نتاج تطوّر اقتصاديّ قابل للتعيين، لكنه يتساءل عمّا إذا لم يكن للمجتمعات البدائية هاجس كامن لدرء ولاجتناب هذا الوحش الذي من المفترض أنّها لا تفهمه. درء تكوين جهاز دولة، جعل مثل هذا التكوين مستحيلا، قد يكون موضوع عدد معيّن من الآليات الاجتماعية البدائية حتى وإن تخطّت الوعي الواضح. لا ريب أنّه للمجتمعات البدائية زعماء. لكنّ الدولة لا تتحدّد بوجود زعماء، إنّها تتحدّد بإدامة هيئات السّلطة والحفاظ عليها. شاغل السّلطة هو المحافظة. من الواجب إذا وجود مؤسسات خاصّة حتى يمكن للزعيم أن يصير رجل دولة، ناهيك عن وجوب وجود آليات جماعية منتشرة لمنع زعيم من التحوّل إلى رجل دولة. آليات الدرء أو [٤٤٢] الاجتناب تنتمي إلى الزّعامة وتمنعها من التّجمّد في جهاز مستقلّ عن الجسم الاجتماعيّ ذاته. يصف كلاستر هذه الوضعية للزعيم الذي لا سلاح مؤسّس له غير هيئته، لا وسيلة أخرى لديه غير قدرته على الإقناع، لا قاعدة أخرى له غير استشعاره لرغبات الجماعة. الزّعيم أكثر شبها بالقائد أو التّجم منه برّجل سلّطة، ويوشك دائما أن تتنصّل منه جماعته وتتخلّى عنه. لكن، أكثر من ذلك، يعيّن كلاستر الحرب في المجتمعات البدائية على أنّها الآلية الأضمن الموجهة ضدّ تكوين الدولة: ذلك أنّ الحرب تحافظ على تشتّت الجماعات وعلى أقسوميّتها، والمحارب ذاته مأخوذ في سيرورة تراكم مآثره التي تفضي به إلى عزلة وإلى موت مهيبين، لكن دون سلّطة^(١). يمكن لكلاستر الانتساب إذا إلى الحقّ الطّبيعيّ مع قلب طرحه الرّئيسيّ: مثلما رأى

(١) بيار كلاستر، المجتمع ضدّ الدولة، منشورات مينوي: «أركيولوجيا العنف» و«بؤس المحارب البريّ» في حُرّ I و II، منشورات بايو. إنّهُ في هذا النّصّ الأخير يصوّر كلاستر مصير المحارب في المجتمع البدائيّ، ويحلّل الآلية التي تمنع من مَرَكْزَة السّلطة (بالمثل، كان مارسال موس بين في البوتلاتش آلية منع مَرَكْزَة الثروة).

هو بَرَّز أنَّ الدَّولة كانت ضدَّ الحرب، الحرب ضدَّ الدَّولة وتجعلها أمراً مستحيلاً. لا تنتهي من ذلك إلى أنَّ الحرب هي حالة طبيعة، إنّما على النقيض من ذلك إلى أنّها صيغة حالة اجتماعية تدرأ الدَّولة وتمنعها. الحرب البدائية لا تنتج الدَّولة ناهيك على أنّها ليست متأتية منها. وبقدر ما أنّها لا تنفسر بالدَّولة فإنّها لا تنفسر بالمبادلة: بعيداً عن اشتقاقها من المبادلة، حتى وإن كان ذلك من أجل الإقرار بإخفاقتها، فإنَّ الحرب هي ما يحدّ من المبادلات ويبقيها في إطار «المصاهرات»، وهو ما يمنعها من أن تصبح عامل دولة ومن صَهر المجموعات.

تتمثّل أهميّة هذه الأطروحة أولاً في جلب الانتباه إلى آليات الكبح الجماعية. يمكن أن تكون هذه الآليات دقيقة وتعمل بوصفها آليات مجهرية. نرى ذلك بوضوح في بعض ظاهرات المجموعات أو الزُّمَر. على سبيل المثال، يذكر جاك مونبي بخصوص مجموعات أطفال بوغوتا، ثلاثة وسائل تمنع القائد من اكتساب سلطة قارّة: يجتمع أعضاء المجموعة ويقومون بفعل السرقة بشكل مشترك، مع غنيمة جماعية، لكنّهم يتفرّقون، لا يبقون مع بعضهم للنوم والأكل؛ من ناحية أخرى وبشكل خاصّ، كلّ عضو من المجموعة مُقترن بواحد، اثنين أو ثلاثة أعضاء آخرين، بحيث أنّه في حالة الخلاف مع الزعيم، لن يغادر وحده، لكنّه يجرّ معه المتحالفين معه الذين يوشك رحيلهم المترافق أن يفكّك المجموعة بكاملها؛ في الأخير ثمة حدّ للسّنّ منتشر بينهم، يجعل أنّه في حدود سنّ الخامسة عشر يكونون مضطّرين إلى مغادرة المجموعة، إلى [٤٤٣] الانفصال عنها^(١). لفهم هذه الآليات، يجب

(١) جاك مونبي، أطفال بوغوتا، منشورات لاتاس، ص ١٥٩ («تهديد بالتفرّق»)، ص ١٧٧: عند الحاجة، «بلعبة معقّدة من المضايقات ومن ضروب الصّمت، يقنعه الأطفال الآخرون بفكرة ضرورة مغادرة المجموعة». يشدّد مونبي على درجة تعريض مصير من كان طفلاً في السّابق للخطر: ليس ذلك لأسباب صحّية وحسب، لكن لصعوبة اندماجه في «عالم الجريمة»، الذي هو بالنّسبة إليه مجتمع

التَّخْلِي عن الرُّؤية التَّطَوُّريَّة التي تجعل من المجموعة أو من الزُّمرة شكلاً اجتماعيًّا ابتدائيًّا وأقلَّ تنظيمًا بكثير. حتى في المجموعات الحيوانية، الزُّعامة أليَّة معقَّدة لا تُعلي من شأن الأقوى بل تمنع بالأحرى من إقامة سلطات مستقرَّة لصالح نسيج من العلاقات المحايثة^(١). قد نستطيع كذلك معارضة شكل «الاجتماعية» بشكل «الرَّقِي» عند البشَر الأكثر تطوُّراً: الجماعات الرّاقية قريبة من المجموعات وتعمل وفق نشر الهيبة بدلا من العودة إلى مراكز نفوذ كما في الجماعات الاجتماعية (بيّن بروس توضح عدم التناظر هذا بين القيم الرّاقية والقيم الاجتماعية). أوجين سو (Eugène Sue)، الرّاقِي والمتأنق، والذي كان مناصرو الملكيّة يؤاخذونه على مخالطة عائلة أورليون، يقول: «أنا لا أنضمّ إلى العائلة، أنا أنضمّ إلى الزُّمرة». الزُّمر والجماعات هي مجموعات من صنف الجذمور، في مواجهة الصَّنْف الشَّجرانيّ الذي يتمحور حول هيئات السُّلطة. لذلك، الجماعات بعامة، حتى جماعات النّهب أو الجماعات الرّاقية هي انقلابات عين لمكنة الحرب التي تختلف شكليًّا عن كلّ جهاز دولة أو عن كلّ ما هو مساو له والذي يهيكل على التَّقْيُض من ذلك المجتمعات الممَرَّكة. بكلّ تأكيد لن نقول إنّ الانضباط هو خاصّة مكنة الحرب: يصبح الانضباط الخاصّيّة التي تتطلّبها الجيوش، عندما تستحوذ عليها الدّولة؛ لكنّ مكنة الحرب تستجيب لقواعد أخرى لا نقول عنها بكلّ تأكيد إنّها أفضل، لكنّها تحرّك عدم انضباط أساسيٍّ للمحارب، طعنا في التّراتبيّة، تهديدا دائما بالتَّخلي وبالخيانة، إحساسا شديدا جدّا بالشّرف، وهي مضادّة مرّة أخرى لتكوين الدّولة.

تراتبِيّ للغة، مُمَرَّكز للغة، متمحور للغاية حول هيئات سلطة (ص ١٧٨).
حول مجموعات الأطفال، راجع كذلك رواية أمادو، قادة الرّمال، غاليمار.

(١) راجع، إروين. س. برنشتاين (Irwin S. Bernstein)، «السّيطرة الاجتماعية عند الرّئيسيّات»، في البحث، عدد ٩١، جويلية/يوليو ١٩٧٨.

لكن مع ذلك ما الذي يجعل هذه الأطروحة لا تقنعنا إقناعاً تاماً؟ نتبع كلاستر عندما يبيّن أنّ الدّولة لا يفسّرها تطوّر القوى المنتجة، ولا تمايز القوى السّياسيّة. إنّها هي التي على النقيض من ذلك تجعل عمل الأشغال الكبرى ممكناً، تكوين [٤٤٣] الفوائض وتنظيم الوظائف العموميّة المطابقة. إنّها هي التي تمكّن من التّمييز بين الحُكّام والمحكومين. إنّنا لا نرى كيف يمكن تفسير الدّولة بما يفترضها، حتى باللّجوء إلى الديالكتيكا. يبدو أنّ الدّولة تظهر فجأة، في صورة أمبراطوريّة، ولا تحيل إلى عوامل تصاعديّة. انبثاقها على عين المكان هو بمثابة فكرة عبقرية، ولادة آثينا. نتبع كلاستر أيضاً عندما يبيّن أنّ مكنة حرب موجّهة ضدّ الدّولة، سواء ضدّ الدّول الممكنة التي تدرأ تكوّنها مقدّماً، سواء أكثر من ذلك ضدّ الدّول الحاليّة التي تطرح على ذاتها تدميرها. فعلياً، مكنة الحرب تتمّ في التّنضيدات «البربريّة» للمحاربين المترحلّين، أكثر من إتمامها في التّنضيدات «البريّة» للمجتمعات البدائيّة. في كلّ الأحوال، من المستبعد أن تُنتج الحرب دولة أو أن تكون الدّولة هي نتيجة حرب قد يفرض المنتصرون بمقتضاها قانوناً جديداً على المنهزمين، بما أنّ تنظيم مكنة الحرب موجّه ضدّ الشكل - دولة، سواء كان شكلاً راهناً أو افتراضياً. لا ندرك الدّولة بشكل أفضل بواسطة نتيجة الحرب أكثر من إدراكها بالقوى الاقتصاديّة أو السّياسيّة. مذكّر يحفر بيار كلاستر القطيعة: بين المجتمعات المضادّة للدّولة والمسمّاة مجتمعات بدائيّة، والمجتمعات ذات الدّولة المسمّاة مجتمعات مسيخة، والتي لا نرى على الإطلاق كيف أمكنها أن تتشكّل. كلاستر منبهر بمشكلة «العبوديّة الطّوعيّة» على طريقة لا بويسي: كيف أراد أناس أو رغبوا بعبوديّة لم تكن أُنْتهم بكلّ تأكيد نتيجة حرب لا إراديّة ومشؤومة؟ ومع ذلك كانوا يملكون آليات ضدّ - الدّولة: إذا، لِمَ الدّولة وكيف؟ لِمَ انتصرت الدّولة؟ بيار كلاستر، من كثرة تعميق هذا المشكل، كان بدا أنّه حرم

نفسه من وسائل حلّه^(١). كان يسعى إلى أن يجعل من المجتمعات البدائية أقنوما، وحدة مكتفية بذاتها (كان يلج كثيرا على هذه النقطة). كان يجعل من البرانية الصورية استقلالية فعلية. من هذه الناحية كان ظلّ تطوّريّا [٤٤٥] وكان سلّم بحالة طبيعة. لكنّ حالة الطبيعة هذه كانت بالنسبة إليه حقيقة اجتماعية بالتّمام، بدلا من أن تكون مفهوما محضاً، وهذا التطّور كان تطوّر طفرة مفاجئة بدلا من أن يكون تطوّر ترقّياً. إذ، من ناحية، كانت الدّولة ظهرت فجأة تامّة التّكوين؛ من ناحية أخرى، المجتمعات ضدّ-الدّولة كانت تمتلك آليات دقيقة جدّاً لدرد الدّولة، لمنعها من الظهور. نعتقد أنّ هذين المقترحين جيدين، لكنّ ترابطهما غائب. ثمّة خطأ قديمة: «عشائر داخل الإمبراطوريات» أو «زُمر داخل الممالك»... لكن لا شيء يخبرنا أنّه كان ثمّة تطوّر بهذا المعنى، بما أنّ الزّمر والعشائر ليست أقلّ تنظيماً من الممالك-الإمبراطوريات. لكنّا لن نقطع مع فرضية التطوّر هذه بتعميق القطيعة بين الحداثين، أي بإعطاء اكتفاء ذاتي للزّمر، وظهور أكثر إعجازاً أو بشاعة للدّولة.

(١) كلاستر، المجتمع ضدّ الدّولة، ص ١٧٠: «قام ظهور الدّولة بالقسمة التصنيفية الكبرى بين البريين والمتحضّرين، لقد دوّن القطيعة التي لا تُمحي، التي في ما أبعد منها قد تغيّر كلّ شيء، ذلك لأنّ الزّمن يصبح تاريخاً». لإدراك هذا الظهور، كان كلاستر استدعى أولاً عاملاً ديمغرافياً (لكن «دون التّفكير بالاستعاضة عن الحتمية الاقتصادية بحتمية ديمغرافية...»); وكذلك الجموح المحتمل لمكنة الحرب (؟); أو بشكل غير منتظر، الدور الّلا مباشر لتنبئية معينة، موجّهة أولاً ضدّ «الرّعاء»، قد يكون بإمكانها إنتاج سلطة رهيبة جدّاً. لكن لا يمكننا بالتّأكيد الحكم مسبقاً على الحلول الأكثر تفصيلاً التي قد يكون قدّمها كلاستر لهذا المشكل. حول الدور المحتمل للتنبئية، يمكن الرّجوع إلى كتاب هيلان كلاستر، الأرض دون شرّ، تنبئية التّوبى-غاراني، منشورات سوي.

يجب القول إنه كانت ثمة دائما دولة شديدة الاكتمال والتشكّل . بقدر ما يصل الأركيولوجيون إلى اكتشافات بقدر ما يكتشفون إمبراطوريات . فرضية الدولة الأصلانية يبدو أنها تأكّدت ، «الدولة إذا فهمناها جيّدا فإنّها تعود إلى أقدم عهود الإنسانية» . لا نتخيّل على الإطلاق مجتمعات بدائية لم تكن على اتّصال بدول إمبراطورية ، على الأطراف أو في المناطق غير الخاضعة بشكل جيّد للرّقابة . لكنّ الأهمّ هو الفرضية المعاكسة : كون الدولة ذاتها كانت دائما في علاقة بخارج ، ولا يمكن تعقلها بمعزل عن هذه العلاقة . قانون الدولة ليس هو قانون كلّ شيء أو لا شيء (مجتمعات ذات دولة أو مجتمعات ضدّ الدولة) ، بل هو قانون الدّاخِل والخارج . الدولة هي السّيادة . لكنّ السّيادة لا تسود إلّا على ما هي قادرة على استدخاله والاستحواذ عليه موضعيا . ليس فقط أنه لا وجود لدولة كليّة ، لكنّ خارج الدّول لا يمكن اختزاله في «السّياسة الخارجيّة» ، أي في جملة من العلاقات بين الدّول . يظهر الخارج بالتّزامن في اتّجاهين : مكّنات عالميّة كبرى ، متفرّعة على كامل المسطّح المأهول في لحظة معيّنة ، وتتمتّع باستقلاليّة واسعة بالنّسبة إلى الدّول (على سبيل المثال ، منطّعات اقتصاديّة من نوع «الشّركات الكبرى» ، أو كذلك مرگبات صناعيّة ، أو حتى تشكيلات دينيّة مثل المسيحيّة ، الإسلامويّة ، بعض الحركات التّبويّة أو التّبشيريّة ، إلخ .) ؛ لكن كذلك آليات موضعيّة للزّمر ، للهوامش ، للأقليات التي تواصل تأكيد حقوقها كمجتمعات أقسوميّة ضدّ هيئات سلطة الدولة . يمكن للعالم الحديث أن يقدّم لنا اليوم صورا متطوّرة جدّا عن هذين الاتّجاهين ، من جهة المكنات العالميّة التي تكتسح كامل الأرض ، لكن كذلك باتّجاه بدائيّة- جديدة ، باتّجاه مجتمع قبليّ جديد مثلما [٤٤٦] يصفه ماكلوهان (McLuhan) . هذان الاتّجاهان ليسا أقلّ حضورا في كلّ حقل اجتماعيّ وفي كلّ الأزمنة . يحدث حتّى أن يختلطا جزئيّا ؛

على سبيل المثال، منظّمة تجاريّة هي كذلك زمرة تخريب أو قرصنة، في جزء من مسارها وفي الكثير من أنشطتها؛ أو أنّ تشكيلة دينيّة تبدأ بالعمل بواسطة الزُّمر. ما يظهر هو أنّ الزُّمر كما المنظّمات العالميّة تستتبع صورة لا تُختزل في الدّولة، وصورة البرّانيّة هذه تمثّل بالضرورة بوصفها صورةً مكنة حرب، متعدّدة الأشكال ومتفسّية. إنّهُ ناموس مختلف جدّاً عن الـ«قانون». يسعى الشّكل - دولة بوصفه شكلَ داخلانيّة إلى تكرار ذاته، مطابقاً لذاته من خلال تغيّراته، يمكن التّعرّف عليه بيسر في حدود أقطابه، متّجها دائماً إلى إقرار العموميّ (ليس ثمة دولة مقنّعة). لكنّ شكل برّانيّة مكنة الحرب يجعلها لا توجد إلّا في انقلابات عينها الخاصّة؛ إنّها توجد كذلك في تجديد صناعيّ، في ابتكار تكنولوجيّ، في مسلك تجاريّ، في خلق دينيّ، في كلّ هذه الاندفاعات والتّيّارات التي لا تسمح للدّول بالاستحواذ عليها إلّا ثانويّاً. يجب التّفكير في البرّانيّة والدّاخلانيّة، في مكّنات الحرب ذات انقلابات العين وفي الأجهزة الهويّة للدّولة، في الزُّمر والممالك، في المكنات الضّخمة وفي الإمبراطوريّات، في صيغة تواجد مشترك وتنافسيّ، في حقل دائم من التّفاعّل، وليس في صيغة استقلاليّة. نفس الحقل يحدّد داخلانيّة في دول، لكنّه يصف برّانيّة في ما يفلت من الدّول أو ينتصب ضدّ الدّول.

القضيّة الثّالثة: برّانيّة مكنة الحرب أكّدتها كذلك الإستيمولوجيا التي تسمح باستشعار وجود ودوام «عِلْم أَقْلِيّ» أو «مترحّل».

ثمة نوع من العِلْم أو من التّعامل مع العلم، يبدو من العسير جدّاً تصنيفه، وحتى من العسير متابعة تاريخه. ليست «تقنيات» بالمعنى السّاري. لكنّها كذلك ليست «علومًا» بالمعنى المَلَكِيّ أو القانونيّ الذي أقرّه التّاريخ. تبعاً لكتاب صادر حديثاً لميشال سارّ، يمكن اتّباع أثر ذلك في نفس الوقت في الفيزياء الذّريّة من دموقريطس إلى لوكريتيوس،

وفي هندسة أرخميدس^(١). خاصّيات [٤٤٧] مثل هذا العِلْم الّلا تَمركزيّ قد تكون هي التّالية: (١) قد يكون له أوّلا نموذج هيدروليكيّ بدلا من نظريّة للموادّ الصّلبة التي تعتبر السّوائل بمثابة حالة خاصّة؛ بالفعل، الدّريّة القديمة ليست مفصولة عن الاندفاعات، الاندفاق هو الواقع ذاته أو هو القِوام. - (٢) إنّهُ نموذج تَصيّر وتنافر، يتعارض والمستقرّ، والأبديّ، والمطابق، والثّابت. إنّهُ «مفارقة»، إنّهُ يصنع من التّصيّر ذاته نموذجا ولم يعد التّصيّر هو الخاصية الثانية لنسخة؛ كان أفلاطون يستحضر في الطّيمائوس تلك الإمكانية، لكن لاستبعادها ودرئها، باسم العِلْم المَلَكِيّ. لكن على التّقيض من ذلك، في الدّريّة، يوقّر الانحراف الشّهير للدّرة مثل هذا النّموذج التّنافريّ أو نموذج الانتقال أو التّصيّر في المتنافر. الميلان، بوصفه زاوية دنيا، لا معنى له إلّا بين مستقيم ومنحنٍ، بين المنحني وتَماسّه، ويشكّل الانحناء الأولى لحركة الدّرة. الميلان هو أصغر زاوية تحيد بها الدّرة عن المستقيم. هو تجاوز الحدّ، استنفاد، نموذج «شامل» مفارقيّ. ذات الأمر في هندسة أرخميدس، حيث تعريف المستقيم على أنّه «أقصر طريق بين نقطتين»، ليس غير وسيلة لتعريف طول المنحني في حساب قَبْتَفَاضليّ. - (٣) لم نعد نذهب من المستقيم إلى موازياته في سيلان رقائقيّ أو انزلاقيّ، بل نذهب من الميلان المنحني إلى تَكُون لوائب ودوّامات على مسطّح مائل: أكبر انحدار لأصغر زاوية. اضطراب أو سرعة دوران: أي مجموعات أو زُمر دَرّات ذات تنظيمات دوّامية كبرى. النّموذج دوّاميّ، في فضاء مفتوح حيث تتوزّع الأشياء - الاندفاعات بدلا من توزيع فضاء مغلق على أشياء خطّية وصلبة. إنّهُ

(١) ميشال سارّ، مولد الفيزياء في نصّ لوكريتيوس. أنهار ودوّامات، منشورات مينيوي. سارّ هو أوّل من استخرج النّقاط الثّلاث التي تتبع، يبدو لنا أنّ النّقطة الرّابعة متصلة بتلك النّقاط.

الفرق بين فضاء أملس (اتجاهي، إسقاطي أو طوبولوجي) وفضاء مخدّد (مِترِيّ): في حالة «نحتلّ الفضاء دون حسابان»، في الحالة الأخرى «نحتسبه لنحتله»^(١). (٤ -) في الأخير، النموذج إشكاليّ ولم يعد مُبرهنياً: النّظر في الأشكال لم يعد إلّا وفق انفعالات تحلّ بها، تقسيمات، استتصالات، إلحاقات، إسقاطات. لم نعد نذهب من جنس إلى أنواعه وفق فروق نوعيّة، ولا من ماهية ثابتة إلى الخصائص التي تتولّد عنها استنباطيّاً، إنّما من مشكل إلى الأعراض التي تشرطه وتحلّه. ثمة هنا كلّ ضروب التشويّهات، التحوّلات، تجاوزات الحدّ، عمليّات يشير فيها كلّ شكل [٤٤٨] إلى «حدث» أكثر بكثير من إشارته إلى ماهية: لم يعد المربّع يوجد بمعزل عن تربيّع، المكعّب عن تكعيب، المستقيم عن تقويم. بينما تكون المبرهنة من جنس العلل، يكون المشكل وجدانيّاً وغير مفصول عن انقلابات العين، عن التكوّنات والإبداعات في العلم ذاته. على النقيض ممّا يقوله غابريال مارسال، المشكل ليس «عقبة»، إنّّه تخطّي العقبة، إنّّه انقذاف، أي هو مكنة حرب. كلّ هذه الحركة هي التي يسعى العلم المملكيّ جاهداً إلى الحدّ منها، عندما يختزل إلى أقصى حدّ ممكن جزء الـ«عنصر- المشكل» ويُلحقه بالـ«عنصر- المبرهنة»^(٢).

(١) بيار بولاز هو الذي يميّز على هذا التحوّلات فضاءين- زمنين للموسيقى: في الفضاء المخدّد يمكن أن يكون الميزان غير منتظم كما يمكن كذلك أن يكون منتظماً، إنّّه قابل دائماً للتعين، بينما بالنسبة إلى الفضاء الأملس، القطع أو الانزياح «سيكون حرّاً ليتّم حيث نشاء». راجع، التفكير بالموسيقى اليوم، منشورات غونتييه، صص ٩٥-١٠٧.

(٢) الهندسة اليونانيّة يخترقها التعارض بين هذين القطبين، المُبرهنِيّ والمُشكليّ، والانتصار النسبيّ للأوّل: برقلس، في تعليقات على الكتاب الأوّل من عناصر أقليدس (إعادة نشره من قِبَل دوكلي دي برووار)، يحلّل الفرق بين الأقطاب ويبرهن على ذلك بالتّقابل بين سبوسيب- مناشم. لن يتوقّف اختراق الرّياضيّات من قِبَل هذا التوتّر؛ والعنصر الأكسيوميّ مثلاً سيصطدم بتيّار مشكليّ «حدسيّ» أو

هذا العلم الأرخميديّ أو هذا التّصوّر للعِلْم، مرتبط أساسيًا بمكنة الحرب: المشكلات هي مكنة الحرب ذاتها، وليست بمعزل عن المسطّحات المائلة، عن تجاوزات الحدّ، عن الدّوامات والإسقاطات. قد يصادفنا القول إنّ مكنة الحرب تنقذف في معرفة مجردة مختلفة صورياً عن المعرفة التي تضاعف جهاز الدّولة. قد نقول إنّ علماً مترحّلاً بكامله يتطوّر لا تمركزياً، علماً مختلفاً جدّاً عن العلوم المملّكية أو الإمبراطوريّة. أكثر من ذلك، لا يفتأ هذا العلم المترحّل «يُشطب»، يُكبح أو يُمنع من طرف مطالب عِلْم الدّولة وشروطه. أرخميدس الذي هزمته الدّولة الرّومانية، أصبح رمزاً^(١). ذلك أنّ العِلْمين يختلفان بصيغة الصّورنة، وعِلْم الدّولة لا يفتأ يفرض صورة سيادته على ابتكارات العلم المترحّل؛ إنّهُ لا يحتفظ من العلم المترحّل إلّا بما يمكنه الاستحواذ عليه، وبالنسبة إلى المتبقيّ، يجعل منه مجموعة وصفات محدودة جدّاً، دون منزلة علميّة حقّاً، أو أنه يقمعه ويحظره بكامل البساطة. كما لو أنّ «عالم» العلم المترحّل كان محاصراً بين نارين، نار مكنة [٤٤٩] الحرب التي تغذّيه وتُلهمه، نار الدّولة التي تفرض عليه نظام عِلل. شخصيّة المهندس (وخاصّة المهندس العسكريّ)، مع كامل تضاربها، توضّح هذه الوضعيّة. بحيث أنّ الأهمّ، لعلّها ظاهرات الحدّ حيث يمارس العلم المترحّل ضغطاً على عِلْم الدّولة وحيث عكسيّاً يستولي عِلْم الدّولة على معطيات العلم المترحّل ويغيّرها. ذلك صحيح بالنسبة إلى فنّ المعسكرات وبالنسبة إلى «فنّ العسكرة» الذي يجنّد في كلّ الأوقات

«بنائيّ»، يثمن حساب مشكلات مختلف جدّاً عن الأكسيوميّة وعن كلّ مُبرهنيّة: راجع بوليغان، أفلو المطلقات الرّياضيّة- المنطقيّة، منشورات التّعليم العالي.

(١) فريليو، انعدام أمن الإقليم، ص ١٢٠: «نعرف كيف أنّه مع أرخميدس انتهى عهد الهندسة الشّابة بوصفها بحثاً حرّاً. (...) لقد قطع سيف جنديّ رومانيّ تيّارها فيما يقول الثّراث. بقضائها على الإبداع الهندسيّ، كانت الدّولة الرّومانيّة توجّهت إلى بناء الإمبرياليّة الهندسيّة للغرب.»

الإسقاطات والمسطّحات المائلة: الدّولة لا تستولي على هذا البُعد من مكنة الحرب دون أن تخضعها لقواعد مدنيّة وقياسيّة ستعمل بشكل وثيق على محاصرة ومراقبة وموضعة العِلْم المترخّل وعلى منعه من تطوير آثاره عبر الحقل الاجتماعيّ (بهذا الخصوص، فوبان (Vauban) كأنّه استعادة لأرخميدس، وتكبّد هزيمة مماثلة). ذلك صحيح بالنسبة إلى الهندسة الوصفية والإسقاطية التي يريد العِلْم المَلَكِيّ أن يجعل منها مجرد تابع عمليّ للهندسة التحليليّة التي تُعدّ هندسة أرقى (من هنا الوضعية الملتبسة لمونج (Monge) أو بونسولاي (Poncelet) من حيث هما «عالمان»^(١)). ذلك صحيح كذلك بالنسبة إلى حساب التفاضل: لزم من طويل لم يكن لهذا الأخير إلّا منزلة شبه علميّة، تقع معاملته على أنه «فرضيّة غوطيّة»، لا يعترف له العِلْم المَلَكِيّ إلّا بقيمة مواضعة ملائمة أو تخيل ذي وجهة؛ يسعى كبار رياضيّ الدّولة إلى منحه منزلة أوثق، لكن تحديدا بشرط أن يحذفوا منه كلّ المصطلحات الديناميّة والمترخلة مثل مصطلحات الصّيرورة، التنافر، اللامتناهي في الصّغر، تجاوز الحدّ، التّغير المستمرّ، إلخ.، وإلى أن يفرضوا عليه قواعد مدنيّة، ثابتة وترتيبيّة (وضع ملتبس لكارنو بهذا الخصوص). ذلك صحيح أخيرا بالنسبة إلى النّمودج الهيدروليكيّ: إذ من المؤكّد أنّ الدّولة ذاتها في حاجة إلى عِلْم هيدروليكيّ (لا مجال للعودة على أطروحات فيتفوجال (Wittfogel) بخصوص أهميّة الأشغال الهيدروليكيّة الكبرى في إمبراطوريّة). لكن في صورة مختلفة جدّا، بما أنّ الدّولة في حاجة إلى إخضاع القوّة الهيدروليكيّة إلى مجاري،

(١) مع مونج وخاصة مع بونسولاي، حدود التّصوّر الحسّي أو حتى المكانيّ (الفضاء المحرّز) وقع تجاوزه، لكن نحو مخيال عابر للفضاء أو عابر للحدس (استمراريّة) أكثر من اتجاهاها إلى قدرة تجريد رمزيّة. يمكن الرّجوع إلى تعليق برانشفيغ حول بونسولاي، مراحل الفلسفة الرّياضيّة، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة.

أنابيب، ضفاف تمنع الاضطراب وتفرض على الحركة الذهاب من نقطة إلى أخرى، على الفضاء ذاته أن يكون مخدداً ومقيساً، على السائل أن يكون تابعا للصلب، وعلى الدفق أن يعمل وفق شرائح رقائقيّة متوازية. بينما يتمثل النموذج الهيدروليكيّ للعلم المترحلّ ولمكنة الحرب في الانتشار دوامياً داخل فضاء أملس، في توليد حركة تحتلّ الفضاء وتؤثر فيه في آن معا [٤٥٠] على كلّ النقاط، بدلا من استحواذ الفضاء عليها كما في الحركة الموضعيّة التي تذهب من نقطة معيّنة إلى نقطة معيّنة أخرى^(١). ديمقريطس، ميناشم، أرخميدس، فوبان، دوزارغ، برنولي، مونج، كارنو، بونسولاي، برّوناي، إلخ. : يجب أن يكون ثمة في كلّ مرّة دراسة أحاديّة لفهم الوضعيّة الخاصّة لهؤلاء العلماء الذين لا يستعملهم علم الدولة دون تقييدهم، ضبطهم، دون قمع تصوّراتهم الاجتماعيّة أو السياسيّة.

البحر بوصفه فضاء أملس هو مشكل مخصوص للمكنة الحربيّة. إنّهُ على البحر، مثلما يبيّن ذلك فريليو، يُطرح مشكل أسطول الرّدع، أي مهمّة احتلال فضاء مفتوح، مع حركة دواميّة يمكن لتأثيرها أن يظهر في أيّة نقطة. بهذا الخصوص، الدّراسات قريبة العهد حول الإيقاع، حول أصل هذا المصطلح، لا تبدو لنا مقنعة بالتّمام. إذ يقال لنا إنّ الإيقاع لا علاقة له بحركة الاندفاعات، لكنه يشير إلى الـ«شكل» بعامة، وبشكل

(١) يحلّل ميشال سارّ (ص ١٠٥ وما يليها) بهذا الخصوص التّعارض بين الأمبار وبرنولي. يتعلّق الأمر بشكل أعمّ بفرق بين نموذجين للفضاء: «حوض البحر الأبيض المتوسط ينقصه الماء، ومن بيده السّلطة هو الذي يصرف المياه. من هنا هذا العالم الفيزيائيّ الذي يكون فيه الصّرف ماهويّاً، وحيث يظهر الميلان هو الحرّيّة لأنّه تحديدا هو هذه الزّوبعة التي ترفض التّدقّق القسريّ. ذلك لا يمكن فهمه بواسطة النظريّة العلميّة، لا يمكن فهمه عن طريق المتحكّم بالمياه. (...). من هنا الشخصيّة العظيمة لأرخميدس: سيّد الأجسام العائمة والممكنات الحرّيّة.»

أخصّص إلى شكل الحركة «المقيس والموزون»^(١). غير أنّ الإيقاع والميزان لم يقع الخلط بينهما أبداً. وإذا كان الذرّي ديمقريطس هو بالتحديد أحد الكتاب الذين يستعملون الإيقاع بمعنى الشكل، فلا يجب أن ننسى أنّ ذلك تمّ في ظروف تقلّب دقيقة جدّاً، وأنّ أشكال الذرّات تؤلّف أولاً مجموعات كبرى غير متريّة، تؤلّف فضاءات ملساء مثل الهواء، البحر أو حتى الأرض (الشيء الكبير). ثمّة بالفعل إيقاع مقيس وموزون يحيل على جريان النهر بين ضفّتيه أو على شكل فضاء مخدّد؛ لكن ثمّة كذلك إيقاع دون ميزان، يحيل على جريان تيار، أي على الطريقة التي يحتلّ بها سائل معيّن فضاء أملس.

هذا التّعارض أو بالأحرى هذا التّوتر- الحدّ بين العلمين، علم مكنة الحرب المترخّل وعلم الدّولة المَلَكِيّ، يوجد في لحظات مختلفة وفي مستويات مختلفة. تُمكن أعمال آن كُريّان (Anne Querrien) من رصد لحظتين من هذه اللّحظات، واحدة مع بناء الكاتدرائيّات الغوطيّة في القرن الثّاني عشر، الأخرى [٤٥١] مع بناء الجسور في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر^(٢). بالفعل، الغوطيّ غير منفصل عن إرادة بناء كنائس أطول وأكثر ارتفاعاً من الكنائس الرّومانيّة. دائماً إلى ما أبعد، دائماً إلى ما أعلى... لكنّ هذا الفُرق ليس مجرد فُرق كمّيّ، إنّهُ يؤشّر على فُرق كيفيّ: تنحو العلاقة الثّابتة صورة- مادّة إلى الامّحاء لصالح علاقة ديناميّة موادّ- قوى. الحجم هو الذي سيجعل من الصّخرة

(١) راجع بنفنيست، مشكلات اللّسانيّة العامّة، «مصطلح الإيقاع في تعبيره اللّسانيّة»، صص ٣٢٧-٣٧٥. هذا النّص، الذي غالباً ما وقع اعتباره نصّاً حاسماً، يبدو لنا ملتبساً، لأنّه يستدعي ديمقريطس والذرّيّة دون أخذ المشكل الهيدروليكيّ في الاعتبار ولأنّه يجعل من الإيقاع «تخصّصاً ثانويّاً» للشّكل الجسمانيّ.

(٢) آن كُريّان، أن تصير موظّفاً أو العمل عند الدّولة، منشورات سارف. نستعمل هذا الكتاب كما نستعمل دراسات غير منشورة لأنّ كُريّان.

موادّ قادرة على التّمكّن من قوى الدّفع والتّوليف بينها، وعلى بناء السّقوف المقوّسة دائما أعلى ودائما أطول. لم يعد السّقف المقوّس شكلا بل هو خطّ تغايّر مستمرّ للصّخور. كما لو أنّ الغوطيّ قد استولى على فضاء أملس، بينما كان الرّومانيّ بقي جزئيّا في فضاء مخدّد (حيث كان السّقف المقوّس يتوقّف على تراكّب أعمدة متوازية). لكن أحجام الصّخور لا تنفصل من ناحية عن مسطّح الإسقاط مباشرة على الأرض، الذي يعمل بوصفه حدّا مسطّحا، لا تنفصل من ناحية أخرى عن سلسلة التّقديرات المتعاقبة (تربيع) أو عن وضع صخور ضخمة في وضعيات تغايّر. من الأكيد أن نفكّر في العِلْم المُبرهنّي لأقليدس لتأسيس المشروع: قد تكون الأرقام والمعادلات هي الصّورة البيّنة القادرة على تنظيم السّطوح والأحجام. لكن، وفق الأسطورة، برنار دو كلارفو، صرف عنه النّظر سريعا معتبرا إياه «عسيرا» للغاية، ويتبنّى خصوصيّة هندسة إجرائيّة أرخميدّيّة، إسقاطيّة ووصفيّة، محدّدة على أنّها هندسة صغرى، رياضيات أشكال أكثر منها رياضيات عقلية. مُرافقهُ الرّاهب-البّناء غاران دو تروا، يتوسّل منطقاً إجرائيّاً للحركة يَمكّن «المتعلّم» من رسم ثمّ من قطع الأحجام باختراق الفضاء حتّى يجعل «الخطّ يزيع العدد»^(١). لا نمثّل، نولّد ونجول. ليس غياب المعادلات هو الذي يميّز هذا العِلْم بقدر ما هو الدّور المختلف جدّا الذي من المحتمل أن تقوم به: بدلا من أن تكون صورا جيّدة بإطلاق تنظّم المادّة، هي «محدّثة» بوصفها «طفرات» من قِبَل الموادّ، في حساب كينيّ للأمثليّ. كلّ هذه الهندسة الأرخميدّيّة ستعرف تعبيرتها الأرقى كما ستتعرّض لضربة توقّفها المؤقّت، مع الرّياضيّ المدهش دوزارغ في القرن السّابع عشر. مثل أغلب نظرائه، دوزارغ لا يكتب كثيرا؛ ومع ذلك له تأثير كبير بالفعل، وترك رسوما أوليّة، مسودّات، مشاريع مركّزة خاصّة على

(١) راجع، راؤول فرجاز، مُلهمو الفنّ المَلَكِيّ، منشورات جوليبار.

مشكلات - أحداث: «دروس الظلمات»، «مسودة مشروع قصّ الأحجار»، «مسودة مشروع بلوغ أحداث التقاء [٤٥٢] مخروط بمسطّح»... لكن دوزارغ أدانه برلمان باريس، حاربه كاتب المَلِك؛ ممارساته للمنظور وقع منعها^(١). العِلْم المَلَكِيّ أو عِلْم الدّولة لا يتحمّل حجم الأحجار ولا يستولي عليها إلّا في مخروطات (مضادة للتّريع)، في ظروف تُحيي أوّلية النّموذج الثّابت للشّكل، للعدد وللقياس. العِلْم المَلَكِيّ لا يتحمّل المنظور ولا يستولي عليه إلّا ثابتاً، خاضعاً لثقب أسود مركزيّ يسحب منه كلّ قدرة اكتشافية وتجوالية. لكنّ مغامرة دوزارغ أو واقعته هي ذاتها التي كانت حدثت من قَبْل جماعياً مع «الرّفقاء» الغوطيين. ذلك أنّ الكنيسة في صورتها الإمبراطورية، لم تكن تشعر بالحاجة وحسب لمراقبة حركة هذا العِلْم المترحّل مراقبة صارمة: لقد كانت عهدت لفرسان المعبد بمهمّة تحديد مواضعه وموضوعاته، بإدارة الحظائر، بضبط البناء؛ لكن أكثر من ذلك، تنقلب الدّولة اللائكية في شكلها المَلَكِيّ ضدّ فرسان المعبد ذواتهم، تدين التّرافقات بأية تعلّة كانت، التّعلّلات التي تتعلّق إحداها على الأقلّ بحظر هذه الهندسة الإجرائية أو الصّغرى.

هل كانت أنّ كرّيان على حقّ في كونها ما زالت تجد صدى لنفس التّاريخ في مستوى بناء الجسور في القرن الثّامن عشر؟ لا ريب أنّ الظروف مختلفة جدّاً بما أنّ تقسيم العمل تحقّق بالتالي وفق معايير الدّولة. يبقى أنّه في مجمل أشغال الجسور والطّرق، الطّرق من مشمولات إدارة مُمرّكة بشكل جيّد، بينما ما تزال الجسور مادّة لتجريب نشيط، ديناميّ وجماعيّ. ينظّم ترودان (Trudaine) في منزله «اجتماعات عامّة» حرّة غريبة. يستلهم برّوناي (Perronet) من نموذج

(١) دوزارغ (Desargues)، الأعمال، منشورات لايبّر (مع نصّ ميشال شازل، الذي يقيم تواصلاً بين دوزارغ، مونج وبونسولاي بوصفهم مؤسّسي «هندسة حديثة»).

مَرِنَ آتَ مِنَ الشَّرْقِ: أَلَا يَسَدُّ الْجِسْرُ النَّهْرَ أَوْ يَعِيقُهُ. جاذبيّة الجسر والفضاء المخدّد للأعمدة الضخمة والمنتظمة يعارضها بترقيق الأعمدة وعدم انتظامها، خفض السقف المقوّس، خفة الكلّ وتفاوته المستمرّ. لكنّ المحاولة تصطدم سريعاً باعتراضات مبدئيّة؛ ووفق إجراء شائع، بتسمية برّوناي مديراً للمدرسة، تمنع الدّولة التجريب بدلاً من تنويجه. يبيّن تاريخ مدرسة الجسور والطّرق كلّ كيف أنّ هذا «الجسم» القديم والعموميّ، سيقع إلحاقه بالمناجم، بالأشغال العامّة، بالبوليتكنيك، في نفس الوقت الذي تزايد فيه تنميط أنشطته^(١). نصل إذاً إلى سؤال: ما هو الجسم [٤٥٣] الجماعيّ؟ لا شكّ أنّ الأجسام الكبرى للدّولة هي الهيئات المتمايضة والتراتبية التي بيدها من ناحية احتكار سلطة أو وظيفة، من ناحية أخرى تُوزّع موضعياً ممثليها. لها علاقة خاصّة بالأُسَر لأنّها توصل إلى الطّرفين النموذج الأسريّ ونموذج الدّولة، وتحيا هي ذاتها بوصفها «أسراً كبرى» من الموظّفين والمستكّتبين والوكلاء والمزارعين. لكن يبدو أنّه في الكثير من هذه الأجسام، يعمل شيء آخر لا يعود إلى هذا النمط. ليس هو فقط الدّفاع المستमित على امتيازاتهم. قد يكون كذلك قدرة، حتى وإن كانت كاريكاتوريّة، حتى وإن كانت مشوّهة جدّاً، على التشكّل كمكنة حرب، تواجه الدّولة بنماذج أخرى، بدنياميّة أخرى، بطموح ترحليّ. ثمّة على سبيل المثال مشكل قديم جدّاً هو مشكل جماعة الضّغط، مجموعة ذات حافات متقلّبة، ذات وضعيّة شديدة الالتباس، بالنسبة إلى الدّولة التي تريد

(١) آن كرّيان، صص ٢٦ - ٢٧: «هل تُبنى الدّولة على إفلاس التجريب؟ (...). الدّولة ليست في حالة بناء، يجب أن تكون ورشات بنائها قصيرة الأمد. المعدّات مجعولة للاشتغال وليس لبنائها اجتماعيّاً: من هذه الزّاوية، الدّولة لا تستدعي للبناء إلّا الذين يتقاضون أجراً من أجل التّنفيذ أو من أجل إسداء الأوامر، وهم مجبرون على اتّباع نموذج تجريب مهين مسبقاً.»

«التأثير عليها»، وبالنسبة إلى مكنة حرب تريد تعزيزها مهما كانت الأهداف^(١).

لا يُختزل الجسم في عضوية، مثلما لا تُختزل العصبية في نفس للعضوية. الروح ليس أفضل لكنه مجتّح، بينما النفس جاذبية، مركز ثقل. هل يجب استدعاء أصل عسكري للجسم وللعصبية؟ ليس «العسكري» هو المهم، إنّما بالأحرى الأصل المترحل البعيد. ابن خلدون كان عرّف مكنة الحرب المترحلة كالتالي: الأسر أو الأنساب، مع العصبية. مكنة الحرب تقيم مع الأسر علاقة مختلفة جدًا عن علاقتها بالدولة. بدلا من أن تكون خلية قاعدية، تكون الأسرة في مكنة الحرب موجّه عصبية، بحيث إنّ جنيا لوجيا تنتقل من أسرة إلى أخرى وفق قدرة أسرة معينة، في لحظة معينة، على تحقيق أقصى ما يكون من «التضامن العصبية». ليس ذبوع الصيت العلني للأسرة هو الذي يحدّد مكانها في جهاز من أجهزة الدولة، على النقيض من ذلك، هي القدرة أو الميزة السرية للتضامن، وحركة الأنساب المناظرة لها، هي التي تحدّد ذبوع الصيت في مكنة حرب^(٢). ثمة ههنا شيء ما لا يعود لا إلى

-
- (١) حول مسألة «لوّتي كولبار»، راجع دسار وجورناي، حوليات، نوفمبر ١٩٧٥.
- (٢) راجع، ابن خلدون، المقدمة، منشورات هاشات، واحد من المواضيع الأساسية في هذا الأثر الرائع، هو المشكل السوسيولوجي للـ«عصبية» ولالتباسها. ابن خلدون يعارض بين البداوة (بوصفها أسلوب حياة وليس بوصفها عرقا) وبين الوجود الحضري أو المدني. من بين مظاهر كلّ هذا التعارض، ثمة أوّلا العلاقة العكسية بين العلني والسري: ليس ثمة فقط سرّ لمكنة الحرب البدوية في تعارض مع علنية حضرية الدولة، لكن في الحالة الأولى، «ذبوع الصيت» متأّت من العصبية السرية، بينما في الحالة الثانية يصبح السرّ تابعا لمطالب ذبوع الصيت. في المقام الثاني، تتمتع البداوة في نفس الوقت بنقاوة كبيرة وبمرونة كبيرة للأنساب ولجنيا لوجيتها، بينما تصنع الحياة الحضرية أنسابا شديدة الاختلاط، وفي نفس الوقت جامدة وثابتة: يتغيّر معنى العصبية من قطب إلى آخر. في المقام الثالث وبشكل خاص، تجنّد الأنساب البدوية «عصبية» وتندمج فيها بوصفها بُعدا جديدا: هي العصبية أو الاشتراك الذي سيشتقّ منه الاسم العربي

احتكار سلطة عضوية ولا إلا تمثيل محلي، لكنه [٤٥٤] يحيل على قدرة جسم دؤامي في فضاء مترحل. والأكيد أنه من الصعب اعتبار الأجسام الكبرى للدولة بمثابة قبائل عربية. نود القول بالأحرى إن الأجسام الجماعية لها دائما هوامش أو أقليات تعيد بناء معادلات مكنة الحرب في أشكال مباغته جدًا أحيانًا، في تنضيدات محدّدة من مثل بناء جسور، بناء كاتدرائيات، أو إصدار أحكام، أو صناعة الموسيقى، إنشاء علم، تقنية... جسم قادة يفرض مطالبه من خلال تنظيم الضباط وهيئة كبار الضباط. تأتي دائما فترات معينة يكون فيها للدولة بما هي عضوية متاعب مع أجسامها الخاصة، وحيث هؤلاء، مع مطالبتهم بامتيازات، يكونون مجبرين على الانفتاح رغما عنهم على شيء ما يتجاوزهم، مثل لحظة ثورية خاطفة أو طفرة اختبارية. وضعية مرتبكة، حيث يجب في كلّ مرة تحليل التوجّهات والأقطاب ونوعيات الحركات. فجأة، كما لو أنّ جسم الأعيان كان يتقدّم في هيئة عرب أو هنود، ثمّ كان يستردّ أنفاسه، كان يعيد تنظيم صفوفه: إنها أوبرا هزلية، لا نعرف ما الذي سيخرج منها (يحدث حتى أن نصرخ: «البوليس معنا!!»).

يتحدّث هوسرل عن هندسة بدئية قد تتوجّه إلى ماهيات مورفولوجية مبهمّة، أي متشردّة أو مترحلة. قد تختلف هذه الماهيات عن الأشياء الحسّية، لكن كذلك عن الماهيات المثالية، المملّكية أو الإمبراطورية. العلم الذي قد يتناولها، الهندسة البدئية، قد يكون هو ذاته مبهمًا، بمعنى كونه متشردًا: إنّه قد لا يكون غير مضبوط مثل الأشياء الحسّية، ولا هو مضبوط مثل العلوم المثالية، لكنه متحرّير وبالتالي صارم («غير

للاشراكية) (يلخّ ابن خلدون على غياب «سلطة» سيّد القبيلة الذي لا يمتلك الإرغام الذي للدولة). بينما تجعل الحياة الحضريّة من العصيّة بعدا من أبعاد السّلطة وستملّكها لل«أوتوقراطية».

مضبوط بالماهية وليس بالمصادفة). الدائرة ماهية ثابتة مثالية، [٤٥٥] عضوية، لكن المستدير ماهية مبهمّة ومتقلّبة تختلف في نفس الوقت عن الدائرة وعن الأشياء المستديرة (مزهريّة، عجلة، الشّمس...). شكل مُبرهنِيّ هو ماهية ثابتة، لكنّ تغيّراته، تشوّهاته، تآكلاته أو ازدياداته، كلّ تنوّعاته، تكون أشكالاً إشكاليّة مبهمّة ومع ذلك صارمة، في شكل «عدسة»، «خيمة» أو «مِملحة». قد يقال إنّ الماهيات المبهمّة تَستخرج من الأشياء تحديداً هو أكثر من الشيئية، هو تحديد الجسمانيّة، والذي لعلّه يستتبع حتى العصبية^(١). لكن لِمَ يرى هوسرل في ذلك هندسة بدئية، ضرباً من الوسيط وليس علماً محضاً؟ لِمَ يجعل الماهيات المحض متوقّفة على تجاوز الحدّ، بينما ينتمي كلّ تجاوز حدّ بما هو كذلك إلى المبهمّ؟ ثمة هنا بالأحرى تصوّران للعلم مختلفان صوريّاً؛ وأنطولوجيّاً، نفس الحقل الواحد للتفاعل حيث لا يفتأ علم ملكيّ يستولي على مضامين علم مترخّل أو مبهمّ، وحيث لا يفتأ علم مترخّل يدفع مضامين العلم الملكيّ للفرار. في أقصى درجة، وحده الحدّ المتحرّك دوماً هو المهمّ. نلاحظ عند هوسرل (وكذلك عند كانط، وإن كان ذلك في الاتجاه المعاكس، المستدير بوصفه «ترسيمة» للدائرة)، تقديراً صحيحاً جدّاً لعدم قابليّة العلم المترخّل للاختزال، لكن في نفس الوقت انشغالَ رجل دولة أو منحاز للدولة، للحفاظ على أوليّة تشريعيّة

(١) النصوص الأساسيّة لهوسرل هي أفكار موجّهة I، § ٧٤، غاليمار، وأصل الهندسة، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة (مع التعليق المهمّ جدّاً لدريدا، صص ١٢٥ - ١٣٨). المشكل هو مشكل علم مبهمّ ومع ذلك هو صارم، يمكن الرجوع إلى عبارة ميشال سارّ، معلقاً على الشّكل المنسوب إلى صالينون: «إنّه صارم، متحيّر، وغير دقيق، إنّه مضبوط أو غير مضبوط. وحدها المترية مضبوطة» (مولد الفيزياء، ص ٢٩). كتاب باشلار، محاولة في المعرفة التقريبية (منشورات فران)، تبقى هي الدّراسة الأفضل التي تكون صرامة كاملة للمتحيّر، وللدور الإبداعيّ لهذه الطرائق والأساليب في العلم.

وتأسيسية للعلم الملكي. في كل مرة نبقي فيها عند هذه الأوليّة، نجعل من العلم المترحل هيئة قُبلعلميّة أو شبه علميّة أو ما تحت علميّة. وخاصّة أننا لم نعد نفهم علاقات العلم - التقنيّة، العلم - الممارسة، بما أنّ العلم المترحل ليس مجرد تقنية أو ممارسة بل هو حقل علمي يُطرح فيه مشكل هذه العلاقات ويقع حله بكيفيّة مغايرة تماما لزاوية نظر العلم الملكي. لا تفتأ الدولة تنتج وتعيد إنتاج دوائر مثاليّة، لكن يجب أن تكون ثمة مكنة حرب لتصنع مستديرا. إذا الخاصّيات الخاصّة بالعلم المترحل هي التي قد يتوجّب تحديدها لفهم في نفس الوقت الضّغط التي يخضع له والتفاعل الذي هو «عليه».

[٤٥٦] ليس للعلم المترحل نفس علاقة العلم الملكي بالعمل. ليس لأنّ تقسيم العمل فيه أقلّ ممّا هو في العلم الملكي لكن لأنّه مغاير. نعرف المشكلات التي كانت دائما للدّول مع «رابطات العمّال»، مع الأجسام المترحلة أو الثّقيلة من صنف البنّائين والتّجارين والحداّدين، إلخ. تثبيت قوّة العمل وتوطيئها، تنظيم حركة تيار العمل، تخصيصها بقنوات ومسالك، إيجاد اتحادات في شكل تنظيمات، وبالنسبة إلى البقيّة، اللجوء إلى يد عاملة مكرّهة، منتدبة في مواقع العمل (سُخرة) أو من بين المعوزين (ورشات العمل الخيريّة)، - لقد كانت تلك دائما واحدة من القضايا الرّئيسيّة للدّولة التي كانت تطرح على نفسها في نفس الوقت التّغلب على تشرّد العصابات وعلى ترّحل الأجسام. عودتنا إلى المثال الغوطي هي من أجل التذكير بكثرة سفرات المترافقين الذين يبنون الكاتدرائيّات هنا وهناك، ينشرون ورشات البناء، يمتلكون قدرة فاعلة ومنفعلة (الحركيّة والإضراب) من المؤكّد أنّها لم تكن تلائم الدّول. ردّ فعل الدّولة هو إدارة ورشات البناء، تمرير التّمييز الأقصى في العمل بين الفكريّ واليدويّ، بين التّظريّ والعمليّ، تمييزا مستنسّخا عن الفرق بين «الحكّام والمحكومين». سنجد في العلوم المترحلة كما في العلوم المملكيّة، وجود «مخطّط»،

لكن ليس بنفس الطريقة على الإطلاق. المخطّط المباشر على الأرض للمُرافق الغوطيّ يعارضه المخطّط المتريّ على ورق المهندس المعماريّ خارج ورشة البناء. مسطح القوام أو التكوين يعارضه مسطح آخر هو مسطح التنظيم أو التشكيل. حجم الأحجار بالتربيع يعارضه حجم الأحجار المخروطيّة الذي يستتبع تشييد نموذج للاستنساخ. لن نقول فقط إنّ لم تعد ثمة حاجة لعمل مختصّ: ثمة ضرورة لعمل غير مختصّ، لتجريد العمل من التأهيل. الدّولة لا تمنح سلطة للمثقّفين أو المصمّمين، إنّها على النقيض من ذلك تجعل منهم جهازا تابعا تماما، لا استقلاليّة له إلّا في الحُلم، لكنّ مع ذلك يكفي لسحب كلّ قدرة من الذين لم يعد لهم غير الاستنساخ أو التنفيذ. وهو ما لا يمنع كون الدّولة مل تزال تواجه صعوبات مع هذا الجسم الذي هو جسم المثقّفين الذي ولّدته هي ذاتها، لكنّه يدافع عن مطامح ترحليّة وسياسيّة جديدة. في كلّ الأحوال، إذا انتهت الدّولة دوما إلى قمع العلوم الصّغرى والمرتحلة، إذا عارضت الماهيات المبهمة والهندسة الإجرائيّة للخطّ، فليس ذلك بموجب مضمون غير مضبوط أو منقوص لهذه العلوم، ولا لخاصيّتها السّحريّة أو التّعميديّة، إنّما لأنّها تستتبع تقسيما للعمل يتعارض وتقسيم المعايير التي تعتمد عليها الدّولة. الفرق ليس برّانيّا: الطّريقة التي يشارك بها علم أو تصوّر للعلم في تنظيم الحقل الاجتماعيّ وتستتبع بالتالي تقسيما للعمل، تنتمي [٤٥٧] إلى هذا العلم ذاته. العلم المملكيّ ليس معزولا عن نموذج «هيولانيّ» يستتبع في نفس الوقت صورة عضويّة للمادّة ومادّة مهياة للصّورة؛ غالبا ما وقع بيان كيف أنّ هذه الخطاطة لم تكن تتأثّى من التّقنية أو من الحياة بقدر ما هي متأثيّة من مجتمع منقسم بين حكام- محكومين، ثمّ بين مثقّفين- يدويين. ما يميّز هذه الخطاطة هو كون المادّة بأكملها وُضعت جهة المضمون، بينما الصّورة بأكملها تنتقل إلى التّعبير. يبدو أنّ العلم المترحلّ يكون مباشرة أكثر حساسيّة إزاء الرّبط بين المضمون والتّعبير في حدّ ذاتهما، لكلّ واحد من هذين

الحدّين صورة ومادّة. على هذا التحوّل لا تكون المادّة أبداً مادّة مهيّأة بالنسبة إلى العلم المترخّل، وبالتالي غير منسجمة، لكنّها حمالة أساسياً لفردات (تكوّن صورة مضمون). والتّعبير من ناحيته ليس صورياً، لكنّه غير معزول عن السّمات الملائمة (التي تُكوّن مادّة تعبير). تلك خطاطة مختلفة تماماً مثلما سنرى. لدينا فكرة بالفعل عن هذه الوضعيّة إذا فكّرنا بالخاصيّة الأعمّ للفنّ المترخّل، حيث الرّبط الديناميّ بين الحامل والزّخرفة يعوّض دياكتيا المادّة- الصّورة. هكذا، من زاوية نظر هذا العلم الذي يمثّل بوصفه فنّاً كما بوصفه تقنية، يوجد تقسيم العمل وجوداً تامّاً، لكنّه لا يستعير ثنائيّة المادّة- الصّورة (حتّى مع تناسبات تناظرية). إنّهُ يتّبع بالأحرى التّرابطات بين فردات مادّة وسمات تعبير، ويستقرّ في مستوى تلك التّرابطات الطّبيعيّة أو القسريّة^(١). ذلك تنظيم آخر للعمل وللحقّل الاجتماعيّ من خلال العمل.

قد تتوجّب إقامة تعارض بين نموذجين للعلم على طريقة أفلاطون في الطّيمائوس^(٢). نموذج يسمّى نموذجاً متألّفا والآخَر يسمّى نموذجاً

(١) دفع جيلبار سيموندون تحليل ونقد الخطاطة الهولانيّة ومفترضاها الاجتماعيّة إلى حدّ بعيد («تناظر الصّورة ما فكّر به بينه وبين نفسه الإنسان الذي يحكم والذي كان عليه أن يعبر عنه بطريقة إيجابيّة عندما يُصدر أوامره: الصّورة إذاً من جنس القابل للتّعبير عنه»). خطاطة المادّة- الصّورة هذه يعارضها سيموندون بترسيمة ديناميّة، مادّة مزوّدة بفردات- قوى أو بشروط طاقية لمنظومة. ينتج عن ذلك تصوّر مغاير تماماً لعلاقات العلم- التّقنية. راجع، الفرد وتكوّنه الفيزيائيّ- البيولوجيّ، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٤٢- ٥٦.

(٢) في نصّ الطّيمائوس (٢٨- ٢٩)، يتصوّر أفلاطون لُبْهَة أنّ التّصيير لا يكون الخاصية المحتومة للتّصور أو النّسخ وحسب، لكنّه يكون هو ذاته مثال قد ينافس الهو هو والمتمائل. إنّهُ لا يستدعي هذه الفرضيّة إلّا ليستبعدها، ومن الحقيقيّ أنّ التّصيير إذا كان مثالا، فإنّ ثنائيّة المثال والصّورة، المثال والنّسخة، ليست هي وحدها التي يجب أن تزول، إنّما أيضاً مصطلحاً المثال والنّسخة ذاتهما ينحوان إلى فقدان كلّ معنى.

متنافرا. المتألف هو النموذج الشرعيّ أو الشرعويّ الذي تبنّاه [٤٥٨] العلم المَلَكِيّ. يتملّ البحث عن القوانين في استخراج ثوابت حتى وإن كانت هذ الثوابت هي فقط علاقات بين المتغيّرات (معادلات). صورة لا تتغيّر للمتغيّرات، مادّة متغيّرة لما لا يتغيّر، ذلك هو ما يؤسّس الخطاطة الهولانيّة. لكنّ المتنافر بوصفه عنصر العلم المترخل يحيل على موادّ- قوى بدلا من إحالته على مادّة- صورة. لم يعد الأمر يتعلّق تحديدا باستخراج ثوابت انطلاقا من متغيّرات، إنّما بوضع المتغيّرات ذاتها في حالة تغيّر مستمرّ. إذا كانت ما تزال ثمة معادلات فإنّها ملاءمات، متباينات، معادلات تفاضليّة لا تُختزل في الصّورة الجبريّة، وهي ملازمة من جهتها لحُدُس حَسِّيّ للتغيّر. إنّها تتمكّن من فرادات المادّة أو تحدّدتها بدلا من تكوين صورة عامّة. إنّها تقوم بتفريعات بواسطة أحداث أو هذيات وليس بواسطة «موضوع» بوصفه مرگبا من مادّة وصورة؛ الماهيات المبهمة ليست غير هذيات. من كلّ هذه النّواحي، ثمة تعارض بين اللوغوس والنّاموس، بين القانون والنّاموس الذي منطوقه هو أنّ القانون ما يزال له «مذاق أخلاقيّ للغاية». غير أنّ ذلك لا يعني أنّ النموذج الشرعي يتجاهل القوى، لعبة القوى. نرى ذلك بوضوح في الفضاء المتجانس الذي يتوافق والمتألف. الفضاء المتجانس ليس فضاء أملس على الإطلاق، على النقيض من ذلك هو صورة الفضاء المخدّد. فضاء المخروطات. يخذّه سقوط الأجسام، متعامدات الثّقالة، تَوَزُّع المادّة إلى أجزاء متوازية، سريان رقائقيّ أو انزلاقيّ لما هو دُفْق. إنّها هذه المتعامدات المتوازية هي التي كوّنَت بُعْدا مستقلاّ قادرا على الانتقال في كلّ مكان، على شكلنة كلّ الأبعاد الأخرى، على تخديد كامل الفضاء في كلّ اتّجاهاته، وبذلك جَعَلَهُ متجانسا. توفر المسافة العموديّة بين نقطتين صيغة المقارنة بالنسبة إلى المسافة الأفقيّة لنقطتين مغايرتين. بهذا المعنى ستكون الجاذبيّة الكونيّة هي قانون كلّ قانون، من حيث أنّها تنظّم التّناظر المزدوج بين جسمين؛

وفي كلّ مرّة سيكتشف فيها العلم حقلا جديدا، سيبحث عن شكلته وفق صيغة حقل الجاذبيّة. حتى الكيمياء لا تصبح علما ملكيا إلا بتطوير نظريّ كامل لمصطلح الوزن. يتوقّف الفضاء الأقليديّ على المسلّمة الشهيرة للمتوازيات، لكنّ المتوازيات جاذبيّة أولا، وتُناظر القوى التي تمارسها الجاذبيّة على كلّ عناصر جسم يُفترض فيه ملء ذلك الفضاء. نقطة تطبيق حاصل كلّ هذه القوى المتوازية هي التي تبقى ثابتة عندما نغيّر وجهتها المشتركة أو عندما نجعل الجسم يدور (مركز الثقل). باختصار، يبدو أن القوّة الجاذبة كائنة في قاعدة فضاء رقاقيّ، محدّد، متجانس ومُمرّكز؛ إنّها تشرط تحديدا [٤٥٩] ما يسمّى كثرات مِترية، شجرانيّة، والتي أعظامها مستقلّة عن الوضعيّات وتعبّر عن ذاتها بواسطة وحدات أو نقاط (حركات من نقطة إلى أخرى). تساءل العلماء في القرن التاسع عشر، ليس نتيجة حرص ميتافيزيقيّ، بل علميّ بالفعل، عمّا إذا لم تكن كلّ القوى ترتدّ إلى قوّة الثّقالة، أو بالأحرى إلى صورة الجاذبيّة التي تمنحها قيمة كونيّة (علاقة ثابتة بالنسبة إلى كلّ المتغيّرات)، مدى مزدوجا (في كلّ مرّة جسمان لا غير...). إنّها صورةٌ داخلانيّة كلّ علم.

مغاير تماما هو التاموس أو المتنافر. ليس لأنّ القوى الأخرى تُنكر الثّقالة أو تُناقض الجاذبيّة. لكن إذا كان من الحقيقيّ أنّها لا تناقضها، فإنّها مع ذلك لا تُستمدّ منها ولا تتوقّف عليها، لكنّها تشهد على أحداث تكميليّة دوما أو على «أفعالات متغيّرة». في كلّ مرّة يكون انفتح فيها حقل للعلم، في الظروف التي تجعل منه مصطلحا أهمّ بكثير من مصطلح الصّورة والموضوع، يكون هذا الحقل قد تأكّد أولا بوصفه غير قابل للاختزال في حقل الجاذبيّة، وفي نموذج قوى الجذب، مع أنّه لا يتناقض معها. لقد كان يؤكّد «إضافة» أو زيادة، وكان يستقرّ هو ذاته في هذه الزيادة، في هذا الانزياح. عندما تُحقّق الكيمياء تقدّما حاسما، فذلك بإضافة روابط من نوع آخر إلى قوّة الوزن، روابط

كهربائية مثلا، تُغيّر خاصيّة المعادلات الكيميائية^(١). لكن سنلاحظ أنّ أبسط اعتبارات السرعة تُدخل بالفعل الفرق بين السقوط العمودي والحركة المنحنية، أو بشكل أعمّ، بين المستقيم والمنحني، في ظلّ الأنواع التفاضليّة للميلان أو لأصغر انزياح: أدنى زيادة ممكنة. الفضاء الأملس هو بالفعل فضاء الانزياح الأصغر: كذلك لا تجانس له إلّا بين نقاط متجاورة إلى حدّ بعيد، ويتمّ الوصل بين الجوّارات بمعزل عن كلّ طريق محدّدة. إنّ فضاء تلامس، فضاء أفعال تلامس صغيرة، لمسيّة أو يدويّة، بدلا من كونها بصريّة مثلما كان عليه الحال مع الفضاء الأقليديّ المخدّد. مجال، فضاء أملس متنافر يتزاوج مع [٤٦٠] ضرب خاصّ من الكثرات: الكثرات غير المتريّة، غير ذات المركز، الجذموريّة، التي تحتلّ الفضاء دون «حسابانه»، والتي لا يمكننا «استجلاؤها إلّا بالمشي فوقها». إنّها لا تستجيب للشرط البصريّ حتى يقع التّمكن من ملاحظتها من نقطة من الفضاء كائنة خارجها: كذلك هي منظومة الأصوات أو حتّى الألوان، في تعارض مع الفضاء الأقليديّ.

عندما نعارض بين السرعة والبطء، بين السّريع والبطيء، بين الإسراع والرّزانة، لا يجب أن نرى في ذلك تعارضا كمّيّا، لكن لا نرى فيه كذلك بنية ميثولوجيّة (مع أنّ دوميزيل بيّن الأهميّة الميثولوجيّة القصوى لهذا التّعارض، تحديدا وفق جهاز الدّولة، وفق «خطورة»

(١) في واقع الأمر، الوضعيّة أكثر تعقيدا بطبيعة الحال، والثّقالة ليست الخاصيّة الوحيدة للنّمودج المهيمن: تنضاف الحرارة إلى الثّقالة (بالفعل، في الكيمياء ينضمّ الاحتراق إلى الوزن). لكن حتى في هذه الحالة، لقد كان ذلك مشكلا تامّا يتعلّق بمعرفة متى كان ينفصل الـ«مجال الحراريّ» عن الفضاء الجاذبيّ، أو على التّقيض من ذلك متى كان يندمج فيه. مثال نموذجيّ قديمة موندج: إنّهُ يبدأ بالحاق الحرارة، الضّوء، الكهرباء بالـ«انفعالات المتغيّرة للأجسام»، التي تهتمّ بها «الفيزياء الخاصّة»، بينما الفيزياء العامّة تعالج الامتداد، الجاذبيّة، التّحوّل. لاحقا فقط وُحد موندج جملة المجالات في الفيزياء العامّة (آن كارّيان).

الطبيعية لجهاز الدولة). التعارض كيمي وعلمي في نفس الوقت شريطة ألا تكون السرعة هي الخاصية المجردة لحركة بعامة وحسب، لكنها تتجسد في متحرك يبتعد أقل ما يكون عن خط سقوطه أو جاذبيته. السريع والبطيء ليسا درجتين كميتين للحركة، لكنهما ضربان من الحركات المؤهلة، أيًا كانت سرعة الأول وتخلّف الثاني. عن جسم يفلت من أيدينا ويسقط، مهما كانت سرعته، لن نقول بالمعنى الدقيق للكلمة إن له سرعة، إنما له بالأحرى ببطء متناقص لا نهائيًا وفق قانون الأجسام الثقيلة. قد يكون الثقل هو الحركة الرقائقيّة التي تتخذ الفضاء، والتي تذهب من نقطة إلى أخرى؛ لكنّ السرعة والإسراع قد يطلّقان فقط على الحركة التي تحيد إلى أدنى حدّ، وتتخذ مذكّ هئية دوامية باحتلالها فضاء أملس، برسم الفضاء الأملس ذاته. في هذا الفضاء، المادة- الاندفاق لم تعد تقبل الانقسام إلى أجزاء متوازية، والحركة لم تعد تدع نفسها للانحصار في علاقات مزدوجة بين النّقاط. بهذا المعنى، التعارض الكيفي رزاة- إسراع، ثقل- خفيف، بطيء- سريع، لم يعد يقوم بدور تحديد علمي قابل للتكميم، إنما بدور شرط متماد مع العلم، وينظّم في نفس الوقت الفصل بين النموذجين والخلط بينهما، تداخلهما المحتمل، سيطرة أحدهما على الآخر، تناوبهما. وإنّه بخصوص التناوب، أيًا كانت الاختلاطات والتركيبات، يقترح ميشال سارّ الصيغة الأفضل: «ترتدّ الفيزياء إلى علمين، نظرية عامة للممرّات والطرق، نظرية شاملة للسيلان»^(١).

قد يتوجّب أن نقيم تعارضاً بين ضريين من العلوم، أو بين مسارين علميين: أحدهما يتمثّل في «الاستنساخ» والآخر يتمثّل في «الاتباع». أحدهما قد يكون مسار استنساخ، تكرار، إعادة؛ الآخر مسار تجوال، قد يكون جملة العلوم الثقيلة، [٤٦١] الجوّالة. نخترل التّطواف بشكل

(١) ميشال سارّ (ص ٦٥).

سهل للغاية في شرط للتقنية أو في تطبيق العلم والتحقق منه. لكن الأمر ليس على هذا النحو: الاتباع ليس هو والاستنساخ نفس الشيء على الإطلاق، ولا نتابع إطلاقاً لنستنسخ. المثل الأعلى بالنسبة إلى الاستنساخ، سواء كان استنباطاً أو استقراء، يشكّل جزءاً من العلم المَلَكِيّ في كلّ الأزمنة وفي كلّ الأماكن، ويعالج فروقات الزّمان والمكان بوصفها العديد من المتغيّرات التي يَستخرج منها القانونُ بشكل محدّد الصّورة القارّة: يكفي فضاء جاذبيّ ومحدّد حتى توجد نفس الظاهرات، إذا توفّرت نفس الطّروف، أو إذا قامت نفس العلاقة الثابتة بين الطّروف المختلفة والظّاهرات المتغيّرة. يستتبع الاستنساخ دوام زاوية نظر ثابتة، خارجة عن التّناج: أن نرى التّهر يجري ونحن على الضّقة. لكن الاتباع هو شيء مغاير للمثل الأعلى للاستنساخ. إنّهُ ليس أفضل، لكنّه شيء آخر. نكون مجبرين على الاتباع عندما نكون في حالة بحث عن «فرادات» مادّة أو بالأحرى موادّ، ولسنا في حالة اكتشاف لصورة؛ عندما نفلت من القوّة الجاذبة لندخل في مجال إسراع؛ عندما نتوقّف عن تأمل جريان دُفق رقائقيّ ذي وجهة محدّدة، وعندما يجرفنا دُفق دوّاميّ؛ عندما ننخرط في التغيّر المستمرّ للمتغيّرات، بدلاً من أن نستخرج منها ثوابت، إلخ. وليس هو نفس معنى الأرض على الإطلاق: وفق التّمودج الشرعيّ، لا نفتأ نعيد التّأرضن على زاوية نظر، في مجال، وفق جملة من العلاقات الثابتة؛ لكن وفق التّمودج الجوّال، سيرورة اللاتأرضن هي التي تكوّن الإقليم ذاته وتمدّده. «اذهب إلى نبتتك الأولى، وهناك لاحظ بانتباه كيف يجري ماء الانسيال انطلاقاً من هذه النّقطة. قد يكون المطر حمل البذور بعيداً. اتّبع الجداول التي حفرها الماء، هكذا ستعرف وجهة السّيلان، ابحث إذاً عن النّبتة التي هي في هذا الاتّجاه توجد أبعد ما يكون عن نبتتك، كلّ التّباتات التي تطلع بين هاتين النّبتتين هي لك.

لاحقا (...).، ستمكّن من توسيع إقليمتك...^(١)» ثمة علوم جِوالة، نقيلة، تتمثل في اتباع سيلان في حقل موجّهات حيث تتوزّع فرادات بوصفها كثرة من الـ«أعراض» (المشكلات). مثلا: لِمَ كانت الحدّادة البدائية علما جِوالا بالضرورة، يمنح الحدّاد منزلة شبه مترحلة؟ يمكن الاعتراض بالقول إنّ الأمر في هذه الأمثلة يتعلّق على أيّ حال بالذهاب من نقطة إلى أخرى (حتّى وإن كانت نقاطا مفردة)، بواسطة قنوات، وأنّ السيلان يظلّ قابلا للتقطيع إلى أجزاء. لكنّ ذلك ليس صحيحا إلّا إذا كانت [٤٦٢] الطرائق والسيرورات الثّقيلة ملحقّة ضرورة بفضاء مخدّد، مشكّنة دوما من قبل العلم المَلِكِيّ الذي يجرّدها من نموذجها، يخضعها لنموذجه هو ولا يمكنها من الاستمرار إلّا بوصفها «تقنية» أو «علما تطبيقيّا». عموما، فضاء أملس، مجال موجّهات، كثرة غير متريّة ستكون دائما قابلة للتعبير عنها، ومعبر عنها ضرورة في «متألف»: عملية أساسيّة نضع بها ونعيد وضع فضاء أقليديّ مُماسّ في كلّ نقطة من الفضاء الأملس، فضاء أقليديّا يمتاز بعدد كاف من الأبعاد، وبهذه العملية نعيد إدخال توازي موجّهين، معتبرين الكثرة وكأنّها غائصة في هذا الفضاء المتجانس والمخدّد للاستنساخ، بدلا من مواصلة اتّباعها في «استكشاف تدرّجيّ»^(٢). إنّ انتصار اللوغوس أو القانون على الناموس. لكن بالفعل، تعقّد العملية يشهد على المقاومات التي يجب أن تتغلّب عليها. في كلّ مرّة نُرجع فيها الطرائق والسيرورات الثّقيلة إلى نموذجها الخاصّ، تستعيد النّقاط وضع فراداتها الذي يستبعد كلّ علاقة

(١) كاستنادا، نبات الشيطان والدخان الخفيف، ص ١٦٠.

(٢) بين أبار لوطمان بتمام الوضوح كيف كانت فضاءات مثل فضاءات ريمان على سبيل المثال، تقبل قرانا أقليديّا بحيث يمكننا أن نعرّف باستمرار توازي موجّهين متجاورين؛ مذكّك، عوض استكشاف كثرة بالتقدّم على مسار هذه الكثرة، نعتبر الكثرة «كأنّها غائصة في فضاء أقليدي ذي عدد كاف من الأبعاد». راجع، خطاطات البنية، منشورات هرمان، ص ٢٣-٢٤، ٤٣-٤٧.

مزدوجة، يستعيد الدَّفَق هيئته المنحنية والدَّوامية التي تستبعد كلّ تواز للموجّهات، يعاود الفضاء الأملس الاستيلاء على خصائص التماسّ التي لم تعد تسمح له بأن يكون متجانسا أو مخدّدا. ثمّة دائما تيّار يجعل العلوم الجوّالة والنّقيلة لا تستسلم بالتّمام لاستدخالها في العلوم المملّكية الاستنساخية. وثمّة صنف عالم جوّال لا يفتأ علماء الدّولة يحاربونه أو يستوعبونه أو يجعلونه حليفا لهم، حتى وإن اقترحوا عليه مكانا ثانويّا في المنظومة الشّرعية للعلم والتّقنية.

ليست العلوم الجوّالة وحدها هي التي تخترقها الطّرائق اللاعقلانية واللّغز والسّحر. إنّها لا تصبح كذلك إلّا عندما تسقط في الإهمال. ومن ناحية أخرى، العلوم المملّكية تحيط نفسها أيضا بالكثير من الكهانة والسّحر. ما يَظهر بالأحرى في تنافس النّمودجين، هو كون العلوم الجوّالة أو المترحّلة لا ترصد العِلْم للإمساك بسلطة، ولا حتّى لتطوّر، سلطة وتطوّرًا مستقلّين. ليس لديها الوسائل للقيام بذلك، لأنّها تجعل كلّ عمليّاتها تابعة للشّروط الحسّية للحدّس وللبناء، اتّباع دفق المادّة، رسم ووَضْل الفضاء الأملس. كلّ شيء [٤٦٣] مأخوذ في منطقة تردّد موضوعيّة تختلط مع الواقع ذاته. أيّا كانت دقّة «المعرفة التقريبية» وصرامتها، فإنّها تظلّ خاضعة لتقويمات حسّية وإحساسيّة تسبّب لها مشكلات أكثر من حلّها: يظلّ الإشكاليّ هو صيغتها الوحيدة. على النّقيض من ذلك ما ينتمي إلى العِلْم المملّكيّ، إلى سلطته المُبرهنيّة أو الأكسيوميّة، هو انتزاع كلّ العمليّات من ظروف الحدّس ليَجعل منها مفاهيم جوهرية حقيقة أو ليَجعل منها «مقولات». حتّى أنّه لأجل ذلك يستتبع اللاتأرُضُ في هذا العلم إعادة تأرُض على جهاز المفاهيم. دون هذا الجهاز القطعيّ والبرهانيّ قد تكون العمليّات التفاضليّة مجبرة على متابعة تطوّر ظاهرة ما؛ أكثر من ذلك، التّجارب التي تتمّ في الهواء الطّلق، البناءات التي تتمّ مباشرة على الأرض، قد لا نمتلك

البُتَّةُ إحدائيات تُقيّمها في شكل نماذج مستقرّة. نعبّر عن بعض هذه المطالب في صيغة «سلامة»: كاتدرائيتا أورلايون وبوفاي تنهاران في نهاية القرن الثاني عشر، وحسابات المراقبة يعسر إجراؤها على بناءات العلم الجوّال. لكن، مع أنّ السّلامة تشكّل أساسيّاً جزء من المعايير النّظريّة للدولة كما من المثل الأعلى السّياسيّ، فإنّ الأمر يتعلّق كذلك بشيء آخر. بموجب كلّ طرائقها، تتخطّى العلوم الجوّالة بسرعة إمكانيات الحساب: إنّها تستقرّ في هذا الفائض الذي يتجاوز فضاء الاستنساخ، إنّها تصطدم سريعا بصعوبات كأداء من هذه الزّاوية، تحلّها احتماليّاً بعملية في الحال. من المفترض في العمليّات أن تصدر عن جملة من الأنشطة التي تكوّنّها على أنّها غير قائمة بذاتها. على التّقيض من ذلك، ليس ثمة غير العلم المَلَكِيّ ليمتلك قدرة مِترية تحدّد جهاز المفاهيم أو قيام العلم برأسه (بما في ذلك العلم التجريبيّ). من هنا ضرورة مزاجية الفضاءات الجوّالة مع فضاء تجانس، من دونه قد تكون قوانين الفيزياء متوقّفة على نقاط خاصّة من الفضاء. لكنّ الأمر لا يتعلّق بترجمة بقدر ما يتعلّق بتأسيس: تحديدا هذا التّأسيس الذي لم تكن العلوم الجوّالة تعترم القيام به وليست لها وسائل ذلك العزم. في مجال التّفاعل بين العِلْمَيْن، تكتفي العلوم الجوّالة بابتكار المشكلات، التي قد يحيل حلّها إلى مجموعة كاملة من الأنشطة الجماعيّة وغير العلميّة، لكن التي يتوقّف حلّها العلميّ عكسيّاً على العلم المَلَكِيّ وعلى الطّريقة التي غيّر بها العلم المَلَكِيّ المشكل أوّلا بجعله ينتقل إلى جهازه المُبرهننيّ وإلى تنظيمه للعمل. الأمر أشبه بالحدس والفاهمة عند برغسون، حيث الفاهمة وحدها لها الوسائل العلميّة لتحلّ صورياً المشكلات التي [٤٦٤] يطرحها الحدس، لكنّ هذا الأخير قد يكتفي بأن يعهد بها إلى الأنشطة الكيفيّة لإنسانيّة قد تتبّع المادّة... (١)

(١) العلاقات بين الحدس والفاهمة هي علاقات معقّدة وفق برغسون، وهما في تفاعل مستمرّ. يمكن الرجوع كذلك إلى مبحث بوليفان: العنصران الرياضيان

المشكل الثاني: هل من وسيلة لسحب الفكر من نموذج الدولة؟
القضية الرابعة: برآنية مكنة الحرب أگدها في النهاية فكر الفكر.

يصادفنا أن نقصد مضامين فكر نعتبرها أصولية للغاية. لكنّ المسألة هي أولاً مسألة الصورة ذاتها. قد يكون الفكر بحدّ ذاته مطابقاً بالفعل لنموذج قد يستعيره من جهاز الدولة، وقد يحدّد له أهدافاً وسُبُلًا، مسارب، قنوات، أعضاء، أرغانونا بكامله. قد تكون ثمة إذا صورة للفكر قد تغطّي الفكر كلّ، قد تشكّل الموضوع الخاص لـ«فكر الفكر»، والتي قد تكون مثل الصورة- الدولة التي وقع تطويرها في الفكر. ها هي هذه الصورة تمتلك رأسين تحيلان تحديداً على قطبيّ السيادة: نفوذ التفكير- الحقّ العامل بواسطة الأُسْر السّحريّ، إمساكا أو رابطة، مكوّنا نجاعة تأسيس (ميثوس)؛ جمهورية عقول حرّة تعمل بواسطة ميثاق أو عقد، مكوّنة تنظيمًا تشريعيًا أو قانونيًا حاملاً إقرار تأسيس (لوغوس). هذان الرأسان لا يفتّان يتداخلان في الصورة الكلاسيكيّة للفكر: «جمهورية عقول قد يكون أميرها هو فكرة كائن أسمى». وإذا كان الرأسان يتداخلان، فليس ذلك فقط لأنّه ثمة بينهما الكثير من الوسائط أو الانتقالات، ولأنّ أحدهما يهيئ الآخر، والآخر يستخدم الآخر ويحتفظ به، إنّما أيضاً لأنّهما متضادّان ومتكاملان، هما ضروريّان كلّ منهما للآخر. مع ذلك، للمرور من أحدهما إلى الآخر، ليس من المستبعد وجوب وجود حدث ذي طبيعة مغايرة تماماً، «بين» الاثنين، ويختبئ خارج الصورة، يحدث في الخارج^(١). لكن، [٤٦٥] لو اكتفينا

«مشكل» و«توليفة شاملة» لا يطوّران ثنائيتهما إلّا بالدّخول كذلك في مجال تفاعل، حيث تحدّد التوليفة الشّاملة في كلّ مرّة الـ«مقولات» التي من دونها قد لا يكون للمشكل حلّ عامّ. راجع، أقول المطلقات الرّياضيّة- المنطقيّة.

(١) أبرز مارسال دتيان (Marcel Detienne) (سادة الحقيقة في اليونان العتيق، منشورات ماسبرو) بوضوح قطبيّ الفكر هذين اللّذين يناظران مظهريّ السيادة وفق

بالصورة، فإنه يظهر أنها ليست مجرد استعارة، في كل مرة يحدثونها فيها عن نفوذ الحق وعن جمهوريّة العقول. ذلك شرط تكوين الفكر بوصفه مبدأ أو صورة داخلية، بوصفه طبقة.

نلاحظ جيّداً أن الفكر يغنم من ذلك: جدية قد لا يحصل عليها بذاته أبداً، مركزاً يجعل كل الأشياء، بما في ذلك الدولة، تبدو كأنها توجد بنجاعته الخاصة أو بإقراره الخاص. لكن الدولة في ذلك ليست أقلّ غنماً. الصورة- الدولة تغنم بالفعل شيئاً ما أساسياً بتطورها على هذا النحو في الفكر: وفاق بأكمله. وحده الفكر بمقدوره ابتكار خرافة دولة كليّة من جهة الحق، رفع الدولة إلى مقام الكلّي من جهة الحق. كما لو أنّ العاهل كان أصبح وحده في العالم، غطى المعمورة كلّها، ولم يعد له من شاغل غير رعايا حاليين أو ممكنين. لم تعد المسألة مسألة التنظيمات البرانيّة القويّة ولا مسألة عصابات غريبة: تصبح الدولة هي المبدأ الوحيد الذي يفصل بين رعايا متمرّدين، قد عادوا إلى حالة الطّبيعة، ورعايا راضين، يحيلون من تلقاء أنفسهم على صورة الدولة. إذا كان مهماً للفكر أن يعتمد على الدولة، فليس أقلّ أهميّة للدولة أن تمتدّ في الفكر وأن تتلقّى منه إقرار كونها الصورة الوحيدة والكلية. خصوصيّة الدّول لم تعد غير مجرد واقعة؛ كذلك انحرافها المحتمل أو عيها. ذلك أنّ الدولة الحديثة ستعرّف ذاتها من جهة الحق على أنها «التنظيم العقلاني والمعقول لمجتمع»: لم يعد للجماعة من خصوصيّة غير الخصوصيّة الداخليّة أو الأخلاقيّة (روح شعب)، في نفس الوقت الذي يجعلها فيه تنظيمها تساهم في انسجام الكلّي (الروح المطلق).

دوميزيل: الكلمة السّحرية- الدّينية للمستبدّ أو لـ«عجوز البحر»، كلمة- حوار المدينة. ليست الشخصيات الرئيسيّة للفكر اليونانيّ (الشّاعر، الحكيم، الفيزيائيّ، الفيلسوف، السّفسطائيّ...) هي وحدها التي تنزّل بالنسبة إلى هذين القطبين؛ لكنّ دتيان يُدخل بين الاثنين مجموعة مخصوصة هي مجموعة المحاربين التي تؤمّن الانتقال أو التّطور.

تمنح الدولة الفكر صورةً داخلانيةً، لكنّ الفكر يمنح هذه الدّاخلانية صورةً كليّةً: «هدف التّنظيم العالميّ هو إرضاء الأفراد العاقلين داخل دول خاصّة». إنّ تبادُل غريب يحصل بين الدولة والعقل، لكنّ هذا التّبادُل هو كذلك قضية تحليليّة، بما أنّ العقل المتحقّق يختلط مع دولة الحقّ مثلما الدولة الكائنة هي تصوّر العقل^(١). يدور كلّ شيء في الفلسفة [٤٦٦] المسمّاة فلسفة حديثة وفي الدولة المسمّاة دولة حديثة أو عقلانية، حول المشرّع والذات. على الدولة أن تحقّق التمييز بين المشرّع والذات في ظروف صوريّة تمكّن الفكر من جهته من التفكير بتماهيتهما. أطيعوا دائماً، إذ بقدر ما يستطيعون بقدر ما ستصبحون أسياداً بما أنّكم لن تخضعوا إلّا للعقل المحض، أي لذواتكم... منذ أن خضت الفلسفة نفسها بدور الأساس، لم تفتأ تبارك السلطات القائمة وتستنسخ مذهبها في المملّكات على أجهزة سلطة الدولة. الحسّ المشترك، وحدة كلّ المملّكات بوصفها مركز الكوجيطو، هو وفاق الدولة مرفوعاً إلى درجة المطلق. تلك كانت بالأخصّ العمليّة الكبرى للدّولة «نقد» الكانطيّ، التي استعادتها الهيغليّة وطوّرتها. لم يفتأ كانط ينقد الاستعمالات السيّئة لبيّارك الوظيفة بشكل أفضل. فلا غرابة من أن يكون الفيلسوف أصبح أستاذاً عموميّاً أو موظّف دولة. كلّ شيء أصبح

(١) ثمة هيغليّة يمينيّة ما تزال حيّة في الفلسفة السياسيّة الرّسميّة، وهي توحد بين مصير الفكر والدولة. كوياف (الاستبداد والحكمة، غاليمار) وإريك فايل (هيغل والدولة؛ فلسفة سياسيّة، منشورات فران) هما ممثلاها القريبان. من هيغل إلى ماكس فيبر تطوّر تفكّر بأكمله حول علاقات الدولة الحديثة بالعقل، بوصفها في نفس الوقت عقلانية-تقنيّة وبوصفها معقولة-إنسانيّة. إذا اعترضنا بالقول إنّ هذه المعقوليّة الحاضرة بالفعل في الدولة الإمبراطوريّة العتيقة هي الحدّ الأمثل للحكّام ذواتهم، فإنّ الهيغليين يجيبون بأنّ العقليّة-المعقول لا يمكن أن يوجد دون مشاركة الجميع. لكنّ المسألة تتعلّق بالأحرى بمعرفة ما إذا كانت صورة العقلانيّة-المعقول ذاتها قد سُحِبَت من الدولة، بطريقة تعطيها بالضرورة «الحقّ».

منظماً مُذ أصبحت الصُّورة- دولة هي التي تُلهم صورة للفكر. لكن شرط الرّدّ بالمثل. ودون شكّ، وفق تغيّرات تلك الصُّورة- دولة، تتخذ صورة الفكر حافات مختلفة: لم ترسم الفيلسوف دائماً أو لم تعيّنه، ولن ترسمه دائماً. يمكن الانتقال من وظيفة سحرية إلى وظيفة عقلية. أمكن للشاعر بالنسبة إلى الدولة الإمبراطورية العتيقة أن يقوم بدور مروّض الصُّور^(١). في الدّول الحديثة، أمكن لعالم الاجتماع أن يعوّض الفيلسوف (مثلاً عندما أراد دوركهايم وأتباعه إعطاء الدولة نموذجاً لائيكياً للفكر). اليوم بالذّات، يسعى التحليل التّفسي، في عودة سحرية، إلى القيام بدور الفكر الكلّي بوصفه فكر القانون. وثمة كذلك منافسون وطامحون آخرون. فكر الفكر الذي لا يختلط بالإيديولوجيا، هو بالتحديد دراسة صور الفكر وتاريخيتها. بكيفية ما، يمكن القول إنّ ذلك لا أهميّة له البتّة، وإنّ الفكر لم تكن له على الإطلاق جدّية إلّا للضحك. لكنّه لا يطلب غير ذلك: ألاّ نحمله على محمل الجدّ، بما أنّه يمكنه أن يفكر بشكل أفضل بكثير من أجلنا، ويولّد دائماً موظّفيه الجدد، ويقدر ما لا يحمل النّاس الفكر على محمل الجدّ، بقدر ما يفكّرون طبقاً لما تريده الدولة. بالفعل، أيّ رجل دولة لم يحلم بهذا الشيء الصّغير جدّاً، هذا الشيء المستحيل، أن يكون مفكّراً؟

[٤٦٧] لكنّ فكر الفكر يصطدم بأفكار مضادّة أفعالها عنيفة، انبثاقاتها متقطّعة، وجودها متحرّك عبر التاريخ. إنّها أفعال «مفكّر خاصّ» مقابل الأستاذ العموميّ: كياركيغارد، نيتشه، أو حتّى شستوف. كلّ مكان يسكنونه، هو السّبابس أو الصّحراء. إنّهم يحطّمون الصُّور. لعلّ كتاب شوبنهاور مربّياً لنيتشه هو أكبر نقد وقع القيام به ضدّ صورة الفكر وعلاقتها بالدولة. غير أنّ عبارة «مفكّر خاصّ» ليست تعبيراً

(١) حول دور الشّاعر القديم بصفته «موظّف السيّادة»، راجع دوميزيل، سرفيوس والثروة، ص ٦٤ وما بعدها، ودتيان، ص ١٧ وما بعدها.

مُرْضِيَا بما أَنَّها تذهب إلى ما أبعد من الدّاخلانيّة، بينما الأمر يتعلّق بفكر الخارج^(١). وَضَع الفكر في علاقة مباشرة مع الخارج، مع قوى الخارج، باختصار، أن نجعل من الفكر مكنة حرب، فتلك مهمّة غريبة يمكن دراسة طرائقها الدّقيقة عند نيتشه (القول المأثور علي سبيل المثال مختلف جدّا عن الحكمة، ذلك أنّ حكمة ما، في جمهوريّة الآداب، هي بمثابة فعل عضويّ للدّولة أو بمثابة حُكْم سياديّ، لكنّ القول المأثور ينتظر دائما معناه من قوّة جديدة خارجيّة، من آخر قوّة عليها الاستحواذ عليه أو تطويعه واستخدامه). كذلك لسبب آخر «مفكّر خاص» ليس عبارة جيّدة: ذلك أنّه إذا كان صحيحا أنّ هذه الفكرة المضادّة تعبّر عن عزلة مطلقة، فإنّها عزلة مأهولة إلى أقصى حدّ، مثل الصّحراء ذاتها، عزلة ترتبط فعليّا بشعب مقبل، تستحضر هذا الشعب وتنتظره، لا توجد إلّا به، حتى وإن كنّا ما نزال نفتقر إليه... «تنقصنا هذه القوّة الأخيرة، لعدم وجود شعب يحملنا. نبحث عن هذا السّند الشعبي...» كلّ فكر هو بالفعل قبيلة، إنّه نقيض الدّولة. وصورة مثل صورة برّانيّة الفكر هذه ليست مناظرة على الإطلاق لصورة الدّاخلانيّة. عند الاقتضاء، قد لا يكون ثمة تَنَاطُرٌ إلّا بين أقطاب أو بؤر مختلفة للدّاخلانيّة. لكنّ صورة برّانيّة الفكر - القوّة الخارجيّة دوما بالنسبة إلى ذاتها، أو آخر قوّة، القوّة اللّانهائيّة - ليست على الإطلاق صورة أخرى قد تتعارض مع الصّورة المستوحاة من جهاز الدّولة. على النّقيض من ذلك هي القوّة التي تقوّض الصّورة ونُسَخُها، المِثال واستنساخاته، كلّ إمكانيّة لإلحاق الفكر بمِثال الحقّ، العدل أو القانون (الحقّ الدّيكراتي، العدل الكانطيّ، القانون الهيجليّ، إلخ...). الـ«منهج» هو الفضاء المخدّد للفكر الكلّيّ، وهو يرسم الطّريق التي يجب اتّباعها من نقطة إلى

(١) راجع تحليل فوكو بخصوص موريس بلانشو وبخصوص صورة برّانيّة للفكر: «فكر الخارج»، في نقد، جوان/يونيو ١٩٦٦.

أخرى. لكن صورة البرّانية تضع الفكر في فضاء أملس عليها الاستيلاء عليه دون قدرة على حسابه، فضاء ليس ثمة بالنسبة إليه منهج ممكن، استنساخ معقول، لكن ثمة فقط مناوبات، [٤٦٨] فواصل، استنفات. الفكر مثل مصاص الدماء، ليس له صورة، لا لتكوين مثال ولا لصنع نسخة. في الفضاء الأملس للزّان (Zen)، لم يعد السّهم يذهب من نقطة إلى أخرى، لكنّه سيتجمّع في أيّة نقطة كانت ليرسل إلى أيّة نقطة كانت، ويسعى إلى مبادلة موقعه مع الرّامي والهدف. مشكل مكنة الحرب هو مشكل المناوبة، حتى وإن كان ذلك بوسائل متواضعة، وليس هو المشكل المعماريّ للمثال أو للصرّح. شعب جوال من المتناوبين بدلا من مدينة - نموذج. «ترسل الطّبيعة الفيلسوف في الإنسانيّة كالسّهم؛ إنّها لا تسدّد لكنّها تتمنّى أن يبقى السّهم عالقا في مكان ما. وهي تقوم بذلك تخطئ عددا لا متناهيا من المرّات وهي مغتابة من ذلك. (...). الفنّانون والفلاسفة هم حُجّة ضدّ غائيّة الطّبيعة في وسائلها مع أنّهم يكوّنون دليلا ممتازا على حكمة غاياتها. إنّهم لا يصلون إلّا إلى عدد قليل بينما قد يكون عليهم أن يصلوا إلى الجميع، والكيفيّة التي وقع بها الوصول إلى العدد القليل لا تستجيب للقوّة التي يضعها الفلاسفة والفنّانون لإطلاق نار مدفعيّتهم^(١)...».

نفكر خاصّة في نصّين مؤثريّن، بالمعنى الذي يكون به الفكر فيهما باثوسا حقّا (مضادا للوغوس ومضادا للميثوس). نصّ أرطو في رسائله إلى جاك ريفيار، مفسّرا أنّ الفكر يمارس انطلاقا من انهيار مركزيّ، أنّه لا يقدر على الحياة إلّا بالاستحالة التي تخصّه في أن يكون صورة، ملتقّطا فقط سمات تعبير في موادّ، متطوّرا هامشيّا، في فضاء برّانية محض، وفق فرادات لا تقبل أن تكون كليّة، وفق ظروف لا تقبل الاستدخال. وكذلك نصّ كلايست، «بخصوص البناء المتدرّج

(١) نيتشه، شوبنهاور مرّيّا، § ٧.

للأفكار أثناء الحديث»: يشجب كلايست في ذلك الدّاخلانيّة المركزيّة للمفهوم بوصفه وسيلة مراقبة، مراقبة الكلام، مراقبة اللّسان، لكن كذلك مراقبة الاّفعالات، الظّروف وحتى المصادفة. إنّّه يعارض ذلك بفكر هو بمثابة المسار والسيّورة، إنّّه حوار عجيب ضدّ- أفلاطونيّ، إنّّه حوار مضادّ لحوار الأخ والأخت، حيث يتحدّث أحدهما قبل أن يعرف، ويكون الآخر قد بدأ الحديث بالفعل قبل أن يكون قد فهم: يقول كلايست إنّ ذلك هو فكر الوجدان الذي يعمل مثلما قد يتوجّب على جنرال القيام به في مكنة حرب، أو مثل جسم يُسَحَن بالكهرباء، بشدّة محض. «أخلط أصواتا مبهمّة، أطيل حدود الانتقال، أستخدم كذلك البدائل هنالك حيث قد لا تكون ضروريّة.» رُبّع الوقت، ثمّ من بعد ذلك، لعلّه العدول أو الانتظار. ضرورة ألا تكون للمرء مراقبة اللّسان، ضرورة أن يكون غريبا في لسانه الخاصّ، ليجذب الكلام إليه [٤٦٩] و«ليصدر عنه شيء غير مفهوم». قد تكون تلك هي صورة البرّانيّة، علاقة الأخ والأخت، تصوّر المفكّر- امرأة، تصوّر الفكر- امرأة: الوجدان الذي لم يعد يقبل المراقبة، الذي يشكّل مكنة حرب؟ فكر في صراع مع قوى خارجيّة بدلا من أن تحتضنه صورة داخلية، يعمل بالتناوب بدلا من تشكيل صورة، فكر- حدث، هذبة، بدلا من فكر- ذات، فكر- مشكل بدلا من فكر- ماهية أو مُبرهنة، فكر يستدعي شعبا بدلا من اعتبار نفسه كهنوتا. هل من المصادفة أنّه كلّما يطلق «مفكّر» سهما، يكون ثمّة رجل دولة، ظلّ أو صورة رجل دولة ينصحه ويؤنّبه ويرغب بتحديد «هدف»؟ لا يتردّد جاك ريفيار في إجابة أرطو: اعمل، اعمل، سيكون الأمر على ما يرام، ستصل إلى منهج وإلى التعبير بوضوح على ما تفكّر فيه من جهة الحقّ (الفكر الكلّي)، ريفيار ليس رئيس دولة، لكنه ليس آخر الرّجال في المجلّة الفرنسيّة الجديدة، الذي اعتبر نفسه الأمير السّريّ في جمهوريّة الآداب أو الموجّه الخفيّ في دولة القانون. لانز وكلايست كانا واجها غوته، هذا العبقريّ

العظيم، رَجُل الدَّولة الحَقِيقِيّ من بين كلِّ الكُتَّاب. لكنَّ الأسوأ ليس بَعْدُ هُنا: الأسوأ في الكِيفِيَّة التي انتهت بها نصوص كلايست وأرطو ذاتها إلى تشكيل صَرح، وإلى إلهام نموذج للاستنساخ أكثر مكرًا بكثير من النَّمُودج الآخر، بالنَّسبة إلى كلِّ التَّأَتَات المصطنعة والاستنساخات التي لا تُحصى التي تزعم مضاهاتها.

الصُّورة الكلاسيكيَّة للفكر وما تقوم به من تخديد للفضاء الذَّهنيّ، تطمح إلى الكليَّة. فعلا هي تعمل بـ«كُلِّيَّين»، الكلّ بوصفه الأساس الأخير للكائن أو الأفق الذي يشمل، الذات بوصفها مبدأ يحوّل الكائن إلى كائن من أجلنا^(١). نفوذ وجمهوريَّة. من الواحد إلى الأخرى، تجد كلَّ أنواع الواقع والحقّ مكانها في فضاء ذهنيّ مخدّد، من زاويتي الكينونة والذات، في ظلّ توجيه «منهج كليّ». مذكّك، من اليسير تمييز الفكر المترحّل الذي يرفض مثل هذه الصُّورة ويعمل بشكل مغاير. ذلك أنّه لا يدّعي الانتساب إلى ذات مفكّرة كليَّة، إنّما على التّقيض من ذلك إلى عِرْق متفرّد؛ وهو لا يقوم على كليَّة شاملة، إنّما على التّقيض من ذلك ينبسط في وسط دون أفق بوصفه فضاء أملس، سباسب، صحراء أو بحرا. إنّهُ تلاؤم من نوع آخر مغاير تماما هو الذي يقوم هنا بين العِرْق الذي وقع تحديده بوصفه «قبيلة» والفضاء الأملس الذي وقع تحديده [٤٧٠] بوصفه «وسطا». قبيلة في الصّحراء بدلا من ذاتِ كليَّة في أفق الكينونة الشّاملة. ألحّ كُتَّاث وايت منذ فترة قصيرة على هذا التّكامل اللّا تناظريّ بين قبيلة- عِرْق (السّلتيّون الذين يعتبرون أنفسهم سلتيّين) وبين فضاء- وسط (الشّرق، الشّرق، صحراء غوبي...). يبيّن وايت كيف أنّ هذا المزيج الغريب، زيجات السّلتيّ والشّرق، تُلهِم فكرا مترحّلا تماما، يُنتج الأدب الأنغليزيّ وسيكوّن الأدب

(١) نصّ عجيب لياسبرز عنوانه ديكرات (منشورات ألكان)، يشرح وجهة النّظر هذه ويقل بتنائجها.

الأميركي^(١). مباشرة نرى المخاطر بوضوح، الالتباسات العميقة التي تتواجد مع هذه المغامرة، وكأنّ كلّ جهد وكلّ إبداع كانا يواجهان فضيحة ممكنة. إذ: كيف العمل حتى لا يتحوّل مبحث عرق إلى عنصريّة، إلى فاشيّة مهيمنة وشاملة، أو بكلّ بساطة إلى أرسقراطيّة، أو إلى طائفة وفولكلور، إلى فاشيات صغرى؟ وكيف العمل حتى لا يكون قطب الشرق استيهاما ينشّط بشكل مغاير كلّ الفاشيات، كل أنواع الفولكلور أيضا، يوغا، زان، وكاراتيه؟ من الأكيد أنّه لا يكفي السّفر للإفلات من الاستيهام؛ ومن الأكيد أنّه ليس باستدعاء الماضي الواقعيّ أو الميثي نفلت من العنصريّة. لكن هنا أيضا، مقاييس التمييز يسيرة أيّا كانت الأخطا الفعلية التي تعتمها في هذا المستوى أو ذاك، في هذه اللحظة أو تلك. القبيلة- العرق لا توجد إلّا في مستوى عرق مقموع، وباسم قهر تخضع له: ليس ثمة عرق إلّا وهو دوني، أقلّي، ليس ثمة عرق مسيطر، لا يتحدّد العرق بنقائه، إنّما على النقيض من ذلك بعدم نقائه الذي يضيفه عليه نظام مسيطر. اللقيط والهجين هما الاسمان الحقيقيّان للعرق. قال رامبو كلّ شيء حول هذه النقطة: وحده بإمكانه أن يتوسّل صلة بالعرق من يقول: «كنت دائما من عرق أدنى، (...) أنا من عرق أدنى على الدوام، (...) ها أنا على الشاطئ الأرموريكانيّ، (...) أنا حيوان، زنجيّ، (...) أنا من عرق بعيد، آبائي كانوا اسكندنافيين.» وكما العرق ليس للإحياء، الشرق ليس للمحاكاة: الشرق لا يوجد إلّا ببناء فضاء أملس مثلما العرق لا يوجد إلّا بتكوين قبيلة تعمّر ذلك الفضاء وتجوبه. إنّ الفكر كلّ تصوّر، تصوّر مضاعف بدلا من كونه صفة لذات وتمثيلا لكلّ.

(١) كَنّاث وايت (Kenneth White)، الترحّل الفكريّ، الجزء الثاني من هذا الأثر غير المنشور، عنوانه بالتحديد هو الشّعر والقبيلة.

[٤٧١] البديهية الثانية: مكنة الحرب هي ابتكار المترحلين (من حيث هي خارجة عن جهاز الدولة ومتمايزة عن المؤسسة العسكرية). بصفتها هذه، لمكنة الحرب المترحلة ثلاثة مظاهر، مظهر مكاني - جغرافي، مظهر أرثميتيقي أو جبري، مظهر وجداني. القضية الخامسة: بالضرورة يحقق الوجود المترحل شروط مكنة الحرب في المكان.

للمترحل إقليم، إنه يتبع مسافات معتادة، يذهب من نقطة إلى أخرى، إنه لا يجهل النقاط (نقطة ماء، سكن، تجمع، إلخ). لكن المسألة هي ما الذي يكون مبدأ أو يكون نتيجة وحسب في حياة الترحل. في المقام الأول، حتى إذا كانت النقاط تحدّد المسافات فإنّها تابعة بدقّة للمسافات التي تحدّدها، على عكس ما يحدث عند الحضري. نقطة الماء ليست موجودة إلّا لتقع مغادرتها، وكلّ نقطة هي محطة ولا توجد إلّا بوصفها محطة. المسافة قائمة دائما بين نقطتين، لكنّ البينية اكتسبت كلّ المتانة وتتمتع باستقلالية كما بوجهة خاصّة. حياة المترحل فاصل. حتى عناصر سكنه وقع تصوّرها وفق المسافة التي لا تفتأ تستنقلها^(١). المترحل ليس هو المهاجر إطلاقا؛ ذلك أنّ

(١) آنّي ميلوفانوف (Anny Milovanoff)، «الجلد الثاني للمترحل»، في أقاصيص أدبية، ٢٧ جويلية/يوليو ١٩٧٨: «المترحلون الربائع على تخوم الصحراء الجزائرية يستعملون لفظ طريقة الذي يعني بشكل عامّ الطريق، السبيل، للإشارة إلى الأحزمة المنسوجة التي تُستعمل لتوطيد أربطة الخيمة بأوتاد الدّعم. (...)». في الفكر المترحل، السّكن ليس مرتبطا بإقليم، لكن بالأحرى بالتّقلّ. برفضه الاستيلاء على الفضاء الذي يجتازه، يبني المترحل لنفسه بيئة من الصّوف أو من شعر الماعز، لا تعيّن الحيّز المؤقت الذي يحتله. (...) هكذا يمنح الصّوف، هذه المادّة اللّطيفة، الحياة المترحلة وحدتها. (...) يتوقّف المترحل عند تصوّر مسافته، وليس عند تصوّر فضاء هو الذي يجوبه. إنه يترك الفضاء للفضاء. (...) إنه تعدّد أشكال الصّوف.»

المهاجر يذهب أساسيًا من نقطة إلى أخرى، حتى وإن كانت هذه النقطة الأخرى غير مؤكدة، طارئة أو غير متعينة بشكل جيد. لكن المترحل لا يذهب من نقطة إلى أخرى إلا نتيجة لمقتضى الحال ولحتمية: مبدئيًا، النقاط بالنسبة إليه هي محطات في رحلة. يمكن أن يختلط المترحلون والمهاجرون بكيفيات كثيرة، أو يشكّلون مجموعة مشتركة؛ ومع ذلك لهم أسباب وظروف مختلفة جدًا (على سبيل المثال، الذين التحقوا بمحمد في المدينة كان لهم أن يختاروا بين قسم مترحل أو بدوي وقسم هجرة أو مهجر)^(١).

في المقام الثاني، المسافة المترحلة حتى وإن اتبعت ثانيا أو سبلا معهودة، فإنها ليست لها وظيفة السبيل الحضريّة التي [٤٧٢] تتمثل في توزيع الناس في فضاء مغلق، تُعيّن لكل واحد حصته وتنظّم التواصل بين الحصص. المسافة المترحلة تقوم بنقيض ذلك، توزّع الناس (أو المواشي) في فضاء مفتوح، غير محدّد، غير موصّل. انتهى الناموس إلى تعيين القانون، لكن لأنّه كان بالأصل توزيعا، صيغة توزيع. لكنّه توزيع خاصّ جدًا، دون قسمة، في فضاء لا حدود له ولا سياج. الناموس هو قوام مجموعة ضبايية: هو بهذا المعنى يتعارض مع القانون أو مع المدينة، كأنّه منطقة داخلية، منحدر جبل أو الامتداد المبهم حول مدينة («إمّا ناموس وإمّا مدينة»^(٢)). ثمة إذًا في المقام الثالث فرق كبير

(١) ويليام مونتغمري وات (W.M. Watt)، محمد في المدينة، منشورات بايو، ص ١٠٧، ٢٩٣.

(٢) أمانويل لاروش، تاريخ الجذر «فصل» في اليونان القديمة، منشورات كلنكسيك. يشير الجذر «فصل» إلى التوزيع وليس إلى القسمة، حتّى وإن كان الاثنان مترابطين. لكن بالفعل، في المعنى الرعوي، توزيع المواشي يتم في فضاء غير محدّد ولا يستتبع قسمة للأراضي: «مهنة الراعي في العهد الهوميروسي، لا علاقة لها بقسمة الأراضي؛ عندما مرّت المسألة الفلاحية إلى المقام الأوّل في العهد الصولوني، فإنّها يقع التعبير عنها في لغة مغايرة تماما. «الرعي (التوزيع) لا يحيل على القسمة وإنّما على توزيع المواشي هنا وهناك في

في الفضاء: الفضاء الحضريّ المخدّد بجدران، أسيجة وسبل بين الأسيجة، بينما الفضاء المترحلّ أملس، موسوم فقط بـ«ملاح» تمحي وتحول مع المسافة. حتّى رقائق الصّحراء ينزلق بعضها فوق بعضها الآخر محدثة صوتا لا يُحاكى. يتوزّع المترحلّ في فضاء أملس، إنّهُ يقيم، يقطن، يشغل الفضاء، وذلك هو مبدؤه الإقليميّ. كذلك من الخطأ تعريف المترحلّ بالحركة. توينبي محقّ تماما في إشارته إلى كون المترحلّ هو بالأحرى مَنْ لا يتحرّك. بينما يغادر المهاجر موضعا أصبح عديم الشّكل أو قاسيّا، يكون المترحلّ هو من لا يغادر، لا يريد المغادرة، يتعلّق بهذا الفضاء الأملس حيث تتراجع الغابة، حيث يتزايد امتداد الفيافي أو الصّحراء، وحيث يبتكر التّرحلّ كإجابة على هذا التّحدّي^(١). بطبيعة الحال، المترحلّ يتحرّك، لكنّه جالس، إنّهُ ليس جالسا أبدا إلّا عندما يتحرّك (البدويّ في الحَبَب، على ركبتيه في السّرج، جالسا على أخمص قدميه المستديرتين إلى الخلف، «جراة التّوازن»). يعرف المترحلّ كيف ينتظر، وله صبر لا يفنى. [٤٧٣]

سكون وسرعة، إغماء تخشبيّ وعجّلة، «سيرورة ثابتة»، هذا التوقّف بوصفه سيرورة، سمات كلايست هذه هي إلى أقصى حدّ سمات المترحلّ. يجب التّمييز كذلك بين السّرعة والحركة: يمكن للحركة أن تكون سريعة جدّا، لكنّها ليست سرعة لهذا السّبب؛ السّرعة يمكن أن تكون بطيئة جدّا أو حتّى ساكنة ومع ذلك هي سرعة. الحركة امتداديّة

المكان. إنّهُ انطلاقا من صولون فقط سيشير التّاموس إلى مبدأ القوانين والحقّ (القوانين والعدالة)، ثمّ سيتطابق مع القوانين ذاتها. قبل ذلك ثمة بالأحرى إمّية بين المدينة أو الدّولة التي تنظّمها القوانين، والأطراف بوصفها موضع التّاموس. إنّها إمّية شبيهة بتلك التي نجدها عند بن خلدون بين الحاضرة بوصفها مدنيّة والبادية بوصفها ناموسا (ما ليس مدينة بل ريفاً قُبْحُريّ، نَجْدًا، سباسب، جبلا أو صحراء).

(١) توينبي، التّاريخ، غاليمار، صص ١٦٥ - ٢١٠: «ينطلقون في السّباسب، ليس لاجتياز حدودها، إنّما للاستقرار فيها والإحساس بأنّهم في موطنهم.»

والسرعة اشتدادية. تشير الحركة إلى الخاصية النسبية لجسم يُنظر إليه بوصفه «واحدا» وهو يذهب من نقطة إلى أخرى؛ على النقيض من ذلك تكون السرعة الخاصية المطلقة لجسم تحتلّ أو تملأ أجزاءه التي لا تُختزل (الذرات) فضاء أملس على طريقة الدّوامة، مع إمكانية الانبثاق في أية نقطة كانت. (ليس من الغريب إذاً أنه أمكن الاستناد إلى سفرات روحانية كانت تتمّ دون حركة نسبية، إنّما في شدّد على عين المكان: إنّها تنتمي إلى التّرحّل). باختصار، سنقول بالمواضعة إنّ المترحّل دون سواه له حركة مطلقة، أي له سرعة؛ الحركة الدّوامية أو الدّورانية تنتمي ضرورة إلى مكتبها الحربية.

إنّه بهذا المعنى لا تكون للمترحّل نقاط، مسافات ولا أرض، مع أنّه له ذلك بكلّ تأكيد. إذا أمكن تسمية المترحّل لا متأرضنا بامتياز، فذلك تحديدا لأنّ إعادة التّأرضن لا تتمّ لاحقا كما عند المهاجر، ولا على شيء آخر كما عند الحضريّ (فعليّا، للحضريّ علاقة بالأرض موسوطة بشيء آخر، نظام ملكيّة، جهاز دولة...). على النقيض من ذلك، بالنسبة إلى المترحّل، اللّاتأرضن هو الذي يشكّل العلاقة بالأرض، بحيث أنّه يعيد التّأرضن على اللّاتأرضن ذاته. الأرض هي التي لا تؤرضن ذاتها بطريقة تجعل المترحّل يجد فيها إقليما. تكفّ الأرض عن كونها أرضا وتنحو إلى أن تصبح مجرد أرومة أو دعامة. الأرض لا تتأرضن في حركتها الشّاملة والنسبية، إنّما في مواضع محدّدة، هنالك بالتّحديد حيث تتراجع الغابة وحيث تتقدّم الفيّفاء والصّحراء. هوباك على حقّ في قوله إنّ التّرحّل لا يَنفسر بتقلّب كلّيّ للمناخات (الذي قد يحيل بالأحرى إلى هجرات) بقدر ما يَنفسر بـ«فيض مناخات محلّية»^(١). المترحّل كائن هنا، على الأرض، في كلّ مرّة

(١) راجع، بيار هوباك، المترحّلون، منشورات نهضة الكتاب، صص ٢٦ - ٢٩ (مع أنّ هوباك يميل إلى الخلط بين المترحّلين والمهاجرين).

يتكوّن فيها فضاء أملس يقضم وينزع إلى التّنامي في كلّ الاتجاهات. المترحّل يقطن هذه المواضع، يظلّ فيها ويجعلها هو ذاته تنامي بالمعنى الذي نلاحظ فيه أنّ المترحّل يصنع الصّحراء بقدر ما تصنعه. إنّّه موجّه لا تَأْرُضُن. إنّّه يضيف الصّحراء إلى الصّحراء، الفيفاء إلى الفيفاء، بسلسلة من العمليّات الموضعيّة التي لا يفتأ توجيهها ووجهتها [٤٧٤] يتغيّران^(١). صحراء الرّمال لا تحوي فقط واحات هي بمثابة نقاط قارّة، إنّما تحوي نباتات جذموريّة، مؤقّنة ومتحرّكة وفق أمطار محلّيّة تحدّد تحولات وجهة المسير^(٢). في نفس العبارات يقع وصف صحراء الرّمال وصحراء الثّلوج: لا خطّ فيها يفصل بين الأرض والسّماء؛ ليس ثمة مسافة وسيطة، ليس ثمة منظور ولا حافة، الرؤية محدودة؛ ومع ذلك ثمة طوبولوجيا دقيقة للغاية، لا تستند إلى نقاط أو موضوعات، إنّما إلى هذيات، إلى مجموعات علاقات (رياح، تموجات الثّلج أو الرّم، حروف الرّم أو انقصاص الجليد، كيفيّات لمسيّة للآثنين)؛ إنّّه فضاء ملموس أو بالأحرى «لمسيّ»، فضاء صائت أكثر ممّا هو بصريّ...^(٣) التّغيريّة، تعدّد الوجّهات هو خاصيّة أساسية

(١) يكتب جوزاي أمبرار بخصوص مترحليّ البحر أو الأربيل: «إنّهم لا يمسون مسارا بأكمله إنّما بكيفيّة مجزّأة، مقرّبين بانتظام مختلف المراحل المتتابعة، من موضع تخييم إلى موضع تخييم موزّعة بالتدرّج على الرّحلة. يقدّرون بالنسبة إلى كلّ واحدة من هذه المراحل مدّة المسير والتّغيّرات المتعاقبة التي تحدّد الوجّهات» (مترحّلو البحر، غاليمار، ص ٢٢٥).

(٢) ثسيجار (Thesiger)، صحراء الصّحاري، منشورات بلون، ص ١٥٥، ١٧١، ٢٢٥.

(٣) راجع الوصفين الرّائعين لصحراء الرّمال من قبل ويلفرد ثسيجار، وصحراء الجليد من قبل آدموند كاربونتار (أسكمو، تورنتو): الرياح والكيفيّات اللّمسيّة والصّائتة، الخاصيّة الثّانويّة للمعطيات البصريّة، وخاصّة عدم اكتراث المترحّلين بعلم الفلك بوصفه علما ملكيّاً، واكترائهم بعلم ثانويّ للمتغيّرات الكيفيّة ولاقتفاء الآثار.

للفضاءات الملساء من نوع الجذمور، وهو يحوّر خرائطيّتها. المترحلّ، الفضاء المترحلّ متموقع وليس محدّدًا. ما هو في نفس الوقت محدّد ومحدّد هو الفضاء المخدّد، الشّامل الخاصّ: إنّّه محدود في أجزائه التي ترتبط بها وجهات مستقرّة، موجّهة بعضها بالنّسبة إلى بعضها الآخر، قابلة للقسمة بواسطة حدود، ويمكن تركيبها معا؛ وما هو محدّد (نخوم أو سور ولم يعد حدًا)، هو هذه المجموعة التي «تحتوي» الفضاءات الملساء، التي تكبح تناميها أو تمنعه، والتي تقيّده أو تضعه خارجا. حتى عندما يخضع المترحلّ لتأثيرها، فإنّه لا ينتمي إلى هذا الشّامل الخاصّ حيث تنتقل من نقطة إلى أخرى، من منطقة إلى أخرى. إنّّه كائن بالأحرى في مطلق محليّ، في مطلق يبرز في المحليّ، وولادته في سلسلة العمليات الموضعيّة ذات الوجهات المتنوّعة: الصّحراء، الفيّفاء، الجليد، البحر.

إظهار المطلق في حيّز، أليست تلك خاصيّة عامّة جدّا للدين (مع احتمال أن نناقش لاحقا طبيعة الظّهور ومشروعيّة أو عدم مشروعيّة الصّور التي تستنسخه)؟ [٤٧٥] لكن الحيّز المقدّس للدين هو بالأساس مركز ينبذ النّاموس الغامض. مطلق الدّين هو بالأساس أفق يشمل، وإذا ظهر هو ذاته في حيّز، فمن أجل أن يحدّد للشّامل المركز الصّلب والثّابت. لاحظنا غالبا الدّور الشّامل للفضاءات الملساء، صحراء، فيّفاء أو محيط في الدّيانة التّوحيديّة. باختصار، الدّين يبدّل المطلق. بهذا المعنى، الدّين قطعة من جهاز الدّولة (وذلك في شكليّ «الرّباط» و«العهد أو الميثاق»)، حتى وإن كانت له القدرة الخاصة على رفع هذا النّمودج إلى الكلّيّ أو تكوين نفوذ مطلق. لكنّ المسألة تُطرح بشكل مغاير تماما بالنّسبة إلى المترحلّ: فعليّا، الحيّز ليس محدّدًا؛ المطلق لا يظهر إذا في الحيّز، لكنّه يختلط والحيّز غير المحدّد؛ تزاوج الاثنين، الحيّز والمطلق، لا يتمّ في تشميل أو في كلّينة متمركزين وموجّهين، إنّما في تتابع لا متناه للعمليات الموضعيّة. باقتصارنا على هذ التّعارض

بين وجهات النظر، نلاحظ أنّ المترحلّين لا يشكّلون حقلاً جيّداً للدين؛ ثمة دائماً عند رجل الحرب قدح في الكاهن أو في الإله. للمترحلّين «توحيد» مبهم، متسرّد بالمعنى الحرفيّ، ويكتفون بذلك مع النيران الجوّالة. ثمة عند المترحلّين إحساس بالمطلق، لكنّه إحساس ملحد بشكل ملفت. الأديان الخلاصيّة التي كانت على صلة بالمترحلّين- موسى، محمّد، وحتى المسيحيّة مع الهرطقة النسطوريّة- واجهت دائماً مشكلات بهذا الخصوص، وكانت اصطدمت بما كانت تسمّيه إلحاداً عنيداً. فعلياً، لم تكن هذه الأديان مفصولة عن توجيه صارم ودائم، عن دولة حقّ إمبراطوريّة، حتى في غياب دولة فعليّة وخاصّة في غياب دولة فعليّة؛ إنّها كانت تروّج لنموذج حضريّ، وكانت تتوجّه إلى مكّونات مهاجرة أكثر من توجّهها إلى مكّونات مترحلة. حتى الإسلام المبكّر يفضّل موضوع المهاجرة أو الهجرة بالنسبة إلى الترحّل؛ وقد جلب بالأحرى المترحلّين العرب أو البرابرة عن طريق بعض الانفصاليين (الخوارج)^(١).

غير أنّ مجرد تقابل بين وجهتين، دين- ترحّل، لا يستنفد المسألة. ذلك أنّ الدين التّوحيديّ في نزوعه الأعظم إلى تصميم دولة كليّة أو روحانيّة على كامل المسطح المأهول، ليس هو دون ازدواجيّة ودون أطراف، وهو يتخطّى حتى الحدود المثاليّة للدولة حتى وإن كانت دولة إمبراطوريّة، ليدخل في منطقة مبهمّة، في خارج الدّول حيث له إمكانيّة التحوّل، إمكانيّة تكيف خاصّة جدّاً. إنّ الدين باعتباره عنصراً في مكنة حرب، وفكرة الحرب المقدّسة بمثابة محرّك لهذه المكنة. ضدّ شخصية المَلِك بوصفها شخصيّة دولة [٤٧٦] وضدّ الشخصية الدّينيّة للكاهن، يرسم النبيّ الحركة التي يصبح بها الدّين مكنة حرب أو

(١) أميل فليكس غوتيه (E.F. Gautier)، ماضي شمال إفريقيا، منشورات بايو،

يتحالف بها مع مثل هذه المكنة. غالبا ما قيل إنّ الإسلام والنبيّ محمد كانا قاما بعملية تحويل الدين وكونا عصبية حقيقية: وفق عبارة جورج باطاي، «الإسلام الوليد هو مجتمع تحوّل إلى مشروع عسكري». ذلك هو ما يتذرّع به الغرب ليبرّر كرهه للإسلام. مع أنّ الحروب الصليبية تحمل مغامرة من هذا النوع، مغامرة مسيحية محضا. لكنّ الأنبياء حاولوا عبثا إدانة حياة الترحّل، مكنة الحرب الدنيّة حاولت عبثا تفضيل حركة الهجرة والمثّل الأعلى للاستقرار؛ الدّين بعامة حاول عبثا التعويض عن لا تأرضه المخصوص بإعادة أرضة روحانية وحتى جسدية، إعادة أرضة اتّخذت مع الحرب المقدّسة المظهر الموجّه جيّدا لغزو الأماكن المقدّسة بوصفها مركزا للعالم. بالرّغم من كلّ ذلك، عندما يتشكّل الدّين في مكنة حرب فإنّه يحشد ويحرّر شحنة عجيبة من التّرحّل أو من اللاتأرضن المطلق، إنّهُ يضاعف المهاجر بمترحّل يصحبه، أو بمترحّل ممكن يكون المهاجر في حالة الانتقال إليه، وفي الأخير يقلب حلّمه بدولة مطلقة ضدّ الصّورة- الدّولة^(١). ولا ينتمي هذا القلب إلى «ماهية» الدّين أقلّ من انتمائه إلى ذلك الحُلُم. تاريخ الحروب الصليبيّة تخترقه أغرب سلسلة من تغيير الوجهات: التّوجّه الرّاسخ إلى الأماكن المقدّسة بوصفها مركزا يجب بلوغه، يبدو في الغالب أنّه لم يعد إلّا ذريعة. لكن قد نخطئ إن نحن استندنا إلى لعبة الأطماع، أو العوامل الاقتصادية، التّجاريّة أو السّياسيّة التي قد تحوّل وجهة الحملة الصليبيّة عن طريقها المحض. إنّها بالتّحديد فكرة الحملة

(١) من زاوية النّظر هذه، التّحليل الذي قام به كلاستر للنّبوة الهنديّة يمكن تعميمه: «الرّعاء من جهة، والأنبياء من الجهة الأخرى وضدّهم. والمكنة النّبويّة قد تشتغل بشكل جيّد تماما، بما أنّ الكراثيين كانوا قادرين على جعل جماهير مذهلة من الهنود تتّبعهم. (...) فعل تمرّد الأنبياء ضدّ الرّعاء قد يمنحهم، بواسطة انقلاب مذهب للأشياء، سلطة أكبر لانهايتيا من تلك التي كان يملكها الرّعاء» (المجتمع ضدّ الدّولة، ص ١٨٥).

الصليبيّة هي التي تتضمّن في ذاتها تغيّريّة الوجهات هذه، الوجهات المنكسرة، المتغيّرة والتي تمتلك جوهرية كلّ هذه العوامل أو كلّ هذه المتغيّرات، مذ تجعل من الدّين مكنة حرب، وفي نفس الوقت، تستعمل التّرحّل المُناظر وتستشير^(١). حتى أنّه صحيح أنّ حتميّة [٤٧٧] التّمييز الأشدّ صرامة بين المقيمين، المهاجرين والمترحّلين لا تمنع الاختلاطات الواقعيّة؛ على النقيض من ذلك، إنّها تجعلها أكثر حتميّة من ناحيتها. ولا يمكن النّظر في المسار العامّ للتّحضير الذي تغلب على المترحّلين دون النّظر كذلك في نسمات التّرحّل الموضوعيّة التي تجرف الحضريين وتضاعف المهاجرين (لصالح الدّين خاصّة).

الفضاء الأملس أو المترحّل قائم بين فضاءين مخدّدين: فضاء الزّراعة مع متعامدات ثقافته، فضاء الزّراعة مع استرباعه ومتوازياته المعمّمة، تشجّره الذي أصبح مستقلّا، فنه في اقتلاع الشّجرة والخشب من الغابة. لكنّ «بين» تعني كذلك أنّ الفضاء الأملس مراقب من هذين الجانبين اللّذين يحدّانه، اللّذين يواجهان تطوّره ويعيّنان له قدر الإمكان دور تواصل، أو أن ينقلب على النقيض من ذلك ضدّهما، قاضما الغابة

(١) واحد من المباحث الأهمّ في الكتاب الكلاسيكيّ لبول ألفندري (Paul Alphandéry)، المسيحيّة وفكرة الحملة الصليبيّة (منشورات ألبان ميشال)، هو مبحث يبيّن كيف أنّ تغييرات المسار، التوقّفات وتحويّلات الوجهة هي بالتّمام جزء من الحملة الصليبيّة: «... هذا الجيش من المحاربين الصليبيين الذي نحييه بوصفه جيشا حديثا للويس الرابع عشر أو لنابليون، جيشا يمشي بخضوع مطلق تبعاً لإرادة قائد أو لحكومة ديبلوماسية. مثل هذا الجيش يعرف وجهته، وعندما يخطئ فإنّه يفعل ذلك عن دراية. تاريخ أشدّ اهتماماً بالفروق يقبل صورة أخرى، أكثر واقعيّة عن الجيش الصليبيّ. الجيش الصليبيّ جيش حيّ بحريّة بل وأحياناً بفوضويّة. (...). هذا الجيش متحرّك من الدّاخل بانسجام معقّد، يجعل لا شيء ممّا يحدث قد يحدث صدفة. من المؤكّد أنّ غزو القسطنطينيّة كان له سببه، حتميّة، خاصيّة الدّينيّة، مثل بقية وقائع الحروب الصليبيّة» (الجزء الثاني، ص ٧٦). يبيّن ألفندري بشكل خاص أنّ فكرة محاربة الكافر في نقطة ما، ظهرت مبكّراً إلى جانب فكرة تحرير الأرض المقدّسة (الجزء الأوّل، ص ٢١٩).

من جهة، مكتسحا الأراضي المزروعة من ناحية أخرى، مؤكّدا قوّة غير اتّصاليّة أو قوّة انزياح، مثل «وتّد» يغوص في الأرض. يرتدّ المترحلون أولا ضدّ سكّان الغابات والجبال، ثمّ ينقضّون على المزارعين. ثمة ههنا ما يشبه عكس صورة الدّولة أو خارجها- لكن بأيّ معنى؟ هذه الصّورة بوصفها فضاء شاملا ونسيبًا تستتبع عددا معيّنًا من المكوّنات: الغابة- الاستصلاح؛ الزّراعة- الاسترباع؛ تربية ماشية تابعة للعمل الزراعيّ وللتّغذية الحضريّة؛ مجموعة اتّصالات مدينة- ريف (مدينة- ناموس) في أساس التّجارة. عندما يتساءل المؤرّخون حول أسباب انتصار الغرب ضدّ الشرق، فإنّهم يستحضرون أساسيًا الخصائص التّالية التي ليست في صالح الشرق بشكل عامّ: إزالة الغابات بدل الاستصلاح، وهو ما تنتج عنه صعوبات كبرى لاستخراج الخشب أو حتى للحصول عليه؛ زراعة من نوع «مرزّة وحديقة» بدلا من التّشجّر والحقل؛ تربية ماشية تفلت في جزء كبير منها من مراقبة الحضريّين، بحيث أنّهم يكونون في عوز للقوّة الحيوانيّة وللغذاء اللّحميّ؛ درجة ضعيفة من التّواصل مدينة- ريف، تنتج عنها [٤٧٨] تجارة أقلّ مرونة بكثير^(١). الأكّد أنّنا لن نستنتج من ذلك أنّ الصّورة- الدّولة غائبة في الشرق. على النّقيض من ذلك، لا بدّ من هيئة أشدّ صلابة تتحكّم

(١) أوحى هذا التّقابل شرق- غرب منذ القرون الوسطى (مرتبط بسؤال: لِمَ الرّأسماليّة في الغرب بدلا من مكان آخر؟) بتحليلات رائعة للمؤرخين الحديثين. راجع خاصّة فرنان برودال، الحضارة المائيّة والرّأسماليّة، منشورات أرمون كولان، صص ١٠٨-١٢١؛ بيار شوني، التّوسّع الأوروبي من القرن الثّالث عشر إلى القرن الخامس عشر، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٣٣٤-٣٣٩ «لِمَ أوروبا؟ لِمَ لا الصّين؟»؛ موريس لومبار، فضاءات وشبكات القرون الوسطى، منشورات موتون، الفصل السّابع (وص ٢١٩: «ما يُسمّى قطع الأشجار في الشرق يسمّى استصلاحا في الغرب؛ السّبب العميق الأوّل لتحوّل مراكز المهيمنين من الشرق إلى الغرب هو بالتّالي سبب جغرافيّ، الغابة- الفسحة كشفت عن إمكان أقوى من الصّحراء- الواحة»).

بمختلف المكوّنات وتوحد بينها، المكوّنات التي عرّكتها موجّهات إفلات. للدّول دائما نفس التركيبة؛ حتّى إذا كانت ثمة حقيقة في فلسفة هيغل السّياسيّة، فهي كون «كلّ دولة تحمل في داخلها اللّحظات الأساسيّة لوجودها». الدّول ليست متكوّنة من البشّر وحسب، بل من الخشب والحقول أو البساتين ومن المواشي والبضائع. ثمة وحدة تكوين لكلّ الدّول، لكنّ الدّول ليس لها لا نفس التطوّر ولا نفس التنظيم. المكوّنات في الشّرق أكثر تمرّقا وتفكّكا، ممّا يستوجب صورة كبرى ثابتة لجعلها متماسكة: «التّشكّلات الاستبداديّة» الآسيويّة أو الإفريقيّة ستزعزعها انتفاضات مستمرّة، حروب أهليّة، تغييرات السّلالات الحاكمة، لكنّها لا تؤثر على ثبات الصّورة. على التّقيض من ذلك، تشابك المكوّنات يتيح في الغرب تغييرات للصّورة- الدّولة من خلال الثّورات. صحيح أنّ فكرة الثّورة هي ذاتها ملتبسة؛ إنّها غربيّة بقدر ما تحيل على تغيير الدّولة؛ لكنّها شرقيّة بقدر ما ترمي إلى تدمير الدولة وإلغائها^(١). ذلك أنّ الإمبراطوريّات الكبرى في الشّرق، في

(١) ملاحظات ماركس حول التّشكّلات الاستبداديّة في آسيا أكّدتها التّحليلات الإفريقيّة لغلوكسمان (العادات والصّراعات في إفريقيا، أكسفورد): في نفس الوقت ثبات صوريّ وانتفاضات مستمرّة. تبدو فكرة «تغيير» الدّولة فكرة غربيّة. يبقى أنّ الفكرة الأخرى، فكرة «تدمير» الدّولة تحيل أكثر بكثير إلى الشّرق وإلى ظروف مكنة حرب مترحلة. عبثا وقع تقديم الفكرتين بوصفهما مرحلتين متعاقبتين للثّورة، إنّهما مختلفتان للغاية ولا تنسجمان جيّدا، إنّهما تلخّصان تقابل التّيارين الاشتراكيّ والأناركيّ في القرن التّاسع عشر. البروليتاريا الغربيّة ذاتها وقع النّظر إليها من زاويتين: من حيث أنّه عليها أن تستحوذ على الحكم وتغيّر جهاز الدّولة، تلك وجهة نظر قوّة عمل، لكن من حيث أنّها تريد أو قد تريد تدمير الدّولة، فمن وجهة نظر قوّة ترخّل. حتّى ماركس يعرف البروليتاريا، ليس فقط بوصفها مغتربة (العمل)، إنّما بوصفها لا متأرضنة. يبدو البروليتاريّ وفق هذا المظهر الأخير، بوصفه وريث المترخّل في العالم الغربيّ. وليس الكثير من الفوضويين هم وحدهم الذين يستحضرون موضوعات ترخّلية متأّتية من الشّرق، لكنّ بورجوازيّ القرن التّاسع عشر يطابقون عمدا بين البروليتاريين والمترخّلين،

إفريقيا وفي أميركا [٤٧٩] تصطدم بفضاءات ملساء شاسعة تخترقها وتحافظ على فجوات بين مكوثاتها (النّاموس لا يصبح ريفا، الرّيف لا يتواصل مع المدينة، التربية الواسعة للماشية هي شأن المترحلين، إلخ.). ثمة مواجهة مباشرة بين دولة الشرق ومكنة حرب مترحلة. ستمكّن مكنة الحرب هذه من الارتداد إلى طريق الاندماج والعمل فقط بواسطة الانتفاضات وتغيير السّلالة الحاكمة؛ ومع ذلك هي التي تبتكر الحلم والواقع الإلغائيين، من حيث أنّها مترحلة. دول الغرب التي هي أكثر أمانا في فضاءها المخدّد، لها حينئذ حريّة أكبر للتّحكّم بمكوثاتها وعدم مواجهة المترحلين إلّا بشكل غير مباشر، بواسطة هجرات يطلقها هؤلاء أو يظهرون بمظهرها^(١).

واحدة من المهمّات الأساسيّة للدّولة هي تحديد الفضاء الذي تسوسه، أو استخدام فضاءات ملساء استخدمها لوسيلة تواصل لصالح فضاء مخدّد. ليس التّغلّب على التّرحّل وحسب، إنّما مراقبة الهجرات، وبشكل أعمّ بسط منطقة حقوق على «خارج» بأكمله، على جملة الاندفاعات التي تجتاز المسطّح المأهول، ذلك شأن حيويّ بالنّسبة إلى كلّ دولة. لا تنفصل الدّولة- في كلّ مكان تقدر فيه على ذلك- عن مسار احتجاج لكلّ أنواع الاندفاعات والسّكان والبضائع أو التّجارة، المال أو الرّاسمِل، إلخ. يجب أن تكون ثمة كذلك مسافات ثابتة ذات وجهات محدّدة جيّدا، تحدّد من السّرعة، تنظّم التّنقّلات، تنسّب الحركة، تقيس الحركات النّسبية للذّوات والموضوعات في أدقّ تفاصيلها. من هنا أهميّة أطروحة بول فريليو عندما يبيّن أنّ «السّلطة

ويشبهون باريس بمدينة يسكنها المترحلون (راجع، لويس شوفالييه، طبقات كادحة وطبقات خطيرة، منشورات غارنييه فلاماريون، صص ٦٠٢-٦٠٤).

(١) راجع، لوسيان ميساي، الاجتياحات، الغارة الثّانية، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة: على سبيل المثال تحليل «المراحل» الثّلاث للذّماركيين، صص ١٣٥-١٣٧.

السَّياسِيَّة لِلدَّولة هي بوليس، قوى أمنيَّة، أي شبكة طرقات»، وأنَّ «أبواب المدينة، مكوسها وجماركها هي حواجز، مصفّيات لسيولة الحشود، لقدرة جماعات مهاجرة على الاختراق»، أشخاصا ودواب وممتلكات^(١). ماهية الدَّولة هي الجاذبيَّة، الثَّقالَة. ذلك لا يعني إطلاقا [٤٨٠] أنَّ الدَّولة تتجاهل السَّرعَة؛ لكنَّها في حاجة إلى أن تتوقَّف حتَّى الحركة الأسرع عن كونها الحالة المطلقة لمتحرِّك يحتلّ فضاء أملس، لتصبح الخاصِّيَّة النَّسيبيَّة لـ«متحرِّك» يذهب من نقطة إلى أخرى في فضاء مخدَّد. بهذا المعنى لا تتوقَّف الدَّولة عن تفكيك الحركة، عن إعادة تركيبها وتغييرها، أو عن تعديل السَّرعَة. الدَّولة بوصفها مراقب طرقات، محوِّلا أو مبادِلا طُرُقَيَّا: وظيفة المهندس بهذا الخصوص. السَّرعَة أو الحركة المطلقتان ليستا دون قوانين، لكنَّ هذه القوانين هي قوانين الناموس، قوانين الفضاء الأملس الذي يبسطه، قوانين مكنة الحرب التي تعمِّره. إذا كان المترحِّلون كوَّنوا مكنة الحرب، فذلك بابتكارهم السَّرعَة المطلقة من حيث هي «مرادفة» للسَّرعَة. وفي كلِّ مرَّة تكون فيها ثَمَّة عمليَّة ضدَّ الدَّولة، يكون فيها عدم انضباط، أعمال شغب، حرب عصابات أو ثورة بوصفها فعلا، قد نقول إنَّ مكنة حرب تنبعث، يظهر إمكان ترحُّليَّ جديد، مع إعادة تكوين لفضاء أملس أو لأسلوب كيان في الفضاء وكأنَّه كان أملس (يذكر فريليو بأهمِّيَّة مبحث

(١) بول فريليو، سرعة وسياسة، منشورات غاليليه، صص ٢١-٢٢ وفي مواضع متفرِّقة. ليس فقط أنَّ الـ«مدينة» لا يمكن التفكير فيها بمعزل عن الاندفاعات الخارجيّة التي هي في علاقة وثيقة بها، وهي التي تنظِّم سيرها، لكن كذلك بمعزل عن المجموعات العمرانيَّة المحدَّدة-الحصن على سبيل المثال- التي هي محوِّلات حقيقيَّة، بفضل فضاءاتها الداخليَّة التي تمكِّن من تحليل وتمديد الحركة أو استعادتها. يستنتج فريليو من ذلك كون المشكل ليس هو مشكل الحجز بقدر ما هو مشكل شبكة الطرقات أو الحركة المراقَبة. فوكو كان قام من قَبْل بتحليل للمستشفى البحريِّ بوصفه مؤثِّرا ومصفاة: راجع المراقبة والمعاقبة، صص ١٤٥-١٤٧.

إثارة الشَّغب أو الثورة «احتلال الشَّارع». بهذا المعنى يكون ردُّ الدَّولة بتخديد الفضاء ضدَّ كلِّ ما يوشك أن يغمره. الدَّولة لم تستول على مكنة الحرب ذاتها دون أن تعطيها صورة الحركة النَّسيبيَّة: هكذا هي الحال مع نموذج الحصن بوصفه معدَّل الحركة النَّسيبيَّة، والذي كان تحديدا عائقا أمام المترحِّلين، العقبة والمصدِّ الذي كانت تنكسر عليه الحركة الدَّواميَّة المطلقة. عكسيًا، عندما لا تصل دولة إلى تخديد فضائها الدَّاخليِّ أو المجاور فإنَّ الاندفاعات التي تخترقها تتخذ حتما هيئة مكنة حرب موجَّهة ضدها، منبسطة في فضاء أملس معادٍ أو متمرد (حتَّى وإن أمكن لدول أخرى أن تدرس فيه تخديداتها). لقد كانت تلك مغامرة الصَّين التي تخلَّت عن فضائها البحريِّ الشَّاسع حوالي نهاية القرن الرَّابع عشر، وبالرَّغم من تقنيَّتها الفائقة جدًّا في السَّفن والملاحة، ترى بالتَّالي التَّدفَّقات التَّجاريَّة تنقلب ضدها وتتحالف مع القراصنة، ولا تستطيع ردَّ الفعل إلَّا بسياسة الجمود، بتقليص هائل للتَّجارة، يعزِّز علاقة هذه الأخيرة بمكنة الحرب^(١).

الوضعيَّة مربكة أكثر بكثير ممَّا نقول. لعلَّ البحر هو الفضاء الأملس الرَّئيسي من بين كلِّ الفضاءات، التَّمودج [٤٨١] الهيدروليكيِّ بامتياز. لكنَّ البحر هو أيضًا من بين كلِّ الفضاءات الملساء، الفضاء الذي نبحت عن تخديده في أقرب وقت، عن تغييره في تبعيَّة للأرض، مع سُبل ثابتة، وِجْهات مستقرَّة، حركات نسبيَّة، هيدروليكيَّة مضادَّة للقنوات أو المسالك. واحد من أسباب هيمنة الغرب هو القدرة التي امتلكتها أجهزة دولته على تخديد البحر بالمزاوجة بين تقنيات الشَّمال وتقنيات البحر الأبيض المتوسَّط، مع ضمِّه المحيط الأطلسيِّ. لكن ها

(١) حول الملاحة الصَّينيَّة والعربيَّة وأسباب فشلها، وأهميَّة هذه المسألة في «ملفَّ» الغرب- الشَّرق، راجع برودال، صص ٣٠٥-٣١٤، وشوني، صص ٢٨٨-٣٠٨.

هو هذا المسعى يصل إلى النتيجة غير المنتظرة أكثر من غيرها: تضاعف الحركات النسبية، تكثيف السرعات النسبية في الفضاء المخدّد ينتهي إلى إعادة تكوين فضاء أملس أو حركة مطلقة. مثلما يؤكّد على ذلك فريليو، سيكون البحر هو موضع أسطول الردّ، حيث لم نعد نذهب من نقطة إلى أخرى، إنّما نمسك بالفضاء كلّ انطلاقا من نقطة ما: بدلا من تحديد الفضاء، نشغله بموجّه لا تأرّضن في حركة دائبة. ومن البحر سترسل هذه الاستراتيجية الحديثة إلى الهواء بوصفه فضاء أملس جديدا، لكن كذلك إلى كامل الأرض منظورا إليها بوصفها صحراء أو بوصفها بحرا. محوّلّة وآسرة، الدّولة لا تنسب الحركة وحسب، إنّها تعطي الحركة المطلقة من جديد. إنّها لا تذهب من الأملس إلى المخدّد وحسب، إنّها تعيد تكوين الفضاء الأملس، إنّها تعطي الأملس من جديد في نهاية المخدّد. صحيح أنّ هذا التّرحّل الجديد يصاحب مكنة حرب عالميّة يتخطّى تنظيمها أجهزة الدّولة، ويمرّ في مرّكبات طاقية، عسكريّة-صناعيّة، متعدّدة الجنسيّات. ذلك من أجل التّذكير بأنّ الفضاء الأملس وصورة البرائيّة ليس لهما جنوح ثوريّ لا يُقاوم، لكنّهما على التّقيض من ذلك يغيّران وجهتهما بكيفيّة خاصّة وفق التّفاعلات التي هما مأخوذان فيها والظّروف العينيّة لممارستهما أو لإنشائهما (على سبيل المثال الطّريقة التي تستعير بها الحرب الشّاملة أو الحرب الشّعبيّة، أو حتّى حرب العصابات طرائقهما^(١)).

(١) يعرف فريليو بكيفيّة جيّدة جدّا أسطول الردّ وتوابعه التّاريخيّة: «أسطول الردّ هو الحضور الدّائم في البحر لأسطول حربيّ غير مرئيّ يمكنه ضرب العدو في أيّ مكان وفي أيّ وقت (...). إنّها فكرة جديدة للعنف لم تعد تصدر عن المواجهة المباشرة وإنّما عن الخصائص غير المتساوية للأجسام، عن تقدير كمّيّات الحركات المسموح بها لها في عنصر وقع اختياره، عن التّثبت الدّائم من فاعليّتها الدّيناميّة. (...) لم يعد الأمر يتعلّق بعبور قارّة، محيط، بالعبور من مدينة إلى أخرى، من ضفّة إلى أخرى، يبتكر أسطول الردّ مصطلح تنقّل قد يكون دون

[٤٨٢] القضية السادسة: الوجود المترحل يستتبع بالضرورة العناصر العددية لمكنة حرب.

عشرات، مئات، آلاف، أعداد لا تحصى: ستحتفظ كلّ الجيوش بهذه المجموعات العشرية، إلى حدّ أنّه في كلّ مرّة تعترضنا هذه المجموعات، يمكننا الحكم مسبقاً على أنّ الأمر يتعلق بتنظيم عسكريّ. أليست تلك هي الكيفيّة التي لا يؤرّضن بها الجيش جنوده؟ الجيش مكوّن من وحدات، من سرايا ومن فرق. يمكن للأعداد أن تغيّر وظيفتها، تركيبها، أن تدخل في استراتيجيّات مختلفة تماماً، ثمّة دائماً رابطة العدد هذه مع مكنة حرب. ليست المسألة مسألة كمّ بل مسألة تنظيم أو تركيب. الدّولة لا تُكوّن جيوشاً دون أن تستخدم مبدأ التنظيم

وجهة في المكان والزّمان. (...) الغوّاصة الاستراتيجية ليست في حاجة للتّوجّه إلى أيّ مكان، إنّها تكتفي في إبحارها ببقائها غير مرئيّة (...). تحقيق رحلة دائريّة مطلقة، متواصلة، بما أنّها قد لا تقتضي لا انطلاقا ولا وصولاً. (...) إذا كانت الاستراتيجية مثلما كان يزعم ذلك لينين هي اختيار نقاط تطبيق للقوى، فنحن مجبرون اليوم على اعتبار أنّ هذه النّقاط لم تعد نقاط ارتكاز جيوسراتيجية، بما أنّه انطلاقا من نقطة أيّا كانت يمكننا أن ننتظر منها منذ الآن نقطة أخرى في أيّ موضع كان. (...) يبدو أنّ الموضّعة الجغرافيّة فقدت نهائيّاً قيمتها الاستراتيجية، وعكسيّاً، وقع إسناد هذه القيمة إلى نقل الموجه، موجهها متحرّكا حركة دائمة. «السّرعة والسياسة، ص ٤٦-٤٩، ١٣٢-١٣٣). تُمثّل نصوص فريليو بهذا الخصوص أهميّة كبرى وجِدّة. النّقطة الوحيدة التي تشكّل بالنّسبة إلينا صعوبة هي مماثلة فريليو بين ثلاث مجموعات سرعة تبدو لنا مختلفة جدّاً: (١) السّرعات ذات النّزوع التّرحليّ أو ذات النّزوع الثّوريّ (أعمال الشّغب، حرب العصابات)؛ (٢) السّرعات المنتظمة، المحوّلّة، التي استولى عليها جهاز الدّولة (شبكة الطّرق)؛ (٣) السّرعات التي استرجعها تنظيم عالميّ للحرب الشّاملة، أو سرعات تسلّح مفرط يعمّ كامل المعمورة (من أسطول الرّدع إلى الاستراتيجية التّويّة). يميل فريليو إلى المماثلة بين هذه المجموعات بحكم تفاعلاتها، ويشجب بشكل عامّ خاصيّة «فاشستيّة» للسّرعة. ومع ذلك، تحليلاته هو هي التي تتيح كذلك هذه التّمييزات.

العدديّ هذا، لكنّها لا تقوم إلّا باستعادة هذا المبدأ في نفس الوقت الذي تستولي فيه على مكنة الحرب. ذلك أنّ فكرة بمثل هذه الغرابة- التّنظيم العدديّ للنّاس- تنتمي أوّلا إلى المترخّلين. إنّهيم الهكسوس، المترخّلون الغزاة هم الذين حملوها إلى مصر؛ وعندما طبّقها موسى على شعبه في الخروج، فذلك استجابة لنصيحة حميه المترخّل يثرون كاهن مدين، وبطريقة تُمكن من تكوين مكنة حرب، مثلما يصف سفر العدد عناصرها. النّاموس عدديّ، أرثميّتيّ أوّلا. عندما نعارض النزعة الهندسيّة اليونانيّة بنزعة أرثميّتيّة هنديّة- عربيّة، نلاحظ جيّدا أنّ هذه النزعة الأخيرة تستتبع ناموسا معارضا للّوغوس: ليس لأنّ المترخّلين «عملوا» الأرثميّقا أو الجبر بل لأنّ الأرثميّقا والجبر ينبثقان في عالم ذي درجة ترخّليّة عالية.

نعرف إلى حدّ الآن ثلاثة أنماط من تنظيم النّاس: سلاليّ، إقليميّ، عدديّ. التّنظيم السّلاليّ هو التّنظيم الذي يُمْكِن من تحديد المجتمعات المسمّاة [٤٨٣] مجتمعات بدائيّة. السّلالات العشائريّة هي بالأساس أقسومات بالفعل تتأسّس أو تنقسم، وهي متغيّرة وفق السّلف المعنيّ، وفق المهامّ والظّروف. والأكّد أنّ العدد يقوم بدور كبير في تحديد السّلالة أو في خلق سلالات جديدة. الأرض كذلك، بما أنّ أقسوميّة قَبليّة تُضاعف الأقسوميّة العشائريّة. لكنّ الأرض هي قبل كلّ شيء المادّة التي تُدوّن فيها ديناميّة السّلالات، والعدد هو سيلة التدوين: إنّها السّلالات التي تكتب على الأرض وبواسطة العدد تكوّن ضربا من «الجيوديسيا». كلّ شيء يتغيّر مع المجتمعات التي لها دولة: غالبا ما نقول إنّ المبدأ الإقليميّ أصبح مهيمنا. قد نتمكّن كذلك من الحديث عن اللّاتأرضيّ، بما أنّ الأرض أصبحت موضوعا بدلا من أن تكون العنصر المادّيّ الفاعل الذي يتوحد مع السّلالة. المِلْكِيّة هي بالتّحديد العلاقة اللّامتأرضيّة للإنسان مع الأرض: إمّا لأنّ المِلْكِيّة تمثّل ملك الدّولة الذي يتراكم مع الحياة المستمرّة لجماعة سلاليّة،

إمّا لأنّها تصبح هي ذاتها ملك أناس خاصّين يشكّلون الجماعة الجديدة. في الحالتيّن (وفق قطبيّ الدولة)، ثمة ما يشبه التّقنين التّصافريّ للأرض يحلّ محلّ الجيوديسيا. الأكّد أنّ السّلالات تحافظ على أهميّة كبرى، والأعداد تطوّر أهمّيّتها. لكن ما يمرّ إلى الواجهة هو تنظيم «إقليميّ»، بالمعنى الذي تكون فيه كلّ أقسومات السّلالة، أقسومات الأرض والعدد، مأخوذة في فضاء فلكيّ أو في امتداد هندسيّ يقنّنها تقنيّنا تصافريّا. من الأكيد أنّ ذلك لا يتمّ بنفس الطّريقة في الدّولة الإمبراطوريّة العتيقة وفي الدّول الحديثة. ذلك أنّ الدّولة العتيقة تحيط بفضاء له قمّة، فضاء منفردا، في العمق وفي السّطوح، بينما تُطوّر الدّول الحديثة (انطلاقا من المدينة اليونانيّة) امتدادا متجانسا في مركز محايث، امتدادا ذا أجزاء متماثلة قابلة للانقسام، ذا علاقات متناظرة وقابلة للانعكاس. وليس النّمودجان، الفلكيّ والهندسيّ هما اللّذان يختلطان اختلاطا عميقا وحسب؛ لكن حتّى إذا افترضنا أنّهما ذمودجان مَحْضان، فإنّ كلّ واحد منهما يستتبع تبعيّة السّلالات والأعداد لهذه القدة المِترية مثلما تظهر إمّا في الفضاء الإمبراطوريّ وإمّا في الامتداد السّياسي^(١). الأرثمتيقا والعدد [٤٨٣] لهما دائما دور حاسم في جهاز الدّولة: كان ذلك بالفعل في البيروقراطيّة الإمبراطوريّة بعمليّاتها الثّلاث المتزاوجة بين التّعداد السّكانيّ، الضّريبة والاقتراع.

(١) جان بيار فرنان خاصّة حلّل الرّابطة بين المدينة اليونانيّة والامتداد الهندسيّ المتجانس (المبنيّة والفكر عند اليونانيّين، I، الجزء الثّالث). المشكل أشدّ تعقيدا ضرورة بالنّسبة إلى الإمبراطوريّات العتيقة، أو بالنّسبة إلى التّشكيلات اللاحقة للمدينة الكلاسيكيّة. ذلك أنّ الفضاء مختلف جدّا فيهما. لكن العدد ليس أقلّ تبعيّة لفضاء ما، مثلما يرثي فرنان ذلك بخصوص المدينة الأفلاطونيّة المثاليّة. تشمل التّصوّرات الفيثاغوريّة أو الأفلاطونيّة المحدثة للعدد، فضاءات فلكيّة إمبراطوريّة من نمط مغاير للامتداد المتجانس، لكنّها تحافظ على تبعيّة العدد: لذلك يمكن أن تكون الأعداد مثاليّة لكنّها ليست «عادّة» بالمعنى الحرفيّ.

ناهيك أن أشكال الدولة الحديثة لم تتطور من دون استعمال كل الحسابات التي كانت تنبثق على الحد بين علم الرياضيات والتقنية الاجتماعية (حساب اجتماعي بكامله في أساس الاقتصاد السياسي، الديموغرافيا، تنظيم العمل، إلخ). وجد هذا العنصر الأرسثيقي للدولة سلطته المخصوصة في معالجة موادًا أيًا كانت: مواد أولية، مواد ثانية لموضوعات مصنوعة، أو المادة النهائية التي كونها السكان الآدميون. لكن العدد استُخدم دائمًا على هذا النحو للسيطرة على المادة، لمراقبة تغيراتها وحركاتها، أي لإخضاعها للإطار المكاني-الزمني للدولة، - إما فضاء إمبراطوري وإما امتداد حديث^(١). للدولة مبدأ إقليمي أو مبدأ لا تأرضن يربط العدد بأعظام مترية (اعتباراً للمتريات متزايدة التعقيد التي تُجري التقنين التضافري). نحن لا نعتقد أنه أمكن للعدد أن يجد هنا شروط استقلاليته أو قيامه بذاته، مع أنه وجد فيها كل عوامل تطوره.

العدد العادّ، أي التنظيم الأرسثيقي القائم بذاته، لا يستتبع لا درجة تجريد عالية ولا كمّيات كبيرة جدًا. إنه يحيل فقط على شروط إمكان هي الترحّل، وعلى شروط تحقّق هي مكنة الحرب. سيُطرح مشكل معالجة الكمّيات الكبرى في جيوش الدولة، في علاقة بمواد أخرى، لكنّ مكنة الحرب تعمل مع كمّيات صغيرة تتعاطى معها بأعداد عادة. فعليًا، تظهر هذه الأعداد مذ يقع توزيع شيء ما في الفضاء، بدلا من تقسيم الفضاء أو توزيعه هو ذاته. يصبح العدد موضوعا. استقلالية العدد بالنسبة إلى الفضاء لا تتأتّى من التجريد إنّما من الطبيعة العينية

(١) يلخّ دوميزيل على دور العنصر الأرسثيقي في أقدم أشكال السيادة السياسية. إنه يميل حتى إلى أن يجعل نه قطبا ثالثا للسيادة؛ راجع سرفيوس والثروة، غاليمار، والعاقل الثالث، منشورات مايزوناف. غير أن هذا العنصر الأرسثيقي له بالأحرى دور تنظيم مادة، وبوصفه كذلك، يُخضع المادة لهذا أو ذاك من القطبين الأساسيين.

للفضاء الأملس العامر هو ذاته دون أن يكون محسوباً. لم يعد العدد وسيلة حساب ولا وسيلة قياس إنما هو وسيلة تحويل: إنه هو ذاته ما ينتقل في الفضاء الأملس. دون شك [٤٨٥] للفضاء الأملس هندسته؛ لكن مثلما رأينا ذلك، هي هندسة ثانوية، إجرائية، هندسة الخط. بشكل محدّد، العدد أكثر استقلالية إزاء الفضاء بقدر استقلال الفضاء عن المترية. الهندسة بوصفها علماً ملكياً لا أهمية كبرى لها في مكنة الحرب (لا أهمية لها إلا في جيوش الدولة ومن أجل التحصينات الحضرية، لكنها تقود الجنرالات إلى هزائم قاسية^(١)). يصبح العدد مبدأ في كلّ مرة يحتلّ فيها فضاء أملس وينبسط فيه بوصفه موضوعاً بدلاً من قياس فضاء محدّد. العدد هو الشاغل المتحرّك، الأثاث في الفضاء الأملس، في تقابل مع هندسة العمارة في فضاء محدّد. الوحدة العددية المترحلة هي النّار الجوّالة، ليست الخيمة التي ما تزال عقارية للغاية: «تنتصر النّار على الخيمة.» لم يعد العدد العادّ تابعا لتحديدات مترية أو لأبعاد هندسية، إنه في علاقة ديناميّة بالوجهات الجغرافية وحسب: إنه عدد اتّجاهيّ وليس بُعدياً أو مترياً. التّنظيم التّرحليّ أرثميتيّ واتّجاهيّ بشكل لا ينقسم؛ الكمّ، العشرات، المئات في كلّ مكان، الوجهة، اليمين، اليسار في كلّ مكان: القائد العدديّ هو كذلك قائد اليمين أو اليسار^(٢). العدد العادّ إيقاعيّ وليس تناغميّاً. إنه ليس عدد وتيرة أو مقياس: فقط في جيوش الدولة، ومن أجل الانضباط والاستعراض يكون المشي نمطيّاً؛ لكنّ التّنظيم العدديّ القائم بذاته

(١) يلخّ كلاوزفيتز (Clausewitz) على الدّور الثّانويّ للهندسة في التّكتيك وفي الاستراتيجية: في الحرب، منشورات مينوي، صص ٢٢٥-٢٢٦ («العنصر الهندسي»).

(٢) راجع أحد التّصوص الأعمق التي تربط بين العدد والوجهة في مكنة الحرب، المذكرات التاريخيّة لسيمّا- تسيان (Sema-Ts'ien)، منشورات لورو، الفصل ١١٠ (حول التّنظيم المترحلّ للهيونغ-نو (Hiong-nou)).

يجد معناه في مكان آخر، في كلّ مرّة تجب فيها إقامة نظام تنقل في الفيفاء، في الصّحراء، - هناك حيث تفقد السّلالات الغايّة وأشكال الدّولة تلاؤمها. «إنّه كان يتقدّم وفق إيقاع منكسر كان يحاكي الأصداء الطّبيعيّة للصّحراء، مخادعا من كان يترصد الأصوات الإنسانيّة المنتظمة. مثل كلّ الأحرار، لقد كان شبّ في فنّ هذه المشية. لقد كان كيّفه هذا الفنّ حدّا أنّه لم يعد في حاجة للتّفكير فيه، وكانت رجلاه تبدوان تتحرّكان من تلقاء ذاتهما وفق إيقاعات لا تقبل القيس^(١)». مع مكنة الحرب وفي الوجود المترحل، يتوقّف العدد عن كونه معدودا ليصبح [٤٨٦] شفرة، وبصفته هذه يكوّن الـ«عصبيّة» ويبتكر السرّ وتوابع السرّ (الإستراتيجيا، الجوسسة، المكر، الكمين، الديبلوماسيّة، إلخ).

عدد عادّ، أثاث، قائم بذاته، توجّهي، إيقاعي، مرّقم: مكنة الحرب هي بمثابة النّتيجة الحتميّة للتّنظيم التّرحليّ (سيقوم موسى بتجربة ذلك مع كلّ استباعاته). سارعنا اليوم كثيرا إلى نقد هذا التّنظيم العدديّ شاجبين فيه مجتمعا عسكريّا أو حتى مُعتَقَلِيّا، حيث لم يعد الناس غير «أرقام» لا متأرضنة. لكنّ ذلك خاطئ. رعب مقابل رعب، الأكّد أنّ التّنظيم العدديّ للناس ليس أكثر قساوة من تنظيم السّلالات أو الدّول. معاملة النّاس بصفّتهم أرقاما ليست بالضرّورة أسوأ من معاملتهم بصفّتهم أشجارا نشذبها أو أشكالا هندسيّة نفصلها ونشكّلها. أكثر من ذلك، استعمال العدد بوصفه رقما، بوصفه عنصرا إحصائيّا، ينتمي إلى عدد الدّولة المعدود وليس إلى العدد العادّ. والعالم المُعتَقَلِيّ يعمل

(١) فرانك هربارت، أبناء تلّ الرّمْل، منشورات لاقون، ص ٢٢٣. يمكن الرجوع إلى الخصائص التي اقترحتها جوليا كريستيفا لتحديد العدد العادّ: «الترتيب»، «التوزيع التّعديّ والعرضي»، «اللانهائي- النّقطة»، «التّخمين الصّارم»، إلخ. (سيمبليّة، صص ٢٩٣-٢٩٧).

بواسطة سلالات وأقاليم بمثل ما يعمل بواسطة الترقيم. المسألة إذاً ليست مسألة الجيد والرديء بل مسألة الخصوصية. خصوصية التنظيم العددي تتأتى من نمط الوجود المترحل ومن الوظيفة - مكنة الحرب. العدد العاد يتعارض في نفس الوقت مع التقنيات السلالية ومع تقنين الدولة التضافري. سيذهب التركيب الأرثميتيقي من ناحية إلى أن ينتقي ويستخرج من السلالات العناصر التي ستدخل في الترحل وفي مكنة الحرب؛ وتوجيهها من ناحية أخرى ضد جهاز الدولة، مواجهة جهاز الدولة بمكنة وبوجود، رسم لا تأرُضن يخرق في نفس الوقت الإقليميات السلالية وإقليم أو إقليمية الدولة.

للعدد العاد، سواء كان عدد ترحل أو حرب، خاصية أولى: إنه دائماً عدد مركّب، أي متمفصل. مركّب أعداد في كلّ مرّة. حتّى أنّه لهذا السبب لا يستتبع البتّة كمّيات كبرى متجانسة، مثل أعداد الدولة أو العدد المعداد، لكنّه يُنتج مفعول ضخامته بدقّة متمفصله، أي بتوزيعه للتناظر في فضاء طلق. حتّى جيوش الدولة، في اللحظة التي تتعاطى فيها مع أعداد كبرى، لا تتخلّى عن هذا المبدأ (بالرغم من سيطرة «القاعدة» العشرية). الفيلق الروماني هو عدد متمفصل من أعداد، بطريقة تصوير بها الأقسامات متنقلة، والأشكال الهندسية متحركة ومتغيرة. والعدد المركّب أو المتمفصل لا يؤلّف أناساً وحسب، بل كذلك بالضرورة أسلحة، حيوانات وآليات. الوحدة الأرثميتيقيّة الأساسية هي بالتالي وحدة تنضيد: على سبيل المثال، إنسان - حصان - قوس، $1 \times 1 \times 1$ ، وفق الصيغة التي صنعت انتصار السكيثيين، وتعتقد هذه الصيغة من حيث أنّ بعض [٤٨٧] «الأسلحة» تنضد أو تُمفصل الكثير من الرّجال والدّواب، من ذلك المركبة ذات الجوادين والرّجلين، أحدها للقيادة والآخر للرّمي $2 \times 1 \times 2 = 1$ ؛ أو كذلك الدرع الشهير ذو المقبضين الناتج عن الإصلاح العسكري والذي يلحم سلسلات بشرية. أيّا كانت «الوحدة» صغيرة فإنّها متمفصلة. العدد العاد

قائم دائما على قواعد عدّة في نفس الوقت . يجب أن نأخذ في الاعتبار كذلك العلاقات الأرثميتيقيّة الخارجيّة، لكنّها علاقات يحتويها العدد، وهي تعبّر عن نسبة المقاتلين من ضمن عناصر سلالة أو قبيلة، عن دور الاحتياطيات والمخزونات، عن صوّن الناس، الأشياء والدوابّ. الخدمات اللّوجستيّة هي فنّ هذه العلاقات الخارجيّة التي ليست أقلّ انتماء إلى مكنة الحرب من العلاقات الدّاخليّة للاستراتيجيا، أي مكوّنات الوحدات المقاتلة بينهما. الاثنان معا تكوّنان علم تمفصل أعداد الحرب. يتضمّن كلّ تنضيد هذا الجانب الاستراتيجي وهذا الجانب اللّوجستيّ.

لكن للعدد العادّ خاصيّة ثانية أكثر خفاء. تُقدّم مكنة الحرب في كلّ مكان سيرورة عجيبة للتّناسخ أو للمضاعفة الأرثميتيقيّة، كما لو أنّها تعمل وفق سلسلتين غير متناظرتين وغير متساويتين. فعليّا، السّلالات والقبائل منظمّة ومعدّلة عدديّا من ناحية؛ التّكوين العدديّ يتراكم مع السّلالات لتغليب المبدإ الجديد. لكن من ناحية أخرى، ثمة في نفس الوقت استصفاء لرجال من كلّ سلالة لتشكيل جسم عدديّ خاصّ. كما لو أنّ التّركيب العدديّ الجديد للجسم - السّلالة لم يكن يقدر على التّجّاح في ظلّ تكوين جسم خاص هو ذاته عدديّ. نحن نعتقد أنّ ذلك ليس ظاهرة عرضيّة بل هو مكوّن أساسيّ من مكوّنات مكنة الحرب، هو عمليّة شرط قيام العدد برأسه: يجب أن يكون لعدد الجسم مُضايّف هو جسم العدد، يجب أن يتضاعف العدد وفق عمليّتين متكاملتين. الجسم الاجتماعيّ ليس مرقّما دون أن يشكّل العدد عَصبيّة. عندما يقوم جنكيز خان بتنضيده الكبير للفيفاء، ينظّم السّلالات عدديّا، ويخضع مقاتلي كلّ سلالة لأرقام ولقادة (عشرات وقادة عشرات، مئات وقادة مئات، آلاف وقادة آلاف). لكنّه يستصفي كذلك من كلّ سلالة محسوبة عددا صغيرا من الرّجال الذين سيشكّلون حرسه الشّخصيّ، أي تشكيلة ديناميّة من هيئة أركان، من مفوّضين، من مبعوثين ومن ديبلماسيين

(«التَّبَع»^(١)). العمليّتان متلازمتان: [٤٨٨] لا تَأْرُضُن مضاعف، الثّاني منه ذو قدرة أكبر. عندما قام موسى بتنصيبه الكبير للصحراء، حيث خضع حتما للتأثير الترحليّ أكثر منه لتأثير يهوذا، فإنّه يُحصي كلّ قبيلة وينظّمها عدديّاً؛ لكنّه يَسْتَرِّ كذالك قانونا، بمقتضاه ينتمي المواليد الجدد في كلّ قبيلة، في ذلك الوقت، بأحقّيّة ليهوذا؛ وبما أنّ هؤلاء المواليد الأوّل ما يزالون صغارا بطبيعة الحال، فإنّ دورهم في العدد ستقع إحالته إلى قبيلة خاصّة هي قبيلة اللاويين التي ستوقّر جسم العدد أو الحرس الخاص للتأبوت، وبما أنّ اللاويين أقلّ عددا من المواليد الأوّل الجدد في جملة القبائل، فإنّه سيتعيّن وجوبا إعادة شراء هؤلاء المواليد الأوّل الإضافيين من طرف القبائل، في شكل ضريبة مدفوعة (وهو ما يعيدنا إلى مظهر أساسيّ من مظاهر اللّوجستيك). قد لا تتمكّن مكنة الحرب من الاشتغال دون هذه السلسلة المضاعفة: يجب في نفس الوقت أن يعوّض التّركيب العدديّ التّنظيم السّلاليّ، لكن كذالك تفادي التّنظيم الإقليميّ للدولة. إنّ تبعاً لهذه السلسلة المضاعفة تحدّد السّلطة في مكنة الحرب: السّلطة لم تعد متوقّفة على الأقسام والمراكز، على الإصداء المحتمل للمراكز وللتّقنين التّضافريّ للأقسام، بل على هذه العلاقات الدّاخلية للعدد، بمعزل عن الكمّ. تنتج عن ذلك أيضاً التّوتّرات والصّراعات على السّلطة: بين قبائل ولأويّ موسى، بين «قادة الجند» و«تّبَع» جنكيز خان. لا يتعلّق الأمر بمجرد احتجاج السّلالات التي قد تبحث عن استرداد استقلاليتها القديمة، لا يتعلّق الأمر كذلك بتصوّر مسبق للصراع حول جهاز الدولة: إنّ التوتّر الخاصّ بمكنة حرب، بسلطتها الخاصّة وبالتقييد الخاصّ لسلطة «القائد».

(١) فلادمرتزوف، النّظام السّياسيّ للمغول، منشورات ميزوناف. لفظ «التّبَع» الذي يستخدمه فلادمرتزوف مأخوذ من النّظام السّاكسونيّ الذي كان يكوّن فيه الملك حاشيته، «الثّقات» من المخلصين.

التَّركيب العدديّ أو العدد العادّ، يستتبع بالتَّالي عمليّات كثيرة: إضفاء صبغة أرثميتيقيّة على مجموعات الانطلاق (السَّلالات)؛ تجميع المجموعات الفرعيّة المستخلّصة (تكوين عشرات، مئات، إلخ.)؛ تشكيل استبداليّ لمجموعة أخرى في تناظر مع المجموعة الموحّدة (العصبيّة). لكنّ هذه العمليّة الأخيرة هي التي تستتبع أكثر ما يكون من تنوّع وطرافة الوجود المترحّل. إلى حدّ كوننا نعثر من جديد على المشكل حتّى في جيوش الدّولة، عندما تكون الدّولة قد استولت على مكنة الحرب. بالفعل، إذا كان مُضايِف إضفاء الصّبغة الأرثميتيقيّة على الجسم الاجتماعيّ هو تشكيل عصبيّة مستقلّة أرثميتيقيّة هي ذاتها، فإنّه بالإمكان تكوين هذه العصبيّة بطُرُق عدّة: ١) بسلالة أو بقبيلة مفضّلتين، تأخذ سيطرتهمَا مذكّاء معنيّ جديدا (حالة موسى مع اللاويين)؛ ٢) بممثّلين عن كلّ سلالة يقع استخدامهم مذكّاء كرهائن (المواليد الأوّل: قد تكون بالأحرى الحالة الآسيويّة أو الجنكيزيّة)؛ ٣) بعنصر مختلف تماما، عنصرا من خارج المجتمع [٤٨٩] القاعديّ، من عبيد، غرباء أو منتمين إلى ديانة أخرى (كانت تلك بالفعل حالة النّظام السّاكسونيّ، حيث كان المَلِك يكوّن عصبيّته من العبيد المخلصين؛ لكنّها حالة الإسلام بشكل خاصّ، إلى درجة إعازه بمقولة سوسولوجيّة مخصوصة تتعلّق بـ«العبوديّة العسكريّة»: ممالك مصر، عبيد أصيلو الفيافي أو القوقاز، اشتراهم السّلطان أحداثا، أو الإنكشاريّون العثمانيّون المنحدرون من جماعات مسيحيّة^(١)).

«المترحّلون خاطفو الأطفال»، أليس ذلك في أصل مبحث مهمّ؟

(١) حالة مهمّة بشكل خاصّ قد تكون حالة عصبيّة الحدّادين عند التّوارق، الأناديون (Enaden) (الـ«أغيار»؟ هؤلاء الأناديون قد يكونون في الأصل إمّا عبيدا سودانيين، أو مستعمرين يهودا للصحراء، أو من نسل محاربي الملك سان لويس، راجع رونييه بورتية، «جرقيّو المعدن الصّحراويّون عند التّوارق»، في معادن وحضارات، ١٩٤٥-١٩٤٦.

نرى بوضوح، خاصّة بخصوص الحالة الأخيرة، كيف أنّ العصبية تأسست بوصفها عنصراً محدّداً للسلطة في مكنة الحرب. ذلك أنّ مكنة الحرب والوجود المترخّل هما في حاجة إلى تحاشي شيئين في نفس الوقت: عودة الأرستقراطية السّلالية، لكن كذلك تشكيل موظّفين إمبراطوريين. ما يبلبل كلّ شيء هو أنّ الدّولة ذاتها كانت في غالب الأحيان مصمّمة على استخدام العبيد كموظّفين سامين: سرى أنّ ذلك لم يكن لنفس الأسباب، وأنّ التّيارين التقيا في الجيوش، لكن انطلاقاً من مصدرين متميّزين. ذلك أنّ سلطة العبيد والأغراب والمخطوفين، في مكنة حرب ذات أصل ترخّليّ، مختلفة جدّاً عن أرستقراطيّات السّلالة، لكن كذلك عن موظّفيّ وبيروقراطيّ الدّولة. إنهم «مفوّضون»، مبعوثون، دبلوماسيّون، جواسيس، استراتيجيّون ولوجستيّون، وأحياناً حدّادون. إنهم لا ينفسرون بـ«نزوة السّلطان». على النقيض من ذلك، إنّها النزوة الممكنة لقائد الحرب هي التي تنفسر بالوجود وبالحميّة الموضوعيّين لهذه العصبية العدديّة، لهذا الرّمق الذي لا قيمة له دون ناموس. ثمة في نفس الوقت لا تأرّض وتَصيّر يتميّان لمكنة الحرب بما هي كذلك: العصبية، وبالأخصّ العبد-الكافر-الغريب، هو الذي يصير جنديّاً ومؤمناً، مع بقائه لا متأرضين بالنسبة إلى السّلالات وبالنسبة إلى الدّولة. يجب أن يكون وُلد كافراً ليصير مؤمناً، يجب أن يكون وُلد عبداً ليصبح جنديّاً. يجب أن تكون لذلك مدارس أو مؤسسات خاصّة: إنّ ابتكار خاصّ بمكنة الحرب، لن تتوقّف الدّول عن استعماله وتكييفه مع غاياتها، إلى درجة أنّه لم يعد من الممكن التّعرف عليه، أو استرجاعه في شكل بيروقراطيّ للموظّفين أو في صورة تكنوقراطية لهيئات خاصّة جدّاً، أو في «عصبيّات» تخدم الدّولة [٤٩٠] بقدر ما تقاومها، أو عند المفوّضين الذين يقومون مقام الدّولة بقدر خدمتها.

صحيح أنّ المترخّلين ليس لهم تاريخ، ليس لهم إلاً جغرافياً.

وهزيمة المترحلين كانت هائلة، كاملة تماما، بحيث أن التاريخ لم يفعل غير التوحد مع انتصار الدول. واكبنا إذا نقدا معمما كان جرد المترحلين من كل تجديد تكنولوجي أو معدني، سياسي، ميتافيزيقي. المؤرخون البورجوازيون أو السوفييتيون (غروساي أو فلادمرتزوف) يعتبرون المترحلين بمثابة إنسانية تعيسة لا تفهم شيئا، لا التقنيات التي قد تظل غير مكرثة بها، لا الزراعة، لا المدن والدول التي تدمرها أو تغزوها. مع ذلك لا نرى جيّدا كيف قد يكون أمكن للمترحلين الانتصار في الحرب لو لم تكن لهم صناعة معدنية قوية: فكرة كون المترحل يتلقى أسلحته التقنية ونصائحه السياسية من المنشقين عن دولة إمبراطورية هي على أي حال فكرة مستبعدة. لا نرى جيّدا كيف قد يكون المترحلون حاولوا تدمير المدن والدول، إلا باسم تنظيم مترحل ومكنة حرب لا يتحدّان بجهالة، إنّما بخصائصهما الإيجابية، بفضائهما المخصوص، بتكوينهما الذي يخصهما والذي كان قطع مع السلاسل وكان تحاشي الصورة-الدولة. لم يفتأ التاريخ يقزّم المترحلين. لقد تمّت محاولة تطبيق مقولة حربية تماما على مكنة الحرب (مقولة «الديمقراطية العسكرية»). وتطبيق مقولة حضرية تماما على الترحل (مقولة «الإقطاعية»). لكنّ هاتين الفرضيتين تفترضان مبدأ إقليميا: إمّا أنّ دولة إمبراطورية تستولي على مكنة الحرب بتوزيع الأراضي الوظيفية على محاربين (إكلريكيين وإقطاعات مؤقتة)، إمّا لأنّ الملكية التي أصبحت خاصّة تضع هي ذاتها علاقات تبعية بين المالكين الذين يكونون الجيش (إقطاعات حقيقية ومقطعية^(١)). العدد تابع في

(١) الإقطاعية نظام عسكريّ مثلها مثل الديمقراطية المسماة عسكرية؛ لكنّ النظامين يفترضان حقّا جيشا مندمجا في جهاز دولة أيّا كانت (هكذا بالنسبة إلى الإقطاعية، الإصلاح العقاريّ الكارولنجي). فلادمرتزوف هو الذي طوّر تأويلا إقطاعيا لمترحليّ الفياء، بينما يميل غريزانوف (سيبيريا الجنوبية، منشورات ناجيل) إلى الديمقراطية الحربية. لكنّ واحدة من الحجج الرئيسية لفلادمرتزوف،

الحالتين لتنظيم جبائي «عقاري»، وذلك من أجل تكوين الأراضي التي يمكن التنازل عنها أو التي وقع التنازل عنها كما من أجل تحديد ما بذمة المنتفعين ذواتهم من الضرائب. ودون شك، التنظيم الترحلي ومكنة الحرب [٤٩١] يتقاطعان مع هذه المشكلات، أولاً في مستوى الأرض والضريبة، حيث المحاربون المترحلون، مهما قيل عنهم، هم مجددون كبار. لكن بالفعل، إنهم يبتكرون إقليمية ونظاماً ضريبياً «عقاريين» يشهدان على قيام مبدأ عدديّ برأسه: يمكن أن يكون ثمة خلط أو تركيب بين الأنظمة، لكن خصوصية النظام المترحل تظل هي إلحاقه الأرض بالأعداد التي تنتقل فيها وتنسبط، وإلحاق الضريبة بالعلاقات الداخلية لهذه الأعداد (على سبيل المثال، عند موسى بالفعل، تتدخل الضريبة في العلاقة بين الأجسام العددية وعصبية العدد). باختصار، الديمقراطية العسكرية والإقطاع، بعيداً عن كونهما يفسران التركيب العدديّ المترحل، يشهدان بالأحرى على ما يمكن أن يبقى منه في الأنظمة الحضريّة.

القضية السابعة: «أفعالات» الوجود المترحل هي أسلحة مكنة حرب.

يمكننا التمييز دائماً بين الأسلحة والأدوات تبعاً لاستخدامها (تدمير بشر أو إنتاج بضائع). لكن إذا كان هذا التمييز الخارجي يفسر بعض التكيّفات الثانوية لموضوع تقنيّ، فإنّه لا يمنع تحويّلة معيّنة بين المجموعتين، إلى درجة أنّه يبدو من العسير جدّاً اقتراح فرق داخليّ بين الأسلحة والأدوات. أنماط القرع مثلما حدّدها لوروا غورون، توجد

هي أن تنظيم المترحلين يتخذ صبغة إقطاعية بالتحديد من حيث أنّه يتفكك أو يندمج في الإمبراطوريات التي يغزوها. ويلاحظ هو ذاته أنّ المغول لم يكونوا في البداية ينظّمون الأراضي الحضريّة التي يستولون عليها، وفق إقطاعات زائفة أو حقيقية.

من الجانبين. «من المحتمل أنّ الأدوات الزراعيّة وأسلحة الحرب ظلّت موحّدة طيلة عصور متعاقبة»^(١). «لقد أمكن الحديث عن «نظام بيئيّ» لا يتنزّل في البداية وحسب، وحيث تتبادل أدوات العمل وأسلحة الحرب تحديداتهما: يبدو أنّ نفس الشّعبة المكنيّة تخترقهما سوياً. ومع ذلك لدينا شعور بأنّه ثمة فروق داخلية، حتى وإن لم تكن جوهرية، أي منطقيّة أو مفهوميّة، وحتى إذا ظلّت تقريبيّة. في تقريب أوّل، للأسلحة علاقة مفضّلة مع القذف، كلّ ما يَقْذِف أو يُقْذَف هو سلاح أوّلا، والدّافع هو اللحظة الأساسيّة في القذف. السّلاح قَذْفِيّ؛ مصطلح «المشكل» يتعلّق هو ذاته بمكنة الحرب. بقدر ما تتضمّن أداة من آليات قذف، بقدر ما تعمل هي ذاتها بمثابة سلاح ممكن أو مجازيّ وحسب. وكذلك لا تفتأ الأدوات تعوّض الآليات القاذفة التي تتضمّنّها أو تكيّفها مع غايات أخرى. صحيح أنّ أسلحة القذف بحصر المعنى [٤٩٢]، مقذوفة أو قاذفة، ليست غير نوع من بين أنواع أخرى؛ لكن حتّى الأسلحة اليدويّة تتطلّب استعمالا آخر لليد وللذراع غير ما تتطلّبه الأدوات، استعمالا قاذفا تشهد عليه فنون القتال. على التّقيض من ذلك قد تكون الأداة أكثر داخلانيّة واستدماجيّة: إنّها تهيّء مادّة عن بُعد لتوصلها إلى حالة توازن أو لملاءمتها مع صورة داخلانيّة. يوجد الفعل عن بُعد في الحالتين، لكنه في الحالة الأولى نابذ وفي الحالة الثانية جابذ. قد نقول كذلك إنّ الأداة توجد إزاء مقاومات عليها التّغلب عليها أو استخدامها، بينما يوجد السّلاح إزاء ردود أفعال عليه تجنّبها أو ابتكارها (بل إنّ ردّ الفعل هو العامل الابتكاريّ والمسرّع لمكنة الحرب، طالما أنّها لا تُختزّل فقط في مَزاد كمّيّ ولا في استعراض دفاعيّ).

في المقام الثّاني، ليس للأسلحة والأدوات «اتّجاهيّاً» (تقريبياً)

(١) جون فريدريك فولار، تأثير التسلّح على التّاريخ، منشورات بايو، ص ٢٣.

نفس العلاقة مع الحركة، مع السّـرعة. تلك أيضا مساهمة أساسية لبول فريليو كونه شدّد على هذه التّـكامليّة سلاح- سرعة: السلاح يبتكر السّـرعة، أو اكتشاف السّـرعة يبتكر السّـلاح (من هنا الخاصيّة القذفيّة للأسلحة). تفرز مكنة الحرب موجّها خاصّا للسّـرعة، إلى درجة أنّه يجب أن يكون له اسمّ خاص، ليس هو القدرة على التّدمير وحسب، بل هو «سلطة السّـرعة» (ناموس). من بين مزايا أخرى، تعلن هذه الفكرة عن صيغة جديدة بين الصّيد والحرب. إذ ليس من المؤكّد فقط أنّ الحرب لا تُستمدّ من الصّيد، بل إنّ الصّيد لا يطرّو هو ذاته أسلحة: إمّا أنّه يطرّو هو ذاته في دائرة اللّاتمايز أسلحة- أدوات وقابليتها للتّحويل، أو أنّه يستعمل لصالحه أسلحة متمايضة بالفعل ومتكوّنة بالفعل. مثلما يقول فريليو، لا تظهر الحرب البتّة عندما يطبّق الإنسان على الإنسان العلاقة التي كانت للصّيّاد مع الحيوان، بل على التّقيض من ذلك عندما يستحوذ على قوّة الحيوان المُضطاد ليُدخل مع الإنسان في علاقة مغايرة تماما هي علاقة الحرب (عدوّ ولم يعد فريسة). لا عجب إذاً في أن تكون مكنة الحرب ابتكارا للمتحرّلين مربّي الماشية: تربية الماشية والتّرويض لا يتطابقان لا مع الصّيد البدائيّ ولا مع التّدجين الحضريّ، بل هما بالتّحديد اكتشاف نظام موجّه وقاذف. بدلا من العمل بواسطة عنف مع كلّ ضربة، أو تكوين عنف «بشكل نهائيّ»، تقيم مكنة الحرب مع تربية الماشية والتّرويض، اقتصادا كاملا للعنف، أي وسيلة تجعل هذا الأخير دائما بل وغير محدود. «إراقة الدّم والقتل المباشر مناقضان للاستعمال اللّامحدود للعنف، أي لاقتصاده. (...) اقتصاد العنف ليس هو اقتصاد الصّيّاد في مربّي الماشية، بل هو اقتصاد الحيوان الذي تمّ اصطياده. [٤٩٣] نحافظ في الرّاحلة على الطاقة الحركية، سرعة الحصان ولم تعد البروتينات (المحرّك ولم يعد اللّحم). (...) بينما في الصّيد، كان الصّيّاد يهدف إلى إيقاف حركة الحيوانيّة البريّة بقتل ممنهج، مربّي الماشية [يعمل على] المحافظة عليها، وبفضل التّرويض

يقترن الفارس بهذه الحركة ليوّجّها وليستثير تسارعها. « سيطوّر المحرّك التكنولوجيّ هذا المنزع، لكنّ «الراحلة هي الموجّه الأوّل للمحارب، منظومة أسلحته الأولى^(١)». من هنا التّصيّر - حيوانا في مكنة الحرب. أيعني ذلك أنّ مكنة الحرب لم توجد قبل الراحلة وركوب الخيل؟ ليست تلك هي المسألة، المسألة هي أنّ مكنة الحرب تتضمّن إفراز موجّه سرعة أصبح متغيّرا حرّا أو مستقّلا، وهو ما لا يحدث في الصّيد، حيث تحيل السّرعة أوّلا على الحيوان الذي وقع اصطياده. من الممكن استخراج موجّه السّباق هذا من المشاة دون اللّجوء إلى الراحلة؛ بل أكثر من ذلك، من الممكن أن تكون ثمة راحلة، لكن بوصفها وسيلة نقل أو حتى وسيلة حمل دون أن تتدخّل في الموجّه الحرّ. مع ذلك، وعلى أيّة حال، يستعير المحارب من الحيوان فكرة محرّك أكثر من استعارته منه نموذج فريسة. إنّ لا يعمّم فكرة الفريسة بتطبيقها على العدو، إنّ يستخلص فكرة المحرّك مطبّقا إيّاها على ذاته.

مباشرة يبرز اعتراضان. وفق الاعتراض الأوّل، تحمل مكنة الحرب الكثير من الثّقالة والجاذبيّة أكثر ممّا تحمل من السّرعة (التّمييز بين الثّقيل والخفيف، عدم تناظر الدّفاع والهجوم، التّعارض بين السّكون والجهد). لكن قد يكون من اليسير بيان الكيفيّة التي تحيل بها في بعض الحالات، ظاهرات «الإرجاء»، أو حتّى السّكون والجمود،

(١) فريليو، «ميتافيزيقا الرّاكب»، ترافارس، عد ٨. غير أنّ فريليو يعيّن ممرا غير مباشر من الصّيد إلى الحرب: عندما تُستخدم المرأة كحيوان للـ«حمل أو السّرج»، وهو ما قد يسمح للصّيادين بالدّخول فعلا في علاقة «مبارزة بين مثليين» تتجاوز الصّيد. لكن يبدو أنّ فريليو ذاته يدعونا إلى التّمييز بين السّرعة بوصفها موجّها وقاذفا، والتّثقل بوصفه نقلا وحَمَلا. تتحدّد مكنة الحرب وفق زاوية النظر الأولى، بينما تحيل زاوية التّظر الثّانية إلى التّطاق المشترك. الحصان على سبيل المثال، لا ينتمي إلى مكنة الحرب ما دام يُستخدم فقط لحمل الرّجال الذين يتربّحون للقتال. تتحدّد مكنة الحرب بالفعل وليس بالنّقل، حتّى وإن أثّر النّقل في الفعل.

المهمّة جدًّا في الحروب، على مكوّن سرعة محض. وفي الحالات الأخرى، تحليل على الظروف التي تستولي فيها أجهزة الدولة على مكنة الحرب، خاصّة بواسطة تهيئة فضاء محدّد يمكن للقوى المتضادّة أن تجد فيه توازنها. يحدث أن تستغرق السّركة في خاصيّة مقذوف، سواء كان رصاصة أو قنبلة، يحكم بانعدام الحركة [٤٩٤] على السّلاح ذاته وعلى الجنديّ (من ذلك انعدام الحركة في حرب ١٩١٤). لكنّ توازن القوى هو ظاهرة مقاومة، بينما ردّة الفعل تسريعا أو تبديلا للسّركة يقطعان مع التّوازن: إنّ الدّبّابة هي التي ستجمع جملة العمليّات على الموجّه- السّركة، وستعطي من جديد فضاء أملس للحركة بالكشف عن الرّجال والأسلحة^(١).

الاعتراض المعاكس أشدّ تعقيدا: ذلك أنّ السّركة يبدو أنّها تشكّل جزء من الأداة كما من السّلاح، وليست البتّة خاصّة مكنة الحرب. تاريخ المحرّك ليس عسكريّا وحسب. لكنّ لعلنا نميل كثيرا إلى التّروّي في كمّيات الحركة بدلا من البحث عن النّماذج الكيفيّة. التّمودجان المحرّكان المثاليّان قد يكونان نموذج العمل ونموذج الفعل الحرّ. العمل علّة محرّكة تصطدم بمقاومات، إنّها يتمّ في الخارج، يُستنفد أو

(١) يبيّن جون فريدريك فولار (تأثير التّسلّح على التاريخ، ص ١٥٥ وما يليها) كيف أنّ حرب ١٩١٤ فُهمت أولا على أنّها حرب هجوم وحركة، حربا قائمة على المدفعية. لكنّ هذه الأخيرة ارتدّت على ذاتها وفرضت عدم الحركة. إعادة تعبئة الحرب لم يكن من المتاح القيام بها بالإكثار من عدد المدافع، بما أنّ الحُفَر التي أحدثتها شظايا القذائف كانت جعلت الميدان غير عمليّ بالمرّة. الحلّ الذي وقع اللجوء إليه وشارك فيه الأنغلير والجنرال فولار بشكل خاصّ وبكيفية حاسمة، كان هو الدّبّابة: «سفينة أرضيّة»، كانت الدّبّابة تعيد على الأرض تكوين نوع من الفضاء البحريّ أو الأملس، و«كانت أدخلت التكتيك البحري في الحرب الأرضيّة». عموما، الرّد ليس متماثلا: الدّبّابة هي التي تردّ على المدفعية، طائرة الهليكوبتر الحاملة للصّواريخ هي التي تردّ على الدّبّابة، إلخ. من هنا عامل تجديد في مكنة الحرب، مختلف جدًّا عن التّجديد في مكنة العمل.

يُستهلك في مفعوله، ويجب أن يتجدد من حين إلى آخر. الفعل الحرّ هو كذلك علّة محرّكة، لكن لا تعترضه مقاومات ليتغلب عليها، لا يعمل إلّا على جسم متحرّك من تلقاء ذاته، لا يُستنفد في مفعوله ويتواصل بين آئين. أيّا كان المقياس أو الدّرجة، تكون السّرعة نسبيّة في الحالة الأولى، مطلقة في الحالة الثّانية (فكرة متحرّك دائم). المهمّ في العمل هو نقطة تطبيق قوّة ناتجة تمارسها الثّقالة على جسم باعتباره «واحدا» (الجاذبيّة)، وهو التّقلّ النسبيّ لنقطة التّطبيق تلك. المهمّ في الفعل الحرّ هو الطّريقة التي تفلت بها عناصر الجسم من الجاذبيّة لتحتلّ بإطلاق فضاء غير منقط. يبدو أنّ الأسلحة واستعمالها ينتميان إلى نموذج فعل حرّ، بقدر ما تنتمي الأدوات إلى نموذج العمل. الانتقال الخطّي من نقطة إلى أخرى يكوّن الحركة النسبية للأداة، لكنّ الإشغال الدّواميّ لفضاء يكوّن الحركة المطلقة للسّلاح. كما لو أنّ السّلاح كان متحرّكا، [٤٩٥] متحرّكا حركة ذاتيّة، بينما الأداة محرّكة. هذه الرّابطة بين الأدوات والعمل ليست مؤكّدة البتّة ما لم يتلقّ العملُ التعريف المحرّك أو الفعليّ الذي خصصناه به للتّوّ. ليست الأداة هي التي تعرّف العمل، إنّّه العكس. الأداة تفترض العمل. يبقى أنّ الأسلحة، تستتبع هي ذاتها بكلّ تأكيد تجديدا للعلّة، استخداما أو حتى تلاشيا في المفعول، مواجهة لمقاومات خارجيّة، انتقالا للقوّة، إلخ. قد يكون من غير المجدي إعاره الأسلحة قدرة سحرية قد تتعارض مع إكراه الأدوات: الأسلحة والأدوات خاضعان لنفس القوانين التي تُحدّد بالتّديق المجال المشترك. لكنّ مبدأ كلّ تكنولوجيا هو إظهار أنّ عنصرا تقنيّا يظلّ مجردا، غير محدّد تماما ما لم نلحقه بتنفيذ هو يفترضه. ما هو أوّل بالنّسبة إلى العنصر التّقنيّ، هو المكنة: ليست المكنة التّقنية التي هي ذاتها مجموعة عناصر، بل المكنة الاجتماعيّة أو الجماعيّة، التّنفيذ المكنيّ الذي سيحدّد ما هو العنصر التّقنيّ في وقت معيّن، ما هو استعماله، مدلوله، مفهومه... إلخ.

إنّه بواسطة التّضيدات تؤهّل الشّعبة التي وقع انتقاؤها وحتىّ تبتر العنصر التّقنيّة. بحيث أنّه لا يمكن الحديث عن أسلحة أو أدوات قبل أن نكون عرّفنا التّضيدات المكوّنة التي يفترضانها والتي يدخلان فيها. إنّ هذا المعنى كنّا نقول إنّ الأسلحة والأدوات لا يقع التّمييز بينهما بطريقة خارجيّة وحسب، ومع ذلك ليس لهما خصائص تمييزيّة جوهريّة. لهما خصائص داخلية (وليست جوهرية) تحيل على التّضيدات الخاصّة بكلّ منهما والتي هما مأخوذان فيها. ما يحقّق نموذج فعل حرّ، ليست هي إذا الأسلحة في حدّ ذاتها وفي كيانها المادّي، إنّ التّضيد «مكنة الحرب» بوصفه علّة صوريّة للأسلحة. ومن الجهة الأخرى، ما يحقّق نموذج العمل، ليست هي الأدوات، إنّما التّضيد «مكنة العمل» بوصفه العلّة الصّوريّة للأدوات. عندما نقول إنّ السّلاح لا ينفصل عن موجّه- سرعة، بينما تظلّ الأداة مرتبطة بشروط الجاذبيّة، فإنّنا نوذ الإشارة فقط إلى فرق بين نوعين من التّضيدات، حتى إذا كانت الأداة في التّضيد الخاصّ بها هي تجريديّا أكثر «سرعة»، والسّلاح تجريديّا أكثر «ثقالة». الأداة مرتبطة حتما بتكوّن، بتنقّل وباستعمال للقوّة، تكوّنًا وتنقّلًا واستعمالًا تجد قوانينها في العمل، بينما لا يخصّ السّلاح غير ممارسة القوّة أو إبرازها في المكان وفي الزّمان، طبّقًا للفعل الحرّ. لا ينبثق السّلاح من السّماء، إنّهُ يفترض بطبيعة الحال إنتاجًا وتنقّلًا واستعمالًا ومقاومة. لكنّ هذا المظهر يحيل على المجال المشترك [٤٩٦] للسّلاح وللأداة، ولا يهتمّ بعدّ خصوصيّة السّلاح، التي تظهر فقط عندما يقع النّظر في القوّة لذاتها، عندما لا تكون ملحقّة إلّا بالعدد، بالحركة، بالمكان وبالزّمان، أو عندما تنضاف السّرعة إلى التّنقّل^(١). عينيّا، لا يحال سلاح من

(١) حول هذا التّمييز العامّ بين التّمودجين، «عمل- فعل حرّ»، «قوّة تُستهلك- قوّة تُحفظ»، «مفعول واقعيّ- مفعول صوريّ»، إلخ.، راجع عرض مارسيل غرو،

حيث هو كذلك على نموذج العمل بل على نموذج الفعل الحرّ، علاوة على أنّ شروط العمل من المفترض أنّه قد تمّ استيفاؤها. باختصار، من زاوية القوّة، الأداة مرتبطة بمنظومة جاذبيّة- تنقل، ثقل- علوّ. السّلاح مرتبط بمنظومة سرعة- متحرّك دائم (إنّه بهذا المعنى يمكننا القول إنّ السّرعة هي في حدّ ذاتها «منظومة أسلحة»).

الأوليّة العامّة جدّا للتنّضيد المكنيّ والجماعيّ على العنصر التّقنيّ صالحة في كلّ مكان، بالنّسبة إلى الأدوات كما بالنّسبة إلى الأسلحة. الأسلحة والأدوات هي نتائج، لا شيء غير كونها نتائج. لاحظنا في غالب الأحيان أنّ سلاحا لم تكن له قيمة بمعزل عن تنظيم المعركة التي يُستخدَم فيها. مثلاً، الأسلحة «الحربيّة» لا توجد إلّا بالكتيبة بوصفها تحوّلًا لمكنة الحرب: السّلاح الجديد الوحيد في ذلك الوقت، الدّرع ذو المقبضين، صُنِعَ بهذا التّنضيد؛ أمّا الأسلحة الأخرى فإنّها كانت موجودة لكنّها مأخوذة في توليفات أخرى حيث لم تكن لها نفس الوظيفة ولا نفس الطّبيعة^(١). التّنضيد هو الذي يكوّن في كلّ مكان منظومة الأسلحة. لم يوجد الرّمح والسّيف منذ العصر البرنزيّ إلّا بتنضيد رَجُل- حصان، يطيل الخنجر والحربة، ويستبعد أولى أسلحة المشاة التي هي المِدقّة والفأس. يفرض الرّكّاب بدوره صورة جديدة لتنضيد رَجُل- حصان، مُفضيا إلى نوع جديد من الرّمح وإلى أسلحة جديدة؛ وتتغيّر كذلك هذه المجموعة رَجُل- حصان- رِكاب، ولا تكون لها نفس المفاعيل، تبعا لانخراطها في الطّروف العامّة للترّحل، أو استعادتها لاحقا في الطّروف الحضريّة للإقطاع. لكنّ الوضعيّة هي

الديناميكا والميتافيزيقا اللينزيّتين، منشورا الآداب والفنون، ص ٥٥، ١١٩ وما يتلوها، ٢٢٢-٢٢٤.

(١) مارسال دتيان، «الكتيبة، المشكلات والخصومات»، في مشكلات الحرب في اليونان القديمة، منشورات موتون: «التّقني قائم بطريقة ما داخل الاجتماعيّ والذهنيّ»، ص ١٣٤.

ذاتها بدقّة بالنسبة إلى الأداة: هنا أيضاً، يتوقّف كلّ شيء على تنظيم العمل وعلى تنضيدات متغيّرة بين الإنسان، الحيوان والشيء. على هذا النحو لا يوجد المحراث بوصفه أداة مخصوصة إلّا في مجموعة تسيطر فيها «الحقول المفتوحة الممتدّة»، ينحو فيها الحصان إلى تعويض الثور من حيث هو حيوان حرّاة، تبدأ الأرض بالخضوع [٤٩٧] لتناوب زراعيّ كلّ ثلاث سنوات، ويصبح فيها الاقتصاد قروياً. قبل ذلك، يمكن أن يكون المحراث موجوداً، لكن على هامش تنضيدات أخرى لم تستخلص خصوصيّته، لم تستغلّ الخاصيّة التي تفرّق بينه وبين المحراث البسيط الذي يشقّ الأرض ولا يقلبها^(١).

التنضيدات انفعاليّة، إنّها توليفات رغبة. لا علاقة للرغبة بتحديد طبيعيّ أو تلقائيّ، ليس ثمة رغبة إلّا وهي منضّدة، منضّدة، مُمكنة. معقوليّة تنضيد ومردوده لا يوجدان دون الانفعالات التي يضعها على المحكّ ودون الرغبات التي تكوّنه بقدر ما يكونها. لقد بيّن دتيان كيف أنّ الكتيبة اليونانيّة لم تكن معزولة عن انقلاب كامل للقيم وعن تحوّل انفعاليّ يقلب علاقات الرّغبة بمكنة الحرب. إنّها واحدة من الحالات التي ينزل فيها الرّجل من على الحصان، وحيث تترك العلاقة إنسان-حيوان مكانها لعلاقة بين الناس في تنضيد مُشاة يهيئ لقدم الجنديّ-المزارع، الجنديّ-المواطن: يتحوّل إيروس الحرب بكامله، إيروس مثليّ للجماعة يسعى إلى تعويض الإيروس ذي الجنسانيّة الحيوانيّة

(١) حول الرّكاب وحول المحراث، راجع لين وايت الابن، التكنولوجيا القروسطيّة والتغيّرات الاجتماعيّة، منشورات موتون، الفصلان الأوّل والثاني. وكذلك في حالة الزّراعة البعلية للأرزّ في آسيا، أمكن بيان الكيفية تتوقّف بها العصا النّقابة، المعول والمحراث، كلّ من ناحيته على التّنضيدات الجماعيّة التي تتغيّر مع الكثافة السّكانيّة ومع زمن استراحة الأرض. وهو ما يمكّن برودال من استنتاج أنّ «الأداة في هذا التّفسير، هي نتيجة ولم تعد علّة» (الحضارة الماديّة والرأسماليّة، ص ١٢٨).

للفارس. ودون شك، في كل مرة تستولي فيها دولة على مكنة الحرب، فإنها تسعى إلى تقريب التربية من المواطن، تكوين العامل، تدريب الجندي. لكن إذا كان صحيحا أن كل تنضيد هو تنضيد رغبة، فإن المسألة تتمثل في معرفة ما إذا كانت تنضيدات الحرب والعمل منظورا إليها في ذاتها، لا تجند أولا انفعالات من نوع مختلف. الانفعالات تحققات رغبة تختلف تبعا للتنضيد: ليست نفس العدالة ولا نفس المساواة ولا نفس الشفقة، إلخ. نظام العمل لا ينفصل عن تنظيم الصورة وعن تطورها، تنظيما وتطورا يناظرهما تكوين ذات. إنه النظام الانفعالي للإحساس بوصفه «صورة العامل». يستتبع الإحساس تقويما للمادة ولمقاوماتها، معنى للصورة ولتطوراتها، اقتصادا للقوة ولتنقلاتها، يستتبع ثقالة بكاملها. لكن نظام مكنة الحرب هو بالأحرى نظام أفعالات لا تحيل إلا على المتحرك في ذاته، على سرعات وعلى توليفات سرعات بين العناصر. الأفعال هو التفريغ السريع للمشاعر، ردة الفعل، بينما الإحساس هو شعور متحول، مؤجل، مقاوم دوما. الأفعالات هي مقذوفات مثلها مثل الأسلحة، بينما [٤٩٨] الأحاسيس باطنية مثل الأدوات. ثمة علاقة عاطفية مع السلاح لا تشهد عليها الميثولوجيات وحسب، بل أغنية المائر، رواية الفروسيّة والحب العذري. الأسلحة أفعالات والأفعالات أسلحة. من هذه الزاوية، السكون المطبق والجمود المحض ينتميان إلى الموجّه- السرعة، وهما محمولان على هذا الموجّه الذي يجمع بين تحجّر الإيماء واندفاع الحركة. ينال الفارس على راحلته، وينطلق كالسهم. كلايست هو أفضل من ركب هذه التخشبات والتلاشيات والترقبات المفاجئة، مع أقصى سرعات مكنة حرب: بالتالي يجعلنا نواكب تصيرا- سلاحا للعنصر التقني في نفس الوقت الذي نواكب فيه تصيرا- أفعالا للعنصر الانفعالي (معادلة بانتزيلي). فنون القتال جعلت الأسلحة تابعة دوما للسرعة، وأولا للسرعة الذهنية (المطلقة)؛ لكنّها بذلك كانت جعلت

فنون الترقّب والسّكون تابعة أيضا للسرعة. الأفعال يجب هذه الأطراف القصوى. كذلك ألا تنتسب فنون القتال لتقنين انتسابها إلى شأن دولة، لكنّها تنتسب إلى سُبُل، هي بمثابة مسالك الأفعال؛ على هذه السُّبُل، تَعَلَّمنا كَيْفِيَّةَ «التَّخْلَص» من الأسلحة ليس أقل من تَعَلَّمنا استخدامها، كما لو أنّ قدرة وثقافة الأفعال كانت هي الهدف الحقيقيّ للتنّفيذ، السّلاح وسيلة مؤقّنة وحسب. ينتمي تَعَلَّم التفكيك والتحرّر إلى مكنة الحرب: «ألا يحارب» المحارب، تفكيك الذات. حركة إبطال التقنين تخترق مكنة الحرب، بينما الأداة يلحمها تقنين تضافريّ مع تنظيم للعمل وللدولة (لا نتخلّص من الأداة، لا يسعنا إلّا تعويض غيابها). صحيح أنّ فنون القتال لا تفتأ تستحضر مركز الجاذبيّة وقواعد تنقله. ذلك أنّ السُّبُل ليست بعدُ نهائيّة. مهما توغّلت بعيدا فإنّها ما تزال تنتمي إلى مجال الكينونة، ولا تفعل غير أن تُترجم في الفضاء المشترك الحركات المطلقة ذات الطبيعة المغايرة، - الحركات التي تتمّ في الخلاء، ليس في العدم وإنّما في ملاسة الخلاء حيث ليس ثمة هدف: هجومات، ردود أفعال وسقطات «رعناء»^(١).

دائما من زاوية التّنفيذ، ثمة علاقة أساسيّة بين الأدوات والعلامات. ذلك أنّ نموذج العمل الذي يعرف الأداة، ينتمي إلى جهاز الدولة. لقد قيل في الكثير من الأحيان إنّ إنسان المجتمعات البدائيّة لم يكن يعمل بالمعنى الحصريّ للكلمة، [٤٩٩] حتّى وإن كانت أنشطته مقيّدة ومنظّمة؛ وكذلك رجل الحرب بما هو كذلك (ال«أشغال» الشّاقة تفرض الخضوع لمَلِك). يصبح العنصر التقنيّ أداة عندما ينسحب من

(١) تُذكر مباحث الفنون القتاليّة بأنّ السُّبُل التي ما تزال خاضعة للجاذبيّة، عليها أن تتخطّى ذاتها في الخلاء. مسرح الدّمى لكلايست، الذي هو ولا ريب أحد التّصوص الغربيّة الأشدّ شوقيّة لتلقائيا، يقدّم حركة مماثلة: التّقلّ الخطيّ لمركز الثّقل ما يزال «ميكانيكيّا»، ويحيل على شيء ما أكثر «إلغازا» يخصّ النّفس ويتجاهل الجاذبيّة.

الإقليم ويتناول الأرض من حيث هي موضوع؛ لكن في نفس الوقت تتوقف العلامة عن الانكتاب على الجسم وتكتب على مادة موضوعية ثابتة. ليكون ثمة عمل يجب أن يكون ثمة استيلاء على النشاط من قبل جهاز الدولة، سُميَاة النشاط بالكتابة. من هنا الانسجام التّنضيديّ علامات- أدوات، علامات كتابة- تنظيم عمل. الأمر مختلف تماما بالنسبة إلى السّلاح الذي يوجد في علاقة أساسية مع الحلّي. لم نعد نعرف جيّدا ما هو الحلّي لكثرة ما خضع له من تكييفات ثانوية. لكنّ شيئا ما يستيقظ في نفسنا عندما يقال لنا إنّ صناعة المصوغ كانت فنا «برابريّا» أو هي الفنّ المترخّل بامتياز، وعندما نرى تحف الفنّ الهامشيّ هذه. هذه المشابك، الصّفائح الذهبية والفضيّة، هذا الحلّي، تتعلّق بأغراض أثاث صغيرة، ليس أنّها من اليسير حملها وحسب، لكنّها لا تنتمي إلى الغرض إلّا من حيث أنّه يتحرّك. تشكّل تلك الصّفائح سمات تعبير ذات سرعة محض، على أغراض هي ذاتها متنقّلة ومتحرّكة. إنّها لا تمرّ بعلاقة صورة- مادة، بل بعلاقة زركشة- محمل، حيث لم تعد الأرض غير أرضيّة، بل ولم تعد ثمة أرضيّة أصلا، المحمل هو كذلك متنقل مثله مثل الزّركشة. تمنح الصّفائح الألوان سرعة الضّوء، تُحمّر الذهب وتجعل من الفضة ضوء أبيض. إنّها تنتمي إلى عُدّة الحصان، إلى غمد السّيف، إلى لباس المحارب، إلى مقبض السّلاح: إنّها تزيّن حتى ما لن يُستخدم إلّا لمرة واحدة، سنان سهم. أيّا كان الجهد والتّعب اللّذان تقتضيهما، فإنّها فعل حرّ مرتبط بالمتحرّك المحض، وليس بالعمل مع شروط جاذبيّته، مقاومته وإنفاقه. الحدّاد المتجولّ يحيل صناعة المصوغ على السّلاح والعكس بالعكس. سيّخذ الذهب والفضّة الكثير من الوظائف الأخرى، لكن لا يمكن فهمهما دون هذا الإسهام المترخّل لمكنة الحرب حيث ليست الموادّ بل سمات التّعبير هي التي تتلاءم مع الأسلحة (لا تستمرّ ميثولوجيا الحرب بكاملها في الفضة وحسب، بل هي فيها عامل فعّال). الحلّي هو الاّفعالات التي

تتلاءم مع الأسلحة، إنه محمول على نفس الموجّه - السرعة.

صناعة الحلّي، صناعة المجوهرات، الزّخرفة، وحتّى التّزيين لا تشكّل كتابة، مع أنّها لها قدرة تجريد لا تقلّ عنها في شيء. غير أنّ هذه القدرة منضّدة بكيفيّة مغايرة. بالنّسبة إلى الكتابة، المترحّلون ليسوا في حاجة لاستحداث كتابة، وهم يستعيرونها من جيرانهم الإمبراطوريّين المستقرّين الذين يمدّونهم حتى بتدوين صوّاتيّ [٥٠٠] لألستهم^(١). «صناعة الحلّي هي الفنّ البرابريّ بامتياز، المصوغات المشبّكة، التّغطيات المذهّبة أو المفضّضة. (...) اتّجه الفنّ السكيثيّ المرتبط باقتصاد مترحّل وحربيّ، الذي يستعمل ويستبعد في نفس الوقت التّجارة الخاصّة بالغرباء، نحو هذا المظهر الباذخ والتّزيينيّ. لن يكون البرابريّون مضطّرين لامتلاك أو إبداع تقنين دقيق، لرسم خطّيّ بسيط على سبيل المثال، ناهيك عن كتابة مقطعيّة قد تكون دخلت علاوة على ذلك في تنافس مع تلك التي يستعملها جيرانهم الأكثر تقدّما. حوالي القرنين الرّابع والثّالث قبل الميلاد، هكذا يتّجه الفنّ السكيثيّ للبحر الأسود نحو تخطيط بيانيّ للأشكال، يجعل منه زخرفا خطّيّا أكثر منه كتابة- أوّليّة^(٢).» الأكّد أنّه من الممكن الكتابة على الحلّي، على صفائح معدنيّة أو حتّى على أسلحة؛ لكن بمعنى تطبيق كتابة موجودة سلفا على هذه الموادّ. مربكة أكثر هي حالة الكتابة الرونيّة، لأنّها تبدو في الأصل مرتبطة حصريّا بالحليّ، بالمشابك، بصناعة الحلّي، بالأشياء الصّغيرة المنقولة. لكن بشكل محدّد لم يكن للرونيّة في بداية عهدها غير قيمة تواصل ضعيفة ووظيفة عموميّة محدودة جدّا. خاصّيّتها

(١) راجع بول بليو، «أنظمة الكتابة المستعملة عند المغول القدامى»، آسيا الكبرى، ١٩٢٥: كان المغول يستعملون الكتابة اليفغوريّة بأبجديّة سريانيّة (سيضع التّيبتيّون نظريّة صوّاتيّة للكتابة اليفغوريّة)؛ الرّوايتان اللّتان وصلتا إلينا عن ال«تاريخ السريّ للمغول»، إحداهما ترجمة صينيّة والأخرى تدوين صوّاتيّ بأحرف صينيّة.

(٢) جورج شاريار، الفنّ التّقبيل السكيثيّ، منشورات دائرة الفنّ، ص ١٨٥.

السّرّيّة غالبا ما أدّت إلى تأويلها على أنّها كتابة سحرية. يتعلّق الأمر بالأحرى بسيميائية عاطفية قد تحمل خاصّة: (١) توافيق بوصفها علامات انتماء أو صنّع؛ (٢) رسائل حرب أو حبّ قصيرة. قد تكون «نصّا زخرفيا» بدلا من نصّ كتابي، «ابتكارا قليل الفائدة ونصف مجهّض»، بدلا عن الكتابة. لا تكون لها قيمة كتابة إلا في فترة ثانية، حيث تظهر النقوش الضخمة مع الإصلاح الدنماركي في القرن التاسع بعد الميلاد، في علاقة بالدولة وبالعمل^(١).

يمكن الاعتراض بأنّ الأدوات، الأسلحة، العلامات، الحلّي نلتقيها بالفعل في كلّ مكان، في نطاق مشترك. لكن ليس ذلك هو المشكل، ناهيك عن البحث عن أصل في كلّ حالة. يتعلّق الأمر بتعيين تنضيدات، أي بتحديد السمات الفارقة التي ينتمي في ظلّها عنصر بشكل صوريّ إلى تنضيد معيّن بدلا من تنضيد آخر. قد نقول كذلك إنّ الهندسة المعماريّة والمطبخ ينسجمان مع جهاز الدولة، بينما للموسيقى وللمخدّرات سمات فارقة [٥٠١] تضعهما جهة مكنة حرب مترحلة^(٢). إنّهُ إذاً منهج تفاضليّ يؤسّس لتمييز بين الأسلحة والأدوات، من خمس زوايا على الأقل: الاتجاه (القذف - التبطّن)، الموجّه (السّرعَة - الثّقالة)، التّموذج (فعل حرّ - عمل)، التّعبير (حلّيّ - علامات)، التّغميّة العاطفيّة أو الرّاغبيّة (أفعال - إحساس). ودون شكّ يسعى جهاز الدولة

(١) راجع ميساي، مقدّمة لدراسة الرّويّة، منشورات أوبييه.

(٢) ثمة بطبيعة الحال مطبخ وهندسة معماريّة في مكنة الحرب المترحلة، لكن وفق «سمة» تميّزهما عن شكلهما الحضريّ. الهندسة المعماريّة المترحلة، الإغلو-أسكيمو مثلا، القصر الخشبيّ الهونيّ، هو اشتقاق من الخيمة؛ تأثيره على الفنّ الحضريّ يتأتّى من القباب وأنصاف القباب، خاصّة من إقامة فضاء يبدأ منخفضا جدّا كما في خيمة. أمّا المطبخ المترحلّ فهو مطبخ يتمثّل حرفيا في قطع الصّوم (التقليد الفصحيّ ترخليّ). وبسمتها هذه يمكنها الانتماء إلى مكنة حرب: على سبيل المثال، للإنكشاريين قِدر هو بمثابة مركز تجمع، رُتب للظّهة، وقبعتهم تشقّها ملعقة من خشب.

إلى توحيد الأنظمة، بأن يفرض الانضباط على جيوشه وبأن يجعل من العمل وحدة قاعدية، أي بفرض خاصياته هو. لكن ليس من المستبعد أن تدخل الأسلحة والأدوات كذلك في علاقات تحالف أخرى، إذا أُخذت في تنضيدات جديدة لانقلابات عين. يحدث أن يشكّل رجل الحرب تحالفات مع المزارعين أو مع العمّال، لكن خاصّة على الكادح، عاملاً كان أو مزارعاً، أن يعيد ابتكار مكنة حرب. يقدّم المزارعون مساهمة مهمّة في تاريخ المدفعية إبان الحروب الهوسية، عندما سلّح زيسكا القلاع المتحرّكة المصنوعة من عربات تجرّها الثيران بمدافع محمولة. انسجام عامل- جنديّ، سلاح- أداة، إحساس- أفعال، يطبع اللحظة المناسبة للثورات وللحروب الشعبية، حتّى وإن كانت لحظة خاطفة. ثمّة مذاق فُصاميّ للأداة، يجعلها تمرّ من العمل إلى الفعل الحرّ، مذاق فُصاميّ للسلاح يجعله يمرّ إلى وسيلة سلّم، حصول على السّلام. في نفس الوقت ردّ ومقاومة. كلّ شيء ملتبس. لكننا لا نعتقد أنّ تحليلات يونغر يبطلها هذا الالتباس، عندما ينشئ صورة «المتمرّد» بوصفها صورة عابرة للتّاريخ، تدفع العامل من ناحية والجنديّ من ناحية أخرى، على خطّ إفلات مشترك، حيث نقول في نفس الوقت «أشحذ سلاحاً» و«أبحث عن أداة»: رسم الخطّ، أو الأمر سواء، عبور الخطّ، تجاوز الخطّ، بما أنّ الخطّ لم يقع رسمه إلّا بتجاوز خطّ الفصل^(١). لا شكّ [٥٠٢] أنّه ليس ثمّة شيء تمّ تجاوزه أكثر من رَجُل الحرب: لقد تحوّل منذ زمن طويل إلى شخصيّة أخرى

(١) إنّهُ في مبحث المتمرّد (منشورات بورغوا) يعارض يونغر بالشّكل الأوضح القومية- الاشتراكية، ويطوّر بعض الملاحظات الواردة في كتاب العمّال: تصوّر لل«خطّ» من حيث هو إفلات نشط، وهو يمرّ بين صورتيّ الجنديّ القديم والعامل الحديث، صاحباً الصّورتين نحو مصير آخر، في تنضيد آخر (لا شيء يبقى من هذا المظهر في تأملات هيدغر حول مصطلح الخطّ، التي أهداها مع ذلك ليونغر).

مختلفة تماما هي شخصية العسكريّ. والعامل ذاته خضع للعديد من
 البلايا . . . لكن مع ذلك ينبعث رجال حرب مع الكثير من الالتباسات:
 إنهم كلّ الذين يعرفون عدم فائدة العنف لكنهم مجاورون لمكنة حرب
 عليهم إعادة صنعها، مكنة ردّة فعل نشطة وثورّة. ينبعث عمّال أيضا لا
 يؤمنون بالعمل لكنهم مجاورون لمكنة عمل عليهم إعادة صنعها، مكنة
 مقاومة نشطة وتحرّر تكنولوجيّ. لن يقوموا بإحياء ميثاث قديمة أو
 وجوه عتيقة، إنهم الوجه الجديد لتنضيد عابر للتاريخ (لا هو تاريخيّ
 ولا هو أبديّ بل هو لا تزمُنيّ): المحارب المترحلّ والعامل الجوّال.
 لقد سبقتهم بالفعل وجوه كاريكاتورية بائسة، المرتزق أو المدرّب
 العسكريّ المتنقّل، والتّقنقراطيّ أو المحلّل المتنقّل، وكالة
 الاستخبارات الأميركية والمؤسسة الدّولية للحواشيب الآلية. لكنّ وجوها
 عابرا للتاريخ عليه أن يدافع عن نفسه ضدّ الميثاث القديمة كما ضدّ
 التّشويهاات المسبّقة والاستباقية. «لا نعود إلى الوراء لاسترداد الميثّة،
 إنّنا نلتقيها مجدّدا عندما يهزّ الزّمن إمبراطوريّة الخطر الأقصى من
 جذورها». لا قيمة لفنون القتال وللتّقنيات المتطوّرة إلّا بإمكانية
 تجميعهما لكتل عاملة ومحاربة من نوع جديد. خطّ إفلات مشترك
 للسّلاح وللأداة: إمكان محض وطفرة. يتكوّن تقنيّون تحأرضيّون،
 جويّون، تحبّحيّون، ينتمون تقريبا للنّظام العالميّ، لكنهم يبتكرون
 ويجمعون لا إراديا شحنات معرفة وفعل افتراضيّين، يمكن استعمالهما
 من طرف آخرين، دقيقين ومع ذلك من اليسير اكتسابهما من أجل
 تنضيدات جديدة. بين حرب العصابات والجهاز العسكريّ، بين العمل
 والفعل الحرّ، تمّت الاستعارات دائما في الاتّجاهين من أجل صراع
 أكثر تنوّعا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

المشكل الثالث: كيف يبتكر المترحلون أسلحتهم أو يعثرون عليها؟

القضية الثامنة: يكونّ التعدين من تلقاء ذاته دفقا يتآزر حتما مع الترحّل.

شعوب الفيفاء أقلّ شهرة بنظامها السّياسي، الاقتصادي والاجتماعي من شهرتها بما تضيفه من تجديدات حربيّة، من زاوية الأسلحة الهجوميّة والدّفاعيّة، من زاوية التّوليف الاستراتيجيّ، من زاوية العناصر التّكنولوجيّة (السّرج، الرّكاب، الزّخرفة، عُدة الحصان...). يعترض التّاريخ في كلّ مرّة، لكنّه لا يتوصّل إلى محو الآثار المترحّلة. ما يبتكره المترحلون هو التّنضيد [٥٠٣] إنسان-حيوان-سلاح، إنسان-حصان-قوس. ومن خلال تنضيد السّرعة هذا، تتميّز عصور المعدن بالتّجديدات. فأس الهكسوس البرنزية ذات الحلقة وسيف الحثّيين الحديديّ أمكنت مقارنتهما بقنابل ذرّيّة صغيرة. أمكن القيام بتحقيب دقيق كفاية لأسلحة الفيفاء، ببيان أشكال التّناوب بين التّسلّح الثقيل والخفيف (النّمت السكيثيّ والنّمت السّارماتيّ)، وشكلهما المختلط. حسام الفولاذ المصهور، المقوّس والأبتر عادة، سلاح قاطع وموارب، يغطّي فضاء ديناميّا آخر غير الذي يغطّيه السّيف المصنوع من الحديد المسبوك، الذي يُستعمل للطّعن مواجهة: السكيثيّون هم الذين حملوه إلى الهند وبلاد الفُرس، حيث سيأخذه العرب. نسلم أنّ المترحلّين يفقدون دورهم الرّياديّ مع الأسلحة النّاريّة وخاصّة مع المدفع («لقد تغلّب البارود على سرعتهم»). لكنّ ذلك ليس ناتجا حتما عن عدم قدرتهم على استعماله: ليست وحدها الجيوش مثل الجيش التّركيّ، الذي ظلّت تقاليده التّرحليّة حيّة، ستطوّر قدرة ناريّة هائلة، فضاء جديدا؛ بل بشكل أكثر خصوصيّة، اندمجت المدفعية الخفيفة بشكل جيّد في التّشكيلات المتحرّكة للعربات ولسفن القراصنة،

إلخ. إذا كان المدفع يعيّن حدًا للمترحلين، فبالأحرى لأنّه يستتبع استثمارا اقتصاديًا وحده جهاز الدولة يقدر عليه (حتى المدن التجاريّة لن تكون كافية للقيام به). يبقى أنّه بالنسبة إلى الأسلحة البيضاء، وحتى بالنسبة إلى المدفع، نعث من جديد باستمرار على مترحل في الأفق من هذه السّلالة التكنولوجيّة أو تلك^(١).

بطبيعة الحال، كلّ حالة تثير جدلا: على سبيل المثال، النقاشات الكبرى حول الرّكاب^(٢). ذلك أنّه من العسير التّمييز بعامة بين ما يعود إلى المترحلين من حيث هم مترحلون، وما يتلقّونه من إمبراطوريّة يتواصلون معها، يغزونها أو يندمجون فيها. بين جيش إمبراطوريّ ومكنة حرب مترحلة، ثمة الكثير من الحدود الغامضة، الوسائط أو التّوليفات، بحيث أنّه غالبا ما تأتي الأشياء أولا من الجيش الإمبراطوريّ. مثال الحسام نموذجيّ، وعلى النقيض من الرّكاب الذي لا يقين بخصوصه. إذا كان صحيحا أنّ السكيثيين هم مرّوجو الحسام، وحملوه إلى الهند والفرّس والعرب، فإنّهم [٥٠٤] كانوا أولى ضحاياه، لقد بدأوا بتحمّله؛ الإمبراطورية الصّينية للتّسين والهان هي التي ابتكرته، وهي المتحكّمة الحصريّة بالفولاذ المصهور أو بالبوتقة^(٣). ذلك سبب إضافيّ لنعيّن في

(١) لينّ وايت، الذي هو مع ذلك غير مؤيد لقدرة المترحلين على التّجديد، يقيم أحيانا سلاطات تكنولوجية واسعة أصلها مفاجيء: تقنيات الهواء الحارّ والتّوربينات التي قد تكون أتت من ماليزيا (التكنولوجيا القروسطيّة والتغيّرات الاجتماعيّة، منشورات موتون، صص ١١٢-١١٣: «هكذا يمكن أن نكتشف سلسلة من المثيرات التّقنية انطلاقا من بعض الأشكال الكبرى لعلم وتقنية بداية الأزمنة الحديثة، مروراً بالعصر الوسيط، وصولاً إلى أدغال ماليزيا. ابتكار ماليزيّ ثان، المكبس كان له دون شكّ تأثير مهمّ على دراسة الضّغط الهوائيّ وتطبيقاته»).

(٢) حول مسألة الرّكاب المعقّدة بشكل خاصّ، راجع لينّ وايت، الفصل الأوّل.

(٣) راجع المقال الجميل لمازاهيرى «الحسام ضدّ السيّف»، الحوليات، ١٩٥٨. الاعتراضات التي تقدّمها أسفله لا تغيّر شيئا من أهميّة هذا النصّ.

هذا المثال الصّعوبات التي تعترض الأركيولوجيين والمؤرّخين الحديثين. كره معيّن للمترحّلين أو احتقارهم لا يستثني حتّى الأركيولوجيين. في حالة الحسام، حيث تشير الوقائع فعليًا بشكل كاف لصالح أصل إمبراطوريّ، يعتقد أفضل المعلّقين أنّه يجب أن نضيف كون السكيثيين لم يكونوا في كلّ الأحوال قادرين على ابتكاره بما أنّهم كانوا مترحّلين بؤساء، والفضول المصهور في بوتقة كان يأتي حتما من موقع حضريّ. لكن لم نعتبر، وفق الرواية الصينيّة الرّسميّة القديمة جدّا، أنّ فارّين من الجيش الإمبراطوريّ قد يكونون أفسحوا السّرّ للسكيثيين؟ وما الذي يعنيه «إفشاء السّرّ» إذا لم يكن السكيثيون قادرين على استعماله ولم يكونوا يفهمون منه شيئا؟ الفارّون يُتهمون باطلا. لا نصنع قبلة دُرّيّة بواسطة سرّ، لا نصنع فضلا عن ذلك حساما ما لم نكن قادرين على إعادة صنعه وعلى إدماجه في ظروف أخرى وعلى نقله إلى تنضيدات أخرى. الانتشار والترويج ينتميان بالتّمام إلى خطّ التّجديد؛ إنهما يؤشّران على إقراره. وأكثر من ذلك: لمّ القول إنّ الفضول المصهور في بوتقة هو الملكيّة المحتومة للحضريّين أو الإمبراطوريّين، بينما هو أوّلا من ابتكار المعدّنين؟ نفترض أنّ هؤلاء المعدّنين مراقبون حتما من طرف جهاز الدّولة؛ لكنهم يتمتّعون ضرورة كذلك باستقلاليّة تكنولوجيّة معيّنة، وبسرّيّة اجتماعيّة، تجعلانهم حتّى وإن كانوا مراقبين، لا ينتمون إلى الدّولة أكثر من كونهم هم ذاتهم مترحّلون. ليس ثمة فارّون يفشون السّرّ، بل ثمة مُعدّنون ينقلونه ويجعلون تكييفه ونشره ممكنين: ذلك ضرب مغاير تماما من «الخيانة». في نهاية المطاف، ما يجعل النقاشات عسيرة جدّا (بالنسبة إلى حالة الرّكّاب المثيرة للجدل كما بالنسبة إلى الحالة المؤكّدة للحسام)، ليست هي الأحكام المسبّقة حول المترحّلين وحسب، إنّها غياب مفهوم تفصيليّ بشكل كاف للخطّ التكنولوجيّ (ما الذي يعرف خطّا أو اطرادا تكنولوجيا، وامتداده المتغيّر من هذه الرّواية أو تلك؟).

قد لا يكون ثمة جدوى من القول إنّ التعدين عِلْمٌ لأنّه يكتشف قوانين ثابتة، على سبيل المثال درجة حرارة انصهار معدن في كلّ الأوقات وفي كلّ الأمكنة. ذلك أنّ التعدين [٥٠٥] لا ينفصل أولاً عن الكثير من خطوط التغيّر: تغيّر الأحجار النيزكيّة والمعادن الأصليّة؛ تغيّر المعادن الخام ونسب المعدن؛ تغيّر السبائك سواء كانت طبيعيّة أو غير طبيعيّة؛ تغيّر العمليّات المجراة على المعدن؛ تغيّر الخصائص التي تمكّن من هذه العمليّة أو تلك، أو التي تصدر عن هذه العمليّة أو تلك. (على سبيل المثال، اثنا عشر صنفاً من النحاس وقع تمييزها وإحصاؤها في سومر، وفق مواقعها الأصليّة ووفق درجات التّنقيّة^(١)). كلّ هذه التغيّرات يمكن تجميعها في بابين كبيرين: الفِرادات أو الهذيات المكانية- الزمانيّة، من أصناف مختلفة، والعمليّات المرتبطة بها بوصفها سيرورات تشوّه أو تغيّر؛ الخصائص الوجدانيّة أو سمات التّعبير من مستويات مختلفة، متناسبة مع هذه الفِرادات والعمليّات (الصّلاية، الوزن، اللّون، إلخ.). لنعد إلى مثال الحسام أو بالأحرى إلى مثال الفولاذ المصهور في البوتقة: إنّهُ يستتبع تفعيل فِردة أولى هي صهر الحديد في درجة حرارة عالية؛ ثمّ فِردة ثانية تحيل على إزالة كُربنات متتاليّة؛ سمات تعبير تناسبها، ليست هي الصّلاية، القاطع، المصقول وحسب، إنّما كذلك الموجات أو الرّسوم المرسومة بالتّبَلر، النّاتجة عن البنية الدّاخلية للفولاذ المصهور. يحيل السّيف الحديديّ على فِرديات أخرى مغايرة تماماً، بما أنّه مصنوع من تطريق الحديد وليس مصهوراً، ليس مصبوبة في قالب، مبلّلاً بالماء وليس مبرّداً في الهواء، منتج بالقطعة وليس مصنوعاً تسلسليّاً؛ سماته التّعبيريّة مختلفة جدّاً بالضرّورة، بما أنّه يطعن بدلاً من البتر، يطعن أماميّاً بدلاً من

(١) هنري ليماي، خدمة المعدن في بلاد سومر زمن السّلالة الثالثة الحاكمة في أور، منشورات الآداب والفنون، صص ٣٣-٤٠.

المواربة؛ وحتىّ الرّسوم التّعبيريّة فيه يقع الحصول عليها بكيفيّة مغايرة تماما، بالتّرصيع^(١). سيكون بمقدورنا الحديث عن شعبة مكنيّة أو عن خطّ تكنولوجيّ في كلّ مرّة سنجد فيها ذواتنا أمام جملة من الفرادات القابلة للتّمّد بواسطة عمليّات تتلاقى وتجعل تلك الفرادات تتلاقى على سمة أو على سمات تعبير يمكن تعيينها. إذا تباعدت الفرادات أو العمليّات في موادّ مختلفة أو في نفس الموادّ، يجب التّمييز بين شعبتين مختلفتين: هكذا فعلا بالنّسبة إلى السّيف الحديديّ المتأّتي من الخنجر، والحسام الفولاذيّ المتأّتي من السّكين. [٥٠٦] لكلّ شعبة فراداتها وعمليّاتها، خصائصها وسماتها التي تحدّد علاقة الرّغبة بالعنصر التّقنيّ (أفعالات الحسام ليست هي ذاتها نفس أفعالات السّيف).

من الممكن البقاء دائما في مستوى فرادات قابلة للتّمّد من شعبة إلى أخرى، وجمع الشّعبتين. على أقصى حدّ، ليس ثمة غير نفس الخطّ التّطوّريّ الواحد، نفس الشّعبة المكنيّة الواحدة، المتّصلة فكريّا: دفع المادّة- الحركة، دفع المادّة المتغيّرة باستمرار، تغيّرا حاملا للفردات ولسمات التّعبير. هذا الدّفق الإجماليّ والتّعبيريّ هو في نفس الوقت طبيعيّ واصطناعيّ: إنه بمثابة وحدة الإنسان والطبيعة. لكنه في نفس الوقت لا يتحقّق هنا والآن دون أن ينقسم وينفرد. سنسمّي تنفيذا كلّ جملة فرادات وسمات مقتطّعة من الدّفق- منتقاة،

(١) يبيّن مازاهيري بوضوح في هذا المعنى كيف أنّ الحسام والسّيف يحيلان على خطّين تكنولوجيّين متميّزين. خاصّة التّوشية، التي لم تأت إطلاقا من دمشق، إنّما من الكلمة اليونانيّة أو الفارسيّة التي تعني الألماس، تشير إلى معالجة الفولاذ المصهور وجعله بنفس صلابة الألماس، وإلى الرّسوم التي تُنقش في هذا الفولاذ عن طريق تبلّر كربيد الحديد («كانت التّوشية الحقيقيّة تتمّ في مراكز لم تخضع أبدا للهيمنة الرّومانيّة»). لكن من الجهة الأخرى، التّوشية التي تأتي من دمشق، تشير فقط إلى ضروب ترصيع المعدن (أو القماش)، التي هي بمثابة رسوم اختياريّة تحاكي التّوشية بوسائل أخرى مغايرة تماما.

منظمة، متراصفة- بطريقة تجعلها تتلاقى (قوام) اصطناعياً وطبيعياً: تنضيد بهذا المعنى هو ابتكار حقيقي. يمكن للتنضيدات أن تتجمع في مجموعات واسعة جداً تكون «ثقافات» أو حتى عصوراً؛ ناهيك عن تفريقها للشعبة أو للدفق، تقسيمه إلى العديد من الشعب المتنوعة، ذات نظام معين وذات مستوى معين، وتدخل انفصالات انتقائية في الاتصالات الفكرانية للمادة- الحركة. في نفس الوقت، تقسم التنضيدات الشعب إلى خطوط منفردة متميزة، والشعبة المكنية تخترقها جميعها، تغادر الواحدة لتنتقل من جديد في أخرى، أو تجعل الشعب متواجدة معاً. فرادة معينة مطمورة في أحشاء الشعب، كيمياء الكربون مثلاً، سيقع جلبها إلى السطح بتنضيد معين ينتقيها، ينظمها، يبتكرها، وبالتالي بواسطته تمرّ شعبة أو بعضها، في مكان معين وفي وقت معين. سنميز في كل الأحوال بين خطوط كثيرة مختلفة جداً: بعض الخطوط تطورية نسالية، تمرّ إلى المسافة الطويلة عن طريق تنضيدات عصور وثقافات متنوعة (من السبطانة إلى المدفع؟ من طاحونة الصلوات إلى المروحة؟ من الدّوامة إلى المحرك؟)؛ بعض الخطوط الأخرى تكوينية، كائنة داخل تنضيد، وتربط فيه بين مختلف العناصر، أو تنقل عنصراً، مع تأخر زمني في غالب الأحيان، إلى تنضيد آخر ذي طبيعة مختلفة، لكنّه من نفس الثقافة أو من نفس العصر (مثلاً، حدوة الحصان التي تنتشر في التنضيدات الزراعيّة). يجب أن نأخذ في الاعتبار إذا، التأثير الانتقائي للتنضيدات على الشعب، والتفاعل التطوري للشعبة من حيث هي خيط تحارضي يمرّ من تنضيد إلى آخر، أو يخرج من تنضيد، يسحب ويفتحه. توثب حيوي؟ ذهب لوروا غورون إلى أقصى مدى في حيوية تكنولوجية تُقوّب التطور التقني على التطور البيولوجي بعامّة. نزوع كليّ، مشحون بكلّ الافرادات وسمات التعبير، يخترق أوساطاً داخلية وتقنيّة [٥٠٧] تكسره أو تفرقه تبعاً لافرادات وسمات وقع الاحتفاظ بها، انتقاؤها، جعلها متقاربة ومبتكرة

من قِبَل كلِّ وسط^(١). ثمة شعبة مكنية متغيرة تخلق التّنضيدات التّقنيّة، بينما تبتكر التّنضيدات الشُّعب المتغيرة. يتغيّر خطّ تكنولوجياي كثيرا وفق رسمه على الشُّعبة أو تدوينه في التّنضيدات؛ لكن الشُّعبة كما التّنضيد لا ينفصلان.

إذن، كيف نعرّف هذه المادّة- الحركة، هذه المادّة- الطّاقة، هذه المادّة- الدّفق، هذه المادّة المتغيرة، التي تدخل في التّنضيدات وتخرج منها؟ إنّها مادّة لا مترافعة، لا متأرضنة. يبدو لنا أنّ هوسرل جعل الفكر يتقدّم خطوة حاسمة عندما اكتشف منطقة ماهيّات مادّية ومبهمّة، أي متشرّدة، متحيّرة ومع ذلك صارمة، مميّزا إيّاها عن الماهيّات الثّابتة، المتريّة والصّوريّة. لقد رأينا أنّ هذه الماهيّات المبهمة ليست أقلّ تمايزا عن الأشياء المتشكّلة منها عن الماهيّات الصّوريّة. إنّها تكوّن مجموعات غائمة. إنّها تفرز جسميّة (مادّية) لا تختلط لا مع الماهويّة الصّوريّة المعقولة ولا مع الشّيئيّة الحسيّة، المتشكّلة والمدرّكة. لهذه الجسميّة خاصيّتان: من ناحية هي غير منفصلة عن الانتقالات القصوى بوصفها تغييرات حال، سيرورات تشوّه أو تغيّر عاملة في مكان- زمان هو ذاته متحيّر، عاملة على طريقة أحداث (استئصال، ضمّ، إسقاط...)؛ من ناحية أخرى هي غير منفصلة عن خاصّيات تعبيرية أو اشتدادية، تقبل الزّيادة والنّقصان، وهي حادثة على شاكلة أفعالات متغيرة (مقاومة، صلابة، وزن، لون، ...). ثمة إذاً تزاوج جوال أحداث- أفعالات يكوّن الماهيّة الجسميّة المبهمة، ويتمايز عن الرّابطة الحضريّة «ماهية ثابتة- خصائص في الشيء صادرة عنها»، «ماهية صوريّة- شيء متشكّل». ولا ريب أنّ هوسرل كان له

(١) لوروا غورون، وسط وتقنيّات، منشورات ألبان ميشال، ص ٣٥٦ وما يليها. استعاد جيلبار سيموندون، على سلسلات قصيرة، مسألة «الأصول المطلقة لخطّ تقنيّ»، أو خلق «ماهية تقنيّة»: في نمط وجود الأشياء التقنيّة، منشورات أوبييه، ص ٤١ وما بعدها.

ميل ليجعل من الماهية المبهمة ضربا من الوسيط بين الماهية والمحسوس، بين الشيء والمفهوم، فيما يشبه التّبيان الكانطيّة. أليس المدوّر ماهية مبهمّة أو تبيانيّة، وسيطة بين الأشياء المدوّرة الحسيّة والماهيّة المفهوميّة للدّائرة؟ بالفعل، لا يوجد المدوّر إلّا بوصفه أفعالا - عتبة (لا هو مسطّح ولا هو مدبّب) وبوصفه سيرورة - حدّا (تدوير)، من خلال أشياء حسيّة وأدوات تقنيّة، مطحنة، مخرطة، عجلة، مغزل، غمد... لكنّه ليس «وسيطا» بالتّالي إلّا من حيث أنّ الوسيط قائم برأسه [٥٠٨]، يمتدّ هو ذاته أوّلا بين الأشياء وبين الأفكار، ليقيم علاقة جديدة تماما بين الأفكار والأشياء، ليقيم وحدة مبهمّة بينهما.

بعض التّمييزات التي اقترحها سيموندون يمكن مقارنتها بتمييزات هوسرل. ذلك أنّ سيموندون يشجب قصور النّموذج التّكنولوجيّ مادّة - صورة، من حيث افتراضه صورة ثابتة ومادّة يُنظر إليها بوصفها متجانسة. إنّها فكرة القانون هي التي تؤمّن الانسجام لهذا التّموذج، بما أنّ القوانين هي التي تُخضع المادّة لهذه الصّورة أو تلك، وعكسيّا هي التي تحقّق في المادّة خاصيّة أساسيّة معيّنة مستنبطة من الصّورة. لكنّ سيموندون يبيّن أنّ التّموذج الهيلومورفيّ يترك جانبا الكثير من الأشياء، الفاعلة والوجدانيّة. من ناحية، يجب أن نضيف للمادّة المتشكّلة أو القابلة للتّشكّل، مادّية طاقية متحرّكة، حمّالة لفردات أو هذيات هي بالفعل بمثابة صور ضمنيّة، طوبولوجيّة بدلا من كونها هندسيّة، وتتألف مع سيرورات تشوّه: مثلا، التّموّجات والانفتالات المتغيّرة لألياف الخشب التي تتمّ على إيقاعها عمليّة نشر الزوايا طوليا. من ناحية أخرى، يجب أن نضيف للخصائص الماهويّة التي تتسرّب في مادّة الماهيّة الصّوريّة، أفعالات شدّديّة متغيّرة، تنتج تارة من العمليّة، وتارة على النقيض من ذلك تجعلها ممكنة، مثلا خشب مساميّ نسبيا، مطّاط ومقاوم نسبيا. على أيّة حال، يتعلّق الأمر باتّباع الخشب وبالاتّباع على

الخشب، بالربط بين عمليّات ومادّية، بدلا من فرض صورة على مادة: لا نتوجّه إلى مادة خاضعة لقوانين بقدر ما نتوجّه إلى مادّية تمتلك ناموسا. لا نتوجّه إلى صورة قادرة على فرض خصائصها على المادة بقدر ما نتوجّه إلى سمات تعبير مادّية تُكوّن أفعالات. بطبيعة الحال، من الممكن دائما «أن نترجم» في نموذج ما يفلت من هذا التّموذج. يمكننا هكذا أن نُرجع قدرة تغيّر المادّية إلى قوانين تُكيّف صورة ثابتة ومادة مستقرّة. لكنّ ذلك لن يكون دون التّواءات تتمثّل في انتزاع المتغيّرات من حالة تغيّرها الدّائمة، لنستخلص منها نقاطا ثابتة وعلاقات مستقرّة. نقوم إذا بقلب المتغيّرات، نغيّر حتّى طبيعة المعادلات التي تتوقّف عن أن تكون محايدة للمادة- الحركة (متباينات، متلائمات). لا تتمثّل المسألة في معرفة ما إذا كانت ترجمة معيّنة مشروعة مفهوميّا، إذ أنّها كذلك، إنّما فقط في معرفة أيّ حدّس نضيعه فيها. باختصار، ما يؤاخذ به سيموندون التّموذج الهيلومورفيّ، هو اعتباره الصّورة والمادة بمثابة حدّين كلّ واحد منهما معرّف من جانبه، بمثابة طرفي نصفيّ سلسلتين لم نعد نفهم كيف يقترنان، بمثابة مجرد علاقة [٥٠٠٩] قولبة لم نعد ندرك في ظلّها التعديل المتواصل المتغيّر باستمرار^(١). نقد الخطاطة الهيلومورفية يقوم على «وجود منطقة حجم متوسط ووسيط بين الصّورة والمادة»، منطقة طاقية، هبائية، - فضاء خاصّ بكامله يبسط مادّيته عبر المادة، عدد خاصّ بكامله يُنبِت سماته عبر الصّورة...

نعثر دائما من جديد على هذ التعريف: الشّعبة المكنية هي المادّية

(١) حول العلاقة قالب- تعديل وحول الكيفية التي تخفي بها القولبة أو تقلّص عملية تعديل أساسية بالنسبة إلى المادة- الحركة، راجع سيموندون، صص ٢٨- ٥٠ («التعديل والقولبة بكيفية مستمرة ومتغيرة دوما»، ص ٤٢). يبيّن سيموندون بوضوح أنّ الخطاطة الهيلومورفية لا تدين بسلطانها للعملية التكنولوجية، إنّما للتّموذج الاجتماعيّ للعمل الذي يجعل تلك العملية تابعة له (صص ٤٧- ٥٠).

الطبيعية أو الاصطناعية، والاثنتان معا، المادة المتحركة، المندفقة، المتغيرة، من حيث هي حمالة فرادات وسمات تعبير. تصدر عن ذلك نتائج يقينية: ذلك أن هذه المادة- الدفق لا يمكن إلا اتباعها. لا شك أن هذه العملية التي تتمثل في الاتباع يمكن القيام بها على عين المكان: حِرْفِيّ يَسْحَج الخشب يتبعه ويتبع ألياف الخشب دون أن يتنقل من مكانه. لكن طريقة الاتباع هذه ليست غير متتالية خاصة من سيرورة أعم. ذلك أن الحِرْفِيّ مرغم فعلا على الاتباع بطريقة مغايرة، أي بالذهاب للبحث عن الخشب حيث هو، وعن الخشب ذي الألياف التي يحتاجها. أو إن لم يكن ذلك، يحملونه إليه: ذلك أن التاجر يتحمل فقط جزء من المسافة في الاتجاه المعاكس الذي يتجنب فيه الحِرْفِيّ قطع المسافة بنفسه. لكن الحِرْفِيّ ليس حِرْفِيّا كاملا إلا إذا كان كشافا أيضا؛ والتنظيم الذي يفصل بين الكشاف، التاجر والحِرْفِيّ، يعيق الحِرْفِيّ بالفعل ليجعل منه «شعّالا». سنعرّف الحِرْفِيّ إذا بصفته ذاك الذي هو مصمّم على اتباع دفق مادة، اتباع شعبة مكنية. إنه النقيض، الجوّال. اتباع دفق المادة هو انتقال وتحوّل. إنه الحدس بالفعل. الآكد أنه ثمة انتقالات ثانية حيث لم يعد دفق المادة هو الذي نستكشفه ونتبعه، بل هو دفق السوق على سبيل المثال. غير أنه دائما دفق هو الذي نتبعه، مع أن هذا الدفق لم يعد هو دفق المادة. وثمة خاصة انتقالات ثانوية: هذه المرة هي الانتقالات الصادرة من «شرط» آخر، حتّى وإن صدرت عنه حتما. مثلا، منتجّع، سواء كان مزارعا، مربّي مواشي، يغيّر الأرض التي هو فيها وفق استنزافها أو وفق الفصول؛ لكنه لا يتبع دفقا أرضيا إلا بشكل ثانوي، بما أنه يقوم أولا بدورة تهدف منذ البداية إلى جعله يعود إلى النقطة التي غادرها، عندما سيعاد تجديد الغابة، عندما تكون الأرض قد ارتاحت، والموسم قد تحوّل. المنتجّع لا يتبع دفقا، [٥١٠] إنه يرسم مساراً، ولا يتبع من دفق غير ما يمرّ في المسار، حتى وإن تزايد اتّساعه. المنتجّع ليس نقيلا إذاً إلا

بالنتيجة، أو لا يصير كذلك إلا عندما يُستنفد مسار أراضيه أو مراعيه، وعندما تكون دورته متسعة للغاية بحيث تفلت الاندفاعات من المسار. التاجر ذاته منتج، من حيث أنّ الاندفاعات التجارية تكون تابعة لدورة نقطة انطلاق ونقطة وصول (البحث- الاستجلاب، الاستيراد- التصدير، الشراء- البيع). مهما كانت الاستباعات المتبادلة، ثمّة دائماً فروق كبرى بين دفع ومسار. المهاجر مثلما رأينا ذلك، ما يزال شيئاً آخر. والمترحل لا يتحدّد أولاً بصفته نقيلاً ولا بصفته منتجاً ولا بصفته مهاجراً مع أنّه كذلك بالنتيجة. التّحديد الابتدائي للمترحل هو بالفعل أنّه يحتلّ ويشغل فضاء أملس: من هذا الجانب هو محدّد بصفته مترحلاً (ماهية). لن يكون في ما يخصّه منتجاً ونقيلاً إلا بموجب اقتضاءات فرضتها الفضاءات الملساء. باختصار، أيّا كانت الاختلاطات الواقعية بين التّرحل والانتقال والانتجاع فإنّ المفهوم الأوّل ليس هو ذاته في الحالات الثلاث (فضاء أملس، مادّة- دفع، دوران). لكن انطلاقاً من المفهوم المتميّز دون سواه نستطيع الحكم على الاختلاط، على زمن حدوثه، على الصّورة التي يحدث وفقها وعلى التّرتيب الذي يحدث فيه.

لكن في ما سبق، أعرضنا عن سؤال: لِمَ الشّعبة المكنيّة أو دفع المادّة، قد يكون معدنياً أو تعدينياً بشكل أساسي؟ هنا أيضاً، وحده المفهوم المتميّز بإمكانه تقديم إجابة، مبينا أنّه ثمّة علاقة ابتدائية خاصّة بين التّنقل والتّعدين (لا تَأْرُضُن). غير أنّ الأمثلة التي كنّا ذكرناها، تبعا لهوسرل وسيموندون، كانت تخصّ الخشب أو الطّين كما المعان؛ وأكثر من ذلك، أليس ثمّة اندفاعات عشب، ماء، قُطعان تشكّل الكثير من الشّعب أو الموادّ المتحرّكة؟ من الأيسر الآن الإجابة على هذه الأسئلة. ذلك أنّ كلّ شيء يحدث كما لو أنّ المعدن والتّعدين كانا يفرضان على الوعي وينشئان فيه شيئاً ما لم يكن إلاّ متخفياً أو متوارياً في الموادّ والعمليات الأخرى. ذلك أنّه في أماكن أخرى، تتمّ كلّ

عملية بين عتبتين، تُشكّل إحداها المادة التي وقع إعدادها للعملية، وتُشكّل الأخرى الصورة التي يجب تجسيدها (على سبيل المثال، الطين والقالب). يستمدّ النموذج الهيلومورفيّ من ذلك قيمته العامة، بما أنّ الصورة المجسّدة التي تُعين نهاية عملية يمكن استخدامها كمادة لعملية جديدة، لكن في نظام ثابت يعيّن تتابع العتبات. بينما في التعدين لا تفتأ العمليات تتمسك بالعتبات، بحيث أنّ ماديّة طاقية تفيض على المادة [٥١١] التي وقع إعدادها، وتَشوُّها أو تغييرا كيفيّا يفيض على الصورة^(١). هكذا يتّصل النّقع بالتطريق في ما أبعد من التّشكّل. أو عندما تكون ثمة قولبة، يعمل المعدّن بطريقة ما داخل القالب. أو أنّ الفولاذ المصهور والمقوّلب سيخضع لسلسلة من إزالة الكربنات المتتابة. وفي النهاية، للتعدين إمكانية إعادة الصّهر وإعادة استعمال مادة يمنحها صورة- سبيكة: تاريخ المعدن لا ينفصل عن هذه الصورة الخاصّة جدّا، التي لا تختلط لا مع مخزون ولا مع بضاعة، القيمة الماليّة تصدر عنها. بشكل أعمّ، تعبّر الفكرة التعدينيّة لل«للمخفّض» عن التحرير المضاعف لماديّة بالنسبة إلى المادة التي وقع إعدادها، لتغيير بالنسبة إلى الصورة التي سيقع تجسيدها. لم تظهر المادة والصّورة أشدّ صلابة على الإطلاق ممّا هما عليه في التعدين؛ ومع ذلك صورة تُطوّر متواصل هي التي تسعى إلى تعويض تعاقب الصّور، مادة تُغيّر متواصل

(١) لا يبدي سيموندون ميلا خاصّا إلى مشكلات التعدين. بالفعل، تحليله ليس تاريخيّا، وهو يفضّل التّوجّه إلى حالات إلكترونيّة خاصّة. لكن تاريخيّا، ليس ثمة ما هو إلكترونيّ لا يمرّ بالتّعدين. من هنا إشارات بهذا الأخير: «لا يمكن التفكير بالكامل في التعدين عن طريق التّبيانة الهيلومورفيّة. لا يتمّ التّشكّل في آن واحد بكيفيّة واضحة، إنّما وفق عمليّات كثيرة متتابة؛ لا يمكن أن نميّز بدقّة تَشكّل التّغيّر الكيفيّ؛ تطريق الفولاذ ونقعه في الماء، أحدهما سابق والآخر لاحق لما يمكن أن نسمّيه تشكيلا بالمعنى الحقيقيّ: التطريق والنّقع هما مع ذلك تكوينان للموضوعات» (الفرد وتكوّنه الفيزيائيّ- البيولوجيّ، ص ٥٩).

هي التي تسعى إلى تعويض تغيّرة المواد. إذا كان التعدين في علاقة أساسية بالموسيقى، فليس ذلك نتيجة أصوات التطريق وحسب، بل نتيجة النزوع الذي يخترق الفئتين، لإثبات تطوّر متواصل للصورة في ما وراء الصّور المنفصلة، لإثبات تغيير متواصل للمادة في ما وراء المواد المتغيرة: تلويّنة موسّعة تحمل الموسيقى والتّعدين في نفس الوقت؛ الحدّاد الموسيقيّ هو أوّل «محوّل»^(١). باختصار، ما جلبه المعدن والتّعدين هو حياة خاصّة بالمادة، حالة حيويّة للمادة من حيث هي مادة، حيويّة ماديّة توجد في كلّ مكان ولا ريب، لكنها متخفية عادة أو مغطّاة، جعلها النموذج الهيلومورفيّ منقسمة ويعسر التّعريف عليها. التّعدين هو وعي المادة- الدّفق أو فكرها، والمعدن هو مضايّف هذا الوعي. مثلما تعبّر عن ذلك [٥١٢] معدنيّة موحّدة، ثمّة تماذّ من المعدن إلى المادة بكاملها، ومن المادة بكاملها إلى التّعدين. حتّى المياه، الأعشاب والخشب، الدّوابّ مسكونة بأملّاح أو بعناصر معدنيّة. ليس كلّ شيء معدنا، لكنّ ثمّة معدن في كلّ مكان. المعدن هو ناقل المادة بكاملها. الشّعبة المكنيّة تعدينيّة أو على الأقلّ لها رأس معدنيّة، رأسها الموجّهة، النّقيلة. والفكر لا يولد مع الحجر بقدر ولادته مع المعدن: التّعدين هو العِلْم الأقلّيّ عينه، العِلْم «المبهم» أو هو فنومينولوجيا المادة. الفكرة المذهلة لحياة غير عضويّة- تلك ذاتها التي يجعل منها وورنجر الفكرة البربرية بامتياز^(٢)- هي ابتكار التّعدين

(١) لا يجب أخذ الميثاق وحدها بعين الاعتبار، بل التّاريخ الوضعي: على سبيل المثال دوّر «أصناف التّحاس» في تطوّر الصّورة الموسيقيّة؛ أو كذلك تكوين «شملة معدنيّة» في الموسيقى الإلكترونيّة (ريشار بنهاس).

(٢) يعرف فيلهالم وورنجر الفنّ القوطيّ بالخطّ الهندسيّ «البدائيّ»، لكنّه أصبح خطّا حيّا. غير أنّ هذه الحياة ليست عضويّة مثلما ستصبح عليه في العالم الكلاسيكيّ: هذا الخطّ «لا يحتوي أيّ تعبير عضويّ، ومع ذلك هو حيّ بتمامه. (...). بما أنّه لا نغميّة عضويّة له، فإنّ تعبيرته الحيويّة يجب أن تكون متمايّزة عن الحياة العضويّة. (...). ثمّة في هذه الهندسة التي أصبحت هندسة حيّة، التي

وحدسه. المعدن لا هو شيء ولا هو عضويّة، إنّما هو جسد دون أعضاء. الـ«خطّ الشماليّ أو القوطيّ»، هو أوّل الخطّ المنجميّ والمعدنيّ الذي يحيط بهذا الجسد. لا تقوم علاقة التعدين بالألخيمياء، مثلما كان يعتقد ذلك يونغ، على القيمة الرّمزيّة للمعدن وتلاؤمه مع نفس عضويّة، بل على القدرة المحايثة للجسميّة في كامل المادّة، وعلى العصبيّة التي تصاحبها.

التّقيّل الأوّل والابتدائيّ هو الحرفيّ. لكنّ الحرفيّ ليس هو الصّيّاد، ليس هو المزارع ولا هو مربّي الماشية. وكذلك ليس هو النّسّاف ولا هو الخزّاف اللّدان لا ينخرطان في نشاط حُرْفِيّ إلّا بشكل ثانويّ. إنّهُ من يتّبع المادّة- الدّفق بوصفها إنتاجيّة محضاً: إنّهُ إذا في صورة معدنيّة وليست نباتيّة أو حيوانيّة. إنّهُ ليس إنسان الأرض ولا هو إنسان التّربة بل هو إنسان باطن الأرض. المعدن هو الإنتاجيّة المحض للمادّة، بحيث أنّ من يتّبع المعدن هو منتج الموضوعات بامتياز. مثلما بيّن ذلك غوردن شيلد، المعدّن هو الحرفيّ الأوّل المختصّ، ويشكّل بهذا الصّدّد جسماً (مجتمعات سرّيّة، نقابات، رابطات عماليّة). الحرفيّ- المعدّن هو التّقيّل لأنّهُ يتّبع المادّة- الدّفق لباطن الأرض. الّآكد أنّ للمعدّن علاقة بـ«الآخرين»، بأناس التّربة، الأرض أو السّماء. إنّهُ في علاقة بمزارعيّ الجماعات الحضريّة، وبموظّفيّ الإمبراطوريّة الرّبّانيين الذين يقنّون الجماعات تضافريّاً: فعليّاً هو في حاجة إليهم ليعيش، إنّهُ يعتمد في [٥١٣] معاشه ذاته على المخزون الرّاعيّ الإمبراطوريّ^(١). لكن في عمله، هو في علاقة بسكّان الغابات ويعتمد

تبشّر بالجبر الحيّ للهندسة المعماريّة القوطيّة، كره للحركة التي تجبر إحساساتنا على عمل جسور ليس طبيعيّاً فيها» (الفنّ القوطيّ، غاليمار، صص ٦٩- ٧٠).

(١) تلك واحدة من التّقاط الأساسيّة في أطروحة شيلد، أوروبا الما قبل تاريخيّة (منشورات بايو): المعدّن هو أوّل حُرْفِيّ مختصّ، أصبح معاشه ممكناً بتكوين فائض زراعيّ. علاقة الحدّاد بالمزارع لا تتوقّف بالتّالي على الأدوات التي

عليهم جزئياً: عليه أن يقيم ورشاته قريباً من الغابة ليتحصّل على اللحم الذي يحتاجه. في فضائه، هو في علاقة بالمترحّلين، بما أنّ باطن الأرض يوحد بين تربة الفضاء الأملس وأرض الفضاء المخدّد: لا وجود لمناجم في الوهاد الغرينيّة للمزارعين الخاضعين للإمبراطوريّة، يجب اجتياز الصّحاري، الاقتراب من الجبال، ومسألة مراقبة المناجم تضع دائماً موضع شكّ شعوباً مترحّلة، كلّ منجم هو خطّ إفلات، ويتّصل بفضاءات ملساء- قد يكون ثمة اليوم ما يعادل ذلك في مشكلات النّفط.

تظلّ الأركيولوجيا والتّاريخ متكتمين بشكل غريب حول مسألة مراقبة المناجم هذه. يحدث ألاّ تمتلك إمبراطوريّات ذات تنظيم تعدينيّ قويّ، مناجم؛ يفتقر الشّرق الأوسط للقصدير، الضّروريّ جدّاً لصناعة البرنز. يأتي الكثير من المعدن في شكل سبائك ومن بعيد جدّاً (مثل قصدير إسبانيا أو حتى كورنواي). وضعيّة معقّدة جدّاً لا تستتبع بيروقراطيّة إمبراطوريّة قويّة وحسب، ومسالك تجاريّة بعيدة ومتطوّرة. إنّها تستتبع سياسة متحرّكة بكاملها، حيث تواجه الدّول خارجاً، حيث تتواجه شعوب مختلفة جدّاً، أو أنّها تتفق على مراقبة المناجم، ووفق هذا الجانب أو ذاك (استخراج، فحم الخشب، ورشات، نقل). لا يكفي القول إنّ ثمة حروب وحملات منجميّة؛ ولا استحضار «شميلة أوراسيّة للورشات المترحّلة من أطراف الصّين حتى المقاطعات الغربيّة لفرنسا»، ولا ملاحظة أنّ «السّكان المترحّلين منذ ما قبل التّاريخ كانوا على صلة بالمراكز التّعدينيّة الرّئيسيّة للعالم القديم»^(١). قد يتوجّب أن

يصنعها وحسب، بل على الغذاء الذي يقطّعه أو يتلقّاه. ميثة الدّوغون التي حلّل غريول متغيّراتها، قد تُمكن من تعيين هذه العلاقة التي يتلقّى فيها المزارع الحبوب أو يسرقها، ويخفيها في «كومته».

(١) موريس لومبار، المعادن في العالم القديم من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر، منشورات موتون، ص ٧٥، ٢٥٥.

نعرف بشكل أفضل طبيعة علاقات المترحلين بهذه المراكز، بالحدّادين الذين يستخدمونهم هم ذواتهم أو يخالطونهم، بما يجاورهم من الشعوب والجماعات التّعدينية بشكل خاصّ. ما هي الوضعيّة في القوقاز وفي ألطاي؟ في إسبانيا وفي شمال إفريقيا؟ المناجم مصدر اندفاق، اختلاط وإفلات، لا مثيل لها على الإطلاق [٥١٤] في التّاريخ. حتّى عندما تكون المناجم مراقبة بشدّة من قِبَل إمبراطوريّة تمتلكها (حالة الإمبراطوريّة الصّينيّة، حالة الإمبراطوريّة الرومانيّة)، ثمّة حركة مهمّة جدّا لاستغلال سرّي، وتحالفات المَنجميّين إمّا مع التّوغلات المترحلة والبربريّة وإمّا مع انتفاضات المزارعين. دراسة الميثاق وحتى التّأمّلات الإثنوغرافيّة حول منزلة الحدّادين، تحوّل أنظارنا عن هذه المسائل السّياسيّة. ذلك أن الميثولوجيا والإثنوغرافيا لا تمتلكان منهجا جيّدا بهذا الخصوص. غالبا ما نتساءل عن الكيفيّة التي «يتفاعل» بها الآخرون مع الحدّاد: نسقط حينئذ في كلّ أشكال الابتذال المتعلّقة بتناقض الإحساس، نقول إنّ الحدّاد مكرّم، مخيف ومحتقَر في نفس الوقت، على الأصحّ محتقَر عند المترحلين، على الأصحّ مكرّم عند الحضريّين^(١). لكنّنا نفقد على هذا التّحوّل أسباب هذه الوضعيّة، خصوصيّة الحدّاد ذاته، علاقة اللّاتناظر التي يقيمها هو ذاته مع المترحلين ومع الحضريّين، نمط الأفعال الذي يبتكره (الأفعال المعدنيّة). قبل البحث عن أحاسيس الآخرين إزاء الحدّاد، يجب أوّلا

(١) مثّلت الوضعيّة الاجتماعيّة للحدّاد موضوع تحليلات مفصّلة، خاصّة بالنّسبة إلى إفريقيا: راجع الدّراسة الكلاسيكيّة لوالتر كلين، «المناجم والتّعدّين في إفريقيا السّوداء» (سلسلة عامّة في الأنثروبولوجيا، ١٩٣٧)؛ وبيار كليمون، «الحدّاد في إفريقيا السّوداء» (مجلّة الجغرافيا البشريّة والإثنولوجيا، ١٩٤٨). لكنّ هذه الدّراسات غير حاسمة؛ إذ بقدر ما أنّ المبادئ التي وقع الاستناد إليها متمايضة بشكل واضح، «ردّ فعل احتقاريّ»، «استحسانيّ»، «خائف»، بقدر ما كانت التّائج غائمة ومختلطة، مثلما تشهد على ذلك لوحات بيار كليمون.

تقويم الحدّاد ذاته بصفته آخر، وأنّ له بصفته هذه علاقات وجدانيّة مختلفة مع الحضرّيين ومع المترحّلين.

ليس ثمة حدّادون مترحّلون وحدّادون حضرّيون. الحدّاد متجوّل، نقيل. مهمّة بشكل خاص بهذا الصّد هو الطّريقة التي يقطن بها الحدّاد: فضاؤه لا هو الفضاء المخدّد للحضرّي، لا هو الفضاء الأملس للمترحّل. يمكن أن تكون للحدّاد خيمة، يمكن أن يكون له منزل، إنّه يقطنهما بمثابة «مأوى»، مثل المعدن ذاته، بمثابة كهف أو نُقب، بمثابة كوخ نصفه أو كلّه تحت الأرض. إنّهم سكّان كهوف، ليس بالطبيعة وإنّما نتيجة الصّناعة والحاجة^(١). نصّ رائع لإلي فور يستحضر السّرعَة الجنونيّة لشعوب الهند الثّقيلة، يثقبون الفضاء ويولّدون الأشكال العجيبة التي تتلاءم وهذه الفجوات، الأشكال الحيويّة للحياة غير العضويّة. «على حافة البحر، على سفح جبل كان اعترضهم جدار من الغرانيت. حينئذ، كانوا دخلوا جميعهم في [٥١٥] الغرانيت، إنّهم كانوا يحيون، يحبّون، يعملون، يولدون في الظّل، وبعد ثلاثة أو أربعة قرون كانوا خرجوا على بعد أميال من الجبل الذي اجتازوه. تركوا خلفهم الصّخرة الجوفاء، الأنفاق المحفورة في كلّ الاتجاهات، الجدران المنحوتة، المنقوشة، أعمدة طبيعيّة أو مصنوعة يقع فحصها كلّ يوم، عشرة آلاف شكل مرعب أو فاتن. (...) يستسلم الإنسان هنا لقوّته ولعدمه دون مقاومة. إنّه لا يطلب من الصّورة تأكيد مثل أعلى محدّد. إنّه يستمدّ الصّورة خاما ممّا لا صورة له، مثلما يرتئها ما لا صورة له. إنه يستعمل توغّلات الظّل ومصادفات الحَجَر الطّائرة^(٢).» هند تعدينيّة. اختراق الجبال بدلا من تسلّقها، التوغّل في الأرض بدلا

(١) راجع جيل بلوخ، الفجر، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، صص ٤٧-٥٤. يبيّن جيل بلوخ بدقّة أنّ التّمييز حضرّيون- مترحّلون يصبح ثانويّا بالنّسبة إلى السّكن الكهفيّ.

(٢) إلي فور (Élie Faure)، تاريخ الفنّ، الفنّ القروسطيّ، كتاب الجيب، ص ٣٨.



فضاء مثقوب

من تخديدها، تُقَبّ الفضاء بدلا من الحفاظ عليه أملس، جعل الأرض كالجبهة ذات الثّقوب. صورة فيلم الإضراب، الذي يعرض فضاء مثقوبا حيث ينتصب شعب مخيف بكامله، يخرج كلّ واحد من ثُقبه كما في حقل ملغوم في كلّ أنحائه. علامة قابيل هي العلامة الجسديّة والوجدانيّة لباطن الأرض، مخترقة في نفس الوقت الأرض المخدّدة للفضاء الحضريّ والتربة المترخلة للفضاء الأملس، دون التوقّف عند أيّ منهما، علامة التّجوال المتشرّدة، السرقة المزدوجة أو [٥١٦] الخيانة المزدوجة للمعدّن من حيث تَلَفُته عن الزّراعة وعن تربية الماشيّة. هل يجب أن نخصّ هذه الشّعوب التّعدينيّة التي تسكن عمق التّاريخ باسم القابليّين أو القينيّين؟ أوروبّا الما قبل تاريخيّة اجتازتها شعوب حاملة لفؤوس القتال، آتية من الفياء، شعوبا بمثابة فرع معدنيّ انفصل عن المترخّلين، اجتازها الرّجال النّاقوسيّون، شعوب المزهرّيّات الكأسيّة المنحدرة من الأندلس، هي فرع انفصل عن

الزراعة الصخرية^(١). شعوب عجيبة، مستطيلو الرؤوس وقصيرو
الرؤوس يختلطون وينتشرون في كامل أوروبا. هل هم الذين يديرون
المناجم، يثقبون الفضاء الأوروبي من كل ناحية، مشكلين فضاءنا
الأوروبي؟

الحدّاد ليس مترحّلا عند المترحّلين وحضريّا عند الحضريّين، أو
نصف مترحّل عند المترحّلين ونصف حضريّ عند الحضريّين. علاقته
بالآخرين تنبع من نقلته الداخليّة، من ماهيّة المبهمة وليس العكس. في
خصوصيّة، من حيث أنّه نقيّ، من حيث ابتكاره لفضاء مثقوب، هو
يتواصل بالضرورة مع الحضريّين ومع المترحّلين (ومع آخرين أيضا، مع
سكان الغابات المنتجعين). هو مزدوج في ذاته أولا: إنّ هجين،
أشابه، تشكيل توأمي. مثلما يقول غريول، الحدّاد الدوغون ليس «غير
نقيّ» إنّما هو «خليط»، ولأنّه خليط فهو يتزوّج داخليّا، لا يتزوّج من
الأنقياء الذين لهم جيل مبسّط، بينما يعيد هو ذاته بناء جيل توأمي^(٢).
يبين غوردن شيلد أنّ المعدّن يتضاعف ضرورة، يوجد مرّتين، مرّة
بصفته شخصيّة أسيرة ومحلّ عناية في جهاز الإمبراطوريّة الشرقيّة، مرّة
أخرى بصفته شخصيّة أكثر حركيّة بكثير وطلّيقة في العالم الإيجي. لكن
لا نستطيع فصل أقسومة عن أخرى، بإرجاع كلّ أقسومة إلى سياقها
الخاص وحسب. معدّن الإمبراطوريّة، العامل، يفترض وجود معدّن-
مستكشف حتّى وإن كان بعيدا جدّا، والمستكشف يحيل على تاجر هو
الذي سيحمل المعدن للمعدّن. أكثر من ذلك، تقع خدمة المعدن على
كلّ أقسومة، والصّورة- السّبكة تخترقها جميعها: يجب أن نتخيّل

(١) راجع بخصوص هذه الشعوب والغازها تحليلات غوردن شيلد، أوروبا الما قبل
تاريخيّة (الفصل الثّاني عشر، «تبشيريّون، تجار ومقاتلون في أوروبا المعتدلة»)
وفجر الحضارة الأوروبيّة، منشورات بايو.

(٢) مارسال غريول وجيرمان دياترلان، الثّعلب الشّاحب، معهد الإثنولوجيا،
ص ٣٧٦.

سلسلة ورشات متحرّكة تُكوّن من ثقب إلى ثقب خطّ تغيير، تكوّن نفقا، أقلّ من تخيّل أقسومات منفصلة. العلاقة التي يقيها المعدّن مع المترخّلين ومع الحضريّين تمرّ بالتالي كذلك بالعلاقة التي يقيمها مع معدّنين آخرين^(١) [٥١٧]. إنّ هذا المعدّن الهجين، صانع الأسلحة والأدوات، هو الذي يتواصل في نفس الوقت مع الحضريّين ومع المترخّلين. الفضاء المثقوب يتّصل من تلقاء نفسه بالفضاء الأملس وبالفضاء المخدّد. في الحقيقة، الشّعبة المكنيّة أو الخطّ المعدنيّ يمرّان بكلّ التّنضيدات: لا شيء أكثر لا تارّضنا من المادّة- الحركة. لكن ليس بنفس الكيفيّة على الإطلاق، والتّواصلان ليسا متناظرين. كان وورّنجار يقول، إنّ الخطّ المجرّد في المجال الأسطريقي كان له تعبيران مختلفان جدّا، تعبير في القوطيّ الثّقيل وتعبير في الكلاسيكيّ العضويّ. قد نقول هنا إنّ للشّعبة صيغتيّ وُضِل مختلفتين في نفس الآن: مرتبطة دائما بالفضاء المترخّل، بينما هي تتزاوج مع الفضاء الحضريّ. من جهة التّنضيدات المترخّلة ومكنات الحرب، هي ضرب من الجذمور، مع قفزاته، منعطفاته، ممرّاته التّحارّضيّة، قضبانها، منافذه، سماته، ثقبه، إلخ. لكن من الجهة الأخرى، تقوم التّنضيدات الحضريّة وأجهزة الدّولة بأسر الشّعبة، بحبس سمات التّعبير في صورة أو في تقنين، بجعل الثّقوب يتردّد صداها معا، بإعاقه خطوط الإفلات، بجعل العمليّة التّكنولوجيّة تابعة لنموذج العمل، بفرض نظام اقترانات شجرانيّة بأكمله على الرّوابط.

(١) يحلّل كتاب فورباس (Forbes)، التّعدين في العصر القديم، منشورات بريل، مختلف عصور التّعدين، لكن كذلك أصناف المعدّنين في عصر المعدن الخام: «المنجميّ»، المستكشف والمستخرج، «سبّاك المعادن»، «الحدّاد» (مَن صنّعه الحدادة)، «صانع الأشياء المعدنيّة» (السّمكريّ). يتعلّق الاختصاص أكثر مع عصر الحديد، وتغيّر في نفس الوقت التّقسيمات مترخّل- ثقب- حضريّ.

البديهية الثالثة: مكنة الحرب المترحلة هي بمثابة صورة التعبير التي قد يكون التعدين الثقيل هو صورة المضمون المضايغ لها.

التعبير	المضمون	
فضاء أملس	فضاء مثقوب (شعبة مكنية أو مادة - دفق)	مادة
مكنة حرب مترحلة	تعدين ثقيل	صورة

[٥١٨] القضية التاسعة: موضوع الحرب ليس هو المعركة بالضرورة، خاصة وأنّ موضوع مكنة الحرب ليس هو الحرب بالضرورة، مع أنّ الحرب والمعركة بإمكانهما أن يصدرا عنها ضرورة (وفق شروط معينة).

تعرضنا بالتتابع ثلاث مشكلات: هل المعركة هي «موضوع» الحرب؟ لكن أيضا: هل الحرب هي «موضوع» مكنة الحرب؟ وأخيرا، إلى أيّ مدى تكون مكنة الحرب «موضوعا» لجهاز الدولة؟ التباس المشكلين الأولين يتأتى بكل تأكيد من لفظة موضوع، لكنّه يستتبع تبعيتهما بالنسبة إلى المشكل الثالث. مع ذلك علينا النظر في هذه المشكلات تدريجيّا، حتّى وإن اضطررنا إلى مضاعفة الحالات. السؤال الأوّل، سؤال المعركة يفضي بالفعل إلى التمييز المباشر بين حالتين، الحالة التي يقع فيها السعي إلى المعركة، الحالة التي تتجنبها فيها مكنة الحرب بشكل أساسي. هاتان الحالتان لا تتطابقان البتّة مع الهجوم والدفاع. لكنّ الحرب بحصر المعنى (تبعاً لتصور يصل أوجه مع فوش) يبدو أنّ موضوعها هو المعركة، بينما حرب العصابات تطرح صراحة على نفسها اللاّ معركة. غير أنّ تطوّر الحرب إلى حرب متحرّكة وإلى حرب شاملة، يضع مصطلح المعركة موضع نظر، من زاوية

الهجوم كما من زاوية الدفاع: تبدو اللّامعة معركة قادرة على التعبير عن سرعة الهجوم الخاطف، أو على السّعة المضادة لردّ مباشر^(١). عكسيًا، من الجهة الأخرى، يستتبع تطوّر حرب العصابات وقتًا وأشكالًا يجب أن يقع السّعي فعليًا وفقها إلى المعركة، في علاقة بـ«نقاط ارتكاز» خارجيّة وداخلية. وحقيقيّ أنّ حرب العصابات والحرب لا تفتان تبادلان [٥١٩] المناهج، في هذا الاتجاه كما في ذاك (على سبيل المثال، غالبًا ما وقع التّأكيد على ما تستلهمه حرب العصابات على الأرض من الحرب البحريّة). يمكن إذاً أن نقول فقط إنّ المعركة واللّامعة هما الموضوع المضاعف للحرب، وفق مقياس لا يتطابق مع الهجوم والدّفاع، ولا حتّى مع حرب الحرب وحرب العصابات.

لذلك، باستبعاد السّؤال، نتساءل عمّا إذا كانت الحرب ذاتها هي موضوع مكنة الحرب. الأمر ليس مؤكّدًا تمامًا. من حيث أنّ الحرب (بالمعركة أو من دونها) تطرح على نفسها تدمير القوى المعادية أو

(١) يبقى أحد النّصوص الأهمّ حول حرب العصابات هو نصّ طوماس إدوارد لورانس (الأعمدة السّبعة، منشورات بايو، الفصل الثالث والثلاثون، و«علم حرب العصابات»، الموسوعة البريطانيّة) الذي يقدّم نفسه كـ«مضادّ لفوش»، ويطوّر مصطلح اللّامعة. لكنّ للامعة تاريخ لا يتوقّف على حرب العصابات وحسب، : (١) التمييز التقليديّ بين «المعركة» و«المناورة» في نظريّة الحرب (راجع رايمون آرون، التّفكير بالحرب، كلاوزفيتس، غاليمار، الجزء الأوّل، صص ١٢٢ - ١٣١)؛ (٢) الطريقة التي تضع بها الحرب المتحرّكة دور المعركة وأهمّيّتها موضع نظر (سابقًا الجنرال صاكس ومساءلة المعركة المثيرة للجدل في الحروب النّابليونيّة)؛ (٣) أخيرًا وفي الآونة الأخيرة، نقد المعركة باسم التّسلّح النّوويّ، الذي يلعب دورًا ردعيًا، والقوى التّقليديّة لم يعد لها غير دور «الاختبار» أو «المناورة» (راجع التّصوّر الديغوليّ للمعركة، غي بروسولاي، مقالة في اللّامعة). الرّجوع مؤخرًا إلى مصطلح المعركة لا يفسّر فقط بعوامل تقنيّة مثل تطوّر الأسلحة النّوويّة التّكتيكيّة، بل يستتبع اعتبارات سياسيّة يتوقّف عليها تحديدًا الدّور الموكول للمعركة (أو للّامعة) في الحرب.

استسلامها، مكنة الحرب ليست الحرب هي موضوعها بالضرورة (على سبيل المثال، قد تكون الغارة موضوعا آخر، بدلا من كونها شكلا خاصا من أشكال الحرب). لكن بشكل أعم، لقد رأينا أنّ مكنة الحرب كانت الابتكار الترحليّ، لأنّها كانت في ماهيتها العنصر المكوّن للفضاء الأملس، لتعمير هذا الفضاء، للتنقل في هذا الفضاء وللتشكيل المناسب للنّاس: هذا هو موضوعها الحقيقيّ الإيجابيّ الوحيد (ناموس). تنمية الصّحراء والفيفاء وليس إقفارهما، بل على العكس. إذا كانت الحرب تصدر عنهما بالضرورة، فلاّنّ مكنة الحرب تصطدم بالدّول والمدن كما بالقوى (قوى التّخديد) التي تتعارض مع الموضوع الإيجابيّ: مذّاك، عدوّ مكنة الحرب هو الدّولة، المدينة، الظّاهرة الدّولانيّة والحضريّة، وتتخذ من إبادتهما هدفا لها. ههنا تصبح حربا: إيادة قوى الدّولة، تدمير الصّورة- الدّولة. مغامرة أتّيلا أو جنكيز خان، تبيّن بوضوح هذا التّعاقب للموضوع الإيجابيّ والموضوع السّلبّيّ. قد نقول إذا تحدّثنا مثل أرسطو، إنّ الحرب لا هي شرط مكنة الحرب ولا هي موضوعها، لكنّها تصاحبها أو تكملها بالضرورة؛ قد نقول لو تحدّثنا مثل دريدا، إنّ الحرب هي «تكملة» مكنة الحرب. بل يمكن حتّى حدوث إدراك هذه التّكملة في وحي تدريجيّ قلّق. قد تكون مغامرة موسى على سبيل المثال: بخروجه من الدّولة المصريّة وانطلاقه في الصّحراء، بدأ بتكوين مكنة حرب، بإيحاء من ماضٍ قديم للعبرانيّين المترحّلين، وبنصيحة حَمِيهِ المنحدر من المترحّلين. إنّها مكنة الأبرار، مكنة حرب بالفعل، لكن ليست الحرب موضوعها بعدّ. لكنّ موسى يتنبّه تدريجيّا ومرحليّا إلى أنّ الحرب هي التّكملة الضّرورية لهذه المكنة، لأنّها تلتقي مدنا ودولا أو عليها اجتيازها، لأنّه عليها أوّلا أن ترسل إليها جواسيس (مراقبة عسكريّة)، ولعلّها تمرّ من بعد ذلك إلى الأقصى (حرب الإبادة). الشّعب اليهوديّ ساوره الشّك حينها وخشيّ ألا يكون قويّا بما يكفي؛ لكنّ موسى يشكّ أيضا ويتراجع أمام انكشاف [٥٢٠] مثل هذه

التكملة. ويشوع هو الذي سيقع تكليفه بالحرب وليس موسى. قد نقول أخيراً إذا تحدثنا مثل كانط، إنّ علاقة الحرب بمكة الحرب ضرورية، لكنّها «تركيبية» (يجب أن يكون الرّب حتى يقوم بالتركيب).

مسألة الحرب بدورها تجد ذاتها بالتالي مستبعدة وتابعة لعلاقات ممكنة حرب- جهاز دولة. ليست الدّول هي التي تقوم أولاً بالحرب: الآكد أنّ الحرب ليست ظاهرة قد نعثر عليها من حيث هي أيّ عنف كان في كلّية الطبيعة. لكنّ الحرب ليست موضوع الدّول، قد يكون الأمر بالأحرى نقيض ذلك. حتّى أنّه يبدو أنّ الدّول الأقدم لا تمتلك ممكنة حرب، وسنرى أنّ هيمنتها تقوم على هيئات أخرى (تتضمّن بالمقابل شرطة وسجنا). يمكن افتراض أنّه من بين الأسباب الغامضة للفناء المفاجئ لدول قديمة مع أنّها قويّة، ثمة بالتحديد تدخّل ممكنة حرب خارجيّة أو مترحلة، تنازعها وتدمرها. لكنّ الدّولة تفهم سريعاً. واحد من بين أكبر الأسئلة من زاوية التاريخ الكلّي سيكون: كيف ستستحوذ الدّولة على ممكنة الحرب، أي تكوين واحدة مطابقة لقياسها، لهيمنتها ولأهدافها؟ ومع أيّة مخاطر؟ (لا نسّمّي على الإطلاق مؤسسة عسكريّة أو جيشاً ممكنة الحرب ذاتها، إنّما هذه الصّورة التي اتخذتها باستيلاء الدّولة عليها). لنذكر الخاصّيّة المفارقة لمثل هذ العمليّة، يجب أن نُجمل كامل الفرضيّة: (١) ممكنة الحرب هي الابتكار المترحلّ حتى أنّ الحرب ليست هي موضوعها الأوّل، بل هي هدف ثان، تكميليّ أو تركيبيّ، بالمعنى الذي هي مصمّمة به على تدمير الصّورة- الدّولة والصّورة- المدينة اللّتين تصطدم بهما؛ (٢) عندما تستولي الدّولة على ممكنة الحرب، تُغيّر هذه الأخيرة بطبيعة الحال طبيعتها ووظيفتها، بما أنّها موجّهة ضدّ المترحلّين وضدّ كل مدّريّ الدّولة، أو أنّها تعبّر عن العلاقات بين الدّول، من حيث أنّ دولة تسعى فقط إلى أن تدمّر بها دولة أخرى أو أن تفرض عليها أهدافها؛ (٣) لكن حقّاً، عندما تكون الدّولة استولت هكذا على ممكنة الحرب فإنّ هذه

الأخيرة تسعى إلى اتّخاذ الحرب موضوعا مباشرا وأولّيا لها، اتّخاذ موضوعا «تحليليًا» (وتسعى الحرب إلى اتّخاذ المعركة موضوعا لها). باختصار، في نفس الوقت الذي يستحوذ فيه جهاز الدّولة على مكنة حرب، تتخذ مكنة الحرب من الحرب موضوعا لها، وتصبح الحرب تابعة لأهداف الدّولة.

مسألة الاستحواذ هذه متنوّعة جدّا تاريخيًا بحيث يجب التّمييز بين أنواع كثيرة من المسائل. تتعلّق المسألة الأولى بإمكان العمليّة: لأنّ الحرب لم تكن فعلا إلّا الموضوع التّكميليّ أو التّركيبيّ لمكنة الحرب [٥٢١] المترحّلة، فإنّ هذه الأخيرة تواجه تردّدًا سيكون مهلكا لها، وبالمقابل سيكون جهاز الدّولة قادرا على الاستحواذ على الحرب، وبالتالي جعل مكنة الحرب تنقلب ضدّ المترحّلين. تردّد المترحّل غالبا ما وقع تقديمه بشكل خرافيّ: ماذا سنفعل بالأراضي التي وقع غزوها واجتيازها؟ التّفريط فيها للصّحراء، للفيّفاء، للمرعى المتّسع؟ أو الإبقاء على جهاز دولة قادر على استغلالها مباشرة، حتّى وإن أصبح على مدى طويل نسبيا مجرد سلالة جديدة حاكمة لهذا الجهاز؟ المدى طويل نسبيا، لأنّ الجنكيزخانيّين على سبيل المثال استطاعوا الثّبات طويلا باندماجهم الجزئيّ في الإمبراطوريات التي وقع غزوها، لكن بالمحافظة كذلك على فضاء أملس بكامله، فضاء الفيافي التي كانت تستلحق المراكز الإمبراطوريّة. تلك كانت عبقريّتهم. سلّم منغوليّة. يبقى أنّ اندماج المترحّلين في الإمبراطوريّات التي وقع غزوها كان أحد أقوى العوامل لاستحواذ الدّولة على مكنة الحرب: الخطر المحتوم الذي استسلم له المترحّلون. لكن ثمة كذلك الخطر الآخر، الخطر الذي يهدّد الدّولة عندما تستحوذ على مكة الحرب (كلّ الدّول شعرت بعبء هذا الخطر، وبما تتعرّض له من مخاطر جرّاء هذا الاستحواذ). قد يكون تيمورلانك هو المثل الأقصى وليس خلفه، بل المناقض تماما لجنكيز خان: تيمورلانك هو الذي بنى مكنة الحرب العجيبة التي

انقلبت ضدّ المترحلين، لكن نتيجة لذلك كان عليه تشييد جهاز دولة أشدّ ثقلًا وعمقًا بحيث أنّه لا يوجد إلّا بوصفه الصّورة الخاوية للاستحواذ على تلك المكنة^(١). جعل مكنة الحرب تنقلب ضدّ المترحلين يمكن أن يعرّض الدّولة إلى خطر لا يقلّ حجمًا عن خطر المترحلين الذين يوجّهون مكنة الحرب ضدّ الدّول.

صنف آخر من المشكلات يخصّ الصّور العينيّة التي يتّم تبعا لها الاستحواذ على مكنة الحرب: مرتزقة أو محلّيّون؟ جيش محترف أو جيش سُخرة؟ وحدات خاصّة أو انتداب وطنيّ؟ ليس كون هذه الصّيغ ليس لها نفس القيمة وحسب، بل ثمة كل الاختلاطات الممكنة بينها. التمييز الأنسب أو الأعمّ قد يكون هو: هل ثمة «احتواء» لمكنة الحرب وحسب أم استحواذ عليها بالمعنى الدّقيق للكلمة؟ أسّر مكنة الحرب من طرف جهاز الدّولة تمّ فعليًا وفق سبيلين، احتواء مجتمع محاربين (أتوا من الخارج أو انبثقوا من الدّاخل)، أو على النقيض من ذلك تكوينه تبعا لقواعد تتلاءم مع المجتمع المدنيّ بأكمله. وهنا أيضًا، مرور وانتقال من صيغة إلى أخرى... [٥٢٢] في الأخير، الصّنف الثّالث من المشكلات يخصّ وسائل الاستحواذ. من هذه الزّاوية، قد يتوجّب النّظر في المعطيات المتنوّعة التي تتعلّق بالجوانب الأساسيّة لجهاز الدّولة: الإقليميّة، العمل أو الأشغال العموميّة، الجباية. تكوين مؤسّسة عسكريّة أو تكوين جيش يستتبع بالضرورة أرضنة لمكنة الحرب، أي منح أراض «مستعمرة» أو داخلية يمكن أن تتخذ أشكالًا شديدة التّنوع. لكن على الفور تُحدّد أنظمة ضرائبيّة طبيعيّة الخدمات والضرائب التي على المستفيدين المحاربين دفعها، وخاصّة نوع الضّريبة المدنيّة التي يخضع لها المجتمع كلّ أو بعضه عكسيًا لتمويل الجيش. وفي

(١) حول الاختلافات الجوهرية بين تيمورلانك وجنكيز خان، راجع رنيه غروساي، إمبراطورية الفيافي، منشورات بايو، وبخاصّة صص ٤٩٥ - ٤٩٦.

نفس الوقت، قيام الدولة بالأشغال العمومية تجب إعادة تنظيمه وفق «تهيئة ترابيّة» يلعب فيها الجيش دورا حاسما، ليس مع القلاع والحصون وحسب، لكن مع المواصلات الاستراتيجية، البنية اللوجستية، البنية التحتية الصناعية، إلخ. (دور ووظيفة المهندس في هذا الشكل من الاستحواذ^(١)).

لنسمح لنا بمقارنة هذه الفرضية كلّها بقولة كلاوزفيتس: «الحرب هي مواصلة العلاقات السياسية بمعاوضة وسائل أخرى». «نعرف أنّ هذه القولة مستخرجة هي ذاتها من مجموعة نظرية وعملية، تاريخية وعابرة للتاريخ، عناصرها مترابطة في ما بينها: (١) ثمة مفهوم محض للحرب بوصفها حربا مطلقة، لا مشروطة، فكرة غير معطاة في التجربة (قتل العدو أو «الإطاحة به»، يفترض في المفهوم المحض للحرب أن لا تحديد آخر له، دون اعتبار سياسي، اقتصادي أو اجتماعي)؛ (٢) ما هو معطى هو الحروب الواقعية من حيث أنّها خاضعة لأهداف الدول، التي هي أهداف «ناقلة» جيّدة بالنسبة إلى الحرب المطلقة، وعلى أية حال هي تشرط تحقيقها في التجربة؛ (٣) تتأرجح الحروب الواقعية بين قطبين خاضعين كليهما لسياسة الدولة: حرب إبادة يمكن أن تصل حتى إلى الحرب الشاملة (تبعاً للأهداف التي تتعلق بها الإبادة) وتسعى إلى الاقتراب من المفهوم اللامشروط بالصعود إلى الأقصى؛ حرب محدودة، «مع ذلك» هي حرب، لكنّها تقوم بهبوط أقرب [٥٢٣] إلى

(١) راجع، جيوش وضريبة في العالم القديم، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي: يدرس هذا الملتقى الجانب الضريبي خاصة، لكن الجانبين الآخرين أيضا. مسألة إسناد الأراضي للجنود أو لعائلات الجنود توجد في كلّ الدول وتلعب دورا أساسيا. في شكل خاص، ستكون في أساس الإقطاعات والإقطاع. لكنّها من قبل في أساس «الإقطاعات المؤقتة» في كلّ مكان من العالم، وبخاصة في طبقة الإكلييريكيين وفي المستعمرات القديمة في الحضارة اليونانية (راجع كلار بربو، الاقتصاد المملكي للأباجديين، بروكسال، ص ٤٦٣ وما بعدها).

الشروط التقييدية، ويمكن أن تصل إلى مجرد «مراقبة مسلحة»^(١).

في المقام الأول، يبدو لنا هذا التمييز بين حرب مطلقة بوصفها فكرة وحروب واقعية تمييزاً ذا أهمية كبرى، لكن مع إمكان مقياس آخر غير مقياس كلاوزفيتس. الفكرة المحض قد لا تكون فكرة القضاء المجرد على الخصم، بل فكرة مكنة حرب لا تتخذ لها بالفعل الحرب موضوعاً، ولا تقيم مع الحرب غير علاقة تركيبية ممكنة أو تكميلية. بحيث أنّ مكنة الحرب المترحلة لا تبدو لنا مثلما هي عند كلاوزفيتس، حالة حرب واقعية من بين حروب أخرى، بل على النقيض من ذلك هي المضمون الملائم للفكرة، إنها ابتكار الفكرة، مع موضوعاتها الخاصة، القضاء وتركيب الناموس. غير أنّها فكرة بالفعل، ويجب الإبقاء على مفهوم الفكرة المحض مع أنّ مكنة الحرب هذه قد حققها المترحلون. لكن المترحلين هم الذين يظلّون بالأحرى تجريداً، فكرة، شيئاً ما واقعياً وغير حاليّ، وذلك لعدة أسباب: في المقام الأول، وقد رأينا ذلك، لأنّ معطيات الترحّل تختلط بالفعل مع معطيات الهجرة، التّنقل والانتجاع التي لا تربك نقاء المفهوم، لكنّها تُدخل موضوعات مزدوجة دوماً، أو توليفات قضاء وتركيب تؤثر بالفعل على مكنة الحرب. في المقام الثاني، حتى في نقاء مفهومها، تقيم مكنة الحرب المتنقلة علاقتها التركيبية ضرورة مع الحرب بوصفها تكملة وقع اكتشافها وتطويرها ضدّ الصورة-الدولة التي يتعلّق الأمر بتدميرها. لكن على وجه التحديد، هي لا تنجز هذا الموضوع التكميليّ أو هذه العلاقة التركيبية دون أن تجد فيهما الدولة من جانبها فرصة الاستيلاء على مكنة الحرب، ووسيلة لتجعل من الحرب الموضوع المباشر لمكنة الحرب

(١) كلاوزفيتس، في الحرب، خاصّة الكتاب الثامن. والتعليق على هذه الأطروحات الثلاث من قبل ريمون آرون، التفكير بالحرب، كلاوزفيتس، الجزء الأول (بشكل خاص «لِمَ حروب النوع الثاني؟»، ص ١٣٩ وما بعدها).

المنقلبة (من هنا إدماج المترحل في الدولة هو موجّه يخترق التّرحّل منذ البداية، منذ أوّل فعل حربيّ ضدّ الدولة).

المسألة إذاً ليست تحقيق الحرب بقدر ما هي مسألة الاستحواذ على مكنة الحرب. إنّهُ في نفس الوقت يستولي جهاز الدولة على مكنة الحرب، يجعلها تابعة لأهداف «سياسيّة»، ويجعل الحرب موضوعاً مباشراً لها. وإنّهُ نفس التّزوع التّاريخيّ هو الذي يسوق الدّول إلى التّطوّر وفق ثلاث زوايا: الانتقال من أشكال الاحتواء إلى صور الاستيلاء الفعلية، الانتقال من الحرب المحدودة إلى ما يسمّى الحرب الشّاملة، وتغيير العلاقة بين الهدف والموضوع. [٥٢٤] لكنّ العوامل التي تجعل من حرب الدولة حرباً شاملة مرتبطة بشكل وثيق بالرأسماليّة: يتعلّق الأمر باستثمار رأس المال القارّ في عتاد الحرب، صناعتها واقتصادها، وباستثمار رأس المال المتحوّل في جمهور مادّي وأخلاقيّ (في نفس الوقت بصفته من يقوم بالحرب ومن يتحمّل وزرها^(١)). فعلاً، الحرب الشّاملة ليست حرب إبادة وحسب، لكنها تبرز عندما لم تعد الإبادة تتخذ فقط من الجيش المعادي ولا من الدولة المعادية «مركزاً» لها، بل كلّ السّكّان واقتصادهم. ألاّ يقدر هذا الاستثمار المضاعف على التّحقّق إلّا في ظلّ الطّروف المسبّقة لحرب محدودة، فذلك يبيّن خاصيّة الميل الرأسماليّ التي لا تُقاوم إلى تطوير

(١) يلاحظ ليدندورف (الحرب الشّاملة، منشورات فلاماريون) أنّ التطوّر يمنح أهميّة متزايدة للـ«شعْب» ولـ«السّياسة الدّاخلية» في الحرب، بينما كان كلاوزفيتس ما يزال يمنح الأفضليّة للجيش وللسياسة الخارجيّة. هذا النّقد صحيح في مجمله، بالرّغم من بعض نصوص كلاوزفيتس. فضلاً عن ذلك، نجد هذا النّقد عند لينين والماركسيّين (مع أنّ هؤلاء يحملون بكلّ تأكيد تصوّراً عن الشعب وعن السّياسة الدّاخلية مغايراً تماماً لتصوّر ليدندورف). بيّن بعض المؤلّفين بعمق أنّ أصل البروليتاريا كان عسكريّاً، وعسكريّاً بحريّاً بشكل خاص، بقدر ما هو صناعيّ: على غرار فريليو، سرعة وسياسة، ص ٥٠ - ٥١، ٨٦ - ٨٧.

الحرب الشاملة^(١). صحيح إذا أنّ الحرب الشاملة تظلّ تابعة لأهداف سياسية للدولة وتُحقّق أقصى شروط استحواذ جهاز الدولة على مكنة الحرب وحسب. لكن صحيح أيضا أنّه عندما يصبح موضوع مكنة الحرب المستولى عليها حربا شاملة، في هذا المستوى من جملة كلّ الشّروط، فإنّ الموضوع والهدف يدخلان في علاقات جديدة يمكن أن تصل حدّ التناقض. من هنا ترّدّد كلاوزفيتس عندما يبيّن تارة أنّ الحرب الشاملة تظلّ حربا مشروطة بالهدف السياسيّ للدّول، تارة أنّها تسعى إلى تجسيد فكرة الحرب اللّا مشروطة. بالفعل، يظلّ الهدف بشكل أساسيّ هدفا سياسيّاً ومحدّدا بما هو كذلك من طرف الدّولة، لكنّ الموضوع ذاته أصبح غير محدود. قد يقال إنّ الاستحواذ قد انقلب، أو إنّ الدّول بالأحرى تسعى إلى الارتقاء، إلى إعادة تكوين مكنة حرب ضخمة لم تعد فيها الدّول غير الأجزاء القابلة للتّعارض أو التي هي متعارضة. مكنة الحرب العالمية هذه التي «تتولّد» بطريقة ما من الدّول، تُقدّم شكلين متتابعين: أولاً شكل الفاشستيّة الذي يجعل من الحرب حركة غير محدودة لم يعد لها من هدف غير ذاتها؛ لكنّ الفاشستيّة [٥٢٥] ليست إلّا بداية، والشّكل الما بعد فاشستيّ هو شكل مكنة حرب تتخذ لها مباشرة من السّلم موضوعا، بوصفها سِلم الرّعب أو البقاء. تعيد مكنة الحرب تشكيل فضاء أملس يسعى الآن إلى مراقبة وتطويق الأرض بكاملها. الحرب الشاملة هي ذاتها وقع تجاوزها باتّجاه صورة للسّلم أكثر إرعابا بكثير. أخذت مكنة الحرب على عاتقها

(١) مثلما يبيّن ذلك جون أولريش ناف، إنّهُ في الفترة الكبرى للـ«حرب المحدودة» (١٦٤٠ - ١٧٤٠) جدّت ظاهرات المركزة، التّراكم والاستثمار التي كان عليها تحديد الـ«حرب الشاملة»: راجع الحرب والتّقدّم البشريّ، منشورات ألزاسيا. يمثّل التّقنين الحربيّ النابليونيّ منعرجا سيسرّع عناصر الحرب الشاملة، التّعبئة، النّقل، الاستثمار، الاستعلام، إلخ.

الهدف والنظام العالمي، ولم تعد الدول غير موضوعات أو وسائل تمتلكها هذه المكنة الجديدة. وهنا تنقلب قولة كلاوزفيتس فعليًا؛ إذ، حتى نتمكن من القول إن السياسة هي مواصلة الحرب بوسائل أخرى، لا يكفي قلب الكلمات كما لو أنه كان بإمكاننا نطقها في هذا الاتجاه أو في الاتجاه الآخر؛ يجب أن نتبع الحركة الواقعية التي في أعقابها تعطي الدول من جديد، وقد استحوذت على مكنة حرب وطوعتها لأهدافها، مكنة حرب تتكفل بالهدف، تستحوذ على الدول وتضطلع أكثر فأكثر بالوظائف السياسية^(١).

لا شك أن الوضع الراهن يبعث على اليأس. لقد رأينا مكنة الحرب العالمية تتشكل بقوة متزايدة، كما في قصة خيال علمي؛ لقد رأيناها تُعين لنفسها هدفًا هو سلم لعلها أكثر إرعابًا من الموت الفاشستي، لقد رأيناها تدعم أو تثير أبشع الحروب المحلية بوصفها أجزاءها الخاصة؛ لقد رأيناها تعين صنفاً جديداً للعدو، لم يعد دولة أخرى ولا حتى نظاماً آخر، بل هو «العدو أيًا كان»؛ لقد رأيناها تقيم عناصرها المضادة لحرب العصابات، بحيث أنه من الممكن مفاجأتها مرةً وليس مرةً ثانية... غير أن الشروط ذاتها التي هي شروط مكنة حرب الدولة أو العالم، أي رأس المال الثابت (الموارد والعتاد) ورأس المال البشري المتحول، لا تفتأ تعيد خلق إمكانات ردود غير منتظرة، مبادرات غير متوقعة تحدد مكنات متحوّلة، أقلية، شعبية، ثورية. يشهد على ذلك تعريف العدو أيًا كان... «متعدّد الأشكال، مُناور وحاضر في كلّ مكان (...)»، ذو طابع اقتصادي، تمرديّ، سياسي، أخلاقيّ، إلخ.»، المخرب المادي الذي يتعذر تعيينه أو الهارب البشريّ من أكثر

(١) حول هذا «التخطي» للفاشستية وللحرب الشاملة؛ وحول نقطة القلب الجديدة لقولة كلاوزفيتس، راجع كامل تحليل فريليو، انعدام أمن الإقليم، الفصل الأول خاصة.

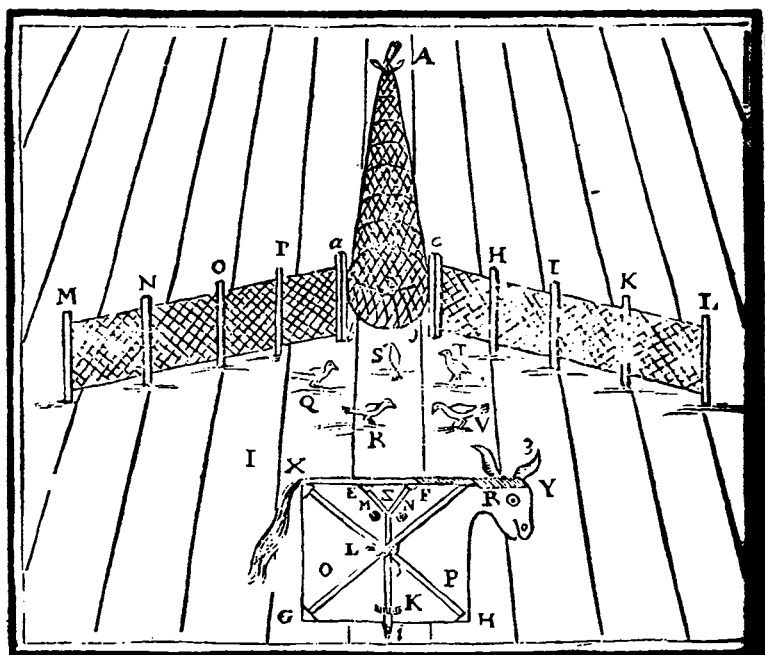
الصّور تنوّعا^(١). العنصر التّظريّ الأوّل المهمّ هو معاني مكنة الحرب شديدة التّنوّع، وتحديدًا لأنّ لمكنة الحرب [٥٢٦] علاقة متغيّرة للغاية بالحرب ذاتها. مكنة الحرب لا تتحدّد بشكل موحّد، وتتضمّن شيئًا آخر غير الكميّات المتزايدة للقوّة. لقد حاولنا تحديد قطبين لمكنة الحرب: وفق الأوّل، هي تتخذ من الحرب موضوعًا لها، وتكوّن خطّ تدمير قابل للامتداد حتّى حدود الكون. لكن في كلّ المظاهر التي تتخذها هنا، مظاهر حرب محدودة، حرب شاملة، تنظيم عالميّ، فإنّها لا تمثّل البتّة الماهية المفترضة لمكنة الحرب، لكنّها تمثّل فقط أيّا كانت قدرتها، جملة الشّروط التي تستولي وفقها الدّول على هذه المكنة، حتّى وإن اعتبرتها في نهاية المطاف كأفق للعالم أو كنظام مهيمن لم تعد الدّول ذاتها غير أجزاء منه. القطب الآخر كان بدا لنا أنّه هو قطب الماهية، عندما لا تكون الحرب موضوع مكنة الحرب، مع «كميّاتها» المحدودة بشكل لا نهائيّ، إنّما موضوعها مسار خطّ إفلات إبداعيّ، التّوليف بين فضاء أملس وبين حركة النّاس في هذا الفضاء. وفق هذا القطب الآخر، تلتقي هذه المكنة الحرب، لكنّها تلتقيها بوصفها موضوعها التّركيبيّ والتّكميليّ، الموجّه حينئذ ضدّ الدّولة وضدّ الأكسيوميّة العالميّة التي تعبّر عنها هذه الدّول.

اعتقدنا أنّنا عثرنا على مثل هذا الابتكار لمكنة الحرب عند المترحّلين. لقد كان ذلك بحرص تاريخيّ فقط لنبيّن أنّها وقع ابتكارها بما هي كذلك، حتّى وإن كانت أظهرت منذ البداية كلّ الغموض الذي كان جعلها تتألف مع القطب الآخر وتميل نحوه بالفعل. لكن طبقًا للماهية، المترحّلون ليسوا هم الذين يمتلكون السّرّ: حركة فنيّة،

(١) غي بروسولا، مقالة في اللّامعركة، صص ١٥-١٦. المصطلح الأكسيوميّ لل«عدوّ أيّا كان»، مفصّل فعلاً باستفاضة في النّصوص الرّسمية أو غير الرّسمية للدّفاع الوطني، للقانون الدّولي وللفضاء القضائي أو الأمنيّ.

علمية، «إيديولوجية»، يمكن أن تكون مكنة حرب محتَمَلة، تحديداً من حيث أن هذه الحركة ترسم مسطّح قِوام، خطّ إفلات إبداعيّ، فضاء تنقل أملس، في علاقة بشعبة. ليس المترحّل هو الذي يحدّد مجموعة الخصائص هذه، هذه المجموعة هي التي تحدّد المترحّل، في نفس الوقت الذي تحدّد فيه ماهية مكنة الحرب. إذا كانت حرب العصابات، حرب الأقلّيّة، الحرب الشعبيّة والثوريّة، مطابقة للماهيّة، فلائها تتخذ من الحرب موضوعاً أكثر ضرورة بقدر ما هو «تكميليّ» وحسب: إنّها لا تتمكّن من القيام بالحرب إلّا بشرط إبداع شيء آخر في نفس الوقت، حتى وإن لم يكن غير علاقات اجتماعيّة جديدة غير عضويّة. ثمة فرق كبير بين هذين القطبين، حتّى من زاوية الموت، وخاصّة من هذه الزاوية: خطّ الإفلات الذي يبدع، أو الذي ينقلب إلى خطّ تدمير؛ مسطّح القِوام الذي يتكوّن، حتى وإن كان ذلك قطعة قطعة، أو الذي ينقلب إلى مسطّح تنظيم وهيمنة. أن يكون ثمة تواصل بين الخطّين أو بين المسطّحين، أن يتغذى [٥٢٧] أحدهما من الآخر، يستعير من الآخر، فإنّ ذلك هو ما نلاحظه باستمرار: أسوأ مكنة حرب عالميّة تعيد بناء فضاء أملس لتحيط بالأرض وتسيّجها. لكنّ الأرض تثبت اقتدارات لا تارُضُنها الخاصّة، خطوط إفلاتها، فضاءاتها الملساء التي تحيا وتشقّ سبيلها من أجل أرض جديدة. ليست المسألة مسألة الكمّيّات، بل مسألة الخاصية اللّامتناهية للكمّيّات التي تتواجه في نوعين من مكّنات الحرب، تبعاً للقطبين. مكّنات حرب تتكوّن ضدّ الأجهزة التي تستولي على المكنة وتجعل من الحرب قضيتها وموضوعها: إنّها تؤكّد ترابطات، في وجه الالتقاء الكبير لأجهزة الاستحواذ أو الهيمنة.

[٥٢٨] ١٣. ٧٠٠٠ قبل الميلاد. - جهاز الاستحواذ



القضية العاشرة: الدولة وأقطابها

لنعد إلى أطروحات دوميزيل: (١) قد يكون للسيادة السياسية قطبان، الإمبراطور المرعب والسّاحر الذي يعمل بواسطة الاستحواذ والأصفاد والأنشوطات والشّباك، المَلِك الكاهن والقانوني الذي يعمل بواسطة المعاهدات والمواثيق والعقود (إنّه الثنائيّ فارونا-ميترا، أودهين-تير، فوطان-طيواز، أورانوس-زوس، روميليس-

نوما... .)؛ وظيفة حرب خارج السيادة السياسية، وتتمايز عن قطب كما عن الآخر (إنها إندرا أو ثور، أو تيليس أستليس... .)^(١).

[٥٢٩] ١) إنه إيقاع عجيب هو الذي يحرك بالتالي جهاز الدولة، وإنه أولاً لغز كبير هو لغز الآلهة- المقيّدة أو الأباطرة السحريين، عُور يرسلون من عين واحدة العلامات التي تأسر، التي تقيّد عن بُعد. الملوك- القانونيون هم بالأحرى كُتّع، يرفعون اليد الوحيدة بوصفها عنصر الحقّ والتقنية، عنصر القانون والأداة. في تعاقب رجال الدولة، ابحثوا دائماً عن الأعور والأكتع، هوراتيوس كوكلاس وموسايوس سكافولا (ديغول وبومبيدو؟). ليس لأنّ العلامات مقصورة على أحدهما وعلى الآخر الأدوات. الإمبراطور المرعب هو بالفعل سيّد الأشغال الكبرى؛ الملك الحكيم يحمل ويغيّر نظام العلامات كلّ. ذلك أنّ تركيبة العلامات- الأدوات تشكّل على آية حال السمة الفارقة للسيادة السياسية أو لتكاملية الدولة^(٢).

٢) بطبيعة الحال، رجلاً الدولة لا يفتان يتدخّلان في مسائل الحرب. لكن بشكل محدّد، إمّا أنّ الإمبراطور السحريّ يقاتله محاربون من غير محاربيه، محاربين يضعهم في خدمته نتيجة الاستحواذ عليهم؛ أو وبشكل خاصّ، يسحب الأسلحة عندما يظهر في ساحة القتال، يلقي بشبكته على المحاربين، يُشعرهم بعين واحدة بإغماء تخشبيّ متحجّر،

(١) الكتاب الأساسيّ لدوميزيل بهذا الخصوص هو ميترا- فارونا (نجد فيه كذلك دراسة «الأعور» أو «الأكتع»).

(٢) مبحث الإله المقيّد والأنشطة السحرية مثل موضوع دراسات ميثولوجية شاملة: بالأخصّ ميرسيا إلياد في صور ورموز، غاليمار، الفصل الثالث. لكنّ هذه الدراسات ملتبسة لأنها تستعمل منهجاً تلفيقياً أو نموذجياً. على التقيض من ذلك، منهج دوميزيل منهج فارقّي: مبحث الأسر لا يجمع معطيات متنوّعة إلّا تحت سمة فارقية، متكوّنة تحديداً من قبل السيادة السياسية. حول التعارض بين هذين المنهجين، يمكن الرجوع إلى أورتيغ، الخطاب والرمز، منشورات أوبييه.

«إنّه يأسر دون قتال»، يحاصر مكنة الحرب (إذا، بكل تأكيد لن نخلط بين أسر الدولة هذا وبين أشكال أسر الحرب، الغزوات، المساجين، الغنائم^(١)). أمّا بخصوص القطب الآخر، المَلِك القانوني فهو منظم كبير للحرب؛ لكنّه سيضع لها قوانين، يهيئ لها ساحة، يتكر لها حقًا، يفرض عليها انضباطا، يجعلها تابعة لغايات سياسيّة. إنّ يجعل من مكنة الحرب مؤسّسة عسكريّة، يجعل مكنة الحرب ملكا للدولة^(٢). لن نتحدّث سريعا عن التلطيف والأنسنة: لعلّه على التقيض من ذلك، كون مكنة الحرب لم يعد لها من موضوع غير الحرب ذاتها. العنف، نجده في كلّ مكان، لكن تحت أنظمة واقتصادات مختلفة. عنف الإمبراطور السّحريّ: أنشوطته، شبكته، [٥٣٠] «ضربته القاصمة»... عنف المَلِك القانوني، تكراره مع كلّ ضربة، دائما بموجب الغايات، التحالفات والقوانين... في الحدّ الأقصى، قد يبدو عنف مكنة الحرب أكثر لطفا ومرونة من عنف جهاز الدولة: ذلك أنّ مكنة الحرب ليس لها بعدُ الحرب كـ«موضوع»، ذلك أنّها تفلت من قطبي الدولة. لذلك لا يفتأ رجل الحرب في برّانيته يعترض على تحالفات ومواثيق المَلِك القانوني، لكنه لا يفتأ كذلك يفكّ قيود الإمبراطور السّحريّ. إنّ فكّك قيود مثلما هو حانث باليمين: إنّ خائن مرتّين^(٣). له اقتصاد آخر، قساوة أخرى، لكن كذلك عدالة أخرى، شفقة أخرى. علامات وأدوات الدولة يواجهها رجل الحرب بأسلحته وحليّه. هنا أيضا، من سيقول الأفضل والأسوأ؟ من الحقيقي أنّ الحرب تقتل وتشوّه بشكل فظيع. لكنّها تفعل

(١) دوميزيل، ميترا- فارونا، ص ١١٣-١١٤، ١٥١، ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) م. ن، ص ١٥٠: «ثمة الكثير من الطّرق يكون بها الإله إله حرب، وطيواز يحدّد من بينها واحدة قد لا تعبّر عنها جيّدا سمات الإله المحارب، الإله المقاتل... طيواز شيء آخر: إنّ قانونيّ الحرب، وفي نفس الوقت طريقة ديبلوماسيّة» (كذلك المريخ).

(٣) م. ن، صص ١٢٤-١٣٢.

ذلك بشكل أكبر بقدر ما تستولي الدولة على مكنة الحرب. وخاصة أن جهاز الدولة يجعل التشويه وحتى الموت يأتیان مسبقاً. إنه في حاجة إلى أن يكونا حدثاً بالفعل، أن يولد الناس بالتالي معوقين وزومبيين. ميثة الزومبي، الميثة - الحي، هي ميثة العمل وليست ميثة الحرب. التشويه هو نتيجة الحرب، لكنّه شرط ومفترض جهاز الدولة وتنظيم العمل (من هنا العاهة التي لا يولد بها العامل وحسب، بل رجل الدولة ذاته، من نوع الأعور أو الأكتع): «هذا الانتشار الفظ لأجزاء اللحم المقطوعة أذهلني. (...). ألم يكن ذلك جزء مكوّن من الإتيان التقني ومن انتشائه (...).؟ الناس يتحاربون منذ غابر الأزمنة، لكنني لا أتذكر في الإلياذة كلّها مثالا واحدا فقد فيه محارب يدا أو ساقا. تحتفظ الميثة بالتشوهات للمسوخ، للحيوانات البشريّة من عرق طانطال أو بروكيست. (...). إنه وهم بصريّ هو الذي يجعلنا نرجع هذه التشوهات إلى الصدفة. في واقع الأمر، المصادفات تصدر عن التشوهات التي لحقت فعلياً بذور عالمنا؛ التزايد العدديّ لبتّر الأعضاء هو إحدى العلامات التي تكشف انتصار أخلاق المشرط. الخسارة حدثت قبل أخذها بوضوح في الاعتبار...^(١)» إنه جهاز الدولة هو الذي في حاجة - في قمّته كما في قاعدته - إلى معوقين سابقين، إلى مشوّهين موجودين مسبقاً أو إلى مولودين - ميّتين، إلى أصحاب عاهات خلقيين، إلى عُور وكُتّع.

إذن، قد تكون ثمة فرضيّة مغرية في ثلاث مسارات: قد تكون مكنة الحرب «بين» قطبيّ السيادة [٥٣١] السياسيّة، وقد تؤمّن الانتقال من قطب إلى آخر. يبدو أنّ الأشياء يقع عرضها في الميثة أو في التاريخ وفق هذا الترتيب، ١، ٢، ٣. لتكن روايتان للأعور والأكتع حلّلهما دوميزيل: (١) الإله أودهين صاحب العين الواحدة، يربط أو يقيّد ذئب

(١) يونغار، نخل البلّور، منشورات بورغوا، ص ١٨٢.

الحرب، يمسك به في وثاقه السّحريّ؛ ٢) لكنّ الذّئب كان يحتاط وكان يمتلك كامل قدرته البرّانيّة؛ ٣) الإله طير يمنح ضمانه قانونيّة للذّئب، يترك له يدا في شدقه حتّى يتمكّن الذّئب من قطعها إذا لم يتمكّن من فكّ وثاقه. - ١) هوراتيوس كوكلاس الأعور، بوجهه وحده، بتكشيرته وقدرته السّحريّة، يمنع القائد الأتروزيّ من الانقضاض على روما؛ ٢) حينئذ يقرّر قائد الحرب محاصرتها؛ ٣) موسيوس سكاغولا يتولّى الأمر السياسيّ، ويعطي يده ضمانه ليُقنع المحارب بأنّه من الأفضل التّخلي عن الحصار والتوصّل إلى اتّفاق. - في سياق مغاير تماما هو السّياق التّاريخيّ، يقترح مارسال دتيان خطاطة في ثلاثة مسارات من نمط مماثل بالنّسبة إلى اليونان القديمة: ١) صاحب السّيادة السّاحر، «سيد الحقيقة»، يمتلك مكنة حرب، لا تأتي دون شكّ من عنده هو، ويتمتّع في إمبراطوريّته باستقلاليّة نسبيّة؛ ٢) لطبقة المحاربين هذه قواعد خاصّة بهم، تحدّدها «المساواة»، فضاء متجانس، «وسط» (الغنيمة في الوسط، من يتحدّث يكون في وسط المجموعة): إنّهُ فضاء آخر، إنّها قواعد أخرى غير قواعد صاحب السّيادة الذي يأمر ويتحدّث من علّ؛ ٣) الإصلاح العسكريّ الذي يتمّ تحضيره في الطبقة الحربيّة سينتشر في كامل الجسم الاجتماعيّ، تعزيز جيش من الجنود- المواطنين، في نفس الوقت الذي يحلّ فيه القطب القانونيّ للدولة- المدينة محلّ آخر بقايا قطب إمبراطوريّ للسّيادة (مساواة بوصفها قانونا، المتجانس بوصفه فضاء)^(١). هكذا في كلّ الحالات، يبدو أنّ مكنة الحرب تتدخّل «بين» قطبيّ جهاز الدولة لتأمين المرور من قطب إلى آخر وجعله ضروريّا.

(١) مارسال دتيان، سادة الحقيقة...؛ و«الكتيبة، المشكلات والخلافات» (في مشكلات الحرب في اليونان القديمة، منشورات موتون). راجع أيضا جان-بيار فارنان، أصول الفكر اليونانيّ.

غير أنه لا يمكننا إعطاء معنى سببي لهذه الخطاطة (والكتاب المذكورون لا يفعلون ذلك). في المقام الأول، مكنة الحرب لا تفسّر شيئاً؛ إمّا لأنها خارجة عن الدولة وموجّهة ضدها؛ إمّا لأنها تنتمي إليها بالفعل، محاصرة أو ممتلكة، وهي تفترض الدولة. إذا تدخّلت في تطوّر الدولة، فذلك بالتالي حتمياً في ارتباط بعوامل داخلية أخرى. وذلك هو ما يظهر في المقام الثاني: إذا كان ثمة تطوّر للدولة، يجب أن يكون القطب الثاني، القطب [٥٣٢] المتطوّر، في تصادٍ مع القطب الأول، لا يكفّ عن إعادة شحنه بطريقة ما، وألا يكون للدولة إلا وسط داخلية واحد، أي أن تكون لها وحدة تركيب بالرغم من كلّ فروق تنظيم وتطوّر الدول. يجب حتى أن يكون لكلّ دولة قطبان بوصفهما اللحظتين الأساسيتين لوجودها، مع أنّ تنظيمهما يتغيّر. في المقام الثالث، إذ نسّمّي «استحواذاً» هذه الماهية الداخلية أو هذه الوحدة التي هي وحدة الدولة، فإنّه علينا أن نقول إنّ كلمات الـ«استحواذ السحري» تصف الوضعية جيّداً، بما أنّه يظهر دائماً وكأنّها قد تمّت بالفعل وأنّها مفترضة دائماً؛ لكن كيف نفّسرها حينئذ إذا لم تكن مرتبطة بأيّ سبب بيّن قابل للتّعيين؟ لذلك كانت الأطروحات حول أصل الدولة من تحصيل الحاصل دوماً. تارة نستدعي عوامل خارجية مرتبطة بالحرب وبمكنة الحرب؛ تارة عوامل داخلية قد تولّد الملكية الخاصة، النقد، إلخ.؛ تارة في الأخير عوامل مخصوصة قد تحدّد تكوين «الوظائف العموميّة». نجد الأطروحات الثلاث عند أنغلز وفق تصوّر لتنوّع سبل الهيمنة. لكنّ هذه الأطروحات تفترض ما هو موضوع نظر. الحرب لا تُنتج دولة إلا إذا كان أحد الجزأين على الأقلّ هو دولة سابقة؛ وتنظيم الحرب ليس عامل دولة إلا إذا كان ينتمي إليها. إمّا أنّ الدولة لا تتضمّن مكنة حرب (لها شرطة وسجّانون قبل أن يكون لها جنود)، إمّا أنّها تتضمّن مكنة حرب لكن في شكل مؤسّسة عسكريّة أو وظيفة

عموميّة^(١). بالمِثل تفترض المِلْكِيّة الخاصّة مِلْكِيّة عموميّة للدولة تسري بين شقوقها؛ والمال يفترض الضّريبة. وما زلنا لا نرى جيّدا كيف يمكن لوظائف عموميّة أن توجد قبل الدّولة التي تفترضها هذه الوظائف. تقع إحالتنا دائما على دولة تولد راشدة وتظهر فجأة، دولة أصلائيّة غير مشروطة.

القضيّة الحادية عشرة: ما هو أوّل؟

قطب الاستحواذ الأوّل سنسمّيه قطبا إمبراطوريّا أو استبداديّا. إنّه يتوافق والتّشكيل الآسيوي عند ماركس. الأركيولوجيا [٥٣٣] تكتشفه في كلّ مكان، غالبا ما يغطّيه النّسيان، في أفق كلّ الأنظمة أو الدّول، ليس في آسيا وحدها، لكن في إفريقيا، في أميركا، في اليونان، في روما. الدّولة الأصلائيّة ضاربة في القِدَم، منذ العصر الحجريّ الأخير، ولعلّها من قبل ذلك. وفق التّوصيف الماركسيّ: يشيّد جهاز دولة على الجماعات البدائيّة الرّاعيّة التي تمتلك بالفعل قوانين سلائيّة- إقليميّة؛ لكنّه يقنّنها تقنيّا تضافريّا، يُخضعها لسلطة إمبراطور مستبدّ، مالك عموميّ وحيد ومتعال، سيّد الفائض أو المخزون، منظمّ الأشغال الكبرى، (فائض العمل)، مصدر الوظائف العموميّة ومصدر البيروقراطيّة. إنّه نموذج القيد والأنشطة. هو ذا نظام علامات الدّولة: التّفنين التّضافريّ أو الدّالّ. إنّه نظام إخضاع مكثّي: «المكنة العملاقة»

(١) يذكر جاك هارمان (الحرب القديمة، المنشورات الجامعيّة الفرنسيّة، ص ٢٨) «الحملة ذات الأعداد الهائلة التي قادها بشكل غريب موظّف مدنيّ هو أوني في عهد الفرعون بابي الأوّل حوالي سنة ١٤٠٠ ق. م». حتى الديمقراطيّة العسكريّة مثلما كان وصفها مورغان تفترض دولة عتيقة من التّمط الإمبراطوريّ ولا تفسّره (ذلك هو ما ينتج عن أعمال دتيان وفرنان). هذه الدّولة الإمبراطوريّة ذاتها تعمل أوّلا بواسطة السّجّانين والشرّطة بدلا من المحاربين: راجع دوميزيل، ميترا- فارونا، صص ٢٠٠-٢٠٤.

الأولى بحصر المعنى مثلما يقول مفلور. نجاح مذهل في ضربة واحدة: الدول الأخرى لن تكون غير مسوخ بالنسبة إلى هذا النموذج. الإمبراطور- المستبد ليس ملكاً أو طاغية، هؤلاء لن يوجدوا إلا تبعاً لمِلْكِيَّة خاصة بالفعل^(١). بينما كل شيء عمومي في النظام الإمبراطوري: ملكية الأرض مشتركة، لا يملك كل واحد إلا من حيث هو عضو في جماعة؛ الملكية العامة للمستبد هي ملكية الوحدة المفترضة للجماعات؛ والموظفون ذواتهم ليس لهم غير أراض وظيفية، حتى وإن كانت أراض موروثية. يمكن أن يوجد المال، خاصة في الضريبة التي يدين بها الموظفون للإمبراطور، لكنه لا يُستخدم في البيع والشراء، بما أن الأرض لا توجد بوصفها سلعة قابلة للتملك. إنه نظام التعهد، القيد: يُقرض شيء ما أو حتى يُمنح دون تحويل الملكية، دون تملك خاص، ولا يشكّل المقابل فائدة أو منفعة للمانح، إنما بالأحرى «رُبحاً» يعود إليه مصحوباً بسلفة الاستعمال أو عطاء المحصول^(٢).

(١) فكرة تشكّل استبداديّ آسيويّ ظهرت هي ذاتها في القرن الثامن عشر، خاصة عند مونتسكيو، لكن لوصف حالة متطورة للإمبراطوريات، وفي علاقة بالملكية المطلقة. مغايرة تماماً وجهة نظر ماركس الذي يعيد إبداع المصطلح ليعرف الإمبراطوريات العتيقة. النصوص الرئيسية بهذا الخصوص هي: ماركس، المخطوطات، منشورات لابلير، الجزء الثاني، ص ٣١٢ وما يليها؛ ويتفوجال، الاستبداد الشرقيّ، منشورات ميني (توطئة فيدال ناكاي في الطبعة الأولى، لكنها حُذفت في الطبعة الثانية بطلب من ويتفوجال)؛ حول نمط الإنتاج الآسيويّ، في دراسات تاريخية، ١٩٦٦؛ الدراسة العامة لمركز البحوث والدراسات الماركسية حول نمط الإنتاج الآسيويّ، المنشورات الاجتماعية.

(٢) كان فازون يقوم بتلاعب شهير بالألفاظ بين التعهد وعدم التحوّل إلى ملكية (= لا يصبح الشيء ملكاً لمن يتلقاه). فعلياً، التعهد هو شكل أساسي للقانون الرومانيّ العتيق، حيث ما يلزم ليس اتفاقاً بين أطراف متعاقدة، بل فقط كلمة المقرض أو المانح في صيغة سحرية- دينية. إنه ليس عقداً (عقد شفويّ)، ولا يتضمّن لا بيعاً- شراءً حتى وإن كان مؤجّلاً، ولا فائدة، مع أن بإمكانه أن يتضمّن، في ما يبدو لنا، ضرباً من الربح. راجع خاصة بيار نوآي، الكلمة

[٥٣٤] يتفق ماركس المؤرخ وشيلد الأركيولوجي حول النقطة التالية: الدولة الإمبراطورية العتيقة التي قننت جماعات زراعية تقنيا تضافريًا، تفترض على الأقل تطورًا معينًا لقواها الإنتاجية، بما أنه يجب توفر فائض ممكن قادر على تكوين مخزون للدولة، الحفاظ على صناعة تقليدية مختصة (تصنيع المعادن)، وتحفيز تدريجي للوظائف العمومية. لذلك كان ماركس ربط الدولة العتيقة بـ«نمط إنتاج» معين. غير أننا لم نتوقف عن تأخير أصل هذه الدول النيوليثية في الزمن. لكن عندما نقدر عمر إمبراطوريات تعود تقريبًا إلى العصر الحجري القديم، فإن الأمر لا يتعلق فقط بكمية زمنية، المشكل الكيفي هو الذي يتغير. تمكن تلة المنازل الطينية في الأناضول من نموذج إمبراطوري مؤكد بقوة: مخزون من الحبوب البرية ومن الحيوانات الهادئة نسبيًا، المتأتية من مناطق مختلفة، وبشكل تصادفي في البداية، تقوم وتمكن من القيام بعمليات تهجين وانتقاء، هي التي ستخرج منها الزراعة والتربية المحدودة للماشية^(١). نلاحظ أهمية هذا التغير في معطيات المشكل. لم يعد المخزون هو الذي يفترض فائضًا محتملًا بل العكس. لم تعد الدولة هي التي تفترض مجموعات فلاحية مهيأة وقوى إنتاج متطورة؛

والقانون، منشورات الآداب الجميلة؛ ودوميزيل الذي يلح على العلاقة بين التعهد والقيّد السحري، ميترا- فارونا، صص ١١٨ - ١٢٤.

(١) راجع حفريات وأعمال جايمس ملار، أولى حضارات الشرق الأوسط، وتلة المنازل الطينية، لندن. مخططة المدن جاين جاكوب استخرجت من ذلك نموذجًا إمبراطوريًا تسميه «الحجر البركاني الجديد» (من اسم الحُمم البركانية التي تُستخدم لصنع الأدوات)، والتي يمكن أن تعود إلى بداية العصر الحجري الحديث وحتى إلى ما قبل ذلك بكثير. إنها تؤكد على الأصل «الحضري» للزراعة وعلى دور التهجينات التي تحدث في المخزونات الحضريّة للحبوب: الزراعة هي التي تفترض المخزون وليس العكس. يحلل جان روبر في دراسة ستصدر، أطروحات ملار وأطروحة جاين جاكوب، ويستعملهما في منظورات جديدة: تحرير الفضاء.

على التّقيّض من ذلك هي تقوم مباشرة في وسط مكوّن من القاطنين- الصّيّادين دون زراعة ودون تصنيع معادن سابقين، وهي التي تخلق الزّراعة وتربية الماشية وتصنيع المعادن، أوّلا على أرضها هي، ثمّ تفرض ذلك على العالم المحيط. لم يعد الرّيف هو الذي يخلق المدينة تدريجيّا، المدينة هي التي تخلق الرّيف. ليست الدّولة هي التي تفترض نمط إنتاج بل العكس، الدّولة هي التي تجعل من الإنتاج «نمطا». تُلغى آخر الأسباب لافتراض تطوّر تدريجيّ. الأمر شبيه بحبوب في كيس: كل شيء يبدأ باختلاط تصادفيّ. «الثّورة الدّولانيّة والحضريّة» يمكن أن تعود إلى العصر الحجريّ القديم وليس المتأخّر مثلما كان يعتقد في ذلك شيلد.

وُضعت التّطوّريّة موضع سؤال بطرق عدّة [٥٣٥] (حركات متعرجة، مراحل مفقودة هنا أو هناك، قطيعات إجماليّة لا يمكن اختزالها). لقد رأينا خاصّة كيف أنّ بيار كلاستر كان حاول كسر الإطار التّطوّريّ، وفق أطروحتين: (١) المجتمعات المسمّاة مجتمعات بدائيّة لم تكن مجتمعات دون دولة، بمعنى أنّها قد لا تكون بلغت مرحلة معيّنة، إنّما هي مجتمعات ضدّ الدّولة، تُنظّم آليات كانت تستبعد الصّورة- الدّولة وكانت تجعل تبلورها مستحيلا؛ (٢) عندما تظهر الدّولة فإنّها تظهر في شكل قطيعة غير قابلة للاختزال، بما أنّها ليست نتيجة تطوّر تدريجيّ لقوى الإنتاج (حتّى «ثورة العصر الحجريّ الأخير» لا يمكن تعريفها وفق بنية تحتية اقتصادية^(١)). غير أنّنا لا نقطع مع التّطوريّة برسم قطيعة لذاتها: كان كلاستر حافظ في المرحلة الأخيرة من عمله

(١) كلاستر، المجتمع ضدّ الدّولة. لقد رأينا كيف أنّ الحرب البدائيّة وفق كلاستر، كانت إحدى الآليات الرئيسيّة التي تستبعد الدّولة، من حيث أنّها كانت تحافظ على تعارض وتشتّت جماعات أقسوميّة صغرى. لكن من هذه الزّاوية أيضا، تظلّ الحرب البدائيّة تابعة لآليات الاستبعاد، ولا تستقلّ بذاتها في مكنة، حتّى عندما تحمل جسما متخصّصا.

على الوجود المسبق للمجتمعات ضدّ الدّولة وعلى اكتفائها بذاتها، وكان عزا آليتها لاستشعار غريب جدّا لما كانت تستبعده والذي ما زال لم يوجد. بشكل أعمّ، نستغرب لعدم الاكتراث الغريب الذي ما زالت تبديه الإثنولوجيا إزاء الأركيولوجيا. قد يقال إنّ الإثنولوجيين الذين ينحس كل واحد منهم في مجاله، يريدون مقارنة هذه المجالات في ما بينها بكيفيّة مجرّدة أو بنيويّة في أفضل الحالات، لكنّهم يرفضون مقارنتها بالمجالات الأركيولوجيّة التي قد تقوّض استقلاليتها. إنهم يستمدّون صورا من بدائيتهم لكنّهم يرفضون مسبقا تزامن وتراكم الخارطين الإثنوغرافية والأركيولوجيّة. تلة المنازل الطينيّة قد تكون لها مع ذلك منطقة نفوذ تمتدّ على مدى ثلاثة آلاف كيلومتر؛ وكيف يظّلّ المشكل المطروح دوما يلفّه الغموض، مشكل علاقة التّزامن بين المجتمعات البدائيّة والإمبراطوريّات، حتّى في العصر الحجريّ الأخير؟ طالما أنّنا لا نمزّ بالأركيولوجيا، فإنّ مسألة علاقة إثنولوجيا- تاريخ ترتدّ إلى مواجهة مثاليّة، ولا تتخلّص من المبحث السّخيف لمجتمع دون تاريخ أو لمجتمع ضدّ التّاريخ. ليس كلّ شيء دولة، تحديدا لأنّه كان ثمة دول في كلّ زمان ومكان. ليست الكتابة وحدها هي التي تفترض الدّولة، بل كذلك الكلام، اللّسان واللّغة. الاكتفاء الذاتيّ، الاستكفاء، الاستقلاليّة، الوجود المسبق للجماعات البدائيّة هي حلّم إثنولوجيّ: ليس لأنّ هذه الجماعات يتوقّف وجودها بالضرورة على الدّول بل هي توجد معها في شبكة معقّدة. من المرجّح أنّ المجتمعات البدائيّة أقامت [٥٣٦] «منذ البداية» علاقات بعيدة بعضها مع بعضها الآخر وليس فقط بشكل تدريجيّ، وأنّ هذه العلاقات كانت تمرّ بدول، حتّى وإن كانت هذه الأخيرة لا تقوم إلّا باستحواذ محليّ وجزئيّ عليها. الكلام ذاته والألسن، بغضّ النّظر عن الكتابة، لا يحدّدان جماعات متشكّلة تتفاهم في ما بينها، لكنّهما يحدّدان أوّلا علاقات بين جماعات لا تتفاهم: إذا كان ثمة لغة، فإنّها كائنة أوّلا بين الذين لا يتكلّمون نفس

اللّسان. اللغة مجعولة لذلك، للترجمة وليس للتواصل. وثمة في المجتمعات البدائية الكثير من الميولات التي «تبحث» عن الدولة، الكثير من الموجّهات التي تعمل باتجاه الدولة، كم من الحركات في الدولة أو خارجها تسعى إلى الانفصال عنها، إلى اتّقاءها، أو إلى تطويرها، أو إلى تدميرها بالفعل: كل شيء يوجد معا، في تفاعل دائم. تطوّر اقتصاديّة مستحيلة: لا نكاد نعتقد في تطوّر حتّى وإن كان متشعّبا: «قاطفو الثّمار- صيّادون- مربّو مواشي- مزارعون- صناعيّون». وليست أفضل من ذلك تطوّر إيثولوجيّة «مترحلون، أنصاف مترحلين، حضريّون». ناهيك عن تطوّر إيكولوجيّة «استكفاء مشّت لجماعات محلّيّة- قرى وبلدات- مدن- دول». يكفي أن نجعل هذه التّطوّرات المجرّدة تتداخل حتى تنهار التّطوّرية بأكملها: على سبيل المثال، المدينة هي التي تخلق الزّراعة دون المرور ببلدات. على سبيل المثال كذلك، المترحلون لا يسبقون الحضريّين، لكنّ التّرحّل حركة، تصوّر يطال الحضريّين، بقدر ما يكون الاستقرار الحضريّ توقفا يثبت المترحلين: بيّن غريازنوف بهذا الخصوص كيف أنّ أقدم ترحل لا يمكن عزوه بدقّة إلّا إلى شعوب تترك إقامتها شبه الحضريّة، أو تنقلها البدائيّ، لتبدأ في الارتحال^(١). في مثل هذه الظروف ابتكر المترحلون مكنة الحرب، بما هي ما يعمر أو يملأ الفضاء المترحل، ويتعارض مع المدن والدّول التي تسعى هذه المكنة إلى إلغائها. كان للبدائيين بالفعل آليات حرب كانت تساهم في منع تشكّل الدولة؛ لكنّ هذه الآليات تتغيّر عندما تستقلّ بذاتها في مكنة مخصوصة للتّرحّل الذي يواجه الدّول. غير أنّنا لن نستنتج من ذلك تطوّرا حتى متعرّجا قد يذهب من البدائيّين إلى

(١) وفق غريازنوف (Gryaznov)، مزارعون مستقرّون هم الذين يبدوون بالتّرحّل في الفيءاء في العصر البرنزي: إنّها حالة حركة متعرّجة في التّطور. راجع سيبيريا الجنوبيّة، منشورات نجال، ص ٩٩، ١٣٣-١٣٤.

الدّول، من الدّول إلى مكّنات الحرب المترخّلة: أو على الأقلّ ألاّ يكون التعرّج متتابعاً، لكنّه يمرّ بمواضع طبولوجيا تحدّد هنا [٥٣٧] المجتمعات البدائيّة، هناك دولا، هناك مكّنات حرب. وحتى عندما تستولي الدّولة على مكنة الحرب، وتُغيّر كذلك من طبيعتها، فتلك ظاهرة نُقْلة وتحوّل وليست ظاهرة تَطوّر. لا يوجد المترخّل إلّا في التّصيّر والتّفاعل؛ وكذلك البدائيّ أيضاً. لا يفعل التّاريخ غير تحويل تزامن تَصيُّرات إلى تتابع. ويمكن للجتماعات أن تكون منتجيّة، نصف-حضرية، حضرية أو مترخّلة، من دون أن تكون تلك مراحل تحضيرية للدّولة، التي توجد هناك بالفعل أو في الجوار.

هل يمكن أن نقول على الأقلّ إنّ قاطفي الثّمار- الصّيّادين هم البدائيّون «الحقيقيّون»، وبقوّن رغم كلّ شيء هم قاعدة افتراض تكوّن الدّولة أو حدّه الأدنى، مهما أرجعنا هذا التّكوّن إلى زمن بعيد؟ لا يمكن أن نتبنّى وجهة النّظر هذه إلّا بشرط تكوين تصوّر منقوص جدّاً عن السّببيّة. ومن الحقيقيّ أنّ علوم الإنسان، بصورها الماديّة، التّطوريّة أو حتّى الديالكتيكيّة، متخلّفة بالنّسبة إلى ثراء وتعمّد العلاقات السّببيّة مثلما تظهر في الفيزياء وحتّى في البيولوجيا. الفيزياء والبيولوجيا تضعاننا أمام سببيّات مقلوبة، دون غائيّة، لكنّها ليست أقلّ تعبيراً عن تأثير المستقبل على الحاضر أو تأثير الحاضر على الماضي: من ذلك الموجة المقرّبة والإمكان المتوقّع اللّذان يستتبعان قلباً للزّمن. أكثر من القطيعات والتّعرّجات، هذه السّببيّات المقلوبة هي التي تكسر التّطوّر. كذلك في المجال الذي نحن منشغلون به، لا يكفي القول إنّ دولة العصر الحجريّ الأخير أو حتّى العصر الحجريّ القديم، تؤثر بمجرد ظهورها على عالم قاطفي الثّمار- الصّيّادين المحيط بها؛ إنّها تعمل بالفعل قبل أن تظهر، بوصفها الحدّ الرّاهن الذي تتّقيه هذه المجتمعات البدائيّة من جانبها، أو بوصفها النّقطة التي تتّجه صوبها هذه المجتمعات لكنّها لن تبلغها إطلاقاً من دون أن تبيد ذاتها. ثمّة في نفس

الوقت في هذه المجتمعات، موجّهات تتّجه نحو الدّولة، آليات لا تتّقاءها، نقطة التّقاء يقع تأخيرها، إبعادها بقدر ما يقع الاقتراب منها. الاتّقاء هو كذلك استباق. الآكد أنّ ظهور الدّولة للوجود، ووجودها المسبّق بوصفها حدّا، لا يكونان البتّة بنفس الطّريقة؛ من هنا الحداثيّة التي لا تقبل الاختزال. لكن لنمنح معنى إيجابيّاً لفكرة «استشعار» ما لم يوجد بعدّ، يجب أن نبيّن كيف أنّ ما لا يوجد بعدّ يؤثّر بالفعل بشكل آخر غير تأثيره بشكل وجوده. تؤثّر الدّولة بمجرّد ظهورها على قاطفيّ الثّمار- الصّيّادين فارضة عليهم الزّراعة، تربية الماشية وتقسيمًا متزايدًا للعمل، إلخ. : إذاً في شكل موجة نابذة أو متباعدة. لكن قبل ظهورها، تعمل الدّولة في شكل موجة مقرّبة أو جابذة للصّيّادين قاطفيّ الثّمار، موجة تمّحيّ تحديدًا في نقطة التّقارب التي قد تعيّن [٥٣٨] انقلاب العلامات أو ظهور الدّولة (من هنا عدم الاستقرار الجوهريّ والوظيفيّ لهذه المجتمعات البدائيّة^(١)). لكن، من الضّروريّ التّفكير من هذه الزّاوية في تعاصر أو تزامن هاتين الحركتين المتعاكستين، في وجهتيّ الزّمن- في البدائيّين «قبل» الدّولة وفي الدّولة «بعد» البدائيّين- كما لو أنّ الموجتين اللّتين تبدوان لنا متنافيتين أو متعاقبتين، كانتا تتّمان في آن واحد في مجال هبائيّ ميكروبيولوجيّ، ميكروسياسيّ، «أركيولوجيّ».

ثمّة آليات جماعيّة تتوقّى وتستبق في نفس الوقت تكوّن سلطنة مركزيّة. تظهر هذه الأخيرة بالتّالي تبعاً لعتبة أو لدرجة بحيث أنّ ما وقع استباقه يتّخذ أو لا يتّخذ قواماً، ما وقع اتّقاؤه يتوقّف عن كونه كذلك ويحدث. وعتبة القوام أو الإرغام هذه ليست تطوريّة، إنّها توجد في نفس الآن مع ما تحتها. أكثر من ذلك، قد يتوجّب التّمييز بين

(١) يستخرج جون روبر هذا المصطلح لـ«انقلاب العلامات والرّسائل»: «في مرحلة أولى، تتنقل المعلومات رئيسيّاً من الهامش باتجاه المركز، لكن انطلاقاً من نقطة معيّنة حاسمة، ترسل المدينة باتجاه العالم الرّيفيّ رسائل متزايدة الإلزاميّة» وتصبح مصدّرة (تحرير الفضاء).

عتبات قِوام: المدينة والدولة ليستا نفس الشيء، مهما كان تكاملهما. «ثورة الحضريّة» وال«ثورة الدُولانيّة» يمكن أن تتزامنا لكن لا يمكن أن تتطابقا. ثمة سلطة مركزيّة في الحالتين، لكن ليس لها نفس الشكل. عرف بعض الكتّاب كيف يميّزون بين النظام الإمبراطوريّ والبلاطيّ (قصر - معبد) والنظام المدنيّ، الحضريّ. ثمة مدينة في كلتا الحالتين، لكن في حالة أولى المدينة هي توسّع ضخم للقصر أو للمعبد، في الحالة الأخرى، القصر، المعبد هو تجميد للمدينة. في حالة أولى، المدينة بامتياز هي العاصمة، في الحالة الأخرى هي المركز التجاريّ. بالفعل تشهد سومر على تنظيم الحاضرة في اختلافها عن التنظيم الإمبراطوريّ المصريّ. لكن أكثر من ذلك، عالم البحر الأبيض المتوسطّ مع البلاسجيين، الفينيقيّين، اليونانيّين، القرطاجيّين، هو الذي خلق نسيجا عمرانيّا مختلفا عن تنظيمات الشرق الإمبراطوريّة^(١). هنا أيضا ليست المسألة مسألة تطوّر، بل مسألة عتبتيّ قِوام تتواجدان معا هما ذاتهما. تتعلّق الفروق بالكثير من الجوانب.

المدينة مضايقة الطّريق. إنّها لا توجد إلّا تبعا للتّقلّل وللمسالك؛ إنّها نقطة مميّزة على ما يخلقها من المسالك أو ما تخلقه هي من مسالك. إنّها تتحدّد [٥٣٩] بمداخل ومخارج، يجب أن يدخلها ويخرج منها شيء ما. إنّها تفرض وتيرة. إنّها تقوم باستقطاب للمادّة الجامدة، الحيّة أو الإنسانيّة؛ إنّها تجعل الشّعبة والاندفاعات تمرّ هنا أو هناك على خطوط أفقيّة. إنّها ظاهرة عابرة للقِوام، إنّها شبكة، لأنّها

(١) حول المدن الصّينيّة وتبعيّةاتها للمبداء الإمبراطوريّ، راجع بلازس (Balazs)، البيروقراطيّة السّماويّة، غاليمار. وبرودال، الحضارة المادّيّة والرّأسماليّة، ص ٤٠٣: «في الهند كما في الصّين، ترفض البنى الاجتماعيّة المدينة مقدّما، قد نقول إنّها تقدّم لها موادّ من نوعيّة سيّئة، مهزّبة. (...) ذلك أنّ المجتمع محاصر، ما يسمّى محاصرة، في ضرب من نظام غير قابل للاختزال، نظام تجميد مسبق.»

في علاقة أساسية بمدن أخرى. إنها تمثل عتبة لا تأرُضن، إذ يجب أن تكون المواد أياً كانت لا متأرضنة كفاية حتى تدخل في الشبكة، تخضع للاستقطاب، تتبع مسار إعادة التقنين الحضري والطُرقِيّ. يظهر أقصى اللّا تأرُضن في سعي المدن التّجاريّة والبحريّة إلى الانفصال عن المناطق الدّاخليّة وعن الرّيف (أثينا، قرطاج، البندقية...). غالباً ما وقع التّأكيد على الخاصيّة التّجاريّة للمدينة، لكنّ التّجارة فيها هي كذلك تجارة روحانيّة، كما في شبكة الأديرة أو المدن- المعابد. المدن نقاط- مسالك متنوّعة تشكّل تنوعاً على الخطوط الأفقيّة؛ إنّها تُجري اندماجاً تامّاً لكنّه محليّ ومن مدينة إلى أخرى. تكون كلّ مدينة سلطة مركزيّة، لكنّها سلطة استقطاب أو وسط، سلطة تنسيق قسريّ. من هنا الادّعاء المساواتيّ لهذه السّلطة، أياً كان الشّكل الذي تتّخذه، شكلاً استبدادياً، ديمقراطياً، أوليغارشياً، أرستقراطياً... سلطة المدينة تتبكر فكرة القضاء المختلفة جدّاً عن فكرة موظّفي الدّولة^(١). لكن من سيقول أين يوجد أكبر عنف مدنيّ؟

بالفعل، الدولة تتصرّف بشكل مغاير: إنّها ظاهرة قِوام داخليّ. إنّها تجعل نقاطاً تتصادى معاً، نقاطاً ليست بالضرورة مدناً- أقطاباً

(١) بكلّ هذه المعاني يضع فرانسوا شاتلاي موضع نظر المصطلح الكلاسيكيّ للدّولة- المدينة، ويشكّ في كون المدينة الأثينيّة يمكن مائلتها بأية دولة كانت («اليونان الكلاسيكيّة، العقل، الدّولة» ضمن على الهامش، الغرب وآخروه، منشورات أوبييه). مشكلات مماثلة قد تُطرح بالنسبة إلى الإسلام، وكذلك بالنسبة إلى إيطاليا، ألمانيا والمناطق الفلمنيّة انطلاقاً من القرن الحادي عشر: السّلطة السياسيّة فيها لا تتضمّن الصّورة- الدّولة. على سبيل المثال، مجتمع المدن الهانسيّة ليس له موظّفون ولا جيش ولا حتى شخصيّة قانونيّة. المدينة مأخوذة دوماً في شبكة مدن، لكن تحديداً، «شبكة المدن» لا تتطابق مع «فسيفساء الدّول»: حول كلّ هذه النّقاط، راجع تحليلات فرانسوا فوركاوي وليون ميرار، جنرالوجيا التّجهيزات الجماعيّة، منشورات ١٨/١٠، صص ٧٩-١٠٦.

بالفعل، إنما هي نقاط ذات طابع شديد التّنوع، خاصّيات جغرافيّة، عرقيّة، لسانیّة، أخلاقيّة، اقتصاديّة، تكنولوجيّة... إنّها تجعل المدينة تنصّادى مع الرّيف. إنّها تتصرّف تراصفيّا، أي أنّها تشكّل مجموعة عموديّة وتراتيبيّة تخترق الخطوط الأفقيّة في العمق. إنّها لا تحتفظ بهذا العنصر أو بتلك العناصر إلّا بقطع علاقاتها مع عناصر أخرى أصبحت عناصر خارجيّة، إلّا بمنع، إبطاء أو مراقبة هذه العلاقات؛ إذا كان للدّولة ذاتها مسلك، فإنّه [٥٤٠] مسلك داخليّ يتوقّف أوّلا على الإصداء، إنّّه منطقة معاودة تنعزل بالتّالي عن باقي الشّبكة، حتّى وإن راقبت العلاقات مع هذا الباقي بشكل أدقّ. لا تتعلّق المسألة بمعرفة ما إذا كان هذا الذي وقع الاحتفاظ به هو طبيعيّ أو اصطناعيّ (الحدود)، بما أنّه ثمة في كلّ الأحوال لا تأرّضن؛ لكنّ اللاّ تأرّضن يتّج هنا عن كون الإقليم ذاته وقع اعتباره بمثابة موضوع، بمثابة موادّ للتّرصيف وللإصداء. السّلطة المركزيّة للدّولة هي كذلك سلطنة تراتيبيّة وتكوّن هيئة موظّفين؛ المركز ليس في الوسط بل في الأعلى، بما أنّه لا يتمكّن من تجميع ما يفصله إلّا بالتّبعيّة. الآكد أنّه ثمة كثرة من الدّول لا تقلّ عن كثرة المدن، لكنّه ليس نفس نمط الكثرة: ثمة الكثير من الدّول بقدر ما ثمة من التّقطيعات العموديّة في العمق، وكل تقطيع مفصولة عن الأخريات، بينما المدينة لا تنفصل عن الشّبكة الأفقيّة للمدن. كلّ دولة هي اندماج شامل (وليس محلّيّا)، ترداد إصداء (وليس ترداد وتيرة)، عمليّة تراصف الإقليم (وليس عمليّة استقطاب الوسط).

يمكننا إعادة بناء الكيفيّة التي توقّت بها المجتمعات البدائيّة العتبتين مع استباقهما. يبيّن ليفي - شتراوس أنّ نفس المدن قابلة لصيغتين، أحدهما أقسوميّة ومساواتيّة، الأخرى شاملة وتراتيبيّة. ثمة هنا ما يشبه إمكانيّتين، واحدة تستبق نقطة مركزيّة مشتركة بين أقسوميتين أفقيّتين، الأخرى على النّقيض من ذلك هي نقطة مركزيّة خارجة عن

المستقيم^(١). ذلك أن المجتمعات البدائية لا تنقصها تشكّلات سلطة: بل لها حتى الكثير منها. لكن، ما يمنع التّقاط المركزيّة الكامنة من التّبلور، من اكتساب قِوام، هي بشكل محدّد الآليات التي تجعل تشكّلات السّلطة هذه لا تتصادى معا في النّقطة العليا بقدر ما لا تُستقطب في النّقطة المشتركة: ليست المراكز بالفعل مراكزَ متراكزة، والأقسامتان في حاجة إلى أقسومة ثالثة تتواصلان بواسطتها^(٢). بهذا المعنى تبقى المجتمعات البدائية في ما دون العتبة- المدينة كما العتبة- الدّولة.

لو ننظر الآن في عتبتَي القِوام، نرى بوضوح أنّهما تتضمّنان لا تآرُضُنا بالنّسبة إلى التقنيات الإقليمية البدائية. ومن غير المفيد التّساؤل عن أيّهما هي الأولى، المدينة أو الدّولة، الثّورة الحضريّة أو الدّولائيّة، بما أنّ الإثنين تفترضان بعضهما تبادليًا. [٥٤١] يجب وجودهما معا للقيام بتخديد الفضاء، خطوط لحيّة للمدن، تقطيعات تناغميّة للدّول. السّؤال الوحيد الذي يُطرح هو سؤال إمكان علاقة معكوسة صلب هذه التّبادليّة. إذ، إذا كانت الدّولة الإمبراطوريّة العتيقة تتضمّن بالضرّورة مدنا ضخمة، فإنّ هذه المدن تظلّ أكثر تبعيّة لها بقدر ما يحافظ البلاط على احتكار التّجارة الخارجيّة. على التّقيض من ذلك، تسعى المدينة إلى التّحرّر عندما يثير التقنين التّضافريّ للدّولة هو ذاته اندفاعات غير مقيّنة. ينضمّ اللاّ تقنين إلى اللاّ تآرُضن ويوسّعه: إعادة التقنين الضرورية تمرّ حينئذ باستقلاليّة معيّنة للمدن، أو مباشرة بمدن تجاريّة وتعاضديّة تحرّرت من الصّورة- الدّولة. بهذا المعنى تظهر حواضر لم تعد لها علاقة بأرضها الخاصّة، لأنّها تؤمّن التّجارة بين إمبراطوريّات،

(١) ليفي- شتراوس، الأنثروبولوجيا البنيويّة، منشورات بلون، صص ١٦٧- ١٦٨.

(٢) يحلّل لويس بارث انطلاقا من مثال دقيق، ضرورة «قرية ثالثة» تمنع المسار الموجّه من الانغلاق: «البُكران والإخوة الأصغر، الزّواج والمراتبية عند البادوج»، صص ٢١٤- ٢١٥.

أو أفضل من ذلك، تُكوّن هي ذاتها مع حواضر أخرى شبكة تجارية متحرّرة. ثمة إذًا مغامرة خاصّة بمدن المناطق ذات الكثافة اللاتقنيّة: كما هو الحال في العالم الإيجي القديم، في العالم الغربي للقرون الوسطى وعصر النهضة. ألن يكون بمقدورنا القول إنّ الرأسماليّة هي ثمرة المدن وهي تظهر عندما ننحو إعادة تقنين حضريّ إلى تعويض تقنين الدّولة التّضافريّ؟ غير أنّ ذلك قد لا يكون صحيحًا. ليست المدن هي التي تخلق الرأسماليّة. ذلك أنّ المدن التجاريّة والمصرفيّة، مع عدم إنتاجيّتها، عدم اكتراثها بالمناطق الدّاخلية، لا تقوم بإعادة تقنين دون أن تكبح كذلك التّصريف العامّ للاندفاعات اللّامقنّنة. إذا كان صحيحًا أنّها تستبق الرأسماليّة، فإنّها بدورها لا تستبقها دون التّوقّي منها. إنّها في ما دون هذه العتبة الجديدة. يجب إذًا توسيع فرضيّة الآليات الاستباقية والكابحة في نفس الوقت: تعمل هذه الآليات في المدن «ضدّ» الدّولة و«ضدّ» الرأسماليّة وليس فقط في المجتمعات البدائيّة. أخيرا، بالصّورة- الدّولة وليس بالصّورة- المدينة ستنتصر الرأسماليّة: عندما ستكون الدّول الغربيّة قد أصبحت نماذج لتحقيق أكسيوميّة الاندفاعات اللّامقنّنة، وستكون أعادت بهذه الصّفة إخضاع المدن. مثلما يقول برودال، «في كلّ مرّة ثمة متسابقان، الدّولة والمدينة»، صورتان وسرعتان لّلا تأرّضن-، «وفي العادة الدّولة هي التي تنتصر (...)، لقد فرضت الانضباط على المدن، بشكل عنيف أو غير عنيف، بضراوة غريزيّة، حيثما ولّينا أبصارنا عبر أوروبا بأكملها (...)، التحقت الدّولة بعدّو المدن^(١)». [٥٤٢] غير أنّ ذلك لا يكون

(١) برودال، الحضارة الماديّة والرأسماليّة، صص ٣٩١-٤٠٠ (حول العلاقات مدينة- دولة في الغرب)، ومثلما يلاحظ برودال ذلك، واحد من أسباب انتصار الدّول على المدن انطلاقا من القرن الخامس عشر، هو أنّ الدّولة وحدها لها القدرة على الاستحواذ كلّيا على مكنة الحرب: بانتداب إقليميّ للرّجال، باستثمار ماديّ، بتصنيع الحرب (ظهر الإنتاج المتسلسل والتّقسيم الميكانيكيّ في مصانع

إلا تبادليًا؛ بالفعل، إذا كانت الدّولة الحديثة هي ما يعطي الرّأسماليّة نماذج تحقّقها، فإنّ ما تحقّق على هذا النّحو هو أكسيوميّة مستقلّة وعالميّة، هي بمثابة المدينة الواحدة ذاتها، مدينة عملاقة أو «مكنة عملاقة» تشكّل الدّول أجزاءها أو أحياءها.

نعرّف التشكيلات الاجتماعيّة بـ«سُيُورورات مكنيّة»، وليس بأنماط إنتاج (تتوقّف على التّقيّض من ذلك على السّيُورورات). هكذا تتحدّد المجتمعات البدائيّة بآليات اتّقاء- استباق؛ تتحدّد المجتمعات التي لها دولة بأجهزة استحواذ؛ المجتمعات الحضريّة بأدوات استقطاب؛ المجتمعات المترحّلة بمكنات حرب؛ في النّهاية تتحدّد المنظّمات الدّوليّة أو بالأحرى الكونيّة بضمّ تشكيلات اجتماعيّة متنافرة. لكنّ تحديدًا لأنّ هذه السّيُورورات هي متغيّرات تواجّد متزامن هي التي تُشكّل موضوع طوبولوجيا اجتماعيّة، فإنّ مختلف التشكيلات الاجتماعيّة المناظرة لها تتواجد تزامنيًا. وهي تتواجد معا بكيفيّتين، بطريقة خارجيّة وبطريقة داخلية. من ناحية، في حقيقة الأمر، المجتمعات البدائيّة لا تتوقّى تكوّن الإمبراطوريّة أو الدّولة دون استباقه، ولا تستبقه دون أن يكون حاضرا بالفعل، مشكّلا جزءًا من أفقها. لا تقوم الدّول باستحواذ دون أن يكون المستحوذ عليه متواجدا ومقاوما في المجتمعات البدائيّة، أو دون أن يفلت وفق أشكال جديدة، أشكال مدن، مكنات حرب... التشكّل العدديّ لمكنات الحرب يتراكم مع التّنظيم السّلاليّ البدائيّ، ويتعارض في نفس الوقت مع التّنظيم الهندسيّ للدّولة، مع التّنظيم المادّيّ للمدينة. إنّ هذا التّواجد المشترك البرانيّ- التّفاعل- هو الذي يظهر لذاته في مجموعات دوليّة. ذلك أنّ هذه الأخيرة، بكلّ تأكيد، لم

الأسلحة أكثر من ظهورهما في مُشغل الدّبابيس). على التّقيّض من ذلك، المدن التجاريّة في حاجة إلى حروب خاطفة، تلجأ إلى مرتزقة، ولا يمكنها غير احتواء مكنة الحرب.

تنتظر الرأسمالية حتّى تتشكّل: منذ العصر الحجريّ الأخير، وحتى منذ العصر الحجريّ القديم، نعث على آثار تشكّلات عالميّة تشهد على تجارة تمتدّ إلى مسافات طويلة، وتخترق في نفس الآن التّشكيلات الاجتماعيّة الأكثر تنوعاً (لقد رأينا ذلك بخصوص التّعدين). مشكل التّرويج والتّرويجيّة، يُطرح بشكل سيّء طالما افترضنا مركزاً انطلاقاً منه قد يتمّ التّرويج. ليس ثمة ترويج إلّا بإقامة تواصل بين إمكانات ذات صبغات مختلفة جدّاً: كلّ ترويج يعمل في الوسط، من الوسط، شأن كلّ ما «يتبنّت»، من نوع الجذمور. منظّمة دوليّة كونيّة لا تعمل انطلاقاً من مركز إمبراطوريّ قد يفرض ذاته على وسط خارجيّ ليجعله متجانساً؛ وفضلاً عن ذلك هي لا تُختزل [٥٤٣] في علاقات بين تشكيلات من نفس النّوع، بين دول مثلاً (عُصبة الأمم، منظّمة الأمم المتّحدة). على التّقيّض من ذلك هي تُكوّن وسطاً يكون وسيطاً بين مختلف الأنظمة المتواجدة معاً. وهي كذلك ليست اقتصاديّة أو تجاريّة بشكل حصريّ، إنّها أيضاً دينيّة، فنيّة، إلخ. بهذا المعنى سنسمّي منظّمة عالميّة كلّ ما له القدرة على المرور بتشكيلات اجتماعيّة مختلفة في نفس الآن، المرور بدول، مدن، صحارى، مكّانات حرب، مجتمعات بدائيّة. التّشكيلات التجاريّة التاريخيّة ليست لها مجرد حواضر-أقطاب، بل هي تمرّ بأقسامات بدائيّة، إمبراطوريّة، مترحلة، حتى تعاود الخروج منها في صورة أخرى. سمير أمين على حقّ تماماً في قوله إنّ ثمة نظريّة اقتصاديّة للعلاقات الدوليّة، حتّى عندما تكون هذه العلاقات اقتصاديّة، وذلك لأنّها قائمة بين تشكيلات متنافرة^(١). لا تنطلق منظّمة كونيّة من دولة حتى وإن كانت دولة إمبراطورية، الدّولة

(١) ذلك مبحث طالما حلّله سمير أمين: «بما أنّ نظريّة العلاقات بين التّشكيلات الاجتماعيّة المختلفة لا يمكن أن تكون اقتصاديّة، فإنّ العلاقات الدوليّة التي تقع تحديداً داخل هذا الإطار، لا يمكنها أن تفضي إلى نظريّة اقتصاديّة» (التّطوّر اللّامتكافئ، منشورات مينوي، ص ١٢٤ وما بعد).

الإمبراطورية تُكوّن جزءً منها وحسب، وتُكوّن جزءً منها بصيغتها هي، على قدر نظامها الذي يتمثل في الاستحواذ على كلّ ما تستطيعه. إنها لا تتصرّف وفق مجانسة متزايدة ولا وفق كُليّة، إنّما وفق اتّخاذ قِوام أو ترسيخ للمتنوّع من حيث هو كذلك. على سبيل المثال، تختلف الدّيانة التّوحيدية عن العبادة الإقليميّة بادّعاء الكليّة. لكنّ هذا الادّعاء ليس مجانسا، ولا قيمة له إلّا بسبب انتقاله إلى كلّ الأماكن: مثل المسيحيّة التي لم تصبح مسيحيّة إمبراطوريّة ومدينة دون أن توجد كذلك جماعاتها، صحاريها، مكناث حربها^(١). كذلك ليس ثمة حركة فنيّة لم تكن لها مدنها وإمبراطوريّاتها، لكن كذلك مترحّلوها، جماعاتها وبدائيّوها.

يمكن الاعتراض بالقول إنّ الرّأسمالية، العلاقات الاقتصادية الدّوليّة، وفي الحدّ الأقصى كلّ العلاقات الدّولية على الأقلّ، تنحو إلى مجانسة التّشكيلات الاجتماعية. لن نذكر فقط التّدمير المنسّق للمجتمعات البدائيّة بدم بارد، إنّما كذلك انهيار آخر التّشكيلات الاستبداديّة- الإمبراطوريّة العثمانية مثلا، التي كانت أبدت الكثير من المقاومة والتّعطيل في وجه المطالب الرّأسماليّة. غير أنّ هذا الاعتراض ليس صحيحا إلّا بشكل جزئيّ. من حيث أنّ الرّأسماليّة تُشكّل أكسيوميّة (إنتاج من أجل السّوق)، كلّ الدّول وكلّ التّشكيلات الاجتماعية تسعى إلى أن تكون متشاكلّة، بوصفها [٥٤٤] نماذج للتحقّق: ليس ثمة غير سوق عالميّة مُمرّكة واحدة، هي الرّأسماليّة التي تشارك فيها حتى الدّول المسماة دولا اشتراكيّة. يتوقّف التّنظيم العالميّ إذا عن المرور «بين» الأشكال المتنافرة، بما أنّه يؤمّن تشكّل التّشكيلات. لكن قد نكون مخطئين بالخلط بين المشاكلة والمجانسة. من ناحية، تحافظ المشاكلة على جزء كبير من تنافر الدّول أو حتّى تستثيره (الدّول

(١) راجع جاك لكازيار، رجال الله السّكاري، منشورات فايار.

الديمقراطية، الكليانية، ناهيك عن الدول «الاشتراكية»، ليست غير واجهات). من ناحية أخرى، الأكسيومية الرأسمالية الدولية لا تؤمن فعليًا تشاكل التشكيلات المتعددة إلا هناك حيث تتطور السوق الداخلية وتتوسع، أي في «المركز». لكن هذه الأكسيومية تتضمن تعددًا معينًا للأشكال المحيطية بل أكثر من ذلك تطالب به طالما لم تكن مشبعة، طالما تدفع بهمة الحدود التي تخصها: من هنا وجود تشكيلات اجتماعية متغيرة في المحيط، لا تُشكّل بكل تأكيد بقايا أو أشكالًا انتقالية، بما أنها تحقق إنتاجًا رأسماليًا فائق الحداثة (نفط، مناجم، مزارع، معدات إنتاجية، صناعة الحديد والصلب، كيمياء...)، لكنها مع ذلك ما قبل- رأسمالية أو خارج الرأسمالية، نتيجة مظاهر أخرى لإنتاجها ولعدم التلاؤم القسري لسوقها الداخلية مع السوق العالمية^(١). عندما يصبح التنظيم العالمي أكسيوميًا رأسماليًا، فإنه يواصل تضمّن تنافر التشكيلات الاجتماعية، يُحدث «عالمه الثالث» وينظمه.

ليس ثمة تواجد متزامن خارجي للتشكيلات وحسب، ثمة كذلك تواجد متزامن داخلي للسيرورات الممكنة. ذلك أن كلّ سيرورة يمكنها أن تعمل كذلك تحت «قدرة» أخرى غير قدرتها الخاصة، أن تستعيد لها قدرة أخرى تتوافق مع سيرورة أخرى. الدولة بوصفها جهاز استحواذ لها قدرة تملك؛ لكن تحديدًا، لا تتمثل هذه القدرة فقط في استحواذها

(١) يحلّل سمير أمين هذه الخصوصية التي هي خصوصية «التشكيلات المحيطية» للعالم الثالث، ويميّز فيها بين نوعين رئيسيين، نوع شرقي وإفريقي، نوع أميركي: «أمريكا الجنوبية، آسيا والمشرق العربي، إفريقيا السوداء، لم يقع تغييرها بنفس الطريقة، لأنها لم يقع إدماجها في نفس مرحلة التطور الرأسمالي في المركز ولم تقم بالتالي بنفس الوظائف في هذا التطور» (التطور اللا متكافئ، ص ٢٥٧ وما بعدها؛ والتراكم على الصّعيد العالمي، منشورات أنتروبوس، صص ٣٧٣-٣٧٦). غير أننا سنرى كيف أنّ المركز والمحيط، مصمّمان، في بعض الظروف، على تغيير خصائصهما.

على كلّ ما تستطيع، كلّ ما هو ممكن، على مادة محدّدة بوصفها
شعبة. جهاز الاستحواذ يتملّك كذلك مكنة الحرب، أدوات
الاستقطاب، آليات الاستباق- التوقّي. ذلك يعني [٥٤٥] عكسيًا أنّ
آليات الاستباق- التوقّي لها قدرة تحويل كبرى: لا تعمل هذه الآليات
في المجتمعات البدائيّة وحسب، لكنّها تنتقل إلى المدن التي تتوقّي
الصّورة- الدّولة، إلى الدّول التي تتوقّي الرّأسماليّة، إلى الرّأسماليّة
ذاتها من حيث توقّيها أو تأخيرها لحدودها الخاصّة. وهي لا تكتفي
كذلك بالانتقال في قدرات أخرى، بل تعيد تشكيل بؤر مقاومة
وعدوى، مثلما رأينا بخصوص ظاهرات «العصابة»، التي لها هي ذاتها
مدنها وأمميتها، إلخ. كذلك لمكنات الحرب قدرة على انقلاب العين
بها تستحوذ عليها الدّول بكلّ تأكيد، لكن بها كذلك تقاوم هذا
الاستحواذ وتنبعث في أشكال أخرى، مع «موضوعات» أخرى غير
الحرب (الثّورة؟). كلّ قدرة هي قوّة لا تارُضُن تتنافس مع الأخريات
وضدّ الأخريات (حتّى المجتمعات البدائيّة لها موجهات لا تارُضُنها).
كلّ سيرورة يمكنها الانتقال إلى قدرات أخرى، لكن بإمكانها كذلك
إخضاع سيرورات أخرى لقدرتها الخاصّة.

القضيّة الثانية عشرة

هل يمكن تصوّر «تبادل» بين مجموعات بدائيّة بمعزل عن كلّ
رجوع إلى مصطلحات مثل مصطلحات المخزون، العمل والبضاعة؟
يبدو أنّ هامشيّة معدّلة تمكّنا من فرضيّة. ذلك أنّ أهميّة الهامشيّة لا
تتأتّى من نظريّتها الاقتصاديّة الضّعيفة للغاية، إنّما من قدرة منطقيّة
جعلت من جفونس (Jevons) على سبيل المثال، نوعا من لويس كارول
في الاقتصاد. لتكن مجموعتان مجردتان، واحدة (أ) تعطي بذورا
وتتلقّى فؤوسا، والأخرى (ب) على العكس منها. بِمَ يتعلّق التّقويم
الجماعيّ للموضوعات؟ يتعلّق بفكرة الموضوعات الأخيرة التي وقع

تلقّيها، أو بالأحرى بالموضوعات التي يمكن تلقّيها من الجهتين تباعا. لا يجب أن نفهم من «أخير» أو «هامشي» الأقرب عهدا أو النهائي، إنّما بالأحرى السابق للأخير، ما قبل الأخير، أي الأخير قبل أن يفقد التبادل الظاهريّ كل أهميّة بالنسبة إلى المتبادلين، أو يجبر كلّ واحد منهم على تغيير تنضيده، على الدّخول في تنضيد آخر. نتصوّر بالفعل أنّ المجموعة قاطف- زارع (أ)، التي تتلقّى الفؤوس، لديها «فكرة» حول عدد الفؤوس الذي قد يجبرها على تغيير التّضيد؛ والمجموعة الصّانعة ب، لديها فكرة حول كمّيّة البذور التي قد تجبرها على تغيير التّضيد. سنقول حينئذ إنّ العلاقة بذور- فؤوس قد حدّتها الكتلة الأخيرة للبذور (بالنسبة إلى المجموعة ب) التي تتوافق وآخر [٥٤٦] فأس (بالنسبة إلى المجموعة أ). الأخير بوصفه موضوع تقويم جماعيّ سيحدّد قيمة السّلسلة كلّها. إنّّه يعيّن بالضّبط النّقطة التي على التّضيد أن يحدث فيها من جديد، أن يبدأ ممارسة جديدة أو دورة جديدة، أن يستقرّ في إقليم آخر، هي النّقطة التي في ما وراءها قد لا يستطيع التّضيد مواصلة وجوده بما هو كذلك. إنّّه إذا ما قبل الأخير، السابق للأخير، بما أنّه قبل النهائي. النهائي هو عندما يكون على التّضيد أن يغيّر طبيعته: قد يكون على المجموعة ب أن تزرع البذور الزّائدة، قد يكون على المجموعة أ أن تسرّع إيقاع زراعاتها الخاصّة وأن تبقى في نفس الأرض.

يمكننا حينئذ وضع فرق مفهوميّ بين الـ«حدّ» والـ«عتبة»، يشير الحدّ إلى السابق للأخير الذي يعيّن إعادة بدء ضروريّة، وتشير العتبة إلى النهائي الذي يعيّن تغييرا لا مفرّ منه. إنّّه معطى اقتصاديّ لكلّ مؤسسة أن تتضمّن تقويما للحدّ الذي إذا وقع تخطّيه على المؤسسة أن تغيّر بنيتها. تدّعي الهامشيّة بيان وتيرة هذه الآليّة التي هي آليّة السابق للأخير: ليس فقط آخر الموضوعات القابلة للتّبادل، بل آخر موضوع قابل للإنتاج، أو آخر منتج هو ذاته، المنتج- الحدّ أو الهامشيّ قبل أن

يتغيّر التّضيد^(١). إنّه اقتصاد الحياة اليوميّة. على هذا النّحو، ما الذي يسمّيه المدمن على الكحول آخر كأس؟ للمدمن على الكحول تقويم ذاتيّ لما يمكن أن يتحمّله. ما يمكنه تحمّله هو بكامل الدّقة الحدّ الذي تبعاً له، وفقه هو، سيكون بإمكانه معاودته (أخذاً في الاعتبار لراحة، لاستراحة...). لكن، في ما أبعد من هذا الحدّ، ما تزال ثمة عتبة قد تجعله يغيّر تنزيده: إمّا بالنّسبة إلى طبيعة المشروبات، إمّا بالنّسبة إلى الأماكن والمواقيت التي كان يشرب فيها عادة؛ إمّا، وذلك هو الأسوأ، أنّه قد يدخل في تنزيد انتحاريّ، أو في تنزيد طبّيّ، استشفائيّ، إلخ. ليس من المهمّ أن يخطئ المدمن على الكحول، أو أن يستعمل بشكل غامض جدّاً موضوع «سأتوقّف عن الشّرب»، موضوع الأخير. المهمّ هو وجود مقياس هامشيّ وتقويم هامشيّ تلقائيّين ينظّمان قيمة سلسلة «الكؤوس» كلّها. كذلك، أن تكون لنا الكلمة الأخيرة في التّضيد-خلاف عائليّ. كلّ واحد من الرّوجين يقوّم منذ البداية [٥٤٧] حجم أو كثافة الكلمة الأخيرة التي قد تمنحه الأسبقية وقد تنهي النقاش، واطعة حدّاً لممارسة أو لدورة تنزيد، حتّى يتمكّن كلّ شيء من بداية جديدة. كلّ واحد يقدر حجم كلامه وفق تقويم هذه الكلمة الأخيرة، ووفق الزّمن المتّفق عليه بشكل غير دقيق لبلوغها. وفي ما وراء الكلمة الأخيرة (السّابقة للأخيرة) قد تكون ثمة كذلك كلمات أخرى، هي الكلمات النّهائيّة هذه المرّة، والتي قد تُدخل إلى تنزيد آخر، إلى

(١) غائتان بيرو (Gaetan Pirou)، الاقتصاد الليبرالي والاقتصاد الموجّه، منشورات سداس، الجزء الأوّل، ص ١١٧: «إنتاجيّة العامل الهامشيّ لا تُحدّد أجرة هذا العامل الهامشيّ وحسب، بل أجرة كلّ الآخرين، كذلك عندما كان الأمر يتعلّق بالبضائع، جدوى آخر سَطْل ماء أو آخر كيس قمح هي التي كانت تتحكّم بالقيمة، ليس فقط قيمة هذا السَطْل أو هذا الكيس، بل قيمة كل السَطول الأخرى أو كلّ الأكياس الأخرى.» (تدعي الهامشيّة تكميم التّضيد، بينما كلّ أنواع العوامل الكيفية الأخرى تعمل في تقويم «الأخير».)

الطلاق مثلاً، لأننا قد نكون تجاوزنا «الحدّ». سنقول نفس الشيء عن الحبّ الأخير. كان بروسـت بيّن كيف أنّ حبّاً يمكن توجيهه وفق حدّه الخاصّ، هامشه الخاصّ: إنّهُ يكرّر نهايته الخاصّة. بعد ذلك يبدأ حبّ جديد، بحيث يكون كلّ حبّ حبّاً تسلسليّاً، وتكون ثمّة سلسلة محبّات. لكن «في ما أبعد من ذلك» أيضاً، ثمّة النهائيّ، هنالك حيث يتغيّر التّنْضيد، هنالك حيث يترك التّنْضيد العاشق مكانه لتنْضيد فنيّ- الأثر الذي يجب إنجازهُ، مشكل بروسـت...

التّبادل مظهر وحسب: كل شريك أو كلّ مجموعة تقدّر قيمة الموضوع الأخير الذي سيقع قبوله (موضوع- حدّ)، والتّكافؤ الظّاهريّ يصدر عن ذلك... ينتج التّساوي عن سلسلتين متنافرتين، ينتج التّبادل أو التّواصل عن مُناجَأتين فرديّتين (مماحكة). ليس ثمّة لا قيمة تبادل ولا قيمة استعمال، بل تقويم للأخير من كلّ جانب (حساب الخطر المتعلّق بتجاوز الحدّ)، تقويم- استباق يأخذ بعين الاعتبار الخاصيّة الطّقوسيّة كما التّفعيّة للخاصيّة التّسلسليّة كما التّبادليّة. تقويم الحدّ لكلّ واحدة من المجموعات يكون حاضراً منذ البداية، ويتحكّم بالفعل بأول «تبادل» بينهما. الأكّد أنّه ثمّة تلمّس، التّقويم لا ينفصل عن التّلمّس الجماعيّ. لكنّ هذا التّلمّس لا يتعلّق البتّة بكميّة العمل الاجتماعيّ، إنّهُ يتعلّق بفكرة الأخير من هذا الجانب كما من ذاك، ويتمّ وفق سرعة متغيّرة، لكنّها دائماً أسرع من الزّمن الضّروريّ للوصول فعليّاً إلى الموضوع الأخير أو حتّى للمرور من عمليّة إلى أخرى^(١). إنّهُ بهذا

(١) حول أهميّة نظريّة التّقويم والتّلمّس في الهامشيّة، راجع العرض التّقدي لفرادان (Fradin)، الأسس المنطقيّة لنظريّة التّبادل الكلاسيكيّة الجديدة، منشورات ماسيرو. بالنّسبة إلى الماركسيّين، ثمّة كذلك تقويم تلمّسيّ، لكنّه لا يمكن أن يتعلّق إلّا بكميّة العمل الضّروريّة اجتماعيّاً؛ أنغلز يتحدّث عن ذلك بخصوص المجتمعات ما قبل الرّأسماليّة تحديداً. إنّهُ يذكر «مسار تقريّب متعرج، للكثير من التّلمّسات في الظّلمة»، تلمّسات تنتظم نسبياً وفق «ما تقتضيه كلفة كلّ واحد»

المعنى يكون التّقويم استباقياً، حاضراً بالفعل في الحدود الأولى [٥٤٨] للسّلسلة. نرى أنّ الجدوى الهامشيّة (المتعلّقة بآخر الموضوعات التي سيقع قبولها من الجهتين) ليست متعلّقة البتّة بمخزون مفترَض تجريديّاً، بل بالتّضيد الخاصّ بالمجموعتين. باريثو كان ذهب في هذا الاتّجاه عندما كان تحدّث عن «الجدوى الاستعماليّة الذاتيّة» بدلا من الجدوى الهامشيّة. يتعلّق الأمر براغبية هي بمثابة مكوّن للتّضيد: كلّ جماعة ترغب وفق قيمة آخر موضوع سيقع قبوله، في ما أبعد منه قد تكون مجبرة على تغيير التّضيد. وبشكل محدّد لكلّ تضيد وجهان، مكثّة أجساد أو موضوعات، تُلَفّظ مجموعة. تقويم الأخير هو التّلَفّظ الجماعيّ الذي تناظره كامل سلسلة الموضوعات، أي دورة تضيد أو ممارسته. المجموعات البدائيّة التّبادليّة تظهر بالتّالي وكأنّها مجموعات تسلسليّة. إنّ نظام خاصّ حتى من زاوية العنف. إذ حتّى العنف يمكن أن يكون خاضعا لمعالجة طقوسيّة هامشيّة، أي لتقويم لل«عنف الأخير» بوصفه يتخلّل سلسلة الضربات كلّها (في ما أبعد من ذلك قد يبدأ نظام عنف آخر). كنّا عرّفنا المجتمعات البدائيّة سابقا بوجود آليات استباق-توقّ. نرى بشكل أفضل كيف أنّ هذه الآليات تتكوّن وتتوزّع: إنّ تقويم الأخير بوصفه حدّا يكوّن استباقا، هو الاستباق الذي يتوقّى الأخير في نفس الوقت بوصفه عتبة أو نهاية (إنّه تضيد جديد).

العتبة كائنة «بعد» الحدّ، «بعد» آخر الموضوعات التي ستُقبل: إنّها تعيّن اللّحظة التي لم يعد يمثل فيها التّبادل الظّاهريّ نفعا. لكنّا نعتقد أنّ المخزون يبدأ تحديدا في تلك اللّحظة، قبل ذلك، يمكن أن تكون ثمة مخازن حبوب للتبادل، مخازن حبوب للمبادلة، لكن ليس ثمة

(ستساءل عمّا إذا لم يكن هذا الجزء الأخير من الجملة يشكّل ضربا من مقياس هامشيّ). راجع أنغلز، توطئة رأس المال، الكتاب الثالث، المنشورات الاجتماعية، صص ٣٢-٣٤.

مخزون بالمعنى الحقيقي للكلمة. ليس التبادل هو الذي يفترض مخزوناً سابقاً، إنه يفترض «مرونة» وحسب. لا يبدأ المخزون إلا عندما يكون التبادل فقد أهميته وراغبته من الجهتين. يجب كذلك توفر شرط يمنح أهمية خاصة وراغبة خاصة للمخزون (وإلا فإنه قد يقع إتلاف الموضوعات واستنفادها بدلا من تخزينها: الاستنفاد هو بالفعل وسيلة البدائيين للتوقي من المخزون وللحفاظ على تنضيدهم). يتوقف المخزون ذاته على تنضيد من نمط جديد. ودون ريب ثمة الكثير من الالتباس في هذه العبارات «بعد»، «جديد»، «فسح المجال». في الحقيقة، العتبة حاضرة بالفعل، لكنها خارج الحد الذي يكتفي بترك مسافة بينه وبينها، بتركها بعيدة عنه. يتمثل المشكل في معرفة ما يكونه هذا التنضيد الآخر الذي يمنح أهمية راهنة للمخزون، راغبة مخزون. يبدو لنا أن للمخزون مضافاً ضرورياً: إما التواجد المتأني للأقاليم المستغلة في نفس الآن، إما [٥٤٩] تعاقب أشكال الاستغلال لنفس الإقليم الواحد. ها هي الأقاليم تُشكل أرضاً، تترك مكانها لأرض. ذلك هو التنضيد الذي يتضمن بالضرورة مخزونا، ويشكل في الحالة الأولى زراعة على نطاق واسع، في الحالة الأخرى زراعة مكثفة (طبقاً لنموذج جاين ياكوب). نرى حينئذ في ما تتمايز العتبة-المخزون عن الحد-التبادل: التنضيدات البدائية صيادون-قاطفو ثمار لها وحدة ممارسة تتحدد باستغلال إقليم؛ القانون هو قانون تعاقب زمني لأنّ التنضيد لا يستمرّ إلا بتغيير الإقليم في نهاية كل ممارسة (تجوال، معاودة)؛ وثمة في كلّ ممارسة تكرير أو سلسلة زمنية تنزع نحو الموضوع الأخير بوصفه «مؤشراً»، الموضوع-الحد أو الهامشي للإقليم (معاودة ستحكم التبادل الظاهري). على التقيض من ذلك، في التنضيد الآخر، في تنضيد المخزون، القانون هو قانون تواجد فضائي متزامن، إنه يُركز الاستغلال المتأني لأقاليم مختلفة؛ أو عندما يكون تعاقبياً، تعاقب الممارسات يتعلّق بنفس الإقليم الواحد؛ وفي إطار كلّ

ممارسة أو استغلال، تترك قوّة المعاودة التسلسليّة مكانها لقدرة تناظر، تفكّر ومقارنة شاملة. في عبارات توصيفيّة وحسب، سنعارض إذاً بين التّضيدات التسلسليّة، الثّقيلة أو الإقليميّة (التي تعمل بواسطة تقنيات)؛ وبين التّضيدات الحضريّة، تنضيدات الإجمال أو الأرض (التي تعمل بواسطة تقنين تضافريّ).

الرّبع العقاريّ، في نموذج المجرّد، يظهر تحديداً مع المقارنة بين أقاليم مختلفة مستغلّة في نفس الآن، أو ضروب استغلال متعاقبة للإقليم الواحد ذاته. أسوأ أرض (أو أسوأ استغلال) لا تشمل ربّعا، لكنّها تجعل الأراضي الأخرى ذات ربّع و «تنتجه» مقارنة بها^(١). المحاصيل يمكن مقارنتها تبعا لمخزون (حتّى وإن كانت مزروعات في أراض مختلفة، مزروعات مختلفة تتابعيا في نفس الأرض). تؤكّد مقولة الأخير هنا أهمّيّتها الاقتصاديّة، لكنّ معناها تغيّر تماما: لم تعد تشير إلى نهاية حركة تكتمل في ذاتها، إنّما إلى مركز تناظر حركتين إحداهما تتناقص والأخرى تتزايد؛ إنّها لم تعد تشير إلى حدّ سلسلة ترتيبيّة، إنّما إلى أدنى عنصر في مجموعة أصليّة، إلى عتبة المجموعة - الأرض الأقلّ خصوبة من جملة الأراضي المستغلّة في نفس الآن^(٢). [٥٥٠] الرّبع العقاريّ يجانس الإنتاجيّات المختلفة ويساوي بينها محيلا إلى مالك الأرض فائض أقوى الإنتاجيّات بالنسبة إلى أدنى إنتاجيّة: كما أنّ السّعر (بما في ذلك الرّبح) يتحدّد وفق الأرض الأقلّ إنتاجا، فإنّ الرّبع يستحوذ على

(١) ريكاردو، مبادئ الاقتصاد السّياسيّ والضّربية، منشورات فلاماريون، الفصل الثّاني. ودراسة ماركس لشكليّ «الرّبع التّفاضليّ»، رأس المال، الكتاب الثّالث، القسم السّادس.

(٢) بطبيعة الحال، الأرض الأقلّ خصوبة هي كذلك من الجهة النظريّة، الأحداث أو الأخيرة في سلسلة (وهو ما سمح للكثير من المعلقين بالقول إنّ ريكاردو، في نظريّته المتعلّقة بالرّبع، قد سبق الهامشيّة). لكن تلك ليست حتّى قاعدة، وماركس يبيّن أنّ «حركة متزايدة» ممكنة مثلها مثل «حركة متناقصة»، وأنّ أرضا جيّدة «يمكن تصنيفها في آخر مرتبة» (راجع، بلاياد، II، صص ١٣١٨ - ١٣٢٦).

فائض الربح المتعلق بأفضل الأراضي؛ إنه يستحوذ على «الفرق الناتج عن استعمال كميتين متساويتين من رأس المال ومن العمل». ذلك هو نوع جهاز الاستيلاء نفسه، الملازم لسيرورة لا تأرضن نسبي. في الحقيقة تستتبع الأرض بوصفها موضوع الزراعة لا تأرضنا، لأنه بدلا من توزع الناس في إقليم نقي، قطع أرض هي التي يقع توزيعها بين الناس وفق مقياس كمّي مشترك (خصوبة على مساحة متساوية). لذلك هي الأرض في مبدأ التّخديد ذاته، عاملة بالهندسة، بالتناظر وبالمقارنة- على التقيض من العناصر الأخرى: العناصر الأخرى، الماء، الهواء والرياح، باطن الأرض، لا يمكن تخديدها، وبذلك لا تدرّ ربحا إلا من حيث هي متعيّنة بموقعها، أي بالأرض^(١). للأرض إمكانا لا تأرضن: اختلافات خاصيّتها تمكن مقارنتها في ما بينها، من زاوية كمّيّة ستلائم معها قطع أرض صالحة للاستغلال؛ جملة الأراضي المستغلّة يمكن تملّكها، على خلاف الأرض البريّة الخارجيّة، من زاوية احتكار سيحدّد مالك أو مالكي الأرض^(٢). إنه الإمكان الثاني هو الذي [٥٥١] يشرط

(١) ريكاردو، ص ٦٤: «إذا كان يمكن أن تكوّن للهواء، الماء، مرونة البخار والضغط الجوّ خصائص متغيرة ومحدودة؛ إذا كان بالإمكان فضلا عن ذلك الاستيلاء عليها، فإنّ كلّ هذه العوامل قد تنتج ربحا قد يتطوّر بقدر استعمالنا لمختلف خصائصها.»

(٢) يقوم شكلا الرّبح التفاضليّ على المقارنة. لكنّ ماركس يحافظ على وجود شكل آخر تجاهله المنظرون (ريكاردو)، ويعرفه الممارسون جيّدا فيما يقول: إنه الرّبح المطلق، القائم على الخاصيّة الخاصّة بالملكيّة العقاريّة من حيث هي احتكار. في الحقيقة، الأرض ليست سلعة مثل بقيّة السلع، لأنها لا تمكن إعادة إنتاجها على مستوى مجموعة قابلة للتّحديد. ثمة إذا احتكار، وهو ما لا يعني «ثمن الاحتكار» (ثمن الاحتكار والرّبح المحتمل المقابل له، هما مسألتان مختلفتان تماما). بأبسط صيغة، الرّبح التفاضليّ والرّبح المطلق يتمايزان بالطريقة التّالية: سعر المنتج يقع احتسابه تبعا لأسوأ أرض، متعهّد أفضل أرض قد يتحصّل على فائض ربح ما لم تكن هذه الأرض قد تحوّلت إلى ربح تفاضليّ للمالك؛ لكن من ناحية أخرى، بما أنّ فائض القيمة الزراعيّ أكبر تناسبيا من فائض القيمة

الأول. لكنهما معا هما اللذان يتوقاهما الإقليم بأقلمة الأرض، وهما يتمان الآن بفضل المخزون وفي التنضيد الزراعي، بلا أرضنة الأرض. الأرض المملوكة والمقارنة تستخرج من الأقاليم مركز تقارب كائن في الخارج، الأرض هي فكرة المدينة.

ليس الربيع وحده هو جهاز الاستحواذ. ذلك أن المخزون لا تضايفه الأرض وحسب، بالمظهر المزدوج لمقارنة الأراضي ولتتملك الاحتكاري للأرض؛ يضايفه العمل بالمظهر المزدوج لمقارنة الأنشطة ولتتملك الاحتكاري للعمل (فائض العمل). بالفعل، هنا أيضا، إنه تبعا للمخزون ستقع مقارنة أنشطة من نوع «فعل حر»، إرجاعها إلى كمية متجانسة ومشتركة تسمى العمل وإخضاعها لها. لا يتعلق العمل بالمخزون وحسب، سواء في تكوينه، تخزينه، إعادة تكوينه، استعماله، لكن العمل ذاته هو نشاط مخزن، مثلما أن العامل هو «فاعل» مخزن. أكثر من ذلك، حتى عندما يكون العمل مفصولا عن فائض العمل، لا يمكن اعتبارهما مستقلين: ليس ثمة عمل يسمى عملا ضروريا وفائض عمل. العمل وفائض العمل هما بالضبط نفس الشيء، يقال أحدهما على المقارنة الكمية للأنشطة، يقال الآخر على التملك الاحتكاري للأعمال من طرف المتعهد (ولم يعد من طرف المالك). ومثلما رأينا، حتى عندما يكونان متميزين ومفصولين، فإنه ليس ثمة عمل لا يمر بفائض العمل. فائض العمل ليس هو ما يفيض عن العمل؛ على النقيض من ذلك، العمل هو الذي يقع اقتطاعه من فائض العمل وهو

الصناعي (?)، فإن المتعهد الزراعي بعامة قد يحصل على فائض ربح ما لم يكن هذا الأخير قد تحول إلى ربح مطلق للمالك. الربيع إذا هو عنصر ضروري لتسوية الربح أو معادلته: إما تسوية نسبة الربح الزراعي (ربح تفاضلي)، إما تسوية هذه النسبة مع نسبة الربح الصناعي (ربح مطلق). بعض علماء الاقتصاد الماركسيين اقترحوا خطاظة مغايرة تماما للربيع المطلق، لكنها تحتفظ بالتمييز الضروري الذي قام به ماركس.

يفترضه. هنا فقط يمكن الحديث عن قيمة- عملٍ وعن تقويم يتعلّق بكميّة العمل الاجتماعيّ، بينما كانت الجماعات البدائيّة في نظام فعل حرّ أو نشاط متغيّر باستمرار. بالمعنى الذي يكون متوقّفاً فيه على فائض العمل وعلى فائض القيمة، يشكّل ربح المتعهّد جهاز استحواذ شأنه شأن ربح المالك: [٥٥٢] ليس فائض العمل وحده هو الذي يستولي على العمل، وليست المِلْكِيّة وحدها هي التي تستولي على الأرض، لكنّ العمل وفائض العمل هما جهاز الاستيلاء على النشاط، مثلما مقارنة الأراضي وتملّك الأرض هما جهاز الاستيلاء على الإقليم^(١).

قد يكون ثمة في النهاية جهاز استيلاء، علاوة على الربح والربح، علاوة على الضريبة. لا يسعنا فهم هذا الشكل الثالث ومداه الإبداعيّ إلا إذا حدّدنا العلاقة الدّاخليّة التي تتوقّف عليها البضاعة. بخصوص المدينة اليونانيّة والاستبداد الكورنثيّ على وجه الخصوص، يبيّن إدوارد ويل كيف أنّ العملة لا تأتي أوّلا من التّبادل ولا من السّلع أو من متطلّبات التّجارة، بل من العجاية التي تُدخّل أوّلا إمكان تكافؤ عملة = بضائع أو خدمات، وتجعل من المال معادلا عامّا. بالفعل، العملة هي مضايّف المخزون، إنّها مجموعة فرعيّة من المخزون من حيث أنّه يمكن أن يتكوّن من كلّ موضوع يُحفظ لمُدّة طويلة: في حالة كورنثا، العملة المعدنيّة وقع توزيعها أوّلا على «الفقراء» (من حيث أنّهم متّجون) الذين

(١) يميّز برنار شميث (العملة، الأجور والربح، منشورات كاستلا، صص ٢٨٩-٢٩٠) صورتين للاستيلاء أو التّحصيل يطابقان علاوة على ذلك الشكّلين الرئيسيّين للصيد، الانتظار والمطاردة. قد يكون الربح استيلاء على المتبقيّ أو استيلاء انتظار، لأنّه يتوقّف على القوى الخارجيّة ويعمل بواسطة التّحويل؛ الربح هو استيلاء بواسطة المطاردة أو الاكتساح، لأنّه ينحدر من فعل مخصوص، ويتطلّب قوّة هي القوّة التي تخصّه أو يتطلّب «إبداعا». غير أنّ ذلك ليس صحيحا إلا بالنسبة إلى الربح التفاضليّ؛ مثلما كان لاحظ ماركس ذلك، الربح المطلق يمثل المظهر «الإبداعيّ» للمِلْكِيّة العقاريّة (بلاياد، II، ص ١٣٦٦).

يستعملونها لشراء حقوق الأرض؛ تنتقل بالتالي بين أيدي «الأثرياء»، بشرط ألا في تتوقف، بشرط أن يوقّر الجميع الجباية، أغنياء وفقراء، يوقّرها الفقراء في شكل سلع أو خدمات، ويوقّرها الأغنياء ماليًا، بحيث ينشأ تكافؤ عملة- سلع وخدمات^(١). سرى ما الذي تعنيه [٥٥٣] هذه الإحالة على أغنياء وفقراء في الحالة المتأخرة بالفعل لكورنتا. لكن بغض النظر عن سياق وخصوصيات هذا المثال، فإنّ جهاز سلطة هو الذي وزّع العملة دائماً، وفي ظروف حفظ وتداول وتدوير، بحيث يجد تكافؤ سلع- خدمات- عملة إمكانيةً إنشائه. نحن لا نؤمن إذًا بتتابع قد يكون فيه أولاً ربح عمل، ثمّ ربح عينيّ، ثمّ ربح ماليّ. الضريبة هي بشكل مباشر الموضع الذي يتبلور فيه تكافؤ وتزامن الربوع الثلاثة. كقاعدة عامّة، الضريبة هي التي أضفت الصبغة النقديّة على الاقتصاد، هي التي تخلق العملة، وتخلقها بالضرورة في حركة، في تداول، في تدوير، وتخلقها ضرورة كذلك في علاقة بالخدمات

(١) يحلّل إدوارد ويل (كورنتيات، منشورات دي بوكّار، ص ٤٧٠ وما بعدها) حالة متأخرة لكنّها نموذجيّة هي حالة الإصلاح الذي قام به الطاغية كيبسلوس في كورنتا: (أ) جزء من أراضي الأرستقراطية السّلاليّة وقعت مصادره وتوزيعه على المزارعين الفقراء؛ (ب) لكن في نفس الوقت، تكوّن مخزون عملة معدنيّة من الاستيلاء على المحظورات؛ (ج) هذه العملة ذاتها وقع توزيعها على الفقراء، لكن ليقدموها كتعويض للمالكين القدامى؛ (د) مذكّك سيدفع هؤلاء الضريبة بالعملة، بطريقة تؤمّن تداولاً أو تدويراً للعملة، وتكافؤاً مع البضائع أو الخدمات. نعثر بالفعل على أشكال مماثلة مدوّنة مباشرة في الإمبراطوريّات العتيقة، بغضّ النظر عن مشكلات المِلَكِيّة الخاصّة. على سبيل المثال، وقع توزيع أراض على موظّفين بما هم كذلك، يستغلّونها أو يؤجّرونها. لكن إذا كان الموظّف يتحصّل هكذا على ربح من العمل وبشكل عينيّ، فإنّه مدين للإمبراطور بضريبة مستحقّة بالعملة. من هنا ضرورة «المصارف» التي تؤمّن في ظروف معقّدة، المعادلة، التبدّل، تداول البضائع- العملة عبر مجمل الاقتصاد: راجع غيوم كارداسيا، «الجيش والضريبة في بابل الأخمينيّة» في الجيوش والنّظام الضريبيّ في العالم القديم، المركز الوطني للبحث العلميّ، ١٩٧٧.

والبضائع في تيار هذا التداول. ستجد الدولة في الضريبة وسيلة للتجارة الخارجية من حيث أنها تستحوذ على هذه التجارة. لكن من الضريبة وليس من التجارة تولد الصورة- العملة^(١). والصورة- العملة المتأتية من الضريبة تمكّن الدولة من تملك احتكاري للتبادل الخارجي (تجارة ذات صبغة مالية). فعلياً، يصبح كل شيء مختلفاً في نظام المبادلات. لم نعد نجد ذواتنا في الوضعية «البدائية» حيث يتم التبادل بشكل غير مباشر، بشكل ذاتي، بتسوية بين آخر الموضوعات التي سيقع قبولها (قانون الطلب). بطبيعة الحال، يبقى التبادل على ما هو عليه من حيث المبدأ، أي لا متساوياً، ويُنتج تسوية ناتجة عن اللا تساوي: لكن هذه المرة ثمة مقارنة مباشرة، سعر موضوعي، تسوية نقدية (قانون العرض). أن تكون المنتجات والخدمات بمثابة سلع، وأن تقاس السلعة وتسوّى بالعملة، فإنّ ذلك يتولّد أولاً عن الضريبة. لذلك حتى اليوم، معنى ومدى الضريبة يظهران في ما يسمّى الضريبة غير المباشرة، أي التي تشكّل جزءاً من السعر وتؤثر على قيمة البضاعة بغضّ النظر عن السوق وخارجها^(٢). غير أنّ [٥٥٤] الضريبة غير المباشرة ليست غير عنصر

(١) بين كتاب مثل ويل أو غابريال أردان، أنّ الوظيفة التجارية لم تكن تعبر اهتماماً لأصل العملة المرتبط بأفكار «الدفع»، «سداد الدين»، «فرض الضريبة». لقد أكدوا ذلك خاصّة بالنسبة إلى العالم اليوناني والغربي؛ لكن حتّى في إمبراطوريات الشرق يبدو لنا أنّ احتكار تجارة ذات صبغة نقدية يفترض الضريبة النقدية. راجع إدوارد ويل، «أفكار وفرضيات حول أصول سك العملة»، مجلة علم المسكوكات، ١٩٥٥؛ غابريال أردان، تاريخ الجباية من القديم إلى اليوم، غاليمار (ص ٢٨ وما بعدها: «الأوساط التي أفضت إلى ولادة الضريبة هي التي أفضت كذلك إلى ولادة العملة»).

(٢) حول هذا الجانب من جوانب الضريبة غير المباشرة، راجع أرغيري إمانويل (Arghiri Emmanuel)، التبادل اللا متكافئ، منشورات ماسبرو، ص ٥٥-٥٦، ٢٤٦ وما بعدها. (بالنسبة إلى التجارة الخارجية). بخصوص علاقة الضرائب-التجارات، حالة تاريخية مهمة بشكل خاصّ هي حالة المركنتيلية التي حلّ لها أريك ألياز (رأس المال والسلطة، نصّ غير منشور).

إضافي، ينضاف هو ذاته إلى الأسعار ويضخمها. إنه ليس غير المؤثر أو التعبير عن حركة أعمق تُشكّل الضريبة تبعاً لها الطبقة الأولى من سعر «موضوعي»، المغناطيس النقدي الذي تنضاف إليه العناصر الأخرى للسعر، ربح وبيع، تتجمع وتتقارب في نفس جهاز الاستحواذ. كان ثمة لحظة كبرى للرأسمالية عندما أدرك الرأسماليون أنّ الضريبة كان بإمكانها أن تكون منتجة، ملائمة للأرباح وحتى للربح. لكن كما بالنسبة إلى الضريبة غير المباشرة، إنها حالة ملائمة، لا يجب أن تُخفي مع ذلك اتفاقاً أعمق وأقدم بكثير، تقارباً وتماهياً مبدئياً بين ثلاثة جوانب لنفس الجهاز. جهاز استحواذ له ثلاثة رؤوس، «صيغة ثلاثية» مشتقة من صيغة ماركس (مع أنّها توزع الأشياء بشكل مختلف):

الأرض

(في اختلافها عن الإقليم)
 (أ) مقارنة مباشرة بين الأراضي، ربح
 تفاضلي؛
 (ب) تملك احتكاري للأرض، ربح
 مطلق.

ربح المالك

العمل

(في اختلافه عن النشاط)
 (أ) مقارنة مباشرة للأنشطة، عمل؛
 (ب) تملك احتكاري للعمل، لفائض
 العمل.

ربح المتعهد

مخزون

العملة

(في اختلافها عن التبادل)
 (أ) مقارنة مباشرة للموضوعات
 المتبادلة، بضاعة؛
 (ب) تملك احتكاري لوسيلة المقارنة،
 إصدار العملة.

ضريبة المصرفي

[٥٥٥] ١. للمخزون ثلاثة مظاهر في نفس الآن، أرض وبذور، أدوات، أموال. الأرض إقليم مخزن، أداة النشاط المخزن، أموال التبادل المخزن. لكن المخزون لا يأتي من الأقاليم، من الأنشطة ولا من المبادلات. إنه يسم تنزيها آخر، يأتي من هذا التنزيه الآخر؛

٢. هذا التنزيه هو «المكنة العملاقة»، أو جهاز الاستحواذ، إمبراطورية عتيقة. إنه يعمل وفق ثلاث صيغ تتلاءم ومظاهر المخزون الثلاثة: ريع، ربح، ضريبة. والصيغ الثلاث تتقارب وتلتقي فيه، في هيئة تقنين تضافري (أو في هيئة تمعين): المستبد، في نفس الوقت هو مالك للأرض الذي له اليد العليا عليها، متعهد الأشغال الكبرى، المتحكم بالضرائب والأسعار. كأنها رسملة ثلاثية للسلطة، أو ثلاثة تمفصلات لـ «رأس المال»؛

٣. ما يشكّل جهاز الاستحواذ هما عمليتان نعثر عليهما كلّ مرّة في الصيغ المتقاربة: مقارنة مباشرة، تملك احتكاريّ. والمقارنة تفترض التملك دوماً: العمل يفترض فائض العمل، الرّيع التفاضليّ يفترض الرّيع المطلق، عملة التجارة تفترض الضريبة. يشكّل جهاز الاستحواذ فضاء مقارنة عامّ، ومركز تملك متحرك. منظومة جدار أبيض - ثقب أسود مثلما رأينا سابقاً أنها كانت تُكوّن وجه المستبد. نقطة إصداء تتنقل في فضاء مقارنة وترسم هذا الفضاء بتنقلها. ذلك هو ما يميّز فضاء الدولة والآليات البدائية، مع إقاليمهما اللا متزامنة واللا متصادية. ما يبدأ مع الدولة أو مع جهاز الاستحواذ هو سيميولوجيا عامّة تقنن السيميائيات البدائية تضافرياً. بدلاً من سمات تعبير تتبّع شعبة مكنية وتزواج وإياها في توزيع للفرادات، تكوّن الدولة صورة تعبير تستعبد الشعبة: الشعبة أو المادة لم تعد غير مضمون مقارن، متجانس، متساو، بينما يصبح التعبير صورة إصداء أو تملك. جهاز الاستحواذ، عملية سيميولوجية بامتياز. . . (بهذا المعنى لم يكن الفلاسفة الرّبطيون

على خطأ في تفسيرهم السلطة السياسية بعمليات فكرية متوقفة على الربط بين الأفكار.)

اقترح برنار شميت نموذج جهاز استحواذ يأخذ في الاعتبار عمليات المقارنة والتملك. لا شك أن هذا النموذج قد وقع إنشاؤه تبعاً للعملة في الاقتصاد الرأسمالي. لكن يبدو أنه يقوم على مبادئ مجردة تتجاوز هذه الحدود^(١). - أ. ننتقل من دفع غير مقسم، [٥٥٦] لم يقع تملكه بعد ولا مقارنته، «متاحية محض»، «عدم- تملك وعدم- ثروة»: ذلك تحديدا هو ما يحدث في خلق عملة من طرف المصارف، لكن بشكل أعم هو تحديد المخزون واستحداث دفع غير مقسم. - ب. الدفع اللأ منقسم ينقسم طالما وقع توزيعه على «المحركات»، تقسيمه على «محركات». ليس ثمة إلا ضرب واحد من المحركات هم المنتجون الحاليون. يمكن أن نسميهم «الفقراء»، والقول إن الدفع وزّع بين الفقراء. لكن ذلك قد لا يكون دقيقا لأنه ليس ثمة «أثرياء» مسبقون. ما يهم، ما هو مهم، هو أن المنتجين لم يحصلوا بعد على ملكية ما وزّع عليهم، وما وزّع عليهم ما زال لا يشكل ثروة: المكافأة لا تفترض لا مقارنة ولا تملكاً، لا بيعاً- شراءً، إنها بالأحرى عملية من نوع التعهد. ثمة فقط تساوي بين المجموعة ب والمجموعة أ، بين المجموعة الموزعة والمجموعة اللأ منقسمة. يمكن أن نسمي المجموعة الموزعة أجرا اسمياً، بحيث تكون الأجور الاسمية هي صورة تعبير المجموعة اللأ منقسمة كلها («التعبير الاسمي بكامله»، أو مثلما يقال عادة «التعبير عن مجمل الدخل القومي»): يظهر جهاز الاستحواذ هنا بمثابة جهاز سيميولوجي. - ج. لا يمكن حتى القول إذا إن الأجر الذي يفهم على أنه توزيع، مكافأة، هو شراء؛ على النقيض من ذلك القدرة الشرائية هي التي ستصدر عنه: «مكافأة المنتجين ليست

(١) برنار شميت، عملة، أجور وأرباح.

شراء، إنها العملية التي تكون بها المشتريات ممكنة في وقت لاحق،
 عندما ستمارس العملة قدرتها الجديدة...» بالفعل، تصبح المجموعة
 ب ثروة من حيث أنها وُزعت، أو تحوز سلطة مقارنة بالنسبة إلى شيء
 آخر أيضا. هذا الشيء الآخر هو المجموعة المحددة للمواد التي وقع
 إنتاجها والتي هي مذكاة يمكن شراؤها. العملة التي هي متباينة في
 البداية مع المواد التي وقع إنتاجها، تصبح مادة متجانسة مع المنتجات
 التي يمكنها اشتراؤها، تحوز قدرة شرائية تتوقف مع الشراء الفعلي. أو
 بشكل أعم، يقوم بين المجموعتين، المجموعة الموزعة ب ومجموعة
 المواد الواقعية ج، توافق ومقارنة («القدرة على الاقتناء خلقت في
 ترابط مباشر مع مجموعة المنتجات الحقيقية»). - د. وهنا يكمن اللغز
 أو السحر في ضرب من الانزياح. إذ إذا أسمينا ب' المجموعة المقارنة،
 أي المجموعة التي وُضعت في توافق مع المواد الحقيقية، نرى أنها
 بالضرورة أقل من المجموعة الموزعة. ب' بالضرورة أقل من ب: حتى
 إن افترضنا أن القدرة الشرائية تتعلق بكل الموضوعات التي وقع إنتاجها
 خلال فترة ما، ثمة دائما فائض للمجموعة الموزعة على المجموعة
 المستعملة أو المقارنة، بحيث أن المنتجين الحاليين لا يمكن أن
 يحولوا إلا جزء. [٥٥٧] الأجور الحقيقية ليست غير جزء من الأجور
 الاسمية؛ وكذلك، العمل «الضروري» ليس غير جزء من العمل،
 والأرض «المستعملة» غير جزء من الأرض الموزعة. بحيث أننا
 سنسمي استحوادًا هذا الفرق أو هذا الفائض ذاته اللذين سيكونان
 الربح، فائض العمل أو فائض الإنتاج: «الأجور الاسمية تشمل كل
 شيء، لكنّ الأجراء لا يحافظون إلا على المداخل التي ينجحون في
 تحويلها إلى بضائع، ويخسرون المداخل المستولى عليها من قبل
 الشركات.» سنقول إذا إنّ كل شيء تم توزيعه بشكل جيد على
 «الفقراء»؛ لكنّ الفقراء أيضا هم الذين يجدون أنفسهم مجردين من كل
 ما لا يتوصلون إلى تحويله، في سباق السرعة الغريب هذا: يقوم

الاستحواذ بقلب الموجة أو الدَّفْق القابل للقسمة. الاستحواذ هو بالتحديد موضوع التَّمَلُّك الاحتكاريّ. وهذا التَّمَلُّك (من طرف الـ«أغنياء» لا يأتي لاحقا: إنّه متضمّن في الأجور الاسميّة مع إفلاته من الأجور الحقيقيّة. إنّه قائم بينهما، إنّه يدخل بين التوزيع دون حيازة، والتحويل بالتلاؤم أو المقارنة؛ إنّه يعبر عن فَرْق القدرة بين المجموعتين، بين ب وب'. في الأخير، لا وجود للغز على الإطلاق: آلية الاستحواذ تنتمي بالفعل إلى تكوين المجموعة التي يتمّ وفقها الاستحواذ.

إنّها خطاطة يعسر فهمها فيما يقول صاحبها، ومع ذلك هي إجرائيّة. إنّها تتمثّل في إطلاق مكنة استحواذ أو انتزاع مجرّدة، بتقديم «نظام علل» خاصّ جدّا. على سبيل المثال، المكافأة هي ذاتها ليست شراء بما أن القدرة الشرائيّة تصدر عنها. مثلما يقول شमित، ليس ثمة لا سارق ولا سرقة، بما أنّ المنتج لا يخسر إلّا ما لا يملك ولا فرصة له ليملك: كما في فلسفة القرن السّابع عشر، ثمة سوابل لكن ليس ثمة حرمان... وكلّ شيء يتزامن في جهاز الاستحواذ المنطقيّ هذا. التّتابع فيه منطقيّ وحسب: يبرز الاستحواذ ذاته بين ب وج لكنّه يوجد أيضا بين أ وب، بين ج وأ؛ إنّه يُشبع الجهاز كلّ، إنّه يعمل بوصفه رابطا للمنظومة لا يمكن تحديد موضعه. كذلك فائض العمل: كيف قد يتأتّى لنا تحديد موضعه بما أنّ العمل يفترضه؟ لكنّ الدّولة-الدّولة الإمبراطوريّة العتيقة على أيّة حال-، هي هذا الجهاز نفسه. نخطئ دائما في المطالبة بتفسير إضافيّ للدّولة: هكذا نُبعد الدّولة وراء الدّولة إلى ما لا نهاية له. من الأفضل وضعها حيث هي منذ البداية بما أنّها توجد بالتّديق في ما وراء حدّ السّلسلات البدائيّة. يكفي أن يقع إشغال نقطة المقارنة أو التَّمَلُّك هذه فعليّا حتّى يعمل جهاز الاستحواذ الذي سيقتنّ تضافريّا التقنيات البدائيّة، يستعيز بمجموعات عن السّلسلات أو يقلب معنى العلامات. النّقطة مشغولة ومنجّزة بالضرورة، لأنّها

توجد بالفعل في الموجة [٥٥٨] المقرّبة التي تخترق السّلسلات البدائيّة وتسحبها جهة عتبة، حيث بتخطّيها حدود هذه السّلسلات، تغيّر هي ذاتها معناها. البدائيّون لم يوجدوا أبداً إلّا من أجل البقاء، لقد عرّكتهم بالفعل الموجة القابلة للانعكاس التي تجرفهم (موجّه اللّآ تأرّضن). ما يتوقّف على الطّروف الخارجيّة هو الموضع الذي يتحقّق فيه الجهاز وحسب- هنالك حيث يمكن أن يولد «نمط الإنتاج» الزراعيّ، في الشرق. إنّ هذا المعنى يكون الجهاز مجرداً. لكنّ الجهاز في حدّ ذاته لا يعيّن ببساطة إمكانيّة معكوسيّة مجردة، إنّّه يعيّن الوجود الفعلّي لنقطة انقلاب بوصفها ظاهرة لا تقبل الاختزال، ظاهرة قائمة برأسها.

من هنا الصّفة الخاصّة جدّاً لعنف الدّولة: من العسير تعيين هذا العنف بما أنّه يمثّل دائماً بوصفه قد تمّ بالفعل. لا يكفي حتّى القول إنّ العنف يحيل على نمط الإنتاج. ماركس كان لاحظ ذلك بخصوص الرأسماليّة: ثمة عنف يمرّ ضرورة بالدّولة، يسبق نمط الإنتاج الرأسماليّ، يشكّل «التّراكم الأصليّ» ويجعل نمط الإنتاج هذا ممكناً هو ذاته. حين نستقرّ في نمط الإنتاج الرأسماليّ، يكون من العسير قول من هو السّارق ومن هو المسروق، وحتّى أين يوجد العنف. ذلك أنّ العامل يولد صلب العنف موضوعيّاً وهو عارٍ تماماً، والرأسمالي «لابس» موضوعيّاً، هو مالك مستقلّ. يغيب عنّا ما شكّل العامل والرأسماليّة على ذلك النّحو، بما أنّه يعمل في أنماط إنتاج أخرى. إنّّه عنف ينطرح بوصفه قد تمّ بالفعل مع أنّه يحدث من جديد كلّ يوم^(١).

(١) غالباً ما يلجّ ماركس على النّقاط التّالية، خاصّة في تحليله للتّراكم الأصليّ:

(١) يسبق هذا الأخير نمط الإنتاج ويجعله ممكناً؛ (٢) إنّّه يستتبع بالتّالي فعلاً مخصوصاً للدّولة وللّقانون، اللّذين لا يعارضان العنف بل على النقيض من ذلك يدعمانه («بعض هذه المناهج تقوم على استعمال القوّة الغاشمة، لكنّها جميعها دون استثناء تستغلّ سلطة الدّولة، سلطة المجتمع المُمركّزة والمنظّمة» (بلاياد، I، ص ١٢١٣؛ (٣) عنف القانون هذا يظهر أوّلاً في شكله الخام، لكنّه يتوقّف

هذه هي الفرصة الذهبية للقول إنّ التَّنْكِيل سابق، مقرّر سلفاً. لكنّ تحليلات ماركس هذه يجب توسيعها. [٥٥٩] إذ ثمة كذلك تراكم أصلائيّ إمبراطوريّ يسبق نمط الإنتاج الزراعيّ ولا يتولّد عنه؛ بشكل عامّ، ثمة تراكم أصلائيّ في كلّ مرّة يكون ثمة فيها توليف بين جهاز استحواذ وبين هذا العنف الخاصّ جدّاً الذي يخلق أو يساهم في خلق ما يمارس عليه هذا العنف، وبذلك هو يفترض ذاته^(١). قد يكون المشكل بالتّالي هو التّمييز بين أنظمة عنف. وبهذا الخصوص، يمكننا تمييز الكثير من الأنظمة المختلفة، الصّراع، الحرب، الجريمة والشرطة. قد يكون الصّراع بمثابة نظام العنف البدائيّ (بما في ذلك «حروب» بدائيّة): إنّّه عنف متبادل، مع أنّه لا يفتقر لتقنين، بما أنّ قيمة الضّربات محدّدة وفق قانون السّلسلات، تبعا لقيمة آخر ضربة وقع تبادلها، أو آخر امرأة سيقع سبّيها، إلخ. من هنا وجود ضرب من تطبيق العنف. الحرب، بإرجاعها إلى مكنة الحرب على الأقلّ، هي نظام آخر لأنّها تستتبع تعبئة وتمكين عنف موجّه أوّلا ومبدئيّا ضدّ جهاز الدّولة (بهذا المعنى مكنة الحرب هي ابتكار لتنظيم مترحّل أصلائيّ ينقلب ضدّ الدّولة). الجريمة مختلفة أيضا لأنّها عنف غير شرعيّ يتمثّل

عن كونه واعيا بقدر ما يستقرّ نمط الإنتاج، ويبدو أنّه يحيل على الطبيعة المحض («ما زلنا نلجأ في بعض الأحيان إلى الإرغام، إلى استعمال القوّة الغاشمة، لكنّ ذلك لا يكون إلّا استثنائيّا»، I، ص ١١٩٦؛ ٤) تُفسّر مثل هذه الحركة بالصفة الخاصّة لهذا العنف الذي لا يمكن إرجاعه بأيّة حال إلى السرقة، إلى الجريمة أو إلى اللّا شرعيّة (راجع، ملاحظات حول أدولف فاغنر، II، ص ١٥٣٥: الاقتطاع من العامل ليس اقتطاعا من جلده، الرأسماليّ «لا يميل إلى الاقتطاع أو إلى السرقة، لكنّه ينتزع إنتاج فائض القيمة، أي أنّه يساهم أوّلا في خلق ما سيقع الاقتطاع منه. (...). ثمة جزء في القيمة التي تكوّنت دون عمل الرأسماليّ، بإمكانه تملكه قانونيّا، أي دون خرق القانون المطابق لتبادل السلع».

(١) يبيّن جون روبار بوضوح في هذا المعنى أنّ التّراكم الأصلائيّ يستتبع البناء العنيف لفضاء متجانس، «مستعمر».

في الاستيلاء على شيء لا «حق» لنا فيه، الاستحواذ على شيء لا «حق» لنا في الاستحواذ عليه. لكن تحديدا، شرطة الدولة أو العنف القانوني مختلف هو أيضا بما أنه يتمثل في الاستحواذ مع التشريع لحق الاستحواذ. إنه عنف هيكلي، مدمج، يتعارض مع كل أشكال العنف المباشرة. وقع تعريف الدولة عادة بـ«احتكار العنف»، لكن هذا التعريف يحيل إلى تعريف آخر، يحدد الدولة بوصفها «دولة القانون» (دولة الحق). تقنين الدولة التضافري هو بالتحديد هذا العنف الهيكلي الذي يعرف الحق، عنفا «بوليسيّا» وليس حربيا. ثمّة عنف شرعيّ كلّما ساهم العنف في خلق ما يُمارَس عليه هذا العنف، أو مثلما يقول ماركس، كلّما ساهم الاستحواذ في خلق ما يستحوذ عليه. هذا مختلف تماما عن عنف الجريمة. لذلك أيضا، على عكس العنف البدائي، يبدو أنّ العنف الشرعيّ أو عنف الدولة يفترض ذاته دائما، بما أنه يوجد قبل ممارسته الخاصة: يمكن للدولة حينئذ أن تقول إنّ العنف «أصلائيّ»، إنه مجرد ظاهرة طبيعية، وإنّها ليست مسؤولة عنه، هي التي لا تمارس العنف إلّا ضدّ العنيفين، ضدّ «المجرمين» - ضدّ البدائيين، ضدّ المترحلين، من أجل استتباب السلام...

[٥٦٠] القضية الثالثة عشرة: الدولة وأشكالها.

نطلق من الدولة الإمبراطورية العتيقة، تقنين تضافريّ، جهاز استحواذ، مكنة استعباد تتضمّن خاصيّة عموميّة، عملة عموميّة وعملا عموميا، إنّها صيغة مثاليّة دُفَعَة واحدة، لكنّها لا تفترض أيّ شيء «خاص»، لا تفترض حتّى نمط إنتاج مسبق، بما أنّها هي التي تولّده. ذلك هو مكسب الأركيولوجيا، نقطة الانطلاق التي تُمكننا منها التّحاليل السّابقة. السّؤال إذاً هو: كيف «ستتطور» الدولة وقد ظهرت وتشكّلت فجأة؟ ما هي عوامل التّطور أو التّحوّل، وفي أيّة علاقات تكون الدّول المتطورة مع الدّولة الإمبراطورية العتيقة؟

سبب التّطوّر داخليّ، أيّا كانت العوامل الخارجيّة التي تسنده. الدولة العتيقة لا تقنّن تضافريّا دون أن تحرّر كذلك كمّيّة كبرى من الاندفاعات اللّا مقنّنة التي ستفلت منها. لنذكر أن «اللا تقنين» لا يعني حالة دفع قد يكون تقنيته مفهوما (مستشفرا، قابلا للتّرجمة، يمكن استيعابه)، لكن على التّقيض من ذلك، بمعنى أكثر جذريّة، هو حالة دفع لم يعد متضمّنا في تقنيته الخاصّ، يفلت من تقنيته الخاصّ. لكن من ناحية، اندفاعات كانت الجماعات البدائيّة فنّنتها نسبيا تجد الفرصة للإفلات بمجرد أن لم تعد التّقنيات البدائيّة قادرة على تعديل ذاتها بذاتها وتصبح تابعة للهيئة العليا. لكن من ناحية أخرى، التّقنين التّضافريّ للدولة العتيقة يُمْكِن ويستثير هو ذاته اندفاعات جديدة تفلت منه. لا تخلق الدولة أشغالا كبرى دون أن يفلت دفع عمل مستقلّ من البيروقراطيّة (خاصّة في المناجم والتّعدين). إنّها لا تخلق الشّكل النّقديّ للضّريبة دون أن تفلت اندفاعات عمّلة وتغذّي أو تولّد قوى أخرى (خاصّة في التّجارة والمصرف). ولا تخلق خاصّة منظومة ملكيّتها العموميّة دون أن يتولّد عنها بجانبها دفع تملّك خاصّ، ودون أن يبدأ بالتدقّق خارج سيطرتها: لا تصدر هذه المِلْكِيّة الفرديّة ذاتها عن المنظومة العتيقة، لكنّها تتشكّل هامشيّا، بطريقة أكثر ضرورة وحتميّة عبر شبّاك التّقنين التّضافريّ. طوكاي (Tōkei) هو دون شكّ من وضع مشكل أصل للمِلْكِيّة الفرديّة بالمزيد من الجديّة، وفق منظومة يبدو أنّها تستبعده من كل الجهات. ذلك أنّ المِلْكِيّة الفرديّة لا يمكن أن تولد لا من جهة الإمبراطور- المستبدّ، لا من جهة المزارعين الذين يرتبط جزء استقلاليتهم بالحيازة الجماعيّة، لا من جهة الموظّفين الذين يجدون قاعدة وجودهم ومدخولهم في هذا الشّكل الجماعيّ العموميّ («يمكن للأرستقراطيّين أن يصبحوا في مثل هذه الظروف مستبدّين صغارا، لكن لا يصبحون مالكيّن خواصّ»). حتى العبيد [٥٦١] ينتمون إلى الجماعة أو إلى الوظيفة العموميّة. يصبح السّؤال إذا: هل ثمة أناس تكوّنوا في

الإمبراطورية التي تُقنن تضافريًا، لكنهم تكوّنوا بصفتهن مَقصّين وغير مَقنّين ضرورة؟ إجابة طوكاي هي العبد العتيق. إنّه هو الذي لم يعد له مكان. إنّه هو الذي يطلق انتخابه في كامل الإمبراطورية الصّينيّة: كانت الشّكوى (مرثيّة) دائما عاملا سياسيًا. لكنّه هو أيضا من يشكّل البذور الأولى لمِلكيّة خاصّة، يطوّر التّجارة ويبتكر في التّعدين عبوديّة خاصّة هو الذي سيكون سيّدها الجديد^(١). لقد رأينا سابقا دور العبد المحرّر في مكنة الحرب، من أجل تشكيل العصيّة. في صورة أخرى ولأسباب مغايرة تماما، له أهميّة كبرى في جهاز الدّولة، وفي تطوّر هذا الجهاز من أجل تشكيل جسم خاصّ. يمكن للمظهرين أن يجتمعا لكنهما يحيلان على خطّين مختلفين.

المهمّ إذا ليس هو الحالة الخاصّة للعبد المحرّر. المهمّ هو الشخصية الجماعيّة للمستبعد. المهمّ هو أنّه بطريقة أو بأخرى، يثير جهاز التّقنين التّضافريّ اندفاعات هي ذاتها لا مَقنّة - اندفاعات عمّلة، عمل، ملكيّة... هذه مضايقة لذلك. والتّضايق ليس تضايقا اجتماعيًا وحسب داخل الإمبراطورية العتيقة، إنّه جغرافيّ كذلك. قد تكون هذه هي اللحظة المناسبة لاستئناف النّظر في المواجهة بين الشرق والغرب. وفق الفرضيّة الأركيولوجيّة الكبرى لغوردون شيلد، الدّولة الإمبراطوريّة العتيقة تتضمّن فائضا زراعيّا مخزّنا سيمكّن من الحفاظ على جسم مختصّ من الحرفيّين التّعدينيين والتّجار. بالفعل، الفائض بوصفه

(١) طوكاي، «شروط المِلكيّة العقاريّة في الصين زمن تشيو»، عمل قديم، ١٩٥٨. ماركس وأنغلز كانا ذكّرا من قَبْل بأنّ الرّعاع الرّومانيّين (المكوّنين جزئيّا من المحرّرين العموميّين) كان لهم وحدهم «الحقّ في تعيين ملكيّة المجال العموميّ»: لقد أصبح الرّعاع مالكين خواصّ للأصول العقارية كما للثروات التّجاريّة والحرفيّة، تحديدا لأنّهم كانوا مَقصّين من كل الحقوق العموميّة (راجع، المخطوطات، بلاياد، II، ص ٣١٩، أنغلز، أصل العائلة، المنشورات الاجتماعيّة، ص ١١٩).

مضمونا خاصًا بالتقنين التّضافريّ لا يجب أن يخزّن وحسب، بل يجب امتصاصه، استهلاكه، تحقّقه. لا شكّ أنّ هذا المطلب الاقتصاديّ لامتناص الفائض هو أحد المظاهر الرّئيسيّة لتملّك مكنة الحرب من طرف الدّولة الإمبراطوريّة: منذ البداية، المؤسّسة العسكريّة هي إحدى أقوى الوسائل لامتناص الفائض. إذا افترضنا مع ذلك أنّ المؤسّستين العسكريّة والبيروقراطيّة غير كافيتين، فإنّ المكان مهياً تماماً لهذا الجسم المختصّ الذي هو جسم الحرفيّين غير الزّراعيّين، الذين يعزّز عملهم توطين الزراعة. [٥٦٢] غير أنّه في الأفرو-أورو-آسيا، في الشّرق، توقّرت جملة هذه الشّروط وتمّ ابتكار الدّولة: في الشّرق الأوسط، مصر وبلاد ما بين النّهرين، لكن كذلك في نهر السّند (وفي الشّرق الأقصى). هناك يتمّ التّخزين الزّراعيّ وما يرافقه من بيروقراطيّة عسكريّة، لكن كذلك أيضاً تعدينيّة وتجاريّة. غير أنّ هذا «الحلّ» الإمبراطوريّ أو الشّرقيّ مهّد برّدب: تقنين الدّولة التّضافريّ يحافظ على التّعدينيّين، الحرفيّين والتّجار في حدود ضيّقة تحت مراقبة بيروقراطيّة قويّة وتملّك احتكاريّ للتّجارة الخارجيّة، لصالح طبقة حاكمة، بحيث أنّ المزارعين ذواتهم قليلاً ما يستفيدون من ابتكارات الدّولة. ممّاك، صحيح تماماً أنّ الصّورة-الدّولة تنتشر، والأركيولوجيا تعثر عليها في كلّ مكان، في أفق التّاريخ الغربيّ في العالم الإيجيّ. لكن ليس في نفس الطّروف. مينوس وميسان هما بالأحرى كاريكاتور إمبراطوريّة، أغامنون الميسينيّ ليس هو إمبراطور الصّين ولا فرعون مصر، ويمكن للمصريّ أن يقول لليونانيّين: «أنتم الآخرين، ستكونون دائماً بمثابة أطفال...». ذلك أنّ الشّعوب الإيجيّة هي في نفس الوقت بعيدة جدّاً لتسقط في الدّائرة الشّرقيّة، وفقيرة جدّاً لتخزّن هي ذاتها فائضاً، لكنّها ليست من البعد ومن الخصاصة بحيث تجهل أسواق الشّرق. أكثر من ذلك، تقنين الشّرق التّضافريّ هو ذاته الذي كان يعيّن لتجاره هو دوراً لمسافات بعيدة. ها هي الشّعوب الإيجيّة تجد ذاتها

بالتّالي في وضعيّة استفادة من المخزون الزراعيّ الشرقيّ، من دون أن تكونه لحسابها الخاصّ: إنّها تتلفه كلّما استطاعت ذلك، وبشكل أكثر انتظاما، تقتني جزءً منه مقابل موادّ أوليّة، حتى وإن كانت آتية من أوروبا الوسطى والغربيّة (الخشب والمعادن بشكل خاصّ). الّاكد أنّه على الشرق أن يعيد إنتاج مخزوناتة باستمرار؛ لكنّ صوريّا هو نجح في مسعاه «بشكل نهائيّ»، استفاد منه الغرب دون أن يكرّره. يترتّب على ذلك أنّ الحرفيّين التّعدينيّين والتّجار يأخذون في الغرب منزلة مغايرة تماما بما أنّ وجودهم لا يتوقّف مباشرة على فائض راكمه جهاز دولة محلّيّة: حتى إذا خضع المزارع لاستغلال قاس كما في الشرق أو في بعض الأحيان أشدّ قساوة، فإنّ الحرفيّ والتّاجر يتمتّعان بمنزلة أكثر حرّيّة وبسوق أكثر تنوّعا، وهما يجسّدان مقدّما الطّبقة الوسطى. الكثير من تّعدينيّ الشرق وتجاره سينتقلون إلى العالم الإيجيّ، حيث يجدون هذه الطّروف في نفس الوقت أكثر حرّيّة، أكثر تنوّعا وأكثر استقرارا. باختصار، نفس الاندفاعات المقتنّة تضافريّا في الشرق تنحو إلى اللّا تقنن في أوروبا، في وضعيّة جديدة كأنّها عكس الأخرى أو مضايّفتها. فائض القيمة لم يعد فائض قيمة تقنين (تقنين تضافريّ)، بل يصبح فائض قيمة دفع. وكأنّ نفس المشكل تلقّى حلّين، [٥٦٣] حلّ الشرق ثمّ حلّ الغرب الذي ينزرع في الحلّ الأوّل ويُخرجه من المأزق مع أنّه يفترضه. التّعدينيّ والتّاجر الأوروبيّان أو المتأوربان سيجدان نفسيهما أمام سوق عالميّة أقلّ تقنينا بكثير، لا تقتصر على بيت أو على طبقة إمبراطوريّتين. ومثلما يقول شيلد، الدّول الإيجيّة والغربيّة ستخسر منذ البداية في منظومة اقتصاديّة فوق- قوميّة: إنّها تسبح داخلها بدلا من إبقائها في حدود شبّاكها الخاصّة^(١).

(١) راجع الكتّابين الكبيرين لفير غوردن شيلد، الشرق الما قبل تاريخيّ وخاصّة أوروبا الما قبل تاريخيّة، منشورات بايو. بشكل خاصّ، التّحليل الأركيولوجيّ

إنّه قطب آخر للدولة هو الذي يبرز، والذي يمكن تعريفه إجمالاً. لم يعد المجال العمومي يميّز الطبيعة الموضوعية للملكية، بل هو بالأحرى الوسيلة المشتركة لتملّك أصبح خاصاً؛ ندخل بالتالي في المزدوجات عمومي-خاص التي تُشكّل العالم الحديث. أصبح الرّابط شخصياً؛ علاقات تبعية شخصية، في نفس الوقت بين المالكين (عقود)، وبين ملكيات ومالكين (تعاقداً)، هي التي تثني أو تعوّض العلاقات الجماعية وعلاقات الوظيفة؛ حتّى العبودية لم تعد تعرّف الاستعداد العمومي للعامل القروي، بل الملكية الخاصة التي تمارس على عمال فرديين^(١). الحقّ بكامله خضع لتحوّل وأصبح حقاً ذاتياً، اقترانياً، «موضعياً»: ذلك أنّ جهاز الدولة وجد نفسه أمام مهمة جديدة لا تتمثل في تقنين تضافريّ للاندفاعات المقننة بالفعل بقدر ما تتمثل في تنظيم ترابطات اندفاعات غير مقننة بما هي كذلك. نظام العلامات قد تغيّر إذًا: من جميع هذه النواحي، تركت عملية «الدالّ» الإمبراطوريّ مكانها لسيرورات ذهنية؛ يتّجه الاستعباد المكنيّ إلى تعويضه بإخضاع اجتماعي. وعلى التقيّض من القطب الإمبراطوريّ المتماثل نسبياً، يقدّم هذا القطب الثاني أكثر الأشكال تنوعاً. لكن، أيّا كان تنوع علاقات التبعية الشخصية، فإنّها تعيّن في كلّ مرّة ارتباطات موضوعية ومحدّدة. إنّها الإمبراطوريات المتطورة في الشرق كما في الغرب هي التي أنشأت قبل غيرها هذا المجال العموميّ الجديد لما هو خاصّ، في مؤسسات مثل مؤسسات المجلس أو الصندوق في الإمبراطورية الرومانية (إنّه في

مكّن شيلد من الانتهاء إلى أنّ العالم الإيجي لا يمثل مواضع لمراكمة الثروة والمواد الغذائية يمكن مقارنتها بمواضع الشرق، صص ١٠٧-١٠٩.

(١) حول الفروق بين «العبودية المعمّمة» في الإمبراطورية العتيقة وبين العبودية الخاصة، السخرة الإقطاعية، راجع شارل باران، «التاريخ الأوائل للبحر الأبيض المتوسط ونمط الإنتاج الآسيوي»، في مركز دراسات الموارد المعدنية، حول نمط الإنتاج الآسيوي، صص ١٧٠-١٧٣.

هذه المؤسسات تكون للعبد المحرّر سلطة سياسية تشي سلطة [٥٦٤] الموظفين^(١). لكن هي كذلك المدن المستقلة، الإقطاعيات... والسؤال حول معرفة ما إذا كانت هذه التشكيلات الأخيرة ما تزال تستجيب لمفهوم الدولة لا يمكن أن يُطرح إلا بالنظر إلى بعض التّضافات: كما بالنسبة إلى الإمبراطوريات المتطورة، تفترض المدن والإقطاعيات إمبراطورية عتيقة تكون لها بمثابة الأساس؛ إنّها هي ذاتها في تماسّ مع الإمبراطوريات المتطورة التي تؤثر فيها، إنّها تهتئ بحيوية الأشكال الجديدة للدولة (على سبيل المثال، الملكية المطلقة بوصفها حصيلة حقّ ذاتيّ وسيرورة إقطاعيّة)^(٢). بالفعل، المهمّ في المجال الثري للعلاقات الشخصية، ليس هو نزوة الأشخاص أو تقلّبهم، بل دوام العلاقات وتطابق ذاتيّة قد تصل حتّى إلى الهذيان، مع أفعال محدّدة هي مصادر حقوق والتزامات. في صفحة رائعة، كان إدغار كينات أكّد على هذا الالتقاء بين «هذيان القياصرة الاثني عشر والعصر الذهبيّ للحقّ الرومانيّ»^(٣).

لكنّ الدّثنيات، الاقترانات والتّملّكات لا تمنع الاندفاعات اللاّ مقنّنة من مواصلة التّدقّق، ومن توليد اندفاعات جديدة دون انقطاع، اندفاعات قادرة على الإفلات (لقد رأينا ذلك مثلاً في مستوى السياسة

(١) راجع بولفار، المستخدّم والموظّف في الإمبراطوريّة الرومانيّة العليا، منشورات الآداب والفنون. بشكل أعمّ، حلّل بول فاين تكوّن «حقّ ذاتيّ» في الإمبراطوريّة الرومانيّة، المؤسسات المناظرة له والمعنى العموميّ الجديد للخاصّ. يبيّن كيف أنّ هذا الحقّ الرومانيّ هو «حقّ دون مفاهيم»، يعمل «موضعيّاً» ويتعارض بهذا المعنى مع التّصوّر الحديث للحقّ، «أكسيوميّة»: راجع الغبز والسّيرك، منشورات سوي، الفصل الثالث والفصل الرابع، وص ٧٤٤.

(٢) راجع فرانسوا هنكار، «الملكيّة الفرنسيّة المطلقة»، في مركز دراسات الموارد المعدّية، حول الإقطاعيّة، المنشورات الاجتماعية.

(٣) إدغار كينات، عبقرية الأديان، الأعمال الكاملة، منشورات هاشات، الجزء الأوّل.

المجهرية في القرون الوسطى). حتى أن ذلك هو إيهام هذه الأجهزة: في نفس الوقت هي لا تعمل إلا مع اندفاقات لا مقننة، ومع ذلك لا تركها تتأزر معا، تُجري الاقتارات الموضعية المساوية مع ذلك للعقد أو إعادات التقنين. من هنا انطباع المؤرخين عندما يقولون إن الرأسمالية «قد كان يمكن أن يكون بإمكانها» أن تحدث منذ تلك اللحظة- في الصين، في روما، في بيزنطة، في القرون الوسطى- التي كانت توفرت فيها شروطها، لكنها لم تتحقق ولا هي قابلة حتى للتحقق. ذلك أن ضغط الاندافات يرسم الرأسمالية بين السطور، لكن لتحقيق ذلك يجب أن تتوفر تكاملية اندفاقات لا مقننة، تراوج معمم بكامله يفيض على الأجهزة السابقة ويقلبها. وبالفعل، عندما يتعلق الأمر عند ماركس بتعريف الرأسمالية فإنه يبدأ باستحضار إقبال ذاتية شاملة واحدة وغير محددة، هي التي تُرسل كل [٥٦٥] سيرورات الذاتية، «كل الأنشطة دون تمييز»: النشاط الإنتاجي بعامة»، «الماهية الذاتية الوحيدة للثروة...». وهذه الذات الوحيدة تعبر عن ذاتها الآن في موضوع أيّا كان، ولم تعد تعبر عن ذاتها في هذه الحالة الكيفية أو تلك: «مع الكلية المجردة للنشاط الخالق للثروة، عندنا في نفس الوقت كلية الموضوع من حيث هو ثروة، الناتج لا غير أو العمل لا غير، لكن من حيث أنه عمل ماضٍ ومتحقق^(١)». يشكل التداول رأس المال بوصفه ذاتية ملائمة للمجتمع كله. لكن تحديدا، هذه الذاتية الاجتماعية الجديدة لا يمكن أن تتكوّن إلا من حيث فيض الاندافات اللا مقننة على ترابطاتها وبلوغها مستوى لا تقنين لم يعد لأجهزة الدولة اللّحاق به: يجب من ناحية ألا يكون دفع العمل محددا في العبودية أو القنانة، بل يصبح عملا حُرّا وعاريا؛ يجب من ناحية أخرى، ألا تكون الثروة محددة بوصفها ثروة عقارية، تجارية، مالية، وتصبح رأس مال محضا،

(١) ماركس، مقدمة عامة لنقد الاقتصاد السياسي، بلاياد، I، ص ٢٥٨.

متجانسا ومستقلًا. ودون شك، هذان التّصيّران على الأقلّ (إذ اندفاقات أخرى تتنافس أيضا) يُدخلان الكثير من المصادفات ومن العوامل المختلفة على كلّ واحد من الخطوط. لكن تزاوجهما المجرد هو الذي سيكوّن الرّأسماليّة دفعة واحدة، حيث يوفّر الواحد للآخر ذاتا-كلّيّة وموضوعا-أيّا كان. تتكوّن الرّأسماليّة عندما يلتقي دفع الثروة غير المحدّدة بدفق العمل غير المحدّد ويتزاوج وإيّاها^(١). ذلك هو ما كانت كبحته الارتباطات السابقة التي ما تزال كيفيّة أو موضعيّة (الكابحان الرّئيسيّان كانا هما التّنظيم الإقطاعيّ للأرياف والتنظيم الطّائفيّ للمدن). وهو ما يعني أنّ الرّأسماليّة تتشكّل بأكسيوميّة عامّة للاندفاقات اللاّ مقنّنة. «رأس المال حقّ، أو لنكون أكثر دقّة، علاقة إنتاج تبدّي بوصفها حقّا، وبما هو كذلك فإنّه مستقلّ عن الصّورة العينيّة التي يكتسيها في كلّ لحظة من لحظات وظيفته الإنتاجيّة^(٢)». لم تعد المِلْكِيّة الخاصّة تعبّر عن [٥٦٦] رابطة التّبعيّة الشّخصيّة، بل عن استقلاليّة ذات هي التي تكوّن الآن الرّابطة الوحيدة. ذلك فرّق كبير في تطوّر المِلْكِيّة الخاصّة: عندما تتعلّق هي ذاتها بحقوق، بدلا من أن يجعلها الحقّ متعلّقة بالأرض، بالأشياء أو بالأشخاص (من هنا خاصّة المسألة الشهيرة لحذف الرّيع العقاريّ من الرّأسماليّة). عتبة لا تارّضن جديدة. وبالتالي عندما يصبح رأس المال حقّا فاعلا، فإنّ الصّورة التّاريخيّة

(١) حول الاستقلاليّة التّاريخيّة للسّلسلتين «التّقائهما»، راجع بالبار، في قراءة رأس المال، منشورات ماسيرو، الجزء الثّاني، صص ٢٨٦-٢٨٩.

(٢) أرغيري إمانويل، التّبادل اللاّ متكافئ، صص ٦٨-٦٩ (واقباس سويزي: «رأس المال ليس مجرد مرادف لوسائل الإنتاج، إنّهُ وسائل الإنتاج المختزلة في رصيد قيمة متجانسة كيفيّاً وقابلة للقيس كمّيّاً»، من هنا توزيع الرّبح). في تحليله للتّراكم الأصليّ لرأس المال، يبيّن موريس دوب بوضوح أنّ التّراكم لا يتعلّق بوسائل الإنتاج، إنّما بـ«حقوق وسندات الثروة»، القابلة للتّحوّل وفق الظروف إلى وسائل إنتاج (دراسات في تطوّر الرّأسماليّة، منشورات ماسيرو، صص ١٨٩-١٩٩).

للحقّ هي التي تتغيّر بتمامها. يكفّ الحقّ عن كونه التقنين التّصافريّ للأعراف، كما في الإمبراطوريّة العتيقة؛ إنّهُ لم يعد مجموعة مواضع كما في الدّول المتطوّرة، في المدن والإقطاعات؛ إنّهُ يتّخذ بشكل متزايد الصّورة المباشرة والخصائص الرّاهنة للأكسيوميّة، مثلما نرى ذلك في «قانوننا» المدني^(١).

عندما تبلغ الاندفاعات هذه العتبة الرّأسماليّة من اللّا تقنين واللا تأرُضن (العمل العاري، رأس المال المستقلّ)، قد يبدو تحديدا أنّه لم تعد ثمة حاجة للدّولة، للهيمنة السّياسيّة والقضائيّة المستقلّة، من أجل تأمين التّملّك الذي أصبح تملّكا اقتصاديّا بشكل مباشر. يشكّل الاقتصاد بالفعل أكسيوميّة عالميّة، «طاقة عالميّة كليّة تقلب كلّ حاجز وكلّ قيد»، جوهرها متحرّكا وقابلا للتّحويل «من مثل قيمة تامة للنتائج السنويّة». يمكن أن نقوم اليوم بجدول لكتلة نقدية ضخمة تسمّى شريدة، تُتداول عبر الصّرافة والحدود، تفلت من مراقبة الدّول، تشكّل تنظيمًا عالميًا متعدّد الجنسيّات، تكوّن قوّة فوقوميّة فعليّة، غير مبالية بقرارات الحكومات^(٢). لكن أيّا كانت الأحجام والكميّات الحاليّة،

(١) راجع التّعارض الذي لاحظهُ بعض فقهاء القانون، واستعاده بول فاين بين الحقّ الرّوماني «الموضعيّ» والحقّ الحديث من نوع القانون المدنيّ، «الأكسيوميّ». يمكن أن نحدّد بعض المظاهر الأساسيّة التي تقرّب القانون المدنيّ من أكسيوميّة بدلا من قانون: (١) سيطرة الشّكل الإخباريّ على الشّكل الأمريّ، وعلى الصّنيع العاطفيّة (إدانة، نُصح، لوم، إلخ)؛ (٢) سعي القانون إلى تشكيل نسق عقلائيّ كامل ومشيع؛ (٣) لكن في نفس الوقت الاستقلاليّة النّسيبيّة للقضايا التي تمكّن من إضافة بديهيّات. راجع جون راي، بحث في البنية المنطقيّة للقانون المدنيّ الفرنسيّ، منشورات ألكان. نعرف أنّ نسقنة الحقّ الرّومانيّ تمّت مؤخرا جدّا في القرنين السّابع عشر والثامن عشر.

(٢) راجع جون سانت-جور، السّلطة والضّريبة، منشورات فايار، سانت-جور هو أحد أفضل محلّلي المنظومة النّقدية، لكن كذلك للإزدواجات «خاصّ-عموميّ» في الاقتصاد الحديث.

فإنَّ الرأسماليَّة جندت منذ البداية قوَّة لا تَأْرُضُنْ كانت تتخطى بما لا يقاس اللا تَأْرُضُنْ [٥٦٧] الخاصَّ بالدَّولة. ذلك أنَّ الدَّولة، منذ العصر الحجريِّ القديم والعصر الحجريِّ الأخير، هي لا مؤرُضنة من حيث أنَّها تجعل من الأرض موضوعاً لوحدها العليا، مجموعة تعايش قسريِّ بدلا من حركة حرَّة للأقاليم في ما بينها ومع السَّلالات. لكن بهذا المعنى تحديدا تسمَّى الدَّولة دولة «إقليمية». بينما الرأسماليَّة ليست إقليمية على الإطلاق حتى عند بداياتها: تتمثل قدرتها على اللا تَأْرُضُنْ في ألا تكون حتى الأرض موضوعاً لها، بل موضوعها «العمل المجرَّد»، البضاعة. ولم تعد المِلْكِيَّة الخاصَّة هي مِلْكِيَّة الأرض أو التَّربة، ولا حتَّى مِلْكِيَّة وسائل الإنتاج بما هي كذلك، بل مِلْكِيَّة حقوق مجرَّدة قابلة للتَّحويل^(١). لذلك تُعيِّن الرأسماليَّة طفرة في التَّنظيمات الكونيَّة أو العالميَّة التي تتوطَّد بذاتها: بدلا من صدورها عن تشكيلات اجتماعية متنافرة وعن علاقاتها، الأكسيوميَّة العالميَّة هي التي توزَّع إلى حدٍّ كبير هذه التَّشكيلات، تثبَّت علاقاتها بتنظيم تقسيم عالميٍّ للعمل. قد نقول عن الرأسماليَّة في كلِّ مظاهرها إنَّها تطوَّر نظاما اقتصاديا قد يستغني عن الدَّولة. وبالفعل لا تفتقر الرأسماليَّة إلى صرخات حرب تطلقها ضدَّ الدَّولة، ليس باسم السَّوق وحسب، إنَّما بموجب لا تَأْرُضُنْها الأعلى.

غير أنَّ ذلك ليس إلَّا مظهرا جزئيًّا جدًّا من رأس المال. إذا كان صحيحا أنَّنا لا نستعمل كلمة «أكسيوميَّة» كمجرَّد مجاز، فإنَّه يجب أن نذكِّر ما يميِّز أكسيوميَّة عن كامل جنس التَّقنيات والتَّقنيات التَّضافريَّة

(١) حول السَّعي إلى إلغاء الرِّيع العقاري في الرأسماليَّة، راجع سمير أمين وفرغوبولوس، المسألة الزراعيَّة والرأسماليَّة، منشورات أنثروبوس. يحلِّل سمير أمين الأسباب التي أدت بكيفيتين مختلفتين إلى محافظة الرِّيع العقاري والرِّيع المنجمي على معنى راهن أو على اتِّخاذ معنى راهن في المناطق المحيطية: قانون القيمة والمادِّية التاريخيَّة، منشورات مينوي، الفصلان الرَّابِع والسادس.

وإعادة التقنيات: تنظر الأكسيومية مباشرة في عناصر وعلاقات وظيفية محض طبيعتها غير محدّدة، وتحقق حينًا وتزامنًا في مجالات متنوّعة جدًّا، بينما تكون التقنيات متّصلة بهذه المجالات، تُفصّح عن علاقات مخصوصة بين عناصر محدّدة لا يمكن إرجاعها إلى وحدة صوريّة عليا (تقنين تضافريّ) إلّا تعالويًا وبشكل غير مباشر. لكنّ الأكسيومية المحايثة، تجد بهذا المعنى في المجالات التي تخترقها الكثير من النماذج التي للتحقيق. سنقول بالمثل إنّ رأس المال بوصفه حقًّا، بوصفه عنصرًا «متجانسًا كيفيًّا وقابلًا للقيس كمّيًّا»، يتحقّق في قطاعات ووسائل إنتاج (أو أنّ «رأس المال الشّامل» يتحقّق في «رأس المال المجزّئ»). مع ذلك ليست القطاعات المختلفة هي التي تُستخدم وحدها كنماذج [٥٦٨] تحقيق، كذلك هي الدّول، التي تجمع كلّ واحدة منها العديد من القطاعات وتؤلّف بينها، طبقا لمواردها، لعدد سكّانها، لثروتها، لتجهيزها، إلخ. مع الرّأسماليّة، لا يقع إلغاء الدّول إذًا، لكنّها تغيّر صورتها وتتخذ معنى جديدًا: نماذج تحقيق أكسيومية عالميّة تتجاوزها. لكنّ التّجاوز لا يعني البتّة الاستغناء... لقد رأينا بشكل محدّد أنّ الرّأسماليّة كانت تمرّ بالصّورة- الدّولة بدلا من الصّورة- المدينة؛ والآليات الأساسيّة التي وصفها ماركس (نظام استعماريّ، دَين عموميّ، جباية حديثة وضريبة مباشرة، حماية صناعيّة، حروب تجاريّة) يمكن إعدادها في المدن، لكنّها لا تعمل بوصفها آليّات مراكمة، تسريع ومركزة إلّا من حيث امتلاكها من طرف الدّولة. أحداث قريبة العهد قد تؤكّد بكيفيّة أخرى هذا المبدأ: الوكالة الوطنيّة للملاحاة الجويّة والفضاء الأميركيّة مثلا، كانت تبدو مستعدّة لتعبئة رؤوس أموال ضخمة لاستكشاف يّكوكبيّ، كما لو أنّ الرّأسماليّة كانت تمتطي موجّها كان أرسلها إلى القمر؛ لكن في أعقاب الاتّحاد السّوفييتيّ الذي كان يعتبر بالأحرى ما هو خارج كوكب الأرض بمثابة حزام يجب أن يحيط بالأرض التي وقع اتّخاذها «موضوعا»، قطعت الحكومة الأميركيّة

اعتمادات الاستكشاف، وأعادت في هذه الحالة رأس المال إلى نموذج أكثر تمرُّكًا. بالتالي يعود إلى لا تَارُضُن الدَّولة أن يَلْطَف اللَّا تَارُضُن الأعلى لرأس المال، وأن يوقر له لا تَارُضُنات تعويضيَّة. بشكل أعم، وبغضِّ النَّظر عن هذا المِثال الأقصى، علينا أن نأخذ في الاعتبار تحديدًا «مادّيًا» للدَّولة الحديثة أو للدَّولة - الأُمَّة: مجموعة منتجين حيث يقع تداول العمل ورأس المال بحريَّة، أي حيث يتمَّ انسجام وتنافس رأس المال مبدئيًّا دون عوائق خارجيَّة. كانت الرأسمالية في حاجة دومًا إلى قوَّة جديدة وإلى حقٍّ جديد للدَّول حتَّى تتحقَّق، في مستوى اندفاقات العمل العاري كما في مستوى اندفاق رأس المال المستقلّ.

هكذا لم تعد الدَّول على الإطلاق هي البراديغمات المتعالِيَّة لتقنين تضافريّ، بل هي نماذج تَحَقُّقٍ محاوِلَةٍ لصالح أكسيوميَّة الاندفاقات اللَّا مقنَّنة. مرَّةً أخرى، كلمة «أكسيوميَّة» قليلًا ما تكون مجازًا هنا إذ نجد حَرْفيًّا بخصوص الدَّولة المشكّلاتِ النظريَّة التي تضعها النِّماذج في أكسيوميَّة. ذلك أنَّ نماذج التَّحقيق مهما كان تنوُّعها، يُفترَض فيها أن تكون متشاكلَة بالنِّسبة إلى الأكسيومية التي تحقِّقها هذه النِّماذج؛ غير أنَّ هذا التَّشاكل، بالنَّظر إلى التَّغيَّرات العينيَّة، ينسجم مع أكبر الفروقات الصَّوريَّة. أكثر من ذلك، تبدو نفس الأكسيوميَّة قادرة على تَضَمُّن نماذج متعدِّدة الأشكال، ليس فقط من حيث أنَّها ما تزال غير «مشبَّعة»، إنّما بوصف تلك النِّماذج عناصر إدماجيَّة [٥٦٩] لإشباعها^(١). تصبح هذه

(١) تشدّد كتب التَّقديم للمنهج الأكسيوميّ على عدد معيَّن من المشكّلات. ليكن الكتاب الرائع لروبار بلانشاي، الأكسيوميَّة، المنشورات الجامعيَّة الفرنسيَّة. ثمة أولًا مسألة الاستقلاليَّة الخاصَّة بكلِّ أكسيوميَّة وبإشباع أو عدم إشباع النِّسق (الفقرتان ١٤ و ١٥). في المقام الثَّاني، «نماذج التَّحقيق»، تنافرها، لكن كذلك تشاكلها بالنِّسبة إلى الأكسيوميَّة (الفقرة ١٢). ثمَّ احتمال تعدُّد أشكال النِّماذج، ليس داخل نسق غير مشبَّع وحسب، بل حتَّى داخل أكسيوميَّة مشبَّعة (الفقرات ١٢، ١٥، ٢٦). ثمَّ كذلك مسألة «القضايا غير المحسومة» التي تصطدم بها

المشكلات سياسية بوجه خاصّ عندما نفكر بالدّول الحديثة: (١) أليس ثمة تشاؤم لكلّ الدّول الحديثة بالنّسبة إلى الأكسيومية الرأسمالية، إلى درجة أنّ الدّول الديمقراطيّة، الكليانيّة، الليبراليّة، الاستبداديّة تتوقّف فقط على متغيّرات عينيّة، وعلى التّوزيع العالميّ لهذه المتغيّرات التي تخضع دائماً لإعادات تنظيم محتملة؟ حتّى الدّول المسمّاة دولاً اشتراكيّة هي متشاكلة، من حيث أنّه ليس ثمة غير سوق عالميّة واحدة، رأسماليّة. (٢) عكسيّاً، ألا تتحمّل الأكسيومية الرأسماليّة العالميّة تعدّد أشكال حقيقيّ، أو حتّى تنافر أشكال النّماذج، وذلك لسببَيْن؟ من ناحية لأنّ رأس المال بوصفه علاقة إنتاج بعامة يمكنه أن يدمج قطاعات أو صيغ إنتاج عينيّة غير رأسماليّة. لكن من ناحية أخرى وبشكل خاصّ، لأنّ الدّول الاشتراكيّة البيروقراطيّة يمكنها هي ذاتها أن تطوّر علاقات إنتاج مختلفة، لا تتزاوج والرأسماليّة إلّا من أجل تشكيل مجموعة «قدرتها» تتخطّى الأكسيوميّة ذاتها (ستتّوجّب محاولة تحديد طبيعة هذه القدرة، لما نفكر بها غالباً بكيفيّة مفعّجة، ما الصّراعات التي تنتجها، أيّ الحظوظ غير المؤكّدة التي تتركها لنا... - ٣) قد تنضمّ تصنيفيّة الدّول الحديثة على هذا النّحو إلى ما بعد-الاقتصاد: قد يكون من غير الدّقيق التّعامل مع كلّ الدّول على أنّها «متساوية» (حتّى التّشاكل لا يفضي إلى هذه النّتيجة)؛ لكن ليس أقلّ دقّة تفضيل صورة معيّنة للدّولة (متناسين أنّ تعدّد الأشكال يقيم تكامليّات مضبوطة، على سبيل المثال بين الديمقراطيّات الغربيّة والاستبداديّات الاستعماريّة أو الاستعماريّة الجديدة التي تقيمها هذه الديمقراطيّات أو ترعاها في أماكن أخرى)؛ وليس أقلّ دقّة كذلك أن نمائل بين الدّول الاشتراكيّة البيروقراطيّة

أكسيوميّة ما (الفقرة ٢٠). أخيراً، مسألة «الأس» التي تجعل المجموعات الّلا متناهية غير القابلة للبرهنة تتخطّى الأكسيوميّة (الفقرة ٢٦ وأس المتّصل). إنّها كلّ هذه الوجوه هي التي تؤسّس للمواجهة بين السياسة وأكسيوميّة ما.

والدّول الرأسماليّة الكليانيّة (بالتغاضي عن كون الأكسيوميّة يمكنها أن تتضمن تنافر أشكال حقيقيّ تبرز من خلاله قدرة الكلّ العليا، حتّى وإن كان ذلك للأسوأ).

[٥٧٠] ما نسّميه الدّولة- أمة، في أشكالها الأكثر تنوعاً، هو بالتّحديد الدّولة بوصفها نموذج تحقيق. وبالفعل، تتضمن ولادة الأمم الكثير من الخدع: إنّها لا تتكوّن فقط في صراع فاعل ضدّ المنظومات الإمبراطوريّة أو المتطوّرة، ضدّ الإقطاعيّات، ضدّ المدن، لكنّها تقوم هي ذاتها بسحق «أقليّاتها»، أي بسحق الظّاهرات الأقلّيّة أو التي قد تمكن تسميتها «قومياتيّة»، تعركها من الدّاخل، وكانت هذه الأقلّيّات تجد عند الاقتضاء درجة أكبر من الحرّيّة في التّقنيات القديمة. مكّونات الأمّة هي أرض وشعب: «مولديّ» ليس فطريّاً بالضرورة، «شعبيّ» ليس معطى بالضرورة. مشكل الأمّة يحتدّ في الحالتين القصوتين لأرض دون شعب أو لشعب دون أرض. كيف نصنع شعباً وأرضاً، أي أمة- لازمة؟ أشدّ الوسائل دمويّة وعدم اكتراث تتنافس هنا مع توثبات الرّومنتيقيّة. الأكسيوميّة معقّدة ولا تعوزها الانفعالات. ذلك أنّ المولديّ أو الأرض تستتبع، مثلما رأينا ذلك في موضع آخر، لا أرضنة معيّنة للأقاليم (مواقع مشتركة، مقاطعات إمبراطوريّة، ضيعات إقطاعيّة، إلخ.)، ويستتبع الشعب لا تقنيّا للسكّان. على هذه الاندفاعات اللاّ مقنّنة واللاّ متأرضنة تتكوّن الأمّة ولا تنفصل عن الدّولة الحديثة التي تمنح قواماً للأرض وللشّعب المرتبطين بها. اندفاق العمل العاري هو الذي يصنع الشعب، مثلما يصنع اندفاق رأس المال الأرض ولوازمها. باختصار، الأمّة هي العمليّة ذاتها لذّيّة جماعيّة تناظرها الدّولة الحديثة بوصفها مسار إخضاع. إنّها في صورة الدّولة- أمة هذه، مع كلّ التّوّعات الممكنة، تصبح الدّولة نموذج تحقيق بالنّسبة إلى الأكسيوميّة الرأسماليّة. وهو ما لا يعني إطلاقاً أنّ الأمم هي مظاهر أو ظاهرات إيديولوجيّة، بل على النّقيض من ذلك هي الأشكال الحيّة والانفعاليّة

التي يتحقق فيها أولاً التّجانس الكيفي والتّنافس الكميّ لرأس المال المجرّد.

نميّز بين مفهومين هما مفهوم الاستعباد المكني والإخضاع الاجتماعيّ. ثمة استعباد عندما يكون النّاس هم ذواتهم قطعاً مكوّنة لمكنة، عندما ينتظمون في ما بينهم ومع أشياء أخرى (حيوانات، أدوات) تحت رقابة وإدارة وحدة عليا. لكن ثمة إخضاع عندما تُكوّن وحدة عليا الإنسان بصفته ذاتاً تتعلّق بموضوع أصبح خارجيّاً، أن يكون هذا الموضوع ذاته حيواناً، أداة أو حتّى مكنة: حينها لم يعد الإنسان مكوّناً من مكوّنات المكنة، بل عاملاً، مستعملاً...، إنّهُ خاضع للمكنة ولم يعد مستعبداً من طرف المكنة. ذلك [٥٧١] لا يعني أنّ النظام الثّاني أكثر إنسانيّة. لكنّ النظام الأوّل يبدو أنّه يحيل بامتياز على التّشكّل الإمبراطوريّ العتيق: النّاس فيه ليسوا ذواتاً، بل هم قطع مكنة تُقنّن المجموع تضافريّاً (ما أسميناه «عبوديّة معمّمة»، في تعارض مع عبوديّة العصر القديم الخاصّة، أو مع القنّانة الإقطاعيّة). يبدو لنا أنّ لويس مفورد على حقّ في تسميته الإمبراطوريّات العتيقة باسم المكنات العملاقة، مع التّأكيد أنّ الأمر لا يتعلّق هنا أيضاً بمجاز: «إذا كنّا في توافق نسبيّ مع التّعريف الكلاسيكيّ لرولو (Reuleux)، بإمكاننا اعتبار مكنة بمثابة تركيب عناصر صلبة لكلّ منها وظيفته المتخصّصة، ويعمل تحت رقابة بشريّة لإرسال حركة وتنفيذ عمل، بالتّالي كانت المكنة البشريّة مكنة حقيقة^(١)». الّاكد أنّ الدّولة الحديثة ورأس المال هما اللّذان يعزّزان انتصار المكنات، وخاصّة المكنات المحرّكة (بينما لم يكن للدّولة العتيقة في أفضل الحالات غير مكنات بسيطة)؛ لكنّنا نتحدّث حينئذ عن مكنات تقنيّة، قابلة للتّحديد خارجيّاً. وبالفعل لسنا مستعبدين من قبل مكنة تقنيّة، إنّنا خاضعون لها. يبدو بهذا المعنى أنّه

(١) لويس مفورد، «المكنة العملاقة الأولى»، ديوجين، جويلية/يوليو ١٩٦٦.

مع التطور التكنولوجي استعاضت الدولة عن الاستعباد المكني بإخضاع اجتماعي أقوى فأقوى. بالفعل كان الاستعباد القديم والقناة الإقطاعية طرائق إخضاع. بينما العامل «الحر» أو العاري للرأسمالية، يدفع الإخضاع إلى تعبيرته الأشد جذرية، بما أن مسارات الذئنة لم تعد تدخل حتى في ارتباطات جزئية قد تعيق مجراها. فعلياً، يعمل رأس المال بوصفه نقطة ذئنة تُكوّن الناس كذوات، لكن بعضهم، «الرأسماليون»، هم بمثابة ذوات تُلَفُّظ يشكّلون الذاتية الخاصة لرأس المال، بينما الآخرون، «البروليتاريون»، هم موضوعات الملفوظ الخاضعين للمكنات التقنية حيث يتحقّق رأس المال القارّ. سيتمكّن نظام الأجرة بالتالي من رفع إخضاع الناس إلى نقطة غير مسبوقة، ويعبر عن قساوة خاصّة، وسيكون مع ذلك على حقّ في إطلاق صيحته الإنسانية: لا، الإنسان ليس مكنة، لا نعامله بصفته مكنة، الآكد أننا لا نخلط بين رأس المال المتحوّل ورأس المال القارّ...

لكن إذا كانت الرأسمالية تظهر بوصفها مشروع ذئنة عالمي، فذلك بتكوينها لأكسيومية اندفاقات لا مقنّنة. لكنّ الإخضاع الاجتماعي بوصفه مضايفاً للذئنة، يظهر أكثر بكثير في نماذج تحقيق [٥٧٢] الأكسيومية من ظهوره في الأكسيومية ذاتها. في إطار الدولة-أمة أو في إطار الذاتيات القومية تبرز مسارات الذئنة وما يناظرها من ضروب الإخضاع. أمّا الأكسيومية ذاتها التي تكون الدول هي نماذج تحقيقها، فإنها ترمّم أو تبتكر في أشكال جديدة أصبحت تقنية، منظومة استعباد مكنية بكاملها. ليس في ذلك عودة البتّة إلى مكنة إمبراطورية، بما أننا الآن في محايثة أكسيومية ولسنا تحت تعالي وحدة صورية. لكنها إعادة ابتكار مكنة مكوناتاها هم الناس، بدلا من كونهم العمّال والمستعملين الخاضعين لها. إذا كانت المكنات المحركة كوّنّت العصر الثاني للمكنة التقنية، فإنّ مكنات السيبرنيطيقا والإعلامية تشكّل عصرا ثالثا يعيد تركيب نظام استعباد معمّم: «منظومات أناس-مكنات»، قابلة للعكس

والعُود، تعوِّض علاقات الإخضاع القديمة غير القابلة للعكس والعود بين العنصرين؛ تتم العلاقة بين الإنسان والمكنة في صيغة تواصل داخليّ متبادل ولم تعد في صيغة استعمال أو فعل^(١). في التكوين العضويّ لرأس المال، يعرف رأس المال المتحوّل نظام إخضاع للعامل (فائض- قيمة بشريّ)، إطاره الرئيسيّ هو الشركة أو المصنع؛ لكن عندما ينمو رأس المال القارّ تناسبًا بشكل متزايد في الأتمتة، نجد استعبادا آخر في نفس الوقت الذي يتغيّر فيه نظام العمل، يصبح فائض- القيمة مكنيًا ويمتدّ الإطار إلى المجتمع كلّ. قد نقول كذلك إنّ القليل من الدّتيّنة كان يبعدنا عن الاستعباد المكنيّ والكثير منها يعيدنا إليه. وقع التأكيد مؤخرًا على أنّ ممارسة السّلطة الحديثة لم تكن تُختزل إلى حدّ بعيد في الإمّيّة الكلاسيكيّة «القمع أو الإيديولوجيا»، لكنّها كانت تتضمّن مسارات طبعنة، قولبة، نمذجة، إعلام، تتعلّق باللغة، بالإدراك، بالرّغبة، بالحركة، إلخ.، وتمرّ بتنضيدات مجهرية. [٥٧٣] هذه المجموعة هي التي تتضمّن في نفس الوقت الإخضاع والاستعباد مدفوعين إلى أقصاهما، بوصفهما جزأين متزامنين لا يفتأ أحدهما يعزّز الآخر ويتغذّى منه. مثلاً: إنّنا خاضعون للتلفاز طالما أنّنا نستعمله ونستهلكه، في هذه الوضعيّة الخاصّة جدًّا لذات ملفوظ تزعم نوعاً ما أنّها ذات تلفّظ («أنتم الذين تصنعون التلفاز أيّها المشاهدون

(١) تميّز شريعة العمل بين منظومات «إنسان- مكنة» (أو أماكن العمل) ومنظومات «أناس- مكنات» (مجموعات مترابطة لعناصر بشريّة أو غير بشريّة). لكنّ الفرق ليس فرقاً في الدّرجة وحسب، وجهة النّظر الثّانية ليست تعميماً للأولى: «يفقد مصطلح الإعلام مظهره الذي هو مظهر مركزيّة الإنسان»، والمشكلات ليست مشكلات تكّيّف بل مشكلات اختيار عنصر بشريّ أو غير بشريّ وفق الحالة. راجع موريّس مونتمولان، المنظومات أناس- مكنات، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة. لم يعد السّؤال يتعلّق بالتكّيّف، حتّى بالعنف، بل بالموضّعة: أين مكانك؟ حتّى العاهات يمكن استخدامها بدلا من إصلاحها أو تعويضها. يمكن لأصمّ- أبكم أن يكون أساسيّاً في منظومة تواصل «أناس- مكنات».

الأعزاء...»؛ الممكنة التّقنيّة هي الوسيط بين ذاتين. لكنّا مستعبدون من طرف التّلفاز بوصفه مكنة بشريّة طالما لم يعد المشاهدون مستهلكين أو مستعملين، ولا حتّى ذوات يُفترض فيها أنّها «تصنع» التّلفاز، بل هم قِطْع مكوّنة جوهريّة، «مداخل» و«مخارج»، ارتدادات أو معاوّدات تنتمي للمكنة ولم تعد تنتمي لطريقة إنتاجها أو استعمالها. ليس ثمة في الاستعباد المكنيّ غير تغييرات أو تبادلات معلومات بعضها مكنيّ وبعضها الآخر بشريّ^(١). وبطبيعة الحال، لن نخصّ الإخضاع بالمظهر القوميّ، بينما قد يكون الاستعباد دوليّاً أو عالميّاً. ذلك أنّ الإعلاميّة هي كذلك ملك الدّول التي تتركّب في منظومات أناس- مكنات. لكن تحديداً من حيث أنّ المظهرين، مظهر الأكسيوميّة ومظهر نماذج التّحقيق، لا يفتأ أحدهما يمرّ في الآخر ولا يفتأ يتواصلان. يبقى أنّ الإخضاع الاجتماعيّ يقاس بنموذج التّحقيق، مثلما يمتدّ الاستعباد المكنيّ إلى الأكسيوميّة التي أنجزت في النّموذج. حظينا بامتياز الخضوع من خلال نفس الأشياء ونفس الأحداث، للعمليّتين في نفس الوقت. الإخضاع والاستعباد يشكّلان قطبين متزامنين، بدلا من تشكيلهما مرحلتين.

بإمكاننا الرّجوع للأشكال المتنوّعة للدّولة من زاوية نظر تاريخ كلّيّ. نميّز بين ثلاثة أشكال كبرى: (١) الدّول العتيقة الإمبراطوريّة، براديغمات تُكوّن مكنة استعباد بواسطة تقنين تضافريّ لاندفاعات مقنّنة بالفعل (لهذه الدّول القليل من التّنوّع بسبب بعض الثّبات الصّوريّ الصّالح لجميع الدّول)؛ (٢) الدّول المتنوّعة جدّاً في ما بينها، إمبراطوريّات متطوّرة، مدن، منظومات إقطاعيّة، ممالك...، تعمل

(١) ذلك واحد من المباحث الأساسيّة في الخيال العلميّ، بيان الكيفيّة التي يتألف بها الاستعباد مع سيرورات الإخضاع، لكنّه يتخطاها ويختلف عنها، يقوم بفكرة كيفيّة؛ براديري على سبيل المثال: التّلفاز لم يعد حتّى أداة قد تُشكّل مركز المنزل، لكنّه يشكّل جدران المنزل.

بالأحرى بواسطة الذّتيّنة والإخضاع، وتُشكّل اقترانات موضوعيّة أو محدّدة لاندفاقات لا مقنّنة؛ ٣) الدّول - الأمم الحديثة، التي تدفع دائما قُدّما [٥٧٤] اللّا تقنين، والتي هي بمثابة نماذج تحقيق أكسيوميّة أو تزاوج عامّ للاندفاقات (هذه الدّول تولّف بين الإخضاع الاجتماعي والاستعباد المكنّي الجديد، وتنوّعها ذاته يخصّ تشاؤم، تعدّد أشكال أو تنافر الأشكال المحتملة للنماذج بالنسبة إلى الأكسيوميّة).

ثمّة بكلّ تأكيد كلّ أنواع الظّروف الخارجيّة التي تعيّن قطيعات عميقة بين أصناف الدّول هذه، وتصيب أولا الإمبراطوريّات العتيقة بنسيان جذريّ، بطمّر وحدها الأركيولوجيا هي التي تخرجها منهما. اختفاء فجئيّ لهذه الإمبراطوريّات كما في كارثة فوريّة. مثل الغزو الدّوريانيّ، مكنة حرب تنتصب وتمارّس من الخارج وتقتل الذّاكرة. ومع ذلك فإنّ الأمر مختلف تماما من الدّاخِل، حيث تتصادى الدّول جميعها في ما بينها، تتملّك الأسلحة وتؤكّد وحدة تكوين بالرّغم من اختلافات تنظيمها وتطوّرها. من المؤكّد أنّ كلّ الاندفاقات اللّا مقنّنة، أيّا كانت، مؤهّلة لتكوين مكنة حرب ضدّ الدّولة. لكن كل شيء يتغيّر وفق ارتباط هذه الاندفاقات بمكنة الحرب، أو على التّقيض من ذلك دخولها في اقترانات أو في تزاوج عامّ يجعلها ملكا للدّولة. من هذه الزّاوية، للدّول الحديثة مع الدّولة العتيقة ضرب من الوحدة العابرة للمكان والزّمان. من I إلى II، يظهر التّضايّف الدّاخليّ بأوضح صورة من حيث أنّ أشكال العالم الإيجيّ المفتّنة تفترض الشّكل الإمبراطوريّ الكبير للشرق، وتجد فيه بالتّحديد المخزون أو الفائض الزّراعيّ الذي ليست هي من جانبها في حاجة إلى إنتاجه أو مراكمته. ومن حيث أنّ دول العصر الثّاني مجبّرة مع ذلك على إعادة تكوين مخزون، حتّى وإن لم يكن ذلك إلّا بمقتضى ظروف خارجيّة - أيّة دولة بإمكانها الاستغناء عن ذلك؟ - فإنّ ذلك يكون دائما بإعادة تفعيل صورة إمبراطوريّة متطوّرة، يبعثها العالم اليونانيّ، الرّومانيّ أو الإقطاعيّ: ثمّة دائما

إمبراطورية في الأفق، تلعب دور الدالّ والفعاليّة الشموليّة للدّول الذاتيّة. ومن II إلى III، التّضايّف ليس أقلّ؛ ذلك أنّ الثّورات الصناعيّة لا تعوزنا، والفرق ضئيل جدّا بين التّرابطات الموضعيّة والتّزاوج الكبير للاندفاعات اللاّ مقنّنة بحيث يحصل لدينا انطباع بأنّ الرّأسماليّة لم تتوقّف عن التّولّد، عن الاختفاء والانبعاث في كلّ مفترقات التّاريخ. ومن III إلى I، التّضايّف ضروريّ أيضا: دول العصر الثّالث الحديثه ترمّم بشكل جيّد الإمبراطوريّة الأكثر إطلاقيّة، «مكنة عملاقة» جديدة، أيّا كانت جذّة أو راهنيّة الصّورة التي أصبحت محايدة، بتحقيقها لأكسيوميّة تعمل بواسطة استعباد مكنيّ كما [٥٧٥] بواسطة إخضاع اجتماعيّ. الرّأسماليّة أيقظت الدّولة الأصليّة، وتمنحها قوى جديدة^(١).

ليس مثلما كان يقول هيغل وحسب، كلّ دولة تتضمّن «اللّحظات الأساسيّة لوجودها من حيث هي دولة»، لكن ثمة لحظة وحيدة، بمعنى تزاوج القوى، ولحظة الدّولة هذه هي استحواذ، قيد، أنشطة، تعهّد، استحواذ سحريّ. هل يجب الحديث عن قطب ثان، قد يعمل بالأحرى بواسطة الميثاق والعقد؟ أليست بالأحرى هي القوّة الأخرى، حيث يشكّل الاستحواذ اللّحظة الوحيدة للثنائيّ؟ ذلك أنّ القوتين، هما التقنين التّضافريّ للاندفاعات المقنّنة، ومعالجة الاندفاعات اللاّ مقنّنة. العقد تعبير قضائيّ على هذا المظهر الثّاني: إنّّه يظهر مثل مسار الدّتيّنة الذي يكون الإخضاعُ نتيجته. وسيتوجّب أن يذهب العقد إلى النّهاية، أي ألاّ يقوم حتّى بين شخصين، بل بين الدّات وذاتها، داخل نفس الشّخص، أنا = أنا، من حيث أنّه خاضع وسيّد. الانحراف الأقصى

(١) راجع لويس مفورد، ميثة المكنة، منشورات فايار، الجزء الثّاني، صص ٣١٩-٣٥٠ (مقارنة «المكنة العملاقة القديمة» والمكنة الحديثة: رغم الكتابة، تشكو المكنة القديمة صعوبة «التّواصل»).

للعقد الذي يسترجع أنقى الأنشطة. إنها الأنشطة، إنه القيد، الاستحواذ الذي يخترق بالتالي تاريخاً طويلاً: أولاً القيد الجماعي الإمبراطوري، الموضوعي؛ ثم كل أشكال القيود الشخصية الذاتية؛ أخيراً الذات التي تقيد ذاتها، وتجدد بالتالي العملية الأكثر سحرية، «الطاقة التي ت قلب كل حاجر وكل قيد لتطرح ذاتها بوصفها الكلية الوحيدة، الحاجر الوحيد والقيد الوحيد^(١)». حتى الإخضاع ليس غير محطة من أجل اللحظة الأساسية للدولة، استحواذ مدني أو استعباد مكني. بكل تأكيد، الدولة لا هي موقع الحرية ولا هي عامل عبودية إرغامية أو استحواذ حربي. هل يجب الحديث إذاً عن «عبودية إرادية»؟ إنها مثل عبارة «استحواذ سحري»: فضيلتها الوحيدة هي التأكيد على اللغز الظاهري. ثمة استعباد مكني قد نقول عنه في كل مرة إنه يفترض ذاته، إنه لا يظهر إلا بوصفه قد تم بالفعل، وهو ليس «إرادية» أكثر مما هو «إرغامية».

القضية الرابعة عشرة: الأكسيومية والوضع الراهن.

من المؤكد أن السياسة ليست علماً برهانياً. إنها تعمل بواسطة التجريب، التلمس، الضخ، الانكماش، التقدّمات، التراجعات. عوامل الحسم والتوقع محدودة. من العبث [٥٧٦] افتراض حكومة عالمية فوق كل الحكومات هي التي قد تقرّر في آخر المطاف. لا نصل حتى إلى توقع ارتفاع كتلة نقدية. بالمثل، تتأثر الدول بكل أنواع درجات عدم التأكد وعدم التوقع. غالباً وفرائسها شاتليه بيرزان مفهوم الأخطاء الحاسمة والقارة التي تصنع مجد رجال الدولة بقدر ما تصنعه تقويماتهم الناجحة النادرة. بيد أن ذلك هو سبب إضافي للتقريب بين السياسة والأكسيومية. إذ أن أكسيومية في العلم ليست البتة قدرة

(١) ماركس، اقتصاد وسياسة، بلاياد، II، ص ٧٢.

متعالية، قائمة برأسها وحاسمة، قد تتعارض مع التجريب ومع الحدس. من ناحية، لها ترددات، تجريبات، صيغ حدس خاصة بها. البديهيات وهي مستقلة في ما بينها، هل يمكننا إضافة بديهيات، وإلى أي حدّ (نسق مشبع)؟ سحب بديهيات، وإلى أي حدّ (نسق «واهن»)؟ من ناحية أخرى، يعود إلى الأكسومية الاصطدام بقضايا تسمى قضايا غير قابلة للحسم، أو مواجهة قوى أعلى منها بالضرورة ليس بمستطاعها السيطرة عليها^(١). أخيرا، لا تشكل الأكسومية طليعة العلم، بقدر ما تمثل نقطة توقف، إعادة تنظيم تمنع الاندفاعات السيميائية اللا مقننة، الرياضية والفيزيائية، من الإفلات من جميع الجهات. أكبر الأكسوميين هم رجال دولة العلم الذين يعيقون خطوط الإفلات شديدة التواتر في الرياضيات، يزعمون وضع تعهد، حتى وإن كان مؤقتا، ويقومون بسياسة رسمية للعلم. إنهم ورثة التصور المبرهن للهندسة. عندما عارضت النزعة الحدسية الأكسومية، فإن ذلك لم يكن باسم الحدس، باسم البناء والخلق وحسب، بل باسم حساب المشكلات، باسم تصور إشكالي للعلم، لم يكن أقلّ تجريدا، لكنه كان يستتبع مكنة مجردة أخرى، تعمل في ما لا يقبل الحسم وفي المنفلت^(٢). الخاصيات الواقعية للأكسومية هي التي تجعلنا نقول إنّ الرأسمالية [٥٧٧]

(١) إنهما المشكلان الكبيران للأكسومية تاريخيا: الالتقاء بقضايا «غير قابلة للحسم» (ملفوظات متناقضة غير قابلة للبرهنة هي أيضا)؛ الالتقاء بقدرات مجموعات لا متناهية تفلت طبيعيا من المعالجة الأكسومية («المتصل مثلا لا يمكن إدراكه أكسوميا في خصوصيته البنوية، بما أنّ كلّ أكسومية ستعطى له ستتضمن نموذجا قابلا للعد»؛ راجع روبر بلانشي، ص ٨٠).

(٢) للمدرسة «الحدسية» (برووار، هايتنغ، غريس، بولينيان، إلخ). أهمية رياضية كبرى، ليس لأنها أكدت للحدس حقوقا غير قابلة للانتقاص، ولا حتى لأنها كانت بلورت بنائية جديدة جدًا، لكن لأنها تطوّرت تصورا للمشكلات، ولحساب المشكلات، يتنافس جوهريا مع الأكسومية ويعمل بقواعد أخرى (وتحديدا بخصوص الثالث المرفوع).

والسياسة الحالية هما أكسيومية بشكل حُرْفِي. لكن لهذا السبب تحديدا لا شيء قد انتهى. يمكننا أن ننجز بهذا الخصوص جدولا إجماليا لل«معطيات».

١. الإضافة، الطرح. - بديهيات الرأسمالية ليست بالتأكيد قضايا نظرية ولا هي صيغ إيديولوجية، بل هي ملفوظات إجرائية تُكوّن الشكل السيمولوجي لرأس المال، وتدخل بوصفها أجزاء مكونة في تنضيدات الإنتاج، التداول والاستهلاك. البديهيات هي ملفوظات أولى لا تُستمد من ملفوظ آخر ولا تتوقّف على ملفوظ آخر. بهذا المعنى، يمكن لاندفاق أن يكون موضوعا لبديهة أو لكثرة من البديهيات (مجموعة البديهيات تُكوّن تزاوج الاندفاقات)؛ لكن يمكن كذلك ألا تكون له بديهيات تخصّه، وألا تكون معالجته غير نتيجة لبديهيات أخرى؛ يمكنه في النهاية أن يظلّ خارج المجال، أن يتطور دون حدود، أن يُترك في حالة تغيّر «برّي» داخل التسق. ثمة في الرأسمالية نزوع نحو إضافة دائمة للبديهيات. في نهاية حرب ١٤-١٨، التأثير المزدوج للأزمة العالمية وللثورة الروسية أجبرتا الرأسمالية على مضاعفة البديهيات، على ابتكار بديهيات جديدة، تخصّ الطبقة العاملة، الشغل، التنظيم الثقافي، المؤسسات الاجتماعية، دور الدولة، السوق الخارجية والسوق الداخلية. اقتصاد كينيز (Keynes)، النظام الجديد، كانا هما مخابر ذات بديهيات. أمثلة ابتكارات جديدة لبديهيات بعد الحرب العالمية الثانية: مخطّط مارشال، أشكال الإعانات والقروض، تغيّرات النظام النقدي. البديهيات لا تتضاعف فقط في فترات التوسّع والانتعاش. ما يغيّر الأكسيومية، في علاقة بالدول، هو التمييز بين السوق الخارجية والسوق الداخلية والعلاقة بينهما. ثمة بالخصوص مضاعفة البديهيات عندما ننظّم سوقا داخلية مندمجة تتنافس ومتطلّبات السوق الخارجية. بديهيات للشباب، للمسنّين، للنساء، إلخ. قد يكون بمقدورنا تحديد

قطب دولة عامّ جدّا، قطبا «ديمقراطيّا - اشتراكيّا»، بهذا النزوع إلى الضّمّ، إلى ابتكار بديهيّات في علاقة بمجالات استثمار ومصادر ربح: ليست المسألة مسألة الحرّيّة أو الإكراه، ولا مسألة المركزيّة أو اللّا مركزيّة، بل مسألة الطّريقة التي نتحكّم بها في الاندفاعات. نتحكّم فيها هنا بمضاعفة البديهيّات التّوجيهيّة. النزوع المعاكس ليس أقلّ حضورا في الرّأسماليّة: هو نزوع إلى سَحَب بديهيّات وطرحها. نرتدّ على عدد صغير جدّا من البديهيّات التي تنظّم الاندفاعات المهيمنة، الاندفاعات الأخرى تتلقّى منزلة نتيجة متفرّعة (حدّتها «المبرهنات» النّابعة من البديهيّات)، أو المتروكة [٥٧٨] في حالة بريّة لا تستبعد التّدخل العنيف لسلطة الدّولة، بل على التّقيّض من ذلك. إنّه قطب الدّولة «الكليانيّة» هو الذي يجسّد هذا السّعي إلى تقليص عدد البديهيّات، ويعمل بواسطة تنمية حصريّة للقطاع الخارجيّ، استجلاب رؤوس الأموال الخارجيّة، ازدهار صناعة موجّهة لتصدير الموادّ الخام أو الغذائيّة، انهيار السّوق الدّاخليّة. الدّولة الكليانيّة ليست الحدّ الأقصى للدّولة، بل بالأحرى، وفق عبارة فريليو، هي الدّولة الأدنى للاحتمالات السلطويّة الرّأسماليّة (مثال الشيلي). في الحدّ الأقصى، البديهيّات الوحيدة التي وقع الإبقاء عليها هي توازن القطاع الخارجيّ، مستوى المدّخرات ونسبة التّضخّم؛ «لم يعد السّكّان معطى، بل أصبحوا نتيجة»؛ أمّا بخصوص التّطوّرات الجامحة، فإنّها تظهر من بين ما تظهر فيه، في تغيّرات الشّغل، ظاهرات التّزوح الرّيفيّ، التّمدّين - الأحياء القصديريّة، إلخ. - حالة الفاشيّة (القومية - الاشتراكية) تختلف عن الكليانيّة. إنّها تلتقي مع القطب الكليانيّ من خلال سحق السّوق الدّاخليّة وتقليص البديهيّات. غير أنّ تعزيز القطاع الخارجيّ لا يتمّ إطلاقا باستجلاب رؤوس الأموال الخارجيّة وصناعة التّصدير، بل باقتصاد الحرب الذي يفضي إلى توسّع غريب عن الكليانيّة ويصنّع مستقلّ لرأس المال. أمّا السّوق الدّاخليّة فمتحقّقة بإنتاج مخصوص

للبديل. بحيث أنّ الفاشية تتضمّن كذلك تكاثرا للبيديّات، يجعلنا نقربها في العادة من اقتصاد كينيّزيّ. غير أنّ هذا التّكاثر هو تكاثر وهميّ أو من تحصيل الحاصل، هو مضاعف بالطّرح، يجعل من الفاشية حالة خاصّة جدّا^(١).

٢. إشباع. - هل يمكن توزيع المَنحَيّين المتعاكسين بالقول إنّ إشباع المنظومة يعيّن نقطة القلب؟ لا، إذ الإشباع بالأحرى هو ذاته النّسبيّ. إذا كان ماركس بيّن أنّ اشتغال الرّأسماليّة هو بمثابة أكسيوميّة، [٥٧٩] فذلك خاصّة في الفصل الشّهير حول الاتّجاه التّنازليّ لنسبة الرّبح. الرّأسماليّة أكسيوميّة لأنّها لا قوانين لها غير القوانين المحايّثة. قد تبحت عن جعلنا نعتقد أنّها تصطدم بحدود الكون، بالحدّ الأقصى للموارد والطّاقات. لكنّها لا تصطدم إلّا بحدودها الخاصّة (انحسار دوريّ لرأس المال الموجود)، ولا تؤخّر أو لا تحوّل غير حدودها الخاصّة (تكوين رأس مال جديد، في صناعات جديدة ذات نسبة ربح مرتفعة). ذلك هو تاريخ البترول أو النّوويّ. والاثنان معا: في نفس الوقت تصطدم الرّأسماليّة بحدودها وتحولها، لتضعها في ما أبعد. سنقول إنّ السعي الكليانيّ، تقليص البيديّات، يناظر مواجهة الحدود،

(١) يبدو لنا أنّ واحدا من أفضل تحاليل الاقتصاد التّازيّ هو تحليل جون- بيار فاي، لغات كليانيّة، صص ٦٦٤-٦٧٦: يبيّن كيف أنّ التّازية هي كليانيّة، تحديدا بأدنى- الدّولة فيها، برفضها لكلّ دولنة للاقتصاد، ضغطها على الأجور، معاداتها للأشغال العموميّة الكبرى؛ لكن في نفس الوقت، كيف أنّ التّازية تعتمد إلى خلق رأس مال داخليّ، إلى بناء استراتيجيّ، إلى صناعة حربيّة، تجعلها تنافس اقتصادا ذا منحى اشتراكيّ بل وتختلط معه أحيانا («شيء ما يظهر وكأنّه شبيه بالقروض السويديّة التي روّج لها ميردال من أجل أشغال كبرى، لكنّها في الواقع وبشكل مباشر هي نقيضها، كتابة اقتصاد التّسلّح واقتصاد الحرب»، والفرق المُنَاطَر لها هو بين «متعهد الأشغال العموميّة» و«مزود الجيش»، صص ٦٦٨، ٦٧٤).

بينما السعي الديمقراطيّ - الاشتراكيّ يناظر تحويل الحدود. لكن أحدهما لا يكون دون الآخر، سواء في موضعين مختلفين لكن يتواجدان معا، سواء في لحظات متعاقبة لكنّها وثيقة الترابط، متشابكة الواحدة مع الأخرى، بل وحتى الواحدة في الأخرى، مشكّلتين نفس الأكسيوميّة. قد تكون البرازيل هي المثال النموذجيّ الحاليّ، مع إمّيتها الملتبسة «كليانيّة- ديمقراطيّة اشتراكيّة». كقاعدة عامّة، تكون الحدود متحرّكة أكثر بقدر ما نسحب بديهيّات من موضع معيّن، لكن نضيف بديهيّات في موضع آخر. - قد يكون من الخطأ عدم الاهتمام بالصّراع في مستوى البديهيّات. يحدث أن نلاحظ كون كلّ بديهيّة، في الرأسماليّة أو في إحدى دولها، تشكّل «انتعاشة». لكنّ هذا المفهوم الخائب ليس مفهوما جيّدا. التعديلات المستمرّة للبديهيّة الرأسماليّة، أي للإضافات (الإعلان عن بديهيّات جديدة) ولعمليات السّحب (خلق بديهيّات حصريّة)، هي موضوع صراعات ليست مقصورة إطلاقا على التقنوقراطيّة. من كلّ النواحي بشكل فعليّ، تتخطّى الصّراعات العماليّة إطار المؤسسات التي تتضمّن خاصّة اقتراحات ثانويّة. تتعلّق الصّراعات مباشرة بالبديهيّات التي تتحكّم بالمصاريف العموميّة للدولة، أو حتى التي تخصّ هذه المنظّمة العالميّة أو تلك (على سبيل المثال، يمكن لشركة متعدّدة الجنسيّات أن تخطط إراديا لتصفية مصنع في بلد ما). حينئذ، خطر بيروقراطيّة أو تقنوقراطيّة عمّاليتين عالميتين قد تتكفّلان بهذه المشكلات لا يمكن تحاشيه هو ذاته إلّا بقدر ما تأخذ الصّراعات المحليّة بشكل مباشر من البديهيّات القوميّة والعالميّة أهدافا لها، تحديدا في نقطة اندراجها في مجال المحايّة (إمكانات العالم الرّيفيّ بهذا الخصوص). ثمّة دائما فرق أساسي بين الاندفاعات الحيّة والبديهيّات التي تجعلها تابعة لمراكز مراقبة وقرار، وتبحث لها عن هذه الأقسومة أو تلك من الأقسام التي تلائمها وتقيس كمّاتها. لكنّ ضغط الاندفاعات الحيّة والمشكلات التي تضعها وتفرضها، [٥٨٠]

يجب أن يمارَس داخل الأكسيومية، من أجل الصِّراع ضدَّ الاختزالات الكليانية كما من أجل سبق وتسريع الإضافات، توجيهها، ومنع انحرافها التَّقنوقراطي.

٣. نماذج، تَشَاكُل. - مبدئيًا، كلِّ الدَّول متشاكلة، أي أنَّها مجالات تحقيق لرأس المال وفق نفس السَّوق العالميَّة الخارجيّة الواحدة. لكنَّ سؤالًا أوَّل قد يتمثَّل في معرفة ما إذا كان التَّشاكل يستتبع تجانسا أو حتى مجانسةً للدَّول. نعم، مثلما نرى ذلك في أوروبا الحاليَّة، بخصوص العدالة والأمن، قانون الطَّرقات، تداول السِّلَع، تكاليف الإنتاج، إلخ. لكنَّ ذلك ليس صحيحًا إلَّا حيثما ثمة سعي إلى سوق داخليَّة وحيدة مندمجة. وإلَّا فإنَّ التَّشاكل لا يَسْتتبع التَّجانس إطلاقًا: ثمة تَشَاكُل، لكن ثمة تنافر بين الدَّول الكليانية والديمقراطيَّة-الاشتراكيَّة، كلِّما كان نمط الإنتاج هو ذاته. القواعد العامَّة بهذا الصِّدد هي التَّالِيَّة: القِوام، جملة أو وحدة الأكسيوميَّة محدَّدة برأس المال بوصفه «حقًّا» أو علاقة إنتاج (للسَّوق)؛ الاستقلاليَّة الخاصَّة بكلِّ واحدة من البديهيَّات لا تناقض البتَّة هذه المجموعة، لكنَّها تأتي من انقسامات وقطاعات نمط الإنتاج الرأسماليِّ؛ تَشَاكُل التَّماذج، مع قطبيَّ الإضافة والطَّرح، يعود في كلِّ حالة إلى توزيع السَّوق الدَّاخليَّة والسَّوق الخارجيّة. - لكنَّ هذا ليس غير ثنائيَّة قطبيَّة أولى صالحة لدول المركز، وفي ظلِّ نمط الإنتاج الرأسماليِّ. فُرِضت على المركز ثنائيَّة قطبيَّة شرق-غرب، بين الدَّول الرأسماليَّة والدَّول الاشتراكيَّة البيروقراطيَّة. لكن مع أنَّ هذا التَّمييز الجديد بإمكانه استعادة بعض سمات التَّمييز السَّابق (الدَّول المسمَّاة دولا اشتراكيَّة تَمَّت المماثلة بينها وبين الدَّول الكليانية)، فإنَّ المشكل يُطرح بشكل مغاير. نظريَّات «التَّقارب» المتعدَّدة التي تحاول أن تبيِّن بعض المجانسة بين دول الشَّرْق ودول الغرب غير مقنعة. حتَّى التَّشاكل لا يلائمها: ثمة تنافر أشكال

حقيقي، ليس لأن نمط الإنتاج ليس نمط إنتاج رأسمالي وحسب، بل لأن علاقة الإنتاج ليست هي رأس المال (قد تكون بالأحرى هي المسطح). إذا كانت الدول الاشتراكية ما تزال مع ذلك نماذج تحقيق للأكسيومية الرأسمالية، فذلك تبعا لوجود سوق عالمية خارجية واحدة ووحيدة هي التي تظل هنا العامل الحاسم، حتى في ما أبعد من علاقات الإنتاج التي تنشأ عنها هذه السوق. بل قد يحدث أن تكون للمسطح البيروقراطي الاشتراكي وظيفة طفيلية بالنسبة إلى مسطح رأس المال، الذي يشهد على إبداعية أكبر، من نوع «فيروس». - أخيرا [٥٨١] ثنائية قطبية أساسية ثلاثة هي الثنائية القطبية للمركز والمحيط (الشمال-الجنوب). بموجب الاستقلال الخاص بكلّ بديهة، يمكن القول مع سمير أمين إنّ بديهيات المحيط ليست هي ذاتها بديهيات المركز^(١). وهنا أيضا، الفرق بين البديهيات واستقلالها لا يقوّضان البتّة قوام أكسيومية الكلّ. على التقيض من ذلك، الرأسمالية المركزية في حاجة إلى هذا المحيط المكوّن من العالم الثالث، الذي تقيم فيه جزء كبير من صناعتهما الأحدث، حيث لا تكتفي باستثمار رؤوس أموال، بل توفر له رأس المال. الآكد أنّ مسألة تبعيّة دول العالم الثالث بيّنة، لكنّها ليست هي الأهمّ (إنّها موروثه من الاستعمار القديم). من البين أنّه حتى استقلال البديهيات لم يضمن أبدا استقلال الدول، بل هو يؤمّن بالأحرى تقسيما دوليا للعمل. المسألة المهمة هنا أيضا هي مسألة التّشاكل بالنسبة إلى الأكسيومية العالمية. لكن ثمة إلى حدّ كبير تشاؤل بين الولايات المتحدة الأمريكية والاستبداديات الأكثر دموية في أمريكا الجنوبية (أو كذلك بين فرنسا، أنغلترا، جمهورية ألمانيا الفيدرالية وبعض الدول الإفريقيّة). غير أنّ ثنائية القطب مركز-محيط، دول

(١) راجع القائمة التّقدية لبديهيات المحيط من طرف سمير أمين: التّراكم على الضّعيد العالمي، صص ٣٧٣-٣٧٦.

المركز ودول العالم الثالث، مهما استعادت بدورها سمات مميزة من القطبيّات الثنائيّة السابقة، إلّا أنّها تفلت منها كذلك وتطرح مشكلات أخرى. ذلك أنه في قسم واسع من العالم الثالث، علاقة الإنتاج العامّة يمكن أن تكون هي رأس المال؛ وحتى في العالم الثالث بأكمله، بالمعنى الذي يمكن فيه للقطاع الذي أُسبغ عليه الطابع الاشتراكيّ استخدام هذه العلاقة، واستعادتها لحسابه الخاصّ في هذه الحالة. لكنّ نمط الإنتاج ليس بالضرورة نمط إنتاج رأسماليّ، ليس فقط في الأشكال المسماة أشكالاً عتيقة أو انتقاليّة، بل في القطاعات الأكثر إنتاجيّة وذات التّصنيع المرتفع. هي إذًا حالة ثالثة متضمّنة في الأكسيوميّة العالميّة: عندما يعمل رأس المال بوصفه علاقة إنتاج، لكن في أنماط إنتاج غير رأسماليّة. سنتحدّث إذًا عن تعدّد أشكال دول العالم الثالث بالنسبة إلى دول المركز. وذلك بُعد من أبعاد الأكسيوميّة ليس أقلّ ضرورة من الأبعاد الأخرى: بل لعلّه أكثرها ضرورة، ذلك أنّ تنافر أشكال الدّول المسماة دولاً اشتراكيّة وقع فرضه على الرأسماليّة التي تهضمه بصعوبة، بينما تعدّد أشكال دول العالم الثالث نظّمه المركز جزئيّاً، بوصفه بديهية تعويض للاستعمار. - نلتقي من جديد دائماً بالمسألة الحرفيّة لنماذج تحقيق أكسيوميّة عالميّة: تشاكّل النّماذج مبدئيّاً في دول المركز؛ [٥٨٢] تنافر الأشكال المفروض من قبل الدّولة الاشتراكيّة البيروقراطيّة؛ تعدّد الأشكال الذي نظّمته دول العالم الثالث. هنا أيضاً، قد يكون من العبث الاعتقاد أنّ إدراج الحركات الشعبيّة في كامل حقل المحايثة هذا محكوم عليه بالفشل مسبقاً، وأن نفترض، إمّا أنّه ثمة دول «جيدة» قد تكون ديمقراطيّة، ديمقراطيّة- اشتراكيّة، أو اشتراكيّة في الطّرف الآخر، أو أنه على التّقيض من ذلك كلّ الدّول تتساوى وهي متجانسة.

٤. الاقتدار/ القدرة/ القوّة. - لنفترض أنّ الأكسيوميّة تفرز بالضرورة قدرة أعلى من التي تعالجها، أي من قدرة المجموعات التي

هي بمثابة نماذج بالنسبة إليها. إنها بمثابة قدرة للمتصل، مقترنة بالأكسيومية، ومع ذلك تتخطاها. نتعرف على هذه القدرة مباشرة بوصفها قدرة تدمير، قدرة حرب، مجسدة في مركبات تكنولوجية عسكرية، صناعية ومالية، متصلة في ما بينها. من ناحية، تتبع الحرب بطبيعة الحال نفس حركة الرأسمالية: كما أنّ رأس المال القارّ ينمو تناسبيًا، تصبح الحرب بشكل متزايد «حرب معذات»، حيث لم يعد الإنسان يمثل حتّى رأس مال إخضاع متحوّل، بل عنصر استعباد مكنيّ محض. من ناحية أخرى وبشكل خاصّ، الأهميّة المتزايدة لرأس المال القارّ في الأكسيومية يجعل تقليص رأس المال الموجود وتكوين رأس مال جديد يتخذان إيقاعا ومدى يمرّان ضرورة بمكنة حرب مجسدة الآن في المركبات: تُشارك مكنة الحرب بفعاليّة في إعادات توزيع العالم التي تتطلبها استغلال الموارد البحرية والبريّة. ثمّة «عتبة» متواصلة للقدرة التي ترافق في كلّ مرّة نقل «حدود» الأكسيومية؛ كما لو أنّ قدرة الحرب كانت تأتي دائما لتُشبع تضافريًا إشباع المنظومة ولتشرطها. النزاعات الكلاسيكية بين دول المركز (واستعمار المحيط) انضاف إليها أو بالأحرى عوّضها خطّان كبيران متصارعان بين الغرب والشرق، بين الشمال والجنوب، يتقاطع أحدهما مع الآخر ويغطّيان الكلّ. لكن، ليس التسلّح المفرط للغرب وللشرق فقط هو الذي يترك واقع الحروب المحليّة يستمرّ، ويمنحها قوّة جديدة ورهانات جديدة؛ ليس هو فقط الذي يؤسّس الإمكانية «المروعة» لمواجهة مباشرة وفق المحورين الكبيرين؛ لكن يبدو كذلك أنّ مكنة الحرب تتخذ معنى إضافيًا مخصوصا، معنى صناعيًا، سياسيًا، قضائيًا، إلخ. صحيح أنّ الدّول في تاريخها لم تتوقّف عن تملّك مكنة الحرب؛ وفي نفس الوقت، الحرب في إعدادها وتنفيذها، كانت أصبحت الموضوع الحصريّ [٥٨٣] للمكنة، لكن بوصفها حربا «محدودة» نسبيًا. أمّا الهدف، فقد ظلّ الهدف السّياسي للدّول. العوامل المختلفة التي سعت إلى أن تجعل

من الحرب حرباً «شاملة»، وخاصّة العامل الفاشستيّ، عيّنت بداية قلب الحركة: وكأنّ الدّول، بعد فترة تَمَلُّك طويلة، كانت أعادت تكوين مكنة حرب قائمة بذاتها، من خلال الحرب التي كانت شتّتها هذه الدّول بعضها ضدّ بعضها الآخر. لكن مكنة الحرب المحرّرة هذه أو الطّليقة كانت واصلت اتّخاذ الحرب الفعلية موضوعاً لها، من حيث أنّها أضحت حرباً شاملة، غير محدودة. كلّ الاقتصاد الفاشستيّ أصبح اقتصاد حرب، لكنّ اقتصاد الحرب كان ما يزال في حاجة للحرب الشّاملة من حيث هي موضوع. حينئذ، كانت الحرب الفاشستية بقيت في حمى عبارة كلاوزفيتس، «مواصلّة السّياسة بمصاحبة وسائل أخرى»، مع أنّ هذه الوسائل الأخرى أصبحت حصريّة، أو أنّ الهدف السّياسيّ دخل في تناقض مع الموضوع (من هنا فكرة فريليو كون الدّولة الفاشستية كانت دولة «انتحارية» أكثر من كونها دولة كليانية). تالية ثمّ أتمتة مكنة الحرب، لم يتجأ مفعولهما الحقيقيّ إلّا بعد الحرب العالميّة الثانية. مكنة الحرب، نظراً للصراعات الجديدة التي كانت تخرقها، لم تعد الحرب هي موضوعها الحصريّ، لكنّها كانت تضطلع بالسّلم، بالسّياسة، بالنّظام العالميّ، باختصار، بالهدف، وتتخذ منها موضوعاً لها. ههنا يظهر قلب عبارة كلاوزفيتز: السّياسة هي التي تصبح مواصلّة للحرب، السّلم هي التي تحرّر تقنيّاً السّيرورة الماديّة الّلا محدودة للحرب الشّاملة. تتوقّف الحرب عن كونها تجسيدا لمكنة الحرب، مكنة الحرب هي ذاتها التي تصبح حرباً مجسّدة. بهذا المعنى، لم تعد هناك حاجة للفاشستية. الفاشستيون لم يكونوا إلّا أطفالاً مبشّرين، والسّلم المطلقة للحفاظ على البقاء كانت نجحت في ما أخفقت فيه الحرب الشّاملة. كنّا بالفعل في الحرب العالميّة الثّالثة. مكنة الحرب كانت تسود كامل الأكسيوميّة بوصفها قدرة المتّصل التي تحيط بال«اقتصاد-العالم»، وكانت تصل بين كلّ أجزاء الكون. كان العالم أصبح من جديد فضاء أملس (البحر والهواء والجوّ) حيث كانت تسود

نفس مكنة الحرب الواحدة، حتى عندما تُعارض بين أجزائها الخاصة. كانت الحروب أصبحت أجزاء من السّلم. أكثر من ذلك، لم تعد الدّول تتملّك مكنة الحرب، إنّها كانت تعيد تكوين مكنة حرب لم تعد هي ذاتها إلّا أجزاءها. - من بين كلّ الكتاب الذين طوّروا معنى رؤيويًا أو انتظاريًا، يعود إلى فريليو كونه أكّد على خمس نقاط صارمة: كيف أنّ مكنة الحرب كانت وجدت موضوعها الجديد في السّلم المطلقة للرّعب أو للرّدع؛ كيف كانت تُجري «رسملة» تقنيّة - علميّة؛ كيف لم تكن مكنة الحرب هذه [٥٨٤] مرعبة وفق الحرب الممكنة التي كانت تعدنا بها كما في صيغة ابتزاز، بل على النّقيض من ذلك وفق السّلم الفعلية الخاصة جدّا التي كانت تعزّزها وتثبتها بالفعل؛ كيف أنّ مكنة الحرب هذه لم تعد في حاجة إلى عدوّ محدّد، بل كانت تعمل، طبقًا لمتطلّبات أكسيوميّة، ضدّ الـ«عدوّ أيّا كان»، سواء كان داخليًا أو خارجيًا (فرد، مجموعة، طبقة، شعب، حدث، عالم)؛ كيف كان يصدر عنها تصوّر جديد للأمن بوصفه حربًا مجسّدة، بوصفه خطرًا منظّمًا أو كارثة مبرمجة، موزّعة، مهينة^(١).

مكتبة

t.me/soramnqraa

(١) بول فريليو، انعدام أمن الإقليم؛ السرعة والسياسة؛ الدّفاع الشعبي والصّراعات الإيكولوجيّة: تجد مكنة الحرب موضوعها الكامل تحديدًا في ما وراء الفاشستيّة والحرب الشّاملة، في ما تنذر به سيلم الرّدع التّووي. ههنا يتخذ قلب عبارة كلاوزفيتس معنى عينيًا، في نفس الوقت الذي تنحو فيه الدّولة السياسيّة إلى الاضمحلال وتستحوذ فيه مكنة الحرب على أقصى ما يكون من الوظائف المدنيّة («وضع المجتمع المدنيّ بكامله تحت نظام الأمن العسكريّ»، «نزع أهليّة مجموع سكّان المعمورة بتجريد الشعوب من صفتهم سكّان»، «محو التّمييز بين زمن الحرب وزمن السّلم (...): راجع دور وسائل الإعلام بهذا الخصوص). مثال بسيط قد يوقّره بعض رجال الأمن الأوروبيين عندما يطالبون بحقّ «إطلاق النّار مباشرة على الهدف»: إنهم يتوقّفون عن كونهم دولابا في جهاز الدّولة ليصبحوا قُطع مكنة حرب.

٥. الثالث المتضمن. - أن تكون الأكسيوميّة الرأسماليّة في حاجة إلى مركز، وأن يكون هذا المركز قد تكوّن في الشّمال عقب سيرورة تاريخيّة طويلة، لا أحد يبيّن ذلك بأفضل ممّا بيّنه برودال: «لا يمكن أن يكون ثمة اقتصاد-عالم إلّا عندما تكون للشّبكة عيون ضيّقة كفاية، عندما يكون التّبادل منتظما وضخما بما يكفي لتوليد منطقة مركزيّة^(١)». يعتبر الكثير من الكتاب بهذا الخصوص أنّ المحور شمال-جنوب، مركز-محيط، هو اليوم أكثر أهميّة من المحور غرب-شرق، بل ويحدّده رئيسيّا. ذلك هو ما تعبّر عنه أطروحة رائجة، استعاضها وطوّرها جيسكار ديستان: بقدر ما تتوازن الأشياء في المركز بين الغرب والشرق، بدءا بتوازن التسلّح المفرط، بقدر ما ينخرم توازنها أو «تزعزع» من الشّمال إلى الجنوب، وتُزعزع التّوازن المركزيّ. من الواضح أنّ الجنوب في هذه العبارات هو لفظ مجرد يشير إلى العالم الثالث أو إلى المحيط؛ وثمة حتى جنائب أو [٥٨٥] عوالم ثالثة في المركز. من الواضح أيضا أنّ هذا التّزعزع ليس عرضيّاً، بل هو نتيجة (مُبرهنيّة) لبديهيّات الرأسماليّة، ورئيسيّاً للبديهيّة المسمّاة بديهيّة التّبادل اللّا متكافئ، الضّروريّ لاشتغالها. هذه العبارة هي أيضا الصّيغة الحديثة لأقدم عبارة تصلح بالفعل للإمبراطوريّات العتيقة في ظلّ ظروف أخرى. بقدر ما كانت الإمبراطوريّات العتيقة تقنّن الاندفاعات تضاferيّاً، بقدر ما كانت تستثير اندفاعات لا مقنّنة كانت تنقلب ضدها وكانت تجبرها على التغيّر.

(١) يبيّن برودال كيف أنّ مركز الثقل هذا سيتكوّن في شمال أوروبا، لكن في نهاية حركات، تُسبق أو تُنافس منذ القرنين التاسع والعاشر، الفضاءات الشّماليّة والجنوبيّة لأروبا (لا يختلط هذا المشكل مع مشكل الصّورة-مدينة والصّورة-دولة، لكنّه يتقاطع معه). راجع «ولادة اقتصاد-عالم»، في كُون، I، سبتمبر ١٩٧٩.

الآن، بقدر ما تدخل الاندفاعات اللا مقننة في أكسيومية مركزية، بقدر ما تنحو إلى الإفلات من المحيط، وإلى وضع مشكلات لا تقدر الأكسيومية على حلّها أو على مراقبتها (حتى مع البديهيات الخاصة التي تضيفها إلى هذا المحيط). - الاندفاعات الرئيسية الأربعة التي تضايق ممثلي الاقتصاد- عالم أو ممثلي الأكسيومية هي: اندفاق المادّة- الطّاقة، اندفاع السّكّان، الاندفاق الغذائيّ والاندفاق الحضريّ. تبدو الوضعية معقّدة لأنّ الأكسيومية لا تفتأ تخلق جملة هذه المشكلات، في نفس الوقت الذي تسحب فيه منها بديهياتها حتى وهي مضاعفة، وسائل حلّها (على سبيل المثال، التّرويج والتّوزيع اللّذان قد يمكّنان من تغذية العالم). حتّى ديمقراطية- اشتراكية ملائمة للعالم الثّالث لا تعتزم بكلّ تأكيد إدماج مجموعة سكّانية معدّمة بأكملها في سوق داخلية، بل بالأحرى القيام بقطيعة طبقيّة ستنتقي العناصر التي لا تقبل الإدماج. ودول المركز لا تتعامل مع العالم الثّالث وحسب، ليس لكلّ واحدة منها عالم ثالث خارجيّ وحسب، بل ثمة عوالم ثالثة داخلية متصاعدة فيها وتعرّكها من الدّاخل. قد نقول حتّى من بعض النّواحي إنّ المحيط والمركز يتبادلان تحديداتهما: لا أرضنة المركز، لا تقنين المركز بالنّسبة إلى المجموعات الإقليميّة والقوميّة، يجعل التّشكيلات المحيطيّة تصبح مراكز استثمار حقيقيّة، بينما تصبح التّشكيلات المركزيّة محيطيّة. ذلك هو ما يعزّز أطروحات سمير أمين وينسبها في نفس الوقت. بقدر ما تقيم الأكسيومية العالميّة في المحيط صناعة متطوّرة وفلاحة مصنّعة تصنيعا عاليّا، محتفظة مؤقتا للمركز بالأنشطة المسمّاة ما بعد صناعة (أتمتة، إلكترونيك، إعلاميّة، غزو الفضاء، تسلّح مفرط...)، بقدر ما تقيم في المركز أيضا مناطق محيطيّة للتّخلف، عوالم ثالثة داخلية، جنائب داخلية. يعود إلى مفكّرين مثل نغري، انطلاقا من الحالة النّموذجيّة لإيطاليا، كونه وضع نظريّة لهذا الهامش الدّاخليّ، [٥٨٦]

الذي يتجه بشكل متزايد إلى صهر الطلبة مع المهمّشين^(١). تؤكد هذه الظواهر الفرق بين الاستعباد المكنّي الجديد والإخضاع الكلاسيكي. ذلك أنّ الإخضاع كان بقي مُركّزا على العمل وكان يحيل على تنظيم ثنائي القطب، ملكيّة- عمل، بورجوازيّة- بروليتاريا. بينما في الاستعباد والسيطرة المركزيّة لرأس المال القارّ، يبدو أنّ العمل انفجر في اتجاهين: اتجاه فائض العمل المكثّف الذي لم يعد يمرّ حتى بالعمل، واتّجاه عمل امتداديّ أصبح هشا ومتذبذبا. الاتّجاه الكليانيّ للتخلّي عن بديهيات العمل، والاتّجاه الديمقراطيّ- الاشتراكيّ إلى مضاعفة الوضعيات، يمكن التّوليف بينهما هنا، لكن دائما من أجل إجراء القطيعات الطبقيّة. يتزايد تسارع التّعارض بين الأكسيوميّة والاندفاعات التي لا تتمكّن من التّحكّم بها.

٦. أقلّيات. - يصبح عصرنا عصر الأقلّيات. لقد رأينا في العديد من المرّات أنّ الأقلّيات لم تكن تتحدّد ضرورة بقلّة العدد، بل بالتّصيّر أو الطّفو، أي بالفارق الذي يفصلها عن هذه البديهيّة أو تلك التي تشكّل أكثرية ترداديّة («أوليس أو الأوروبيّ المتوسّط الحاليّ، قاطن المدن»، أو كذلك مثلما يقول يان مونيه، «العامل القوميّ، المختصّ،

(١) تشكّلت حركة بحث ماركسيّة انطلاقا من تونتي (عمّال ورأس مال، منشورات بورغوا)، ثم حركة القيمومة الإيطالية وأنطونيو نغري، لتحليل أشكال العمل الجديدة والصّراع ضدّ العمل. كان الأمر يتعلّق في نفس الوقت ببيان: (١) أنّ تلك ليست ظاهرة عرضيّة أو «هامشيّة» بالنّسبة إلى الرّأسماليّة، بل هي أساسيّة بالنّسبة إلى تكوين رأس المال (نموّ تناسبيّ لرأس المال القارّ؟) (٢) لكنّ هذه الظاهرة تولّد كذلك ضربا جديدا من الصّراعات العماليّة، الشّعبية، الإثنيّة، العالميّة وفي كل الميادين. راجع أنطونيو نغري، في الكثير من المواضع، وخاصّة في ماركس في ما أبعد من ماركس؛ كارل هاينز روث، الحركة العماليّة الأخرى في ألمانيا، منشورات بورغوا؛ والأعمال الحاليّة في فرنسا ليان موليه، ألان ودانيال غيارم، بنيامين كوريات، إلخ.

ذَكَرَ ويتجاوز سنّ الخامسة الثلاثين)). أقلّية يمكن ألا تشمل غير عدد قليل؛ لكن يمكنها أن تشمل أيضا العدد الأكبر، أن تُكوّن أغلبيّة مطلقة، غير محدّدة. ذلك هو ما يحدث عندما يتبنّى مؤلّفون، حتى وإن كانوا ينتمون إلى اليسار، صرخة الفزع الرأسماليّة الكبرى: في غضون عشرين سنة، لن يكوّن «البيض» غير ١٢٪ من مجموع سكّان العالم... إنهم لا يكتفون على هذا التحوّل بالقول إنّ الأغلبيّة ستتغيّر، أو هي تغيّرت بالفعل، بل هي معروكة بالأحرى بأقلّية متكاثرة ولا حصر لها. توشك أن تقوّض الأغلبيّة في مفهومها ذاته، أي من حيث هي بديهيّة. وبالفعل لا يشكّل المفهوم العجيب لغير-البيض مجموعة قابلة للعدّ. ما يعرف الأقلّية إذاً ليس هو العدد، إنّها العلاقات داخل العدد. أقلّية [٥٨٧] يمكن أن تكون كثيرة العدد أو حتّى لا متناهية؛ كذلك أغلبيّة. ما يميّز بينهما هو أنّ العلاقة الدّاخلية للعدد تشكّل في حالة أغلبيّة مجموعة، متناهية أو غير متناهية، لكنّها قابلة دوما للعدّ، بينما يقع تعريف الأقلّية بوصفها مجموعة غير قابلة للعدّ، أيّا كان عدد عناصرها. ما يميّز ما لا يقبل العدّ، لا هي المجموعة ولا هي العناصر؛ بل هو بالأحرى الوصل، الـ«و»، التي تحدث بين العناصر، بين المجموعات، والتي لا تنتمي لأيّ منها، تفرّ منها وتكوّن خطّ إفلات. لكنّ الأكسيوميّة لا تحرّك إلّا مجموعات قابلة للعدّ، حتى وإن كانت لا متناهية، بينما تشكّل الأقلّيات هذه المجموعات «الضّبابيّة» غير القابلة للعدّ، غير القابلة للأكّسمة، باختصار، هذه «الكتل»، هذه الكثرات التي هي كثرات إفلات أو اندفاق. سواء كانت المجموعة اللا متناهية لغير-بيض المحيط، أو المجموعة المحدودة للباسكيّين، للكورسيكيّين، إلخ.، نرى في كلّ مكان مقدّمات حركة عالميّة: تعيد الأقلّيات خلق ظاهرات «وطنيّة» كانت الدّول-الأمم أخذت على عاتقها مراقبتها وإخمادها. الآكد أنّ القطاع الاشتراكيّ البيروقراطيّ لم يسلم من هذه الحركات، ومثلما كان يقول أمليّك، المنشقّون لا

يمثّلون شيئا، أو يُستعملون فقط كبيادق في السّياسة الدّولية، إذا سحباهم من الأقليّات التي تفعل فعلها في الاتحاد السوفييتيّ. ليس مهمّا أن تكون الأقليّات عاجزة عن تكوين دول قابلة للحياة من وجهة نظر الأكسيوميّة والسّوق، بما أنّها تحرّك على المدى الطّويل تكوينات لم تعد تمرّ بالاقتصاد الرّأسماليّ أكثر من مرورها بالصّورة- الدّولة. بالتّأكيد، ردّ فعل الدّول أو الأكسيوميّة يمكن أن يكون منح الأقليّات استقلاليّة محليّة أو فيدراليّة، أو قانونيّة، باختصار إضافة بديهيّات. لكن ليست تلك هي المشكلة تحديدا: قد لا تكون ثمة هنا غير عمليّة تتمثّل في ترجمة الأقليّات إلى مجموعات أو إلى مجموعات فرعيّة قابلة للعدّ، قد تدخل بوصفها عناصر صُلب الأغليبيّة، قد يمكن عدّها صلب أغليبيّة ما. كذلك وضع قانونيّ للنساء، وضع قانونيّ للشّباب، وضع قانونيّ للعمّال غير القارّين... إلخ. يمكن حتّى أن نتصوّر في الأزمة والدّم قلبا أشدّ جذريّة قد يجعل من العالم الأبيض محيطا لمركز أصفر؛ قد تكون تلك ولا ريب أكسيوميّة مغايرة تماما. لكنّنا نتحدّث عن شيء آخر، قد لا يكون له مع ذلك حلّ: النّساء، الذين ليسوا رجالا، من حيث هم قلة، من حيث هم دفع أو مجموعة غير قابلة للعدّ، قد لا يتلقّون أيّ تعبير ملائم بتحوّلهم إلى عناصر للأغليبيّة، أي إلى مجموعة متناهية قابلة للعدّ. غير البيّض قد لا يتلقّون أيّ تعبير ملائم بتحوّلهم إلى أغليبيّة جديدة، صفراء، سوداء، مجموعة لا متناهية قابلة للعدّ. خاصّة الأقلّيّة هي أن تؤكّد قدرة ما لا يقبل العدّ، حتّى وإن كانت متكوّنة من [٥٨٨] من عنصر واحد. إنّها صيغة الكثرات. الأقلّيّة بوصفها شكلا كليّا، أو هي التّصير كلّ النّاس. امرأة، علينا أن نكونها جميعا، سواء كنّا ذكورا أو إناثا. غير- أبيض، علينا أن نكونه جميعا، سواء كنّا بيضا، صُفرا أو سودا. - هنا أيضا، ذلك لا يعني أنّ الصّراع في مستوى البديهيّات لا أهميّة له؛ بل على النّقيض من ذلك هو محدّد (في أكثر المستويات اختلافا، صراع النّساء من أجل الاقتراع، من أجل

الإجهاض، من أجل الشَّغل؛ صراع المناطق من أجل الاستقلال؛ صراع العالم الثالث؛ صراع الجماهير والأقليات المقموعة في مناطق الشرق أو الغرب...). لكن ثمة دوماً كذلك علامة لبيان أن هذه الصِّراعات هي مؤشِّر على معركة مزامنة لها. مطالبة مهما كانت متواضعة فإنَّها تمثِّل دائماً نقطة لا يمكن للأكسيومية تحمُّلها، عندما يطالب النَّاس بطرح مشكلاتهم الخاصَّة بذواتهم، وعلى الأقلِّ بتحديد الشُّروط الخاصَّة التي يمكن وفقها إيجاد حلٍّ أعمَّ لها (التَّمسُّك بالخاصِّ بوصفه صورة مجدِّدة). نندھش دائماً لتكرار نفس الحكاية: تواضُّع مطالبات الأقليات، في البداية، مقترنة بعجز الأكسيومية على حلٍّ أدنى مشكل مطابق لها. باختصار، الصِّراع حول البديهيَّات يكون أكثر أهميَّة بقدر ما يُظهر ويحفِر هو ذاته الفرق بين ضريئ من القضايا، قضايا الاندفاق وقضايا البديهيَّات. قدرة الأقليات لا تقاس بمقدرتها على الدَّخول في المنظومة الأغلبية وفرض ذاتها عليها، ولا حتَّى بقلب مقياس الأغليبة الذي هو بالضرورة من تحصيل الحاصل، إنَّما بتأكيد قوَّة المجموعات التي لا تقبل العدَّ، مهما كانت تلك المجموعات صغيرة، ضدَّ قوَّة المجموعات القابلة للعدِّ، حتَّى وإن كانت لا متناهية، حتَّى وإن تمَّ قلبها أو تغييرها، حتَّى وهي تتضمَّن بديهيَّات جديدة، أو أكثر من ذلك، أكسيومية جديدة. ليست المسألة على الإطلاق مسألة الأناركية أو التنظيم، ولا حتَّى مسألة المركزيَّة واللا مركزيَّة، بل مسألة حسابٍ أو تصوُّرٍ للمشكلات التي تخصُّ المجموعات غير القابلة للعدِّ، ضدَّ أكسيومية للمجموعات القابلة للعدِّ. لكنَّ هذا الحساب يمكن أن تكون له تركيباته، تنظيماته، وحتَّى تمرکزاته، فإنَّه لا يمرُّ بطريق الدَّول ولا بضرورة الأكسيومية، بل بتصرُّر الأقليات.

٧. القضايا غير القابلة للحسم. - سيقع الاعتراض بالقول إنَّ الأكسيومية تفرز هي ذاتها قدرة مجموعة لا متناهية غير قابلة للعدِّ:

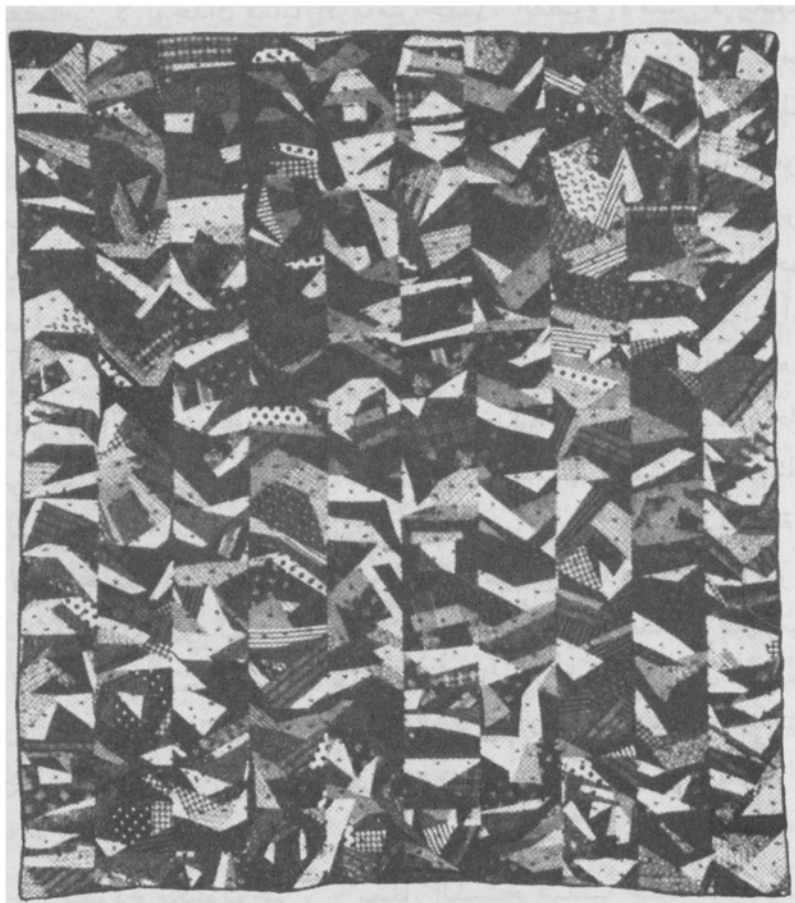
تحديدا مجموعة مكنة حربها . مع ذلك يبدو من العسير تطبيق ذلك على «التعامل» العام مع الأقليات دون إثارة الحرب المطلقة التي يُفترض في مكنة الحرب تحاشيها . كذلك هل رأينا مكنة حرب تباشر سيرورات كمية أو [٥٨٩] كيفية، ضروب تصغير وتكييف تجعلها قادرة على تدرّج هجوماتها أو ردودها في كلّ مرّة وفق طبيعة «العدوّ أيّا كان» (أفراد، جماعات، شعوب...) . لكن في ظلّ هذه الظروف، لا تفتأ الأكسيومية الرأسمالية تنتج وتعيد إنتاج ما تحاول مكنة حربها إبادته . حتى تنظيم المجاعة يضاعف عدد الجياع بقدر ما يقتلهم . حتى تنظيم المحتشدات الذي تميّز به القطاع «الاشتراكيّ» بشكل فظيع، لا يكفل الحلّ الجذريّ الذي يحلم به الاقتدار . إبادة أقلّية تولّد أيضا أقلّية لهذه الأقلّية . رغم استمرار المجازر، من العسير نسبيا القضاء على شعب أو مجموعة، حتّى في العالم الثالث، مذكّرنا ما يكفي من الارتباطات مع عناصر من الأكسيومية . من نواحي أخرى كذلك، يمكن التكهّن بأنّ المشكلات المقبلة للاقتصاد المتمثلة في إعادة تشكيل رأس مال في علاقة بموارد جديدة (البتروال البحريّ، العقيدات المعدنية، الموادّ الغذائية) لن تتطلب فقط إعادة توزيع العالم الذي سيجنّد مكنة الحرب العالمية وسيواجه بأجزائها الأهداف الجديدة؛ ومن المحتمل أنّنا سنواكب كذلك تشكيل أو إعادة تشكيل مجموعاتٍ أقلّية في علاقة بالمناطق المعنية . - بكيفية عامّة، لا تقبل الأقليات فضلا عن ذلك حلّا لمشكلها بواسطة الإدماج، حتى مع بديهيات، قوانين، تحرّرات، استقلاليّات . تكتيكها يمرّ حتما من هناك . لكن إذا كانت ثوريّة، فلأنّها تحمل حركة أعمق تدحض الأكسيومية العالمية . قدرة الأقلّية، قدرة الخصوصية، تجد صورتها أو وعيها الكلّي في البروليتاريّ . لكن طالما يقع تعريف الطبقة العاملة بمنزلة مكتسبة أو حتّى بدولة مكتسبة نظريّا، فإنّها تظهر فقط بوصفها «رأس مال»، جزء من رأس المال (رأس مال متحوّل)، ولا تخرج من مسطّح رأس المال . في أقصى الحالات يصبح المسطّح بيروقراطيّا .

بالمقابل، بالخروج من مسطح رأس المال، بعدم التوقف عن الخروج منه، تصبح كتلة ما كتلة ثورية باستمرار وتحطم التوازن المهيمن للمجموعات القابلة للعد^(١). لا نفهم جيّدا ما قد تكونه دولة - أمازون، دولة [٥٩٠] نساء، أو كذلك دولة العمال غير القارين، دولة «الرفض». إذا كانت الأقليات لا تكون دولا قابلة للحياة ثقافيا، سياسيا، اقتصاديا، فلأنها لا تلائمها لا الصورة - الدولة، لا أكسيومية رأس المال، لا الثقافة المناظرة لها. لقد رأينا في الكثير من الأحيان أنّ الرأسمالية تدعم دولا غير قابلة للحياة وتنظمها، وفق احتياجاتها، وتحديدًا من أجل سحق الأقليات. كذلك مسألة الأقليات هي بالأحرى مسألة تقويض مكنة الحرب الرأسمالية، إعادة تعريف الاشتراكية، تكوين مكنة حرب قادرة على مواجهة مكنة الحرب العالمية بوسائل أخرى. - إذا لم يبدو حلّا الإبادة والإدماج ممكنين إطلاقا، فذلك بموجب قانون الرأسمالية الأعماق: إنها لا تفتأ تضع حدودها وتؤخرها، لكنها لا تقوم بذلك إلّا وهي تشير هي ذاتها الكثير من الاندفاعات في كلّ الاتجاهات، اندفاعات تفلت من أكسيوميتها. إنها لا تتم في المجموعات القابلة للعد التي تستخدمها نماذج دون أن تكون مباشرة مجموعات غير قابلة للعد تحترق تلك النماذج وتقلبها. إنها لا تقوم بـ«مزاوجة» الاندفاعات اللا مقننة واللا متأرضنة من دون أن تذهب الاندفاعات إلى ما أبعد، من دون أن تفلت من الأكسيومية التي تزواج بينها إفلاتها من النماذج التي تعيد أرضنتها، من دون أن تسعى إلى الدّخول في «روابط» ترسم أرضا

(١) تلك واحدة من الأطروحات الأساسية لثرونتي الذي حدّد التّصوّرات الجديدة للـ«عامل- الكتلة» وللعلاقة بالعمل: «لمواجهة رأس المال، على الطبقة العمالية أن تواجه ذاتها من حيث هي رأس مال؛ تلك هي المرحلة القصوى للتناقض، ليس للعمال بل لأصحاب رأس المال. (...) يبدأ مسطح رأس المال بالتراجع، ليس بوصفه تطوّرا اجتماعيا، بل بوصفه سيرورة ثورية.» راجع عمال ورأس مال، ص ٣٢٢؛ وما أسماه نغري أزمة الدولة - المخطّط، منشورات فلترنيلي.

جديدة، تكون مكنة حرب لم يعد هدفها لا حرب الإبادة ولا سِلم الرّعب المعمّم، بل الحركة الثّوريّة (الرّبط بين الاندفاعات، تكوين مجموعات غير قابلة للعدّ، تصوّر الجميع - أقلّيًا). ذلك ليس تشبّهًا أو تفتيتًا: نعثر بالأحرى من جديد على تعارضٍ مسطّحٍ قوام مع مسطّح تنظيم وتطوّر رأس المال، أو مع المسطّح الاشتراكيّ البيروقراطيّ. بنائيّة، «مِياييّة»، تعمل في كلّ حالة بواسطة تحديد شروط المشكل، وبواسطة روابط عرضانيّة للمشكلات في ما بينها: إنّها تتعارض مع أتمّة البديهيّات الرّأسماليّة كما مع البرمجة البيروقراطيّة. بهذا المعنى، ما نسمّيه «قضايا غير قابلة للحسم»، ليس هو عدم يقين النتائج الذي تتضمّنه حتما كلّ منظومة. هو على النقيض من ذلك تزامن وتلازم ما تزوجه المنظومة، والذي لا يفتأ يفلت منها وفق خطوط إفلات هي ذاتها قابلة للتّرابط. ما لا يقبل الحسم هو بامتياز بذرة وموضع القرارات الثّوريّة. يحدث أن نستدعي التكنولوجيا المتطوّرة للنّظام العالميّ للاستعباد؛ لكن حتى وإن كان هذا الاستعباد المكنيّ يزخر بقضايا وحركات غير قابلة للحسم، أو يزخر بها بشكل خاص، فإنّها لا تحيل على معرفة أخصائيّين محلّفين، بقدر ما تمنح الكثير من الأسلحة لتصوّر الجميع، التّصوّر - مدياعا، التّصوّر - ألكترونيّا، [٥٩١] التّصوّر - هبائيّا...^(١). ليس ثمة صراع لا يتمّ من خلال كلّ هذه القضايا غير القابلة للحسم، وليس ثمة صراع لا يبني روابط ثوريّة ضدّ تصرفات الأكسيوميّة.

(١) إنّّه مظهر آخر من مظاهر الوضع الحاليّ: لم يعد هو الصراعات الجديدة المرتبطة بالعمل وبطوّر العمل، بل كامل مجال ما نسمّيه «الممارسات البديلة» وبناء مثل هذه الممارسات (الإذاعات الخاصّة قد تكون هي المثال الأبسط، لكن الشبكات الجماعيّة الحضريّة، هي البديل عن الطّبّ النفسيّ، إلخ...). حول كلّ هذه النّقاط، والعلاقة بين المظهرين، راجع فرانكو براردي بيفو، أخيرا سقطت السّماء على الأرض، منشورات سوي؛ والمحرضون، منشورات بحوث.



لحاف مزركش

الفضاء الأملس والفضاء المخدّد، - الفضاء المترحل والفضاء
المستقرّ، - الفضاء الذي تنمو فيه مكنة الحرب والفضاء الذي يقيمه

جهاز الدولة - هذه الفضاءات ليست من طبيعة واحدة. لكن يمكننا تارة أن نعيّن تعارضاً بسيطاً بين هذين [٥٩٣] النوعين من الفضاءات. وتارة ينبغي أن نشير إلى فرّق أكثر تعقيداً، بحيث يجعل أطراف التعارض المتلاحقة غير متطابقة بالتّمام. وعلينا أن نذكّر أيضاً تارة أخرى أنّ الفضاءين لا يوجدان فعليّاً إلّا بامتزاجهما: الفضاء الأملس لا يكفّ عن التحوّل والانصباب في فضاء مخدّد؛ الفضاء المخدّد يعاد صبه دوماً وردّه إلى فضاء أملس. في حالة ما ننظّم حتى الصّحراء؛ في الحالة الأخرى تغلب الصّحراء وتتّسع؛ والاثنان معاً. غير أنّ الامتزاجات من حيث الواقع لا تمنع التمييز من حيث الحقّ، التمييز المجرّد بين الفضاءين. لهذا السّبب بالذّات لا يتّصلان في ما بينهما على النحو نفسه. إنّ التمييز من حيث الحق هو الذي يعيّن أشكال هذا الامتزاج أو ذاك من حيث الواقع، وأشكال معنى هذا الامتزاج (أهو فضاء أملس هو الذي تمّ الاستيلاء عليه وقد زملّه فضاء مخدّد، أهو فضاء مخدّد ينحلّ في فضاء أملس ويفسح المجال لتطوّره؟). هناك إذاً جملة من الأسئلة المتزامنة: التّعارضات البسيطة بين الفضاءين؛ الفروق المعقّدة؛ الامتزاجات من حيث الواقع، والانتقالات من أحدهما إلى الآخر؛ علل الامتزاج التي ليست البتة عللاً متناظرة، والتي تجعلنا نمّر تارة من الأملس إلى المخدّد، وتارة من المخدّد إلى الأملس بحركات مختلفة تمام الاختلاف. ينبغي التفكير إذاً في عدد معيّن من النماذج التي قد تكون بمثابة وجوه متقلّبة للفضاءين ولما بينهما من روابط.

نموذج تكنولوجيّ. - يمثل النسيج مبدئياً عدداً معيّناً من الخصائص التي تسمح بتعريفه بوصفه فضاء مخدّداً. هو مكوّن أولاً من صنفين من العناصر المتوازية أبسط تواز، بعضها عموديّ وبعضها الآخر أفقيّ، والاثنان يتقاطعان ويلتقيان تعامديّاً. في المقام الثاني، صنفاً العناصر ليس لهما نفس الوظيفة؛ بعض العناصر ثابتة والعناصر

الأخرى متحرّكة، تمرّ فوق العناصر الثابتة وتحتها. درس لوروا غوران (Leroi-Gourhan) هذا الشّكل من «الموادّ الصّلبة اللّينة» في حالة صناعة السّلال كما في حالة الحياكة: الرّكائز والأشرطة، السّداة والنّير^(١). في المقام الثالث، مثل هذا الفضاء المخدّد هو بالضرورة فضاء محدّد ومغلق من جهة على الأقلّ: يمكن أن يكون النسيج لامتناهيا طولا لكنه ليس كذلك على العرض المحدّد بإطار السّداة، ضرورة الدّهّاب والإياب تستتبع فضاء مغلقا (والأشكال الدّائرية أو الأسطوانية هي ذاتها مغلقة). في الأخير، يبدو فعلا أنّ مثل هذا الفضاء يقدّم حتما قفّا ووجها؛ حتى إذا كانت خيوط السّداة وخيوط [٥٩٤] النّير لهما بالضبط نفس الطبيعة، نفس العدد ونفس الكثافة، فإنّ النسيج يعيد بناء قفّا محوّلًا الخيوط المعقودة إلى جهة واحدة. أليس تبعا لكلّ هذه الخصائص أمكن لأفلاطون أن يتخذ من نموذج الحياكة مثالا لل«علم الملكيّ»، أي لفنّ حكم الناس أو لممارسة جهاز الدّولة؟ لكن، من بين منتجات الموادّ الصلبة اللّينة، ثمة اللّبّد الذي يعمل بشكل مغاير تماما بوصفه قماشًا مضادًا. إنه لا يتضمّن أيّ تخليص وأيّ تقاطع للخيوط، وإنما تداخل للألياف وحسب، تداخلا ناتجا عن الدّعك (على سبيل المثال لفّ كتلة الألياف بالتناوب إلى الأمام وإلى الخلف). إنها القشور المجهرية للألياف هي التي تتداخل. مثل هذا المجموع من التشابك ليس متجانسا: مع ذلك هو أملس ويتعارض كليا مع فضاء النسيج (إنه لا متناه من حيث الحقّ، مفتوح أو لا حدّ له في كلّ الاتجاهات؛ لا قفّا ولا وجه ولا مركز له؛ لا يعيّن لا ثابتات ولا متحرّكات، لكنه يوزّع بالأحرى تنوعا متواصلا). بيد أنّه حتى

(١) لوروا-غوران، الإنسان والمادّة، ألبن ميشال، ص ٢٤٤ وما بعدها (والتعارض بين القماش واللّبّد). Leroi-Gourhan, *L'homme et la matière*, Albin.

Michel, p. 244 sq. (et l'opposition du tissu et du feutre).

التكنولوجيين الذين يشكّون كثيرا في قدرة المترحلين على التجديد يعترفون لهم على الأقلّ باللّب: إنه عازل رائع، ابتكار عبقرى، مادة للخيمة واللباس والدّرع عند الأتراك- المغول. ودون شكّ، مترحلو إفريقيا والمغرب يعالجون الصوف بالأحرى بوصفه نسيجا. لكن حتى لو حوّلنا التّقابل ألن نجد تصوّرين وحتى ممارستين مختلفتين جدّا للحياكة، يختلفان نسبيا اختلاف النسيج ذاته عند اللّب؟ ذلك أنه عند المقيم، النسيج- الثياب والنسيج- البساط يميلان تارة إلى إلحاق الجسد وتارة أخرى إلى إلحاق الفضاء الخارجى بالمنزل الثابت: يدمج النسيجُ الجسدَ والخارجَ في فضاء مغلق. بينما المترحل وهو ينسج يربط الثياب والمنزل بفضاء الخارج، بالفضاء الأملس المفتوح الذي يتحرّك فيه الجسد.

ثمّة الكثير من التطويقات والاختلاطات بين اللّب والقماش. ألا يسعنا أن نحول التّقابل مرّة أخرى؟ على سبيل المثال، الإبر تخطّ فضاء محدّدا، إحدى الإبر تقوم بدور السّداة والأخرى بدور الثّير، مع أنّ ذلك يتمّ بالتّعاقب. بينما نسيج الصّنارة المعقوفة يخطّ فضاء مفتوحا في كلّ الاتجاهات وقابلا للتمديد في كلّ الجهات، مع أنّ هذا الفضاء ما يزال له مركز. لكن التمييز الأهمّ قد يكون بين التطريز مع موضوعه أو فكرته الرئيسية وبين الكشكول مع تلاصق مكوّناته وإضافات نسيجه المتعاقبة بشكل لا نهائى. الأكّد أنّ التطريز يمكن أن يكون شديدا التعقيد في متغيّراته وثوابته، في مستبّات ومبدّلاته. الكشكول من ناحيته يمكن أن يقدّم مرادفات من الموضوعات والتناظرات والتصاديات التي تقرّبه من التطريز. غير أنّ الفضاء في الكشكول ليس متكوّنا على الإطلاق [٥٩٥] بنفس الكيفية: لا وجود لمركز؛ النمط الزّخرفى الأساسى فيه (السّلسلة) متكوّن من عنصر وحيد؛ عودة هذا العنصر تُحرّر قيما إيقاعية وحسب، قيما تختلف عن تناغمات التطريز (تخصيصا في الكشكول العجيب الذي يلائم بين قطع ذات حجم وشكل ولون

مختلف، والذي يتلاعب بحياكة الأقمشة). «إنها كانت تعمل فيه منذ خمسة عشر سنة، تحمله معها في كل مكان في جراب موشى غير ذي شكل، يحتوي مجموعة من قصاصات القماش الملون ومن كل الأشكال الممكنة. لم يكن بوسعها على الإطلاق أن تحسم أمرها في تنظيم تلك القصاصات وفق نموذج نهائي، لذلك كانت تغير مواضعها، تعيد وضعها، تفكر، تغير مواضعها من جديد وتعيد وضعها مثل لعبة البازل التي لا تنتهي أبدا، دون اللجوء إلى المقص، تُملّسها بأصابعها اللينة...»^(١). إنه مجموعة عديمة الشكل من الأجزاء المتجاورة والتي يمكن أن يتم الربط بينها بما لا نهاية له من الكيفيات: سنرى أن الكشكول هو حَرْفياً فضاء ريمانيّ أو هو بالأحرى عكس ذلك. من هنا تكوين مجموعات عمل خاصة جدًا في صناعة الكشكول ذاتها (أهمية تعاونيات المشغولات الحرفية للألحفة في أمريكا ودورها من زاوية نظر مجموعة نسائية). الفضاء الأملس للكشكول يبيّن بوضوح أن «الأملس» لا يعني المتجانس: على العكس: إنه فضاء لا شكل له، فضاء منشقّ ويستبق الفنّ البصريّ.

تاريخ مهمّ بشكل خاصّ في هذا الصدد قد يكون تاريخ اللّحاف المزركش. نسمّي لحافاً مزركشاً اجتماع سُمُكَيْن من القماش مَخِيطَيْن معا وغالباً ما ندخل بينهما حشوة. بحيث إمكن ألا يكون ثمة لا وجه ولا قفا. لكن لو تابعنا تاريخ اللّحاف المزركش على مدى فترة وجيزة للهجرة (المستعمرون الذين يغادرون أوروبا باتجاه العالم الجديد)، لرأينا تحولاً من صيغة يغلب عليها التطريز (ألحفة مزركشة تسمّى «ألحفة مألوفة») إلى صيغة كشكول («ألحفة استعمال» وخاصة «ألحفة ذات أجزاء مجمّعة»). ذلك أنه إذا كان مستعمرو القرن السابع عشر الأوّل قد

(١) فولكنار، سارتوريس، غاليمار، ص ١٣٦. (Faulkner, Sartoris, Gallimard, p. 136).

حملوا معهم ألحفتهم المألوفة، فضاءات مطرزة ومخددة ذات جمال خلّاب، فإنهم يطوّرون تدريجيًا تقنية كشكولية في نهاية القرن السّابع عشر، أولاً بسبب شحّ القماش (بقايا أقمشة، قطع مأخوذة من الألبسة المستعملة، استعمال بقايا مجمّعة في «كيس مرّقع»)، ثمّ بسبب نجاح القُطنيات الهنديّة. وكأنّ فضاء أملس كان يبرز ويخرج من الفضاء المخدّد، وما ذلك دون تعالُق بين الفضاءين، استعادة أحدهما من طرف الآخر بشكل متبادل، رحلة الآخر عبر الواحد، ومع ذلك هو فرّق معقّد يتواصل. طبقا للهجرة ولدرجة قربها من الترحّل، سوف [٥٩٦] لن يتخذ الكشكول أسماء مسارات وحسب بل «سيمثّل» مسارات، سيكون ملازما للسرعة أو للحركة في فضاء مفتوح^(١).

نموذج موسيقيّ. - بيار بولاز هو أوّل من طوّر مجموعة من التّقابلات البسيطة والفروق المعقّدة، لكن كذلك من الأواصر المتبادلة غير المتناظرة، بين فضاء أملس وفضاء مخدّد. لقد خلق هذه المفاهيم والكلمات في الحقل الموسيقيّ وحدّدها فعلا في مستويات عدّة لبيّن في الوقت نفسه التمييز المجرّد والأخلاط العينية. بأبسط ما يكون، يقول بولاز إنه في مكان- زمان أملس، نحن نشغل ولا نحسّب، وفي مكان- زمان مخدّد نحن نحسّب لنشغل. وهكذا يجعل بولاز الفرّق

(١) حول هذا التاريخ للّحاف المزركش وللکشكول في الهجرة الأميركيّة، راجع الألفحة المزركشة لجوناتان هولشتاين (Jonathan Holstein)، متحف الفنون الزخرفية، ١٩٧٢ (مع استنساخات وبيليوغرافيا). لا يزعم هولشتاين أنّ اللّحاف المزركش هو المصدر الرئيسيّ للفنّ الأمريكيّ، لكنه يلاحظ إلى أيّ حدّ استطاع إلهام أو إنعاش بعض اتجاهات الفنّ الأمريكيّ: أوّلا بـ«الأبيض على الأبيض» للألفحة العادية، ومن ناحية أخرى بالتركيبات-الكشاكيل («التي نجد فيها آثارا بصرية، صورا متتالية، استعمالا للمجالات الملوّنة، فهما حقيقيّا للفضاء السّلبّي، كيفية التجريد الصّوريّ، إلخ»، ص ١٢).

محسوسا أو مدركا، بين كثرات غير قابلة للقيس وكثرات قابلة للقيس، بين فضاءات وحيدة الاتجاه وفضاءات متعددة الأبعاد. إنه يجعلها صائتة وموسيقية. ودون شك عمله الشخصي قدّ بهذه العلاقات المبتدعة والتي أعيد إبداعها موسيقيا^(١).

سنقول في مستوى ثان إنّ الفضاء يمكن أن يخضع لضربين من القطيعات: إحداها يحدّها مقياس والأخرى غير منتظمة وغير محدّدة يمكن إجراؤها حيث نشاء. في مستوى آخر كذلك، سنقول إنّ التواترات يمكن أن تتوزّع في فواصل، بين قطيعات أو تنقسم إحصائيا دون قطيعة: في الحالة الأولى سنسمّي «مقاسا» سبب توزيع القطيعات والفواصل، سببا قد يكون قارّا وثابتا (فضاء مخدّد مستقيم)، أو يمكن أن يكون متغيّرا بشكل منتظم أو غير منتظم (فضاءات مخدّدة منحنية، مُبَارّة إذا كان المقاس متغيّرا بانتظام، غير مُبَارّة إذا كان غير منتظم). لكن عندما لا يكون هناك مقاس فإنّ قسمة التواترات تكون دون قطيعة: تكون القسمة «إحصائية» على قطعة من الفضاء مهما كان صغر حجمها؛ ومع ذلك يظلّ لها وجهان على الأقلّ، تبعا لكون القسمة متساوية (فضاء أملس غير موجّه)، أو لكونها تزداد أو تنقص ندرة أو كثافة (فضاء أملس موجّه). هل يمكن القول إنه لا وجود لفاصل في الفضاء الأملس الذي لا قطيعة فيه ولا مقاس؟ [٥٩٧] أو على العكس من ذلك، ألم يصبح كلّ شيء فاصلا واستراحة؟ الأملس ناموس بينما للمخدّد دائما لوغوسه، الأوكتاف [الثماني] على سبيل المثال. بولاز منشغل بالتواصل بين نوعيّ الفضاء، بتناوُلهما وتراكُبهما: كيف لـ«فضاء أملس موجّه توجيهها قويا أن ينزع إلى التطابق مع فضاء مخدّد»، كيف لـ«فضاء مخدّد أن ينزع إلى التطابق مع فضاء أملس»؟ كيف يمكن

(١) بيار بولاز، التفكير بالموسيقى اليوم، توسّطات، ص ٩٥ وما بعدها. سنلخص تحليل بولاز في الفقرة التالية.

تعويض الأوتكاف بـ«درجات غير أوكتافية» تتكرّر وفق مبدأ لولبيّ؛ كيف يمكن عرك «البنية» بكيفية تجعلها تفقد قيمها الثابتة والمنسجمة لتصبح دعامة للانزلاقات في الزّمن، للتنقّلات في الفواصل، للتحوّلات إلى فنّ سمعيّ مشابه لتحوّلات الفنّ البصريّ.

للعودة إلى التقابل البسيط، المخدّد هو ما يشابك الثابتات والمتغيّرات، هو ما يرتّب الأشكال المختلفة ويجعلها تتتابع، هو ما ينظّم الخطوط النغمية الأفقية والمسطّحات التناغمية العمودية. الأملس هو التنويع المستمرّ، هو التطوّر المتواصل للشّكل، هو اندماج التناغم والنّغم لصالح بروز قيم إيقاعية بوجه خاصّ، هو التّرسيم المحض لخطّ الزاوية عبر العموديّ والأفقيّ.

نموذج بحريّ. - طبعاً، في الفضاء المخدّد كما في الفضاء الأملس، توجد نقاط وخطوط وسطوح (وأحجام كذلك، لكننا نترك جانباً هذه المسألة الآن). غير أنه في الفضاء المخدّد، تميل الخطوط والمسافات لأن تكون تابعة للنّقاط: نذهب من نقطة إلى أخرى. في الفضاء الأملس يكون العكس: النّقاط تابعة للمسافة. ذلك كان بالفعل موجّه الثياب- الخيمة- فضاء الخارج عند المترخّلين. إنها تبعية السّكن للمسار، تطابق الفضاء الدّاخليّ مع الفضاء الخارجيّ: الخيمة، الكوخ، المركّب. ثمّة في الأملس كما في المخدّد توقّفات ومسافات؛ لكن في الفضاء الأملس، المسافة هي التي تجرّ التوقّف، هنا مرّة أخرى، الفاصل هو الذي يستحوذ على كلّ شيء، الفاصل هو الجوهر (من هنا القيم الإيقاعية^(١)).

(١) حول مقايسة الدّاخل على الخارج هذه، عند مترخّلي الصّحراء، راجع أتّي ميلوفانوف (Annie Milovanoff)، «الجلد الثاني للمترخّل». وحول علاقات الكوخ بالخارج عند مترخّلي الجليد، راجع آدموند كاربونتار (Edmund Carpenter)، إسكيمو.

في الفضاء الأملس، الخطّ إذاً هو موجّهٌ ووجهة وليس بُعداً أو تحديداً مترياً. إنه [٥٩٨] فضاء مبنيّ بعمليات موضوعية مع تغييرات الوجهة. تغييرات الوجهة هذه يمكن أن تكون ناتجة عن طبيعة المسار ذاتها كما عند مترحليّ الأرخبيل (حالة فضاء أملس «موجّه»); لكن يمكنها كذلك أن تكون ناتجة أكثر عن تقلّب الهدف أو النقطة المنشودة، كما عند مترحليّ الصحراء الذين يتوجّهون إلى نبات محليّ ومؤقت (فضاء أملس «غير موجّه»). لكن سواء كان موجّهاً أو لم يكن، وخاصّة في الحالة الثانية، الفضاء الأملس اتّجاهيّ وليس بُعديّاً أو مترياً. الفضاء الأملس تملؤه أحداث أو هذيات (heccéités) أكثر من امتلائه بأشياء متكوّنة ومدركة. إنه فضاء أفعالات أكثر من كونه فضاء خصائص. إنه إدراك لمسيّ عوضاً عن كونه فضاء بصريّ. بينما في المخدّد تُنظّم الأشكال مادّة، في الأملس تشير الموادّ إلى قوّة أو تقوم منها مقام الأعراض. إنه فضاء اشتداديّ عوضاً عن كونه امتداديّاً، فضاء مسافات وليس فضاء قياسات. فضاء شدّة عوضاً عن كونه فضاء امتداد. جسد دون أعضاء عوضاً عن كونه جسد عضوية أو تنظيم. الإدراك فيه متكوّن من أمارات وتقويمات عوضاً عن القياسات والخصائص. لذلك ما يشغل الفضاء الأملس هي الشّدّد والرياح والصّخب والقوى والكيفيات اللمسية والصائتة كما في الصّحراء، في السّباسب أو في الثّلوج^(١). تصدّع الجليد وشدو الرّمال. على العكس من ذلك، ما يغطّي الفضاء المخدّد هو السّماء بوصفها مقياساً وما ينتج عنها من الخصائص البصرية القابلة للقياس.

ههنا قد يُطرح الإشكال الخاص جدّاً، إشكال البحر. ذلك أنّ

(١) التوصيفان المتقاربان لفضاء الجليد ولفضاء الرّمّل: انظر، آدموند كاربونتار، إسكيمو و ويلفرد ثيزيغار (Wilfred Thesiger)، صحراء الصّحاري (في الحالتين جميعاً، ثمة عدم اكتراث بعلم الفلك).

البحر هو الفضاء الأملس بامتياز، ومع ذلك هو الفضاء الذي سريعا ما وجد نفسه في مواجهة اقتضاءات تخديد متزايد الصرامة. لا يُطرح الإشكال في مجاورة الأرض. على العكس من ذلك، تمّ تخديد البحار في الملاحة في أعالي البحار. تَخَدَّدَ الفضاء البحريّ تبعاً لَكَسْبَيْنِ فَلَكيّ وجغرافيّ: النّقطة التي يقع الحصول عليها بمجموعة من الحسابات انطلاقاً من ملاحظة دقيقة للكواكب وللشمس؛ الخارطة، تُشَبِّكُ خطوط الطول والمتوازيات، خطوط الطول وخطوط العرض، مطوّقة هكذا المناطق المعروفة أو المجهولة (مثل جدول العناصر الكيميائية لماندليف (Mendeleiev)). أوجب أن نحدّد وفق الفرضية البرتغالية تاريخاً مفصلياً حوالي ١٤٤٠، قد يكون عَيَّنَ أوّل تخديد حاسم وقد يكون يَسَّرَ الاكتشافات الكبرى؟ نحن نَتَّبِعُ بالأحرى بيار شوني (Pierre Chaunu) عندما يحتجّ بوجود فترة طويلة حيث تواجعت هذه الكشوفات في البحر وحيث تمّ التّخديد تدريجيّاً^(١). [٥٩٩] إذ، قبل التعيين المتأخّر جداً للأطوال، ثمة إبحار مترحّل، خُبْرِيّ ومعقّد يُشْرِكُ رياح البحر وصخبه وألوانه وأصواته؛ من بعد ذلك إبحار اتّجاهيّ، ما قبل فلكيّ وهو بالفعل فلكيّ، يعمل بهندسة إجرائية، مازال لا يعمل إلّا عَرْضِيّاً، دون إمكان «بيان الوضع»، لا يتوقّر إلّا على رسوم السّواحل وليس على خرائط حقيقية ودون «تعميم قابل للتّرجمة»؛ وتطوّرات هذه الملاحة الفلكية البدائية في الظروف الخاصّة بخطّ عرض المحيط الهنديّ، ثمّ في المسارات الإهليليجيّة للمحيط الأطلسيّ (فضاءات مستقيمة ومنحنية^(٢)). وكأنّ البحر لم يكن هو النموذج الأصليّ لكلّ الفضاءات الملساء وحسب، وإنما هو أوّل فضاء خضع لتخديد كان استولى عليه

(١) راجع عرض بيار شوني، التوسّع الأوروبيّ من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، صص ٢٨٨ - ٣٠٥.

(٢) انظر بول آدم بشكل خاصّ، «الإبحار البدائيّ والإبحار الفلكيّ» ضمن ملتقيات التاريخ البحريّ، ٧ (راجع كذلك، الهندسة الإجرائية للتّجمة القطبية).

تدريجياً وكان طَوْقه من هنا أو هناك ومن هذا الجانب ثم من الجانب الآخر. المدن التجارية شاركت في هذا التّخديد وغالبا ما جدّدت، لكن وحدها الدّول كان بإمكانها الوصول بالتّخديد إلى منتهاء والارتقاء به إلى المستوى الشّامل لـ «سياسة العِلْم»^(١). بُعديّ ترسّخ أكثر فأكثر، كان ارتهن الاتجاهيّ أو ترُكّب فوقه.

لا ريب أنه نتيجة لذلك، كان البحر الذي هو النموذج الأصليّ للفضاء الأملس، هو أيضا النموذج الأصليّ لكلّ تخديدات الفضاء الأملس: تخديد الصّحراء، تخديد الهواء، تخديد طبقة الغلاف الجوّيّ العليا (وهو ما مكّن فريليو من الحديث عن «ساحل عموديّ» بوصفه تغيير وجهة). للبحر أولاً وقّع إخضاع الفضاء الأملس، ووجدنا نموذج تهيئة وفرضٍ للمخدّد سيكون صالحا في أماكن أخرى. وهو ما لا يتعارض مع الفرضية الأخرى لفريليو: في أعقاب تخديده، يعطي البحر ثانية نوعا من الفضاء الأملس، يشغله أسطول الرّدع، ثم تشغله الحركة الدّائمة للغواصة الاستراتيجية، حركة تتخطّى كلّ تطويق، مستحدثة ترُحّلا جديدا في خدمة مكنة حرب مخيفة أكثر بكثير من الدّول التي أعادت بناءها على حدود تخديدها. البحر ثمّ الهواء وطبقة الغلاف الجوّيّ العليا تجد نفسها فضاءاتٍ ملساء، لكن من أجل مراقبة أفضل للأرض المخدّدة، في انقلاب من أغرب الانقلابات^(٢). يتوقّر الأملس دائما على قدرة [٦٠٠] لا تارضن تفوق المخدّد. عندما نهتمّ بالمهن الجديدة وحتى بالطبقات الجديدة، كيف لا نتساءل عن هؤلاء التقنيين العسكريين الذين يراقبون شاشاتٍ ليلا نهارا، يقيمون أو سيقيمون لمُدّة طويلة في غواصات استراتيجية وفي أقمار صناعية، أية عيون وأية آذان

(١) انظر غي بونجور (Guy Bonjour).

(٢) بول فريليو، انعدام أمن الإقليم: حول الكيفية التي يعطي بها البحر فضاء أملس مع أسطول الرّدع، إلخ. ؛ وحول الكيفية التي يبرز بها فضاء أملس عموديّ، له هيمنة سماوية وجوية (راجع خاصّة الفصل الرابع: «السّاحل العموديّ»).

لنهاية العالم يصطنعون، بحيث قلما يكونون قادرين على التمييز بين ظاهرة فيزيائية، طيران جراد، هجوم «مُعَادٍ» آتٍ من نقطة ما؟ كلّ هذا للتذكير بأنّ الأملس يمكن أن تطبعه وتسكنه هو ذاته اقتدارات تنظيم شيطانية؛ لكن أولاً وبغضّ النظر عن كلّ حكم معياريّ، لبيان وجود حركتين غير متناظرتين، واحدة تُخدّد الأملس لكنّ الأخرى تعيد الأملس انطلاقا من المخدّد. (وحتى بالنسبة إلى الفضاء الأملس لتنظيم عالميّ، أليس ثمة كذلك فضاءات ملساء جديدة أو فضاءات مثقوبة تنشأ كنوع من الاستعراض؟ يشير فريليو إلى بدايات سكنٍ تحت الأرض في «السُّمُك المعدنيّ»، والذي يمكن أن تكون له قيم شديدة التنوّع).

لنُعدّ إلى التقابل البسيط بين الأملس والمخدّد، بما أنّنا لسنا قادرين بعدُ على النّظر في الأخلاط العينية واللا متناظرة. الأملس والمخدّد يتخالفان في المقام الأوّل بالعلاقة المعكوسة للنقطة وللخطّ (الخطّ بين نقطتين في حالة المخدّد، النقطة بين خطّين في الأملس). يتخالفان في المقام الثاني بطبيعة الخطّ (أملس- اتّجاهيّ، فواصل مفتوحة؛ مخدّد- بُعديّ، فواصل مغلقة). وثمة أخيرا فرّق ثالث يتعلّق بالسّطح أو بالفضاء. في الفضاء المخدّد نغلق سطحا و«نقسّمه» وفق الفواصل المحدّدة، تبعا لقطيعات معيّنة؛ في الأملس «نتوزّع» على فضاء مفتوح تبعا لتواترات وعلى طول مسارات (اللوغوس والنّاموس^(١)). لكن التّقابل مهما كان بسيطا، فإنّه ليس من اليسير تعيين موضعه، إذ لا يمكننا الاكتفاء بإقامة تقابل مباشر بين الأرض الملساء لمربّي الماشية المترحّل والأرض المخدّدة للمزارع المستقرّ. من الواضح أنّ المزارع حتى وإن كان مستقرّا فإنّه يشارك كلّيا فضاء الرّياح

(١) يعيّن إيمانويل لاروش (Emmanuel Laroche) بوضوح الفرق بين فكرة التوزيع وفكرة القسمة، بين المجموعتين اللسانيتين بهذا الصّدّد، بين نوعي الفضاء، بين القطب «ريف» والقطب «مدينة».

والخصائص الصّائتة والملموسة. عندما يتحدّث اليونانيون القدامى عن الفضاء المفتوح للناموس، فضاء غير محدّد وغير منقسم، بادية ما قبل- حضرية، سفح جبل، سطيحة، سباسب، فإنهم لا يجعلونها مقابلة للفلح الذي يمكن على العكس من ذلك أن يكون جزء منها، إنهم يجعلونها مقابلة للمدينة، للبلد، للحاضرة. عندما يتحدّث بن خلدون عن البادية والبداءة فإنّ هذه الأخيرة تشمل كذلك المزارعين [٦٠١] كما مربّي الماشية المترحّلين: إنه يجعلها مقابلة للحاضرة، أي لل«مدينة». لا ريب أنّ هذا التدقيق مهمّ؛ ومع ذلك هو لا يغيّر الشيء الكثير. إذ، منذ أقدم العصور، من العصر الحجريّ الحديث وحتى العصر الحجريّ القديم، المدينة هي التي خلقت الفلاحة: إنه تحت تأثير المدينة يتراكم الفلاح وفضاؤه المخدّد مع المزارع في الفضاء الذي ما يزال فضاء أملس (مزارع منتجّع، نصف مستقرّ أو قد استقرّ بعد). بحيث يمكننا أن نعثر من جديد في هذا المستوى على التقابل البسيط الذي كنّا نرفضه في البداية بين الفلاحين والمترحّلين، بين الأرض المخدّدة والأرض الملساء: لكن بتعريجنا على المدينة من حيث هي قوّة تخديد. لذلك، ليس البحر والصّحراء والسباسب والهواء وحسب، هي موضع رهان الأملس والمخدّد، إنها الأرض ذاتها هي الرّهان تبعا لوجود زراعة في فضاء- ناموس أو وجود فلاحة في فضاء- مدينة. بل وأكثر من ذلك: ألا يجب قول نفس الشيء عن المدينة؟ على عكس البحر، المدينة هي الفضاء المخدّد بامتياز؛ لكن كما أنّ البحر هو الفضاء الأملس الذي يقع إخضاعه أساسيا للتخديد، ستكون المدينة قوّة التخديد التي ستمنح الفضاء الأملس وستمارسه في كلّ مكان، على الأرض وفي بقية العناصر، خارجها لكن كذلك فيها هي ذاتها. ها هي فضاءات ملساء تخرج من المدينة، لم تعد هي فضاءات التنظيم العالميّ وحسب، بل هي فضاءات ردّة فعل تجمع الأملس والمثقوب، منقلبة ضدّ المدينة: أحياء صفيح ضخمة متحرّكة، مؤقتة، يسكنها المترحّلون

والانعزاليون، مقدودة من بقايا معدن وقماش وكشاكيل، لم تعد لها علاقة حتى بتخديد العُملة والعمل أو السّكن. بؤس منفجر تسله المدينة ويتطابق مع الصيغة الرياضية لرنه طوم: «تمليس ذو مفعول رجعي»^(١). قوّة مكثّفة، إمكان ردّة فعل؟

إذن، في كلّ مرّة يحيلنا التقابل البسيط «أملس - مخدّد» إلى تعقيدات وتتاليات وتراكبات أكثر صعوبة. لكنّ هذه التعقيدات تؤكّد التمييز أولاً، لأنها تفسح المجال بالفعل لحركات غير متناظرة. حالياً، يجب أن نقول فقط إنه ثمة نوعان من السّفر، يختلفان بالدّور الخاص بكلّ من النقطة والخطّ والفضاء. السّفر - غوته (Goethe) والسّفر - كلايست (Kleist)؟ سفر فرنسيّ وسفر أنغليزيّ (أو أمريكيّ)؟ سفر - شجرة وسفر - جذمور؟ لكن لا شيء يتطابق بالتّمام، وكذلك كلّ شيء يختلط أو يمرّ من الواحد إلى الآخر. ذلك أنّ الفروق ليست موضوعية: بالإمكان أن نسكن الصّحارى أو السّباسب أو [٦٠٢] البحار بكيفية مخدّدة؛ بالإمكان أن نسكن حتى المدن بكيفية ملساء، أن يكون المرء مترحّل مدن (على سبيل المثال، جولة ميلّار (Miller) في كليشي (Clichy) أو في بروكلين (Brooklyn) هي مسار مترحّل في فضاء أملس، بحيث أنه يجعل المدينة تفرز كشكولا، تفاضليات سرعة، تأخّرات وتسارعات، تغييرات وجهة، تنوعات متواصلة... الهيبيز يدينون بالكثير لميلّار، لكنهم سيغيّرون الوجهة مرّة أخرى، سيستخدمون الفضاء خارج المدن استخدما جديدا). كان فيتزجيرالد (Fitzgerald) قال منذ وقت طويل: لا يتعلّق الأمر بالرحيل إلى بحار الجنوب، ليس ذلك هو ما يحدّده السّفر. ليس ثمة أسفار غريبة في

(١) نجد هذه العبارة عند رنيه توم الذي يستعملها في علاقة بتغيّر دائم حيث يؤثّر المتغيّر على سوابقه: نماذج رياضية للتكوين المورفولوجي، ١٨/١٠، صص ٢١٨ - ٢١٩.

المدن وحسب وإنما ثمة أسفار في نفس المكان: لسنا نفكر بمدمني
المخدّرات الذين تجربتهم شديدة الالتباس، بل بالمترحّلين الحقيقيين.
إنه بخصوص هؤلاء المترحّلين يمكن القول مثلما يرتئي توينبي
(Toynbee): إنهم لا ينتقلون. إنهم مترحّلون من فرط كونهم لا
ينتقلون، لا يهاجرون، يلزمون فضاء أملس يرفضون مغادرته، ولا
يغادرونه إلّا من أجل الغزو أو الموت. ترحال في نفس المكان، ذلك
هو اسم كلّ الشّدّد حتى وإن توسّعت امتداديا أيضا. التفكير هو السّفر،
وقد عملنا آنفا على إنشاء نموذج ثيو- فكريّ للفضاءات الملّساء
والمخدّدة. باختصار، ما يميّز الفضاءات ليس هو الكيفية الموضوعية
للحيوزات ولا كمية الحركة القابلة للقيس- ولا شيء ما قد يكون في
الفكر وحسب- وإنما هو صيغة الفُضْأنة، الطريقة التي نكون بها في
الفضاء وللفضاء. السّفر في الأملس أو في المخدّد، التفكير كذلك...
لكن دائما التّنقّلات من الواحد إلى الآخر، تغيّرات الواحد في الآخر،
الانقلابات. في الشريط السينمائيّ مع مرور الزّمن، يجعل واندارس
(Wenders) مسارات الشخصيتين تتلاقى وتترّكب، إحداها تقوم
برحلة ما تزال غوتية، ثقافية، تذكارية، «تربوية»، مخدّدة من كلّ
الجهات، بينما الأخرى سيطرت بالفعل على فضاء أملس مقدود
وحسب من تجريب ونسيان في «الصّحراء» الألمانية. لكن، بشكل
غريب، الشخصية الأولى هي التي تفتح لذاتها الفضاء وتُجري ضربا من
التمليس الاسترداديّ، بينما تأتي تخديدات لتتشكّل على الثانية وتُغلق
فضاءها. السّفر في الأملس هو صيرورة بأكملها، بل هو صيرورة عسيرة
ومريبة. لا يتعلّق الامر بالرجوع إلى الملاحة الماقبل فلكية ولا إلى
المترحّلين القدامى. إنّ المواجهة تتواصل اليوم وفي أكثر الاتجاهات
تنوّعا بين الأملس والمخدّد، تتواصل الانتقالات والتّتابعات
والترّاكبات.

نموذج رياضي. - كان حدثا حاسما عندما انتزع الرياضي ريامان المتكثّر من حالته كمحمول ليجعل منه اسما هو «الكثرة». لقد كانت تلك نهاية الديالكتيكا لصالح طوبولوجيا الكثرات. [٦٠٣] كانت كلّ كثرة تتحدّد بما لا حصر له من «التحديدات»، لكنّ التحديدات كانت تارة مستقلّة عن الوضعية وطورا تابعة لها. يمكن على سبيل المثال أن نقارن عِظَم الخطّ العموديّ بين نقطتين وعِظَم الخطّ الأفقيّ بين خطّين آخرين: نلاحظ هنا أنّ الكثرة مِترية في نفس الوقت الذي تخضع فيه للتّخديد وتكون تحديداتها أعظاما. بالمقابل، لا يمكن أن نقارن الفرق بين صوتين لهما درجة متساوية وشدّة مختلفة مع صوتين لهما نفس الشدّة ودرجة مختلفة؛ لا يمكننا أن نقارن في هذه الحالة تحديدين إلاّ «إذا كان أحدهما جزءاً من الآخر وإذا ما اكتفينا إذاً باحتساب أنّ هذا الجزء أصغر من الآخر، دون القدرة على قول المقدار الذي يصغره به^(١)». هذه الكثرات الثانوية ليست مِترية ولا تخضع للتّخديد والقيس إلاّ بوسائل غير مباشرة لا تفتأ تقاومها. هذه الكثرات غير دقيقة ومع ذلك هي صارمة. ماينونغ ورسل كانا استحضرا مصطلح المسافة وكانا واجها به مصطلح العِظَم (المقدار^(٢)). بالمعنى الدقيق للكلمة، ليست المسافات ممّا لا يقبل القسمة: إنها تقبل القسمة تحديدا في الحالة التي يكون فيها تحديد ما في وضعية جزء من تحديد آخر. لكن، على النقيض من الأعظام، المسافات لا تنقسم من دون تغيير طبيعتها في

(١) حول عرض كثرات ريامان (Riemann) وهالمهولتز (Helmholtz)، راجع جول فيلمان (Jules Vuillemin)، فلسفة الجبر، المطابع الجامعية الفرنسية، ص ٤٠٩ وما بعدها.

(٢) راجع، برتراند رسل، مبادئ الرياضيات، منشورات ألان (Allen éd.)، الفصل ٣١. العرض اللاحق لا يتطابق ونظرية رسل. سنجد تحليلا ممتازا لمصطلحيّ المسافة والعِظَم وفق ماينونغ (Meinong) ورسل (Russel)، عند ألبار سباير، الفكر والكمّ، نشر ألكان (Alcan).

كلّ مرّة. مثلاً، شِدَّة ما ليست متكوّنة من أعظام قابلة للجمع والتحويل : درجة حرارة ليست مجموع درجتَي حرارة أقلّ منها، سرعة ليست مجموع سرعتين أقلّ منها. لكن كلّ شِدَّة، بما هي ذاتها فرّق، تنقسم وفق نظام يختلف فيه كلّ حدّ بالطبيعة عن غيره من حدود القسمة. المسافة هي إذاً مجموعة من الفروق المرتّبة، أي المُتلافة، بحيث يمكننا أن نحكم عن أكبر الفروق وأصغرها بغضّ النظر عن دقّة العِظَم. سنقسّم الحركة مثلاً إلى عَدُو وَخَبَب ومشي، لكن على نحوٍ يجعل المقسوم يغيّر طبيعته في كلّ لحظة من لحظات القسمة، دون أن تدخل أية واحدة من هذه اللحظات في تركيب الأخرى. إنه بهذا المعنى تكون كثرات «المسافة» هذه ملازمة لمسار تَغْيِيرٍ مستمرٍّ، بينما على العكس من ذلك، كثرات «العِظَم» توزّع الثوابت والمتغيّرات.

لذلك يبدو لنا أنّ برغسون (أكثر بكثير [٦٠٤] من هوسرل أو حتى من مينونغ ورسل) كانت له أهمية كبرى في تطوير نظرية الكثرات. إذ أنه منذ المبحث حول المعطيات المباشرة للوعي، تمّ تقديم الدّيمومة على أنها ضرب من الكثرة مواجهةً للكثرة المِترية أو ذات العِظَم. ذلك أنّ الدّيمومة ليست هي البتّة ما لا يقبل القسمة، لكنّها ما لا ينقسم دون تغيير طبيعته مع كلّ قسمة (سباق أشيل ينقسم إلى خطوات، لكن بالفعل، هذه الخطوات لا تشكّله على طريقة الأعظام^(١)). بينما في كثرة مثل الامتداد المتجانس، يمكن أن ندفع القسمة دائماً إلى أبعد مدى نريده دون أن يتغيّر أيّ شيء في الموضوع الثابت؛ أو أنّ الأعظام

(١) منذ الفصل الثاني من مبحث حول المعطيات المباشرة للوعي يستعمل برغسون مراراً وتكراراً الاسم «كثرة»، في ظروف كان يجب أن تسترعي انتباه المعلقين: الرجوع الضمنيّ إلى ريامان لا يبدو لنا مشكوكاً فيه. سيفسّر برغسون في مادّة وذاكرة، أنّ سباق أشيل أو حتى مشيته تنقسم بدقّة إلى «كثرات فرعية»، لكنها تختلف بالطبيعة عمّا تقسمه؛ وبالمثل، مشية السّلحفاة؛ والكثرات الفرعية، «من الجانبيين»، تختلف هي ذاتها بالطبيعة.

يمكنها أن تتغير دون أن يكون لها مفعول غير توسيع أو تقليص الفضاء الذي تُخدّده. إذًا، برغسون كان حدّد «ضربين مختلفين تمامًا من الكثرات»، أحدهما كيفيّ وانصهاريّ ومتّصل؛ ثانيهما رقميّ ومتجانس ومنفصل. سنلاحظ أنّ المادّة تقوم بضرب من الدّهاب والإياب بين الاثنين، تارة ما تزال ملفوفة في الكثرة الكيفية، وطورا منبسطة بالفعل في «رسيمة» مِترية تدفعها خارج ذاتها. المواجهة بين برغسون وأنشتاين، من زاوية نظر النسبية، تظلّ مبهمة ما لم نعد إلى النظرية الأساسية للكثرات الريامانية مثلما غيرها برغسون.

غالبًا ما اعترضتنا كلّ أنواع الفروق بين ضربين من الكثرات: مِترية وغير مِترية؛ امتدادية وكيفية؛ ممرّكة وغير ذات مركز؛ شجرانية وجذمورية؛ عددية ومسطّحة؛ بُعدية واتجاهية؛ كتلوية وزمروية؛ عِظمية وتماسفية، انقطاعية وتواترية؛ ملساء ومُخدّدة. ما يعمرّ فضاء أملس ليس هو كثرة تُغيّر طبيعتها بانقسامها وحسب- مثل القبائل في الصّحراء: مسافات تتبدّل باستمرار، جماعات لا تتوقّف عن التحوّل- بل هو الفضاء الأملس ذاته، صحراء، سباسب، بحر أو جليد، هي كثرات من هذا النّوع، غير مِترية، غير ذات مركز، اتّجاهية، إلخ. غير أنه يمكننا الاعتقاد أنّ العدد ينتمي حصريًا للكثرات الأخرى وأنه يمنحها المنزلة العلمية التي حُرمت منها الكثرات غير المِترية. لكنّ ذلك ليس صحيحًا إلّا نسبيًا. صحيح أنّ العدد هو مُضايِف المِترية: [٦٠٥] الأعظام لا تُخدّد الفضاء إلّا بالإحالة على أعداد، وعكسيًا تتوصّل الأعداد إلى التعبير عن علاقات متزايدة التعقيد بين الأعظام، مستثيرة بذلك فضاءات مثالية تعزّز التّخديد وتجعله متمادًا مع المادّة بكاملها. إذًا، ثمة تضايِف يكوّن العِلْم الرّئيس، بين الهندسة والأرثماتيكا، بين الهندسة والجبر، صُلب الكثرات المِترية (الكتاب الأعمق بهذا الخصوص هم الذين رأوا، منذ الأشكال الأبسط، أنّ العدد كانت له هنا خاصية كونه عددا أصليًا بشكل حصريّ، والوحدة لها بالأساس

خاصية انقسامية^(١). بالمقابل، قد يقال إنّ الكثرات غير المِترية أو الفضاء الأملس لا يحيلان إلّا على هندسة صغرى، محض إجرائية وكيفية، حيث الحساب محدود جدًا بالضرورة، حيث العمليات الموضوعية ليست قادرة حتى على ترجمة عامة ولا على منظومة تعيين متسقة. ومع ذلك هذه «الدونية» ظاهرية وحسب؛ ذلك أنّ استقلالية الهندسة هذه التي تكاد تكون أمّية ولا مِترية، تمكّن من ناحيتها من استقلالية العدد الذي لم تعد له مهمّة قيس أعظام في الفضاء المخدّد (أو الذي هو للتّحديد). العدد يوزّع ذاته في الفضاء الأملس، لم يعد ينقسم دون تغيير طبيعته في كلّ مرّة، دون تغيير وحدته، إذ كلّ وحدة تمثّل مسافة ولا تمثّل عِظَمًا. إنه العدد المُفصّل، المترحلّ، الاتجاهيّ، الترتيبيّ، العدد العادّ الذي يحيل إلى الفضاء الأملس مثلما كان العدد المعدود يحيل إلى الفضاء المخدّد. بحيث أنّه علينا أن نقول عن كلّ كثرة: إنها بالفعل عدد، إنها ما تزال وحدة. لكن لا هو نفس العدد في الحالتين ولا هي نفس الوحدة ولا هي نفس الكيفية التي تنقسم بها الوحدة. والعلم الثانويّ لن يكفّ عن إثراء العلم الرئيس إذ ينقل له حدّسه ومساره وتحواله وإحساسه بالمادّة ورغبته بها وبالفراة والتنويع والهندسة الحدسية والعدد العادّ.

لكنّا لم ننظر إلى حدّ الآن إلّا في مظهر أوّل من مظاهر الكثرات الملساء أو غير المِترية في تعارض مع الكثرات المِترية: كيف يمكن لتحديد ما أن يكون في وضعية انتماء لتحديد آخر، دون أن نكون قادرين على تعيين عِظَم مضبوط ولا وحدة مشتركة ولا سيانية للوضعية.

(١) راجع برغسون، مبحث حول المعطيات المباشرة للوعي، طبعة المائوية، ص ٥٦. إذا كانت كثرة «تستتبع إمكان التعاطي مع عدد ما بوصفه وحدة مؤقتة ستضاف لذاتها، فإنّ الوحدات على العكس من ذلك هي من جهتها أعداد حقيقية، كبيرة بالقدر الذي نشاء، لكن نعتبر وكأنّها غير قابلة للتفريق مؤقتًا لنركبها في ما بينها».

تلك هي خاصية الفضاء الأملس اللاقة والملفوفة. لكن بالفعل، المظهر الثاني أكثر أهمية: عندما تستبعد ذاتُ الوضعية [٦٠٦] المقارنة بين تحديدَيْن. نحن نعرف أنّ تلك هي حالة الفضاءات الريمانية، أو بالأحرى أجزاء فضاء ريمانية، بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر: «تفتقر فضاءات ريمان لكلّ أنواع الانسجام. كلّ واحد منها يتميّز بشكل التعبير الذي يحدّد مربّع المسافة لنقطتين متجاورتين للغاية. (...). ينتج عن ذلك كون ملاحظَيْن متجاورَيْن يمكنهما أن يعيّنا في فضاء ريمان، النقاط التي هي في جوارهما المباشر، لكنهما لا يستطيعان دون اتفاق جديد تعيين موضع أحدهما بالنسبة إلى الآخر. كلّ جوار هو إذاً مثل قطعة صغيرة من الفضاء الأقليديّ، لكن وُضِل جوار بالجوار الموالي ليس محدّداً ويمكن أن يتحقّق بما لا حصر له من الطرق. هكذا يمثّل فضاء ريمان الأعمّ بوصفه تشكيلة هلامية من الأجزاء المترابكة دون أن تكون مترابطة في ما بينها»؛ ومن الممكن تحديد هذه الكثرة بغضّ النظر عن كلّ رجوع إلى مِترية، تحديدها بظروف التواتر أو بالأحرى بالتراكم المساوي لمجموعة جوارات، ظروفًا مختلفة بالتّمام عن تلك التي تحدّد الفضاءات المِترية وقطيعاتها (حتى وإن كانت علاقة بين نوعيّ الفضاء يجب أن تتولّد عنها^(١)). باختصار، لو تابعنا هذا التوصيف الجميل جدًّا الذي يقدّمه لوتمان (Lautman)، فإنّ الفضاء الريمانيّ يكون كشكولا صِرفاً. له روابط أو علاقات لَمُسيّة. له درجات إيقاعية لا توجد في مواضع أخرى، مع أنه بإمكانها أن تُترجم في فضاء مِتريّ. متنافر وفي تغيّر مستمرّ، إنه فضاء أملس، من حيث هو هلاميّ وغير متجانس. إذاً، نحدّد خاصية إيجابية مضاعفة للفضاء الأملس بشكل عامّ: من ناحية، عندما تحيل التحديدات المتداخلة إلى مسافات مطوّقة أو إلى فروق مرتّبة بغضّ

(١) ألبار لوتمان، خطاطات البنية، هرمان، ص ٢٣، ٣٤-٣٥.

النظر عن العِظَم؛ من ناحية أخرى، عندما تبرز تحديدات لا يسعها أن تتداخل، وتترابط بـسيروراتٍ تواتر أو تراكم بغضّ النّظر عن المِترية. هذان هما مظهرها ناموس الفضاء الأملس.

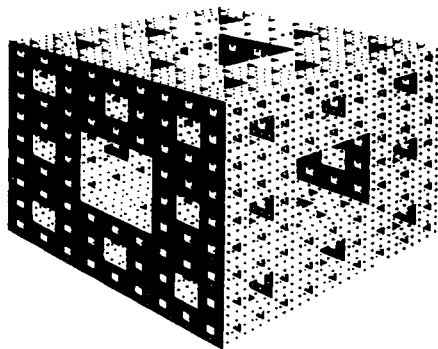
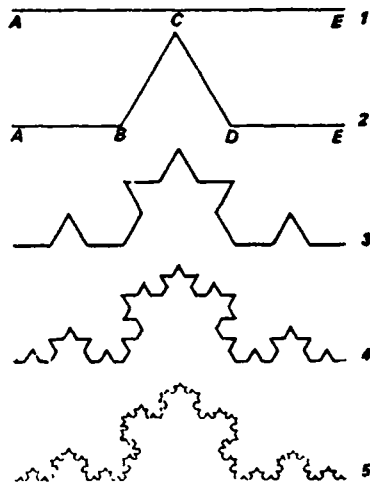
ومع ذلك نعر دائماً عل ضرورة لا تناظرية للمرور من الأملس إلى المخدّد، كما من المخدّد إلى الأملس. وعلى الرّغم من أنّ الهندسة الجوّالة والعدد المترحل للفضاءات الملساء لا يتوقّفان عن إلهام العلم المَلَكِيّ للفضاء المخدّد، فإنّه على العكس من ذلك، تكون مِترية الفضاءات المخدّدة ضرورية لتجسيد المعطيات الغريبة لكثرة ملساء. لكن التجسيد ليس فعلاً بسيطاً: لا يكفي أن نعوض الحركة بالفضاء الذي وقع اجتيازه، ينبغي وجود سلسلة عملياتٍ ثرية ومعقّدة [٦٠٧] (وكان برغسون هو أوّل من قال ذلك). التّجسيد كذلك ليس فعلاً ثانويّاً. إنه عملية تتمثّل دون شكّ في ترويض الفضاء الأملس واشتطاط ترميزه وقيسه، في تحييده لكن كذلك في إعطائه بيئة انتشارٍ وامتداد وانكسار وتجديد ودفع من دونها قد يموت من تلقاء ذاته: مثل قناع من دونه قد لا يتمكّن من العثور لا على التنفّس ولا على شكل عامّ للتعبير. العلم الرّئيس محتاج دوماً لإلهام يأتيه من العلم الثانويّ؛ لكنّ الثانويّ لا قيمة له ما لم يكن جابه أرقى المتطلّبات العلمية وما لم يكن مرّ بها. ليكن مثالان وحسب للتعبير عن ثراء التّجسيدات وضرورتها، وهما يحملان نفس القدر من حظوظ الانفتاح كما من مخاطر الانغلاق أو التوقّف. أوّلاً تَعَقّد الوسائل التي نحوّل بها شِدداً إلى كميات امتدادية، أو بشكل أعَمّ، نحوّل بها كثرات المسافة إلى منظومات أعظام تقيس الكثرات وتُخدّدها (دور اللوغاريتمات بهذا الخصوص). من ناحية أخرى وبشكل خاصّ، دَقّة وتَعَقّد الوسائل التي تتلقّى بها قطع الفضاء الريامانيّ الأملس وصلاً أقليديّاً (دور توازي الموجهّات في تخديديّ متناهي الصّغر^(١)). لن

(١) حول هذا الوصل الأقليديّ تخصيصاً (المختلف جدّاً عن التّراكم)، راجع لوتمان، المرجع أعلاه، صص ٤٥ - ٤٨.

نخلط بين الرّبط الخاصّ بقطع الفضاء الريامانية («تراكم») وبين هذا الوصل الأقليديّ للفضاء الريامانيّ («توازي»). ومع ذلك فإنهما مترابطان ويتدافعان. لا شيء قد انتهى على الإطلاق: الطريقة التي يستسلم بها الفضاء الأملس للتّخديد، لكن كذلك الطريقة التي يُرجع بها فضاء مخدّد الأملس، مع قيم وأمدية وعلامات مختلفة جدّا. لعلّه يجب القول إنّ كلّ تطوّر يتمّ بالفضاء المخدّد وفيه، لكنّ كل صيرورة تتمّ في الفضاء الأملس.

أيمكننا تقديم تعريف رياضيّ عامّ جدّا للفضاءات الملساء؟ يبدو أنّ الـ«مواضيع الكسورية» لبنوا ماندلبروت (Benoît Mandelbrot)، سائرة في هذا الاتّجاه. إنها مجموعات عدّد أبعادها كسريّ أو غير تامّ، أو هو تامّ لكن مع تغيير متواصل للاتّجاه. على سبيل المثال، نعوض الثلث المركزيّ لجزءٍ مستقيم بزاوية مثلث متساوي الأضلاع، مع تكرار العملية بعد ذلك على كلّ واحد من أجزاء المستقيمت الأربعة، إلخ.، إلى ما لا نهاية له، وفق نسبة تحالٍ، - مثل هذا الجزء من المستقيم سيشتكّل خطّا أو منحنيّا لانهائيّا ذا بُعد أكبر من ١ لكنه أصغر من السّطح (= ٢). يمكن الحصول على نتائج مماثلة عن طريق التّجويّف، بحذف شقوق انطلاقا من دائرة، عوضا عن إضافة «اتجاهات» انطلاقا من مثلث؛ بالمثل، مكعّب نجده وفق مبدأ التّحاكي يصبح أقلّ من [٦٠٨] حجم وأكثر من سطح (إنه العرض الرّياضيّ للتّقارب بين فضاء حرّ وفضاء مثقوب). في أشكال أخرى أيضا، الحركة البراونية، الاضطراب، قبة السّماء، هي من هذه «الموضوعات الكسورية»^(١). لعلّنا قد نتوقّر هكذا على كيفية جديدة لتعريف المجموعات الضبابية. لكن وبشكل خاصّ، يتلقّى منها الفضاء الأملس تحديدا عامّا يضع في الاعتبار اختلافاته عن الفضاء المخدّد وعلاقاته معه: (١) سنسمّي مخدّدًا

(١) بنوا ماندلبروت، الموضوعات الكسورية (Les objets fractals)، فلانماريون.



إسفنجة سياربينسكي:

أكثر من سطح، أقل من حجم! قانون تفريغ هذا المكعب قانون حذسي بمجرد نظرة: كل ثقب مربع محاط بثمانية ثقوب في ثلث حجمه: هذه الثقوب الثمانية محاطة هي ذاتها بثمانية ثقوب في الثلث كذلك. وهلم جرا إلى ما لا نهاية. المصور لم يتمكن من تصوير لا تنامي الثقوب متزايدة الدقة في ما أبعد من المستوى الرابع، لكن من الواضح جدًا أن هذا المكعب هو في نهاية المطاف أجوف إلى أبعد حد، حجمه الجملي ينحو باتجاه الصفر بينما السطح الجملي العرضاني للتفريغات يتزايد لا نهائياً. مقياس هذا «الفضاء» هو ٢,٧٢٦٨. إنه «يتراوح» إذاً بين سطح (من مقياس ٢) وحجم (من مقياس ٣). «بساط سياربينسكي» هو واحد من وجوه هذا المكعب، التفريغات هي بالتالي مربعات ومقياس هذا «السطح» هو ١,٢٦١٨. (نقلاً عن بحوث في الهندسة، ليونار بلومنتال وكار مايار، فريمان وشركاؤه، ١٩٧٠).

بخصوص «الموضوعات الكسورية» لبُنا ماندلبروت

أو مترياً كلّ مجموعة لها عدد تامّ من الأبعاد، وحيث يمكن أن نعيّن فيها وجهات ثابتة؛ (٢) الفضاء الأملس غير المتريّ يتكوّن ببناء خطّ ذي حجم كسريّ أكبر من ١، من سطح ذي حجم [٦٠٩] كسوريّ أكبر من ٢؛ (٣) العدد الكسريّ ذو الأبعاد هو علامة فضاء اتّجاهيّ بشكل خاصّ (ذو تغيير متواصل للوجهة دون مُماسّ)؛ (٤) يتحدّد الفضاء الأملس

حينئذ بكونه غير ذي حجم إضافي بالنسبة إلى ما يجتازه أو يتنزل فيه : إنه بهذا المعنى كثرة مسطحة، مثال ذلك خط يملأ من حيث هو كذلك مسطحا؛ ٥) الفضاء ذاته وما يملؤه يميلان إلى التطابق وإلى أن تكون لهما نفس القوة، في الشكل اللادقيق ومع ذلك الصّارم للعدد العادّ أو غير التّامّ (الإشغال دون حسابان)؛ ٦) مثل هذا الفضاء الأملس والهلاميّ يتكوّن بتراكم الجوّارات، وكل تراكم يحدّد منطقة عدم تمايز خاصّة بـ«الضرورة» (أكثر من خطّ وأقلّ من سطح، أقلّ من حجم وأكثر من سطح).

نموذج فيزيائيّ. - عبر النّماذج المختلفة، تتأكّد فكرة معيّنة للتّخديد: سلسلتان من المتوازيات تتقاطعان عموديا، بعضها عموديّ، يقوم بالأحرى بدور الثابتات أو المستقرّات، بعضها الآخر أفقيّ، يقوم بالأحرى بدور المتغيّرات. بصورة إجمالية جدّا، هذه حال السّداة والنير، التناغميّ والنغميّ، الطول والعرض. بقدر ما يكون التقاطع منتظما، بقدر ما يكون التّخديد متراصّا، بقدر ما ينحو الفضاء لأن يصبح متجانسا: إنه بهذا المعنى بدا لنا التّجانس منذ البداية على أنه ليس خاصية الفضاء الأملس بل هو على العكس من ذلك النتيجة القصوى للتّخديد، أو هو الشكل النهائيّ لفضاء مخدّد من كلّ النواحي وفي كلّ الاتجاهات. وإذا كان الأملس والمتجانس يتواصلان ظاهريّا، فذلك فقط من حيث أنّ المخدّد لا يصل إلى مثال انسجامه الكامل دون أن يكون مستعدّا لإرجاع الأملس ثانية وفق حركة تتراكب وحركة التّجانس لكنها تظل مختلفة عنها تماما. بدا لنا الأملس بالفعل تحت كلّ نموذج، منتما إلى تنافرية قاعدية: لبّد أو كشكول وليس نسيجا، قيم إيقاعية وليس تناغمية-نغمية، فضاء ريامانيّ وليس أقليديّا-تغيّر متواصل يربو على كل توزيع للثوابت والمتغيّرات، تحرير خطّ لا يمرّ بين نقطتين، إطلاق مسطح لا يعمل بخطوط متوازية ومتعامدة.

هذه الرّابطة بين المتجانس والمخدّد يمكن التعبير عنها بعبارات فيزياء عنصرية وتخيّلية: (١) تبدوون بتحديد الفضاء بمتعامدات ثقّالة، متوازية في ما بينها؛ (٢) هذه المتوازيات أو هذه القوى لها ناتج يطبّق في نقطة من الجسم الذي يملأ الفضاء، هو مركز الثّقل؛ (٣) موقع هذه النقطة لا يتغيّر بتغيّر وجهة [٦١٠] القوى المتوازية عندما تصبح متعامدة مع وجهتها الأولى؛ (٤) تكتشفون أنّ الثّقالة هي حالة خاصّة من جاذبية كونية، وفق خطوط مستقيمة أيّا كانت هذه الخطوط أو وفق علاقات مزدوجة بين جسمين؛ (٥) تحدّدون مصطلحا عامّا للعمل بواسطة العلاقة قوّة- تحوّل في وجهة ما؛ (٦) تحصلون هكذا على القاعدة الفيزيائية لفضاء مخدّد يتزايد كماله، ليس عموديّاً وأفقيّاً وحسب، وإنّما في كلّ الاتجاهات التّابعة لنقاط. - لا حاجة حتى لاستحضار شبه هذه الفيزياء النيوتونية. اليونانيون كانوا مرّوا بالفعل من فضاء مخدّد عموديّاً، من أعلى إلى أسفل، إلى فضاء ممرّكز، إلى علاقات متناظرة وتعاكسيّة في كلّ الاتجاهات، أي مخدّدة في كلّ الجهات بشكل يجعلها تكوّن تجانسا. والأكّد أنه كان ثمة ما يشبه نموذجين لجهاز الدّولة، الجهاز العموديّ للإمبراطورية والجهاز المتجانس للمدينة^(١). الهندسة قائمة في التّقاء مسألة فيزيائية وقضية دولة.

لكن من البين أنّ التّحديد الذي تكوّن على هذا النّحو له حدوده: ليس عندما نُشرك اللامتناهي وحسب، اللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصّغر، وإنّما كذلك عندما ننظر في أكثر من جسمين («مشكل الأجسام الثلاثة»). لنبحث ببساطة شديدة كيف يفلت الفضاء من حدود تحديده. يفلت منها في الطرف الأوّل بالميلان، أي بأصغر انزياح، بالانزياح اللامتناهي الصّغر بين متعامد الثّقالة وقوس الدّائرة الذي يمثّل

(١) راجع حول هذين الفضاءين، جان- بيار فرنان، الميثية والفكر عند الأغارقة، الجزء الأوّل، صص ١٧٤ - ١٧٥.

هذا المتعامد مُماسّهُ. يفلت منها في الطرف الثاني بالّلّوب أو الدّوّامة، أي بشكل تكون به كلّ نقاط الفضاء موضوعة تزامنيّاً تحت قوانين التّواتر أو التّراكم والتوزيع التي تتناقض مع التفرّيق المسمّى تفرّيقاً «رقائقيّاً» مطابقاً لتخديد المتوازيات. غير أنه من أصغر انزياح وصولاً إلى الدّوّامة، النتيجة جيّدة وضرورية: ما يمتد من الواحد إلى الأخرى، هو بالتخديد فضاء أملس عنصره هو الميلان وتعميره هو اللّوب. الفضاء الأملس متكوّن بالزاوية الدّنيا التي تنحرف عن المتعامد، وبالّدوّامة التي تربو على التّخديد. تلك هي قوّة كتاب ميشال سارّ التي تتمثّل في كونه بيّن رابطة الميلان هذه بوصفها عنصراً فارقيّاً مولّداً، وبيّن تكوّن الدّوّامات والاضطرابات بوصفها ما يشغل فضاء أملس وقع توليده؛ وبالفعل، الدّرة القديمة، من دموقريطس إلى لوكرتيوس، لم تكن مفصولة أبداً عن علم السّوائل أو عن نظرية معمّمة في السّيلانات والاندفاعات. لا نفهم شيئاً في الدّرة القديمة [٦١١] ما لم نر أنّ خصيصتها هي السّيلان والاندفاق. إنه على مستوى هذه النظرية يتبدّى التّضايّف الدّقيق مع هندسة أرخميدية مختلفة جدّاً عن الفضاء المتجانس والمخدّد لأقليديس، ومع فيزياء ديمقريطية مختلفة جدّاً عن المادّة الصّلبة أو الرّقائقيّة^(١). غير أنّ نفس المصادفة تشاء أن لا تكون هذه المجموعة مرتبطة أبداً بجهاز دولة وإنّما بمكّنة حرب: فيزياء حشود واضطرابات و«كوارث» وأوبئة، لهندسة حرب ولفتها ومكّنتها. يمكن لسارّ أن يعلن ما يبدو له أنه الهدف الأعظم للوكرتيوس: المرور من المريخ إلى الزّهراء، وضع مكّنة الحرب في خدمة السّلام^(٢). لكن هذه

(١) ميشال سارّ، ولادة الفيزياء في نصّ لوكرتيوس: «ترتكز الفيزياء على فضاء اتّجاهيّ أكثر بكثير من ارتكازها على فضاء مِترِيّ» (ص ٧٩). وحول الإشكال الهيدروليكي، صص ١٠٤ - ١٠٧.

(٢) م. ن، ص ٣٥، ١٣٥ وما بعدها.

العملية لا تمرّ بجهاز الدولة، إنها تعبر على العكس من ذلك عن ذروة تحوّل مكنة الحرب وتتمّ في فضاء أملس.

لقد اعترضنا في موضع آخر تمييز بين «الفعل الحرّ» في الفضاء الأملس و«العمل» في الفضاء المخدّد. وبالفعل، في القرن التاسع عشر تتواصل بلورة مضاعفة: بلورة مفهوم فيزيائيّ- علميّ للعمل (الوزن- الارتفاع، القوّة- الثقل)، وبلورة مفهوم اجتماعيّ- اقتصاديّ لقوّة العمل أو للعمل المجرّد (كمية مجرّدة متجانسة تُطبّق على كلّ الأعمال وتقبل المضاعفة والقسمة). كان ثمة ههنا رابطة عميقة بين الفيزياء والسوسيولوجيا، بحيث أنّ المجتمع كان يوفّر قياسا اقتصاديًّا للعمل، وكانت الفيزياء توفّر من ناحيتها «عملة آلية» للعمل. كان مضايّف نظام العمل بالأجرة هو ميكانيكا القوى. أبدا لم تكن الفيزياء أكثر اجتماعية، بما أنّ الأمر يتعلّق في الحالتين بتحديد قيمة وسطى قارّة، لقوّة رفع أو سحب يمارسها إنسان- عيّاريّ بأكبر قدر ممكن من التماثل. فَرَض نموذج العمل على كلّ نشاط، تحويل كلّ فعل إلى عمل ممكن أو افتراضيّ، تأديب الفعل الحرّ أو (والأمر سواء) إلقاؤه جهة «وقت الفراغ» الذي لا يوجد إلّا بالإحالة على العمل. نفهم حينئذٍ لِمَ كان نموذج العمل يمثل بشكل أساسيّ جزءًا من جهاز الدولة، بوجهيه الفيزيائيّ والاجتماعيّ. كان الإنسان- العيّار بادئ ذي بدء هو إنسان الأشغال العامّة^(١). [٦١٢] مشكلات العمل المجرّد، تضاعف مفاعيله وقسمة عملياته، لم تُطرح أوّلا في مصنع الدّبابيس: إنها طُرحت أوّلا في المشاغل العمومية، وكذلك في تنظيم الجيوش (ليس فرض

(١) لقد بيّنت آن كريان (Anne Querrien) بوضوح أهمية الجسور والطّرق في بلورة مفهوم العمل. على سبيل المثال، سنة ١٨١٩، كتب هنري نافيه (Navier) الذي هو مهندس وأستاذ ميكانيكا: «يجب إنشاء عملة آلية تمكّننا من تقدير كميات العمل المستخدمة لإنجاز أيّ نوع من أنواع الصّنع».

الانضباط على الرجال وحسب وإنما كذلك الإنتاج الصّناعي للأسلحة). الأمر عاديّ جدّاً: وما ذلك لأنّ مكنة الحرب كانت تتضمّن هي ذاتها هذه الطّبعة. لكنّ الجهاز- دولة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كانت له هذه الوسيلة الجديدة، وسيلة تملّك مكنة الحرب: إخضاعها قبل كلّ شيء إلى نموذج- عمل المَشغل والمصنع الذي كان يتبلور في موقع آخر لكن بشكل أبطأ. بحيث أنّ مكنة الحرب لعلّها هي الأولى التي وقع تخديدها وجعلها تفرز زمن العمل المجرّد القابل للمضاعفة في مفاعيله وللقسمة في عملياته. هناك يجب أن يُهزم الفعل الحرّ في الفضاء الأملس. ينتمي النموذج الفيزيائي- الاجتماعي للعمل لجهاز الدّولة، بوصفه ابتكارها، وذلك لسببين. من ناحية لأنّ العمل لا يظهر إلّا مع تكوين فائض، لا وجود لعمل إلّا للتخزين، بحيث أنّ العمل (بحصر المعنى) يبدأ فقط مع ما يسمّى فائض العمل. من ناحية أخرى، لأنّ العمل ينقذ عملية تخديد معمّمة للمكان- الزّمان، عملية إخضاع الفعل الحرّ، إلغاء الفضاءات الملساء، إلغاء يجد مصدره ووسيلته في المسعى الأساسيّ للدّولة، في استحواذها على مكنة الحرب.

حجّة مضادّة: هنالك حيث لا وجود لجهاز الدّولة ولا لفائض العمل، لا وجود كذلك لنموذج- عمل. سيكون هناك تنويع متواصل للفعل الحرّ، مروراً من الكلام إلى الفعل، من هذا الفعل إلى ذاك، من الفعل إلى الغناء، من الغناء إلى الكلام، من الكلام إلى المنشأة، في تلوينية عجيبة، مع فترات ذروة أو جهد ليس للملاحظ الخارجيّ إلّا «ترجمتها» فقط في صيغة عمل منبثق بكيفية مكثّفة ونادرة. صحيح أننا قلنا دائماً عن الزّنوج: «إنهم لا يعملون، إنهم لا يعرفون ما هو العمل». صحيح أننا أجبرناهم على العمل أكثر من أيّ شخص آخر، وفق الكمية المجرّدة. يبدو أنه صحيح أيضاً أنّ الهنود لم يكونوا قادرين حتى على الفهم، وكانوا غير مؤهلين لأيّ تنظيم للعمل حتى وإن كان

عملا عبوديًا: الأمريكيون لم يكونوا استجلبوا الكثير من العبيد إلا لأنهم لم يكونوا يستطيعون استعمال الهنود الذين كانوا بالأحرى يفضلون الموت. بعض الإثنولوجيين المرموقين طرحوا مسألة أساسية. لقد عرفوا كيف يقلبون المشكل: المجتمعات المسماة بدائية ليست مجتمعات خصاصة أو كفاف نتيجة فقدان [٦١٣] العمل، بل على العكس من ذلك هي مجتمعات فعل حرّ وفضاء أملس وليست في حاجة لمُعامل - عمل أكثر من تكوينها لمخزون^(١). هذه المجتمعات ليست مجتمعات كسل مع أنّ تباينها مع العمل يمكن التعبير عنه في صيغة «الحقّ في الكسل». هذه المجتمعات ليست دون قوانين مع أنّ تباينها مع القانون يمكن التعبير عنه في هيئة «أناركيه». إنّ لها بالأحرى قانون التاموس الذي ينظّم تغييرا مستمرًا للنشاط، بصرامته الخاصّة وبقساوته (التخلّص ممّا لا نستطيع حمله، شيوخا أو أطفالا...).

لكن إذا كان العمل يكون مكانا - زمانا محدّدا موافقا لجهاز الدولة، ألا يكون ذلك صادقا إلا بالنسبة إلى الأشكال العتيقة أو القديمة خاصة؟ ذلك أنه هنالك يكون فائض العمل معزولا ومختلفا في شكل ضريبة أو سُخرة. وهنا إذاً يمكن أن يظهر مفهوم العمل في أجلى مظاهره: على سبيل المثال، الأشغال الكبرى للإمبراطوريات، الأشغال الهيدروليكية، الفلاحة أو الحضرية، حيث يتمّ فرض تصريف «رقائقي» للمياه وفق حصص يُفترض فيها أن تكون متوازية (تخديد). على

(١) إنه لأمر معهود في قِصص المبشرين: لا شيء يتوافق مع مقولة العمل، حتى في الزراعة الانتجاعية بالرّغم من أنّ أنشطة استصلاح الأراضي فيها مضيّة. لم يكتب مارشال سالنز (Marshall Sahlins) بملاحظة قِصّر زمن العمل الصّوريّ للصيانة ولإعادة الإنتاج، لكنه يلجّ على العوامل الكيفية: التغيّر المستمرّ الذي ينظّم النشاط، حركية أو حرية الحركة التي تستبعد المخزونات وتقيس ذاتها على «سهولة نقل الموضوع» («مجتمع الوفرة الأوّل» ضمن مجلة الأزمنة الحديثة، أكتوبر ١٩٦٨، ص ٦٥٤ - ٦٥٦، ٦٦٢ - ٦٦٣، ٦٧٢ - ٦٧٣).

العكس من ذلك، يبدو أنّ فائض العمل في النظام الرأسماليّ، يتقلّص تمييزه بصورة متزايدة عن «العمل على الإطلاق»، وهو يهيمن عليه بالكامل. الأشغال العامّة الحديثة ليست لها نفس منزلة الأشغال الإمبراطورية. كيف نستطيع التمييز بين زمن إعادة الإنتاج والزمن «المتنزع»، بما أنهما توقفا عن كونهما منفصلين في الزمان؟ الآكد أنّ هذه الملاحظة لا تناقض نظرية فائض القيمة الماركسية، ذلك أنّ ماركس يبيّن بالضبط أنّ فائض القيمة هذا لم يعد قابلاً للتحديد في النظام الرأسماليّ. بل إنّ ذلك هو إسهامه الأساسيّ. يمكن لماركس أن يستشعر بشكل أفضل أنّ الآلة ذاتها تصبح مولّدة لفائض القيمة، وأنّ حركة رأس المال تضع على المحكّ التمييز بين رأس مال متحوّل ورأس مال ثابت. يظلّ صحيحاً في ظلّ هذه الظروف الجديدة، كون كلّ عمل هو فائض عمل؛ لكنّ فائض العمل لم يعد يمرّ حتى بالعمل. فائض العمل والتنظيم الرأسماليّ في جملته، يتزايد تناقص مروّرها بالتخديد مكان- زمان الموافق للمفهوم الفيزيائيّ- الاجتماعيّ للعمل. [٦١٤] وكأنّ الاغتراب الإنساني قد تمّ تعويضه بالأحرى في فائض العمل ذاته بـ «استعباد مكثّي» معمّم، مثلما نمنح فائض قيمة بغضّ النظر عن عمل ما (الطفل والمتقاعد والعاطل عن العمل والمدقّق في تلفاز، إلخ.). ليس المستعمل من حيث هو كذلك هو الذي يهدف إلى أن يصبح موظّفاً، بل الرأسماليّ هو الذي لا يستهدف كمية عمل بقدر ما يستهدف سيروّة كميّة معقّدة تستخدم وسائل النّقل والنماذج الحضرية ووسائل الإعلام وصناعة الرّفاه وطرق الإدراك والإحساس وكل السّيميائيات. وكأنّ رأس المال المتحرّك، في أعقاب التخديد الذي رفعته الرأسمالية إلى نقطة من الكمال الذي لا يُضاهى، كان أعاد بالضرورة خلق وإنشاء ضرب من الفضاء الأملس الذي يتقرّر فيه مصير البشر من جديد. لا ريب أنّ التخديد يظلّ قائماً في أكمل أشكاله وأشدّها صرامة (لم يعد عمودياً وحسب بل هو يعمل في كلّ

الاتجاهات)؛ غير أنه يحيل خاصّة على القطب الدّولانيّ للرأسمالية، أي على قطب الأجهزة الحديثة للدولة في تنظيم رأس المال. في المقابل، وعلى الصعيد الإضافيّ والمهيمن لرأسمالية عالمية مدمجة (أو بالأحرى مدمجة)، تمّ إنتاج فضاء أملس جديد يصل فيه رأس المال إلى سرعته «المطلقة»، القائمة على مكّونات مكّنية ولم تعد قائمة على المكوّن البشريّ للعمل. تصنع الشركات متعدّدة الجنسيات نوعا من الفضاء الأملس اللا متأرضن الذي تصبح فيه نقاط الاستيلاء كما أقطاب التبادل متحرّرة جدّا من سبل التخديد التقليدية. الجديد هو دائما أشكال الدّوران الجديدة. الأشكال الحالية المتسارعة لحركة رأس المال القارّ والمتغيّر، وحتى رأس المال الثابت والمتحرّك؛ الأساسيّ بالأحرى هو التمييز بين رأس مال مخدّد ورأس مال أملس، والكيفية التي يستثير بها الأوّل الثاني من خلال مجمّعات تُحلّق فوق الأقاليم والدّول، بل وفوق مختلف أنواع الدّول.

نموذج إستطقيّ: الفنّ المترحلّ. - عديد المصطلحات العملية والنظرية قادرة على تعريف فنّ مترحلّ مع توابعه (الحوشية والقوطية والحديثة). إنّ الأمر يتعلّق أولا بـ«الرؤية عن كُتب» في اختلافها عن الرؤية عن بُعد؛ كذلك أيضا هو الـ«فضاء الملموس» أو بالأحرى الـ«فضاء اللّمسّي» في اختلافه عن الفضاء البصريّ. كلمة اللّمسّي أفضل من ملموس بما أنها لا تقيم تعارضا بين حاستين بل تسمح بافتراض أنّ العين قادرة هي ذاتها على أن تكون لها هذه الوظيفة التي ليست وظيفة بصرية. إنّ ألويس ريغل (Alois Riegl) هو الذي أعطى في صفحات رائعة، منزلة إستطقية أساسية لهذا الزّوج رؤية عن كُتب- فضاء لمسيّ. غير أنه علينا أن نتغاضى مؤقتا عن المقاييس المقترحة من طرف ريغل (ثمّ من بعد ذلك من طرف ورنينغر (Worringer)، واليوم من طرف هنري مالديناي (Henri Maldiney))، حتى [٦١٥] نجازف نحن

أنفسنا قليلا ونستعمل هذه المصطلحات بحرية^(١). إنَّ الأملس هو الذي يبدو لنا في نفس الوقت بشكل متميّز موضوع رؤية عن كُثب وعنصر فضاء لمسيّ (يمكن أن يكون بصريّا، سمعيّا بقدر ما يكون لمسيّا). على العكس من ذلك قد يحيل المخدّد على رؤية أبعدَ وعلى فضاء أكثر بصريّة- حتى وإن لم تكن العين هي بدورها الحاسّة الوحيدة التي لها تلك القدرة. ومرةً أخرى، ينبغي أن نصحّح دوماً بمُعاملٍ تغيير حيث التقلّات بين المخدّد والأملس هي في نفس الوقت ضرورية وارتيازية بقدر ما هي مربكة. قانون اللوحة هو أن تُرسم عن قرب، مع أنها تُرى نسبياً من بعيد. يمكننا التراجع أمام شيء ما، لكنّ من يتراجع إزاء اللوحة التي هو بصدد إنجازها لا يُعتبر رسّاماً جيّداً. وحتى الـ«شيء»: كان سيزان يتحدّث عن ضرورة الانقطاع عن رؤية حقل القمح، على ألا نكون قريبين جدّاً منه، على أن نتيه دون موجّه في فضاء أملس. حينئذ يمكن للتخديد أن يحدث لاحقاً: التصوير، الطبقات، الأرض، «الهندسة العنيدة»، «مقياس العالم»، «المرتكزات الجيولوجية»، «كلّ شيء يقع من علّ»... حتى ولو تلاشى المخدّد بدوره في «كارثة»، لصالح فضاء أملس جديد، وفضاء مخدّد آخر.

اللوحة مرسومة من قريب حتى وإن كانت تُرى من بعيد. نقول بالمثل إنَّ الملحن لا يسمع: ذلك أنّ له سماعاً عن مقربة بينما يسمع السّامع عن بُعد. ويكتب الكاتب ذاته بذاكرة قصيرة، بينما يُفترض في القارئ أن يكون صاحب ذاكرة طويلة. للفضاء الأملس، اللّمسّي والذي فيه رؤية عن كُثب، مظهر أوّل: هو التغيّر المستمر لوجهاته ومعالمه واقتراحاته؛ إنه يعمل بشكل تدريجيّ. هكذا هي الصّحراء والسّبابس

(١) النصوص الرئيسية هي: ألويس ريغل، صناعة الفنّ في الحقبة الرومانية المتأخّرة، فيانّا؛ فيلهالم ورنغر، التجريد والتعاطف، كلينكسيك؛ هنري مالدني، النّظر والكلام والفضاء، وبالأخص «الفنّ وسلطة الخلفية»، وتعليقات مالدني حول سيزان.

والجليد أو البحر، إنها فضاء محلّي لترابط محض. على عكس ما يقال أحيانا، إننا لا نرى فيه عن بُعد، ولا نراه عن بُعد، لسنّا «قبالته» على الإطلاق، مثلما أننا لسنّا «داخله» (إنّا «فوقه»...). ليس للوجهات ثابت، بل هي تتبدّل بحسب النباتات والاستيلاءات وتساقط الأمطار الموسميّ. المعالم لا نموذج مرئيّ لها بإمكانه أن يجعلها تُتبادل في ما بينها، ويوحّدها في صنف عطالة يمكن أن يُنسب إلى ملاحظ خارجيّ ساكن. على العكس من ذلك، المعالم مرتبطة بعدد كبير من الملاحظين الذين يمكن وصفهم بأنهم «مونادات»، لكن هم بالأحرى مترحلون يقيمون في ما بينهم علاقات ملموسة. إنّ الاقترانات لا تستتبع أيّ فضاء محيط قد تغطس فيه الكثرة [٦١٦] وقد يمنح ثابتة للمسافات؛ على العكس من ذلك تتكوّن الاقترانات وفق فروق منظّمة تنوّع جوهريّا تقسيم نفس المسافة^(١). مسائل التوجيه والتعيين والوصل هذه، قد عمدت إلى استخدامها القطع الأشهر للفنّ المترحلّ: هذه الحيوانات الملتوية أعناقها لم تعد لها أرض؛ التربة لا تنفكّ تغير وجهتها، كما في القفز البهلواني في الفضاء؛ تتجه الأرجل عكس اتّجاه الرّأس، الجزء الأسفل من الجسم قد انقلب؛ زوايا النظر «المونادولوجيّة» لا يمكن الوصل بينها إلّا فوق فضاء مترحلّ؛ المجموع والأجزاء يمنحان العين التي تنظر لهما وظيفة لمسية ولم تعد وظيفة بصرية. إنها حيوانية لا تتسنّى رؤيتها دون لمسها في الرّوح، دون أن يتحوّل الرّوح إلى إصبع،

(١) كلّ هذه التّقاط كانت تحيل من قبل على الفضاء الريامانيّ في علاقته الأساسيّة بـ«المونادات» (في تقابل مع الذات الواحديّة للفضاء الأقليديّ): راجع، جيل شاتليه (Gilles Chatelet)، «حول جملة صغيرة لريامان»، مجلة تحليليات (Analytiques)، العدد ٣، ماي ١٩٧٩. لكن إذا توقّفنا عن اعتبار «المونادات» منغلقة على ذاتها وافترضنا أنّها تقيم علاقات مباشرة متدرّجة، فإنّ وجهة النّظر المونادولوجيّة المحض تتبدّى غير كافية، وعليها أن تترك مكانها لـ«ترحلية» (فكرانيّة الفضاء المخدّد، وإنّما واقعية الفضاء الأملس).

حتى عبر العين. (بطريقة أكثر فظاظة بكثير، هذا هو دور المشكال: إعطاء العين وظيفة إصبعية). على العكس من ذلك يقع تعريف الفضاء المخدّد بمقتضيات رؤية بعيدة: استقرار الاتجاه وثابتية المسافة بواسطة تبادل معالم العطالة، توصيل بواسطة الغوص في وسط محيط، تكوين منظور مركزيّ. لكن من العسير تقويم الإمكانات الخلاقة لهذا الفضاء المخدّد، وكيف يكون بوسعه أن يخرج في نفس الوقت من الأملس ويبعث من جديد جملة الأشياء.

المخدّد والأملس لا يتقابلان تقابل الشّامل والموضعيّ وحسب. ذلك أنه في الحالة الأولى ما يزال الشّامل نسبياً، بينما في الحالة الأخرى الموضعيّ هو المطلق بالفعل. هنالك حيث الرؤية عن كُتب، لا يكون الفضاء بصريّاً، أو بالأحرى لا يكون للعين ذاتها وظيفة بصرية بل وظيفة لمسيّة: لا خطّ يفصل بين الأرض والسّماء اللتين هما من نفس الجوهر؛ ليس ثمة أفق ولا قاع ولا منظور ولا حدّ ولا حافة أو شكل ولا مركز؛ ليس ثمة مسافة وسيطة أو أنّ كلّ مسافة هي مسافة وسيطة. ذلك هو حال فضاء الإسكيمو^(١). لكن بشكل مغاير تماماً وفي سياق مختلف تماماً [٦١٧]، يرسم فنّ المعمار العربيّ فضاء يبدأ مقرّباً جدّاً ومنخفضاً جدّاً، يضع الخفيف والجوّيّ في الأسفل بينما يكون الصّلب أو الثّقل في الأعلى، وذلك في قلب لقوانين الجاذبية حيث يصبح فقدان الوجهة وسلب الحجم قوى بناءة. يوجد مطلق مترحّل بوصفه الاندماج الموضعيّ الذي يذهب من جزء إلى آخر، وهو يكوّن الفضاء

(١) راجع، توصيف أدmond كاربونتار (Edmund Carpenter) لفضاء الجليد وكوخ الإسكيمو المقبّب في إسكيمو: «لا وجود لمسافة وسيطة ولا لمنظور أو لمحيط، ليس بوسع العين أن تلتقط غير آلاف الرّيش الذي ينبعث منه بخار الجليد (...). أرض لا قاع لها ولا حُرف (...). متاهة تحيا بحركات شعب في جمهرة، دون أن توقف جدران مسطّحة ثابتة الأذن أو العين، ويمكن للعين أن تنزلق هنا وتمرّ إلى هناك.»

الأملس في التعاقب اللامتناهي للتوصيلات ولتغييرات الوجهة. إنه مطلق هو والصيرورة ذاتها أو هو والصيرورة واحد. إنه مطلق العبور الذي يتدامج مع تجلّيه في الفن المترحل. المطلق في هذا الفن هو مطلق موضعيّ، وذلك بالفعل لأنّ الحيز فيه لا حدّ له. في المقابل، إذا رجعنا إلى الفضاء البصريّ والمخدّد، ذي الرؤية البعيدة، فإننا نرى أن الشّامل النسبيّ الذي يميّز هذا الفضاء يستوجب المطلق أيضا، لكن على نحو مغاير تماما. المطلق في هذا الفضاء هو الآن الأفق أو الخلفية، أي الشموليّ الذي قد لا يكون ثمة من دونه لا شامل ولا مشمول. إنه فوق هذه الخلفية تبرز الحافة النسبيّة أو الشّكل. المطلق نفسه يمكنه الظهور في المشمول، لكن فقط في موضع مفضّل، محدّد بدقة بوصفه مركزا، ووظيفته مذكّك هي أن يدفع خارج الحدود كلّ ما قد يهدّد الاندماج الشّامل. نلاحظ هنا بوضوح كيف يصمد الفضاء الأملس، لكن ليصدر عنه المخدّد. ذلك أنّ الصحراء أو السماء أو البحر، المحيط، اللامحدود، يلعب كلّ منها في البدء دور الشموليّ ويسعى لأن يصير أفقا: هكذا تكون الأرض محاطة، معولّمة، «مؤسّسة» بواسطة هذا العنصر الذي يشدّها في توازن ثابت ويجعل شكلا ما شكلا ممكنا. لكن بقدر ما أنّ الشموليّ يظهر هو ذاته في مركز الأرض، فهو يضطلع بدور ثان، يتمثّل هذه المرّة في الدّفع بكلّ ما كان يزال بإمكانه أن يصمد من أملس أو غير مقيس، نحو حفرة مقبّنة، نحو مئوى الأموات^(١). يتضمّن

(١) نجد هذين المظهرين، الشموليّ والمركز، في التحليل الذي يقوم به جان بيار فرنان لفضاء أنكسمندر (المبته والفكر عند الأغارقة، الجزء الأوّل، القسم الثالث). من زاوية نظر أخرى، هو تاريخ الصّحراء بكامله: إمكان أن تصبح هي الشموليّ، وأن تجد نفسها كذلك مدحورة ومنبوذة من طرف المركز، كما في قلب للحركة. في فنومينولوجيا للدين كالتّي تمكّن فان دير ليو (Van der Leeuw) من القيام بها، يظهر التّاموس ذاته بوضوح على أنه الشموليّ- الحدّ أو القاع، لكن أيضا على أنه المدحور والمستبعد في حركة نابذة.

تخديد الأرض هذه المعالجة المضاعفة للأملس بوصفها شرطاً له، من ناحية هو مرفوع إلى الحالة المطلقة للأفق الشموليّ أو هو مختزل فيه، من ناحية أخرى هو مطرود من المشمول النسبيّ. الديانات الإمبراطورية الكبرى محتاجة إذًا إلى الفضاء الأملس (فضاء الصحراء مثلاً)، لكن من أجل أن تمنحه قانوناً يتعارض بالكلية مع الناموس ويحوّل المطلق.

[٦١٨] لعلّ ذلك هو ما يفسر لنا التباس التحليلات الجميلة لرياغل، وورنغار ومالديناي. إنهم يدركون الفضاء اللّمسّي ضمن الظروف الإمبراطورية للفنّ المصريّ. إنهم يعرفونه بحضور خلفية-أفق، باختزال الفضاء في المسطّح (الأفقيّ والعموديّ، الارتفاع والعرض) وبالحافة المستقيمة التي تحبس الفردية وتستثنيها من التغيير. ذلك هو الشكل- الهرم على خلفية الصحراء الساكنة، الذي يحمل على كلّ جوانبه سطحاً مسطّحاً. وبالمقابل هم يبيّنون كيف أنه مع الفنّ الإغريقيّ (ثمّ من بعد ذلك في الفنّ البيزنطيّ وحتى عصر النهضة)، يتميز فضاء بصريّ يعجرف العمق مع الشكل، يجعل المسطّحات تتداخل، يستولي على العمق، يعرك امتداداً ضخماً أو مكعباً، ينظّم المنظور، يتلاعب بالتضاريس والظلال، بالأضواء والألوان. لكنهم على هذا النحو ومنذ البداية، يلتقون باللّمسّي في نقطة تحوّل، في ظروف يُستخدَم فيها بالفعل لتخديد الفضاء. البصريّ سيجعل هذا التخديد أكثر كمّالاً وأكثر إحكاماً، أو بالأحرى يجعله كاملاً بشكل مغاير، ومحكماً بشكل مغاير (لا يتعلّق الأمر بنفس «إرادة- فنّان»). يبيّن أنّ كلّ شيء يحدث في فضاء تخديد ينتقل من الإمبراطوريات إلى المدن أو إلى الإمبراطوريات المتطوّرة. ليس من قبيل الصدفة أن يسعى رياغل إلى إقصاء العوامل الخاصّة بفنّ مترحّل أو حتى بربريّ؛ وأن يُرجع وورنغار في الوقت الذي يُدخل فيه مع ذلك فكرة فنّ قوطيّ بالمعنى الأوسع، هذه الفكرة من جهةٍ إلى هجرات الشمال الجرمانيّ والسّلتيّ، ومن جهةٍ أخرى إلى إمبراطوريات الشّرق. كان ثمة مع ذلك بين

الجهتين، الرّحلّ الذين يأبون اختزالهم في الإمبراطوريات التي كانوا يواجهونها، أو في الهجرات التي كانوا يشدّون إليها الرّحال؛ وعلى وجه الدّقة كان القوطيّون (Goths) ينتمون إلى رّحل السّباسب هؤلاء، إلى جانب السّرمانيّين (Sarmates) والهنونيّين (Huns)، إنهم موجّه أساسيّ لتواضّل بين الشرق والشّمال، لكنهم أيضًا عاملٌ يتعذّر اختزاله في هذا أو ذاك من البُعدين^(١). من جهة، كان لمصر بالفعل هكسوسها، لآسيا الصّغرى هتيتوها (Hittites)، للصّين أتراكها-مغولها؛ ومن الجهة الأخرى كان للعبرانيّين حابيروهم (Habiru)، للجرمان والسّلتيين والرّومان القدامى قوطيوهم، للعرب بدوهم. هناك خصوصية ترحلية سرعان ما نختزلها في نتائجها، وذلك حينما نفهم المترحّلين انطلاقًا من الإمبراطوريات أو عند المهاجرين، حينما نردّهم إلى هذه أو إلى أولئك، وذلك بإنكار إرادة الفنّ الخاصة بهم. مرّة أخرى [٦١٩] نرفض أنّ الوسيط بين الشرق والشّمال كانت له خصوصيته المطلقة، نرفض كون الوسيط أو الفاصل له حقًا هذا الدّور الجوهريّ. عدا عن ذلك، ليس له ذلك الدّور من حيث هو «إرادة»، ليس له غير صيرورة، إنه يخلق «صيرورة-فنانًا».

عندما نستحضر ثنائيةً أولانيةً للأملس والمخدّد، فذلك من أجل القول إنّ الفروق بين «لمسيّ-بصريّ»، «رؤية عن كُتب-رؤية من بعيد»، هي ذاتها تابعة لهذا التمييز. وبالتالي لن نعرّف اللّميّ بالقاع السّاكن، بالمسطّح والحافة، ذلك أنّ الحالة مختلطة بالفعل حيث

(١) أيّا كانت التفاعلات فإنه ثمة خصوصية لـ«فنّ السّباسب» الذي سينتقل إلى جرمانيّ الهجرة: بالرّغم من كلّ احترازاات رنيه غروسّات (René Grousset) على ثقافة مترحلة، فإنه ميّزها، إمبراطورية السّباسب، بايو، صص ٤٢-٦٢. إنه تعذّر ردّ الفنّ السكيّثي (scythe) إلى الفنّ الآشوريّ، الفنّ السّرماتيّ إلى الفنّ الفارسيّ، الفنّ الهونيّ إلى الفنّ الصينيّ. لقد أمكن القول إنّ فنّ السّباسب تأثيره كان أكبر من تأثره (راجع بالخصوص مسألة الفنّ الأرديسي وعلاقته بالصّين).

يُستعمل اللَّمسيّ للتّخديد، ولم يعد يَستعمل مكوّناته الملساء إلّا من أجل أن يحوّلها في فضاء آخر. الوظيفة اللَّمسيّة والرؤية عن كُتب تفترضان في البداية الأملس الذي لا ينطوي لا على قاع ولا على مسطّح ولا على حافة، بل ينطوي على تحوّل اتجاهاية وعلى وصلات بين أجزاء موضوعية. عكسيّا، الوظيفة البصرية المتطوّرة لا تكفي بدفع التّخديد إلى نقطة كمال جديدة، من خلال منحه قيمة ومدى كُليّين خياليّين؛ إنها قادرة أيضا على إعادة الأملس من جديد من خلال تحرير الضّوء وتعديل اللّون، من خلال استرداد ضرب من الفضاء اللَّمسيّ الهوائيّ الذي يشكّل الحيّز اللامحدود لتداخل المسطّحات^(١). باختصار، الأملس والمخدّد يجب تعريفهما بدءً لذاتهما، قبل أن تصدر عنهما التّمييزات الخاصّة باللّمسيّ والبصريّ، بالقرب والبعيد.

هنا يتدخّل زوج ثالث: «خطّ مجرّد- خطّ عينيّ» (إلى جانب «لمسيّ- بصريّ» و«قريب- بعيد»). وورنغار هو الذي أولى أهمية أساسية لفكرة الخطّ المجرّد هذه، إذ رأى فيها بداية الفنّ ذاتها أو التعبير الأوّل عن الإرادة- فنّان. الفنّ مكنة مجرّدة. ودون شكّ، هنا أيضا قد ننزع مسبقا إلى الاحتجاج بنفس الاعتراضات كما في السّابق: يبدو أنّ الخطّ المجرّد يظهر لوورنغار بادئ الأمر في الشكل الإمبراطوريّ المصريّ، الهندسيّ أو البلّوريّ، على أكبر قدر ممكن من الاستقامة؛ ولاحقا فقط قد يمرّ بانقلاب خاصّ، مكوّنا «خطّ القوطيّ أو الشّماليّ» بالمعنى الواسع جدّا^(٢). على العكس من ذلك، بالنسبة

(١) حول مسألة الضّوء واللّون هذه، في الفنّ البيزنطيّ خاصّة، راجع، هنري مالديني، ص ٢٠٣ وما بعدها، ص ٢٣٩ وما بعدها.

(٢) كان رياغل اقترح من قبل تضافيا بين «لمسيّ- قريب- مجرّد». لكن وورنغار هو الذي طوّر هذا المبحث، مبحث الخطّ المجرّد. وإذا كان أدركه أساسيا في شكله المصريّ، فإنه يوصّف له شكلا ثانيا، حيث يتّخذ المجرّد حياة عارمة وقيمة

إلينا نحن، الخطّ المجرّد هو في المقام الأوّل خطّ «قوطني» أو هو بالأحرى مترخّل وغير مستقيم. حينئذ، نحن لا نفهم [٦٢٠] بنفس الكيفية الحافز الإستيطقيّ للخطّ المجرّد ولا تماهيه مع بداية الفنّ. بينما يجد الخطّ المصريّ المستقيم (أو المستدير «انتظاميًا») حافزا سلبيا في التضايق ممّا يمضي، يندفق أو يتغيّر، وينشئ دوام وأبدية الفني ذاته، فإنّ الخطّ المترخّل مجرّد بمعنى مغاير تماما، تحديدا لأنه ذو وجهة متكرّرة، ويمرّ بين النّقاط والأشكال والحافات: حافزه الإيجابيّ قائم في الفضاء الأملس الذي يرسمه وليس في التّخديد الذي قد يجريه لدرء التضايق واستلحاق الأملس. الخطّ المجرّد هو أفعال الفضاءات الملساء، وليس هو الإحساس بالضيق الذي يستنجد بالتخديد. من ناحية أخرى، صحيح أنّ الفنّ لا يبدأ إلّا مع الخطّ المجرّد؛ لكن ليس سبب ذلك هو أنّ المستقيم قد يكون هو الكيفية الأولى للقطع مع محاكاة الطبيعة، محاكاة غير إستيطقية قد يستمرّ توقّف الما قبل تاريخيّ عليها، وكذلك البرّيّ والطفوليّ بوصفه ما تنقصه «إرادة فنّ». على النقيض من ذلك، إذا كان ثمة بالتّمام فنّ ما قبل تاريخيّ، فلاّنه يستخدم الخطّ المجرّد مع أنه ليس خطّا مستقيما: «يبدأ الفنّ البدائيّ في المجرّد بل وحتى في القَبْتصويريّ، (...) في البداية الفنّ مجرّد ولم يكن بوسعه أن يكون مغايرا في أصله»^(١). وبالفعل، يكون الخطّ أكثر

تعبيرية، مع بقائه غير عضويّ: التجريد والتّعاطف، الفصل الخامس، وخاصة الفنّ القوطني، صص ٦١ - ٨٠.

(١) لوروا غورون (Leroi-Gourhan)، الحركة والكلمة، ألبان ميشال، الجزء الأوّل، ص ٢٦٣ وما بعدها؛ الجزء الثاني، ص ٢١٩ وما بعدها («العلامات الإيقاعية سابقة على الأشكال الصريحة»). موقف وورنغار كان ملتبسا جدّا؛ إذ باعتقاده أنّ الفنّ الما قبل تاريخيّ كان في البداية فنّا تصويريّا، فإنّه كان أقصاه من دائرة الفنّ، على غرار «خريشات الأطفال»: التجريد والتّعاطف، صص ٨٣ - ٨٧. ثمّ يقترح فرضية كون سكّان الكهوف لعلّهم «آخر عنصر نهائيّ» من

تجريدا بقدر ما لا تكون ثمة كتابة، إمّا لأنها لم توجد بعدُ وإمّا لأنها موجودة في الخارج أو في الجوار وحسب. عندما تضطلع الكتابة بالتجريد كما في الإمبراطوريات، فإنّ الخطّ الذي سبق وأن وقع إبعاده، ينزع ضرورة إلى أن يصير عينيّا بل وتصويريّا. لم يعد الأطفال يعرفون كيف يصوّرون. لكن عندما لا تكون ثمة كتابة، أو عندما لا تكون شعوب في حاجة إلى الكتابة الشخصية لأنها وقرتها لها إمبراطوريات مجاورة لها تقريبا (كذا حال المترحّلين)، حينئذ لا يمكن للخطّ إلّا أن يكون مجردا ويتمتع ضرورة بكامل قدرة التجريد التي لا تجد لها أيّ منفذ في مكان آخر. لذلك نحن نعتقد أنّ مختلف الأنماط الكبرى للخطّ الإمبراطوريّ، الخطّ المصريّ المستقيم، الخطّ العضويّ الآشوريّ (أو اليونانيّ)، الخطّ الشّموليّ الصّينيّ المافوق ظاهراتيّ، تُحوّل بالفعل الخطّ المجرد، تقتله من فضائه الأملس وتمنحه قيمة عينية. [٦٢١] ومع ذلك يمكن القول إنّ الخطوط الإمبراطورية هي خطوط معاصرة للخطّ المجرد؛ إلّا أنّ هذا الأخير يظلّ هو في «البداية»، بقدر ما يكون هو القطب المفترض دائما من قبل كلّ الخطوط القادرة على تشكيل قطب آخر. الخطّ المجرد كائن في البداية بتجريده التاريخيّ ذاته بقدر ما هو بتأريخه الما قبل تاريخيّ. بحيث أنّه يظهر في طرافة الفنّ المترحّل وعدم قابليته للاختزال، حتى عندما يكون ثمة تفاعل وتأثير ومواجهة، متبادلة جميعها مع خطوط إمبراطورية للفنّ المتوطّن.

مجردّ لا يتعارض مباشرة مع تصويريّ: التصويريّ لا ينتمي أبدا بما هو كذلك إلى «إرادة فنّ»؛ بحيث أنّه لا يسعنا أن نواجه في الفنّ

سلسلة قد تكون بدأت بالمجرد (ص ١٦٦). لكن أليست مثل هذه الفرضية هي التي قد تجبر وورنغار على تعديل فهمه للمجرد وعلى التوقف عن جعله مطابقا للهندسّي المصريّ؟

بين خطّ تصويريّ وخطّ قد لا يكون كذلك. التّصويريّ أو المُحاكاة والتّشخيص هما حاصلٌ أو نتيجةٌ متأتية من بعض خصائص الخطّ عندما يتّخذ هذا الشّكل أو ذاك. إذًا، هذه الخصائص هي التي يجب تحديدها أولاً. لنفترض منظومة تكون فيها الخطوط العرضانية تابعة لخطوط قُطرية، والقُطرية لخطوط أفقية وعمودية، الأفقية والعمودية تابعة لنقاط حتى وإن كانت نقاطا افتراضية: مثل هذه المنظومة المستقيمة أو أحادية الخطّ (مهما كان عدد الخطوط) تعبّر عن الشّروط الصّورية التي يكون الفضاء في ظلّها محدّدًا ويكون الخطّ حافة. مثل هذا الخطّ تشخيصيّ بذاته صوريًا، حتى وإن لم يكن يشخّص شيئًا. على النقيض من ذلك، إنّ خطّا لا يحدّ شيئًا ولم يعد يرسم أية حافة، لم يعد يمرّ من نقطة إلى أخرى وإنما يمرّ بين النّقاط، لا ينفكّ يتحاشى الأفقيّ والعموديّ، ينحرف عن الخطّ القُطريّ محوّلًا وجهته باستمرار، - هذا الخطّ المتحوّل الذي لا خارج له ولا داخل، لا شكل له ولا خلفية، لا بداية له ولا نهاية، والذي هو نابض بالحياة مثل تبدّل متواصل، هو حقّا خطّ مجرد ويصف فضاء أملسا. هذا الخطّ ليس خطّا غير معبّر. صحيح مع ذلك أنه لا يكون أيّ شكل تعبيريّ قارّ وتناظريّ، قائم على تصادي النّقاط وعلى وصل الخطوط. لكن تظلّ له مع ذلك سمات تعبير مادية تتنقل معه ويزايد مفعولها باطراد. بهذا المعنى يقول وورنغار عن الخطّ القوطيّ (بالنسبة إلينا هو الخطّ المترخّل الذي يتمتّع بالتجريد): إنّ له قدرة التعبير وليس الشكل، له المعاودة بوصفها قدرة وليس له التناظر بوصفه شكلا. فعلا، المنظومات المستقيمة تحدّد المعاودة بالتناظر وذلك بمنع التدرّج اللامتناهي، وتحافظ على الهيمنة العضوية لنقطة مركزية ولخطوط مشعّة كما في الأشكال المنعكسة أو نجمية الشّكل. لكن إطلاق قدرة المعاودة بوصفها قدرةً مكنية تُضاعف مفعولها وتتابع حركة [٦٢٢] لا متناهية، فتلك خاصية الفعل الحرّ، العامل بالحيّدان وبالانزياح عن المركز، أو على الأقلّ بحركة محيطية: طروحات متعدّدة

بدلاً من أطروحة مضادة متناظرة^(١). لن نخلط إذاً سمات التعبير التي تصف فضاء أملسا والتي تتصل بمادة - دق، مع الحُزوز التي تبدل الفضاء وتجعل منه شكل تعبير يربّع المادة وينظّمها.

أجمل صفحات وورنغار هي تلك التي يجعل فيها المجردّ مقابلاً للعضويّ. العضويّ لا يشير إلى شيء قد يقع تصويره وإنما يشير بدءاً إلى شكل التصوير، وحتى إلى الإحساس الذي يربط التصوير بذات (التعاطف). «تجري داخل الأثر الفنيّ سيرورات صورية تتواءم والميولات الطبيعية العضوية في الإنسان». لكن وبتمام الدقّة، لا يمكن بهذا المعنى أن يكون المستقيم أو الهندسيّ هو الذي يتعارض والعضويّ. الخطّ العضويّ اليونانيّ الذي يستلحق الحجم أو المكانية، يحلّ محلّ الخطّ الهندسيّ المصريّ الذي كان يختزلهما في المسطح.

(١) يقابل وورنغار بين قدرة المعاودة الميكانيكية والمضاعفة والتي لا وجهة ثابتة لها، وبين قوّة التناظر العضوية والجمعية، الموجّهة والممرّكة. إنه يلحظ الفرق الجوهريّ لهذا التقابل بين التزيين القوطيّ والتزيين اليونانيّ أو الكلاسيكيّ: الفنّ القوطيّ، صص ٨٣ - ٨٧ («اللحن اللامتناهي للخطّ الشّمالي»). في كتاب جميل هو إستيطيقات الشرق والغرب نشرته دار ألكان، يحلّل لور مورغنستارن (Laure Morgenstern) مثالا دقيقا ويميّز بين «الأطروحة التناظرية المضادة» التي هي أطروحة الفنّ الفارسيّ السّاسانيّ، و«الأطروحة المنزاحة المضادة» التي هي أطروحة فنّ الرّحل ذوي الخصائص الإيرانيّة (السرماطيون). مع ذلك ألحّ الكثير من الشّراح على الأنماط التناظرية والممرّكة في الفنّ المترحلّ أو البربريّ. غير أنّ وورنغار كان أجاب مسبقاً: «عوض نجمة عادية وهندسية في ظلّ جميع هذه العلاقات، عوض نجمية أو أشكال أخرى ساكنة، نجد العجلة التي تدور، نجد التوربين أو العجلة المسمّاة شمسا؛ تعبّر كلّ هذه النّماذج عن حركة قسرية؛ وجهة الحركة ليست مشعّة بل هي محيطية». يؤكّد التاريخ التكنولوجيّ أهمية التوربين في حياة الترحّل. في سياق آخر بيو - إستيطيقيّ، كان غابريال تارد يقيم تعارضاً بين المعاودة بوصفها قدرة غير محدودة والتناظر بوصفه حدّاً. مع التناظر، كانت الحياة تصنع لنفسها عضوية وكانت تتخذ شكلاً نجميّاً أو منعكساً ومثنيّاً (اللافقاريات والرخويات). صحيح أنها كانت تطلق ضرباً آخر من المعاودة في التناسل الخارجيّ، راجع التقابل الكلّيّ، منشورات ألكان.

العضويّ، بتناظريته وحافته وخارجته وداخله، ما زال يتعلّق وخصائصه هذه، بالإحداثيات المستقيمة لفضاء مخدّد. يمتدّ الجسد العضويّ في خطوط مستقيمة تربطه بالبعيد. من هنا أوليّة الإنسان أو الوجه، لأنّه هذا الشّكل التعبيريّ عينه، الذي هو في نفس الوقت عضوية قصوى وهو علاقة كلّ عضوية بالفضاء المتريّ بشكل عامّ. على النقيض من ذلك، يبدأ المجرّد فقط مع ما يقدّمه وورّنغار على أنّه التبدّل «قوطيّ». إنه هو هذا الخطّ [٦٢٣] المترخّل الذي يقول عنه: إنه ميكانيكيّ لكنه ذو فعل حرّ ودوّار؛ إنه غير عضويّ لكنه مع ذلك حيّ، وهو حيّ بقدر ما هو غير عضويّ. إنه يتميّز في نفس الوقت عن الهندسيّ وعن العضويّ. إنه يرتقي بالعلاقات «الميكانيكية» إلى مستوى الحدس. الرّؤوس (حتى رأس الإنسان الذي لم يعد وجهها) تنبسط وتطوى شرائطيّا في سيرورة متواصلة؛ تنكمش الأفواه في شكل حلزونيّ. الشّعر والألبسة... هذا الخطّ المحموم الذي هو خطّ تغيّر، خطّا شريطيّا ولوليّا ومتعرجا وعلى شكل S، يحرّر قدرة حياة كان الإنسان يصوّبها وكانت العضويات تحبسها وتعبر عنها المادّة الآن بوصفها السّمة والدّفق أو التوتّب الذي يعبرها. إذا كان كلّ شيء حيّا فما ذلك لأنّ كلّ شيء عضويّ ومنظّم، بل على النقيض من ذلك لأنّ العضوية هي تحويل لوجهة الحياة. باختصار، حياة جراثومية عارمة غير عضوية، حياة مقتدرة دون أعضاء، جسد حيّ بقدر ما هو من دون أعضاء، كلّ ما يمرّ بين العضويات («حالما تكون الحدود الطبيعية للنشاط العضويّ قد قُطعت، لم يعد ثمة حدود»...). غالبا ما نريد رسم ضرب من الشائنة في الفنّ المترخّل، بين الخطّ المجرّد التّزيينيّ والزّركشات الحيوانية؛ أو بأكثر دقّة، بين السّرعة التي يُدمج بها الخطّ علامات تعبيرية ويجرفها، وبين ببطء أو ثبات المادّة الحيوانية التي وقع هكذا اجتيازها. بين خطّ إفلات لا بداية له ولا نهاية، وبين ما يدور حول نفسه بشكل يكاد يكون ثابتا. لكن الجميع يتفقون في نهاية المطاف على أنّ الأمر يتعلّق بنفس الإرادة

أو بنفس الصيرورة^(١). لكن ليس لأنّ المجرّد قد يولّد زخارف عضوية عن طريق الصدفة أو عن طريق الاقتران. إنما وعلى وجه الدقة لأنّ الحيوانية المحض تعيش فيه بوصفها حيوانية غير عضوية أو ما فوق عضوية، أنه بوسعها أن تتوحد ببسر مع التجريد، وحتى أن تؤخذ ببطء مادة ما أو ثقلها مع السرعة القصوى لخطّ لم يعد غير خطّ روحيّ. يشكّل هذا البطء جزءاً من نفس عالم السرعة القصوى: علاقات سرعة وتباطؤ بين العناصر تتخطى على أية حال حركة شكل عضويّ وتتخطى تعيين الأعضاء. إنه في ذات الوقت يفلت الخطّ من الهندسة بحركة هاربة، وتقتلع الحياة ذاتها من العضويّ بدوامة في عين المكان وبشكل استبداليّ. إنها هذه القوّة الحيوية الخاصّة بالتجريد هي التي ترسم الفضاء الأملس. الخطّ المجرّد هو أفعال فضاء أملس، بنفس القدر الذي كان فيه التمثيل [٦٢٤] العضويّ هو الإحساس الذي كان يحكم الفضاء المخدّد. حينئذ، الفروق لمسيّ - بصريّ، قريب - بعيد، يجب أن تكون تابعة للفرق بين الخطّ المجرّد والخطّ العضويّ، حتى نجد مبدأها في مواجهة عامّة بين الفضاءات. والخطّ المجرّد لا يمكن تعريفه بوصفه خطّاً هندسيّاً ومستقيماً. عن ذلك يترتّب السؤال التالي: ما الذي يجب أن يسمّى مجرّداً في الفنّ الحديث؟ خطّ ذو اتجاه متغيّر، لا يرسم أية حافة ولا يضع حدّاً لأيّ شكل...^(٢).

(١) راجع حول جميع هذه النّقاط، الكتاب الحدسيّ جدّاً لجورج شارّيّار (Georges Charrière)، الفنّ الثّقيل، منشورات دائرة الفنّ، الذي نجد فيه عدداً كبيراً من الاستنساخات. لا ريب أنّ رونيّه غروسّاي (René Grousset) هو أفضل من ألح على «البطء» بوصفه المحور الدراماتيكيّ للفنّ المتحرّج: إمبراطورية السّبابسب، ص ٤٥.

(٢) في توطئتها لكتاب التجريد والتعاطف، كانت دورا فالبيه (Dora Vallier) على حقّ في إشارتها إلى الاستقلال الخاصّ بكلّ من وورنغار وكاندنسكي، وإلى الفرق بين مشكلاتهما. ومع ذلك تستبقي إمكان وجود تقارب أو تصادٍ بينهما.

لا لكثرة النماذج. نعرف بالفعل أنه ثمة نماذج أخرى كثيرة: نموذج لِعَبِّي قد تتواجه فيه الألعاب تبعا لنوعية فضاءها، وحيث قد لا يكون لنظرية الألعاب نفس المبادئ، على سبيل المثال الفضاء الأملس لِلْعُو (go) والفضاء المخدّد للشطرنج؛ أو نموذج علم الفكر الذي لا يخصّ مضامين الفكر (الإيديولوجيا)، إنما يخصّ شكل الفكر، طريقتَه أو هيأته، وظيفته وفق الفضاء الذّهني الذي يرسمه من زاوية نظرية عامّة للفكر، نظرية فكر للفكر. إلخ. فضلا عن ذلك، قد يتوجّب أن نأخذ بعين الاعتبار المزيد من الفضاءات الأخرى: الفضاء المثقوب، الكيفية التي يتواصل بها مع الأملس ومع المخدّد بطريقة مختلفة. لكن ما يهمّنا على وجه الدقّة هي الممرّات والتّوليفات في عمليات التّخديد والتّمليس. كيف أنّ الفضاء لا يكفّ عن أن يكون مخدّدا تحت ضغط قوى تُمارَس صُلْبَه؛ لكن كيف يطرّوّر هو أيضا قوى أخرى ويُسلّك فضاءات ملساء جديدة عبر التّخديد. حتى المدينة الأكثر تخديدا تُسلّك فضاءات ملساء: أن يسكن المرء المدينة مترحّلا أو منعزلا. أحيانا

بشكل ما، كلّ فنّ هو فنّ مجرد، والفنّ التصويريّ لا يعدو أن يكون غير نتيجة لبعض ضروب التجريد. لكن بشكل آخر، إذا كان ثمة على هذا النّحو أنماط من الخطّ مختلفة جدّا، هندسية-مصرية، عضوية يونانية، حيوية-قوطية، إلخ.، فالأمر يتعلّق بتحديد أيّ خطّ يظلّ مجردا أو يحقّق التجريد بما هو كذلك. بوسعنا أن نشكّ في كونه هو الخطّ الهندسيّ، من حيث أنه ما زال يرسم صورة حتى وإن كانت مجردة أو غير تصويرية. الخطّ المجرد قد يكون بالأحرى هو الذي يعرفه ميخائيل فرياد (Michael Fried) انطلاقا من بعض أعمال بولوك (Pollock): خطّ متعدّد الوجهات، لا داخل له ولا خارج، دون شكل ودون خلفية، لا يحدّ شيئا، لا يصف حافة، يمرّ بين البُقَع والنقاط، يملأ فضاء أملس، يزاوج بين مادّة مرئية لمسية وقريبة، «تجلب في نفس الوقت انتباه عين المُشاهد ولا تترك لها أيّ حيز للاسترخاء» (ثلاثة رسّامين أمريكيين» ضمن الرّسم، ص ٢٦٧ وما بعدها). عند كاندنسكي ذاته، لا يتحقّق التجريد بالبني الهندسية بقدر تحقّقه بخطوط السّير أو المسار التي يبدو أنها تحيل على أنماط مغولية مترحلة.

[٦٢٥] تكون حركات، سرعة أو تباطؤ كافية لإعادة تكوين فضاء أملس. والأكيد أنّ الفضاءات الملساء ليست فضاءات تحريرية من تلقائها. لكن داخلها يتغيّر الصّراع، يتنقّل، وتعيد الحياة بناء رهاناتها، تواجه عوائق جديدة، تخلق إيقاعات جديدة وتبدّل الخصوم. لا ينبغي الاعتقاد أبدا أنّ فضاء أملس يكون كافيا لإنقاذنا.

أنشتاين بالحاسوب

طبقات، تراصف

الطبقات ظاهراتٌ تخين هبائية وكتلوية في نفس الوقت على جسد الأرض: تراكمات، تخثرات، ترسّبات، تجعّادات. إنها أحزمة، مَشابِك أو تمفصلات. نميّز إجمالياً وتقليدياً بين ثلاث طبقات كبرى: فيزيائية- كيميائية، عضوية وأنتروبومورفية (أو «تطويعية»). تتمثل كلّ طبقة أو تمفصل في أوساط مقنّنة وفي موادّ متشكّلة. أشكال وموادّ، تقنيات وأوساط ليست منفصلة في الواقع. إنها المكوّنات المجرّدة لكلّ تمفصل.

بطبيعة الحال، تُبدي الطبقة أشكالاً وموادّ شديدة التنوّع، تقنيات وأوساطاً متنوّعة. لها بالتالي في نفس الوقت ضروب تنظيم صوريّ وصيغ تطوّر ماديّ مختلفة، تقسّمها إلى شبه طبقات وطبقات عارضة: على سبيل المثال تقسيمات الطبقة العضوية. الطبقات العارضة وشبه الطبقات التي تقسّم طبقة، يمكن اعتبارها هي ذاتها بمثابة طبقات (بحيث أنّ القائمة ليست تامّة أبداً). أيّة طبقة كانت تظّل لها مع ذلك وحدة تركيب بالرغم من تنوّعات تنظيمها وتطوّرها. تتعلّق وحدة التركيب بالسّمات الصّورية المشتركة بين كلّ أشكال أو تقنيات طبقة ما، بكلّ العناصر المادية التي هي الموادّ المشتركة بين كلّ موادّ الطبقة أو أوساطها.

للطبقات حركية كبرى. تكون طبقة ما قادرة دوماً على أن تُستخدَم كطبقة تحتية لطبقة أخرى، أو أن تصطدم بطبقة أخرى، بغضّ النظر عن نظام تطوّر. وخاصّة بين طبقتين أو بين تقسيمين للطبقات، ثمّة ظاهرات بيّطبقاتية: تغييرات ترميز وممرّات بالأوساط، إنها امتزاجات. تحليل الإيقاعات على هذه الحركات البيّطبقاتية التي هي كذلك بالفعل أفعال تراصف.

التّرافف شببه بخلق العالم انطلاقا من الشّواش، خلقا موصولا ومتجدّدا. والطبقات تكوّن يوم القيامة. الفنّان الكلاسيكيّ شببه بالله، إنه يصنع العالم وهو ينظّم الأشكال والموادّ، التقنيات والأوساط، وكذلك الإيقاعات.

التمفصل المكوّن لطبقة هو دائما تمفصل مضاعف (مِشباك مضاعف). إنه يُمفصل بالفعل مضمونا وتعبيرا. وبينما لا يكون ثمة فعليّا فصل بين الشكل والمادّة، فإنّ المضمون والتعبير [٦٢٨] منفصلان فعلا. بحيث أنّ الطبقات تستجيب لشبكة بالمسلاف (Hjelmslev): تمفصل مضمون وتمفصل تعبير، المضمون والتعبير لكلّ منهما على حدة شكل ومادّة. بين الاثنين، بين المضمون والتعبير، ليس ثمة لا تطابق ولا علاقة سبب- نتيجة ولا علاقة مدلول- دالّ: ثمة اختلاف فعليّ، افتراض متبادلّ وتماثل وحسب. لكن المضمون والتعبير لا يختلفان بنفس الكيفية على كلّ طبقة: الطبقات التقليدية الثلاث الكبرى ليس لها نفس توزيع المضمون والتعبير (ثمة على سبيل المثال «خطيّة» للتعبير على الطبقة العضوية، أو «خطية مُستطّة» للطبقات الأنثروبومورفية). لذلك يدخل الكتلويّ والهبائيّ، وفق الطبقة المعنية، في تركيبات شديدة الاختلاف.

آية حركة أو أيّ توثّب يسحبنا خارج الطبقات (ما بعد الطبقات)؟ الآكد أنه لا وجود لسبب يدفعنا للتفكير بأنّ الطبقات الفيزيائية- الكيميائية تستنفد المادّة: ثمة مادّة غير متشكّلة وما تحت هبائية. كذلك الطبقات العضوية لا تستنفد الحياة: العضوية هي بالأحرى ما تواجه به الحياة ذاتها لتحدّ من ذاتها، وثمة حياة أكثر احتداما واقتدارا بقدر ما هي غير عضوية. وبالإضافة إلى ذلك أيضا، ثمة صيرورات غير إنسانية للإنسان تتخطّى من جميع الجوانب الطبقات الأنثروبومورفية. لكن كيف نصل إلى هذا

٣

و ٤

«المسطح» أو بالأحرى كيف نبني هذا المسطح ونرسم الـ«خط» الذي يوصلنا إليه؟ ذلك أنه خارج الطبقات أو من دونها، لم يعد لنا لا أشكال ولا موادّ، لا تنظيم ولا تطوّر، لا مضمون ولا تعبير. نحن مفكّكون، لم نعد نبدو حتى مسنودين بإيقاعات. كيف للمادّة غير المتشكّلة، للحياة غير العضوية، للصيرورة غير البشرية، أن تكون شيئا آخر غير كونها شواش محض بلا قيد ولا شرط؟ كذلك كلّ مساعي إزالة التّراصف (على سبيل المثال، تخطّي العضوية، الانطلاق في صيرورة) عليها التقيّد أوّلا بقواعد عينية في منتهى الحذر: كلّ إزالة تراصف شديدة الفظاظة توشك أن تكون انتحارية أو سرطانية، أي أنها تنفتح تارة على الشّواش والخلاء والتّحطيم، وطورا تغلق علينا الطبقات التي تزداد تصلّبا، والتي تخسر حتى درجات تنوّعها وانفراقها وحركيتها.

٦

مكتبة

t.me/soramnqraa

[٦٢٩] ت

تنضيدات

التنضيدات هي بالفعل شيء مغاير للطبقات. ومع ذلك هي تحدث في الطبقات، إلّا أنها تعمل في مناطق لا تقنين الأوساط: إنها تقتطع أوّلا من الأوساط إقليما. كلّ تنضيد هو إقليميّ أوّلا. القاعدة العينية الأولى للتنضيدات هي اكتشاف الإقليمية التي تغطّيها هذه التنضيدات، إذ ثمة دائما إقليمية ما: في سلّة قمامتهم أو على مقعدهم، تستحدث شخصيات بيكات إقليما. اكتشاف التنضيدات الإقليمية لشخص ما، إنسانا كان أو حيوانا: «أشعر أنّني في بيتي». الإقليم معمول من شذرات مستشرفة من شتّى الأنواع، مستمدّة من الأوساط، لكنها تكتسب حينئذ قيمة «ملكيات»: حتى الإيقاعات تتخذ هنا معنى جديدا (لازمات). الإقليم يصنع التنضيد. الإقليم يتعدّى العضوية

١١

والوسط في ذات الآن، وكذلك العلاقة بينهما؛ لذلك يتخطى التنزيد كذلك مجرد «السلوك» (من هنا أهمية التمييز النسبي بين حيوانات الإقليم وحيوانات الوسط).

مع أنها إقليمية، ما زالت التنزيدات تنتمي إلى الطبقات؛ إنها تتعلق بها على الأقل من خلال وجه واحد. وإنه تحت هذا الوجه نميّز في كلّ تنزيد بين المضمون والتعبير. ينبغي أن نجد المضمون والتعبير في كلّ تنزيد، أن نُقوّم التمييز الحقيقي بينهما ونُقوّم افتراضهما المتبادل وإدراجهما قطعة قطعة. لكن ما يجعل التنزيد لا يُختزل بالفعل في الطبقات، هو أنّ التعبير يصبح في التنزيد نسقا سيميائيًا، نظامَ علامات، وأنّ المضمون يصبح فيه نسقا براغماتيًا، أفعالا وانفعالات. إنه التّمفصل المضاعف وجه- يد، حركة- كلام، والافتراض المتبادل بينهما. هو ذا بالتالي التقسيم الأوّل لكلّ تنزيد: إنه في نفس الوقت ودون انفصال تنزيد مكّني من ناحية، تنزيدٌ تَلْفُظ من ناحية أخرى. يجب أن نجدهما معا في كلّ حالة: ما الذي نفعله وما الذي نقوله؟ وبين الإثنين، بين المضمون والتعبير، تقوم علاقة جديدة لم تكن ظهرت بعد في الطبقات: تعبّر الملفوظات أو التعابير عن تغييرات لا جسدية «تُسند» بما هي كذلك (خصائص) للأجساد أو للمضامين. في الطبقات، لم تكن التعابير تشكّل علامات ولا المضامين أفعالا، بحيث لم تكن ظهرت هذه المنطقة المستقلة، منطقة التغييرات اللا جسدية [٦٣٠] التي عبّرت عنها التعبيرات وأُسندت للمضامين. الآكد أنّ أنظمة العلامات لا تتطوّر إلّا في الطبقات التطويعية أو الأنثروبومورفية (بما في ذلك الحيوانات المتأرضنة). لكنها مع ذلك تجتاز الطبقات وتتخطاها جميعها. طالما أنّ التنزيدات تظل خاضعة للتمييز بين المضمون والتعبير، فإنها ما تزال تنتمي إلى الطبقات؛ وأنظمة العلامات والأنساق

العملية بالإمكان النظر إليها وكأنها تشكّل بدورها طبقات بالمعنى
الواسع الذي رأيناه سابقا. لكن لأنّ التمييز بين المضمون
والتعبير يتّخذ شكلا جديدا، فإنّنا نجد أنفسنا مسبقا، بمعنى
ضيّق، في عنصر آخر غير عنصر الطّبقات.

لكنّ التنضيد ينقسم كذلك وفق محور آخر. إقليميّه (بما في
ذلك المضمون والتعبير) ليست غير مظهر أوّل، المظهر الثاني
متكوّن من خطوط اللّاتأرضن التي تشقّه وتجرفه. هذه الخطوط
متنوّعة جدّا: بعضها يفتح التنضيد الإقليميّ على تنضيدات
أخرى، وتجعله يمرّ إليها (على سبيل المثال، اللّازمة الإقليمية
للحيوان تصبح لازمة ساحة أو جماعة...). الخطوط الأخرى
تعرك مباشرة إقليمية التنضيد وتفتحه على أرض غريبة، موغلة في
القدم أو مقبلة (على سبيل المثال، لعبة الإقليم والأرض في
النّشيد، أو بشكل أعمّ عند الفنّان الرّومانيّ). خطوط أخرى
كذلك تفتح هذه التنضيدات على مكّنات مجرّدة وكونية تنجزها
هذه التنضيدات. وكما أنّ إقليمية التنضيد كانت تجد أصلها في
استشفار معيّن للأوساط، فإنّها تمتدّ حتّما بنفس القدر في هذه
الخطوط التي هي خطوط لا تأرضن. الإقليم ليس أقلّ ملازمة
للّا تأرضن ممّا كانه التقنين بالنسبة إلى اللّا تقنين. وإنه وفق هذه
الخطوط لم يعد التنضيد يقدّم تعبيرات ولا مضامين منفصلة، بل
يقدم فقط موادّ غير متشكّلة، قوى ووظائف غير طبقاتيّة. بالتالي،
تعمل القواعد العينية للتنضيد وفق هذين المحورين: من ناحية،
ما هي إقليمية التنضيد، ما هو نظام العلامات والنّسق العمليّ؟
من ناحية أخرى، ما هي أطراف اللّا تأرضن والمكّنات المجرّدة
التي تنجزها؟ ثمّة تكافؤ رباعيّ للتنضيد: (١) مضمون وتعبير؛ (٢)
إقليمية ولا تأرضن. كذا هي الوجوه الأربعة في المثال المفضّل
لتنضيدات كافكا.

١١

و ٤

- ليست الطبقات وحدها وإنما التنضيدات كذلك هي
مجمّعات خطوط. يمكن أن نضبط حالة أولى للخطّ أو نوعا أوّل
له: الخطّ تابع للنقطة؛ الخطّ القطريّ تابع للأفقّي وللعموديّ؛
الخطّ يرسم حافة سواء كانت تصويرية أو لم تكن؛ الفضاء الذي
يرسمه هو فضاء تخديد؛ الكثرة القابلة للعدّ التي يكونها تظلّ
خاضعة للواحد في بُعد أعلى أو تكميليّ دوما. الخطوط التي من
هذا الصنف هي خطوط كتلوية وتشكّل نسقا شجرانيّا، ثنائيّا،
دائريّا وانقساميّّا. ٩
- النوع الثاني مختلف جدّا، إنه هبائيّ ومن صنف «جذمور». ١ و
يتحرّر الخطّ القطريّ، ينكسر أو ينعطف. الخطّ لم يعد يمثل
حافة، وهو يمرّ بين الأشياء وبين النّقاط. إنه ينتمي إلى فضاء
أملس. إنه يرسم مسطّحا لم تعد له أبعاد أكثر من التي لما
يخترقه؛ كذلك الكثرة التي يكونها لم تعد تابعة للواحد، بل
يكون لها قوامها بذاتها. إنّها كثرات كتل أو جماعات ولم تعد ٢
كثرات طبقات؛ كثرات شاذّة ومترخّلة ولم تعد كثرات عادية أو
شرعية؛ كثرات صيرورة أو ذات تغيّرات ولم تعد ذات عناصر ١٢
قابلة للعدّ وذات علاقات منظّمة؛ مجموعات غائمة ولم تعد ١٤ و
مضبوطة، إلخ. من زاوية الباثوس، إنه الذّهان وخاصّة الفصام
هما اللّذان يعبران عن هذه الكثرات. من الزاوية العملية، إنه
السّحر هو الذي يتعاطاها. من الزاوية النظرية، تتضايّف منزلة
الكثرات مع منزلة الفضاءات والعكس بالعكس: ذلك أنّ
الفضاءات الملساء من صنف الصّحراء والسّباسب أو البحر،
ليست غير ذات شعّب أو هي غير مأهولة، بل هي مأهولة
بالكثرات التي من نوع ثان (الرياضيات والموسيقى ذهبتا بعيدا

في بناء هذه النظرية التي هي نظرية الكثرات).

مع ذلك لا يكفي تعويض التقابل بين الواحد والكثرة بالتمييز بين أصناف الكثرة. ذلك أنّ التمييز بين الصّنفين لا يمنع

تحيّثهما، فكلّ من الكثرتين «تخرج» من الأخرى على طريقتها.

ثمّة كثرات شجرانية وأخرى غير شجرانية أقلّ من شجرنة

الكثرات. ذلك هو ما يحدث عندما تبدأ بالتّصادي الثقوب

السّوداء الموزّعة في جذمور، أو عندما تُشكّل القضبان أجزاء

تُحدّد الفضاء في كلّ الاتجاهات، وتجعله قابلاً للمقارنة

وللقسمة، وتجعله متجانساً (لقد رأينا ذلك خاصّة بالنسبة إلى

١٢ [٦٣٢] الوجه). ذلك هو ما يحدث أيضاً عندما تتضافر حركات

«الكتلة» والاندفاعات الهبائية، فوق نقاط تراكُم أو توقّف تقسّم

هذه الكتل والاندفاعات وتصوّبها. لكن عكسيّاً ودون تناظر، لا

تتوقّف قضبان الجذمور عن الطّلع من الأشجار، لا تتوقّف

الكتل والاندفاعات عن الإفلات وعن ابتكار ترابطات تقفز من

شجرة إلى أخرى وتقتلع الجذور: حياكة كاملة للفضاء الذي يردّ

الفعل بدوره على الفضاء المخدّد. حتى الأقاليم، وخاصّة هي،

تهزّها هذه الحركات العميقة. أو اللغة كذلك: شجرات اللّغة

ترجّها التبرّعات والجذامير. بحيث أنّ خطوط الجذمور تتردّد

بين خطوط الشجرة التي تقسّمها وحتى التي ترصّفها، وبين

خطوط الإفلات أو القّطع التي تجرفها. ٨

نحن مقدودون إذاً من ثلاثة خطوط، لكن كلّ نوع من أنواع ٩ و

الخطوط له مخاطره. ليست الخطوط ذات الأقسامات هي

وحدها التي تشقّنا وتفرض علينا حُزوز فضاء متجانس؛ بل كذلك

الخطوط الهبائية التي تجرف بالفعل ثقوبها السوداء المجهرية؛

وفي الأخير خطوط الإفلات ذاتها التي توشك دائماً على التخلّي

عن إمكاناتها الإبداعية لتحوّل إلى خطّ موت، إلى خطّ تهديم

ق/ج

مسطّح القِوام، جسد دون أعضاء

مسطّح القِوام أو التّركيب (المسطّح الثّالث) يقابل مسطّح التنظيم والتّطوير. التنظيم والتّطوير يتعلّقان بالشكل والمضمون: ١٠

في نفس الوقت تطوير الشكل وتكوين المضمون أو الموضوع.

أمّا مسطّح القِوام فيتجاهل المضمون والشّكل: الهذيات التي

تُدوّن فوق هذا المسطّح هي تحديدا صيغ تفريد لا تعمل لا من

خلال الشّكل ولا من خلال الموضوع. يتمثّل المسطّح تجريديّا،

لكن فعليّا، في علاقات السّرعة والبطء بين عناصر غير متشكّلة،

وفي تركيبات الاّفعالات المشتدّة المطابقة لها («طول» و«عرض»

المسطّح). في معنى ثان، يجمع القِوام عينيّا، المتنافرات

والمتباينات من حيث هي كذلك: يؤمّن القِوام استحكام ١١

المجموعات الغائمة، أي الكثرات التي هي من صنف الجذمور.

بالفعل، عاملا من خلال الاستحكام، [٦٣٣] يعمل القِوام

ضرورة في الوسط، من الوسط، ويواجه كلّ مسطّح مبدئيّ أو

غائيّ. سبينوزا، هولدرلين، كلايست، نيتشه، هم مهندسو مثل

مسطّح القِوام هذا. لا توحيدات ولا كّلينات البتّة، إنّما قِوامات

أو استحكامات.

ما يدوّن على مسطّح القِوام هي: الهذيات والأحداث ١٠

والتّغييرات غير المادية منظورا إليها لذاتها؛ الماهيات المترحلة

أو الغامضة والتي هي مع ذلك صارمة؛ اطرادات الشّدّة أو

التحوّلات المتواصلة التي تتخطّى الثوابت والمتغيّرات؛

الصيرورات التي لا حدّ لها ولا موضوع، لكنها تسحبهما معا ٦، ٤

إلى مناطق جوار أو تردّد؛ الفضاءات الملساء التي تتكوّن عبر ٩، ٧

الفضاء المخدّد. قد يقال في كلّ مرّة إنّ جسدا دون أعضاء،
 أجسادا دون أعضاء (سَطِيحات) قد وُضعت على المحكّ: ٦
 و ١٠ للتّفريد بواسطة الهذيّات، لإنتاج الشّدّد انطلاقا من الدّرجة
 صفر، لمادّة التنويع التي هي وسيلة الصيرورة أو التّغيير وتمليس
 الفضاء. ١٤ حياة مقتدرة غير عضوية تفلت من الطّبقات، تجتاز
 التّنضيدات وترسم خطّا مجرّدا لا حافة له، خطّ الفنّ المترخّل
 والتّعدين النّقيّل.

هل مسطّح القوام هو الذي يكوّن الأجساد دون أعضاء أم
 الأجساد دون أعضاء هي التي تشكّل المسطّح؟ الجسد دون
 أعضاء والمسطّح هل هما نفس الشيء؟ على أيّة حال، المكوّن
 والمكوّن لهما نفس القدرة: ليس للخطّ بُعد يفوق النّقطة، ليس
 للمسّطح بُعد يفوق الخطّ، ولا للحجم بُعد يفوق السّطح، إنّما
 دائما عدد لبعد كسريّ، غير دقيق، أو لا يفتأ يزداد أو يتناقص ١٠
 مع الأجزاء. يُجري المسطّح تقسيم الكثرات ذات الأبعاد ١٤
 المتغيّرة. المسألة إذا هي مسألة صيغة ربط مختلف أجزاء
 المسطّح: إلى أيّ حدّ تكوّن الأجساد دون أعضاء توليفة؟ وكيف
 تمتدّ اطّرادات الشّدّة؟ في أيّ ترتيب تتمّ سلسلات التّغيّرات؟ ما
 هي هذه التّتابعات اللّا منطقيّة التي تتمّ دائما في الوسط، والتي
 بها يُبنى المسطّح قطعة قطعة وفق نظام كسريّ تصاعديّ أو
 تنازليّ؟ المسطّح يشبه سلسلة أبواب. والقواعد العينية لبناء
 المسطّح لا قيمة لها إلّا بقدر ما تمارس دورا انتقائيّا. بالفعل،
 المسطّح، أي صيغة الرّبط، هو الذي يمكّن من وسيلة إلغاء
 الأجساد الخاوية والسّرطانية التي تنافس الجسد [٦٣٤] دون
 أعضاء؛ يمكّن من نبذ السّطوح المتجانسة التي تغطّي الفضاء
 ٦ الأملس؛ يمكّن من تحييد خطوط الموت والتّحطيم التي تحوّل
 مجرى خطّ الإفلات. وحده إذا، يقع استبقاؤه وحفظه وبالتالي

إبداءه، وحده يتكوّن ما يرفع عدد الترابطات في كلّ مستوى من مستويات القسمة أو التكوين، إذًا في النظام التنازليّ وبنفس القدر في النظام التّصاعديّ (ما لا ينقسم دون تغيير طبيعته، ما لا يتشكّل دون تغيير مقياس المقارنة...).

ل لا تَأْرُضُن

وظيفة اللاتأرضن: اللاتأرضن هو الحركة التي تغادر بها الإقليم. إنه عملية خطّ الإفلات. لكن تحضر حالات مختلفة جدًا. اللّا تأرضن يمكن أن تغطيه إعادة تأرضن تعوّضه، بحيث يظلّ خطّ الإفلات مسدودا: نقول بهذا المعنى إنّ اللّا تأرضن سلبيّ. أيّ شيء يمكن أن يقوم بدور إعادة اللّا تأرضن، أي يكون «مساويا» للإقليم المفقود؛ يمكن أن نعيد التأرضن فعليًا على كائن، على موضوع، على كتاب، على جهاز أو على نسق... على سبيل المثال، جهاز الدّولة يُسمّى بشكل سيّء جهازا إقليميًّا: إنه يُجري في واقع الأمر عملية لا تأرضن، لكنه يغطّيها مباشرة بإعادات التأرضن على المِلْكِيّة والعمل والمال (غنيّ عن البيان أنّ مِلْكِيّة الأرض، سواء كانت مِلْكِيّة عمومية أو خاصّة، ليست مِلْكِيّة إقليميّة بل هي مِلْكِيّة إعادة تأرضن). من بين أنظمة العلامات، يصل النظام الدّالّ بكلّ تأكيد إلى مستوى عالٍ من اللاتأرضن؛ لكن لأنّه يُجري في نفس الوقت نسقا كاملا من إعادة التّأرضن على المدلول وعلى الدّالّ ذاته، فإنه يسدّ طريق خطّ الإفلات، ولا يترك غير لا تأرضن سلبيّ هو الذي يستمرّ. تحضر حالة أخرى عندما يصبح اللاتأرضن إيجابيًّا، أي أنه يتوكّد من خلال إعادات التّأرضن التي لم تعد تلعب غير دور ثانويّ، لكنه يظلّ مع ذلك لا تأرضنا نسبيّا لأنّ خطّ الإفلات

- الذي يرسمه هو خطّ مجزأ ومقسّم إلى «سيرورات» متتابعة، يغور في ثقب سوداء، أو ينتهي حتى إلى ثقب أسود معمم (كارثة). إنها حالة نظام العلامات الذاتيّة هذه المرّة، مع لا تأرضنه الانفعاليّ والضّميريّ، الذي هو إيجابيّ لكن بمعنى نسبيّ فقط. سنلاحظ بالفعل أنّ هذين الشّكلين الكبيرين من اللاتأرضن ليسا هما في علاقة تطوريّة بسيطة: يمكن للشّكل الثاني أن يفلت من الشّكل الأوّل كما يمكنه كذلك أن يؤدّي إليه [٦٣٥] (نلاحظ ذلك خاصّة عندما تفضي تقسيمات خطوط الإفلات المتصالبة، إلى إعادة أرضنة شاملة، أو لصالح إحدى الأقسامات، بحيث تكون حركة الإفلات قد تمّ إيقافها). ثمّة ضروب كثيرة من الصّور المختلطة تحيل على أشكال لا تأرضن شديدة التّنوّع.
- هل ثمّة لا تأرضن مطلق، وما معنى «مطلق»؟ يجب أن نفهم أوّلا بشكل أفضل العلاقات بين اللاتأرضن، الإقليم، إعادة التّأرضن والأرض. في المقام الأوّل، الإقليم ذاته ملازم لموجّهات اللاتأرضن التي تعركه من الدّاخل: إمّا لأنّ الإقليمية ليّنة و«هامشية»، أي نقيّة، وإمّا لأنّ التنّضيد الإقليميّ ذاته يفتح على ضروب أخرى من التنّضيدات التي تجرفه. في المقام الثاني، اللّا تأرضن ملازم بدوره لإعادات تأرضن متضايفة معه. ذلك أنّ اللاتأرضن ليس بسيطا على الإطلاق وإنّما هو متكرّر ومرّكب دوما: ليس لأنّه يشارك في نفس الوقت في أشكال متنوّعة وحسب، إنّما لأنّه يجعل سرعاتٍ وحركاتٍ مختلفة تتنافس ونعيّن تبعا لها في هذه اللحظة أو تلك «متأرضنا» و«مؤرضنا». لكن إعادة الأرضنة بوصفها عملية أصليّة لا تعبّر عن عودة إلى الإقليم وإنّما عن هذه العلاقات الفارقة الدّاخلية باللاتأرضن ذاته، عن علاقات هذه الكثرة الدّاخلية بخطّ الإفلات (راجع، مبرهنة اللاتأرضن). أخيرا، الأرض ليست مناقضة للّا

- و ١٠ تأرضن على الإطلاق: نلاحظ ذلك بالفعل في «المولدي»، حيث الأرض بوصفها موطنًا مضطربًا، غير تراكزيٍّ أو محتدما، كائنة
- ١١ خارج الإقليم ولا توجد إلّا في حركة اللاتأرضن. لكن، علاوة على ذلك، هي الأرض، الجليدية، هي اللامتأرضنة بامتياز:
- ٣ بهذا المعنى هي تنتمي إلى الكون وتحضر بوصفها الجهاز الذي يلتقط به الإنسان القوى الكونية. سنقول إنّ الأرض من حيث هي لا متأرضنة، هي ذاتها المضايِف الحصريّ للّا تأرضن. إلى درجة أنّ اللاتأرضن يمكن أن يُسمّى خالقًا للأرض- أرضا جديدة، كونا، وليس إعادة تأرضن وحسب.
- هو ذا إذا ما يعنيه «مطلق»: لا يعبر المطلق عن أيّ شيء متعالٍ ولا عن أيّ شيء غير متمايز، هو لا يعبر حتى عن كمية قد تتجاوز كلّ كمية معطاة (نسبية). إنه يعبر فقط عن ضرب من الحركة التي تختلف كيفيّا عن الحركة النسبية. تكون الحركة مطلقة، أيّا كانت كميتها وسرعتها، عندما ترّدّ جسمًا «واحدًا»
- ٧ منظورا إليه بوصفه [٦٣٦] كثرة، إلى فضاء أملس يشغله هذا الجسم بشكل دَواميّ. تكون الحركة نسبيّة، أيّا كانت كميتها وسرعتها، عندما ترّدّ جسمًا منظورا إليه بوصفه واحدًا، إلى فضاء
- و ١٤ مخدّد يتنقل فيه هذا الجسم وقيسه وفق مستقيمات افتراضية على أقلّ تقدير. يكون اللاتأرضن سلبيا أو نسيبًا (مع أنه سارٍ بالفعل) في كلّ مرّة يعمل فيها وفق هذه الحالة الثانية، إمّا بواسطة إعادات أرضنة أساسية تقطع الطريق على خطوط الإفلات، وإمّا بواسطة إعادات أرضنة ثانوية تقسّم هذه الخطوط وتسعى إلى إضعافها. اللاتأرضن مطلق وفق الحالة الأولى في كلّ مرّة يقوم فيها بخلق أرض جديدة، أي في كلّ مرّة يربط فيها بين خطوط إفلات ويوجّها إلى قدرة خطّ حيويّ مجرد أو يرسم مسطح قوام. لكن ما يعقّد الأمر كلّهُ هو أنّ هذا اللاتأرضن المطلق يمرّ

حتما باللاتأرضن النسبيّ، لأنّه بالفعل ليس متعاليا . وعكسيّا،
 اللاتأرضن النسبيّ أو السّلبيّ محتاج هو ذاته إلى مطلق حتى يدير
 عمليته: إنه يجعل من المطلق «شموليّا»، مُكلِّنا يشَتِّط في تقنين
 الأرض، ومذكّك يجعل خطوط الإفلات تتصافر لإيقافها
 وتحطيمها عوضا عن وصلها من أجل الإبداع (إنه بهذا المعنى
 كنّا قابلنا بين التضافر والرّبط، مع أنّنا كنّا تعاملنا معهما غالبا
 بوصفهما مترادفين من زاوية نظر عامّة جدّا). ثمّة إذا مطلق
 تقييديّ يتدخّل بالفعل في اللّا تأرضنات السّليّة تحديدا أو حتى
 التّسبيّة. وخاصّة، في منقلب المطلق هذا لا تكون خطوط
 الإفلات أوقفت أو قُسمت وحسب، بل تنقلب إلى خطوط
 تحطيم وموت. إذ ذلك هو رهان السّلبيّ والإيجابيّ داخل
 المطلق: الأرض المحزّمة، المشمولة، المقنّنة اشتطاطا،
 المجمّعة بوصفها موضوع تنظيم مآتميّ وانتحاريّ يحيط بها من
 كلّ جانب، أو أنّ الأرض الموطّدة والموصولة بالكون،
 الموضوعيّة في الكون وفق خطوط خلق تجتازها مثل كثرة من
 الصّيرورات (كلمة نيتشه: لتصبح الأرض هي الخيفة...). إذا
 أربعة أشكال على الأقل من اللّا تأرضن تتواجه وتتوحد، والتي
 يجب التمييز بينها بقواعد عينيّة.

٩

و ١٤

١١

م مكّنات مجرّدة (المِبيان والشّعبة)

في معنى أوّل، لا وجود لمكّنة مجرّدة ولا لمكّنات مجرّدة
 قد تكون مثل أفكار أفلاطونية [٦٣٧] متعالية وكلية، خالدة.
 المكّنات المجرّدة تعمل داخل التنضيدات العينية: تُعرّف هذه
 المكّنات بالوجه الرّابع للتنضيدات، أي برؤوس اللّا قنين واللّا
 تأرضن. إنها ترسم هذه الرّؤوس؛ هي تفتح كذلك التنضيد

الإقليميّ على شيء آخر، على تنضيدات من نوع آخر، على الهَبائيّ، على الكونيّ، وتكوّن صيرورات. إنها إذا متفرّدة ومحايثة دوماً. على النقيض ممّا يحدث في الطبقات وكذلك في التنضيدات المفتكّرة في وجوها الأخرى، لا تهتمّ الممكنات المجرّدة بالأشكال والموادّ. ذلك هو ما يجعلها مجرّدة، لكن كذلك هو المعنى الصّارم لمفهوم المكنة. الممكنات تتخطّى كل آليّة. إنها تتعارض والمجرّد في معناه العاديّ. تتمثّل الممكنات المجرّدة في موادّ غير متشكّلة وفي دالات غير صورّيّة. كلّ مكنة مجرّدة هي مجموعة مُحكمة من الموادّ- الدالات (شُعبة ومبيان). نلاحظ ذلك بوضوح في «مسطّح» تكنولوجيّ: مثل هذا المسطّح ليس متكوّناً فقط من موادّ متشكّلة، ألومنيوم، بلاستيك، أسلاك كهربائية، إلخ.، ولا من أشكال تنظيميّة، برنامج، نماذج، إلخ.، وإنما من مجموعة موادّ غير متشكّلة لم تعد تمثّل غير درجات شدّة (متانة، توصيلية، تسخين، تمدّد، سرعة أو تأخير، استحثاث، تنبيغ...)، ودالات مبيانية لا تقدّم غير معادلات فارقيّة أو بشكل أعمّ، تقدّم «مُوتّرات». لا ريب أنه صلب أبعاد التنضيد، تتمّ المكنة المجرّدة أو مكنات مجرّدة في أشكال وموادّ، مع حالات حرية متحوّلة. لكن كان من اللازم في نفس الوقت أن تتكوّن المكنة المجرّدة وتكوّن مسطّح قوام. مجرّدة، متفرّدة وإبداعية، هنا والآن، حقيقة مع أنها غير عينية، راهنة مع أنها غير منجزّة، لذلك تكون المكنات المجرّدة مؤرّخة وذات أسماء (مكنة مجرّدة- أينشتاين، مكنة مجرّدة- وبارن، لكن كذلك مكنة مجرّدة- غاليلي، مكنة مجرّدة- باخ أو بيتهوفن، إلخ.). ليس لأنّها تحيل على أشخاص أو على لحظات منجزّة؛ على النقيض من ذلك، إنها هذه الأسماء وهذه التواريخ هي التي تحيل على فرادات المكنات وعلى منجزّها.

٣

٤

و ٥

١، ٢

٤، ١٠

لكن إذا كانت الممكنات المجردة لا تلقي بالا للشكل
وللمادة، فما الذي سيحدث للتحديد الآخر للطبقات أو حتى
للتنظيدات، للمضمون وللتعبير؟ [٦٣٨] بطريقة ما، يمكن القول
إنّ هذا التمييز أيضا لم يعد ملائما بالنسبة إلى المكنة المجردة؛
وتحديدا لأنّ هذه الأخيرة لم تعد لها أشكال وموادّ تشترط
التمييز. مسطح القوام هو مسطح تنويع متواصل، كلّ مكنة
مجردة يمكن اعتبارها بمثابة «سطيحة» تنويع تجعل متغيرات
المضمون والتعبير مستمرة. المضمون والتعبير يصلان فيها إذا
إلى نسيتهما القصوى، يصيران فيها «عناصر نفس الدالة» أو موادّ
نفس المادة. لكن بطريقة أخرى، سنقول إنّ التمييز قائم، بل
ويُخلَق من جديد في هيئة سمات: ثمة سمات مضمون (موادّ غير
متشكّلة أو شدد) وسمات تعبير (دالات غير صوريّة أو موثّرات).
التمييز وقع تحويله بالتمام، أو هو جديد حتى، بما أنه يتعلّق
الآن برؤوس اللاتأرضن. في واقع الأمر، اللاتأرضن المطلق
يستتبع «لا مؤرضنا» و«لا مؤرضنا» يتوزّعان في كلّ حالة،
أحدهما للتعبير والآخر للمضمون، أو عكسيّا، لكن دائما بكيفية
تنقل تميزا نسبيا بين الإثنين. بحيث أنّ التنويع المتواصل يؤثّر
حتما على المضمون والتعبير جميعا، لكنه يوزّع كذلك دورين لا
متناظرين بوصفهما عناصر للصيرورة الواحدة نفسها، أو
بوصفهما كمّات نفس الاندفاق. من هنا استحالة تحديد تنويع
مستمرّ قد لا يتناول في نفس الوقت المضمون والتعبير ليجعلهما
غير قابلين للتمييز، لكنه لا يعمل كذلك وفق هذا أو ذاك لتحديد
القطبين النسبيين والمتحرّكين لما يصير غير قابل للتمييز. هكذا
يجب أن نحدّد في نفس الوقت سمات أو شدد مضمون،
وسمات أو موثّرات تعبير (النكرة، اسم العلم، المصدريّ
والميقات)، تتناوب وتتساحب دوريا على مسطح القوام. ذلك

أَنَّ المادّة غير المتشكّلة أو الشّعبة، ليست مادّة ميّنة، خاما، متجانسة، بل هي مادّة- حركة تنطوي على فرادات أو هذيات، على خصائص وحتى على عمليات (أصول تكنولوجية نقيّة)؛ ١٢
وَأَنَّ الدّالّة غير الصورية أو المبيان ليس ميتا- لغة غير معبّرة ودون تراكيب، بل هو تعبيرية- حركة تنطوي دائما على لسان غريب صلب اللسان، على مقولات غير لسانية صلب اللغة ٤
(أصول شعرية مترحلة). حينئذ، نكتب رأسا على واقع مادّة غير متشكّلة، في ذات الآن الذي [٦٣٩] تجتاز فيه هذه المادّة اللغة غير الصورية بتمامها وتبسطها: الصيرورة- حيوانا مثل فئران كافكا، جردان هوفمانستال، عجول موريتس؟ مكنة ثورية، مجرّدة بقدر ما هي حقيقية. نظام لغة لم يعد يمرّ لا بالدالّ ولا بالذاتيّ.

هو ذا الأمر بالنسبة إلى المكنات المجرّدة المحايثة والمتفرّدة. لكن ذلك لا يمنع «ال» مكنة المجرّدة من أن تُستخدَم كنموذج متعال في أوضاع خاصة جدّا. هذه المرّة، التنضيدات العينية وقع إلحاقها بفكرة مجرّدة للمكنة، وأُسندت لها مُعاملات تأخذ بعين الاعتبار إمكاناتها وإبداعيتها وفق الكيفية التي تنجز بها هذه الإمكانات. المُعاملات التي «تُكمّم» التنضيدات تتعلّق بمكوّنات التنضيد المتحوّلة (إقليم، لا تأرضن، إعادة تأرضن، أرض، كون)؛ بالخطوط المتنوّعة المتشابكة التي تكوّن «خارطة» تنضيد ما (خطوط كتلويّة، خطوط هبائيّة، خطوط إفلات)؛ بالعلاقات المختلفة لكل تنضيد مع مسطّح قِوام (شعبة ومبيان). على سبيل المثال، مكوّن «قليل من العشب» يمكن أن يتغيّر مُعامله عبر تنضيدات حيوانية هي مع ذلك من أنواع مقاربة جدّا. ١١
كقاعدة عامّة، يكون التنضيد في تلاؤم مع المكنة المجرّدة بقدر ما يقدّم من خطوط لا حافة لها، خطوطا تمرّ بين الأشياء، وبقدر ٤

ما يتمتع بقدرة تبدّل (تغيّر وتحوّل جوهريّ) متطابقة مع المادّة- الدّالة: راجع، مكنة التّموّجات.

لقد نظرنا خاصة في تنزيدين كبيرين تجسّديّين وتطويعيّين هما مكنة الحرب وجهاز الدّولة. يتعلّق الأمر بتنزيدين، لا يختلفان بالطبيعة وحسب، وإنما تكميمهما مختلف بالنسبة إلى «ال» مكنة المجرّدة. ليست هي نفس العلاقة مع الشّعبة ومع الميّان؛ ليست هي نفس الخطوط ولا نفس المكوّنات. إنه هذا

التحليل للتنزيدين ولُمعاملهما هو الذي يبيّن أنّ مكنة الحرب لا

تتخذ من تلقائها الحربَ موضوعا لها، لكنها تتخذ حتميّا هذا

الموضوع عندما يستحوذ عليها جهاز الدّولة. في هذه النقطة

بالضبط، ينقلب خطّ الإفلات والخطّ الحيويّ المجرّد الذي

يحقّقه خطّ الإفلات إلى خطّ موت وتحطيم. «مكنة» الحرب،

(من هنا اسمها) هي إذاً أقرب إلى المكنة المجرّدة من قرب جهاز

الدّولة إليها، جهاز الدّولة الذي يجعلها تخسر قدرتها على

التحوّل. الكتابة والموسيقى بإمكانهما أن تكونا مكنات حرب.

يكون تنزيد ما [٦٤٠] أقرب إلى المكنة المجرّدة الحية بقدر ما

يفتح الترابطات ويضاعفها، وبقدر ما يرسم مسطّح قِوام مع

مُكمّات شدّده واستحكامه. لكنه يتعد عنها بقدر استعاضته عن

الترابطات الحية بوصلات تسدّ الطّريق (بديهيّات)، بتنظيمات

تشكّل طبقة (مقاييس طبقيّة)، بإعادات أرضنة تشكّل ثوبا أسود

(مقاييس أقسومات)، بانقلابات إلى خطوط موت (مقاييس

تدمير). يتمّ هكذا انتقاءً كاملٌ للتنزيديات تبعا لقدرتها على رسم

مسطّح قِوام ذي ترابطات متزايدة. التحليل الفُصاميّ ليس فقط

تحليلا كيفيّاً للمكنات المجرّدة بالنسبة إلى التنزيديات، بل هو

كذلك تحليل كمّيّ للتنزيديات بالنسبة إلى مكنة مجرّدة يُفترض

فيها أن تكون مكنة صرفا.

ما تزال ثمة زاوية نظر أخيرة هي التحليل التصنيفي. إذ ثمة
 أصناف عامة من الممكنات المجردة. الممكنة أو الممكنات المجردة
 لمسطح القوام لا تستنفد جملة العمليات التي تكوّن الطبقات
 وحتى التنضيدات ولا تهيمن عليها. «تتخثر» الطبقات على
 مسطح القوام ذاته، تُشكّل فيه تغليظات وتجلّطات وأحزمة
 منتظم وتطور وفق محاور مسطح آخر (مادة- صورة، مضمون-
 تعبير). لكن بهذا المعنى، لكلّ طبقة وحدة قوام أو تركيب تتعلق
 أولاً بعناصر ماديّة وسمات صورية، وتعبّر عن مكنة مجردة طبقية
 بالتحديد تتحكّم بهذا المسطح الآخر. وثمة صنف ثالث: ذلك
 أنه على الطبقات التطوعية الملائمة بشكل خاص للتنضيدات،
 تنتصب ممكنات مجردة تعوّض اللا تآرضّيات بإعادات تآرضن،
 وخاصة اللا تقنيات بتقنيات تضافريّة أو بما يعادل تقنيّا
 تضافريّا. لقد رأينا على وجه الخصوص أنه إذا كانت ممكنات
 مجردة تفتح التنضيدات، فإنّ ممكنات مجردة هي التي تُغلّقها
 أيضاً. مكنة أمرية تقنّن اللغة تضافريّا، مكنة وجهيّة تقنّن الجسد
 وحتى الرّأس تضافريّا، مكنة استعباد تقنّن الأرض تضافريّا أو
 تبدّوها: لا يتعلّق الأمر البتّة بأوهام وإنّما بمفاعيل مكنيّة حقيقيّة.
 لم يعد بإمكاننا القول إذا إنّ التنضيدات تقاس على سلّم كمّي
 يقربها من المكنة المجردة لمسطح القوام أو يبعدها عنها. ثمة
 أصناف ممكنات مجردة لا يفتأ يعمل بعضها داخل البعض الآخر،
 وهي التي تحدّد [٦٤١] التنضيدات: ممكنات قوام مجردة، متفرّدة
 ومتحوّلة، ذات روابط متضاعفة؛ لكن كذلك ممكنات تراصف
 مجردة، تطوّق مسطح القوام بمسطح آخر؛ وممكنات تقنين
 تضافريّ أو تبدّيه مجردة، تعتمد إلى الكلّينات والمجانّسات
 ووصلات التغليق. بحيث أنّ كلّ مكنة مجردة تحيل إلى ممكنات
 أخرى مجردة: ليس فقط لأنّ هذه الممكنات هي في نفس الوقت

سياسية، اقتصادية، علمية، فنية، إيكولوجية، كونية- إدراكية، عاطفية، فاعلة، مفكرة، فيزيائية وسيميائية-، لكن لأنها تجعل أصنافها المختلفة تتقاطع بقدر ما تتقاطع ممارستها المتزامنة. إنه محيط مكثي.

معجم عربيّ - فرنسيّ ألفبائيّ

أ

Consistance	اتّساق/ قِوام
Brownoïde	اتّفاقيّ/ تصادفيّ
Etrusque	أتروريّ
Automation	أتمتة
Article indéfini	أداة تنكير
Performatif	أدائيّ/ إنجازيّ
Stries	أخاديد/ حُزوز
Territorialisation	أرضنة
Consolidation	استحكام/ تعزيز
Lupullement	استذاب
Capture	أسر/ استحواذ
Alliage	أشابة
Deixis	إشاريّة/ سياقيّة
Idiomes	اصطلاحات/ لهجات
Continuum	اظراد
Redondance	إطناب/ ترداد
Affect	أفعال
Segment	أقسومة

Segmentarité	أقسوميّة/مقطعيّة
Dépopulation	إفقار
Repérage	اعتلام/رصد
Manchot	أكتع
Indice	أمارّة/قرينة
Insigner	أمر/طالب
Anarchie	أنارخيه
Séréospécifique	انتقائيّة مجسّمة
Métamorphose	انقلاب عيّن
Involution	انغماد
Natif	أهلّيّ
Rubato	إيقاع حرّ
Ioniser	أيّن

ب

Modulo	باقي القسمة/مُعامل
Bulbe(s)	بصلة/أبصال
Arrière-Gorge	بلعوم
Polymérisation	بلمرة/تكوثر
Asile	بيمارستان

ت

Uniformisation	تأحيد
Allotropique	تأصليّ
Dénotation	تأشير
Tachyons	تاكيونات/حُبيّبات

Automatisation	تألية
Itinérance	تجوال
Transsubstantiation	تحوّل جوهريّ
Transformationnel	تحويليّ
Linéament(s)	تَخْطُطُ / تَخْطُطَات
Striage	تخديد
Atomisation	تذريّر
Stratification	تراصف
Syntagmatique	تركيب تعبيريّ
Syntaxique	تركيبيّ
Illocutoire	تحقيقيّ
Embryogenèse	تخلّق / تكوّن جنينيّ
Notation musical	ترقيم موسيقيّ
Lied	ترنيمه
Désignation	تسمية / تعيين
Morphogenèse	تشكّل حيويّ
Crescendo	تصاعّد
Connotation	تضمين / إحياء
Alloplastique	تطويعيّ / تأقلميّ
Individuation	تفريد
Surcodage	تقنين تضافريّ
Tétravalence	تكافؤ رباعيّ
Çatal Hüyük	تَلّة المنازل الطّينية
Chromatisme	تلوينه / سلّم تلوينيّ
Chromatisme tempéré	تلوينه معدّلة
Homoplastique	تماثليّ / تجانسّي

Coexistence	تَمَاعِي
Signifiante	تَمَعْنِي / تَمَعِين
Harmonique	تَنَاجِمِيّ
Tachygenèse	تَنَاسَل تَطَوُّرِيّ / تَخَلَّق مَعْجَل
Transduction	تَنَبِيغ / نَقْلَة لَاقِحَة
Agencement	تَنَضِيد
Combinatoire	تَوَافِقِيَّة
Phatique	تَوَصِيلِيّ
Tempérament musical	تَوَلِيف مُوسِيقِيّ

ج

Ophélimité	جَدْوِي / اسْتِعْمَالِيَّة ذَاتِيَّة
Radicelle	جُذْرِيّ
Timbre	جَرَس / رَنَّة
Corpuscules	جَزْئِيَّات
Corps	جَسَد / جَسَم
Corps sans organes	جَسَد دُون أَعْضَاء
Particules	جَسِيمَات
Itinérant	جَوَّال / نَقِيل

ح

Contour	حَافَة
Fasciculé	حُزْمِيّ
Masse	حَشْد / كَتْلَة
Sédentaire	حَضْرِيّ / مَتَوَطَّن / مَقِيم
Chainon	حَلَقَة

خ

Diagonale	خط قُطريّ/ خطّ الزاوية
Cellules germinales	خلايا جرثومية/ تناسلية
Motif	خلية لحنية/ دافع
Xénoglossie	خوارقية لسانية

د

Fonction	دالة/ وظيفة
Outsider	دخيل/ غريب
Dominantes	درجات مسيطرة
Appréhension	درك
Tbercule(s)	دَرَنَة/ درنات
Particles	دقائق/ حبيبات
Sémiotique	دلائلية/ سيميائية
Sémantique	دلالية/ سيمنطيقية
Fonctif	دلول/ واطفة
Aiôn	دهر
Diatonique	دياتونيّ/ سُلميّ

ذ

Subjectivation	ذَتِيَنَة/ تذييت

ر

Connexion	ربط/ وصل
Degrés	رتب/ درجات
Graphe	رسم بيانيّ

Schéma	رسيمة/ تبيانة
Lamellaire	رقائقي
Patchwork	كشكول/ رقعاء
Mathégraphie	رياضيات أشكال
Mathélogie	رياضيات عقلية

ز

Meute	زمرة
Temps non pulsé	زمن غير موقع
Temps pulsé	زمن موقع

س

Couche	سافة/ شريحة
Filiation	سلالة
Tessiture	سُلم أنغام
Le mineur	سُلم صغير
Le majeur	سُلم كبير
Gamme	سُلم موسيقي
Sémiotisation	سميأة

ش

Global	شامل
Pinson	شرشور
Phylum	شُعبة
Chaosmos	شواش نسيق

ص

Ténor	صاح
Fêlure	صدع
Résonance	صدى / إصداء
Morphème	صرفم
Morphologique	صرفي / تشكّلي
Laminaire	صفائحيّ
Baryton	صوت جهير
Haute- contre	صوت حادّ للرّجل
Phonème	صوتم
Formalisation	صورة / شكلنة
Indicatif	صيغة دلالية / إشاريّة
Paradigmatique	صيغة صرفيّة / استبدالية
Cymbale(s)	صنج / صنوج
Voix de tête	صوت الطبقة العالية

ض

Coefficient	ضارب / مُعامل / درجة
Pronom indéfini	ضمير تنكير
Pronom possessif	ضمير متّصل
Je	ضمير المتكلّم
Pronom personnel	ضمير منفصل

ط

Normalisation	طَبْعَة
Epistrate	طبقة عارضة

Flottant	طليق/ عائم
Tonal	طينيّ

ع

Tic	عرّة
Transversal	عرضانيّ
Chiendent	عشب
Tige	عسلوج/ ساق/ قضيب
Interprétose	عصاب التأويل
Neurones	عُصبونات/ خلايا عصبية
Néolithique	عصر حجريّ أخير
Paléolithique	عصر حجريّ قديم
Organite(s)	عَضِيّة/ عَضِيّات
Standard	عِياريّ/ مقياسيّ
Glossolalie	عِيّ/ هذر عُتْهيّ
Soi	عين الذات

غ

Bouillonnement	غليان
Glissando	غليساندو/ نغمات سريعة متعاقبة
Excentrique	غير تراكزيّ

ف

Intermezzo	فاصل
Bande	فرقة/ عُصبة/ ضِمادة
Ordre	فرض/ أمر

Franglais	فرنغليزيّة
Catatonie	فُصام تخشّبي
Spatialisation	فضانة
Verbe à l'infinitif	فعل مصدرّي
Castramétation	فنّ العسكرية

ق

Lilliputien	قزميّ
Linéaments	قسامات/ ملامح
Consistance	قوام/ تماسك
Nationalitaire	قوميّاتي
Allométrie	قياس التّباين
Autos	قيّومة
Autonomie	قيّوميّة

ك

Multiplicité	كثرة
Multiple	كثير
Compétence	كفاءة
Aphorisme	كلام جامع/ قول مأثور
Igloo	كوخ الإسكيمو/ المقبّب
Quanta	كُموم/ كمّات
Quarkis	كواركات/ دُريّرات
Cosmisation	كوّنة

Déterritorialisation	لا أَرْضَنَة/ لا تَأْرُضُن
Aphatique	لا توصيليّ
Acentré	لا مركز له
Anomal	لا منتمي
Quilt	لحاف مزركش
Mélodique	لحنيّ/ نغميّ
Haptique	لمسيّ
Atypique	لا نمطيّ
Atonal	لا مقاميّ
Patois	لهجة عاميّة
Argot	لهجة محلّيّة

Théorématique	مُبْرَهَنِيّ
Diagramme	مِبيان
Séquence	متتالية/ متوالية
Anexact	متحيّر/ متقلقل
Métrique	مترّيّ/ مقاسيّ
Enantiomorphe	متشاكس
Idéalisation	مَثْلَنَة/ تَأْمَثَل
Stéroscope	مِجْسام/ مِشْواف
Axone	محوّار/ محور عصبيّ
Biosphère	محيط حيويّ
Noosphère	محيط فكريّ
Mécanosphère	محيط مكنيّ

Output	مخرجات
Rhizosphère	مدار جذموريّ
Imput	مدخلات
Synthétiseur	مركّب أصوات إلكترونيّ
Bi-univoque	مزدوج/ ثنائيّ التوافق
Cyclotron	مسرّع دورانيّ
Plan	مسطح
Planomène (planesthai)	مسطح تائه
Œcumène	مسطح مأهول
Hétéradelphe	مسخ مزدوج
Aporie	معاياة
Repère	معلم/ جذّة
Etalon majeur	معيّار السّلم الموسيقيّ الكبير
Mode mineur	مقام صغير
Mode musical	مقام موسيقيّ
Segmentomètre	مقياس الأقسامات
Déléomètre	مقياس التّدمير
Stratomètre	مقياس الطبقات
Quantificateur	مكمّم
Enoncé	ملفوظ/ ملفوظة
Gradient	مُمال/ تدرّج
Isotope	مُناظر
Transhumant	منتجع
Différencié	منفرد/ متمايز
Natal	مُولديّ
Date	مِقات

ن

Nome	ناموس
Crab-grass	نجم / عكرش
Phylogénèse	نسالة / تطوّر نساليّ
Descendance	نسب
Clone	نسيلة / استنساخ
Tonal	نغميّ / طنينيّ
Imperium	نفوذ
Nucléotide(s)	نويّدة / نويدات
Trame	نير / حبكة

هـ

Molécule	هباءة
Molécularisation	هيئنة
Heccéité/Eccéité	هذيّة

و

Embrayeur	واصل
Gemüt	وجدان / روح
Visagéité	وجهيّة
Conjonction	وصل / ربط

فهرس الاستنساخات

١. سيلفانو ييسوتي، خمسة مقاطع للبيانو لدافيد تودور، مع
الترخيص اللطيف لجيوفاني ريكوردي، ميلانو، ١٩٧٠. ١٥
٢. تصوير بواياي، آثار أقدام ذئب على الجليد،
مجموعة فيولاي ٥٥
٣. تصوير بواياي، سرطان البحر، مجموعة فيولاي ٧٥
٤. فريتس لانغ، وصية الدكتور مايز، (رفات الدكتور مايز
مخرّبة بالرصاص) ١٣١
٥. تابوت العهد مع عمود النار والحشد، متحف الفنون
الزخرفية، مجموعة فيولاي ١٩١
٦. مارسيل غريول وجرمين دياترلين، الثعلب الشاحب، معهد
الإثنولوجيا، متحف الإنسان، (أَوَّلَ خَلَقَ لِيُضِةَ الإله يامّا) ... ٢٥١
٧. دوشيو، قَدْر القديس بطرس والقديس أندره، نيويورك،
مجموعة بيلوز ٢٧٩
٨. ريشار فالتون أوتكولت، بوستار براون، المهرّج الصغير،
مكتبة هاشات ٣١٩
٩. فرنان ليجيه، الناس في المدينة، ١٩١٩، متحف سليمان
روبار جيجهنايم، نيويورك، تصوير روبار ماتاس ٣٤٥

١٠. مستدثب الجرّة الإتروسكانية في سرفاتري، متحف اللوفر،
٣٨٧ تصوير شوزفيل
- ٣٨٧ طبق إتروسكاني، المتحف القومي الإتروسكاني، روما
١١. بول كلي، مكنة الرّزقة، اللون المائي، قلم وحبر، ١٦ / ٤
٥١٧ ١٢"، ١٩٢٢، مجموعة متحف الفن الحديث، نيويورك ..
١٢. صورة العربة الخشبيّة الموجودة في متحف الأرميتاج،
٥٨٥ لينينغراد
١٣. شومال، المعجم الاقتصادي، ١٧٣٢، مقال «حجل» ٧١١
١٤. مجنون في أشرطة، فارمون، ١٨٦٥، ضمن جوناثان
هولشتاين، الحشايا، متحف الفنون الزخرفيّة، باريس،
٧٩٥ ١٩٧٢
١٥. أنشتاين في الحاسوب ٨٤١

فهرس المواد

- ٥ تصدير
- ١٣ موجز
- ١٤ توطئة
- ١٥ ١. مقدمة: جذمور
- جذر، جذير وأرمولة. - مشكلات الكتب. - الواحد والكثرة. -
شجرة وجذمور. - الوجهات الجغرافية، الشرق، الغرب،
أمريكا. - مساوي الشجرة. - ما السطحية؟
- ٥٥ ٢. ١٩١٤ - ذنب واحد أم كثرة من الذئاب؟
- عصاب وذهان. - في سبيل نظرية للكثرات. - اللاوعي
والهبائي.
- ٧٥ ٣. ألف سنة قبل المسيح - جيولوجيا الأخلاق
- الطبقات. - التّفصل المضاعف (أقسومية). - ما يشكّل وحدة
الطبقة. - الأوساط. - تنوع طبقة: الأشكال والمواد، الطبقات
العارضة وشبه الطبقات. - المضمون والتعبير. - تنوع
الطبقات. - الكتلوي والهبائي. - المكنة المجردة والتنضيد:
وضعياتهما المقارنة. - ما بعد الطبقات.
- ١٣١ ٤. ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ - مصادرات اللسانية
- الأمر. - الخطاب اللامباشر. - أوامر، الأفعال والتغييرات

اللاجسدية. - المواقيت. - المضمون والتعبير: المتغيرات في
الحالتين. مظاهر التنضيد. - الثوابت، المتغيرات والتغير
المستمر. - الموسيقى. - الأسلوب. الرئيسي والثانوي. -
التصير. - الموت والإفلات، الصورة وانقلاب العين.

٥. ٥٨٧ قبل الميلاد - ٧٠ بعده - حول بعض نُظم العلامات . ١٩١

النظام الدالّ الاستبداديّ. - النظام الذاتيّ الانفعاليّ. - الهديانان
ومشكل الطبّ النفسيّ. - التاريخ القديم للشعب اليهوديّ. - خطّ
الإفلات والنبوّ. - الوجه، التلقّت، الخيانة. - الكتاب. -
منظومة الذاتية: الوعي والانفعال، الأضعاف. - التخاصم
العائليّ والتخاصم المكتبيّ. - الترداد. - صور اللاتأرضن. -
المكنة المجردة والمبيان. - التوليديّ، التغييريّ، المبيانيّ
والممكنيّ.

٦. ٢٨ نوفمبر ١٩٤٧ - كيف نصنع لأنفسنا جسدا

٢٥١ دون أعضاء؟

جسد دون أعضاء وتموّجات، شدّد. - البيضة. - المازوخية،
الحبّ العذريّ، الطاو. - الطبقات ومسطح القوام. - أنطونان
أرطو. - فنّ التدبير. - مشكل الأجساد الثلاثة. - الرغبة،
المسطّح، الانتقاء والتركيب.

٧. السنة صفر - الوجّهية ٢٧٩

الجدار الأبيض، الثقب الأسود. - المكنة المجردة والوجهيّة. -
الجسد، الرأس والوجه. - الوجه والمشهد. - رواية الحبّ
العذريّ. - مبرهنات اللاتأرضن. - الوظائف الاجتماعية
للوجه. - الوجه والمسيح. - صورتنا الوجه: الأماميّ والجانبيّ،
التحويل. - تفكيك الوجه.

٨ . ١٨٧٤ - ثلاث أقصوصات أو «ما الذي حدث؟» ٣١٩

الرّواية والحكاية: السّرّ. - الخطوط الثلاثة. - قطيعة، صدع، انقطاع. - الزّوج، المضاعف والخفيّ.

٩ . ١٩٣٣ - السياسة المجهرية والأقسوميّة ٣٤٥

الأقسومية البدائية والمتحضرة. - الكتلويّ والهبائيّ. - الفاشية والكليانيّة. - الخطّ ذو الأقسامات والدّفق ذو الكمّات. - غابريال تارد. - الكتل والطّبقات. - المكنة المجرّدة: التحوّل والتقنين التّضافريّ. - ما مركز السّلطة؟. - الخطوط الثلاثة ومخاطر كلّ منها. - الخوف، الوضوح، السلطة والموت.

١٠ . ١٧٣٠ - التّصير - شديدا، التّصير - حيوانا، التّصير -

ما يندّ عن الإدراك ٣٨٧

التّصير. - ثلاثة مظاهر للسّحر: الكثرات؛ اللّامتمي أو الدّخيل؛ التّغييرات. - التّفريد والهديّة: الخامسة مساء... - خطّ الطّول، خطّ العرض ومسّطح القوام. - المسّطحان أو تصوّران للمسّطح. - التّصير - امرأة، التّصير - طفلا، التّصير - حيوانا، التّصير - هبائيّا: مناطق الجوار. - التّصير - ما يدقّ عن الإدراك. - الإدراك الهبائيّ. - السّرّ. - الكثرة، القلّة، الأقلية. - الخاصية الأقلية والّا تناظرية للتّصير: التّصير المضاعف. - النّقطة والخطّ، الذاكرة والتّصير. - التّصير والكتلة. - تقابل المنظومات النّقاطيّة والمنظومات متعدّدة الخطوط. - الموسيقى، الرّسم والتّصيرات. - اللّازمة. - متوالية مبرهّنات اللّاتأرّضن؟ - التّصير ضدّ المحاكاة.

١١ . ١٨٣٧ - في اللّازمة ٥١٧

في الظّلمة، الفبي البيت، باتجاه العالم. - الأوساط والإيقاع. - اللافتة والإقليم. - التعبير بوصفه أسلوبا: الوجوه الإيقاعية،

المشاهد التَّغْمِيَّة. - تغريد الطَّيُور. - الإقليمِيَّة، التَّنْضِيدَات وما
بين التَّنْضِيدَات. - الإقليم والأرض، المولديّ. - مشكل
القوام. - التَّنْضِيد المكنيّ والممكنة المجرّدة. - الكلاسيكية
والأوساط. - الرومنطيقية، الإقليم، الأرض والشعب. - الفنّ
الحديث والكوسموس. - الشّكل والمادّة، القوى والموادّ. -
الموسيقى واللازمات، اللازمة الكبيرة والصّغيرة.

١٢. ١٢٢٧- مبحث الترحلية: مكنة حرب ٥٨٥

قُطبا الدّولة. - لا اختزالية مكنة الحرب وبرّانيتها. - المحارب. -
الرئيسيّ والثانويّ: العلوم الثانوية. - الجسد والعصية. - الفكر،
الدّولة والترحليّة. - المظهر الأوّل: مكنة الحرب والفضاء
المتحرّج. - الدّين. - الشّرق، الغرب والدّولة. - المظهر الثاني:
مكنة الحرب وتشكيل النّاس، العدد المتحرّج. - المظهر الثالث:
مكنة الحرب والاقّعالات المتحرّجة. - الفعل الحرّ والعمل. -
طبيعة التَّنْضِيدَات: الأدوات والعلامات، الأسلحة
والمجوهرات. - التّعددين، التّجوال والترحّل. - الشّعبة المكنية
والسّلالات التكنولوجية. الفضاء الأملس، الفضاء المخدّد،
الفضاء المثقوب. - مكنة الحرب والحرب: تَعَقّد العلاقة.

١٣. سبعة آلاف سنة قبل المسيح- جهاز الاستحواذ ٧١١

دولة العصر الحجريّ القديم. - الجماعات البدائية، المدن،
الدّول والمنظّمات الدّولية. - الاستباق، التّوقّي. - معنى كلمة
«الأخير» (الهامشية). - التبادل والمخزون. - الاستحواذ:
الملكية العقارية (الرّيع)، النظام الضّريبيّ (الضريبة)، الأشغال
العامة (الرّيع). - مشكلات العنف. - أشكال الدّولة والعصور
الثلاثة للحقّ. - الرأسمالية والدّولة. - الإخضاع والاستعباد. -
الأكسيومية ومشكلاتها.

- ١٤ . ١٤٤٠ - الأملس والمخدّد ٧٩٥
- النّموذج التكنولوجيّ (النّسيج) . - النّموذج الموسيقيّ . - النّموذج
البحريّ . - النّموذج الرياضيّ (الكثرات) . - النّموذج الفيزيائيّ . -
النّموذج الإستيطقيّ (الفنّ المترحلّ) .
- ١٥ . خاتمة: قواعد عينيّة ومكنات مجردة ٨٤١
- معجم عربيّ - فرنسيّ ألفبائيّ ٨٦١
- فهرس الاستنساخات ٨٧٣
- فهرس الموادّ ٨٧٥

مكتبة

t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

ماذا في الكتاب؟ فيه كسرٌ مستمرٌ للشائيات والذّهاب إلى الكثرة والتّصير والفرق، وهو ما تعبّر عنه كلّ سطيحاته والسّطيحة العاشرة تخصيصاً. فيه مواجهة للسببيّة الخطيّة وللغائيّة، فيه تأكيد السّطيحة ضدّ الأوج وتأكيد المحايثة في مواجهة التّعالّي، وفي ذلك تأكيد إتيقيّ للبهجة بالدّلالة السبينوزيّة، بهجة جسد دون أعضاء هو مكن الرّغبة. في الكتاب تأكيد على الجذمور وليس على الشّجرة، على الأفقيّ وليس على العموديّ، على ما تحت الأرض وليس على ما فوقها، على الكثرة والمحيط والهامش وليس على المركز. في الكتاب تأكيد على الأملس وليس على المخذّد. الأملس ليس هو المتجانس، إنّهُ فضاء مفتوح، متعدّد الأبعاد. إنّهُ التّنوع المستمرّ، لا تتبع فيه الخطوط النّقاط بل تكون النّقاط تابعة للمسافات، «الفضاء الأملس اتّجاهيّ وليس بُعديّاً أو متريّاً. الفضاء الأملس تملؤه أحداث أو هذيات أكثر من امتلائه بأشياء متكوّنة ومدركة. إنّهُ فضاء أفعالات أكثر من كونه فضاء خصائص. إنّهُ إدراك لمُسيّ عوضاً عن كونه فضاء بصريّاً». في الكتاب بحث في أشكال العنف من عنف الصّراع إلى عنف الجريمة والحرب وعنّف الدّولة.

